الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الحاج لخضر، باتنة -01-

كلية العلوم الإسلامية
قسم: أصول الدين

نيابة العمادة لما بعد التدرج
والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

الإصـــلاح التّربـــــوي عنـد الشّيـــخ محمّـــد عبـــدَه

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه الطور الثالث في العلوم الإسلامية
تخصص: الدعوة والثقافة الإسلامية

إعداد الطالب/
ميلـود قرفـة

إشراف الدكتور/
صـــالح زنـــداقـي

لجنـــة المناقشـــة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعـة الأصلية	الصـــفة
صليحة بن عاشور	أستـــــــــاذ	جامعة باتنـــــة -1-	رئيســـــــا
صالـــح زنداقـــي	أستـاذ محاضر أ	جامعة باتنـــــة -1-	مقـــــــررا
خديجـــــة زردوم	أستـاذ محاضر أ	جامعة باتنـــــة -1-	ممتحنـــــــا
سعيـــدة عبـــاس	أستـاذ محاضر أ	جامعة باتنـــــة -1-	ممتحنـــــــا
عيســـى بوعافيـة	أستـــــــــاذ	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة	ممتحنـــــــا
رمضـان بن بخمة	أستـاذ محاضر أ	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة	ممتحنـــــــا

السنة الجامعية: 1444- 1445هـ/2023- 2024م

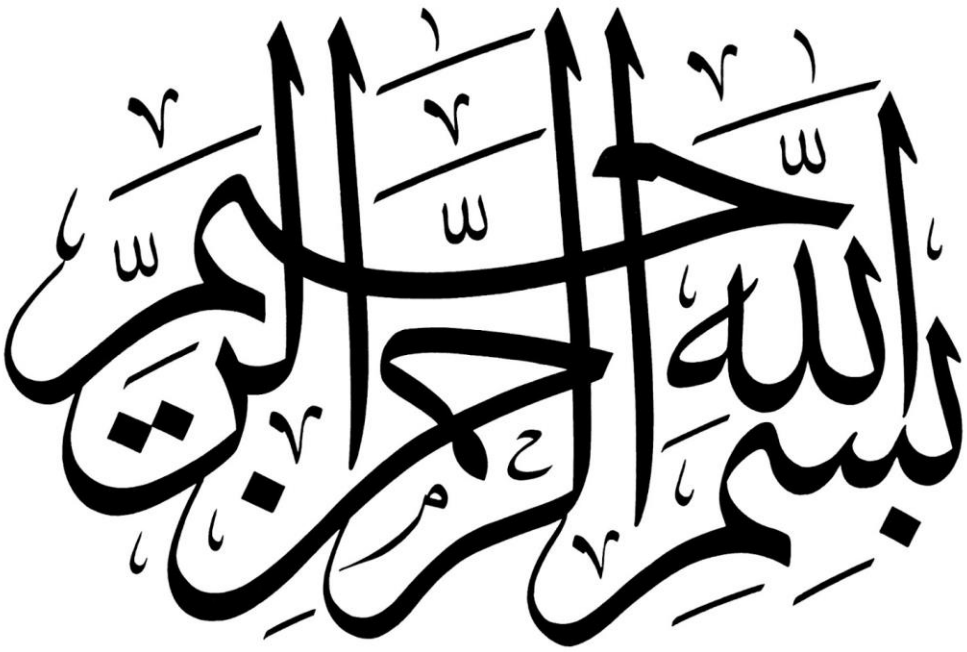
بسم الله الرحمن الرحيم

- قال الله تعالى على لسان شعيب عليه السّلام:

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾

[سورة هود]

- وقال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ١١﴾

[سورة الرّعد].

- وقال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهاَ دِينَهَا»

[رواه أبو داود في سننه].

- قال الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه -رحمه الله تعالى-:

"إنّ الذين يرومون الخير الحقيقيّ لوطنهم، يجب أنْ يُوجِّهوا اهتمامهم إلى إتقان التّربية ونشر التّعليم، إذْ إنّ إصلاحَ نُظم التّربيةِ والتّعليمِ في البلاد يجعلُ وجوهَ الإصلاح الأخرى أكثر يسرا".

- وقال: **"إنّني خُلقت لِأَنْ أكون مُعَلِّما".**

[محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام(1/ 108)].

- قال الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي -رحمه الله تعالى-:

"وقد ارتفعتْ أصواتٌ بالإصلاح الدّينيّ في أقطار الإسلام، وفي حِقبٍ معروفةٍ مِنْ تاريخه، فضاعت بين ضجيج المبطلين، وعجيج الضّالين، إلّا صوت محمّد عبدَه فإنّه اخترق الحدود وكسر السّدود".

[آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، (497/3)].

إهـــــــداء

إلى والديَّ الكريمَيْن:

اللّذان ربّياني وعَلَّمَاني وتعبا مِنْ أجلي حتّى أكون معلّما وصالحا ومصلحا..

ورَحِمَ الله والِدِي برحمته التي وسعتْ كلّ شيء، فاللهمّ اغفر له وارحمه،

وحَفِظَ الله والِدَتي ورعاها، وشفاها مِنْ كلّ الأمراض والأسقام.

إلى زوجتي:

التي صبرت عليّ،

وتحمّلتْ انشغالي ببحثي،

وتولّت تربية وتعليم أولادي..

إلى أولادي:

الذين شُغلتُ عنهم بإعداد الأطروحة؛

محمّد نور، زين العابدين، ساجدة، محسن، وعبد الجليل.

إلى كلّ أساتذتي ومشايخي:

الّذين علّموني وربّوني ونصحوني ووجّهوني حتّى استويت؛ متعلّما ومعلّما وناصحا وموجّها.

إلى كلّ المصلحين:

الّذين رفعوا راية لا إله إلا الله محمّد رسول الله ﷺ، وتولّوا رسالة الإصلاح،

إلى كلّ مسلم غيور على دينه ووطنه وأمّته ينشد الصّلاح والإصلاح.

إلى كلّ مَنْ أعانني وساندني وشجّعني ونصحني ودعا لي بكلّ خير.

إلى كلّ هؤلاء جميعا، أهدي بحثي وثواب عملي،

سائلا الله المولى الكريم أنْ يكون خالصا لوجهه الكريم،

وأنْ يجعله في ميزان حسناتي، وميزان حسنات كلّ مَنْ كانت له يد عليَّ فيه،

إنّه وليّ ذلك والقادر عليه وهو على كلّ شيء قدير.

محبّكم: ميلود قرفة (زهيـر).

شكـر وتقديـر

أتقدّم بالشّكر الجزيل إلى أستاذي الدّكتور صالح زنداقي الذي تفضّل بقبول الإشراف على بحثي مِنْ بدايته إلى نهايته، راجيا مِنَ الله تعالى أنْ يجزل له المثوبة، ويمتّعه بالصّحة والعافية، ويحفظ عليه دينه، ويبارك له في أهله وولده وعلمه وماله، ويختم بالصّالحات أعماله..

كما أشكر لجنة المناقشة الموقّرة التي ستتكرّم عليّ بمناقشة أطروحتي، متمنّيا لها التّوفيق في القول والسّداد في الحكم، وعهدٌ منّي أنْ أكون رهن كلّ ما تقدّمه لي مِنِ انتقادات وملاحظات وتصويبات وتوجيهات، فهي أهل لذلك وأجدر، وأجرها على الله، والله لا يضيع أجر المحسنين.

والشّكر موصول إلى أستاذي الذي بشّرني بنجاحي في مسابقة الدّكتوراه -الأستاذ الدّكتور حسين شرفة-، وإلى كلّ مَنْ فرح لنجاحي، وأعانني في بحثي مِنْ قريب أو مِنْ بعيد بالقول أو الفعل أو التّشجيع أو النّصح أو الدّعاء؛ مِنْ والدَيَّ وأهلي وأولادي وإخوتي، وأساتذتي، وأصدقائي، وطلبتي..

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربّ العالمين،

ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العظيم،

وصلّ اللّهم وسلّم وزد وبارك على سيّدنا
محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مقدّمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله مِنْ شرور أنفسنا، ومِنْ سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضلّ له، ومَنْ يضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حيّ لا يموت وهو على كلّ شيء قدير، وأشهد أنّ محمّدا عبد الله ورسوله صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنّ أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي سيدنا محمّد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النّار، أعاذنا الله منها برحمته ومَنِّه وفضله.

يعدّ البحث في مسألة الإصلاح لدى أعلام ومفكري الأمّة الإسلامية المتقدّمين والمعاصرين مِنَ المسائل الهامّة عند الباحثين والدّارسين المتخصّصين، وهي مِنَ القضايا التي فرضت نفسها في واقع المجتمعات العربية والإسلامية بسبب الاختلالات والأخطاء المتكرّرة في التّجارب الإنسانية في مختلف المجالات والميادين، حيث لا يمكن تجاهلها أو تجاوزها، وذلك لضرورة تحسين حال الأمّة والنّهوض بها، لذا وجب تناول هذه القضية بالبحث والدّراسة واستعراض جهود أعلامنا المصلحين الذين كانت لهم بصمات واضحة وتأثير بَيِّن في السّاحة العربية والإسلامية في العصر الحديث، أمثال الشّيخ محمّد عبدَه الذي ضرب بسهم وافر في الإصلاح عموما والإصلاح التّربوي على وجه الخصوص.

كما أنّ فكرة الإصلاح التي أخذ الشّيخ محمّد عبدَه زمامها، وحمل لواءها منذ وعيه بأدواء أمّته، ومعاينته لواقعها المرير، ومعايشته للظّروف التي شكّلت واقع أمّته الذي استشرى فيه الفساد، ووقوفه على أسباب تخلّفها؛ جعلته يخوض غمار الإصلاح الدّيني والأخلاقي والاجتماعي والسّياسي، ليهتدي إلى ضرورة البدء بالإصلاح التّربوي ثمّ التّوجّه بعده إلى إصلاح بقية المجالات الحيوية الأخرى.

والإصلاح مِنْ مقتضيات الحياة البشرية، فهو لا يتوقّف على إصلاح ما فسد فقط، وإنّما يتعدّاه كذلك إلى تعديله أو تغييره أو تجديده أو إزالته، لتحقيق النّهضة والتّعمير والاستخلاف في الأرض.

لقد اضطلع الشّيخ محمّد عبدَه بمهمّة إصلاح جميع شؤون المسلمين عامّة، وخصّ بالنّقد فلسفة النّظام التّعليمي في المجتمع المصري الذي كانت مناهج التّدريس في مؤسّساته التّربوية تعتني بالمادّة العلمية على حساب التّربية التي لم تكن تهتمّ بها كثيرا، فركّز على إصلاح نظام التّربية والتّعليم، خصوصا وأنّ التّعليم المصري كان مقصورا في الغالب على الذّكور والنّاشئة والشّباب، ومحصورا في إعداد موظَّفين حكوميّين بعيدا عن التّربية، فحمل هَمَّ تكوين نشء وفق مشروع إصلاحي تربوي لإعداد رجال صالحين يحسنون القيام بالمهام الموكلة إليهم، وتمكين الإناث مِنَ التّعليم، لأنّ هذا الأفق كان شبه غائب عن فكر القائمين عليه، لهذا ركّز جهوده على الإصلاح التّربوي، لفاعليته في تقوية الإيمان وتهذيب النّفوس وتزكيتها حتّى يتحقّق النّفع العامّ للمجتمع المصري والأمّة الإسلامية عموما.

وجعل الإصلاح التّربوي أساسا لكلّ إصلاح، واعتبره هو السّبيل النّاجع للإصلاح العقدي والأخلاقي واللّغوي والاجتماعي والاقتصادي والسّياسي، لهذا منذ أنْ وعى بمسؤولياته وواجباته في الحياة؛ قام بتعميق رصيده العلمي والمعرفي والاستزادة منهما، وخَبَرَ واقع أمّته عن قرب، واطّلع على الحضارة الأوروبية المتطوّرة في وقت كان العالم الإسلامي يعيش مخاضا كبيرا لأجل لملمة المتناثر، وإمضاء العزيمة، وتحديد الخيارات، فعمل على إصلاح أمّته تربويا ليتجاوز العوائق ويحقّق النّهضة الحقيقيّة.

وما توجُّهُه إلى الإصلاح بالتّفكير والتّخطيط وتوظيف كلّ الوسائل المشروعة المتاحة والأساليب النّاجعة؛ إلاّ ليقينه بوجود اختلالات ومؤامرات داخلية وخارجية، شكّلت في مجملها تحدّيات متعاظمة زادت مِنْ تعقيد الأزمة وإطالة آماد حلّها، فقاده ذلك إلى الإسهام في أداء واجب الإصلاح الذي أملاه عليه دينه وضميره الحيّ، والاقتداء بأعلام أمّته الأوّلين والآخِرين، الذين أدّوا ما عليهم في ظلّ تحدّيات زمانهم، ليتركوا المجال لمَنْ يأتي بعدهم لإكمال ما بقي منه خدمةً لدينهم ووطنهم وأمّتهم.

وقد قام الشّيخ محمّد عبدَه بواجبه وفق المنهج الذي ارتضاه انطلاقا مِنْ تكوينه التّعليمي والتّربوي، متأثّرا بشيوخه وأساتذته الذين لازمهم وأخذ عنهم، فقد تأثّر بأستاذه جمال الدّين الأفغاني في الإصلاح، رغم أنّه خالفه في منهجه بتقديمه للإصلاح التّربوي على بقية المجالات الأخرى، ثمّ سعى بكلّ ما أُوتي مِنْ جهد لتجسيد الإصلاح وتحقيق النّهضة والرّقي والازدهار لأمّته التي شملته بأفضالها رغم المنغّصات والعراقيل التي لقيها مِنْ بعض أبناء قومه وملتّه، وهو يتمثّل قول ابن الرّومي:

بلادي وإنْ جارت عليّ عزيزة * * * وقومي وإنْ ضنّوا عليَّ كرام.

فالتّربية في الأمّة تمثّل العربة التي تقود قاطرة المجالات الأخرى، وهي مهمّة جدّا ولا تقلّ عنها شأنا، كما أنّ الإصلاح التّربوي قد ينعكس بالإيجاب أو بالسّلب عليها، وقد يحقّق لها النّجاح والتّقدّم ويجعلها في مقدّمة الرّكب متجاوزة ضعفها وتخلّفها وفشلها، لأنّ تخلّف الأمّة دليل على تخلّف تعليمها، وبناء على ما سبق جاءت الدّراسة لتبحث موضوع: **الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه**، الذي ركّز فيه جهده على إرساء التّربية النّاجعة في الأمّة، ومعاينة الممارسات التّربوية الموجودة، وسعيه لتدارك اختلالاتها بإصلاحها، للنّهوض بها وتحقيق التّقدّم والتّطور والسّيادة والاستخلاف في الأرض.

أوّلا: إشكالية البحث

لقد حمل الشّيخ محمّد عبدَه همّ الإصلاح وباشر تنفيذه مِنْ جميع المناصب التي تقلّدها والمسؤوليات التي تولّاها، بعدما رأى وعايش الاختلالات المتنامية في مختلف المجالات وتكاثرها وتعقّدها مع مرور الزّمن، وانعكاس ذلك سلبا على القاعدة والقمّة، وتفشّيها في مختلف المؤسّسات الحكومية في المجتمع، وتسبّبها في عرقلة الأمّة عن النّهوض والتّطوّر وعن تشييد حضارة راقية، فرأى بأنّ التّوجّه إلى إصلاح الأمّة تربويا مِنْ شأنه أنْ يسهم في حلّ مختلف الأزمات المستشرية في جنبات المجتمع المصري، لذلك فكّر في إصلاحها بالتّخطيط والمعالجة والتّنفيذ في خضمّ المعوّقات والعراقيل المحيطة التي كان يغالبها حتّى لا تحول دون تحقيق النّجاحات المأمولة للوفاء بالتزاماته تجاهها.

ولمّا كان الإصلاح متجدّدا وباب الاجتهاد فيه مفتوحا، بسبب تعدّد مجالاته وتغيّر وسائله وتنوّع أساليبه وتطوّر طرائقه، واختلاف مظاهره وأسبابه ودواعيه، وجد الشّيخ محمّد عبدَه نفسه ملزما بالإعداد والاستعداد له، وتوظيف كفاءاته للقيام بالإصلاح عموما وبالإصلاح التّربوي تحديدا.

والإشكالية المطروحة: أنّ عددا غير قليل مِنَ الباحثين في فكر الشّيخ محمّد عبدَه، تركّزت دراساتهم حول فكره الإصلاحي في قضايا الدّين والفكر والاجتماع والسّياسة، دون أنْ يُوَفُّوا جهوده في الإصلاح التّربوي حقّها مِنَ الدّراسة، والتي إذا ما تكلّموا عنها أشاروا إليها إشارات سريعة ومجملة، حتّى

يخال النّاظر أنّه لم تكن له إصلاحات في هذا المجال، فجاءت الأطروحة لبحث موضوع الإصلاحات التّربوية لدى الشّيخ محمّد عبدَه وإماطة اللّثام عنها انطلاقا مِنَ **الإشكالية** الآتية:

ما الجهود الإصلاحية التي قام بها الشّيخ محمّد عبدَه في المجال التّربويّ؟

- ويتفرّع عن الإشكالية الأسئلة الفرعية الآتية:

1- ما مفهوم الإصلاح التّربوي في فكر الشّيخ محمّد عبدَه؟

2- وما دواعي قيامه بالإصلاح التّربوي؟

3- وما المنهج الذي اعتمده واتّبعه فيه؟

4- وما مُخرجات تجربته الإصلاحية في هذا المجال؟

ثانيا: أهمية الموضوع

يستمدّ موضوع البحث أهميته مِنْ كونه يتعلّق بجانب الإصلاح التّربوي في حياة الأمم، باعتباره الأساس المتين لبناء الإنسان وإسعاده، وهو ما شغل اهتمام علماء المسلمين به عبر العصور، مِنْ بينهم الشّيخ محمّد عبدَه الذي أعطى الإصلاح التّربوي قدرا مِنَ العناية والاهتمام؛ كونه يشكّل حلقة محوريّة ضمن حلقات الإصلاح في المجالات الأخرى للنّهوض بالأمّة.

وبالإضافة إلى ما سبق يكتسب موضوع البحث أهمّية أخرى في منهج الإصلاح التّربوي وفق منظور الشّيخ محمّد عبدَه الذي دمج فيه بين الأصالة في المحافظة على خصوصيات الأمّة الإسلامية، والمعاصرة بما توصّل إليه الإصلاح التّربوي في زمانه، والمزاوجة بينهما مِنْ حيث المصادرُ والوسائلُ والمجالاتُ والخصائصُ، وهو ما يمكن اعتباره منهجا خاصّا به يدعو فيه إلى التّجديد ومحاربة الجمود والتّقليد المستحِكِمَيْنِ في مختلف المؤسّسات التّربوية والدّينية.

ثالثا: أسباب اختيار الموضوع

مِنْ أهمّ الأسباب التي دفعتني إلى بحث الموضوع؛ أسباب ذاتية وأخرى موضوعية و تتمثّل في:

أ)- الأسباب الذّاتية

1- ميولي الكبير إلى دراسة السّير الذّاتية لروّاد الفكر والإصلاح في العالم العربي والإسلامي، والتّعرف على الجوانب المشرقة في حياتهم، والاستزادة العلمية والمعرفية منهم، والاجتهاد في التّأسي بهم، والتّعريف بهم، وإطْلَاع المهتمّين بهم على مجهوداتهم الإصلاحية، وإبراز إسهاماتهم في التّغيير والنّهضة.

2- الاطلّاع على ما كتبه الباحثون حول الإصلاح عموما والإصلاح التّربوي خصوصا ولَمِّ شتاته.

3- رغبتي الملحّة في متابعة الدّراسات الدّعوية بحكم تخصّصي في الدّعوة الإسلامية.

ب)- الأسباب الموضوعية

1- المكانة العلمية التي تبوأها الشّيخ محمّد عبدَه في مختلف مجالات الإصلاح والإصلاح التّربوي على وجه التّحديد، ممّا جعل فكره الإصلاحي نواة للحركة الإصلاحية الحديثة في العالم العربي والإسلامي.

2- تأثير مدرسة الشّيخ محمّد عبدَه في قطاع عريض في العالم العربي والإسلامي، ودعوة أنصارها إلى اتّباع منهجها الإصلاحي.

3- قلّة الدّراسات الأكاديمية حول منهج الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه؛ الأمر الذي دعاني إلى بحث الموضوع وتجليته أكثر، ولَمِّ شتاته وتقييم تجربته الإصلاحية بإبراز أهمّ مخرجاتها.

رابعا: أهداف البحث

يمكن إجمال الأهداف التي ترمي إليها دراسة الموضوع في النّقاط الآتية:

1- الإجابة على إشكالية الدّراسة الرّئيسة وما تفرّع عنها مِنْ تساؤلات.

2- إبراز إسهامات جهود الشّيخ محمّد عبدَه في الإصلاح التّربوي، وتوضيح معالم منهجه الإصلاحي باعتباره أحد رواد الحركة الإصلاحية في العصر الحديث.

3- بيان أثر الفكر الإصلاحي للشّيخ محمّد عبدَه على خريطة العالم العربي والإسلامي.

4- لَمُّ شتات موضوع الإصلاح التّربوي لدى الشّيخ محمّد عبدَه، وإخراجه في رسالة أكاديمية والإسهام بها في إثراء المكتبة العربية والاسلامية.

5- تقييم تجربة الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية، وإبراز أهمّ مخرجاتها ببيان إيجابيّاتها وسلبيّاتها.

خامسا: منهج البحث

طبيعة موضوع البحث اقتضتْ توظيف المنهج التّاريخي في تتبّع مسيرة الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية للوصول إلى الحقائق التّاريخية والبيانات التي دُوِّنَتْ عنها في الماضي، بعرضها ونقدها والتّأكّد مِنْ صحّتها وبلورتها لبلوغ النّتائج المقبولة، واعتماد المنهج التّاريخي كان للإجابة على إشكالية البحث والأسئلة المتفرّعة عنه، لكون عملية الإصلاح ينبغي أنْ يسبقها استكشاف معطيات وخلفيات الواقع التّربويّ المصريّ، وتتبّع جهود الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية منذ وعيه برسالته في الحياة إلى غاية وفاته، حتّى يتمّ الإحاطة والإلمام بالظّروف الدّينية والعلمية والفكرية والاجتماعية والسّياسية المحيطة به والتي سبقت مجيئه، وكذا الواقع الذي عايشه في فترة الطّلب ووعيه بالوضع التّربويّ المتردّي الذي جعله يقتنع بضرورة مباشرة إصلاحه قبل إصلاح المجالات الأخرى، وتأسيس مدرسةٍ تحملُ لواءهَ بعد وفاته لبلوغ وتحقيق غاياته المقصودة.

كما وظّفتُ المنهج الوصفيّ لتناسبه مع مثل هذه الدّراسات المتعلّقة بجهود المصلحين لإبرازها والخلوص إلى مخرجاتها للعمل بالإيجابيّ منها وترك سِلبيّها، وفيه استعنتُ بالمنهج التّحليليّ لتفكيك عناصر موضوع البحث الأساسية إلى أجزائها ودراستها، وتجلية الأفكار التي طرحها، والملابسات التي جعلته يتبنّاها ويدعو إليها، ولسبر أغوار الواقع التّربويّ وأحداثه، ومواقف الشّيخ محمّد عبدَه منه، وفلسفته فيه، ومبرّرات لجوئه إلى الإصلاح التّربويّ، والأهداف التي رسمها، لتخليص أمّته مِنْ واقعها المزري الذي رَتعتْ فيه ردحا مِنَ الزّمن.

سادسا: منهجية كتابة البحث

تتلخّص منهجية كتابة البحث في النّقاط الآتية:

1- اعتمدت في كتابة الآيات القرآنية على مصحف المدينة النّبوية للنّشر الحاسوبي الإصدار: [2.1]، مجمّع الملك فهد لطباعة المصحف الشّريف، برواية حفص عن عاصم، وقد وثّقتها في متن البحث.

2- كتبتُ الأحاديث النّبوية بخط غليظ مشكولة بين مزدوجين«...»، وذكرتُ رواتها في المتن، أمّا بقية المعلومات فهي مفصّلة في الهامش، حيث قمتُ بتخريجها فيه مِنْ كتب الحديث الخاصّة بها؛ بذكر المؤلّف، ثمّ المؤلَّف، ثمّ الكتاب، ثمّ الباب، ثمّ الجزء، ثمّ الصّفحة، ثمّ رقم الحديث.

3- خصّصتُ كلّ ورقة بتهميش مستقل، واتّبعتُ في التّهميش الطّريقة الآتية؛ اسم المؤلّف، ثمّ اسم الكتاب، ثمّ اسم المحقّق إنْ وجد، ثمّ اسم الدّار، ثمّ سنة النّشر، ثمّ الطّبعة، ثمّ الجزء إنْ وجد، ثمّ الصّفحة، وعند عدم ذكر الدّار أو الطّبعة أو التّاريخ؛ أرمز إليها بالآتي: (د د)، (د ط)، (د ت).

4- عند أوّل ذكر للمصدر أو المرجع في الهامش؛ أذكر كامل معلومات النّشر المتعلّقة به، وإذا تكرّر ذكره، فإنّني أقتصر على اسم المؤلّف، ثم عنوان الكتاب، والجزء إنْ وجد، ثمّ الصّفحة.

5- إذا تكرّر ذكر المصدر أو المرجع مباشرة في الصّفحة نفسها أعبّر عنه بصيغة: المصدر نفسه أو المرجع نفسه مع ذكر الجزء والصّفحة، وإذا تكرّر وفَصَلَ بينهما مصدر أو مرجع آخر أقول: المصدر السّابق أو المرجع السّابق بصيغة التّعريف، أمّا إذا ورد المصدر أو المرجع الذي ذُكِرَ في الصّفحة أو الصّفحات السّابقة؛ أعبّر عنه بصيغة التّنكير هكذا: مصدر سابق أو مرجع سابق.

6- عند الإحالة في التّوثيق في الهامش بلفظة(ينظر): فهذا يعني أنّ الكلام المقتبس في المتن نقلته بتصرّف، أمّا إذا ذكرتُ المصدر أو المرجع مباشرة دون لفظة(ينظر)، فهذا يعني أنّ النّقل حرفي.

7- عند النّقل مِنْ صفحتين متتاليتين أو غير متتاليتين أربط بينها بحرف عطف(و) هكذا: ص1و2، أو 1و4، 1و8و10، وعند النّقل مِنْ عدّة صفحات متتالية أربط بينها بـ: مطّة هكذا: 1- 4، 10- 15.

8- وضعتُ تعريفات موجزة في هامش البحث للعلماء والمفكّرين والسّاسة والمستشرقين، ثمّ أفردتُ لها فهرسا خاصّا بها في نهاية الأطروحة بعد فهرس الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النّبوية الشّريفة.

9- وضعتُ قائمة للمصادر والمراجع بعد الخاتمة، ثمّ أتبعتها بملحق للفهارس الفنّية وفق التّرتيب الآتي: فهرس الآيات القرآنية، فهرس الأحاديث النّبوية، فهرس الأعلام المترجم لهم ثمّ فهرس الموضوعات.

سابعا: الدّراسات السّابقة

بعد اختياري لموضوع؛ **الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه** مِنْ بين الموضوعات التي اقترحَتْها عليّ لجنة التّكوين بالجامعة لإعداد أطروحتي؛ شرعتُ في قراءة ما كتبه الباحثون حول الموضوع، إذْ لم أقف على دراسات أكاديمية مستقلّة أفرَدَتْهُ بالبحث، وقصارى ما وجدته تناول دراسة جهود الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية في جوانبها الفكرية أو الدّينية أو التّربوية أو الأخلاقية أو الاجتماعية أو السّياسية، وفيها كانت إشارات جزئية إلى موضوع بحثي، فرجعتُ إليها، ثمّ أفردتُّه بدراسة مستقلّة لعلّي أوفّيها حقّها مِنَ البحث والدّراسة، ومِنْ بين تلك الدّراسات ما يأتي:

1- أطروحة دكتوراه بعنوان: **رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه**، **للباحث عثمان أمين**، بقسم الفلسفة، جامعة القاهرة، طبعتها الهيئة المصرية العامّة للكتاب بالقاهرة سنة 2015م، ألّفها في أربعينات القرن الماضي، نُشرت في الذّكرى الخمسين لوفاة الشّيخ محمّد عبدَه سنة 1955م، صَدَّرَ لها الدّكتور عاطف العراقي في الصّفحة 10 بقوله: "إنّه -الكتاب- يعدّ دراسة أكاديمية على مستوى رفيع"، وقال عنها في الصّفحة 12: "إنّ أيّةَ دراسة عربية عن الشّيخ الإمام في المستقبل، لن يكون بإمكانها

التّغافل عن الدّراسة القيّمة التي كتبها الدّكتور عثمان أمين"، وفي الصّفحة 22 مِنَ الأطروحة كتب الشّيخ مصطفى عبد الرّازق سنة 1945م رسالة إلى تلميذه عثمان أمين قال له فيها: "صديقي الأستاذ الدّكتور عثمان أمين...قَرأتُ رسالتَك لمّا أتمَمْتَها، وكنتُ حاضر مناقشتها حين تقدّمتَ بها لنيل الدّكتوراه، فكنتُ مِنْ أشدّ النّاس سرورا بك وإعجابا بمصنَّفك الممتاز الذي يُبرز صورةً للشّيخ عبدَه صادقة ناطقة، ويحيط بكلّ الجوانب مِنْ نشاطه الإصلاحي المترامي الأطراف، وإنّ كتابك ليسدّ ثغرة في الدّراسات المتّصلة بالشّيخ عبدَه، وفي الدّراسات المتّصلة بتاريخ نهضتنا الفكرية والاجتماعية الحديثة مِنْ ناحية أثر الشّيخ عبدَه فيها".

وقد جاءت الأطروحة فيما يقارب مِنْ أربعمائة صفحة اشتملت على أربعة أبواب وخاتمة، ذكر بأنّ أهل المعرفة المصريّين لم يبالوا بممثّلي الحياة العقلية ووقفوا منهم موقفا سلبيا، وبادر إلى بعث فكر النّخب المصرية بعدما أشعل في نفسه أستاذه مصطفى عبد الرّازق القبس الرّوحي الذي تلقّاه مِنْ شيخه محمّد عبدَه، وعكف على دراسة آرائه وإذاعة مذهبه الفكري الذي كان له أعمق الأثر في النّهضة الفكرية الحديثة التي قامت في مصر وفي الشّرق الإسلامي بسبب تأثير تعاليمه في الدّين والأخلاق والتّربية والاجتماع والسّياسة، لكنّه لم يعرض فكر الشّيخ محمّد عبدَه عرضا وافيا، وإنّما حاول تأويله تأويلا فلسفيا كما قال، ثمّ خصّص الباب الأوّل للحديث عن سيرة الشّيخ محمّد عبدَه فتحدّث فيه عن شبابه وعودته مِنَ المنفى وشخصيته، وخصّص الباب الثّاني للحديث عن فلسفة الشّيخ محمّد عبدَه الذي كان -حسبه- فيلسوفا ومنطقيا له مذهب يدعو إلى تزكية الصّفات الأخلاقية، وأنّه كان ناقدا للأفكار والمعتقدات والأخلاق والأنظمة التّقليدية الفاسدة في المجتمع، وأمّا الباب الثّالث فتناول فيه مذهبه في الإصلاح، فقال بأنّ أغلب مَنْ كتبوا عن سيرته ذكروا بأنّ أهمّ رسالة اضطلع بها هي الإصلاح الدّيني، لكّنه استدرك عليهم بأنّ الإصلاحات التي قام بها سواء كانت دينية أم اجتماعية أم سياسية كانت دواعيها أخلاقية، ليخلص بأنّ الشّيخ محمّد عبدَه كان مصلحا أخلاقيا، وهنا أشار إلى أنّ الإصلاح التّربوي لا يكاد ينفكّ عن الإصلاح الأخلاقي، وفي هذا الباب تقاطعت رسالته مع موضوع بحثي، حيث أفدتُّ منها نتوفا في الإصلاح التّربوي الذي خصّصتُ له أطروحة كاملة لعلّي أوفّي الموضوع حقّه مِنَ البحث، فهو لم يخصّه بدراسة مستقلّة، وإنّما تحدّث عنه ضمنا في فصول هذا الباب عندما تكلّم عن الإصلاح الأخلاقي، فذكر بأنّه لمّا تصدّى لإصلاح مناهج التّعليم الأزهري قام به بغية الإصلاح الأخلاقي للمجتمع المصري، وأنّ ما قام به مِنْ إصلاح دينيّ كان وسيلة لتحقيق الإصلاح الأخلاقي، وأنّه لمّا فقد الثّقة في الإصلاح السّياسي بعد توقيف مجلة العروة الوثقى، اقترح على جمال الدّين الأفغاني إنشاء مدرسة لتربية الشّباب لتحقيق الإصلاح الأخلاقي، وبادر بإصلاح التّعليم لأنّه -في نظره- شرط لتقويم الأخلاق، وأمّا الباب الرّابع فقد خصّصه للحديث عن إشعاعاته في مصر مِنْ خلال سرده للمدارس الإصلاحية المنبثقة عنه، وكذا نفوذه الرّوحي في سائر بلاد العالم الإسلامي دانيه وقاصيه، والرّسالة قيّمة في بابها استفدت منها كثيرا في إعداد موضوع بحثي.

2- أطروحة دكتوراه بعنوان: **الشّيخ محمّد عبدَه وآراؤه في العقيدة الإسلامية -عرض ونقد- للباحث حافظ محمّد حيدر الجعبري**، إشراف الأستاذ الدّكتور سليمان دنيا، وهي أطروحة تقدّم بها الباحث

إلى كلّية الشّريعة والدّراسات الإسلامية بجامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة لنيل درجة الدّكتوراه في الشّريعة الإسلامية، فرع العقيدة، سنة 1402هـ الموافق لـ:1982م، وقد جاءت في مقدّمة وأربعة أبواب وخاتمة، عرض فيها الآراء العقدية للشّيخ محمّد عبدَه ونَقَدَها، وقد استفدتُ منها في إثراء بحثي الذي يتقاطع مع رسالته في فصلها السّادس مِنَ الباب الأوّل الذي أوضح فيه مذهبَ الشّيخ محمّد عبدَه في الإصلاح، فجاءت دراستي لتتوسّع فيه وتحاول أنْ تكمّل جوانبه في دراسة مستقلّة، وهو ما قمتُ به لأثبتَ بأنّه مِنْ رواد الإصلاح التّربوي الذي ضرب فيه بسهم وافر، وقد ذكر الباحث في هذا الفصل بأنّ الشّيخ محمّد عبدَه توجّه إلى إصلاح الفكر وتجديده وحمايته مِنَ الجمود والتّقليد، وعمل على إصلاح أساليب اللّغة العربية في المؤسّسات التّربوية، ونشط في تربية المسلم الصّالح المواكب لعصره، ودعا إلى مراعاة القيم الإسلامية والتّمسك بالأخلاق الفاضلة في التّربية، كما حارب الكتب التي تحجب العقل عن رؤية الحياة المعاصرة وتطوّراتها، ودعا إلى إحياء التّراث وتوظيفه في الإصلاح، فكانت أطروحة الباحث قيّمة في شقّها العقدي، إلاّ أنّ الإصلاح التّربوي الذي أخذ مِنْ فكر وجهد ووقت الشّيخ محمّد عبدَه لم يُوفِّه الباحث حقّه، واكتفى بإشارات خفيفة إليه أفدت منها شيئا قليلا، لأحاول مِنْ خلال أطروحتي إشباع موضوع الإصلاح التّربوي الذي قام به الشّيخ محمّد عبدَه بحثا ودراسة وتقييما.

3- أطروحة دكتوراه بعنوان: **التّجديد عند محمّد عبدَه، للباحث حملاوي مهتور**، تحت إشراف الأستاذ الدّكتور رابح مراجي، تقدّم بها لنيل درجة دكتوراه العلوم، في قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، في جامعة قسنطينة 02 عبد الحميد مهري، السّنة الجامعية: 2019/2018م، وقد قسّمها الباحث إلى مقدّمة وستّة فصول وخاتمة، حيث خصّ الفصل الأوّل بالحديث عن أوضاع المجتمع المصريّ في زمن محمّد عبدَه وأصول فكره، وفي مباحثه الثّلاثة حاول الإحاطة بالأوضاع السّياسية والاجتماعية والاقتصادية وبيان الأثر الذي تركَتْه على فكره، بعدها عرض أصول فكره، وفي الفصل الثّاني تكلّم عن مفهوم وأسس التّجديد الدّيني عند محمّد عبدَه، وقد قسّمه إلى أربعة مباحث ذكر فيها مفهوم التّجديد الدّيني لديه، والذي يعني العودة إلى كليات الدّين وأصوله ومنابعه الأولى، وأنّه يقوم على ثلاثة أسس تتمثّل في تحرير الفكر مِنَ التّقليد، وضرورة الجمع بين الدّين والعلم، والعودة إلى الإسلام لفهم الدّين، وفي المبحث الثّالث منه تكلّم عن تجلّياته المتمثّلة في تفعيل العقل في الحياة الدّينية وتجديده بتفسير القرآن، ليختمه بالمبحث الرّابع الذي عقّب فيه على التّجديد الدّيني عند الشّيخ، وأمّا الفصل الثّالث الذي يتقاطع مع موضوع أطروحتي؛ فقد خصّصه للحديث عن التّجديد التّربوي في فكر الشّيخ محمّد عبدَه، حيث قسّمه إلى ثلاثة مباحث تناول في المبحث الأوّل منها مفهوم التّربية اللّغوي والاصطلاحي ومفهومها مِنْ منظور تاريخي عند الرّومان واليونان وفي العصر الوسيط عند المسيحيين والمسلمين، ثمّ مفهومها لدى فلاسفة العصر الحديث، ثمّ ذكر مفهومها في فكر الشّيخ محمّد عبدَه، ليتناول في المبحث الثّاني مفهوم التّجديد التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه ومشروعه فيه في الشّام ومصر، ليختم المبحثين بالتّعقيب عليهما بمبحث ثالث، والفارق بين الأطروحتين؛ أنّ الباحث خصّص فصلا عن التّجديد التّربوي، في حين بسطتُ الكلام في أطروحتي كلّها عن إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية، ومع ذلك لم أعدِم الفائدة مِنَ أطروحته التي كانت

مفيدة في الجوانب التي بحثها، وقد أفادني هذا الفصل في إثراء موضوع الإصلاح التّربوي الذي لم أقف -فيما أعلم- على دراسة مستقلّة حوله، فقد تكلّم الباحث عن الفكر التّجديدي للشّيخ محمّد عبدَه باعتباره أحد رواد الإصلاح الذين دَعَوْا إلى تحرير الفكر مِنْ قيود التّقليد، والثّورة على الواقع المتخلّف وما يتطلّبه لإعادة تشكيل وعي الأفراد والمجتمع لتحرير الأمّة والنّهوض بها، مشيرا إلى القضايا التّربوية التي تنبئ عن قيامه ببعض الإصلاحات فيها، فجاءت دراستي لتميط اللّثام عن هذا المجال الذي أسهم فيه الشّيخ محمّد عبدَه إسهاما محترما، فأفادتني الدّراسةُ في إثراء موضوع بحثي، وأمّا الفصل الرّابع فقد خصّصه لدراسة التّجديد الاجتماعي بذكر أسسه وقضاياه ثمّ ختمها بالتّعقيب عليها، وفي الفصل الخامس تحدّث عن مفهوم التّجديد السّياسي عند الشّيخ محمّد عبدَه وقضاياه، ومفهوم السّياسة لديه وموقفه منها، ليختم أطروحته بالفصل السّادس الذي تكلّم فيه عن صدى الفكر التّجديدي للشّيخ محمّد عبدَه في مصر وفي خارجها وأثره على الفكر العربي، ومختلف المدارس المصرية الدّينية والسّياسية والاجتماعية التي خرجت مِنْ تحت عباءة فكره التّجديدي.

4- رسالة ماجستير بعنوان: **جدلية العلاقة بين التّربية والسّياسة عند محمّد عبدَه، للباحثة منتهى عبد جاسم**، تحت إشراف الدّكتورة فضيلة عباس مطلك، تقدّمتْ بها الباحثة لنيل درجة الماجستير في قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة بغداد، السّنة الدّراسية: 2002- 2003م، وهي رسالة صغيرة الحجم تتكوّن مِنْ مائة واثنتين وخمسين صفحة، جعلتْها في مقدّمة وثلاثة فصول وخاتمة، تناولتْ في الفصل الأوّل الذي قسّمَته إلى ثلاثة مباحث؛ نشأته وحياته والتّأثيرات الفكرية عليه وعلى منهجه التّجديدي، وفي الفصل الثّاني عرضَتْ آراءه التّربوية في ثلاثة مباحث، جاء في الأوّل منها: نظريته التّربوية وفي الثّاني: الطّابع العملي لآرائه التّربوية، وفي الثّالث: الدّيمقراطية والطّبقية في بعض مفاهيمهما التّربوية، وخصَّصَتْ الفصل الثّالث للحديث عن فكره السّياسي في ثلاثة مباحث؛ تطرّقتْ في المبحث الأوّل منها إلى العوامل المؤثّرة في صياغة فكره السّياسي، وفي الثّاني تكلّمَتْ عن فكره السّياسي، ثمّ خصّصتْ المبحث الثّالث للحديث عن جدلية العلاقة بين التّربية والسّياسة في فكر الشّيخ محمّد عبدَه، لتشترك أطروحتي مع رسالة الباحثة في الفصلين الثّاني والثّالث، حيث عرضتْ الباحثةُ نظرية الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية واجتهاده في ترجمتها عمليا، ثمّ أشارتْ إلى علاقة بعض المفاهيم السّياسية بالتّربية، وقد استفدتُ مِنْ رسالتها التي تكلّمتْ عن جدلية العلاقة بين التّربية والسّياسة وجهوده في المجالين دون أنْ تُفَصِّل الحديث عن جهوده المبذولة في الإصلاح التّربوي الذي قام به عند مزاولته للتّربية والتّعليم الذي أحبّه وأفاد به المجتمع المصري وهو القائل: "إنّما خُلقت مُعَلِّما"، فتوسّعتْ أطروحتي في الكلام عن إصلاحاته التّربوية التي أشرتُ فيها إلى العلاقة بين التّربية والسّياسة التي تناولتْها الباحثة في رسالتها، وبيّنتُ كيف جعل الشّيخ محمّد عبدَه مِنَ الإصلاح التّربوي وسيلة للإصلاح السّياسي، بتوظيفه للمناصب السّياسية التي تقلّدها في ممارسته للسّياسة بهدوء، حتّى لا يعكّر صفو السّلطتين المصرية والإنجليزية، وحتّى لا يمنعونه مِنْ تجسيد خياراته التّربوية التي علّق عليها آماله في النّجاح ولو على المدى البعيد، على اعتبار أنّ طريق التّربية أَأْمَنُ مِنْ طريق السّياسة.

لقد تقاطعت أطروحتي مع رسالة الباحثة عند إشارتي في ثنايا موضوع بحثي إلى العلاقة بين التّربية والسّياسة في مسيرة الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية التي ماجت بين مدّ وجزر التّربية والسّياسة، لأنّ بدايته كانت تربوية خلال فترة طلبه للعلم، ثمّ تَوَّجَهَا بسلوك منهج أستاذه جمال الدّين الأفغاني السّياسي والثّوري الذي تأثّر به غداة لقائه به سنة 1869م، أمّا بعد نَفْيِ أستاذه مِنْ مصر سنة 1871م وقيام الثّورة العُرابية وانهزام المصريّين واحتلال الإنجليز لبلدهم سنة 1882م ونفيه هو أيضا والتحاقه بأستاذه في باريس، استمرّ في الاشتغال مع أستاذه بالسّياسة، لكن بمجرّد عودته مِنَ المنفى إلى مصر سنة 1888م، تَرَكَ السّياسة ورمى بثقله في الإصلاح التّربوي والدّيني إلى أنْ توفّاه الله تعالى.

5- ورسالة دكتوره بعنوان: **الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه وآلياته في تطوير التّعليم، للباحث محمّد فوزي عبد المقصود**، طبعة دار النهضة العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (د ط)، (د ت)، وقد ذكر الباحث في هذه الدّراسة بأنّ عوامل نهضة المجتمع وتقدّمه يكون باتّباع سبيل التّربية، وأنّها -أيْ التّربية- هي السّبيل الأمثل لتحقيق نهضة المجتمعات وتطويرها، فعالج قضاياها مِنْ منظور شامل متكامل، وأوضح أهمّيتها وأهدافها، وأبرز وسائطها، وقام بتحليل عناصر المنظومة التّعليمية، ثمّ سلّط الضّوء على الفكر التّربوي للشّيخ محمّد عبدَه الذي جعله آلية فاعلة لإصلاح المجتمع المصري للارتقاء به نحو الأفضل، مركّزا عليها كمنطلق لإصلاح المجالات الأخرى التي اكتستْ طابع الأولوية عند البعض الآخر مِنَ المصلحين، فحاول صاحب الدّراسة بَعْثَ فكر الشّيخ محمّد عبدَه التّربويّ لاعتماده في الإصلاح، ولمّا لم يُفْرِدِ الباحثُ إصلاحات الشّيخ التّربويّة بالبحث، جاءتْ أطروحتي لِتَخُصَّ جهوده الإصلاحية في المجال التّربوي بالبحث وتتوسّع فيها وتبرز أركانها جليّة.

وبالإضافة إلى الدّراسات السّابقة التي تيسّر لي الاطّلاع عليها والاستفادة منها في إعداد أطروحتي، رجعتُ أيضا إلى أطروحات ورسائل ودراسات أخرى لتعميق البحث في موضوع الإصلاح التّربويّ لدى الشّيخ محمّد عبدَه، منها: رسالة ماجستير للباحث ناصر بن عبد الكريم العقل بعنوان: الاتّجاهات العقلانية الحديثة، إشراف الدّكتور عبد الرّحمان راتب عميرة، ودراسة بعنوان: التّيارات السّياسية والاجتماعية بين المجدّدين والمحافظين -دراسة تاريخية في فكر الشّيخ محمّد عبدَه-، إعداد سليمان بيومي، إشراف الدّكتور يونان لبيب رزق، ودراسة بعنوان: العصرانيّون بين مزاعم التّجديد وميادين التّغريب، للباحث محمّد حامد النّاصر وغيرها مِنَ الدّراسات الأخرى المهمّة في هذا المجال الحيويّ.

والملاحظ على تلك الدّراسات أنّها أشارتْ إلى موضوع الإصلاح التّربويّ دونما تفصيل، لكنّها لم تُفردْه ببحث مستقل، لذا حاولتُ بأطروحتي إماطة اللّثام عن الإصلاح التّربويّ ببيان منهج الشّيخ محمّد عبدَه فيه، ولَمِّ شتاته ونظمه في دراسة مستقلّة تتيح للباحثين الاطّلاع عليها والاستفادة منها.

ثامنا: مصادر البحث ومراجعه

رغم كثرة الدّراسات حول الموضوع، إلّا أنّني اعتمدتُ في إعداده على أهمّ المصادر الآتية:

1- تاريخ الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه، للسيّد محمّد رشيد رضا، وهو في ثلاثة أجزاء.

2- الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، تقديم وتحقيق الدّكتور محمّد عمارة في خمسة أجزاء.

3- رسالة التّوحيد، تأليف الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه، نسخة بتعليق تلميذه السيّد الإمام محمّد رشيد رضا، ونسخة أخرى بتحقيق وتعليق المحقّق الدّكتور محمّد عِمارة.

4- الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية، تأليف الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه.

5- الإسلام بين العلم والمدنية، تأليف الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه،

6- مذكّرات الإمام محمّد عبدَه، تقديم وتعليق طاهر الطّناحي.

7- عبقري الإصلاح والتّعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، تأليف الأستاذ عبّاس محمود العقاد.

8- أعمال ومناقشات النّدوة الفكرية المنعقدة بمكتبة الإسكندرية بين:4و2005/12/5م، بعنوان: الإمام محمّد عبدَه مائة عام على رحيله(1905-2005م)، تحرير:إبراهيم البيومي غانم وصلاح الدّين الجوهري.

تاسعا: الصّعوبات

يحتاج البحث العلمي إلى تفرّغ وصفاء ذهن ومُناخٌ ومَناخٍ مناسِبَيْن حتّى يتوافق مع معايير وقوالب البحث العلمي الذي لا يخل مِنْ صعوبات، خصوصا إذا أقدم عليه مَنْ كانت لديه التزامات إدارية وأسْرية، وأنا مِنْ هذا الصّنف، فقد لاقيتُ جملة مِنَ الصّعوبات خلال إعدادي للأطروحة التي أخذَتْ مِنْ جهدي ووقتي ومِنْ عمري خمس سنوات(2018- 2023م)، فالالتزامات الإدارية التي تورّطتُ فيها، كانت تطاردني في حِلّي وترحالي وفي يقظتي ونومتي، بالإضافة إلى الطّوارئ الصّحّية التي كانت تُلمّ بي وبوالديّ مِنْ حين لآخر، والتي كانت على حساب جودة البحث العلميّ الذي كنت آمل أنْ يكون على غير ما هو عليه الآن، وصادفتُ صعوبات أخرى تمثّلتْ في كثرة البحوث والدّراسات والكتابات التي تناولتْ شخصية الشّيخ محمّد عبدَه وجهوده الإصلاحية، التي بذلتُ فيها قصارى جهدي حتّى استخلص منها إصلاحاته التّربوية، وأخذتْ منّي وقتا كبيرا للاطّلاع عليها وأخذِ ما يخدم موضوع بحثي، فجمعتُ مادّة علمية كثيرة، وعند الشّروع في تنسيقها أخذَتْ منّي جهدا كبيرا ووقتا طويلا لترتيبها وتلخيصها وتنقيحها وحذف المكرّر منها، وإزالة ما لا صلة له بها، كما منعتني التزاماتي الإدارية مِنْ قراءة الكتب الورقية بمكتبة الجامعة، واكتفائي بمكتبة المعهد الحديثة ومكتبتي المتواضعة الخاصّة، واعتمادي بنسبة كبيرة على الكتب الإلكترونية المتاحة في الشّبكة العنكبوتية، وحتّى هذه الأخيرة لم يتيسّر لي الوصول مِنْ خلالها إلى بعض الكتب الإلكترونية التي وجدتها في هوامش بعض المصادر والمراجع، ولم أجدها في محرّك البحث(قوقل) لتنزيلها وقراءتها والأخذ منها.

عاشرا: خطّة البحث

لإنجاز البحث وتوزيع مادّته العلمية على فصوله؛ وضعت خطّة متكوّنة مِنْ مقدّمة وفصل تمهيدي وثلاثة فصول وخاتمة، حيث جاء في الفصل التّمهيدي بيانٌ لمفاهيم الدّراسة، وفي الفصل الأوّل عرضٌ مفصّلٌ للحياة الشّخصية للشّيخ محمّد عبدَه وأحوال عصره ودواعي إصلاحاته التّربوية، في حين تناول الفصل الثّاني خصائص إصلاحاته التّربية، وأمّا الفصل الثّالث فقمت فيه بذكر أهمّ المخرجات الإيجابية والسّلبية لتجربة الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية.

عَرّفتُ في المقدّمة بموضوع البحث، ثمّ طرحت إشكاليته والأسئلة الفرعية التي ستجيب عنها فصول ومباحث ومطالب البحث، ثمّ بيّنتُ أهمّيته والأهداف المرجوّة منه، كما أورتُّ أهمّ الأسباب التي

دفعتني إلى اختياره، بعدها ذكرتُ المنهج الذي اعتمدته في إنجازه ومنهجية كتابته، ثمّ قمتُ بعرض بعض الدّراسات السّابقة التي دارت حوله وتقاطعتْ مع بعض جوانبه، بعدها أشرتُ إلى أهمّ المصادر التي اعتمدتُها في إعداده، وكذا الصّعوبات التي واجهتني فيه، ثمّ ختمتُها بخطّة إجمالية جاءت كالآتي:

الفصل التّمهيدي وخصّصتُه لتحديد مفاهيم الدّراسة، وقد حصرتُه في ثلاثة مطالب، بيّنتُ فيه مفهومَيْ الإصلاح والتّربية في اللّغة والاصطلاح، ثمّ مفهوم الإصلاح التّربوي باعتباره مركّبا إضافيا، حتّى أعطي صورة متكاملة عن الإصلاح التّربوي عموما وعن مفهومه عند الشّيخ محمّد عبدَه، وحتّى تتبيّن مِنْ خلاله فلسفة وأهداف ومقاصد الإصلاح التّربوي التي كان يرمي إليها.

بعدها عنونتُ **الفصل الأوّل** بـ: حياة الشّيخ محمّد عبدَه والأحوال السّائدة في عصره ودواعي إصلاحه التّربوي، وقسّمتُه إلى ثلاثة مباحث، تناولتُ في المبحث الأوّل: حياة الشّيخ محمّد عبدَه، وجعلتُه في خمسة مطالب، تحدّثتُ في الأوّل منها: عن نشأته وشخصيته وأخلاقه، وفي الثّاني: عن حياته العلمية ورحلاته وما تركه مِنْ مؤلّفات، وفي الثّالث: أوردتُ الشّيوخ والأساتذة الذين تلقّى عنهم والتّلاميذ الذين أخذوا عنه، وخصّصتُ المطلب الرّابع للحديث عن المناصب التي تولّاها والنّشاطات التي زاولها، لأختم المطلب الخامس بذكر بعض الشّهادات والمواقف الصّادرة مِنَ المفكّرين والعلماء والشّيوخ والسّاسة الذين عرفوه مباشرة أو بواسطة، ثمّ ختمتُه بالحديث عن ظروف وفاته، وتناولتُ في المبحث الثّاني: الأحول السّائدة في عصر الشّيخ محمّد عبدَه، وقد جاء في أربعة مطالب، الأوّل: ذكرتُ فيه الحالة السّياسية في عصره، وفي الثّاني: تناولتُ الحالة الدّينية فيه، كما ضمّنتُ المطلب الثّالث: الحالة الاجتماعية والاقتصادية في عصره، أمّا المطلب الرّابع فتكلّمتُ فيه عن الحالة التّربوية والفكرية في عصر الشّيخ محمّد عبدَه، وأمّا المبحث الثّالث فقد تناولتُ فيه: دواعي الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه، والذي جاء في مطلبين، تحدثتُ في الأوّل منهما عن: الدّواعي الدّاخلية لإصلاحاته التّربوية، وفي الثّاني منهما ذكرتُ الدّواعي الخارجيّة لإصلاحاته التّربوية.

وخصّصتُ **الفصل الثّاني** للحديث عن منهج الشّيخ محمّد عبدَه في الإصلاح التّربوي، وقد قسّمته إلى أربعة مباحث، تناولتُ في المبحث الأوّل منها: مصادر الإصلاح التّربوي لديه، وهو بدوره قسّمته إلى ثلاثة مطالب، تكلّمتُ في المطلب الأوّل منها عن الوحي لكونه أحد مصادره في الإصلاح، وفي الثّاني اتّخاذه للعلوم العقلية والإنسانية مصدرا لإصلاحاته، وفي المطلب الثّالث استئناسه بالتّجارب الإنسانية وأخذه منها، وفي المبحث الثّاني تناولتُ الوسائل التي اعتمدها في الإصلاح التّربوي، وقد قسّمته إلى ثلاثة مطالب، تحدّثتُ في الأوّل منها عن المؤسّسات التّربوية والدّينية التي ساهم في إصلاحها واعتمادِها في الإصلاح، وفي المطلب الثّاني إصلاحه عن طريق التّأليف والصّحافة، وفي المطلب الثّالث: إسهامه في الإصلاح التّربوي بالحوار والمناظرات والمراسلات، وفي المبحث الثّالث تناولتُ المجالات التي شملتها إصلاحاته التّربوية، وقد قسّمتُه إلى أربعة مطالب، جاء في المطلب الأوّل منها الإصلاح في مجال السّياسات التّعليمية، وفي الثّاني: الإصلاح في مجال الكفاءات والممارسات التّعليمية، وفي الثّالث: الإصلاح في مجال المقرّرات والطّرائق التّعليمية، وفي المطلب الرّابع: الإصلاح في مجال المؤسّسات التّربوية والتّعليمية، وأمّا المبحث الرّابع مِنَ الفصل الثّاني فقد عنونتُه بـ: خصائص الإصلاح التّربوي

عند الشّيخ محمّد عبدَه، وهو الآخر قسّمتُه إلى خمسة مطالب، تحدّثتُ في المطلب الأوّل منها: عن خصيصة الأصالة والمعاصرة والاجتهاد والتّجديد التي ميّزتْ إصلاحاته التّربوية، وفي المطلب الثّاني: تناولتُ خصيصة الشّمول والتّكامل، وفي المطلب الثّالث: تكلّمتُ عن ميزتَيْ الواقعية والموضوعية في إصلاحاته، وضمّنتُ المطلب الرّابع خصيصة الوسطية والمرونة والبساطة التي انتهجها في إصلاحاته التّربوية، وأمّا المطلب الخامس فقد خصّصتُه للحديث عن قيامه بترسيخ قيم الرّوح الوطنية في المجتمع المصري ودعوته إلى الاتّحاد والتّعاون خلال مزاولته لرسالة الإصلاح.

وأمّا **الفصل الثّالث** فقد عنونتُه بمخرجات إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية، وفيه قمتُ بتقييم تجربته الإصلاحية في المجال التّربوي، وجعلتُه في مبحثين، فخصّصتُ المبحث الأوّل للحديث عن المخرجات الإيجابية، والتي جعلتُها في خمسة مطالب، أوردتُ في المطلب الأوّل آليات إصلاحاته التّربوية، وفي الثّاني تكلّمتُ عن طرائق ومقرّرات التّدريس، وفي الثّالث ذكرتُ القائمين بالإصلاح التّربوي، وفي الرّابع عرضتُ المدارس الإصلاحية المصرية، وفي الخامس تكلّمتُ عن تأثير وانتشار إصلاحاته التّربوية في العالم، وأمّا المبحث الثّاني فقد عنونتُه بـ: المخرجات السّلبية لإصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية، وقد قسّمته إلى أربعة مطالب، تكلّمتُ في المطلب الأوّل منها عن سلبيات الإصلاحات التّربوية للشّيخ محمّد عبدَه، وفي المطلب الثّاني أوردتُ واحدا مِنْ تلامذته الذين أفرطوا في التّحرر، وتناولتُ في المطلب الثّالث استعانتُه بالاستعمار ودنوُّه مِنْ أفكاره التّغريبية، لأتكلّم في المطلب الرّابع عن دعوتِه إلى التّقريب بين الأديان ودخوله إلى المحفل الماسوني، لأخلص إلى أنّ إصلاحاته التّربوية تمثّل جهدا بشريا نسبيّ النّجاح، حقّقتِ النّجاح في بعض الجوانب واعتراها الإخفاق والفشل في أخرى، ولقيتِ الثّناء والمدح مِنْ بعض الأطراف والقدح والذمّ مِنْ أخرى.

وقد أنهيتُ البحث **بخاتمة** ضمّنتُها أهمّ النّتائج التي توصّلتُ إليها، ثمّ أشفعتُها ببعض التّوصيات، فأرجو أنْ أكون قد وُفِّقتُ في بحثي، الذي هو جهد بشريّ غير معصوم، فما كان فيه مِنْ سداد وتوفيق فمِنَ الله وحده، وما كان فيه مِنْ خطأ وزلل وتقصير -وهو حاصل لا محالة- فمِنْ نفسي ومِنَ الشّيطان، ومِنْ قلّة زادي وضعف حيلتي وسوء فهمي وتقديري، فأسأل الله العليّ القدير، التّوفيق والسّداد لما فيه الخير في الدّنيا والآخرة، وأسأله تعالى أنْ يجعل عملي العلميّ هذا خالصا لوجهه الكريم، وأنْ يبارك لي فيه، وأنْ ينفع به، وأنْ يجعله في ميزان حسناتي وحسنات والِدَيَّ يوم القيامة.

وما توفيقي إلّا بالله، عليه توكّلت وإليه أنيب،

والحمد لله أوّلا وآخرا، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العظيم،

وصلّ اللّهم وسلّم وزد وبارك على حبيب الحقّ محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفصل التّمهيدي:
تحديـد مفاهيـم الدّراســة

المطلب الأوّل: مفهوم الإصلاح لغة واصطلاحا

المطلب الثّاني: مفهوم التّربية لغة واصطلاحا

المطلب الثّالث: مفهـوم الإصـــلاح التّربــوي

الفصل التّمهيدي: تحديد مفاهيم الدّراسة

تمهيد:

في الفصل التّمهيدي حدّد الباحث المفاهيم الأساسية للبحث، والمتعلقة ببيان مفهوم أهمّ المصطلحات المكوّنة له؛ ألا وهي مصطلَحَيْ الإصلاح والتّربية منفردتَيْن، ثمّ بيّن مفهوم الإصلاح التّربوي باعتباره مركّبا إضافيا، وهذا لتيسير فهم حقيقة البحث وما يرمي إليه.

وقبل الشّروع في صلب حيثيات البحث يجدر منهجيا تحديد مفاهيمه الأساسية لكونها تمثّل لبناته الأصلية، فهي المرجع لفهم مراد الباحث ممّا يطرحه مِنْ مصطلحات وأفكار، حيث تمّ التّفصيل في بيان مفهومَيْ الإصلاح والتّربية مِنَ النّاحيتين اللّغوية والاصطلاحية، ثمّ بيان مفهوم الإصلاح التّربوي كمركب إضافي في ثلاثة مطالب على التّرتيب الآتي:

المطلب الأوّل: مفهوم الإصلاح لغة واصطلاحا

المطلب الثّاني: مفهوم التّربية لغة واصطلاحا

المطلب الثّالث: مفهوم الإصلاح التّربوي

المطلب الأوّل: مفهوم الإصلاح لغة واصطلاحا

سيتمّ التّطرّق في هذا المطلب إلى مفهوم الإصلاح لغة واصطلاحا لتبيان فكرة الإصلاح التي أقام عليها الشّيخ محمّد عبدَه إصلاحه التّربوي، فأهل الاختصاص منهم مَنْ تناول هذا المصطلح بتوسّع، ومنهم مَنِ اقتضب فيه، فرجعتُ إلى قواميس اللّغة العربية القديمة والمعاصرة لبيان معناه اللّغوي، وإلى كتب التّخصّص لبيان مفهومه الاصطلاحيّ وذلك في فرعين اثنين هما:

الفرع الأوّل: الإصلاح لغــة

إنّ المتتبّع لمادّة(ص ل ح) في قواميس اللّغة العربية يجد أنّ كلمة الإصلاح فيها مشتقّة مِنَ الفعل: صَلَحَ وصَلُحَ وأَصْلَحَ، وتعني إزالة الفساد عن الشّيء أو تغيير حالة الفساد عنه، وأنّ الإصْلَاحَ ضدّ الإفساد، واستصْلَحَ الأرض: حوّل حالتها الفاسدة بالبوار إلى حالة الخصب والنّماء والإنتاج.

وصَلَحَ صَلَاحًا وصَلُوحًا فهو صَلِيحٌ: زال عنه الفساد وصَلُحَ الشّيء كان نافعا أو مناسبا، يقال هذا الشّيء يَصْلُحُ لك، وأَصْلَحَ في عمله وأَصْلَحَ أمرَه أتى بما هو صَالِحٌ نافع، وأَصْلَحَ الشّيء أزال فساده، وأَصْلَحَ بينهما: أزال ما بينهما مِنْ عداوة وشقاق، ومنه قوله تعالى:﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ ٩﴾[سورة الحجرات]، وقوله:﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ ١﴾[سورة الأنفال]، وأَصْلَحَ الله لفلان في ذريّته: جعلها صالحة ومنه قوله تعالى:﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ ١٥﴾[سورة الأحقاف].[1]

والصَّلَاحُ مِنْ صَلَحَ: وهو ضدّ الفساد، ورجل صَالِحٌ في نفسه مِنْ قوم صُلَحَاءَ ومُصْلِحٌ في أعماله وأموره، وقد أَصْلَحَهُ الله، والإِصْلَاحُ: نقيض الإفساد، والْمَصْلَحَة: الصَّلَاحُ، والاسْتِصْلَاحُ: نقيض الاستفساد، وأَصْلَحَ الشّيءَ بعد فساده: أقامه، وأَصْلَحَ الدّابة: أحسن إليها فصَلَحَت، والصُّلْحُ: السِّلْمُ، وقد اصْطَلَحُوا وصَالَحُوا وأصْلَحُوا وتَصَالَحُوا واصَّالَحُوا بمعنى واحد.[2]

وقد وردت كلمة الإِصْلَاحِ في القرآن الكريم بعدّة معان منها: الإصْلَاحُ بين النّاس بمعنى: إزالة النِّفار بينهم، ومنها إِصْلَاحُ الله للإنسان الذي يكون تارة بخَلْقِهِ إيّاه صَالِحا، وتارة بإزالة ما فيه مِنْ فساد بعد وجوده، وتارة بالحكم له بالصَّلَاحِ، وجاءت فيه بمعنى الإِصْلَاحُ العام للشّعوب والأمم التي انحرفت عن جادّة الحقّ وضلّت السّبيل، كما في قوله تعالى على لسان نبيّ الله شعيب عليه السّلام:﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾[سورة هود]، فيتمّ إصلاحُها بحملها على مراعاة أوامر الله ونواهيه في دينها ودنياها حتى تستقيم حياتها.[3]

وذكر ابن باديس في سياق تفسير قوله تعالى:﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥﴾[سورة الإسراء]، بأنّ طريقة إصلاح النّفوس تكون بدوام علاجها بالرّجوع إلى الله، فالنّفوس رُكِّبَت فيها الشّهوة، وفُطِرت على الغفلة، وقد يُسلَّط عليها قرناء السّوء مِنْ شياطين الإنس والجنّ، فيطرأ عليها الفساد، فتُقارِف

---

[1] ينظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، القاهرة، مصر، (د ط)، (د ت)، باب الصاد، مادّة(ص ل ح)، ص520.

[2] ينظر: محمّد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدّين ابن منظور الأنصاري الرّويفعى الإفريقى، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ، ج2، ص516، فصل الصّاد، مادّة: (صلح).

[3] ينظر: محمّد زرمان، فلسفة التّجديد الإسلامي الشيخ البشير الإبراهيمي أنموذجا، دار الأعلام، عمّان، الأردن، ط1، 2014م، ص13.

الذّنوب والمعاصي، فيجب إصلاحها بإزالة النّقص وإبعاد الضّرر عنها، وهذا لا يكون إلا بالتّوبة إلى الله تعالى، ولمّا كان طروء الفساد متكرّرا فالإصلاح يكون متكرّرا، والمداومة على إصلاح النّفس مِنْ فسادها والجِدُّ فيه هو مِنْ جهاد النّفس الذي هو أعظم الجهاد[1]، وأوّل خطوة في الإصلاح تقوم على التّغيير، وهو مبدأ قرآني أساسي في قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴿١١﴾﴾[سورة الرّعد].[2]

وعليه؛ فإنّ كلمة الإصلاح في اللّغة العربية تشتمل على عدّة معاني متقاربة تدور في مجملها حول: التّغيير والتّجديد والتّطوير والتّعديل والإحياء والنّهضة والإبداع والابتكار والتّجويد والتّحسين والإزالة والتّصويب والإرشاد والتّوجيه، وكلّها معانٍ إيجابية تقتضي الانتقال مِنْ حالة أدنى إلى حالة أرقى في جميع جوانب النّفس البشرية، أفرادا وجماعات ومؤسّسات وهيئات لتحقيق النّهضة والازدهار.

الفرع الثّاني: الإصلاح اصطلاحا

لمصطلح الإصلاح عدّة تعريفات تتضمّن جملة مِنَ المفاهيم، فقد يراد به التّصليح: وهو إزالة الخلل، والتّجديد بإدخال الجديد في الممارسة والوسائل والأساليب، والاختراع بالابتكار والإيجاد على غير مثال سابق، والتّحسين بتجويد الشّيء شكلا ومضمونا، والتّطوير بإحداث نقلة نوعية إلى الأرقى تتماشى مع متطلّبات العصر، والتّغيير بإزالة ومحو ما هو غير لائق، وبالتّالي فإنّ كلمة الإصلاح قد تأخذ تلك المعاني بحسب السّياق وبحسب القائم به لتجسيده، لذا عُرِّفَ تعريفا عامّا بأنّه: فكر وتخطيط وتنفيذ وتقويم يتناول جميع جوانب الإصلاح.[3]

والإصلاح يقوم على رؤية ومعايشة الواقع السّائد في مجال مِنَ المجالات الذي تعتريه نقائص وثغرات، فينظر المتخصّصون في ملابساته ويدرسونه بفكر فاحص ونظر دقيق ثاقب في إطار مرجعية معيّنة وخلفية فكرية محدّدة، ثمّ تُرسم له خارطة طريق لتنفيذه، ثمّ تعقبه دراسات تقييمية وتقويمية، لتحقيق أهدافه القريبة ومقاصده البعيدة.

وقد أوضح محمّد البهي[4] بأنّ مفهوم الإصلاح في فكر الشّيخ محمّد عبدَه يعني: استعادة الرّوح الجماعية والقومية والإسلامية والإنسانية العامّة بتربية النّاشئة في المدرسة على أساس التّعاليم الإسلامية بالإضافة إلى تزويدهم بالعلوم والصّنائع التي تنفعهم في حياتهم وتجعلهم يتحكّمون فيها.[5]

---

[1] ينظر: عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، تحقيق: عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ط1، 1968م، ج1، ص236. وينظر: عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس -مجالس التّذكير من كلام الحكيم الخبير-، تحقيق وتعليق وتخريج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995م.ج1، ص77.

[2] ينظر: عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، المرجع السّابق، ج1، ص11.

[3] ينظر: محمود قمبر، الإصلاح التّربوي في مصر، ضروراته - فعالياته - معوقاته، ص6و7، ضمن كتاب: المؤتمر العلمي السنوي لكلية التربية بالمنصورة بالتعاون مع مركز الدّراسات المعرفية بالقاهرة -آفاق الإصلاح التربوي في مصر- يومي 2و3أكتوبر 2004م، (د ط).

[4] **محمّد البهي:** مفكر إسلامي مصري معاصر وداعية إلى التّجديد الدّيني والإصلاح الاجتماعي، حصل على شهادة العالمية في الأزهر، انضمّ إلى بعثة الإمام محمّد عبدَه في جامعة هامبورج بألمانيا، وحصل على الدّكتوراه في الفلسفة وعلمي النّفس والاجتماع، تولّى إدارة جامعة الأزهر ثمّ وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر، مِنْ مؤلّفاته: الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، الإسلام دعوة وليس ثورة، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مستقبل الإسلام والقرن الخامس عشر الهجري، ينظر: محمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف، تكملة معجم المؤلفين، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1997م، ص457- 459.

[5] ينظر: محمّد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط10، (د ت)، ص110.

وعرّفه محمّد عمارة[1] بأنّه: التّغيير إلى الأفضل، وأنّ مقابل الإصلاح هو الإفساد، وأنّ الحركات الإصلاحية هي الدّعوات التي تحرّك قطاعات مِنَ البشر لإصلاح ما فسد في الميادين المختلفة، والانتقال بالحياة الإنسانية إلى درجة أرقى، وأنّ التّغييرات الإصلاحية تتمّ بالتّدريج، فيبدأ الإنسان بإصلاح نفسه وتغييرها، ثمّ الانتقال إلى تغيير الواقع تغييرا جذريا.[2]

وعُرِّف الإصلاح بأنّه: محاولة تنزيل أحكام الدّين الإسلامي على عقائد المسلمين وسلوكهم وأوضاعهم المختلفة وحلّ مشاكلهم بما قرّره الإسلام مِنَ الأحكام والقواعد، مع مراعاة متطلّبات العصر وما استجدّ في حياة النّاس اليومية مِنْ قضايا ونوازل، فلا تبقى عالقة دون حلّ شرعي ولا حكم ديني، فتجد لها الحلول والأحكام فيما جاء به الدّين الإسلامي.[3]

وعليه؛ فإنّ تلك التّعريفات تشير إلى أنّ الإصلاح أصل مِنَ الأصول الهامّة التي دعا إليها القرآن الكريم، فهو وظيفة كلّ الأنبياء، ثمّ العلماء مِنْ بعدهم باعتبارهم ورثة الأنبياء الذين عهد إليهم القيام بالدّعوة وإسداء النّصيحة، وإرشاد الأمّة، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، لقوله تعالى:﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[سورة آل عمران][4]، ذلك أنّ الإصلاح يعدّ مِنَ الغايات الكبرى التي أرسل الله تعالى مِنْ أجلها الرّسل والأنبياء إلى النّاس.

إنّ الذين اضطلعوا بالإصلاح لم يكونوا مِنْ عامّة النّاس، لكونه رسالة عظيمة ومسؤولية كبيرة، فالأحداث التّاريخية والواقع المعيش أكّدا أنّ الذين تولّوه كانوا مِنَ النّخبة، والذين خاضوا معترك الإصلاح في عالمنا الإسلامي هم مِنْ علماء الأمّة ومفكّريها الذين فقهوا الإسلام شريعة وعقيدة وأدركوا حِكَمَه ومقاصده، وخَبَروا الواقع بكل مُلابساته، وأحاطوا بظروف عصرهم وقضاياه، الأمر الذي أهَّلهم لمعالجة مشكلات أمّتهم ووضع الحلول المناسبة لها، وإرشادها للخروج مِنْ حبائلها، بالاعتماد على القرآن الكريم والسُنّة النّبوية الصّحيحة، وبالرّجوع إلى فهوم الصّحابة والتّابعين وتابعيهم ﷺ ومَنْ جاء بعدهم مِنْ أئمّة المسلمين، وتنزيل أحكام الإسلام على الواقع، وبتفادي أخطاء السّابقين، في عالَمٍ استقوى فيه الفاسدون والمفسدون على حساب الصّالحين والمصلحين.

---

[1] **محمّد عِمارة(1931- 2020م):** مفكر مصري، درس في الأزهر حتى نهاية المرحلة الثّانوية، ثمّ في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وفيها نال شهادة الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية، أنجز دراساته العليا بكلية دار العلوم في الفلسفة الإسلامية، مِنْ مؤلّفاته: رسالة ماجستير بعنوان: المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، وأطروحة دكتوراه بعنوان: الإسلام وفلسفة الحكم، الأعمال الكاملة لرواد النّهضة العربية والإسلامية: رفاعة الطّهطاوي، جمال الدّين الأفغاني، محمّد عبدَه، عبد الرّحمان الكواكبي، ينظر: محمّد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمّد عبدَه، دار السّلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط1، 2009م، ص140و141، وذَكَرَ بأنّه أُنجز حول مؤلّفاته ما يزيد عن ثلاثين رسالة ماجستير ودكتوراه، تُرجمت كتبه إلى أكثر مِنْ عشر لغات أوروبية وشرقية، يرجع إلى محاضرة محمّد عمارة على اليوتيوب بعنوان: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، مِنْ تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بمركز الدّراسات المعرفية في مصر، ألقاها في: 15 فيفري 2017م، وينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة، ar.m.wikipedia.org، تاريخ الزيارة: السبت: 2020/10/31م، في الساعة: 12:00 زوالا.

[2] ينظر: محمّد عمارة، معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (د ط)، (د ت)، ص134.

[3] ينظر: كمال عجالي، الفكر الإصلاحي في الجزائر- الشيخ الطيب العقبي بين الأصالة والتجديد-، (د د)، ط1، 2005م، ص34.

[4] ينظر: محمّد زرمان، فلسفة التجديد الإسلامي الشيخ البشير الإبراهيمي أنموذجا، مرجع سابق، ص14.

والإصلاح أمر به الله عزّوجلّ وتولّاه الخيّرون في الأمّة، لتحقيق الحياة الفاضلة الكريمة للإنسان، فأرسل الرّسل لتجديد العهد به سبحانه، وللقيام بمهمّة التّبليغ ودعوة النّاس إلى توحيده وعبادته وإصلاح شؤونهم، وهو ما قام به رسول الله ﷺ لإتمام رسالة إخوانه الأنبياء في الإصلاح والتّغيير، ليكمل هذه المهمّة الخلفاء الرّاشدون والتّابعون وكلّ مَنْ جاء بعده ﷺ مِنَ المصلحين.

وتجسيدا للإصلاح التّربوي؛ فقد كان أسلافنا مِنَ الصّحابة ﷺ أمثال الإمام علي بن أبي طالب ﷺ يراقب حلقات العلم في المساجد، ويَنْهَى مَنْ لم يكن أهلا لها، ويُقِرّ مَنْ كان أهلا لذلك، كترخيصه للحسن البصري -رحمه الله- بالتّعليم والتّدريس رغم صغر سنّه يومئذ، وكمراقبة المأمون للمؤلّفات السّائدة في عصره، فأقرّ المناسب منها وأثنى على أصحابها، وأزال السّاقط منها وانتقد أصحابها.[1]

فالإصلاح يهدف إلى تغيير حال الأمّة مِنْ وضعها المَرَضِي المشوب بالجهل والتّخلف والخضوع للمستبدّ الدّاخلي والمحتلّ الخارجي، إلى وضع صحّي تنعم فيه الأمّة وتتميّز بسلامة العقيدة، وسيادة الشّريعة، وقوّة العزيمة، وسداد الرّأي، وسلامة المنهج، ومشروعية الوسائل، وشرف المقصد.

ويهدف أيضا إلى تحسين الأوضاع والانتقال بها تدريجيا مِنْ حالة إلى حالة أفضل، واعتماد المرحلية في العلاج للوصول إلى الحالة المثلى، وقد ذكر أبو الأعلى المودودي[2] بأنّ الإصلاح يُقصد مِنْ ورائه إصلاح حالة فاسدة ويكون مبدؤه مِنَ التّروّي والتّفكير.[3]

لذلك تولّى الإصلاح قامات كبيرة في الدّين والعلم، وملكوا مقوّماته وآلياته، واكتسبوا خبرة كافية، وتميّزوا بفكر راق ونظر ثاقب ورؤية صائبة، بذلوا جهودا كبيرة لتنفيذ مشروعاتهم الإصلاحية التي لا يمكن أنْ تُرى نتائجها إلا بعد تجاوز العقبات والصّوارف، تصديقا لقول الشّيخ محمّد عبدَه بأنّ: "الإصلاح ليس ريحا تهبّ فتمسح الأرض مِنَ الشّرق إلى الغرب في وقت قريب".[4]

وبناء على التّعريفات السّابقة نخلص إلى أنّ الإصلاح هو: وسيلة مِنْ وسائل التّغيير الجزئي أو الكلّي للأوضاع السّائدة التي لا تتماشى ومرجعية الأمّة الدّينية والوطنية، فيتمّ تعديلها وتطويرها، أو إزالتها وإحلال محلّها عقائد وأفكارا ومناهجا وطرائق ومؤسّسات وأشخاصا، بما يضمن تحقّقه بمختلف الأساليب والوسائل والمناهج المشروعة، والمؤسّسات المناسبة، والأشخاص المؤهّلين؛ عقديا وفكريا وعلميا وتربويا، حتّى يسهموا في إرساء ثوابت الأمّة وحماية هويتها، لتحقيق الأهداف والغايات السّامية المرجوّة، وإحداث نهضة حضارية راقية ماديا ومعنويا، تخدم الأمّة والإنسانية جمعاء.

---

[1] ينظر: بلقاسم الغالي، من أعلام الزيتونة- شيخ الجامع الأعظم، محمّد الطّاهر بن عاشور- حياته وآثاره، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1996م، ص189و190 .

[2] **أبو الأعلى المودودي(1903- 1979م):** عالم ومفكر وداعية هندي، انتُخب عام 1941م رئيسا للجماعة الإسلامية، ساهم في إنشاء جمعية الجامعات الإسلامية، مُنح جائزة الملك فيصل سنة 1979م تقديرا لجهوده في خدمة الإسلام، مِنْ مؤلّفاته: احذروا مخطّط اليهود، الإسلام والمدنية الحديثة، تدوين الدستور الإسلامي، الحكومة الإسلامية، شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية، المسلمون والصراع السياسي الراهن، المصطلحات الأربعة في القرآن: الإله والرّبّ والعبادة والدّين، نحن والحضارة الغربية، نحو ثورة سلمية، الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، ينظر: محمّد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف، تكملة معجم المؤلّفين، مرجع سابق: ص83- 85.

[3] ينظر: كمال عجالي، الفكر الإصلاحي في الجزائر- الشيخ الطيب العقبي بين الأصالة والتّجديد-، مرجع سابق، ص33.

[4] محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، كلمات عربية للترجمة والنشر، مصر، (د ط)، 2011م، ص147.

المطلب الثّاني: مفهوم التّربية لغة واصطلاحا

لقد كانت للشّيخ محمّد عبدَه نظرة خاصّة وفهم واسع لمفهوم التّربية الذي تخمّر في فكره منذ انطلاقته الأولى في الإصلاح الذي جمع فيه بين الجانب النّظري والتّطبيقي، فحاول مِنْ خلال عمله الميداني تجسيد فكره التّربوي في الواقع المصري، فاطّلع على الفكر التّربوي اليوناني والمسيحي القديم والمعاصر، وهو ما جعله يتأثّر ببعض التّربويّين والمفكّرين والفلاسفة القدماء والمحدَثين، فعمل على إصلاح وضع التّربية والتّعليم المصري انطلاقا مِنْ مرجعيته الإسلامية[1]، كما تأثّر بالحركة النّفسية التي قادها ستالوتزي وهاربرت وفروبل، وكذلك بالحركة العلمية التي ظهرت مع هربرت سبنسر[2]؛ فحاول التّوفيق بين تلك المفاهيم التّربوية، وبين فهمه الخاصّ للتّربية ليعمل على تنفيذ إصلاحاته فيها.

الفرع الأوّل: التّربية لغــة

للتّربية في معاجم اللّغة العربية ثلاثة أصول لغوية: **الأوّل:** رَبَا يَرْبُو بمعنى زاد ونما، ومنه قوله تعالى:﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ ٣٩﴾[سورة الرّوم]، **والثّاني:** رَبِى يَرْبَى بمعنى: نشأ وترعرع، **والثّالث:** رَبَّ يَرُبُّه، بمعنى أصلَحه، وتولّى أمره، وساسه وقام عليه ورعاه[3]، التَّرْبِيَةُ مِنْ رَبَا يَرْبُو: إذا زاد، ورَبَا الإنسانُ الرَّابيةَ: إذا علا[4]، وهي الزّيادة والنّماء والعلوّ[5]، والتَّرْبِيَةُ مأخوذة مِنْ رَبَّ رَبَّيْتُ، يَرُبّ ربًّا، ومنه: رَبَّ الأبُ ولدَه: وَلِيَه وتعهَّده بما يغذّيه وينمّيه ويؤدّبه[6]، وأحسنَ القيام عليه ووليَه حتى يفارقَ الطّفولية، وفي الحديث: «**هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا**»[رواه مسلم][7]: أي تحفظها وترعاها[8]، وهي التّنشئة، فيقال للمالك رَبٌّ: لأنّه يُنشِّئُ المَرْبُوبِ[9] مِنْ حال إلى حال إلى حدّ التّمام.[10]

---

[1] ينظر: حملاوي مهتور، التّجديد عند محمّد عبدَه، رسالة دكتوراه تحت إشراف الأستاذ الدكتور رابح مراجي، قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة 02 عبد الحميد مهري، السّنة الجامعية: 2018- 2019م، ص105.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص131.

[3] ينظر: عبد الرّحمان النّحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط26، 2008م، ص16.

[4] ينظر: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، مجمل اللغة، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1986م، ص417، باب الرّاء والباء وما يثلّثهما.

[5] ينظر: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (د ط)، 1979م، ج2، ص483، باب الرّاء والباء وما يثلّثهما.

[6] ينظر: أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2008م، ج2، ص842، باب الرّاء، مادّة: (ر ب ب).

[7] أخرجه مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، في المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي دار الحديث للنشر والطبع والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1991م، كتاب: البر والصّلة والآداب، باب: في فضل الحب في الله، ج4، ص1988، حديث رقم: 2567.

[8] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج1، ص401و405، فصل الرّاء، مادّة: (ربب).

[9] ينظر: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المخصّص، تحقيق: خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1996م، ج5، ص227، اشتقاق أسماء الله عزّوجلّ.

[10] ينظر: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، سوريا، ط1، 1412هـ، ص336، كتاب الرّاء، مادّة: (ربَّ).

وممّا سبق فإنّ للتربية معنيان هما: النّمو والزّيادة، وهو ما تسعى التّربية إلى تحقيقه، فبحسب معنى النّمو تستهدف التّربية تنمية القدرات العقلية والقوى الرّوحية وتطويرها، وبحسب معنى الزّيادة تفيد التّدرّج والتّراكم، فهي عبارة عن جهود تراكمية لا تتمّ دفعة واحدة.[1]

وبناء على الأصول اللّغوية لكلمة التّربية فإنّها تقوم بالمحافظة على فطرة النّاشئة ورعايتها، وتنمية مواهبها واستعداداتها المتنوّعة نحو الصّلاح والكمال، كما تقتضي التّدرّج في الأعمال التّربوية والتّعليمية وِفْقَ ترتيب منظّم متصاعد، ينتقل مع النّاشئة مِنْ طور إلى طور، ومِنْ مرحلة إلى أخرى.[2]

وعليه فإنّ كلمة التّربية في اللغة تحمل عدّة معانٍ متقاربة وتتمثّل في: التّنمية والزّيادة والعلوّ والتّعليم والتّنشئة والمحافظة والرّعاية والولاية والصُّحبة والقيام بالشّيء والإصلاح، فتتمّ بشكل متدرّج وفق مراحل منتظمة تسير في تصاعد مستمر للوصول إلى أهداف ومقاصد سامية لتحقيق الصّلاح والإصلاح للإنسان وتحقيق الإحياء والتّطوّر والتّقدّم والنّهضة لإسعاده في الدّارين.

الفرع الثّاني: التّربية اصطلاحا

أوّلا: التّربية في القرآن الكريـم

وردت بعض مشتقّات كلمة التّربية في القرآن الكريم بعدّة معان منها: الحكمة والعلم والتّعليم، كما في قوله تعالى:﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾[سورة آل عمران]، قال ابن عباس ﷺ: "حُلماء فُقهاء، ويقال: الرَّبَّانيُّ الذي يُرَبِّي النّاس بصغار العلم قبل كباره"[3]، ووردت بمعنى الرّعاية والاعتناء في قول فرعون لموسى عليه السّلام في قوله تعالى:﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾[سورة الشّعراء]، أي: "أما أنت الذي رَبَّيْنَاهُ فينا وفي بيتنا وعلى فراشنا، وأنعمنا عليه مدّة سنين".[4]

ثانيا: التّربية عبر العصـور

كانت التّربية عند سقراط وأفلاطون وأرسطو تُعنى بإعداد الفرد بدنيا وعقليا ليكون مواطنا صالحا، ويستفيد منه بعض أفراد المجتمع فقط، وعند الرّومان استهدفت تكوين أفراد أوفياء لعادات الأجداد مركّزين على تعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب فقط، وفي العصر الوسيط الذي كانت تسيطر فيه الكنيسة على الحياة الاجتماعية؛ جاءت بمفهوم جديد للتّربية يقوم على الإلمام بالمسيحية والعمل بطقوس الكنيسة واحتقار كل ما له علاقة بالدّنيا، فرفعت مِنْ مستوى التّربية الخُلقية، وعملت على تلقين التّلاميذ المعارف التي لا تأثير لها ولا فاعلية، وأمّا عند المسلمين فإنّ التّربية تميّزت بكثرة التّوجُّهات وتنوّعها، فتجلّت في ممثّلي الفكر التّربوي أمثال أبي حامد الغزالي وابن تيمية وابن خلدون الذين كان لهم حضور قوي في فكر الشّيخ محمّد عبدَه، بل وشكّلوا مراجع فكرية له، فالغزالي

---

[1] ينظر: حملاوي مهتور، التّجديد عند محمّد عبدَه، مرجع سابق، ص106.

[2] ينظر: عبد الرّحمان النّحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، مرجع سابق، ص17.

[3] محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه(صحيح البخاري)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق: مصطفى ديب البغا، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، كتاب: العلم، باب: العلم قبل القول العمل، ج1، ص25.

[4] أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ج6، ص124.

يرى بأنّ التّربية هي عملية إعداد نفسي وروحي للإنسان، تراعي فيه الجوانب الفطرية والمكتسبة والفروق الفردية بين المتربّين حتّى يتحقّق الاستيعاب والتّحصيل، أمّا عند ابن تيمية فهي إصلاح شامل متكامل يراعي الأبعاد النّفسية والعقلية والاجتماعية للإنسان، وهي مستوحاة مِنَ القرآن والسنّة لتحقيق التّكامل بين الجانب النّظري والتّطبيقي، أمّا في فكر ابن خلدون فهي وسيلة للتّجديد والتّغيير على مستوى الموضوع والمنهج لتكوين فرد عملي قادر على التّكيّف مع ظروف عصره، وأمّا في العصر الحديث فقد تأثّر فيه الشّيخ محمّد عبدَه ببعض الاتّجاهات والحركات التّربوية الكبرى، حيث التقى بأبرز ممثّليها كالفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر، الذي يرى بأنّ التّربية والتّعليم وظيفة طبيعية تنسجم مع قوانين الطّبيعة والنّمو، والطّبيعة هي خير معلّم للإنسان، والتّربية هي وسيلة الفرد لاكتساب الصّفات المدنية، تهدف إلى إعداد الإنسان للحياة الكاملة، ونجاحُها مرهون بتحقيق الأهداف التّربوية المسطّرة، كما اطّلع على أكبر الحركات التّربوية في العصر الحديث التي يُعتبر المربّي جون جاك روسو[1] مِنْ أبرز روادها الذين ثاروا على الأساليب التّربوية السّائدة في زمانه.[2]

ثالثا: مفهوم التّربية عند علماء التّربيـة

لا تقلّ التّربية أهمّية عن التّعليم الذي إذا خلا منها أصبح بلا نتيجة في أكثر الأحيان[3]، والمتّفق عليه بين الدّارسين أنّ لمفهوم التّربية معنى أوسع وأشمل مِنْ مفهوم التّعليم الذي يعتبر مُحْتَوًى فيها، حيث تطلق ويراد بها التّعليم أيضا، كما يطلقان معا تحت مسمّى التّربية والتّعليم.

ومع ذلك حاول بعض الباحثين الأكاديميّين التّميز بين التّربية والتّعليم فقال بأنّ التّربية: "تعني كلّ المؤثّرات التي يعيش وسطها الفرد وتؤثّر فيه، وتعني الخبرة التي يكسبها الفرد مِنْ خلال تفاعله مع واقع المجتمع ومؤسّساته ونظمه، أمّا التّعليم فإنّه الجانب المتخصّص مِنَ التّربية والذي يتمّ عن طريق المدرسة، لذا اصطُلح على تسميته بالتّعليم النّظامي أو الموجَّه أو المقصود".[4]

ويرى حسن العلمي [5] أنّ التّعليم في الإسلام لا ينفصل عن التّربية، فقد جاء لتربية الإنسان وربطه بالله عزّوجلّ وبالمشروع الحضاري الإسلامي لإقامة الدّين، لذلك ربط الله عزّوجلّ في القرآن الكريم بين العلم والتّربية في قوله تعالى:﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ١٩﴾ [سورة محمّد]، فهما أمران متتابعان: اعلم واستغفر، وقد بوَّب لذلك الإمام البخاري بقوله: باب العلم قبل القول والعمل لقوله تعالى:﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ١٩﴾، فلا فصل ثمّة بين التّعليم والتّربية، وفي سِيَر

---

[1] **جان جاك روسو(Jean-Jacques Rousseau)(1712- 1778م):** فيلسوف وتربوي وكاتب مسرحي وأديب وروائي وملحّن، ولد بسويسرا وتوفي بفرنسا، من أهمّ كتبه: كتاب العقد الاجتماعي في السياسة، والتّربية-إميل نموذجا-، ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرّة: (wikipedia.org)، تاريخ الزيارة: السبت: 13أوت 2022م، في الساعة: 09:30 صباحا.

[2] ينظر: حملاوي مهتور، التّجديد عند محمّد عبدَه، مرجع سابق، ص110- 129.

[3] ينظر: أبو الحسن النّدوي، نحو التّربية الإسلامية الحرّة في الحكومات والبلاد الإسلامية، دار الإرشاد للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1969م، ص17و22.

[4] محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه وآلياته في تطوير التّعليم، (د د)، (د ط)، (د ت)، ص140.

[5] **حَسَنْ العَلَمِي:** أستاذ كرسي الحديث والفكر الإسلامي بجامعة ابن طفيل بالقنيطرة بالمغرب الأقصى، ورئيس وحدة الدراسات المنهجية الشرعية في الغرب الإسلامي(الدراسات العليا) بالجامعة نفسها، وهو مدير معهد الغرب الإسلامي للتكوين والبحث العلمي بالقنيطرة، وعضو المجلس العلمي بالمدينة نفسها، ينظر: مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي، ج171، ص 45.

أسلافنا أنّ أمَّ مالك العالية بنت شريك كانت ترسل ابنها إلى ربيعة الرّأي وتقول له: "تعلَّم مِنْ أدبه قبل علمه"، والأمّة الإسلامية اليوم فَرَّطَتْ في التّربية وجعلت التّعليم مِهَنيا يُخرِّج الموظّفين وحسب، ولا يربّيهم، ويرى خالد الصَّمَدِي [1] بأنّ المفهومَيْن متداخلَيْن، وبينهما عموم وخصوص، والتّعليم أسلوب مِنْ أساليب التّربية؛ فهي أعمّ وهو أخصّ؛ فقد يؤدّي التّعليم إلى التّربية، وقد لا يؤدّي باعتبار الأهداف المرسومة للتّعليم والمقاصد المحدّدة له، لذلك قال إبراهيم -عليه السّلام- في دعوته لأمّته: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴿١٢٩﴾﴾[سورة البقرة].[2]

وحاول آخر تصحيح مفهومَيْ المصطلحين -لمّا قُزِّمَ مفهوم التّربية العامّة وحُصِرَ عند البعض الآخر في التّعليم-، فقال: "لقد اختزلوا التّربية في مجالاتها الواسعة إلى تمدرسٍ في عملياته المعرفية الضّيّقة، ومِنْ ثَمَّ جفّت ينابيع التّربية في ثقافتها الحياتية وقيمها الاجتماعية وغاياتها الإنسانية".[3]

وورد في كتاب التّربية لـ: هربرت سبنسر؛ أنّ تربية الإنسان تتمّ بتتبّع مراحل حياته مِنْ ولادته إلى وفاته، وبتوجيه العناية الكبرى إلى تعليم النّاشئة ذكورا وإناثا لكلّ ما يفيدهم في الحياة علميا وعقليا ووجدانيا وأخلاقيا وبدنيا، حتّى تكون تربية كاملة متكاملة، وقَرَنَ بين التّربية والتّعليم، وجعل التّعليم وسيلة لتحقيق تربية شاملة للإنسان حتّى يكون صالحا يُعَوَّل عليه في التّشييد الحضاري.[4]

وعندما اطّلع الشّيخ محمّد عبدَه على كتاب سبنسر رتّب موعدا للقائه في إنجلترا، فلقيه وناقشه بعدما سمح له طبيبه الخاص بذلك، وأعجب بكتابه، وأخذ بأفكاره وآرائه التّربوية المتوافقة مع أصول التّربية الإسلامية وأهدافها.

وقد بيّن سبنسر في ختام كتابه؛ بأنّ التّربية عمل شاق ومِنْ أوعر الأمور، يقوم بها العالم والجاهل، ولكلّ طريقته وأسلوبه، ثمّ ذكر بأنّها تقوم على جملة مِنْ الطّرق الصّحيحة والوسائل النّاجعة على رأسها الاطّلاع على كتب التّربية والأعمال المتقنة، وأنّ أساسها يكون منذ البداية عند تربية النّشء بتوخّي الرّفق وتحرّي الصّبر والحِلم واللّين في معاملتهم، وإعمال الفكر في دوافع تصرّفاتهم غير اللّائقة، ومراقبتها ثمّ تصحيحها وتغييرها بحكمة دون عناد واستبداد وتسلّط.[5]

فالتّربية والتّعليم متلازمان، فالثّاني لازم للأوّل ولا يتمّ إلا به، فهو جزء منه لأنّ التّربية على ثلاثة ضروب: تربية الجسم والنّفس والعقل، وهذا الأخير هو عين التّعليم وكلٌّ منها يحتاج للعلم والتّعليم.[6]

وعليه؛ تطلق التّربية والتّعليم في مجال الإصلاح التّربوي للإحاطة بالإصلاح، ولاستحضار كلّ ما له علاقة بهما، مع التّركيز على التّعليم النّظامي باعتباره وسيلة لتحقيق التّربية، والانطلاق مِنَ المدرسة

---

[1] **خالد الصَّمَدِي:** رئيس قسم الدّراسات الإسلامية، وأستاذ التّعليم العالي بالمدرسة العليا لتكوين الأساتذة الوطنية التّابعة لوزارة التّربية الوطنية المكلفة بإعادة هيكلة البرامج والمناهج التّربوية بالنّظام التّعليمية بالمغرب الأقصى في إطار مشروع إصلاح التّعليم، ينظر: مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي، ج171، ص45.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ج171ص 45..

[3] محمود قمبر، الإصلاح التربوي في مصر، مرجع سابق، ص28.

[4] ينظر: هربرت سبنسر، ترجمة محمّد السّباعي، التّربية، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، مصر، (د ط)، 2015.

[5] ينظر: المرجع نفسه: ص85.

[6] ينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، شوال 1315هـ، (د د)، (د ط)، (د ت)، مج1، ص56.

لتجسيدها باعتبارها أحد القلاع الحضارية الحديثة البارزة، ولكونها أساس التّعليم النّظامي وقاعدته الصّلبة التي تُبنى عليها باقي المؤسّسات التّعليميّة، فتعمل على تربية وتعليم الإنسان مِنْ جميع النّواحي.

*** تعريفات أخرى للتّربية:** وفيما يلي بعض التّعريفات للإحاطة أكثر بمفهوم التّربية:

1- عرّف أنور الجندي[1] التّربية بـ: "أنّها الإعداد الرّوحي والنّفسي للفرد بحيث يكون مؤهّلا لتلقّي التّعليم والثّقافة على نحوٍ موجّه فيأخذ ما هو أساسي وبَنَّاء وما هو بسبيل أنْ يمدّه بالقدرة على أداء رسالته في الحياة والمجتمع، هذه الرّسالة الجامعة بين هدَفَي الدّنيا والآخرة، مِنْ حيث البناء والعمل والسّعي إلى آفاق التّقدّم، دون أنْ يكون ذلك على حساب القيم الخُلقية أو المسؤولية الفردية بل لحسابها ودعما لها"[2]، ثمّ ذكر بأنّ التّربية في الإسلام تسير في كلّ الاتّجاهات فقال: "هي إنشاء الإنسان إنشاء مستمرا مِنَ الولادة حتّى الوفاة، هذا على الامتداد الأفقي، أمّا الامتداد الرّأسي فهي تربية كاملة متوازنة؛ عقلية بالمعرفة، وجسمانية بالرّياضة، ونفسية بالإيمان".[3]

2- وعرّفها عبد الحليم محمود بأنّها: "الأسلوب الأمثل في التّعامل مع الفطرة البشرية توجيها مباشرا بالكلمة، وغير مباشر بالقدوة، وفق منهج خاصّ ووسائل خاصّة، لإحداث تغيير في الإنسان نحو الأحسن"[4]، وقد استقى الباحث التّعريف مِنْ أدبيات الإخوان المسلمين المصريّين، بتتبّع وثائقهم ورسائلهم وما ذكره رجالاتها حول مفهوم التّربية المعتمد لديهم في توجيه أعضائها وكلّ مَنْ يَدْعُونَه مِنْ غير المسلمين إلى الإسلام، وذلك باعتمادهم الأساليب والوسائل المتاحة المباشرة بالكلمة في شكل موعظة أو قصّة أو مقالة أو درس أو أمر أو نهي أو غيرها، وغير مباشر بالقدوة والأسوة بالعمل الصّالح والسّلوك الرّاشد والخلق القويم، والتي قد تحدث تغييرا جذريا في المدعوّ والانتقال به نحو الأفضل.

3- وعرّفها سعيد إسماعيل علي[5] بقوله: "تلك العملية التي عن طريقها نقوم بتنمية جوانب الشّخصية الإنسانية في مستوياتها المختلفة، وأنّها تتمّ بتنمية الجانب المعرفي للإنسان بالمعلومات والحقائق وطريقة التّفكير ومنهج البحث والتّحليل والنّقد والاستنتاج والاستنباط، وكذا بتنمية الجانب

---

[1] **أنور الجندي(1917-2002م):** أديب ومفكّر إسلامي مصري معاصر، تخرّج في الجامعة الأمريكية، حاضر في عدد مِنَ الجامعات الإسلامية، وكتب في العديد مِنَ المجلّات، مِنْ مؤلّفاته: أسلمة المعرفة، نقد مناهج الغرب، الضّربات التي وُجّهت للأمّة الإسلامية، اليقظة لإسلامية في مواجهة الاستعمار، أخطاء المنهج الغربي الوافد، تاريخ الصّحافة الإسلامية، الصّحافة والأقلام المسمومة، أضواء على الأدب العربي المعاصر، ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة: ar.m.wikipedia.org، تاريخ الزيارة: 2020/11/13م، في الساعة: 17:30 مساء.

[2] أنور الجندي، التربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1975، ص153.

[3] المرجع نفسه: ص160.

[4] علي عبد الحليم محمود، وسائل التربية عند الإخوان المسلمين -دراسة تحليلية تاريخية-، دار الوفاء للطباعة والنشر والتّوزيع، المنصورة، مصر، ط1، 1989م، ص15.

[5] **سعيد إسماعيل علي:** مفكّر مصري متخصّص في علم التّربية ولد سنة 1937م، حصل على دكتوراه الفلسفة في التربية بجامعة عين شمس عام 1965م، يعمل أستاذا للتربية بكلية التربية بجامعة عين شمس، مِنْ مؤلّفاته: أصول التربية الإسلامية، دراسات في التربية والفلسفة، دراسات في اجتماعيات التربية، محنة التعليم في مصر، نظرات في الفكر التربوي، قضايا التعليم في عهد الاحتلال، ينظر: سعيد إسماعيل علي، الفكر التربوي العربي الحديث، سلسلة عالم المعرفة الشهرية، الكويت، ماي 1987م، ص345، وينظر: سعيد إسماعيل علي، فلسفات تربوية معاصرة، سلسلة عالم المعرفة الشهرية، الكويت، يونيو 1995م، ص299.

العاطفي والوجداني بتربية ميوله واتّجاهاته وقيمه بالكلام أو الكتابة، وبتنمية الجانب البدني للإنسان المتّصل بالمهارات العملية المختلفة، كمهارة فلاحة الأرض وقيادة السّيارة وغيرهما".[1]

وقال أيضا: "هي النّهج الفعّال والسّبيل الحقيقيّ الصّادق الذي يؤدّي بالأمّة إلى أنْ تعيد بناء أفرادها بناء يكفل لهم استقامة الأخلاق وصدق العقيدة وإرادة العمل فيكون إصلاح حقيقيّ ويكون تغيير يؤدّي إلى التّجديد والتّطوير"[2]، فقد أكّد بأنّ التّربية هي الجانب التّطبيقيّ للأفكار والنّظريّات التي تُنتِج تغييرا جذريّا في الأفراد على مستوى العقيدة والأخلاق والعمل، وأنّها ليست مجرّد أفكار نظرية غير قابلة للتّجسيد في الواقع.

4- وعرّفها حامد الحازمي بقوله: "بأنّها تنشئة الإنسان شيئا فشيئا في جميع جوانبه، ابتغاء سعادة الدّارين وفق المنهج الإسلامي، وأنّ التّربية تهتمّ بتنشئة الإنسان الذي هو محور العملية التّربوية دون غيره، سواء كان مسلما أم غير مسلم، فالمسلم يُربَّى على مبادئ دينه، وغير المسلم يُدْعى للإسلام والالتزام بأحكامه العقديّة والتّعبّديّة والأخلاقيّة بالتّدريج، حتّى يسعد في الدّنيا والآخرة".[3]

5- ويرى محمّد فوزي عبد المقصود بأنّ التّربية بمعناها العام: "تعني تحقيق النّمو المتكامل لكلّ فرد وإعداده للتّكيّف مع المجتمع، وهي ضرورة اجتماعية للفرد الذي يكتسب صفة الاجتماع بالتّدريج مِنْ خلال تفهّم أساليب الحياة والتّكيّف معها، وبالاعتماد على الآخرين في اكتساب القدرة على رعاية نفسه والتّعامل مع غيره، ابتداء بالأسرة ثمّ المجتمع ثمّ باقي مؤسّساته".[4]

6- وعرّفها يوسف الحمّادي بقوله: "عمليّة يؤخذ فيها النّاشئون مِنْ أبناء الأمّة الإسلامية بألوان مِنَ الأنشطة الموجّهة في ظلّ القيم والمثاليات والمبادئ الإسلامية؛ لتعديل سلوكهم، وبناء شخصياتهم على النّحو الذي يجعل منهم أفرادا صالحين نافعين لدينهم وأنفسهم ووطنهم وأمّتهم الإسلامية، والبشرية كلّها"[5]، فهو يرى وجوب تربية النّشء على القيم الإسلامية، وتكوينهم بأنشطة موجّهة لبناء شخصيتهم وتربيتهم على الأخلاق الفاضلة، حتّى يكونوا صالحين يخدمون دينهم وأمّتهم والإنسانية.

7- وعرّفها كمال الدّين المرسي قائلا: "التّربية هي عملية التّنشئة والرّعاية والتّوجيه مِنْ جانب الكبير تجاه الصّغير، والعالم حيال المتعلّم"[6]، وهنا حصر الباحث التّربية في النّاشئة الذين يزاولون تعليمهم النّظامي في المدارس، ويتولاها أهل العلم والقدوة والكفاءة لتحقيق أهدافها ومقاصدها الحسنة.

---

[1] سعيد إسماعيل علي، فلسفات تربوية معاصرة، مرجع سابق: ص13و14.

[2] سعيد إسماعيل علي، الإصلاح التّربوي عند محمّد عبدَه، ضمن كتاب: أعمال ومناقشات النّدوة الفكرية التي نظّمتها مكتبة الإسكندرية(4و2005/12/5م)، (الإمام محمّد عبدَه مائة عام على رحيله(1905- 2005م)، تحرير: إبراهيم البيومي غانم وصلاح الدين الجوهري، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2009م، ص648.

[3] خالد بن حامد الحازمي، أصول التّربية الإسلامية، دار الكتب للطباعة وللنّشر والتّوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 2000م، ص19و20.

[4] محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص66.

[5] عاطف السيد، التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها، (د د)، (د ط)، (د ت)، ص18.

[6] كمال الدّين عبد الغني المرسي، من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي، دار المعرفة الجامعية، ط1، 1998م، ص4.

8- وعرّفها عبد الكريم بكّار بقوله: "هي الأسلوب وهي الأداة التي تضع الإنسان في بداية طريق النّمو والاستفادة مِنَ الوسط الاجتماعي القائم"[1]، فهي تلك الطّرائق والآليات التي يستخدمها المربّي لتنمية قدرات النّشء، وتوجيهم للاستفادة مِنَ الفرص المتاحة في المجتمع لخدمة المجتمع والنّاس جميعا.

9- وعرّفها عبد المجيد النجّار[2] بأنّها: تشمل تربية النّاشئة بالتّعليم المنظّم في المؤسّسات التّربوية القارّة، كما تشمل التّوعية العامّة التي تُعَالَج بها الأمّة لإقناعها بمفهوم معيّن، أو توجيهها إلى مسلك معيّن، وهي على فرعين: تربية خاصّة وتكون بالتّعليم وتسمّى **التّربية التّعليمية**، وتربية عامّة وتكون بالتّوعية والتّوجيه وتسمّى **بالتّربية الدّعوية** وهي: التّربية بالتّعليم النّظامي الذي يتمّ بنسق تعليمي منضبط يقوم على برامج ومقرّرات وطرائق معيّنة لتحقيق الأهداف الإجرائية المسطّرة داخل مؤسّسات عمومية رسمية أو خاصّة، وهي التي كان يميل إليها الشّيخ محمّد عبدَه كثيرا، حيث لمّا فارق أستاذه الأفغاني واستقرّ بمصر أصبحت وِجْهَتُه المنهجية تكاد تكون ممحّضة لهذه التّربية، فكانت أصيلة في نفسه، وكان كلّما أتيحت له فرصة إلاّ واستغرقها في التّعليم[3]، **وأمّا التّربية الدّعوية**: فتكون بالتّوجيه والتّوعية لعموم الأمّة أو لبعض فئاتها في نسق حرّ مفتوح، غير منضبط التّعليم، وذلك بالدّعوة المباشرة أو دروس الإرشاد العامّ، أو التّوجيه الصّحافي، وهذا الضّرب مِنَ التّربية مهمّته تنبيه النّاس وبثّ الوعي فيهم، بالإثارة والتّهيئة للشّعور الجماعي، والتّقوية للإرادة الجماعية أكثر مِنَ التّعليم العلمي المعمّق، وهذه التّربية قام بها الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ خلال مقالاته في جريدة العروة الوثقى، التي سلك فيها استنهاض وإثارة وتنبيه أمّته كي تفيق مِنْ غفلتها وتستيقظ مِنْ سباتها، وتعي واقعها وتتصدّى للأخطار المحدقة بها، لتحقيق النّهضة والرقيّ والسّيادة في عالم الشّهادة.[4]

فالتّربية بمعناها العام هي: "ذلك الجهد المبذول لمساعدة الإنسان على كشف وتنقيح وتنمية استعداداته ومواهبه وميوله وقدراته وتوجيهه والأخذ بيده إلى ما فيه خيره وخير مجتمعه، وإحداث التّغيّرات المرغوبة اجتماعيا وروحيا في سلوكه، وإعداده للحياة الاجتماعية النّاجحة".[5]

---

[1] عبد الكريم بكار، حول التّربية والتّعليم، دار القلم، دمشق، ط1، 2001م، ص20.

[2] **عبد المجيد النّجار:** أكاديمي ومفكر وسياسي وقيادي في حركة النهضة التونسية، تحصل على إجازة في أصول الدين من جامعة الزيتونة، وعلى الماجستير والدكتوراه في جامعة الأزهر، درّس بالزيتونة وبجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، وعمل أستاذا زائرا بجامعات: الإمارات وقطر والأردن وماليزيا وبالمعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية بباريس، وهو عضو المكتب التنفيذي بالاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ورئيس فرعه في تونس، كما شغل منصب الأمين العام المساعد للمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، مِنْ مؤلّفاته: دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، فقه التديّن فهما وتنزيلا، فقه التحضّر الإسلامي، مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، ينظر: https://www.cilecenter.org مركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق، وينظر: https://ar.wikipedia.org، تاريخ الزيارة: الثلاثاء: 2020/07/14م، في الساعة: 16:00.

[3] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية- مشاريع الإشهاد الحضاري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 2006م، ج3، ص131- 133.

[4] ينظر: المرجع نفسه: ج3، ص136و137.

[5] حملاوي مهتور، التّجديد عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص107و108.

رابعا: مفهوم التّربية عند الشّيخ محمّد عبـدَه

كان الشّيخ محمّد عبدَه ميّالا إلى التّربية بالفطرة، وقام بتأصيلها في نفسه، والتّنظير لها وممارستها في الأزهر وفي غيره مِنَ المؤسّسات التّربوية والدّينية في مصر وفي بيروت، بالإضافة إلى إعداده للبرامج التّعليمية والتّربوية لإصلاح الأزهر ومنه إصلاح باقي المؤسّسات التّعليمية والدّينية.

إنّ مفهوم التّربية الذي كان سائدا في عصر الشّيخ محمّد عبدَه كان محصورا في تهذيب الأخلاق، وشحن الأذهان بالمعارف الموجودة في الكتب، ولم يكن هناك اهتمام بالتّربية الجسمية والوجدانية، وأُهمل التّوجيه الدّيني والاجتماعي، لذا عمل الشّيخ على ترسيخ مفهوم شامل للتّربية نظريا وتطبيقيا، بحيث تكون عملية فردية جماعية تنمّي الفرد وتوجّهه لخدمة المجتمع وتقوم بإعداده للمعيشة الصّالحة في نفسه ومع النّاس الذين يعيشون معه، لهذا قال: "إنّ الإنسان لا يكون إنسانا حقيقيا إلا بالتّربية وليست هي إلا عبارة عن اتّباع الأصول التي جاء بها الأنبياء والمرسلون مِنَ الأحكام والحِكَمِ والتّعاليم، وهي عبارة عن السّعادة الحقيقية، تُعلّم الإنسان الصّدق والأمانة وحُبَّ نفسه، فإذا تربّى الإنسان أحبَّ نفسه لأجل أنْ يحبّ غيره، وأحبَّ غيره لأجل أنْ يحبَّ نفسه".[1]

وهذا ما تُنادي به التّربية الحديثة التي تُعْنَى بتربية جميع جوانب الشّخصية الإنسانية؛ جسميا وعقليا وعاطفيا واجتماعيا وخُلقيا، فأكّد بأنّ التّربية ينبغي أنْ تكون عملية شاملة متكاملة، لأنّ نُمُوَّ الإنسان يتمّ بطريقة متكاملة مِنَ النّواحي البدنية والعقلية والنّفسية في آن واحد، كما تَعني التّربية عنده الحياة؛ فهي خبرة حيّة يكتسبها الإنسان بتفاعله مع بيئته، فكل إنسان لا يَنضُج إلا مِنْ خلال تجارب الحياة وشدائدها، فالشّدائد تصنع الأبطال، وهي عملية مستمرّة، ففي المجتمعات الحديثة صار واجبا على الأفراد مواصلة تعليمهم لمواكبة مطالب الحياة المتجدّدة، لهذا دعا الإنسان إلى ضرورة السّعي في طلب العلم طوال حياته واستكناه الحقائق، وهي عنده عملية متغيّرة أيضا تبعا لتغيّر الأهداف والزّمان والمكان، ممّا يجعلها ذات أنماط متعدّدة، فتتغيّر وسائلها بتغيّر الزّمان والمكان.[2]

خامسا: فلسفة التّربية عند الشّيخ محمّد عبدَه

وجد الشّيخُ محمّد عبدَه المتلقّيَ المصريَّ يعاني جدبا روحيا وفقرا نفسيا ومهتمّا بالشّكل على حساب الجوهر في الدّين، فعمد على إعداده روحيا ونفسيا، وتربيته على القيم والمثل السّامية، ذلك أنّ الدّين يهتمّ بتربية النّفوس على العقيدة الصّحيحة التي خالطتها الأوهام والخرافات والأباطيل، فإذا هذّب المصلحون أخلاق النّاشئة؛ سرى الإصلاح في الأمّة، وسَلِمَت العقائد مِنَ البدع، والأعمال مِنَ الفساد، واستقامت الأحوال، فإصلاح النّفوس وتربيتها بعيدا عن الدّين وتزويدها بالعلوم والمعارف والآداب المجرّدة منه ستفشل لا محالة، وإذا كُتِب لها النّجاح فسيكون نجاحا شكليا وقصير العمر.[3]

---

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه، دار الفضيلة، مصر، ط2، 2006م، ج2، ص469و470، وينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، دار الشروق، بيروت، لبنان، القاهرة، مصر، ط1، 1993م، ج3، ص168.

[2] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص43- 45.

[3] ينظر: المرجع نفسه: ص49و50.

والشّيخ محمّد عبدَه يرمي مِنْ تربية الإنسان إلى تهذيبه وتحسين أخلاقه لهذا قال: "إنّ الإنسان لا يكون إنسانا حقيقيا إلا بالتّربية، وليست هي إلا عبارة عن اتّباع الأصول التي جاء بها الأنبياء والمرسلون مِنَ الأحكام والحِكم والتّعاليم، وهي عبارة عن السّعادة الحقيقية، تُعلِّم الإنسان الصّدقَ والأمانة ومحبّةَ نفسِهِ، فإذا تربّى أحبّ نفسه لأجل أنْ يحبّ غيره، وأحبّ غيره لأجل أنْ يحبَّ نفسه"[1]، فكان اهتمامه بالتّربية لتحقيق الارتقاء المعنوي والارتقاء المادي، لذلك استثمر في العنصر البشري مِنْ خلالها، وهذا ما قامت به اليابان في العصر الحديث التي نجحت في الاستثمار في الإنسان وصارت مِنْ أقوى الاقتصاديات في العالم بتخصيصها لنسبة 10% مِنَ الميزانية للتّربية والتّعليم.[2]

وأشار إلى أنّ للتّربية آفاقا بعيدة تنشد رعايةَ الإنسان ونفعَه بالعلم، فهي مستمرّة لا تتوقّف عند مرحلة عمرية مِنْ حياة الإنسان، حيث تصحبه مِنْ صغره حتّى شيخوخته، لهذا حثّ على طلب العلم مدى الحياة فهو عمودها الفقري، وأنّه ينبغي على الإنسان أنْ يسعى إلى طلب العلم والمعرفة واستكناه الحقائق طوال حياته، وأكملُ النّاس علما وفهما الذين لا ينقطعون عن طلب العلم طوال حياتهم.[3]

ولمّا كان مفهوم التّربية السّائد في عصره محصورا في تهذيب الأخلاق، وشحن أذهان المتعلّمين بالمعارف الموجودة في الكتب، دون الاهتمام بالتّربية الجسمية والوجدانية والاجتماعية؛ وجّه الشّيخ محمّد عبدَه التّربية اجتماعيا بإعداد الفرد للمعيشة الصّالحة في نفسه ومع النّاس الذين يعيشون معه، فإذا تربّى الإنسان أحبّ نفسه لأجل أنْ يحبّ غيره، وأحبّ غيره لأجل أنْ يحبّ نفسه[4]، وأكّد بأنّ التّربية ينبغي أنْ تكون عملية شاملة، لأنّ نموّ الإنسان يتمّ بطريقة متكاملة لشخصيته مِنَ النّواحي البدنية والعقلية والنّفسية والعاطفية والخُلقية والاجتماعية، وهذه الجوانب يؤثّر ويتأثّر بعضها ببعض، وهنا وافق مفهومَ التّربية الحديث الذي يرى ضرورة التّكامل بين تلك الجوانب، فعندما تقصّى واقع التّربية المصري وجد تلك الجوانب مُفْتَقَدَة، ودعا إلى إصلاحها وإعطائها الأولوية على المجالات الأخرى، فوافق بذلك فيلسوف التّربية الأمريكي جون ديوي في كتابه: عقيدتي التّربوية، الذي جعل التّربية هي الطّريقة الأساسية للتقدّم والإصلاح الاجتماعي وليس بالقانون والرّهبة والعقوبات فقط.[5]

وقد كتب الشّيخ محمّد عبدَه عدّة مقالات نشرها في الجرائد المصرية وهو طالب في الأزهر، منها مقال: فلسفة التّربية، الذي نشره سنة 1879م في جريدة مصر لسان حال جمال الدّين الأفغاني، ضمّنه أفكار أستاذه، جاء فيه أنّ علوم التّربية وُضعت لتَحفظ على النّفس فضائلها وتردّها إليها إذا انحرفت عنها، وأنّ القائمين بالتّربية مهمّتهم بيان مفاسد الأخلاق ومنافعها والارتقاء بالنّفوس إلى الكمال، لأنّ علماء التّربية هم أطباء نفوس يجدر بهم أنْ يكونوا مطّلعين على أحوال الأمّة، عارفين بأخلاقها وأمراضها لوصف العلاج اللّائق بها، لهذا عليهم أنْ يكونوا قدوة، وعلى استقامة، وذووا همّم عالية ومقاصد شريفة، ولا يبتغون مِنْ إرشادهم حطام الدّنيا والتّزلّف إلى الكبراء والحكّام، لأنّ الأمّة

---

[1] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص168.

[2] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق، ص48.

[3] ينظر: المرجع نفسه: ص44.

[4] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، المصدر السابق، ج3، ص168.

[5] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمد عبده، المرجع السابق: ص44و45.

إذا رُزقت بناصحين صادقين حكماء ستسعد حتما، أمّا إذا تولّى تربيتها وتعليمها الجهلة والأدنياء فستشقى حتما، وإذا كانوا على استقامة وأخلاقهم فاضلة ومقاصدهم سامية، فسيلقون التّقدير والاحترام، ويخدمون أبناءهم وأوطانهم، وإلا استحقُّوا الطّرد والإبعاد عن البلاد حتّى لا يفسدوها.[1]

لهذا قام الشّيخ محمّد عبدَه بتدوين أفكاره التّربوية ودعا إليها وعمل على تجسيدها في المؤسّسات التّربوية والدّينية لتربية أجيال تسعى إلى التّغيير الفاعل والإصلاح النّاجع، لإحياء الأمّة والنّهوض بها وتقدّمها، فتكون قائدة وموجّهة وبانية لحضارة معنوية ومادية نموذجية على غرار حضارة أسلافها التي أقام أركانها وشيّد معالمها رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ ومَنْ جاء بعدهم مِنَ الصّالحين.

سادسا: التّعريف الإجرائي للتّربيـة

وبناء على تعريفات علماء التّربية السّابقة، وفهم الشّيخ محمّد عبدَه لها، فإنّ التّربية الصّحيحة الهادفة تقود إلى الرُّقيّ والكمال والتّقدّم والتّطوّر وتحقيق الأفضل، وعليه يمكن تعريفها بأنّها: عملية شاملة متكاملة متغيّرة متجدّدة ومستمرّة، لا تقتصر على فترة زمنية معيّنة مِنْ عُمْرِ الإنسان، فهي تمتدّ مِنَ الولادة إلى الوفاة، وهي منهج حياة ونظام متكامل، وجهد بشري يتوجّه به الإنسان إلى أخيه الإنسان فردا كان أم جماعة، يتعهّده بالتّنشئة والرّعاية والتّعليم والتّكوين؛ عقديا وأخلاقيا وعلميا وعقليا ووجدانيا وبدنيا، بأساليب حكيمة ووسائل مشروعة وطرائق صحيحة ومناهج سليمة، وإعداده ليكون فردا صالحا ومصلحا، يخدم نفسه ومجتمعه ووطنه وأمّته والإنسانية جميعا، وفق سنن الله الكونية، لتعمير الأرض والاستخلاف فيها، لإرضاء الله تعالى وتحقيق السّعادة في الدّارين.

والخلاصة أنّ الشّيخ محمّد عبدَه يرى بأنّ التّربية تعمل على تجديد تكوين الأمّة الذي بطل وانحلّ منذ قرون كثيرة، بحيث تكون الأمّة عزيزة متّحدة متعاونة متكافلة يصدق عليها تمثيل النّبي ﷺ للمؤمنين بالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا، وبالجسد الواحد إذا اشتكى فيه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسّهر، وقد علّق محمّد رشيد رضا على رأي شيخه بالقول: "هذه هي التّربية وهذا هو التّعليم اللَّذَيْنِ كان يجاهد في سبيلهما ويدعو إلى مسالمة الحُكّام المستبدّين والمتغلّبين لأجل التّمكّن منهما، ويَعْلَم أنّ استقلال الأمّة الصّحيح لا يكون أو لا يتمّ ويثبت إلا بهما".[2]

المطلب الثّالث: مفهوم الإصلاح التّربوي

إنّ الإصلاح التّربوي الذي سعى الشّيخ محمّد عبدَه إلى تنفيذه، ساقته إليه دواعي وضرورات مختلفة ملحّة، لهذا اتّبع استراتيجية خاصّة وانتهج فيه تخطيطا دقيقا، وبذل جهودا فكرية وبدنية كبيرة، ورصد أغلفة مالية معتبرة، وعمل على إيجاد ظروف مساعدة، وبيئة ملائمة لتجسيده وإحداث إحياء ونهضة نوعية أفقيا وعموديا محليا وإقليميا، فمادت إصلاحاته التّربوية بين أهل الجمود

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج2، ص5و6.

[2] المصدر نفسه: ج1، ص917.

الرّافضين لها، وبين السّلطة التي عرقلته حفاظا على مصالحها، وعليه سيتمّ في هذا المطلب تناول مصادر إصلاحاته التّربوية وخصائصها وأهدافها، ثمّ تجاذباتها، وبعدها تحديد مفهوم الإصلاح التّربوي.

الفرع الأوّل: مصادر إصلاحاته التّربوية وخصائصها وأهدافها

قبل بيان مفهوم الإصلاح التّربوي تجدر الإشارة إلى مصادره وخصائصه وأهدافه، هذا الإصلاح الذي كان اعتماد الشّيخ محمّد عبدَه فيه على القرآن الكريم والسّنة النبوية وفهوم سلف الأمّة، بالإضافة إلى استئناسه بتجارب غير المسلمين الذين انتقى مِنْ أفكارهم ما يجسّد به إصلاحاته التّربوية، بما يتناغم وأحكام الإسلام وقيمه ومبادئه، حتّى يخدم دينه ووطنه وأمّته والإنسانية جمعاء.

أوّلا: مصادر إصلاحاته التّربويـة

والمراد بالمصادر هي: تلك الأصول المرجعية التي يعتمد عليها غيرها، بحيث لا تنطلق مِنْ فراغ، ولا يمكن أنْ تعتمد في توجّهاتها على الأهواء والآراء بمعزل عن الشّرع، وإنّما لها أصول تقوم عليها ومصادر تحكمها، لذلك تنطلق التّربية في الإسلام مِنَ القرآن الكريم والسنّة النّبوية المطهّرة وسير الصّحابة ﷺ ومَنْ تبعهم مِنَ الأئمّة عبر توالي الحقب والعصور.[1]

وقد استغرب أحمد شرشال الجزائري[2] مِنْ سعي بعض الباحثين المسلمين في طلب أصول التّربية وفروعها مِنْ علماء التّربية الغربيّين، وتركهم طلبَها مِنَ القرآن الكريم الذي هو أصلها ومصدرها، فالقرآن الكريم رَسَمَ معالمها الكبرى ثمّ بيّنَتْها السنّة النبويّة، ففيهما يجد الباحث بُغيته وضالّته، وعليه يُعتبر القرآن الكريم الكتابُ الأمّ للتّربية والتّعليم الذي يتضمّن أعظم المقرّرات الدّراسية، لهذا ينبغي العودة إلى المنابع الأصلية للتّربية والتّعليم وترك المناهج الأخرى.[3]

وحتّى تتحقّق أهداف التّربية ومقاصدها، ينبغي على القائمين عليها أنْ يكونوا قدوة؛ يتمثّلونها في سلوكاتهم اليومية، ويمتلكون الكفاءة اللّازمة والخبرة الكافية والإحاطة بأصولها، لذلك ينبغي أنْ يقوم الإصلاح التّربوي على التّربية الإسلامية التي تعتمد على مصادر الدّين الإسلامي المتمثّلة في القرآن الكريم وما يشتمل عليه مِنْ عقائد وعبادات وأخلاق وأحكام، لأنّه بالتّربية يُتَوَصَّل إلى معرفة الله والقُرب منه وعبادته كما أمر لقوله تعالى:﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[سورة محمّد]، وبالقرآن الكريم وبالهدي النّبوي الشّريف يبتعد النّاس عن الشّرور وتصلح حياتهم وتنتظم شؤونهم ويسعدون في الدّارين.

---

[1] ينظر: خالد بن حامد الحازمي، أصول التّربية الإسلامية، مرجع سابق: ص217.

[2] **أحمد شرشال:** ولد سنة 1951م بعين الدّفلى بالجزائر، ودَرَسَ في مدارس التّعليم الأصلي بولاية المدية، ثمّ سافر إلى المدينة النّبوية بالمملكة العربية السعودية ودَرَسَ بجامعتها الإسلامية أين تحصل فيها على اللّيسانس والماجستير والدّكتوراه، مِنْ مؤلّفاته: رسالة الماجستير: "تحقيق ودراسة الطِّرَازُ في شرح ضبط الخَرَّازِ للتَّنَسِي"، وأطروحة الدّكتوراه: "مختصر التّبيين لهجاء التّنزيل لأبي داود سليمان بن نجاح -دراسة وتحقيق-، مخالفات النُسّاخ ولجان المراجعة والتّصحيح لمرسوم المصاحف، أصول التّربية والتّعليم كما رسمها القرآن الكريم وأثرها في بناء الشّخصية واتّزانها، ينظر: سالم بوحامدي، دليل الطّالبين إلى معرفة القرّاء الجزائريين المجازين، دار الإمام مالك للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2013م، ج2، ص500، وينظر: مقال بعنوان: "الشّيخ المحقّق أحمد بن أحمد بن معمّر شرشال الجزائري"، لأبي تيمية، المكتبة الشّاملة الحديثة، أرشيف ملتقى أهل التّفسير: https://al-maktaba.org، تاريخ النّشر: 11جانفي 2003م، تاريخ الزيارة: الثلاثاء: 07 ماي 2019م، في الساعة: 08:30 صباحا.

[3] ينظر: أحمد بن أحمد شرشال الجزائري، أصول التربية والتعليم كما رسمها القرآن الكريم، دار الحرمين للطباعة، القاهرة، مصر، ط1، 2003م، ص9و10.

كما تعتبر سِيَرُ الصّحابة ﷺ مِنْ أفضل السّير لكونهم تربّوا في مدرسة الرسول الله ﷺ، واقتدوا به وامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه، فكانوا بذلك مصدرا لتربيتنا، وقد قال فيهم الله تعالى:﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾[سورة التّوبة]، ولقوله ﷺ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»[رواه التّرمذي][(1)]، ويضاف إلى تلك المصادر؛ جهود العلماء في إرشاد الأمّة وتنويرها بالعلوم والمعارف، لقوله ﷺ: فيهم: «**فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاهُمْ**»[رواه التّرمذي].[(2)][(3)]

ثمّ يأتي التّراث وما يشتمل عليه مِنْ تراكمات معرفية وعلمية، ومِنْ إبداعات للعقل البشري في شتّى المجالات، فيسهم في الإصلاح التّربوي بحسن تربية الإنسان وجعله مفيدا بما يقدّمه مِنْ إنتاج فكري يضاف إلى إبداعات الأمّة الإسلامية عبر التّاريخ، واستثمارها في تجسيد التّربية الصّحيحة[(4)]، دون إغفال خبرات غير المسلمين ودون التّماهي فيهم، حفاظا على هوية الأمّة الإسلامية وثوابتها.

فالعلم مِنْ مصادره الأساسية، لهذا أمر الله الإنسان بطلب العلم، ووهبه الاستعداد للتّعلم بالعقل والقلب والحواسّ، ومنحه الإرادة وحرّية الاختيار، لاكتسابه وتحقيق تقوى الله تعالى وعبادته.

فالتّربية كما قال الكواكبي: "مَلَكَةٌ تحصل بالتّعليم والتّمرين والقدوة والاقتباس، فأهمُّ أصولها وجود المربّين، وأهمُّ فروعها وجود الدّين، وجَعلتُ الدّين فرعا لا أصلا؛ لأنَّ الدّين علم لا يفيد العمل إذا لم يكن مقرونا بالتّمرين"، وعليه فالتّربية أمر كسبي وتصير مَلَكَةٌ مستحكِمة بالتزام مبادئها التي تلقّاها المتربّي مِنْ مربّيه، كما أنّ هذه الملكة تسير وفق ما نشأ عليه المربّي؛ إنْ على الخير أو على الشّر، وبناء عليه تُنتج إنسانا صالحا أو طالحا، وهذا ما أكّده في قوله: "مَلَكَةُ التّربية بعد حصولها إنْ كانت شرّا تضافرت مع النّفس ووليها الشّيطان الخنّاس فرسخت، وإنْ كانت خيرا تبقى مقلقلة كالسّفينة في بحر الأهواء، لا يرسو بها إلّا فرعها الدّيني في السرّ والعلانية، أو الوازع السّياسي عند يقين العِقاب".[(5)]

[(1)] أخرجه محمد بن عيسى الترمذي، أبو عيسى، سنن التّرمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، القاهرة، ط2، 1975م، كتاب: العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنّة واجتناب البدع، ج5، ص44، حديث رقم: 2676، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

[(2)] أخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ج5، ص50، حديث رقم: 2685،قال الألباني:حديث صحيح.

[(3)] ينظر: خالد بن حامد الحازمي، أصول التّربية الإسلامية، مرجع سابق: ص235 و237.

[(4)] ينظر: سعيد إسماعيل علي وآخرون، التربية الإسلامية الفهومات والتطبيقات، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 2004م، ص45.

[(5)] ينظر: عبد الرّحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، المطبعة العصرية، حلب، طبعة جديدة منقحة، (د د)، (د ط)، (د ت)، ص116و117.

ثانيا: خصائص إصلاحاته التّربويــة: مِنْ أهمّ خصائص إصلاحاته التّربوية أنّها:

أ)- ربّانيــة: تنطلق ابتداء مِنَ الإسلام وتعتمد عليه، فالله ختم به الرّسالات وبعث به محمّدا ﷺ الذي أوحى إليه القرآن والسنّة لتربية الإنسان وإعطائه تصوّرا كاملا واضحا عن الله والكون والحياة، لعبادة الله تعالى وتوحيده، ومِنْ ثَمَّ عمران الأرض وتحقيق الاستخلاف فيها.

ب)- الشّمول: كان الشّيخ محمّد عبدَه ينشد بإصلاحاته التّربوية مختلف شرائح المجتمع المصري ونظراءه في الأمّة العربية والإسلامية، فكانت موجَّهَة للنّاس كافّة ومناسبة لهم، وشاملة لكلّ الأزمنة والعصور، وحاول أنْ يجعلها شاملة لجميع جوانب الشّخصية الإنسانية ولكلّ مراحلها الحياتية.

ت)- عقلانيــة: باحترامها لعقل الإنسان الذي أكرمه الله به، وجعله مناط تكليفه، وبه يفهم سنن الله في الكون والحياة، ويدرك حقيقة نفسه والوجود، ويتعلّم العلوم ويعلّمها لغيره ويربّيه عليها.

ث)- دائمة مستمرة: فالتّربية لصيقة بالإنسان تصاحبه مِنْ ولادته إلى وفاته، لا تنفكّ عنه إلا بمفارقته للحياة، ولأنّ نفس الإنسان تتنازعه دوافع الخير والشّرّ داخليا وخارجيا، فهو عرضة للخطأ والزّلل والانحراف والفساد، فكان الإصلاح ملازما له، ويستمرّ معه إلى آخر لحظة مِنْ حياته.

ج)- متوازنة ووسطية: لقد راعى الشّيخ محمّد عبدَه حاجات الإنسان، فعمل على تربيته على كيفية تلبيتها بشكل متوازن بلا إفراط ولا تفريط، وإشباع حاجاته الرّوحية والجسدية والدّنيوية والأخروية والعقلية والوجدانية وفق كتاب الله وسنّة رسوله، حتّى يكون إنسانا سويّا صالحا ومصلحا.

ح)- واقعيــة: على اعتبار أنّ الإنسان مستخلف في الكون يسعى للقيام بالأدوار المنوطة به بشكل دائم ومتناغم مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية؛ كان مسلك الشّيخ في تحقيق إصلاحاته، هو جعل الإنسان قادرا على اكتساب العلوم والمعارف والمهارات وتوظيفها بما يناسب الحياة الرّاقية التي تحقّق كرامته، بلا مثالية ولا انغماس كلّي فيها، حتّى يحقّق النّفع لخاصّة نفسه وللإنسانية جميعا.[1]

ثالثا: أهداف إصلاحاته التّربويــة

لمّا كانت الشّريعة الإسلامية وروحها منطلق الشّيخ محمّد عبدَه في الإصلاح؛ جعل هدفه الأسمى تحقيق عبودية الإنسان لله تعالى، والتّوافق مع القرآن والسنّة والفطرة والحقائق العلمية وعدم مخالفتها، وكذا إعداد أمّة قائمة على روابط العقيدة الإسلامية وتشريعاتها لقيادة العالم وتحقيق الأمن والسّلام والصّلاح، لمغالبة أعداء الأمّة الذين يريدون الفتنة والفساد وقطع الطّريق أمامها.[2]

والتّربية الإسلامية تستهدف بناء فرد سويّ قادر على تحمّل الأمانة والاستخلاف في الأرض، وعلى التّمييز بين الخير والشرّ لإقامة مجتمع ربّاني، لأنّ بناء الفرد هو العامل الوحيد القادر على الحفاظ على العقائد والقيم والأرض، وحماية أرض الإسلام، والدّفاع عن كيان الأمّة، وحمل رسالتها للعالمين.[3]

والإصلاح التّربوي يستهدف إصلاح الإنسان، بتمكينه مِنْ تحصيل العلوم والمعارف واكتساب المهارات، وحفظ قوانين الطّبيعية والحياة، وتنمية أحاسيسه، وتربية مشاعره وضميره ووجدانه،

---

[1] ينظر: سعيد إسماعيل علي وآخرون، التّربية الإسلامية الفهومات والتّطبيقات، مرجع سابق: ص24و25.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص56و58.

[3] ينظر: أنور الجندي، التربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام، مرجع سابق: ص158و159.

وتربية الإرادة الحرّة الواعية لديه، وكذا القيم الإيمانية الخُلقية النّابعة منها، وأنماط السّلوك التّابعة لها[1]، فينتج عن ذلك؛ إيجاد إنسان متحرّر مِنَ العبودية والجهل، فالجاهل لا يمكنه ممارسة حقوقه بنجاح ولا المشاركة في تقدّم بلاده، لذلك قدّم الشّيخ محمّد عبدَه التّربية على غيرها مِنَ المجالات.

الفرع الثّاني: تجاذبات الإصلاح التّربـوي

عندما توجّه الشّيخ محمّد عبدَه إلى الإصلاح التّربوي، لقي معارضة كبيرة مِنْ أهل الجمود المسلمين، ومِنَ التّغريبيّين الذين تسندهم السّلطة التي تنكّرت له باسم الانفتاح والتّحضّر، وأدارت ظهرها لمساعيه الإصلاحية بعرقلته وبإبعاده عن مؤسّسات التّربية والتّعليم، حتّى تحافظ على مصالحها الخاصّة، وحتّى تستجيب لمطالب الاستعمار البريطاني الذي استهدف ثوابت وهويّة الأمّة الإسلامية.

ونظرا لغلبة الفهم المادي للتّربية عند الأوروبيّين الذين بسطوا نفوذهم على العالم العربي والإسلامي، ونَظَّرُوا لمختلف التّخصّصات التّربوية في ظلّ الثّورة الصّناعية والتّطور المادي الكبير الذي أثّر بقوّة على تربية المسلمين، فبدأوا يجنحون إلى التّربية المادية وإغفال الجانب المعنوي فيها؛ هنا توجّهت جهود الشّيخ محمّد عبدَه للجمع بين الشِّقَّين في إصلاحاته التّربوية، لإحداث التّوازن بينهما حتّى توافق الفطرة الإنسانية وتتناغم مع الدّين الإسلامي، وتخدم جميع جوانب الحياة الإنسانية.

فكان مِنَ الأوائل الذين نادوا إلى الإصلاح التّربوي في مصر وفي العالم العربي والإسلامي، وفي كلّ المؤسّسات الدّينية والتّعليمية التي تضطلع بالتّربية والتّعليم، وعمل على تجسيده ميدانيا وحَمَل نفسه على تنفيذه باللّسان والكتابة والممارسة بنَفَس طويل متجدّد وإيمان قويّ، فلم تُثْنِ عزيمته المعوّقات والعراقيل والمكائد، لإصلاح واقع أمّته البئيس الذي أحاطت به الرّداءة والجمود والتّخلّف والخرافة، وتكالبُ الاستعمارَيْنِ البريطاني والفرنسي عليه منذ أواخر القرن الثّامن عشر الميلادي، لاستدراجها للارتماء في أحضانه، وجَعلِها تتطلّع وتتلقّف كلّ ما يصدر مِنَ الحضارة الأوروبية المادية.

فتصدّر للإصلاح التّربوي بإعمال نظرته التّربوية خلال مساره الإصلاحيّ، وركّز جهده الأكبر على الجانب التّطبيقي بسعيه الحثيث إلى ترجمة أفكاره ومقالاته في الواقع المصري المتردّي، الذي حاول إصلاحه وتجديده بديناميكية وحركية وفاعلية، الأمر الذي دفعه إلى العمل على تحويل أفكاره التي بثّها في أدمغة المتلقّين إلى شخوص حيّة تسعى في الميدان إلى الإصلاح الفعلي بإيجابية متناهية.[2]

الفرع الثّالث: التّعريف الإجرائي للإصلاح التّربـوي

وعليه؛ **فالإصلاح التّربوي**: هو تلك الجهود الفكرية والبدنية النّظرية والتّطبيقية التي يستهدف بها القائمُ بالعملية التّربوية النّاشئةَ وكلّ الشّرائح العمرية على اختلاف أجناسها، في مختلف الميادين والمجالات الرّسمية وغير الرّسمية؛ كالأسرة والمدرسة والمسجد والإعلام والمطبوعات وغيرها مِنَ المؤسّسات، بتوجيهها وتقويمها وتكوينها عقديا وأخلاقيا وعقليا ومعرفيا ووجدانيا وروحيا وبدنيا، بشتّى الأساليب والوسائل المشروعة والطّرائق الصّحيحة والمناهج السّليمة، اعتمادا على أصول ومصادر ذات مرجعيّة دينيّة مقدّسة معصومة مِنَ التّحريف، لها أهداف ومقاصد سامية، وكذا بالاستئناس بما لدى

---

[1] ينظر: علي أحمد مدكور، مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، (د ط)، 2001م، ص31و32.

[2] ينظر: سعيد إسماعيل علي، الإصلاح التّربوي عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص647و648.

الأوروبيّين وغيرهم الأمم مِنْ أفكار تربويّة متناغمة مع تراث المسلمين التّربويّ، لتحقيق مصالح الإنسان الآنية والمستقبلية حتّى ينعم بالسّعادة ويحقّق العمران والاستخلاف في الأرض.

والخلاصة: أنّ الشّيخ محمّد عبدَه اعتمد مفهوما شاملا للتّربية وللإصلاح وللإصلاح التّربوي، توخّى فيها كلّها فلسفةً حاول مِنْ خلالها إزالة كلّ الممارسات التّربويّة السّقيمة في المؤسّسات التّربوية المصريّة، بتعقّب اختلالاتها لتجسيد رؤيته انطلاقا مِنْ تراث المسلمين التّربويّ، وكذا بما جاد به فكر الآخر المتناغم مع مرجعيَّته الدّينيّة حتّى يواكب علم التّربية الحديث والتّطوّرات الإنسانيّة الحديثة.

وبعد تحديد مفاهيم الدّراسة؛ سيتمّ التّعريف بشخصية الشّيخ محمّد عبدَه، وعرض الأحوال السّائدة في عصره، ودواعي قيامه بالإصلاح التّربويّ في مطالب وفروع الفصل الأوّل مِنَ الأطروحة.

الفصل الأوّل:
حياة الشّيخ محمّد عبدَه والأحوال السّائدة في عصره ودواعي إصلاحه التّربوي

المبحث الأوّل: حياة الشّيخ محمّد عبدَه

المبحث الثّاني: الأحول السّائدة في عصر الشّيخ محمّد عبدَه

المبحث الثّالث: دواعي الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه

الفصل الأوّل: حياة الشّيخ محمّد عبدَه وأحوال عصره ودواعي إصلاحه التّربوي

تمهيد:

حياة الشّيخ محمّد عبدَه مبسوطة في كتب الدّارسين، وفي الوثائق التي أرّخت لحياته انطلاقا ممّا كتبه عن نفسه، وممّا كتبه عنه تلامذته أمثال محمّد رشيد رضا، والقصد مِنْ عرضها هو محاولة إبراز إصلاحاته التّربوية بالتّعرّض لحياته الاجتماعية والعلمية، ورحلاته الطّوعية وأسفاره القسرية، والدّروس والعبر المستخلصة منها، للاستفادة منها وتوظيفها في خدمة أمّته والنّهوض بها.

وسأتّطرّق إلى أهمّ العوامل التي جعلته مِنْ أقطاب الإصلاح، بذكر الشّيوخ الذين هيّأوه لذلك، فكانت له جهود تربوية وإصلاحية كبيرة امتدت إلى وفاته، فقد كوّن رجالا مصلحين وعلماء ومفكّرين واصلوا مِنْ بعده رسالة الإصلاح، كما سأشير إلى المناصب التي تولاّها والنّشاطات التي قام بها، وكذا إلى شهادات ومواقف العلماء والمفكّرين والسّاسة المسلمين وغير المسلمين مِمَّنْ وافقوه على إصلاحاته، أو مِمَّنْ خالفوه فيها، وهو ما يدلّ على أنّ أفكاره الإصلاحية كانت محلّ دراسة وتقييم مِنَ المتخصّصين الذين اعتبروه زعيم مدرسة إصلاحية كان لها تأثيرها المحلي والإقليمي والعالمي.

وبالنّسبة لأحوال عصره؛ فقد كانت تتّسم بتنازع الأمراء على الحكم، وتربّصهم ببعضهم البعض، وتعصّبهم للنّسب والعرق، حتّى تدخّلت الدّوائر الاستعمارية في شؤونهم الخاصّة، وسّيطرت عليهم، وصاروا رهن إشارتها فزادوا بذلك مِنْ تدهور أوضاعهم الدّاخلية، وأمّا الرّعية فقد كانت مهزومة نتيجة استبداد حكّامها بها، الذين كرّسوا الأمّية والجهل فيها وجعلوها تستمرئ الذلّ والخنوع والخوف، حتّى ماتت فيها روح المقاومة، وأُبعدت عن المشاركة في شؤون الأمّة المختلفة.

ومصر واحدة مِنْ دول العالم الإسلامي التي سادها الفساد السّياسي لاستبداد أمرائها وعمالتهم للغرب الصّليبيّ الذي استعمرها، وأفشى الظّلم والفقر والجهل فيها، وجعلها تنبهر بمدنيّته وتحتقر موروثها الحضاري، وتربط أسباب تّخلفها بدينها، فتعس شعبها اجتماعيا، وتدهور اقتصاديا، وعانى مِنْ فوضى التّسيير، مقابل بذخ الطّبقة الحاكمة وتباهيها بالفساد أمام الغرب المتطوّر، فنجم عنه ضمور القيم والمبادئ الإسلامية، فنزلت إلى الحضيض عوض أنْ تكون في الرّيادة.

كما اتّسمت الحياة العلمية والفكرية بالرّكود والعقم والجمود، والتّركيز على الحفظ والتّلقين دون الفهم والمناقشة والنّقد والتّحليل، وقُتلت فيها روح المبادرة والابتكار وأُجهضت كلّ محاولات الإبداع، وصارت تترنّح بين الانكفاء على الذّات وغلق باب الاجتهاد ورفض كلّ منجزات الحضارة الغربية المتطوّرة، وبين الارتماء في أحضان الغرب وتلقّف كلّ ما يصدر منه دون غربلة أو تمحيص.

إنّ الأوضاع القاتمة التي سادت الأمّة الإسلامية والمجتمع المصريّ خصوصا، كرّستها الأنظمة الحاكمة ومَنْ شايعها مِنْ شيوخ الأزهر الجامدين، ومِنْ ورائهم الاستعمار الغربيّ الذي بسط نفوذه على أراضيها، ونهب خيراتها، ووظّف كلّ ما توفّر لديه مِنَ الوسائل والأساليب والمستشرقين والمنصّرين لغزوها عقديا وفكريا وثقافيا وماديا، وتشويه شخصيتها ومسخ هويتها، والسّيطرة عليها والتّحكّم فيها، حتّى يحقّق مصالحه الخاصّة ومآربه الضيّقة على حساب مصالح الأمّة العربية والإسلامية.

المبحث الأوّل: حياة الشّيخ محمّد عبدَه

المطلب الأوّل: نشأتـــه وشخصيته وأخلاقه

المطلب الثّاني: حياته العلمية ورحلاته وآثاره

المطلب الثّالث: شيوخـــه وتلامذتـــه

المطلب الرّابع: المناصب التي تولاها ونشاطاته

المبحث الأوّل: حياة الشّيخ محمّد عبدَه

تمهيد:

في هذا المبحث سأتتبّع تفاصيل حياة الشّيخ محمّد عبدَه مِنَ الولادة إلى الوفاة، بتقديم عرض شامل عنها لإعطاء تصوّر شامل ومتكامل عن جهوده في الإصلاح التّربوي، قصد تجلية العلاقة الوطيدة بين مميّزات حياته الشّخصية وانعكاساتها على إصلاحاته.

لذا سأتحدّث عن نشأته وشخصيته وأخلاقه، وعن حياته العلمية ورحلاته وأسفاره والظّروف التي ألزمته ركوبها، وما تركه مِنْ مؤلّفات وكتابات مختلفة محفوظة في المكتبات العامّة والخاصّة، كما سأذكر شيوخه الذين تربّى على أيديهم وتلقّى عنهم العلوم والمعارف، ودورهم في تشكيل شخصيته وصياغة فكره، حتّى صار له ذلك الحضور المتميّز في الصّعد المحلّية والإقليمية والعالمية، وكذا ما خلّفه مِنْ تلامذة تَرَبَّوْا على يديه وأخذوا عنه، ورفعوا راية التّربية والإصلاح مِنْ بعده.

بالإضافة إلى تجلية دوره الفاعل بدخوله معترك الإصلاح التّربوي مِنْ خلال تولّيه للعديد مِنَ المناصب السّامية المهمّة، ومزاولته للكثير مِنَ النّشاطات المتنوّعة، وتوظيفها في تجسيد مشروع إصلاحاته التّربوية التي اجتهد في الوفاء بها وتحقيق الأهداف التي رسمها والمقاصد التي رمى إليها.

وفي ختام المبحث سأتّطرّق إلى شهادات العلماء والمفكّرين والمصلحين والسّاسة والمتخصّصين والدّارسين لجهوده الإصلاحية مِنَ المسلمين وغيرهم، وسأعرض المواقف المتباينة المتّخذة مِنْ طرفهم حول الطّروحات والأفكار التّربوية الإصلاحية التي تبنّاها وأبداها ولفت أنظار المتابعين له بشأنها، وفي آخر محطّة مِنَ المبحث سأعرّج للحديث عن وفاته، والفراغ الكبير الذي تركه، والذّكر الحسن الذي خلّد اسمه بين المصريّين والعرب والمسلمين وغيرهم مِنْ أهل الملل والنّحل الأخرى.

المطلب الأوّل: نشأتـه شخصيته وأخلاقه

للشّيخ محمّد عبدَه نسب عريق، ونشأة متميّزة وسيرة حسنة مِنْ صغره إلى كبره، حيث ساقته الظّروف إلى سلوك طريق العلم والمعرفة، والاحتكاك بشيوخ أهل بلدته الذين ساهموا في توجيهه نحو التّديّن وتحصيل العلوم والمعارف، الأمر الذي جعله يطلب العلم ويلج مجال الإصلاح عموما والإصلاح التّربوي خصوصا، فجاء هذا المطلب ليبسط الحديث في ثلاثة فروع عن نشأته وشخصيته وأخلاقه.

الفرع الأوّل: نشأتـــه

أوّلا : اسمه ونسبه ومولده

هو محمّد عبدَه بن حسن خير الله، ولد في عهد الخديوي عباس حلمي الأوّل[1] في قرية محلّة نصر بمركز شبراخيت بمحافظة البحيرة بمصر سنة 1849م، عرّف نفسه قائلا: "أوّل ما عقلتُ، عرفتُ أنّي ابن عبدَه خير الله مِنْ سكان قرية محلّة نصر بمركز شبراخيت مِنْ مديرية البحيرة، جَدّي لأبي كان يسمّى حسن خير الله، ولدتُ في أواخر سنة خمس وستين بعد المئتين والألف مِنَ الهجرة".[2]

ويرجع أصل الشّيخ محمّد عبدَه إلى التُّركمان، حيث سأل والدَه عن نسب أسرته بعدما سمع أهل بلدته يمزحون معه فيلقّبون بيته ببيت التُّركمان، فقال: "سألتُ والدي عن ذلك فأخبرني أنّ نسبنا ينتهي إلى جدٍّ تُركماني جاء مِنْ بلاد التّركمان في جماعة مِنْ أهله وسكنوا في الخيام بمديرية البحيرة، أمّا بيت والدتي فيقال أنّه عربي قرشي يتّصل في النّسب بعمر بن الخطاب ﷺ ولكن ذلك كلّه روايات متوارثة لا يمكن إقامة الدّليل عليها، ولهذا يترجّح عندي جانب صحّة الخبر"[3]، فعرّف الشّيخ نفسه بأنّ أصوله تُركمانية، وأنّ أصول أمّه عربية، والنّاس يُصَدَّقون في أنسابهم كما تقول النّسّابة.

ثانيا: أسرتــه

تربّى محمّد عبدَه في عزّ والديه فرضع حبّهما وجسّد برّهما، فقد كان يُجلّ والدَه لِمَا كان يمتاز به مِنْ شهامة وشجاعة ووقار وهيبة بين أهله وجيرانه وحتّى عند عمدة البلدة، كما كان يُكْبِرُ في أبيه كرمَه وسخاءَه وحسن ضيافته للغرباء والفقراء، وشدّته وقسوته على أعدائه[4]، فوالده كان مِنْ أهل الطّبائع السّليمة والأخلاق القويمة، وأُمُّه كانت تنتمي إلى إحدى بيوتات قرى طنطا المعروفة ببيت آل عثمان[5]، واسمها جَنِينَة بنت عمر عثمان، مِنْ حصّة شبشير مِنْ مركز السَّنطة بمديرية الغربية، تنتمي أسرتها إلى قبيلة بني عَديّ وهي قبيلة عمر بن الخطاب ﷺ[6]، كانت أمّه تحظى بمكانة مرموقة بين الأهل والجيران

---

[1] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية: جمال الدين الأفغاني، محمّد عبدَه، سعد زغلول، دار الكاتب العربي للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، (د ط)، (د ت)، ص166.

[2] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص13و14و16.

[3] المصدر نفسه: ج1، ص16و19.

[4] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، المرجع السابق، ص166، وينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص15.

[5] ينظر: أحمد تيمور باشا، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، (د ط)، 2003م، ص143.

[6] ينظر: جمال الدّين الأفغاني ومحمّد عبده، العروة الوثقى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، (د ط)، 2015، ص25.

لِمَا كانت تُعْرَفُ به مِنْ ذكاء وقّاد وحياء شديد، ورحمة بالضّعفاء وإكرامهم، فهي تَعْتَبِرُ ذلك طاعة تتقرّب بها إلى الله تعالى، فهذه الخلال الفطرية ورثها أبواه بالقدوة والمعاشرة مِنْ أهل بلدتهم العريقة.[1]

فقد ترعرع في أسرة تعتزّ بكثرة رجالها، ومقاومتهم لظلم الحكّام، وتحمّلهم في سبيل ذلك للعديد مِنَ التّضحيات؛ هجرة وسجنا وتشريدا وضياعُ ثروةٍ وكلّ ما كانت تحوزه مِنْ خير ومتاع.[2]

إنّ تلك الخصال التي طبعت شخصية والدَيْ محمّد عبدَه، والتي اكتسباها بالتّربية والمعاشرة والقدوة في محيطهم الأسري البسيط، فانعكست على شخصية محمّد عبدَه وبرزت في سلوكاته لمّا تصدّى للإصلاح، فرَغَّبَ النّاس في الاقتداء به والسّير بسيرته التي رضعها مِنْ مبادئ الإسلام وقيمه.

ثالثا: شبابــه

تميّز محمّد عبدَه في صباه بالكمال الجسماني بالوراثة والنّشأة الرّيفية، فقد كان ذا منزلة خاصّة عند أبويه؛ فهو أصغر الأبناء وأنجبهم، ولمّا رُبّيَ على الحرّية؛ نَشَأَ على الاستقلال والجرأة والإقدام.[3]

كما كان للبيئة التي نشأ فيها تأثير كبير على حياته، حيث مارس العديد مِنَ الرّياضات والأنشطة المعروفة بين أهل بلدته، فأكسبته بِنْيَةً متينة وشخصية قوية، وهي الأمور التي ينبغي أنْ تُربّى عليها النّاشئة لما لها مِنْ آثار إيجابية عليها نفسيا وعقليا وبدنيا.

فقد مارس الشّيخ رياضة الفروسية وسباق الخيل في شبابه، كما تدرّب على استعمال السّلاح في صباه وبرع فيه في الوقت الذي كانت مصر تعيش نفوذا أجنبيا شرسا مكّن الإنجليز مِنِ احتلالها.[4]

وفي الشّريعة الإسلامية أرشد رسول الله ﷺ أمّته إلى تلك الرّياضات وحثّهم على التدرّب عليها، لما فيها مِنْ التّسلية والتّرويح، ولما لها مِنْ فوائد صحيّة على الجسم والعقل والرّوح، ولحاجة الإنسان إليها في الأزمات والخطوب، فضلا عن أنّ في القيام بها أجرا كبيرا إذا كانت بِنِيَّةِ الاقتداء بالنّبي ﷺ، فقد أمر الله المسلمين بالإعداد والاستعداد لمواجهة أعداء الإسلام الذين يمكرون به وبالمسلمين لقوله تعالى:﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ﴿٦٠﴾﴾[سورة الأنفال]، وكذا ما رواه سلمة بن الأكوع ﷺ أنّ النّبي ﷺ مَرَّ على نفر مِنْ أسلم ينتضلون -يتسابقون في الرّمي-، فقال لهم: «**ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا، ارْمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ**»[رواه البخاري][5]، وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، أنّ عمر ﷺ كتب إلى أبي عبيدة: «**أَنْ عَلِّمُوا صِبْيَانَكُمْ العَوْمَ، وَمُقَاتِلَتِكُمُ الرَّمْيَ**»[رواه أحمد في مسنده]و[ابن حبّان في صحيحه].[6]

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص13و19.

[2] ينظر: محمّد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص12.

[3] ينظر: جمال الدّين الأفغاني ومحمّد عبدَه، العروة الوثقى، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، (د ط)، 2015م، ص27.

[4] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، ترجمة عباس محمود، مراجعة وتعليق أحمد زكريّا الشّلق، المركز القومي للتّرجمة، القاهرة، مصر، (د ط)، 2015م، ص21.

[5] أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: التّحريض على الرّمي، ج4، ص38، حديث رقم: 2899.

[6] أخرجه أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشّيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1995م، باب: أول مسند عمر بن الخطاب ﷺ، ج1، ص302، حديث رقم: 323، وينظر: محمّد بن حبّان=

وفي الأثر عن مكحول أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ كتب إلى أهل الشّام: "**أنْ عَلِّمُوا أَوْلَادَكُم السِّبَاحَةَ والرَّمْيَ والفُرُوسِيَةَ**"[رواه المتّقي الهندي في كنز العمال].[1]

وتأكيدا لهذه النّشأة التي عاشها محمّد عبدَه في صباه قال عنه تلميذه محمّد رشيد رضا: "نشأ في بيت يوصف أهله بالأخلاق الفطرية الحميدة التي لا ينقصها إلّا نور العلم وقد كان له، وأنّه لم يُعْنَ في صباه إلا بالفروسية وأعمال الرّجولية فكان يلعب بالسّلاح ويسابق النّاشئين معه على ظهور الجياد ويُكثر مِنَ السّباحة، وهذه الألعاب ممّا يحسن أنْ يُربَّى عليها الوِلدان بالقصد"[2]، فقد: "شبّ الأستاذ على قَدَمِ أبيه مُحِبًّا للفروسية والرّماية والسّباحة، حتّى شهر بذلك بين أترابه في القرى المجاورة"[3]، وقد كان محمّد عبدَه في شبابه مِنْ أفراد النّاس في قوة العضل، حتّى إنّه دفع حصانا جامحا فأرجعه إلى الوراء حتى وقع على عقبه.[4]

لقد كانت تربية محمّد عبدَه برعاية خاصّة وتوجيه مقصود مِنْ والده الذي كان حريصا على أنْ يكون ابنه كاملا بدنيا ونفسيا وعلميا، فلم يكن له ذلك التّكوين بمحض الصّدفة والعفوية.

رابعا: تديّنه وعبادتــه

كما اهتمّ الشّيخ محمّد عبدَه ببنيته الجسمية في شبابه، تفرّغ في المقابل لطلب العلم الشّرعي والتّكوين الدّيني، خصوصا بعدما التقى بخال أبيه الصّوفي المتمرّس الشّيخ درويش خضر، الذي لازمه وتأثّر به ومشى على طريقته في الزّهد والتّصوّف، فكان يقضي ليله قائما ونهاره صائما بين التّلاوة والذّكر، لا يكلّم أحدا إلا بقدر، وكان يلبس الخشن ويأخذ نفسه بالرّياضات والتّأمّلات، لكنّه ما لبث أن عَدَلَ عن هذه النّزعة الصّوفية بمجرّد اتّصاله بجمال الدّين الأفغاني الذي جعله يحمل رسالة الإصلاح التي فرضت عليه الانفتاح على العالم الخارجي وخوض معترك التّغيير.[5]

إنّ الذين كتبوا عن حياة الشّيخ محمّد عبدَه ذكروا أوصافه الخَلْقية، إشارة منهم إلى اهتمامه بجسمه ودينه وروحه رغبة منه في تحقيق الكمال الشّخصي والتّوازن النّفسي، وما ذكروه مِنْ أوصاف خَلقية، كانت دعوة منهم للتّأسي بمثل هؤلاء الأعلام في الاهتمام بالظّاهر والباطن، وبالجسم والرّوح، لإحداث التّوازن بينهما، ولتغليب الاهتمام بالرّوح على الاهتمام بالجسم، فوافق ذلك ما قاله أبو الفتح البُسْتِيّ في نونيته: أَقبِلْ على النّفس واستكمل فضائلها * * * فأنت بالنّفس لا بالجسم إنسان.

=التّميمي أبو حاتم الدّارمي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسّسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1993م، ج13، ص400، حديث رقم: 6037، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن، وقال الألباني: حسن.

([1]) أخرجه علاء الدين علي المتقي بن حسام الهندي البرهانفوري الشهير بالمتقي الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حياني وصفوة السقا، مؤسّسة الرسالة، ط5، 1985م، فصل في آداب متفرقة، القراب في فضائل الرمي، ج4، ص467، حديث رقم: 11386.

[2] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص106.

[3] أحمد تيمور باشا، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، مرجع سابق: ص144.

[4] ينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج8، ج23، ص881.

[5] ينظر: عبد المتعال الصعيدي، المجدّدون في الإسلام من القرن الأوّل إلى الرابع عشر(100هـ- 1370هـ)، مكتبة الآداب، القاهر، (د ط)، 1996م، ص403.

فكلّ مَنْ عَرف الشّيخ محمّد عبدَه شهد له بكمال التّقوى والورع والعفّة والاستقامة حتّى وصفه بعض الفرنجة بالقداسة، فقد كانت أكثر أعماله عبادة، وساعات نهاره مقسومة على الأعمال المتعدّية النّفع التي هي أفضل مِنْ نوافل العبادات إلّا في شهر رمضان، حيث كان يقول إنّ هذا الشّهر لا يتّسع لغير العبادة المحضة؛ كالذّكر والصّلاة والتّلاوة، فكان مواضبا على التهجّد لا يتركه في سفر ولا حضر، وكان كثير القيام في غير رمضان، شديد المحافظة على الصّلوات، وقد بلغ الأمر بحاسديه الذين أرادوا أنْ يحرموه مِنْ نيل شهادة العالمية؛ أنِ اتّهموه بترك الصّلاة أيّام طلبه للعلم، فسألَ شيخُ الأزهر المهدي العباسي عنه رفاقَه، فشهدوا له بأنّه أشدّهم محافظة على الصّلوات، وقال عنه الشّيخ محمّد بخيت المخالف له في أفكاره وآرائه: "إنّنا دائما نقدِّمه فيؤمُّنا في صلاة الجماعة لتقواه وصلاحِه".[1]

خامسا: مذهبه الفقهي والعقـدي

إنّ شهرة الشّيخ محمّد عبدَه التي بلغت الآفاق بسبب ما خلّفه مِنْ تلامذة، وبما تركه مِنْ آثار علمية مكتوبة، وأعمال تشهد له بالصّلاح بعد مرور ما يقارب مِنْ قرن وربع القرن مِنْ وفاته؛ جعل المهتمّين بفكره وبآثاره وبمنهجه الإصلاحي مِنَ العرب والمسلمين وغيرهم مِنْ أهل الملل والنّحل والإيديولوجيات المختلفة يدرسون مذهبه العقدي والفقهي.

فقد كُتب عن الشّيخ محمّد عبدَه كلام كثير ووصف بأوصاف متناقضة؛ فقالوا عنه بأنّه سلفي محافظ، وبأنّه صوفيّ روحانيّ، وبأنّه معتدل، وبأنّه حَدَاثيّ، بل وقالوا عنه بأنّه ماسونيّ ساذج، كما تساءلوا عن مذهبه؛ هل هو سنّيّ أم شيعيّ؟[2] وغيرها مِنَ التّساؤلات التي تحتاج إلى التّحقيق والبيّنات والوثائق، لهذا أوردتُ في هذا السّياق بعضَ ما قيل عن دينه ومذهبه.

فقد سأل أحد أعضاء جمعية العروة الوثقى -التي يرأسها جمال الدّين الأفغاني- الشّيخَ محمّد عبدَه عن مذهب الجمعية، فكتب إليه الشّيخُ يقول: "إنّنا سُنِّيُّون، أشعريُّون أو ماتريديُّون، وإنّنا في أعمال العبادات دائرون على المذاهب الأربعة، وفي المعاملات على مذهب حاكم البلاد، إنْ وافق واحدا منها، فإنْ كان على غيرها تَوَقَّيْنا المرافعة إليه ما أمكننا"[3]، وقال عنه محمّد رشيد رضا: "وكان الإمام مالكيّ المذهب في نشأته الأولى، تفقّه بمذهب مالك ثمّ قرأ فقه الحَنفية في الأزهر وامتُحِن فيه امتحان شهادة العالمية"[4]، وقال عنه أيضا: "والأستاذ نفسه كان أشعريّا صوفيّا، ثمّ صار بالتّدريج سلفيّا".[5]

---

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص1041و1043.

[2] لقد توجّس بعض الدّارسين لفكر الشّيخ محمّد عبدَه منه، بحكم ملازمته وتأثّره بأستاذه جمال الدّين الأفغاني الذي أثير حوله لغط كبير بشأن نسبه ومذهبه، حيث قيل عنه بأنّ أستاذه إيرانيّ النّسب شيعيّ المذهب، فحقّق الدّكتور محمّد عِمارة في المسألة، وأثبت نسبه الأفغانيّ ومذهبه الحَنَفيّ السنّيّ، وذكر الشّيخ محمّد عبدَه ترجمة لجمال الدّين الأفغانيّ قال فيها: "أمّا مذهب الرّجل فحنيفي؛ أيْ مسلم مُوَحِّد، حَنَفِي؛ وهو المذهب السّائد في أفغانستان"، ينظر: محمّد عمارة، جمال الدّين الأفغاني بين حقائق التّاريخ وأكاذيب لويس عوض، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والتّرجمة، مصر، ط1، 2009م، ص186.

[3] المرجع نفسه: ص186.

[4] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السّابق: ج1، ص941.

[5] المصدر نفسه: ج2، هامش الصفحة: 574.

وذكر أحد الباحثين في المؤتمر السّنوي الذي أقيم بمناسبة مرور قرن على وفاة الشّيخ محمّد عبدَه؛ بأنّه مِنْ أسرة مالكية، درس المذهب الحنفيّ بالأزهر، وعمل به في القضاء والإفتاء، وكان يَعرِفُ المذهبَيْن الشّافعيّ والمالكيّ معرفة جيّدة، وقد كانت له خارج الفتاوى الرّسمية اجتهادات كبرى لافتة.[1]

لقد كان الشّيخ محمّد عبدَه حنيفيّا مسلما سنّيا مالكيّا أشعريّا، ملتزما بالمرجعيّة الفقهية والعقدية لبلده مصر، غيرُ متعصّب لمذهب بعينه، مجتهدا في إطار المذاهب الإسلامية والعقدية السنّية المشهورة، كما كان منفتحا على أهل الملل والنّحل الأخرى، وعلى أصحاب الأفكار المختلفة؛ يحاورها ويجادلها لتبليغ رسالة الإسلام ونشرها، ويطارح أصحاب الأفكار الهدّامة بآرائه الإصلاحية النيّرة.

الفرع الثّاني: شخصيتـه

يكتسي الكلام عن شخصية الشّيخ محمّد عبدَه وأخلاقه وصفاته أهمية بالغة، فهي تعتبر بمثابة الشّروط والمؤهّلات المساهمة في إنجاح الإصلاحات التي بدأها مبكّرا لتدارك الأوضاع المتردّية في جميع الصّعد، وفي الصّعيد التّربوي على وجه الخصوص الذي كان يعاني اختلالات كبيرة، فجاء هذا الفرع ليبرز أهمّ معالم شخصيته وخصاله وصفاته التي أهّلته لأداء رسالة الإصلاح التّربوي.

- **جوامع شخصية الشّيخ محمّد عبـدَه**

لقد كان الشّيخ محمّد عبدَه يمتلك الكثير مِنَ المؤهّلات التي أعانته على القيام بمهمّة الإصلاح، كالثّقة في الله تعالى وتمسّكه بدينه، وقوّة العزيمة ودوام النّشاط والحيوية، والإخلاص والحبّ لوطنه.[2]

نشأ الشّيخ محمّد عبدَه في بيئة قروية، كان لها الأثر الكبير في بلورة شخصيته، فقد كان قويّ الشّخصية معتدّا بنفسه، جريء القلب، خَصْب الفكر، كبير العقل دسم الإنتاج[3]، كما تميّز بالجدّيّة والفاعلية منذ أنْ وعى برسالة الإصلاح، فقام بواجباته الدّينية والوطنية والاجتماعية والسّياسية وغيرها مِنَ المسؤوليات والواجبات دون أن يتسرّب إلى نفسه شيء مِنَ الكلل والملل.

كان الشّيخ محمّد عبدَه أمّة لوحده يقوم بشتّى الأعمال الجليلة، قد تعجز عنها الجماعة، فكان يطالع ويتعلّم ويكتب في الصّحف، ويلهم الثّورة العُرابية، وينشر دعوة العروة الوثقى، ويشتغل بالقضاء في المحاكم، ويُعَلِّمُ في الأزهر، ويصدر الفتاوى في الشّؤون الدّينية والاجتماعية، ويجلس في جلسات مجلس شورى القوانين، وفي مجلس الأوقاف الأعلى، ويشرف على أعمال الجمعية الخيرية الإسلامية، ويضع مشروعات إصلاح الأزهر والمحاكم الشّرعية، ويؤلّف الرّسائل الدّينية، وينشر المقالات الفلسفية، ويفسّر القرآن الكريم، ويدافع عن الإسلام ويردُّ على منتقديه، ويراسل العلماء المسلمين ويصادق أفاضل الغربيّين، وينفق مِنْ ماله على الفقراء والمحتاجين، ويسعى إلى البر وإغاثة المنكوبين.[4]

---

[1] ينظر: رضوان السيّد، محمّد عبدَه وقضايا الإصلاح والنّهوض، مقال في موقع: الملتقى الفكري للإبداع: http://almultaka.org، تاريخ الإضافة : 2005/12/10م، تاريخ الزيارة: 2019/10/17 في الساعة: 15:00مساء.

[2] ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د ط)، 2015، ص56.

[3] ينظر: حافظ محمّد حيدر الجعبري، الشّيخ محمد عبده وآراؤه في العقيدة الإسلامية -عرض ونقد- رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية، تحت إشراف الأستاذ الدكتور سليمان دنيا، (د ط)، 1982م، ص33.

[4] ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، المصدر السّابق: ص49.

كما كان شخصية متفتّحة على الجميع، يتعامل مع كل الأطياف على اختلاف أجناسهم وأعراقهم وعقائدهم وأفكارهم، فمِنْ أصدقائه المصريّين الذين كانت له بهم صلات وثيقة؛ حسن باشا عاصم، حسن باشا عبد الرّازق، والشّيخ أبو خطوة، قاسم بك أمين، حفني بك ناصف، وحافظ إبراهيم، والشّيخ عبد الكريم سليمان، وكانت له أيضا مراسلات مع بعض المفكّرين الأوروبيّين أمثال: جوستاف لوبون، والفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر الذي كان يُكِنُّ له إعجابا كبيرا دفعه إلى ترجمة كتابه التّربية إلى العربية، حتّى أنّه زاره في بيته في إنجلترا وتحدّث معه عن الله والعالم وطغيان المادّة وحُكْم القوة الغاشمة في الغرب، وراسل تولستوي بخطاب جميل لمّا حُرِمَ مِنَ الكنيسة الرّوسية، كما كانت له صداقة مع ولفرد بلنْت، ووصل إعجاب المستشرق الإنجليزي إدوارد براون بالشّيخ محمّد عبدَه أنّه كان يحضر إلى مصر ويستمع إلى دروسه في التّفسير في جامع الأزهر.[1]

لقد كان للوسط الذي نشأ فيه أثر كبير في تكوين شخصيته، حيث كان في جميع مراحل حياته العمرية مهابا محترما بين تلامذته وأساتذته وحتّى عند حكّامه، فأستاذه جمال الدّين الأفغاني الذي يمتاز بقوة الشّخصية والاحترام، صوّر عزّة الشّيخ محمّد عبدَه وإباءه للضّيم وترفُّعَه عن السّفاسفِ وطموحه الكبير إلى معالي الأمور قائلا له: "أيُّ مَلِكٍ في جِلْدِك"[2]، وقال له مرّة عندما دخل عليه وهو يداعبه: "قل لي بالله أيّ أبناء الملوك أنت؟! وقد كان الخديوي عباس الثّاني يخاف منه[3]، ويقول عنه شاكيا: "إنّه يدخل عليّ وكأنّه فرعون!، فيقول الشّيخ محمّد عبدَه: وأيُّنا فرعون!".[4]

فهذا الخُلُق يترجم عزّة نفس الشّيخ محمّد عبدَه وشموخه، بعيدا عن خلق التّكبر والتّعالي المذمومَيْن اللّذَيْن أشاعهما عنه خصومه وحاسِدوه الجاهلون بمعدنه الأصيل بين عامّة النّاس.

وتأكيدا لتلك المعالم قيل عن قوّة شخصيته بأنّه: "كان مع العلم الوافر، والتُّقى والفضيلة والمهابة، متّصفا بالكِياسة والرقّة وجميل العِشرة، تسير أخلاقه جنبا إلى جنب مع معارفه، فهو مثال للعلم والعمل والقوّة والوَداعة، والذّكاء مع البساطة يشبه في ذلك كلّ عظيم حق، وقد طُبع على شرف النّفس، وعلوّ الهمّة، وجرأة القلب، والجهر بالحقّ، وصدق اللّسان، والتّرفّع عن الدِّهان والتّملّق، والتّواضع مع البسطاء، والعزّة مع الكبراء".[5]

وخلال مصاحبته لجمال الدّين الأفغاني، وحضوره في مجالس الأميرة نازلي في قصرها، كان ينتقدهما على إفراطهما في الاشتغال بالسّياسة على حساب أمور أَوْلَى للمجتمع المصري لإخراجه مِنَ الجهل والتّخلف، ولتوعيته بمهامّه، فكان يرى ضرورة الاهتمام بالتّربية والتّعليم لتكوين شخصية

---

[1] ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص50و51.

[2] أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د ط)، (د ت)، ص325

[3] يرجع إلى: محاضرة لمحمّد عمارة على اليوتيوب بعنوان: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، من تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بمركز الدّراسات المعرفية في مصر، ألقاها في: 15 فيفري 2017م.

[4] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص950، وينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط2، 1988م، ص25، وينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية؛ مرجع سابق: ص305، وينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص29.

[5] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، المرجع السّابق: ص305.

مصرية متعلّمة ومثقّفة وواعية تعرف ما لها وما عليها وكيف تطالب بحقوقها وكيف تسعى إليها للرّقيّ بالأمّة المصرية وإخراجها ممّا هي فيه مِنْ هوان وذلّ واستبداد داخلي واحتلال خارجي.

لذلك كان يفاتح أستاذه الأفغاني والأميرة نازلي وينتقد منهجهما، فانتقد جمال الدّين لأنّه صرف كلّ جهوده في السّياسة دون الإصلاح الدّاخلي للشّعوب، وانتقد الأميرة نازلي لتفرّغها للسّياسة وعدم تأسيسها جمعية للنّهضة النّسوية مثلا، وخلافا لرغبتها كان لا يحبّذ التّكلم في السّياسة في مجلسها.[1]

كانت شخصيته جامعة لكلّ المناقب والفضائل، فقد ذكر المفكر الأمريكي تشارلز آدمس بأنّه: "كان مهيب الطّلعة، وقور المجلس، مترفّعا عن المداهنة والتّملّق للكبار حتّى اتُّهِم بالكِبْرِ، ولكنّه كان في الواقع لطيفا متواضعا، وكان متسامحا يعفو عمّن عاداه، ويعفو عمّن أساء إليه، كان يغلب عليه حُسن الظنّ بأصدقائه، وكان سخاؤه على الفقراء والمحتاجين مضرب المثل، فهو أبو البؤساء، وبيته في عين شمس كان يزدحم دائما بالعُفاةِ وأصحاب الحاجات، وكان استقلاله في الرّأي والعمل مشهورا ولكنّه مع هذا يستشير الآخرين ويستعين بهم".[2]

لقد تكوّنت شخصية الشّيخ محمّد عبدَه بما نهله مِنْ أخلاق أسرته التي نشأ فيها والتي جمعت بين الوجاهة الرّيفية والعدالة الاجتماعية والتّحدّي للظّالم، والشّجاعة في قول كلمة الحقّ والجراءة في إبداء الرّأي، فانعكست عليه حتّى صار رجلا عظيما ومجدّدا كبيرا، يصدق فيه قول النّبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[رواه أبو داود][3]، فسخّر حياته لدينه ولأمّته، وعاش لهما أكثر ممّا عاش لنفسه وأسرته، وفيما يلي عرض لأبرز سمات شخصيته:

أوّلا: الشّجاعة الأدبية والعزّة والإبـاء

كثيرا ما تكون الملامح الجسمية للشّخص مترجمة لحقيقة الإنسان الباطنية والسّلوكية، وهذا ما تجسّد في شخصية الشّيخ محمّد عبدَه، الذي كان مِنْ أبرز صفاته الخَلقية أنّه كان أسمر اللّون، متوسّط الطّول، مشرق الطّلعة، حادّ البصر، ذا ابتسامة جذّابة محبّبة إلى القلوب، انعكست على شخصيته وجعلته يتّصف بالشّجاعة الأدبية التي يفتقدها الكثير مِنَ السّاسة والعلماء، هذه الصّفة التي أشار إليها في أحد دروسه بأنّها تعتق الأفكار مِنَ التّقاليد، فتجعلها حرّة، وتعرِّف بالحقّ وتبيِّنه، والذي يفتقد هذه الصّفة لا ينتفع بعلم ولا يستقلُّ برأي.[4]

وقد بيّن حقيقة الشّجاعة فقال: "الشّجاع هو الذي لا يخاف في الله لومة لائم، فمتى لاح له يصرّح به ويجاهر بنصرته وإنْ خالف في ذلك الأوّلين والآخرين، ومِنَ النّاس مَنْ يلوح له نور الحقّ

---

[1] ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص313.

[2] تشارلز آدمس، الإسلام والتجديد في مصر، مرجع سابق: ص91، وينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج3، ص60- 99، وينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج8، ص394.

[3] أخرجه أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السّجستاني، في سننه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د ط)، (د ت)، كتاب: الملاحم، باب: ما يذكر في قرن المائة، ج4، ص109،حديث رقم: 4291، وقال الألباني: حديث صحيح.

[4] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص305.

فيبقى متمسّكا بما عليه النّاس ويجتهد في إطفاء نور الفطرة ولكن ضميره لا يستريح، فعلى طالب الحقّ أنْ يتشجّع حتّى يكون شجاعا، والله تعالى قد هيّأ الهداية لكلّ شجاع".[1]

فالشّجاعة الأدبية مِنْ أهمّ صفات عظمته، وقد أكبرها فيه معاصروه، حتّى قالت أحد الصّحف العربية في رثائه: "إنّ الفقيد كان في بلاد الشّرق، بلاد الرّهبة والخوف والاستبداد، رجلا جريء الفؤاد حرّ الضّمير، يجاهر برأيه وجرأته وقلّة خوفه ورهبته أهوالا كثيرة ومصاعب ومحنا عديدة"، ورُوي عنه أنّه قال: "إنّني لا أخشى شيئا سوى الموت لأنّه يقطع علَيَّ خطّ السّير".[2]

أمضى الشّيخ محمّد عبدَه حياته فداء لفكره الإصلاحي، فأحبّ دينه ووطنه، ووهبهما كلّ ما أوتي مِنْ جهد ووقت وجاه وذكاء وعزيمة، فكان عزيز النّفس، يأبى الضّيم، ويترفّع على السّفاسف ويطمح إلى المعالي، حتّى قال عنه أستاذه الأفغانيّ مُكْبرا فيه تلك الشّخصية: "أيُّ مَلِكٍ في جِلدك!؟".[3]

ومِنَ الأمثلة التي تترجم تلك الشّخصية الشُّجاعة؛ أنّه لمّا كان ممثِّلا للحكومة في مجلس إدارة الأزهر سنة 1895م، أراد المجلس أنْ يمارس مهامّه باستقلالية وِفْقَ قانون الدّولة المصرية بعيدا عن الإملاءات الفوقية والتّوجيهات الشّفوية مِنَ القصر الملكي وحاشية الخديوي، فقال للخديوي عباس أمام المجلس: "إنّ مجلس إدارة الأزهر لا يعرف لسموّكم أمرا عليه إلا بهذا القانون الذي بين يديه، دون الأوامر الشّفوية التي يبلّغها عنكم مَنْ لا يثق به المجلس لمخالفته قانونكم!"[4]، قال له ذلك وهو يتمثّل قول النّبي ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**»[رواه التّرمذي][5]، فموقفه الشّجاع أمام الخديوي وأمام مجلس إدارة الأزهر وشيخه؛ جعل الخديوي يلتزم الصّمت ويسلّم له على ردّ فعله القانوني، وينصرف كاتما غضبه، حاملا له في قلبه الحقد الدّفين وروح الانتقام منه.

وميزة شجاعته أنّه كان لا يداري أحدا، ويقول كلّ ما يعتقده أمام كائن مَنْ كان[6]، ففي إحدى مواقفه الوطنية التي لم يخش فيها استبداد ومضايقات الخديوي عبّاس له، عاداه واستعان عليه بما كان يلقاه مِنِ احترام ودعم مِنَ الإنجليز -أصحاب السّلطة الفعلية في البلاد-، حيث لمّا دعا بعض الموالين للعائلة الخديوية إلى إقامة احتفالية بمناسبة مرور مائة سنة على حكم جدّه محمّد علي سنة 1905م، رأى الشّيخ بأنّ الاحتفال بالذّكرى تكريسٌ للاستبداد والظّلم وترويجٌ لشرفٍ مزعومٍ فكتب مقالا في مجلة المنار سنة 1902م، نفى فيه تلك المزاعم وأدحَضَها بالحجج والبيّنات التّاريخية.[7]

---

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص762و763.

[2] تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص91و92.

[3] سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدّد، ضمن كتاب: الشّيخ محمّد عبدَه-بحوث ودراسات عن حياته وأفكاره، لعاطف العراقي، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، (د ط)، 1995م، ص253.

[4] محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص42.

[5] أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب: ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، ج4، ص471، حديث رقم: 2174، واللفظ له، وقال التّرمذي: حديث غريب مِنْ هذا الوجه، وقال الألباني: حديث صحيح، وأخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق، ص361، برقم: 133.

[6] ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص326.

[7] ينظر: طاهر الطناحي، مذكرات الإمام محمّد عبدَه، دار الهلال، (د ط)، (د ت)، ص15.

كما أنّ مواقفه الشّجاعة لم تكن قاصرة على ملوك وأمراء مصر فقط، بل تعدتها لتبرز جليّة في عقر دار المستعمر البريطاني غداة احتلاله لمصر سنة 1882م، حيث أنّه دخل البرلمان البريطاني وخطب في أعضائه بجُبَّته وعمامته الأزهرية، والتقى بالقادة السّياسيّين والعسكريّين والصّحافة وعرّف بقضية مصر العادلة ودعا الإنجليز للجلاء عنها، وذلك أثناء إقامته في باريس مع أستاذه جمال الدّين الأفغاني سنة 1883م، حيث أوفده إلى لندن لمفاوضة السّاسة الإنجليز حول القضية المصرية ودعوتهم إلى الجلاء عن مصر، فلقيهم وخاطبهم بلهجة قوية ولغة جريئة مفعمة بالعزّة والإباء للظّلم والاستعباد، وصرّح أيضا على صفحات جرائدهم وهو يصدح بموقف الشّعب المصري الرّافض للمستعمر، وبأنّه سيقاوم الاستعمار البريطاني بكلّ ما أوتي مِنْ قوّة حتّى تحرير البلاد مِنْ شَرِّه، فأدّى المهمّة خير أداء.[1]

وكان مِنْ بين الشّخصيات البريطانية المهمّة التي اِلتَقَاهَا في لندن ودعاها إلى وجوب الجلاء عن مصر وزير الحربية الإنجليزي اللورد هرتنكتون، وكذا بعض البرلمانيّين الآخرين.[2]

ففي عقر دار المستعمر البريطاني صدع بكلمة الحق ودعاه مِنْ على صفحات جرائده للخروج مِنْ مصر قائلا له: "إنّنا نرى أنّ انتصاركم للحرية إنّما هو انتصار لما فيه مصلحتكم، وإنّ عطفكم علينا كعطف الذّئب على الحَمَل، ولقد قضيتم على عناصر الخير فينا لكي تكون لكم مِنْ ذلك حجّة للبقاء في بلادنا، لِمَ لا تغادرون بلادنا في الحال؟ لقد عَلَّمَنَا الإنجليز شيئا واحدا هو التّضامن في مطالبتكم بالجلاء، إنّ لنا إليكم رجاء واحدا، وهو أنْ تغادروا بلادنا حالا إلى غير رجعة"[3]، فبذل الشّيخ محمّد عبدَه في المنفى جهودا كبيرة لأجل تقرير مصير الشّعب المصري، في الوقت الذي كانت فيه حكومة الخديوي تسعى للتّعايش مع الاحتلال البريطاني راضية ذليلة له مقابل فُتَاةِ حكم صوري مزعوم.

وقد تحدّث الشّيخ محمّد عبدَه عن شخصيته في مذكّراته التي كتبها بإيعاز مِنْ بعض أصدقائه الغربيّين الذين أشاروا عليه بأنْ يذكر مشاهداته التي لا ينبغي أنْ تُهْمَلَ، وتمنّوا منه أنْ يروا ذلك مكتوبا منقولا إلى لغتهم مقروءا في قومهم بلسانهم، فكان ممّا كتبه عن شجاعته في الحقّ: "نَعَمْ كنتُ فيمن دعا الأمّة المصرية إلى معرفة حقّها على حاكمها، وهي هذه الأمّة التي لم يخطر لها هذا الخاطر على بال مِنْ مدّة تزيد على عشرين قرنا، دعوناها إلى الاعتقاد بأنّ الحاكم وإنْ وجبت طاعته، هو مِنَ البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم وأنّه لا يردّه عن خطئه ولا يُوقف طغيان شهوته إلاّ نصح الأمّة له بالقول، وبالفعل جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه والظّلم قابض على صَوْلجانه، ويد الظّالم مِنْ حديد، والنّاس كلّهم عبيد له وأيّ عبيد، نَعَم إنّني في كلّ ذلك، لم أكنِ الإمام المتّبع ولا الرّئيس المطاع، غير أنّي كنتُ روح الدّعوة، ولا أبرح أدعو إلى عقيدتي في الدّين وأطالبُ بإتمام الإصلاح".[4]

---

[1] ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، ط3، 2009م، ج3، ص78.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص35.

[3] عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمّد عبدَه، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مدينة نصر، القاهرة، جمهورية مصر العربية مصر، (د ط)، 2013، ص107.

[4] طاهر الطناحي، مذكرات الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص17- 20، وينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح، مصدر سابق: ص328.

ثانيا: العطف على البائسين والمحرومين

اجتمعتْ في الشّيخ محمّد عبدَه ملامح الشّخصية المتكاملة التي تتكيّف والمواقف الطّارئة، فيعيشها عن قرب ويتجاوب معها بإيجابية، ويشارك أهل بلده همومهم، فيحسّ بإحساسهم ويتألّم لآلامهم ويحزن لحزنهم ويشقى لشقائهم، فكان يحمل في أعماق نفسه شفقة وعطفا كبيرين على أوضاعهم البائسة ومصائبهم المتعاقبة فيسارع إلى نصرتهم، ويحضّ الميسورين إلى نجدة إخوانهم وإعانتهم لرفع الغبن عنهم وتفريج كربهم، فقوّة شخصيته وعزّته لم تمنعه أنْ يكون رقيقا حنونا.

لقد كان سبّاقا إلى التّضامن مع المنكوبين، مقتديا في ذلك برسول الله ﷺ كما في حديث أنس ﷺ أنّه قال: "كان رسول الله أحسن النّاس، وأجود النّاس، وأشجع النّاس، قال: وقد فَزِعَ أهل المدينة ليلة سمعوا صوتا، قال: فتلقّاهم النّبي ﷺ على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ، وهو متقَلِّدٌ سيفَه"، فقال: **«لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا»** ، ثُمَّ قَالَ: **«وَجَدْنَاهُ بَحْرًا»** أَوْ قَالَ: **«إِنَّهُ لَبَحْرٌ»**.[رواه البخاري][1]

كما كان حيّ الضّمير حسّاس النّفس عطوفا على البائسين والمنكوبين يعين بماله فيجود بالموجود منه، فقليله له وكثيره يُغيث به النّاس، فها هو يصف شعوره لمّا حدث حريقٌ في حيّ مَيْتْ غَمْرْ الذي أضرّ بالنّاس قائلا: "لما قرأتُ وصف الحادثة كان لهب الحريق يأكل قلبي أكله لجسوم أولئك المساكين، ويصهر فؤادي ما يصهر لحومهم، أَرِقْتُ تلك اللّيلة ولم تغمض عيناي إلا قليلا، وكيف ينام مَنْ يبيت يتقلّب في نِعَمِ الله وله هذا العدد الجمّ مِنْ إخوة وأخوات يتقلّبون في الشدّة والبأساء؟ أردتُّ أنْ أبادر بما أستطيع مِنَ المعونة، وما أستطيع قليلٌ لا يغني عن الحاجة ولا يكشف البلاء، ثمّ رأيتُ أنْ أدعو جمعا مِنْ أعيان العاصمة ليشاركوني في أفضل أعمال البرّ في أقرب وقت".[2]

وكان جذّابا يُستأنس به لما يتمتّع به مِنْ إنسانية ودماثة خلق، فكل مَنْ يصاحبه يغتبط بصداقته ويعدّها مِنْ أفضل الحظوظ للثّقة والطّمأنينة التي تضفيها عليهم، حتّى قال عنه صاحبه حافظ إبراهيم: "إنّنا لم نقع في حاجة إلى رفد الشّيخ لنا في الرّزق وضرورات المعيشة، ولا في الدّفاع عن حياتنا أو شرفنا، ولكنّنا نشعر في أعماق أنفسنا بأنّنا بوجوده في أَمَنَةٍ مِنَ الحاجة ومِنَ الظّلم، وأنّ كلّ ما عسى أنْ نحتاج إليه نجده عنده، فنحن لا نحسب مع وجوده حسابا لحاجة أو لعدوان"[3]، فكان يُشعر أهل بلده بأنّه الولي الحاني والأخ الشّفيق والسّند القويّ والمعيل الكافي لحاجاتهم.

ثالثا: الغيرة على الإسلام والمسلمين

لم يكن يرض الشّيخ محمّد عبدَه أنْ يُعَيَّر المسلمون ويحارَبوا باللّمز والاحتقار والازدراء، برغم الضّعف والتّخلف والجهل بأحكام الدّين وغيرها مِنَ السّلبيات اللّصيقة بهم، فتُجعل ذريعة لغيرنا

---

[1] أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الحمائل وتعليق السّيف بالعنق، ج4، ص39، حديث رقم: 2908 واللفظ له، ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: باب في شجاعة النّبيّ عليه السّلام وتقدّمه للحرب، ج4، ص1892، حديث رقم: 2307، وبزيادة لفظ: [وجدناه بحرا، أو إنّه لبحر،أي: واسع الجري قال: وكان فرسا يبطّأ، قال الشّيخ فؤاد عبد الباقي: ومعنى يبطأ: يُعرف بالبطء والعجز وسوء السّير].

[2] أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص326و327، وينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدّد، ص253.

[3] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص306.

لمحاربة الإسلام وتشويهه، والتّقوُّل على المسلمين والدسّ عليهم للتّنفير منهم وتأليب أعدائهم عليهم، فكان ينتصر للمسلمين ويدافع عنهم ولا يقبل الطّعن فيهم ولا في دينهم ولا يسمح بتشويه صورتهم.

مِنْ تلك الشّواهد والمواقف التي اتّخذها في هذا المجال؛ أنّه لمّا كان في جنيف بسويسرا مع بعض زملائه يسيران في شوارعها، فذكر الشّيخ محمّد عبدَه بأنّه وهب حياته لإصلاح عقيدة المسلمين وتنقيتها ممّا علق بها مِنْ الخرافات والأوهام، فردّ عليه صاحبه قائلا: "وهل الدّين عند العوّام إلا الخرافات والأوهام؟ وماذا يبقي عندهم لو زالت؟ فقال صاحبه: (فرأيته وقد احمرّ وجهه وغضب غضبة ما رأيته غضب مثلها، فتأوّلت ما قلت حتّى هَدَأَتْ ثورته)"[1]، كما كانت له مواقف حازمة وسّريعة ومفحمة، وقفها ضدّ أولئك المتحاملين مِنَ العرب والعجم مِنْ أهل الملل الأخرى على الإسلام؛ أمثال وزير الخارجية الفرنسي جابراييل هانوتو[2] والكاتب الصّحفي اللّبناني فرح أنطون[3]، اللّذان ردّدا أفكارا مغلوطة عن الإسلام وقاما بنشرها، والتي تنبئ عن جهلهم بالدّين وحقدهم الدّفين عليه وكرههم له ولأهله، فكان لهم بالمرصاد بمقالات رصينة مشفوعة بالحجج والبراهين الدّامغة، والحقائق العلمية والتّاريخية النّاصعة، محلاّة بالصّدق والموضوعية، فاستطاع بعلمه الغزير وأدبه الجمّ وحواره الهادئ وكلامه المتّزن إبطال أكاذيبهم وإبراز حقائق الإسلام الثّابتة وردّهم مدحورين مهزومين خائبين.

رابعا: الحدّة والشدّة والحــزّم

عُرِفَ الشّيخ محمّد عبدَه بالحدّة والشدّة والحزم بحسب ما يقتضيه المقام مع النّاس، نظير ما يلقاه منهم مِنْ مواقف مشينة، فيتصدّى لهم دون تسويف للقضاء عليها في مهدها حتّى وإنْ جرّت عليه المتاعب، مثل ما حصل له مع الخديوي عباس الثّاني الذي كان يتدخّل في شؤون مجلس إدارة الأزهر ويهين بعض شيوخه، فيقف له بالمرصاد، ويردّ لهم الاعتبار أمام الحاضرين في شجاعة نادرة.

فحدث أنْ أرسل الخديوي عباس الثّاني إلى شيخ الأزهر يأمره أنْ يوجّه كسوة التّشريف العلمية مِنَ الدّرجة الأولى إلى إمامِه الخاصّ الذي لم يكن مِنْ كبار العلماء، فلم يُنفّذ الأمرَ لمخالفته قرار مجلس إدارة الأزهر، فاستاء الخديوي وانتظر حتّى اجتمع عنده علماء الأزهر في إحدى التّشريفات، وقال لشيخ الأزهر بلهجة الاستنكار: "ألم آمرك بتوجيه كسوة فلان إلى فلان؟" فحاول الشّيخ الاعتذار متلعثما، فنهض الشّيخ محمّد عبدَه إلى الخديوي وقال له: "إنّ مجلس إدارة الأزهر لا يعرف لسموّكم أمرا عليه إلا بهذا القانون الذي بين يديه دون الأوامر الشّفوية التي يبلّغها عنكم مَنْ لا يثق به المجلس، لمخالفته قانونكم!"[4]، فلم يخش الخديوي وقال له كلمة حقّ بصوت فيه حزم وعزم وصرامة، فلمّا سمع الخديوي منه ذلك الكلام بحضرة العلماء، احمرّ وجهه مِنْ شدّة الغضب عليه ثمّ انصرف.[5]

---

[1] أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص327.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص798و799. وينظر: محمّد عمارة، شخصيات لها تاريخ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط1، 2008م، ص191.

[3] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص128، وينظر: محمّد عمارة، شخصيات لها تاريخ، المرجع السابق: ص191.

[4] محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص42.

[5] ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص52و53.

فلم تكن مواقف الشّيخ الحازمة مع الخديوي لأجل تصفية حساباته الشّخصية معه، أو انتصارا لحظوظه النّفسية، وإنّما كانت لإيجاد جوّ تسوده الحرّية في الأزهر بعيدا عن الإملاءات الفوقية.

وقد كان الشّيخ يشتدّ على بعض العامّة المتطفّلين الذين يستفتونه بأسئلة سخيفة بغرض الاستهزاء به، فزادته مواقفه الصّارمة تلك الهيبة لشخصه والتّوقير والاحترام الكثير، لهذا قال له أستاذه جمال الدّين الأفغاني مرّة: "إنّ بين بُردَيْكَ قِرْدًا يُخرِجُ رأسه في بعض الأحيان".[1]

خامسا: قوة العزيمة والثّقة في النّـفس

لقي الشّيخ محمّد عبدَه في مجتمعه شتّى صنوف الأذى والتّضييق والنّقد مِنْ أعدائه المناوئين له المخالفين لمسلكه الإصلاحي، شأنه في ذلك شأن الكثير مِنَ المصلحين في العالم، فكانت لهم منه مواقف معادية له ومعارضة لمنهجه الإصلاحي، فأشفعوها بوضع العراقيل وبثِّ الأكاذيب والإشاعات المغرضة، لكنّه مضى يمارس إصلاحاته التّربوية، فلم تضعف عزيمته ولم يفقد الثّقة في نفسه لقناعته الرّاسخة بأنّ ما يقوم به هو عين الصّواب والصّلاح.

لقد كان كامل الثّقة في نفسه، يحمل يقينا راسخا بأنّ الطّريق الذي يتّبعه، والجهود الإصلاحية التي يبذلها والأعمال التي يقوم بها، يؤدّيها بحنكة وحكمة ومرونة، حيث كان يبيت اللّيالي يقلّب فكره في المسائل المستعصية حتّى يحقّق الإصلاح والنّجاح، فكانت العراقيل والخصومات التي يلاقيها تزيده إصرارا وتشحذ همّته أكثر في المضي قدما لإنجاز ما يؤمن به لتحقيق أهدافه مِنَ الإصلاح ومقاومة الفساد، مطبّقا مقولته : "إنّ وجداني لا يرضى بالصّمت عن المفاسد".[2]

ورغم نفيه مِنْ مصر بسبب نشاطاته السّياسية، إلاّ أنّ ذلك رفع مِنْ همّته أكثر وأكسبه خبرة زائدة واطّلاعا وَاسِعَيْنِ على العالم الخارجي ومعرفة بأحوال الأمّة الإسلامية مِنْ خلال تنقّلاته بين البلدان العربية والأوروبّية، فتفتّق ذهنه على وسائل وطرائق ناجعة أوصلته إلى الإصلاح المنشود، فقد أكّد محمّد رشيد رضا بأنّ المنفى كان نكبة وشرّا على جميع الذين نُفُوا، ما عدا الأستاذ الإمام فإنّه كان عليه رحمة وبركة، فأضاف إلى إتمام علمه وتربيته، وكان سببا في إذاعة علمه في كثير مِنَ البلاد، فأسفاره إلى أوروبا لم تكن لأجل السّياحة والاستجمام وإنّما كانت لتجديد قواه الفكرية وتوسيع مداركه الإصلاحية للإحاطة بالأوضاع العالمية وللاستفادة منها في مشروعه الإصلاحي، لهذا أُثِرَ عنه أنّه كان يقول: "ما مِنْ مرّة أذهب إلى أوروبا، إلاّ ويتجدّد عندي الأمل في تغيير حال المسلمين إلى خير منها".[3]

سادسا: البساطة وحسن الدّعابـة

على جلالة قدر الشّيخ محمّد عبدَه ووقاره وسَمْتِهِ، وما يحمله مِنْ علم ووجاهة بين السّاسة والعلماء والمفكّرين في داخل مصر وخارجها على الصّعيدين العربي والعالمي، ورغم المكانة العلمية والفكرية والرّسمية التي كان يتمتّع بها، إلاّ أنّه ما انفك يخالط النّخب والمفكّرين والمشايخ وطلبة العلم وعامّة النّاس، فكان يجلس إليهم في مَحَالِّهم، ويجلسون إليه في مجالسه الْمُحلّات بدروس ومحاضرات

---

[1] أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص326.

[2] المصدر نفسه: ص322.

[3] تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص64.

علمية نافعة وحكم سديدة وتوجيهات تربوية رصينة، سعى مِنْ ورائها إلى تكوين أجيال فريدة وقيادات نموذجية، تحمل لواء الإصلاح، لتُخرج المسلمين مِنْ درك التخلّف وتقودهم إلى نهضة حضارية شاملة.

ورغم شخصيته المرموقة إلاّ أنّ مجالسه لم تَخْلُ مِنَ الدّعابة الحلوة والسّخرية البارعة؛ فقد قال له أحد تلامذته في الأزهر مرّة وهو يلقي دروسه في التّفسير: "إنّ ما قلتَه لا يوافق عليه الجَمَل" يعني كاتب حاشية تفسير الجَلَالَيْن، فأجابه الشّيخُ: "إنّني أقرّر ما يدلّ عليه النّظر الكريم والأسلوب البليغ، ولا يعنيني أَوافَقَ الجملُ أو الحمارُ عليه أم خَالَفَا!"، وفي إحدى حِلق دروسه لطلبة الأزهر دخلتْ ابنةٌ في الثّانية عشر مِنَ العمر وأسرَّت إلى أبيها كلمة وخرجتْ، فأخذ الشّيوخ يلتفتون إليها، وكانت يومها ضجّة قائمة في مصر حول كتاب المرأة الجديدة لقاسم أمين، فسكت الشّيخ هنيهة ثمّ قال باللّغة البَلْدِيَّة: "إياكم تكون دي المرأة الجديدة اللي بيقولوا عنها!"، يعني لعلّ المرأة التي يتحدّث النّاس ويكتبون في الصّحف عن وجوب سفورها واختلاطها بالرّجال بمناسبة الكتاب الذي ألّفه قاسم أمين، فضحك جميع الحاضرين انبساطا لكلمته.[1]

وروى الأستاذ أحمد لطفي السيّد، أنّ الشّيخ لما عاد مِنَ السّودان، أقبل إليه قضاة المحكمة الشّرعية يخبرونه بتضاعف شغلهم لكثرة النّصارى الذين يدخلون الإسلام، فأرشدهم إلى تبسيط الدّعوة وعدم تعقيدها، والاكتفاء بدعوتهم إلى الصّلاة والصّوم و الزّكاة والحجّ، لكنّ السّائل كان في كلّ مرّة يولّد الأسئلة ويفرّعها ويُعَقِّدُها إلى أنْ قال للشّيخ؛ لا يكفي تعليم الوضوء مِنْ دون أنْ نعلّمهم حدود الوجه مِنْ أين يبدأ وإلى أين ينتهي، فقال له الشّيخ: "سبحان الله يا سي الشّيخ! قل له يغسل وجهه، فكلّ إنسان يعرف حدود وجهه".[2]

سابعا: أناقته وترويحه على النّـفس

للشّيخ محمّد عبدَه ابنة تسمّيها صديقاتها ستّ هانم المفتية، نشرت لها مجلّة المصوّر حديثا، ذكرت فيه أنّ والدها كان أنيقا يختار لملابسه أجمل الألوان، ويعيش بأسلوب الرّجل العصري، ولم يكن يحرم نفسه مِنْ متعة فاضلة، مِنْ ذلك سهراته مع المطرب الشّيخ يوسف المنيلاوي[3]، فقد كان الشّيخ يدعو بين الحين والآخر أصدقاءه للاستمتاع بروائع ذلك الفنّان الكبير.[4]

فذكرت البنت بعض الجوانب في شخصية أبيها المتعلّقة بلباسه وأسلوب عيشه وترفيهه، أوردتها في سياق حديثها عن شخصية أبيها المتفتّحة المرحة والمرنة التي كانت تتوخّى الوسطية والاعتدال، فهو شخصية دينية علمية متّزنة تعرف مالها وما عليها، فقد كان متحكّما في عواطفه وتصرّفاته، لا تغريه غوائل الدّنيا وشهواتها ولا ينزل إلى سَفْسَاف أمورها، ولا يدنّس نفسه بموبقات الفسق والفجور واللّهو والخنا والخمور والعري والكلام الفاحش البذيء الذي كانت تعجّ بها مجالس السّفهاء.

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص770، وينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، ص308.

[2] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، المرجع نفسه: ص308.

[3] **يوسف المنيلاوي(1850-1911م):** منشد ومغنّ مصري، غنّى للسّلطان عبد الحميد بالأستانة، مِنْ أغانيه: جدِّدِي يا نفسُ حَظَّك، قَبْلُ ما هوى الجَمَال، حامل الهوى تعب، البلبل، ينظر: [ar.m.wikipedia.org]،تاريخ الزيارة: 2020/01/01م، الساعة: 15:30.

[4] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، المرجع السّابق: ص309.

إنّ الشّيخ محمّد عبدَه كغيره مِنَ النّاس؛ إنسان عادي غير معصوم، فلا هو نبيّ مرسل ولا هو ملك مقرّب، كان يروّح عن نفسه باللّهو المباح مِنْ غير ابتذال ولا ميوعة، الأمر الذي جعل بعض العلماء والمفكّرين والدّعاة الذين تشبّعوا بفكره في العصر الحديث؛ يقتدون به ويتّبعون منهجه.[1]

كان الشّيخ محمّد عبدَه يروّح عن نفسه بالمباحات المشروعة تماشيا مع روح الشّريعة الإسلامية بعيدا عن الإسفاف والتّشدّد، يسير بالنّفس وفق منهج وسط بين ساعة الجدّ وساعة التّرويح المباح على هدي النّبيّ ﷺ الذي قال للصّحابي الجليل حنظلة رضي الله عنه: «**يَا حَنْظَلَة سَاعَةٌ وَسَاعَة، وَلَوْ كَانَتْ تَكُونُ قُلُوبُكُمْ كَمَا تَكُونُ عِنْدَ الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَة حَتَّى تُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ فِي الطُّرُق**»[رواه مسلم][2]، وبقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهو يصف منهجه ﷺ في الوعظ والإرشاد: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا**»[رواه البخاري].[3]

ثامنا: الذّكاء والفطنة والنّباهــة

رغم العلاقة المضطربة بين الخديوي عبّاس الثّاني والشّيخ محمّد عبدَه، إلا أنّه كان ملجأً للخديوي عند المآزق والملمّات التي تقع عليه مِنْ جهة سلطة الاحتلال البريطاني المتحكّمة في مفاصل الحكم في مصر، فكان يقصده ليُوجِدَ له الحلول النّاجعة للقضايا الشّائكة، وليدلّه على المخارج الآمنة للمآزق الطّارئة، وهذا لكون الشّيخ محمّد عبدّه كان معروفا بذكائه الوقّاد وفطنته ونباهته الفريدة التي حباه الله بها، فيدلّ الخديوي على الحلول الشّرعية والقانونية دون كذب أو نفاق، ودون تزلّف أو مداراة لتحقيق مصالحه الخاصّة، وإنّما كان يقصد خدمة المصالح العامّة للشّعب المصري.

ومِنْ تلك المواقف التي تترجم ذلك؛ حادثة استهدفت صاحب العرش ومحاولة إهانته بإصدار أمر مِنَ الوكالة البريطانية بتفتيش قصر الخديوي بحثا عن ليون فهمي العثماني، لاتهام الخديوي بقتله وإخفائه في القصر الملكي، فلجأ الخديوي إلى الشّيخ محمّد عبدَه يستعين به، فرجاه الشّيخ أنْ يستوثق مِنْ خلو القصر منه، ثمّ أشار عليه أنْ يكتب بلاغا إلى معتمدي جميع الدّول المعترفة باستقلال مصر، بأنّ سلطة الاحتلال تعتدي على حرم قصره، ثمّ يُبْلغ في الوقت نفسه المحتلّين بهذا الإجراء إذا همّوا

---

[1] يعدّ الشّيخ محمّد الغزالي -رحمه الله- مِنَ الذين تأثّروا بالشّيخ محمّد عبدَه، فقد صرّح لجريدة الشّروق الجزائرية؛ بأنّه يستمع للقصائد التي تحضّ على الجهاد وتثير العزّة في نفوس المسلمين الخاملة لتنشيطها، مشيرا إلى القصيدة التي ألّفها عليّ محمود طه ولحّنها وأدّاها المطرب محمّد عبد الوهّاب التي جاء فيها:

أخي جاوز الظالمون المـــدا * * * فحق الجهاد وحقّ الفــدا
أنتركهم يغصبون العروبـــة * * * مدّ الأبوّة والسّـــــؤددا
وليسوا بغير صليل السّيوف * * * يجيبون صوتا لنا أوصــدا
فجرّد حسامك مِنْ غِمـــده * * *فليس له بعدُ أنْ يُغمـــدا
أخي أيها العربـــي الأبـــيّ * * * أرى اليوم موعدنا لا الغدا..

كما أجاب أحد تلامذته الذين أنكروا عليه إباحته للغناء الذي ليس فيه فحش ولا يثير الشّهوة قائلا: "أنا أستمع لأمّ كلثوم وهي تغنّي قصيدة أحمد شوقي الشّهيرة: وُلِدَ الهدى فالكائنات ضياء***وفَمُ الزّمان تبسّم وسناء، ينظر: موقع: مصر العربية [masralarabia.net]، تاريخ الزيارة: الأربعاء: 2020/01/01م، في الساعة: 18:00.

[2] أخرجه مسلم في كتاب: التّوبة، باب: فضل دوام الذّكر والفكر في أمور، ج4، ص2107، حديث رقم: 2750.

[3] أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: ما كان النبي ﷺ يتخوّلهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، ج1، ص25، حديث رقم: 68[مكررا] واللفظ له، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: الاقتصاد في الموعظة، ج4، ص2172، حديث رقم: 2821.

بتفتيش القصر، فتراجع الإنجليز حذرا مِنْ تدويل القضية بطلب مِنَ الشّيخ صاحب السّلطة الشّرعية، الذي يهابون اجتماع فتواه الدّينية إلى جانب الوثائق القانونية، ولاعتقادهم أنّ الأمير لا يقوم بهذا التّهديد وفي قصره ذاك القتيل ليون فهمي.[1]

وممّا يدلّ أيضا على دهاء الشّيخ محمّد عبدَه وذكائه؛ طلبه مِنَ العالم الفاضل الأستاذ محمّد شاكر قاضي قضاة السّودان، المحبّ للشّيخ محمّد عبدَه، والذي تربطه به علاقة جيّدة ومتميّزة، وهو مِنَ الموثوق بعلمهم وعدالتهم، أنْ يُظهر السّخط على الشّيخ محمّد عبدَه لاستمالة الخديوي الذي كان يرى بأنّ محمّد شاكر مِنْ رجال الشّيخ محمّد عبدَه وهو الذي اختاره ليكون قاضي القضاة في السّودان، فاهتدى الشّيخ محمّد عبدَه لهذه الحيلة بموافقة الأستاذ محمّد شاكر، حتّى يتمّ تعيينه شيخا لعلماء مدينة الإسكندرية، فتتهيّأ له فرصة إصلاح الأزهر مِنَ الإسكندرية على يد محمّد شاكر بعدما عجز عن إصلاحه مِنَ القاهرة، وقد نجحت حيلتهما، فانتُخب محمّد شاكر شيخا لعلماء الإسكندرية بصدور الأمر العالي بذلك في 26 أفريل 1904م.[2]

ومِنْ أمارات فطنته وقوّة حدسه، أنّه لمّا كان رئيسا لتحرير جريدة العروة الوثقى بباريس، وعَرَفَ حقيقة الجاسوس الذي بثّه الاستعمار البريطاني عليه وعلى أستاذه الأفغاني في الجريدة، والذي كان يترجم له الأخبار إلى اللّغة العربية، فلمّا اكتشف أمره، تعامل معه بمرونة دون أنْ يُشعره أنّه اكتشف أمره، فاستغنى عن خدماته تدريجيا، ثمّ كتب إلى أعضاء الجمعية بمصر يحذّرهم منه: "وذلك الذي وفد إليكم جاسوس للحكومة القائمة في دياركم فاحذروه، ولكن ليكن حَذركم حَذر الحكماء، لا يتبيّن منه علمكم بحاله، تحفّظوا منه كلّ التّحفّظ، وإيّاكم ومكاشفته بشيء ممّا أنتم عليه".[3]

تاسعا: النّزاهة النّفسية والفكرية والتّرفّع عن الحظوظ الشّخصيـة

تميّز فكر الشّيخ محمّد عبدَه بالنّزاهة وقدرته على تخليص نفسه مِنْ أهوائها وهو يزاول الإصلاح، فعند وضعه للخطط واقتراحه الحلول لعلاج مشكلات المصريّين[4]؛ كان نزيها لا يبتغي مِنْ إصلاحاته تحقيق المنافع الشّخصية والطّموح إلى السّلطة والتّزلّف إلى الحكّام، والعمالة للاستعمار، وإنّما كان يعمل بكلّ ما أوتي مِنْ جهد فكري وبدني للارتقاء بالمجتمع المصريّ، وتربيته على الأصول الإسلامية المستندة إلى المرجعية المقدّسة المبنية على القرآن الكريم والسنّة النّبوية الثّابتة وفهوم أهل القرون الأولى مِنَ الصّحابة والتّابعين وتابعيهم، وبالانفتاح على الفكر البشريّ والاستفادة مِنَ الأفكار الخادمة للإنسانية، فكان همّه تغليب المصلحة العامّة وخدمة الدّين والمجتمع والأمّة والنّاس جميعا، ومع ذلك قاومته حكومة الخديوي الخاضعة للاستعمار البريطاني، التي رأت فيه ندّا لها يتحدّاها ويفضح ممارساتها وسياستها، ويكشف كسلها وانغلاقها الفكري الذي وافقها عليه بعض شيوخ الأزهر المتنفّذين الجامدين؛ حفاظا على مصالحهم الخاصّة ومصالح الحكومة الضيّقة.

---

[1] ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الإمام الأستاذ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص142.

[2] ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق: ج3، ص72و73.

[3] محمّد عمارة، الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ، دار السّلام للطباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة، مصر، ط1، 2009م، ص264.

[4] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص222.

الفرع الثّالث: أخلاقه وصفاتــه

أوّلا: أخلاقـــه

تحلّى الشّيخ محمّد عبدَه بأخلاق الإسلام الفاضلة فتَمَثَّلَهَا في جميع شؤونه اقتداء بالنّبي ﷺ، بعدما رُبِّيَ عليها مِنْ طرف والديه، لذلك أثنى عليه محمّد رشيد رضا بقوله: "ولقد كَمُلَت للأستاذ الإمام أصول الفضائل الأربع: العفّة والشّجاعة والعدالة والحكمة وما نشأ عنها وتفرّع"[1]، وقال فيه أيضا: "كان الشّيخ محمّد عبدَه سليم الفطرة، قدسي الرّوح، كبير النّفس، وصادف تربية صوفيةً نقيّةً، زهّدته في الشّهوات والجاه الدّنيوي، وأعدّته لوراثة هداية النُّبوة"[2]، وأثنى عليه أحمد أمين قائلا: "كان طيّب القلب سليم الصّدر وفيًّا لأصدقائه لطيفَ الحديث سمحَ النّفس يُنصف النّاس في الحق حتّى مِنْ نفسه"[3]، وقال عنه آخر: "وكان مِنْ خلائقه الإنصاف في الرّأي، والبُعد عن الغرور والمكابرة، والوفاء لأصدقائه، والسّعي في دفع الشرّ عنهم وفي سَوْقِ الخير إليهم بأشدّ ممّا يسعون لأنفسهم، فكان في ذلك قدوة لمعاشريه والمتّصلين به، يُربّي نفوسهم بخُلقه وسيرته، كما يربّي عقولهم بعلمه وحكمته".[4]

فقد كان مربّيا ومصلحا متحلّيا بالأخلاق الفاضلة التي أهّلته لأداء رسالة الإصلاح، فأدّاها بتفان واعتزاز، غير آبه بما كان يلقاه مِنْ صنوف الأذى، قالت عنه جريدة المقطّم غداة وفاته: "كان في قلب بلاد الشَّرق، بلاد الخوف والرّهبة والاستبداد، رجلا جريء الفؤاد حرّ الضّمير، يجاهر برأيه ويَثْبُتُ عليه، ولا يخشى بأس متسلّط، ولا يهاب صولة كبير، وقد جرّ عليه ثباته على رأيه وجراءته وقلّة خوفه ورهبته، أهوالا كثيرة ومصائب ومحنا عديدة"[5]، وفيما يلي بعض الخلال الحميدة التي عُرِف بها وهي:

1- سلامة الصّدر مِنْ أمراض القلــوب

حَبَا الله الشّيخ محمّد عبدَه بطهارة القلب ونقاء السّريرة مِنْ أمراض القلوب؛ كالحقد والضّغينة والكره لإخوانه المسلمين الذين آذوه وحرموه مِنْ حقوقه، وناصبوه العداوة، فلم تَدْعُهُ تلك المواقف للانتصار لنفسه والانتقام لها، ولم تمنعه مِنْ أن يَذْكُرهم بخير وأنْ يترحَّم على الأموات منهم، فرابطة الأخوّة الإسلامية عنده أقوى مِنْ كلّ الرّوابط، فها هو يترحّم على شيخ الأزهر محمّد علّيش لمّا ذكره في آخر حياته وهو يتحدّث عن امتحان شهادة العالمية التي حُرم فيها مِنْ الدّرجة الأولى التي كان جديرا بها بشهادة الشّيخ العبّاسي[6]، حيث قال: "وابتُليتُ في الامتحان أشدّ الابتلاء لتعصُّب الأكثر مِنْ أعضائها -أعضاء اللّجنة- مع الشّيخ المرحوم علّيش[7] وكان يعاديني على الغَيب".[8]

---

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص950.

[2] المصدر نفسه، ج1، ص(ح).

[3] أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص326.

[4] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص305و306.

[5] عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمد عبدَه، مصدر سابق: ص53.

[6] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السابق، ج1، ص103.

[7] عادى الشيخ محمّد علّيش تلميذه محمّد عبدَه لمّا وصلته أخبارا مغلوطة عنه مِنْ طلبته دون أنْ يتبيّنها أو يتحقّق منها.

[8] المصدر نفسه: ج1، ص102.

فقد عُرف الشّيخ بسلامة الصّدر وصفاء القلب والحِلْمِ والصّفح، فما انتقم مِنْ مسيء، ولا سعى في ضرر أحد قطّ، بل كان يُحسن إلى مَنْ أساء إليه، إذا استنجده أنجده، وإذا استرفده أرفده وإنْ عاد إلى الإساءة سبعين مرّة[1]، وقالوا عنه: "إنّ الشّيخ محمّد عبدَه -مع هيبته وحدَّته- كان طيّب القلب سليم الصّدر وفيّا لأصدقائه لطيف الحديث سمح النّفس ينصف النّاس في الحقّ حتّى مِنْ نفسه".[2]

2- التّواضع والزّهد في الدّنيـــا

رغم المسؤوليات الكبيرة التي تقلّدها الشّيخ محمّد عبدَه، والمكانة العلمية العالية التي بلغها، والتّقدير العظيم الذي كان يلقاه مِنَ العلماء والحكّام وطلبة العلم وعامّة النّاس؛ فقد كان مِنْ تواضعه أنّه لم يغترّ بعلمه وواصل مسيرة الطّلب ولم يجعله ذلك متعاليا على العلم وأهله، ولم يدَّعِ الكمال فيه، حيث بقي يطلبه ويستزيد منه، ليقينه أنّ علم الإنسان كسبيّ ونسبيّ ومحدود، وأنّه يتطوّر ويزداد ويتجدّد، على خلاف البعض مِنَ الطّلبة والأساتذة والشّيوخ والعلماء، الذين إذا حصّلوا الشّهادات العليا، تركوا طلب العلم وانشغلوا عنه بالوظيفة، ولهثوا وراء المال والجاه والمناصب والسّلطة.

فالشّيخ محمّد عبدَه الذي سار على نهج أسلافنا الصّالحين الذين أُثِر عنهم مقولة: "أُطْلُبِ الْعِلْمَ مِنَ الْمَهْدِ إِلَى اللَّحْدِ"، كان يقول في آخر حياته؛ أنّني لا أزال طالب علم أبتغي المزيد منه في كل يوم[3]، وأُثِر عنه أنّه قال: "ينبغي أنْ يسعى الإنسان إلى طلب العلم والمعرفة واستكناه الحقائق طوال حياته، وأكمل النّاس علما الذين لا ينقطعون عن طلب العلم طوال حياتهم".[4]

وقد شهد للشّيخ محمّد عبدَه الأصدقاءُ والأعداءُ مِنَ المسلمين ومِنْ أهل الملل والنّحل الأخرى، على المنزلة العلمية المرموقة التي وصلها، فاعتُبر قامة علمية وفكرية عظيمة ورائدا مِنْ رواد الإصلاح الدّيني والتّربوي والاجتماعي، بلغت شهرته الآفاق، وصار أنموذجا وزعيم مدرسة إصلاحية في مصر وفي العالم العربي والإسلامي، ومع ذلك لم يصبه الغرور، ولم يذكر بأنّه عالم كبير، بل ولم يتكبّر على النّاس بعلمه، وإنّما كان متواضعا يطلب العلم ويستزيد منه إلى آخر لحظة مِنْ حياته.

كما أنّه لم يُعِر بالًا للحياة الفانية، فلم يطلب المناصب ولم يلهث وراء المال والجاه، إلا ليجعلهما وسيلة لبلوغ أهدافه الشّريفة ومقاصده السّامية التي يرمي مِنْ ورائها إلى إصلاح أمّته والإنسانية التي يريد لها الخير والفلاح، فلم يسعَ وراء الدّنيا ومُتعها، ولم يجرِ وراء المال يجمعه لنفسه، بل إنّ كلّ ما حصّله جعله في سبيل الله فعاش فقيرا ومات فقيرا، حتّى قال فيه تلميذه مصطفى عبد الرّازق: "ولو شاء الشّيخ محمّد عبدَه لكان ذا غِنًى، ولترك لأرملته المحترمة المريضة ثروة تكفل لها مِنْ بعده رَفَهَ الشّيخوخة وتصونها مِنْ ذِلّة العُسر، ولكنّ الأستاذ الإمام كان أكبر نفسا وأشدّ احتقارا للدّنيا مِنْ أنْ يبذل جهده في جمع المال، فعاش عظيما فقيرا، ومات فقيرا عظيما".[5]

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص951.

[2] محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق: ج3، ص72.

[3] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج1، ص103، وينظر: تشارلز آدامس، الإسلام والتّجديد في مصر، ص41.

[4] محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص225.

[5] جمال الدّين الأفغاني ومحمّد عبدَه، العروة الوثقى، مصدر سابق: ص30.

ومِنْ شواهد تواضعه؛ أنّه لمّا كان مفتيا وشاعت قضيةٌ في المحاكم المصرية دامت أكثر مِنْ عشر سنوات، يغالبُ فيها رجلٌ قوي فاسد مرتش رجلا ضعيفا مُعدما، فلمّا بلغته القضية ترك مشاغله الكثيرة وهموم وطنه الكبيرة، وتفرّغ له يحقّق في قضيته ويتتبّع تفاصيلها حتّى أيقن صدق الدّعوى، وأنّ الحقّ مع الضّعيف، فعيّن له قاضيا نزيها، أنصفه مِنَ الظّالم بالعدل والقانون، وقَبْل الحُكْم لقي الشّيخُ محمّد عبدَه الرّجلَ المسكينَ وتركه يبسط قضيته بسذاجته التي تَنِمُّ عن صِدقه، وأصغى إلى قصته زهاء ساعتين، وترك الرّجل يقول ويعيد كشأن المظلوم الملهوف المضطرب بين الخوف والأمل، فلم يتعجّله ولم يقتضب عليه شرحه وتَكراره، ولم يَدَعْهُ حتّى وعده بحلّ قضيته وإنصافه، حتّى صَدَرَ الحكم الأخير لصالح الضّعيف.[1]

وما يُذكر له في تواضعه أيضا؛ عدم ارتدائه لكسوته التّشريفية الرّسمية فكان يكرهها بل كان يستحي مِنْ لبسها، فيضعها عند صهره، فلا يلبسها إلّا في المناسبات الرّسمية والأعياد، ثمّ يخلعها ويضعها عنده، وفي الشّتاء يضع فوقها العباءة حتّى لا تُرى، كما كان يكره أنْ تُقَبَّلَ يده بل يُصافِح فقط، وقد مَنَعَ الأزهريّين مِنْ تقبيلها بعد الدّرس كعادتهم.[2]

3- المروءة والوفاء والتّسامـح

غداة انهزام العُرابيّين أمام الإنجليز، أُلْقِيَ القبض على الشّيخ محمّد عبدَه، وزُجّ به في السّجن ثلاثة أشهر بتهمة أنّه أفتى بقتل الخديوي لخروجه عن إجماع الأمّة، فحزّ في نفسه ذهاب جهوده الإصلاحية، واحتلال الإنجليز لبلاده، ونفيه خارج مصر، فقصد بيروت لعلّه يجد فيها منزلا ومأوى يُؤْذَن له بالعودة إلى بلاده، وما زاد في مرارة ما كان يَلْقَى؛ أنّ فريقا مِنْ أصدقائه انقلبوا عليه خلال المحاكمة وسعوا للإيقاع والوشاية به وهو ما آلمه كثيرا، فكتب مِنَ السّجن إلى أحد أصدقائه يصف حالته النّفسية التي اختتمها بالدّعاء لإخوانه الذين خذلوه وهو يكنُّ لهم كل الخير فقال: "ولئن عِشتُ لأصنعنّ المعروف ولأُغيثنّ الملهوف ولأُنقذنّ الهاوي في حفرة الغدر، ولأَتجاوزنّ عن السّيئات، ولأَتناسينّ جميع المضرّات"، وقال أيضا: "إنّ الحوادث المريعة سوف تُنسَى، وإنّ هذا الشّرف سوف يُرَدُّ، ولأَجذبنّ إلى المجد أحبّتي، كلّ ذلك إنْ عشتُ وساعدني صحّة الجسم، ولا أطلب شيئا، سوى معونة الله".[3]

وتأكيدا لهذه الخصلة الشّريفة قال فيه تلميذه قاسم أمين: "كان يسعى لصاحب الحاجة وهو يعلم أنّه أساء إليه وقدح فيه، وتحالف مع خصومه في ترويج عبارات القذف والنّميمة التي لم تنقطع عنه يوما مدّة حياته، كان الأستاذ يرى أنّ الشرّ لا فائدة منه مطلقا، وأنّ التّسامح والعفو عن كلّ شيء وعن كلّ شخص هما أحسن ما يعالَج به السّوء، ويفيد في إصلاح فاعله".[4]

فهذه الشّهادات الحيّة مِنْ تلامذته الذين لازموه، يكون الشّيخ محمّد عبدَه أنموذجا في القدوة والأخلاق الفاضلة التي تعينه على تحقيق مشروعاته الإصلاحية التي ندب نفسه للقيام بها وإنجاحها.

---

[1] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص260.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص971.

[3] عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، ص52، وينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، ص54.

[4] جمال الدّين الأفغاني ومحمّد عبدَه، العروة الوثقى، مصدر سابق: ص28.

4- طيبة النّفس والإحسان إلى النّاس وحب الخير لهـم

طُبِع الشّيخ محمّد عبدَه على الإحسان للنّاس وحبّ الخير لهم، فبالإضافة إلى قيامه بالإصلاح والفتوى والتّأليف، كان يؤسّس الجمعيات الخيرية ويجمع المال للفقراء والمنكوبين، ويحثّ الأغنياء بإلحاح على التّبرع للمنكوبين، كما حصل في حادثة حريق بلدة مِيتْ غَمْر في صيف سنة 1902م، التي بلغ عدد منكوبيها أكثر مِنْ خمسة آلاف[1]، فجال في مدن مصر وقُراها وبذل جهده ووقته يجمع التّبرعات لهم، ويحسن إلى المساكين والعائلات الفقيرة بتوزيع مرتّباته عليهم بالسرّ والكتمان[2]، وقد وصف الشّيخ محمّد عبدَه الحريق في الصّحف بأنّه حادث خطير، تجاوز المصابون فيه خمسة آلاف، منهم الأطفال الذين فقدوا عائليهم، والتجّار والصنّاع الذين هلكت آلاتهم ورؤوس أموالهم، يتعذّر عليهم أنْ يبتدئوا الحياة مرّة أخرى إلا بمعونة إخوانهم، وإلّا أصبحوا متشرّدين متلصّصين أو سائلين.[3]

كما كان الشّيخ محمّد عبدَه يخدم الفقراء والمساكين بنفسه باللّيل والنّهار خُفية بإخلاص، متمثّلا قول النّبي ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ...وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُه**» [رواه البخاري][4]، وقد أدلى العقّاد في ذلك بشهادة قال فيها: "ولقد عرفنا نحن أناسا نظروا إليه في جوف اللّيل يطرق عليهم الأبواب ويسلّمهم ما قدر عليه مِنْ عاجل الصّدقة، وهو يقول لهم أنّه أمانة مِنْ جهات الخير يؤدّيها إليهم ولا يعرّفهم بنفسه، فلم يَعرِفوا أنّه هو ذلك الرّسول الذي كان يطرق عليهم أبوابهم تحت جنح الظّلام إلّا بعد أنْ فقدوه على أثر وفاته، وقد عهد أهله إلى تلميذه الحميم السيّد رشيد رضا أنْ يُرتّب أوراقه عند سفره إلى الإسكندرية فوجد في محافظ الأوراق صُرَرا مِنَ النّقود مكتوبا على كلٍّ منها اسم مَنْ يراد إعطاؤه إياها".[5]

يعدّ الشّيخ محمّد عبدَه رائدا في الخدمة الاجتماعية في مصر قبل أنْ تُعرف وزارات متخصّصة في هذا الشّأن، حيث كان يقوم بأعمال كثيرة قد تنوء بها العصبة؛ "فكان يُحسن إلى صاحب الحاجة وهو في منفاه فقير لا مورد له غير مُرَتَّبِه مِنْ عمله، وكان يُحسن إلى أصحاب الحاجة وهم مِنْ ذرّية أعدائه المفترين عليه، وكان يحسن إلى المنقطعين عن الكسب وهو مريض محتاج إلى ماله القليل لتدبير علاجه ومعيشته في مقامه وسفره، وكان يحسن إليهم وهو في مرض الموت، ويموت وفي ودائع سرّه صدقات للمستعينين به لم يكن يُطْلِعُ عليها أحدا مِنْ أقرب المقرّبين إليه"[6]، وقد تحدّث مترجمو الشّيخَ محمّد عبدَه بإسهاب عن كرمه ومروءته وإحسانه في صمت إلى المعوزين والضّعفاء.[7]

---

[1] ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص149.

[2] ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص55 و56.

[3] ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمّد عبدَه، المصدر السابق، ص149.

[4] أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصّلاة وفضل المساجد، ج1، ص133، حديث رقم: 660[مكررا] واللفظ له، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: فضل إخفاء الصّدقة، ج2، ص715، حديث رقم: 1031.

[5] عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، المصدر السابق، ص148.

[6] المصدر نفسه: ص146.

[7] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص311.

إنّ طيبة الشّيخ محمّد عبدَه جعلته ينجذب إلى الخير كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس فيندفع إليه ويسعى إلى نفع الغير، فكان ملجأ للفقراء واليتامى والمظلومين، خصوصا طلبة الأزهر المحتاجين للمساعدة، فيبذل إليهم مالَه ويسعى لهم عند ولاة الأمور لقضاء حاجاتهم، بل إنّه كان يسعى لصاحب الحاجة وهو يعلم أنّه أساء إليه وقدح فيه وتحالف مع خصومه.[1]

إنّ شخصية الشّيخ محمّد عبدَه التي تتحلّى بمثل تلك الأخلاق الفاضلة والتي تنِمُّ عن تكوين إسلاميّ متين ومعدن أصيل؛ لجديرة بأنْ يكون لها ذلك الشّهود وذلك التّأثير المحليّ والإقليميّ في عالم الإصلاح، فأفكاره وآثاره مازالت فاعلة بين النُّخب الباحثة والمنظِّرة لإحداث الإصلاح والتّغيير والنّهضة، في مُناخ انحسرتْ فيه كثيرا مثل هذه الخصال الحميدة، التي مِنْ شأنها أنْ تُسهم في إحياء أمّة الإسلام التي طال سباتها، وفي عالم ازدادتْ فيه حدّة التّدافع وتسارعتْ في ظلّ الفورة التّكنولوجية الخارقة للعادة، وما تحمله مِنْ تطبيقات مؤثّرة على عقول وقلوب ووجدان جيل قرن العولمة، الذي يشهد سطوة غربيّة غير مسبوقة في شتّى المجالات الحيوية.

ثانيا: صفاته الخَلْقِيَــة

كتب العلماء والمفكّرون والدّارسون عن شخصية الشّيخ محمّد عبدَه بعدما خبروه وعرفوا معدنه، وبعدما قرأوا عنه في الكتب والجرائد والمجلاّت، فوجدوه شخصية متميّزة جمعت سمات حسنة وخصالا خيّرة، ينبغي ذكرها للإشادة بأمثال هؤلاء الأعلام الأفاضل وعِرفانا بفضلهم، وذِكرهم بالحسنى أداء لواجب الحبّ والوفاء لهم، ودعوة للاقتداء والتّأسي والتّشبه بهم، فهم الذين قال فيهم الشّاعر الحكيم: تشبّهوا بالكرام إنْ لم تكونوا * * * مثلهم، فإنّ التّشبّه بالكرام فلاح.

حيث لم يغفلوا عن ذكر صفاته الخَلقية، فقد وصفه أقرب النّاس إليه وهو تلميذه وخليله محمّد رشيد رضا بقوله: "كان رَبْع القامة، أسمر اللّون مع وضاءة، عظيم الهامة في اعتدال، عالي الجبهة، كبير الدّماغ، أسود العينين برّاقهما، كأنّهما مصباحان أو شرارتان، بارز الوجنتين، أقنى العينين، واسع الفم، منظّم الأسنان، جهوريّ الصّوت، أشعر الذّراعين والمنكبين والصّدر، عصبيّ المزاج عضليّه، ممتلئ الجسم في غير ضخامة، قويّ البنية، فاجأه مرّة حصان جامح فدفعه بيديه في صدره فردّه إلى الوراء حتّى أقعى أو كاد"[2]، ووصفه أيضا بقوله: "وأما خَلْقُهُ: فقد كان رَبْعَة بادنا متماسكا قويّ العضل، أسمر اللّون، برّاق العينيْن، جهوريّ الصّوت، مهيب الطّلعة، عظيم الهامة، قال مختار باشا الغازي: لو وُزن دماغ هذا الرّجل لرجح بكل مخّ عرف مِنَ عظماء الرّجال فيما أظن، وإنّي لآسف على عدم وَزنه إذ لو تحقّق ظنّي لكان مِنَ الفخر العظيم لنا أنْ كان أكبر دماغ عرف في البشر منّا".[3]

ووصفه آخر بأنّه: "كان ربع القامة، أسمر اللّون، قويّ البنية، حادّ النّظر، فصيح اللّسان، قوي العارضة، متوقّد الفؤاد، بليغ العبارة، حاضر الذّهن، سريع الخاطر، قويّ الحافظة".[4]

---

[1] ينظر: جمال الدّين الأفغاني ومحمّد عبدَه، العروة الوثقى، مصدر سابق: ص28.

[2] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص973.

[3] محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج8، ص881.

[4] جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، كلمات عربية للترجمة والنشر، مصر، (د ط)، 2012م، ج1، ص323.

قال عنه تلميذه مصطفى عبد الرّازق: "كان الشّيخ محمّد عبدَه رجلا مربوع القامة أو فوق ذلك قليلا، ممتلئ الجسم متين البنية شديد العضل رشيق الحركة نشيطها، ملامح وجهه جميلة في جملتها وتفصيلها، تزيدها جمالا ومهابة تلك اللّحية البيضاء النّضيرة المطيّفة بمحيّا مشرق، ذي جبهة غرّاء انحسر عنها الشّعر رويدا، وارتفعت فسحة ناطقة بالعقل والإرادة والذّكاء، ولعينيه المعتدلتَيْنِ في السّعة مِنْ غير ضيق، بريق ساحر يملأ الصّدر هيبة وإعجابا وحبّا، وأشهد لقد كان جمال الشّيخ محمّد عبدَه مِنَ الجنود التي سخّرها الله لعبقريّته".[1]

وأورد الكاتب الأمريكي تشارلز آدمس بعض الصّفات الدّالّة على الزّعامة فيه فقال:" لا شكّ أنّ محمّد عبدَه كان يمتاز بكثير مِنْ صفات الزّعامة، فقد رُوِيَ أنّه كان رَبْعَةً قويّ البنية، معتدل الجسم، غزير اللّحية، حادّ البصر، جهوريّ الصّوت، وكان سريع الانفعال والتّأثّر، ذَرِبُ اللّسان، إذا خطب أفحم، بارعا في الارتجال، مستمسكا بالعربية الفصحى في الكتابة والخطاب، فصيح اللّسان بليغ العبارة قويّ الذّاكرة، راجح العقل شديد الذّكاء، وكان موفور النّشاط لا يكلّ ولا يملّ مِنَ العمل المتواصل".[2]

إنّ كلّ تلك الصّفات الخُلقية والخَلقية التي اجتمعت في الشّيخ محمّد عبدَه؛ تَنِمُّ عن أنّه كان شخصية متميّزة وغير عادية، وهذا ما جعل شخصيته العلمية والإصلاحية والتّربوية تلقى تلك الشّهرة وذلك الحضور في كل المستويات المحلية والإقليمية وحتّى العالمية، حيث امتدّ حضورها وتأثيرها إلى وقتنا الرّاهن في الألفية الثّالثة مِنَ القرن الواحد والعشرين، فقد هيّأه الله تعالى لتولّي مهمّة الإصلاح والتّربية والتّجديد، لذلك شُدَّت إليه الأنظار، ولَفَتَ إليه الانتباه، وأخذ العلماء والمفكّرون والمصلحون والتّربويّون والمربّون والدّعاة يقتفون آثاره ويستنيرون بسيرته ويتّبعون منهجه.

المطلب الثّاني: حياته العلمية ورحلاته وآثاره

كانت حياة الشّيخ محمّد عبدَه العلمية في بدايتها خلاف رغبته، فلمّا رأى طرائق التّعليم تتّسم بالتّعقيد ومقرّراته بالحشو وشيوخه بالجمود والتّقليد؛ نفر مِنْ طلب العلم وشيوخه وعزم تغيير الوجهة عنه تماما، حتّى ساقه القدر إلى أحد شيوخ الصّوفية الذي كان له الفضل الكبير في ردّه إلى حظيرة العلم وأهله، ومع مرور الوقت التقى بجمال الدّين الأفغاني الذي حبّب إليه طلب العلم وعمّقه فيه ونمّاه، ومِنْ حينها أخذ يطوّر مكتسباته العلمية وينمّي قدراته الفكرية، حتّى شقّ طريقه إلى التّربية والإصلاح، وتجشّم في ذلك الأسفار السّرّية القسرية والرّحلات العلمية الطّوعية، التي خلّف بموجبها آثارا علمية مرجعية، وتفصيل ذلك مبسوط في الفروع الآتية:

الفرع الأوّل: حياته العلميـــة

أوّلا: طلبه للعلم ومنهجه فيه

1- طلبه للعلم: سار الشّيخ محمّد عبدَه على منهج أسلافنا في طلب العلم الذين أُثِر عنهم قولهم: "اطلبوا العلم مِنَ المهد إلى اللّحد"، منهم الإمام أحمد بن حنبل الذي لم يتوقّف عن طلب العلم وهو في

[1] جمال الدّين الأفغاني ومحمّد عبدَه، العروة الوثقى، مصدر سابق: ص26و27.

[2] تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص89.

سنّ متقدّمة، بل وإماما بلغتْ شهرته الآفاق، حتّى أنّه سأله أحدهم عن هذا الطّلب قائلا له: "**إلى متى وقد بلغتَ هذا المبلغ وصرتَ إمام المسلمين**"، فقال له قولته المأثورة: "**مع المحبرة إلى المقبرة**".[1]

لقد طلب الشّيخ محمّد عبدَه العلم قبل أنْ يبلغ سنّ الرّشد، بإلحاح مِنْ والده الذي كان حريصا أنْ يكون في الأسرة مَنْ يحمل لواء العلم، وكانت أمنيته أنْ يرى ابنه عالما، فحقّق الله له مراده بعد مماته، فصار عالما فذّا يشار إليه بالبنان، إذْ كانت له أفضال كثيرة على الأمّة العربيّة والإسلاميّة في إحيائها وتنويرها ونهضتها، فجسّد بفضل الله تعالى وتوفيقه؛ نيّة والده الصّادقة التي حقّقها وعزّزها بالعمل الدّؤوب والتّفاني والتّضحية والمثابرة في طلب العلم وترسّم معالمه والاجتهاد في العمل به، لإصلاح الأمّة ونهضتها ورقيّها وازدهارها، منذ بلوغه إلى أنْ توفّاه الله تعالى عالما عارفا مجدّدا.

بدأ محمّد عبدَه مسيرة الطّلب بحفظ القرآن الكريم وتجويده، وبتعلّم مبادئ القراءة والكتابة وهو في سنِّ العاشرة، ثمّ عرّج على الجامع الأحمديّ بطنطا، ومنه التقى بالشّيخ درويش خضر الذي رغّبه في العلم بعدما نفر مِنَ الأزهر بسبب طريقته العقيمة في التّدريس، حتّى كان له أوّل لقاء بجمال الدّين الأفغاني بمصر سنة 1871م وهو طالب في الأزهر، فجلس إليه في بيته وأخذ عنه الفلسفة والمنطق والحكمة، ودرّبه على الكتابة في الصّحف السّياسية، ومنذ ذلك الحين وهو يسعى إلى الإصلاح حتّى شكّل مدرسة إصلاحيّة بمصر انبعث إشعاعُها على الشّرق كلّه، لتحرير العقول والأوطان.

وشأن الشّيخ محمّد عبدَه كأغلب العلماء الذين بدأوا يطلبون العلم بحفظ القرآن الكريم، ثمّ فتح الله عليهم بنيل العلوم الدّينية والدّنيوية الأخرى والتّمكّن مِنْ ناصيتها، فكان لهم شأن كبير فيها، وهذا الذي كان مِنْ أمره حتّى صار عالما مبرَّزا في وقته وبلغت شهرته الآفاق إلى يوم النّاس هذا.

2- منهجه في طلب العلم: مرّ الشّيخ محمّد عبدَه في مسيرته العلمية بثلاثة أدوار تمثّلتْ في الآتي:

أوّلها: طلب العلم على طريقة الأزهر: المعروفة بالمناقشة في عبارات كتب المؤلّفين وقراءة المتون والشّروح والحواشي والتّقارير، سلك هذه الطّريقة زمنا ثمّ ملّها وتركها إلى غيرها مِنَ العلوم والطّرق.

ثانيها: قراءة العلوم الأخرى على أستاذه الأفغاني: الذي حرّره مِنْ تقليد شيوخ الأزهر، فأخذ عنه علوم الحكمة والفلسفة والمنطق والكلام وغيرها مِنَ العلوم الإسلامية والعلوم الحديثة الأخرى.[2]

ثالثها: النّظر في العلوم الأوروبّية: فقرأ الكتب المترجمة إلى العربية، ثمّ تعلم اللّغة الفرنسية بعد سنّ الأربعين، وصار يقرأ كلّ ما يكتبه الفرنسيّون عن الإسلام والمسلمين، وفي هذا قال الشّيخ محمّد عبدَه: "مَنْ لم يعرف لغة مِنْ لغات العلم الأوروبّية لا يعدّ عالما في هذا العصر"، وقال أيضا: "ثمّ إنّ الذي زادني تعلّقا بتعلّم لغةٍ أوروبّية هو أنّي وجدتُ أنّه لا يمكن لأحد أنْ يَدَّعِيَ أنّه على شيء مِنَ العلم يتمكَّن به مِنْ خدمة أمّته ويقتدر به على الدّفاع عن مصالحها كما ينبغي، إلّا إذا كان يعرف لغة أوروبّية، كيف لا وقد أصبحتْ مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوروبّيّين في جميع أقطار الأرض، وهل

---

[1] أحمد بن عبد الرّحمان بن محمّد البنّا السّاعاتي، الفتح الرّبّاني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشّيباني ومعه بلوغ الأماني مِنْ أسرار الفتح الرّبّاني، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1975م، ج24، ص214.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص103.

يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أنْ يشتغل للاستفادة مِنْ خِبَرِهم أو للخلاص مِنْ شرّ الشّرار منهم"[1]، كما أَوْلَى علوم الأخلاق والنّفس وأصول الاجتماع الإنساني والتّاريخ وفلسفته وفنّ التّربية عناية كبيرة.

إنّ جِدّية الشّيخ محمّد عبدَه واجتهاده في طلب العلم والمعرفة، وعلوّ همّته؛ جعله يُحْرِز مكانة علمية عَلِيَّة، ويحظى بتقدير واحترام كبيرَيْن، واستطاع أنْ يكون له حضور قويّ فاعل بين العلماء والمفكّرين الحاملين لمختلف الأفكار، فناطحهم بأفكاره التّربوية والإصلاحية، وأحدث نهضة إصلاحية، تمكّن بها مِنْ إيصالها إلى بلدان المغرب العربي وأوروبا وأقاصي القارّة الأسيوية.

والذي يمكن استخلاصه مِنْ مسيرة الشّيخ محمّد عبدَه العلمية؛ استقلاله بنفسه في طلب العلم، والتّحرّر مِنْ قيود التّقليد والجمود تدريجيّا، والنّفور مِنْ تقليد شيوخه وعدم التّسليم لهم بما لم يفهمه منهم، فلم يكتف بعلوم شيوخه الأزهريّين، وإنّما سعى في الاستزادة مِنَ العلوم مِنْ غيرهم، كما لم يغترّ بنفسه ولم يكتف بما حصّله مِنْ علوم، فواصل الطّلب إلى آخر لحظة مِنْ حياته.[2]

ثانيا: مكانته العلميـــة

أتقن الشّيخ محمّد عبدَه العلوم الإسلامية واللّغوية والعقلية، فمكّنته علوم اللّغة العربية بأَنْ صار أدقّ النّاس فهما للقرآن والحديث وغيرهما مِنْ فصيح الكلام، وأبلغ الكُتَّاب، وأخطب الخطباء، كما كان له حظ وافر مِنَ الفلسفة القديمة والتّاريخ، وعلوم الحقوق والقوانين، وضرب بسهم كبير في العلوم والفنون العصرية، كما تعلّم اللّغة الفرنسية في عقده الخامس، وبها نهل علوم الغرب المفيدة.

وبإتقانه لفنون العلوم والمعارف صار عالما كبيرا ومجتهدا مجدّدا وفيلسوفا حكيما ومتصوّفا ربّانيا ومصلحا ناصحا، فصدق فيه قول النّبيّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[رواه أبو داود][3]، فكان مجدِّد الأمّة في زمانه، حيث ارتقى في العلوم العقلية حتّى كان فيلسوفا حكيما، وفي علوم التّصوّف فكان فيها مِنَ الرّاسخين، وفي العلوم الشّرعية فكان فيها إماما مجتهدا، وأمّا العلوم العصرية فكان عارفا منها بالرّياضيات وملمّا بالطّبيعيات، ومتقنا للفلسفة العقلية وعلوم التّربية وعلم النّفس والاجتماع والأخلاق وتواريخ الملل والأمم ومذاهبها، بالإضافة إلى مداومته على مطالعة ما تجدّد عند الإفرنج مِنَ المصنّفات في هذه العلوم وحول الإسلام.[4]

- **ألقابـــه**

حفظ الشّيخ محمّد عبدَه القرآن الكريم في صغره، ثمّ تربَّى على التّصوف على يد شيخه درويش، كما أخذ الفلسفة والمنطق عن أستاذه جمال الدّين الأفغاني، وفي المنفى التقى برجال الفكر الإسلامي وبعض المفكّرين الغربيّين، وتعلّم اللّغة الفرنسية وأتقنها وهو كهل، ومِنْ خلالها اطّلع على الثّقافة الغربية واستطاع أنْ يُكوِّن رصيدا كبيرا مِنَ العلم والمعرفة، وبرجوعه إلى مصر تقلّد عدّة مناصب في الدّولة أكسبته خبرة كبيرة في التّربية والإصلاح، واطّلع عن قرب على النّظم والقوانين

---

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص104و105.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ج1، ص105.

[3] أخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم، باب: ما يذكر في قرن المائة، ج4، ص109،حديث رقم: 4291، قال الألباني: حديث صحيح.

[4] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السابق، ج1، ص1031- 1033.

المصرية، فلقَّبه تلميذه محمّد رشيد رضا بـ"الأستاذ الإمام"، ولقَّبه عباس محمود العقاد بـ"عبقريّ الإصلاح والتّعليم"، ولقَّبه عثمان أمين بـ"رائد الفكر المصريّ"، وبـ"المفتي الأكبر"وبـ"المصلح المصريّ"[1]، وعَدَّه أحمد أمين مِنْ"زعماء الإصلاح في العصر الحديث"، واعتبره محمّد حسين الذّهبي بأنّه رائد اللّون الأدبي والاجتماعي للتّفسير في العصر الحاضر، لعدم اكتفائه بلون محدّد أو مذهب معيّن أو اتّجاه خاصّ، وإنّما جمع بينها جميعا فكان سلفيّا[2]، وصوفيّا، وفيلسوفا، ومفكّرا، ومفسّرا، ومصلحا، ومعلّما، ومربّيا، وسياسيّا، وأديبا، فدلّت تلك الألقاب على أنّه شخصية جامعة مستقلّة قائمة بذاتها.

وقد ورد في العدد الخامس مِنَ السّنة الأولى في جريدة الأهرام الأسبوعية الصّادرة في02 مِنْ أيلول 1876م توصيف لمكانة الشّيخ محمّد عبدَه قالت فيه: "وردتْ إلينا هذه الرّسالة مِنْ قلم العالم العلاّمة والأديب الفهّامة الشّيخ محمّد عبدَه أحد المجاورين بالأزهر".[3]

إنّ تقريض جريدة الأهرام لمقالات الشّيخ محمّد عبدَه الأولى يدلّ على مكانته العلمية العالية والتّقدير الكبير الذي كان يحظى به، والقيمة الكبيرة لمقالاته، وهذا ما جعل قطاعا عريضا مِنَ القّراء المصريّين يطالعونها، وقد وضع قاعدة إصلاحية ليسير النّاس وِفقَها، ضمّنها أبياتا شعرية قال فيها:

وكان لي أمل في وضع قاعـــــــدة * * * لكل نوع مِنَ العمّال تحويـــــه
ويؤخذ القوم طرا في مناهجهـــم * * * أنْ لا يجوروا في المشروع أو فيه
حتّى يكون نظاما كل سيدهـــــم * * * بمقتض الألف مع فهم يزكّيــه
ويأخذ العلم والتّهذيب مأخـــــذه * * * مِنَ النّفوس فتزهو مِنْ دراريــه
ويصبح العدل طبعا مِنْ جِبِلّتنـــا * * * ويشهد الكون أنا مِنْ مُواليـــه
هذي سبيلي حبّبت السّير فيها على * * * رغم الأنوف مِنَ البُلَّه المعاتيــه.[4]

ثالثا: الدّراســـة

كانت بدايةُ نشأةِ محمّد عبدَه العلمية في قريته، بتلقّيه مبادئ القراءة والكتابة في منزله، ثمّ بدأ حفظ القرآن الكريم وهو في سنّ السّابعة مِنْ عمره لِيُتِمَّهُ على يد مُحَفّظٍ خاصٍ في سنّ العاشرة، ثمّ بعثه أبوه إلى الجامع الأحمدي[5] بطنطا سنة 1864م لتلقّي شيء مِنْ علوم الفقه واللّغة العربية[6]،

---

[1] عثمان أمين، رائد الإصلاح المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص70و154.

[2] هناك مَنْ يعتبر مدرسة الشّيخ محمّد عبدَه مدرسة سلفية لتأثّرها بدعوة الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب، لذلك جرّد نفسه في الاجتهاد في محاربة البدع وإصلاح العقيدة الإسلامية التي شابها الإشراك مع الله تعالى؛ الأولياء والقبور والأضرحة، كما فتح باب الاجتهاد الذي أغلقه المقلّدون، ينظر: أحمد بن عبد العزيز بن عبد الله الحصين، دعوة الإمام محمّد بن عبد الوهاب سلفية لا وهابية، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1، 1999م، ص423.

[3] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج2، ص15.

[4] ينظر: حافظ محمّد حيدر الجعبري، الشّيخ محمّد عبدَه وآراؤه في العقيدة الإسلامية، مرجع سابق: ص 126.

[5] **الجامع الأحمدي:** هو معهد ديني تابع لجامع الأزهر الشّريف ويليه في المنزلة، ويسير على طريقته القديمة في تعليم العلوم الدّينية والعربية، فيأخذ المبتدئ بما يأخذ به المنتهي في التّعليم، ينظر: عبد المتعال الصعيدي، المجدّدون في الإسلام، مرجع سابق: ص399.

[6] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص16.

قال عن نفسه: "تعلّمتُ القراءة والكتابة في منزل والدي ثمّ انتقلتُ إلى دار حافظِ قرآنٍ قرأتُ عليه وحدي جميع القرآن أوّل مرّة، ثمّ أعدتُّ القراءة حتّى أتممتُ حفظه جميعه في مدّة سنتين".[1]

كما درس فنّ تجويد القرآن الكريم، فجوّده في سنتين على أكمل وجه سنة 1862م[2]، "فكان رحمه الله مِنْ أحفظِ النّاس للقرآن وأجوَدِهم في تلاوته نَغمةً وأَحسنِهم ترتيلا".[3]

قضى محمّد عبدَه ما يقرب مِنَ العام ونصف العام وهو يتردّد على حِلَقِ الجامع الأحمدي يتلقّى دروس التّعليم الأزهري فيه، كشرح الكفراوي على الآجرومية في النّحو،إلاّ أنّه لم يستطع التّأقلم مع نظام الدّراسة فيه ومع مقرّراته العقيمة التي كانت تعتمد على المتون والشّروح والحواشي والتّقارير المفتقرة إلى البساطة والوضوح، إضافة إلى عدم قدرته على استيعاب طريقة المدرّسين في التّعليم، لاستعمالهم مصطلحات فقهية ونحوية معقّدة، فقال: "قضيتُ سنة ونصفا لا أفهم شيئا لرداءة طريقة التّعليم"، وقال: "كنتُ أسمع الشّيخ وهو يُدَرِّس فأحسبه يتكلّم بلغة أجنبية"[4]، والأمر الذي زاد مِنْ تنفيره مِنَ التّعليم وجعله يهرب إلى أخواله؛ عدم تحمّله لفضاضة المعلّمين وقساوتهم؛ فقد كان يسأل أستاذه عن معنى الآجرومية والإعراب وغيرهما، فيضيق به الأستاذ ذرعا ويصرخ به: "لقد ضايقتني يا ولد وأزهقتَ روحي، فإيّاك أنْ تسألني عن شيء"، بل ويزجره قائلا: "اسكتْ يا منحوس".[5]

فقرّر أنْ يترك الدّراسة ويتوجّه إلى الزّراعة، لكنّ إصرار أبيه على تعليمه جعله يهرب إلى إحدى القرى المجاورة، فالتقى بخال أبيه الشّيخ درويش خضر الذي غَيَّر مجرى حياته العلمية وحبّب إليه العلم ورغّبه فيه، حتى صار له شأن عظيم، وبلغت شهرته الآفاق في العلم والصّلاح والتّربية والإصلاح.

فرجع إلى قريته محلّة نصر وتزوّج سنة 1865م وعمره لم يتجاوز سبعة عشر سنة، وعاد إلى ممارسة الزّراعة مع والده وأخويه علي ومحروس وقرّر ترك طلب العلم، لكنّ حرصَ والدِه على تعليمه جعله يُلِحّ عليه بالعودة إلى الدّراسة وطلب العلم.[6]

ورغم امتناعه عن طلب العلم بسبب الطّريقة المنفّرة وغير المجدية، إلاّ أنّ والده أصرّ عليه في مواصلة الطّلب، لرغبته الملحّة أنْ يرى أحد أبنائه عالما يرفع مِنْ ذكر اسم العائلة، فركّز جهوده في سبيل تحقيق أمنيته، خصوصا وأنّ كل أفراد العائلة كانوا منشغلين بالفلاحة والأعمال الحرّة.

وبعد مرور أربعين يوما على زواج محمّد عبدَه، قرّر والده إعادته إلى الجامع الأحمدي[7]، فهرب مِنَ القرية ونزل ببلْدة كنيسة أُورِينْ ومكث بها خمسة عشر يوما، وفيها التقى بخال والده الشّيخ درويش خضر الرّجل الصّوفي الذي كان يشتغل بالوعظ والإرشاد، فلمّا لازمه غيَّر مجرى حياته وكان له

---

(1) محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق، ج1،ص20، وينظر: أحمد تيمور باشا، أعلام الفكر الإسلامي، ص144.

(2) ينظر: محمّد عمارة، مسلمون ثوار، دار الشروق، مصر، ط3، 1988م، ص441، وينظر: محمّد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمّد عبدّه، مرجع سابق: ص13.

(3) أحمد تيمور باشا، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، المرجع السابق: ص145.

(4) قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص168 وص171، وينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص16.

(5) قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، المرجع السابق: ص168.

(6) ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص21، وينظر: محمّد عمارة، مسلمون ثوار، مرجع سابق: ص441.

(7) ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، المرجع السابق، ص168.

الفضل في صرفه عن اللّهو مع أقرانه في السّباحة والفروسية، ورَغَّبَهُ في القراءة والعلم الذي أكسبه معارف صوفية ورياضة نفسية على الآداب ومكارم الأخلاق، حتّى قال: "فلم تمض عليّ بضعة أيّام إلا وقد رأيتُني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنتُ أعهد، واتّسعَ لي ما كان ضيّقا، وعظم عندي مِنْ أمر العرفان والنّزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيرا، وتفرّقتْ عنّي جميع الهموم ولم يبق لي إلا همّ واحد وهو أنْ أكون كامل المعرفة كامل أدب النّفس ولم أجد إماما يرشدني إلى ما وجهتُّ إليه نفسي إلّا ذلك الشّيخ الذي أخرجني في بضعة أيّام مِنْ سجن الجهل إلى فضاء المعرفة ومِنْ قيود التّقليد إلى إطلاق التّوحيد، هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي صحبة أحد أقاربي وهو الشّيخ درويش خضر مِنْ أهل كنيسة أُورِينْ مِنْ مديرية البحيرة، وهو مفتاح سعادتي".[1]

لقد زَوَّدَ الشّيخُ درويش خضر محمّد عبدَه بحكمة التّصوّف وربّاه على سلوك الصّوفية، وروّضه على الطّريقة الصّوفية الشّاذلية، كما تعلّم عنه طرفا مِنَ العلوم الإسلامية، فحفظ بعض كتب الفقه والحديث[2]، فعادت إليه الرّغبة في طلب العلم، ورجع إلى الجامع الأحمدي، ومكث يأخذ على شيوخه خمس سنين[3]، والفضل يرجع إلى الشّيخ درويش الذي جعل محمّد عبدَه يفهم ما يقرأ في الفقه والنّحو، حتّى صار مرجعا للمذاكرة، بل ويشرح ويوضّح لأقرانه الطّلبة ما يشكل عليهم.[4]

وانتقل مِنَ الجامع الأحمدي إلى الجامع الأزهر في القاهرة سنة 1866م[5]، ليواصل الدّراسة فيه وهو في سنّ السّادسة عشر مِنَ العمر، فتلقّى فيه دروس الفقه والحديث والتّفسير واللّغة والنّحو والبلاغة وغير ذلك مِنَ علوم الشّريعة واللّغة[6]، وكان في نهاية كل سنة يزور أهله وشيخه درويش ويتدارس معه القرآن والعلم، ويشجّعه على دراسة العلوم التي لا يدرّسها الأزهر كالمنطق والحساب والهندسة[7]، فقضى في الأزهر اثنا عشر عاما طالبا للعلم إلى غاية نيله شهادة العالمية سنة 1877م.[8]

ولمّا زار جمال الدّين الأفغاني مصر سنة 1871م[9]، اتّصل به محمّد عبدَه ولازمه وأخذ عنه بعض العلوم الرّياضية والفلسفية والكلامية، وأخذ يدعو زملاءه الطّلبة للأخذ عنه رغم ما كان يشاع عنه مِنْ أنّه يلقّن العلوم التي تزعزع العقيدة وتؤدّي إلى الضّلال، ولمّا استشار شيخه درويش في ذلك قال له: أنّه ليس هناك أفضل مِنَ التّقرب إلى الله بالعلم والحكمة.[10]

إنّ إعجاب محمّد عبدَه بدروس جمال الدّين الأفغاني، وتشجيع الشّيخ درويش له بأخذ العلم والحكمة عنه، جعله ينتقل بدروسه مِنْ عالم التّصوّف والتّنسك إلى عالم الفلسفة الصّوفية، وهو ما

---

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص23.

[2] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص24.

[3] ينظر: عبد المتعال الصعيدي، المجدّدون في الإسلام، مرجع سابق: ص399.

[4] ينظر: أحمد تيمور باشا، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، مرجع سابق: ص147.

[5] ينظر: محمّد عمارة، مسلمون ثوار، مرجع سابق: ص441.

[6] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص17.

[7] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السابق، ج1، ص23 و24.

[8] ينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدّد، مرجع سابق: ص244.

[9] ينظر: غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر دراسة وتقويم، (د دار)، ط4، 2004م، ص16.

[10] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السابق، ج1، ص25.

زهّده في المواظبة على حضور دروس الأزهر التي لم يفهما، لعقمها وعدم جدواها بسبب طرق وأساليب تدريسها[1]، فنَظَمَ في ذلك أرجوزة قال فيها:

لو كان هذا وصفهم ما شنّعـوا * * * بل وقتهم في جاء زيد ضيّعـوا
ظنُّوا بأنّ العلم علم القول، لا * * * والله، بل علم القلوب فُضِّلَا.[2]

لازم محمّد عبدَه جمال الدّين الأفغاني، وواظب على حضور دروسه في منزله يدوّن شروحه وتعليقاته على كتب العقائد وكتب علم الكلام والمنطق والأدب والسّياسة، فتفتّحت مداركه على آفاق جديدة في العلم والحياة، فأحبّ تلك العلوم واستوعبها، وصار يعيد تدريسها على زملائه بالأزهر، ممّا جعل شيوخ الأزهر يغضبون منه ويناصبوه العداء، وحاولوا إسقاطه في امتحان العالمية، فتدخّل شيخ الأزهر محمّد المهدي العبّاسي، ومنحوه شهادة العالمية مِنَ الدّرجة الثّانية سنة 1877م.[3]

إنّ الأثر الجديد الذي أضافه إلى رصيده العلمي والمعرفي مِنْ ملازمته لجمال الدّين الأفغاني، هو انفتاحه على العلوم الجديدة؛ كالمنطق والفلسفة وعلم الكلام وغيرها مِنَ العلوم التي يعتبرها شيوخ الأزهر تقود إلى الزّندقة والكفر، بسبب جمودهم واقتصارهم على العلوم التّقليدية دون العقلية.

لقد كان لمعلّمه الثّاني جمال الدّين الأفغاني فضلُ حمايته مِنْ جمود شيوخ الأزهر، وإنقاذه مِنَ الغرق في خيال التّصوّف، وتوجيهه إلى ميادين العلم الواسعة وإلى الجهود العملية المثمرة.[4]

فتعمّق بين يدي أستاذه جمال الدّين الأفغاني في علم المنطق والفلسفة، وقرأ عليه: شرح القطب على الشّمسية والمطالع وسلّم العلوم في المنطق، والهداية والإشارات وحكمة العين وحكمة الإشراق في الفلسفة، وعقائد الجلال الدّواني في التّوحيد والتّوضيح مع التّلويح في الأصول، والجغميني وتذكرة الطّوس في الهيئة القديمة، كما قرأ عليه كتاب الزّوراء للدّواني في التّصوف، وغيرها مِنَ الكتب التي ذكرها الشّيخ محمّد عبدَه لتلميذه محمّد رشيد رضا في آخر حياته.[5]

كما مرّنه على كتابة المقالات الأدبية والاجتماعية والسّياسية، ودرّبه على فنّ الخطابة حتّى برع فيها وفاق فيها أستاذه الذي لم تَصْفُ عبارته مِنْ كدورة العُجمة.[6]

بالإضافة إلى تتلمذه على الأفغاني والشّيخ درويش، أخذ في هذه الفترة العلم عن الشّيخ محمّد البسيوني والشّيخ حسن الطّويل الذي أخذ عنه علم المنطق والفلسفة أيضا.[7]

ومِنَ المشايخ الذين جلس إليهم في الأزهر ولم يكن معهم على وفاق؛ الشّيخ محمّد علّيش[8] الذي كان يكره محمّد عبدَه الطّالب ويعاديه، لعلاقته بجمال الدّين الأفغاني الذي كان يتلقّى عنه العلوم

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص26- 28.

[2] ينظر: محمّد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمّد عبدّه، مرجع سابق: ص15.

[3] ينظر: محمد عمارة، مسلمون ثوار، مرجع سابق: ص442.

[4] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتجديد في مصر، مرجع سابق: ص25.

[5] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص24 - 26.

[6] ينظر: محمد عمارة، الإمام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين، المرجع السابق: ص26.

[7] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السابق: ج1، ص24.

[8] **محمّد علّيش(1808- 1882م)**: فقيه مالكي مغربي الأصل مصري المولد، مِنْ مصنّفاته: فتح الجليل على مختصر خليل، هداية المريد لعقيدة أهل التّوحيد، ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرّة، تاريخ الزيارة: الأحد: 2020/04/12م، في الساعة: 15:00 زوالا، قال فيه العقاد:=

التي تنزع إلى التّجديد وتدعو إلى التحرّر مِنَ الجمود والتّقليد، خصوصا وأنّ الشّيخ علِّيش كان مِنْ أشدّ الشّيوخ الرّافضين لكلّ حركة تجديدية في الأزهر.

وبداية معاداة الشّيخ علّيش لمحمّد عبدَه الطّالب، كانت منذ أنْ أبلغه ابنه بأنّ طالبا بالأزهر اسمه محمّد عبدَه يحضر دروس جمال الدّين الأفغاني ويقرأ على يديه كتب المعتزلة والمتكلّمين، فذهب إليه بمعية ابنه وأصحابه حاملا عكّازه، فدارت بينهما مشاجرة بالتّماسك بالأيدي، استعمل فيها الشّيخ علّيش عكّازه، لذلك كان محمّد عبدَه كلّما ذهب يحضر حلقة الشّيخ علّيش يصطحب معه عصاه لردّ أيّ عدوان قد يطرأ عليه مِنْ طلبة الشّيخ[1]، فيضع عصاه بجانبه ويقول لزملائه: "إذا جاء الشّيخ علّيش بعكّازه فله هذه العصا".[2]

لقد ذهب محمّد عبدَه إلى أبعد مِنْ ذلك في تحدّيه لشيوخ الأزهر، فراح يبثُّ بين طلبة الأزهر روح الإصلاح التي استفادها مِنْ أستاذه جمال الدّين الأفغاني، ويذاكر معهم كتبا غير مقرّرة عليهم، فقرأ عليهم في علم الكلام؛ شرح العقائد النَّسفية لسعد الدّين التّفتزاني، فوشى به بعض الطّلّاب إلى الشّيخ علّيش بأنّ محمّد عبدَه يُحْيِي مذهب المعتزلة، فاستدعاه ليحاسبه وقال له: "بلغني أنّك رجَّحت مذهب المعتزلة على مذهب الأشعريّة!؟"، فقال محمّد عبدَه: "إذا كنتُ أترك تقليد الأشعري، فلماذا أقلّد المعتزلي؟ إذن أتركُ تقليد الجميع وآخذ بالدّليل"، وهذا ما جعل الأزهريّين يخوضون في دينه، ثمّ تَحْرِمُه فيما بعد لجنة الامتحان مِنْ نيل الدّرجة الأولى في شهادة العالمية، كما قرأ على زملائه بعض الكتب التي شرحها له وعلّق عليها أستاذه الأفغاني في بيته، فألقاها عليهم في شكل دروس، ككتاب؛ إيساغوجي في المنطق، ومقولات السّجاعي بحاشية العطّار، وكتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه، كما شرح لهم كتبا فكرية حديثة، ككتاب التُّحفة الأدبية في تاريخ تمدّن المماليك الأوروبية للوزير الفرنسي فرانسوَا جيزو الذي نقله إلى العربية نعمة الله خوري.[3]

ولمّا بلغ سنّ الثّمانية والعشرين اجتاز شهادة العالمية أمام لجنة كان أغلب أعضائها يعادونه لموقفه مِنْ شيوخ الأزهر وطريقتهم التّلقينية في التّدريس، وقبل الامتحان اتّفقوا على حرمانه مِنْ شهادة العالمية، وفي حالة نجاحه فإنّهم سيحرمونه مِنَ الدّرجة الأولى ويمنحونه الثّانية لمستواه العلمي العالي.

وعن مجريات امتحانه أمام شيوخ الأزهر قال: "عرضتُ نفسي على مجلس الامتحان في 13جمادى سنة1294هـ/1877م وابتُليتُ في الامتحان أشدّ الابتلاء لتعصّب الأكثر مِنْ أعضائه مع المرحوم الشّيخ محمّد علِّيش وكان يعاديني على الغيب إتباعا لآراء مَنْ لا رُشد عندهم مِنْ بُلَدَاء الطّلبة، وكانوا قد أجمعوا أمرهم على أنْ لا يمنحوني درجةً ما في العلم، فخرجتُ مِنْ هذا الامتحان بالدّرجة الثّانية وصرتُ مُدرِّسا مِنْ مُدرِّسي الجامع الأزهر وأخذتُ أقرأ العلوم الكلامية والمنطقية".[4]

="كان رجلا صالحا عفيفا عن المطامع الدّنيوية..وكان مخلصا صادق النّية في كُرهه للبدع التي يُخشى منها على الدّين، ولكنّ إخلاصه قاده إلى التّطرّف الشّديد"، ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص117.

[1] ينظر: المصدر نفسه: ص117.

[2] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص168 وص173.

[3] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص40و41.

[4] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص102و103.

إنّ بعض أعضاء اللّجنة الأزهرية اتّفقوا قبل الامتحان أنْ لا يعطوا محمّد عبدَه درجةً، ولكنّهم لمّا رأوا مِنْ حُسن جوابه في الامتحان فوق ما كانوا ينتظرون، أخذوا يناقشونه ويراجعونه ويستطردون معه، حتى صار الامتحان مناظرة، عند ذلك حلف الشّيخ العبّاسي؛ أنّه لم ير أحدا امتُحن في عصره مثلُه، وأنّه لو كان فوق الدّرجة الأولى درجة ممتازة لاستحقّها، فأراد الشّيخ الرّافعي أنْ يُوَفِّقَ فأخذ ورقة وكتب له بالدّرجة الثّانية، ثمّ عرضها على المتّفقين على حرمانه، فوقّعوا عليها ثمّ أعطوها للشّيخ العبَّاسي[1]، فأمضاها دون أنْ يراجعهم بعدما رأى منهم ما رأى، فظفروا بحرمانه مِنَ الدّرجة الأولى.[2]

وشاءت الأقدار أَنْ تُرفع عنه هذه المظلمة بعد مرور ستٍّ وعشرين سنة بقرار مِنْ مشيخة الأزهر سنة 1904م، فردّت له الاعتبار ومنحته شهادة العالمية مِنَ الدّرجة الأولى بأثر رجعي.[3]

وبرغم الخلاف والعداء الذي كان بين الشّيخ علّيش ومحمّد عبدَه الطّالب، إلاّ أنّ أخلاقه الفاضلة لم تمنعه مِنَ الدّعاء له والتّرحم عليه بعد وفاته رغم ما لحقه منه مِنْ عنت وشدّة وأذى.

رابعا: التّدريـــس

بعد ما حفظ الشّيخ محمّد عبدَه القرآن الكريم وحاز بعضا مِنْ علوم الدّين واللّغة العربية في قريته وفي الجامع الأحمدي، دخل الأزهر ليعمّق معارفه وعلومه فكان له ذلك، وكُلّلت جهوده بنيله لشهادة العالمية التي بها اشتدّ عوده العلمي والمعرفي، ولمّا لمس مِنْ نفسه أنّه يمتلك رصيدا علميا وفكريا يؤهّله للمساهمة في تعليم النّاشئة وطلبة العلم وتربيتهم، فشرع يربّي ويدرّس ويعلّم أبناء أمّته.

لقد كان الفضل للشّيخ درويش الذي ردّ محمّد عبدَه إلى حظيرة العلم، وكذا أستاذه الأفغاني الذي فتح له عينيه على بعض العلوم والمعارف المهجورة في الأزهر، فصارت لديه رغبة كبيرة في نقلها إلى أقرانه، كما خاطر بمذاكرتها معهم في الأزهر، وحمل رسالة تبليغها إلى الطّلبة إذا هو زاول التّدريس في المؤسّسات التّعليمية والدّينية المصرية، خصوصا وأنّ لدية رغبته ملحّة في ممارسة التّدريس.

لقد كانت مَلَكَةُ التّعليم والتّدريس أصيلة متجذّرة فيه، حيث فُطر على تعليم النّاس، يدفع بالمتعلّمين مِنْ خلالها إلى العمل ويبث فيهم الحماسة عليه والإخلاص فيه لتحقيق الغايات السّامية مِنْ غير التفات إلى المقابل المادي للتّعليم لأنّه يرى فيه رسالة شريفة.[4]

بدأ يدرّس بدار العلوم اللّغة والبلاغة؛ كعلم البيان والبديع والمعاني والإنشاء والنّحو والصّرف، إضافة إلى باقي المواد التي تدرّس في الأزهر، وذلك لمدّة عام كامل مِنْ سنة 1874 إلى سنة 1875م.[5]

---

[1] محمّد **المهدي العبّاسي(1826-1897م)**: فقيه حنفي، كان مفتيا للدّيار المصرية لمدّة أربعين سنة، وهو أوّل مَنْ جمع بين منصبَيْ الإفتاء ومشيخة الأزهر، ويعدّ مِنّ العلماء المناصرين لحركة التّجديد، مِنْ مصنّفاته: الفتاوى المهدية في الوقائع المصرية في سبعة مجلّدات، ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرّة، تاريخ الزّيارة: الأحد: 2020/04/12م، في الساعة: 15:00 زوالا.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص103، وينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق، ص118.

[3] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص168 وص173.

[4] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص21.

[5] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر في النصف الأوّل من القرن الرابع عشر الهجري، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1994م، ج1، ص128.

ثمّ شرع يدرّس في الأزهر الكتب التي كانت مقرّرة على طلبته، والتي نهل منها قراءة وتحليلا ومناقشة ومدارسة في مجالس العلم مع أستاذه جمال الدّين الأفغاني في بيته، فَدَرَّسَ لزملائه الطّلبة كتب المنطق وعلم الكلام المشوب بالفلسفة في جامع الأزهر بعد تخرُّجه منه.[1]

وبعد نيله لشهادة العالمية وتخرّجه في الأزهر؛ مارس التّعليم كرسالة ووظيفة بالأزهر، وقدّم فيه دروسا في علم المنطق والفلسفة والتّوحيد نحو سنتين، بالإضافة إلى تدريسه بالمدارس الأميرية أيضا.[2]

ومِنَ المؤسّسات التّعليمية التي كان له حظّ التّدريس فيها، مدرسة دار العلوم، التي درّس بها سنة 1878م مادّة التّاريخ وعلم الاجتماع والعمران وألّف فيه كتابا، وشرح لطلّابها مقدمة ابن خلدون، كما درّس العلوم العربية في مدرستَيْ الألسن[3] والإدارة لمّا عيّن مدرّسا فيهما[4]، بالإضافة إلى إلقائه دروسا خاصّة في داره[5]، ومِنَ الكتب التي درّسها تهذيب الأخلاق لابن مَسكوَيْه، إلى جانب تدريسه لكتاب تاريخ تمدّن الممالك الأوروبية لفرانسوا جيزو الذي نقله إلى العربية نعمة الله خوري، فرفع بذلك مستوى الدّروس بتدريسه الكتب النّافعة للتّلاميذ، وتخليصهم مِنْ وعورة المنهج الذي كان سائدا مِنْ قبل، وتركيزه على إصلاح الفكر والعقيدة والأخلاق، باتّباعه لمنهج تعليمي تربوي عملي فاعل، دافع مِنْ خلاله العادات والتّقاليد السّيئة وحارب البدع والمعتقدات الفاسدة، واضعا نصب عينيه هدف التّحرر مِنْ قيود التّقليد المستشري في مصر، كما حارب طغيان اللّغات الأجنبية وعمل على ردّ الاعتبار للّغة العربية، فكانت دروسه الهادفة فعّالة ومؤثّرة أزعجت السّلطة الخديوية المستبدّة يومها.[6]

لقد كان الشّيخ محمّد عبدَه جريئا في تدريس علوم العقيدة والفكر المهجورة النّافعة، فاتّبع طريقة سلسة وبسيطة بعيدة عن التّعقيد في تقديم الدّروس، وسعى إلى تحرير الأزهر مِنَ التّقليد والجمود اللّذَيْن ساداه طويلا، كما دافع العادات السّيئة وحارب الخرافة والبدع المستشرية، بالتّمكين للعقيدة الصّحيحة والفكر السّليم، وقاوم سطوة النّفوذ الأجنبي الإنجليزي والفرنسي، وتصدّى للتّغريب والغزو الفكري الممتدّ بسبب الجمود، كما عمل جاهدا على ردّ الاعتبار للّغة العربية التي فقدت مكانتها ورونقها أمام انتشار اللّغات الأجنبية واللّهجات العامّية، لذلك خاض غمار التّربية والتّعليم ليفريَ فريه في مؤسّساته بما حباه الله به مِنْ علوم ومعارف وقيم ومبادئ وأخلاق.

وممّا امتاز به الشّيخ محمّد عبدَه؛ الدّيناميكية والحركة الدّائمة، فهو يحمل رسالة سامية في الحياة، ويعمل جاهدا على تنفيذها كلّما سنحت له أوّل فرصة لذلك، سواء كان في المناصب الرّسمية أم خارجها، وهو ما تجلّى واضحا في نشاطاته مع أستاذه جمال الدّين الأفغاني، أو مِنْ خلال

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص29.

[2] ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق: ج3، ص69.

[3] **مدرسة الألسن:** أسّسها زعيم النّهضة والعلم والأدب في عصره؛ رفاعة رافع الطّهطاوي سنة 1871م، وقد تخرّج في المدرسة نخبة مِنْ كبار العلماء والأدباء والشّعراء، ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، المرجع السابق: ج1، ص174.

[4] ينظر: محمد عمارة، الإمام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين، ص29، وينظر: محمد عمارة، مسلمون ثوار، ص442.

[5] ينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدّد، مرجع سابق: ص246، وينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص22.

[6] ينظر: المرجع نفسه: ص22.

عمله الرّسمي في المؤسّسات الحكومية أو مساعيه الفردية فيها، محاولاته تخطّي العقبات الموضوعة أمامه، وتحدّيه عراقيل السّلطة الخديوية ومَنْ ساندها مِنْ شيوخ الأزهر المعروفين بالجمود المعارضين للتّجديد والتّحرّر، فقد بذل كلّ وسعه وكل ما أوتي مِنْ جهود فكرية وبدنية لتجسيد آرائه وأفكاره الإصلاحية، غير آبه بالمضايقات والصّعوبات، لا يثنيه عن أهدافه ومقاصده شيء مِنْ ذلك.

لقد طرأت على مصر أحداثا سياسية سنة 1879م، تسبّبت في قيام الخديوي بعزل الشّيخ محمّد عبدَه عن التّدريس، بعدما سعى بكلّ ما أوتي مِنْ إمكانات لمزاولته، ولاستعداداته الفطرية وميوله الشّخصية إليه وحبّه للتّدريس، فهو يرى في التّعليم الوسيلة النّاجعة لتجسيد رسالة الإصلاح التّربوي لإحياء الأمّة والنّهوض بها وتحريرها، فقد أُثِرَ عنه قوله: "لقد خُلِقت معلّما".

إنّ انخراط الشّيخ محمّد عبدَه في العمل السّياسي وانضمامه إلى الحزب الوطنيّ الحرّ، ومشاركته في الثّورة العُرابية وقيادته لها، ومناوأته للخديوي إسماعيل الذي كرّس الاستبداد السّياسي، ومقاومته للنّفوذ الأجنبي في مصر؛ جعل تلك المعطيات تثير حفيظة الخديوي، الذي منعه مِنَ التّدريس ونفاه إلى قريته محلّة نصر وحدّد إقامته بها قرابة عام، حتّى استصدر له ناظر النُّظّار رياض باشا عفوا مِنَ الخديوي، وعيّنه محرّرا ثالثا لجريدة الوقائع المصرية التي تولّى رئاسة تحريرها فيما بعد.[1]

بعد عزله عن التّدريس تمّ سجنه ومحاكمته ونفيه عن مصر لمدّة ثلاث سنوات بعد فشل الثّورة العُرابية واحتلال الإنجليز لمصر سنة 1882م، بسبب مشاركته فيها، فقضى فترة منفاه في بيروت، ثمّ سافر منها متنقّلا بين عواصم بعض الدّول الأوروبية، فزار باريس بدعوة مِنْ أستاذه جمال الدّين الأفغاني، وأسّسا جريدة العروة الوثقى لسان حال جمعية العروة الوثقى، ومنها زار إنجلترا والتقى بساستها وقادتها العسكريّين، وعقد لقاءات صحفية معهم ودعا الإنجليز للجلاء عن مصر.

وبرجوعه مِنْ فرنسا إلى بيروت سنة 1885م، أقبل إليه اللّبنانيون وتوثّقت عرى الصّداقة بينه وبين وجهائها ورجال العلم فيها مثل: إبراهيم اليازجي وعبد القادر القبّاني ومحمّد اللّبابيدي وسعيد الشّرتوني وعبد الباسط فتح الله، ومحمّد رشيد رضا وحسين الجسر ومحمّد كامل البحيري وعبد الله البركة وعبد العزيز سلطان وعبد الله المسقاوي والأمير شكيب أرسلان، حتّى قال عنه تشارلز آدمس: "وسرعان ما أصبح بيته كعبة للعلماء والطلاّب وعشّاق المعارف مِنْ جميع الطّوائف".[2]

وفي بيروت تخلّى عن العمل الثّوري والسّياسي وتفرّغ للعمل التّربوي والتّعليمي والتّجديد الدّيني، فعمل مدرّسا بالمدرسة السّلطانية لمواد علم التّوحيد والأدب والبلاغة والفلسفة والعقائد والقانون، فأبلى بلاء حسنا بتعليمها، كما قدّم دروسا في التّفسير بالمسجد العمري، واستطاع أنْ يشدّ بها الأنظار إليه، وأنْ يجتذب إليها العقلاء والخاصّة والعامّة مِنَ المسلمين والنّصارى، كما قدّم دروسا في العقائد والتّوحيد التي كلّلها برسالة التّوحيد المشهورة التي كتبها بعد رجوعه إلى مصر.

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، مسلمون ثوار، مرجع سابق: ص442.

[2] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص235.

لم يقتصر الشّيخ محمّد عبدَه على مزاولة التّدريس بالمدرسة السّلطانية فحسب، فقد وسّع نشاطه التّعليمي ليمتدّ إلى منزله، وجعل منه مدرسة لتعليم السّيرة النّبوية[1]، كما قضى أكثر أيامه يدرّس التّفسير في الجامع الكبير أو في جامع الباشورة، يقرأ في المصحف ويفسّره مرتجلا، وأقبل النّاس على منتدى سَمَرِه في دار الحاج محي الدّين حمادة رئيس بلدية بيروت، وحضروا بكثافة مجالسَ دروسه التي كانت تضمّ النّصارى إلى جانب المسلمين، فقال عنه الشّيخ سعيد الشّرتوني: "هذا الرّجل إذا تكلّم يخرج النّور مِنْ فيه"، وقال عنه شكيب أرسلان: "إنّ مجلس الشّيخ كان يضمّ علماء السُنَّة ومجتهدي الشّيعة وعُقَّال الدّروز، وإلى جانبهم أساقفة النّصارى وأحبارهم مِنْ كلّ فريق، كما كان يضمّ بعض الملحدين أحيانا، إذْ وجد فيه الجميع مرجعا عامّا لسعة عقله وعلوّ إدراكه وإحاطة نظره".[2]

وبعدما قضى ستّ سنوات في المنفى ببيروت، رجع إلى مصر ودخلها سنة 1889م، بوساطة ومساعي أصحابه وتلامذته مع الخديوي توفيق الذي سَمَح له بالعودة إلى مصر شريطة عدم ممارسته للعمل السّياسي، فدخلها لكنْ لم يلبّ له رغبته في ممارسة التّدريس خوفا منه أنْ يربّي الأجيال على فكره التّحرّري، ووجّهه إلى وظيفة القضاء بأرياف مصر بعيدا عن القاهرة كاسرا بخاطره.[3]

فقال لمحمّد رشيد رضا مبيّنا امتعاضه مِنَ القضاء ورغبته في التّعليم: "إنّني خلقت لأنْ أكون معلما لا لأنْ أكون قاضيا"، بل أنّ رشيد رضا لمّا وجد شيخه منكمشا وممتعضا مِنْ منصب الإفتاء لم يهنّئه وقال له: "ما لي أراك منقبضا؟ فقال له لأنّ هذه وظيفة لا عمل فيها".[4]

وبرغم قصر المدّة التي عاشها الشّيخ محمّد عبدَه(1849- 1905)، إلاّ أنّه كان له حضورا متميّزا وتأثيرا كبيرا في الإصلاح خصوصا في مجال التّربية والتّعليم، الذي ترك فيه بصمات واضحة في بلدان العالم العربي والإسلامي التي حلّ بها، فبرهن على دوره الإصلاحيّ في العصر الحديث.

فكان إصلاحه جامعا بين أمرين؛ بين الدّعوة إلى تحرير الفكر مِنَ التّقليد، وبين التّمييز بين ما لِحَقِّ الحكومة مِنَ الطّاعة على الشّعب، وما لِحَقِّ الشّعب مِنَ العدالة على الحكومة.[5]

الفرع الثّاني: رحلاتـه العلمية وأسفـاره

أوّلا: رحلاته العلمية والفكريــة

كانت للشّيخ محمّد عبدَه رحلات عديدة لبعض البلدان العربية والإسلامية والأوروبية، فقد سافر إلى شتّى بلاد الدّنيا، كالأستانة وإنجلترا وفرنسا وتونس والجزائر والسّودان وسوريا ولبنان، وجنيف وصقلّية[6]وغيرها مِنَ البلدان، وكان حريصا على الرّحلة سنويا إلى خارج بلاده[7]، فساعدته

---

(1) ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج1، ص238.

(2) قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، ص235و236، وينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي، ج1، ص238.

(3) ينظر: محمّد عمارة، مسلمون ثوار، ص443، وينظر: محمّد عمارة، الإمام محمد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، ص40و41.

(4) محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص108و109.

(5) ينظر: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزّركلي الدمشقي، الأعلام -قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين- ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، 2002م، ج6 ص252.

(6) ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، ج3، ص79، وينظر: محمّد عمارة، مسلمون ثوار، ص445.

(7) ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص28.

تلك الرّحلات على صقل مَلَكَتِهِ العلمية، والوقوف على أحوال الأمم وفهم روحها، وزادته خبرة ومعرفة بديانات وثقافات وعادات النّاس وسلوكاتهم، فكان لتلك الخبرة أثر كبير في الإصلاح والتّجديد والتّغيير.

وقد استفاد مِنْ أسفاره وسياحته في الأرض أمورا كثيرة أعانته على تشخيص أدواء أمّته ووصف الدّواء لها، فكان مِنْ نتائج تلك الأسفار إلى البلاد العثمانية؛ أنْ عرف بأنّ مرض المسلمين نشأ مِنْ جهلهم بدينهم وبالابتداع فيه وإلصاق به ما ليس منه، واستبداد حكّامهم الظّالمين، وأمّا أسفاره إلى البلاد الأوروبّية والإفريقية فقد زادته بصيرة بأدواء أمّته وأعطته أملا قويا في إصلاح أحوال المسلمين، لذلك قال: "فما مرّة أذهب إلى أوروبّا إلاّ ويتجدّد عندي الأمل في تغيير حال المسلمين إلى خير منها، وذلك بإصلاح ما أفسدوا مِنْ دينهم، وشحذ عزائمهم إلى معرفة شؤونهم، وإنْ كانت تضعف في نفسي عند ما أعود إلى دياري لكثرة ما ألاقي مِنَ العنت وشدّة ما أصادف مِنَ المصاعب، وسوء ما أرى مِنِ انصراف المسلمين عن النّظر في منافعهم، وشدّة عداوتهم لأنفسهم، وقوّة رغبتهم في تمكين ظالميهم مِنْ رقابهم وحبّهم في الاستعباد لهم لغير سبب معقول، لكنّي متى عدت إلى أوروبّا ومكثتُ فيها شهرا أو شهرين تعود إليّ تلك الآمال"، وقد كان يقول لتلميذه محمّد رشيد رضا عندما يريد السّفر إلى أوروبّا: "إنّني أذهب لأجدّد نفسي، فقد أَخْلَقَتْهَا معاشرة الكسالى واليائسين".[1]

ومِنْ أهمّ أسفاره سفره الذي قاده إلى فرنسا بعد عام مِنْ نفيه إلى بيروت في أواخر سنة 1883م بدعوة مِنْ أستاذه جمال الدّين الأفغاني الذي كان مقيما في باريس، فأخرج مع أستاذه فيها جريدة العروة الوثقى، التي تولّى رئاسة تحريرها هناك داخل حجرة صغيرة متواضعة فوق أسطح أحد المنازل، ثمّ سافر إلى لندن سنة 1884م، في فترة منفاه قَصْدَ الاتصال بالجهات الرّسمية الإنجليزية، فالتقى بالسّلطات العسكرية والمدنية وتحادث معهم لإقناعهم بالجلاء عن مصر، فاجتمع بوزير الحربية الإنجليزي وبأعضاء البرلمان البارزين، وبالصّحافة والرّأي العام الإنجليزي عساه يقنعهم بإنهاء الاحتلال، كما زار تونس للمرّة الأولى سنة 1885م[2]، وزارها ثانية سنة 1903م قادما إليها مِنَ الجزائر، وفيها لقي عددا مِنَ العلماء التّونسيين أمثال: الطيّب النّيفر، ومحمّد بن مصطفى محسن، وأحمد الشّريف، ومحمود بن الخوجة، وسالم بوحاجب، ومحمّد الطّاهر بن عاشور، وصالح الشّريف، وحضر دروسا بجامع الزّيتونة وحاضر به، كما زار المكتبة الخلدونية وأُعجب بمكتبة جامع الزّيتونة، وتاقت نفسه إلى نسخ بعض المخطوطات النّادرة لتزيين مكتبة الأزهر بها.[3]

وأثناء تواجده في بيروت درّس بالمدرسة السّلطانية والمسجد العمري وغيره مِنْ مساجدها التي أحدث فيها نهضة علمية لفت بها أنظار العلماء والمفكّرين والوجهاء إلى علمه ومنهجه العقلاني الإصلاحي، واستطاع أنْ يُحدث بها إصلاحا نوعيا في المناهج والبرامج والمقرّرات والإدارة.

وأثناء إقامته في بيروت سافر إلى بيت المقدس ودمشق وبعلبك وطرابلس وتجوّل في أنحاء لبنان فعرف البلاد معرفة دقيقة وعُنِي فيها بالتّعليم، ورأى فيها مِنَ النّقائص ما حمله على توجيه تقرير

---

(1) محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص846و847.

(2) ينظر: محمد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص32 و34و35.

(3) ينظر: الموسوعة التونسية المفتوحة: http://www.mawsouaa.tn ، تاريخ الزيارة: الأحد: 2020/04/12م، في الساعة: 15:00 زوالا.

بشأنها إلى والي بيروت، كما دعا إلى إنشاء مدارس وطنية وحذّر مِنَ المدارس الأجنبية وكلّ المدارس التي تخدم أجندات أجنبية لِمَا رأى مِنْ أعمالها المحارِبة لثوابت الأمّة العربية والإسلامية.[1]

فكانت رحلته تلك ضمن عدد مِنَ الرّحلات التي قادته إلى عدد مِنَ الدّول العربية والأوروبّية، فزار الشّام وأوروبّا وتونس والجزائر وصقلّية وإيطاليا، وإلى السّودان في شهر جانفي سنة 1905م.[2]

وبعودته مِنْ تونس والجزائر إلى مصر عبّر للمصريّين عن الحفاوة التي لقيها مِنْ أهلهما وحكومتَيْهِمَا، وفي زيارته لصقلّية وعاصمتها بلرم شاهد آثار العرب فكتب عنها في مجلة المنار وصف فيها قصر الملك روجار وكنيسته وبيّن ما كان مِنْ تساهل العرب متسائلا عن مصيرهم، أمّا زيارته إلى السّودان فكانت بحكم اعتماد الحكومة السّودانية عليه في تعيين قضاتها، فهو مَنْ عيّن خيرة قضاتها علما وخلقا وإدارة ومعرفة كالشّيخ محمّد شاكر والشّيخ محمّد هارون والشّيخ مصطفى المراغي والشّيخ إسماعيل خليل والشّيخ محمّد الخضري والشّيخ عبد الوهّاب النّجار.[3]

وقبل وفاته بسنتين زار الجزائر في بداية شهر سبتمبر سنة 1903م، وفيها اتّصل بأعضاء جمعية العلماء المسلمين وببعض الطّرق الصّوفية، وقدّم في مساجدها دروسا في التّفسير، فكان له حضور كبير وتأثير واضح على أهاليها خصوصا على قادة الجمعية الذين كتبوا في جرائدهم على غرار ما كتبه عنه الشّيخ البشير الإبراهيمي في آثاره[4]، مشيدا به ومُثْنِيا على جهوده الدّعوية والإصلاحية.

كما زار الشّيخ محمّد عبدَه الأستانة سنة 1901م بعدما استأذن اللورد كرومر باعتباره ممثّل سلطة الاحتلال البريطاني في مصر فأذن له بتحفّظ شديد، فزارها للتعرّف عليها لكونها عاصمة قديمة ودولة تاريخية، وفيها أحيط برعاية كبيرة، وأثناء زيارته لها اضطرب السّلطان ورعب مِنَ تقارير العيون والجواسيس عنه وخاصّة عندما اجتمع بشيخ الإسلام وتحادثا عن وضع الإسلام وحال المسلمين، فأراد الانتقام منه بإهانته وحبسه، لكنّ الإنجليز أخرجوه منها دون أنْ يمسّه بسوء.[5]

وفي السّنوات الأخيرة مِنْ حياته توجّهت همّته إلى زيارة الشّعوب المسلمة فبدأ بزيارة تونس والجزائر وكان عازما على زيارة الهند وإيران وقازان الرّوسية والقوقاز، لكنّ المرض منعه حتّى مات.[6]

ثانيا: أسفاره السّريّـــة

وفي منفاه خارج مصر كانت له رحلات سرّية مِنْ فرنسا إليها وإلى غيرها مِنْ أقطار الوطن العربي بصفته نائبا لتنظيم جمعية العروة الوثقى ومؤسّسا لجريدتها في باريس بفرنسا، فقام برحلات سرّية متخفّيا عن أعين الحكومات والجواسيس وعملاء الاستعمار، وزار البلدان التي تتواجد فيها فروع الجمعية، للاطّلاع على مواقع الأحداث ودراستها عن قرب، ولإصدار التّعليمات وتنفيذها، ودخل جنوب

---

(1) ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص240.

(2) ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص44.

(3) ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص874- 876.

(4) ينظر: محمّد البشير الإبراهيمي، آثار البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1997م، ج1، 177و343، وج2، ص252.

(5) ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص66.

(6) ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السابق، ج1، ص847.

مصر ليدرس عن قرب شؤون ثورة المهدي بالسّودان، ثمّ دخل مصر سرّا متخفّيا عن العيون، بدليل الرّسائل التي كتبها، حيث كان يستخدم الإشارات الرّمزية غير الصّريحة في التّعبير تخفّيا عن جواسيس الحكومة الإنجليزية والخديوي توفيق كما في قوله: "وإنّي بعد طوافي ببلاد كثيرة أكتب إليك اليوم مِنْ: بلادٍ بها فَضَّ الشّباب تمائمي، وأوّل أرض مسّ جسمي ترابها؟! وأنا اليوم فيها أتعرّف الوجوه وأتنكّر للعيون؟ ولا يراني مِنْ أهلها إلّا المخلصون، ولا يعرفني فيها إلّا العارفون؟!".[1]

ويُروَى أنّ زيارة الشّيخ محمّد عبدَه الأولى إلى تونس كانت في أواخر سنة 1884م مِنْ أجل الاتّصال بالفرع التّونسي لجمعية العروة الوثقى الذي أعدّ نواته الأولى محمّد السّنوسي، فقَدِمَ إليها يطلب مساعدة مالية لجريدة العروة الوثقى التي انقطعت عن الصّدور في باريس بسبب الصّعوبات الماليّة، كما سعى إلى تشكيل خليّة للجمعية بتونس، وهذا ما يؤكّده مضمون رسالة بعث بها مِنْ تونس إلى جمال الدّين الأفغاني في باريس، قال فيها: "إنّنا نرغب في بعث فرع هنا، وقد قبلوا الدّخول فيه، وإنّي اليوم بصدد تنظيم الجمعيّة في سرعة حتّى أسافر".[2]

وخلال تواجده في تونس في هذه الزّيارة السّرّية السّريعة والخاطفة، التقى بعدد مِنْ علماء تونس المبرّزين، أمثال شيخ الإسلام الحنفي أحمد بن خوجة، وقاضي باردو، فاستقبلوه بحفاوة وأكرموا وفادته، فأقام في قصور العظماء وحضر الدّروس بجامع الزّيتونة، ومكّنوه مِنْ إلقاء المحاضرات به.[3]

الفرع الثّالث: آثـاره ومؤلّفاتــه

رغم قصر المدّة التي عاشها الشّيخ محمّد عبدَه إلاّ أنّه خلّف مؤلّفات منيرة للعقول، زاكيةَ المضمون، مركّزةَ المحتوى، عمليّةَ التّجسيد، لكنّه لم يجمع مؤلّفات مطبوعة، وإنّما قام تلميذه محمّد رشيد رضا بلَمِّ شتات الكثير مِنْ كتاباته المنشورة في الجرائد والمجلّات، كجريدتي الأهرام والوقائع المصرية ومجلّتي المنار والعروة الوثقى، كما نَشر له تفسير القرآن الحكيم، ودوّن له تاريخا عنونه بتاريخ: الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه في ثلاثة أجزاء أخرجه للنّاس سنة 1931م قُبَيْل وفاته ببضع سنوات، وبعد ستّة وعشرين سنة مِنْ وفاة شيخه.[4]

كما قام الباحث المحقّق محمّد عمارة بعمل جبّار تمثّل في إعداد سِفْرٍ مِنْ خمس مجلدات جمع فيه الأعمال الكاملة للشّيخ محمّد عبدَه في مدة خمس سنوات[5]، فحققها وعلّق عليها، وميّز بيّن ما هو مِنْ تأليفه، وبين ما نُسب إليه، واستطاع بذلك أنْ يُسند بالأدلّة والقرائن الأعمال لأصحابها.[6]

---

[1] محمّد عمارة، الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ، مرجع سابق: ص265و266.

[2] أحمد إبراهيم الشّريف، الإمام محمّد عبدَه في تونس..هل ذهب لتكوين جماعة سرية؟، مقال على موقع اليوم السابع: https://www.youm7.com، تاريخ النشر: الجمعة، 2019/12/06م، تاريخ الزيارة: الأحد: 2020/04/12م، في الساعة: 15:00 زوالا.

[3] ينظر: الموسوعة التونسية المفتوحة: http://www.mawsouaa.tn ، تاريخ الزيارة: الأحد: 2020/04/12م، في الساعة: 15:00 زوالا.

[4] ينظر: طاهر الطناحي، مذكرات الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص6.

[5] قال محمّد عمارة: "وقد صرفتُ مِنْ عمري خمس سنين أرابط في جمع أعمال الشّيخ محمّد عبدَه"، يرجع إلى: محاضرة محمّد عمارة على اليوتيوب بعنوان: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، من تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بمركز الدّراسات المعرفية في مصر، ألقاها في: 15 فيفري 2017م.

[6] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: الأجزاء(1و2و3و4و5).

لقد خلّف الشّيخ محمّد عبدَه تراثا علميا وفكريا مهمّا نوعا وكمّا، يعدّ مِنْ أهمّ المصادر في الفكر الإسلامي في العصر الحديث، له سمعة ذائعة الصّيت، بسبب تأثير منهجه الإصلاحي على المستويَيْن المحليّ والإقليمي، احتفظت به المكتبة العربية والإسلامية للإفادة منه، وتراثه يندرج ضمن جهوده العملية في الإصلاح الدّيني والتّربوي، التي تُتَرجِمُ ما كان يجده مِنْ مشقّة وعناء في سبيل التّمكين للإسلام وخدمة الإنسانية، بدءً بالأمّة العربية والإسلامية.

فقد كتب تقريرا في إصلاح المحاكم الشّرعية، ووضع تفسيرا رصينا، وألّف كتابه: الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية، وكَتَبَ في المجلّات والجرائد فصولا قيّمة في شتّى الموضوعات[1]، ومِنْ آثاره العلمية والفكرية والشّرعية والأدبية التي حُفظت للأمّة العربية والإسلامية ما يلي:

1- المقالات الصّحفية: كتب الشّيخ محمّد عبدَه مقالات كثيرة في مختلف الموضوعات والمجالات، ونشرها في العديد مِنَ المجلّات والصّحف المصرية وغيرها؛ أشهرها ما نُشِر في الأهرام والوقائع المصرية والعروة الوثقى والمنار، وقد جمعها تلميذه محمّد رشيد رضا في كتابه تاريخ الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه في ثلاثة أجزاء، ثمّ جمعها محمّد عمارة وحققها وعلّق عليها إضافةً إلى مؤلّفاته وأعماله الأخرى في كتاب أسماه: الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه في خمسة أجزاء.

وأوّل سنة كتب فيها الشّيخ محمّد عبدَه في الصّحف المصرية كان تقريظه لجريدة الأهرام سنة 1876م[2]، عالج فيها موضوعات تناولت في مجملها قضايا تتعلّق بالتّربية والتّعليم[3]، وابتداء مِنْ سنة 1978م إلى غاية سنة 1882م تولّى الكتابة المنتظمة في جريدة الوقائع المصرية لمّا كان رئيس تحريرها، فكتب مقالات كثيرة في القضايا الدّينية والتّربوية والأخلاقية والأدبية والاجتماعية والسّياسية.[4]

ويدخل ضمن آثار الشّيخ محمّد عبدَه؛ تلك المقالات والدّروس والتّقريظات التي ليست له، فنُسِبت إليه ولم تنسب إلى أصحابها، لكونه قام بتحقيقها والتّعليق عليها وشرحها وصياغتها بأسلوبه الخاصّ المتميّز بالصّنعة اللّفظية والسّجع، كرسالة الواردات[5] لأستاذه جمال الدّين الأفغاني، وكبعض المقالات مثل مقالَيْ: فلسفة التّربية، وفلسفة الصّناعة، اللّذَيْن نُشرا باسم محمّد عبدَه، والتّحقيق أنّهما دروس للأفغانيّ ألقاها على تلامذته في بيته، ومقالا نشرته جريدة الأهرام في عددها 41 سنة 1876م، فيه تقريظ لكتاب التُّحفة الأدبية في تاريخ تمدّن الممالك الأوروبّاوية لفرونسوا جيزو الذي ترجمه إلى العربية نعمة الله خوري، فنَسَبَتْه الأهرام للشّيخ محمّد عبدَه كذلك.[6]

---

[1] ينظر: جمال الدّين الأفغاني ومحمّد عبدَه، العروة الوثقى، مصدر سابق: ص26.

[2] **تقريظ الأهرام:** مقال نشرته الجريدة في عددها:05، في 02 ديسمبر 1876م، وكان يومها محمّد عبدَه طالبا في الأزهر، فوجّه مقاله هذا إلى محرّر الجريدة سليم أفندي، ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، ج3، ص7.

[3] ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص28- 30.

[4] ينظر: المرجع نفسه: ص33و37.

[5] **رسالة الواردات في سرّ التّجلّيات:** رسالة صغيرة في الفلسفة والتّصوّف وعلم الكلام، أملاها جمال الدّين الأفغاني على تلميذه محمّد عبدَه سنة 1872م لمّا كان طالبا في الأزهر وسِنُّهُ ثلاثة وعشرون سنة، وبعدما توفّي الشّيخ محمّد عبدَه طُبعت ونُسِبَت إليه، والتّحقيق أنّها ليست مِنْ تأليفه، وإنّما وَضَعَ لها مقدّمة ثمّ جمع الرّسالة وصاغها بأسلوبه فقط، ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، المصدر السابق، ج1، ص210و211.

[6] ينظر: المصدر نفسه: ج1، ص211و212. ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، المرجع السابق: ص30.

ومِنَ الرّسائل التي نُسبت للشّيخ محمّد عبدَه رسالة فلسفية حول الرّوح والجسد بعنوان: رسالة المدبّر الإنساني والمدبّر العقلي والرّوحاني نشرها في جريدة الأهرام في العدَدَيْن 11و23 في 23 ديسمبر 1876م، وهي رسالة لناظر المعارف علي مبارك ترجمها ثمّ دفعها إلى محمّد عبدّه ليصوغها بأسلوبه الفصيح، ثمّ كافأه وجعله معلّما لأولاده.[1]

كما صاغ الشّيخ محمّد عبدَه في هذه المرحلة رسالة فلسفية في العلوم الإلهية وهي بعنوان: شرح الدّواني للعقائد العضدية[2]، والتي شرحها الأفغاني له ولزملائه في منزله، فنُسبت إليه وهي ليست مِنْ تأليفه، وإنّما قام بتحقيقها والتّعليق.[3]

2- الكتب والشّروح والتّحقيقات والرّدود والتّرجمات: برز الشّيخ محمّد عبدَه كمحقّق لكتب التّراث العربي والإسلامي في منفاه في بيروت، فأثبت جدارته في ذلك، حيث شرح نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب ﷺ سنة 1885م، كما ترجم رسالة أستاذه جمال الدّين الأفغاني رسالة الردّ على الدّهريين مِنَ الفارسية إلى العربية سنة 1886م، وحقّق وشَرَحَ مقامات بديع الزّمان الهمذاني سنة 1889م[4]، كما خلّف رسالة التّوحيد ككتاب مَدْرَسِي لطلبة المدرسة السّلطانية لمّا كان منفيا ببيروت ألقاها عليهم دروسا، ثمّ لمّا عاد إلى مصر جمعها ورتّبها في كتاب وأصدر طبعتها الأولى سنة 1897م[5]، وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ الشيّخ عبد الحليم بن سماية [6] درَّسها أيضا لطلبه المدرسة الثّعالبية بالجزائر.[7]

إنّ تدريس رسالة التّوحيد مِنْ طرف أعلام الجزائر، دليل على قيمتها العلمية الكبيرة، وعلى شُهرة الشّيخ التي بلغت الآفاق، فقد كان له حضور قويّ في الجزائر في فترة كانت ترزح تحت نير الاحتلال الفرنسي الذي حاول طمس الهويّة الجزائرية العربية الإسلامية بنشره البدع والخرافات،

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق، ج1، ص212و213.

[2] **شرح الدّواني:** نسبة إلى **جلال الدّين الدّواني**(918هـ-1512م) فيلسوف وقاض فارسي مسلم، ترك شروحا على عدد من نصوص علم الكلام، **والعقائد العضدية:** نسبة إلى **عضد الدّين الإيجي**(ت756هـ/1355م)، الذي نشأ بفارس، ونسب إلى بلدته(إيج) ومات سجينا بقلعة كرمان بعد خلافه مع حاكمها، وهو أحد علماء الكلام والأصول واللغة والبلاغة والتاريخ، له كتاب: المواقف وهو أحد المراجع الشهيرة في علم الكلام، ينظر: محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، تقديم وتحقيق: محمّد عمارة، دار الشّروق، القاهرة، ط1، 1994م، ص6، وينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، المصدر السابق، ج1، ص213و 214.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص213- 215. ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص31.

[4] ينظر: المرجع نفسه: ص38و39.

[5] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، المصدر السابق، ج1، ص214، وينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق، ص38و39، وينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، ص269.

[6] **عبد الحليم بن سماية(1866م- 1933م):** عالم ومصلح جزائري مشهور، تنتمي أسرته إلى آل سماية التّركية العريقة بالجزائر، كانت له صلة بالحركة السّلفية الإصلاحية في العالم الإسلامي، اعتنق مذهب الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحي ودعا إليه، كان متابعا للأحداث العربية والإسلامية في الصحف العربية والفرنسية، درّس اللغة العربية بمدرسة خاصة بباب الواد وبالجامع الجديد وبالمدرسة الثّعالبية، اعتمد في تدريسه على رسالة التّوحيد لمحمّد عبدَه، وكتابَيْ أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، حيث تخرج على يده جيل مِنَ المثقّفين المزدوجي الثّقافة، مِنْ آثاره: اهتزاز الأطواد، الرُّبى مِنْ مسألة تحليل الرّبا، الكنز المدفون والسرّ المكنون، فلسفة الإسلام، نشر عدّة مقالات في الأخلاق والمجتمع في جريدة كوكب إفريقيا وجريدة الإقدام، ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر مِنْ صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر، مؤسّسة نويهض الثقافية للتأليف والتّرجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1980، ص178و179، وينظر: عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق: ج1، ص28و29.

[7] ينظر: المرجع نفسه: ج1، ص31.

وسعيه لإخضاع الجزائريّين وجعلهم يستسلمون له دون مقاومة، بتسخيره لبعض الطّرق الصّوفية العميلة له لتكريس فكرة؛ أنّ الاستعمار قضاء وقدر ينبغي التّسليم له والرّضا به وعدم مقاومته.

ومِنْ تراثه العلمي والفكري أيضا؛ تقرير إصلاح المحاكم الشّرعية طبعته مطبعة المنار بالقاهرة سنة 1900م[1]، وكذلك بعض الفصول التي شارك بها في كتاب تحرير المرأة لتلميذه قاسم أمين سنة 1899م، وكذا تحقيقه وشرحه لكتاب البصائر النّصيرية للطّوسي، كما شَرَحَ وحقّق كتابَيْ دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للجرجاني سنة1903م لتربية مَلَكَة النّقد اللغوي والأدبي لطلبة الأزهر وغيره[2]، كما ألّف كتاب: الإسلام والنّصرانية بين العلم والمدنية[3]، الذي ردّ فيه على الوزير الفرنسي جابراييل هانوتو، والكاتب اللّبناني النّصراني فرح أنطون، وبعدما تعلّم الفرنسية وأتقنها في أواخر حياته، ترجم مِنَ الفرنسية إلى العربية كتاب التّربية للفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر، كما أملى وصيّته التّربوية بالفرنسية في مرضه الأخير على الكونت دي جريفل الذي نشرها في كتابه مصر الحديثة.[4]

كما نُشِرَ للشّيخ محمّد عبدَه بعد وفاته رسالتان كان قد أرسلهما إلى صديقه ولفريد بلنت شرح له فيهما مذهبه في الإصلاح السّياسي، وفيهما أثار حفيظة الخديوي وبعض الوطنيّين المعتدلين، لما فيهما مِنْ مواقف مناهضة للوطنيّين الذين رماهم بالتّهوّر، وكذا لتصادمه بالخديوي عبّاس الثّاني.[5]

3- تفسير القرآن الكريم: الشّطر الكبير منه يعبّر عن آراء الشّيخ محمّد عبدَه، لأنّ محمّد رشيد رضا كان يلخّص دروسه في التّفسير التي كان يلقيها في الأزهر ثمّ يحرّرها في تفسير المنار[6]، فهو مِنْ آثاره المهمّة التي ألقاه دروسا في المساجد والأزهر، ثمّ نشرها محمّد رشيد رضا في عمود قار في مجلّته المنار، وبعد وفاته جمعها في كتاب جامع سمّاه: تفسير القرآن الحكيم الشّهير بتفسير المنار، وفيه فسَّر القرآن مِنْ سورة الفاتحة إلى الآية 126 مِنْ سورة النّساء وهي قوله تعالى:﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطَۢا ١٢٦﴾، ليُتَمَّ تفسيره بعد وفاته تلميذُه محمّد رشيد رضا إلى الآية 52 مِنْ سورة يوسف وهي قوله تعالى:﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾، ولم يكمله هو الآخر بسبب الوفاة، وللشّيخ بحوث تفسيرية أخرى مستقلّة، كتفسيره لسورتَيْ الفاتحة والعصر ولجزء عمّ.

4- آثار متنوّعة: يدخل ضمن الآثار التي خلّفها واستثمرتها الأمّة مِنْ بعده واستفادت منها ووظّفتها في الإصلاح والتّغيير والنّهضة؛ جملة مِنَ الأعمال المتنوّعة؛ فبالإضافة إلى ما خلّفه مِنْ تراث مكتوب؛ فقد كان يصدر الفتاوى ويلقي الخطب المنبرية ويقدّم الدّروس في المساجد والأزهر وفي المؤسّسات التّعليمية

---

[1] ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص270.

[2] ينظر: عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق: ج1، ص29و30.

[3] **كتاب: الإسلام والنّصرانية بين العلم والمدنية:** حُرِّفَ عنوانه ومضمونه، فعنوانه الأصلي: الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية، يرجع إلى محاضرة محمّد عمارة على اليوتيوب بعنوان: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، مِنْ تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بمركز الدّراسات المعرفية في مصر، ألقاها في: 15 فيفري 2017م.

[4] ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص45و46.

[5] ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص323.

[6] ينظر: محمّد بن رمضان رمضاني، آراء محمّد رشيد رضا في قضايا السنّة النّبوية من خلال مجلة المنار -دراسة تحليلية نقدية-، أطروحة دكتوراه بإشراف الدّكتور: حسام موهوبي، ط1، 1434هـ، مجلة البيان، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص11.

والتّربوية، ويقوم بالإصلاح بين النّاس ويسعي لقضاء حاجاتهم، كما كانت له لقاءات ومراسلات وحوارات وردودا على العلماء والمفكرين والسّاسة والكتّاب وغيرهم.

5- الشِّعر: بما أنّ الشّيخ محمّد عبدَه كان يقرض الشّعر، فقد خلّف آثارا شعرية تدلّ قدمه الرّاسخة فيه وفي غيره مِنَ العلوم والفنون، وشعره يعتبر مِنَ السّهل الممتنع، فقد نَظَمَ قصيدة تزيد عن مائة بيت في ظلمة السّجن عقب مشاركته في الثّورة العُرابية، أظهر فيها إيمانه الصّادق بالله تعالى في الاتّكال عليه، فتجلّى معدنه الصّافي وأخلاقه العالية وحبّه لأهل وطنه رغم ما لاقاه مِنْ بعضهم مِنْ مكر وخديعة، وكذا ما كان يتمتّع به مِنْ صدق في العزيمة وثقة بالنّفس في مغالبة نوائب الزّمان، وبأنّه لا يخاف شيئا يقطع عليه الطّريق لخدمة لدينه ووطنه وأمّته إلّا الموت، وممّا قاله في تلك القصيدة:

وأحفظ الدّهر أنّي لا أشاكلـــــه * * * فيما تبطن مِنْ غشّ وتمويـــه
أحارب الدّهر وحدي ليس ينفعني * * * إلا الثّبات وحسبي مَنْ أُصافيه
تَعلَّمَ الدّهرُ منّي كيف يطعننـــي * * * فخاب ظنّا وخانته مزاكيـــــه
وليس يُعجزني عن كَسرِ فيْلَقِـــه * * * إلا المنايا تفاجيني فتحميـــــه
إنّ المنايا سهام الله سدّدهـــــــا * * * وليس يخطئ سهم الله مرميــه..[1]

إلى آخر الأبيات التي تُبرز شخصيته القوية التي لم تزدها السّجون إلّا صلابة وثباتا على الحقّ.

وبالإضافة إلى ما سبق ترك الشّيخ مؤلّفات أخرى جمعها عثمان أمين[2] في أطروحته وهي[3]:

1- كتاب الإشارات لابن سينا: كتب منه الشّيخ محمّد عبدَه سنة 1874م نسختان بخطّ يده.[4]

2- العقيدة المحمدية: ألّفها سنة 1977م.

3- العروة الوثقى: وهي مجموعة مقالات كتبها الشّيخ محمّد عبدَه بإشراف الأفغاني بباريس في 1884م.

4- حديث سياسي: مع جريدة بال مال جازيت في لندن سنة 1884م، نُشر في كتاب بْلنْت سنة 1911م.

5- تحقيقه كتاب المخصّص لابن سيّده في اللّغة يضم 17 مجلدا، طبع سنة 1898م.

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج8، ص453.

[2] **عثمان أمين(1905-1987م):** باحث مصري مِنْ رواد المدرسة الفلسفية الحديثة، التحق بجامعة القاهرة وحصل منها على اللّيسانس في الفلسفة سنة 1930م، أُرسل في بعثة إلى جامعة السّربون بفرنسا وفيها حصل على الدّكتوراه حول الشّيخ محمّد عبدَه، وبعد عودته إلى مصر درّس بكلية الآداب ثم ترقّى أستاذا ورئيسا لقسم الفلسفة، حاضر في الجامعات المصرية والأزهر ومعهد الدّراسات العربية التّابع لجامعة الدّول العربية، ومعهد الدّراسات الإسلامية، انتدب للتّدريس في جامعة ليبيا والسّودان والجامعة الأمريكية في القاهرة والجامعة الباكستانية، كما انتخب عضوا في مجمع اللّغة العربية بمصر سنة 1974م، وانتُخب عضو شرف في الجمعية الديكارتية الفرنسية، شارك في العديد مِنَ المؤتمرات العلمية في كمبردج، وهارفرد، وفينيسيا، ولاهور، وجاكارتا...مِنْ مؤلّفاته: رائد الفكر المصري محمّد عبدَه، ديكارت، الفلسفة الرّواقية، شخصيات ومذاهب إسلامية، محاولات فلسفية، روّاد الوعي الإنساني في الشّرق الإسلامي، ترجم عددا مِنَ الكتب الفلسفية الغربية، وساهم في تحرير أربعة فصول مِنْ دائرة المعارف الإسلامية المطبوعة باللّغة الأردية في لاهور بباكستان سنة 1960م، ينظر: موقع: arbphilosophers.com/فلاسفة العرب: تاريخ الزيارة: 2019/01/05م في الساعة: 09:30 صباحا.

[3] ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص269- 271، وينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص269و270.

[4] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص20.

6- الإسلام والردّ على منتقديه: مجموعة مقالات صدرت بالقاهرة سنة 1909م، وكانت قد ظهرت أوّلا في جريدة المؤيّد سنة 1900م ردًّ بها على مقالات هانوتو التي نُشرت في جريدة جورنال دو باري، وقد ترجمها طلعت حرب إلى الفرنسية ونشرها تحت عنوان: "أوروبا والإسلام" بالقاهرة سنة 1905م.

7- الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية: مجموعة مقالات نشرت أوّلا في الأهرام سنة 1901م ردّا على مقالات فرح أنطون التي نشرت في مجلّة الجامعة.

8- تفسير سورة العصر: ظهر في الطّبعة الأولى المستقلة لمطبعة المنار سنة 1903م.

9- تفسير جزء عمّ: ألّفه في جنيف بسويسرا سنة 1903م، وطبع بالقاهرة سنة 1904م.

10- تفسير سورة الفاتحة: ويليها ثلاث مقالات: حرية الأفعال الإنسانية، قصّة الغرانيق، مسألة زينب، طبعت بالقاهرة سنة 1905م.

11- المنشآت: وهي مجموعة مِنَ المقالات كتبها الشّيخ محمّد عبدَه في مختلف الموضوعات الإصلاحية، نشرت في الصّحف والمجلّات العربية، جمعها تلميذه محمّد رشيد رضا في الجزء الثّاني مِنْ كتابه: تاريخ الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، طبعته المنار أوّلا سنة 1926م.

12- رسائل سياسية إلى بلنت: أرسلها إلى صديقه الشّاعر الإنجليزي ولفرد بلنت في صيف سنة 1904م، ضمّنها الشّيخ محمّد عبدَه آراءه في النّظام السّياسي المقترح لمصر.

13- فتوى اجتماعية حول العمّال وأصحاب الأعمال: كتبها في خمس صفحات نشرها فرح أنطون في مجلّة الجامعة التي كان يحرّرها بالإسكندرية سنة 1904م.

14- وصيّة سياسية: وهي خواطر عن التّعليم والإدارة و القضاء في مصر أملاها بالفرنسية، جاءت في ثمان صفحات، نشرها دو جرفيل في كتابه: مصر الجديدة في باريس سنة 1905م.

وللشّيخ محمّد عبدَه مخطوطات موجودة بحوزته وأخرى مفقودة، فمِنْ مؤلّفاته المخطوطة الموجودة ما يلي[1]: رسالة في علم الوضع: تحتوي على عشر صفحات كتبها بخطّ يده، وفي المنطق: وهي خلاصة دروس شرح فيها كتاب: تهذيب المنطق للتّفتزاني، ودروس دار الإفتاء: وهي خلاصة دروس ألقاها في دار الإفتاء بالأزهر جمعها تلميذه السّوري الشّيخ أحمد محمّد المحمصاني في ثلاثة عشر صفحة، والتّربية: لهربرت سبنسر ترجمه مِنَ الفرنسية إلى العربية، ومِنْ مؤلّفاته المخطوطة المفقودة التي لم تنشر وضاع أكثرها: رسالة في وحدة الوجود، وتاريخ إسماعيل باشا، ونظام التّربية المصرية، وتاريخ أسباب الثّورة العُرابية، وألّف كتابا في فلسفة الاجتماع والتّاريخ، ألقاه محاضرات لمّا كان يُدَرِّسُ مقدّمة ابن خلدون في دار العلوم سنة 1978م[2]، بيّن فيه نظرية ابن خلدون في الاجتماع.

وعليه؛ يمكن القول بأنّ آراء الشّيخ محمّد عبدَه وأفكاره وآثاره تبلورت في أهمّ أعماله المتمثّلة في: تفسير القرآن الكريم، ورسالة التّوحيد، والردّ على هانوتو وعلى فرح أنطوان.[3]

---

[1] ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص271و272.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص28و29.

[3] ينظر: أنور الجندي، اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار(منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى)، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، ط1، 1978م، ص131.

وقد آلت مكتبته إلى دار الكتب المصرية، وحُفظت في مكان خاصّ، ولم تُفهرس، ثمّ حُفظت في مخازن دار الكتب التي تضمّ 993 كتابا عربيا، و195 كتابا أجنبيا، و108 مجلّدا مِنْ المخطوطات، وقد أُدخلت مخطوطاته ضمن مخطوطات الدّار.[1]

وبالنّظر إلى الإرث العلمي والفكري والتّربوي الذي خلّفه الشّيخ محمّد عبدَه بعد وفاته، فقد جسّده في مؤلّفاته وأفكاره وآرائه وتلامذته ومؤسّساته التي وَجَدت لها موطئا في واقع العرب والمسلمين، حيث ساهم به في إحياء الأمّة العربية والإسلامية ونهضتها منذ ما يقارب مِنَ القرن وربع القرن مِنْ وفاته، وأعماله تعتبر صدقة جارية ينطبق عليه فيها قوله ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[رواه مسلم].[2]

فالشّيخ محمّد عبدَه مِنْ أعلام المسلمين المجدّدين المشهورين في العصر الحديث في مصر وفي الأمّة العربية والإسلامية وزعيم مدرسة إصلاحية لها أساتذتها وتلامذتها وأنصارها، ولها أفكارها وآراؤها ومنهجها، ولها آثارها ومصادرها المكتوبة والمخطوطة المحفوظة في الدّور المصرية متاحة للاستفادة منها.

المطلب الثّالث: شيوخه وتلامذته

إنّ العلماء الفاعلين الذين أثبتوا حضورهم العلمي والإصلاحي في العالم، لم يأتوا مِنْ فراغ، حيث كان لعلمهم وتكوينهم وآثارهم التي خلّفوها في حياتهم وبعد مماتهم رحم علمية، تمتدّ بسند متّصل ولو بواسطة إلى الذين كان لهم الفضل بعد الله تعال في كينونتهم العلمية وحضورهم في عالم الشّهادة، فكان الشّيخ محمّد عبدَه نتاج مشايخ أخذ عنهم وتتلمذ وتمرّس على أيديهم.

كما كان يمثّل أحد الحلقات الهامّة في السلسلة الذّهبية العلمية، لكونه واسطة العِقْد بين شيوخه الأعلام وتلامذته النّجباء، الذين خلّفهم مِنْ بعده؛ يحملون أفكاره وآراءه ومنهجه الإصلاحي، فتركوا تراثا حيّا ورصيدا علميا وفكريا زاخرا، وفيما يلي ذكر لأبرز شيوخه وأشهرهم؛ الذين كان لهم الأثر البالغ في تكوينه وإخراجه للعالم، ثمّ يليهم ذكرٌ لأبرز وأشهر تلامذته؛ الذين حملوا مشروعه الإصلاحي في المجال التّربوي والدّيني وغيرهما.

الفرع الأوّل: شيوخـــــه

تلقّى الشّيخ محمّد عبدَه تكوينه العلمي والمعرفي والدّيني والتّربوي والسّياسي والفكري والثّقافي والتّوعوي -منذ صغره إلى أنْ صار عالما مفكّرا مبرّزا بلغ ذكره الآفاق وصار أشهر مِنْ نار على عَلَم في العالم العربي والإسلامي- على أيدي عدد معتبر مِنَ المشايخ والعلماء الربّانيين والمفكّرين المتنوّرين والفلاسفة المشهورين الذين ذاع صيتهم في زمانه، وبلغت شهرتهم الآفاق، فكان منهم المجدّدون المتحرّرون، والتّقليديّون المحافظون والمتصوّفة والفلاسفة والأدباء والسّياسيون وغيرهم، "كان متّصلا بالحركة الصّوفية المخلوطة بالفلسفة، وكان متّصلا بالحركة الأدبية، على أنّه لم يَبعد كلّ البعد عن

---

[1] ينظر: أحمد العلاونة، العلماء العرب المعاصرون ومآل مكتباتهم، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2011م، ص207.

[2] أخرجه مسلم في كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان مِنَ الثّواب بعد وفاته، ج3، ص1255، حديث رقم: 1631.

المحافظين على القديم، فحضر دروس زعمائهم المشهورين كالشّيخ علّيش والشّيخ الرّفاعي والشّيخ الجيزاوي والشّيخ الطّرابلسي والشّيخ البحراوي"[1]، لقد كان مِنْ حظّه أنْ تلقّى العلوم والمعارف على يد علماء مبرّزين، حتّى صار عَلَما يشار إليه بالبنان، فقد لمعت في حياته ثلاثة نجوم أضاءت جوانب نفسه وهم: الشّيخ درويش والشّيخ حسن الطّويل والسيّد جمال الدّين الأفغاني.[2]

فأولئك الشّيوخ والأساتذة وغيرهم، تتلمذ على أيديهم في الجامع الأحمدي والجامع الأزهر وفي الأماكن الخاصّة والعامّة بمصر، فكان لهم الأثر البالغ في فكره ومنهجه في الإصلاح، وكان لهم دور في تكوينه ليكون عَلَما له منهجه الإصلاحي البارز في إحياء مصر ونهضتها، بتربيتها وتعليمها وتوعيتها، وفيما يلي تعريف ببعض شيوخه الذين علا كعبهم واشتهر ذكرهم فعلى سبيل الذّكر لا الحصر أوردتّ منهم:

أوّلا: درويش خضـــر

يعتبر الشّيخ درويش خضر مِنَ الشّيوخ الأوائل الربّانيين للشّيخ محمّد عبدَه، الذين يمثّلون له ذكرا حسنا في حياته، فهو مَنْ أنقذه مِنَ الجهل، وخلّد ذكره في سِجِلّ العلماء بتربيته وتعليمه، ففي الجامع الأحمدي قبل الدّراسة الأزهرية أخذ عن خال والده الشّيخ درويش الخضر حُبَّ العلم والتّربية والتّصوّف[3]، والشّيخ درويش شيخ صوفي، رحل إلى طرابلس الغرب، واجتمع بأتباع السّنوسي وتأثّر بحركتهم، كان يمتاز بنور البصيرة، والزّهد في الدّنيا وشؤونها، متسامح ميّال إلى فعل الخير، مشفق على النّاس، عمل على إنقاذهم مِنْ غفلتهم ومِنْ طغيان الدّنيا وملهياتها، كان له دور بارز في حياة الشّيخ محمّد عبدَه العلمية، فهو الذي ردّه إلى حظيرة طلب العلم، وصار يَفْهَم ويُفهِّم حتّى بلغت شهرته الآفاق، ولولاه لكان مِنَ المغمورين الذين تُسجَّل أسماؤهم في دفتر المواليد والوفيات لا أكثر.[4]

والشّيخ درويش رجل طيب القلب، صافي العقيدة، نافذ البصيرة، يمتاز بفهم ما يقرأ مِنْ آيات القرآن الكريم وكتب الحديث[5]، على خلاف ما عُرف عن شيوخ الجامع الأحمدي الذين فرّ منهم محمّد عبدَه، ولم يصبر على الجلوس إليهم في الطّلب بسبب قساوتهم وفضاضتهم، وأخذ مِنَ الشّيخ درويش العلوم النّافعة والسّلوك السويّ، وأرشده إلى الخير وخدمة أمّته، والاندماج فيها ومشاركتها قضاياها.

فقد لقّنه التّصوّف والعقيدة، وحاول حلّ كلّ ما تعرّض له مِنْ أزمات نفسية، وإخراجه مِنْ عزلته، وأرشده إلى الاتصال بالنّاس وغشيان مجالسهم والتحدّث إليهم وَوَعْظِهِم وإصلاحهم وعدم اعتزالهم، كما هدم في نفسه نظرية عدم تعلّم بعض العلوم، وحثّه على تعلّم ما استطاع منها، وأقنعه بضرورة تعلّم المنطق والفلسفة والرّياضيات وبيّن له بأنّها ليست حرام[6]، وكان الشّيخ درويش مِنَ الرّجال الأوائل الذين أثّروا في حياته، فقد كان يلتقيه في إجازته مِنْ كلّ عام، ويتعهّده بالرّعاية الرّوحية والتّربية الوجدانية، ويصبّ في روحه مِنْ صوفيته النّقية، ويشحذ عزيمته ونفسه بالإرادة

---

[1] أحمد تيمور باشا، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، مرجع سابق: ص149 و150.

[2] ينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدّد، مرجع سابق: ص245.

[3] ينظر: صلاح زكي أحمد، أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط1، 2001م، ص64.

[4] ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص283و284.

[5] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص169.

[6] ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص290، وينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدّد، ص245.

الواعية، وساعده على تجاوز حدود العلوم التي درسها بالأزهر، ونبّهه إلى ضرورة الأخذ مِنْ كل العلوم[1]، فحضّه على دراسة علم المنطق والفلسفة والرّياضيات والعلوم العصرية والعلوم المهجورة وعدم التّهيب منها.[2]

كان الشّيخ درويش يمثّل للشّيخ محمّد عبدَه؛ الطبيب النّفسي الذي استطاع بحكمته أنْ يخبر أعماق نفسيته، ويحلّ عقدها وأزماتها ويعالجها ويهيّئها لِحَمْلِ رسالة الإصلاح ومعالجة قضايا مجتمعه، فكان بحقٍّ مِنْ أبرز الشّيوخ الذين استطاعوا احتواء محمّد عبدَه ورَدِّه إلى حظيرة العلم، فتكوّن على يديه، وخلّد ذكره الحسن في حياته، لأنّه حبّب إليه العلم وأنقذه مِنَ الجهل، وجعله ينتظم في سلك طلبة العلم، ويصبر عليه ويتحمّل مَشاقّه وجفوة بعض شيوخ الأزهر وما يحملونه مِنْ قناعات مخالفة لقناعاته، وما هم عليه مِنْ جمود وتقليد وغلظة وغيرها مِنَ الطّباع المستحكمة والعادات المنفّرة.

ولمّا أراد محمّد عبدَه الاقتداء بالشّيخ درويش؛ سأله عن وِرْدِه اليوميّ ليسير بسيرته حتّى يبلغ مقام الخاصّة الذي أدركه شيخه فقال: "سألته: ما وِرْدُكُم الذي يُتلى في الخلوات أو عقب الصّلوات، فقال: لا وِرْدَ لنا سوى القرآن، تقرأ بعد كلّ صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبّر"، فقام محمّد عبدَه يترجم جواب شيخه عمليا في حياته، ثمّ يجتهد أكثر في تحقيق الكمال النّفسي حتّى يبلغ درجة الربّانيّين والكمال المعرفي لإرواء غليله منه، فقال: "ولم يبق لي إلّا همّ واحد؛ وهو أنْ أكون كامل المعرفة كامل أدب النّفس ولم أجد إماما يرشدني إلى ما وَجّهتُ إليه نفسي إلاّ ذلك الشّيخ الذي أخرجني في بضعة أيام مِنْ سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومِنْ قيود التّقليد إلى إطلاق التّوحيد، هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي مِنَ الشّيخ درويش خضر...وهو مفتاح سعادتي إنْ كانت لي سعادة في هذه الحياة الدّنيا، وهو الذي ردّ لي ما كان غاب مِنْ غريزتي، وكشف لي ما كان خَفِيَ عنّي ممّا أودع في فطرتي".[3]

وعن فضل الشّيخ درويش على الشّيخ محمّد عبدَه، ومكانته عنده ودوره في تربيته؛ قال تشارلز آدمس: "كان هذا الرّجل الذي محّضه النّصح الخالص، وأيقظ في ذلك الشّاب الرّاغب عن الدّرس حبّ العلم، وألهب في صدره الحماس للحياة الدّينية، فغيّر بذلك صفحة حياته كلّها، كان هذا الرّجل الخليق بالتّقدير، أحد أخوال أبيه واسمه الشّيخ درويش خضر".[4]

فمِنْ فضل الله على محمّد عبدَه؛ أنّه تتلمذ على هذا الشّيخ الذي جمع في شخصه غزارة العلم وطيب السّريرة وعطر السّيرة والذّكر الحسن، وهو ما انعكس على شخصه وتكوينه وإصلاحاته.

ثانيا: حسن الطّويـــل:(1250-1317هـ/1834- 1899م)

فاضل مصري مالكي، تعلّم بمعهد طنطا ثمّ بالأزهر، نبغ في العلوم الأزهرية ووجّه عنايته للعلوم الرّياضية والفلسفية، وجمع بين العلوم العقلية والشّرعية والتّصوّف، اشتغل بالتّدريس، وقضى عمره مدرّسا لعلم الأصول والحديث والتّفسير بالأزهر وبمدرسة دار العلوم، كما عمل مفتّشا بوزارة المعارف،

---

[1] ينظر: أسامة بن الزهراء، المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين، ج1، ص333، موقع: http://www.ahlalhdeeth.com.

[2] ينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدّد، مرجع سابق: ص245.

[3] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص23.

[4] تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص24.

كان صالحا تقيّا ورعا زاهدا، سليم الصّدر طاهر السّريرة عفيفا متواضعا، لا يخاف في الحقّ لومة لائم، يصرّح بانتقاد الحكّام في السّياسة، كان متّبعا لأوامر الشّرع مجتنبا لنواهيه شديد الإنكار على المبتدعة، عالما بموارد السنّة، مِنْ مؤلّفاته في التّفسير: عنوان البيان في تفسير القرآن الكريم.[1]

كان الشّيخ حسن الطّويل مِنْ شيوخ الأزهر الأوائل الذين أخذ عنهم محمّد عبدَه العلم، وتتلمذ عل أيديهم، واستفاد منهم، وكان لهم ذكر حسن في حياته، فقد استطاع أنْ يُحدث في شخص محمّد عبدَه تأثيرا ملحوظا، وهو ما انعكس على إصلاحه التّربوي، فقد أخذ عنه علمَيْ المنطق والفلسفة وتضلّع فيهما، ثمّ طوّر نفسه وعمّق رصيده العلمي فيهما أكثر على يد أستاذه جمال الدّين الأفغاني.[2]

ومِنْ أهمّ الخصال التي أخذها مِنْ شيخه حسن الطّويل؛ الشّجاعة في إبداء الرّأي والجراءة في التّعبير عنه أمام أصحاب المناصب والمقامات[3]، كما أخذ عنه أيضا الزّهد في الحياة[4]، وهي الخلال التي كان لها حضور قوي في حياته الإصلاحية مع أساتذته وحكّام بلده، ومع الاستعمار البريطاني.

وممّا عرف به ذكاؤه الحادّ وحكمته، ونظراته الصّائبة في الحياة، كان عالما في الرّياضيات والهندسة والفلسفة القديمة ملمٌّ بمصطلحاتها، حتّى أنّه كان يَحُلُّ لطلبة دار العلوم ما أَشكل عليهم مِنْ تمرينات هندسية، وقرأ الفلسفة وأحاط بكتبها القديمة ودرّسها مع المنطق في الأزهر، وكان يحضر دروسه طلبة العلم النّجباء أمثال محمّد عبدَه، لكن أهل الجمود والتّقليد رَمَوْهُ وتلامذته بالزّندقة، كما كان عارفا بالسّياسة ويتكلّم فيها بشجاعة نادرة، ويجهر بأقواله وبكلّ ما يعتقد، حتّى حُرِم مِنْ منصبه في دار العلوم وطُرِدَ منها لجراءته بالكلام فيها.[5]

كان الشّيخ حسن الطّويل يتّبع في التّعليم طريقة النّظريات، وكان له دور كبير في توجيه محمّد عبدَه إلى طلب العلوم العصرية والعلوم المهجورة في الأزهر، فإليه يعود الفضل في تحريك كوامنه والدّفع به إلى طلب المزيد مِنَ العلوم[6]، ومِنْ حسن حضّ الشّيخ محمّد عبدَه؛ أنْ ساقه القدر للأخذ عنه، فجمع مختلف العلوم والمعارف وأحسن الخلال والسّلوك حتّى صار مجدّدا ومصلحا بامتياز.

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج2، ص269، ومج30، ص784، وينظر: الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج2، ص183، وينظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلّفين، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د ط)، (د ت)، ج3، ص202، وينظر: محمّد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، علق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2003م، ج1، ص585.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص24.

[3] ومِنْ مواقف الشّيخ محمّد عبدَه الجريئة؛ أنّه لمّا كان يدرّس بدار العلوم وزاره رئيس الوزراء ووزير المالية رياض باشا، وقد كان برفقته وزير المعارف علي مبارك باشا؛ طلب من رئيس الوزراء أن يجعله وزيرا للمالية، ولمّا سأله لماذا؟ قال: لأستبيح أموالها، فغضب الرئيس وقطع زيارته، وأمر أنْ يُخرج مِنْ خدمة الحكومة فورا، وجاء مرّة ليدخل على الخديوي، فكلّفوه بنزع عباءته عنه ويدعها في الهو، فأبى وقال: "أقف بها في صلاتي وأقابل بها ربّي، ولا أقابل بها الخديوي؟، ينظر: علي الطنطاوي، مع الناس، راجعه وصحّحه وعلق عليه: حفيد المؤلف مجاهد مأمون ديرانية، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدّة، المملكة العربية السعودية، ط8، 2011م، ص241.

[4] ينظر: صلاح زكي أحمد، أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، مرجع سابق: ص64.

[5] ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص289-291، وينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص30، وينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدّد، مرجع سابق: ص245.

[6] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص18.

ثالثا: محمّد البسيوني البيباني(ت 1310هـ/1892م)

بيانيٌّ وفقيه مالكي مِنْ علماء الأزهر مِنْ آثاره: أحسنُ الصّنيع في علم المعاني والبيان، وخاتمة على شرح أبي الحسن لرسالة أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي[1]، درّس العربية والبلاغة في مدرسة الحقوق[2]، تتلمذ محمّد عبدَه على يديه وأخذ عنه العلم[3]، فحصّل منه علوم المنطق والرّياضيات والهندسة[4]، قال عنه أحمد أمين: "والشّيخ البسيوني كان ظريفا في شكله وفي ملبسه وفي تأليفه".[5]

رابعا: جمال الدّين الأفغاني(1254- 1314هـ/ 1838- 1897م)

يعدّ جمال الدّين الأفغاني أحد أشهر العلماء والمفكّرين والفلاسفة والمصلحين الثّائرين الذين بلغت شهرتهم الآفاق، كان له تأثير كبير على الأفراد والحركات، وقد كان الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ أبرز تلامذته الذين تأثّروا بفكره، حيث لازمه مدّة وتربّى على يديه وورث علمه وفكره وحكمته.

1- مَنْ هو جمال الدّين الأفغاني: كان محمّد عبدَه مِنْ أقرب النّاس إلى جمال الدّين الأفغاني، وبحكم مصاحبته له ترجم له بعدما كثر اللّغط حول نسبه الأفغانيّ فكتب عنه يقول: "وإنّا لنذكر مُجملا مِنْ خَبَرِه، نرويه عن كمال الخبرة وطول العشرة: هذا هو السيّد محمّد جمال الدّين بن السّيّد صَفْتَر مِنْ بيت عظيم في بلاد الأفغان، وآلُ هذا البيت عشيرة وافرة العدد في خطّة كَنْرْ مِنْ أعمال كابل..ولهذه العشيرة منزلة عليَّة في قلوب الأفغانيّين، يُجِلُّونها رعاية لحرمة نسبها الشّريف، وكانت لها سيادة على جزء مِنَ الأراضي الأفغانية تستقلّ بالحكم فيه...ولد السّيّد جمال الدّين في قرية أسعد أباد مِنْ قرى كنر"[6]، فقطع بنسبه الأفغانيّ بذكر مكان ميلاده بأسعد أباد في كابل عاصمة أفغانستان.

وعن دينه ومذهبه ونشاطه السّياسيّ قال عنه: "حَنَفيّ حَنِيفي، وهو وإنْ لم يكن في عقيدته مقلّدا، لكنه لم يفارق السنّة الصّحيحة، مع ميل إلى مذهب السّادة الصّوفية...وكان مقصده السّياسي مدّة حياته؛ إنهاض دولة إسلامية مِنْ ضعفها، حتى تلحق الأمّة بالأمم العزيزة، والدّولة بالدّول القوية، فيعود للإسلام شأنه وللدّين الحَنيفي مجده".[7]

كما أشاد بجملة مِنْ خصاله الحميدة فقال عنه بأنّه: "سليم القلب، حليم عظيم إلّا أنْ يَمَسَّ أحد شرفه أو دينه فينقلب حِلْمُه إلى غضب، كريم قوي الاعتماد على الله، عظيم الأمانة سهل لمن لاينه صعب على مَنْ خاشنه، طموح إلى مقصده السّياسيّ، قليل الحرص على الدّنيا بعيد عن الغرور بزخارفها، ولوع بعظائم الأمور عزوف عن صغارها، شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنّه لا يعرفه، إلا أنّه

---

(1) ينظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلّفين، مرجع سابق: ج9، ص102و184.

(2) ينظر: أحمد شوقي عبد السلام ضيف الشهير بشوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، مصر، ط13، ج1، ص110.

(3) ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص24.

(4) ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص30.

(5) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص289.

(6) محمّد عمارة، جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، دار الشروق، ط2، 1988م، ص20، وينظر: الزّركلي، الأعلام، ج6، ص168، وينظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلّفين، ج3، ص154و155، وينظر: محمّد عمارة، شخصيات لها تاريخ، ص171.

(7) المرجع نفسه: ص177.

حديد المزاج، فخور بنسبه إلى سيد المرسلين ﷺ، آتاه الله قوة الذّهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة، فكأنّه حقيقة كلّية، لقد أُوتيتُ مِنْ لدنه حكمةُ أقلبِ القلوبِ وأعقلِ العقولِ! وأعطاني حياة أشارك بها محمّدا وإبراهيم والأولياء والقدّيسين!!"[1]، وقال عنه أيضا: "رجل غريب بصير في الدّين عارف بأحوال الأمم واسع الاطّلاع جمّ المعارف، جريء القلب، اشتغل بتدريس بعض العلوم العقلية، وكان يحضر دروسه الكثير مِنْ طلبة العلم، ويتردّد على مجالسه كثير مِنَ العلماء وغيرهم، وهو في جميع أوقات اجتماعه مع النّاس لا يسأم مِنَ الكلام فيما ينير العقل، أو يطهّر العقيدة، أو يذهب بالنّفس إلى معالي الأمور، أو يستلفت الفكر إلى النّظر في الشّؤون العامّة ممّا يمسّ مصلحة البلاد وسكّانها".[2]

ولخّص محمّد رشيد رضا حياة الأفغانيّ؛ بأنّه مِنْ بلاد الأفغان يرتقي نسبه إلى الحسين بن علي ابن أبي طالب كرّم الله وجهه، تلقّى تعليمه بكابل، فتلقّى عن أساتذتها العلوم العربية والتّاريخ وعلوم الشّريعة والعلوم العقلية والعلوم الرّياضية ونظريات الطبّ والتّشريح، أقام بمصر نحو أربعين يوما يتردّد على الجامع الأزهر، ومنها إلى الأستانة ثمّ عاد إلى مصر سنة 1871م، وفيها جعل مِنْ بيته مدرسة لطلبة العلم يُدرّسهم علم الكلام والعلوم العقلية وعلم الهيئة والتّصوف وأصول الفقه وغيرها، وكان حَنَفِيّ المذهب متصوّفا، كان يتعهّد الأزهر بالزّيارة والصّلاة فيه، فذاع صيته في مصر وأُعجبوا بدينه وخُلقه وعلمه، فقرّبه توفيق الخديوي منه ثمّ انقلب عليه بوشاية مِنَ الإنجليز، فأخرجه منها سنة 1879م، فسافر إلى فرنسا وفيها أنشأ مع محمّد عبدَه جريدة العروة الوثقى وجعله رئيس تحريرها، وكان همّه إنهاض الأمّة الإسلامية والقيام بشؤونها ومقاومة الاستعمار الأوروبي والاحتلال البريطاني.[3]

قال عنه محمّد عمارة: "جمال الدّين الأفغانيّ موقظ الشّرق، وفيلسوف الإسلام، ورائد تيّار الجامعة الإسلامية، وأبرز قادة الحركة الإصلاحية الإسلامية، ومِنْ طلائع المجدّدين والمجتهدين في الفكر الإسلامي في عصرنا الحديث، عربي أصيل، هاشمي النّسب، حُسَيْنِيٌّ يرتفع نسبه إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ ولد في 1838م بأسعد أباد بـ: كابل ببلاد الأفغان".[4]

2- تأثير جمال الدّين الأفغاني في محمّد عبدَه والعلوم التي تلقّاها منه: بعد أنْ أتمّ محمّد عبدَه دراسته الأزهرية، التقى بجمال الدّين الأفغاني الذي وفد إلى مصر، ولقّنه الدّعوة إلى الإصلاح وإعمال العقل في فهم الدّين.[5]، وأوّل لقاء له بجمال الدّين الأفغاني، كان بعد زيارته الثّانية لمصر التي دخلها مرّتين؛ الأولى سنة 1869م والثّانية سنة 1871م، ثمّ خرج منها منفيا سنة 1879م، وكان مِنْ تلامذته

---

[1] محمّد عمارة، شخصيات لها تاريخ، مرجع سابق: ص177و178.

[2] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص37.

[3] ينظر: المصدر نفسه: ج1، ص27- 34.

[4] محمّد عمارة، شخصيات لها تاريخ، المرجع السابق، ص171.

[5] ينظر: صلاح زكي أحمد، أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، مرجع سابق: ص64.

المقرّبين، حيث لازمه كثيرا في بيته الذي جعله مدرسة صنع فيها جيلا مِنَ الرّجال مِنْ أمثاله، فكان يملي عليهم فيكتبون ثمّ ينشرون بأسمائهم، وفي بيته أخذ عنه الفلسفة والمنطق والحكمة المشرقية.[1]

وقد ذكر محمّد رشيد رضا العلوم التي تلقاها محمّد عبدَه عن أستاذه الأفغانيّ في قوله: "أخبرني الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى؛ أنّه قرأ على السيّد جمال الدّين الأفغانيّ كتاب الزّوراء للدّواني في التّصوّف، وشرح القطب على الشّمسية، والمطالع، وسُلَّم العلوم مِنْ كتب المنطق، والهداية والإشارات، وحكمة العين، وحكمة الإشراق في الفلسفة، وعقائد الجلال الدّواني في التّوحيد، والتّوضيح مع التّلويح في الأصول، والجغميني وتذكرة الطّوسي في الهيئة القديمة".[2]

اتّبع الأفغانيّ في تعليم محمّد عبدَه طريقة العمليّات التي تعيش مع صاحبها معترك الحياة، وتُعقِّب في نفسه أثرا، ووجّهه إلى الإصّلاح، وكلّفه بالكتابة في الصّحف، فكتب مقاله الأوّل عن الطبّ الرّوحاني، تحدث فيه عن السّلوك الإنساني في علوم التّربية، ذكر فيه بأنّه يجب على الطّبيب الرّوحاني أنْ يكون عالما بمنافع الأخلاق ومضارّها، وفي مقاله الثّاني تحدَّث عن الصّنائع وأهميتها للإنسان، وأنّ المجتمع المفتقر لها مجتمع أشلّ[3]، وعن دور الأفغانيّ في بثّ روح العمل والإصلاح في محمّد عبدَه قال محمّد البشير الإبراهيمي: "وقد رزقه طرازا مِنَ التّلامذة المستعدّين، نفخ فيهم مِنْ روحه، وربّاهم على مباديه، وكانوا مِنْ بعده حمَلَة فكرته، الشّارحين لها بالعمل، وحسبكم بالأستاذ الإمام محمّد عبدَه".[4]

يعدّ جمال الدّين الأفغانيّ فيلسوف الإسلام في عصره، وأحد الرّجال الأفذاذ الذين قامت على سواعدهم نهضة الشّرق، ونفخ في مصر روح النّهضة الإصلاحية في الدّين والسّياسة، وتتلمذ له نابغة مصر الشّيخ محمّد عبدَه وكثيرون، وبعد نفيه مِنْ مصر أنشأ في باريس مع تلميذه محمّد عبدَه جريدة العروة الوثقى، وألّف رسالة في الردّ على الدَّهريّين التي قام محمّد عبدَه بترجمتها إلى العربية.[5]

لقد ركّز الأفغانيّ في عمله الإصلاحي على إيقاظ الأمّة الإسلامية مِنْ سباتها ومحاربة الاستعمار الأوروبي والبريطاني الزّاحف على ديار الإسلام، كما عمل على إيقاد الثّورات في وجه الاستبداد الدّاخلي، وسعى عن طريق الإصلاح السّياسي وصناعة الصّفوة إلى فك قيود الجمود والتّقليد والإقلاع مِنَ التَخلف الموروث عبر حقب الماضي المتتالية، فقضى ثماني سنوات مِنْ 1871 إلى 1879م في مصر رَبَّى خلالها نخبة مِنَ العقول التي جدَّدت فكر الإسلام وحياة المسلمين وفي مقدّمتهم الشّيخ محمّد عبدَه.[6]

---

[1] ينظر: جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، مرجع سابق: ج1، ص326، ويرجع إلى: محاضرة محمّد عمارة على اليوتيوب بعنوان: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، من تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بمركز الدّراسات المعرفية في مصر، ألقاها في: 15 فيفري 2017م.

[2] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة الإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج1، ص216، وينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص31.

[3] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص20و21.

[4] محمّد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشر الإبراهيمي، مرجع سابق: ج5، ص196.

[5] ينظر: الزركلي ، الأعلام، مصدر سابق: ج6، ص168.

[6] ينظر: محمّد عمارة، شخصيات لها تاريخ، مرجع سابق: ص173و174.

وقال محمّد رشيد رضا وهو يبيّن تأثير جمال الدّين الأفغانيّ على محمّد عبدَه: "لو لم يكن له-أي لجمال الدّين الأفغانيّ- مِنَ الأثر إلّا الشّيخ محمّد عبدَه لكفى"[1]، وقال الشّيخ محمّد عبدَه في أستاذه جمال الدّين الأفغانيّ عقب موته مباشرة سنة 1897م، كلاما يشيد فيه بأفضال أستاذه عليه مشيرا إلى دوره في وصوله إلى المكانة المرموقة التي بلغها، وأنّ تلك الصّلة الحميمية الرّحميّة مع إخوته مِنَ النّسب، لا تقلّ عن تلك الصّلة العلمية والفكرية والرّوحية التي تشبّعها مِنْ أستاذه التي رَقَتْ به إلى مصافّ الأنبياء، حيث قال فيه: "إنّ والدي أعطاني حياة يشاركني فيها علي و محروس، والسيّد جمال الدّين الأفغانيّ أعطاني حياة أشارك بها محمّدا وإبراهيم وموسى وعيسى والأولياء والقدّيسين".[2]

وقال عنه أحمد أمين: "اتصل به محمّد عبدَه، وكان أقربهم إلى نفسه، قرأ فيه السّيّد الذّكاء وحسن الاستعداد وطيب القلب والحماسة والإصلاح، وقرأ محمّد عبدَه في أستاذه سعة العقل، وصحّة الإرشاد، وسموّ النّفس، ونبل الغرض، استفاد محمّد عبدَه مِنَ السيّد بصرا بالدّنيا التي حجبها الأزهر، وتحوّلا مِنْ تصوّف خياليّ إلى تصوّف فلسفي عمليّ، ورغبة صادقة في العمل للأمّة، وشوقا إلى الإصلاح الدّيني والخلقيّ والاجتماعيّ، يحبّ محمّد عبدَه أستاذَه حبّ إجلال، ويحبّ الأستاذُ تلميذَه الكبير حبّ رعاية وأمل في استخلافه، ووثَّقَ الصّلة بينهما اشتراكُهما في الإباء والسّموّ والعظمة.[3]

خامسا: أحمد الرِّفَـاعِي(ت1325هـ/1907م)

هو واحد مِنْ علماء الأزهر، ومِنْ فقهاء المالكية المجتهدين الذين تتلمذ على أيديهم الشّيخ محمّد عبدَه، درَّس بالأزهر ثلاثة وخمسين سنة، وهو نحويّ وبلاغي نِحرير، له تصانيف مهمّة منها: حاشية على شرح اليمني على لامية الأفعال لابن مالك في الصّرف، وخطب وتقارير في البلاغة والعروض وغيرهما.[4]

سادسا: محمّد المغربـي

يعدّ مِنَ الشّيوخ والأساتذة ذوي النّزعة الصّوفية الذين درّسوا بالأزهر الشّريف وأخذ عنهم محمّد عبدَه، ومِنَ الذين واجهوا أهل التّقليد والجمود الرّافضين للاجتهاد والتّجديد، فانضمّ إليهم الشّيخ محمّد عبدَه بحكم تكوينه الصّوفي الذي تلقّاه في بداية حياته على يد الشّيخ درويش خضر.[5]

الفرع الثّاني: تلامـذته

تتلمذ على يدي الشّيخ محمّد عبدَه عدد كبير مِنَ التّلاميذ، فأخذوا عنه علمه وأفكاره وآراءه ومنهجه في الإصلاح والتّغيير، ثمّ نشروها بعد وفاته، وأكملوا مسيرته وهم يحملون قناعات وتوجُّهات ومذاهب فكرية وسياسية وإيديولوجية مختلفة، فكانوا محور النّهضة في مختلف المجالات الدّينية والتّربوية والتّعليمية والاجتماعية والسّياسية في العالَمَيْن العربي والإسلاميّ، وبقيت مبادئه حيّة في نفوسهم مشتعلة في قلوبهم ومسجّلة على صفحات سجلّات التّاريخ، ومِنْ أشهر تلامذة الشّيخ محمّد عبدَه المشهورين والمغمورين: محمّد رشيد رضا، ومصطفى المراغي، ولطفي السيّد، والهلباوي،

---

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص102.

[2] محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، ص41، وينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح، ص293.

[3] ينظر: المصدر نفسه: ص292و293.

[4] ينظر: الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج1، ص202.

[5] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص17.

والأحمدي، والظّواهري، والزّنكلوني وسواهم[1]، ومنهم: سعد زغلول، وقاسم أمين، وحفني ناصف، وأحمد تيمور، ومصطفى لطفي المنفلوطي، وعبد الرّحمن البرقوقي، ومصطفى عبد الرّازق، وإسماعيل حافظ مِنْ طرابلس الشّام، وأحمد المحمصاني البيروتي، والشّيخ التّرمامیني الحلبي وغيرهم[2]، ومنهم أيضا: الشّيخ محمود شلتوت، وعبد العزيز جاويش، ومحمّد فريد وجدي، وعلي عبد الرّازق وغيرهم[3]، وذكر طاهر الطّناحي في مقدّمة مذكرات الشّيخ محمّد عبدَه بعضا مِنْ تلامذته فقال: "فقد سَعِدْتُ بلقاء بعض تلامذته ومريديه وفي مقدّمتهم المرحومون: شاعر النّيل محمّد حافظ إبراهيم...والأستاذ إبراهيم الهلباوي" [4]، وفيما يلي تعريف بعدد مِنْ تلامذته وهم:

أوّلا: محمّد رشيد رضـــا(1282- 1354هـ/1865- 1935م)

هو محمّد رشيد بن علي رضا القلمونيّ، البغداديّ الأصل، الحسينيّ النّسب، صاحب مجلة المنار وأحد رجال الإصلاح الإسلاميّ، مِنَ الكتّاب العلماء بالحديث والأدب والتّاريخ والتّفسير، ولد ونشأ وتعلّم في القلمون بطرابلس الشّام، وتنسّك، ونظم الشّعر في صباه، وكتب في بعض الصّحف، اتصل بالشّيخ محمّد عبدَه لمّا كان منفيّا في بيروت، ثمّ رحل إليه في مصر سنة 1898م ولازمه وتتلمذ عليه، ثمّ أصدر مجلّة المنار في حياته لِبَثِّ آرائه في الإصلاح الدّينيّ والاجتماعيّ، أنشأ في مصر مدرسة الدّعوة والإرشاد ثمّ قصد سورية أيام الملك فيصل بن الحسين وانتُخب رئيسا للمؤتمر السّوريّ، ثمّ غادرها إِثْرَ دخول الفرنسيّين إليها سنة 1920م فأقام في مصر مدّة، ثمّ رحل إلى الهند والحجاز وأوروبّا، وعاد فاستقرّ بمصر إلى أنْ تُوفي فجأة في سيارة لمّا كان راجعا بها مِنْ السّويس إلى القاهرة وبها دفن سنة 1935م، مِنْ آثاره مجلّة المنار أصدر منها أربعة وثلاثين مجلّدا، وتفسير القرآن الكريم اثنا عشر مجلّدا لم يكمله، وتاريخ الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه في ثلاث مجلدات، والوحي المحمّدي، ونداء للجنس اللطيف، ويسر الإسلام، وأصول التّشريع العام، والخلافة، والوهابيّون والحجاز، ومحاورات المصلح والمقلّد.[5]

بعد وفاة الشّيخ محمّد عبدَه بأربعين سنة، بعث الشّيخ مصطفى عبد الرّازق سنة 1945م برسالة إلى تلميذه عثمان أمين بمناسبة إعداده لأطروحة دكتوراه حول الشّيخ محمّد عبدَه قال له فيها: "إنّ أوّل مَنْ ترجم للشّيخ محمّد عبدَه، وعُني بنشر آثاره هو السيّد محمّد رشيد رضا صاحب المنار، وهو أوّل مَنْ لَقّبه بالأستاذ الإمام، وهو عنده إمام مِنْ أئمّة الإسلام، له في الدّين مذهب يقوم أصحابه على روايته وتدوينه كما قام أصحاب أبي حنيفة والشّافعي وغيرهما".[6]

---

[1] ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق: ج3، ص79.

[2] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص177.

[3] ينظر: محمّد حامد النّاصر، العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التّغريب، مكتبة الكوثر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 2001م، ص41.

[4] طاهر الطناحي، مذكرات الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص5.

[5] ينظر: الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج6، ص126.

[6] عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص21.

وقال عنه الشّرباصي[1]: "كان رشيد أقرب التّلاميذ لدى الأستاذ الإمام، وأحرصهم على تلقّف آرائه ونشرها، وأبرعهم في الانتفاع بطريقته في التّفكير والتّصوّر والتّعبير، وأطولهم صحبة له، وأخلصهم لمبادئه وآرائه، وأكبرهم جهدا في جمع أخباره ونشر مقالاته وكتبه، واستمرّ مِنْ بعده على الطّريق في تفسير القرآن الكريم، والإفتاء، والحديث عن الإسلام، والدّعوة إلى مبادئه وتعاليمه".[2]

وقال عنه محمّد البشير الإبراهيمي: "حمل لواء الإصلاح بعد موت الإمام؛ تلميذه الأكبر ووارث علومه السيّد محمّد رشيد رضا، وقد كان في حياة الإمام ترجمان أفكاره باعتراف الإمام، والمنافح عنه والمدافع دونه، واضطلع بعد موته بحمل أعباء الإصلاح حين نَكَلَ عن حملها أقوام، وضعف عن حملها أقوام، واستقلّ بتسيير سفينته فكان الرُبّان الماهر وأقام على مبادئ أستاذه وفيّا لها وله، فتمادى على إصدار التّفسير على منهاج الإمام مِنْ حيث وقف الإمام، وجمع تاريخ حياة الإمام فكان أضخم عمل استقلّ به فَرْدٌ، وليس تاريخ الأستاذ الإمام بالأمر الهيّن الذي يقوم به فرد، لو لم يكن ذلك الفرد رشيدا كان أكمل آثار الشّيخ رشيد في حياة الإمام إنشاءُ مجلّة المنار، وأنفس ذخر علمي اشتملت عليه هو دروس الإمام في التّفسير التي هي النّواة الأولى لتفسير المنار، وتلك الفتاوى الجليلة التي كان ينشرها في أمّهات العقائد والأحكام على ذلك النّحو العجيب مِنَ الاستقلال في الاستدلال، ولعمري، لو أنّ رشيدا قصَّر كما قصَّر غيره ولم يجمع خلاصات دروس الإمام، لأضاع على العالم الإسلامي كنزا علميا لا يُقوَّم بمال الدّنيا، بارك الله في أوقات الأستاذ رشيد، فاستمرّ بعد موت الإمام على إصدار المنار واتّسق أفق انتشاره في الأقطار الإسلامية وكثر قرّاؤه...وعاش ما عاش مرهوب شباة اللّسان مرهوب شباة القلم، إلى أنْ لحق بربه راضيا مرضيّا في هذا العام، فشعر العالم الإسلاميّ بأنّ خسارته فيه لا تعوّض، وإنّ مِنْ واجب الوفاء والاعتراف بالفضل لأهله، أنْ نُجري ذكره بما يتّسع له المقام في هذه النّشرة الإصلاحية التي تَمُتُّ إلى أعماله ومبادئه بالنّسب العريق، وتتّصل إلى علومه ومعارفه الواسعة بالسّبب الوثيق، وقد فعلنا، ولكن أين تقع هذه الجمل ممّا يوجبه الوفاء لرجل هو في بناء الإصلاح الرّكن والدّعامة وفي هيكل الإصلاح الرّأس والهامة؟".[3]

وقال عنه طاهر الطّناحي: "وقد عمد السيّد رشيد إلى شيء لم يسبق إليه مترجم لحياة عظيمٍ مِنْ عظماء التّاريخ، ولا لتلميذ يكتب عن تاريخ أستاذه، فقد وضع تاريخ الشّيخ محمّد عبدَه وما قام به مِنْ أعمال، وكأنّه يضع تاريخا لنفسه أيضا، فقد لا ترى فصلا أو بحثا للسيّد رشيد رضا عن الأستاذ الإمام؛ إلاّ وقد أشرك فيه نفسه، وكأنّ حياته جزء مِنْ حياة الإمام، بل بلغت به حماسته لنفسه أنْ جعل عمله مُكمّلا لأعمال الإمام في بحوثه وآرائه وكتبه، ككتاب التّوحيد، وتفسير القرآن الكريم، وغير

---

[1] **أحمد الشّرباصي(1918م- 1980م):** فقيه ومفتي وخطيب مصري، تخرّج في كلية اللّغة العربية، عمل مدرّسا في وزارة المعارف ثمّ في معاهد الزّقازيق فالقاهرة فسوهاج، ثمّ أمينا للجنة الفتوى في الأزهر، ثمّ أسندت إليه أمانة الفتوى به، ألّف في الدّين والتّاريخ والأدب والاجتماع منها: الخطب الشّرباصية، موسوعة أسماء المصطفى، أخلاق القرآن، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، عالم المكفوفين، ينظر: موقع: ويكيبيديا الموسوعة الحرة، تاريخ الزيارة: الأحد: 2020/12/06م، في الساعة: 17:00 مساء.

[2] أحمد الشّرباصي، رشيد رضا صاحب المنار عصره وحياته ومصادر ثقافته، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، إشراف محمد توفيق عويضة، (د د)، (د ط)، 1970م، ص271.

[3] محمّد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشر الإبراهيمي، مرجع سابق: ج1، ص178و179.

ذلك ممّا كتبه أو ألقاه مِنْ بحوث ودروس، وقد روى عن الإمام أبياتا قالها قُبَيل وفاته وهو على فراش الموت يدعو فيها الله تعالى أنْ يجعل السّيّد رشيد رضا خلفا له على دين الإسلام يضيء نهجه ويسير على طريقه، ويماثله نطقا وعلما وحكمة، وهذه الأبيات هي:

فيا ربّ إنْ قدرت رجعى قريبـــــة * * * إلى عالم الأرواح وانفض خاتـــــم

فبارك على الإسلام وارزقه مرشدا * * * رشيدا يضيء النّهج واللّيل قاتـــم

يماثلني نطقا وعلما وحكمـــــــة * * * ويشبه منّي السّيفَ والسّيفُ صارم.

وسواء كانت هذه الأبيات للشّيخ محمّد عبدَه، أم للسّيّد رشيد رضا الذي رواها عنه، فإنّها تدلّ على عنايته بنفسه، وإيمانه بأنّه خليفته في الإصلاح الإسلامي، وقد استولى على الكثير مِنْ آرائه، واقتنع بأنّ له الحقّ في طبعها وشرحها والزّيادة عليها دون أحد غيره مِنْ تلامذة الأستاذ الإمام، وعلى الرّغم مِنْ ذلك فواجب الإنصاف يدعونا إلى أنْ نقول أنّ السّيّد رشيد رضا قد حفظ لنا جانبا غير قليل مِنْ حياة الإمام، لولاه لضاع الكثير منها، ولنُسي الكثير مِنْ آثاره"[1]، وذكر يوسف القرضاوي أنّ محمّد رشيد رضا علاّمة مجدِّد مُفْتٍ، اشتهرت فتاويه التي نشرها في مجلّة المنار التي استمرّ صدورها خمسة وثلاثين عاما، ولم يكن يَخْلُ عدد منها مِنْ فتوى أو جواب عن أسئلة قرّائها في العالم الإسلامي.[2]

ثانيا: محمّد مصطفى المراغـــي(1298- 1364هـ/1881- 1945م)

الشّيخ محمّد مصطفى المراغي مِنْ أعلام المدرسة الإصلاحية المصرية، وهو مفسّر وفقيه وشيخ الجامع الأزهر، وكان مِنْ أكبر تلامذة الشّيخ محمّد عبدَه.[3]

وهو مِنْ دعاة التّجديد والإصلاح، اتّصل بالشّيخ محمّد عبدَه وتتلمذ على محاضراته في التّفسير وفي التّوحيد وفي البلاغة، وقد كان مِنْ أنجب تلامذة الشّيخ محمّد عبدَه وحامل لواء الإصلاح الدّيني الذي صاغته مدرسته، عمل بالأزهر مدرّسا، وبعد عام مِنْ تخرّجه منه عمل قاضيا في السّودان الذي كان تحت الحكم الثنائي الإنجليزي المصري، ثمّ استقال منه لخلاف بينه وبين قاضي القضاة الإنجليزي مستر كاتر، ثمّ عيّن مفتشا للدّروس الدّينية بديوان عموم الأوقاف نظارة الأوقاف، ليعيّنه الخديوي عباس حلمي الثّاني مرّة ثانية قاضي قضاة السّودان، فقام بإصلاح القضاء وعمل على تكوين جيل مِنَ القضاة السّودانيّين، ولمّا ناصر ثورة 1919م بالسّودان المؤيّدة لسعد زغلول والمطالِبة باستقلال السّودان أعاده الإنجليز إلى مصر وانتهى عمله بالسّودان، وفي سنة 1928م عُيّن شيخا للأزهر فمكث عاما وأعيد سنة 1935م إلى أنْ توفي بالإسكندرية سنة 1945م، مِنْ كتبه: بحوث في التّشريع الإسلامي، كتاب الأولياء والمحجورين، رسالة الزّمالة الإنسانية، وأسانيد قانون الزّواج، مباحث لغوية بلاغية.[4]

---

[1] طاهر الطناحي، مذكرات الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص7.

[2] ينظر: يوسف القرضاوي، الفتوى بين الانضباط والتسيّب، دار الصّحوة للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1988م، ص17.

[3] ينظر: محمّد حامد النّاصر، العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التّغريب، مرجع سابق: ص41.

[4] ينظر: الزّركلي، الأعلام، ج7، ص103. وينظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلّفين، ج12، ص34، وينظر: محمّد عمارة، الشيخ المراغي والإصلاح الدّيني في القرن العشرين، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 2011م، ص5 - 21 .

- **إصلاحاته في جامع الأزهـــر**

تولّى الشّيخ المراغي مشيخة الأزهر في 22 ماي 1928م، وقاد مسيرة الإصلاح فيه وواجه التّحديات المعيقة، وأنشأ اللّجان لدراسة واقع الأزهر واقتراح سبل الإصلاح، فأنشأ كليّات اللّغة العربية والشّريعة وأصول الدّين، وأنشأ التّخصّصات العلمية داخلها، وأنشأ الدّراسات العليا لخرّيجيها، وأعلن عن مقاصده الإصلاحية المتمثّلة في تعليم الأمم الإسلامية المعارف وهدايتها إلى أصول الدّين، عرض الإسلام على غير المسلمين عرضا صحيحا غير مشوَّه، وإحياء التّراث العلمي الذي خلَّفه العلماء المسلمون، وعمل على إزالة الفوارق المذهبية وتقليص الخلاف بينها، كما أنشأ لجنة للفتوى، وقسما للوعظ والإرشاد بالأزهر، وأعاد تنظيم هيئة كبار العلماء، وأنشأ مراقبة البحوث والثّقافة الإسلامية، ونظرا للعقبات التي حالت دون تطبيق إصلاحاته للأزهر، استقال منه في 10 أكتوبر1929م بعد رئاسته له ما يقارب مِنْ سنة ونصف، فقام طلّاب الأزهر وتيّار التّجديد فيه بمظاهرات واعتصامات وتعرّضوا للقمع والفصل مِنَ الحكومات المستبدّة، فرضخت الحكومة للثّورة، وأعادت الشّيخ المراغي إلى مشيخة الأزهر في أفريل 1935م، وشرع في تنفيذ إصلاحاته التي تخطّى بها قرون الانحطاط وأصبح مؤثرا في مجتمع.[1]

ثالثا: مصطفى عبد الـــرّازق(1302- 1366هـ/1885- 1946م)

عالم في الشّريعة الإسلامية وأديب مصري، تتلمذ على يد الشّيخ محمّد عبدَه، تخرّج في الأزهر ونال درجة العالمية، وأكمل دراسته في فرنسا، والتحق بجامعة السّوربون، ونال إجازة في الأدب الفرنسي والفلسفة، وانتُدِب لتدريس مباحث إسلامية في ليون، ووضع رسالة عن الإمام الشّافعي، وعاد إلى القاهرة سنة 1916م ليُعيَّن أمينا عاما لمجلس الأزهر، فمفتّشا بالمحاكم الشّرعية، فأستاذا للمنطق والفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بالجامعة المصرية، أسندت إليه وزارة الأوقاف سنة 1938م، ثمّ عُيّن شيخا للجامع الأزهر سنة 1945م واستمرّ إلى أنْ تُوفي بالقاهرة، مِنْ مؤلّفاته: محمّد عبدَه، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، فيلسوف العرب والمعلم الثّاني، الدّين والوحي والإسلام، مذكّرات مسافر، مذكّرات مقيم، فصول في الأدب، ساعد برنار ميشيل في ترجمة رسالة التّوحيد للشّيخ محمّد عبدَه إلى الفرنسية.[2]

رابعا: قاسم أميـــن(1279- 1326هـ/1863- 1908م)

كاتب وباحث مصري، كردي الأصل، ولد بمصر لأب تركيّ وأمّ صعيدية، انتقل مع أبيه إلى الإسكندرية، نشأ وتعلم بها، وبعد حصوله على شهادة الابتدائية انتقل إلى القاهرة، فالتحق بالمدرسة التّجهيزية الخديوية -وهي المدارس الثّانوية اليوم- وفيها دخل القسم الفرنسي، ثمّ التحق بالمدرسة العليا للحقوق والإدارة، وفي هذه الفترة انضمّ إلى حلقة جمال الدّين الأفغانيّ ومدرسته الفكرية، ومِنَ المدرسة العليا حصل على اللّيسانس سنة 1881م، ليتّجه إلى العمل بالمحاماة، ثمّ سافر في السّنة نفسها ضمن بعثة دراسية إلى فرنسا ودرس القانون في جامعة مونبولييه، وفي فرنسا تواصل مع الأفغاني ومحمّد عبدَه، وكان هو المترجم الخاصّ له، عندما أصدرا مجلّة العروة الوثقى بباريس.

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، الشيخ المراغي والإصلاح الدّيني في القرن العشرين، مرجع سابق: ص35 و36و41 .

[2] ينظر: الزركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج7، ص231، وينظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلّفين، مرجع سابق: ج12، ص245و246.

قرأ في فرنسا لمفكّرين أوروبيّين منهم: نيتشه وداروين وماركس، واقترب مِنَ الفرنسيين وأقام صلات وثيقة بنمط حياتهم الاجتماعية، ولمّا أنهى دراسته الجامعية سنة 1885م عاد إلى القاهرة ليعيّن وكيلا للنّائب العمومي بالمحكمة المختلطة، ثمّ نُقل إلى قسم قضايا الحكومة، ليُرَقّى بعدها إلى منصب رئيس نيابة بالصّعيد، وهناك بدأ يطبّق آراءه في الإصلاح الاجتماعي، فأطلق سراح الكثير مِنَ المسجونين المظلومين، ثمّ عُيّن رئيسا لنيابة طنطا، ثمّ نائب قاضي في محكمة الاستئناف، ثمّ رُقّي إلى مستشار، ولمّا أصدر كتاب تحرير المرأة حُرِمَ مِنَ الدّخول إلى قصر الخديوي وتلقى كيلا مِنَ الانتقادات والاتّهامات مِنَ المفكّرين والمثقّفين والكتّاب، وتجرّأت عليه العامّة وأزعجوه في أسرته، كما شارك في نشاط الجمعية الخيرية الإسلامية التي أنشأت المدارس للفقراء وقدّمت المساعدات للمعوزين والمنكوبين، وتولّى رئاسة لجنة الإسهام في إنشاء الجامعة الأهلية المصرية، لكن وافته المنية قبل افتتاحها سنة 1908م، مِنْ مؤلّفاته: تحرير المرأة، والمرأة الجديدة، وكان لصدورهما دويّ كبير في مصر وفي الشّرق عموما، وكلمات قاسم بك أمين، كما كتب حول قضايا الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي والتّربوي عشرين مقالا في صحيفة المؤيّد، ولمّا أصدر الكاتب الفرنسي دوق داركور كتابه مصر والمصريّون وملأه بالتّهجم على المصريّين وبالطّعن في الإسلام والمسلمين؛ ردّ عليه بكتاب كتبه بالفرنسية بعنوان: المصريّون.[1]

كتب قاسم أمين كلمة تأبينية بعد مرور أربعين يوما مِنْ وفاة الشّيخ محمّد عبدَه سنة 1905م، ذكر فيها أنّ الأمّة لا تجد مَنْ يعوّض عليها ما خسرته بفقده، فقد ترك مَقَامَ الإمامة بأوسع معانيها ولا يوجد في مصر واحد يجرؤ على أنْ يدّعي فيه استحقاقا بعده، كما ذكر بأنّه عاش لأمّته أكثر مِنْ عيشه لنفسه ولعائلته، وأنّه ربّى نفسه وزيّنها بالفضائل حتّى صارت مثالا في الجمال، كان طيّبا إلى أبعد الحدود، وكان ينجذب إلى الخير ويندفع إليه ويسعى إلى نفع الغير، وكان ملجأ للفقراء واليتامى والمظلومين والمصابين، وبخاصة أهل الأزهر الذين كان يساعدهم ويتفانى في قضاء حاجاتهم.[2]

خامسا: أحمد تيمور باشـــا(1288- 1348هـ/1871- 1930م)

هو أحمد بن إسماعيل الكردي الموصليّ الأصل، اشتهر بأحمد تيمور، لغوي وأديب ومؤرّخ مصري، ولد وتوفّي بالقاهرة، تلقّى مبادئ العلوم في مدرسة فرنسية، وتتلمذ على يد الشّيخ محمّد عبدَه وأخذ الأدب عن علماء عصره في مصر، وكان مِنْ أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، مِنْ مآثره إهداؤه مكتبته إلى دار الكتب المصرية وهي نحو ثمانية عشر ألف مجلد، مِنْ مؤلّفاته: التّصوير عند العرب، نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة، تصحيح لسان العرب، تصحيح القاموس المحيط، اليزيدية ومنشأ نحلتهم، لعب العرب، قبر السّيوطي، أبو العلاء المعري وعقيدته، الألقاب والرّتب، معجم الفوائد، الآثار النبويّة، الأمثال العامّية والكنايات العامّية، تراجم المهندسين العرب، التّذكرة التّيمورية، السّماع والقياس، تاريخ الأسرة التّيمورية، أسرار العربية، أوهام شعراء العرب في المعاني..[3]

---

[1] ينظر: الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج5، ص184، وينظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلّفين، مرجع سابق: ج8، ص114، وينظر: محمّد عمارة، قاسم أمين الأعمال الكاملة، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط2، 1988م، ص20- 26.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص312 - 314.

[3] ينظر: الزّركلي، الأعلام، المصدر السابق: ج1، ص100، وينظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، المرجع السابق: ج1، ص166.

سادسا: حافظ إبراهيـــم(1287-1351هـ/1871-1932م)

شاعر مصري، اشتغل بالمحاماة، ثمّ التحق بالمدرسة الحربية وتخرج فيها برتبة ملازم ثان، وألَّف مع بعض الضبّاط المصريّين جمعية سرية وطنية اكتشفها الإنجليز، فحاكموهم وأحيلوا إلى الاستيداع، فلجأ إلى الشّيخ محمّد عبدَه الذي رعاه، وأعيد إلى الخدمة في البوليس، ثمّ أحيل إلى المعاش، اشتغل محرِّرا في جريدة الأهرام ولُقِّب بشاعر النّيل وذاع صيته واشتهر شعره ونثره، فكان شاعر الوطنية والاجتماع والمناسبات، وانقطع للنَّظم والتَّأليف، ثمّ عُيِّنَ رئيسا للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية سنة 1911م إلى قبيل وفاته، مِنْ مؤلّفاته: ديوان حافظ، ليالي سطيح، كتيِّب في الاقتصاد، التّربية الأوّليّة، ترجم البؤساء لفيكتور هيجو، وشارك في ترجمة الموجز في علم الاقتصاد عن الفرنسية.[1]

سابعا: أحمد الهاشمـــي(1295- 1362هـ/ 1878- 1943م)

هو أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، أديب ومعلّم مصري، ولد وتوفّي بالقاهرة، كان مديرا لثلاث مدارس أهلية، واحدة للذّكور واثنتان للإناث، تتلمذ على يد الشّيخ محمّد عبدَه، مِنْ مؤلّفاته: مختار الأحاديث النبويّة، أسلوب الحكيم، جواهر الأدب، جواهر البلاغة، ميزان الذّهب.[2]

ثامنا: محمّد المَحْمَصانـــي(بعد 1349هـ/ بعد 1930م)

هو أحمد بن عمر بن محمّد غنيم المحمصاني البيروتي الأزهري: مِنْ رجال الإصلاح الدّيني، خطيب مِنْ أهل بيروت، تعلّم بها وانتقل إلى مصر، تتلمذ وتخرّج على يدي الشّيخ محمّد عبدَه في الأزهر وعاد إلى بيروت، كان مِنْ أعضاء جمعية المقاصد الخيرية، وخطب في بعض مساجدها وتوفّي بها، مِنْ كتبة: تحذير الجمهور مِنْ مفاسد شهادة الزّور، مختصر جامع بيان العلم وفضله.[3]

تاسعا: حسن المُـــدَوَّر(1279- 1332هـ/1862- 1914م)

مِنْ شيوخ العلم في بلاد الشّام، ولد وتوفّي ببيروت، تعلّم بها وبدمشق، ثمّ تتلمذ على يد الشّيخ محمّد عبدَه وعاد إلى بيروت فأنشأ المدرسة العلمية، وعكف فيها وفي بعض المساجد والمدارس الأخرى على تدريس الفقه والمنطق والفرائض، عُيِّن أمينا للفتوى وأستاذا للدّروس الدّينية في المكتب السّلطاني واستمرّ على ذلك إلى أنْ توفّي، له نحو عشرين مؤلَّفا، منها ثلاثة في الفقه والتّوحيد.[4]

عاشرا: عبد الباسط فتـح الله(1288- 1348هـ/1871- 1929م)

عبد الباسط بن حسن بن مصطفى بن فتح الله، كاتب صحفيّ وعضو في المجمع العلميّ العربيّ، ولد وتوفّي ببيروت، تتلمذ بها على يدي الشّيخ محمّد عبدَه، اشترك في تأسيس عدّة جمعيات تعليمية وخيرية، له كتاب عنوانه: رسالة في الحديث.[5]

---

[1] ينظر: الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج1، ص100.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ج1، ص90.

[3] ينظر: المصدر نفسه: ج1، ص189.

[4] ينظر: المصدر نفسه: ج2، ص191.

[5] ينظر: المصدر نفسه: ج3، ص270.

حادي عشر: عبد المجيد سليـــم(1299- 1374هـ/1882- 1954م)

تتلمذ على يدي الشّيخ محمّد عبدَه، وتخرج في الأزهر، عمل مدرّسا وقاضيا، قضى نحو عشرين عاما في الإفتاء حتّى صار مفتيا للدّيار المصرية ، وَلِيَ مشيخة الأزهر مرّتين، وتوفّي بمصر.[1]

اثنا عشر: عزيز خَانْـــكي(1290- 1375هـ/1873 - 1956م)

محام ومؤرّخ حلبيُّ الأصل، مصريّ المولد والوفاة، مِنْ طائفة الأرمن الكاثوليك، تعلّم بالمدرسة الحقوقية بالقاهرة، وتتلمذ على الشّيخ محمّد عبدَه وتفقّه بالأزهر، واشتغل بالمحاماة، أنشأ نقابة المحامين بمصر، مِنْ مؤلّفاته: رسائل في الوقف، قضايا المحاكم في مسائل الأوقاف، إسكندر الأكبر، خاطرات تاريخية، طرائف تاريخية، قنال السّويس، نابليون ومحمّد علي، المحاماة قديما وحديثا، التّشريع والقضاء قبل إنشاء المحاكم الأهلية بمصر، الطّعن في الأحكام بطريق النّقض والإبرام.[2]

ثلاثة عشر: محمّد الظّواهـــري(1295- 136هـ/1878- 1944م)

محمّد الأحمدي الظّواهري المصريّ، خطيب وفقيه، شاذلي الطّريقة، تتلمذ على الشّيخ محمّد عبدَه في الأزهر، تولّى مشيخة الجامع الأحمدي ومعهد أسيوط، عُيّن شيخا للأزهر واستقال منه سنة 1935م، دعا إلى إصلاح التّعليم في الأزهر، ووضع لذلك كتاب: العلم والعلماء ورسالة في الأخلاق.[3]

أربعة عشر: محمّد بن مانـــع(1300- 1385هـ/ 1883- 1965م)

محمّد بن مانع التّميمي، فقيه وأديب ومؤرّخ، ولد ونشأ بالسّعودية، رحل إلى العراق ثمّ إلى مصر في طلب العلم، واستقرّ في الأزهر يتتلمذ على الشّيخ محمّد عبدَه ويلازم دروسه، وبعد وفاته رجع إلى بلده القصيم، درّس في البحرين، وولي الإفتاء والوعظ والقضاء في قطر، ودرَّس في الحرم المكيّ، وولي رئاسة محكمة التّمييز بمكّة، ثمّ عُيّن مديرا للمعارف بها، ورئيسا لهيأة تمييز القضاء الشّرعي، توفّي ببيروت ودفن بقَطَرْ، مِنْ كتبه: مختصر عنوان المجد في تاريخ نجد، سبل الهدى في شرح شواهد شرح قطر النّدى، الكواكب الدّريّة على الدّرة المضيّة للسّفاريني، تحريم الإجارة على تلاوة القرآن.[4]

خمسة عشر: محمّد الحَنِيفـــي(1292- 1342هـ/1875- 1924م)

محمّد بن محمّد خير الدّين بن عبد الرّحمان آغا بن حنيف آغا الحلبي، المعروف بالحنيفي، جاور بالأزهر أربع سنين وفيه تتلمذ على الشّيخ محمّد عبدَه، وعاد إلى حلب يدرّس العربية، حجّ ومات في جدّة، مِنْ مؤلّفاته: مختصر دلائل الإعجاز للجرجاني، المنهاج السّديد في شرح جوهرة التّوحيد.[5]

ستة عشر: مصطفى الغلاييـــني(1303- 1364هـ/1886- 1944م)

شاعر وكاتّب وخطيب لبناني، مِنْ أعضاء المجمع العلمي العربيّ، تتلمذ على الشّيخ محمّد عبدَه، درّس اللّغة العربية في المدرسة السّلطانية، نُصِّب رئيسا للمجلس الإسلامي في بيروت ثمّ قاضيا شرعيا فيها إلى أنْ توفّي، مِنْ كتبه: نظرات في اللّغة والأدب، عظة النّاشئين، لباب الخيار في سيرة النّبي المختار،

---

[1] ينظر: الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج4، ص149.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ج4، ص230.

[3] ينظر: المصدر نفسه: ج6، ص26.

[4] ينظر: المصدر نفسه: ج6، ص209.

[5] ينظر: المصدر نفسه: ج7، ص78.

الإسلام روح المدنية، نظرات في كتاب السّفور والحجاب، الثّريّا المضية في الدّروس العروضية، أريج الزّهر ورجال المعلّقات العشر، الدّروس العربية، ديوان الغلاييني.[1]

المطلب الرّابع: المناصب التي تولّاها ونشاطاته

عمل الشّيخ محمّد عبدَه في بعض المناصب الحكومية الهامّة والحيوية لتجسيد إصلاحاته التّربوية، فتولّى منصب القضاء والإفتاء، وترأّس مجلس إدارة الأزهر، وكان عضوا في المجلس الأعلى لديوان الأوقاف، وفي مجلس شورى القوانين، وفي المجلس الأعلى للمعارف العمومية، وغيرها مِنَ المناصب الحكومية الخادمة لدينه ووطنه وأمّته، كما مارس العديد مِنَ النّشاطات التّربوية والتّعليمية والخيرية والصّحفية والسّياسية لإصلاح أمّته والنّهوض بها، ودرّس في مختلف المؤسّسات التّربوية والدّينية، وترأّس بعض الصّحف المصرية الهامّة، كما عُيّن قاضيا في المحاكم الأهلية الوطنية، بالإضافة إلى رئاسته للجنة إصلاح القضاء ولجان إصلاح التّعليم بالأزهر وكذا ترأّسه للجمعية الخيرية، فأكسبته تلك المناصب والنّشاطات التي مارسها خبرة عالية وحكمة وحنكة في الإدارة والتّسيير.[2]

الفرع الأوّل: المناصب التي تولّاهـــا

أوّلا: تولّيه منصب القضـــاء

عاد الشّيخ محمّد عبدَه إلى مصر مِنْ منفاه بمساعي ووساطة أصدقائه وتلامذته مع الخديوي توفيق والإنجليز، وكلّه أمل في التوجّه إلى التّربية والتّعليم لتكوين نشء يحظى بمستوًى علميّ وتربويّ عال، ووعي راق، وفكر مستنير عن طريق مزاولة التّدريس في دار العلوم، لكنّ الخديوي ومعه الإنجليز لم يرضَوْا عن توجّهه لعلمهم بمدى تأثيره في الطّلبة، وكذا الخطورة التي تشكّلها تربيته فيهم على سياستهما، لذلك عيّناه -عكس رغبته- قاضيا في المحاكم الأهلية بريف مصر بعيدا عن القاهرة.[3]

فعُيّن بمحكمة بنها نائب قاض سنة 1888م، ثمّ رُقّي قاضيا مِنَ الدّرجة الثّانية بمحكمة المنصورة، فقاضيا مِنَ الدّرجة الأولى بمحكمة مصر سنة 1892م، وفي سنة 1895م رُقّيَ إلى نائب مستشار بمحكمة الاستئناف التي بقي فيها إلى غاية 1899م، وخلال تولّيه للقضاء اطمأنّ النّاس إليه حتّى قال فيه ذووا الرّأي لمّا كان قاضيا بمحكمة عابدين: "إنّهم لا يذكرون إنّ كرسي القضاء في تلك المحكمة قد ازدان بمثله وأنّ الوقار والهيبة والجلال كانت تفيض في أفقها"، وقال فيه أحد المحامين الكبار: "كان محمّد عبدَه يصدر الحكم ويشفعه أو يسبقه بدروس ومواعظ يلقيها على المحكوم عليه أمام الجمهور إلقاءً يُشعِر الجماهير والمحكوم عليه نفسُه أنّهم في حضرة أبٍ أو مصلحٍ كبير".[4]

---

[1] ينظر: الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج7، ص244 و245 .

[2] ينظر: عبد الله مبروك النّجّار، فتاوى الإمام محمّد عبدَه دراسة فقهية تأصيلية، مرجع سابق: ص501و502.

[3] ينظر: المرجع نفسه: ص501، وينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج1، ص239.

[4] محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق: ج3، ص70.

كما وُلِّيَ القضاء في محكمة الزّقازيق ثمّ عابدين، وقد امتاز بتَحَرّيه للحقّ وتقديره للعدالة أكثر مِنْ تقديره لنصوص القانون التي كان يتحرّر منها بسعة اطّلاعه على نصوص الشّريعة الإسلامية.[1]

وكان يبذل وهو قاض كلّ ما في وسعه لتمثّل وصية الخليفة الرّاشد عمر بن الخطّاب ﷺ الذي كتب إلى الصّحابي الجليل أبي موسى الأشعري ﷺ يقول له: «**رُدَّ الخُصُومَ حَتَّى يَصْطَلِحُوا، فَإِنَّ فَصْلَ القَضَاءَ يُورِثُ بَيْنَهُمْ الضَّغَائِنَ**»[2]، فوجّه الخليفةُ وَالِيهِ إلى عدم الاكتفاء بالفصل بين المتخاصمين، وإنّما عليه أنْ يسعى للإصلاح بينهما بإزالة أسباب الشّقاق والنُّفرة والقطيعة، حتّى يسود الاستقرار والاطمئنان بين أطياف المجتمع.

لقد وظّف الشّيخ القضاء لتربية النّاس على مبادئ الحقّ وقيم العدل وسعى لإرضائهم بردّ الحقوق إليهم، والأخذ على أيدي الظّلمة والمفسدين ممَّنْ استمرأوا الرّشوة وتعوّدوا على الوساطات والطّرق الملتوية لحلّ مشاكلهم، فكثرت الخلافات وتفاقمت حتّى ضاعت الحقوق ووقع النّاس في الحرج، وفي مقابل ما كان يقوم به كقاضٍ مِنْ إصلاح بين النّاس ووعظهم وإرشادهم وتوجيههم وتفريج كربهم؛ كان يَلقَى الأذى والإساءة والتّشويه مِنْ بعض المصريّين، ومع ذلك كان يؤدّي مهامّه بتفان وصدق وإخلاص، ويبثّ أفكاره التّربوية في المجتمع وفي المؤسّسات والهيئات المصرية، لتربية إنسانٍ إيجابي يُسهم في تعمير الأرض وتحقيق الاستخلاف وإحقاق الحقّ وإبطال الباطل.

ومِنَ الابتلاءات التي لحقتِ الشّيخَ محمّد عبدَه خلال مسيرته الإصلاحية، ما قامت به بعض الجرائد المعادية له التي بلغت بها الدّناءة لأجل تكثير مبيعاتها وجلب القرّاء إليها؛ أنْ شهّرت به بشناعة بإيعاز مِنْ خصومه ولمجاراة العوامّ وإرضائهم، فلا تمرّ حادثة إلا ويذكرونه فيها بسوء، ولا مجلس مناظرة إلا ويتّهمونه فيه، فكان اسمه على كلّ لسان لينغّصوا عليه حياته ويحطّوا مِنْ معنوياته، حيث لفّقوا له صورة شمسية مع بعض نساء الإفرنج في الجرائد ثمّ حَمَلوها إلى اللورد كرومر وأغروه بعزله وأفهموه أنّ ما يقوم به لا يليق بمَنْ يتولّى منصب الإفتاء، فلم يأبه بهم لاستبعاده أنْ يصدر ذلك مِنَ الشّيخ محمّد عبدَه، لكنّ معدنه الصّافي وإيمانه القويّ برسالته وثقته الكبيرة في ربّه، لم تضعف قوّته ولم تفتّ مِنْ عزيمته، بل زادته صلابة وثباتا وإصرارا ومُضيّا نحو أداء واجبه الإصلاحي.[3]

ورغم تحايل الخديوي توفيق واللورد كرومر عليه اللّذان عيّناه قاضيا ومنعاه مِنَ التّدريس، إلاّ أنّه بقي متمسّكا بإنفاذ رغبته في الإصلاح والتّربية، باستثمار القضاء في تربية الأمّة وتعليمها، بغرض تكوين جيل جديد ينشد التحرّر ويقاوم الاستبداد والاستعمار، وبمجيء الخديوي عباس إلى الحكم، نفّذ بعض إصلاحاته التّربوية تطبيقا لقناعته بضرورة الإصلاح بالتّربية والتّعليم.

وأنشأ وهو في منصب القضاء الجمعية الخيرية الإسلامية وبنى المدارس الخاصّة التّابعة لها لتعليم أولاد الفقراء وتمكينهم منه مثل أبناء الأغنياء، وعندما أسّس الخديوي عباس الثّاني مجلس

---

[1] ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص315و316.

[2] أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدّين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن(تفسير القرطبي)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1964م، ج5، ص384.

[3] ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، المصدر السابق: ص321و322.

إدارة الأزهر دخله عضوا لإصلاحه، وألقى فيه الدّروس، وكتب تفسير جزء عمّ، كما فسّر القرآن الكريم الذي نُشر في مجلة المنار بعد وفاته تحت عنوان: "تفسير القرآن الحكيم الشّهير بتفسير المنار".[1]

لقد اقتنع الشّيخ محمّد عبدَه بأنّ الإصلاح ينبغي أنْ يكون مِنْ كلّ المناصب والمؤسّسات والمواقع، لكنّه جعل أساس الإصلاح هو تربية الإنسان، لأنّ بتربيته وتعليمه يمكن إصلاح باقي المجالات.

وفي العصر الحديث ازداد سعي الغرب للكسب المادي والرّقي الاقتصادي بكل الطّرق والوسائل، وأحكم سيطرته على العالم وأخذ يفرض العقوبات الاقتصادية على كلّ مَنْ يرفض الخضوع له، وأدرك الشّيخ محمّد عبدَه مبكّرا بأنّه بالتّربية يمكن تحقيق التّنمية البشرية التي تحقّق التّنمية الاقتصادية لتطوير المجتمعات، فقيمة الأمم بما تملك مِنَ الثّروة البشرية لا الطّبيعية، والتّجارة والصّناعة ليست هي ثروة الدّولة وإنّما ثروتها في أهلها وذلك بنشر العلوم فيما بينهم، فكثير مِنَ الدّول الفقيرة في الموارد الطّبيعية فقيرة في الثّروات الاقتصادية، لكنها استطاعت تحقيق التّطور وصارت في الصّدارة، لأنّها أحسنت الاستثمار في الإنسان، وخير نموذج يترجم فكرة الشّيخ محمّد عبدَه في عصرنا اليوم النّموذج الياباني الذي نجح في إعداد الإنسان الذي جعل منها قوّة اقتصادية عظمى رغم ثرواتها القليلة[2]، ورغم موقعها على جزر متفرّقة قابعة على أراضي بركانية وزلزالية، ساهمت التّربية بشكل كبير في إعداد القوى البشرية التي زادت في الإنتاج ورفعت مِنْ دخلها القوميّ.

ثانيا: رئاسته مجلس إدارة الأزهــر

لمّا تولّى الخديوي عبّاس حلمي الثّاني الحكم سنة 1892م، اتّصل به الشّيخ محمّد عبدَه، وحدّثه في شأن إصلاح الأزهر، وأصدر الخديوي مرسوما بإنشاء مجلس إدارة الأزهر يتولّاها أكابر شيوخ الأزهر يعيّنون بالانتخاب ما عدا الشّيخين محمّد عبدَه وعبد الكريم سلمان[3] تُعَيّنهما الحكومة أعضاءً في المجلس ولا دخل لشيخ الأزهر ولا للمجلس في إبقائهما أو استبدالهما[4]، فعُيّن الشّيخ محمّد عبدَه سنة 1895م ممثّلا للحكومة في مجلس إدارة الأزهر الذي كان يرأسه الشّيخ حسّونة النّواوي[5]، وحرص على تسيير المجلس طبقا للقوانين الموضوعة دون أنْ يخضع لمشيئة الخديوي وحاشيته، حتّى أنّه قال للخديوي يوما أمام المجلس لمّا أراد منح كسوة التّشريفات لأحد الشّيوخ الذين لا يستحقّونها قانونا وأراد أنْ يتجاوز القانون ويفرض سلطته على الشّيوخ، فانبرى له الشّيخ محمّد عبدَه قائلا: "إنّ مجلس إدارة الأزهر لا يعرف لسموّكم أمرا عليه إلا بهذا القانون الذي بين يديه، دون الأوامر الشّفوية التي

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص26.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص47.

[3] **عبد الكريم بن حسين سلمان أغا(1849- 1918م):** كاتب مصري، تعلّم في الأزهر، واتّصل بجمال الدّين الأفغانيّ ومحمّد عبدَه، عمل رئيسا لتحرير جريدة الوقائع المصرية بعد محمّد عبدَه، ثمّ عيّن مفتّشا عامّا للمحاكم الشّرعية، وكان عضوا في مجلس الأزهر، ووضع كتابه: أعمال مجلس إدارة الأزهر، سياحة الخديوي في أقاليم مصر البحرية والقبلية، ينظر: الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج4، ص52.

[4] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج1، ص250.

[5] **حسّونة عبد الله النّواوي الحنفي(1839- 1924م):** هو الإمام الثّالث والعشرون للأزهر، درس بالأزهر على مشاهير علمائه كالشّيخ الإنبابي والبحيري، درّس الفقه بدار العلوم، وعمل مفتيا وكان عضوا في المجلس الأعلى للمحاكم الشّرعية وتولّى مشيخة الأزهر بعد الشّيخ الإنبابي، وعُيّن شيخا للأزهر مرّتين، وافق الشّيخ محمّد عبدَه في مساعيه لإصلاح الأزهر وإدخال العلوم الحديثة إليه، مِنْ مؤلّفاته: سلّم المسترشدين في أحكام الفقه والدّين، ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي، علي علي صبح، الأزهر في ألف عام، ج2، ص81- 85.

يُبَلِّغُها عنكم مَنْ لا يثق به المجلس لمخالفته قانونكم!"[1]، لكن مؤامرات الخديوي عبّاس المانعة للشّيخ محمّد عبدَه مِنْ إصلاح الأزهر جعلته يقدّم استقالته مِنَ المجلس قبل وفاته سنة 1905م.[2]

وفي سنة 1905م كان الهدوء يسود الأزهر وكانت الأمور تسير بشكل طبيعي برئاسة علي الببلاوي الذي كان على وفاق مع الشّيخ محمّد عبدَه، حتّى برزت حركة شغب ممّن كانوا على صلة بالخديوي تشكو مِنْ شيخ الأزهر ومِنْ مجلس إدارته إثر رفض الشّيخ محمّد عبدَه وحَسَنْ عَاصِمْ استبدال الوقف بالأراضي لصالح الخديوي، فاستقال علي الببلاوي وعَيَّن الخديوي عبّاس الشّيخ عبد الرّحمان الشّربيني المعروف بجموده وخلافه مع الشّيخ محمّد عبدَه، فخطب الخديوي خطبة فيها غيظ شديد مِنَ الشّيخ محمّد عبدَه وصَحْبِه قال فيها: "إنّ الأزهر أُسّس وشُيّد على أنْ يكون مدرسة دينية إسلامية، تنشر علوم الدّين في مصر وجميع الأقطار العربية، ولكن مع الأسف رأيت فيه مَنْ يخلطون الشّغب بالعلم...وقد استقال السيّد عليّ الببلاوي، فقبلت استقالته، ومَنْ يستقيلني مِنْ وظيفته سواه فأنا مستعدّ أنْ أقبل منه"[3]، فقدّم الشّيخ محمّد عبدَه استقالته.

لقد جلب منصب القضاء للشّيخ محمّد عبدَه متاعب كثيرة، فحاربته جهات عديدة ووقفت في طريقه، وعلى رأسها بعض شيوخ الأزهر السّاعين إلى السّيطرة على مجلس إدارة الأزهر، للتحكّم فيه ومنع الإصلاح والتّجديد وتكريس الجمود والتّقليد فيه، ومعهم الخديوي الذي كان له بالمرصاد، مع أنّ الشّيخ كان حريصا على تطبيق القوانين والنّصوص التّنظيمية على الجميع دون تمييز ولا تملّق ولا محاباة حتّى ولو كان الخديوي نفسه الذي كان يضايقه ويحرّض عليه شيوخ الأزهر الذين أثاروا حوله الشّبهات، وطعنوا في دينه وحاولوا تشويهه لإفشال جهوده الإصلاحية، كما عارضه فريق آخر مِنَ المتأثّرين بالمدنيّة الأوروبّية المخالفين لإصلاحاته الدّينية والتّربوية التي لا تتماشى مع نظرتهم التّغريبيّة.

ثالثا: تولّيه منصب الإفتــاء

الإفتاء مِنَ المناصب الدّينية الرّسمية المهمّة التي تقلّدها الشّيخ محمّد عبدَه في مشواره الوظيفي غداة تولّي الخديوي عباس الثّاني المُلك في مصر، حيث عيّنه مفتيا عاما للدّيار المصرية سنة 1899م[4]، واستطاع مِنْ خلال هذا المنصب تفعيل الكثير مِنَ الفتاوى وتطبيقها[5]، وقد نصّ الخديوي في المرسوم التّنفيذي على أنّ للشّيخ محمّد عبدَه كفاءة تؤهّله لشغل هذا المنصب جاء فيه: "بناء على ما هو معهود في حضرتكم مِنَ العالمية وكمال الدّراية"[6]، فكان هذا المرسوم تزكية وشهادة رسمية مِنَ الخديوي للشّيخ محمّد عبدَه بالكفاءة العالية والاقتدار العلمي المتميّز.

---

(1) محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، ص42، وينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح، ص320.

(2) ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، المرجع السابق: ص46، ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص120.

(3) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، المصدر السابق: ص325.

(4) ينظر: محمّد عمارة، شخصيات لها تاريخ، ص191، وينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، ص44.

(5) ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، المصدر السابق: ص120.

(6) محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه مرجع سابق: ص72.

والشّيخ محمّد عبدَه كان يطمح إلى تعيينه على مشيخة الأزهر والإفتاء معا، لكنّ الخديوي عباس أسند المشيخة إلى شيوخ لا يؤمنون بإصلاح الأزهر كالشّيخ عبد الرّحمان القطب النّواوي والشّيخ سليم البِشْري مِنْ بَعدِه، وعَرَفَ الشّيخ بأنّه غير مرغوب فيه، وساءت العلاقة بينهما خصوصا لمّا أمر الخديوي بمنح الكِسوة التّشريفية لغير مستحقّيها، فعارضه الشّيخ محمّد عبدَه ومنع تنفيذ الأمر لمخالفته للقوانين، وأحرجه أمام الشّيوخ وغضب منه الخديوي، وأخذ يدبّر ضدّه المؤامرات والدّسائس، فاتّقاه الشّيخ محمّد عبدَه بالاستعانة بالإنجليز، وعزم الخديوي على الانتقام منه وهمَّ بعَزْلِهِ مِنْ منصبه، لكن اللورد كرومر صرّح بعدم موافقته على عزله مهما كانت الظّروف.[1]

وقد أثارت بعض فتاوى الشّيخ محمّد عبدَه لغطا كبيرا بين شيوخ الأزهر المعادين له المعروفين بالجمود والتّقليد، وأخذوا يُحيكون ضدّه الدّسائس ويمكرون به[2]، لكن سلطة الاحتلال البريطاني وقفت إلى جانبه ودافعت عنه عندما لُفِّقت له الاتّهامات وأشيعت عنه الأكاذيب في الصّحف، حيث نشرت جريدة الحرّة صورة ملفّقة أظهرته مع نساء الإفرنج، وقالت أنّ هذا ازدراء لمنصب الإفتاء عند المسلمين، ولمّا رأى كرومر الصّورة سخر منها قائلا: "إنّ هذه الصّورة لا يثبت لها عندي أصل"، وصرّح بدعمه في الإفتاء قائلا: "إنّ الشّيخ محمّد عبدَه مفتيا ما ظلّت بريطانيا العظمى محتلة لها"، ثمّ قال للخديوي: "اسمح لي بأنْ أقول أنّه ما دام لبريطانيا العظمى نفوذ في مصر فإنّ الشّيخ محمّد عبدَه يكون هو المفتي حتّى يموت"[3]، واستطاع الشّيخ أنْ يقدّم الكثير لأمّته ويخدمها مِنْ جوانب عديدة كمفتٍ للدّيار المصرية رغم عداوتهم له ومحاولاتهم تشويه صورته وعرقلة جهوده الإصلاحية، واستثمر هذا المنصب في القيام بأعمال جليلة، ورجع النّاس إليه للاستنارة بفتاويه، وبتفسيره، وبمؤلّفاته المعرِّفَة بالإسلام التي ردّ بها على خصومه الذين لم يألَوْا جهدا في محاربته، بالإضافة إلى توظيفه للكتابة الصّحفية في مختلف الموضوعات الخادمة للمجتمع المصري وللأمّة العربية والإسلامية جمعاء.

وفتاوى الشّيخ محمّد عبدَه اشتملت على جميع أبواب الفقه الإسلامي، وجاءت معاصرة لواقع النّاس ومستوعبة لقضاياهم، ومؤصّلة بأحكام الشّريعة الإسلاميّة، جامعة بين النّقل والعقل، جُمعت في خمسة مصادر وهي: سجلاّت دار الإفتاء، والفتاوى الإسلامية لوزارة الأوقاف المصرية، ومجلّة المنار، وتفسير المنار، وتاريخ الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه الذي ألّفه تلميذه محمّد رشيد رضا.[4]

وفي حفل تنصيب الشّيخ عبد الرّحمان الشّربيني على رئاسة الأزهر، قدّم الشّيخ محمّد عبدَه استقالته مِنْ منصب الإفتاء سنة 1905م عندما لمّح له الخديوي في كلامه يطلب منه ذلك بقوله: "ومَنْ يستقيلني مِنْ وظيفته سواه -أي سوى السيّد عليّ البلاوي- فأنا مستعدّ أنْ أقبل منه".[5]

---

[1] ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص318- 320.

[2] ينظر: جمال الدّين الأفغاني ومحمّد عبدَه، العروة الوثقى، مصدر سابق: ص26.

[3] غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص65و66.

[4] ينظر: عبد الله مبروك النجار، فتاوى الإمام محمّد عبدَه دراسة فقهية تأصيلية، مرجع سابق: ص503- 508.

[5] أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، المصدر السّابق: ص325.

رابعا: عضويته في المجلس الأعلى لديوان الأوقـــاف

تبعا لمنصب الإفتاء الذي عُيّن فيه الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ طرف الخديوي عبّاس الثّاني؛ أصبح عضوا في مجلس إدارة الأوقاف الأعلى[1]، فوظّف عضويته في المجلس واستثمرها لإصلاح الأوقاف والمساجد وجميع المرافق الإسلامية[2]، ومِنْ جملة الإصلاحات التي قام بها فيه؛ أنّه كتب لائحة وعرضها على مجلس الأوقاف الأعلى، وضمّنها ثلاثة وعشرين مادّة موزّعة على أربعة أبواب حدّد فيها موظّفي المساجد وشروط توظيفهم ومرتّباتهم ومهامّهم، وكانت النّتيجة أنْ أقرّ المجلس بعض موادّها وأنفذها.[3]

لقد كانت هِمّة الشّيخ محمّد عبدَه عالية، وحباه الله بقوّة العزيمة رغم المثبّطات والعراقيل الكثيرة، وكان يتتبّع النّقائص والاختلالات المستشرية في مفاصل مؤسّسات الحكومة المصرية بحيوية وجدّ، ويوظّف مواقعه الرّسمية، ويقدّم البدائل الإيجابية لتجسيد إصلاحاته بالنّصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم، مصداقا لما رواه تميم الدّاري ﷺ أنّ النّبي ﷺ، قال: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قلنا: لمن؟ قال: «**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[رواه مسلم].[4]

خامسا: عضويته في مجلس شورى القوانيـــن

كان الشّيخ محمّد عبدَه عضوا دائما في مجلس الشّورى الذي عيّنه فيه الخديوي عبّاس الثّاني سنة 1899م[5]، هذا المجلس الذي أخذ منه وقتا كثيرا، الأمر الذي جعل محمّد رشيد رضا يشير عليه بأنْ لا يقضيَ كلّ وقته فيه على حساب ما هو أَوْلَى منه، وطلب منه أنْ يتفرّغ للكتابة والتّأليف لخدمة الأمّة، لأنّ المجلس كاد يعيقه عن تقديم ما هو أنفع لأمّته، خصوصا وأنّ قوانين الحكومة كانت عُرضة للتّغيير الدّوريّ، وأنّ إقرار قراراتها أو إلغاءها أو تغييرها يأخذ وقتا طويلا، كما أنّه ليس مِنَ اليسير إقناع الحكومة بقرارات مشورة المجلس بسرعة، فأجابه الشّيخ محمّد عبدَه: "إنّ الغرض مِنَ العمل بالمجلس هو التّعاون مع الأعضاء على الجدّ والاهتمام بالبحث في الأمور العامّة ومصالح البلاد، وتربية الرّأي العام في الأمّة، ليكون ذلك إعدادا لنفوس طائفة منّا للفصل في الأحكام بالشّورى".[6]

لقد فعّل الشّيخ محمّد عبدَه هذا المجلس وبذل الوسع لخدمة أمّته مِنْ خلاله بكلّ الطّرق المشروعة، حيث رعى مصالح الأمّة وفصل فيها وحضّ الحكومة على سنّ القوانين الخادمة لها، وكلّ ما قام به يدلّ على نضجه وحرصه الشّديد على خدمة أمّته، حيث لم تمنعه عضويته في المجلس مِنْ أداء رسالته الإصلاحية، فكان كالغيث أينما وقع نفع، يسارع إلى استغلال الفرص المتاحة أمامه لإصلاح الاختلالات القائمة، واستطاع أنْ يؤدّي به أدوارا لا تقلّ أهمّية عن رسالة التّربية والتّعليم، وعن التّأليف والكتابة الصّحفية، وتوجيه الرّسائل ومطارحة الأفكار المناهضة لمنهجه التّربوي الإصلاحي.

---

[1] ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص17.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص44.

[3] ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، المرجع السابق: ص47و48.

[4] أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان أنّ الدّين النّصيحة، ج1، ص74، حديث رقم: 55.

[5] ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص325.

[6] غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، المرجع السابق: ص49.

سادسا: عضويته في المجلس الأعلى للمعارف العموميـة

عُيِّن الشّيخ محمّد عبدَه عضوا في المجلس الأعلى للمعارف العمومية غداة إنشائه في 1881م[1]، وفيه استطاع أنْ يقنع الوزير رياض باشا باستصدار مرسوم مِنَ الخديوي توفيق لإنشاء هذا المجلس، وتعيينه عضوا فيه، ولمّا تمّ له ذلك كانت لأفكاره وآرائه وقع في التّأثير والتّنفيذ، وقد كانت عضويته فيه في الفترة التي كان يرأس فيها تحرير جريدة الوقائع المصرية، وفيها وضع لائحة المطبوعات التي صادق عليها رئيس الوزراء رياض باشا، ومِنْ جملة ما جاء فيها: منح الجريدة حقّ انتقاد أعمال الحكومة التي لا تخدم الرّأي العام المصري، ونشر فيها عددا مِنَ المقالات المتضمّنة انتقادات لاذعة لنظارة المعارف بسبب ما وقف عليه فيها مِنِ اختلالات ونقائص كبيرة، واتّفق مع الوزير على إصلاحها عن طريق المجلس بدراسة قضاياها وإيجاد الحلول والبدائل لها.[2]

سابعا: رئاسته لتحرير جريدة الوقائع المصريـة

بمجرّد رجوع ناظر النّظّار مصطفى رياض باشا مِنْ أوروبا إلى مصر سنة 1880م عيّنه الخديوي توفيق على رئاسة الحكومة، فقام بتعيين الشّيخ محمّد عبدَه محرّرا لجريدة الوقائع المصرية ثمّ رقّاه إلى رئيس تحريرها، وفيها كتب مقالات كثيرة في قضايا الإصلاح المختلفة وفي الإصلاح التّربوي خصوصا، وذلك بعدما نفي إلى قريته محلّة نصر بسبب مشاركته جمال الدّين الأفغاني نشاطاته السّياسية التي كان يدعو فيها إلى الحدّ مِنَ النّفوذ الإنجليزي، ومقاومة سلطة الاستبداد الدّاخلي للخديوي، كما أُسندت إليه مسؤولية الرّقابة على المطبوعات[3]، بالإضافة إلى الكتابة في بعض دواوين الحكومة.[4]

الفرع الثّاني: نشاطاتـــه

نظرا لشخصية الشّيخ محمّد عبدَه الجامعة علميا وفكريا وتربويا وسياسيا، والتّقدير البالغ الذي كان يلقاه مِنْ أهل بلده حكّاما ومحكومين، ومِنْ سلطة الاستعمار البريطاني؛ ولّته السّلطة المصرية بعض المناصب الحكومية الهامّة، وأخذ يمارس بعض النّشاطات المكمّلة لتطبيق أفكاره الإصلاحية التي آل على نفسه تجسيدها، بتربية المصريّين وتعليمهم لبناء مَجْدِ مصر، عساها تلحق بركب الأوروبيّين الذين بنوا حضارة قوية أغرتهم باستعمار الدّول العربية والإسلامية وإخضاعها لسيطرتهم، واستغلال خيراتهم، ومحاربة قيمهم ومبادئهم، ومسخ هويتهم الدّينية والوطنية.

وبالإضافة إلى تقلّده للوظائف الحكومية المتنوّعة؛ زاول تدريس شتَّى العلوم والمعارف في الأزهر وفي غيره مِنْ مؤسّسات التّربية وحتّى في بيته، وكذا رئاسته لتحرير جريدة الوقائع المصرية[5]، وشارك بشكل إيجابي في الكثير مِنَ الأعمال النّافعة والنّشاطات الخيرية، وقام بمبادرات اجتماعية وتربوية وثقافية وسياسية خادمة لأمّته، وألّف الكتب، ونشر المقالات المتنوّعة في مختلف الصّحف والمجلاّت

---

(1) ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص32.

(2) ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص23.

(3) ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، المرجع السابق: ص31 و32.

(4) ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق: ج3، ص69.

(5) ينظر: عبد الله مبروك النجار، فتاوى الإمام محمّد عبدَه دراسة فقهية تأصيلية، مرجع سابق: ص501و502.

المصرية وغير المصرية، وأنشأ الجمعيات الخيرية والعلمية والدّينية وفعّلها ميدانيا، وفي هذا الفرع سيتمّ تسليط الضّوء على أهمّ نشاطاته في الإصلاح عموما وفي الإصلاح التّربوي على وجه الخصوص.

أوّلا: انخراطه في الحزب الوطني الحر ومشاركته في الثّورة العُرابيـة

عندما زار جمال الدّين الأفغاني مصر سنة 1869م التقى به محمّد عبدَه وهو في سنّ العشرين، وترك فيه أثرا علميا وفكريا كبيرا، ثمّ غادرها إلى الأستانة ليعود إلى مصر سنة 1871م، والتقى به محمّد عبدَه للمرّة الثّانية، فلازمه وأخذ عنه مختلف العلوم التّقليدية والعصرية، وخطّ له منهجا في التّغيير السّياسي، وألهب فكره وعاطفته بالفكر الثّوري، فانضم إلى الحزب الوطني الحرّ الذي أنشأه الأفغاني في ظروف سياسية حرجة تميّزت بفساد الحكم الملكي ونفوذ الإنجليز والفرنسيّين السّافر، وانضمّت إليه أغلب القيادات التي ساهمت في تفجير الثّورة العُرابية سنة 1881م.[1]

بعدما تناقلت الجرائد ووكالات الأنباء خبر وجود الأفغاني في مصر وسمعت به الجماهير، لازمه الشّيخ محمّد عبدَه وانخرط في حزبه السّياسي الذي أسّسه سرّا، وذكرت وسائل الإعلام بأنّه يهدف مِنْ وراء مساعيه العلمية والسّياسية إلى النّهضة الفكرية والتّجديد العقلي ومناهضة النّفوذ الأوروبّيّ في مصر وإزاحة الخديوي إسماعيل مِنَ الحكم بسبب عمالته للأوروبّيّين وإغراقه البلاد في الدّيون التي اتّخذوها مبرّرا لاحتلال مصر، هنا أخذ الأفغانيّ يفكّر في الاغتيالات، فقد قال الشّيخ محمّد عبدَه: "إنّنا كنّا نتكلّم سرّا في هذا الشّأن، واقترح الشّيخ جمال الدّين عليَّ أنا أنْ أقتل إسماعيل وكان يمرّ بمركبته كلّ يوم على جسر النّيل، كنت أنا موافقا الموافقة كلّها على قتل إسماعيل، ولكن كان ينقصنا مَنْ يقودنا في هذه الحركة، ولو أنّنا عرفنا عُرابي في ذلك الوقت فربّما كان في إمكاننا أنْ نُنَظِّم الحركة، لأنّ قتل إسماعيل في ذلك الوقت كان يعتبر أحسن ما يمكننا عمله، وكان يمنع تدخّل أوروبا".[2]

لقد تأثّر الشّيخ محمّد عبدَه بأستاذه الأفغانيّ الذي كان يحمل منهجا سياسيّا وثوريّا في التّغيير لإصلاح الأوضاع الفاسدة مِنَ القمّة بدءًا بالسّلطة والسّاسة الإنجليز الذين كانوا يمهّدون لاحتلال مصر، فأثّر منهجه ذلك على الشّيخ محمّد عبدَه الذي صار لديه استعدادا قويا للقيام بأيّ عمل لإحداث التّغيير حتى ولو كلّفه ذلك القيام بالاغتيالات للحدّ مِنَ النّفوذ الأجنبي والتّدخّل الإنجليزي.

إنّ انخراط الشّيخ محمّد عبدَه في الحزب الوطني الحرّ مثّل دعما روحيّا ومعنويّا للثّورة العُرابية، فهو الذي دفع الثوّار إلى الخروج في مظاهرات عَابْدِين سنة 1881م لمنع الإنجليز مِنِ احتلال مصر، ولمقاومة النّفوذ الأوروبّيّ المتنامي، ولافتكاك الاستقلال الفكري والثّقافي والسّياسي للمصريّين، فقام الشّيخ محمّد عبدَه بالنّشاطات السّياسية والثّورية للإصلاح والتّحرّر والنّهضة، لكنّ الثّورة فشلت باحتلال الإنجليز لمصر، وحلّ الحزب، وإغلاق جميع الصّحف المؤيّدة له، وسُجِن محمّد عبدَه ثلاثة أشهر، ثمّ حوكم ونُفي إلى خارج مصر لمدّة ثلاث سنوات ليمتد نفيه إلى ستِّ سنوات أخرى.[3]

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، مسلمون ثوار، مرجع سابق: ص442.

[2] محمّد عمارة، الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ، مرجع سابق: ص186و187.

[3] ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص30 و32 و34، وينظر: محمّد عمارة، شخصيات لها تاريخ، مرجع سابق: ص190.

كان الشّيخ محمّد عبدَه مقتنعا بالإصلاح بعيدا عن السّياسة والثّورة، لكن تطوّر الأوضاع المصرية وتغيّر المعطيات فيها، جعلته يغيّر قناعته وينضم إلى الثّورة العُرابية وصار مِنْ أبرز قادتها، خصوصا لمّا طالب أحمد عُرابي الخديوي بإعلان الدّستور والتّسوية بين طوائف الشّعب المصري، فرفض الخديوي مطالبه ولجأ إلى الإنجليز يطلب منهم حمايته، وبرّر لهم احتلال مصر وحقّق لهم رغبتهم التي خطّطوا لها، فقضى الخديوي بمواقفه المخزية تلك على حرّيته وحرّية المصريّين.[1]

والمحصّلة أنّ الخديوي ضيّق على الشّعب المصري الذي طالب ثُوّارُه بالتّسوية الدّستورية، ورهن حرية بلاده بالاستنجاد بالإنجليز الذين أفشلوا الثّورة واحتلوا مصر.

ثانيا: رئاسته لتحرير جريدة العروة الوثقى

بعد نفي الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ مصر سنة 1882م، أقام ببيروت وبعد سنة استدعاه جمال الدّين الأفغاني ليلتحق به في باريس أواخر سنة 1883م، ومنها واصل نشاطه الإصلاحي[2]، وترأّس تحرير جريدة العروة الوثقى التي أنشآها معا، وناضلا بها للإصلاح بالقلم والبيان والدّفاع عن الإسلام والمسلمين، وتوعية الأمّة الإسلامية بتعريفها بحقوقها وواجباتها وبيان مكانتها ورسالتها في الحياة، وتعبئتها لمقاومة الاستبداد الدّاخلي والاستعمار الأوروبي الذي بسط نفوذه على بلدان العالم العربي والإسلامي، واستعبد شعوبها ونهب خيراتها، وحاول طمس هويّتها ومحو شخصيّتها العربية والإسلامية.

لقد قامت الجريدة بدور محوريّ في تعبئة وترغيب النّخب للانخراط في جمعية العروة الوثقى بالحوار معهم وعرض أفكارها وأهدافها عليهم، لإقناعهم بالانضمام إليها والعمل فيها[3]، ذلك أنّ الجريدة تمثّل النّاطق الرّسمي للجمعية برئاسة جمال الدّين الأفغانيّ ونيابة الشّيخ محمّد عبدَه، فكانت الجريدة تقوم بالدّعاية لها، وإقامة الصِّلات بين أعضائها في الأقطار، ونشرِ أهدافها ومقاصدها، وترغيب النّخب بالانخراط فيها، لتنفيذ مشاريعها في العالم العربي والإسلامي، وقد كان أعضاؤها على قدر كبير مِنَ الذّكاء والفطنة باختيارهم لفرنسا مقرا لصدورها، لأنّ إنجلترا احتلت أكثر الأقطار العربية والإسلامية، واختاروا لها لسانا عربيا لكونه اللّسان الغالب حتّى تُبلِّغ صوتها وأهدافها إلى أكبر عدد مِنَ المسلمين لتحقيق الإحياء والتّوعية والإصلاح والتّغيير والنّهضة والسّيادة.

لقد ورد في المقال الافتتاحي للجريدة في عددها الأوّل: "إنّ أعضاء جمعية العروة الوثقى اختاروا أنْ يكون لهم في هذه الأيام جريدة بأشرف لسان -لغة- عندهم وهو اللّسان العربي، وأنْ تكون في مدينة حرّة كمدينة باريس ليتمكّنوا بواسطتها مِنْ بثّ آرائهم وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية، تنبيها للغافل، وتذكيرا للذّاهل، فرغبوا إلى جمال الدّين الحسينيّ الأفغانيّ أنْ ينشئ تلك الجريدة".[4]

وفي بدايات صدور الجريدة قامت الدّوائر الغربية بمحاولات اختراقها والتّجسّس عليها، لكن رئيس تحريرها الشّيخ محمّد عبدَه استطاع بنباهته وحدسه أنْ يعرف حقيقة أحد جواسيس

---

[1] ينظر: عبد المتعال الصعيدي، المجدّدون في الإسلام، مرجع سابق: ص401.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص401.

[3] ينظر: محمّد عمارة، الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ، مرجع سابق: ص263.

[4] المرجع نفسه: ص269.

الاستعمار البريطاني الذين بعثهم ليتجسّسوا على جمال الدّين الأفغاني تحت غطاء ترجمة الأخبار للشّيخ محمّد عبدَه إلى اللّغة العربية، فتعامل معه بمرونة دون أنْ يُشعره بأنّه اكتشف أمره، ثمّ استغنى عن خدماته شيئا فشيئا، ثمّ أرسل إلى أعضاء الجمعية بمصر يحذّرهم منه قائلا: "وذلك الذي وفد إليكم جاسوس للحكومة القائمة في دياركم فاحذروه، ولكن ليكن حذركم حذر الحكماء، لا يتبيّن منه علمكم بحاله، تحفّظوا منه كلّ التّحفّظ، وإيّاكم ومكاشفته بشيء ممّا أنتم عليه".[1]

ولمّا رأت السّلطات الاستعمارية والأنظمة العميلة لها بأنّ الجريدة صارت تشكّل خطرا على مصالحها وعلى سياساتها، بسبب انتشارها الواسع وتأثيرها الكبير على النّخب العربية والمسلمة في شتّى الأقطار العربية والإسلامية، أخذت تضيّق عليها وتمنع انتشارها وتقنّن العقوبات بفرض الغرامات المالية على حامليها وقرّائها وسجنهم للحدّ مِنِ انتشارها ثمّ إيقافها نهائيا.

فكانت النّتيجة أنْ أُوقفت الجريدة بعد صدور ثمانية عشر عددا منها في مدّة ثمانية أشهر، حيث صدر عددها الأوّل في 13 مارس 1884م والثّامن عشر في 16 أكتوبر 1884م[2]، لكنّ تأثيرها الكبير بقي فاعلا في النّخب والعامّة، ورغم توقُّفها بسنوات إلاّ أنّ مقالاتها البليغة التي تخاطب الوجدان والقلب والعقل، بقيتْ تُنسخ باليد وتنشر في الجرائد والمجلّات، وكادت أنْ تحدث انقلابا عظيما في العالم الإسلامي، حتّى قال فيها الشّيخ محمّد عبدَه: "إنّني لا أستطيع الآن أنْ أكتب مثلها".[3]

ثالثا: تدريسه في الأزهر وفي المؤسّسات التّربويـة

يعدّ التّدريس مِنْ أحبّ الوظائف إلى الشّيخ محمّد عبدَه وأمتعها بالنّسبة إليه بل وجعلت قرّة عينه فيه، فقد جعله وسيلته لتربية الأمّة وتعليمها، لتخريج أجيال المستقبل والإسهام بهم في حياته وبعد مماته في إصلاح الأوضاع المتردّية للمجتمع المصري ومنه النّهوض بالأمّة العربية والإسلامية.

بعد نجاح الشّيخ محمّد عبدَه في امتحان شهادة العالمية سنة 1877م، درّس في الأزهر نحو سنتين، كما درّس في المدارس الأميرية[4]، ثمّ عيّن أستاذا بدار العلوم سنة 1879م التي درّس فيها مقدّمة ابن خلدون وبثّ مِنْ خلالها أفكاره الإصلاحية في السّياسة والمجتمع والتّعليم[5]، ليُفصَل منها بعد أشهر بسبب دروسه التي دعا فيها إلى مبادئ التّحرر والتّغيير، تلك الأفكار التي أخذها مِنْ أستاذه الأفغانيّ، التي كان يرى فيها الخديوي أنّها تشكّل خطرا على سلطته السّياسية الاستبدادية.

وبعد فشل الثّورة العُرابية؛ سُجِنَ الشّيخ محمّد عبدَه وحوكم ثمّ نفي إلى بيروت التي فيها درّس بالمدرسة السّلطانية وشرح فيها نهج البلاغة للإمام علي ﷺ، وديوان الحماسة للمتنبّي، والإشارات لابن سينا، وكتاب تهذيب الأخلاق لابن مَسْكَوَيْه، وشرح مقامات بديع الزّمان الهمداني، وترجم إلى العربية رسالة أستاذه "الردّ على الدّهريّين"، كما درّس فيها فقه المعاملات والتّاريخ والمنطق والمعاني والإنشاء،

---

[1] محمّد عمارة، الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ، مرجع سابق: ص264.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص280.

[3] المرجع نفسه: ص283.

[4] ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق: ج3، ص69.

[5] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج1، ص238.

بالإضافة إلى إلقائه وإملائه فيها دروسا في التّوحيد على طلبته بعيدا عن المختصرات والمطوّلات، والتي جمعها في كتابه رسالة التّوحيد بعد عودته مِنْ منفاه إلى مصر.[1]

وخلال تدريسه في المدرسة السّلطانية، وقف على بعض الاختلالات العلمية والإدارية، فأدخل على برامجها ومناهجها وموادّها وإدارتها جملة مِنَ الإصلاحات للارتقاء بمستواها العلمي والمعرفي وتخريج أجيال واعية متعلّمة تستطيع أنْ تضطلع برسالة الإصلاح، وتدافعُ الجمودَ والتّقليدَ والاستبدادَ والاستعمارَ، واستطاع أنْ يستقطب أخلاطا كثيرة مِنَ المتعلّمين مِنْ مختلف الطّوائف والأعراق والملل.

وفي بيروت درّس في الجامع الكبير أو في جامع الباشورة لا يلتزم في دروسه كتابا محدّدا، وإنّما يرتجل مِنْ فيض عقله وقلبه، فكان النّاس يُقبلون على منتدياته ومجالس دروسه إقبالا لا نظير له، حتّى ضمّ مجلسه النّصرانيّين إلى جانب المسلمين، وقال عنه الشّيخ سعيد الشّرتوني: "هذا الرّجل إذا تكلّم يخرج النّور مِنْ فيه"، وقال شكيب أرسلان: "إنّ مجلس الشّيخ كان يضمّ علماء السنّة ومجتهدي الشّيعة وعُقَّال الدّروز، وإلى جانبهم أساقفة النّصارى وأحبارهم مِنْ كلّ فريق، كما كان يضمّ بعض الملحدين أحيانا، إذْ وَجَدَ فيه الجميع مرجعا عامّا لسعة عقله وعلوّ إدراكه وإحاطة نظره".[2]

وبعد رجوعه مِنَ المنفى إلى مصر سنة 1888م، أراد أنْ يمارس التّربية والتّعليم بالتّدريس في دار العلوم، لكنّ الخديوي توفيق رفض طلبه خوفا مِنْ أنْ يربيّ الأجيال الجديدة على أفكاره التّحرّرية، فتحايل عليه بتعيينه قاضيا سنة 1889م، ووظّفه في محاكمها الأهلية؛ في بنها ثمّ الزّقازيق ثمّ عابْدين، ليُرَقَّ بعدها إلى منصب مستشار في محكمة الاستئناف سنة 1891م[3]، وقد روى محمّد رشيد رضا موقف شيخه مِنْ إبعاده عن التّعليم وامتعاضه مِنْ تعيينه في القضاء قائلا: "قال -محمّد عبدَه- إنّني خُلِقْت لأنْ أكون معلما لا لأنْ أكون قاضيا، وإنّني أعلم إذا دخلتُ القضاء أرتقي إلى أعلى درجاته، ومع هذا أختار أنْ أكون معلِّما في مدرسة دار العلوم على علمي بأنّه لا ارتقاء في صنعة التّعليم".[4]

بعدما اكتوى الشّيخ محمّد عبدَه بنار السّياسة التي نُفِيَ بسببها مِنْ مصر وحرمانه مِنْ تربية أهل بلده وتعليمهم، قرّر الرّجوع إلى مصر وتركيز جهوده في الإصلاح والابتعاد عن السّياسة ومتاعبها المعيقة عن الإصلاح التّربوي الذي سيمكّنه مِنْ تحقيق الإصلاح في المجالات الأخرى بما فيها الإصلاح السّياسي، والفرق بينهما -حسبه- أنّ الإصلاح التّربوي طريقُه طويل وآمن ومضمون النّتائج، أمّا الإصلاح السّياسي فطريقه قصير وغير آمن وغير مضمون النّتائج في تحقيق الأهداف المسطّرة، وبمسلكه الإصلاحيّ هذا يكون الشّيخ محمّد عبدَه قد خالف طريقة ومنهج أستاذه جمال الدّين الأفغانيّ في الإصلاح والتّغيير الذي كان كثيرا ما يؤنّبه عليه.

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص39، وينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج1، ص239.

[2] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص235و236.

[3] ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، المرجع السابق: ص40و41.

[4] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص108و109.

وكشاهد على ذلك؛ أنّ أستاذه الأفغانيّ غضب عليه وبعث إليه برسالة سنة 1892م يعنّفه فيها ويلومه على خوفه مِنَ الإنجليز، وعلى خوفه مِنْ ممارسة السّياسة، متّهما إياه بالجبن، وكان ممّا كتبه له فيها قوله: "كن فيلسوفا يرى العالم ألعوبة، ولا تكن صبيّا هلوعا".[1]

رابعا: تأسيسه للجمعيات الدّينية والاجتماعية والعلميــة

1- الجمعية الخيرية الإسلاميــة

كانت للشّيخ محمّد عبدَه نشاطات دينية وتربوية وعلمية واجتماعية مكثّفة؛ جعلته ينشئ ويشارك في تأسيس الجمعيات لتجسيد إصلاحاته وتسخيرها في خدمة مصر والأمّة الإسلامية.

فأسّس الجمعية الخيرية الإسلامية بمعية نفر مِنْ أصدقائه سنة 1892م، ثمّ ترأّسها سنة 1900م، ووضع لها نظاما، وجعل مِنْ أهمّ أهدافها ومقاصدها؛ نشر التّعليم وإعانة المنكوبين، وتربية المسلمين على التّعاون على الخير والاجتماع عليه، ودعوة الأغنياء إلى العطف والرّحمة بالفقراء والإحسان إليهم، وتربية أبناء الفقراء على العقيدة الإسلامية والأخلاق الفاضلة والأعمال الحسنة والاستعانة بها في تحصيل أرزاقهم، وقدّم مِنْ خلالها خدمات تربوية وتعليمية واجتماعية جليلة خالدة للفقراء والفئات المعوزة، كتفسيره جزء عمّ لطلّاب المدارس التّابعة للجمعية، ومع مرور الوقت صار لها دخل محترم، وأصبحت تتربّع على مساحة كبيرة حتّى بلغت عدد مدارسها سبعا.[2]

والذي دعا الشّيخ محمّد عبدَه إلى تأسيس هذه الجمعية؛ أنّه رأى مشعوذا روسيا في مصر يخصّص جزءً مِنْ دخل الحفلات التي ينظّمها لفقراء البلد، في مقابل انعدام جمعية خاصة بالمسلمين، فأنشأها وقدّم مِنْ خلالها خدمات نافعة للفقراء والمعوزين، فازدادت مداخيلها وانتشرت وتوسّعت أكثر، وبدأت تحاك ضدّها المؤامرات لإيقافها، فقد وشى بها الحاقدون إلى سلطة الاحتلال البريطاني وروّجوا أكذوبة أنّ الجمعية تقدّم الدّعم المالي لثورة المهدي في السّودان، ففتّشت سلطات الاحتلال مقرّها، واتّصل الشّيخ محمّد عبدَه بكرومر وأقنعه بأنّه لا علاقة للجمعية بالسّياسة وأنّه مستعد لأيّ إجراء إذا ثبت خلاف ذلك، ومنذ ذلك الحين وكرومر يدعم الجمعية ويدفع لها إعانة سنوية.[3]

لقد بادر الشّيخ محمّد عبدَه إلى القيام بكلّ ما يخدم دينه ووطنه وأمّته في شتّى المجالات الدّينية والتّربوية والاجتماعية، واستعمل في ذلك كلّ الوسائل المشروعة، وسعى لخدمة الفئات المعوزة والمحرومة بإنشائه للجمعية الخيرية الإسلامية لتربية وتعليم أولاد الفقراء، بالاستفادة مِنْ تجارب الأجانب في تأسيس الجمعية، التي جعلها واقيا لأبناء الفقراء مِنْ أنْ تستدرجهم جهات مشبوهة، وتستغلّ حاجاتهم وضعفهم وتقودهم إلى الانحراف والتّيه والضّلال، فقدّم لهم العون المادي وربّاهم على مبادئ الإسلام وعلّمهم أمور دينهم وزوّدهم بالعلوم والمعارف حتّى يكونوا صالحين في المجتمع.

---

[1] محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص41.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص731، ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج1، ص238.

[3] ينظر: غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص49و50.

2- جمعية إحياء الكتب العربيـة

أسّس الشّيخ محمّد عبدَه سنة 1900م جمعية إحياء العلوم العربية التي تولّت نشر وتحقيق الآثار والتّراث الفكري العربي الإسلامي، واستحضر مِنْ خلالها الآثار الفكرية والمخطوطات، ونسخها وراسل الملوك والسّلاطين والقضاة لتمكينه منها حتّى يقابل النّسخ ببعضها ويباشر تحقيقها وشرحها والتّعليق عليها بنفسه، وبذلك يكون قد أسّس لعمل أكاديميّ رصين في هذا المجال لبعث التّراث الفكري الإسلامي وتمكين الباحثين منها لدراستها وتنوير الأمّة بها.[1]

لقد قدّم خدمة جليلة للمكتبة المصرية بتأسيسه لهذه الجمعية، وبعثه لبعض أمّهات الكتب المغمورة المهمّة للاستفادة منها والإفادة بها بطبعه كتاب المخصّص لابن سيّده في اللّغة وتصحيحه بمعية الشّيخ محمّد محمود الشّنقيطي[2]، كما جمع كتبا أخرى ونسخها وطبعها وقام بتوزيعها لخدمة علوم اللّغة العربية والشّريعة معا[3]، كما قامت الجمعية بإحياء مدوّنة الإمام مالك، مِنْ خلال استحضار الشّيخ محمّد عبدَه واستقدامه إلى مصر نسخا منها مِنْ تونس وفاس بالمغرب الأقصى.[4]

كما أسهم بالجمعية في تحقيق ونشر آثار التّراث العربي الإسلامي المهمّ، ومشاركته في استحضار المخطوطات، واستكمال نسخها، ومراسلة الملوك والسّلاطين والقضاة في ذلك، ومقابلة النّسخ المخطوطة والشّرح والتّعليق عليها، كما وجّه مِنْ خلالها إلى الاهتمام بفقه المقاصد في تراثنا الفقهي.[5]

لم تتوقف جهود الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية عند التّربية والتّعليم والخدمات الاجتماعية، وإنّما قام بإحياء كلّ ما يعينه على تربية الأمّة صغيرها وكبيرها، خاصّتها وعامّتها، في مختلف العلوم والمعارف والتّخصّصات، بجمعه للكتب وتحقيقها وطبعها، لتربية الأمّة على التّعامل معها بالقراءة والبحث للتّخلّص مِنَ التّلقين والتّقليد، وتعويدها على الاعتماد على نفسها في تكوين شخصيتها، وعدم الرّكون للغير والاستسلام له، وتركه يشكّلها كيفما شاء، فالأمّة التي لا تقرأ هي في حكم الأموات.

3- جمعية التّأليف والتّقريب بين المسلمين والكتابيّين[6]

بعودة الشّيخ محمّد عبدَه سنة 1885م مِنْ فرنسا إلى بيروت خلال فترة منفاه، وإيقاف جمعية العروة الوثقى، تسرّب اليأس إلى نفسه بعدم جدوى العمل السّياسي والثّوري، وعزم على التّفرّغ

---

(1) ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص43 و44.

(2) **محمّد محمود الشّنقيطي(ت1904م):** علّامة عصره في اللّغة والأدب والشّعر، ولد بموريتانيا وانتقل إلى مصر وأقام بها، ورحل إلى مكّة واتّصل بأميرها الشّريف عبد الله فأكرمه، وانتدبته حكومة الأستانة أيام السّلطان عبد الحميد الثّاني إلى إسبانيا للاطّلاع على المخطوطات العربية وإعلامها بما ليس منه في مكتباتها، ثمّ سافر إلى المدينة ومنها رحل إلى مصر ونزل عند محمّد توفيق البكري فأكرمه، واستعان به على تأليف كتابه: أراجيز العرب الذي نسبه إلى نفسه، فغضب منه الشّنقيطي وفارقه، واتصل بالشّيخ محمّد عبدَه الذي سعى له بمرتّب مِنَ الأوقاف، واستقرّ بالقاهرة وتوفّي بها، مِنْ كتبه: الحماسة السّنّية في الرّحلة العلمية وأرجوزة: عذب المنهل وإحقاق الحقّ، وصحّح بعض الأوهام الواقعة في الطبعة البولاقية مِنَ الأغاني، التي نشرت في كتاب: تصحيح الأغاني، ينظر: الزّركلي، الأعلام، ج7، ص89و90.

(3) ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج1، ص238،

(4) ينظر: غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص51.

(5) ينظر: محمّد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص31.

(6) سمّى محمّد رشيد رضا الجمعية اختصارا بجمعية التّأليف والتّقريب، ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج1، ص819.

للتّربية والتّعليم والتّجديد الدّيني، وأسّس جمعية سياسية دينية باسم جمعية التّقارب بين الأديان[1]، للتّقريب بين الأديان السّماوية الثّلاثة وإزالة الشّقاق بين أهلها، وإحلال التّعاون بدل الفُرقة والخصام، والدّعوة إلى الإسلام والتّعريف بحقائقه والتّعاون على إزالة اضطهاد أوروبا للشّرق والمسلمين[2]، والتّبشير بالأخذ بما تتّفق عليه الأديان الثّلاثة، وترك ما يفرّق بين شعوبها، والدّعوة إلى الحرية الدّينية وعدم التّعصّب في الدّين، ووضع الكتب التي تتكلّم عن الأديان الثّلاثة بالخير، لكنّ الجمعية لم تعش طويلا وانحلّت شيئا فشيئا وتفرّق مؤسّسوها، وعاد الشّيخ محمّد عبدَه إلى مصر.[3]

لقد كان الشّيخ محمّد عبدَه سبّاقا إلى تطبيق مبدأ الحوار بين الثّقافات بتأسيسه للجمعية[4]، وإشاعته بين أصحاب الدّيانات الذين كانت الصّراعات بينهم على أشدّها، فأنشأها واشترك معه في تأسيسها وَوَضْعِ نظامها ميرزا باقر[5] بعدما التقى بالشّيخ في بيروت وأقنعه بذلك وأطلقا عليها اسم جمعية التّأليف والتّقريب[6]، وقد انتسب إلى الجمعية خليط مِنَ المسلمين أمثال: بيرزاده، وعارف أبي تراب تابع جمال الدّين الأفغانيّ، وجمال بك نجل رامز بك القاضي التّركي ببيروت، ومؤيّد الملك أحد وزراء إيران، وحسن خان مستشار السّفارة الإيرانية بإسطنبول، ومِنَ النّصارى القس إسحاق تيلر، والمفتش جي دبليو لينتر الإنجليزيان، ومِنَ اليهود الدّكتور شمعون مويال في يافا.[7]

شارك في هذه الجمعية عدد مِنْ أتباع الدّيانات الثّلاث، على اعتبار أنّ أصولها حقّ، وأنّ الإسلام جاء ليقرّب بين المسلمين وأهل الكتاب كما في قوله تعالى:﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة آل عمران][8]، وأساس دعوة الشّيخ محمّد عبدَه إلى التّقارب بين الأديان؛ أنّ القرآن الكريم صرّح بأنّ الإسلام دين الله الواحد في جميع الأزمان وعلى ألسن جميع الأنبياء، ثمّ استشهد بقوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ ﴿١٩﴾﴾[سورة آل عمران][9]، لذلك دعا أهل الدّيانات الأخرى إلى الانصهار في دين الإسلام والتّديّن به وتوحيد الله تعالى واتّباع شريعته والعمل بأحكامه ومعاملاته والتّحلّي بالأخلاق

---

(1) ينظر: محمّد عمارة، مسلمون ثوار، مرجع سابق: ص443.

(2) ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص819، وينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق: ج3، ص78.

(3) ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص241و242.

(4) ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص25.

(5) **ميرزا باقر:** هو الأمين العام للجمعية، وهو إيراني مسلم تنصّر وصار داعية للنّصرانية، ولمّا زار الشّيخ محمّد عبدَه إنجلترا محتجا على احتلالها لمصر، كان مترجمه أمام المسؤولين الإنجليز، وحدث أنِ التقى بجمال الدّين الأفغاني في ثغر بدشير في الخليج الفارسي، ودعاه إلى النّصرانية، فجادله جمال الدّين الأفغانيّ ولمّا طعن في النّبي ﷺ غضب منه الأفغاني وأمر رفقاءه بضربه، وأرادوا إحراق بيته، ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، ص24، وينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، ج1، ص238.

(6) ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، المرجع السابق: ص241.

(7) ينظر: غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، المرجع السابق: ص24.

(8) ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السابق: ج1، ص936، وينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص36.

(9) ينظر: محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، مصدر سابق: ص145.

الفاضلة، وبيّن بأنّ فكرة تقارب المسلمين مع أهل الكتاب، تكمن في أنّهما يخرجان مِنْ مشكاة واحدة باعتبار المصدر الربّاني قبل التّحريف فقال: "إنّ القرآن وهو منبع الدّين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتّى يظنّ المتأمّل فيه أنّهم لا يختلفون عنهم إلّا في بعض أحكام قليلة".[1]

وكتب المفتّش الإنجليزي النّصراني جي دبليو لينتر مقالا في جريدة التّلغراف اللّندنية سنة 1888م، صحّح فيه جملة مِنَ المفاهيم المغلوطة الشّائعة بين أهل ملّته ودافع عن الإسلام والمسلمين، ودعا إلى التّوفيق بين الإسلام والنّصرانية واعتبرهما أختين مِنْ أمّ واحدة، وذكر بأنّ الحرّية الدّينية تعني عدم العصبية في الدّين، وأنّه يجب على الإنجليز أن يَهَبُوا للمسلمين الدّين والدّنيا معا، كما دعا إلى الاتّحاد بين الإسلام والنّصرانية دينيّا وسياسيّا؛ لنظرة المسلمين القديمة للإنجليز على أنّهم النّاصر الطّبيعي للعالم الإسلامي، وللمودّة القديمة التي يكنّها الإنجليز للعثمانيّين، وطلب مِنْ دولته تدريب الشبّان المسلمين في مدارسها الحربية، ولكنّه كان يقصد مِنْ وراء دعوته إلى التّقارب بين الأديان؛ خدمة دولته وجعل المسلمين خاضعين لها لإيقاعهم في حبائلها، وقد استمرّ الشّيخ محمّد عبدَه يدعو إلى التّقارب بين الأديان في مصر باستضافته للأمريكي خريستفورس جبارة الدّاعي إلى توحيد الأديان.[2]

ويَعْتبرُ الشّيخ محمّد عبدَه القس تيلر -رئيس إحدى الكنائس في إنجلترا- رجلا منصفا لقوله عن الإسلام: "إنّه يميد في إفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار فالكرم والعفاف والنّجدة مِنْ آثاره، والشّجاعة والإقدام مِنْ أنصاره"، ويأسف كثيرا على السُّكْر والفُحش والقِمار الذي انتشر بين السّكان بانتشار دعوة المبشّرين بينهم، وقال: "إنّه يختار إسلاما لا سُكْرَ فيه على مسيحية فيها سُكْر"[3]، وذكر الشّيخ محمّد عبدَه بأنّ اليهودية والنّصرانية والإسلام تبدو في بعض النّواحي كأنّها أغصان تفرّعت عن دوحة واحدة هي الدّين الحقّ، وإنَّ تفرّعها لا يضرّ بوحدة نوعها، ولكنّ الإسلام جمع أصول هذه الأديان جميعا، ولهذا هو الأفضل للإنسانية إذا أرادت بلوغ ذروة الكمال الأعلى مِنَ الإيمان.[4]

لقد دعا الشّيخ محمّد عبدَه إلى التّقارب بين الدّيانات السّماوية الثّلاث باعتبار مصدرها الربّاني الواحد، وأنّ اختلافها لا يضرّ بالإسلام الذي يدعو إلى توحيد الله تعالى ويجمع أصولها، فهذا يدلّ على أفضليته عليها، وكماله ونقصانها، فهو الأجدر بالاتّباع والاعتقاد لأنّه يقود الإنسانية إلى الكمال، فاليهوديةُ تدعو إلى المادّيةِ، والنّصرانيةُ تدعو إلى الرّوحانيةِ، والإسلامُ يوازن بينهما، لذا دعا إلى التّقارب بينها، حتّى يتدرّج بالمنضوين تحت الجمعية إلى التّقرب مِنَ الإسلام ومعرفة حقيقته والدّخول فيه، وجَعلَها وسيلته في الدّعوة إلى الإسلام لاعتقاده بأنّ الغلبة ستكون للمسلمين الذين هم على الحقّ، إذا كان لهم دعاة أكْفاء يحسنون تبليغ حقائقه، ويدعون أهل الملل الأخرى للدّخول فيه وإنقاذهم مِنَ الضّلال، فعاب عليه الكثير مِنَ العلماء المسلمين ومفكّريهم هذه الدّعوة، وخَطَّأُوهُ في إنشاء الجمعية،

---

[1] غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، ص35، وينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، ص36.

[2] ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، ص25 -27.

[3] محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، مصدر سابق: ص60.

[4] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتجديد في مصر، مرجع سابق: ص168.

لأنّها صارت مطيّة لهيئات ودول حاقدة على الإسلام تجاهر بمعاداتها له، بدليل الواقع الأليم الذي لا يخلو مِنَ الهجمات الشّرسة على الإسلام والمسلمين مِنَ الغرب الصّليبي والصّهيونية العالمية.

إنّ الرّسول ﷺ أجلى اليهود عن المدينة بعد أنْ جاورهم بها طويلا، ودعاهم إلى الإسلام ولم يدعهم للتّوفيق بينه وبين اليهودية أو التّقريب بينهما، ولو علم خيرا في ذلك لفعله، كما حاجّ الرّسول ﷺ وفد نجران في النّصرانية ودعاهم إلى الإسلام ولم يدع إلى التّوفيق بينه وبين النّصرانية لقوله تعالى:﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[سورة آل عمران]، فالأحرى به أنْ يدعو أهل الكتاب إلى الكلمة السّواء امتثالا لأمر الله تعالى ولأمر رسوله ﷺ، وكان الأَوْلَى بالأوروبيّين الدّاعين إلى توحيد الأديان وتقاربها أنْ يدعوا أتباعهم إلى نبذ التّعصب والحقد والكراهية ضدّ الإسلام والمسلمين.[1]

وفكرة التّقارب بين الأديان لا تتحقّق إلاّ بتوقّف أهل الكتاب عن تشويه الإسلام والمسلمين وانتهاك مقدّساتهم في الميدان وفي وسائل إعلامهم وكتبهم ومؤسّساتهم ومنظّماتهم، وبالكفّ عن استغلال خيرات المسلمين وتخريب بلدانهم، فإذا انتهوا عن ذلك، حقّقوا التّقارب وخدموا الشّرائع الثّلاثة، وبذلك سيكسبون وُدَّ المسلمين الذين هم أكثر ضحايا العالم، وأرخص الدّماء والأرواح فيه.

4- عضويته في جمعية العروة الوثقى

يعدّ الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ أهمّ الشّخصيات المحورية الفاعلة في جمعية العروة الوثقى، فهو أحد مؤسّسيها ومنظّريها ومراجعها ونشطائها وكاتب مراسلاتها، وأبرز المنسّقين بين فروعها في أقطار العالم العربي والإسلامي، ولتسيير شؤونها كان يسافر في السرّ والعلن ويجول بين الأقطار ويدخل بعضها سرّا كما حصل معه لمّا منفيا عن مصر أثناء إقامته في فرنسا.

وسبب إنشاء هذه الجمعية هو احتلال الإنجليز لمصر التي يعتبرها الأفغاني باب الحرمين الشّريفين، ويَعدُّها القطر المتقدّم والمؤهَّل لأنْ يكون النّموذج الذي يُحتذى به، لذلك فكّر في إنشائها لإيقاظ العقلاء لتنظيم أنفسهم ودراسة سرّ تخلّفهم خصوصا في مصر والهند، وبحث وسائل التّقدم والنّجاح، فلم يجد أفضل مِنْ إحياء الأُخوَّة الإسلامية وتوحيد الكلمة وضمّ الصّفوف لمقاومة الاستعمار، وأخذت قيادتها في أوروبّا تلتقي بالعلماء والمفكّرين المناضلين ضدّه، وتلتقي بالتّيارات التي تتعارض مصالحها معه، وأخذت تتحالف مع الحركات الاجتماعية وكلّ القوى المعادية له وللاستغلال والمناضلة ضدّه، وعقدت صلات مع الأوروبّيّين الذين يحبّون العدالة والحرّية ويناضلون مِنْ أجلها، منتهجة في ذلك السرّية بسبب الحصار الذي فرضه عليها الاستعمار الأوروبي.[2]

وقد كان الشّيخ محمّد عبدَه يكتب المراسلات السّرية لقادة فروعها في الأقطار، ويكتب التّقارير المفصّلة حول ما يجري داخل فروعها للرّئيس جمال الدّين الأفغاني لاتّقاء مؤامرات الاستعمار وعملائه.

---

[1] ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص28.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ، مرجع سابق: ص252- 255.

ومِنَ المراسلات التي كتبها إلى قيادة الجمعية بالخارج، تلك التي قدّم فيها تقاريره واستشاراته ونشاطاته في مصر، وما كان يجري داخل فروعها؛ مِنِ انتخابٍ لرئيسها، وكيفية ممارسة المسؤوليات داخلها، وكيف تتمّ مناقشة المسائل المعروضة والأحداث والمستجدّات الطّارئة؛ مِنْ عضوية للعناصر الجدد وما فيها مِنْ بيانات تفصيلية حول أسمائهم وألقابهم وبلدان إقامتهم وإمكاناتهم وشروط قبولهم وغيرها مِنَ المهامّ المحدّدة في النّظام الدّاخلي للجمعية[1]، كما باشر قيادة عمل الجمعية عند دخوله مصر سرّا سنة 1884م أثناء اشتداد ثورة المهدي بالسّودان، وكتابته لعدد مِنَ الرّسائل إلى فروعها.[2]

وقد علّق أحد النّاقدين في سياق الطّعن في جمعية العروة الوثقى، بأنّ الشّيخين جمال الدّين الأفغانيّ ومحمّد عبدَه وضعا لها نظاما يضاهي نظام الماسونية متأسّين بسياستها ونظامها.[3]

وبعد سنوات مِنْ توقّف جريدة العروة الوثقى ضعفت الجمعية وتفكّكت، لكنّ روحها مازالت حيّة متّقدة في نفوس الذين ارتبطوا بها وكانوا قادة وأعضاء فيها، بدليل أنّ الكثيرين منهم صاروا قادة لأحزاب وجمعيات وحركات فكرية وسياسية وقادة للثّورات تناضل وتقاوم الاستعمار الأوروبي، وكمثال على ذلك أنّ سعد زغلول وهو مِنْ قادتها، قاد ثورة الشّعب المصري سنة 1919م ضدّ الاستعمار البريطاني، والأمير عبد القادر الجزائري الذي كان عضوا فيها قاد المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي، وحسين الجسر في لبنان، وسليمان الكيلاني في العراق وغيرهم.[4]

خامسا: انضمامه إلى المحفل الماسوني بمصر

مِنَ النّشاطات السّياسية التي أثارت حول الشّيخ محمّد عبدَه لغطا كبيرا؛ انخراطه في الماسونية هذا التّنظيم السّياسي السّري الذي أنشأه أستاذه جمال الدّين الأفغانيّ في مصر، والذي كان حسن السُّمعة بالنّسبة إليه، لِمَا قام به مِنْ أدوار طيّبة في أوروبا ضد استبداد الأباطرة وسلطة البابوات، ولإبعاده نفوذ الكنيسة عن دوائر البحث العلمي، ولسعيه إلى تجسيد الدّيمقراطية وتقرير مصير الشّعوب المستعمرة مِنْ قِبَل دوائر الاستكبار العالمية، بالإضافة إلى رفعه لشعار الثّورة الفرنسية؛ الحرّية والمساواة والإخاء، فكلّ هذه الأدبيّات والمواقف السّياسية البارزة التي كانت تتبنّاها الماسونية وتدافع عنها، لم تكن لقياداتها اليهودية أثر في قضايا الشّرق العربي المصيرية، ولم تكن الصّهيونية الحديثة قد ظهرت حينئذ، ولم تكن نوايا اليهود تجاه القضية الفلسطينية قد تكشّفت بعد، حينها خاب أمله فيها مع أستاذه خصوصا عندما تحقّقا مِنْ مهادنتها للاستبداد، وصلاتها بالنّفوذ الإنجليزي.[5]

إنّ انضمام الشّيخ محمّد عبدَه إلى المحفل الماسوني بمصر جعله يتعرّض لانتقادات لاذعة ويُتَّهم بالعمالة وبالمروق مِنَ الدّين والتّعاون مع أعداء الإسلام، فقد قال أحد علماء الأزهر الفلسطيني الأصل الشّيخ يوسف النّبهاني: "إنّ الماسونية والاستعمار قد نجحا في تدعيم الزّعامة الفكرية والدّينية للأفغانيّ ومحمّد عبدَه في المجتمع الإسلامي كلّه، وفي إضعاف أثر أعدائهما الكثيري العدد مِنْ علماء

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ، مرجع سابق: ص261و262.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص35.

[3] ينظر: محمّد محمّد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، دار الفرقان، (د ط)، (د ت)، ص79.

[4] ينظر: محمّد عمارة، الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ، المرجع السابق: ص281و282.

[5] ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، المرجع السابق: ص30.

الإسلام المعاصرين، وحجب ما كتبوه عن جمهور القرّاء"[1] ، وقال أيضا: "وممّا لا يختلف فيه أحد أنّه كان هو وشيخه الشّيخ جمال الدّين الأفغانيّ داخلين في الجمعية الماسونية، وهي لا تجتمع مع الدّين بوجه مِنَ الوجوه، بل هي ترفض الأديان كلّها، وهي ضدّ السّلطات كلّها الدّينية وغيرها، فكيف يمكن أنْ يكون قدوة في دين الإسلام مع كونه ماسونيًّا".[2]

سادسا: ممارسته للإصلاح الاجتماعي والتّربوي:

لمّا عاد الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ منفاه ببيروت إلى مصر تعمّد أنْ يسكن بالقرب مِنْ قصر عابْدين الذي يقيم فيه الخديوي توفيق، ولمّا سأله صديقه عبد العزيز أفندي سلطان طرابلسي عن سرّ اختياره لهذا المكان قال له: "حتّى نناطح عابْدين مناطحة"، ونظرا لسوء علاقته بالخديوي، أخذ يوطّد علاقته باللّورد كرومر وقدّم له لائحة مكتوبة تتضمّن إصلاح التّربية والتّعليم بمصر.[3]

وغرض الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ كلامه هذا مواصلة إصلاحاته في المجال التّربوي وعدم الرّكون للمعرقلين له عن أداء واجبه الشّرعي في الإصلاح، حتّى ولو كان الذي يمنعه مِنْ ذلك الخديوي نفسه، فاتّبع استراتيجية مدروسة وحيلة ذكية تمثّلت في الإقامة بالقرب مِنْ كرومر ونسج علاقة وطيدة معه حتّى يدعمه ويتوسّط له لدى الخديوي ويسمح له بمواصلة إصلاحاته لإحياء أمّته والنّهوض بها.

حينما تولّى الخديوي عبّاس الثّاني السّلطة كان على وفاق مع الشّيخ محمّد عبدَه في بداية حكمه، واستطاع أنْ يقنعه بمساندته لإصلاح المؤسّسات التّعليمية والتّربوية والاجتماعية الثّلاث؛ الأزهر والأوقاف والمحاكم الشّرعية، لكنّ ذلك الوفاق لم يدم طويلا -مِنْ 1902م إلى غاية وفاة الشّيخ محمّد عبدَه-، حيث انتهى بالعداء بينهما بسبب مطامع الخديوي في استبدال أراضيه بأراضي الوقف الجيّدة، وعرقلته إصلاح الأزهر، وما زاد الطّين بلّة هو مهادنةُ الشّيخ محمّد عبدَه لكرومر، فركّز على إصلاح التّربية والتّعليم وإصلاح الأزهر والأوقاف والمحاكم الشّرعية وابتعد عن السّياسة، وهي المواقف التي رحّب بها الإنجليز، لكونها تساعدهم وتوفّر لهم الهدوء والأمن والاستقرار في مصر.[4]

سابعا: كتابته في الصّحف المصرية والعربيـة

كتب الشّيخ محمّد عبدَه في العديد مِنَ الجرائد المصرية والعربية، منها تقريضه ومقالاته في جريدة الأهرام، ونشره للكثير مِنَ المقالات في جريدة الوقائع المصرية لمّا كان رئيس تحريرها، والتي عالج فيها القضايا المصرية الشّائكة في مختلف المجالات خصوصا ما تعلّق بالإصلاح التّربوي والتّعليمي، كما عمل رئيسا لتحرير جريدة العروة الوثقى -لسان حال جمعية العروة الوثقى- التي ترأّسها أستاذه جمال الدّين الأفغانيّ، كما نشر له تلميذه محمّد رشيد رضا تفسيره على صفحات مجلّة المنار.

خلال تواجد الشّيخ محمّد عبدَه في منفاه ببيروت، قام بنشاط تربوي وفكريّ وثقافي وسياسي دؤوب، فكتب بعض المقالات الاجتماعية في مجلّة ثمرات الفنون، كما كتب في المجال التّربوي عدّة

---

[1] محمّد حامد النّاصر، العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التّغريب، مرجع سابق: ص72.

[2] محمّد محمّد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، مرجع سابق: ص90.

[3] ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص40.

[4] ينظر: المرجع نفسه: ص42 و43.

لوائح لإصلاح التّعليم، كلائحة إصلاح التّربية في مصر، ولائحة إصلاح التّعليم العثماني، وكتب في السّياسية مقالات عديدة منها: مصر والمحاكم الأهلية، ومصر وجريدة الجنّة وغيرها.[1]

وقد لخّص جرجي زيدان تلك النّشاطات والمهام الكثيرة التي كان يقوم بها الشّيخ محمّد عبدَه بقوله: "وبالجملة فقد كان كنز فوائد للقريب والبعيد بين إفتاء ومشورة، وإحسان وكتابة، ومداولة ووعظ، وخطابة ومباحثة، ومناظرة واستنهاض، وتحريض وتنشيط".[2]

ثامنا: استحداثه مجالس تفسير القرآن الكريم في الأزهر وفي غيـره

خلال تواجد الشّيخ محمّد عبدَه في المنفى ببيروت ألقى دروسه في منزله في السّيرة النّبوية، كما كان يلقي دروسا في التّفسير في الجامع الكبير لا يلتزم كتابا بعينه وإنّما كان يقرأ في المصحف ويفسّر[3]، وفي مصر في الستّ سنوات الأخيرة مِنْ حياته، كان يركّز على تدريس تفسير كتاب الله مِنْ خلال دروس يقدّمها في الجامع الأزهر إلى غاية وفاته سنة 1905م، فقد فسّر القرآن الكريم مِنْ أوّله إلى الآية 125 مِنْ سورة النّساء، وكان تلميذه محمّد رشيد رضا يدوّن تفسيره بعد أنْ يراجعه فيه، ثمّ ينشره في مجلّة المنار، وبقي ينشر فيها شهريا حتّى عددها الخامس مِنَ السّنة الخامسة سنة 1912م.[4]

المطلب الخامس: شهادات عنه ومواقف منه ووفاته:

لقد كان لكثير مِنَ العلماء والمفكّرين والمؤرّخين والسّاسة المسلمين وغير المسلمين ردود فعل ومواقف وشهادات حول جهود وأفكار ومواقف الشّيخ محمّد عبدَه خلال مسيرته الإصلاحية، دوّنوها في كتاباتهم، فكانت متباينة بين المدح والذمّ والحبّ والكره له، ومع ذلك لا يفتأون يذكرون له مكانته العالية وعلمه الوافر وشخصيته الجذّابة، وعزّه الشّامخ وجاهه السّاطع وحرمته الموفورة؛ "فالشّيخ محمّد عبدَه كان له خصومه يكرهونه ويكيدون له ويضعون له العقبات في سبيل إصلاحه، ولكنّ أحدا لم يكن يستطيع أنْ يغضَّ مِنْ جلال الشّيخ أو ينكر عليه منزلته الرّفيعة في النّفوس".[5]

إنّ عمل الإنسان مهما كانَ فهو نسبيٌّ يعتريه النّقص والخلل، فالكمال لله تعالى، وإصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه لا تخرج عمّا رواه ابن عبّاس رضي الله عنهما رفعه قال: «**لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيَدَعُ غَيْرَ النَّبِيِّ ﷺ**»[رواه الطّبراني][6]، وفي هذا المطلب سأورد جملة مِنَ الشّهادات والمواقف الموافِقَةِ والمعَارِضَة لأفكار وآراء الشّيخ محمّد عبدَه في فرعَيْن، ليُختم المطلب بفرع ثالث حول ظروف وفاته والتحاقه بالرّفيق الأعلى.

---

(1) ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمد عبده مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص37.

(2) جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، مرجع سابق: ج1، ص324.

(3) ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج1، ص238،

(4) ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، المرجع السابق: ص40.

(5) جمال الدّين الأفغاني ومحمّد عبدَه، العروة الوثقى، مصدر سابق: ص28.

(6) سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللّخمي الشّامي، أبو القاسم الطّبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السّلفي دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط2، (د ت)، ج11، ص339، حديث رقم: 11941.

الفرع الأوّل: الموافقون على فكر الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحي

أوّلا: جمال الدّين الأفغانـــي(1839-1897م)[1]

لمّا أُبعد جمال الدّين الأفغاني عن مصر، قال في الشّيخ محمّد عبدَه يوم وداعه لبعض خاصّته سنة 1879م: "لقد تركت لكم الشّيخ محمّد عبدَه، وكفى به لمصر عالما"[2]، وقال فيه أيضا قبل أنْ يغادر أرض مصر: "إنّي تركت في أرض مصر الشّيخ محمّد عبدَه يُتِمُّ ما بدأت به"[3]، وقال فيه وهو يغادر مصر: "إنّني تركت في مصر الشّيخ محمّد عبدَه وكفى، إنّه لمصر أقوى مِنْ أسطول وأعزّ مِنْ جيش"، وقال لمَنْ سأله وصيّته قبل مفارقته مصر: "حسبكم محمّد عبدَه مِنْ وصيٍّ أمين"، ويروي محمّد باشا المخزومي عن الأفغاني قوله في أخريات أيامه بالأستانة: "مصر أحبّ البلاد إليّ، وقد تركتُ لها في الشّيخ محمّد عبدَه طودا مِنَ العلم الرّاسخ وعرمرما مِنَ الحكمة والشّمم وعلوّ الهمم"، وقد سأل عبد الله النّديم جمال الدّين الأفغاني والغِيرة تحرّكه: لماذا تُكْثِرُ مِنْ ذِكرِ الشّيخ محمّد عبدَه والثّناء عليه وتناديه مِنْ دوننا جميعا بقولك: صديقي الشّيخ، فأجابه قائلا: "وأنت يا عبد الله صديقي، ولكن الفرق بينك وبين الشّيخ، أنّه كان صديقي على الضرّاء، وأنت صديقي على السّراء"[4]، ووصف الأفغاني محمّد عبدَه بقوله: "إنّه اعتدال في السّياسة وثورة في الفكر الدّيني".[5]

إنّ جمال الدّين الأفغاني المعروف بفكره الثّوري وبشجاعته في مواجهة المخالفين لمنهجه الإصلاحي، وكذا بحدّة انتقاده وعدم محاباته للعملاء والجبناء مِنَ المقرّبين منه أو مِنْ أعدائه؛ أصدر تلك الشّهادات حول الشّيخ محمّد عبدَه، والتي كانت بمثابة تزكية وتشجيع له على مواصلة مسلكه الإصلاحي، وإنْ كان يتحفّظ على بعضها ويُغلظ له الكلام ويتّهمه بالجبن لعدم خوضه في السّياسة.

---

[1] **جمال الدّين الأفغاني(1254-1315هـ/1838-1897م):** فيلسوف الإسلام في عصره، وأحد الرّجال الذين أسهموا في نهضة الشّرق، ولد في أسعد آباد بأفغانستان ونشأ بكابل، وتلقى العلوم العقلية والنّقلية، وبرع في الرياضيات، انتظم في سلك رجال الحكومة في عهد دوست محمّد خان بكابل، ثمّ رحل إلى الأستانة وجُعل فيها مِنْ أعضاء مجلس المعارف، ونُفي منها، وقصد مصر سنة 1869م، ونفخ فيها روح النّهضة الإصلاحية في الدّين والسياسة، وتتلمذ على يديه الشّيخ محمّد عبدَه وكثيرون، كان يكتب في جريدة مصر بتوقيع مظهر بن وضّاح، وكان توقيعه بعد ذلك على بعض منشوراته بالسيّد الحسيني أو السيّد، نفته الحكومة المصرية سنة 1879م فرحل إلى حيدر آباد ثمّ إلى باريس وأنشأ فيها مع الشّيخ محمّد عبدَه جريدة العروة الوثقى، ورحل إلى روسيا وإيران ومنها إلى أوروبا ونزل بلندن حتّى دعاه السّلطان عبد الحميد إلى الأستانة، مرض بالسّرطان في فكّه، ويقال دُسَّ له السمّ، وتوفي بها ونُقل رفاته إلى أفغانستان سنة 1922م، كان فصيحا باللغة العربية وعارفا باللغات الأفغانية والفارسية والتركية والعبرية، والفرنسية والإنجليزية والروسية، وكان واسع الاطّلاع على العلوم القديمة والحديثة، مِنْ مؤلّفاته: تاريخ الأفغان، رسالة الردّ على الدّهريّين -ترجمها الشّيخ محمّد عبدَه إلى العربية، ينظر: الزّركلي، الأعلام، ج6، ص168و 169.

[2] محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق: ج3، ص69، وينظر: جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، مرجع سابق: ج1، ص322، وينظر: عبد الله مبروك النجار، فتاوى الإمام محمّد عبدَه دراسة فقهية تأصيلية، مرجع سابق: ص501، وينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص20.

[3] محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، المرجع السابق: ج3، ص77.

[4] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص178و179.

[5] صلاح زكي أحمد، أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، مرجع سابق: ص63.

ثانيا: شكيب أرســلان(1869- 1945 أو1946م)[1]

قال شكيب أرسلان في الشّيخ محمّد عبدَه: "أستاذنا فريد عصره، ووحيد مصره، حجّة الإسلام الشّيخ محمّد عبدَه، أكرم الله مثواه...رأيتُ في فهمه العقيدة الإسلامية الشّكل الوحيد الذي يرجى أنْ ينهض بالإسلام بعد أنْ آل إلى هذه الحال، وأنْ يُقيل عِثاره بعد أنْ ظنّ ضعفاء العقول أنّ عثرته لا تقال...وبينما كان بعض حسّاده يتّهمونه بمماشاة الدّولة المحتلّة ومواثقة اللّورد كرومر كان يكتب إليّ قائلا: (الأحوال هي ممّا يتعاظم له الألم، ويعجز عن وصفه القلم)...وما زال شأنه يعلو، وحقيقته تظهر، وجوهره ينجلي بالحكّ، وعقيدة فضله تتمحّص مِنَ الشكّ، إلى أنْ اتّفق النّاس على كونه أحد أفذاذ الشّرق الذين قلّما جاد بهم الدّهر، وواسطة عقد المصلحين المجدّدين في هذا العصر، وظهر أنّ طريقته الإسلامية العصرية ستزداد مع توالي الأيام انتشارا، وتكون هي طريقة المستقبل ومعوّل الآتي، ولقد كان جامعا بين العلم والعمل، فلا تجد ما يساوي فضله وبلاغته وثقوب أفكاره، وقوّة مَلَكَتِه في الفلسفة، سوى علوّ مباديه، وبُعْدُ همّته، وغزارة مروءته، وطهارة أخلاقه، وهيهات أنْ يأتي الزّمان بمثله).[2]

---

[1] **شكيب أرسلان:** كاتب وشاعر وأديب وسياسي ومؤرّخ لبناني، لقّب بأمير البيان العربي، تعلم في مدرسة دار الحكمة ببيروت، أقام مدّة بمصر، حضر دروس مجلة الأحكام العدلية على محمّد عبدَه ولازمه في مجالسه الخاصة، كان مهتمّا بالسّياسة والقضايا العربية، اتّصل بجمال الدّين الأفغاني وتعرّف عليه، قام بسياحات كثيرة في أوروبّا وأمريكا والأندلس وبلاد العرب والقسطنطينية، كان يجيد الفرنسية والتّركية والإنجليزية والألمانية، مِنْ مؤلّفاته: الحلل السندسية في الرّحلة الأندلسية، غزوات العرب في فرنسا وشمالي إيطالية وفي سويسرا، لماذا تأخّر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم، حاضر العالم الإسلامي، ديوان الأمير شكيب، ينظر: الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج3، ص173- 175، وينظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلّفين، مرجع سابق: ج4، ص304و305.

[2] ينظر: لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، نقله إلى العربية: الأستاذ عجاج نويهض، وفيه فصول وتعليقات وحواش عن أحوال الأمم الإسلامية وتطوّرها الحديث، بقلم أمير البيان العربي الأمير شكيب أرسلان، المجلد الأول، (د ط)، 1931م، ص283.

ثالثا: عبد الرّحمان الكواكبـي(1271- 1320هـ/1855-1902م)[1]

قال عبد الرّحمان الكواكبي عن الشّيخ محمّد عبدَه: "مصر أخرجت مَنْ لا يُحصى مِنَ العلماء دون الفلاسفة الحكماء؛ ثمّ أخرجت أخيرا حكيما فاق جميع الحكماء، وهو الشّيخ محمّد عبدَه".[2]

رابعا: محمّد رشيد رضـــا(1282- 1354هـ/1865- 1935م)

قال محمّد رشيد رضا عن شيخه: "أرأيتك هذا المصلح العظيم، والمجدّد الحكيم، إنّه لم يظفر في شعب مِنَ الشّعوب الإسلامية بمَنْ يَصلُح أنْ يكون خليفة له، ومتمّما لإصلاحه بما يُرجى به دوامه، وبعد أنْ وجّه إليه الوجوه، وعَلِقَتْ بطلبه القلوب، على كثرةٍ مِنَ المصطبغين بصبغته إلاّ رجل مصر الشّيخ محمّد عبدَه، لأنّ منصب إمامة الإصلاح والتّجديد، لا يرتقي إليه بوسائل الذّكاء والتّفكير والتّربية والتّعليم وحدها، بل لا بدّ فيه مِنَ الاستعداد الرّوحي والمواهب الفطرية"[3]، وقال عنه: "ولقد كانت مجالس أستاذنا الفقيد كمجالس أستاذه رحمهما الله تفيض علما وحكمة وأدبا ولكنّ الفصل بينهما في هذا هو أنّ السّيّد كان يُلقي الحكمة لكل أحد وأمّا الشّيخ فكان يخاطب كلّ أحد أو كلّ فريق بما يرى أنّه مستعدّ له ومتوجّه إليه، وقد قال لي رحمه الله تعالى أنّ السيّد جمال الدّين كان يُلقي الحكمة لمريدها وغير مريدها، ومِنْ خواصِّه أنّه يجذب مخاطبه إلى ما يريد وإنْ لم يكن مِنْ أهله"[4]، وقال عنه أيضا: "وأمّا علم التّصوف فكان فيه مِنَ الرّاسخين، وأمّا العلوم الشّرعية فقد كان فيها إماما مجتهدا، وأمّا العلوم العصرية فكان يعرف منها الرّياضيات، ويلمّ بالطّبيعيات، ويتقن الفلسفة العقلية وعلوم التّربية والنّفس والأخلاق والاجتماع وتواريخ الملل والأمم ومذاهبها، وكان يطالع دائما ما يصدر عند الإفرنج مِنَ المصنّفات في هذه العلوم، وفي شأن الإسلام".[5]

خامسا: محمّد مصطفى المراغـــي(1881- 1945م)

لما عاد المراغي إلى مشيخة الأزهر سنة 1935م ذكر في خطاب له فضل أستاذه الشّيخ محمّد عبدَه عليه بصفته إمام الدّعوة إلى إصلاح الأزهر في العصر الحديث قائلا: "ومِنَ الحقّ أيها السّادة علينا ألّا ننسى في هذه المناسبة، والحديث حديث الأزهر والأزهريّين، ذلك الكوكب الذي انبثق منه النّور الذي نهتدي به في حياة الأزهر عامّة، ويهتدي به علماء الأقطار الإسلامية في فهم روح الإسلام وتعاليمه، ذلك الرّجل الذي نشر الحياة العلمية والنّشاط الفكري، ووضع المنهج الواضح لتفسير القرآن الكريم، وعَبَّدَ الطّريق لتذوّق سرّ العربية وجمالها، وصاح بالنّاس يُذَكِّرهم بأنّ العظمة والمجد لا يُبْنَيان إلّا على العلم والتّقوى ومكارم الأخلاق، ذلك الرّجل الذي لم تعرفه مصر إلّا بعد أنْ فقدته، ولم تقدّره

---

[1] **عبد الرّحمان الكواكبي:** رحّالة وكاتب ومصلح سوري، أتقن التّركية والفارسية، أنشأ بحلب جريدتي الشّهباء والاعتدال، أسندت إليه مناصب عديدة، كان عضوا في لجنة امتحان المحامين، فمديرا لمطبعة الولاية، فرئيسا للجنة المنافع العمومية، فعضوا دائما في محكمة التجارة، فرئيسا لبلدية حلب، فرئيسا لغرفة التّجارة والزّراعة والصّنائع، سجن لمساعيه الإصلاحية، ورحل إلى مصر وساح في بلاد العرب وإفريقية وبعض بلاد الهند، واستقرّ في القاهرة حتّى توفّي بها، مِنْ مؤلّفاته: أمّ القرى وطبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد وصحائف قريش والعظمة لله، ينظر: الزّركلي، الأعلام، ج3، ص298، وينظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلّفين، مرجع سابق: ج5، ص115.

[2] عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص62و63.

[3] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص(ح).

[4] المصدر نفسه: ج1، ص26و27.

[5] حافظ محمّد حيدر الجعبري، الشّيخ محمّد عبدَه وآراؤه في العقيدة الإسلامية، مرجع سابق: ص123.

حقّ قدره إلّا بعد أنْ أمعن في التّاريخ، ذلك هو الأستاذ الإمام محمّد عبدَه قدّس الله روحه وطيَّب ثراه، فهو مَشْرِقُ النّور، وباعثُ الحياة، وعينُ الماء الصّافية التي نلجأ إليها إذا اشتدّ الظّمأ، والدّوحةُ المباركةُ التي نأوي إلى ظلُّها إذا قوي لفحُ الهجير".[1]

سادسا: محمّد البشير الإبراهيمي(1306- 1385هـ/1889- 1965م)[2]

يعدّ الشّيخ البشير الإبراهيمي مِنْ روّاد الإصلاح الجزائريّين البارزين الذين تأثّروا بالشّيخ محمّد عبدَه، فكانت له ثناءات ومواقف مؤيّدة له نشرها في مقالاته وكتاباته منها قوله: "لا نزاع في أنَّ أوّل صيحة ارتفعتْ في العالم الإسلامي بلزوم الإصلاح الدّيني والعلمي في الجيل السّابق لجيلنا هي صيحة إمام المصلحين الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه ﷺ، وأنّه أندى الأئمّة المصلحين صوتا وأبعدهم صيتا في عالم الإصلاح، فلقد جاهر بالحقيقة المرّة، وجهر بدعوة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الرّجوع إلى الدّين الصّحيح والتماس هديه مِنْ كتاب الله ومِنْ سنّة نبيّه، وإلى تمزيق الحجب التي حجبت عنّا نورهما وحالت بيننا وبين هديهما...كان الأستاذ الإمام أعجوبة الأعاجيب في الألمعية وبُعْدِ النَّظر وعمق التّفكير وحِدَّة الخاطر واستنارة البصيرة وسرعة الاستنتاج واستشفاف المخبَّآت...حُجَّة مِنْ حُجج الله في فهم أسرار الشّريعة ودقائقها وتطبيقها، وفي البَصَرِ بسُنن الله في الأنفس والآفاق، وفي العلم بطبائع الاجتماع البشري وعوارضه ونقائصه، وبالجملة فالرّجل فذٌّ مِنَ الأفذاذ الذين لا تُكَوِّنهم الدّراسات وإنْ دَقَّت، ولا تخرجهم المدارس وإنْ ترقَّت، وإنّما تقذف بهم قدرة الله إلى هذا الوجود وتبرزهم حكمته في فترات متطاولة مِنَ الزّمن على حين انتكاس الفطرة، واندراس الفضيلة وانطماس الحقيقة، فيكون وجودهم مظهرا مِنْ مظاهر رحمة الله بعباده وحجّة للكمال على النّقص، وإصلاحا شاملا وخيرا عميما".[3]

وقال فيه أيضا: "نجمتْ في هذه العهود الأخيرة ناجمةُ اضطرابٍ وتبرّمٍ مِنْ طرائق التّعليم المتّبعة وكتبه الملتزمة، وارتفعتْ الأصوات بالشّكوى مِنْ أضرارها وسوء عواقبها، وكان الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه أعلى الحكماء صوتا بلزوم إصلاحها وأبلغهم بيانا لأضرارها وسوءاتها ومعايبها، وأسدّهم رأيا في تغييرها بما هو أجدى منها وأنفع، وأكثرهم عملا جدّيّا في ذلك، وكان مِنْ إصلاحاته العملية في هذا الباب دَرْسُهُ لكتاب الله بأسلوب حكيم لم يسبقه إليه سابق".[4]

---

[1] محمّد عمارة، الشيخ المراغي والإصلاح الديني في القرن العشرين، مرجع سابق: ص42و43.

[2] **محمّد البشير الإبراهيمي(1889- 1965م):** مِنْ كبار علماء الجزائر وأحد أشهر رواد الإصلاح فيها، صحفي وأديب وشاعر وخطيب، ولد ونشأ بولاية سطيف بالجزائر، رحل إلى المشرق سنة 1911م وأقام في المدينة إلى سنة 1917م وسافر إلى دمشق سنة 1921م ثمّ عاد إلى الجزائر، كان نائبا للشّيخ عبد الحميد بن باديس في جمعية العلماء المسلمين، ثمّ انتخب رئيسا لها بعد وفاته، ولمّا قامت الثورة رحل إلى مصر والهند لجمع المال لها، وبعد الاستقلال نفي إلى صحراء الجزائر إلى غاية وفاته، كان مِنْ أعضاء المجامع العلمية العربية في القاهرة ودمشق وبغداد، له ملحمة مِنْ 36 ألف بيت في تاريخ الإسلام والمجتمع الجزائري والاستعمار، نشر مقالاته في جريدة البصائر وهو رئيس تحريرها، ثمّ جمعت في كتاب: عيون البصائر، وله كتب ما زالت مخطوطة منها: شعب الإيمان، التسمية بالمصدر، أسرار الضمائر العربية، كاهنة أوراس- قصة روائية- ، نشر الطي مِنْ أعمال عَبْد الحَيّ الكتاني، ينظر: الزركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج6، ص54.

[3] محمّد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشر الإبراهيمي، مرجع سابق: ج1، ص177- 178.

[4] المرجع نفسه: ج1، ص342و343.

كما أورد الشّيخ البشير الإبراهيمي بعض مقوّمات الكفاءة التي تتوفّر عليها شخصية الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية التي تؤهّله لإصلاح الأوضاع المتردّية؛ الدّينية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية والتّربوية، حيث استطاع بعلمه النيّر وفكره الوَقَّاد وعقله الذكيّ أنْ يسهم في تغيير حال أمّته إلى الأفضل فقال فيه: "وقد ادّخر الله لهذا العصر الذي تأذَّن فجر الإسلام فيه بالانبلاج، الواحد الذي بذّ الجميع في شجاعة الرّأي والفكر وقوة العلم والعقل، وجرأة اللّسان والقلب، وهو محمّد عبدَه، فهزّ النّفوس الجامدة، وحرّك العقول الرّاكدة، وترك دويا ملأ سمع الزّمان، وسيكون له شأن".[1]

سابعا: محمّد عِمـــارة

قال محمّد عمارة عن مكانة الشّيخ محمّد عبدَه العلمية والفكرية والإصلاحية والتّجديدية في الأمّة العربية والإسلامية: "لقد كان عقلا مِنْ أكبر عقول الشّرق والعروبة والإسلام في عصرنا الحديث، والموت إنّما يصيبُ الأجسام، أمّا هذه العقول الفعّالة فإنّها لا تموت!"[2]، وقال عنه أيضا: "مع التّنبّه والتّنبيه إلى أنّ محمّد عبدَه عندما يكتب فإنّه يتخيّر ألفاظه بدقّةِ مَنْ يؤدّي شهادةً سيحاسَب عليها أمام الله، أعانته على ذلك قدرات لغوية وحكمة فلسفية جعلته إماما في البيان كما هو إمام في الحكمة وتجديد الدّين"[3]، وقال عنه: "فلقد كان الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه مشروعا نهضويا لتجديد دين الإسلام، كي تتجدّد به دنيا المسلمين عليه رحمة الله".[4]

ثامنا: تشارلز آدمـــس(1883- 1948م)[5]

قال تشارلز آدمس عن الشّيخ محمّد عبدَه متحدّثا عن دوره في مجلس شورى القوانين: "وقد أدّى محمّد عبدَه خِدْمات جليلة، وبرهن أنّه برلمانيّ قادر، وخطيب مفوّه، وأثبت كفاءته في عضوية اللّجان، كما أثبت أنّه كان إداريا مجرّبا، ومستشارا حصيفَ الرّأي، واسع الخبرة في جميع الشّؤون، وكان في الوقت نفسه يعمل على تربية الأمّة في جملتها؛ بتحميلها نصيبا مِنَ التّفكير في شؤونها"، وقال عنه: "واشترك المسلمون واليهود والنّصارى في تبجيل الرّجل الذي عرفوا الآن أنّه وطني عظيم وخطيب مفوّه وزعيم شجاع ومصلح بَعِيدُ النّظر"، وقال عنه أيضا: "وأَظهرَ مِنَ المقدرة العملية والكفاءة الإدارية الشّيء الكثير في مختلف الميادين، أتقن جميع العلوم الإسلامية كالفلسفة والتّوحيد وتفسير القرآن والفقه والحديث، وأتقن الآداب العربية إتقانا بلغ حدّ الكمال، كان كبير العناية بالتّاريخ الإسلامي، وكان الشّيخ عبدَه ملمّا أيضا بمصنّفات العلماء الغربيّين، قرأ ترجمتها بالعربية ولمّا جاوز الأربعين تعلّم اللّغة الفرنسية لكي يقرأ مثل هذه المصنّفات في لغتها الأصلية".[6]

---

[1] ينظر: محمّد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشر الإبراهيمي، مرجع سابق: ج4، ص113.

[2] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمّد عبدَه، ج1، ص36، وينظر: محمّد عمارة، مسلمون ثوار، ص446.

[3] محمّد عمارة، جمال الدين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض، مرجع سابق: ص57.

[4] محمّد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص137.

[5] **تشارلز آدمس(Charles Adams)(1883- 1948):** مستشرق أمريكي، قدم إلى مصر وأقام فيها مِنْ سنة 1909 إلى 1915م، وعاد إلى أميركا وتعلم العربية في جامعتي هارفرد وشيكاغو، ثم عُيّن مديرا للمدرسة اللاهوتية في العباسية بالقاهرة، وفي سنة 1939م عُيّنَ رئيسا لشعبة اللغات الشرقية بالجامعة الأميركية بالقاهرة وتوفي بها، له كتاب: الإسلام والتّجديد في مصر ترجم مِنَ الإنكليزية إلى العربية، تكلم فيه عن حركة الإصلاح الدّيني وعن الشّيخ محمّد عبدَه باعتباره مِنْ رجال التّجديد، ينظر: الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج2، ص85.

[6] تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص79و89و90.

تاسعا: عثمان أميــن(1905- 1978م)

قال مبرزا جهود الشّيخ محمّد عبدَه في خدمة الأمّة المصرية ومبادئها ودعوتها لأداء وجباتها: "واستطاع الإمام أنْ يطبع في نفوس معاصريه أعمق الآثار، لأنّه وقف مِنَ المجتمع موقف النّاقد الحصيف، فأعلن حقوق الفكر، ودافع عن كرامة الفرد، وأيّد مطالب الضّمير، ورفع لواء الحرّية، ودعا إلى الاجتهاد، وحَمَلَ على المقلّدين، وحاول أنْ يبثَّ في نفوس المسلمين أخلاق الصّبر والدّأب ومواصلة السّعي وإتقان العمل، والتّمييز بين ما للحكومة مِنْ حقّ الطّاعة على الشّعب وما للشّعب مِنْ حقّ العدالة على الحكومة"[1]، وقال عنه: "قضى أوّل حياته في التّعلّم، ووسطها في التّعليم، وآخرها في إعلاء الدّين ونفع المسلمين"[2]، وقال أيضا: "أصدق داع للحرّية الفكرية، وأوّل رائد للحركة الإصلاحية..يعدُّ بحقٍّ رسولا مِنْ رسل الوعي الإنساني"،[3] وقال عنه أيضا: "وأنّه هو الذي استطاع بقوّة شخصيته وكتاباته أنْ يكون مصدر وحي لرجال السّياسة والاجتماع والدّين والفلسفة في مصر".[4]

عاشرا: إدوارد بــراون[5]

كان مِنَ المستشرقين الذين يستمعون إلى دروس الشّيخ محمّد عبدَه في الأزهر ويكتب إليه قائلا: "أستاذي الأكبر، وأستاذنا الأكبر الأفضل الأعلم الأعزّ الأكرم"، ويكتب إليه أيضا: "أحقر تلامذتك إدوارد براون"[6]، وكتب عند وفاة الشّيخ محمّد عبدَه رسالة تعزية وحسرة أشاد فيها بمكانته العلمية وجهوده الإصلاحية وبأخلاقه وخصاله فقال: "في مدّة عمري رأيتُ كثيرا مِنَ البلاد والعباد، وما رأيتُ مثل الفقيد المرحوم قطّ لا في الشّرق ولا في الغرب، ووالله كان وحيدا في العلم، وحيدا في التّقوى والورع، وحيدا في البصيرة والاطّلاع على ظواهر الأمور وبواطنها، وحيدا في جميل الصّبر، وخلوص النّية، وحيدا في البلاغة والفصاحة، عالما عاملا، محسنا ورعا، مجاهدا في سبيل الله، محبّا للعلم، ملجأ للفقراء والمساكين".[7]

---

[1] عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص214.

[2] المصدر نفسه: ص48.

[3] المصدر نفسه: ص16.

[4] المصدر نفسه: ص214.

[5] **إدوارد غرنفيل براون(Edward Granvill Brown)(1861- 1926م):** مستشرق وطبيب وأستاذ جامعي ومترجم إنجليزي، تلقّى الطبّ واللّغات الشّرقية في كليات إنجلترا، رحل إلى فارس ونال شهرة واسعة في الدّراسات الشّرقية، يجيد اللّغتين العربية والفارسية، عُيّن محاضرا في الفارسية بجامعة كمبردج فأستاذا للعربية بها، ودرّس في اسطنبول وعُيّن أستاذا فيها، كان مِنْ أعضاء المجمع العلمي العربيّ بدمشق، مِنْ مؤلّفاته: الطبّ عند العرب، فهارس المخطوطات الإسلامية، التاريخ الأدبي لفارس، ينظر: الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج1، ص283، وينظر: محمّد رشيد رضا، المنار والأزهر، مصدر سابق: ص22، وينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة: ar.m.wikipedia.org، تاريخ الزيارة: الخميس: 2020/06/25م، في الساعة: 12:00 زوالا.

[6] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص1034.

[7] محمّد رشيد رضا، المنار والأزهر، المصدر السابق: ص22، وينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج1، ص1034، وينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، ص62، وينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، ص96.

حادي عشر: عباس محمود العقـــاد[1]

قال عنه مبيّنا مكانته العلمية وأهليته للاجتهاد: "فهو مع الفلاسفة والمعتزلة في تحكيم العقل والقياس على المنطق والعلوم الكونية، ولكنّه يخالف رأي الفلاسفة في معنى الوجود ومعنى العلوم بالنّسبة إلى الحقيقة الإلهية، ويخالف رأي المعتزلة في مجادلاتهم العقيمة حول مسألة الصّفات وما تفرّع عليها مِنَ الكلام عن خلق القرآن، وهو مع المتصوّفة في رياضتهم النّفسية والفكرية، ولكنّه يرى أنّ إلهام المتصوّف ذوق وجداني لا يجوز له أنْ يدين به غيره"[2]، وقال عنه وهو يسوق قصة تصف مسلكه في القضاء وهو يحكم بين النّاس بالعدل ويُصلح بينهم: "وكاتب هذه السّطور قد سمع بمحمّد عبدَه نصير المظلوم قبل أنْ يسمع بمحمّد عبدَه المصلح العظيم"[3]، وقال عنه عندما احتدم الصّراع بينه وبين الخديوي عبّاس الثّاني: "وأعظم رجل في مصر برجاحة لبّه ومتانة خلقه وعلوّ همّته وصدق غيرته على حرّية وطنه والنّهوض بأمّته".[4]

اثنا عشر: أحمد أميـــن[5]

قال أحمد أمين عن منهجه الإصلاحيّ: "وزاده قُوَّةُ أَثرٍ أنّه لم يكن يدعو إلى الإصلاح نظريا عن طريق التّأليف أو الخطب والمقالات فقط كما يفعل بعض المصلحين؛ بل كان يحاول دائما أنْ يُحوّل إصلاحه إلى عمل، وينغمس في الحياة الواقعية ليتمكّن مِنْ تنفيذ برامجه الإصلاحية"[6]، وقال عن شخصيته جامعة لجوانب الإصلاح: "إنّ العظيم يجب أنْ يقدَّر مِنْ جميع جوانبه لا مِنْ جانب واحد، وقد كان الشّيخ محمّد عبدَه مصلحا دينيّا، ومصلحا اجتماعيا، ومصلحا للّغة والأدب، وشخصية بارزة في التّفكير، وأخيرا سياسيا، فإنْ هو لم يوفّق في سياسته هذه، فهذا لا يقلّل مِنْ نواحيه القيّمة الأخرى".[7]

---

[1] **عبّاس محمود العقاد(1889- 1964م):** أديب وناقد وشاعر وصحفيّ ومؤرّخ ومفكّر مصري، لقّب بعملاق الفكر العربي، درس في المرحلة الابتدائية فقط لعدم توافر المدارس الحديثة في محافظته، ينتمي إلى مدرسة الدّيوان، كان عضوا في مجمع اللّغة العربية، تأثّر بالشّيخ محمّد عبدَه، وأتقن اللّغة الإنجليزية لمخالطته للسّواح الأجانب المتوافدين على مصر، مِنْ مؤلّفاته: العبقريات، عبقري الإصلاح والتّعليم الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه، التّفكير فريضة إسلامية، المرأة في القرآن، الإسلام والحضارة الإنسانيّة، الفلسفة القرآنيّة، ما يُقال عن الإسلام، ينظر: موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرّة:https://ar.wikipedia.org/wiki ، تاريخ الزيارة: الثلاثاء: 2020/09/29م، في الساعة: 09:20 صباحا، وينظر: موقع موضوع: https://mawdoo3.com، تاريخ الزيارة: الجمعة: 2020/10/02م، في الساعة: 13:30.

[2] عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص157.

[3] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص259.

[4] المرجع نفسه: ص264.

[5] **أحمد أمين(1878- 1954م):** أديب ومؤرّخ مصري، درس في الأزهر، وتخرّج في مدرسة القضاء الشّرعي ودرّس بها، تولّى القضاء بالمحاكم الشّرعية، ثمّ عيّن مدرسا بكلية الآداب بالجامعة المصرية، وانتُخب عميدا لها، عيُن مديرا للإدارة الثّقافية في جامعة الدّول العربية سنة 1947م إلى غاية وفاته، وكان عضوا في المجمع العلمي العربيّ بدمشق ومجمع اللّغة بالقاهرة والمجمع العلمي العراقي ببغداد، منحته جامعة القاهرة لقب دكتور فخري. أشرف على لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر مدّة ثلاثين سنة، له مقالات كثيرة في المجلّات والصّحف منها مجلّتي الرّسالة والثّقافة، مِنْ مؤلّفاته: فيض الخاطر، فجر الإسلام، ضحى الإسلام، ظهر الإسلام، يوم الإسلام، النّقد الأدبي، ينظر: الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج1، ص101، وينظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلّفين، مرجع سابق: ج1، ص168.

[6] أحمد أمين، زعماء الإصلاح، مصدر سابق: ص337.

[7] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، المرجع السابق: ص256.

ثلاثة عشر: محمّد بن مصطفى بن الخوجــة[1]

حينما توفّي الشّيخ محمّد عبدَه رثاه بن الخوجة بقصيدة تعبّر عن معرفته به معرفة الملازم له، الدّارس لكتبه، المتتبّع لنشاطاته، المؤمن بمنهجه في الكتابة والإصلاح والتّدريس والتّفسير، قال فيها:

مصابٌ جسيمٌ عمَّ كلَّ العشائــــر * * * وأسلمنا قهرا لحكم المقـــــادر
وأكبادنا ذابت أسى وكآبـــــــــة * * * وأعيننا مثل العيون الهوامـــــر
على موت مفتي المسلمين وفخرهم * * * ومَنْ كان للإسلام نور البصائـــر
تآليفه تنسيك ما حيك قبلهـــــا * * * وتغنيك عن جلِّ الطّروس الكبائر
عليك بها إنْ رمت تجني هدايـــــةً * * * وتصبح أستاذ العلوم الغزائـــــر
وواها على التّدريس في كل مذهب * * * وواها على الأقلام بعد المحابـــــر
وواهًا على التّوحيد والفقه واللّغى * * * وواهًا على التّفسير أصل العناصر
مناقب لم يبلغ مداهنّ ناثـــــــر * * * فصيح ولم يستوفها نظم شاعـــر

* وفي إشارة منه إلى زيارة الشّيخ محمّد عبدَه للجزائر قال فيه:

قد سعدنا بزورة منه جـــــــاءت * * * بسعود يفرّ منها الشّقـــــــــاء
كم سهرنا ومنه نلنا علومـــــــا * * * ما سمعنا بها ولا الآبـــــــــاء.[2]

أربعة عشر: محمّد عبد المنعم خفاجــي(1915- 2006م)

قال عن مكانة الشّيخ محمّد عبدَه في الأمّة العربية والإسلامية: "لقد كان الشّيخ محمّد عبدَه -بما وهبه الله مِنْ غزارة علم وبُعْدِ نظر وقوّة نفس ورحابة صدر- شيئا كبيرا لا يقدّره حقّ قدره إلا أولئك الذين يتخلّصون مِنْ كبرياء الغرور وتسالط النّزوات، فيحكمون عليه بأنّه إنْ لم يكن أفضل زعيم حكيم فإنّه في الصّدارة مِنْ حكماء الزّعماء الذين تحتاج إليهم الأمم إبّان نهضتها وعلى طول تاريخها، بحيث تخسر الإنسانية كثيرا بالتّهجّم لهم والتّهجّم عليهم في حياتهم وبعد مماتهم"، وقال عن مذهبه الإصلاحي: "وجملة مذهبه الدّيني أنّ الإسلام دين بساطة ويسر يلائم الفطرة ويوافق العقل، وأنّه قد جاء بعقائد سليمة لا تعلو على متناول الفكر الإنسانيّ وجاء بأصول للفضيلة والخير تغري بالصّالحات وتوفّر للإنسان حرّيته وكرامته وتبعثه للنّشاط والكمال في كلّ نواحي الحياة".[3]

---

[1] **محمّد بن مصطفى بن خوجة(1865-1917م):** عالم وكاتب وشاعر جزائري، ترجم لأعلام الجزائر، كثير المطالعة للكتب والجرائد والمجلّات المشرقية خصوصا كُتب الشّيخ محمّد عبدَه ورسائله، فأعجب بمذهبه الإصلاحيّ وأدخله إلى الجزائر، ويعتبر مِنْ ممثّلي مدرسته وأحد رواد النّهضة الإسلامية الحديثة في الجزائر، كتب تقريظا لتفسير سورة العصر ودَرَّسه للجزائريّين فاستحسنوه وأثنَوْا عليه، كتب في جريدة المبشّر واشتغل وكيلا لمقام سيدي عبد الرّحمان الثّعالبي، ينظر: عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، ج1، ص34و34.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ج1، ص37- 40.

[3] محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق: ج3، ص17و75.

خمسة عشر: مصطفى عبد الــرّازق[1]

قال عن الشّيخ محمّد عبدَه وهو يعرّف بسيرته في مقدّمةٍ كتبها في مجلّة العروة الوثقى: "والشّيخ محمّد عبدَه مصلح جريء، حاول الهدم والبناء في أقدس هيكل عند البشر، فيما يعتبره النّاس دِينا، أرسل صيحته في الأزهر تدوّي بين شيوخٍ إنْ لم يكونوا يومئذ هيئة كبار العلماء، فلعلَّهم لم يكونوا دون هؤلاء جمودا، ولم يبالِ الأستاذ بما لقي مِنَ الأذى، وقد لقي مِنَ الأذى كثيرا"، وقال عنه: "كان الشّيخ محمّد عبدَه بين الطّوائف الرّاقية مِنَ المصريّين وبين طوائف الأجانب في مصر محبوبا معظّما معترفا له بمقام الإمامة الذي لا يساميه مقام، وانتشر صِيتهُ في أقطار الشّرق وتوجّهتْ إليه الأنظار"، وقال عنه أيضا: "دعا الشّيخ محمّد عبدَه إلى الإصلاح الدّيني باعتباره أساسا لكلّ إصلاح في الشّرق."[2]

ستة عشر: اللّورد كرومـــر[3]

قال اللّورد كرومر في تقريره السّنوي عام 1905م وهو يشيد بآراء الشّيخ محمّد عبدَه: "وأنا شديد الرّجاء في أنْ تنجحَ في اكتساب الأنصار تدريجيّا، فلا ريب أنّ مستقبل الإصلاح الإسلامي في صورته الصّحيحة المبشّرة بالآمال، يكمن في ذلك الطّريق الذي رسمه الشّيخ محمّد عبدَه، وإنّ أتباعه ليستحقّون أنْ يُعاوَنوا بكلّ ما هو مستطاع مِنْ عطف الأوروبّيّ وتشجيعه".[4]

سبعة عشر: قدري قلعجـــي[5]

ذكر بأنّ الشّيخ محمّد عبدَه ولد في أوضاع اتّسمت بضعف البلاد العربية والإسلامية واستبداد أنظمتها بشعوبها مقابل تطوّر الأمم الأوروبّية وازدهارها، حتّى تطلّعت فرنسا وبريطانيا وغيرهما

---

[1] **مصطفى عبد الـرّازق(1885- 1946م):** واحد مِنْ تلامذة الشّيخ محمّد عبدَه، وباحث مصري في الشّريعة والأدب، تخرج في الأزهر، وأكمل دراسته في باريس، وانتُدب لتدريس مباحث إسلامية فيها، ووضع رسالة عن الإمام الشّافعي وعاد إلى القاهرة سنة 1916م، كان مِنْ أعضاء المجمعَيْن العلمي العربيّ والمصريّ، عُيّن سكرتيرا عاما لمجلس الأزهر، فمفتّشا بالمحاكم الشّرعية، فأستاذا للفلسفة الإسلامية بكلية الآداب، أُسندت إليه وزارة الأوقاف سنة 1938م، ثمّ عُيّن شيخا للجامع الأزهر سنة 1945م إلى وفاته، مِنْ مؤلّفاته: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، فيلسوف العرب والمعلم الثّاني، الدّين والوحي والإسلام، محمّد عبدَه، مذكّرات مسافر، مذكّرات مقيم، ساعد برنار ميشيل في ترجمة رسالة التّوحيد للشّيخ محمّد عبدَه إلى الفرنسية، ينظر: الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج7، ص231، وينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص222-225.

[2] جمال الدّين الأفغاني ومحمّد عبدَه، العروة الوثقى، مصدر سابق: ص26و27و28و30.

[3] **لورد كرومر(Evelyn Baring Earl of Cromer)(1841-1917م):** ضابط عسكري إنجليزي في سلاح المدفعية الملكية، ورجل دولة دبلوماسي وإداري مستعمرات بريطاني، مِنْ كبار دعاة التّغريب والاستعمار في العالم الإسلامي، ومِنْ واضعي مخطّط السّياسة الاستعمارية للقضاء على قيم ومبادئ ووحدة الأمّة العربية والإسلامية، وضعها في تقاريره الموجودة في كتابه: مصر الحديثة، أمضى في مصر أكثر مِنْ ربع قرن قابضا على زمام السّلطات(1882- 1906م)، عمل أوّل مرّة مندوبا لصندوق الدّين المصري سنة 1877م، وبعد الاحتلال البريطاني لمصر عُيّن مباشرة مندوبا ساميا ومعتمدا لبريطانيا، ينظر: m.marefa.org، تاريخ الزّيارة: السبت: 2019/01/05م، في الساعة: 11:00 صباحا، وينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة (ar.m.wikipedia.org)، تاريخ الزيارة: الاثنين: 2019/12/30م في الساعة: 14:30.

[4] محمّد محمّد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، مرجع سابق: ص74و75.

[5] **قدري قلعجي(1917م- 1986م):** كاتب ومفكّر سوري، تلقى تعليمه في حلب، وعمل في بيروت محرّرا لمجلة المكشوف، أصدر مع عمر فاخوري ورئيف خوري مجلّة الطّريق وتولّى رئاسة تحريرها، ثمّ تولّى إدارة مكتب دار الهلال المصرية، ثمّ عمل مديرا للمكتب الصّحفي في رئاسة الأركان السّورية، وأصدر مجلّة الحرّية، ثمّ أسّس دار نشر باسم دار الكاتب العربي، مِنْ مؤلّفاته: أبو ذرّ الغفاري أوّل ثائر في الإسلام، جمال الدّين الأفغاني حكيم الشّرق، أشهر المحاكمات في التّاريخ، محمّد عبدَه بطل الثّورة الفكرية في الإسلام، ينظر: موقع: http://www.ektab.com، وموقع: https://www.abjjad.com ، تاريخ الزّيارة: الثلاثاء: 2020/05/19م، في السّاعة: 12:00 زوالا.

لاستعمارها، فبرز مجدّدا ومخلّصا لمصر وللأمّة العربية والإسلامية جمعاء فقال فيه: "ولد الشّيخ محمّد عبدَه، فكان صوتا عاليا مِنَ الأصوات المختلطة التي دعت قومها إلى البعث، وكان إماما هاديا مِنَ الأئمّة المنوّرين الذين تأتمّ بهم الشّعوب العربية والشّعوب الشّرقية في تطلّعها إلى النّور والحرّية".[1]

ثمانية عشر: محمّد فوزي عبد المقصـود

أشاد بالفكر التّربوي للشّيخ محمّد عبدَه وجدواه في الإصلاح قائلا: "إنّ آراءه وأفكاره في مجال التّربية والتّعليم لا تقلّ في قيمتها عن آراء رجال الفكر التّربوي الغربي إنْ لم تتفوّق عليها، بل كان له السّبق عليهم في بعض قضايا التّربية، إنّ الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه فيه الجديد الذي يستحقّ البحث والتّحليل والذي يساير الاتّجاهات التّربوية المعاصرة، ويجب أنْ يوضع في مكانه اللّائق بين الأفكار والمذاهب التي تدرّس في ساحات العلم ودور التّعليم في مجتمعاتنا المعاصرة ".[2]

تسعة عشر: محمّد الغزالـي[3]

لمّا تعرّض الشّيخ محمّد عبدَه إلى وابل مِنَ المطاعن وحملات التّجنّي والتّشويه مِنَ التّيار الإسلامي بمختلف اتّجاهاته السّلفية والتّقليدية والصّوفية والرّسمية، ومِنَ التّيّار العلماني مِنَ المستشرقين والمستغربين، ومِنْ تيار السّلطة الحاكمة، انبرى للردّ عليهم والدّفاع عنه جمع غفير مِنَ المفكّرين والكُتّاب والدّارسين و المثقّفين[4]، وبرز الشّيخ محمّد الغزالي مدافعا عنه مبيّنا علوّ قدر الشّيخ محمّد عبدَه ورفعة مكانته الدّينية والعلمية والسّياسية والاجتماعية والتّربوية، فقال عنه: "إنّ الشّيخ محمّد عبدَه سهر في الردّ على وزير الخارجية الفرنسية مسيو هانوتو عندما هاجم الإسلام، فأتمّ كتابه الإسلام والعلم في ليلة واحدة، حرمه الحماس الرّقاد، فلم يسترح إلّا بعدما جلا الحقّ، لقد آثر الطّريق الطّويل طريق التّربية ورفع المستويات الفكرية والنّفسية، لقد فشلت الثّورة العسكرية فليتّخذ أسلوبا آخر، ولمّا اتّجه إلى إصلاح الأزهر وجد مقاومة هائلة مِنْ شيوخه الذين يرون إدخال العلوم الحديثة كفرا، لقد استمات الشّيخ المصلح في عمل شيء للإسلام، فتحايل على سطوة الإنجليز، وعلى جمود الشّيوخ،

---

[1] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق، ص154.

[2] محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص9.

[3] **الشّيخ محمّد الغزالي(1917- 1996م):** عالم ومفكر وداعية إسلامي مصريّ معاصر، التحق بكلية أصول الدّين بالأزهر وتخرّج فيها سنة 1941م، ثمّ تخصّص في الدّعوة والإرشاد حتّى حصل على درجة العالمية سنة 1943م، درس على علماء الأزهر كالشّيخ عبد العظيم الزّرقاني والشّيخ محمود شلتوت والشّيخ محمّد أبو زهرة وغيرهم، انضمّ إلى جماعة الإخوان المسلمين واعتقل بعد حلّها ثمّ خرج منها، عمل في مساجد القاهرة إماما وخطيبا ثم تدرّج حتّى صار مفتّشا ثمّ واعظا بالأزهر ثمّ مديرا للمساجد فمديرا للدّعوة والإرشاد، درّس بجامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة، ودرّس في كلّية الشّريعة بقطر، عُيّن سنة1981م وكيلا لوزارة الأوقاف بمصر، ودرّس في الجزائر بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة وفيها تولّى رئاسة المجلس العلمي، توفّي في الرّياض بالمملكة العربية السّعودية أثناء مشاركته في مؤتمر حول الإسلام وتحدّيات العصر ودفن بالبقيع بالمدينة المنوّرة، مِنْ مؤلّفاته: السّنّة النّبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، عقيدة المسلم، فقه السّيرة، هموم داعية، سرّ تأخر العرب والمسلمين، خلق المسلم، معركة المصحف، الإسلام المفترى عليه، الإسلام والاستبداد السّياسي، التعصّب والتّسامح بين المسيحية والإسلام، قذائف الحقّ، مِنْ هنا نعلم، نظرات في القرآن، صيحة التّحذير مِنْ دعاة التّنصير، جدّد حياتك، الطّريق مِنْ هنا، الفساد السّياسي، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، المرأة في الإسلام، كيف نتعامل مع القرآن، الأسرة المسلمة وتحدّيات العصر، ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة/ https://ar.wikipedia.org :تاريخ الزيارة: الخميس: 2022/04/07م.

[4] ينظر: أحمد محمود عيساوي، الحركات التّجديدية والإصلاحية الحديثة والمعاصرة في العالم الإسلامي، دار الكتاب الحديث، ط1، 2019م، ص265.

وعلى خصومة القَصْرِ، فقد مضى الرّجل في طريقه بقوّة، ونشأ عن حركته ازدهار علميّ وأدبيّ وسياسيّ نقل الأمّة الإسلامية إلى طور آخر مِنْ أطوار الحياة والكفاح لم تشهده مِنْ ألف عام".[1]

الفرع الثّاني: المنتقدون لفكر الشّيخ محمّد عبدَه التّربـوي

مثلما كان للشّيخ محمّد عبدَه موافقون لفكره ومؤيّدون لآرائه ومواقفه الإصلاحية، كان له في المقابل معارضون غير موافقين لمنهجه الإصلاحيّ في التّربية وفي غيرها مِنَ المجالات، فكان منهم:

أوّلا: عبد الرّحمان الشّربينـي

طرحت جريدة الجوائب المصرية على الشّيخ الشّربيني السّؤال الآتي: "وهل حدث يا مولاي ما يقف للأزهر في الخدمة المطلوبة منه"، فأجابها قائلا: "بل إنّ الذي حدث مِنْ شأنه أنْ يهدم معالم التّعليم الدّيني فيه، ويحوّل هذا المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدّين وتطفئ نوره في هذا البلد وغيره مِنَ البلاد الإسلامية"، وفي سياق إجابته على سؤال الجريدة أشار إلى الحركة الإصلاحية التي تزعّمها الشّيخ محمّد عبدَه واعتبرها غير خادمة لرسالة الأزهر وأنّها مِنْ شأنها أنْ تسيء إليه وأنّها ستؤدّي إلى الفوضى وإزالة ذلك التّبجيل والاحترام الذي يكنّه الطّلبة لمشايخهم، فلا يحترمونهم، فقال: "إنّي أسمع منذ سنوات بشيء يسمّونه حركة في الأزهر، ولكنّني لم أر لهذه الحركة وهذا الإصلاح حتّى الآن مِنْ نتيجة تُذكر سوى انتشار الفوضى في ربوعه، وذهاب ما كان مِنْ مودّة ورحمة ومهابة بين الطّلبة وبين مشايخهم الأجلاء، حتّى أصبح الأئمّة عرضة للسّخرية مِنْ بعض الطّلبة المخدوعين الذين سمعوا بسبنسر وفلسفته، فهرفوا بما لم يعرفوا، واشتغلوا بما يلهيهم مِنْ هذا وأمثاله عمّا وُجِدوا، إنّ الأزهر وُجد لحفظ الدّين ونشر علومه ليس إلّا، فليتركوه كما هو حصنا للدّين، وذخرا للمسلمين في أطراف البلاد، وما سوى ذلك مِنْ مبادئ الفلسفة والعلوم الحديثة العالية فلتُدخله الحكومة إنْ شاءت على مدارسها الكثيرة التي هي في حاجة ماسّة إليه".[2]

إنّ في كلام الشّيخ الشّربيني للجريدة تعريض وتصريح بما قام به الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ دعوة طلبة الأزهر لدراسة الفلسفة والمنطق والحكمة والعلوم العقلية والعلوم العصرية الحديثة وغيرها، والتي كانت في نظر الشّربيني الأزهري علوما مشوّشة على فكر وعقيدة الطّلبة، والتي ستقودهم إلى الزّندقة والكفر، كما اعتبر أنّ ما يقوم به هدم للإصلاح الدّيني، وقد ردّ عليه الشّيخ محمّد عبدَه وعلى الشّيوخ الذين أنكروا عليه إصلاحاته بمقال نشره تلميذه محمّد رشيد رضا في جريدة المقطّم.

ثانيا: محمّد الجنبيهـي[3]

نبّه الجنبيهي الشّيخَ محمّد عبدَه إلى انحراف مذهبه بطريقة لاذعة، وانتقد مواقفه في كتابه بلايا بوزا، متّهما إيّاه بأنّه عميل للاستعمار البريطاني، وأنّه كان محبوبا لدى ساسة الاستعمار ولولاة الأمور العملاء للدّول المتحالفة ضدّ الإسلام والمسلمين، فقال عن صلته باللّورد كرومر: "اتّخذه اللّورد

---

[1] محمّد الغزالي، علل وأدوية، دار الشروق، (د ط)، (د ت)، ص92و93.

[2] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص503و504.

[3] **الشّيخ محمّد الجنبيهي(ت1346هـ/1927م):** عالم أزهري معاصر للشّيخ محمّد عبدَه، وواحد مِنْ أترابه، صحبه في طلب العلم حتّى وفاته، عُرف بالتّقوى والصّلاح، مِنْ مؤلّفاته: الرّزايا العصرية، وبلايا بوزا، وبوزا رمز لكل معاند يصرّ على الباطل، وهي قطعة خشب على هيئة عضو تناسل الرّجل، ينظر: محمّد محمّد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، مرجع سابق: ص81.

أستاذا ومرشدا يسترشد برأيه في كلّ عمل يطلبه في تنفيذ الغرض الذي أجمع عليه السّياسيون، فكان الإصلاح الأزهري الذي ذهب بالدّين وعلمه النّافع أدراج الرّياح؛ مِنْ إشارات ذلك المفتون -عبدَه-، وكذلك كان إصلاح المحاكم الشّرعية، وكان مِنْ مساعدة اللّورد كرومر لشيخه ومرشده أنْ ولاّه مناصب القضاء الأهلي حتّى وصل به إلى وظيفة مستشار، وذلك أمر مِنْ أعجب الأمور، ثمّ عيّنه مفتيا بالدّيار المصرية ليكون له الحقّ في التّدخّل في شؤون الأزهر، إنّ اللورد كرومر أجهد نفسه في إعلاء شأن ابن عبدَه الغرابلي[1]، وجعل له نفوذا تامًّا في جميع الدّوائر السّياسية، حتّى صيّره نافذ الإرادة والأمر في القصر المصريّ، ليستعمله في تنفيذ الأغراض السّياسية التي أجمع عليها ساسة الدّول المتحالفة"، ولمّا رد الشّيخ محمّد عبدَه على شبهات هانوتو اعتبرها الجنبيهي مسرحية وتمثيلية، فقال عنه: "وقد أُعجب البُسطاء بذلك الردّ، متوهّمين أنّ ابن عبدَه الغرابلي يدافع عن الدّين، وما هو إلا هادم لأركانه، ومبغض للمتمسّكين به، ولا غرابة في ذلك، لأنّ الله تبارك وتعالى جعله مِنَ الأئمّة الذين يسارعون في الكفر"، كما يرى الجنبيهي أنّ سبب موت الشّيخ محمّد عبدَه؛ هو حسرته على تخلّي كرومر عنه والتّوقّف عن تقديم الدّعم له، حتّى أنّه لمّا ذهب يشتكي إليه مِنْ الخديوي عباس الثّاني الذي فَصَلَ بين الإفتاء والأزهر، أهانه كرومر وقال له: "ما كنت أظنّ أنّك جهول بالسّياسة إلى هذا الحدّ، اذهب مِنْ حيث أتيت فإنّي لا أتداخل في هذا الأمر، فكانت هي الضّربة القاضية على ابن عبدَه الغرابلي، وكانت حسرته حتّى مات مصابا بما يصاب به أهل الحسرة، فلمّا قضى نحبه نعاه اللورد كرومر نعيا سياسيا يستنهض به أتباعه الذين فُتنوا به، حتّى يكونوا مكانه في التّضليل".[2]

ثالثا: يوسف النّبهانـي[3]

الشّيخ يوسف النّبهاني عالم أزهري مِنْ أتراب الشّيخ محمّد عبدَه، صاحبه فترة وعرفه عن قرب، كان متحفّظا على سيرته، انتقده وطعن فيه بشدّة لمخالفته للشّريعة الإسلامية، قال لمحمّد رشيد رضا: "إنّكم تتّخذونه قدوة في دينكم، وتدْعون النّاس إلى ذلك، وهذا غير صواب، فإنّه لم يكن محافظا على الفرائض الدّينية، فلا يصحّ أنْ يكون قدوة في الدّين، فمِنَ المعلوم المسلَّم أنّه كان يترك كثيرا مِنَ الصّلوات بلا عذر، وأنا نفسي رافقته مِنْ وقت الضّحى إلى قبيل المغرب عند رجل كان دعانا في جبل لبنان، فلم يصلّ الظّهر ولا العصر، ولم يكن له عذر، بل كان بكمال الصحّة، ورآني صلّيتُ الظّهر والعصر ولم يصلّهما، وأيضا كان تاركا للحجّ إلى بيت الله الحرام مع الاستطاعة، وبتلك الاستطاعة التي كان مالكا لها مِنَ القوة الجسمية والمالية كان يحجّ باريز ولندن وغيرهما مِنْ بلاد أوروبا مرارا كثيرة، ولم

---

[1] لَقَّب الجنبيهي الشّيخَ محمّد عبدَه بالغرابلي، لاهتمام أهله بصناعة الغرابيل التي تتّخذ سيورها مِنْ جلود الحيوانات الميّتة كالحمير، ينظر: محمّد محمّد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، مرجع سابق: هامش ص82.

[2] المرجع نفسه: هامش: ص82و85و86و87.

[3] **يوسف النّبهاني(1849- 1932م):** شاعر وأديب وقاض، ولد ونشأ بفلسطين، رحل إلى مصر وتعلّم بالأزهر، عمل قاضيا في بلاد الشّام ثمّ رئيسا لمحكمة الحقوق ببيروت وأقام بها أكثر من عشرين سنة، وسافر إلى المدينة، ولمّا نشبت الحرب العالمية الأولى عاد إلى فلسطين وتوفّي بها، حمل على ابن تيمية وابن القيّم ومحمّد عبدَه وغيرهم، مِنْ مؤلّفاته: جامع كرامات الأولياء، رياض الجنّة في أذكار الكتاب والسّنّة، المجموعة النّبهانية في المدائح النبويّة، وسائل الوصول إلى شمائل الرّسول، حجّة الله على العالمين، شواهد الحقّ في الاستغاثة بسيّد الخلق، اتحاف المسلم بأحاديث التّرغيب والتّرهيب عن البخاري ومسلم، الرّائية الصّغرى-وهي قصيدة هجا فيها جمال الدّين الأفغاني ومحمّد عبدَه ومحمّد رشيد رضا، ينظر: الزّركلي، الأعلام، ج8، ص218، عمر رضا كحالة، معجم المؤلّفين، ج13، ص275و276.

يخطر له أنْ يكون سفره مرّة واحدة للحجّ مع قرب الدّيار"، كما انتقد انضمامه إلى الماسونية فقال: "وممّا لا يختلف فيه أحد أنّه كان هو وشيخه الشّيخ جمال الدّين الأفغاني داخلين في الجمعية الماسونية، وهي لا تجتمع مع الدّين بوجه مِنَ الوجوه، بل هي ترفض الأديان كلّها، وهي ضدّ السّلطات كلّها الدّينية وغيرها، فكيف يمكن أنْ يكون قدوة في دين الإسلام مع كونه ماسونيا"[1]، وقد هجاه في قصيدته الرّائية التي نظمها لعلاقة الشّيخ باللّورد كرومر وسوء سيرته في بيروت فقال فيها:

تولّع بالدّنيا وصيّـــــر دينـــــه * * * إليها على ما فيه مِنْ خفَّة جســـرا
يمينا إذا كانت يمينا، وإنْ تـــكن * * * يسارا سعى يعدو إليها مِنَ اليســرى
فمِنْ جهة يدعى الإمام، ويقتــدى * * * بأعمال أهل الكفر مِنْ جهة أخــرى
يذمّ خيار المسلميـــن وعندمـــا * * * يرى حاجة للكفر يستحسن الكفـرا
لكيما يقال الشّيخ حرّ ضميـــره * * * فيبلغ عند القوم مرتبة كبـــــرى
وأيّد أعداء البـــــلاد بسعيـــه * * * وأوهم أهل الجهل أنّ بهم خيـــــرا
يُحسِّنُ بين النّاس قُبْحَ فعالهـــم * * * ومهما أساؤوا راح يلتمس العـــذرا
بمقدار ما خان البلاد وما أتـــــى * * * لأعدائها نصحا علا عندهم قـــدرا
وقد ضلّ في القرآن مع عظم نوره * * * كما خبطت عشواء في الليلة القمرا
وأُحَذِّر كلّ الناس مِنْ كُتْبِ دينـــه * * * وبالردّ والإعراض تفسيره أَحـــــرى
يعاشر نسوان النّصارى ولا يـــرى * * * بذلك مِنْ بأس وإنْ كشف السّتـــرا
ويأكل معهم كلّ ما يأكلـــــــــوه * * * ويشربها حمراء إنْ شاء أو صفـــرا
ويفتي بحلّ المسكرات جميعـــــها * * * إذا هي بالأسماء خالفت الخمـــــرا
ويأكل مخنوقا ويفتي بحلّـــــــــهِ * * * لئلّا يقولوا إنّه ارتكب الـــــــوِزرا.[2]

رابعا: مصطفى صبـري[3]

مصطفى صبري شيخ الإسلام في الدّولة العثمانية، عاصر الشّيخ محمّد عبدَه، وحكم على فكره بالخطورة والفساد، قال عن أعماله التي لم يعتبرها إصلاحات: "أمّا النّهضة الإصلاحية المنسوبة إلى الشّيخ محمّد عبدَه، فخلاصتها أنّه زعزع الأزهر عن جموده على الدّين، فقرّب كثيرا مِنَ الأزهريّين إلى اللّادينيّين خطوات، ولم يقرّب اللّادينيّين إلى الدّين خطوة، وهو الذي أدخل الماسونية في الأزهر بواسطة شيخه جمال الدّين، كما أنّه هو الذي شجّع قاسم أمين على ترويج السّفور في مصر، فلعلّ الشّيخ محمّد عبدَه وشيخه جمال الدّين أرادا أنْ يلعبا في الإسلام دور لوثر وكلفن زعيمَيْ البروتستانت

---

[1] محمّد محمّد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، مرجع سابق: ص89و90.

[2] المرجع نفسه: ص94و95.

[3] **مصطفى صبري(1860أو1869-1954م):** فقيه ومتكلّم تركي، عُيّن مدرّسا بجامع محمّد الفاتح بإسطنبول، تولّى مشيخة الإسلام في الدّولة العثمانية، قاوم الحركة الكمالية بعد الحرب العالمية الأولى، وهاجر إلى مصر وتوفّي بالقاهرة، مِنْ مؤلّفاته: موقف العقل والعلم والعالم مِنْ ربّ العالمين في أربعة أجزاء، قولي في المرأة ومقارنته بأقوال مقلّدة الغرب، القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون، مسألة ترجمة القرآن، ينظر: الزّركلي، الأعلام، ج7، ص236، وينظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلّفين، ج12، ص 258.

في المسيحية، فلن يتسنّ لهما الأمر لتأسيس دين حديث للمسلمين، وإنّما اقتصر سعيهما على مساعدة الإلحاد المقنّع بالنّهوض والتّجديد".[1]

خامسا: غازي التّوبــة[2]

يرى غازي التّوبة بأنّ أسلوب إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه وطريقة معالجة واقعه في المجتمع المصري في إصلاح الأزهر والمدارس والمساجد والقضاء والمحاكم وإنشاء الجمعيات؛ أوقعه في أخطاء سياسية مِنْ جهة وفي انحرافات فكرية مِنْ جهة أخرى، فقال في معرض حديثه عن سياسته الإصلاحية وفي كيفية تعاطيه مع الاحتلال البريطاني وعملائه: "إنّ إيمان محمّد عبدَه بإصلاح المؤسّسات القائمة في المجتمع سبيلا إلى إيجاد الفرد والمجتمع المسلمين جعله يتعاون مع كلّ ناعق بالإصلاح، حتّى ولو كان هذا النّاعق عميلا للإنجليز، أو هو الاحتلال البريطاني نفسه"[3]، وذهب إلى اتّهامه بالعمالة للإنجليز ولعملائهم فقال: "ولم يقف تعاون محمّد عبدَه مع الإنجليز عند اللّورد كرومر بل تعدّاه إلى مختلف شخصيات الحكم"، وقال عنه: "تجاوز تعاون محمّد عبدَه مع الإنجليز السّلطة المحتلّة في مصر، إلى التّعاون مع الجواسيس المستشرقين في إنجلترا نفسها، وتتّضح ثقتهم المطلقة به، وتعاونه البعيد معهم في الرّسالتَيْن المبعوثتَيْن إلى المستر بلنت جوابا على سؤال الأخير عن رأي المفتي في الحالة السّياسية الجديدة التي نشأت في مصر عقب إبرام الاتفاق الودّي بين إنجلترا وفرنسا، وعن رأيه في الدّستور المناسب لمصر"[4]، وعن تعامله مع سلطة الاحتلال قال: "أنّ تعاونه مع سلطات الاحتلال البريطاني غير مبرّرة البتّة، إلاّ إذا اعتبرنا إيثار السّلامة أو مبدأ الغاية تبرّر الوسيلة منطقا مقبولا معقولا عندنا -أي عند المسلمين-"، وعن موقف الإنجليز الرّاضي عنه قال: "وَجَدَ الاحتلال في محمّد عبدَه وتلاميذه مدرسة سياسية تحقّق أغراضه، وتنفّذ مآربه فرَعَاها ونمّاها"[5]، وبالنّسبة لفتاويه التي أباح وبرّر فيها التّعاون مع الإنجليز قال عنه: "فقد حَقَّقَتْ فتاويه للإنجليز ما لم تحقّقه جيوش كاملة مِنْ حيث فتح النّفوس لدسائسهم وتبرير التّعاون معهم".[6]

سادسا: سيّد بن حسين العفّانـي

اعتبر العفّاني إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه الدّينية والاجتماعية وغيرها حملات هجومية على المؤسّسات المصرية، لكونها كانت كلّها خادمة للسّياسة الاستعمارية، وهو ما جعل الاستعمار يعجّل

---

[1] محمّد محمّد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، مرجع سابق: ص99و100، وينظر: محمّد حامد النّاصر، العصرانيون بين مزاعم التّجديد وميادين التّغريب، مرجع سابق: ص71.

[2] **غازي التّوبة:** كاتب ومفكر فلسطيني، ولد عام 1939م، كتب في قضايا الحرّية والثّورة ونظام الحكم، حصل على الإجازة مِنْ جامعة دمشق والماجستير مِنَ الجامعة اللّبنانية في بيروت، والدّكتوراه مِنْ جامعة العالم الأميركية، عمل في الدّعوة والتّعليم في عدّة بلدان عربية وإسلامية وأجنبية، ويشرف على موقع منبر الأمّة الإسلامية، مِنْ مؤلّفاته: الفكر الإسلامي المعاصر: دراسة وتقويم، النّكسة في بعدها الحضاري، جذور أزمة المسلم المعاصر، الجماعة في الإسلام المشروعية والإطار، ينظر: https://www.aljazeera.net، تاريخ الزيارة: الأربعاء: 2020/04/02م، في الساعة: 09:00 صباحا.

[3] غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص52.

[4] المرجع نفسه: ص55 - 57.

[5] المرجع نفسه: ص67و69.

[6] المرجع نفسه: ص92.

بقطف ثمارها، فقال: "وابتدأ محمّد عبدَه عمله الإصلاحي بمهاجمة الأزهر، ونقد المحاكم، ونقد الحياة الاجتماعية، وكرومر مِنْ ورائه يقطف الثّمار"[1]، بل هو في نظره مِنْ أدعياء الإصلاح، تأثّر بالفكر الغربي وسار في فلكه في إبعاد الإسلام عن الحياة وتوجيهها توجيها غربيّا فقال عنه: "وأخيرا فإنّ الشّيخ -بقصد أو بدون قصد- قد أوجد القاعدة التي ارتكز عليها مَنْ يسمّون دعاة الإصلاح للتعلّق بأذيال الغرب وإقصاء الإسلام عن توجيه الحياة، إذْ ظلُّوا يَنْقُضُون عرى الإسلام عروة عروة حتّى أنّ المعركة الآن أصبحتْ تدور ضدّ قانون الأحوال الشّخصية، وهو البقيّة الضّئيلة مِنْ آثار الشّريعة الإسلامية والميزة الاجتماعية التي تُميّز المسلم مِنْ غيره"، وقال في هامش الصّفحة أيضا: "مِنَ الإنصاف أنْ نذكر أنّ الشّيخ ندم على طريقته في الإصلاح مفضّلا عليها تطبيق التّربية الفردية".[2]

سابعا: عبد الرّحمان محمّد بـــدوي[3]

كان عبد الرّحمان بدوي مِنَ المتحفّظين على النّظرة المثالية للشّيخ محمّد عبدَه تجاه التّربية التي قصرها على الحياة الاجتماعية دون الميادين الأخرى، لنظرته للتّربية على أنّها المخلّص للمصريّين وللبشرية مِنْ كلّ المشاكل التي تعانيها، وأنّه بإصلاح التّعليم يَصلح كلّ شيء، فقال عنه: "الرّجل كان صاحب نظرة مثالية غير واقعية إلى هذا الحقل مِنْ حقول الإصلاح، فهو عندما اعتَقَد أنّ التّربية هي العصا السّحرية التي تغيّر كلّ شيء، وتُبَدِّل كلّ سلبي فتجعله إيجابيا، وكلّ منقوص فتجعله كاملا، وتطلق كلّ مقيّد فتجعله متحرّرا، عندما اعتَقَد ذلك، قد أغفل أو قلّل مِنْ شأن الجوانب الأخرى في حياة المجتمع، والمشاكل العديدة التي لا بدّ في حلّها مِنْ أنْ يسير المصلحون والثوّار في حلّها جنبا إلى جنب مع الإصلاح التّربوي والنّهضة والتّعليم"[4]، وانتقد نظرته المثالية للتّربية واعتبرها غير علمية، وأنّها لا يمكن أنْ تكون بديلا عن العمل السّياسي الذي يُمَكِّن للتّربية في المجتمعات، فقال: "النّظرة العلمية في دراسة المجتمعات تضع التّطوّر التّربوي في مكانه مِنَ العملية الشّاملة للتّقدّم، وهي العملية التي تجمعها النّظرة السّياسية والخطّة السّياسية والعمل السّياسي للنّهوض بهذه المجتمعات"[5]، وقال مخطِّئا منهجه الإصلاحي: "وخَطَأُ الرّجلِ الأكبر أنّه قد حدّد أهدافا كبرى، ثمّ اتّخذ لتحقيقها وسائل لا تستطيع أنْ تنهض بحمل عبء التّطبيق لهذه الأهداف!".[6]

---

[1] سيّد بن حسين العفّاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، دار ماجد عسيري للنّشر والتّوزيع، جدّة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2004م، ج1، ص85.

[2] المرجع نفسه: ج1، ص88.

[3] **عبد الرّحمان محمّد حسنين بدوي:** مفكر مصري معاصر، حاصل على الدّكتوراه في الشّريعة والقانون مِنْ كلية الشّريعة والقانون بجامعة القاهرة بعنوان: الرّقابة المالية في الدّولة الإسلامية مع المقارنة بالنّظم المعاصرة، كان عضوا في مركز التّدريب والدّراسات الصّحفية بجريدة الأهرام المصرية، ورئيس مناوب لقسم مراجعة التّحرير بها، ومحرّرا بإدارتها، كما كان عضوا في نقابة الصّحفيين المصريّين بالقاهرة، مِنْ مؤلّفاته: كامل كيلاني رائد أدب الأطفال، الإسلام وتنمية المجتمع، الإسلام ومواجهة التّحدّيات وغيرها، ينظر: عبد الرّحمان بدوي، الإمام محمّد عبدَه والقضايا الإسلامية، مطابع الهيئة المصرية العامّة للكتاب، مصر، (د ط)، 2005م، ص191.

[4] المرجع نفسه: ص77.

[5] المرجع نفسه: ص80.

[6] المرجع نفسه: ص91.

ثامنا: محمّد محمّد حسيــن(ت1402هـ/1980م)

يرى محمّد محمّد حسين بأنّ إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه في الأزهر وفي المؤسّسات الحكومية الأخرى، كانت تلبية لإملاءات الإنجليز حيث قال: "وكان الشّيخ محمّد عبدَه قد كتب تقريرا يوصي فيه بإنشاء هذه المدرسة -مدرسة القضاء الشّرعي- التي أنشأها سعد زغلول حين كان وزيرا للمعارف في وزارة صهره مصطفى باشا فهمي -صديق الإنجليز الحميم- بتوجيه مِنَ اللّورد كرومر، الذي كان يرغب في إنشاء مدرسة لتخريج قضاة الشّرع بعيدا عن الأزهر، الذي عجز عن تطويره بما يلائم مصالح الاستعمار"[1]، وذكر بأنّ الاستعمار والماسونية دعّما الشّيخ محمّد عبدَه وأستاذه الأفغاني وروّجا لأفكارهما الخادمة لمشروعهما الإصلاحيّ، وأنّه لولا دعمهما لهما لمّا استطاعا تحقيق تلك الشّهرة الكبيرة، ولما أمكنهما تحقيق بعض النّجاحات، فقال عنهما في ذلك: "إنّ الماسونية والاستعمار قد نجحا في تدعيم الزّعامة الفكرية والدّينية للأفغاني ومحمّد عبدَه في المجتمع الإسلامي كلّه، وفي إضعاف أثر أعدائهما الكثيري العدد مِنْ علماء الإسلام المعاصرين، وحجب ما كتبوه عن جمهور القرّاء"[2]، كما اعتبر أنّ دعوته إلى فتح باب الاجتهاد، فسحت المجال أمام الاستعمار البريطاني ليستغلّه أوسع استغلال ويوجّه الإسلام كما يريد، وأنّ مناظراته مع أرنست رينان وفرح أنطون، واقترابه مِنْ قيم وفكر الحضارة الغربية إلى حدّ التّماهي فيها، كانت قنطرة عَبَرَتْ عليها العلمانية إلى العالم الإسلامي، واحتلّت المواقع الواحد تلو الآخر.[3]

تاسعا: فهد الرُّومــي

لم يقبل الشّيخ محمّد عبدَه الجمود والتّقليد السّائدين في الأزهر، لذلك دعا إلى الإصلاح والتّجديد، ولمّا رأى أنّ هناك جفوة بين العالَمَيْن الإسلامي والأوروبي، دعا إلى التّقريب بينهما، ولمّا ساءه حال التّربية والتّعليم في مصر، دعا إلى التّهذيب والإصلاح التّربوي، وقد أُوخذ على اشتراكه مع أستاذه الأفغاني في المحافل الماسونية ونشاطه فيها وتعاونه معه في نشر أفكارها، وصدرت منه عبارات تجاهل فيها الإسلام ودعا إلى الفرعونية المصرية وإلى القومية العربية التي هي وليدة الماسونية السّاعية إلى القضاء على الأديان، بدليل اعتباره أنّ خير أوجه الوحدة هو الوطن لامتناع الخلاف والنّزاع فيه وغاب عنه أنّ الدّين أحد أقوى عوامل الوحدة، بالإضافة إلى مطالبته باستقلال العرب عن الأتراك، وإنشائه لجمعية سرّية للتّقريب بين الأديان ودفاعه القويّ عنها وعن أعضائها، كما أُوخذ على علاقته المريبة بالإنجليز الذين كان يخلص لهم النّصيحة ويرشدهم إلى ما يوطّد دعائم احتلالهم، ويحذّرهم مِنَ الوقوع في الأخطاء التي تضرّ بمصالحهم، وهذا نظير ضغط اللّورد كرومر على الخديوي بالسّماح للشّيخ محمّد عبدَه بالعودة مِنَ المنفى إلى مصر، كما قدّم له الإنجليز الحماية لمّا كان في الأستانة حينما كثرت الدّسائس ضدّه، وأمّا عن انحرافه العقدي فالعبارات الدّالة على ذلك مبسوطة في كتبه؛ مِنْ ذلك ما

---

[1] محمّد محمّد حسين، حصوننا مهدّدة مِنْ داخلها، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 1983م، هامش ص219.

[2] محمّد حامد النّاصر، العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التّغريب، مرجع سابق: ص71.

[3] ينظر: محمّد محمّد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، مرجع سابق: ص77- 79.

قاله في رسالته التي كتبها إلى أستاذه الأفغاني: "وأنت تعلم ما في نفسي كما تعلم ما في نفسك، صنعْتَنَا بيديْكَ، وأنشأْتَنا في أحسن تقويم، فيك عرفنا أنفسنا وبك عرفناك، وبك عرفنا العالم أجمعين".[1]

فهذه جملة مِنَ الشّهادات والمواقف لعدد مِنَ العلماء والمفكّرين المهتمّين بفكر الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحيّ في التّربية وفي غيرها، وقد كانت متباينة بين مؤيّد مناصر لمنهجه ومسلكه الذي سار عليه ومشيدا بإنجازاته الحاصلة على المديَيْن القريب والبعيد، وبين معارض رافض لمنهجه وأفكاره وما خلّفته مِنْ تأثيرات سلبيّة على الفرد والمجتمع المصريّ وحتّى على الأمّة العربية والإسلامية.

الفرع الثّالث: وفاتـــــه

زخرت حياة الشّيخ محمّد عبدَه بالعلم والتّربية والإصلاح، حتّى غدا واحدا مِنْ روّاد النّهضة والإصلاح، له مدرسة في مصر وفي العالم العربي والإسلامي، وبلغت شهرته الآفاق ووصل تأثير فكره الإصلاحيّ التّربويّ إلى أقطار المشرق الإسلامي وغربه، وترك تراثا علميا وتربويا وإصلاحيا ثريّا حتّى وافته المنيّة، وبقي ذكره مرفوعا بين المسلمين يُحيونه بدراسة تراثه والعمل على بعثه مِنْ جديد لإحياء الأمّة والنّهوض بها، فَجَرَتْ عليه سُنَّة الموت كما سَرَتْ على غيره مِنَ الدّعاة والمصلحين على مرّ العصور لقوله تعالى:﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ ﴿٣٥﴾﴾[سورة الأنبياء]، فمهما كانت مكانة الشّخص عند الله، ومهما كان مقامه بين محبّيه، ينطبق عليه قول جبريل عليه السّلام للنّبي ﷺ: «**يَا مُحَمَّد؛ عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مَفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ**»[رواه الحاكم].[2]

سكن الشّيخ محمّد عبدَه في أواخر حياته بالإسكندرية، في منزل متواضع بعين شمس بناه على فدّان تخلّى له عنه صديقه الشّاعر والمستشرق الإيرلندي ويلفرد بلنت يوم أُمِرَ بمغادرة مصر[3]، وقبيل وفاته قدّم استقالته مِنْ منصب الإفتاء ومِنْ مجلس إدارة الأزهر بعدما عارضه شيوخ الأزهر المدعومين مِنَ الخديوي الذي أشعره بأنّه غير مرغوب فيه، بسبب مواقفه الصّارمة وشجاعته في قول كلمة الحقّ أمامه، وسعيه الحثيث لتجسيد مشاريعه الإصلاحية التي لم يسعفه القدر لإكمالها، وقد عبّر عنها لمّا أشيع خبر موته قبيل وفاته بأيّام، فلمّا بلغه ذلك قال شعرا:

ولست أبـــالي أنْ يقال محمّـــد * * * أَبَـلَ أم اكتظّت عليه المآتـــــم

ولكنْ دِينـــا قد أردت صلاحـــه * * * أحاذر أنْ تقضي عليه العمائـم

لقد عانى الشّيخ محمّد عبدَه قبل وفاته مِنْ كثرة الأسقام، فكانت بدايتها بتسمّم صديدي أصابه غيّبه عن الوجود أكثر مِنْ شهر لا يُحسُّ ولا يَعي، وكان جسمه يتصبَّب عرقا، وبعد أنْ شُفي منه كان يعاوده، واعترته أمراض أضعفت مِنْ قوّته ولم تضعف مِنْ همّته وعزمه وحزمه حتى لقي ربه.[4]

---

[1] فهد بن عبد الرّحمان بن سليمان الرّومي، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، مؤسسة الرسالة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 1983م، ج1، ص148- 153.

[2] أخرجه أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري المعروف بابن البيع، في المستدرك على الصّحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1990م، كتاب: الرّقاق، ج4، ص360، حديث رقم: 7921، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وعلق الذهبي في التّلخيص بقوله: صحيح.

[3] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص306.

[4] ينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج8، ص881.

وقد ألمّ به مرض اختلف الأطباء في تشخيصه هل هو المعدّة أم الكبد؟ وطال لأشهر، ليتبيّن فيما بعد أنّه السّرطان، وتمّ تحديد موضعه في المعدّة والأمعاء والكبد، ونهاه الأطبّاء عن الإجهاد الفكري وأمروه بالحِمية والرّاحة التّامة، لكنّه أغفل نصائحهم ولم يُعطِ الرّاحة لنفسه وزاد مِنْ إجهاد نفسه، فأمره الأطباء بوجوب ترك العمل وتعجيل السّفر إلى أوروبّا للعلاج وأعدّ جوازا، لكنّ الله لم يقدّر له ذلك، وكان يبيت على فراش المرض، ويغدو إلى محلّ عمله وينظر في الفتاوى وفي أعمال مجلس الشّورى ومجلس الأوقاف وأعمال الجمعية الخيرية الإسلامية، ويقضي حاجات النّاس، حتّى ثقلت عليه وطأة المرض وعجز عن الخروج واشتدّت عليه الآلام، والمرضُ يسري فيه ويُنهك قواه ويُنْحِلُ جسده، وأخذ النّاس وكبراء الأمّة يزورونه، وكانت تَرِدُ إليه الرّسائل مِنَ الأقطار تسأل عن صحّته، وساروا به إلى الإسكندرية، وبقي في دار أخ صديقه محمّد بك راسم في رمل الإسكندرية، حتّى توفّاه الله تعالى يوم الثلاثاء في السّاعة الخامسة مساء في08 جمادى الأولى 1323هـ الموافق لـ: 11 جوان 1905م، وبمجرّد إعلان موته قرّر مجلس النّظّار أنْ تتولّى الحكومة رسميا مراسيم تشييع جنازته.[1]

شُيِّعَت جنازته مِنَ الإسكندرية إلى القاهرة ونقل جثمانه في قطار خاصّ في احتفال مهيب، وسار في جنازته كبار الموظّفين والسّاسة وفرق الجيش وفرسان الشّرطة والعلماء والرّؤساء والوجهاء وطلّاب الأزهر، وأناس كثيرون مِنْ جميع الطّبقات والملل، وبعد الصّلاة عليه في جامع الأزهر ساروا به إلى القرافة ودفنوه بها، ودعا حسن باشا النّاس للانصراف ولم يَسمح لهم بإلقاء المراثي على جثمانه، لإبطال الشّيخ محمّد عبدَه هذه العادة في حياته.[2]

لقد صوّر العقاد الموكب المهيب لجنازة الشّيخ محمّد عبدَه في تقرير لم يغادر فيه صغيرة ولا كبيرة مِنَ المشاهد والملاحظات إلّا أوردها، فوصف حالة المدينة والنّاس بمختلف فئاتهم ودياناتهم، وكيف كانوا يُشيّعونه إلى القبر في إجلال وتقدير، قائلا: "فكانت موجة الحزن التي غشيت ألوف المشيّعين على طول الطّرق دفعة مِنْ أعماق القلوب والضّمائر عرفت بها الأمّة مبلغ شعورها بعظمة الفقيد الرّاحل وعظم الخسارة بفقده، وجاوز الزّحام كلّ ما قدّرته الشّرطة واتّخذت له حيطتها في المدينتَيْن منذ الصّباح الباكر قبل خروج النّعش مِنْ داره، فتعطّلتْ حركة الأسواق وأُغلقتْ الدّكاكين أبوابها للمشاركة في موكب الجنازة، واكتظّتْ الأرصفة بالواقفين والسائرين"، كما أورد تعليقات بعض الصّحف الأوروبّية على مشهد تشييع الجنازة، فقالت صحيفة الفاردي ألكسندري: "إنّ توارد الجماهير لتشييع الجنازة يخمد أنفاس القائلين بأنّ المفتي لم يكن محبوبا في الأمّة المصرية"، وقالت صحيفة ليجيبت: "إنّه مشهد مهيب مِنْ أَجَلِّ المشاهد وأشدّها تأثيرا في النّفوس، كان يشتدّ زحامه بجماهير النّاس المصطفّين على جوانب الطّرق التي مرّ بها، حتى لقد توقّفتْ حركة التّجارة فيها، وكان النّاس في سكون وإجلال خلال مرور الجنازة يخيّل إلى الرّائي أنّ جميع سكّان القاهرة الوطنيّين قد حضروا ليؤدّوا آخر فريضة مِنَ الإجلال والإعظام لذلك الشّيخ الجليل، وبينهم عدد عظيم مِنَ الأوروبّيّين".[3]

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج1، ص1044- 1046، وينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح، ص325.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج1، ص1049- 1051، وينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، ص88.

[3] عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام الشيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص165و166.

وبعد أربعين يوما مِنْ وفاته أقيمت تأبينية كبيرة حضرها أناس كثيرون، تكلّم فيها ستّة خطباء مِنْ أصدقاء الشّيخ عن حياة الفقيد وعدّدوا مناقبه وأعماله، وهم حسن عاصم والشّيخ أحمد أبو خطوة وحسن عبد الرّازق وقاسم أمين، وألقى العالم الأديب حفني ناصف قصيدة عصماء، كما ألقى شاعر النّيل حافظ إبراهيم قصيدة رثى فيها الشّيخ وهذا بعض ما جاء في أبياتها:

لقد جهلوا قــدر الإمــام فأنزلـــوا * * * تجاليده في موحش بفـــلاة
تباركت، هذا عالمُ الشّرق قد قضى * * * ولانت قناة الدّين للغمـــزات
مددنا إلى الأعلام بعــدك راحنـــا * * * فرُدَّت على أعطافنا صَفِـرَات
وآذوك في ذات الإله وأنكـــــروا * * * مكانك حتّى سوّدوا الصّفحات
أبَنْت لنا التّنزيل حكما وحكمـــة * * * وفرّقت بين النّور والظّلمـات
ووفّقت بين الدّين والعلم والحِجـى * * * فأطلعت نورا في ثلاث جهـات
فيا سَنَة مرّت بأعواد نعشـــــه * * * لأنتِ علينا أشأم السّنـــوات
حَطَّمتِ لنا سيفا وعطَّلْتِ منبـــرا * * * وأُذويتِ روضا ناضر الزّهـرات
وأطفأتِ نبراسا وأشعلتِ أنفســـا * * * على جمرات الحزن منطويـات
بكى الشّرق فارتجّت له الأرض رجَّة * * * وضاقت عيون الكون بالعَبرات
ففي الهند محزون وفي الصّين جازع * * * وفي مصرَ باك دائم الحسـرات
وفي الشّام مفجوع وفي الفرس نادب * * * وفي تونس ما شئتِ مِنْ زفرات
بكى عالَمُ الإسلام عالِمَ عصـــره * * * سراج الدّياجي هادم الشّبهات
فلا تنصبوا للنّاس تمثال عبـــدَه * * * وإنْ كان ذكرى عِبرة وثبـــات
فإنّي أخشى أنْ يَضِلُّوا فيومئـــوا * * * إلى نور هذا الوجه بالسّجدات.[1]

لقد أدرك الأجلُ الشّيخَ محمّد عبدَه وهو في أوج نشاطه، ولم يسعفه الوقت لإنجاز كلّ مشروعاته الإصلاحية، وهبّت مصر عن بكرة أبيها شعبا وحكومة لتشيّع جنازته، وكانت وفاته حِدادا عامّا، وأودع جثمانه مقبرة العفيفي بالقاهرة ونقش على قبره: "هو الحيّ الباقي"، حيث قضى أوّل حياته في التّعلّم، ووسطها في التّعليم، وآخرها في إعلاء الدّين ونفع المسلمين[2]، ليلتحق بالرّفيق الأعلى عن عمر ناهز سبعة وخمسين عاما، وعن ثلاث بنات، وعن حياة فكرية خصبة، وجهود في التّربية والإصلاح، وعن مواقف قويّة، فكان مِنْ أكبر عقول الشّرق والعروبة والإسلام في العصر الحديث.[3]

مات الشّيخ محمّد عبدَه بعدما جُمعت في شخصه مواهب نادرة، جعلته إمامَ الدّين والدّنيا، وهو ما لخّصه بيتٌ شعريٌّ كتب على قبره: قد خطّطنا للمعالي مضجعا * * * ودفنّا الدّين والدّنيا معا، فصوّر هذا البيت مدى الخسارة التي استشعرها المصريّون مِنْ فَقْدِ هذه الشّخصية العظيمة.[4]

---

[1] أحمد تيمور باشا، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، مرجع سابق: ص159- 165.

[2] ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص47و48.

[3] ينظر: محمّد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص33و34، وينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص46.

[4] ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، المصدر السابق: ص213.

لقد عاش الشّيخ محمّد عبدَه لأمّته ولم يعش لنفسه وأهله، وسخّر كلّ ما يملك في سبيل الله ولخدمة دينه وبلده وأمّته التي كان أمله أنْ يجدها قويّة مزدهرة ناهضة تقود العالم إلى الخير والفلاح.

والخلاصة أنّ حياة الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ ولادته إلى وفاته كانت متميّزة؛ تنبئ بأنّه شخصية سيكون لها شأن عظيم، وقد كان لها ذلك مِنْ خلال تلك التّجلّيات التي تمّ بسطها في ثنايا هذا المبحث، والتي تجعل القارئ يقف على شخصية كُفْأَة حازت على مؤهّلات الإصلاح، جعلتها جديرة بالاقتداء والتّأسّي بمنهجها الإصلاحي في مصر وفي العالم العربي والإسلامي، وفي المبحث الموالي حديث عن الأحوال التي سادت عصره، والتي كان لها دور كبير في بروزها كشخصية مؤثّرة في الإصلاح التّربوي.

المبحث الثّاني:
الأحوال السّائدة في عصر الشّيخ محمّد عبدَه

المطلب الأوّل: الحالة السّياسية في عصر الشّيخ محمّد عبدَه

المطلب الثّاني: الحالة الدّينية في عصر الشّيخ محمّد عبدَه

المطلب الثّالث: الحالة الاجتماعية والاقتصادية في عصر الشّيخ محمّد عبدَه

المطلب الرّابع: الحالة التّربوية والفكرية في عصر الشّيخ محمّد عبدَه

المبحث الثّاني: الأحوال السّائدة في عصر الشّيخ محمّد عبدَه

تمهيد:

باشر الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاح في العالم العربي والإسلامي في أواخر القرن التّاسع عشر، وترك بصمات إيجابية في مختلف المجالات، حتّى اعتبره الكثير مِنَ الباحثين والدّارسين الأكاديميين مِنْ روّاد النّهضة والإصلاح، فاستلزم ذلك دراسة أحوال عصره والظّروف التي أثّرت فيه، وبيان مدى مساهمتها في تكوينه وصياغة فكره، واستعراض ما قام به منْ أدوار مهمّة في مختلف الميادين؛ الدّينية والسّياسية والتّربوية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية.

لقد كانت الأوضاع المتردّية للمجتمع المصريّ في مختلف المجالات هي الباعث الحثيث لتسليط الضّوء عليها وعرضها وبيان انعكاساتها على المجتمع المصريّ، وعليه سيتمّ تقصّي الأحوال السّياسية والدّينية والاجتماعية والاقتصادية والتّربوية والفكرية في عصره، واستعراضها وبيان مضاعفاتها وآثارها السّلبية على الفرد والمجتمع، وبالنّسبة إليه فقد كان لها دور كبير في تكوين شخصيته الإصلاحية وإبرازها في الواقع، وهي التي دفعته لأنْ يحسم أمره في ترتيب أولويات تنفيذ مشروعه الإصلاحيّ، ويلقي بكلّ ثقله ويوجّه جميع جهوده نحو الإصلاح التّربويّ، وفي هذا المبحث سيتمّ تناول تلك الأحوال موزّعة على أربعة مطالب واستجلائها لبيان أثرها في مسيرة الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية، على التّرتيب الآتي؛ الحالة السّياسية في عصر الشّيخ محمّد عبدَه، ثمّ الحالة الدّينية، تليها استعراض الحالة الاجتماعية والاقتصادية، ليتمّ تسليط الضّوء في الأخير على الحالة التّربوية والفكرية.

المطلب الأوّل: الحالة السّياسية في عصر الشّيخ محمّد عبدَه

سيتناول هذا المطلب ما كان يعيشه العالم الإسلامي مِنْ أوضاع مزرية وسْط تقدّم أوروبّي مادّي ومعنوي متسارع، أغراه بالسّطو على العالم الإسلامي واستغلال أوضاعه الغارقة في الجهل والتّخلف والفُرقة، وبَسْطِ النّفوذ عليه ومحاربة مقوّماته الشّخصية حتّى يستطيع أنْ يسيطر عليه ويتحكّم فيه وينهب خيراته ويكرّس أوضاعه المتردّية، التي قام الشّيخ محمّد عبدَه في كنفها بمحاولة إصلاحها وانتشاله منها، وعليه اشتمل هذا المطلب على أربعة فروع تمثّلت في: استغلال الدّول الأوروبية لأوضاع العالم الإسلامي البئيسة ومحاولاتها الحثيثة السّيطرةُ عليه، ثمّ ذكرٌ للأمراء الذين تداولوا على حكم مصر في عصر الشّيخ محمّد عبدَه، وما قامت به الثّورة العُرابية مِنْ مقاومة للتّدخّل الأجنبي لحماية مصر مِنَ الاستعمار الخارجي، ثمّ الإشارة إلى المقصد مِنْ إنشائه لجمعية العروة الوثقى وجريدتها.

الفرع الأوّل: استغلال الدّول الأوروبية لأوضاع العالم الإسلامي المتردّية للاستحواذ عليه

كانت تسود العالم في أواخر القرن التّاسع عشر أوضاع عصيبة وظروف سياسية اتّسمت بكثرة التّقلّبات وعدم الاستقرار السّياسي، وسطوة الاستعمار الأوروبي على بلدان العالم العربي والإسلاميّ.

وكانت تعصف بالبيئة المحيطة بالشّيخ محمّد عبدَه متناقضات عدّة، وتضمّ شعوبا جاهلة ضعيفة ومتفرّقة خاضعة للمستبدّين مغربة للمستعمرين، أعاقته مع غيره عن أيّ عمل إصلاحي.[1]

وكان الضّعف والانحلال يميّز روابط الأمّة الإسلامية، حيث سرى التّشرذم في جسم الخلافة العثمانية بسبب النّزاعات والاستبداد وتكالب القوى الأوروبّية عليها، وإطلاق الأمراء المسلمين أيدي الأجانب بالتّدخّل في شؤون حكوماتهم، لذلك أثناء إقامة الشّيخ محمّد عبدَه بمنفاه في بيروت في ظلّ حكم السّلطان عبد الحميد الثّاني؛ اعتبر المحافظة على الدّولة العثمانية مِنَ العقيدة الإسلامية فقال: "إنّ مَنْ له قلب مِنْ أهل الدّين الإسلامي يرى أنّ المحافظة على الدّولة العليّة العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله، فإنّها وحدها الحافظة لسلطان الدّين، الكافلة ببقاء حوزته، وليس للدّين سلطان في سواه، وإنّي مسلمُ العقيدة، عثمانيّ المشرب، وإنْ كنتُ عربيَّ اللّسان، لا أجد في فرائض الله بعد الإيمان بشرعه والعمل على أصوله، فرضا أعظم مِنْ احترام مقام الخلافة، والاستمساك بعصمته، والخضوع لجلالته، وشحذ الهمّة لنصرته بالفكر والقول والعمل ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا، وعندي إنْ لم أقم على هذه الطّريقة فلا اعتداد عند الله بإيماني، فإنّما الخلافة حفاظ الإسلام ودعامة الإيمان، فخاذلها محادٌّ لله ورسوله، ومَنْ حادّ الله ورسوله فأولئك هم الظالمون".[2]

وعايش الشّيخ عبدَه النّفوذ الأجنبي بمختلف جنسياته، وعلى رأسه الاستعمار البريطاني الذي حاول فرض دينه وعقيدته وعاداته وتقاليده وثقافته المتباينة مع هوية المجتمع المصري للقضاء عليه.

وقد كان الشّيخ محمّد عبدَه في بيئة يعيش أكثر المسلمين فيها تحت سلطان دول تخالفهم في الدّين، ومَنْ نجا منهم مِنَ الخضوع للحكم الأجنبي المباشر، لم ينجُ مِنَ النّفوذ الأجنبي.[3]

---

[1] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص153.

[2] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج1، ص115.

[3] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص103.

كما قاسى الشّعب المصري مِنْ سطوة الاستبداد الدّاخلي الذي وَضَع مقاليد الحكم في يد الشّراكسة، وحَوَّلَ الشّعب المصري في وطنه إلى مواطنين مِنَ الدّرجة الثّانية لا يستطيعون التصدّي للزّحف الأجنبي والنّهوض بالبلاد وتمكينها مِنَ الدّخول الفعلي في عصر الإحياء والبعث والتّنوير.[1]

ليبرز الشّيخ محمّد عبدَه في مثل هذه الظّروف كواحد مِنْ أعلام التّيار الإصلاحي التّحرّري، ويدعو إلى الإصلاح والحرّية والتّحرّر مِنَ الاستبداد الدّاخلي والنّفوذ الأجنبي الذي نجم عنه الاستعمار البريطاني لمصر، الذي بدأ يُحْكِم قبضته عليها وعلى عدد مِنَ الدّول العربية والإسلامية.

وإنّ أهمّ ما ميّز فترة الشّيخ محمّد عبدَه ظهور النّزعة القومية قبل احتلال بريطانيا لمصر في عهد الخديوي سعيد والتي ازدادت وضوحا في عهد الخديوي إسماعيل، حيث طالب أصحابها بحقوق الشّعب السّياسية ومنع التّدخل الأجنبي، ثمّ شهدت البلاد نظاما دستوريا لمّا أقام إسماعيل مجلس شورى النّواب سنة 1866م، وفي هذه الفترة كتب الشّيخ محمّد عبدَه مقالات تحدّث فيها عن أهمية الشّورى في الحكم ومقاومة التّدخل الأجنبي، وفي عهد الخديوي توفيق نشطت الحركة القومية بسبب تعطيله للحياة النّيابية، وبرزت على إثر ذلك اتّجاهات ثلاث؛ اتّجاه يرى أنّ خضوع توفيق للنّفوذ الأوروبي يشكّل خطرا على استقلال مصر، واتّجاه يطالب بإحلال الحكم الدّستوري محلّ الحكم الملكي المطلق، واتّجاه قادته حركة الضّباط المصريّين الذين أرادوا القضاء على سيطرة الضّباط الأتراك الشّراكسة على الجيش، وقد وحَّدت السّياسة البريطانية هذه الاتجاهات وصهرتها في حركة الثّورة العُرابية التي انضم إليها الشّيخ محمّد عبدَه وطالب بإعادة الحياة النّيابية ووضع حدّ للتّدخّل الأجنبي، وأُجبر الخديوي توفيق على إعادة الحياة النّيابية وإقرار دستور 1882م، غير أنّ إنجلترا اعتبرت الثّورة العُرابية خطرا على مصالحها وقامت باحتلال مصر سنة 1882م، وهيمن المعتمد البريطاني كرومر على الحكم وأضعف الجيشَ المصري وجعل تعداده لا يتجاوز السّتة آلاف جندي، وحارب الوحدة الوطنيّة، وقيَّد حرية الصّحافة التي مُنعت مِنَ الحديث عن الاحتلال، فأثّر هذا الواقع السّياسي بالسّلب على التّربية والتّعليم في مصر بجَعله اللّغة الإنجليزية هي لغة التّعليم الرّسمية، ووضع مناهج تعليمية خادمة لأهداف الاستعمار، كما عارض كلّ مبادرات الإصلاح التّربوي التي تقدّم بها الشّيخ محمّد عبدَه[2]، إلاّ ما سمح له بتنفيذه خلال توليته لبعض المناصب المهمّة في الحكومة.

إنّ الوضع السّياسي العامّ الذي عايشه الشّيخ محمّد عبدَه أثّر على موقفه الإصلاحي التّحرّري مِنْ قضية امتلاك السّلطة واستثمارها فيه، وفي هذا الظّرف بالذّات كان الاستعمار الغربي قد احتلّ جزءً مِنْ بلدان العالم الإسلامي ويتهيّأ لاحتلال الباقي، لذلك رأى هذا التيّار الإصلاحي بأنّ السّعي لامتلاك السّلطة السّياسية أمر ممتنع، فمال إلى التّسليم بالسّلطة العثمانية لقيامها بمدافعة العدوّ الخارجي، لهذا لم يسع إلى امتلاك السّلطة السّياسية بصفة مباشرة لتجسيد إصلاحاته مِنْ خلالها.[3]

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص7.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص30و31.

[3] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية- مشاريع الإشهاد الحضاري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 2006م، ج3، ص140.

لقد عاصر الشّيخ محمّد عبدَه الغرب الأوروبّي الذي شهد تطوّرا ماديا ملحوظا في شتّى الصُّعُد، وأخذ يضع الخطط ويسعى للسّيطرة على العالم الإسلامي ونهب ثرواته وكسر شوكته، وعمل على إضعاف قوة الإسلام السّياسية، وظلّ نفوذه يزداد حتّى اكتملتْ سيطرته السّياسية عليه، وأضعف المسلمين، ثمّ استخدم نفوذه العسكري للتّنفيس عن حقده الصّليبي عليهم.[1]

وفي ظل هذه الظّروف اشتغل الشّيخ محمّد عبدَه بالإصلاح التّربوي بعيدا عن السّياسة، اتّقاءً لشرّ السّلطة الحاكمة الخاضعة للنّفوذ الأجنبي، لكي لا تمنعه مِنْ تجسيده، وحتّى لا يتكرّر إبعاده عن بلاده كما حصل معه سنة 1882م، وأخذ يبحث عنْ سبل تطبيقها، فاستنصر بالسّلطة القائمة وفكّر في التّقرّب مِنَ السّلطة الفعلية الحاكمة في مصر ممثّلة في اللّورد كرومر، لذلك وثّق صلته به في تنفيذ أفكاره الإصلاحية[2]، حتّى أنّه اتّخذه صديقا له، وصار كرومر يستشيره ويأخذ بآرائه وتوجهاته، ويدفع عنه مضايقات الخديوي وشيوخ الأزهر الجامدين الرّافضين للتّجديد.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الدّولة العثمانية في ذلك الوقت كانت تضمّ شبه جزيرة الأناضول[3]والعراق والشّام ومصر وشمال إفريقيا، في وقت كانت تعاني فيه عزلة سياسية وضعفا فكريا وتشريعيّا مقابل تطوّر الغرب في جميع المجالات، لذلك أحسّ المسلمون بضرورة نقل الحضارة الأوروبّية إلى بلادهم.

وأخذ سلطان الدّولة العثمانية سليم الثّالث يستقدم الخبراء العسكريّين الغربيّين في المجال الحربيّ إلى مصر للاستعانة بهم في الصّناعات الحربية وتدريب الجيش على الأسلحة الجديدة، وقد كان اتّصال المسلمين بالحضارة الغربية محصورا في جانبه المادّيّ لوصل المسلمين بأسباب القوّة حتّى يكونوا أندادا لأعدائهم الذين أدهشوا المسلمين بفنونهم العسكرية القتالية التي بدأت مع حملة نابليون على مصر واحتلال فرنسا للجزائر والضّغط السّياسي الرّوسي والبريطاني على إيران، وقد صاحب هذا النّقل المادّيّ تسرّب قيم سياسية وثقافية غربية تمثّلت في استقدام خبراء ومدرّسين أجانب إلى بلاد المسلمين وإلى مصر خصوصا، وكذا إرسال بعوث علمية إلى مختلف المعاهد الأوروبّية للاطّلاع على قيم الغرب الحضارية والاستفادة منها للّحاق به وتحقيق التّقدّم والازدهار الذي وصل إليه.[4]

وبانتهاء الحروب الصّليبية تقاسم الاستعمار تَرِكَةَ الدّولة العثمانية، فبعد أنْ كان الغرض انتزاع الأقطار النّصرانية منها، أصبح الغرض تقسيم أقطارها إلى نصرانية وإسلامية.[5]

وبضعف الدّولة العثمانية تصدّعت وحدتها وقُسِّمت إلى دويلات وأخذت الدّول الأوروبّية تتكالب عليها، فجُعِلتْ مصر مِنْ نصيب الاستعمار البريطاني الذي احتلّها عقب انهزام الثّورة العُرابية في سبتمبر

---

(1) ينظر: حافظ محمّد حيدر الجعبري، الشّيخ محمّد عبدَه وآراؤه في العقيدة الإسلامية، مرجع سابق: ص15.

(2) ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص141.

(3) **الأناضول:** ترجع إلى الكلمة الإغريقية أناتولي باليونانية وتعني الشّرق أو مكان شروق الشّمس، وهي منطقة جغرافية تقع غرب آسيا الصّغرى القريبة مِنْ شرق أوروبا، محصورة بين البحر الأبيض المتوسّط والبحر الأسود، وتشمل جلّ الأراضي التّركية ما عدا أرمينيا، ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة: https://ar.wikipedia.org، تاريخ الزيارة: الثلاثاء 2020/03/31م، في الساعة: 14:20.

(4) ينظر: عبد المجيد عبد السلام المحتسب، اتّجاهات التّفسير في العصر الرّاهن، منشورات مكتبة النهضة الإسلامية، عمان، الأردن، ط3، 1982م، ص7- 9.

(5) ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص10.

1882م، وبدأت الدّولة العثمانية تعيش لحظاتها الأخيرة، وصار حكمها لأقاليم العالم الإسلامي صوريا، وشرع الاستعمار الأوروبي يترصّدها ليقتسم تركتها، وأصبحت عاجزة بسبب الأمراض السّياسية والاجتماعية والاقتصادية واللّوثات الفكرية التي أنهكتها، وسرى فيها الضّعف والتّخلف ونخرها الفساد، مقابل رفع بعض الدّول الاستعمارية لشعارات الحرية والإخاء والمساواة التي طبّقتها بازدواجية، واتّخذتها ذريعة للتّدخّل في الشّؤون الدّاخلية لبلدان العالم العربي والإسلامي ثمّ استعمارها.

وللسّيطرة على المصريّين وحكمهم وسياستهم وترويضهم، أشرف اللّورد كرومر ومعه مستشاره التّعليمي دنلوب على تسيير النّظام التّعليمي المصريّ برؤية إنجليزية لتحقيق مصالح بلاده استعمارية.[1]

وفي خِضَمّ تلك الظّروف السّياسية الصّعبة؛ نُفِي الشّيخ محمّد عبدَه عقب الثّورة العُرابية إلى بيروت، ولكن حبّه لبلاده وإيمانه بضرورة تحريرها مِنَ الاستبداد الدّاخلي والاستعمار البريطاني، جعله يطرق كلّ المجالات لرفع الاستبداد وإجلاء الاستعمار، ورافق أستاذَه جمال الدّين الأفغاني في منهج إصلاحه السّياسيّ والثّوريّ قبل وبعد الثّورة العُرابية وهو في المنفى مِنْ باريس ولندن، لكن بمجرّد عودته إلى بيروت سنة 1885م ودخوله إلى مصر سنة 1888م، أخذ على عاتقه رسالة الإصلاح التّربوي التي رأى فيها الخلاص والتّحرّر الفكريّ والثّقافيّ والسّياسيّ والاقتصاديّ، لذلك طلب مِنْ أستاذه أنْ يعتزل السّياسة وينشغل بتربية الأجيال، لكنّ أستاذه أنَبَهُ ووصفه بالجبان، كما أشار على الأميرة نازلي هانم وهو في قصرها أنْ تترك السّياسة وتهتم ببناء المدارس وتعليم النّساء.

وبمجرّد فراق الشّيخ محمّد عبدَه لأستاذه الأفغاني، وتهيّؤ الظّروف لديه وتوفّر الآليات المعينة له على تنفيذ برنامج إصلاحه التّربوي؛ استغلّ المناصب التي شغلها، والحماية التي كان يحظى بها مِنَ الخديوي ومِنْ كرومر الذي كان يقدّره ويستشيره، فاختطّ لنفسه منهجا تربويّا لإصلاح الأمّة والنّهوض بها بنفَسٍ متواصل، تحدّى به المعوّقات والصّعوبات التي كانت تعترضه إلى آخر لحظة مِنْ حياته.

الفرع الثّاني: حكّام مصر الذين عاصرهم الشّيخ محمّد عبدَه

عاصر الشّيخ محمّد عبدَه بعض الحكّام الذين تعاقبوا على حكم مصر، وهم على التّوالي: عبّاس الأوّل وسعيد وإسماعيل وتوفيق وفترة مِنْ حكم الخديوي عبّاس حلمي الثّاني[2] الذي حكم مصر مِنْ سنة 1895م إلى ما بعد وفاة الشّيخ محمّد عبدَه بسنتين سنة 1907م.

كانت مصر ولاية عثمانية منذ 1517م، ولمّا شنّت فرنسا حملتها العسكرية عليها بقيادة نابليون بونابرت سنة 1798م، طردهم محمّد علي باشا وأخرجهم منها سنة 1801م، فعاشت مصر فراغا في السّلطة، حتّى عيّنه الباب العالي واليا على مصر سنة 1805م، واستمرّ يحكمها طويلا مدّة ثلاثا وأربعين سنة إلى قبيل ميلاد الشّيخ محمّد عبدَه بسنة سنة 1848م، ثمّ حكمها مِنْ بعده ابنه إبراهيم باشا لسنة واحدة إلى غاية ولادة الشّيخ محمّد عبدَه سنة 1849م، ثمّ جاء عبّاس حلمي الأوّل الذي حكم ابتداء مِنْ سنة 1849م إلى غاية بلوغ الشّيخ محمّد عبدَه سنّ الخامسة مِنَ العمر وهي السّنة التي اغتيل فيها عبّاس سنة 1854م، كما عاصر فترة حكم محمّد سعيد مِنْ 1854م إلى سنة 1863م.

---

[1] ينظر: محمود قمبر، الإصلاح التربوي في مصر، مرجع سابق: ص12.

[2] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص30.

ليتولّى الحكم مِنْ بعده أخوه إسماعيل مِنْ 1863م إلى 1879م، حيث كان الشّيخ محمّد عبدَه في عِقْدِه الثّالث مِنَ العمر وقد تخرّج في الأزهر ونال شهادة العالمية وبدأ يُدرّس ويكتب ويقوم بالإصلاح التّربوي، بعدما تَكَوَّنَ دينيّا وعلميّا وثقافيّا على أيدي مشايخ وعلماء كان لهم التّأثير الكبير على مساره الإصلاحيّ، أمثال الشّيخ خضر درويش، وجمال الدّين الأفغاني الذي أرشده إلى تحصيل العلوم العصرية والمشاركة في الحياة السّياسية، وعَرْضِ أفكاره بالكتابة الصّحفية، حتّى بدأ يتبلور مشروعه، ويستقلّ بمنهجه الإصلاحيّ التّربويّ بعد عودته مِنَ المنفى ويجعله ضمن أولوياته.

وفي فترة حكم توفيق باشا لمصر مِنْ سنة 1879م إلى غاية 1892م، استنفد الشّيخ محمّد عبدَه جهده ووقته وتفكيره في الإصلاح التّربويّ، ليستمرّ نشاطه أثناء فترة عبّاس حلمي الثّاني مِنْ سنة 1892م إلى غاية وفاة الشّيخ محمّد عبدَه سنة 1905م.[1]

وفي عِقده الثّالث كان الشّيخ محمّد عبدَه قد رسم معالم طريقه في الإصلاح التّربوي بعدما خَبَرَ الواقع المصري المتأزّم في شتّى المجالات، الذي كانت تكتنفه الكثير مِنَ العقبات السّياسية والممارسات المنحرفة لملوك مصر الذين تعاقبوا على الحكم إبّان حكم الدّولة العثمانية وإبّان النّفوذ الأجنبي والاحتلال البريطاني، ففي الرُّبع الأخير مِنَ القرن التّاسع عشر الميلادي، رهنت العائلة الخديوية مصير مصر السّياسي، بإثقال كاهلها بالدّيون، التي مهّدت لاستعمارها مِنْ طرف الإنجليز الذين كانوا يتربّصون بها الدّوائر ومعهم الفرنسيون منذ عقود طويلة ترجع إلى حملة نابليون على مصر سنة 1798م.

وفي مُناخ تلك المشاهد السّياسية المتهالكة نتيجة الضُّعف والتّخلّف والفساد والخضوع للأجنبي؛ جابه الشّيخ محمّد عبدَه تلك الأوضاع وتحدّاها سالكا منهج الإصلاح التّربوي لتحسين الأوضاع رغم العراقيل التي وضعها الخديوي إسماعيل باستبداده السّياسي وإسرافه المالي وفساده الأخلاقي، ومِنْ بعده الخديوي توفيق الذي مكّن للأجانب الذين تنفّذوا في البلاد، وتمهيده الطّريق أمام الاستعمار البريطاني الذي أحكم قبضته على مصر ورهن مصيرها باحتلالها سنة 1882م.

الفرع الثّالث: قيام الثّورة العُرابية ومدافعة التّدخل الأجنبي في مصر

خلال فترة حكم الخديوي إسماعيل تأزّمت الأوضاع السّياسية والاقتصادية، وازداد النّفوذ الأجنبي، وبمجيء الخديوي توفيق إلى الحكم تصاعدت وتيرة الاستبداد وتكرّس نفوذ الإنجليز أكثر وأخذوا يتربّصون بمصر الدّوائر ويحيكون ضدّها المؤامرات لإحكام قبضتهم عليها جيّدا، الأمر الذي أثار حفيظة الشّعب المصريّ، فخرج في مظاهرات عارمة احتجاجا على تلك الأوضاع، ونجم عنها قيام الثّورة العُرابية التي كان الشّيخ محمّد عبدَه أحد أبرز عَرَّابِيها، لكنّ الإنجليز أفشلوها واحتلّوا مصر.

ومِنْ أهمّ الأسباب السّياسية لقيام الثّورة العُرابية هي ثورة الضبّاط المصريّين على الوزير نوبار في أفريل 1879م، لإحالته لـ: 2500 ضابط مصري على الاستيداع، وإهدار حقوقهم، وممالأة الأجانب مِنَ العسكر والجنود الشّراكسة، فانجرّ عنها قيام الثوّار بضرب وزيريْ بريطانيا للمالية وفرنسا للأشغال، ممّا دعا الوزارة إلى الاستقالة وتشكيل وزارة جديدة، وأصدرت الأستانة قرارا بخلع إسماعيل وإسناد الحكم لابنه توفيق في جوان 1879م، فهذه الأسباب أدّت إلى قيام الثّورة العُرابية بقيادة أحمد

[1] ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرّة: https://ar.wikipedia.org، تاريخ الزيارة: الأحد: 2020/04/12م، في الساعة: 14:30.

عُرابي[1] سنة 1881م ومناهضة التّدخّل الأجنبي في مصر[2]، والمطالبة بالمساواة بين الضبّاط المصريّين والضبّاط الشّراكسة والمطالبة بالحكم النّيابي للقضاء على الاستبداد، لتتوسّع الثّورة وتتزايد مَطَالِبُها إلى تحرير المصريّين والتّخلّص مِنَ التّرك والشّراكسة المتحكّمين في المناصب العليا في الإدارة والجيش[3]، فانضمّ إليها جميع أطياف الشّعب المصريّ مِنَ الخاصّة والعامّة والطّلبة وشيوخ الأزهر، حتّى الجرائد ساهمت في تأجيج الثّورة وتهييج الشّعب، لكنّ الثّورة انتهت بالفشل واحتلال الإنجليز لمصر.[4]

كان الشّيخ محمّد عبدَه يزاول إصلاحاته التّربوية وسْط تلك الأوضاع السّياسية المتأزّمة، لكن هيجان الثوّار وانخراط المصريّين فيها، جعله يتأثّر بالمنهج السّياسي والثّوري الذي قاد الشّعب المصري إلى الثّورة على الأوضاع مع نخبه الثّائرة بقيادة أحمد عُرابي وعبد الله النّديم وغيرهما بسبب فشوّ الاستبداد الدّاخلي والفساد المالي والسّياسي والنّفوذ الأجنبي، الأمر الذي حدا به إلى المشاركة في الثّورة التي مُنيت بالفشل وانهزم الثّوار واحتُلّت مصر وقُبض عليه وسُجن وحُوكم ليُنفى بعدها إلى بيروت.

ورغم مخالفة الشّيخ محمّد عبدَه لمبادئ الثّورة العُرابية، إلاّ أنّ وطنيّته وحرصه على كرامة أمّته، جعلته يُلقِي بكلّ قُواه في الثّورة وبخاصّة عندما رأى الأخطار الأجنبية تتهدّد استقلال بلاده بعد العدوان العسكري الإنجليزي وضربه لمدينة الإسكندرية ودخوله منها واحتلاله لمصر.[5]

وقُبيل قيام الثّورة العُرابية كان الشّيخ محمّد عبدَه يلتقي بقائد الجيش أحمد عُرابي ويناقشه حول رأيه بأولوية التّخلص الفوري مِنَ الاستبداد وتنصيب حكومة شورية، فحاول الشّيخ محمّد عبدَه إقناعه بأولوية الاهتمام بالتّربية والتّعليم، ثمّ السّعي لحمل الحكومة على العدل قدر المستطاع، فلا يليق الخوض في الأمور السّياسية التي لم تستعدّ لها البلاد بعد، فإنّ ذلك سيكون مِنْ قَبيل تسليم المال للنّاشئ قبل بلوغه سنّ الرّشد، فيُفسد المالَ ويُفضي إلى الهَلَكَةِ، كما نبّه إلى أنّ مشاركة الحكومة بالقوّة العسكريّة أمر غير مشروع، وأنّ إنجازاتها لن تعمّر طويلا، وتنبّأ له بأنّ هذا الشّغب الذي ستعقبه الثّورة قد ينجرّ عنه احتلال الأجانب للبلاد وهو ما حصل بالفعل.[6]

لكنّ عُرابي مضى يجسّد توجّهه، تحدوه آمال كبيرة في النّجاح لتحقيق مطالب الثّورة وتلبية طموحات شعبه المشروعة، ملقيا بتوجيهات ونصائح الشّيخ محمّد عبدَه وراء ظهره.

وقُبيل قيام الثّورة كان رأي الشّيخ محمّد عبدَه منصبًّا على الإصلاح التّربوي بعيدا عن السّياسة، ورفض الثّورة وتحامل على قادتها الذين اختاروا التّغيير بالقوّة العسكرية، واتّهمهم بقصور

---

[1] **أحمد عُرابي(1841م- 1911م):** زعيم مصري وقائد عسكري برتبة عميد، التحق بالجيش المصري سنة 1854م، عانى مِن اضطهاد الشّراكسة والأتراك في الجيش، وتأصّلت في نفسه روح الكراهية للعناصر الأجنبية المسيطرة على الجيش المصري، قام بالثّورة على التّدخّل الأجنبي في شؤون مصر الدّاخلية، أُثر عنه قوله: "لقد خلقنا الله أحرارا فو الله الذي لا إله إلا هو، لا نُورّث ولا نُستعبَد بعد اليوم". ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، ص204و210، وينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة: https://ar.wikipedia.org، تاريخ الزيارة: الثلاثاء 2020/03/31م، في الساعة: 15:00.

[2] ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص20.

[3] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص196.

[4] ينظر: المرجع نفسه: ص194.

[5] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص7.

[6] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، المرجع السّابق: ص194.

النّظر وانعدام الحكمة، لذلك عادَوْه وهدّدوه بالقتل، لكنّه ما إنْ رأى تواطؤ الخديوي مع الإنجليز على احتلال بلاده لإنقاذ عرشه، حتّى انضمّ إلى الثّورة وصار مِنْ قادتها، خصوصا لمّا تطوّرت الثّورة إلى قضيّة قومية مطالبة بالحكم النّيابي، وصار يرى بأنّ الأمّة لابدّ أنْ تتوحّد كلمتها على مقاومة الاحتلال البريطاني الذي بدأت تلوح أماراته، وحرّر مع سامي البارودي بيان الحزب الوطني الحرّ حول غاية الحركة الوطنية ومبادئها، كما وضع صيغة اليمين ليقسم عليها الضبّاط على الاتّحاد ضد الإنجليز والفرنسيّين الَّلذَيْنِ أرْسَوْا أسطولَيْهِمَا قُبالة سواحل الإسكندرية في ماي 1882م استعدادا لاحتلال مصر، ونشر مقالات في جريدة الوقائع المصرية دعا فيها إلى التّطوّع في صفوف الجيش المصري للدّفاع عن مصر وإمداده بالإعانات والتّبرّعات، لكنّ الدّسائس الأجنبية ضد الثّورة، وخيانة بعض الباشوات المؤيّدين لها، وارتماء الخديوي في أحضان المستعمر؛ أفشلت الثّورة واحتلّ الإنجليز مصر، وقُبض على زعمائها وعلى رأسهم الشّيخ محمّد عبدَه الذي حُكم عليه بالسّجن ثمّ بالنّفي.[1]

لقد برز الشّيخ محمّد عبدَه وهو يزاول إصلاحاته التّربوية في أجواء سياسية تميّزتْ بالفساد وسوء التّسيير والنّفوذ الأجنبي المتنامي، وعمالة حكّام مصر للإنجليز والفرنسيّين الذين عاثوا في مصر فسادا، فأرسَوْا الاستبداد وكرّسوه، لأنّه بسببهم عمّ التّخلّف والضّعف وأوجدوا نزاعات وصراعات أدّت إلى التّناحر بين أهل الجمود المناهضين لأيّ تجديد يواكب الحضارة الغربية المتطوّرة، وبين فريق ثانٍ فُتِن بالحضارة الغربية وآثرها على قيم ومبادئ دينه، وعلى ثقافة وأعراف وتقاليد أمّته، لذلك انتهج الشّيخ محمّد عبدَه سبيل الوسطية بين تجاذبات الفريقَيْن، وسلك سبيل الإصلاح التّربوي الذي رأى فيه استقلال بلاده وتطوّر أمّته ونهضتها ونجاحها، دون أنْ يغفل عن إصلاح باقي الميادين.

الفرع الرّابع: تأسيس جمعية وجريدة العروة الوثقى ومقاصدهما

لمّا حلّ جمال الدّين الأفغاني بفرنسا، استدعى الشّيخ محمّد عبدَه ليلتحق به في باريس مِنْ منفاه ببيروت، واتّفقا للعمل معا على تحرير الشّرق الإسلامي وإعادة مجد الإسلام، فأسّس الأفغاني جمعية العروة الوثقى سنة 1884م، ثمّ أصدرا جريدة العروة الوثقى النّاطقة باسم الجمعية لإيجاد وعي سياسيّ وديني مستنير في الشّعوب الإسلامية حتّى تناهض الحكم الدّكتاتوري الشّموليّ المستشري في بلدان الشّرق الإسلامي، وحتّى تقيم حكما ديمقراطيا شوريا بين النّاس، وتعمل على إحياء الأخوّة الإسلامية وإقامة جامعة إسلامية، وبعد ثمانية أشهر مِنْ صدور العدد الأوّل منها بتاريخ 13مارس سنة 1884م أوقفها المستعمر البريطاني في 16أكتوبر 1884م في مصر والهند، بعد صدور ثمانية عشر عددا منها، بسبب مواقفها المقاومة للاستعمار، ودعوتها لإقامة جامعة إسلامية موحّدة.[2]

وقد كانت مقاصد العروة الوثقى هي تحقيق الجامعة الإسلامية بإقامة دولة موحّدة للمسلمين، تقوم على إشادة المسلمين بالقرآن الكريم، وبسيرة النّبي ﷺ وخلفائه في إقامته وتأسيس حكومته، وسيرة السّلف الصّالحين في هدايته، وسيرة القوّاد والفاتحين في تشييد صروح سيادته، ومذاهب

---

[1] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص195- 197.

[2] ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق: ج3، ص78.

الأئمّة المجتهدين وطرقهم العلمية في تدوين شريعته، ومناهج الحكماء والفنّانين في تكوين حضارته وتوجيه شعوبهم إلى استقلال بلادهم واتّحادها وتعاونها على إحياء مجده.[1]

ومع رفع الشّيخ محمّد عبدَه للواء الإصلاح التّربوي إلّا أنّ الظّروف السّياسية أرغمته على خوض غمارها واتّخاذها وسيلة لتحقيق إصلاحاته التّربوية المنشودة، واستنفد جميع وسائل وأساليب الإصلاح المتاحة، منها مشاركته في الثّورة العُرابية وممارسته للكتابة الصّحفية وانتقاده للحكومة، ومساهمته في تأسيس مختلف الجمعيات، وإنشائه للجرائد ونشره للمقالات وكتابته في مختلف الموضوعات.

المطلب الثّاني: الحالة الدّينية في عصر الشّيخ محمّد عبدَه

لقد تمّ التّطرّق في هذا المطلب إلى الحالة الدّينية التي عايشها الشّيخ محمّد عبدَه في مجتمعه، بعرض أهمّ سماتها والحديث عنها في أربعة فروع، فقد تحدثتُ في الفرع الأوّل عن مساعيه لإصلاح الحالة الدّينية المتردّية التي انعكست سلبا على نهضة وتقدّم الأمّة المصرية، وفي الفرع الثّاني: تناولتُ أدوار الاستعمار الماكرة في محاربة الدّين ومحاولاته المتكرّرة لمسخ هوية المصريّين العربية والإسلامية، وفي الفرع الثّالث: تطرّقتُ إلى الحديث عن دور كلٍّ مِنَ الأزهر والشّيخ محمّد عبدَه في تجسيد أفكاره التّربوية، ليختم المطلب بالفرع الرّابع الذي تناولتُ فيه النّشاطات الموازية التي قامت بها المدارس التّنصيرية والحكومة العثمانية في مجالَيْ اللّغة العربية والدّين الإسلامي في مصر.

الفرع الأوّل: تردّي الحالة الدّينية المصرية ومساعي الشّيخ محمّد عبدَه لإصلاحها

عاش الشّيخ محمّد عبدَه في بيئة مصرية اتّسم وسطها الدّيني بشيوع أفكار وسلوكات لا صلة لها بأصول الدّين الإسلامي ونصاعته المشرقة، كما تميّزت بسيادة الخرافة وشيوع الأوهام، حيث لم يكن لجوهر الدّين فيه وحقيقته نصيب، ومظاهر الوحدانية على قلّتها بادية وحقائق الوثنية الكثيرة مستحكِمة، والأزهر متشبّث بالجمود والتّقليد، والصّوفية هي صاحبة السّلطان، والمسلمون يعيشون الضعّف والفتور، وأمّا قيادتهم فهي بين الانهزام والتّهميش.[2]

وتجدر الإشارة إلى أنّ الطّابع الإسلامي كان هو الغالب على بيئة الشّيخ محمّد عبدَه التّعليمية، فقد كان عامّة النّاس وخاصّتهم متأثّرين بشيوخ الأزهر، فهم مراجعهم وقدوتهم رغم ضحالة المستوى الدّيني والعلمي والفكري لبعضهم، فغالبيتهم يحفظون القرآن الكريم ولا يفقهون معناه، بالإضافة إلى عدم التزامهم الكامل بأوامر الشّرع ونواهيه، وكذا اهتماماتهم بالأعمال الصّورية والطّقوس الدّينية على حساب الجوهر، ونشرهم لفهومهم الشّخصية عن الدّين وأحكامه واعتبارها أحكاما شرعية قطعيّة.

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص306 و307.

[2] ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص20، وينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج1، ص243.

أمّا عقيدة الأمّة وأصول دينها فقد رانت عليها الجهالات والبدع والخرافات، وتحوّلت أغلب كتب التّوحيد إلى متون وحواشي مليئة بالجدل اللّفظي العقيم، الذي أغرق الأمّة في كمّ هائل مِنَ القصص الخرافية والإسرائيليات.[1]

يضاف إلى ذلك افتتان عامّة النّاس بالمتّصوّفة الذين اتّخذوهم أندادا لله يطلبون منهم ما يُطلب مِنَ الله تعالى، وأمّا الفقهاء فقد احتقرهم الأمراء والسّلاطين وسخّروهم لخدمة أغراضهم ومصالحهم، وتقوية نفوذهم وسلطانهم باستصدار فتاوى مؤيّدة لهم، حتّى وصل الأمر بهذا الصّنف مِنَ الفقهاء إلى الاستماتة في الدّفاع عمّا ينسبونه للدّين مِنْ عادات جاهلية، وبدع وثنية، وأوهام ورثوها مِنْ عصور الظّلام وعهود الاستبداد، بل واتّهام كلّ مَنْ يدعو إلى تحرير العقول وتنوير الأفكار، والدّعوة إلى العلم والاجتهاد والتّجديد بالكفر والزّندقة والمروق مِنَ الدّين.[2]

وقد شهد الشّيخ محمّد عبدَه تردّي الحالة الدّينية للمجتمع المصري في الأزهر الذي يمثّل إحدى أعرق المؤسّسات الدّينية والعلمية المصرية، حتّى أنّه صرّح بامتعاضه مِنْ سياسة الحكومة تجاهه، ومِنْ مناهجه وطرائق مشايخه في التّعليم، وممّا تلقاه فيه مِنْ أفكار وما عايشه مِنْ ممارسات وسلوكات بعيدة عن المنهج الإسلامي، حتّى قال مرّة للشّيخ البحيري -عضو مجلس إدارة الأزهر- وهو يحدّثه عن إحدى جوانب الأزهر المظلمة فيه: "إذا كان لي حظٌّ مِنَ العلم الصّحيح الذي تَذْكُر، فإنّني لم أحصّله إلا بعد أنْ مكثتُ عشر سنين أكنس دماغي ما علق فيه مِنْ وساخة الأزهر، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له مِنَ النّظافة".[3]

كما وَجَدَ المسلمين منقسمين إلى شيع ترى كلّ واحدة منها أنّها على حقّ، بالإضافة إلى سيادة الجهل والأمّية التي منعتهم مِنْ معرفة حقيقية الإسلام، فعقد العزم على إحيائه بإعادة الأمّة المصرية إلى أصول دينها الإسلاميّ، الذي لا يمنع مِنَ الأخذ مِنَ المدنيّة الحديثة التي لا تُناقض أحكامه، وتراءى له بأنّ ذلك لا يتمّ إلّا بإحداث نهضة فكرية، ونشر التّعليم بين الأمّة، ودراسة العلوم الحديثة، للّحاق بالأمم المتطوّرة، لذلك عمل على بعث الإسلام في نفوسهم، لأنّه يحمل في ذاته عوامل الإحياء والتّجديد والقوّة والسّيادة التي تساهم في إخراج المسلمين في مصر وفي كل أقطار العالم الإسلامي مِنْ أحوالهم البئيسة، والعودة بهم إلى مجد أسلافهم ذوي التّديّن السّليم، والمتمسّكين بعقيدتهم الصّحيحة.[4]

كما عايش الشّيخ محمّد عبدَه شيوع فكرة التّعارض بين العلم والدّين في خضمّ سيادة ثقافة رجعية تعادي العلوم العصرية التي تزعم معارضتها للدّين، فعارضوا تدريسها على أنّها محرّمة، فكان موقفه مقاوما لهذه الأفكار الرّجعية التي تمنع الاستفادة مِنَ الأمم الأخرى وأخذ النّافع منها.

لذلك تصدّى الشّيخ محمّد عبدَه لدحض تلك الأفكار وإبطالها، وبيّن أنّ الإسلام والعلم متلازمان في إصلاح النّفوس، وأنّه لا تعارض بينهما، وأنّ الإسلام لا يعارض التّقدّم، وأنّ القرآن الكريم يدعو إلى

---

[1] ينظر: محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، مصدر سابق: ص6.

[2] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص155و156.

[3] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص194.

[4] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص104.

دراسة الكون واكتشاف أسراره، إذْ العلم والإسلام وجهان لحقيقة واحدة، وعمل على تطبيق إصلاحاته التّربوية وفق منهج أقامه على قناعة راسخة بأنّ الدّين والعلم إذا فُهِمَا فهما سليما يستحيل أنْ تكون بينهما خصومة، لهذا قال الشّيخ محمّد عبدَه: "فالعلم الصّحيح مقوّم للوجدان، والوجدان السّليم مِنْ أشدِّ أعوان العلم، والدّين الكامل علمٌ وذوقٌ، وعقلٌ وقلبٌ، برهانٌ وإذعانٌ، فكرٌ ووجدانٌ، فإذا اقتصر دِينٌ على أحد الأمرَيْن؛ فقد سقطت إحدى قائمتَيْه، وهيهات أنْ يقوم على أخرى، ولن يتخالف العقل والوجدان حتّى يكون الإنسان الواحد إنسانَيْن، والوجود الفرد وُجُودَيْنِ".[1]

إنّ الواقع الذي طبع الحياة الدّينية لعصر الشّيخ محمّد عبدَه؛ كرّس الجمود والتّقليد بين طلّاب العلم الشّرعي، وأرسى الفكر الذي حجب عنهم فِقْهَ الدّين، ومنعهم مِنَ الاجتهاد والتّجديد، وصرفهم عن إصلاح واقعهم لتحقيق نهضة أمّتهم وتقدّمها.

وحقيقة الإصلاح الدّيني الذي قام به الشّيخ محمّد عبدَه تمثّل في: "محاولة ردّ الاعتبار للقيم الدّينية، ورفع ما أُثير حولها مِنْ شُبهٍ وشكوك قصد التّخفيف مِنْ وزنها في نفوس المسلمين، ونعني به كذلك محاولة السّير بالمبادئ الإسلامية مِنْ نقطة الرّكود التي وقفتْ عندها في حياة المسلمين، إلى حياة المسلم المعاصر، حتى لا يقف مسلم اليوم موقف المتردّد بين أمسه وحاضره عندما يصبح في غده".[2]

فيكون الإصلاح الدّيني بالقضاء على مظاهر التّأويل والتّعطيل والتّضليل والجمود التي لحقت القيم الإسلامية، وبتحقيقه عمليا في حياة المسلم حتّى يلابس ظروفه التي يعيشها، وذلك بما يبذله المصلحون مِنْ جهود لتغيير حال الأمّة وتقريبها مِنَ النّموذج الإسلاميّ الصّحيح في تفكيرها وسلوكها.[3]

كما أنّ الأوضاع المزرية المختلفة المحيطة بواقع الحياة الدّينية للشّيخ محمّد عبدَه، زادت مِنْ قَتامة المشهد الدّيني، وضاعفتْ مِنْ صعوبته، لذلك سعى لإيجاد مخرج مخلِّص لمجتمعه على المستويَيْن الأفقي والعمودي، وعمل على إصلاح الأوضاع وتغييرها نحو الأحسن والارتقاء بها نحو الأفضل في شتّى الميادين وخاصة في المجال التّربوي الذي يكتسي عنده طابع الأولوية، ويَعْتَبِرُه المخرج الآمن، لذلك باشر بإصلاحه وقدّمه على بقية المجالات الأخرى التي لا تقلّ أهمّية عنه، واستطاع أنْ يجسّد ما أمكنه، بإيمان قويّ بالله، واثقا في نفسه مقتنعا بأفكاره، متسلّحا بإرادة قوية وعزم وإصرار كبيرَيْن على التّنفيذ، رغم العوائق والعقبات التي اعترضتْ طريقه الإصلاحي إلى أنْ وافاه أجله.

الفرع الثّاني: محاربة الاستعمار البريطاني لهُوية المجتمع المصري الإسلامية

عمل الاستعمار البريطاني على إحلال دينه وأفكاره محلّ العقيدة الإسلامية للمصريّين، وقام بتوظيف نخبه وكفاءاته وسخّر كلّ ما توفّر لديه مِنْ إمكانات مادّية، وانتهج سياسة اتّسمتْ بالخبث لتنفيذ مخطّطاته لإنجاحها وتحقيق أغراضه، تماشيا مع المقولة المكيافيلية؛ الغاية تبرّر الوسيلة، وعمل على الاستغلال الفاحش لمُقَدَّرات الشّعب المصري بعدما احتلّ بلده، وتسلّل إلى عقيدته وحاول تغيير تصوّراته ومفاهيمه الدّينية، وتشويه تراثه الإسلامي وتشكيكه في دينه لإبعاده عنه وتسهيل

---

[1] محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، مصدر سابق: ص135.

[2] محمّد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مرجع سابق: ص329.

[3] ينظر: محمّد زرمان، فلسفة التجديد الإسلامي الشيخ البشير الإبراهيمي أنموذجا، مرجع سابق: ص13.

اقتياده وإخضاعه والسّيطرة عليه، لربطه بالغرب الصّليبي دينيّا وروحيّا ووجدانيّا، وقد بلغتْ سطوة الاستعمار البريطاني عليه؛ نجاحه في جعل المصريّين يرتمون في أحضانه وينفّذون سياسته ويتبنّون أفكاره ويعتنقون معتقداته، في مقابل الفريق الذي مَثَّلَه الشّيخ محمّد عبدَه الذي تحفّظ مِنَ الاستعمار وحاول التّوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية في المتغيّرات دون الثّوابت.

لقد زحف النّموذج الغربي على الشّرق الإسلاميّ في ركاب الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة زاعما تحديثه وتحقيق التّقدم فيه، هذا النّموذج الذي يتميّز بالانحياز إلى عالم الشّهادة ورفض عالم الغيب، وإلى الدّنيا في مواجهة الدّين، وإلى التّشريعات الوضعية ورفض الشّرائع الرّبانية، وإلى المادية في مقابل الرّوح، وإلى العقل في مقابل النّقل، فسيطر على الفضاء الفلسفي والثّقافي والسّياسي بثنائياته المتناقضة، مقابل الفريق الذي أفرط في الجمود والتّقليد وتغلغل بين طلّاب علوم الدّين في الشّرق الإسلاميّ، وبين هَذَيْن الطّرفَيْن حرص الشّيخ محمّد عبدَه على الإصلاح بوسطية إسلامية جامعة وهو يقول: "ولقد خالفتُ في الدّعوة إليه -منهج الوسطية في الإصلاح- رأي الفئتَيْن العظيمتَيْن اللّتَيْن يتركّب منهما جسم الأمّة؛ طلاّب علوم الدّين ومَنْ على شاكلتهم، وطلّاب فنون هذا العصر ومَنْ هو في ناحيتهم"[1]، وهكذا سار الشّيخ محمّد عبدَه على منهج الإسلام الوسطيّ، وجعله منهجا له في الإصلاح بعيدا عن إفراط طلاّب علوم الدّين في عصره، وتفريط طلاّب النّموذج الغربي الوافد مع الاستعمار.[2]

وقد باشر الإصلاح الدّيني لإزالة ما علق بالإسلام ما ليس منه؛ إمّا بحسن ظنٍّ مِنْ مِثْل ما صدر مِنْ بعض علمائه ومفكّريه الذين أساءوا إليه بسبب فهومهم القاصرة المغلوطة التي لا يُقِرُّها الإسلام، وإمّا بإفسادٍ متعمَّد مِنْ مفكّري الغرب وعلمائه ومُستشرقيه ومُنصِّريه الحاقدين عليه وعلى المسلمين.

ومِنْ أساليب الغرب لتشويه فكر المصريّين وإبعادهم عن دينهم وإغرائهم بأفكاره التّغريبية للتّأثير بالسّلب على تديّنهم وعلى عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية؛ تربية أبناء المسلمين على أسس أوروبّية في طريقة التّفكير والسّلوك لتقريبهم منه وفتنتهم بحضارته، وإعادة صياغة الإسلام وفق رؤيته بتحريف وتأويل نصوصه الربّانية لزرع الفُرقة والخِلاف بينهم حتّى يسهل عليه اختراقهم والتّحكم فيهم واقتيادهم، كما سخّر الإعلام إنشاء الصّحف والمجلّات التي تروّج للمذاهب الدّينية والاجتماعية والتّربوية المنقولة مِنْ كتبه وثقافته المشْبعة بالعقيدة النّصرانية الصّليبية، وتجنيده للمستشرقين العارفين بالنّسيج الاجتماعي المصريّ حتّى يتمكّن مِنْ تكريس الخلافات المذهبية فيه وإثارة النّعرات الطّائفية بينهم، وتشكيكهم في دينهم، وبثِّ الرّوح الصّليبية في الكتب التي كان يوزّعها عليهم بالمجّان.[3]

لقد أفرزتْ تلك الوسائل شخصيات علمية وسياسية ودينية عميلة مكّنت للاستعمار في مصر، ليبرُز الشّيخ محمّد عبدَه ومَنْ اقتنع بخطّه الإصلاحيّ وفكره التّربويّ مِنْ بعض شيوخ الأزهر المصلحين، متصدّيا لمخطّطات الاستعمار البريطاني بفكر إسلامي وسطي، لحماية الأمّة المصريّة المسلمة مِنَ الانصهار في بوتقة الفكر الغربيّ الصّليبي الذي تغلغل في بيئة الشّيخ محمّد عبدَه بسبب سيطرة

---

[1] محمّد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص40و41.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص49.

[3] ينظر: حافظ محمّد حيدر الجعبري، الشّيخ محمّد عبدَه وآراؤه في العقيدة الإسلامية، مرجع سابق: ص21-23.

الاستعمار البريطاني على مصر، وتوظيفه لكلّ الوسائل لطمس هويّة المسلمين وإضعافهم، وتفكيك روابطهم الاجتماعية، وتشجيع البدع فيهم، واستباحة المحرّمات ونشر الموبقات بالكتب والرّسائل والمنشورات والمحاضرات، واستطاع الاستعمار بسياسته وأساليبه تلك تحقيق أهدافه، حيث انسلخ الكثير مِنَ المصريّين مِنْ دينهم، وشوّهوا الإسلام والمسلمين، وصار التّوحيد خرافة، والعبادات مجرّد عادات وطقوس، وأخذوا يعملون بالتّمائم والتّعاويذ، ويحجّون إلى قبور الأولياء ويطلبون الشّفاعة منها؛ الأمر الذي عقّد مهمّة الشّيخ محمّد عبدَه وصعّب عليه تجسيد إصلاحاته التّربوية كلّها.

إنّ الحياة الدّينية والثّقافية في عصر الشّيخ محمّد عبدَه كانت ضعيفة، حيث أصابها الجدب بسبب عدوان الغرب الصّليبيّ على الشّرق الإسلاميّ ومحاولته مسخ شخصية المسلمين بتشويه دينهم وتحريفه ليوافق قيَمه ونظمَه، كما عمل على تغيير عاداتهم وتقاليدهم ونمط تفكيرهم وتمييع سلوكهم، فنتج عن ذلك نقص المدارس وقلّة المعاهد والجامعات والمعلّمين والمتعلّمين، ولم يبق للطلاّب إلّا الكتاتيب يتوجّهون إليها ليعملوا فيها ويحفظون القرآن الكريم وبعض مبادئ العلوم، وانتقل الفقراء إلى حلقات الجوامع، والموسرون إلى البيوت لتلقّي الدّروس الخاصّة، وأمّا المدارس النّصرانية فكانت تعلّم بغير العربية، وتنفث سموم أفكارها المغايرة في الكتب وتعمل على تشويه عقيدة المسلمين، وإضعاف الوازع الدّيني في نفوسهم الطّلاب، فواجه الأزهر هذه الحملة بمقاومة الثّقافة الأجنبية والنّظم الهدّامة والشّعارات البرّاقة المزيّفة والمفاهيم الخاطئة التي استشرت في الأمّة المصرية.[1]

لذا عمل الشّيخ محمّد عبدَه على إحياء الثّقافة العربية والانفتاح على الثّقافة الأوروبّية، التي نتج عنها انبعاث ديني وفكري، وصار للمتعلّمين وعي بمشاكل مجتمعهم، وهذا راجع إلى عدّة عوامل تاريخية أهمّها: نشأة التّعليم الحديث على يد محمّد علي، وازدهار الحركة التّعليمية في بداية حكم الخديوي إسماعيل الذي أشرف على التّعليم وأنشأ ديوان المدارس سنة 1863م، وقد كان مِنْ أبرز المساهمين في هذه النّهضة التّعليمية رفاعة رافع الطّهطاوي وعلي مبارك اللّذان كانا ضمن البعثات العلمية إلى أوروبّا، وبذلا جهودا كبيرة للتّوفيق بين الثّقافتين العربية والأوروبّية، وتعليم أبناء مصر، والاهتمام بمختلف أطوار التّعليم، فازداد عدد الطّلبة والكتاتيب في القرى لتعليم الدّين وعلومه.[2]

الفرع الثّالث: دور جامع الأزهر والشّيخ محمّد عبدَه في الإصلاح التّربوي

بذل الشّيخ محمّد عبدَه جهودا كبيرة لإصلاح الحياة الدّينية للمسلمين، مِنْ خلال إصلاح جامع الأزهر باعتباره مدرسة العالم الإسلامي كلّه، ولكونه بالنّسبة إليه أجدى وسيلة لتخريج متخصّصين يكونون مراجع في كلّ العلوم، كالقُضاة والدّعاة والوعّاظ والمرشدين والخطباء والمؤلّفين، وحتّى يقوموا بفروض الكفاية العلمية والدّينية التي يحتاج إليها المسلمون.[3]

---

[1] ينظر: حافظ محمّد حيدر الجعبري، الشّيخ محمّد عبدَه وآراؤه في العقيدة الإسلامية، مرجع سابق: ص18- 20، وينظر: أحمد الشرباصي، رشيد رضا صاحب المنار، مرجع سابق: ص53.

[2] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص33.

[3] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص946.

يعتبر الأزهر مِنَ المؤسّسات الدّينية العريقة وأحد مراكز الإشعاع العلمي في علوم الشّريعة واللّغة العربية المجسِّدة للتّربية والتّعليم المثاليَيْن، ونظرا لتعثّره في أداء مهامّه السّامية على الوجه المطلوب، جعله الشّيخ محمّد عبدَه نصب عينيه لتعميق الإصلاح الدّيني والتّربوي، وبثّه في المجتمع وتفعيله بالتّعليم المنتظم القائم على مقرّرات وبرامج ومناهج وطرائق سليمة وناجعة تُوَفّي بالمقصود.

لقد عايش الشّيخ محمّد عبدَه وهو طالب بالأزهر واقعا متّسما بالمحافظة على القديم والنّفور مِنَ الجديد، وتغليب النّقل على العقل، وبلغ مِنْ تعصّب أنصار القديم لآرائهم أنْ رَمَوا خصومهم بالضّلال والزّيغ عن الدّين، فاضطرّ للجلوس إلى الكثير مِنَ الشّيوخ المحافظين؛ أمثال الشّيخ محمّد علّيش والرّفاعي والجيزاوي والطّرابلسي والبحراوي وغيرهم دون أنْ يتأثّر بمنهجهم ويتبنّى أفكارهم.[1]

وآل على نفسه أنْ يصلح الأزهر فجعله نصب عينيه واستهدفه واجتهد في ذلك حينما صار عضوا في مجلس إدارته ومفتيا للدّيار المصرية، حيث عمل على تطويعه وجعله أحد وسائل تحقيق إصلاحاته الضّرورية الهامّة وفق رؤيته ومنهجه الذي سلكه لخدمة مصر والأمّة العربية والإسلامية.[2]

وباحتلال الإنجليز لمصر سنة 1882م؛ حاول السّيطرة على مؤسّساتها الدّينية والتّربوية والتّأثير على طلبتها بالسّلب، خصوصا الأزهر الذي تغيّرت نظرة المجتمع إليه وإلى طلبته المتخرّجين، حيث صار يُنظر إليهم على أنّهم عالة على المجتمع، بسبب انحرافه عن رسالته، وضُعف تأثيره في النّاس، وبدأت تذهب قداسته وهيبته، وبدأ يسري التّفرنج في المجتمع ويشيع الإلحاد والفِسق والتّرف فيه في عهد أمرائه المترفين الذين لم ينكر عليهم علماء الأزهر، حتّى عاد الشّيخ محمّد عبدَه مِنَ المنفى، ودعا إلى إصلاح الأزهر لإعادته إلى سكّته، وتربية جيل جديد يجمع بين التّقوى والأخلاق والعلم، ويقوم بواجب الدّعوة إلى الإسلام ونشر مبادئه وأحكامه والدّفاع عنه.[3]

لقد كان الأزهر يدرّس علوم الشّريعة واللّغة العربية وآدابها، وكلّ العلوم المدنية والطّبيعية كالطبّ والتّشريح والفنون والآداب، حتّى أصابته الغربة والاغتراب عن أغلب العلوم والفنون بما في ذلك علوم الشّريعة التي وقف فيها عند المصنَّفات المفتقرة إلى الإبداع، والمليئة بالحواشي والشّروح والصّنعة اللّفظية والمحسِّنات الشّكلية التي تهتم بالعرض على حساب الجوهر، ومِنَ القرائن الدّالّة على تخلف الأزهر وجهل شيوخه بأغلب علوم العصر الضّرورية؛ أنّ والي مصر التّركي أحمد باشا المعروف بـ:كور وزير، تكلّم مع نخبة منهم في الرّياضيات فأحجموا وقالوا: لا نعرف هذه العلوم، لذلك اجتهد الشّيخ محمّد عبدَه في إدخال العلوم المدنية الضّرورية إلى مناهج التّعليم الأزهري كالحساب والهندسة والتّاريخ والجغرافيا، لذا تصدّى لدعوته شيوخ الأزهر حتّى أصيب بالإحباط واستقال مِنَ المجلس الأعلى للأزهر ومِنْ منصب الإفتاء، وظلّ الأزهر كذلك حتّى مات الشّيخ كمدا سنة 1905م.[4]

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص17.

[2] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص150.

[3] ينظر: محمّد رشيد رضا، المنار والأزهر، مصدر سابق: ص7- 9.

[4] ينظر: محمّد عمارة، الشيخ المراغي والإصلاح الديني في القرن العشرين، مرجع سابق: ص30-32 .

لقد دَرَسَ الشّيخ محمّد عبدَه في الأزهر وانضمّ إلى مجالسه العلمية ونهل منها رغم رفضه لطرائق تدريسه ورغم استحكام التّقليد فيه، فعندما وقف على أوضاعه المتردّية المتمثّلة في الجمود الفكريّ والرّكود الثّقافيّ والعلميّ والتّقليد الأعمى الذي ركن إليه شيوخ الأزهر حتّى أغلقوا باب الاجتهاد؛ اتّخذ الشّيخ محمّد عبدَه موقفا آلى فيه على نفسه إصلاحه وإزالة ما فيه مِنْ فساد، وسخّر علمه وجهده ووقته وماله للأزهر، حتّى يؤدّي دوره التّربوي ويساهم في إحياء ونهضة وتقدّم أمّته الإسلامية.

بعدما اجتياز امتحان العالمية ونجح فيه سنة 1877م، وصار مدرّسا في الجامع الأزهر، حاول إزالة كلّ ما كان يتحفّظ منه ولا يرتضيه في التّعليم لعدم نجاعته، عمل على إصلاحه بإصلاح اختلالات التّدريس والمناهج المتّبعة فيه، حتّى شاع بين الأزهريّين اهتمامُه الكبير بإصلاح الأزهر، وقال عنه تلميذه محمّد رشيد رضا: "ومِنَ المعروف عند أهل الأزهر وغيرهم أنّ الرّجل الذي تصدّى لإصلاح الأزهر وسعى له سعيه هو الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه ومنهم مَنْ لا يعرف لغيره عملا فيه".[1]

لقد تكوّنت لدى الشّيخ محمّد عبدَه قناعة بضرورة إصلاح التّعليم الدّيني في مصر، بعدما عانى مِنْ سوء المناهج التّعليمية والتّربوية في الجامع الأحمدي بطنطا، وعاش تجربة مريرة دامت اثنتَيْ عشرة سنة في الجامع الأزهر، ورأى بأنّ إصلاحه للأزهر هو إصلاح للمسلمين، وأنّه يحتسبه خدمة جليلة يقدّمها للإسلام، وقد أتيحت له فرصة تحقيق بعض أفكاره في إصلاح التّعليم الأزهري في عهد الخديوي توفيق، لكنّه لم يحقّقها جميعها بسبب ما لَقِيَهُ مِنْ معارضة شرسة مِنْ بعض شيوخ الأزهر الجامدين خصوصا لمّا أراد إدخال العلوم الحديثة في مناهجه، وفي عهد الخديوي عباس الثّاني قدّم له تقريرا مفصّلا عن التّعليم في الأزهر وطرق إصلاحه، ليتألّف على إثر ذلك التّقرير مجلس إدارة الأزهر فكان مِنْ أعضائه، وأثمرت جهوده جملة مِنَ الإصلاحات ومنها تنظيم قواعد التّدريس به.[2]

واستطاع الشّيخ محمّد عبدَه أنْ يفتكّ مِنْ مستشار المالية أَلْفَيْ جنيه ويضعها في ميزانية الأزهر، واشترط عليه أنْ تُصرف بنظام معلوم لا بهوى شيوخ الأزهر، ثمّ شرع في بعض الإصلاحات الإدارية والتّربوية والصحّية والاجتماعية الشّكلية والجوهرية منها أنّه:

1- أنشأ مجلسا لإدارة الأزهر وعمل على تخريج جيل رسالي يبلّغ الإسلام، ووظّف كلّ الوسائل المشروعة في ذلك، واستثمر الجوانب الإيجابية في الخديوي لتنفيذ إصلاحاته، ليخلفه بعد وفاته تلامذة اعتنقوا أفكاره وعملوا على تحقيق الإصلاحات التّربوية التي لم يتمكّن مِنْ تحقيقها[3]، ولمّا رجع الخديوي عبّاس مِنْ فيينا سنة 1892م، ورآه الشّيخ محمّد عبدَه متحمّسا لتحرير مصر، طلب منه إصلاح الأزهر والأوقاف والمحاكم الشّرعية، وقدّم له تقريرا، وشُكِّل مجلسا لإدارة الأزهر برئاسة الشّيخ حسونة وعضوية الشّيخَيْن عبد الكريم سلمان ومحمّد عبدَه للشّروع في إصلاحه.[4]

2- أَعَدَّ مكاتب لإدارة الأزهر، ووضع مكاتب لمعاونة شيخ الأزهر في الإدارة بعدما كان يديره مِنْ بيته.

---

[1] محمّد رشيد رضا، المنار والأزهر، مصدر سابق: ص131.

[2] ينظر: أحمد محمود عيساوي، الحركات التّجديدية والإصلاحية الحديثة والمعاصرة في العالم الإسلامي، مرجع سابق: ص263.

[3] ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص329.

[4] ينظر: المصدر نفسه: ص317.

3- استصدر قانون كساوى التّشريف ومرتّباتها حتّى تُمنح لمستحقّيها وفق ضوابط لا محسوبية فيها.
4- وضع قانونا لتنظيم التّدريس والامتحان في الأزهر، فرصد له الخديوي أكثر مِنْ ثلاثة آلاف جنيه.
5- قدّم مشروعا إلى مجلس إدارة الأزهر لتكوين لجنة مِنْ ثلاثين عالما لإبداء الرّأي حول كتب التّدريس، وفحص العلوم التي تدرّس به، وإضافة ما يلزم منها، لكن شيخ الأزهر سليم البِشْري أوقف المشروع.[1]
6- أضاف علوم الوسائل؛ كالحساب والجبر وتاريخ الإسلام والإنشاء واللّغة والهندسة والجغرافيا.
7- ألزم الطّلبة بالامتحان في علمَيْ الحساب والجبر للحصول على شهادة العالمية.
8- وضع طريقة سهلة لدراسة علوم الشّريعة، ومنع طريقة قراءة الحواشي والتّقارير المطوّلة، فقد كان في كتب التّعليم الأزهري ما يخالف اليقينيات القطعية، وكان طلبة الأزهر عندما يستشكلون حقيقة علمية لا يتجرّأون على مناقشة شيوخهم حتّى لا يرمونهم بالكفر، وللقضاء على الطّريقة التّلقينية؛ ربّى الشّيخ محمّد عبدَه طلبته على عدم التّسليم للمدرّسين ما لم يفهموا ويقتنعوا بكلامهم.[2]
9- وضع قرارات تحدّد طرائق التّعليم واشترط على الطّلبة التحلّي بالأخلاق الشّرعية والآداب الحسنة.
10- ألزم الطّلبة بحضور الامتحانات بعدما كان يحضرها عدد قليل جدا.
11- حدّد أوقات الإجازات الدّراسية، وقصّر آجالها، وزاد مِنْ شهور العمل مِنْ أربعة إلى ثمانية أشهر.
12- قدّم دروسا في التّوحيد وتفسير القرآن والبلاغة والمنطق، وأحيى اللّغة العربية وأساليبها الفصحى.

فكانت أُولى إصلاحاته التّربوية والتّعليمية؛ تقديمه لدروس كانت بناء جديدا للعقائد على أساس البراهين القطعية وتجديدا للعلوم العقلية، كما كان يقرأ على طلبته المجاوِرِين له في بيته درسا في الأخلاق مِنْ كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكَوَيْه، ويشرح لهم كتاب البصائر النّصيرية للطّوسي، ويلقي عليهم درسا في السّياسة مِنْ كتاب التّحفة الأدبية في تاريخ تمدّن الممالك الأوروبّاوية لـ:فرونسوا جيزو، فأقبل الكثيرون على دروسه، ونفرت منه طائفة فحسدوه وعادَوْه وألّبوا عليه للصدّ عنه.[3]

فانصبّت جهوده على إصلاح إدارة الأزهر وأسلوبه التّعليمي واختيار كتبه، وإضافة العلوم الضّرورية التي أغفل تدريسها أهل الجمود، وركّز على التّربية الدّينية والعقلية.[4]
13- صنّف ورتّب المكتبة بعدما كانت مشتّتة وممزّقة، وبعدما كانت تسرق وتباع كتبها بأبخس الأثمان، وأنشأ مكتبات في الجامع الأحمدي والدّسوقي ودمياط والإسكندرية وأخضعها لنظام الأزهر.

فجمع الشّيخ محمّد عبدَه بين الإصلاح الإداري والتّعليمي، بحكم العلاقة الوثيقة بينهما، لأنّ حسن التّسيير الإداري يساهم كثيرا في إنجاح العملية التّربوية والتّعليمية.

كما كان الشّيخ محمّد عبدَه يطمح إلى القيام بإصلاحات أخرى في الأزهر، لكنّ المقترحات التي قدّمها لم يُنفّذ منها إلّا القليل، فقد توقّفت بسبب الخلاف الذي نشب بينه وبين الخديوي عبّاس الذي

---

[1] **سليم البِشْري(1832- 1916م)**: عالم أزهريّ مالكيّ متضلّع في الحديث، عُيّن شيخا للمالكيّة ثمّ شيخا للأزهر مرّتين في 1901م وفي 1909م إلى غاية وفاته، مِنْ مؤلّفاته: حاشية تحفة الطلاّب على شرح رسالة الآداب، المقامات السّنّية في الردّ على القادح في البعثة النّبوية وشرح نهج البردة، ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق: ج2، ص91- 96.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، المنار والأزهر، مصدر سابق: ص19و20.

[3] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج1، ص135، وينظر: عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، ج1، ص31.

[4] ينظر: محمّد رشيد رضا، المنار والأزهر، المصدر السابق: ص131.

انقلب عليه وضايقه بمعيّة شيوخ الأزهر المحافظين، واستقال مِنْ مجلس إدارة الأزهر لمّا لمّح له بذلك في خطابه الذي ألقاه في محرّم1323هـ سنة 1905م[1]، ليوافيه الأجل بعد ذلك ببضعة أشهر.

الفرع الرّابع: نشاطات المدارس التّنصيرية والحكومة العثمانية الموازية في مصر

شهدت مصر نشاطا ملحوظا للمدارس التّنصيرية التي كانت تعلِّم بغير اللّغة العربية، وما كانت تقوم به مِنْ تعليم للّغة العربية، فكانت تخادع به العرب والمسلمين موهمة إياهم بالغيرة عليها.[2]

وفي هذا الوضع الذي كانت الدّول الغربية تبسط نفوذها على مصر، وتسعى بكلّ جهدها لمسخ هوية وشخصية الأمّة المصرية المسلمة بمحاولات تشويه دينها، وتهميش لغتها؛ لم تكن الدّولة العثمانية تُلْقِ بالا للأخطار المحدقة باللّغة العربية، ولا تبذل جهدا لحمايتها والتّمكين لها والوقوف في وجه اللّغات الأجنبية التي حاول الأوروبّيّون إحلالها محلّها، وتوظيفها في محاربة دين المصريّين.

لذلك انتقد محمّد رشيد رضا سنة 1910م الحكومة العثمانية التي أهملت اللّغة العربية ولم يقبل عذرها في تقصيرها في نشر اللّغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، واعتبر أنّ تعصُّبها للّغة التّركية وإهمالها للّغة العربية يُضعف اللّغة التّركية، لأنّ العربيّة تمثّل أحد أصول اللّغة التّركية، ويَقْرب أنْ يكون نصف مفرداتها مستمَّدا منها، ولا سيما مفردات علوم الطبّ والتّشريح والنّبات والحيوان، لأنّ تعليم اللّغة العربية يقوّي تعليم اللّغة التّركية المحتاجة إلى العربيّة، كما أنّها أنشأت مدارس أجنبية تبشيرية إلى جوار المدارس التّركية التي كانت تُعنى باللّغة التّركية وتهمل اللّغة العربية، والمثير للغرابة هو قيام تلك المدارس التّبشيرية بتعليم العربيّة والعناية بها أكثر مِنَ المدارس التّركية لإيهام المصريّين بأنّ لديها الغيرة على اللّغة العربية أكثر مِنَ الأتراك للتّمهيد للاستعمار، ولتشجيع العرب للثّورة على الدّولة العثمانية، وبثِّ هذه الأفكار في الكتب المقرّرة والمدارس التّعليمية، للانحراف بطلبة العلم نحو أهدافهم التّغريبيّة المخطّط لها للفتّ في عضد الأمّة الإسلامية وتفريقها.[3]

لقد تميّزت الحياة الدّينية للمجتمع المصري في عصر الشّيخ محمّد عبدَه بالتّردّي، وتدنّي مستوى فكره الدّيني، واستغلال السّلطة للدّين وتوظيفها للمتديّنين لخدمة مصالحها الخاصّة، وضعف مناهج وطرائق التّعليم الدّيني وضحالة مضامينه، واختلاف المسلمين وانقسامهم إلى شيع ومذاهب، ورفض أهل الجمود للعلوم العصرية وعدم انفتاحهم على منجزات الغرب للاستفادة منها، وتوظيف الاستعمار لكلّ الوسائل والأساليب المتاحة لمحاربة هوية المجتمع المصري المسلم، فتصدّى الشّيخ محمّد عبدَه لها مركّزا على إصلاح مقرّرات وطرائق التّدريس بجامع الأزهر الشّريف، حتّى يقوم بإحياء المجتمع المصري والأمّة العربية والإسلامية جمعاء، وفيما يلي حديث عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية المحيطة التي أسهمت في بروز الشّيخ محمّد عبدَه الذي حمل همّ الإصلاح والتّغيير للنّهوض بأمّته فيهما.

---

[1] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج1، ص250و251، وينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص69 - 73.

[2] ينظر: حافظ محمد حيدر الجعبري، الشّيخ محمّد عبدَه وآراؤه في العقيدة الإسلامية، مرجع سابق: ص19.

[3] ينظر: ينظر: أحمد الشرباصي، رشيد رضا صاحب المنار، مرجع سابق: ص54 - 56.

المطلب الثّالث: الحالة الاجتماعية والاقتصادية في عصر الشّيخ محمّد عبدَه

تضمّن هذا المطلب الحياة الاجتماعية والاقتصادية السّائدة في المجتمع المصري، وعرض بعض ملامحها البئيسة، وما آلت إليه مِنْ سوء، وبيان موقف الشّيخ محمّد عبدَه منها وجهوده في معالجتها لتلافي آثارها وذلك في خمسة فروع؛ حيث صوّر الفرع الأوّل تفشّي الطّبقية والنّفوذ الأجنبي المستحكم في المصريّين، ليتناول الفرع الثّاني بعض الظّواهر الاجتماعية السّلبية وموقفه منها، وفي الفرع الثّالث تمّ إبراز مكانة المرأة الوضيعة في المجتمع وسعيه لإدماجها وتأهيلها، وأمّا الفرع الرّابع فقد أبرز دور التّعليم في إصلاح الحياة الاجتماعية، ليُختم الفرع الخامس بذِكر بعض جوانب الحياة الاقتصادية المزرية ودور الحكّام المصريّين والاستعمار البريطاني في تكريسها وإمعانهما في إذلال الشّعب المصري.

الفرع الأوّل: إرساء الاستعمار للطّبقية وتشجيع الآفات بين المصريّين

تميّز الواقع الاجتماعي الذي عايشه الشّيخ محمّد عبدَه بوجود تفاوت كبير في بنائه الطّبقي، المتكوّن مِنْ أربع طبقات، فالطّبقة الأولى العليا تتكوّن مِنْ كبار مُلّاك الأراضي الزّراعية الحاكمين المحتلين لأغلب المجالس النّيابية في المجتمع المصري، فكان منهم النّظّار والمديرون ورؤساء المحاكم، فرفضتْ هذه الطّبقة تغيّر الوضع وقبلتْ بالاحتلال البريطاني للمحافظة على امتيازاتها الاجتماعية، وأمّا الطّبقة الوسطى فتمثّلها فئتان، الأولى: فئة المثقّفين والموظّفين وأصحاب المهن الحرّة مِنَ المحامين والمهندسين والأطبّاء والصّحفيّين والأساتذة والطلاّب، وقد نشأت هذه الفئة في عهد محمّد علي، ورغم ارتفاع مستواها التّعليمي كانت محرومة مِنَ المراكز اللّائقة التي كانت حكرا على الإنجليز والأجانب، وأمّا الفئة الثّانية فيمثّلها التّجّار وأصحاب الورش الصّناعية التي تأثّرت بالاحتلال البريطاني الذي سيطر عليها، وأمّا الطّبقة الثّالثة فيمثّلها عامّة الشّعب مِنَ العمّال والفلّاحين الذين يشكّلون غالبية المجتمع المصري، فكانت أجورهم زهيدة جدّا ويعانون مِنْ كثرة الضّرائب وزيادتها، وأمّا الطّبقة الرّابعة فيمثّلها الأوروبيّون الذين تدفّقوا بسبب الامتيازات والتّسهيلات التي منحها لهم الخديوي سعيد وإسماعيل، فتملّكت الأراضي الزّراعية والبيوت والمباني وأُعفيت مِنَ الضّرائب ومُكِّنت مِنَ الوظائف.

كما مُنحت امتيازات كثيرة لضبّاط الجيش الأتراك، وفي مصر وجدت فئة مِنَ الجالية الشّامية المثقّفة المجيدة للّغات الأجنبية الذين فرّوا إلى مصر هربا مِنْ ظلم الحكم التّركي فوصلوا إلى أعلى المراكز الإدارية، وأمّا المرأة فقد كانت أحوالها منحطّة ولا تحظى بمكانة لائقة محترمة، حيث قُصِرَت مهامها على أشغال البيت وخدمة الرّجل وطاعته والحمل والولادة.[1]

كما شهدت مصر نفوذا مِنَ الدّوائر الغربية وعلى رأسها بريطانيا، التي قامت بالتّدخّل السّافر في شؤونها الدّاخلية قبيل استعمارها سنة 1882م، حيث اتّبعت سياسة براغماتية لتحقيق مصالحها الضيّقة على حساب الأوضاع الاجتماعية المهترئة للمصريّين، فعملت على الاستغلال الفاحش لمُقدَّرات وخيرات بلادهم، وجعلتهم يترنّحون بين الجهل والفقر، ليسهل عليها التّحكّم فيهم والمنّ عليه بلقمة العيش، ومِنْ ثَمَّ بثّ الأفكار والمعتقدات الدّخيلة عليهم، لمسخ هويتهم وطمس شخصيتهم.

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص32و33.

وحتّى يتمكّن الاستعمار البريطاني مِنْ بسط نفوذه على مصر والتّحكّم في شعبها، وإخضاعه لسياسته وتوجيهه الوجهة التي يريدها عمل على تفكيك الرّوابط الاجتماعية وتقسيم المجتمع الإسلامي، وطمس الشّعائر، وإحياء البدع، والتّشجيع على تعاطي المحرّمات والكبائر.[1]

وهذه السّياسة الممنهجة مِنْ شأنها تمزيق وحدة المجتمع المصري، وقد نجحت مع ضعيفي الإيمان وقليلي العلم، كما اتّبع الاستعمار معهم سياسة فرّق تسد التي أحدث بها شرخا في لُحمة الأمّة المصرية، وجعلتها تعيش الاختلاف والتّنازع والفُرقة التي قادتها إلى التّخلف والانحطاط.

إنّ حياة المصريّين الاجتماعية والاقتصادية التي عايشها الشّيخ محمّد عبدَه، تثير الأسى وتبعث في النّفس الألم، فقد كانت تسودها الكثير مِنَ العيوب والعلل، فقد أصبحوا عبيدا للعادات المشينة التي ولّدها الجهل بالإسلام، لذلك دعا لعلاجها بالرّجوع إلى الإسلام واتّباع أحكامه.[2]

لقد غلبت على حياة المجتمع المصري الخرافة والأوهام والبدع والجهل ومظاهر الشّرك والوثنية المخلوطة بالتّوحيد التي ورثها أفراده عن آبائهم وأجدادهم مِنْ غير تعليم ولا تربية دينية صحيحة، سلكها معهم أهل الجمود والتّقليد مِنْ شيوخ الأزهر، وبعض المتصوّفة المتنفّذين في المجتمع.

كما عانى المصريّون شُحّا في المعيشة بسبب تحكّم الاستعمار البريطاني في أرزاقهم وتضييقه عليهم في جلبها، حتّى تفشّت بينهم البطالة وقلّ إنتاجهم وانتشرت السّرقة وزادت الآفات بسبب تقييد حركة العلماء الذين رفضوا المحتلّ وقاوموه، فلجأ إلى قهرهم بسجنهم وتعذيبهم ونفيهم.[3]

لكن البصيص الذي كان يثلج الصّدور ويريح النّفوس ويبعث على الثّقة في المستقبل بنجاح الإصلاح؛ هو ما قام به بعض أبناء مصر المصلحين مِنْ أعمال خيرية، وسعيهم إلى تأليف الكلمة وتوحيد الشّمل والأخذ بالوسائل المؤدّية إلى ذلك بإنشاء الجمعيات الخيرية[4]، وهو ما تفطّن إليه الشّيخ محمّد عبدَه وترجمه إلى واقع عملي، فكانت نتائجه جلية ظهرت ثمارها الحسنة في أوساط المجتمع، فأسّس بذلك للمبادرات الاجتماعية، واستطاع أنْ يحدث التّوازن الاجتماعي الذي اختلّ منذ عقود خلتْ.

الفرع الثّاني: الظّواهر الاجتماعية السّلبية وموقف الشّيخ محمّد عبدَه منها

صوّر الشّيخ محمّد عبدَه الحالة الاجتماعية المزرية للشّعب المصري التي تمثّلت في استحواذ الفقر عليه وإرهاق كاهله بالضّرائب، فقال في مقاله: حبّ الفقر أو سَفَهُ الفلّاح، بجريدة الوقائع المصرية: "كان أهالي بلادنا محمّلين مِنَ الأثقال النّقدية ما لا يطيقون مِنْ ضرائب على الأراضي متنوّعة متكثّرة، تتجدّد على الدّوام بتجدّد الأشهر والأعوام، تُفرض على الأنفس وتوابعها مِنْ غير نظام، حتّى بلغتْ بهم نهاية لا يستطيعون معها الأداء لشيء مما فرض عليهم".[5]

لقد كان الحاكم يفرض الضّرائب على المصريّين حسب هواه ويطالبهم بأدائها في وقتها، ومَنْ تأخّر يُحبس وتصادر أملاكه، ولقلة وعيهم يلجأون إلى أعوان الظّلمة مِنَ التّجار وأرباب المال للتّخلّص مِنْ

---

[1] ينظر: حافظ محمّد حيدر الجعبري، الشّيخ محمّد عبدَه وآراؤه في العقيدة الإسلامية، مرجع سابق: ص25.

[2] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص103.

[3] ينظر: حافظ محمّد حيدر الجعبري، الشّيخ محمّد عبدَه وآراؤه في العقيدة الإسلامية، المرجع السّابق: ص25و26.

[4] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج2، ص05.

[5] المصدر نفسه: ج2، ص08.

ذلك لجهلهم بالدّين، فكثرت الآفات الاجتماعية، وانتشرت في المجتمع الرّشوة وأخذ النّاس يتعاملون بها لقضاء حاجاتهم، وقد بيّن الشّيخ محمّد عبدَه فُشُوَّها في مصر قائلا: "وقد غلب على عقول العامّة أنّ كلّ صاحب وظيفة لا يصحّ أنْ يقضي أمرا في مصلحته لأحد إلا بالرّشوة، ولذلك يرون أنّه مِنَ الوجوب على مَنِ التمس إنجاز أيّ عمل يتعلّق بمصلحته أنْ يقدّم إلى صاحب الوظيفة رشوة تبعثه على مباشرة ذلك العمل، ولذلك صار أمر الرّشوة بينهم مِنْ قبيل العوائد التي لا تشمئزّ منها طباعهم، ولا يستنكرها أحد منهم، بل كادت أنْ تكون مِنَ الوسائل المحمودة لنجاح المقاصد ودفع الغوائل".[1]

وبالنّسبة لمسألة تعدّد الزّوجات فقد ذكر الشّيخ محمّد عبدَه بأنّ الشّريعة الإسلامية أباحته، لكن هذا التّشريع ساء استعماله مِنْ قِبل متديّني زمانه على خلاف السّلف الصّالح، فنجم عنه سوء معاشرتهنّ وعدم العدل بينهنّ، حتّى صار موجبا للعداوات وتفريق الشّمل بدل جمع الكلمة[2]، فبيّن موقفه منه بأنّه مباح شريطة إقامة العدل بين الزّوجات لقوله تعالى:﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ۝٣﴾[سورة النّساء]، لكن مَنْ عَدِمَ العدل بينهنّ اختلّ نظام المنزل وساءت معيشة العائلة، لأنّ عماد تدبير المنزل بقاء الاتّحاد والتّآلف بين أفراد العائلة[3]، فكان مَنْعُ الشّيخ محمّد عبدَه للتّعدد بهذا الشّرط، مثيرا للكثير مِنَ العلماء الذين عادَوْه وأغلظوا له القول وردّوا عليه بنصوص مجيزةٍ له مِنَ القرآن والسنّة.

ومِنَ الظّواهر الاجتماعية التي سادت المجتمع المصري وشدّت انتباهه إلى خطورتها على وحدة وتماسك المجتمع، فتولّى معالجتها وإصلاحها، تلك العداوات المستشرية بين العائلات المصرية بسبب التّنافس على المصالح الجزئية الضّيّقة التي تعدّت أضرارها إلى المصالح العمومية، فوجّه أمّته إلى ضرورة التّآلف والتّحابّ وتقديم مصلحة المجتمع العامّة على مصلحة الأفراد الخاصّة فقال: "فما بالنا لا نتّخذ الأسباب الطّبيعية الاعتيادية التي وُضعت لجمع الكلمة والتئام المتفرّق وسيلة لما وضعت له معتبرين في ذلك بما يرشد إليه الشّرع القويم وبأحوال الأمم المتمدّنة".[4]

إنّ النّزاعات الاجتماعية في نظر الشّيخ محمّد عبدَه تتسبّب في توسيع الشّرخ في المجتمع وتفرّق شمله وتجعل أفراده متنافرين، وهذا مِنْ خصال البداوة في الأمم المتّخلّفة البعيدة عن التّمدّن الذي يدعو إليه الإسلام الذي سعى الشّيخ محمّد عبدَه إلى تحقيقه وتجسيده في الواقع المصري، ومِنَ المظاهر الاجتماعية التي كانت سائدة في مجتمعه وكتب عنها في مقالاته الصّحفية؛ ما كان يحصل في الأفراح عند زواج العروسَيْن وما كان يحدث في المآتم عند وفاة الأقارب مِنْ سلوكات وعادات سيّئة مخالفة لأحكام الإسلام وللآداب العامّة مِنَ الاختلاط والفسق والفجور، فبيّن موقف الشّرع منها واستقبحها ودعا إلى هجرانها ومحاربتها.

ثمّ بيّن بأنّ أساس تلك العادات في الأفراح والمآتم؛ هو الجهل بالدّين وقلّة العلم وانعدام الوعي بالإضافة إلى الاستسلام إلى أهواء النّفس واتّباع شهواتها وعدم تقدير عواقب قبحها ومضارّها فقال:

---

[1] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج2، ص25و26.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ج2، ص69.

[3] ينظر: المصدر نفسه: ج2، ص76.

[4] المصدر نفسه: ج2، ص97.

"إنّ مصدرها أهواء فاسدة وأميال سخيفة شأن كلّ قوم انتشر بينهم جيش الجهل وأفل مِنْ ربوعهم بَدْرُ العلم، فيفعلون ما تُحدّثهم به شهواتهم مِنْ غير شعور بما يترتّب عليه مِنَ القُبح والمضارّ".[1]

وعند وفاة أحد الأقارب فإنّه يحصل في تلك المآتم ما لم يأذن به الشّرع، حيث شاع في أوساط المجتمع المصري مخالفات شرعية، كتكفين الميّت بالحرير بقدر ما يكفي كسوة أكثر مِنْ عشرين حيّا، بل إنّ الفقراء يكلّفون أنفسهم ما لا يطيقون، فيلجأون إلى الاستدانة للقيام بتلك البدع المحرّمة، كما تقوم النّساء باستئجار النّادبات لإثارة الحزن، ثمّ يعطونهنّ أجرا لا يقلّ عن أجرة عامل شهري، وغيرها مِنَ العادات السّيّئة المنهيّ عنها المشتهرة بين أهل الميت أثناء العزاء والإطعام واللّباس وغيرها.[2]

وأمّا آفة المخدّرات فقد كانت منتشرة في البيئة المصرية، وانعكست آثارها الخطيرة على الأفراد والأسر فيها، حتّى آلت بأفرادها إلى السّجون، وأفلستهم وفقّرتهم، وأفقدتهم عقولهم، وتسبّبت في تشتّت أسرهم وصاروا مشرّدين في الشّوارع يتكفّفون النّاس، إلى غير ذلك مِنَ الانعكاسات السّلبية التي انجرّت عنها، وقد أوضح الشّيخ محمّد عبدَه فُشُوَّ هذه الآفة الخطيرة في المجتمع المصري قائلا: "وقد كثر عدد متناوليه في بلادنا في هذه الأيام حتّى راجت بضاعته وربح المتّجرون فيه وكثر صانعوه ومحترفوه، فلم توجد طائفة مِنْ أهل القطر ولا بلد مِنْ الأرياف إلّا وفيها مِنْ أولئك القوم الحشّاشين عدد ليس بالقليل، حتّى إنّ الواحد مِنَ الفقراء يُقدِّم شراء هذا الجوهر المضرّ على قُوتِهِ وقُوتِ عياله ومَنْ تلزمه مؤونتهم مِنَ الضّعفاء، أو بالأقلّ يضيّق على نفسه ومَنْ معه في المؤونة والكسوة ويوسّع على نفسه في كيفه، فلا يبالي شبع وشبعت عائلته معه أو جاع وجاعوا ما دام مخّه عمرانا".[3]

إنّ الحياة الاجتماعية التي عاصرها الشّيخ محمّد عبدَه كان يغلب عليها مخالفات شرعية كثيرة، وسلوكات منافية للآداب العامّة، زادت مِنْ تخلّف المجتمع وتفكّكه أمام سكوت العلماء واختلافهم، وتشجيع السّلطة لها لخدمة سياستها المخدّرة للشّعب، حتّى لا يطالب بحقوقه ولا يضرّ بمصالحها ولا ولا يأخذ على أيدي حكّامها المستبدّين، وحتّى يبقى يرزح في الفقر والدّونية، لذلك بذل وسعه لرفع الغبن عنهم بتوظيف ما أمكنه مِنْ وسائل؛ كإنشائه للجمعية الخيرية الإسلامية التي خدم بها طبقات المجتمع المحرومة، وقدّم العون المادّي والمعنوي لها، بالإنفاق عليها وقضاء حاجاتها، وتمكينها مِنَ التّعليم مثل الأغنياء، وبناء المدارس ووضع البرامج وتأطيرها بالمعلّمين والتّكفّل بهم، فتمكّن بفضل جهوده المتواصلة تحقيق ما كان يصبوا إليه مِنْ رقيّ اجتماعي ولو بشكل نسبيّ رغم العراقيل المعيقة لمشروعاته الخيرية، ورغم المؤامرات التي حيكت ضدّه لإجهاض أعمال جمعيته بتلفيق التّهم له، واتّهامه بتقديم المساعدات المالية لثورة المهدي بالسّودان، لكن كلّ دسائسهم باءت بالفشل.

وبعودة الشّيخ محمّد عبدَه مِنَ المنفى اجتهد في الإصلاح الاجتماعي إلى جانب الإصلاح التّربوي، بعدما عاين الفوارق الطّبقية التي كرّستها السّياسة الاجتماعية المتّبعة، ولما رآه مِنِ انتشار للفقر والجهل والأمّية والآفات الاجتماعية، بالإضافة إلى احتقار المرأة وحرمانها مِنَ التّعليم وتهميش الفقراء،

---

[1] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج2، ص102.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ج2، ص141.

[3] المصدر نفسه: ج2، ص132.

وتمكين الميسورين مِنَ التّعليم على حساب الفئات المحرومة، الأمر الذي أحدث اختلالا في التّوازن الاجتماعي، فبادر إلى إصلاحه بالسّعي إلى الخير ونشر الفضيلة وإرساء العدل حتّى يعيش أفراد المجتمع في سكينة، كما ساهم في إنشاء الجمعيات الخيرية لمساعدة الفقراء والمحتاجين، ودعا النّاس إلى التّكافل والتّضامن لتحقيق الحياة الآمنة المطمئنّة حتّى يتيسّر له الإصلاح وتتحقّق مقاصده الشّريفة.

كما توجّه إلى الفلّاحين والمزارعين الذين يشكّلون نسبة كبرى في المجتمع المصري، وحضّهم على خدمة الأرض والجدّ في إرجاع ما اغتصبه منهم الدّائنون الأجانب وجباة الخديوي، وحثّهم على العمل لتحقيق التّنمية وتقوية الاقتصاد وجلب الثّروة للبلاد، وربّاهم على ترجمة الأقوال إلى أفعال لتحقيق الرّقي للبلاد، ونهاهم عن تضييع الأوقات في اللّهو، ودعاهم إلى صرف الجهود فيما ينفع الناس.[1]

إنّ اهتمام الشّيخ محمّد عبدَه بالحياة الاجتماعية لم يكن بمنأى عن إصلاحاته التّربوية، فحظي المجال الاجتماعي منه بمنتهى العناية للعلاقة الوطيدة بينهما، وأنشأ الجمعيات الخيرية لحلّ الأزمات الاجتماعية والتّخفيف منها قبل أنْ تُنشأ لها الجمعيات والهيئات والوزارات ويوظّف لها العمّال، حيث قال العقاد: "فالشّيخ محمّد عبدَه كان رائد الخدمة الاجتماعية في وطنه قبل أنْ تعرف في هذا الوطن وفي غيره مصالح الخدمة الاجتماعية التي سُمّيت بعد ذلك بأسماء الوزارات والدّواوين".[2]

الفرع الثّالث: تهميش المرأة في المجتمع وسعيه لإدماجها وتأهيلها

لقد اهتمّ الشّيخ محمّد عبدَه برعاية المرأة وتكوينها وإدماجها في المجتمع، وعدم تقزيم دورها وتهميشها فيه، فدعا إلى تربيتها وتعليمها كلّ ما يمسّ حياتها الدّينية والدّنيوية، إذ لا معنى للحياة دون تعريفها بما لها وما عليها، فإغفال المرأة ينغّص الحياة البشرية ويُخلُّ بتوازنها ويَضرُّ بشرائحها، وهو تنكّب لسنّة الله الكونية القائمة على سُنَّة الزّوجية في الحياة لقوله تعالى:﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾[سورة الذّاريات]، وإغفال المرأة في الإصلاح الاجتماعي هو إصلاح ناقص، لذلك دعا إلى تعليم الجنسين منذ الصّغر دون التّفرقة بينهما، ووقف إلى جانب المرأة وانتصر لها بسبب تفضيل الرّجل عليها، وهضم حقوقها، واستغلال ضعفها وأنوثتها، وإلصاق هذه الممارسات بالإسلام زورا، مع أنّ الإسلام هو الذي ردّ لها الاعتبار وأكرمها ورفع مِنْ شأنها وجعل لها حقوقا وواجبات.

لذلك قام الشّيخ محمّد عبدَه بتقدير المرأة وألزم نفسه بضرورة تحريرها وتنويرها بالعلم، وتخليصها مِنَ القيود التي قيّدوها بها زورا باسم الدّين، وتبنّى الفكر الاجتماعي المتقدّم بعقل واع وأفق مستنير، انطلاقا مِنَ العصر واحتياجاته بما يوافق الإسلام، وبما يوافق تراث المسلمين.[3]

لقد أعطى الإسلام المرأة حق التّعلّم وحثّها على طلب العلم مثل الرّجل تماما لقوله تعالى:﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ١١﴾[سورة المجادلة]، ولقوله ﷺ في حديث أبي بردة رضي الله عنه عن أبيه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ،**

---

[1] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص184.

[2] عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص148.

[3] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج1، ص14.

وَالعَبْدُ المَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ»[رواه البخاري][1]، وحديث أنس ﷺ: أنّ النّبيّ ﷺ قال: **«طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»**[رواه ابن ماجه][2]، وأعطاها حق الميراث مثل الرّجل كما في قوله تعالى:﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾[سورة النّساء]، وأعطاها حقّ الزّواج حتّى لا تبقى كلاً مباحا تُتَّخَذ للاستمتاع والمتاع والزّينة والخدمة.

لذلك دعا الشّيخ محمّد عبدَه إلى تعليم المرأة المسلمة التي حُرمتْ منه في زمانه بسبب الجهل والجور والجمود رغم تحمّلهنّ لمشاقّ الحياة اليومية مِنْ تربية الأولاد وإعدادهنّ ليكونوا مواطنين صالحين[3]، ويرى أنّ مِنْ واجبه الشّرعي إصلاح الحالة الاجتماعية بنصرة قضايا المرأة والوقوف إلى جانبها بتصحيح بعض الممارسات وفق منظوره وفهمه الخاصّ، فتشريع تعدّد الزّوجات الذي يرى جمهور العلماء المسلمين إباحته، رأى هو مِنْ منظوره بأنّ الإسلام قيّده بشرط لا يستطيعه النّاس.[4]

لقد نظر في نصوص القرآن وفسّرها بأنّ الشّرع قيّد التعدّد بشرط العدل الذي يستحيل تحقّقه لعدم استطاعته، فهو غير ممكن في حقّ النّاس لقوله تعالى:﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ ۝١٢٩﴾ [سورة النّساء]، والقرآن أباحه لضرورات تاريخية لا مبرّر لها في زمانه، وأنّ حُكمَه تَغَيَّرَ مِنَ الإباحة إلى المنع بسبب الشّروط الموضوعة له التي يتعذّر الوفاء بها عمليّا اليوم، ومقاصد الزّواج الشّرعية في الإسلام تؤيّد مبدأ الزّوجة الواحدة الذي يحقّق كمال الحياة الزّوجية، فقال في تفسيره: "أنّ إباحة تعدّد الزّوجات في الإسلام أمر مُضيَّق فيه أشدّ التّضييق كأنّه ضرورة مِنَ الضّرورات التي تباح لمحتاجها بشرط الثّقة بإقامة العدل والأمن مِنَ الجور"، ثمّ ختم رأيه ببيان حكم التّعدّد قائلا: " وبهذا يُعلم أنّ تعدّد الزّوجات محرّم قطعا عند الخوف مِنَ عدم العدل".[5]

وعلى هذا استقرّ رأي الشّيخ محمّد عبدَه على أنّ التّعدّد أبيح لضرورات تاريخية لها مبرّراتها وفوائدها، أمّا اليوم فقد انتفتْ تلك المبرّرات وتغيّر الحكم مِنَ الإباحة إلى التّحريم للأضرار والمفاسد التي أفرزها الواقع، فصار التّعدّد مِنْ موانع تربية الأمّة وتحقيق التّعمير والاستخلاف في الأرض.

الفرع الرّابع: علاقة الحياة الاجتماعية بالتّربية والتّعليم

قام الشّيخ محمّد عبدَه بمساعي إصلاح الحالة الاجتماعية الفاسدة في مصر، على أمل تحسينها وتصحيحها وتخفيف مساوئها، وهو عمل مِنْ أشقّ الأعمال، لأنّه سيواجه شتّى ظروف الطّبيعة البشرية المعقّدة والمشاكل الاجتماعية المتراكمة، وهو وسيلة لتطوير الواقع وحل مشكلاته المختلفة.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: تعليم الرّجل أمَتَه وأهله، ج1، ص31، حديث رقم: 97.

(2) أخرجه ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، ط1، 2009م، باب: فضل العلماء والحثّ على طلب العلم، ج1، ص151، حديث رقم: 224، والحديث صحّحه الألباني في كتاب: العلم، ج1، ص140، حديث رقم: 62، ينظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح التّرغيب والتّرهيب، مكتبة المَعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 2000م.

(3) ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبده، مصدر سابق: ص215.

(4) ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص310.

(5) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د ط)، 1990م ج4، ص286و287.

يلعب التّعليم دورا مهمّا في تحقيق الإصلاح الاجتماعي، والعلاقة بينهما علاقة تفاعل، إذ كلّ منهما يؤثّر في الآخر ويتأثّر به، وقد أكّد الكثير مِنَ الفلاسفة وعلماء التّربية على أهمية التّعليم ودوره في إحداث الإصلاح الاجتماعي، فأفلاطون وضع مدينته الفاضلة على أسس تربوية، كما توجّه المربّي السويسري ب. ستالوتزي 1746-1827م إلى التّعليم ليجعله وسيلة لإصلاح المجتمع وتنميته، ووجّه اهتمامه إلى تعليم أبناء الفقراء، كما يرى مفكّرو المدرسة التّجديدية أنّ التّعليم يؤثّر في الإصلاح الاجتماعي ويساعد على تحقيقه، وأنّ المدارس هي أهمّ مراكزه، ويستحيل أنْ ينجح الإصلاح التّربويّ والنّظام الاجتماعي باق على نظمه وأساليبه الجامدة، لذلك وظّف الشّيخ محمّد عبدَه التّعليم وجعل تعميمه إلزاميا لتحقيق الإصلاح الاجتماعي، وفسح المجال لتعليم المرأة ومكّنها منه لأنّ جهلها يعيق الإصلاح الاجتماعي، كما يسّر تعليم أبناء الفقراء الذين حرموا منه بسبب تكاليفه الباهضة، وأنشأ المدارس الأهلية لتعليمهم بالمجّان، ودعا إلى إنشاء جامعة مصرية ووضع أسس التّعليم العالي القائم على البحث العلمي وحرية الفكر لتنمية المجتمع وحلّ مشكلاته.[1]

لقد طالب الشّيخ محمّد عبدَه بتعميم التّعليم في الأمّة بمقالاته في جريدة الوقائع المصرية، ودعا إلى التّعليم حتّى يفسح المجال أمام أفرادها ليشاركوا في تدبير شؤونها وتحقيق الرّقيّ والتّقدم لها، وسعى مع الحكومة حتّى تُضَمِّنَ قانونها الأساسي تعميم التّعليم ونشر العلوم والمعارف، كما نادى إلى إجبارية التّعليم اللّيلي للعمّال المستخدمين الذين لم يسعفهم الحظّ في التّعليم نهارا.

كما فعّل الشّيخ محمّد عبدَه نصوص القرآن الكريم بتفسير ما له علاقة بالإصلاح الاجتماعي، وعالج بعض الظّواهر الاجتماعية في تفسيره لسورة العصر التي عالجتْ خُلق الصّبر وعلاقته الوطيدة بالإيمان والتّمكين في الحياة ودروبها المعقّدة، وأنّ الأمّة تقوى وتضعف بمدى تحلّيها بالصّبر، وربط نهضة الأمّة بصبرها على طلب العلم وتحصيله مِنْ أهله، وبتحمّل مشاقّه وعدم استعجال ثماره، وعدم التّخلّي عنه والانصراف إلى الحرف لأجل المال فيفوّتوا على أنفسهم وعلى أمّتهم الخير الكثير، لذلك عمل على غرسه في نفوس تلامذته مِنْ خلال دروسه في تفسير سورة العصر التي تدور حول خُلق الصّبر في قوله تعالى:﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾[سورة العصر]، وذكر بأنّ علل جميع الرّذائل وانتشارها يرجع إلى ضعف خُلق الصّبر أو فقده، وأنّ ينبوع الفضائل كلّها يرجع إلى التحلّي به.[2]

الفرع الخامس: دور الحكّام المصريّين في تردّي الحالة الاقتصادية

كانت الأوضاع الاقتصادية في العالم الإسلامي زمن الشّيخ محمّد عبدَه تسير نحو التخلّف والتّأزّم، بسبب التّدخّل السّافر للقوى العسكرية الأجنبية وحملاتها الاستعمارية لنهب خيراتها، فالدّول الاستعمارية شدّدت الخناق على مصر وكبّلتها بالقروض والاتّفاقيات حتّى تتحكّم في سياستها الدّاخلية والخارجية، فأخضعتها اقتصاديا، واخترقت سيادتها وجعلها تابعة لها في جميع شؤونها.

عايش الشّيخ محمّد عبدَه الأزمة المالية الصّعبة التي مرّت بها مصر في أواخر عهد الخديوي إسماعيل سنة 1879م الذي أثقل كاهلها بمديونية كبيرة بلغت أكثر مِنْ تسعين مليون جنيه بانغماسه

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص167- 169.

[2] ينظر: محمّد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، (د ط)، (د ت)، ج2، ص413 و414.

في التّرف الشّخصي المزيّف لإظهار عظمته المزيّفة أمام أوروبّا المتحضّرة ماديّا، وبسبب عجزه عن سداد ما عليه مِنْ ديون تمّ عزله مِنَ الحكم.[1]

وكان مِنْ نتائج تلك التّصرفات أنِ اتّخذتها أوروبا مبرّرا للتّدخّل في شؤون مصر الدّاخلية والسّيطرة عليها ومراقبة ماليتها والتّغلغل في الحكومة ثمّ استعمارها في ظرف كان الوعي القومي للمصريّين ضعيفا، والمجتمع فقيرا أرهقته الضّرائب التي فرضها عليه حكّامه المستغلّين لجهله.[2]

لقد كان التّدخل البريطاني في مصر بإيعاز مِنَ الخديوي إسماعيل، الذي طلب منها سنة 1875م إرسال مندوب مكلّف بدراسة الحالة المالية حتّى يحصل منها على قرض جديد، لكن بِعثة المندوب كتبتْ تقريرا بيّنت فيه سوء الأوضاع الاقتصادية المصرية، واقترحتْ أنْ تنشئ الحكومة مصلحة للرّقابة على ماليتها برئاسة بريطانيا، ولمّا عجز عن سداد الدّيون، اقترح الدّائنون الفرنسيّون مِنَ الخديوي إصدار قرارات تكوين خزانة فرعية تتولّى استلام المبالغ لتسديد الدّيون للأجانب مِنَ المصالح المحلّية التي تجمعها مِنْ إيرادات المديريّات الفرعية في كامل التّراب المصري، فكان الخديوي إسماعيل في كلّ مرّة يصدر قرارا انبطاحيا لإنجلترا للخروج مِنَ الأزمة المالية، وكانت بريطانيا تسعى لبسط نفوذ أوسع على مصر، فاتّفقت مع فرنسا على مراقبة ماليةِ مصر والسّكك الحديدية والميناء، فرضخ إسماعيل لذلك، وأعقبه سنة 1878م تشكيل وزارة مختلطة مِنْ وزيرٍ للمالية بريطاني ووزير للأشغال فرنسي يرأسهما نوبار.[3]

وفي عهد عباس وسعيد أُنجز خطّان للسّكك الحديدية في مصر، فاهتمّت إنجلترا بالمشروع الأوّل لتسهيل مواصلاتها بين الشّرق والغرب، واهتمّت فرنسا بالمشروع الثّاني للسّيطرة عليها، وفي عهد سعيد ألغي نظام الاحتكار وأعيدتْ الأراضي للفلّاحين المصريّين، كما تمّ التّوسع في الأراضي الزّراعية والاهتمام بالريّ وتطوير زراعة القطن التي جنت منها أرباحا طائلة، كما أسّس عددا مِنَ المصانع ومدّ خطوط السّكك الحديدية، غير أنّ تلك الإصلاحات الاقتصادية ضاعت بسبب تراكم الدّيون على مصر واستفحال الأزمة المالية بسبب إسماعيل الذي بذّر الأموال على ملذّاته ورحلاته إلى أوروبّا وإسرافه في منح الهدايا والرّشاوى للباب العالي، فضلا عن نفقات حفر القناة، ممّا أدّى إلى بيع أسهمها بأبخس الأثمان، وبدأ التّدخل الأجنبي بإنشاء صندوق الدَّيْن ووضع نظام المراقبة البريطانية الفرنسية بإشراف وزيرَيْهما على المالية المصرية، وانتهى الوضع بعد الثّورة العُرابية إلى احتلال مصر سنة 1882م، وبذلك صار الاقتصاد والمالية المصرية تحت سيطرة الأجانب وكَثُرَت البنوك الأجنبية، وزادتْ رؤوس الأموال الأجنبية المستثمرة في مصر، وتأخّرت الصّناعة، وازدادت التّبعية التّجارية لإنجلترا، وانخفض مستوى دخل الفرد المصري، وكثرت البطالة وترتّب عنها كثرة الجرائم والسّرقة والتّسوّل والفساد وشيوع الغشّ والتّزوير وغيرها مِنَ الآفات الاجتماعية.[4]

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص7.

[2] ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص18- 20، وينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص189، وينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج1، ص243.

[3] ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، المرجع السابق: ص19.

[4] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، المرجع السابق: ص31.

كانت الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي عايشها الشّيخ محمّد عبدَه بئيسة مليئة بالآفات الاجتماعية والمظاهر المنافية للشّرع وللآداب العامّة، فمنها ما ورثه المصريّون عن آبائهم وأجدادهم ومنها ما أحياه الاستعمار وشجّعته السّلطة الحاكمة في مصر، التي تميّز أمراؤها بسوء التّسيير وإنفاق أموال الشّعب على الملذّات الشّخصية على حساب الحياة الكريمة للمواطن المصريّ، فحاول معالجتها بما أتيح له مِنْ وسائل وأساليب مشروعة للارتقاء بهم إلى حياة أفضل، وفي المطلب الموالي تجلية للحياة التّربوية والفكرية التي عاصرها الشّيخ محمّد عبدَه ومدى تأثيرها على توجّهه في الإصلاح التّربوي.

المطلب الرّابع: الحالة التّربويّة والفكريّة في عصر الشّيخ محمّد عبدَه

كانت الحالة التّربويّة والفكريّة زمن الشّيخ محمّد عبدَه متدهورة على مستوى الأشخاص والمؤسّسات والمضامين، وعليه سيتمّ في هذا المطلب تشخيصها ضمن خمسة فروع وهي: تردّي المستوى الفكري والتّربويّ للمصريّين، وبيان ما قام به الاستعمار البريطانيّ وعملاؤه مِنْ تكريس لذلك الوضع وإرسائه أكثر، وما صاحبه مِنِ انبهار للمصريّين بالنّهضة الأوروبّية وانعكاساتها على التّربية والتّعليم، واستثمار الشّيخ محمّد عبدَه لإنجازات الغرب وانفتاحه عليه لتجسيد إصلاحاته التّربوية، ثمّ الإشارة إلى إسهام الصّحافة والجمعيات والمطابع والتّرجمة في تطوير الوضع الثّقافيّ والفكريّ لمصر.

الفرع الأوّل: تردّي المستوى التّربويّ والفكريّ للمصريّين

إنّ الجدب العلمي والشّلل الفكري الذي أصاب العالم الإسلاميّ في عهد الشّيخ محمّد عبدَه، جعل حلقات التّعليم فيه تفتقد لكتب المتقدّمين الرّاقية، وتحلّ محلّها كتب المتأخّرين المتكلّفين المليئة بالحواشي والتّقريرات والتّلخيصات والمتون، وهو ما أدّى إلى تغلغل الانحطاط الفكريّ والعلميّ فيه.[1]

كما أدرك الشّيخ محمّد عبدَه المسلمين منقسمين إلى شيع لها مستوى تعليميّ ضحل، تفهمُ الإسلام على هواها وتعتقد أنّها على الحقّ، فسعى إلى إحياء الإسلام فيها، وإذكاء يقظة فكرية بنشر التّعليم فيها والاشتغال بالدّراسة العلميّة، والأخذ مِنَ المدنيّة الحديثة وثمراتها العلميّة حتّى تستطيع الأمّة المصريّة والإسلاميّة مسايرة الأمم الأوروبّية المتطوّرة، خصوصا وأنّ الإسلام لا يمنع ذلك.[2]

وبالإضافة إلى التّدهور المريع في المؤسّسات التّعليمية والثّقافية وما يكتنفها مِنْ مقرّرات لا ترقى إلى المستوى المطلوب في توعية الأمّة المصرية، كانت بعض العلوم العصرية المهمّة التي بلغ فيها الغرب الأوروبّيّ شأوا كبيرا مِنَ التطوّر والازدهار غائبة عن السّاحة المصرية، لرفض أهل الجمود لها بمبرّر مقاومة التّغريب والحفاظ على التّراث الإسلاميّ، في حين أنّ الأوروبّيّين أخذوا أصول هذه العلوم مِنْ أسلافنا في الأندلس التي كانت تعيش أزهى عصورها العلمية والثّقافية، فكانت مصدر إشعاع للعالم الأوروبّيّ الذي خرج بفضلها مِنْ عصوره المظلمة التي تسبّب فيها رجال الدّين والكنيسة.

إنّ مثل هذه الأجواء المتخلّفة التي عاشتها أوروبّا في تاريخها المظلم؛ صارت إليها الأمّة العربية والإسلامية في عهد الشّيخ محمّد عبدَه، التي شهدها في بلده مصر التي كانت تعدّ أمل الأمّة الإسلامية.

---

[1] ينظر: أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، (د ط)، (د ت)، ص137و138.

[2] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص104.

ذكر الشّيخ محمّد عبدَه أنّ المؤسسات التّعليمية ومنها الكتاتيب كانت في أواخر القرن التّاسع عشر تعدّ بالآلاف، لكنّها عوض أنْ تَنشر العلم والوعي وتساهم في النّهضة والإحياء، كانت منابت للجهل، لكونها منتشرة في أوساط الأمّيين فكانت تُخرِّج حفظةً للقرآن الكريم ليس لهم مِنَ العلم والثّقافة شيء، حتّى أنّه بسبب جهلهم تخرّج منها المتسوّلون والمجرمون.[1]

كانت المؤسّسات المصرية وفي مقدّمتها الأزهر وعلماؤه في غفلة وجمود كبيرَيْن، إلى درجة مجافاتهم للعلوم غير الدّينية مجافاةُ عداءٍ مبنيٍّ على أحكام شرعية لا مرجعيّة لها تنفّر وتصدّ عنها، فقد ذكر مصطفى بيرم في رسالته عن الأزهر؛ أنّ تلك العلوم الرّياضية والجغرافية والعقلية والفلسفية بقيتْ مهجورة مِنَ الأزهر، يُنظر إليها بعين السّخط، ويَفرّ مِنْ سماعها فرار الصّحيح مِنَ الأجرب، ومِنْ شواهد الجمود الذي ساد الأزهر بسبب مشايخه المتزمّتين، تلك الرّسالة التي بعث بها والد محمّد بيرم المدرّس بجامع الزيتونة بتونس إلى شيخ الأزهر محمّد الأنبابي يستفتيه عن جواز تعلّم المسلمين للعلوم الرّياضية كالهندسة والحساب والهيئة والطّبيعيات والكيمياء وغيرها مِنَ المعارف، فأجابه بفتوى طويلة ملتوية تهرّب فيها ممّا يقصده المستفتي مِنْ إدخال دراسة العلوم إلى الجامع الأزهر، وبسبب هذا الجمود صار علماء الأزهر عُضوًا ميّتا في جسم الأمّة، ودام الجمود لقرون ولم يحاولوا الخروج منه ومِنْ دائرة التّقليد والأخذ بأسباب الإصلاح، حتّى جاء الشّيخ محمّد عبدَه ورفع لواء الاجتهاد والتّجديد والإصلاح للأزهر ولغيره مِنَ المؤسّسات التّعليمية المصرية.[2]

الفرع الثّاني: تكريس الاستعمار للوضع التّربوي والفكري المتردّي:

عمل الاستعمار البريطاني وعملاؤه على تجهيل الشّعب المصري، للتّحكّم فيه أكثر والاستبداد عليه، والتّعمية على حقوقه لخدمة مصالحه الخاصّة على حساب الارتقاء بمستواه التّربوي والفكري.

فهذه السّياسة الماكرة تعمّدها المفتونون بالفكر الغربي ومدنيّته أمثال الخديوي سعيد، الذي ازدادت حالة التّعليم سوءً أثناء حكمه، بإرسائه للجهل وتعميمه لإحكام قبضته والتّسلّط عليه، إذْ لا يتأتّى له ذلك إلّا بتجهيل المصريّين، فقد قال لسكرتيره: "ولِمَ نُعلّم الشّعب؟ لكي يصير الحكم عليه والتّصرّف فيه أعسر ممّا هو عليه؟ دَعْهُم في جهلهم فالأمّة الجاهلة أَسْلَسُ قيادا في أيدي حاكميها".[3]

لقد كان الشّيخ محمّد عبدَه كأسلافه مِنَ العلماء والمفكّرين المصلحين الذين أخذوا على عاتقهم القيام بواجبهم الشّرعي ومسؤوليتهم الوطنيّة في مقاومة الاستعمار بسلاح العلم والمعرفة وتمثُّل أحكام الدّين الإسلامي الدّاعية إلى العلم والتّفكير والتحضّر والسّعي للتّطور والإصلاح، وما زاد مِنْ صعوبة مهمّته، قيامه برسالة الإصلاح بمعيّة القلّة مِنْ طلبته وإخوانه المؤمنين بمنهجه وخَطِّه الإصلاحيّ في مواجهة الغرب المستعمر الذي سخّر كلّ الوسائل التي يمتلكها لأجل إفشال جميع النّشاطات العلمية التي يقوم بها المسلمون خصوصا في المجال الفكري والتّربوي، وبالتّالي يَسْهُلَ عليه إخضاعهم وتجسيد مخطّطاته الماكرة الخادمة لمصالحه الخاصّة على حساب مصالح المصريّين المشروعة.

---

[1] ينظر: محمود قمبر، الإصلاح التربوي في مصر، مرجع سابق: ص10.

[2] ينظر: عبد المتعال الصعيدي، المجدّدون في الإسلام، مرجع سابق: ص388و389.

[3] حافظ محمّد حيدر الجعبري، الشّيخ محمّد عبدَه وآراؤه في العقيدة الإسلامية، مرجع سابق: ص20.

وبالتّوازي مع جهود الشّيخ محمّد عبدَه، كوّن الاستعمار جيلا متشبّعا بأفكاره البعيدة عن مبادئ الإسلام وتقريبه مِنَ الأفكار الغربيّة التي ربّاه عليها في طريقة التّفكير والسّلوك، كما فعل مع رفاعة رافع الطّهطاوي المصري، وخير الدّين التّونسي اللّذان نقلا الأفكار الأوروبّية إلى مجتمعاتهم الإسلامية وروّجا لها في أوساطها ممّا أدّى إلى الإعجاب بها على أساس أنّ أفكار الغرب متوافقة مع الإسلام، وفي هذا خطر على الإسلام وأهله لما فيها مِنْ تأويل فاسد وتحريف لمبادئ الإسلام وحقائقه.[1]

وهو الأمر الذي عَقَّدَ مهمّة الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية في كلّ المجالات وفي المجال التّربوي والتّعليمي تحديدا وصعّبها أكثر وفتح عليه جبهات داخلية إضافة إلى الخارجية، فهذا الوضع ينطبق عليه قول الشّاعر: متى يبلغ البنيان تمامه * * * إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم.

ومع ذلك كلّه كان للأزهر الشّريف في مصر في بداية مسيرة الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية في المجال التّربويّ أدوارا إيجابية في تعليم وتثقيف المصريّين، فقد كان شجرة طيّبة نافعة لطلبة العلم ينهل منها طلبة العلم مِنْ جميع ربوع العالم، كما عمل على مقاومة الثّقافات الأجنبية والنّظم الهدّامة والمفاهيم الخاطئة المستهدفة لثقافة المجتمع المصري الأصيلة، ولتوهين النّشاط العلميّ لديه خصوصا في جوانب دينه الإسلامي الحنيف، فوقف الأزهر الشّريف في وجهها -الثّقافات الأجنبية- حاجزا منيعا وسدّا حصينا يصدّها ويمنعها مِنَ الانتشار والتّفشي على ما اكتنف أدواره مِنِ اختلالات ونقائص، وهو ما كانت تعانيه الكثير مِنَ المدارس والمعاهد العلمية التي كانت تعيش فقرا مدقعا في العلوم العقلية والعصرية التي قطع فيها الأوروبّيّون أشواطا بعيدة، فأنتجوا بها واقعا مزدهرا بسبب التّنوير الذي أخذت تشعّه جامعاتهم ومراكزهم العلمية، في مقابل ما كان يسيطر على النّاس وعلى أهل الجمود في مصر والعالم العربي والإسلامي مِنْ تحجّر في العقول وتبلّد في الفهوم باسم العلم والدّين.

الفرع الثّالث: الانبهار بالنّهضة الأوروبية وانعكاساتها على التّربية والتّعليم

أَرْجَعَ بعض الدّارسين الغربيّين أصول النّهضة المصرية الحديثة وحركة الإصلاح المصري إلى مؤثّرات خارجية لا دخل لمصر فيها؛ فنسبها إلى جمال الدّين الأفغاني، وهو ما أنكره الكثير مِنَ الباحثين المصريين[2]، الذين أرجعوا أصول النّهضة المصرية الحديثة إلى محمّد علي الذي أنشأ في مصر مدارس على الطّراز الأوروبّيّ، فكان يتعلّم فيها أبناء الحكّام والموظّفين، فقد أَوْفَد إلى أوروبّا بعوثا علمية كثيرة اقتبستْ مِنْ علوم الغربيّين الكثير مِنْ عاداتهم وتقاليدهم، كما أحدثتْ حركة علمية جديدة في مصر، بعدما كان التّعليم منتشرا في كتاتيب القرى وإذا تجاوزها لا يتعدّى جامع الأزهر، فأصبحت بيئة المفكّرين في مصر على أقسام: قسم سلك مناهج تفكير القرون الوسطى الجامد، وقسم فتنته مدنيّة الغرب فتأثّر بها ونهج نهجه، وقسم ثالث توسّط بين الفريقين يمثّله الشّيخ محمّد عبدَه الذي تأثّر بجمال الدّين الأفغاني، فحصلتْ نهضة مصرية استطاع أنْ يفكّ بها عِقال الحرية الفكرية في مصر.[3]

---

[1] ينظر: حافظ محمّد حيدر الجعبري، الشّيخ محمّد عبدَه وآراؤه في العقيدة الإسلامية، مرجع سابق: ص21.

[2] يعتبر عباس محمود مترجم كتاب الإسلام والتّجديد في مصر لمؤلفه تشارلز آدمس مِنَ الباحثين الذين رفضوا هذا التّفسير، وعباس محمود هو تلميذ مصطفى عبد الرّازق الذي تتلمذ على يد الشّيخ محمّد عبدَه.

[3] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص264و265.

لقد عاش الشّيخ محمّد عبدَه في بيئة اتّسمت بالضّعف والرّكود والانحطاط العلميّ والثّقافيّ، لخضوعها لسلطان الدّولة العثمانية التي كانت تعيش سنواتها الأخيرة، بسبب ما كانت تعانيه مِنْ ضعف وانقسام، وبسبب الحمْلات المسعورة مِنَ الاستعمار الأوروبيّ المسلّح على بلاد العرب والمسلمين بالإضافة إلى حشده للمستشرقين ورجال الدّين النّصارى لمسخ شخصية المسلمين وهويّتهم العربية والإسلامية، ولتحريف مفاهيم دينهم وتشويه معالمه والصدّ عنه لإضعافهم واحتوائهم.

فالشّيخ محمّد عبدَه عاصر الخديوي عبّاس، الذي قصر عنايته على المدرسة الحربية التي اهتمّت بالشّأن العسكري على حساب التّربية والتّعليم، وأغلق المدارس التي شيّدها جدّه محمّد علي.[1]

وبغلقه للمدارس التّربوية والتّعليمية، تسبّب في تكريس وتفشّي الأمّية والجهل والتّخلّف والجمود والتّقليد، وجعل المصريّين ينبهرون بالتّطوّر العسكري الأوروبيّ ويُفْتَنون بمدنيّته وعاداته وتقاليده.

لقد وقف الشّيخ محمّد عبدَه في مصر على تعليم مزدوج استورده محمّد علي مِنْ فرنسا وإنجلترا، استمرّ إلى غاية احتلال بريطانيا لمصر سنة 1882م، وامتدّ حتّى قيام ثورة يوليو 1952م التي بها تحررت مصر ونالت استقلالها، فأنشئت مدارس نوعية لتعليم القلة مِنْ أبناء البرجوازيّين ليتولّوا الحكم والإدارة والتّسيير، أمّا غالبية أبناء الشّعب المصري فقد أنشئت لهم مدارس أوّلية لا ترتقي إلى مستوى طموحاتهم، ولا تؤهّلهم لمراحل تعليمية أكاديمية تمكّنهم مِنْ تولّي مناصب سامية في الدّولة.[2]

لقد ساد الجمود والتّقليد الأزهر في عهد الشّيخ محمّد عبدَه كردّ فعل على التّغريب الذي دخل مصر مع الحملة الفرنسية، لذلك انغلق علماء الأزهر على أنفسهم لحماية التّراث الإسلامي، وخلقوا بذلك فراغا كبيرا تمدّد فيه أصحاب القوّة والغزو الفكريّ الذين مكّنوا للتّغريب، وجعلوا الجمود يسود التّعليم عموما والتّعليم الأزهري خصوصا، فشكّل ذلك تحدّيا كبيرا أمام الشّيخ، وهو ما دعاه إلى محاربته والعمل على بَعْثِ حركة الإحياء والتّجديد والإصلاح التّربوي، ولمّا عاد مِنَ المنفى إلى مصر رفع شعار التّربية قبل السّياسة، لكون التّربية أصل والسّياسة فرع، ورفع شعار الأمّة قبل الدّولة، لأنّه بنضج النّخبة تنضج الأمّة، وتنضج السّياسة كثمرة لها، لذلك جعل مِنْ أولوياته الاشتغال بالتّربية، لاعتقاده بأمان طريقها ونجاعته وجدواه، ومهما طال فهو يحتاج إلى الصّبر والنَّفَس الطّويل.[3]

الفرع الرّابع: انفتاح الشّيخ محمّد عبدَه في إصلاحه التّربوي على إنجازات الغرب

شكّلت الظّروف العلمية والتّربوية الصّعبة في عصر الشّيخ محمّد عبدَه تحدّيا كبيرا أمامه، لمنعها إياه مِنْ تجسيد إصلاحاته بعدما تطوّر علميا وفكريا، وصارت له طموحات كبيرة وأخذ يسعى للنّهوض بأمّته المصرية وتطويرها، وليمنع الاستعمار البريطاني مِنْ طمس هويتها والاستحواذ على مقدّراتها.

إنّ معرفة الشّيخ محمّد عبدَه بأسرار تجاوز الأوروبّيّين لأزمات تخلّفهم خلال القرون الوسطى، ووقوفه على الأسباب الحقيقية التي أوصلتهم إلى قمّة التّطوّر والتّفوّق على الأمم الأخرى، جعلته ينفتح

---

[1] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص166.

[2] ينظر: محمود قمبر، الإصلاح التربوي في مصر، مرجع سابق: ص15.

[3] يرجع إلى: محاضرة محمّد عمارة على اليوتيوب بعنوان: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، من تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بمركز الدّراسات المعرفية في مصر، ألقاها في: 15 فيفري 2017م.

عليهم في الإعداد للإصلاح التّربوي والأخذ بأسبابه للّحاق بركبهم وتحقيق النّهضة لأمّته، فقد وجدهم أَوْلَوا اهتماما كبيرا للتّربية والتّعليم، لذلك انفتح عليهم وسلك سبيلهم في الاهتمام بهذا المجال.

لمّا اطّلع الشّيخ محمّد عبدَه على الفكر التّربوي الأوروبّيّ المتطوّر وانفتح على حضارته، أدرك أنّ مِنْ أسباب تطوّره وقوّته وتمكّنه مِنَ التّغلّب على أعدائه والسّيطرة عليهم؛ هو اهتمامه بالتّربية وبالقائمين عليها مِنَ المشرفين والمعلّمين وبتفعيل إنتاجهم الفكري والتّربوي، فاستطاع بذلك أنْ ينتصر في حروبه على أعدائه، ويُخضع الدّول العربية والإسلامية ويستعمرها، خصوصا لمّا تخلّت عن دينها وتراثها الإسلامي، وغطّت في سباتها الطّويل وانشغلت بخلافاتها وانغمست في الملهيات والشّهوات.

عندما هُزمت ألمانيا في معركة فيينا قال فيخته[1]: "بالتّربية سوف ننتصر على جيوش نابليون"، لذا قامت ألمانيا بإصلاح شامل للتّعليم واستطاعت أنْ تنتصر سنة 1870م، فأشاد بسمارك[2]بالمعلّم فيخته قائلا: "إنّ الذي انتصر في هذه الحرب إنّما هو معلّم المدرسة"[3]، فالبيئة الأوروبية كانت تعتبر التّربية أمّ المهن وأنّها أساس التّنمية والتّقدّم، شأنّها شأن العلوم المهمّة كالطبّ والهندسة وغيرهما، وأخذوا يقيمون لها مراكز بحثية ومعامل تجريبية، ويضعون لها النّظريات والدّراسات لتحديثها، وبرزت الكثير مِنَ الشّخصيات والحكومات التي تعمل على الإصلاح التّربوي حتّى يتجاوزوا التّخلّف المستشري.

وفي خضمّ تلك الأحداث والمواقف التي كانت تعجّ بها السّاحة العالمية، كان الشّيخ محمّد عبدَه يتابع الأوضاع في ظلّ التّخلّف المريع الذي كانت تعيشه مصر والعالم العربي والإسلامي في شتّى المجالات، وما تعانيه مِنْ تهميش وتقزيم في التّربية والتّعليم، تأكّد له يقينا بأنّ التّحرّر مِنَ التّخلّف والجهل والضّعف والاستبداد والاستعمار، لا يتمّ إلّا بالاستثمار في الإنسان بتربيته وتعليمه العلوم النّافعة له في دينه ودنياه، وكذا بالاستفادة مِنْ إنجازات الأمم الأوروبّية، والأخذ مِنْ علومها العصرية التي بَنَتْ بها حضارتها، وتوظيفها في التّربية والتّعليم لتحقيق الإصلاحات التّربوية المنشودة.

لقد تميّز النّصف الثّاني مِنَ القرن التّاسع عشر الميلادي بمحاولة إصلاح التّعليم الشّعبي بمشروعين لم يترجما في الواقع بسبب الظّروف المالية والسّياسية وهما: مشروع لائحة رجب 1867م الرّامية إلى إصلاح الكتاتيب والإكثار منها، ومشروع التّعليم القومي الذي قدّمه قومسيون لتنظيم المعارف سنة 1880م بهدف إصلاح التّعليم وتوحيده وتعميمه على الشّعب المصري، وفي سنة 1872م أنشئت دار العلوم كما افتتحت أوّل مدرسة لتعليم البنات، وفي سنة 1882م استعمرت إنجلترا مصر وضيّقت على التّعليم بالحدّ مِنَ الإنفاق عليه وفرض مصروفات باهضة على التّعليم، وإضعاف

---

[1] **يوهان فيخته(Johann Gottlieb Fichte)(1762- 1814م):** فيلسوف ألماني مِنْ أبرز مؤسّسي الحركة الفلسفية المعروفة بالمثالية الألمانية، ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرّة، تاريخ الإطلاع: الاثنين: 2020/06/08م، في الساعة: 20:00 ليلا.

[2] **أوتو فون بسمارك(Otto Von Bismark)(1815- 1898م):** سياسيّ بروسي ألماني شغل منصب رئيس الوزراء في مملكة بروسيا وأشرف على توحيد الولايات الألمانية التي تسمّى بالرايخ الألماني، وأصبح أوّل مستشار لها سنة 1871م، ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرّة، تاريخ الاطّلاع: الاثنين: 2020/06/08م، في الساعة: 20:00 ليلا.

[3] محمود قمبر، الإصلاح التربوي في مصر، مرجع سابق: ص11.

الثّقافة الوطنية بفرض اللّغة الإنجليزية في المناهج الدّراسية والتّشجيع على التّعليم الأجنبي، لذلك قام الشّيخ محمّد عبدَه بإنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية وبنى مدارس كثيرة لتعليم أبناء الفقراء مجّانا.[1]

لقد تحدّى الشّيخ محمّد عبدَه ظروف بيئته الفكرية المتردّية، وسلك طريق التّربية والتّعليم، واستهدف إصلاح الأزهر وجميع المؤسّسات المصرية، واستعان بالمدارس والجمعيات الخيرية والصّحافة لبلوغ أهدافه والنّهوض بمصر وبأمّته الإسلامية، ووضع خارطة طريق لإحباط مخطّطات الاستعمار بإنشاء مؤسّسات مرجعيّة للحفاظ على ثوابت أمّته، التي عمل الاستعمار على محاربتها بنشر النّصرانية والتّمكين للغته وللّهجات العامّية، مستعينا بعملائه المحلّيّين مِنَ السّاسة والمثقّفين المصريّين.

الفرع الخامس: إسهام الصّحافة والجمعيات والمطابع والتّرجمة في التّطوّر الفكري والتّربوي

لقد ساهمت الصّحافة في حياة الشّيخ محمّد عبدَه في إحداث يقظة فكرية ملحوظة، فعدد الصّحف والمجلّات العربية قاربت الثّلاثين، وعدد الصّحف الأجنبية زادت على الثّلاثين، ورغم غلق الاستعمار البريطاني لأكثر الصّحف، إلّا أنّ النّخبة المصرية كانت لها نشاطات في هذا المجال، حيث أنشأ عبد الله النّديم صحيفة الأستاذ سنة 1892م، كما أنشأ الشّيخ علي يوسف صحيفة المؤيّد سنة 1899م، وأنشأ مصطفى كامل صحيفة اللّواء سنة 1900م التي اهتمّت بالقضايا الاجتماعية وعلى رأسها قضايا المرأة والدّعوة إلى تحريرها، كما كتب الشّيخ محمّد عبدَه مقالات في صحيفة الأهرام ينتقد فيها أساليب التّربية والتّعليم والعادات السّيئة في المجتمع التي طالب بإصلاحها وتنقيتها مِنَ البدع والخرافات، كما أحدثت المطابع ودُورُ الكتب يقظة فكرية، حيث استردّ الخديوي إسماعيل مطبعة بولاق، لتتوالى بعدها إنشاء مطبعة الدّيوان، وأركان الحرب، والنِّيل، والمطبعة الوطنية بالإسكندرية، التي طبعت الكتب العربية القديمة والكتب الأجنبية لتمكين المثقّفين مِنَ الاطّلاع على التّراث العربي والإسلامي والأجنبي، ومِنْ دور الكتب العامة التي أنشئت دار الكتب المصرية التي أنشأها علي مبارك سنة 1870م، كما أنشئت المكتبة الأزهرية سنة 1879م وغيرهما، وظهرت جمعيات متنوعة علمية وأدبية ساهمت في نمو النّشاط الفكري والعلمي، كالجمعية الجغرافية التي أسّست سنة 1875م، وجمعية الاعتدال التي أسّست سنة 1886م التي اهتمّت بنشر الثّقافة الأدبية، وجمعية المعارف التي أسّست سنة 1868م والتي اهتمّت بالتّأليف والنّشر، كما ازدهرت الحركة الفنّية في فترة الشّيخ محمّد عبدَه فأنشئت دار الأوبرا في عهد الخديوي إسماعيل، وبدأت تنشط الفرق المسرحية في تمثيل الرّوايات بغرض التّرفيه والتّسلية ومعالجة المشكلات الاجتماعية، وبدأ الاهتمام بالموسيقى والغناء وغيرها مِنَ النّشاطات الفنّية الأخرى المشابهة.[2]

كما ازدهرت في عهد الخديوي إسماعيل حركة ترجمة الكتب العلمية التي ساهمت في اليقظة الفكرية للمصريّين، ومِنْ أهم الكتب التي ترجمت في هذه الفترة كتاب: تاريخ تمدّن الممالك الأوروبّية، للسّياسي الفرنسي فرانسوا جيزو الذي ترجمه إلى العربية نعمة الله الخوري سنة 1876م، وقد قرأه الشّيخ محمّد عبدَه على طلبته في الأزهر، وكتاب: مبادئ التّشريع، لـ: بنتام، وكتاب: سرّ تقدّم الإنجليز

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص34.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص35و36.

السّكسونيين، لـ: أدمون ديمولان، وكتاب: القول المنتخب في التّربية والأدب، لـ: بليتيه لمترجمه أحمد حسين، وكتاب: التّربية، لـ: هربرت سبنسر الذي ترجمه الشّيخ محمّد عبدَه مِنَ الفرنسية إلى العربية.[1]

لقد تميّزت الحياة التّربوية والفكرية المصرية في عصر الشّيخ محمّد عبدَه بالتّدهور والتّرنّح بين الرّداءة والانبهار بالحضارة الأوروبّية، لذلك اجتهد في تحسينها والارتقاء بها إلى الأجود، ومجابهة التّحديات التي فرضتها قُوى الاستعمار الأوروبّيّ المتغطرس وعملائه التّغريبيّين مِنْ أبناء مصر المنبهرين بثقافته وحضارته، فشكّل ذلك عائقا أمامه عن توعية أمّته والحيلولة دون تجسيد إصلاحاته التّربوية، ومع ذلك رفع التّحدّي واطّلع على ما في أيدي الغرب مِنْ إنجازات وانفتح عليه، واستقدم ما يناسب أمّته، ووظّف كلّ ما توفّر لديه مِنْ صحافة وجمعيات ومداس ومطابع وترجمة، وكوّن المعلّمين وعلّم النّاشئة ما ينفعهم في حياتهم لأجل تحسين أوضاعهم الفكرية والتّربوية.

والخلاصة أنّ مختلف الأوضاع السّياسية والدّينية والاجتماعية والاقتصادية والتّربوية والفكرية؛ شكّلت في مجملها تحدّيات معيقة في وجه مشروع الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحي، الذي آل على نفسه أنْ يرفع التّحدّي لمجابهتها ومحاولة التّغلب عليها بإصلاح ما فسد فيها، واستثمار ما هو مساعد له على تجسيد إصلاحاته التّي كان قد شرع فيها، وكلّه أمل أنْ يحقّقها، ولكن تلك الأوضاع لم تسعفه في تحقيق كلّ الإصلاحات التي وضعها نصب عينيه للنّهوض بأمّته مِنْ كبوتها الطّويلة.

وبعد تتبّعي للأحوال السّائدة في عهد الشّيخ محمّد عبدَه في المجالات الدّينية والسّياسية والاجتماعية والاقتصادية والتّربوية والفكرية التي صنعتْ منه مصلحا وأهّلته لأنْ يكون ضمن ركب المصلحين؛ سأعرّج على الدّواعي التي دفعتْ به وقَادَتْهُ إلى خوض غمار معترك الإصلاح، والمتمثّلة في الدّواعي الدّاخلية النّابعة مِنْ عمق المجتمع المصري، ثمّ الدّواعي الخارجية التي أَمْلتها وفرضتها عوامل وأسباب وافدة، فكانت أكبر حافز على رسم المنهج الإصلاحي الذي تبنّاه خلال مسيرته الإصلاحية.

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص34.

المبحث الثّالث:

دواعي الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه

المطلب الأوّل:

الدّواعي الدّاخلية للإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه

المطلب الثّاني:

الدّواعي الخارجيّة للإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه

المبحث الثّالث: دواعي الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه

تمهيد:

لقد كان للإصلاح التّربوي الذي تبنّاه الشّيخ محمّد عبدَه؛ دواعي قادته إلى مباشرته والسّعي الحثيث إلى تجسيده خلال مسيرته الإصلاحية على طول طريقها، الأمر الذي ألزمه تتبّعها والإحاطة بها والتّسلّح لها، لتذليلها وللتّمكّن مِنْ تجسيدها في الواقع المصريّ.

لذلك تصدّى للإصلاح التّربوي وفق الأفكار التي آمن بها بمنهج واضح قوامه البحث عن دواعيه ودراستها ومعاينتها ميدانيا، وسلوك آليات عمليّة لتنفيذ إصلاحات مناسبة لتحقيق النّجاح المتوافق مع الأهداف والغايات التي سطّرها، حتّى لا تضيع جهوده ولا تهدر أوقاته.

وفي هذا المبحث سيتمّ تقسيم دواعي الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه إلى دواعي داخلية نابعة مِنْ داخل مجتمعه المصريّ التي دفعته إلى الإصلاح، ثمّ إلى دواعي خارجية طرأت على مجتمعه مِنَ الخارج أملتها الظّروف الإقليمية والدّولية المحيطة، فكان لهما ثقل كبير عليه، ودور خطير في عرقلة إصلاحاته التّربوية المسطّرة، بل إنّها زادت مِنْ تردّي الأوضاع في جميع الصّعد، الأمر الذي جعله يضاعف مِنْ جهوده لإيجاد المخارج منها لإزالتها مِنْ طريقه، وتحقيق الإصلاح الذي ينشده للنّهوض بالمجتمع المصريّ والأمّة العربية والإسلامية، للّحاق بركب الأمم المتقدّمة والتّفوّق والسّيادة عليها.

المطلب الأوّل: الدّواعي الدّاخلية للإصلاح التّربوي

أقدم الشّيخ محمّد عبدَه على الإصلاح التّربوي وحمل همّ تجسيده في الواقع المصري المتردّي، بسبب تراكم العديد مِنَ الدّواعي الدّاخلية التي أحاطت بمجتمعه مِنْ كلّ جانب، وقد تمّ إجمال تلك الدّواعي في أربعة فروع، فجاء في الفرع الأوّل منها: عقم طرائق ومناهج التّعليم، وفي الفرع الثّاني: الرّكون إلى التّقليد والجمود، وفي الفرع الثّالث: شيوع الجهل والتّخلّف وتفشّي الفُرقة والخِلاف، ليختم الفرع الرّابع بالحديث عن الاستبداد السّياسي والتّبعية للأجنبيّ.

الفرع الأوّل: عقم طرائق ومناهج التّعليم

رغم توجّه الشّيخ محمّد عبدَه إلى إصلاح مختلف مجالات الحياة، لكنّ جهده الأكبر تركّز على الإصلاح التّربوي، في ظلّ تنامي النّفوذ الأجنبي على مصر الذي نتج عنه استعمار بريطانيا لها فيما بعد، فكان لهذا المشهد السّياسي تأثير على بقية المجالات الحيوية الأخرى، فأثّر عليها مولّدا آثارا سلبية خطيرة، جعلت الضّعف يدبّ في المسلمين ويمتدّ ليمسّ عقيدتهم حتّى أصابها الفساد، بسبب الجهل بأصول الدّين، الذي نجم عنه كنتيجة حتمية فساد أخلاق الأمّة.

كان الشّيخ محمّد عبدَه يرى بأنّ علاج الفساد الأخلاقي يكمن في إصلاح التّعليم الدّيني، ليقضي به على الأمّية والجهل بالدّين اللّذَيْن حجبا عن المسلمين المعرفة الصّحيحة بدينهم، كما حجب عنهم المعرفة الدّقيقة بما يجري في بلادهم والبلدان العربية والإسلامية والأوروبية، لهذا كان يرى ضرورة إصلاح التّربية والتّعليم، عن طريق إصلاح المناهج والمقرّرات والطّرائق ونظام التّدريس كلّيا.

فقد كان للشّيخ محمّد عبدَه ميلا غريزيا للإصلاح عن طريق إصلاح التّربية والتّعليم، لأنّه يرى فيه الطّريق الآكد لتحرير العقول مِنَ الجهل والأمّية والرّكود والجمود، فبه يمكن إعادة هداية الدّين، لذلك انصبّتْ جهوده عليه في منفاه ببيروت وعند رجوعه إلى مصر وإلى غاية وفاته، لكنّه لقي مقاومة مِنْ أُولِي السّلطان، الأمر الذي منعه مِنْ أداء رسالته الإصلاحية كاملة كما كان يصبوا إليها.[1]

وقف الشّيخ محمّد عبدَه على أحد أهمّ دواعي الإصلاح في مصر، المتمثّل في التّعليم العقيم السّائد فيها جرّاء الطّرائق المتّبعة والمناهج المقرّرة التي تلقّاها شخصيّا، الأمر الذي كان له انعكاس خطير على المتعلّمين، حتّى صاروا ينفرون مِنَ التّعليم ويمقتونه ولا يرون فيه جدوى، بل ويرغبون في غيره مِنَ المهن والحرف، وهو ما زاد مِنْ تكريس الجهل وتضاعف الأمّية وسيادة الجمود.

كانت الدّراسة في الأزهر قائمة على قراءة المتون والشّروح والحواشي والتّقارير، وكان المعلّم لا يراعي حالة الطّلاب ودرجة استعدادهم للفهم حتّى صوّر الشّيخ محمّد عبدَه بعض تلك الممارسات والطّرائق التي يعمد إليها المعلّمون في التّدريس في إجبار الطّلبة على الخضوع لها قائلا: "كنت أسمع الشّيخ وهو يدرّس فأحسبه يتكلّم لغة أجنبية، وكان على الطلاّب أنْ يحفظوا ما يقرأون".[2]

فهو يرى بأنّ إصلاح التّربية والتّعليم واجب شرعي، وضرورة ملحّة، دعتْ إليها حاجة الواقع المتردّي في مختلف الصّعد، وأنّ إصلاح باقي المجالات لا يكون إلا بالتّعليم الذي يعدّ المنطلق الأساس

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص977.

[2] محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص18.

لإصلاحها، وذلك بالاهتمام بالمتعلّمين في كلّ أطوار التّعليم في المؤسّسات المصرية، وهذا لتحقيق غايات سامية مِنْ وراء إصلاح التّعليم والمتمثّلة في إيجاد قادة للأمّة في دينها ودنياها، حتّى يكونوا هداة ومصابيح إرشادها، ومهدّئو نفوسها إذا أقلقتها الاضطرابات.[1]

قال الشّيخ محمّد عبدَه وهو يترجم لنفسه عن طلبه للعلم قبل أنْ يجاوز السّادسة عشر مِنْ عمره: "وقد وقع لي سنة ونصف سنة لا أفهم شيئا لرداءة طريقة التّعليم، فإنّ المدرّسين كانوا يبادئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها ولا عناية لهم بتفهيم معانيها لمن لا يعرفها...إلقاء المعلّم ما يعرفه وما لا يعرفه، بدون أنْ يراعي المتعلّم ودرجة استعداده للفهم، في أنّ الأغلب مِنَ الطّلبة لا يفهمون، تغشّيهم أنفسهم فيظنّون أنّهم فهموا شيئا، فيستمرّون على الطّلب إلى أنْ يبلغوا سنّ الرّجال وهم في أحلام الأطفال، ثمّ يُبتلى بهم النّاس وتُصاب بهم العامّة فتعظم بهم الرّزية"[2]، لهذا رافع الشّيخ كثيرا على إصلاح التّعليم وضرورة انتهاج طرق أنجع لتعليم العلوم التّقليدية وكذا الحديثة.

فكان ذلك أحد المواقف التي جعلته يهرب مِنَ الجامع الأحمدي ويختفي عند أخواله لمدّة ثلاثة أشهر ويقتنع باستحالة نجاحه في طلب العلم، فلولا عناية الله ولطفه به الذي هداه إلى خال أبيه الشّيخ درويش خضر الذي كان له الفضل في ترغيبه في العلم وإرجاعه إلى حظيرته، لكان الشّيخ محمّد عبدَه نسيا منسيا ولما كان له ذكر في عالم العلم والمعرفة والإحياء والإصلاح والنّهضة.

إنّ هذه المواقف التي عاشها الشّيخ محمّد عبدَه ووقف عليها مع أبناء بلدته بمختلف مستوياتهم في مرحلتَيْ الطّلب والعطاء، جعلته يستشعر خطورة استمرارها وانعكاساتها السّلبية على أبناء أمّته، فأخذ يفكّر جدّيا في الإسراع للقيام بالإصلاح التّربوي، ووضع استراتيجية محكمة ومنهج قويم لإنجاح تعليم أبناء بلده وتكوينهم حتّى يكونوا متعلّمين صالحين، يُعوّل عليهم في إحداث نهضة علمية وتربوية في مصر، كي تستطيع اللّحاق بركب الدّول المتقدّمة التي حقّقت نجاحات كبيرة في مختلف القطاعات، وصارت قوية ففرضت وجودها العلمي، لكنها وظّفته في استعمار الدّول الضّعيفة وإذلالها وتسخيرها لخدمتها كما فعلوا مع مصر وغيرها مِنَ الدّول العربية والإسلامية.

كما أنّ تلك الاختلالات وذلك التّردي في طرائق التّعليم وبرامجه ومناهجه ومقرّراته، لم تتوقّف عند المراحل الأولى التي عاشها وهو صغير في مرحلة الطّلب، ولكنّها استمرّت معه حتّى بعد نيله للشّهادة العالمية ومزاولته للتّدريس، فقام يناهضها بمبادراته الفردية بانتهاجه لطرائق اعتمدها في تدريسه في الأزهر وفي بيته وفي المدارس الأهلية المصرية، لكنّ ذلك لا يمكّنه مِنْ تحقيق مشروع إصلاحه التّربوي، ما لم تكن له صبغة رسمية وقرارات رسمية تشرف على تطبيقها الحكومة وتتولّاها برعايتها وتتابع تنفيذها وتعمّمها على مؤسّساتها المختلفة.

لذلك أخذ الشّيخ محمّد عبدَه بزمام المبادرة، ووضع لوائح لإصلاح التّعليم الدّيني في مدارس الدّولة العثمانية بمناسبة صدور أمر مِنَ السّلطان عبد الحميد بتشكيل لجنة تحت رئاسة شيخ

---

[1] ينظر: محمّد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب -التعليم العربي الإسلامي- دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 2006م، ص9.

[2] تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص23.

الإسلام لإصلاح البرامج في المدارس الإسلامية، فرفع الشّيخ محمّد عبدَه لائحة الإصلاح إلى شيخ الإسلام بالأستانة، وأخرى إلى بيروت لإصلاح التّعليم في سورية، وفيهما اقترح تعميم المدارس الوطنية وإصلاح برامج التّعليم الدّيني والعناية به.[1]

كما رفع لائحة ثالثة إلى اللّورد كرومر لإصلاح التّعليم، وفيها فصّل معالم الإصلاح التّربوي لمحاربة الجهل والأمّية وتوعية الأمّة، نظرا للانعكاسات الخطيرة المستشرية بسبب السّياسة التّعليمية التي انتهجتها السّلطة الحاكمة الخاضعة للاستعمار البريطاني، ولإصلاح التّربية والتّعليم بالتّخلص مِنَ الطّرائق والأساليب العقيمة السّائدة، وتمكين الطّالب مِنْ آليات التّفكير والجمع والتّحليل والنّقد والاستنتاج وتدريبه عليها، والسّمو بعقله وتقوية فكره في ابتكار المسائل، حتّى يمكنه التّمييز بين الصّحيح والعليل ممّا يتلقّاه، وهكذا يتطوّر العلم وأساليبه ويتكوّن روّاده، ويكون التّعليم منتجا.

الفرع الثّاني: الرّكون إلى التّقليد والجمود

مِنْ أخطر الأمور التي دعت الشّيخ محمّد عبدَه إلى الإصلاح الدّيني والتّربوي، على اعتبار أنّ الدّين هو الرّوح التي تسري في نفس المصري المسلم الذي رضعه بالفطرة والتّنشئة منذ صغره؛ هو ركون الإنسان إلى التّقليد وعدم إعمال العقل بالتّفكير والتّدبر الذي دعا إليه الإسلام في الكثير مِنْ الآيات القرآنية منها قوله تعالى:﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾[سورة البقرة]، وغيرها مِنَ النّصوص الشّرعية الدّاعية إلى إعمال الفكر والتّدبر وعدم الرّكون إلى التّقليد والجمود.

إنّ التّقليد مِنْ شأنه أنْ يسيء إلى الدّين الحنيف، فيجعل الاعتقاد سائدا بأنّ الإسلام غير صالح لتسيير شؤون الحياة البشرية، وأنّه لا يتّسم بالمرونة والصّلاح لكل زمان ومكان، كما أنّه مِنْ شأنه أنْ يشوّه الحقائق ويغيّر المفاهيم، وبالتالي يصدّ عنه ويغري بغيره مِنَ الشّرائع المحرَّفة المنسوخة، والنِّحل و المذاهب الهدّامة والأفكار المنحرفة الوافدة.

لذا جاء الإسلام يدعو إلى تحرير الفكر مِنْ ربقة الجمود والتّقليد، وإلى الاجتهاد والتّجديد تماشيا مع متطلّبات الزّمان في غير تنكّب لدين الله الخاتم، الذي جعل القرآن الكريم هو المصدر الإلهي المعتمد للاستخلاف في الأرض وتعميرها، ودون الرّكون إلى تقليد أسلافنا والجمود على النّصوص منْ غير إعمال للعقل والفكر، ودون تقليد للأمم والشّعوب التي تَدين بغير الإسلام، ولكنّ هذا لا يمنع مِنَ الاستفادة مِنْ خبراتها فيما لا نصّ فيه ممّا يدخل في شؤون الدّنيا كما في حديث أنس ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ مرَّ بقوم يلقِّحون، فقال: «**لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ**» قال: فخرج شيصا، فمرَّ بهم فقال: «**مَا لِنَخْلِكُمْ**» قالوا: قلتَ كذا وكذا، قال: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**»[رواه مسلم].[2]

---

[1] ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص309.

[2] أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ مِنْ معايش الدّنيا على سبيل الرأي، ج4، ص1836، حديث رقم: 2363.

كان الشّيخ محمّد عبدَه أحد حلقات مشروع الإصلاح للنّهوض بالأمّة العربية والإسلامية، مبتدئا بمجتمعه المصري في أواخر القرن التّاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلاديَيْن، فقام يدعو إلى تحرير الفكر مِنْ قيود التّقليد والاستفادة مِنَ العلم وعدم التّنكُّر للماضي والتّراث لدوره في إغناء الهوية.[1]

لقد وصف الشّيخ محمّد عبدَه الجمود بأنّه مرض خبيث، أحدثه جهلة يظنّون خيرا ويعملون شرّا[2]، لهذا بيّن موقف الإسلام الرّافض للتّقليد الذي شاع في زمانه وصار دِينا متّبعا فقال: "أنحى الإسلام على التّقليد، وحمل عليه حملة لم يَرُدَّها عنه القدر، فبدَّدَتْ فيالقه المتغلّبة على النّفوس، واقتلعتْ أصوله الراسخة في المدارك، ونسفتْ ما كان له مِنْ دعائم وأركان في عقائد الأمم، صاح بالعقل صيحةً أزعجته مِنْ سباته وهبَّتْ به مِنْ نومةٍ طال عليه الغيب فيها، علا صوت الإسلام على وساوس الطّغام، وجهر بأنّ الإنسان لم يُخلق ليقاد بالزّمام، ولكنه فُطِرَ على أنْ يهتدي بالعلم والأعلام، أعلام الكون ودلائل الحوادث، وإنّما المعلّمون منبّهون ومرشدون، وإلى طرق البحث هادون، صرَّح في وصف أهل الحقّ بأنّهم:﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ ١٨﴾[سورة الزّمر]".[3]

وقد جعل مِنْ تفسيره وسيلة لمحاربة الجمود والتّقليد فكان فيه حرّا في تفكيره وفهمه للقرآن، صريحا في نقده ونُصحه للتّفسير والمفسّرين، جريئا في ثورته على القديم، ودعوته إلى التّحرّر ممّا أحاط بالعقول مِنَ القيود، وما أوغلت فيه مِنَ الرّكود والجمود[4]، وفي تفسيره للآية الكريمة:﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾[سورة البقرة]، قال: "إنّ الآية صريحة في أنّ التّقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين، وأنّ المرء لا يكون مؤمنا إلّا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتّى اقتنع به".[5]

لذلك رفع الشّيخ محمّد عبدَه لواء الإصلاح والتّجديد والاجتهاد للخروج مِنْ ربقة التّقليد والجمود، فقال: "ارتفع صوتي بالدّعوة إلى أمرَيْن عظيمَيْن: الأوّل: تحرير الفكر مِنْ قيد التّقليد، وفَهْمِ الدّين على طريقة سلف الأمّة قبل ظهور الخلاف، والرّجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى"[6]، والجمود هو: تقييد الفكر بآراء السّابقين على وجه الإلزام، ممّا يؤدّي إلى تقييد الحركة والتّوقف عن الإبداع وبالتالي التّوقف عن التّحضّر.[7]

إنّ الذي كان سائدا في بيئة الشّيخ محمّد عبدَه قبل وأثناء بزوغ نجمه؛ أنّ التّعليم كان يتّجه إلى الحدّ مِنْ حرّية الفرد في التّفكير والعمل على تقييدها، والأخذ بأقوال الأقدمين والتّسليم لهم وبما

---

(1) ينظر: حملاوي مهتور، التجديد عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص2.

(2) ينظر: محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، مصدر سابق: ص131.

(3) محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، مصدر سابق: ص140.

(4) ينظر: محمّد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مرجع سابق: ج2، ص 410.

(5) تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص123.

(6) محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص11.

(7) ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص104.

جاء في الكتب القديمة، فالإنسان مقيّد بما قالوا سواء كان حقّا أم باطلا، لهذا دعا إلى التّحرّر مِنْ هذه القيود وإطلاق حرّية العقل ليفكّر ويبدع.[1]

فالشّيخ محمّد عبدَه عاصر فترة سادها الجمود والتّقليد وبالأخصّ في الأزهر كردِّ فعل على التّغريب الذي بدأ في مصر بعد الحملة الفرنسية، وللحفاظ على التّراث الإسلامي انكفأ علماء الأزهر على الجمود الذي كانت له مبرّراته ومقاصده، لذلك ساد الجمود وتجذّر في التّعليم في عهده، فكان هذا تحدّيا كبيرا أمامه، وهو ما دعاه إلى محاربته وبعث حركة الإحياء والتّجديد والإصلاح في التّربية والتّعليم وغيرهما، فالجمود لا يحفظ الموروث حفظا حقيقيا، وإنّما يخلق فراغا يتمدّد فيه صاحب الصّولة والقوّة والغزو الفكري، وهو الموقف الذي فتح الباب أمام التّغريب ومكّن له.[2]

إنّ التّقليد والجمود زمن الشّيخ محمّد عبدَه لم يكن مقصورا على التّربية والتّعليم فقط، بل تعدّاه إلى الدّين الإسلامي ومنه انعكست آثاره السّلبية على باقي الميادين، لهذا قال عن موقف الإسلام مِنَ التّقليد ومكانة العقل فيه: "قد أنحى على التّقليد، وحمل عليه حملة بدّدتْ فيالقه المتغلّبة على النّفوس، واقتلعتْ أصوله الرّاسخة في المدارك، ونسفتْ ما كان له مِنْ دعائم وأركان في عقائد الأمم، لقد علا صوت الإسلام وجهر بأنّ الإنسان لم يُخلق ليقاد بالزّمام، ولكنه فُطر على أنْ يهتدي بالعلم، ولذلك أطلق الإسلام سلطان العقل مِنْ كلّ ما قيّده، وخلّصه مِنْ كلّ تقليد كان استعبده".[3]

فقد ذهب الشّيخ محمّد عبدَه في استهجانه للتّقليد إلى درجة قبول عذر الحيوان المقلّد، وإنكاره مِنَ الإنسان، فقال: "فقد أَمَرَ بالنّظر واستعمال العقل، فيما بين أيدينا مِنْ ظواهر الكون، وما يمكن النّفوذ إليه مِنْ دقائقه، تحصيلا لليقين بما هدانا إليه، ونهانا عن التّقليد بما حكى مِنْ أحوال الأمم في الأخذ بما عليه آباؤهم، وتبشيع ما كانوا عليه مِنْ ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم، وإمحاء وجودهم المِلّيّ، وحقّ مَنْ قال، فإنّ التّقليد كما يكون في الحقّ يأتي في الباطل، وكما يكون في النّافع يحصل في الضّار، فهو مِضَلَّة يُعذر فيها الحيوان ولا يَجمل بحال الإنسان".[4]

لذا دعا الشّيخ محمّد عبدَه إلى التّحرّر مِنْ قيود التّقليد والجمود على القديم وفتح باب الاجتهاد كردّ فعل على ما كرّسه شيوخ الأزهر في ذلك ممّا سبَّب له متاعب كثيرة وعداوات وخصومات، فآذوه وعرقلوه واتّهموه بتمييع الدّين، فلم يسلم منهم ولا مِنَ السّلطة الخديوية التي كانت تدعمهم.

لقد كان للمواقف القولية والفعلية التي اتّخذها الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ أهل الجمود مِنْ علماء الأزهر ما جعلهم يثورون عليه ويؤلّبون عليه مريديه، فكثير مِنْ شيوخ الأزهر خاصموه لأنّه كان لا يكفّ عن الدّعوة إلى التّجديد وتحرير الأفكار مِنْ قيود التّقليد.[5]

---

[1] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص309.

[2] يرجع إلى: محاضرة محمّد عمارة على اليوتيوب بعنوان: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، من تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بمركز الدّراسات المعرفية في مصر، ألقاها في: 15 فيفري 2017م.

[3] محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، مصدر سابق: ص9.

[4] المصدر نفسه: ص32.

[5] ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق: ج3، ص72.

إنّ مواقف الأزهريّين المعادية لإصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية والرّافضة للاجتهاد والتّجديد، لكونهم يروا بأنّ الوضع القائم سليم وهم مستريحون له وأنّ التّعامل معه ميسور، لذلك كانوا يعادون كلّ شخص أو حركة تنشد الإصلاح والتّغيير، ويذهبون إلى مقاومة كلّ مَنْ يقف وراءه.[1]

لذلك ألّبوا عليه العامّة والطّلبة والصّحافة التي أخذت تلفّق له الصّور المفبركة للإساءة إليه وتُصوِّره بأنّه منحرف وتغريبيّ ومُرْتَم في أحضان الغرب وأفكاره المائعة على حساب الدّين، ثمّ إنّ الشّيخ محمّد عبدَه وهو يحارب ظاهرة الجمود والتّقليد التي أَلِفَها علماء الأزهر وشيوخه بمبرّر مقاومة الغزو الفكري والتّغريب، جعلهم ينغلقون على أنفسهم لحماية التّراث الإسلامي مِنَ التّشويه والاندثار والزّوال، فتسبّب موقفهم ذلك في امتداد التّغريب وشيوعه واستحكامه في غياب منهج معتدل يتصدّي له ويغالبه، حتّى برز بمنهجه الوسطي الفاعل، وعلمه الغزير وخبرته المتينة وحكمته السّديدة، واستطاع أنْ يكون في موقف وسط يستميل بذكائه طرفي النّقيض.

ومع ذلك كان يتعامل مع علماء الأزهر الجامدين بذكاء، حتّى لا ينفّرهم منه وحتّى يتقرّب إليهم ويستطيع بلوغ غاياته ومقاصده في الإصلاح التّربوي الذي ينشده، فسمّاهم بالأشراف، لعلّهم يُقلعون عن العصبيّة والجمود ويرتقون إلى مصافّ الاجتهاد والتّجديد والتّطوير.[2]

ففي أُولَى مقالاته بجريدة الأهرام[3] وهو يتحدّث عن موقف علماء الأزهر الجامدين مِنْ علوم المنطق والفلسفة والكلام والحكمة والعلوم العصرية، وهو يتقرّب منهم ويتودّد إليهم وصفهم بقوله: "الطائفة الشّريفة التي تعدّ بمنزلة روح لهذه الأمّة، فإنّهم إلى الآن لم ينظروا إلى أنفسهم ولا إلينا بعين الرّحمة، ولم يروا لهذه العلوم فائدة تعود عليهم أو على أبناء ملّتهم بعائدة، فإنّهم أرواحنا، وقائدوا أشباحنا، حيثما توجّهوا توجّهنا، وفي أيّ وقت على أيّ شيء عرّجوا عرّجنا، فإنّنا لا نسمع إلا مقالهم، ولا نرمق إلّا أحوالهم، بل لا نسمع إلا بآذانهم ولا نبصر إلا بأبصارهم، ولا نذوق إلّا بذائقهم، ولا نتكلّم إلا بألسنتهم، كيف لا وهم الأرواح ونحن الأشباح، وهم النّسمات ونحن الأرواح".[4]

وقد كان الشّيخ محمّد علّيش مِنْ أشهر علماء الأزهر الذين طعنوا في الشّيخ محمّد عبدَه وعادَوْه لاتّصاله بجمال الدين الأفغاني ولسعيه في التّجديد والإصلاح الدّيني.

وفي هذا السّياق يقول الشّيخ محمّد عبدَه: "وناديتُ بأحسن ما وجدتُ ودعوتُ إليه، وارتفع صوتي بالدّعوة إلى أمرين عظيمَيْن، الأوّل: تحرير الفكر مِنْ قيد التّقليد وفهم الدّين على طريقة سلف الأمّة قبل ظهور الخلاف والرّجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى واعتباره مِنْ ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لتردّ مِنْ شططه، وتقلّل مِنْ خلْطه وخبْطه، لتتمَّ حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني وأنّه على هذا الوجه يعدّ صديقا للعلم، باحثا على البحث في أسرار الكون، داعيا

---

[1] ينظر: محمود قمبر، الإصلاح التربوي في مصر، مرجع سابق: ص6.

[2] ينظر: عبد الحليم عويس، التّربية وإصلاح الأمّة في مقالات محمّد عبدَه، مقال على شبكة الألوكة: https://www.alukah.net، تاريخ الإضافة: 2014/3/2م، تاريخ الزيارة: 2020/08/27 في الساعة: 18:00 مساء.

[3] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص15، محمّد عبدَه، العلوم الكلامية والدّعوة إلى العلوم العصرية، عنوان مقال بجريدة الأهرام، العدد: 36، السنة الأولى: 1877م.

[4] المصدر نفسه: ج3، ص20و21.

إلى احترام الحقائق الثّابتة، مطالبا بالتّعويل عليها في أدب النّفس وإصلاح العمل، كل هذا أَعُدُّه أمرا واحدا وقد خالفتُ في الدّعوة إليه رأي الفئتَيْن العظيمتَيْن اللّتَيْن يتركّب منهما جسم الأمّة؛ طلّاب علوم الدّين ومَنْ على شاكلتهم، وطلّاب فنون هذا العصر ومَنْ هو في ناحيتهم".[1]

ولتجاوز الجمود والتّقليد وتحقيق النّهضة قال الشّيخ محمّد عبدَه: "لا يمكن للمسلم أنْ ينهض النّهوض اللّائق بدينه إلّا بدءا مِنِ استعداده للدّخول للآفاق اللّامحدودة مِنَ العلم والعمل التي شرعها له الإسلام، ولا يقدر على الشّروع في هذا الاستعداد إلا بدءا مِنَ العودة إلى أصول دينه، أعني إلى نبذ التّقليد وإلى النّظر العقلي، وإلى الاجتهاد والتّجديد".[2]

وقد واجه الشّيخ محمّد عبدَه وهو يسعى للإصلاح التّربوي في مؤسّسة جامع الأزهر الشّريف تحدّيات كبيرة وموانع صارفة مِنْ طرف جماعة شيوخ الأزهر الذين استمرءوا الجمود وركنوا إلى التّقليد، فناهضوه ووقفوا في وجه كل ما يرتقي بشؤون الأزهر ويطوّرها إلى الأحسن حتّى يكون له مردود جيّد محليا وإقليميا وعالميا.

إنّ الوضع البئيس الذي كان يعيشه الأزهر صوّره أحمد أمين قائلا: "والأزهريّون كان يتزعّمهم طائفة أَلِفَتْ القديم حتّى عَدَّتْه دينا، وكرهت الجديد حتّى عدّته كفرا، وعاشتْ في المغارات فلم تر ضوءً، وأفنت عمرها في فهم لفظ، وتخريج جملة، وتأويل خطأ، فلم تر حقائق الدّنيا، فإذا أتى مصلح سَمَّم أهله الجوّ حوله، واحْتَمَوا بالدّين يخيفون به الحكومة ويكسبون به عامّة الشّعب، وخنقوا الطّائفة القليلة مِنْ شبابه النّازعين إلى التّجديد، وحرصوا على مراكزهم أنْ يكتسحها الإصلاح وجاهدهم أنْ ينتقل إلى يد المصلحين، وبجانبهم طائفة أخرى تؤمن بالقديم عن صدق وإخلاص، ولكن عن ضيق أفق، وغفلة عن الحقّ، فتتجمّع كلّ هذه العوامل، فيضطرّ المصلح أخيرا إلى الانسحاب إنْ غضب أو المداراة والمسالمة والرّضا بالموجود إنْ لم يغضب، وتضطرّ الحكومة أنْ تتخلّى عن إصلاح الأزهر حبّا في السّلامة، وتتركه يأكل بعضه بعضا، وتنشئ بجانبه المعاهد لمعلمي اللّغة العربية والقضاء الشّرعي لتستطيع تنظيمها والإشراف عليها، إذا أعجزها الإشراف على الأزهر".[3]

وحول ما أحدثه فكر التّقليد والجمود مِنْ آثار سلبية على واقع المتعلّمين ومؤسّساته قال الشّيخ محمّد عبدَه: "ثمّ إنّ الجمود قد أحدث لنا فريقا آخر وهو فريق المتعلّمين على الطّرق الجديدة، إمّا في المدارس الحكومية، وإمّا في المدارس الأجنبية داخل بلادهم أو خارجا عنها...سماحة الإسلام وسِعَةُ حَمْله للعلم أباحتا للمسلمين أنْ يرسلوا أولادهم ليأخذوا العلم في المدارس الرّسمية وغير الرّسمية مِنْ أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم، أو أساتذة كلّهم غير مسلمين، بل في مدارس لم تبن إلّا لترويج دين غير الدّين الإسلامي، وأباحتا لغير هؤلاء التّلاميذ أنْ يسكتوا وألّا ينكروا عليهم عملهم، ما دامت العقيدة سالمة مِنَ الهدم أو الضّعضعة، هؤلاء التّلاميذ إنْ كانوا في مدارس أجنبية لا أثر لتعليم الدّين

---

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص11.

[2] صلاح زكي أحمد، أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، مرجع سابق: ص68.

[3] أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص317و318.

الإسلامي فيها، بل ربّما يعلّم فيها دين آخر، فقد يسري إلى عقائدهم شيء مِنَ الضّعف، وقد تذهب عقائدهم بالمرّة وتحتلّ مكانها عقائد أخرى تناقضها كما شوهد ذلك مرارا".[1]

إنّ محاربة الشّيخ محمّد عبدَه للتّقليد والجمود جعل الفريق الآخر مِنَ الذين يريدون أنْ يتنصّلوا مِنْ هوية الأمّة الإسلامية وثوابتها، يستغلّون الحرّية التي يدعو إليها الإسلام بسماحته، ليرتموا في أحضان المستعمر والمستشرقين الذين أشاعوا الفكر التّغريبيّ في أوساط المصريّين المغلوبين على أمرهم والذين يعيشون تحت سلطة حكومة ضعيفة يتولّى أمرها سلطة ظالمة ومستعمر حاقد.

وثورة الشّيخ محمّد عبدَه على الجمود ودعوته إلى الحرّية الفكرية التي يكفلها الإسلام في إطار أصوله، أفرزت في السّاحة المصرية فريقَيْن؛ فريق متعطّش إلى الحرّية ثار على القيود المفروضة عليه، وفريق آخر أَلِفَ الجمود وركن إليه فهو ينزعج مِنْ كلّ جديد يدعو إلى التّحرّر والإصلاح، فأصبح الأزهر ميدانا للصّراع بين فريق التّحرّر والتّجديد والإصلاح الذي يقوده الشّيخ محمّد عبدَه، وبين فريق التّقليديّين الجامدين، فكان الصّراع بينهما؛ آية على الحياة والانتعاش والتّنبيه الفكري.[2]

الفرع الثّالث: تفشّي الجهل والتّخلّف والفُرقة والخِلاف

أوّلا: تفشّي الجهل والتّخلّف

لقد انتشرت الكثير مِنَ الآفات الاجتماعية كالجهل والأمّية والتّخلّف والفَرقة والخلاف في المجتمع المصري، ولم تقتصر على المجال التّربوي والتّعليمي فحسب، بل تعدّتها إلى المجال الدّيني، وتجاوزت أوساط العامّة لتمسّ شيوخ الأزهر الذين كان علمهم محدودا مقصورا على حفظ كتاب الله دون فقه معناه، وتمسّكهم بالقشور والشّكليات والطّقوس والعبادات الصّورية والأوهام والخرافات دون فقه حقائق الدّين، حتّى وصل الأمر بأكثرهم إلى الدّفاع باستماتة عمّا ينسبونه إلى الدّين مِنْ عادات وتقاليد جاهلية وبدع وثنية وأوهام نسجتها عصور الظّلام وعهود الاستبداد، واتّهموا بالكفر والزّندقة كلّ مَنْ دعا إلى التّجديد وتحرير الفكر والعقل[3]، وهو ما انعكس على العامّة، فكانت هذه الآفات إحدى دواعي تولّي الشّيخ محمّد عبدَه واجب الإصلاح التّربوي للارتقاء بالمجتمع والنّهوض بأمّته المصرية.

بمجرّد القيام بمقارنة بسيطة للمستوى العلمي والمعرفي لزمن أسلافنا وزمن الشّيخ محمّد عبدَه؛ يتبيّن أنّ الجهل وقلّة الوعي ضرب أطنابه وتفشّى بين العامّة وحتّى بين الخاصّة الذين يحملون شهادات عليا، والذين تقلّدوا مسؤوليات سياسية مرموقة، لذلك صار المسلمون في ذيل التّصنيف العالمي دينيّا وعلميّا، وهو ما دعا الشّيخ محمّد عبدَه إلى القيام بالإصلاح الذي رفع شعاره وعمل على تجسيده ميدانيا وقال: "إنّ المسلمين لمّا كانوا علماء في دينهم كانوا علماء الكون وأئمّة العالم، ولمّا أصيبوا بمرض الجهل بدينهم انهزموا مِنَ الوجود وأصبحوا أُكْلة الآكل، وطُعْمة الطّاعم".[4]

---

[1] محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، مصدر سابق: ص127و128.

[2] ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق: ج3، ص75.

[3] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص155و156.

[4] محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، المصدر السّابق: ص143.

لقد بلغ مستوى الجهل وتردّي الأوضاع العلمية والتّربوية أعلى مستوياته في عهد الشّيخ محمّد عبدَه، وصارت الكتاتيب ودور العلم مكانا يعشّش فيه الجهل والخرافة وسوء الأخلاق، حتّى قال أحد الباحثين: "وانتهى حال الكتاتيب -وتعدُّ بالآلاف في الدّيار المصرية- أنْ أصبحت كما وصفها الشّيخ محمّد عبدَه في أواخر القرن التّاسع عشر بأنّها منابت للجهل فهي مغروسة في أوساط أمّيين وتُخرّج حفظة للقرآن كلّه أو بعضه، وليس لهم مِنَ العلم أو الثّقافة شيء، وقد يكون منهم متسوّلون أو حتّى مجرمون".[1]

وسبب ضعف المسلمين وتدهور حالهم، هو جهلهم بالإسلام، لذا وجب عليهم معرفته والتّديّن به وتربية الأمّة عليه، فبالإسلام يكون خلاصها في الدّنيا والآخرة، وبه تكون سيادتها على الأمم، وهذا الذي حقّقته في القرون الأولى، فتاريخ الأمّة الإسلامية أثبت: "أنّ المسلمين لمّا كانوا علماء بدينهم كانوا علماء الكون وأئمّة العالم، ثمّ أصيبوا بمرض الجهل بدينهم فانهزموا مِنَ الوجود".[2]

لقد بلغ تأثير الجهل والأمّية على بعض الشّيوخ الجامدين أنْ شوّهوا مفاهيم الدّين، وحسّنوا للنّاس التّخلّف عن ركب الأمم المتطوّرة والتّقاعس عنها، "فسمّوا الجبر توحيدا، وترك الأسباب دِينا، وترك الأعمال المفيدة توكّلا، ومعرفة الحقائق كفرا وإلحادا، وإيذاءُ المخالف في المذهب دِينا، والجهل بالفنون والتّسليم بالخرافات صلاحا، واختبال العقل وسفاهة الرّأي ولاية وعرفانا، والمهانة تواضعا، والخضوع للذلّ والاستسلام للضّيم رضا وتسليما، والتّقليد الأعمى لكلّ متقدّم علما وإيقانا".[3]

والجهل لم يكن قاصرا على فهم أمور الدّين، فبعض شيوخ الأزهر الجامدين منعوا الاجتهاد في أمور الدّين والدّنيا، وصدّوا عن الأخذ مِنَ الأوروبّيين الذي يخالفونهم في العقيدة ممّا حقّقوا فيه النّجاح في العلوم العصرية والصّنائع التي رفعوا بها مستواهم العلمي والمعرفي والمعيشي والاجتماعي، فقد كتب مقالا في جريدة الأهرام عن: العلوم الكلامية والدّعوة إلى العلوم العصرية، دحض فيه ما شاع بين المصريّين، بأنّ العلوم العصرية لا فائدة منها، وأنّها بدعة وعمالة للغرب الأوروبّيّ، فنبّه فيه إلى أنّ دراستهم للعلوم العصرية هي مِنْ أسباب التّقدم والتّطوّر والقوّة والغنى الذي شهدته أوروبّا، لذلك دعا إليها للّحاق بها ومنافستها للخروج مِنَ الجهل والأمّية والتّخلف.[4]

لذلك حارب الشّيخ محمّد عبدَه الجهل واعتبره مِنْ موانع الإصلاح وتحدّيّا داخليا دعاه لمزاولة الإصلاح، لكون الممانعين للإصلاح مِنْ شيوخ الأزهر الذين يفتقدون للعلم النيّر، ويحْظَوْن بمساندة الخديوي لهم، لأنّهم يحفظون عليه سلطانه ومصالحه الضيّقة ويكرّسون استبداده.

ومِنْ صور الجهل المستشرية زمن الشّيخ محمّد عبدَه، سيطرة الجهل على عقول الطّلبة الذين لقّنهم شيوخ أزهر بأنّ القول بدوران الأرض كفر، وأنّ معلّم الجغرافية مسخّر مِنْ أعداء الدّين لتعليم أبناء المسلمين أنّها مستديرة، وأَكْفَر منه مَنْ يعلّمهم الطّبيعيّات، لأنّ القول بالطّبيعة في نظرهم إنكار لوجود الله وإثبات لوجود المخلوقات بطبيعتها دون وجود الله.[5]

---

[1] محمود قمبر، الإصلاح التربوي في مصر، مرجع سابق: ص10.

[2] عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص127و128.

[3] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص1006.

[4] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص183.

[5] ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص123.

إنّ القائم بالإصلاح عليه أنْ يتهيّأ نفسيا لما قد يلقاه مِنْ صدّ وأذى ممّن يعملون معه في الحقل نفسه، فقد يعرقله عن الإصلاح علماء متديّنون لا وعي لهم ولا اطّلاع على ثقافات الأمم الأخرى، ولا احتكاك لهم بحاملي الشّهادات والأفكار، فتستغلّهم الأنظمة الحاكمة وتألّبهم على دعاة الإصلاح وتعرقلهم عنْ تجسيد مشاريعهم الإصلاحية، تماما كما حصل مع الشّيخ محمّد عبدَه.

لقد كان الحاكم في عهد الشّيخ محمّد عبدَه يتدخّل لمنع نشاط حركات الإصلاح، بعدما يثير الخلاف بين مريديه ومعارضيه بدسائس يُحيكها في الخفاء بدهاء ومكر، ويحصل النّزاع وتعمّ الفوضى، فيختلق لنفسه مبرّر رفض الإصلاح، ويأمر بترك الأمور كما هي بحجّة الحفاظ على الأمن والاستقرار، وهو ما قام به الخديوي عبّاس لصرف الشّيخ محمّد عبدَه عن إصلاح الأزهر قائلا: "إنّ الجامع الأزهر قد أُسّس وشُيّد على أنْ يكون مدرسة دينية إسلامية تنشر علوم الدّين الحنيفي في مصر وجميع الأقطار الإسلامية، وأوّل شيء أطلبه أنا وحكومتي أنْ يكون الهدوء سائدا في الأزهر الشّريف والشّغب بعيدا عنه، فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقّي العلوم الدّينية النّافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الأفكار؛ لأنّه هو مدرسة دينية قبل كلّ شيء"، ثمّ قال: "إنّ الذي حدث مِنْ شأنه أنْ يهدم معالم التعليم الدّيني فيه، ويحوّل هذا المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدّين وتطفئ نوره في هذا البلد وغيره مِنَ البلاد الإسلامية، وإنّي أسمع منذ سنوات بشيء يسمّونه حركة الأزهر، ولكنّي لم أر لهذه الحركة وهذا الإصلاح مِنْ نتيجة تُذكر سوى انتشار الفوضى في ربوعه".[1]

فالخديوي يريد الاستبداد بالأمر لتعزيز سلطانه بإسناد شؤونه إلى شيوخ مطاوعين له، يجهلون العلوم العصرية حتّى يخدموا مصالحه، وأمّا المصلحون الحقيقيّون فيقصيهم ويفرغ السّاحة منهم.

ثانيا: شيوع الفُرقة والخِلاف

الاختلاف سُنّة الله في الوجود لقوله تعالى:﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ ١١٩﴾[سورة هود]، فجعله الله أداة لامتحان القائمين على تبليغ رسالة الإسلام للنّاس، ودعاهم إلى الاتّحاد والائتلاف والتّعاون لتحقيق التّكافل والتّضامن، ورفع الضّيق والحرج عن الأمّة وإشاعة الطّمأنينة فيها، والابتعاد عن كلّ ما يزعزع استقرارها، ولا يكون ذلك إلاّ بالاعتصام بكتابه العزيز لقوله تعالى:﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ١٠٣﴾[سورة آل عمران]، وقد بيّن الشّيخ محمّد عبدَه موقف الإسلام مِنَ الفُرقة والخِلاف لمّا قال: "عنّف النّازعين إلى الخلاف والشّقاق على ما زعزعوا مِنْ أصول اليقين، ونصّ على أنّ التّفرّق بَغْيٌ وخروج عن سبيل الحقّ المبين، ولم يقف في ذلك عند حدّ الموعظة بالكلام والنّصيحة بالبيان، بل شرّع شريعة الوفاق وقرّرها في العمل".[2]

لقد شهدت مصر عند الاحتلال البريطاني لها خلافات حول الحكم بين الأمراء مِنْ جهة، ومع الاحتلال البريطاني مِنْ جهة ثانية، متجاهلين الدّفاع عن الدّين الإسلامي الممتهن، وحقوق الأمّة المصرية المهضومة التي كانت نهبا بين الحكّام والاستعمار، فقد كان همّ العائلة الخديوية استبدال السّيطرة

---

[1] عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص124و125.

[2] محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، مصدر سابق: ص151.

البريطانية بسيطرتها، دون حمل همّ إصلاح شؤونها المتدهورة خصوصا في التّربية والتّعليم الذي قصده الشّيخ محمّد عبدَه بالإصلاح.[1]

وحدثتْ خلافات بين الخديوي عبّاس والشّيخ محمّد عبدَه عندما رفض إسناد مشيخة الأزهر للشّيخ محمّد عبدَه الذي كان يطمح إليها لإصلاح الأزهر، وتحايل عليه بتعيينه مفتيا ليبعده عنها، والذي زاد مِنَ الخلاف بينهما أكثر؛ تصرّف الخديوي في أموال الأوقاف والإنفاق منها على أسرته وعلى مزارعه، وتدخّله في منح الكساوى التّشريفية لعلماء الأزهر حسب رغبته لا حسب القوانين، فأنكر عليه الشّيخ محمّد عبدَه ودعاه إلى الالتزام بالقوانين المنظِّمة، ولم يقصد الشّيخ النّزاع والخلاف على حساب وحدة أمّته، وإنّما قصد النّهوض بها بتحقيق إصلاح شامل لمؤسّساتها التّربوية والدّينية وعلى رأسها الأزهر الذي ضعف مردوده التّربوي والتّعليمي بسبب عبث العائلة الخديوية به، لذلك رأى الشّيخ محمّد عبدَه بأنّ إصلاحه تربويا سيكون له الأثر الإيجابي على مصر وعلى الأمّة العربية والإسلامية.

لقد كانت مواقف الخديوي وشيوخ الأزهر مثبّطة لمساعي الشّيخ محمّد عبدَه في الإصلاح التّربوي، بجراءتهم عليه وإيذائهم له، لاعتبار الخديوي في خطاباته أنّ ما يقوم به الشّيخ مِنَ النّهوض بالمسلمين بالتّعليم هو زيغ في العقيدة ومروق مِنَ الدّين، واعتبار شيوخ الأزهر إسناد مشيخة الأزهر له محو للدّين وازدراء للعلماء المسلمين، لأنّه يرى ضرورة تعليم العلوم الحديثة في الأزهر لمواكبة متطلّبات العصر.[2]

إنّ مواقف شيوخ الأزهر الخاملين ذوي الفهم السّيّء بحقائق الدّين الممانعة للإصلاح الخادمة لمصالح الخديوي والمكرّسة لسلطته، كانت بسبب إخضاعهم له بإسناد المناصب العليا لهم، ليواجه بهم الشّيخ محمّد عبدَه ويضربه بهم، ويغذّي الخلاف بينه وبينهم حتّى ينفّذوا أوامره ويخدموا مصالحه على حساب مصلحة الأمّة، إضافة إلى ما كان يقوم به الاستعمار مِنْ تمزيق لوحدة الأمّة بإثارة الخلافات والنّعرات بينها، بانتهاج سياسة فرّق تسد، حتّى يبسط نفوذه على أراضيها ويديم وجوده فيها.

ومِنْ دواعي قيام الشّيخ محمّد عبدَه بالإصلاح التّربوي، ما قام به الاستعمار مِنْ إثارةٍ للخلاف وتغذيةٍ للصّراع بين الأقطار العربية والإسلامية والوقيعة بينها وبين الأقلّيات والطّوائف المختلفة، فكان يجنّد المنظّمات التّبشيرية والاستشراقية والشّعوبية ويوجّهها ضد الإسلام الجامع لأمّة الإسلام الذي يمثّل مصدر قوّتها وقدرتها على مقاومة كلّ محاولات تمزيقها وتشتيتها.[3]

وحتّى تنجح مساعي الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية في التّربية، كان يتابع أخبار أمّته محلّيّا وإقليميّا وعالميّا أوّلا بأوّل متمثّلا قول الله تعالى:﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ٧١﴾[سورة التّوبة]، وقوله ﷺ: «**المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ**»[رواه البخاري][4]، ولحديث

---

[1] ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص131.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ص136و137.

[3] ينظر: أنور الجندي، الصحوة الإسلامية منطلق الأصالة وإعادة بناء الأمّة على طريق الله، دار الاعتصام، (د ت)، (د ط)، ص245.

[4] أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، ج8، ص12، حديث رقم: 6026.

النّعمان بن بشير ﷺ أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اِشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى**»[رواه البخاري].[1]

فهذه النّصوص الشّرعية وغيرها جعلت الشّيخ محمّد عبدَه يهتمّ بشؤون المسلمين ويسأل عن أخبارهم، ويتفقّد أحوالهم، ويعمل على توحيدهم عمليا بتربيتهم على الاتّحاد والتّعاون، ويبحث عن مواطن الخلل فيهم ليسدّها، وعن الأدواء فيعالجها، وعن المشاكل فيحلّها، وعن أسباب الفُرْقَةِ والخِلاف فيزيلها، ليوحّدهم ويلمّ شملهم ويقوّيهم ويردّ عنهم عدوان أعدائهم.

وفي هذا السّياق كتب الشّيخ محمّد عبدَه مقالات شجب فيها الخلافات الطّائفية التي أثارها أعداء مصر، وردّ على الذين زعموا بأنّ مردّ الخلل في المحاكم الأهلية بمصر إلى وكيل الحقّانية بطرس غالي الذي كان يُعيّن في القضاء الأقباط غير المؤهّلين، وذكر بأنّ انتقاد شخص بعينه لا ينبغي أنْ يُتّخذ ذريعة للطّعن في الأقباط كلّهم، واعتبر ذلك عملا شائنا يربّي الضّغائن ويُرسي العداوات في القلوب، ثمّ أشاد بالأقباط منوّها بمواقفهم الوطنية الطيّبة، بالإضافة إلى أنّ النّبي ﷺ أوصى بهم خيرا.[2]

ولكنّ المسلمين لمّا تنكّبوا سنن الله الكونية التي لا تحابي أحدا حتّى ولو كان مسلما، جعلهم يعيشون المآسي والذلّ والخضوع للكفّار بسبب ضعفهم وجهلهم وتخلّفهم واستحكام الفُرقة والخِلاف بينهم، فسلّط عليهم الغرب الصّليبي الذي استباح أراضيهم ومقدّساتهم، لكنّ رحمة الله وسعتْ هذه الأمّة لإخراجها مِنْ كبوتها، فبعث فيها رجالا مجدّدين مصلحين أمثال الشّيخ محمّد عبدَه مصداقا لقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ أَمْرَ دِينِهَا**»[رواه أبو داود].[3]

الفرع الرّابع: الاستبداد السّياسي والتّبعية للأجنبـي

أوّلا: الاستبداد السّياسـي

جاء الإسلام ليرسي مبدأ الحرّية ومعالمها في البشرية ضمن إطار عدم المساس بسيادة الآخرين، ودون الاستبداد عليهم، فالحرّية مِنَ المقاصد الجليلة للشّريعة الإسلامية لتحقيق كرامة الإنسان.

ومهما كانت مسؤوليات الإنسان عليه أنْ يسير في النّاس وفق مبادئ العدل والحرّية مِنْ تسلّط ولا استبداد، فالرّعية إذا ولي أمرها مَنْ يرفق بها ويعدل معها في تسيير شؤونها ويعطيها حقّها، فإنّ ذلك سينشر الودّ ويُحدث التّواصل الإيجابي بينها، ويديم مُلك حكامها ويبسط سيادتهم على رعيّتهم.

إنّ إرساء مبادئ الحرّية والعدل[4] ومحاربة الظّلم وتجسيد مبدأ النّصح في الأمّة للحاكم بالقول والفعل كان مِنْ أولويات الشّيخ محمّد عبدَه في دعوته الإصلاحية التي تبنّاها ورفع شعارها وصدح مجاهرا بها أمام أمراء مصر، رغم استبدادهم وظلمهم وتسلّطهم وجبن الخاصّة والعامّة أمامهم.

فقد عمل الشّيخ محمّد عبدَه جاهدا على نصح أمّته وتصحيح المفاهيم المغلوطة لديها حول معنى طاعة الحاكم، كما عمل على إرساء معالم الحرّية والعدل ومحاربة استبداد الحكّام وطغيان

---

[1] أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، ج8، ص10، حديث رقم: 6011.

[2] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص239و240.

[3] أخرجه أبو داود في سننه في كتاب: الملاحم، باب: ما يذكر في قرن المائة، ج4، ص109،حديث رقم: 4291، قال الألباني : صحيح.

[4] قال الشّيخ محمّد عبدَه في سياق حديثه عن اللّذة الرّوحانية: "العدل نائب المحبّة"، ينظر: محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، ص96.

الملوك وكلّ مَنْ تقلّد المناصب العالية مِنَ النّخب واستغلّها استغلالا سلبيّا فاحشا، فجاهر بأقواله وأفعاله على مناهضة الاستبداد وهو في عنفوانه فقال: "وهناك أمر آخر كنت مِنْ دعاته والنّاس جميعا في عمًى عنه وبُعدٍ عن تعقّله، ولكنه هو الرّكن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وما أصابهم الوهن والضّعف والذلّ إلا بِخُلُوّ مجتمعهم منه وذلك هو التّمييز بين ما للحكومة مِنَ الطّاعة على الشّعب، وما للشّعب مِنْ حقّ العدالة على الحكومة، نَعَمْ كنتُ فيمن دعا الأمّة المصرية إلى معرفة حقّها على حاكمها وهي هذه الأمّة لم يخطر لها هذا الخاطر على بال مِنْ مدّة تزيد على عشرين قرنا، دعوناها إلى الاعتقاد بأنّ الحاكم وإنْ وجبت طاعته هو مِنَ البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم وأنّه لا يَردُّه عن خطئه ولا يَقِف طُغيان شهوته إلّا نصح الأمّة له بالقول وبالفعل! جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه والظّلم قابض على صولجانه، ويد الظّالم مِنْ حديد، والنّاس كلّهم عبيد له أيّ عبيد! نَعَمْ إنني في كلّ ذلك لم أكن الإمام المتَّبَع ولا والرّئيس المطاع".[1]

إنّ سيادة العدل والحرّية ومعرفة حقوق وواجبات الحاكم والمحكوم وأدائها كاملة غير منقوصة، والاجتهاد في جعلها سلوكات مجسّدة وتقليدا ساريا في واقع النّاس، يرفع الاستبداد ويديم الملك ويحقّق الأمن والاستقرار والطمأنينة والعيش الهانئ، فتلك المبادئ السّامية ترغّب أكثر في طاعة الرّعية لراعيها والوقوف إلى جانبه في الملمّات والمصائب والنّكبات الدّاخلية والخارجية.

كما أنّ غياب تلك المبادئ يكرّس الاستبداد الذي ستنعكس آثاره الخطيرة على الفرد والمجتمع وعلى الأمّة، فيخلّف فسادا إنْ لم يكن في العاجل ففي الآجل آكد، وفي هذا يقول محمّد عمارة: "والاستبداد مفسد للتّربية باستبعاد السّياسة وشؤون الاجتماع البشريّ مِنْ نطاق العلوم التي يربّي النّاشئة عليها، ومفسد للعلوم عندما يستبعد علوم الحياة، التي تُفتِّق مَلَكَات الحياة، التي تُفتِّق مَلَكَات الإبداع والنّقد والمقاومة مِنْ إطار العلوم التي تسمح النّظم المستمدة بدراستها، ففرائض المستبدّ ترتعد مِنْ علوم الحياة، مثل: الحكمة النّظرية، والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم، وسياسة المدنية، والتّاريخ المفصّل، والخطابة الأدبية، إنّه يخاف مِنَ العلوم التي تُوسِّع العقول، وتعرّف الإنسان ما هو الإنسان، وما هي حقوقه، وهل هو مغبون، وكيف الطّلب، وكيف النّوال، وكيف الحفظ؟!".[2]

إنّ الاستبداد مِنْ مخرجات السّياسة المنحرفة، وحقيقته أنْ يسيطر فيه الرّجل الواحد أو الأفراد القلائل على حظوظ الأمّة بالرّأي الفردي المطلق، فينشأ مِنْ ذلك الظّلم والفساد المتمثّل في الميل إلى المصلحة الفردية أو الفئوية الضّيّقة على حساب المصلحة الخاصّة فتضيع المصلحة العامّة.[3]

وما زاد مِنْ تكريس الاستبداد في مصر هو الاحتلال البريطاني لها الذي دام أكثر مِنْ سبعين عاما، فتحكَّم في دواليب الحكم بواسطة العائلة الخديوية التي تسلّطت على المصريّين، فانعكس استبدادها على فساد الإدارة والأخلاق والدّين، فحال دون الإصلاح والنّهوض بالأمّة، قال الشّيخ محمّد عبدَه: "إنّ

---

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص12، وينظر: طاهر الطناحي، مذكرات الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص19و20، وينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص328.

[2] محمّد عمارة، شخصيات لها تاريخ، مرجع سابق: ص183.

[3] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص144.

إسماعيل أفسد الإدارة وأفسد الأخلاق، فلمّا وجدنا ريح الحرّية وأردنا أنْ نهض بالإصلاح، كان فساد الأخلاق هو الذي عاقنا لإفساد الإدارة، ولولا ذلك لكانت هذه المدّة كافية لأنْ نرتقي فيها ونكوّن أمّة".[1]

ومِنْ مخرجات استبداد الحكّام على الصّعيد الدّيني؛ احتقار العلماء والفقهاء واستغلالهم لخدمة أغراضهم وتقوية سلطانهم ودعم نفوذهم، بحملهم على إصدار فتاوى مؤيّدة لسياساتهم، فجعلوا ينظرون في النّصوص الشّرعية ويلوون أعناقها ثمّ يطالعون الحكّام بما يرضيهم، حتّى ولو كانت تلك الأحكام غير موافقة للشّرع، ثمّ يقوموا بترويجها على أنّها أحكام شرعية تمثّل شرع الله تعالى.[2]

لقد كان الاستبداد أحد أهمّ دواعي قيام الشّيخ محمّد عبدَه بالإصلاح للنّهوض بالأمّة، لكونه همّش الدّين وأفسد الأخلاق وجلب الاستعمار وورّث التّخلّف والجهل والأمّية وقتل الإبداع وأهان الإنسان وفرّق الأمّة وشتّت وحدتها، وأفرز الكثير مِنَ الموبقات التي أضرّت بالأمّة الإسلامية.

ثانيا: التّبعية للأجنبـيّ

عاش العالم العربي والإسلامي أوضاعا متردّية في شتّى الصّعد، فقد أصيب في دينه وتربيته وتعليمه وسياسته واقتصاده وفي جميع شؤونه، فاخترقتْ سيادته واستبيحتْ حرماته ودنّستْ مقدّساته واغتصبتْ أراضيه ونهبتْ خيراته، وصار مَقُودا بعدما كان قائدا، يأكل مِنْ يد غيره، ويدرس ويتربّى على مناهج أعدائه، فكرّس التّبعية حتّى استحكمتْ، وعجز عن إثبات وجوده، وإذا كانت التّبعية في مجال التّربية والتّعليم كان الأمر أبلغ خطرا وأشدّ ضررا على الدّين والسّياسة والاجتماع والاقتصاد وعلى غيرها مِنَ المجالات الحيوية الأخرى.

فقد سأل الفيلسوف البريطاني هربرت سبنسر الشّيخ محمّد عبدَه وهو يستفتيه: "هل الشّرق يسير في تفكيره على النّمط الذي يسير عليه الفكر في أوروبّا؟ فأجابه الأستاذ الإمام قائلا: "أنّ ما يتعلّمه الشّرق مِنَ الغرب هو الخبيث دون الطّيب".[3]

وبالفعل لمّا اطّلع المسلمون على الحضارة الغربية وما حقّقته مِنْ تطوّر وتقدّم وتمدّن، بعثوا البعثات إلى أوروبّا للأخذ عنها ومحاولة اللّحاق بها، لكنّهم خلطوا عملا صالحا بآخر سيّئا، فعوض أنْ ينقلوا العلوم والمعارف العصرية والصّنائع، راحوا يأخذون عنهم شكليات لا طائل منها بل تعدّوها إلى أخذ ثقافاتهم وعاداتهم، فقلبوا أوضاع المباني والمساكن، وبدّلوا هيئات المآكل والملابس والفراش والآنية وسائر الماعون، فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم.[4]

إنّ تبعية الشّرق الإسلامي للغرب الأوروبّيّ في التّربية والتّعليم والثّقافة والفكر، كان ولازال عقبة أمام المسلمين، فعوض أنْ يلتزم المسلمون بدينهم وبتراثهم العلمي والمعرفي والثّقافي الأصيل ويستفيدوا منه ويضيفوا إليه ما يثريه ممّا عند الأمم الأخرى مِنَ العلوم والمعارف والاكتشافات في إطار التّعارف والتّعايش مع المحافظة على هويتهم امتثالا لقوله تعالى:﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ﴾[سورة الحجرات]؛

---

[1] حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج1، ص54.

[2] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص156.

[3] أنور الجندي، معالم تاريخ الإسلام المعاصر، دار الاعتصام مطبعة المنصورة، القاهرة، مصر، (د ط)، 1981م، ص 328.

[4] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص126.

جعلوا واقع الأمّة الإسلامية بئيسا بتبعيّتهم وسلبيّتهم، وقلبوا الموازين وغابت عنهم الحكمة، وأخذوا الخبيث وتركوا الطّيّب في خضمّ مغريات الحضارة المادّية الغربية الوثنية.

فالمدارس والجمعيات الخيرية الأجنبية إبّان النّفوذ الأجنبي والاحتلال البريطاني لمصر أثّرت على التّعليم الأهلي فيها، ومع مرور الزّمن خضعت المعاهد المصرية وجامعاتها للتّبعية الغربية في مناهج التّعليم فانعكست بالسّلب على تلامذتها وطلبتها في مختلف مراحل التّعليم، وأصبح حتما عليها إعادة النّظر في فروع الثّقافة والتّعليم التي تشمل العقيدة والتّربية والنّفس والاجتماع والأخلاق والأدب والفنّ والتّاريخ والفلسفة والاقتصاد والسّياسة والمال وغيرها مِنَ التّخصصات التي مازالت إلى اليوم تدرّس مِنْ وجهة نظر الثّقافة الغربية الاستعمارية الصّليبية.[1]

وهذا كلّه يدخل تحت سطوة الغزو الفكري الشّرس للاستعمار الأوروبي على العالم العربي والإسلامي لمسخ هويته الحضارية، لأنّ التّبعية له تمكّنه مِنِ احتواء المسلمين وإخضاعهم لسلطان الاستعمار وتجعلهم يخدمون أفكاره وثقافته ومبادئه وحضارته الوثنية، وترسّخها فيهم، وتقيّدهم وتمنعهم مِنْ مقاومته، وتعيقهم مِنَ الانعتاق والتّحرّر منه والانبعاث مِنْ جديد، لذا وجب على المسلمين حماية أنفسهم وتحصينها مِنَ الغزو الفكري الغربي للتّمكن مِنْ مواجهة الاستعمار الأوروبي المتغطرس، بالإيمان بربّهم والتّمسّك بدينهم والحفاظ على تراثهم الأصيل.

إنّ التّقدّم والتّحضّر والتّمدّن وتحصيل أسباب القوة والمنعة يوجب على المسلمين التمسّك بهويتهم وبمقوّمات حضارتهم الحيّة، وأنّ هذا لا يمنع مِنِ اكتساب علوم ومعارف وفنون الآخرين والاستفادة مِنْ أسباب قوّتهم، ولا يعتبر تبعية لهم، فأسلاف المسلمين أخذوا مِنْ حضارة الفرس والرّومان دون أنْ يذوبوا فيها ودون أنْ يفقدوا شخصيتهم ودون أنْ يتنكّروا لتراثهم، كما أنّ الأوروبّيّين خرجوا مِنْ عصورهم المظلمة بالانفتاح على حضارة المسلمين الرّاقية مادّيا ومعنويا وأخذوا ينتقون منها ما يناسب ثقافتهم وهويتهم، دون أنْ يذوبوا في المسلمين ويتخلّوا عن دينهم ولغتهم وينسلخوا مِنْ هويتهم وثقافتهم وحضارتهم، بل ودون أنْ يصبحوا عربا ومسلمين.[2]

والخلاصة أنّ الشّيخ محمّد عبدَه بذل قصارى جهده في الإصلاح عموما والإصلاح التّربوي خصوصا، وقد كان له دور بارز في وضع أصوله وترك بصماته وتحقيق بعض ما يصبو إليه في مناهضة الاستبداد الدّاخلي ومقاومة الاستعمار الخارجي والتّخلّص مِنَ التّغريب والتّبعية ومحاربة الجهل والتّخلّف والجمود والتّقليد، كما عمل على رأب صدع أمّته بدعوتها إلى الوحدة والتّعاون ومجانبة كلّ ما يفرّق شملها، فاستطاع مغالبة مخطّطات أعداء الإسلام والمسلمين لإصلاح شؤون مصر ونهضتها.

---

[1] ينظر: أنور الجندي، عقبات في طريق النهضة، مراجعة لتاريخ مصر الإسلامية منذ الحملة الفرنسية إلى النكسة(1897- 1964)، دار الاعتصام، (د ط)، (د ت)، ص148.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الوعي بالتّاريخ وصناعة التاريخ، مرجع سابق: ص275.

المطلب الثّاني: الدّواعي الخارجية للإصلاح التّربوي

لقي الشّيخ محمّد عبدَه وهو يسعى لتجسيد إصلاحاته التّربوية في مصر، عقبات كثيرة وصعوبات جمّة كانت مِنَ الدّواعي التي زادته إصرارا في المضيّ قدما نحو أداء رسالته الإصلاحية، فلم يفشل ولم يتوان في مجابهتها، وبذل كلّ ما في وسعه لتجاوزها للوصول إلى أهدافه ومقاصده التي يرنو إليها، ولم تكن الدّواعي داخليةً فقط بل تعدّتها إلى الدّواعي الخارجية التي شكّلت هي الأخرى تحدّيا كبيرا، جعلته يضاعف مِنْ جهوده في الإصلاح، وقد تمثّلت أهمّ تلك الدّواعي في الفروع الثّلاثة الآتية؛ الفرع الأوّل: الاستشراق والتّنصير، والفرع الثّاني: الغزو الفكري، والفرع الثّالث: الاستعمار البريطاني.

الفرع الأوّل: الاستشراق والتّنصير

كان الاستشراق والتّنصير مِنْ أخطر الوسائل التي سلكها الاستعمار البريطاني لتنفيذ سياسته في العالم الإسلامي، انطلاقا مِنْ عقيدة صليبية في محاربة الإسلام ومبادئه الربّانية، ومحاربة المسلمين باستهداف هويتهم ومسخ شخصيتهم، لإضعافهم وجعلهم في الحضيض، وإغراقهم في الخلافات والجهل والتّخلّف، وجعلهم في ذيل الأمم المتخلّفة، لذلك توجّه الشّيخ محمّد عبدَه إلى الإصلاح التّربوي كمخرج ناجع للتّصدّي لوسائل الغرب الصّليبي التي سخّرها للقضاء على الأمّة المصرية العربية المسلمة.

أوّلا: الاستشـــراق

الاستشراق هو: "دراسات أكاديمية يقوم بها غربيّون كافرون -مِنْ أهل الكتاب بوجه خاص- للإسلام والمسلمين مِنْ شتّى الجوانب؛ عقيدة، وشريعة، وثقافة، وحضارة، وتاريخا، ونُظُما، وثروات وإمكانات، بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه، وتضليلهم عنه، وفرض التّبعية للغرب عليهم، ومحاولة تبرير هذه التّبعية بدراسات ونظريّات تَدَّعي العلمية والموضوعية، وتزعم التّفوّق العنصريّ والثّقافيّ للغرب المسيحيّ على الشّرق الإسلاميّ".[1]

لذا اعتمد الشّيخ محمّد عبدَه لمجابهة ما يعيقه عن تحقيق إصلاحه التّربوي؛ استراتيجية نِدِّيَة لحماية أمّته ممّا يستهدفها مِنْ أفكار استشراقية، بإقراره لمناهج ومقرّرات تقوم على مرجعية أمّته المقدّسة، لإصلاح التّربية والتّعليم، وهذا بعدما وقف على وسائل الغرب الخطيرة التي وظّفها نخبه ومفكّروه لتشويه الإسلام ومحاربته، ولاستمالة المسلمين إلى أفكارهم ودينهم بالتّسلل إلى ناشئة المسلمين وطلبتهم ونخبهم بإدراج مناهج ومقرّرات تعليمية لتخريجهم متشبّعين بأفكارهم الاستشراقية.

فقد سخّر الغرب مستشرقيه وعملائه لتنفيذ مشروعاته للقضاء على هوية الأمّة الإسلامية، بتشويه دينها وإلصاق أقبح النّعوت به، وتزوير تاريخها الإسلامي، ومحاولة إيجاد ضرّات للّغة العربية بإحلال العامّية محلّها والتّشجيع والتّرويج للغات المستعمر.

وحتّى يحقّق المستشرقون أهدافهم المشبوهة شكّكوا في صحّة رسالة النّبيّ ﷺ ومصدرها الإلهي، وأنكروا نبوّة محمّد ﷺ وربّانية القرآن الكريم، وشكّكوا في صحّة الأحاديث النّبوية الشّريفة،

[1] أحمد عبد الحميد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق، بيرمنجهام، المنتدى الإسلامي، ط2، 1990م، ص7.

كما شكّكوا في قيمة الفقه الإسلامي، وفي قدرة اللّغة العربية على مسايرة التّطوّر العلمي، وحاولوا إظهار فقر الأدب العربي وجَدْبَه حتّى يُغْروا المسلمين للأخذ بآدابهم.[1]

وقد قامت الدّول الأوروبّية وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا بإيعاز مِنْ مستشرقيها بتأسيس جامعات ومعاهد ومدارس متخصّصة لبثّ أفكارها، باستقدام أبناء المسلمين إليها وإنشائها في بلاد المسلمين، حيث أنّه صار لا يكاد يخلو بلد مسلم منها، حيث قامت هذه المؤسّسات التّعليمية الغربية بتكوين أبناء المسلمين ليكونوا مُوَالين لها ومتبنّين لأفكارها وحاملين لثقافتها مِنْ خلال تأليف الكتب وتحقيق تراثنا الإسلامي وإعداد دوائر المعارف المختلفة والقواميس والمعاجم وتضمينها معلومات هجينة؛ صحيحة وخاطئة، فاستطاعوا أنْ يخرّجوا نخبا تروّج لسمومهم وشبهاتهم في عقر ديار المسلمين.[2]

فقام الشّيخ محمّد عبدَه بالتّصدّي للمستشرقين بتقديم مقترحات بديلة لإصلاح التّعليم العثماني[3] والتّعليم السّوري[4]، وكذا بتعميم التّعليم على كلّ فئات المجتمع صغارهم وكبارهم، فقرائهم وأغنيائهم، وكذا بإنشاء جمعيات خيرية ومدارس تعليمية، وَضَعَ لها مناهج ومقرّرات خادمة لثوابت الأمّة المصرية المسلمة، مركّزا على سلاح العلم والمعرفة بإحياء العلوم الإسلامية التي هُمّشت في فترات الانحطاط والجمود، والانفتاح على العلوم العصرية التي برع فيها الغرب وحقّق فيها التّقدّم، وهذا بهدف تكوين نخب متعلّمة تعليما شرعيا وعصريا ومتكوّنة تكوينا شاملا، لها قاعدة صلبة تقوم على عقيدة إسلامية صحيحة وخلفية فكرية رصينة لا تزعزعها أباطيل وشبهات المستشرقين الذين شوّشوا على النُّخبة المسلمة وأقنعوا عامّتها بأفكارهم المغلوطة.

ومِنْ أهداف الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ تأسيسه للجمعية الخيرية الإسلامية؛ إعانة المنكوبين، ونشر التّعليم بين الفقراء والمعوزين، والعناية بالتّربية الدّينية، ومقاومة نشاطات المستشرقين والمدارس التّنصيرية، والعناية باللّغة العربية، ومقاومة سياسة الاحتلال التّعليمية، فكتب عدّة مقالات في جريدة الوقائع المصرية ودعا مِنْ خلالها لإنشاء هذه الجمعية مبيّنا أدوارها الاجتماعية والتّربوية في المجتمع.[5]

وللتّمكين للاستعمار الغربي في بلاد المسلمين والإبقاء عليه فيها، وتهيئة نفوسهم للقبول بالنّفوذ الأوربّيّ والرّضا بولايته؛ وظّف المستشرقين لاستهداف وحدة المسلمين وبعث الخلافات القديمة بينهم، واختلاق خلافات جديدة للسّيادة عليهم والتحكّم فيهم، وقد تجلّى ذلك في:

1- إضعاف القيم الإسلامية لدى المسلمين

وذلك بشرح مبادئ الإسلام شرحا يُضعف تمسّك المسلم بدينه، ويزرع الشّكّ في نفسه على أنّه دين جعله الله منهجا للحياة يتّفق وطبيعة الإنسان، مِنْ ذلك تفسير المستشرق فيليب فونداسي لقوله

---

[1] ينظر: مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، المكتب الإسلامي، دمشق، ط2، 1985م، ص20- 23.

[2] ينظر: محمّد السيد الجلنيد، الاستشراق والتبشير قراءة تاريخية موجزة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (د ط)، 1999م، ص25.

[3] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة الإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص73 وما بعدها.

[4] ينظر: المصدر نفسه: ج3، ص93 وما بعدها.

[5] ينظر: زكريا سليمان بيومي، التيارات السياسية والاجتماعية بين المجدّدين والمحافظين- دراسة تاريخية في فكر الشّيخ محمّد عبدَه، إشراف الدكتور: يونان لبيب رزق، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، (د ط)، 1983، ص114.

تعالى:﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴿١٠٣﴾﴾[سورة التّوبة]، بأنّ الأموال نجسة في أصلها وأنّ الزّكاة وسيلة لتطهيرها، وشرحه للجهاد بأنّه تشجيع على الغدر والعدوان، وأنّ عدم زواج المسلمة بغير المسلم فكرة عنصرية قائمة على التّمييز بين الشّعوب بدافع العصبية والكراهية والغرور.[1]

2- تمجيد القيم الغربية النّصرانيــة

عمل الغرب على إبراز تفوّقه في الصّناعة وزيادة الدّخل لديه، فترتّب عنه رفع مستوى المعيشة وتيسير الحياة الإنسانية، لمغالطة المسلمين والتّدليل لهم على أصالة القيم النّصرانية، ودورها في تحرير الإنسان مِنَ الجهل والفقر والمرض، وللخلوص إلى أنّ الحضارة الغربية النّصرانية هي عنوان هذه القيم، وأنّ تخلّف المسلمين دليل على تخلّف قيم ومبادئ الإسلام التي أذلّت الإنسان المسلم وقيّدتْ حياته بسبب عقيدته الجبرية، وأنّ القيم النّصرانية هي صاحبة الفضل في الحضارة المادية الصّناعية، وقد أُشبعت دراسات الغربيّين للإسلام وثقافته بروح النّزعة الصّليبية، وأُلبِسَتْ ثوب البحث العلمي، وهو ما أكّدته كتابات المستشرقين الفرنسيّين التي تُنِمُّ عن حقدها على المسلمين، والسّخرية مِنْ مقدّساتهم المتمثّلة في القرآن الكريم والسنّة النّبوية والرّسول ﷺ وغيرها، فاعتبروا أنّ الإسلام دين بشري مِنْ صنع محمّد ﷺ، لَفَّقَهُ مِنَ النّصرانية واليهودية، وفي سياق صدّهم عن الإسلام؛ اختلفوا في دراساتهم وفي شروحهم لمبادئه ، فابتعدوا عن أسلوب البحث العلمي الموضوعي.

وجاهر الاستشراق بممالأة الاستعمار والتّمهيد لحكمه والرّضا به، وصار خطرا واقعا اخترق المسلمين، بعدما وجد له أعوانا مِنَ العلماء والمفكّرين والكُتَّاب والسّاسة في الشّعوب الإسلامية.[2]

وقد برزت جهود الشّيخ محمّد عبدَه في مجابهة الاستشراق في تقديمه الصّورة النّقية النّاصعة الصّحيحة للدّين الإسلامي، وفي تصدّيه للاستشراق بالكتابة عن مزايا الإسلام بالنّسبة للنّصرانية، بالموازاة مع ذلك وضع منهجا تربويّا لفهم الإسلام وقيمه وفق القرآن الكريم والسنّة الصّحيحة بدلا مِنْ فهوم المتكلّمين، وفهوم أصحاب الكتب المتأخرة التي كانت تعيش في عزلة عن الحياة العامّة التي كانت تتّسم بالانقسام والتّعصب والتّقليد، والضُّعف السّياسي والاقتصادي التي انعكست على كتاباتهم.[3]

ثانيا: التّنصيــر

وحقيقته هو: دعوة النّاس عموما والمسلمين خصوصا للدّخول في النّصرانية، أو هو: حركة دينية سياسية صليبية ظهرت إثر فشل الحروب الصّليبية، بغية نشر النّصرانية بين الأمم المختلفة في دول العالم بعامّة وبين المسلمين بخاصّة، بإخراجهم مِنْ دينهم وتنصيرهم وإحكام السّيطرة عليهم.[4]

لقد انتهج الاحتلال البريطاني كلّ السّبل والوسائل لإرساء قواعده والتّمكين لمخطّطاته في كل الصّعد للتّحكم في الشّعب المصري الذي يرزح تحت حكمه، بترويض السّلطة الحاكمة

---

[1] ينظر: محمّد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مرجع سابق: ص43- 48.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص53- 56.

[3] ينظر: المرجع نفسه: ص58و59.

[4] ينظر: عبد الرّحمان بن عبد الله الصالح، التّنصير، تعريفه أهدافه وسائله حسرات المنصّرين، دار الكتاب والسنة ط1، 1999م، ص10.

وإخضاعها لسياسته الاستعمارية المستهدفة لثوابت وهوية المجتمع المصري، وعمد إلى محاربة الإسلام بالتّبشير بالنّصرانية والدّعوة إليها والتّمكين لها، وتجنيد رجال الدّين النّصارى لتشويه صورة الإسلام وتحريف حقائقه بتوظيف نخبه المتخصّصة مِنَ المستشرقين الذين لديهم معرفة وإحاطة بالدّين الإسلامي ومعرفة بالشّعب المصري، فعمد إلى إنشاء مدارس جمعيات التّبشير لإخراج المصريّين مِنْ دينهم، فتفطّن الشّيخ محمّد عبدَه لمخطّطاته المدروسة وحِيَلِهِ الماكرة، فقابلها بمثل سلاحها ليبطلها، وجعل مِنَ التّربية والتّعليم محور وسائله في التّصدي له ومحاربته، فأنشأ الجمعيات وبنى المدارس وشيّد المعاهد، مِنْ ذلك على سبيل الذّكر لا الحصر؛ إنشاؤه معهد التّربية العثمانية للتّصدي لمدارس جمعيات التّنصير، حيث كان يرى بأنّ التّربية والتّعليم هي السّبيل الأمثل لمواجهة مدارس جمعيات التّبشير السّاعية لإرساء نفوذ الاستعمار الأوروبّيّ، عن طريق بعث الطّائفية والتّمكين لها للفتّ في وحدة المجتمع المصري المسلم، بتمزيقه وإثارة النّعرات فيه للتّحكم فيه والتّسلّط عليه في مصر وفي بلاد الشّام التي كانت تعرف عددا كبيرا مِنَ الطّوائف؛ فالمسلمون منقسمون إلى سنّة وشيعة، والنّصارى كانت أغلب طوائفهم مِنَ البروتستانت والكاثوليك والأرثذوكس موالية للاحتلال البريطاني والفرنسي.

كما كان اليهود وراء حركة الاستشراق والتّنصير، وكمثال على ذلك صمويل زويمر[1] الذي ترأّس مؤتمرات التّبشير مِنْ أدنبرة البريطانية في أقصى الغرب إلى لكنو الهندية في أقصى الشّرق، قاد معارك التّبشير طوال ستين عاما؛ كشف فيها عن يهوديته الدّفينة الرّاسخة في أعماقه التي أخفاها لعقود.[2]

فعمد الشّيخ محمّد عبدَه إلى التّربية والتّعليم واتّخذها وسيلة للتّصدّي للحملات التّنصيرية التي يُسندها الاستعمار بمستشرقيه، واختار نماذج كُفأة تتولّى شؤون التّربية والتّعليم مِمَّنْ لديها وازع ديني متين ورصيد علمي ومعرفي رصين وثقافة واطّلاع واسعَيْن وعوامل أخرى مساعدة لمدافعة التّنصير الذي يرعاه الاستعمار الأوروبي، فحاول إيجاد بديل ملائم يماثل سلاحه في التّصدي له، فأنشأ معهد التّربية العثمانية الذي يستند على التّربية الدّينية القائمة على مبادئ الدّين الإسلامي وقيمه.[3]

وعمل الأوروبّيّون على نشر الجمعيات التّبشيرية في الكثير مِنَ البلاد الإسلامية مشبّعةً بالفكر الاستشراقي الذي يعمل على التّمكين للتّنصير لهدم الإسلام وتنصير أبنائه، وقد أدرك المنصّرون والمستشرقون استحالة ارتداد المسلمين عن دينهم، فرسموا خططهم لزعزعة عقيدتهم وتشكيكهم في دينهم، وإيجاد فجوة بينهم وبين أصولهم العريقة، ليسهل عليهم القضاء على الإسلام.[4]

والشّيخ محمّد عبدَه لا يحسن الظنّ بالأجانب الذين كانوا في الغالب مِنْ فرنسا وإنجلترا وألمانيا وأمريكا، لقيامهم بأعمال مشبوهة مفضوحة تحت الرّعاية البريطانية، وقد كان يمقتهم إلى حدّ وصفهم

---

[1] **صمويل زويمر(Samuel Marinus Zwemer)(1867-1952م)**: رحالة وباحث ومبشر أمريكي، أنشأ معهدا لتنصير المسلمين، ولمّا فشل في ذلك قال:"يجب أنْ نعمل حتّى يصبح المسلمون غير مسلمين"، ينظر: https://www.marefa.org، تاريخ الزيارة: 2021/01/21م في الساعة: 12:00 زوالا.

[2] ينظر: عبد المجيد عبد السلام المحتسب، اتّجاهات التّفسير في العصر الرّاهن، مرجع سابق: ص11.

[3] ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص221 و222.

[4] ينظر: عبد المجيد عبد السلام المحتسب، اتّجاهات التّفسير في العصر الرّاهن، المرجع السابق نفسه: ص11.

بالشّياطين[1]، وقد قاموا بإنشاء مدارس أجنبية في البلاد الإسلامية لهدم عقائد المسلمين واستمالة أفئدتهم وأهوائهم نحو بلادهم، ليستبدلوا حبّ بلادهم بحبّ البلاد الأجنبية.

الفرع الثّاني: الغزو الفكــري

الغزو الفكري هو المخطّطات والأعمال الفكرية والتّثقيفية والتّدريبية والتّربوية والتّوجيهية وسائر وسائل التّأثير النّفسي والخلقي والتّوجيه السّلوكي الفردي والاجتماعي، التي تقوم بها المنظّمات والمؤسّسات الدّولية والشّعبية مِنْ أعداء الإسلام والمسلمين، بغية تحويل المسلمين عن دينهم تحويلا كلّيا أو جزئيا، وتجزئتهم وتمزيق وحدتهم وتقطيع روابطهم الاجتماعية، وإضعاف قوّتهم لاستعمارهم فكريّا ونفسيا، ثمّ استعمارهم سياسيا وعسكريا واقتصاديا استعمارا مباشرا أو غير مباشر.[2]

ويطلق على التّغريب الذي يراد به طبع العرب والمسلمين والشّرقيين بطابع الحضارة والثّقافة الغربية، لإيجاد روابط مِنَ الودّ والتّفاهم مبنية على تسلّط الغرب الغالب على الشّرق المغلوب.[3]

وقد بدأ الغزو الفكري والثّقافي لمصر بسيطا خلال النّصف الأوّل مِنَ القرن التّاسع عشر ثمّ تحوّل وتطوّر شيئا فشيئا إلى هجمة شرسة في الحقبة التي عاشها الشّيخ محمّد عبدَه.[4]

لقد انطلق الغزو الثّقافي الغربي لبلاد المسلمين مِنْ خلفية قائمة على حيل ماكرة ودهاء فيه كثير مِنَ المواربة؛ يحمل في طيّاته حضارة تناقض حضارة الإسلام وأنظمته، موهما المسلمين أنّه أخذها منهم وأنّها تتّفق وأحكام الإسلام، حتّى لا يتردّدوا في تمثّلها وتطبيقها ولا يتوانَوْا في تبنّيها والتّرويج لها، فقام الغرب بذلك في غمرة واقع مرير يعيشه المسلمون يسوده التّخلف والجهل والضّعف والموبقات.

فالغزو الفكري أدّى بالكثير مِنَ المسلمين المعاصرين للشّيخ محمّد عبدَه خصوصا الطّبقة المثقّفة إلى استسهاله والوقوع في شراكه، في مقابل لفيف آخر مِنَ العلماء الثّقاة والمشايخ الحكماء الذين يرون ضرورة الثّقة في الإسلام وحضارته والتّفاعل مع موروثها الأصيل للتّمكّن مِنَ التّصدّي للغزو الفكري، وصناعة إنسان وحضارة متميّزة يأخذان بصحيح التّراث وصحيح الحضارة الأوروبّيّة، فيتحرّك النّقل والعقل ويتآزر الدّين والعلم معا.[5]

لقد استطاع الاستعمار البريطاني أنْ يحقّق نجاحات كبيرة بغزوه الفكري لمصر وتغريب أبنائها قبل ميلاد الشّيخ محمّد عبدَه وفي حياته عن طريق تعبئته للنّخب المصرية وتسخيرها طواعية لخدمة أفكاره وتجسيد مخطّطاته الهادمة لهوية الأمة الإسلامية مثل علي عبد الرّازق[6] مِنْ خلال كتابه:

---

[1] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص60.

[2] ينظر: عبد الرحمان بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التّبشير - الاستشراق - الاستعمار ، دراسة وتحليل وتوجيه، (ودراسة منهجية شاملة للغزو الفكري)، دار القلم، دمشق، سورية، ط8، 2000م، ص25.

[3] ينظر: محمّد محمّد حسين، حصوننا مهددة من داخلها، مرجع سابق: ص101.

[4] ينظر: زكريا سليمان بيومي، التّيارات السياسية والاجتماعية بين المجدّدين والمحافظين، مرجع سابق: ص6.

[5] ينظر: عبد الحليم عويس، التّربية وإصلاح الأمّة في مقالات محمّد عبدَه، مقال على: شبكة الألوكة: https://www.alukah.net، تاريخ الزيارة: 2020/08/27م، في الساعة: 18:00 مساء.

[6] **علي عبد الرّازق(1883-1947م):** مفكر مصري من أسرة إقطاعية، تعلّم في الأزهر وحصل على شهادة العالمية سنة 1911م، سافر إلى انجلترا لدراسة السياسة والاقتصاد وعاد سنة 1914م، وعين قاضيا بالمحاكم الشّرعية سنة 1915م، أصدر كتابه: الإسلام وأصول الحكم سنة 1925م، ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، مرجع سابق: ج2، ص562و563.

الإسلام وأصول الحكم في المجال السّياسي، وطه حسين[1] في كتبه: على هامش السّيرة، وفي الشّعر الجاهلي، ومستقبل الثّقافة في مصر في المجال الدّيني والتّربوي والفكري والثّقافي، وكذا ما أحدثه التّغريبيّون مِنْ ثورة مناهضة على الأمور المعلومة مِنَ الدّين بالضّرورة، بإثارة الشّبهات حولها والتّرويج على أنّها ليست حقائق مُسلَّمة وأنّ نصوصها لا قداسة لها، وأنّها مسائل خاضعة للأخذ والردّ والمناقشة كغيرها مِنَ النّصوص البشرية.

إنّ ما طَرَحَتْه هذه النّخب المغزوّة مِنْ أفكار ما هي إلا تنفيذ لأفكار أساتذتهم مِنَ المستشرقين والمفكّرين الغربيّين كما حصل مع علي عبد الرّازق الذي تبنّى كتاب المستشرق اليهودي مرجليوث[2]، وكذلك ما طرحه طه حسين[3] مِنْ أفكار طعن بها في القرآن الكريم وفي سيرة الرّسول ﷺ والتّاريخ الإسلامي؛ ما هي إلاّ تأسيس للفكر الحداثي وفتحٌ للباب واسعا أمامه مِنْ خلال محاولاتهم المستمرّة لنزع القداسة عن نصوص القرآن الكريم وانتقادها والطّعن فيها وردّها، ليُكمل المسيرة مِنْ بعدهم الحداثيون الجدد الذين اعتبروا القرآن الكريم كغيره مِنْ مؤلّفات البشر لا قداسة لنصوصه، فهذه النّخب المصرية غزاها الفكر الغربيّ الذي حاد بها عن جادّة الصّواب، فوَرَّثت سموم أفكارها المستوردة إلى تلامذتها الذين حملوا لواءها في مصر وسوريا والجزائر وغيرها أمثال محمّد شحرور السّوري، ومحمّد أركون الجزائري، ونوال السّعداوي المصرية وغيرهم، فكان ممّا روّجوه بين المسلمين ما يلي:

أوّلا: الإسلام دين تخلّف والنّصرانية دين تقدّم

إنّ الحداثيّين القدامى والمعاصرين مِنَ الذين مسّهم التّغريب وتمكّن منهم، ورسخت أفكار أساتذتهم مِنَ المستشرقين والمنصّرين في أعماق عقولهم وقلوبهم، عملوا على التّرويج لها لإقناع الأجيال المعاصرة بها، باستنادهم إلى معطيات غير صحيحة، واتّخاذها أدلّة وحججا وبراهين للانتصار لقناعاتهم الهشّة، كاعتبارهم أنّ الواقع المتردّي الذي يعيشه المسلمون اليوم المتّسم بالجهل والتّخلّف والضّعف؛ دليل قطعي وشاهد حيّ على أنّ الإسلام الذي يدين به المسلمون ويتمسّكون به ويدعون إليه هو سبب أوضاعهم المزرية في كلّ المجالات، ثمّ قاموا بالمقارنة بينه وبين النّصرانية، واعتبار أنّ الغرب الصّليبي النّصراني وما يعيشه مِنْ تفوّق مادي وتطوّر تكنولوجي وثورة صناعية كبيرة، يرجع الفضل فيها إلى

---

[1] **طه حسين(1889- 1973م):** أديب مصري بدأ حياته بالأزهر ثم بالجامعة المصرية، نال شهادة الدكتوراه سنة 1914م، سافر إلى السّربون وتخرّج فيها سنة 1918م، وعاد إلى مصر وعمل بالصحافة، عيّن محاضرا ثمّ عميدا لكلية الآداب بجامعة القاهرة فوزيرا للمعارف، كان من أعضاء المجمَّع العلمي العربي في دمشق، ثم رئيسا لمجمع اللغة في مصر، مِنْ مؤلّفاته: حديث الأربعاء، مع أبي العلاء في سجنه، مع المتنبي، الأيام، على هامش السيرة، ينظر: الزركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج3، ص231.

[2] **كتاب: الإسلام وأصول الحكم:** ليس مِنْ وضع علي عبد الرّازق وإنّما هو مِنْ تأليف المستشرق اليهودي مرجليوث المقيم في لندن، أهداه لعلي عبد الرّازق في لندن إبّان دراسته هناك، وبعد قيام الحرب العالمية الأولى عاد إلى مصر فعمل للكتاب مقدّمة وأدخل فيه بعض الآيات والأحاديث والأشعار وعدّل لغته ثمّ نسبه لنفسه، وهذا ما أثبته الدّكتور ضياء الدّين الريس في دراسته عن الكتاب في كتابه: الإسلام والخلافة في العصر الحديث، ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، ج2، ص579.

[3] قال الشّيخ محمّد الغزالي عن طه حسين: "إنّ طه حسين لم يكن في الحقيقة إلا بوقا منْ أبواق الغرب وواحدا مِنْ عملائه الذين أقامهم لخدمة مصالحه وتنفيذ مخطّطاته وترويج حضارته وثقافته ليدفع المسلمين للخضوع له"، ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، المرجع السابق: ج2، ص579.

الدّيانة النّصرانية، محاولين بذلك إقناع المهزوزين عقائديا والمسلوبين فكريا ومغزوّين ثقافيا بأنّ الإسلام دين تخلّف ورجعية، وأنّ النّصرانية دين تطوّر ومدنية وحضارة.

لذا دعا المتأثّرون بالفكر الغربي أمثال طه حسين وأحمد لطفي السّيّد وغيرهم إلى اتّباع الغرب اتّباعا كاملا في حلوه ومرّه وخيره وشرّه، فهاجموا لغة القرآن الكريم وأخلاقه وكلّ ما له صلة بالإسلام، واستطاعوا أنْ يؤثّروا في أبناء المسلمين ويشوّشوا عليهم عقيدتهم وأفكارهم، لكنّ الله أبى إلّا أنْ يُتمّ نوره، وبرز لهم أعلام مصلحون مِنْ أهل الإسلام أبلَوْا بلاء حسنا في مدافعتهم بالحجج الدّامغة والأفكار النيّرة والأعمال الصّالحة البنّاءة القائمة على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ أمثال المصلح المجدّد الشّيخ محمّد عبدَه وغيره مِنَ الذين تصدّوا لحملات تشويه الإسلام ومقاومة الاستعمار وجها لوجه[1]، تطبيقا لسنّة إلهية ثابتة في قول الله تعالى:﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[سورة الحج] .

ثانيا: محاربة اللّغة العربية وتشجيع اللّهجات العامّية واللّغات الأجنبيــة

وظّف الغرب عدّة وسائل لغزو مصر ثقافيّا وفكريّا لتغريبها وتجريدها مِنْ هويتها ومسخ ثقافتها وإحلال مبادئه وقيمه محلّها، منها محاربة اللّغة العربية وتشجيع اللّهجات العامّية المحلّية ومحاولة إحلال اللّغات الأجنبية محلّها والحطّ مِنْ قيمة اللّغة العربية ولمزها بأنّها لغة تخلّف، فاللّغة العربية في المجتمعات العربية والإسلامية تعدّ إحدى الرّكائز الرّئيسة المشكّلة لهويّتها باعتبارها لغة القرآن الكريم وباعتبارها اللّسان السّائد في أغلبها، حتّى وإنْ كانت باهتة الحضور في بعضها بسبب الاستعمال الشّائع للّهجات المحلّية، ففي مصر بالإضافة إلى استعمال اللّهجات المحلّية، هناك استعمال للغة الاستعمار البريطاني، وهو ما كان حاصلا أيّام الشّيخ محمّد عبدَه بسبب نشاط المدارس التّنصيرية، فاللّغة العربية منصوص عليها في دستورها وفي الدّوائر الإدارية والمؤسّسات الرّسمية، ومع ذلك تعاني التّهميش والتّضييق وتلقى محاربة شرسة في عقر دارها مِنْ أبنائها التّغريبّيين ومِنَ الدّوائر الغربية الاستعمارية.

لقد حاربت الدّول الاستعمارية اللّغة العربية أثناء فترة استعمارها للشّعوب العربية وبعد استقلالها، حيث قامت هذه الدّول بتدعيم وتشجيع اللّهجات المحلّية والعامّية على حساب اللّغة العربية الرّسمية، حيث قام الاستعمار البريطاني بمحاربة اللّغة العربية والطّعن فيها وإبعادها عن مراكز القرار وتشجيع وترسيم اللّغة الإنجليزية، فتصدّى له الشّيخ محمّد عبدَه لإفشال مخطّطاته، ببذل جهود عملية حثيثة بتعليم العربية وتدريسها بكلّ علومها، وأنشأ الجمعيات والمدارس ووضع المقرّرات وحدّد المصادر الأصيلة التي يجب اعتمادها في تعليم وتكوين النّاشئة وطلبة العلم، كما شجّع على التّحدث والكتابة بها، ودرّبهم على تخيّر الأساليب الرّاقية وتوظيفها في ذلك.

لقد كانت لبريطانيا سياسة واحدة في محاولة القضاء على اللّغة العربية في المدارس وفي غيرها بكلّ الوسائل الممكنة؛ لأنّ اللّغة العربية هي أساس الوحدة العربية والأخوّة الإسلامية، وهي عامل التّرابط بين الدّين والتّراث الرّوحي والتّاريخي وكل أسباب القوة الفكرية في العالم العربي، فعمل

[1] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج1، ص09.

الاحتلال البريطاني للقضاء عليها وأوجد الظّروف السّانحة لذلك وأحسن استغلالها لتحقيق مآربه، حتى ورث مصر وورث ديار العروبة مِنْ أيدي الدّولة العثمانية التي أنهكها الضّعف، وأخذ يحارب ثوابتها مركّزا بشكل كبير على محاربة اللّغة العربية بكلّ ما توفّر لديه مِنْ جهد ومال ووسائل وأساليب.[1]

لذا جعل الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ أولوياته في الإصلاح؛ العمل على التّمكين للّغة العربية والرّفع مِنْ قيمتها وردّ كلّ الحملات المشوّهة لها التي تحط مِنْ قدرها، وإعادة الاعتبار لها باستعمالها والتّحرير بها بأساليب راقية، وتجسيدها في مقرّرات وبرامج التّربية والتّعليم في مختلف المؤسّسات المصرية.

ولتجسيد مشروعه التّربوي والتّعليمي عمليا؛ واجه الشّيخ محمّد عبدَه حمْلات الاستعمار الغربي ومؤسّساته العلمية ومدارسه التّنصيرية وإرسالياته الثّقافية الغربية النّصرانية الموجودة في مصر، التي استهدفت القضاء على اللّغة العربية بجعل العامّية اللّغة الأولى في الكتابة والحديث، لإضعاف اللّغة العربية، والحيلولة دون قراءة القرآن وفهمه، فأخرج الكتب التّراثية وشرحها وقرّرها على طلبة العلم[2]، ليغرس فيهم حبّ اللّغة العربية وتذوّقها وفهمها واستعمالها وتكوين رصيد لغوي فيها، وتحسين أساليب الكتابة بها والتّحرّر مِنَ العامّية ومِنْ عقدة الحديث باللّغة العربية، ولإحيائها والنّهوض بها وخدمتها؛ سخّر لها الصّحافة واتّخذ مِنْ جريدة الوقائع المصرية منبرا للتّوجيه والسّموّ بالتّعبير اللّغوي، وهو الذي يرى بأنّ الأمّة يستحيل أنْ تحيى بدون حياة لغتها، وأنّ ذلك لا يكون إلّا بإحياء كتب اللّغة العربية، لذلك أسّس جمعية إحياء العلوم العربية التي كان مِنْ باكورة أعمالها طبع كتاب: المخصّص لابن سيّده، ونشر كتابَيْ: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني.[3]

ولأجل إرجاع مجد اللّغة العربية الضّائع سعى إلى التّأسيس والتّمكين لها والمساهمة بفعّالية في تشكيل مؤسّسات علمية رسمية تتكوّن مِنَ النّخب المتخصّصة لضبط مفرداتها ومصطلحاتها غداة شيوع استعمال العامّية وتفشّي الألفاظ الأجنبية الدّخيلة بسبب الاستعمار البريطاني والاتّصال بالغرب، فهذا الوضع المنحطّ في مصر أفرز إنشاء أوّل مجمع لغويّ[4] في القاهرة في العصر الحديث سنة 1892م أطلق عليه اسم المجمع البكري نسبة إلى الشّيخ سيد محمّد توفيق البكري الذي اجتمع المجمع أوّل مرّة في بيته برئاسة الشّيخ محمّد عبدَه الذي كان مِنْ أبرز أعضائه.[5]

وفي هذا السّياق قال الشّيخ محمّد عبدَه: "أمّا الأمر الثّاني فهو إصلاح أساليب اللّغة العربية في التّحرير سواء كان في المخاطبات الرّسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها أو فيما تنشره الجرائد على الكافّة منشأ أو مترجما مِنْ لغات أخرى أو في المراسلات بين النّاس، وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يمُجُّه الذّوق وتنكره لغة العرب: الأوّل: ما كان مستعملا في مصالح الحكومة وما يشبهها وهو ضرب مِنْ ضروب التّأليف بين الكلمات رثّ خبيث غير مفهوم ولا يمكن ردّه إلى لغة

---

[1] ينظر: أحمد الشرباصي، رشيد رضا صاحب المنار، مرجع سابق: ص57.

[2] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، مرجع سابق: ج2، ص690و691.

[3] ينظر: أحمد الشرباصي، رشيد رضا صاحب المنار، المرجع السابق: ص258.

[4] أقرّ المجمع عددا مِنَ الألفاظ التي قدّر لها البقاء، كاختياره لـ(التلفون) كلمة(المُسِرَّة)، ولكلمة(برافو) كلمة(مرحى)، ولكلمة(بونجور) كلمة(عِمْ صباحا) وغيرها مِنَ الألفاظ، ينظر: المرجع نفسه: ص60.

[5] ينظر: المرجع نفسه: ص60.

مِنْ لغات العالم لا في صورته ولا في مادّته ولا يزال شيء مِنْ بقاياه إلى اليوم عند بعض الكُتَّاب مِنَ القبط ومَنْ تعلّم منهم غير أنّه والحمد لله قليل، والنّوع الثّاني: وما كان يستعمله الأدباء المتخرّجون مِنَ الجامع الأزهر وما كان يراعى فيه السّجع وإنْ كان باردا، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وإنْ كان رديئا في الذّوق بعيدا عن الفهم ثقيلا على السّمع غير مؤدٍّ للمعنى المقصود ولا منطبق على آداب اللّغة العربية وهو وإنْ كان يمكن ردّه إلى أصول اللّغة العربية في صورته لكنّه لا يعدّ مِنْ أساليبها المرضيَّة عند أهلها، ولا يزال هذا النّوع موجودا في عبارات المشايخ خاصّة".[1]

وعلى الرّغم مِنْ حملات الغزو الفكر والثّقافي الشّرسة التي قادها الغرب عموما والاستعمار البريطاني خصوصا على اللّغة العربية في مصر لإضعافها وإبعاد أهلها عنها بتوظيفه لكلّ الأساليب والوسائل، إلا أنّ الشّيخ محمّد عبدَه استطاع أنْ يتصدّى لها ببرامج عملية مدروسة وفاعلة، جعلته يحافظ على قدسيّتها وجمالها، ويمكّن لها في قلوب أهلها الذين أخذوا يولونها كلّ الرّعاية والاهتمام.

ثالثا: عدم إسهام العرب والمسلمين في التّراث الإنساني العالمي

قام الغرب الصّليبي في العصر الحديث بمحاولات متواصلة لإعادة مجد الحروب الصّليبية المندحرة، بتنظيمه لحملات استعمارية مسعورة على البلاد العربية والإسلامية الخاضعة لحكم الدّولة العثمانية التي دبّ فيها الضُّعف، بدءً مِنْ حملة نابليون على مصر سنة 1798م، حيث استطاع الأوروبّيّون بتلك الحملة أنْ يُبهروا المسلمين الذين يعيشون تخلّفا كبيرا وضعفا بيّنا وجمودا مُقيّدا شبيها بالقرون الوسطى الأوروبّية على المستويَيْن المادّي والمعنوي، فانبهر المسلمون بقوّة الأوروبيّين العسكرية وبجيوشهم المنظَّمة وبأسلحتهم المتطوّرة، وبتفوّقهم العلمي والثّقافي، ففي حملة نابليون على مصر استقدم معه نخبا علمية وفكرية، روّجت لأفكار مغلوطة وحقائق مشوّهة مفادها أنّ الغرب الصّليبيّ هو مصدر العلم والمعرفة والتّحضّر، وأنّ ما بحوزة المسلمين مِنْ علوم ومعارف وأفكار وتراث، نقلوه عن الحضارة اليونانية والإغريقية، وأنّه لا فضل للمسلمين في خدمة تراث الإنسانية، فعمل على بثّها وإشاعتها بالزور والأكاذيب للتّأثير في المسلمين وإقناعهم بها، حتّى يسهل اقتيادهم وحتّى يفتحوا له الأبواب ولا يمانعوا مِنَ الخضوع له والتّعاون معه لتنفيذ مشروعاته الاستدمارية، فانتهج الاستعمار البريطاني تلك السّياسة تمهيدا لتخلّي المسلمين عن دينهم وأفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم، وحتّى يتنكّروا لهويتهم وقيمهم وتراثهم وأوطانهم، ومِنْ ثَمَّ يرتموا في أحضانه ويستسلموا له دون أيّ مقاومة، وبذلك لا تتحرّر أنفسهم ولا بلادهم مِنْ قبضته الفكرية والسّياسية والعسكرية.

بعد أنْ بسط الاستعمار البريطاني نفوذه على الشّرق وعلى مصر تحديدا، تسرّب اليأس إلى قلوب الكثيرين مِنْ خاصّة المسلمين وعامّتهم، وبدأ يشنّ حملة فكرية مفادها أنّ العرب والمسلمين لم يسهموا بشيء جديد في التّراث الإنساني في الماضي وأنّهم كانوا مجرّد نقلة عن الأمم الإفرنجية، يحاكون اليونان والفرس والهنود، مستخدما في ذلك أبناء الأمّة الإسلامية المسلوبين حضاريا، مِنَ الذين خانوا أمّتهم وأصبحوا أدوات في أيدي أعدائها ينشرون اليأس والهزيمة والقنوط بين أبنائها.[2]

---

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص11.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ، مرجع سابق: ص274.

والحقيقة الأكيدة أنّ الأمّة الإسلامية أمّة لها تاريخ زاهر مشرق وحضارة عريقة وتراث ثريّ متنوّع يضرب في أعماق التّاريخ الممتدّ، وتمتلك كلّ مقوّمات الرّقي والسّيادة والبقاء وتحمل قيما ومبادئ إنسانية عالمية يستفيد منها البشر جميعهم بمختلف دياناتهم وشرائعهم وأجناسهم وأعراقهم ولغاتهم، كما أنّ الميراث الحضاري الإسلامي الذي تحوزه الأمّة الإسلامية يعتبر أكبر حصن لها مِنَ الاستلاب الحضاريّ والغزو الثّقافيّ والفكريّ الذي يترصّدها، شريطة التزامها بمرجعيتها المقدّسة المتمثّلة في القرآن الكريم والسنّة الثّابتة واجتهادات القرون الأولى مِنَ الصّحابة والتّابعين وتابعيهم رضي الله عنهم.

الفرع الثّالث: الاستعمار البريطانـــي

مِنَ الدّواعي الخارجية التي جعلت الشّيخ محمّد عبدَه يقوم بالإصلاح التّربوي في مصر، هو مهادنة حكام مصر للاستعمار الأوروبّيّ والخضوع له وعدم المبادرة إلى مقاومته، حيث تعرّضت مصر للاحتلال البريطانيّ الذي كانت له اليد الطّولى في تردّي الأوضاع في جميع الميادين وبخاصّة في الميدان التّربوي الذي انعكس سلبا على الدّين والعقيدة والأخلاق وعلى الوعي والثّقافة والفكر المصريّ.

لقد تميّزت نهاية القرن الثّامن عشر وطوال القرن التّاسع عشر الميلاديَيْن بحملات مسعورة قادها الغرب الأوروبّيّ على العالم العربي والإسلامي التي بدأت بالحملة الفرنسية التي شنّها نابليون على مصر سنة 1798م، وفي هذه الفترة كانت مصر تحت سلطة الدّولة العثمانية التي كانت تعيش أيامها الأخيرة لضعفها وزيادة التّكالب على تَرِكَتِها، حيث زاد النّفوذ الأجنبي عليها ليبلغ أوجه باحتلال دول عربية وإسلامية كثيرة منها احتلال الإنجليز لمصر سنة 1882م.[1]

وبعد أنْ بسط الاستعمار الأوروبّيّ نفوذه على دول العالم العربي والإسلامي، قسّم أقاليم الدّولة العثمانية وفق معاهدة سايكس بيكو سنة 1916م، ثمّ صدر وعد بلفور سنة 1918م الذي جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود، وفي سنة 1923م أُبرمت معاهدة لوزان بين الحلفاء الغربيّين وتركيا لتطوى صفحة الدّولة العثمانية سنة 1924م.[2]

وفي خضمّ هذه السّطوة الاستعمارية الأوروبّية، احتلّ الإنجليز الصّدارة في استعمار القسم الأكبر مِنَ العالم العربي والإسلامي وبسط نفوذه عليه، واستعمل كلّ الوسائل وطبّق كلّ الأساليب للاستيلاء على خيراتها، وهدم ثوابتها ومسخ هويتها، وركّز الاستعمار البريطاني على مصر لمحوريتها في العالم العربي والإسلامي، بمحاولة القضاء على شخصيتها الإسلامية التي تقوّي وحدتها وتعزّز سيادتها، وبإفساد عقيدتها وتشكيكها فيها وإثارة الخلاف حولها وإحاطتها بالشّبهات للتّنفير منها وتسهيل اختراقها، ونشر عقيدته وأفكاره ليتحكّم فيها، ويجعلها تسير وفق خططه حتّى يحقّق أهدافه الاستعمارية.

وقد كان الشّيخ محمّد عبدَه يعاين النّفوذ الأجنبي المتزايد في مصر، والحملات العسكرية الاستعمارية على بعض الدّول العربية والإسلامية الشّقيقة لها، فكتب وهو طالب في الأزهر مقالا في جريدة الأهرام: المدبّر الإنساني والمدبّر العقلي الرّوحاني، حثّ فيه أبناء مصر وأبناء الشّعوب المستعمرة

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ، مرجع سابق: ص232و233.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص13- 15.

على التّآخي والتّعاون، ودعاهم إلى ضرورة الذّود عن أوطانهم ومقاومة الاحتلال وإخراجه مِنْ أراضيهم بكلّ الوسائل، والتّضحية بكلّ شيء لتقرير مصيرهم وتحرير البلاد والعباد مِنَ الاستعمار والاستعباد.[1]

واستطاع الإنجليز احتلال مصر عقب الثّورة العُرابية التي فشلت بدسائس الأجانب وخيانة الباشوات، وتحالف الأمراء والحكّام مع المستعمر على أبناء وطنهم، للإبقاء على عروشهم والمحافظة على مراكزهم وامتيازاتهم، وأخذ الاستعمار يتحكّم فيهم كما يشاء لاستعمارهم سياسيا واقتصاديا.[2]

وقد بلغت الخيانة بالأمراء المصريّين للمحافظة على عروشهم إلى الاستنجاد بالإنجليز وفتح البلاد لهم وتمكينهم مِنِ احتلال مصر، حيث لمّا رسا الأسطول البريطاني قبالة سواحل الإسكندرية قصفها وقتل أكثر مِنْ أَلْفَيْ مصريّ في يومين، فقد صدرت الأوامر مِنَ الخديوي توفيق بتعيين اللّورد شارلس برسفورد حاكما عسكريا للإسكندرية، وعُلِّق على جدران الشّوارع إعلان جاء فيه: "أنّ أميرال القوّات البحرية البريطانية في المياه المصرية كُلِّف مِنْ قِبَل الخديوي بالمحافظة على الأمن"، كما أذاع الخديوي توفيق منشورا جاء فيه: "ليكن معلوما عند السّلطات الملكية والعسكرية في منطقة قناة السّويس أنّ أميرال الأسطول الإنكليزي وقائد الجيوش البريطانية العام، إنّما أتيا إلى مصر لإعادة الأمن والنّظام إليها، ومِنْ ثمَّ سمحنا لهما باحتلال جميع الأمكنة التي يريان في احتلالها ما يساعد على قمع العصيان، ومَنْ خالف أمرنا هنا يُنزَل به أشدّ العقاب".[3]

وحتّى يبقى الخديوي توفيق على عرشه، استقدَمَ الإنجليز إلى مصر بحجة المحافظة على الأمن، وطال بهم الأمد منذ احتلال مصر سنة1882م إلى استقلالها سنة 1954م، ثمّ أوهمت بريطانيا المصريّين بأنّهم بحاجة إلى استعمارها، وأنّ مصر لا يمكنها أنْ تنهض وتتقدّم بدونها في ظلّ الظّروف الصّعبة التي تعيشها في مختلف الميادين، لذا قامت بتعبئة المصريّين المثقّفين الذين احتضنتهم على أراضيها وبثّت فيهم أفكارها حتّى يطبّقوا مخطّطاتها بعد خروجها، وأقنعتهم بضرورة التّعاون معها، وبأنّ محاربتها وإخراجها سيعود عليهم بالسّلب، فاستساغتْ بعض النّخب المصرية احتلالها لبلدهم بمبرّر تطويرها، وقارنتْ بين عدلها وتقدّمها وظلم العثمانيّين وتخلّفهم، ووازنتْ بين إصلاحاتها والحرية فيها مِنْ جهة، وتخريب العثمانيين واستبدادهم مِنْ جهة أخرى، لكنّ الشّيخ محمّد عبدَه قاوم الاحتلال البريطاني مِنْ داخل وخارج مصر بمقالاته، وبلقاءاته مع رجال حربها ووزرائها وبرلمانيّيها في عقر داره.

لقد أوجد الاستعمار البريطاني جيلا مسلوب الشّخصية هواه معه، وكوّن نخبا مصرية على عينيه، مؤمنة بأفكاره وثقافته وقيمه، مفتونة بحضارته التي تشبّعتها أثناء رحلاتها المتكرّرة إلى أوروبّا، وعادت تحملها لإشاعتها في أوساط النّاشئة المصرية مِنْ خلال المؤسّسات العلمية والتّربوية، حتّى تكون تابعة له وجدانيّا وعقليّا وروحيّا، بل وأغراها بالتّجنس ومنحها الحقوق المدنية وربطها بقوانينها

---

(1) ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص182.

(2) ينظر: المرجع نفسه: ص201.

(3) المرجع نفسه: ص223.

لتنصيرها، وأشاع الخلاف بين عناصر المجتمع المصري ليتحكّم فيهم، وقد تتبّعت بريطانيا الاستعمارية هذه السّياسة اقتداء بفرنسا التي طبّقتها في الجزائر بسياسة فرّق تَسُدْ بين العرب والبربر الأمازيغ.[1]

وفي جويلية 1884م أوفد جمال الدّين الأفغاني الشّيخ محمّد عبدَه إلى لندن لمفاوضة السّاسة الإنجليز بضرورة الجلاء عن مصر، وهنالك أعلن بعزّة وشجاعة وبلهجة قويّة أنّ مصر ستحارب الاستعمار البريطاني بقوّة، وقد نَشَرتْ جريدة العروة الوثقى وبعض الجرائد الأوروبّية مثل؛ البال مال كازيت، والتروت، والتيمس محادثاته معهم، وكشف فيها عن مكائد السّاسة الإنجليز وفضح أطماعهم الرّامية إلى ابتلاع ممالك العالم، فوجدهم كلّما أخذوا قطرا ضمّوا إليه آخر، ودارت بينه وبين وزير الحربية الإنجليزي اللّورد هرتنكتون محادثات طويلة، أظهرتْ احتقار السّاسة الإنجليز للمصريّين، كسؤاله له أيّهما يُفضِّل الشّعب المصري: هل يخضع للإنجليز أم للأتراك؟ فأجابه بأنّ المصريّ العربيّ المسلم مَهْما كان مستواه العلمي ودرجة وعيه فإنّ فطرته تأبى عليه الخضوع لمن يخالفه في الدّين والجنس فهي تنفر مِنْ سلطة الأجنبي، فخيّب ظنّه بردوده القوية وأفحمه وألزمه الحجّة.[2]

ولإجلاء الاستعمار البريطاني عن مصر، صرّح الشّيخ محمّد عبدَه في إنجلترا سنة 1884م في حوار له لجريد: البول ميل غازيت اللّندنية قائلا: "إنّنا نرى أنّ انتصاركم للحرّية هو انتصار لما فيه مصلحتكم، وإنّ عطفكم علينا كعطف الذّئب على الحَمَل، لقد قضيتم على عناصر الخير فينا لكي يكون لكم مِنْ ذلك حجّة للبقاء في بلادنا...فلِمَ لا تغادرون بلادنا في الحال؟ لقد عَلَّمَنَا الإنجليز شيئا واحدا وهو التّضامن في رغبتنا أنْ نراهم يرحلون عن بلادنا...إنّ لنا إليكم رجاء واحدا: أنْ تغادروا بلادنا حالا مِنْ غير رجعة"[3]، وصرّح فيها رفض بلاده للاحتلال البريطاني ورغبة شعبه في اختيار حاكم مصري يخدم شعبه وبلاده ويسعى لتحقيق الإصلاح والعدالة والتّربية والتّعليم فقال: "إنّنا لا نريد لوطننا حكّاما أجانب عنّا كائنة مَنْ كانت بلادهم، ونحن نعرف كيف نجعل حكمهم فينا أمرا مستحيلا، دعونا نختار لنا حاكما، وسترونا متضامنين في العمل معه، إنّنا معشر المصريّين نريد الإصلاح نريد العدالة، نريد التّعليم، نريد حاكما نستطيع احترامه، دعوا أمّتنا تختار زعيمها ودعوها تحكم نفسها بنفسها".[4]

وصرّح لها أيضا بعدم احترامه للخديوي توفيق الذي مهّد لاحتلال الإنجليز لمصر، واعتبره أحد رؤوس الفساد، وثار ضدّه فقال عنه: "توفيق باشا أساء إلينا أبلغ السّوء، لأنّه مهّد لدخولكم بلادنا، ورجل مثله انضمّ إلى أعدائنا أيام الحرب، لا يمكن أنْ نشعر إزاءه بأدنى احترام، لكنّه إذا ندم على ما فرط منه، وإذا عمل على الخلاص منكم، فربّما غفرنا له سوءاته، إنّنا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية"[5]، فقد وصلت عمالة الخديوي توفيق للإنجليز لتمكينهم مِن احتلال بلاده عقب

---

[1] ينظر: عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق: ج1، ص49.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج8، ص453.

[3] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج1، ص715و716.

[4] المصدر نفسه: ج1، ص716و718.

[5] المصدر نفسه: ج1، ص716.

الثّورة العُرابية إلى الاستعانة بجنودهم على محاربة جنود بلاده[1]، ورغم كلّ تلك التّصريحات اعتبر الباحث غازي التّوبة بعض مواقف الشّيخ محمّد عبدَه المرنة في تعامله مع الاستعمار البريطاني؛ عَمَالة له وستر لسوءاته ودعم لباطله وتبرير منه لاحتلال مصر.[2]

لكنّ الشّيخ محمّد عبدَه اتّخذ بعض المواقف المرنة مع الإنجليز، لمّا رأى زمام أمور بلاده بيدهم، فلم يجد بدّا مِنْ مسالمتهم حتّى يتمكّن مِنْ تنفيذ إصلاحاته في هدوء، وحتّى لا يَقضي على إصلاحاته التّربوية المجسّدة في مهدها، وكان مِنْ نتائج تلك المرونة السّماح له بتنفيذ بعضها.

وعمل الاستعمار البريطاني على حجب الشّريعة الإسلامية في مصر واستبدالها بالنّظم والقوانين الغربية، وحرّف أسلوب التّعليم وصرفه عن الإسلام وفرض منهجا لا دينيّا، وجرّح في أسلاف المسلمين وأئمّتهم وأمجادهم واحتقر تاريخهم ولغتهم في مقابل الإشادة بكلّ ما هو وافد مِنَ الغرب للقضاء على هوية الأمّة تحت ستار المناهج الدّراسية والأبحاث الثّقافية والمسرح، واستطاع أنْ يحقّق أكبر هدف سياسيّ وهو تمزيق وحدة المسلمين بإقامة قوميات وإقليمات لها كيانات وحدود يصعب توحيدها.[3]

ورغم توجّه الشّيخ محمّد عبدّه التّربوي، إلاّ أنّ الاستعمار البريطاني والاستبداد السّياسي وتفشّي الفساد وسوء التّسيير، جعله يجنح للسّياسة ويفضح ممارسات الاحتلال البريطاني التي عاث بها فسادا في مصر، فربط بين السّياسة والتّربية وجعل هذه الأخيرة وسيلة لإجلاء القوات البريطانية عن مصر عن طريق استنارة الشّعب وفهمه لحقوقه وواجباته، وغضبه على الاعتداء على حقوقه وهمّته في أداء واجباته، فالتّربية ركن مهمّ لإصلاح المجتمع، وأساسية في تكوين الإنسان وتحقيق سعادته، ولا يكون ذلك إلا بتحلّيه بالأخلاق الحميدة التي بها يتمّ صلاح الفرد والمجتمع، ففي حوار له مع الصّحافة اللّندنية في لندن التي طرحت عليه سؤالا مفاده: "إنّ حكومتنا تشكو مِنْ أنّها لا تجد مصريّين مِنْ أهل الكفاية لتولّي الحكم في البلاد"، فأجابها قائلا: "إذا كانت حكومتكم فشلت في إيجاد هؤلاء الرّجال فالذّنب ذنبها، مصر لا ينقصها رجال أكْفاء وشرفاء، لكنّكم تطلبون رجالا ينفّذون ما تريدون، وليس في مصر رجل مخلص لبلاده يقبل أنْ يعمل لمصلحة الحكومة الإنجليزية، دعونا نختار لنا حاكما وسترونا متضامنين في العمل معه، إنّنا معشر المصريّين نريد الإصلاح، نريد العدالة، نريد التّعليم".[4]

وعندما رأى عدم جدوى لجوئه إلى السّياسة لمناهضة الاحتلال البريطاني، هجرها واتّبع منهج الإصلاح التّربوي للنّهوض بالأمّة، وأخذ يلقّن أتباعه بأنّه لو كان في الأمّة مائة رجل يحملون فكرا بصيرا وخُلُقا مكينا وكفاءة لما استطاع الإنجليز أنْ يحتلّها ويسطو على ثروتها وينازع أهلها قيادتها.[5]

لقد تحكّم الاحتلال البريطاني في كلّ مفاصل الحياة المصرية الحيوية، وكبّلها بقيود يصعب عليها التّحرّر منها، حتّى قال أحمد أمين: "لقد أصبح كلّ شيء في يد الإنجليز، لهم في كلّ نظارة مَنْ يستبدّ

---

[1] ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص107، وينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص310،

[2] ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص68.

[3] ينظر: أنور الجندي، الصحوة الإسلامية منطلق الأصالة وإعادة بناء الأمّة على طريق الله، مرجع سابق: ص243و244.

[4] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج1، ص718.

[5] ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، المصدر السّابق: ص108و109.

بالأمر فيها دون النّاظر، حتّى الدّاخلية وحتّى التّعليم وحتّى الأزهر والمحاكم الشّرعية، والنُّظَّار قِطَع شطرنج يلعب بها الإنجليز، والمديرون في البلاد خاضعون للمفتّش الإنجليزي، والعميد الإنجليزي مَقصِد كلّ ذي حاجة، والْمُقرّبُ إلى الإنجليز مَقبولُ الشّفاعة مَقضيُّ الحاجة، واسعُ الجاه، والْمُبعدُ عنهم مُعطّلُ الحوائج مُضطهدٌ مُحاربٌ حتّى في أدقّ الأمور، والخديوي توفيق مُسالِمٌ يأخذ بنصائح الإنجليز ".[1]

كما عمل الاحتلال البريطاني على التّمكين لنفسه في مصر بإيجاد حركات هدّامة، أعطاها كلّ الدّعم المادّي والمعنويّ كالقاديانية والأحمدية حتى تشوّه الإسلام، وكان الشّيخ محمّد عبدَه مِنَ العلماء الذين تفطّنوا لخططه الماكرة ضدّ الأمّة الإسلامية، فواجهه بإبراز الصّورة الصّحيحة للإسلام ولمحو الصّورة المشوّهة عنه التي أشاعها الاستعمار بين المسلمين.[2]

إنّ خضوع الشّعب المصري للاستعمار البريطاني، جعله يعيش انحطاطا كبيرا، وفسادا أخلاقيّا مريعا، حتّى عَمِيَ عن التّمييز بين ما ينفعه وبين ما يضرّه، ورضي بالحياة الحقيرة التي لا يطمح مِنْ ورائها إلى التّطوّر والازدهار، وهو يشاهد ما يقوم به المستعمر مِنِ استعباد له وسلب لأمواله ونهب لخيراته، واغتصاب لأراضيه، دون أنْ يبذل الشّعب جهدا لحماية حقوقه واستردادها، وانصراف أمرائه للّهو والبذخ والإمعان في إذلاله وأخذ أمواله، دون أنْ يرفض ممارساتهم الظّالمة، حتّى صار يرى حتمية القبول بتلك الأوضاع وانتظار النّصر مِنَ الله، واعتبر مواقفه تلك مِنَ الإيمان بالقضاء والقدر.[3]

لقد اتّبع الشّيخ محمّد عبدَه منهج الإصلاح التّربوي ليحقّق الكرامة للإنسان، ويعينه على عمارة الأرض وتحقيق الاستخلاف فيها باعتماد الإسلام مرجعا في ذلك، ورفض التّسلّط والاستبداد، ولم يرضَ بالاستعمار الذي جلبته العائلة الخديوية لمصر لمداراته بسياستها حتّى تبقى في السّلطة وتحافظ على عرشها، لذلك لم تبدِ أدنى مقاومة له على تحكّمه في مؤسّساتها الهامّة كالأزهر والأوقاف والقضاء، إلى درجة أنّ الاحتلال البريطاني قام بالاستعراض العسكري في حرم القصر الملكي، ووقف الخديوي تحت الرّاية البريطانية يوم الاحتفال بِعِيدِ ملك الإنجليز تزلّفا للعميد البريطاني، حتّى يغضّ الطّرف عن تصرّفاته في الوظائف الحكومية المخالفة للقوانين ولا يحاسبه عليها.[4]

إنّ مثل هذه السلوكات تدلّ على الانهزام النّفسي المسيطر على السّلطة المصرية وعلى قابليتها للاستعمار البريطاني وخضوعها له، وعدم إبداء أدنى مقاومة للتّسلّط المتنامي على الخديوي الذي ترجم استسلامه له بالضّغط على رجال الأزهر وتوجيههم وفق رغباته، وتعبئتهم للوقوف ضدّ أيّ إصلاح جدّي، وبخاصّة ضد مساعي الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية التي استنفرهم لعرقلتها.

وعليه فإنّ آثار الاستعمار البريطاني الوخيمة التي جعلت مجال التّربية والتّعليم متدهورا ومنحطّا وانعكستْ عليه بالسّلب، كانت بناء على اتّباعه لسياسة تعليمية أقامها على عدّة أسس أهمّها[5]:

---

[1] أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص311.

[2] ينظر: محمّد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مرجع سابق: ص17.

[3] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص158.

[4] ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتّعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص139.

[5] ينظر: مجدي سعيد، الإمام الشّيخ محمّد عبدَه والجمعيات الأهلية، مرجع سابق: ص691- 693.

تأطير الإدارة المصرية بالموظّفين الإنجليز والزّيادة في عددهم بحجة عدم كفاءة المصريّين، والتّقتير في تعليم المصريّين، وإلغاء مجّانية التّعليم في المدارس حتّى لا يستطيع الشّعب دفع مصاريفه فيحرم منه، ودفع الحكومة إلى التّخفيض مِنَ النّفقات على البعثات التّعليمية إلى الخارج، والتّقتير على مدارس إعداد المعلّمين الوطنيّين وإساءة معاملتهم ممّا قلّل المدرّبين المؤهّلين للتّعليم، وعدم تقديم المعونات المادّية للكتاتيب الأهلية للنّهوض بها وإصلاحها، وقصر الغرض مِنَ التّعليم على الإعداد للوظيفة وليس لأداء وظائف رسالية لخدمة الدّين والأمّة، ونشر ثقافة المستعمر في مصر بجعل اللّغة الإنجليزية لغة الدّراسة في التّعليم على حساب اللّغة العربية، وإعداد مناهج تعليمية لخدمة أغراض الاحتلال بنشر لغته وثقافته وتاريخه والتّرويج لحضارته، وإضعاف اللّغة العربية.

والخلاصة أنّ تلك الدّواعي الدّاخلية المتمثّلة في عقم طرائق ومناهج التّعليم المتّبعة في تعليم النّاشئة وطلبة العلم، وركون شيوخ الأزهر وعلمائه إلى التّقليد والجمود على الطّرائق التّعليمية القديمة والعلوم التّقليدية، وتفشّي الجهل والتّخلّف والفُرقة والخِلاف بين المصريّين، وتسّلط الحكّام على شعبهم واستبدادهم بالحكم وعبثهم بمصير البلاد وخضوعهم للأجانب والتّبعية لهم، جعلت الشّيخ محمّد عبدَه يحسم أمره بضرورة السّعي لإيجاد الحلول والمخارج للنّهوض بأمّته والارتقاء بها إلى حال أفضل، وما زاده حرصا في التّوجّه إلى الإصلاح التّربوي؛ هو تضافر الدّواعي الخارجية المتمثّلة في الاستشراق والتّنصير والغزو الثّقافي والفكري والاستعمار البريطاني، التي جعلته يشمّر عن ساعد الجدّ ويعدّ العدّة المعنويّة والمادّية لمجابهتها والتّصدّي لها، لتجسيد إصلاحاته التي جعل فيها الأولوية للإصلاح التّربوي، فبذل جهودا بدنية وفكرية كبيرة حتّى يكون في مستوى التّحدّيات الخارجية التي فرضتها الدّوائر الغربية ممثّلة في العلماء والمفكّرين الغربيّن الذين كانوا يُنَظِّرون للسّيطرة على العالم العربي والإسلامي وعلى مصر وبسط النّفوذ عليها والاستحواذ على خيراتها، وكذا رجال الدّين النّصارى الذين جعلهم السّاسة الغربيّون في طليعة الجيوش العسكرية للاستيلاء على تركة الدّولة العثمانية بعدما أنهكها الضّعف ودبّ فيها الوهن، فاستطاع أنْ يخفّف مِنْ وطأة تلك الدّواعي، ويبثّ الوعي في أمّته، ويوجّهها للتّديّن بالإسلام والحفاظ على اللّغة العربية والاعتزاز بالتّاريخ العربي والإسلامي الزّاهر، وتركيز جهوده في الإصلاح التّربوي ومنه التّعريج لإصلاح المجالات الأخرى بالوقوف في وجه الاستشراق والتّنصير والتّصدّي للغزو الثّقافي ومقاومة الاستعمار البريطاني، حتّى لا يقضي على هوية الأمّة المصرية، وحتّى يجعلها عصيّة عليه بتعليم أبنائها أمور دينها وحمايتها مِمّا يمسخ شخصيتها ويقضي على هويتها، وتعبئتها لمقاومة السّيطرة عليها والاستبداد بها واستعمارها، وتحصينها ضدّ محاولات تنصيرها وغزوها ثقافيّا وفكريّا، بالإضافة إلى وضعه مناهج دراسية ومقرّرات علمية قائمة على ثوابت الأمّة الإسلامية لحماية لغتها ودينها، وترسيخ القيم والمبادئ الإسلامية فيها حتّى تصمد أمام مغريات الحضارة الغربية.

وبعد الكلام عن حياة الشّيخ محمّد عبدَه وأحوال عصره، وكذا الدّواعي التي قادته إلى التّصدّي لها ومواجهتها لدحضها ولتجسيد الإصلاحات التّربوية التي رفع لواءها، سيتمّ التّطرّق في الفصل الثّاني إلى منهجه في تجسيدها ببسط الحديث عن مصادرها ووسائلها ومجالاتها وخصائصها.

الفصل الثّاني:
منهج الشّيخ محمّد عبدَه في الإصلاح التّربوي

المبحث الأوّل: مصادر الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه

المبحث الثّاني: وسائل الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه

المبحث الثّالث:مجالات الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه

المبحث الرّابع: خصائص الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه

الفصل الثّاني: منهج الشّيخ محمّد عبدَه في الإصلاح التّربوي

تمهيد:

عاشت مصر وضعا بئيسا في حياة الشّيخ محمّد عبدَه في جميع النّواحي، وانعكس ذلك بالسّلب على تقدّمها وتطوّرها ونهضتها، وكشّرت القُوى الأجنبية عَنْ أنيابها فتنامى نفوذها أكثر، وبدأ الاستعمار الأوروبّيّ يقسّم تركة الدّولة العثمانية التي نتج عنها أنْ كانت مصر منْ نصيب الاستعمار البريطانيّ الذي زاد مِنْ تأزيم الأوضاع في شتّى المجالات وفي المجال التّربويّ على وجه الخصوص.

عندها وجد الشّيخ محمّد عبدَه نفسه ملزما بتحمُّل مهمّة إصلاح أوضاع أمّته كما يمليه عليه واجبه الشّرعي؛ فشمّر عن ساعد الجدّ وأخذ للمعركة سلاحها وبدأ يوزّع مهامه بحسب سلّم الأولويات للقيام بواجب الإصلاح لكلّ المجالات بدءًا بالإصلاح التّربويّ الذي شرع في إصلاحه بتحديد المصادر التي سيعتمد عليها في تأصيل إصلاحاته حتّى تتوافق ومرجعيّة أمّته المسلمة عساه أنْ يحقّق النّجاح المنشود في زخم المِلَل والنّحل والإيديولوجيات والأفكار المتزاحمة الوافدة على المجتمع المصريّ المسلم.

كما فرض عليه الوضع الطّارئ الذي عايشه في مرحلتَيْ الطّلب والعطاء لتحقيق الإصلاح التّربويّ الذي يريده بأهدافه القريبة ومقاصده البعيدة؛ أنْ يوظّف كلّ ما توفّر لديه مِنْ وسائل مشروعة في سبيل تجسيدها والنّهوض بالمجتمع المصريّ وتحقيق التّقدم والرّقي له، للّحاق بركب الأمم الأوروبّية المتقدّمة وتجاوزها وتحقيق الرّيادة والسّيادة التي حققها أسلافه.

كما تتبّع الشّيخ مجالات الإصلاح التّربويّ وسبر أغوارها متلمّسا العيوب والمآخذ التي تسبّبت في تردّي الحالة التّربوية وتفاقمها ممّا أثّر على عقيدة وفكر وسلوك الفرد والمجتمع المصريّ، لذا عمل جاهدا على إحداث إصلاح تربويّ شامل ومتكامل، لإحياء أمّته والنّهوض بها وإصلاحها، لاستعادة مجدها الذي حقّقته بالدّين والعلم والمعرفة، حتّى صارتْ قِبلة للغرب الذي قصد الأندلس يستنير بعلمها وينشره في ربوع أوروبّا التي كانت غارقة في ظلمات العصور الوسطى.

وفي ختام الفصل سيتمّ إبراز أهمّ خصائص الإصلاح التّربويّ التي حاول الشّيخ محمّد عبدَه تمثُّلها وتفعيلها لتحقيق النّجاح لإنهاض أمّته الغارقة في الجمود والتّقليد، فكانت لجهوده أدوار محمودة في إصلاح الأوضاع الفاسدة التي مسّت جميع القطاعات، وتسبّبت في زيادة التّخلف والجهل والضّعف والفُرقة والاختلاف وقلّة الوعي وضمور الوازع الدّينيّ وغيرها مِنَ المساوئ المتراكمة.

المبحث الأوّل:
مصادر الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه

المطلب الأوّل: الوحـــــــي

المطلب الثّاني: العلوم العقلية والإنسانية

المطلب الثّالث: التّجارب الإنسانية

المبحث الأوّل: مصادر الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه

تمهيـد:

بذل الشّيخ محمّد عبدَه جهودا معتبرة لتجسيد إصلاحاته التّربوية ضمن أصول الشّرع، لأجل تحرير العقول والنّفوس وطلبا للعلوم الكونية، لإتمام مشروعه في إصلاح الأمّة ونهضتها[1]، وقد استقى مصادره مِنْ كتب السّلف، والأشاعرة، والمعتزلة، والفلاسفة، والمتصوّفة، وبعض ما اطّلع عليه مِنْ كتب الغربيّين بعد تعلّمه اللّغةَ الفرنسية وهو في عِقده الرّابع.[2]

حيث استند إلى جملة مِنَ المصادر في التّربية والتّعليم والتّوجيه، لتنفيذ مشروعه الإصلاحيّ منذ أنْ وعى بمسؤوليته إلى أنْ وافته المنيّة، فكان الدّين الإسلاميّ بمصدريْهِ الأصليَيْن: القرآن الكريم والسنّة النّبوية الشّريفة هما عمدة مصادره التّربوية منطلقا وممارسة ومقصدا.

كما حكّم العقل وأعمله في إصلاحاته التّربوية باعتباره مناط التّكليف وأمارة تكريم الإنسان وتفضيله على سائر المخلوقات، فكان مصدره الثّاني بعد الوحي مِنْ خلال اعتماده على العلوم العقلية والإنسانية التي فتح الله بها عليه باكتسابها والإلمام بها، ليلقّنها لطلبة العلم، ويُحسِن توظيفها لتجسيد إصلاحاته التّربوية في مجتمعه المصريّ وفي بعض المجتمعات العربية والإسلامية.

وبالإضافة إلى المصدريَنْ السّابقَيْن نظر الشّيخ محمّد عبدَه في التّجارب الإنسانية وفتوحاتها الخادمة للإنسانية، فاستلهم منها الفوائد والخبرات في سياق التّواصل مع البشرية لتعمير الأرض وتحقيق الاستخلاف فيها، فالتّجارب الإنسانية قد تشتمل على الحكمة التي ينبغي النّظر فيها والأخذ بها والاستفادة منها، لذلك لم يألُ جهدا في استحضار تلك المصادر لتطبيق وإنجاح إصلاحاته التّربوية.

---

[1] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص90.

[2] حافظ محمّد حيدر الجعبري، الشّيخ محمّد عبدَه وآراؤه العقدية، مرجع سابق: ص136.

المطلب الأوّل: الوحـــي

انطلق الشّيخ محمّد عبدَه في مسيرته الإصلاحية للنّهوض بأمّته مِنْ مرجعيّة مقدّسة، كانت هي مصدره الأساس الذي استند إليه في إصلاح أوضاعها المتردّية وبخاصّة في المجال التّربوي، فاعتمد على الوحي المتلوّ المتمثّل في القرآن الكريم والوحي غير المتلوّ المتمثّل في السنّة النّبوية الشّريفة، يأخذ منهما ويستنير بهما حتّى يمكنه إنجاح إصلاحاته المنشودة، دون أنْ يُغفِل هَدْيَ القرون الأولى مِنْ جيل الصّحابة ﷺ بالنّظر في اجتهاداتهم والأخذ بآرائهم ممّا يَصلُح العمل به، فجاءت فروع المطلب تتحدّث عن الوحي كمصدر أساسٍ لإصلاحاته، وكان الحديث في الفرع الأوّل عن القرآن والسنّة إجمالا، ثمّ بالحديث عن القرآن الكريم في الفرع الثّاني، ليتمّ الحديث في الفرع الثّالث عن السنّة النّبوية الشّريفة.

الفرع الأوّل: القرآن الكريم والسّنّة النّبويـة

لقد وعى الشّيخ محمّد عبدَه في سنّ مبكّرة بوظيفته في الحياة ومهمّته الرّسالية في الوجود، فاضطلع بواجب التّبليغ عن الله عزّوجل وعن رسوله الكريم ﷺ، فبذل وُسعَه لاقتناص فرص الإصلاح المتيسّرة لديه لإحداث الإحياء والتّغيير والنّهضة في مختلف الميادين عن طريق التّربية والتّعليم في مُناخ اتّسم بالتّقلّبات الكثيرة والأحداث المتسارعة والانفتاح الكبير على مختلف الثّقافات الوافدة مِنَ الأمم الأخرى، وما رافقها مِنْ حركة استعمارية مسعورة على أقطار العالم العربيّ والإسلاميّ.

إنّ هذا الواقع الذي فرض نفسه باجتماع الكثير مِنَ العوامل الدّاخلية والخارجية، جعلت الشّيخ محمّد عبدَه يشمّر عن ساعد الجدّ للقيام بواجبه الشّرعيّ، والسّير ضمن سنّة الله الكونية في التّدافع بين الحقّ والباطل والخير والشّرّ لقوله تعالى:﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[سورة الحج].

فباشرَ الإصلاحَ انطلاقا مِنْ مرجعيّة مقدّسة قائمة على مصادر التّشريع الإسلامي المتمثّلة في القرآن الكريم والسنّة النّبوية، متمثّلا في ذلك قوله ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا، كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي**»[رواه مالك في الموطأ][1]، ومتّبعا هديَ الصّحابة والتّابعين وتابعيهم ومَنْ جاء بعدهم مِنَ الأئمّة ممَّنْ كانت لهم اجتهادات صائبة في مسارهم الدّعوي والإصلاحيّ، لقوله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[رواه البخاري][2]، وقد صرّح الشّيخ محمّد عبدَه بذلك فقال: "وما سندي فيما أقول إلّا الكتاب والسنّة القويمة، وهدي الرّاشدين".[3]

وكان يرجع إلى تلك المصادر يأخذ منها ويستند إليها في الاهتداء إلى أنجع الحلول وأَأْمَنِ المخارج لما قد يعترض إصلاحاته التّربوية مِنْ معوّقات للرُّسوّ بأمّته في برّ الأمان، وتحقيق النّجاح والصّلاح والانعتاق مِنْ ربقة التّقليد والجمود والتّخلف والضّعف، والارتقاء بها إلى مصافّ السّيادة والقيادة،

---

[1] أخرجه مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني في الموطأ، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د ط)، 1985م، كتاب: القدر، باب: النّهي عن القول بالقدر، ج2، ص899، حديث رقم: 03، وورد في الموطأ بهذا اللفظ عن مالك أنّه بلغه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا، كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ**».

[2] أخرجه البخاري في كتاب الشّهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أُشهد، ج3، ص171، حديث رقم: 2651.

[3] محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، مصدر سابق: ص135.

جامعا بين الأصالة والمعاصرة والتّجديد بعلم ومرونة وحكمة، وقد نادى بالرّجوع إلى الكتاب والسنّة، ومحاربة البدع والخرافة، والإنكار على شيوخ الطُّرق الصّوفية المتخاذلة، والعمل مِنْ أجل التّمدّن والتّطوّر للّحاق بركب الأمم المتطوّرة، باستغلال ما يسّره الله للإنسان مِنْ مصادر المعرفة في عالم الشّهادة المحسوس للنّهل منها، وتحصيل ما لم يُتَح له تعلّمه ممّا يتوافق مع أصول الإسلام ومقاصده.

ويمثّل الكتاب والسنّة أهمّ مصادر الإصلاح التّربوي والدّينيّ عند الشّيخ محمّد عبدَه، فقد ذكر مصطفى عبد الرّازق بأنّ شيخه محمّد عبدَه جعل الإصلاح الدّينيّ أساس كلّ إصلاح في الشّرق، لذلك أقامه على الدّين الإسلاميّ الذي لا يتعارض مع العقل والعلم، وأنّه يعمل على تحرير الفكر والعقل مِنَ التّقليد، لذلك اجتهد في فهمه على طريقة السّلف بالرّجوع في كسب معارفه إلى الكتاب والسنّة، وقد صرّح في تفسير سورة الفاتحة أنّه يجب أنْ يكون القرآن أصلا تُحمل عليه الآراء في الدّين، لهذا توجَّهَتْ عزيمته إلى العناية بتفسير القرآن الكريم الذي استغرق كلّ مجهوده في الإصلاح الدّينيّ.[1]

وقد جزم الشّيخ محمّد عبدَه بأنّ الإسلام مُمَثّلا في القرآن الكريم والسنّة النّبوية المطهّرة؛ بأنّه دين الفطرة ودين المستقبل الذي به خلاص أمّة الإسلام حاضرا ومستقبلا، بل إنّ أمم الغرب مهما أنجزوا مِنْ حضارة ومدنيّة، فإنّهم سيذوقون فِتَنَ مدنيّتهم ومفاسدها التي ستضطرّهم إلى طلب المخرج فلا يجدوه إلّا في الإسلام، إسلام القرآن والسنّة لا إسلام المتكلّمين والفقهاء.[2]

والأمّة الإسلامية إذا أرادت استرجاع عزّها ومجدها الضّائع، عليها بالرّجوع إلى القرآن والسّنّة وتحكيمهما في حياتها الدّينية والدّنيوية، وما ذكره الشّيخ محمّد عبدَه دليل على إيمانه الرّاسخ بالوحيَيْن اعتقادا وقولا وعملا، وهو ما ترجمه في مشاريعه الإصلاحية وفي إصلاحاته التّربوية تحديدا.

الفرع الثّاني: القرآن الكريـم

يعدّ القرآن الكريم أوّل مصادر التّشريع الإسلامي المتّفق عليها بين المسلمين قديما وحديثا، وهو ركيزة مصادر الشّيخ محمّد عبدَه وروحُه ومنطلقُه في الإصلاح عموما والإصلاح التّربويّ خصوصا.

أولا: تعريف القرآن الكريـم

عرّف الشّيخ محمّد عبدَه القرآن الكريم بقوله: "هو القرآن المكتوب في المصاحف، المحفوظ في صُدورِ مَنْ عُنِيَ بِحفظه مِنَ المسلمين إلى اليوم، كتابٌ حوى مِنْ أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة، نقّب على الصّحيح منها، وغادر الأباطيل التي ألحقتها الأوهام بها، ونبّه على وجوه العبرة فيها، حكى عن الأنبياء ما شاء الله أنْ يقصّ علينا مِنْ سِيَرهم، وما كان بينهم وبين أممهم، وبرّأهم ممّا رماهم به أهل دينهم، المعتقدون برسالتهم...وشَرَّعَ للنّاس أحكاما تنطبق على مصالحهم، وظهرت الفائدة في العمل بها والمحافظة عليها".[3]

---

[1] ينظر: جمال الدّين الأفغاني ومحمّد عبدَه، العروة الوثقى، مصدر سابق: ص29.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص939.

[3] محمّد عبدَه، رسالة التوحيد، مصدر سابق: ص130.

ثمّ ذكر وجوب الإيمان بكلّ ما ورد في القرآن المنزّل على محمّد ﷺ فقال: "فلا ريب أنّه يجب تصديق خَبَرِه، والإيمان بما جاء به، ونعني بما جاء به ما صرّح به في الكتاب العزيز، وما تواتر صحيحا مستوفيا لشرائطه، وهو ما أخبر به جماعةٌ يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة في أمر محسوس".[1]

وأكّد الشّيخ بأنّه يؤمن بكتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ ويدعو ملّته إلى التّصديق والعمل بهما، ومَنْ كان هذا شأنه لا يُتّهم بأنّه تنكّبهما ظِهريا وهو يسعى لإصلاح أمّته، ويحاول ربطها بكتاب ربّها وسنّة نبيّها، لذلك كانت إصلاحاته التّربوية مشبّعة بالوحي لتخريج أجيال موصولة بربّها عاملة بدينها كتابا وسنّة.

ثمّ ذكر بأنّ القرآن الكريم معجزة ربانية أيّد بها نبيّه محمّد ﷺ يعتمد عليه الإسلام في التّصديق برسالته ﷺ، وهو الدّليل، وهو المتواتر الذي لم ينقطع خبره، والمعوَّل عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين، أوحاه الله، وأنّه ليس مِنِ اختراع البشر، جاء على لسان نبيٍّ أمّيٍّ لم يتعلّم الكتاب ولم يمارس العلوم، نزل هاديا للضّالّ مقوّما للمعوجّ، كافلا بنظامٍ عامٍّ لحياةِ مَنْ يهتدي به مِنَ الأمم، منقذا لهم مِنَ الخسران والهلاك، له بلاغة راقية أعجزتْ فصحاء العرب أنْ يعارضوه بشيء مِنْ مثله فعجزوا، ولجأوا إلى المجالدة بالسّيوف وسفك الدّماء واضطهاد المؤمنين به، ودافعوا عن حقّهم حتّى انتصر الحقّ على الباطل وظهر الإسلام على مَنْ سواه وانتشر في العالم.[2]

وعليه كان اعتماد الشّيخ محمّد عبدَه في إصلاحاته على كتاب الله تعالى يأخذ منه ويؤصّل به أقواله وأفعاله واجتهاداته، متأسّيا في ذلك برسول الله ﷺ والصّحابة والتّابعين وتابعيهم ﷺ الموصوفين بالخيرية في حديث عمران بن حصين ﷺ الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُمْ**»[رواه البخاري][3] وأَخْذِهِ بفهومهم السّديدة لإصلاح شؤون أمّته التي أخذ على عاتقه واجب النّصح لها في دينها، أمّا ما تعلّق بشؤون الدّنيا ممّا لم يرد فيه نصٌّ، فقد جعل لنفسه واسع النّظر في الاجتهاد وإعمال الفكر، استنادا لما رواه أنس ﷺ أنّ النّبي ﷺ مرّ بقوم يلقّحون، فقال: «**لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ**» قال: فخرج شِيصًا، فمرّ بهم فقال: «**مَا لِنَخْلِكُمْ؟**» قالوا: قلتَ كذا وكذا، قال: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**» [رواه مسلم].[4]

ثانيا: الاعتماد على القرآن الكريم في الإصلاح

قال الشّيخ البشير الإبراهيمي: "لا نزاع في أنَّ أوّل صيحة ارتفعتْ في العالم الإسلامي بلزوم الإصلاح الدّيني والعلمي في الجيل السّابق لجيلنا هي صيحة إمام المصلحين الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه ﷺ، وأنّه أندى الأئمّة المصلحين صوتا وأبعدهم صيتا في عالم الإصلاح، فلقد جاهر بالحقيقة

---

[1] محمّد عبدَه، رسالة التوحيد، مصدر سابق: ص177.

[2] ينظر: محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، مصدر سابق: ص81.

[3] أخرجه البخاري في كتاب الشّهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أُشهد، ج3، ص171، حديث رقم: 2651.

[4] أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ مِنْ معايش الدّنيا على سبيل الرّأي، ج4، ص 1836، حديث رقم: 141.

المرّة، وجهر بدعوة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الرّجوع إلى الدّين الصّحيح والتماس هديه مِنْ كتاب الله ومِنْ سنّة نبيّه، وإلى تمزيق الحُجب التي حَجبتْ عنّا نورهما وحالتْ بيننا وبين هديهما".[1]

وعليه كان اعتماد الشّيخ محمّد عبدَه في الإصلاح على الدّين الإسلامي لتربية النّاشئة وطلبة العلم، وجعل التّربية الإسلامية أساسا لإصلاحاته فقال: "كان الدّين هو الذي ينطلق بالعقل في سعة العلم أو يسيح به في الأرض ويصعد به إلى أطباق السّماء، ليقف به على أثرٍ مِنْ آثار الله، أو يكشف به سرّا مِنْ أسراره في خليقته، أو يستنبط حُكما مِنْ أحكام شريعته"[2]، لأنّه بالتّربية الإسلامية القائمة على القرآن الكريم، يتحقّق الارتقاء المادّيّ والمعنويّ والتّوازن النّفسيّ والاجتماعيّ والنّجاح في الحياة.

وكان القرآن الكريم مصدره في الإصلاح، وهو القائل في تفسير قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[سورة النّساء]: "فطاعة الله هي الأخذُ بكتابه كلّه، وفيه ما رأيت مِنَ النّهي عن الاختلاف والتّفرّق في الدّين، وطاعة رسوله بعد وفاته هي الأخذُ بسنّته، وطاعة أُولِي الأمر هي العمل بما يتّفق أهل الحلّ والعقد وأُولُوا الشّأن مِنْ علمائنا ورؤسائنا بعد المشاورة بينهم في أمر اجتهاديّ، على أنّه هو الأصلح لنا الذي يستقيم به أمرنا، فإنْ وقع التّنازع والاختلاف وَجَبَ ردُّه إلى الله ورسوله، وتحكيم الكتاب والسُنّة فيه، ولا يجوز أنْ يتمادى المسلمون على التفرّق والاختلاف بحال".[3]

إنّ تفسيره للآية كان تصديقا لتفسير القرون الأولى مِنْ جيل الصّحابة والتّابعين وتابعيهم، إذ لم يخرج عمّا أقرّوه في بيان معناها، ففسّروا طاعة الله بأنّها الرّجوع إلى كتاب الله وأخذ الأحكام الشّرعية منه، وبناء على ذلك أَصَّلَ أفكاره واجتهاداته عليه، وجعل مِنَ التّعليم إحدى وسائله لإصلاح الفرد والمجتمع والأمّة، بترسيخ أصول الإيمان وإبراز أركان الإسلام في النّاشئة في المراحل التّعليمية الأولى وتجسيدها عمليا كاستحداثه للتّلاميذ قاعات لأداء الصّلاة في وقتها بإمامة معلّميهم خلال الدّراسة.

وقال محمّد البهي: "نرى الشّيخ محمّد عبدَه يدعو إلى القرآن والرّجوع إلى عهد صدر الإسلام في طريق فهمه، والوحدة حوله، وفي الوقت نفسه يفسّر القرآن بما يعيد على أسماع المسلم صلة الإسلام بالحياة، وانتزاع التّوجيه فيها مِنْ مبادئه ومِنْ خُطّة الرّسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم".[4]

وما يؤكّد استناده في الإصلاح إلى القرآن الكريم كمصدر أَوَّلي في تطبيق أحكام الإسلام قوله: "وإنّي مُجْمِلُهُ -أي الإسلام- في هذا الباب مقتديا بالكتاب المجيد في التّفويض لذوي البصائر أنْ يفصّلوه، وما سندي فيما أقول إلّا الكتاب والسنّة القويمة وهدي الرّاشدين".[5]

فجعل القرآن الكريم على رأس مصادره النّقلية في إصلاحاته التّربوية، ومُعتمده في إيجاد الحلول للقضايا التي سعى لإصلاحها لتحقيق النّجاح والتّطوّر والرّقيّ العلميّ والمعرفيّ والتّربويّ لأمّته التي وجدها غارقة في براثن الجهل والتّخلف التي كرّسها الاستعمار وأهل الجمود والتّقليد في المجتمع المصريّ.

---

[1] محمّد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق: ج1، ص177.

[2] محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، مصدر سابق: ص120و121.

[3] محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، مصدر سابق: ج3، ص9و10.

[4] محمّد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مرجع سابق: ص60.

[5] محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، مصدر سابق: ص135.

كما لجأ إلى مختلف طرق ووسائل الإصلاح المتاحة، وذكر بأنّ أمّته سادت وعزّت بالإسلام، ولمّا أعرضت عنه ضعفت وذلّت، وأنّ مجدها لا يرجع إليها إلّا إذا جعلتْ مِنَ القرآن الكريم إمامها؛ أرشدها إلى إماتة البدع وإحياء السّنن، وأرشد المسلمين بمختلف فرقهم ومذاهبهم إلى الاتّحاد، وأنْ لا يجعلوا الخلاف الفرعيّ في الدّين مِنْ أسباب التّفرق والانقسام الذي قد يقضي عليهم جميعا.[1]

فهو يرى بأنّ التربية الحقّة هي التي تستند إلى الدّين وتنبع مِنْ مبادئه التي تؤخذ مِنَ القرآن الكريم، لذلك قال مؤكّدا على دور الدّين في التّربية: "أمرُ التّربية هو كلّ شيء، وعليه يبنى كلّ شيء، وكلّ مفقود يُفقَد بفقد العلم، وكلّ موجود يوجد بوجود العلم، وأيّ إصلاح للشّرق والشّرقيين لا بدّ أنْ يستند إلى الدّين حتّى يكون سهل القبول، شديد الرّسوخ، عميق الجذور في نفوس النّاس".[2]

ومِنَ الشّواهد الدّالّة على اعتماده القرآنَ الكريمَ في الإصلاح هو ذلك القَسَمُ الذي وضعه لكلّ مَنْ أراد الانخراط في جمعية العروة الوثقى، فأوجب فيه على كلّ مَنْ ينتسب إليها أنْ يحلف به، وهذا جزء مِنْ صيغة القسم الذي كتبه: "أقسمُ بالله العالم بالكلّيّ والجزئيّ والجليّ والخفيّ القائم على كلّ نفس بما كسبتْ، الآخذ لكلّ جارحة بما اجترحتْ، لأُحَكِّمَنَّ كتابَ الله في أعمالي وأخلاقي، بلا تأويل ولا تضليل، آمين"[3]، فكان لا يقبل انخراط أيّ عضو في الجمعية ولا في أيّ فرع مِنْ فروعها المنتشرة في أقطار العالم العربي والإسلامي إلّا إذا أقسم بتلك الصّيغة المؤَثَّقَة التي وضعها بنفسه.

ثالثا: إعمال العقل في الظّنّيّات عند الإصلاح

كان الشّيخ محمّد عبدَه معدودا مِنْ أهل الاجتهاد في زمانه، واجتهد في إعمال العقل في النّصوص الظّنّية الدّلالة وفيما لا نصّ فيه بحسب الوقائع والنّوازل الطّارئة متحاشيا التّقوّل على الله تعالى بِلَيِّ عنق النّصوص القرآنية وتحميلها ما لم تحتمل، فحكَّم عقله في تفسيرها حتّى تتوافق مع كتاب الله تعالى، واستند إليه في الإصلاح وحكّمه في الظنّيات التي يجوز إعمال الفكر فيها، عملا بالنّصوص القرآنية التي تحثّ على إعمال العقل بالتّدبّر والتّفكّر في النّصوص القرآنية، والنّظر في آيات الله الكونية لقوله تعالى:﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[سورة محمّد]، وقوله:﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[سورة آل عمران].

إنّ مرجع الشّيخ محمّد عبدَه في إعمال العقل وتحكيمه وجَعْلِهِ رديفا للنّقل في الدّعوة إلى دين الله والتّعريف به وبرسوله وبالغيبيات التي أمرنا الإيمانَ بها، وفي السّعي لإصلاح أوضاع الأمّة في مختلف المجالات للارتقاء والنّهوض بها نحو الأفضل؛ هو انتفاء تعارض العقل مع النّقل في القرآن الكريم لاشتماله عليهما، فقال في هذا: "وتآخي العقل والدّين لأوّل مرّة في كتاب مقدّس على لسان نبيّ مرسل بتصريح لا يقبل التّأويل، وتَقَرَّرَ بين المسلمين كافّة -إلاّ مَنْ لا ثقة بعقله ولا بدينه- أنّ مِنْ قضايا الدّين ما لا يمكن الاعتقاد به إلّا مِنْ طريق العقل، كالعلم بوجود الله وبقدرته على إرسال الرّسل، وعلمه بما

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج2، ص337.

[2] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج1، ص153.

[3] المصدر السابق: مج31، ص1.

يُوحِي به إليهم"[1]، واعتمادُه على العقل كان بناء على أنّ الله جَعَلَهُ مناط تكليف الإنسان، لهذا أطلق سلطانَه مِنْ كلّ القيود وخلَّصه منها، ليقضيَ بحكمه وحكمته مع الخضوع لله وحده والوقوف عند شريعته[2]، لكنّه بالغ كثيرا في الاعتماد على العقل إلى درجة تحكيمه في كلّ شيء، وتوكيل جميع المشاكل التي قد تواجه الإنسان إليه لحلّها، حتّى قال فيه سليمان دنيا[3]: "وعندي أنّ الشّيخ محمّد عبدَه إذا كان لم يُنْقِصِ العقل حقّه، فهو قد جاوز به حدّه".[4]

رابعا: تربية الأمّة وإصلاحها باستحداث طرائق جديدة لتفسير القرآن الكريم

كان القرآن الكريم والسنّة النّبوية مرجعا للشّيخ محمّد عبدَه يأخذ منهما الهدي في إصلاحه الدّيني والعلميّ والتّربويّ، فتوجّه إلى إصلاح طرائق التّعليم باعتماد أسلوب فريد أثرى به دروسه بحكمٍ وفوائدَ وفرائدَ نادرة عند تدريس كتاب الله تعالى، وهو ما ذكره الشّيخ البشير الإبراهيمي في آثاره حينما قال: "وكان مِنْ إصلاحاته العملية في هذا الباب -باب طرائق التّعليم- دَرْسُهُ لكتاب الله بأسلوب حكيم لم يسبقه إليه سابق، وكان -رحمه الله- وهو مَنْ هو في استقلال الفكر واستنكار الطّرائق الجامدة يجاري الطّريقة الأزهرية بعض المجاراة لاعتبارات خاصّة، ومِنْ هذه المجاراة السّطحية أنّه كان يلتزم في تلك الدّروس العامرة بالحِكَمِ العليا تفسير الجَلَالَيْن ويستهلُّها بقراءة عبارته".[5]

وقد ركّز الشّيخ محمّد عبدَه في الإصلاح على تربية أمّته على العقيدة الصّحيحة، بتفسير كتاب الله تعالى بأسلوب ميسّر معتمدا على تفسير الجَلَالَيْن المختصر، ففسّر كتاب الله تعالى في مساجد بيروت والقاهرة والجزائر، واجتهد في تكوينها وجعلها فاعلة بتربيتها على القرآن الكريم؛ بتدريسها كتابَ الله تعالى، وبتفسيره لطلبة العلم، ففسّر جزء عمّ لتلاميذ مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية في مصر، وفسّر سورة العصر في الجزائر، وشرع في تفسير القرآن الكريم كاملا لكنّه لم يكمله بسبب الوفاة، وتوقّف عند قوله تعالى:﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا ١٢٦﴾[سورة النّساء].

وكانت عقيدة الشّيخ محمّد عبدَه أنّ الإصلاح التّربوي لا يمكنه أنْ ينجح إلّا بالرّجوع إلى كتاب الله تعالى والاعتصام به، امتثالا لقوله تعالى:﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ١٠٣﴾[سورة آل عمران].[6]

---

[1] محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، مصدر سابق: ص19.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ص142.

[3] **سليمان دنيا(1915- 1988م)**: مفكّر مصري تخرّج في كلّية أصول الدّين بالأزهر الشّريف، حصل منها على شهادة العالية، درّس بالكلّية وتدرّج فيها حتّى صار وكيلا لها، ودرّس بجامعة القرويّين بالمغرب، وبجامعة أمّ درمان بالسّودان، وعمل مديرا للمركز الإسلامي في نيويورك، وأستاذا بجامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة ثمّ عاد إلى مصر وتوفّي بالقاهرة، أشرف على أطروحة الدّكتوراه للطّالب حافظ محمّد حيدر الجعبري تحت عنوان: الشّيخ محمّد عبدَه وآراؤه في العقيدة الإسلامية-عرض ونقد- بجامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة بالمملكة العربية السعودية، مِنْ مؤلّفاته: الحقيقة في نظر الغزالي، التّفكير الفلسفي الإسلامي، الشّيخ محمّد عبدَه بين الفلاسفة والكلاميّين، وحقّق حاشية الشّيخ محمّد عبدَه على العقائد العضدية، كما حقّق مجموعة مِنْ مؤلّفات الغزالي: كمقاصد الفلاسفة، ومعيار العلم، وتهافت الفلاسفة وغيرها، ينظر موقع: ويكي وحدت/ ar.wikivahdat.com، تاريخ الزيارة: السبت: 2023/04/15م في الساعة: 16:00 مساء.

[4] حافظ محمّد حيدر الجعبري، الشّيخ محمّد عبدَه وآراؤه في العقيدة الإسلامية، مرجع سابق: ص145و146.

[5] محمّد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق: ج1، ص343.

[6] ينظر: محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، مصدر سابق: ج4، ص19و20.

ففسّر القرآن الكريم واستعان به في إيجاد الحلول لقضايا أمّته الشّائكة، واستحضره لإصلاح كلّ الميادين وتنوير النّاس به في المساجد والمدارس والمعاهد والجمعيات والأماكن العامّة وعلى صفحات الجرائد والمجلّات[1]، وأخضع حوادث الحياة إليه بتفسيره والتّوسّع في معانيه بحسن إسقاط آياته وسوره عليها، على اعتبار أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضا، ولا تناقض ولا تضادّ بين آياته، فالقرآن الكريم في نظره كتاب هداية ومعانيه عامّة شاملة للنّاس أجمعين[2]، ويمثّل أمُّ المصادر في الإصلاح، وما اعتماده على المصادر الأخرى إلّا مِنْ باب الاستئناس بها وزيادةُ بسطٍ في التّفسير.

الفرع الثّالث: السنّة النّبويــة

تعدّ السنّة النبويّة الصّحيحة ثاني مصادر التّشريع الإسلامي المعتمدة المتّفق عليها بين العلماء المسلمين بعد القرآن الكريم في تبيان عقائد الإسلام وعباداته وآدابه وشرائعه ومناهجه[3]، وهي وحي غير متلو لقوله تعالى:﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[سورة النّجم]، وقد علّق القاضي أبو البقاء على هذه الآية بقوله: "إنّ القرآن والحديث يتّحدان في كونهما وحيا منزّلا بدليل الآية السّابقة.[4]

والسنّة عند الأصوليين هي: "ما نُقل عن النّبي ﷺ مِنْ قول أو فعل أو تقرير"، ومثال القول: ما تحدّث به النّبيّ ﷺ في مختلف المناسبات ممّا تعلّق بتشريع الأحكام كقوله ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»[رواه البخاري][5]، ومثال الفعل: ما نقله الصّحابة مِنْ أفعال النّبيّ ﷺ في شؤون العبادة وغيرها كأداء الصّلوات ومناسك الحجّ وآداب الصّيام، ومثال التّقرير: ما أَقَرَّهُ الرّسول ﷺ مِنْ أفعال صدرتْ عن بعض أصحابه بسكوت منه مع دلالة الرّضى، أو بإظهار استحسان وتأييد، فمِنَ الأوّل: إقراره ﷺ لاجتهاد الصّحابة في أمر صلاة العصر في غزوة بني قريظة حين قال لهم: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»[رواه البخاري][6]، فَفَهِم بعضهم هذا النّهي على حقيقته فأخّرها إلى ما بعد المغرب، وفهمه بعضهم على أنّ المقصود حثُّ الصّحابة على الإسراع فصلّاها في وقتها، وبلغ النّبي ﷺ ما فعل الفريقان فأقرّهما ولم ينكر عليهما، ومِنَ الثّاني: ما رواه خالد بن الوليد ﷺ أنّه أكل ضَبًّا قُدِّمَ إلى النّبيّ ﷺ دون أنْ يأكله رسول الله ﷺ فقال بعض الصّحابة: أَوَ يَحْرمُ أكله يا رسول الله؟ فقال: «**لَا وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِأَرْضِ قَوْمِي فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ**»[رواه البخاري].[7][8]

---

[1] ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص329.

[2] ينظر: أنور الجندي، اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار، مرجع سابق: ص133.

[3] ينظر: سيد سابق، عناصر القوة في الإسلام، مكتبة وهبة، مصر، (د ط)، (د ت)، ص87.

[4] ينظر: رقية بنت نصر الله نياز، السنّة النبوية المصدر الثّاني للتّشريع الإسلامي ومكانتها من حيث الاحتجاج والمرتبة والبيان والعمل، ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالسنة والسيرة النبوية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، (د ط)، (د ت)، ص8.

[5] أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ج1، ص6، حديث رقم: 01.

[6] أخرجه البخاري في كتاب: أبواب صلاة الخوف، باب: صلاة الطالب والمطلوب راكبا وإيماء، ج2، ص15، حديث رقم: 946.

[7] أخرجه البخاري في كتاب: الأطعمة: باب: ما كان النّبيّ ﷺ لا يأكل حتّى يُسمَّى له فيعلم ما هو، ج7، ص71، حديث رقم: 5391.

[8] ينظر: مصطفى السباعي، السّنّة ومكانتها في التّشريع الإسلامي، دار الوراق للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ص65و66.

وجاءت السنّة لتفصيل مجمل القرآن وتخصيص عامّه وتقييد مطلقه والتّمييز بين مُحكمِه ومتشابهه لقوله تعالى:﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾[سورة النّحل].

ومذهب الشّيخ محمّد عبدَه يقوم على أنّ السنّة النّبوية الشّريفة مِنَ المصادر المعرفية الغيبية التي تُتَلَقَّى بالمنهج السّمعي، والتي لا تقلّ في المعقوليةِ أهميةً عن المصادر المادّية التّجريبية، فالسنّة ليست مِنَ الميتافيزيقا والخيال الغَرِيبَيْن عن العقل ويقينه كما يعتقده الغربيّون، خاصّة وأنّ السنّة النّبوية متوفّرة على شروط الصّدق رواية ودراية.[1]

ولمّا كانت السّنّة ثاني مصادر التّشريع بعد القرآن الكريم، اعتمدها الشّيخ محمّد عبدَه في جميع مجالات الإصلاح ومنها الإصلاح التّربويّ، الذي طرق بابه مبكّرا غداة تفشّي الرّداءة والفساد فيه، فاقتنع بأنّ الإصلاح التّربويّ هو ركيزة التّغيير والنّهضة، وأنّه لا مخرج مِنَ الواقع البئيس للبلاد إلّا بولوجه لقيادة الأمّة إلى برّ الأمان، فخاضه وخطّ طريقه فيه تاركا وراءه آثارا هادية لأمّته مِنْ بعده.

وقد ذكر مصطفى عبد الرّازق بأنّ مدار الإصلاح الدّينيّ عند شيخه محمّد عبدَه يقوم على الدّين، حيث أبرز في إصلاحاته أنّ فهمَ الدّين يكون بالرّجوع إلى منابعه الأولى المتمثّلة في القرآن الكريم والسّنّة النّبوية المتواترة، وأنّه لا تعارض بين العقل والعلم والدّين[2]، وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ ذِكر الإصلاح الدّينيّ في مختلف سياقات إصلاح الشّيخ محمّد عبدَه لأمّته، ما هو إلّا لبيان أنّ مدار التّربية في الإسلام ينبع مِنَ القرآن الكريم والسنّة النّبوية الصّحيحة.

والذي يدلّ على أنّ السنّة النّبوية مصدر أساسيّ في إصلاحات الشّيخ التّربويّة، ما ذكره في تفسير قوله تعالى:﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ٥٩﴾[سورة النّساء] بأنّ معنى طاعة الرّسول ﷺ: هي الأخذ بسنّته والتّمسّك بها[3]، فاتّضح مِنْ تفسيره للآية استناده إلى السنّة النّبويّة لكونها ثاني مصادر التّشريع المعتمدة في الإصلاح، لذلك اجتهد في العمل بها والاقتداء به ﷺ لإحياء أمّته والنّهوض بها.

واعتماد السنّة النّبوية مصدرا للإصلاح يقتضي اتّباع هدي الصّحابة والتّابعين وتابعيهم ﷺ الموصوفين بالخيرية في قوله ﷺ:«**خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[رواه البخاري][4]، فرجع في إصلاحاته إلى ينابيع الدّين الأولى المتمثّلة في الكتاب والسنّة الثّابتة، وإلى طريقة السّلف قبل ظهور الخلاف بينهم[5]، بدليل ما ذكره في تفسير قوله تعالى:﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ٥٩﴾[سورة النّساء]، حيث قال: "وإطاعة أُولي الأمر هي العمل بما يتّفق أهل الحلّ والعقد وأُولُو الشّأن مِنْ علمائنا ورؤسائنا بعد المشاورة بينهم في أمر اجتهادي، على أنّه هو الأصلح لنا الذي يستقيم به أمرنا"[6]، ثمّ عقّب على مَنْ

---

(1) ينظر: محمّد عمارة، السنّة النّبوية والمعرفة الإنسانية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتّوزيع، القاهرة، (د ط)، 2000م، ص13.

(2) ينظر: جمال الدين الأفغاني ومحمّد عبدَه، العروة الوثقى، مصدر سابق: ص29.

(3) ينظر: محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، مصدر سابق: ج3، ص9، وينظر: محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1997م، ج1، ص261.

(4) أخرجه البخاري في كتاب الشّهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أُشهد، ج3، ص171، حديث رقم: 2651.

(5) ينظر: جمال الدين الأفغاني ومحمّد عبدَه، العروة الوثقى، المصدر السّابق: ص29.

(6) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، المصدر السّابق: ج3، ص9و10.

فسّر أُولِي الأمر بالأمراء والسّلاطين بأنّه غير مراد، فالآية نزلت في زمان لم يكن حينها الأمراء والسّلاطين وإنّما كان الصّحابة الذين فقهوا القرآن الكريم فقال: "إنّها نزلتْ في أُولِي الأمر الذين كانوا على عهد الرّسول ﷺ ولم يكن هناك أمير ولا سلطان، ما كان هناك إلّا أهل الرّأي مِنْ كبراء الصّحابة عليهم الرّضوان الذين يعرفون وجوه المصلحة مع فهم القرآن".[1]

لقد دعا الشّيخ محمّد عبدَه إلى الأخذ بفهوم السّلف الصّالح واجتهاداتهم عند الاختلاف والتّنازع في أمور الدّين والدّنيا ممّا لم يرد فيه نص في كتاب الله أو في سنّة رسول الله ﷺ، فجيل الصّحابة والتّابعين وتابعيهم رضي الله عنهم كانوا أقرب إلى فترة الوحي والنّبوّة، وكان يُعْمِل عقله الرّاجح فيهما ليُصدر ما يؤدّيه إليه اجتهاده وفق روح الشّريعة الإسلامية لإصلاح شؤون أمّته وإحيائها والنّهوض بها، وكان منطلقه في الإصلاح؛ هو القرآن الكريم والسنّة النّبوية واجتهادات خيرة أهل القرون الأولى، دون أنْ يتنكّب إعمال العقل في الظّنّيات، مع رفضه فكرة التّعارض بين الدّين والعلم، لذلك حاول التّوفيق بين النّقل والعقل بالانطلاق في الإصلاح مِنَ القرآن الكريم والسنّة النبوية والأخذ منهما والعمل بهما، ثمّ الاستئناس بما جاد به الفكر البشريّ مِن اجتهادات إيجابية تتناغم معهما ولا تُعَارِضُهُمَا.

المطلب الثّاني: العلوم العقلية والإنسانية

رفع الله مقام العقل في القرآن الكريم وعظّمه وأشاد به ودعا إلى إعماله وتحكيمه وعدم إفساده، وأعلى مِنْ شأنه ومكانته وجعله مناط التّكليف، وبه كرَّم الإنسان وفضّله على الكائنات فقال تعالى:﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [سورة الإسراء]، وجعله أداة الإنسان في الإدراك والفهم والنّظر والتّمييز والموازنة بين الخير والشرّ والنّفع والضّرر، وبه يهتدي إلى الوحي ويبتعد عن الدّجل والخرافة والأوهام، وبه يصل إلى الفكر الصّحيح ويكسب العلم النّافع، وبالعقل يؤدّي مسؤولياته في عالم الشّهادة بتوظيفه في إدراك فحوى الوحي الإلهي وتنزيل نصوصه على الواقع لتحقيق مقاصده، لذلك اهتمّ به الشّيخ محمّد عبدَه وسخّره في التّربية الإسلامية، وحثّ النّاشئة وطلبة العلم على إعماله وتنميته بالتّفكير والعلم فقال تعالى:﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [سورة العلق]، كما كان اعتماده في الإصلاح على العلوم العقلية والعلوم الإنسانية التي وظّفها في أدبيّاته، وقام ببعثها وإدراجها في المناهج التّعليمية والتّربوية لتنوير وتوعية وتثقيف طلبة العلم خصوصا والمجتمع المصريّ عموما، وهو ما تمّ بسط الكلام حوله في الفروع الآتية.

الفرع الأوّل: مكانة العقل في الإسلام والدّعوة إلى إعماله

دعا الشّيخ محمّد عبدَه إلى إعمال العقل في كلّ شيء حتّى في شؤون الدّين، فالمرء لا يكون كامل الإيمان إلّا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى يقتنع به، فيجب على كلّ طالب علم أنْ يسترشد بمَنْ تقدّمه سواء أكانوا أحياء أم أمواتا، ولكن عليه أنْ يستعمل فكره فيما يُؤْثَر عنهم، فإنْ وجده صحيحا

[1] محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، مصدر سابق: ج3، ص11.

أخذ به، وإنْ وجده فاسدا تركه، وحينئذ يكون مِمَّنْ قال الله تعالى فيهم:﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾[سورة الزّمر].[1]

واعتبر إهمال العقل إفساد في الأرض عند تفسير قوله تعالى:﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ۝٢٧﴾[سورة البقرة] فقال: "وأيُّ إفساد أكبر مِنْ إفساد مَنْ أهمل هداية العقل وهداية الدّين، وقطع الصّلة بين المقدّمات والنّتائج، وبين المطالب والأدلّة والبراهين؟ مَنْ كان هذا شأنه فهو فاسد في نفسه، ووجوده في الأرض مُفسد لأهلها، لأنّ شَرَّهُ يتعدّى كالأجرب يُعدِي السّليم، ولذلك ورد في السّنَّة النّهي عن قرناء السّوء".[2]

وفي تفسير قوله تعالى:﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۝٢٩﴾[سورة البقرة] صوّر الشّيخ محمّد عبدَه قدرة الله الكاملة ونعمه الشّاملة، وتهيئته الأرض للإنسان لينتفع بها وبأعيانها في الحياة، ويُعمل فكره بالاعتبار بها في الحياة العقلية، وينتفع بكل ما في بَرّها وبحرها مِنْ حيوان ونبات وجماد، وما لا تصل إليه يده ينتفع فيه بعقله بالاستدلال به على قدرة الله تعالى وإبداعه وحكمته[3]، فلم يستثن في تفسيره للآية السّابقة إعمال العقول في أيّ أمر ظاهر أو خفيّ، وذكر بأنّ القرآن رفع مِنْ شأن العقل ليميّز بين الحقّ والباطل والضارّ والنّافع[4]، ووسّع مِنْ صلاحيات العقل انطلاقا مِنْ نصوص القرآن الكثيرة التي تدعو إلى النّظر في آيات الله الكونية مِنْ خلال بعض المسائل المطروقة فقال:" فنرى القرآن في مثل هذه المسألة الكبرى -مسألة أين كان ربّنا قبل السّماوات والأرض- لا يُقَيِّدُ العقل بكتاب، ولا يقف به عند باب، ولا يطالبه فيه بحساب، فليقرأ القارئ القرآن ممّا يغنيني عن سرد الآيات الدّاعية إلى النّظر في آيات الكون:﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ۝١٨٥﴾[سورة الأعراف]".[5]

ومع توسيعه لصلاحيات العقل يرى بأنّ العقل لا طاقة له بالنّظر في كلّ الموجودات للبحث والفصل فيها، نظرا لمحدودية علم الإنسان وقصور عقله في مقابل كمال علم الله المطلق، لقوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾[سورة يوسف]، ويرى بأنّ العقل مِنْ خلال علومه الفلسفية لا تستطيع أنْ تؤدّي خدماتها إلّا في الظّواهر الطّبيعية وفي تاريخ البشر، لأنّها قد تحقّق بعض المنافع العلمية وبخاصّة التّقدّم في الصّناعات وتشييد أركان النّظام الاجتماعي، فهو يرى ضرورة التّمييز بين الدّين والفلسفة وعدم الخلط بينهما إذ لا عداوة بينهما، وهذه المنافع لم تتحقَّق عند المسلمين لأنّ فلاسفتهم زَجُّوا بأنفسهم في منازعات دينية وخلطوا الفلسفة وعلومهم الدّنيوية بمسائل الدّين.[6]

وقد حرص الشّيخ محمّد عبدَه في إصلاحاته التّربوي أنْ يجمع بين الدّين والعقل، على اعتبار أنّ العقلَ مصدرُ المعرفة ومقياسها، وأنّ أهميّة الدّين الكبرى تكمن في حماية العقل مِنَ الزّلل.[7]

---

(1) ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص309و310.

(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار، مصدر سابق: ج1، ص204.

(3) ينظر: المصدر نفسه: ج1، ص206.

(4) ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص116.

(5) محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، مصدر سابق: ص80.

(6) ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، المرجع السّابق: ص118.

(7) ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج2، ص687.

وعلى الرّغم مِنْ تقديره للعقل وإيلائه تلك المكانة العليّة، إلّا أنّه جعل الدّين مرجعه الأوّل، فهو الذي رفع مِنْ مقام العقل إلى درجة الكمال وجعله حاكما عليه فقال: "وإنّما الذي سبق تقريره هو أنّ العقل وحده لا يستقلّ بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إليه...الدّين هو حاسّة عامّة لكشف ما يشتبه على العقل مِنْ وسائل السّعادات، والعقل هو صاحب السّلطان في معرفة تلك الحاسّة وتصريفها فيما مُنحت لأجله، والإذعان لما تكشف مِنْ معتقدات وحدود أعمال، كيف ينكر على العقل حقّه في ذلك، وهو الذي ينظر في أدلّتها ليصل منها إلى معرفتها وأنّها آتية مِنْ قِبَلِ الله".[1]

والشّيخ محمّد عبدَه وهو يتحدّث عن أصول الإسلام، قدّم العقل على ظاهر الشّرع عند تعارضهما فقال: "اتّفق أهل الملّة الإسلامية إلّا قليلا مِمَّنْ لا يُنظر إليه، على أنّه إذا تعارض العقل والنّقل أُخذ بما دلّ عليه العقل، وبقي في النّقل طريقان، طريق التّسليم بصحّة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر إلى الله في علمه، والطّريق الثّانية تأويل النّقل مع المحافظة على قوانين اللّغة حتّى يتّفق معناه مع ما أثبته العقل"[2]، فالشّيخ محمّد عبدَه يؤمن بالصّلة الوثيقة بين الدّين والعقل إلى درجة تقديمه العقل على النّقل عند توهّم التّعارض بينهما، فيؤَوِّل النّقل بما يوافق العقل سيرا على منهج الأشاعرة.[3]

كما يرى بأنّ النّظر العقلي مِنْ مرتكزات الدّين في تحصيل الإيمان، والإسلام يرتكز على أصول عقلية، أوّلها النّظر العقلي لتحصيل الإيمان، وثانيها هو تقديم العقل على ظاهر الشّرع عند التّعارض بينهما، فإذا تعارض العقل والنّقل أخذ بما دلّ عليه العقل مع محاولة تأويل الظّاهر تأويلا يجعل معناه يتّفق مع أحكام العقل، وهذا لتربية العقول وإبعادها عن التّصورات والاعتقادات الرّديئة، ولتمكينها مِنَ التّمييز بين الخير والشرّ والضّارّ والنّافع.[4]

وهذا الأصل يعدّ مِنْ أصول الإسلام الثّابتة المتوافقة مع القرآن الكريم والسنّة النّبوية الصّحيحة، فأحكام العقل تقوم على الاستدلال بالأدلّة والبراهين وعدم الخضوع للأهواء، وتتميّز بالموضوعية، فإذا كانت أحكامه سديدة لا تعارض الدّين، فستساهم في تطوير حياة الإنسان.

ونظرا لأهمية العقل في التّربية وبناء الحضارة وتحقيق النّجاح في الحياة، اهتمّ الشّيخ محمّد عبدَه بالعقل كثيرا، وجعله وسيلة فعّالة لتطوير الثّقافة وترقية المجتمع بتربيته على التّفكير السّليم وتدريبه على الأساليب النّاجعة لبناء حضارة قويّة رائدة، بعيدا عن الأساليب التّقليدية الموروثة التي استحكمتْ في الأزمنة الغابرة، كالاعتماد على التّحفيظ والتّسميع والنّقل والتّكرار دون الفهم والاستيعاب ومناقشة الأفكار وإمكانية طرح سقيمها، للقضاء على الجمود والتّقليد المستحكِمَيْن في المعلّمين وطلّابهم في المؤسّسات التّربوية المصرية.[5]

---

[1] محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، مصدر سابق: ص117و118.

[2] الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه، محمّد عمارة، ج3، ص301، وينظر: محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، ص82.

[3] ينظر: عبد المتعال الصعيدي، المجدّدون في الإسلام، مرجع سابق: ص404.

[4] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص51.

[5] ينظر: المرجع نفسه: ص50.

وقد أكرم اللهُ الإنسانَ ببعثة رسول الله ﷺ وإنزال القرآن الكريم عليه، ليتّخذه وأمّته دستورا في الحياة، ثمّ زاد في تكريمه بأنْ منحه عقلا يتعرّف به على ربّه ويتقرّب إليه ويعبده بحقّ ويوحّده، ويُعْمِله بالتّدبّر في القرآن الكريم وبالنّظر والتّأمّل في الكون والحياة، وفي تيسير شؤونه والارتقاء بها نحو المثالية، لذلك احتكم إليه الشّيخ محمّد عبدَه، ورمى بكلّ ثقله به في الجانب التّربويّ، ووظّف طاقاته العقلية في الإصلاح التّربويّ، واعتبره مِنَ الوسائل الأساسية في إصلاح الأمّة والنّهوض بها.

وقد انبرى الشّيخ محمّد عبدَه إلى الأوساط المصرية المعطِّلة لدَوْرِ العقل في التّنمية الفكرية والإصلاح التّربويّ، كما انبرى للاستعمار البريطانيّ وحملاته المشوّهة للفكر الإسلامي، بعمله الحثيث لاستعادة مجد الفكر الإسلاميّ، وإرجاع الأمّة المصرية إلى دينها، وتوجيهها لإعمال العقل المستنِدِ إلى الكتاب والسّنّة وفق مذهب الأشاعرة[1] الذي تبنّاه غالبية المثقّفين المصلحين في زمانه.[2]

ثمّ إنّ تكوين الشّيخ محمّد عبدَه العقلي جعله يؤلّف رسالة وجيزة بعنوان: حاشية على شرح الجلال الدّواني على متن العقائد العضدية، للمتكلّم الأشعري عضد الدّين الإيجي، وصل فيها إلى نتيجة مفادها أنّ العقل وحده هو الذي يهدي الإنسان إلى العقيدة الصّحيحة.[3]

فكانت إصلاحاته التّربوية مؤصّلة وفق مرجعيّة المسلمين المقدّسة القائمة على المصادر النّقلية المتمثّلة في الكتاب والسنّة، والمصادر العقلية المسترشدة بهدايات العقل الذي جعله الله مناط تكليف الإنسان ودعاه إلى تحكيمه كما في قوله تعالى:﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٤٢﴾ [سورة البقرة]، فالإسلام دعا إلى إعمال العقل في الكتاب المسطور وهو القرآن الكريم وفي الكتاب المنظور وهو الكون، لتوحيده وعبادته بيقين لقوله تعالى:﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ١٩﴾[سورة محمّد].

وقد أشاد الشّيخ محمّد عبدَه بالعقل وسعى إلى تجديد الفكر ومحاربة الجمود والتّقليد، فذكر بأنّ الإسلام أنحى على التّقليد وصاح بالعقل لينهض مِنْ سباته، وأورد النّصوص التي تمدح أهل الحقّ الذين يُنْعِمُون النّظر للتّمييز بين الأقوال لاتّباع أحسنها فوصفهم الله تعالى بقوله:﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ ١٨﴾[سورة الزّمر][4]، وإطلاقُ القرآن لسلطان العقل كان في نطاق الالتزام بحدود الشّرع لذلك قال الشّيخ: "فأطلق سلطانَ العقل مِنْ كلّ ما كان قيّده وخلّصه مِنْ كلّ تقليد كان استعبده، وردّه إلى مملكته يقضي بحُكمه وحِكمته مِنَ الخضوع مع ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته".[5]

ورغم جعل الشّيخ محمّد عبدَه للعقل المكان الأوّل في الدّين، إلّا أنّه يرى أنّ الحكمة تقضي بأنّ العقل البشري له حدود لا يستطيع أنْ يتجاوزها في بعض المسائل كالحديث عن صفات الله تعالى

---

[1] **الأشاعرة:** نسبة إلى أبي الحسن الأشعري(260هـ- 324هـ): ولد في البصرة وتوفّي ببغداد، وهو مؤسّس مذهب الأشاعرة، ومِنَ الأئمّة المتكلّمين المجتهدين، تلقّى مذهب المعتزلة ثمّ رجع عنه وخالفهم فيه، له مصنّفات كثيرة منها: مقالات الإسلاميين، والإبانة عن أصول الدّيانة، ينظر: الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج4، ص263.

[2] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج1، ص87.

[3] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص40.

[4] ينظر: محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، مصدر سابق: ص140.

[5] المصدر نفسه: ص142.

والحديث عن القَدَرِ، فهو يرى بأنّه يكفينا مِنَ العلم بصفات الله أنْ نعلم أنّه متّصف بها وما وراء ذلك فهو ممّا استأثر الله بعلمه ولا تدركه عقولنا، أمّا كيفية اتّصافه بها فليس مِنْ شأننا البحث فيها[1]، وأمّا مسألة القدر فهو يرى بعدم الخوض فيه، وأنّه لا يحبّ أنْ يتكلّم فيه بالمرّة.[2]

لقد أَوْلَى الشّيخ محمّد عبدَه عناية كبيرة للعقل، وحكّمه في شؤون الدّين والدّنيا في حدود ما يسمح به الشّرع حسب اجتهاده، بحيث لا يصادم معلوما مِنَ الدّين بالضّرورة، وجَعَلَه خادما لدينه وعقيدته لتوحيد الله وعبادته، وكذا لإصلاح أمّته والنّهوض بها والارتقاء بها للسّيادة على الأمم وقيادتها وإسعادها في الدّارين، فوافق موقفه مِنَ العقل موقفَ الإسلام الذي يحترم العقل الإنسانيّ ويعطيه المكانة الرّفيعة التي تليق به، لدوره الكبير في ترسيخ العقيدة الصّحيحة والتّربية القويمة، لذلك جعله الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ مصادر إصلاحاته التّربوية التي بقيت آثارها في المجتمع إلى اليوم.

الفرع الثّاني: العلوم العقليــة

لم تقتصر جهود الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية على المصادر النّقلية المتمثّلة في الكتاب والسنّة، واجتهادات القرون الأولى مِنْ جيل الصّحابة والتّابعين وتابعيهم، وإنّما ضمّ إليها العلوم العقلية التي تقوم على مبادئ الدّين الإسلامي المتماشية مع الفطرة الإنسانية السّويّة للدّعوة للإسلام والتّمكين له، وخدمة الأمّة المصرية والمسلمين وتلقينهم العلوم وتربيتهم وإصلاحهم، لذلك اعتمد على العلوم العقلية كمصدر ثانٍ لتجسيد إصلاحاته التّربوية، وتنمية الفكر الإنساني والنّفاذ إلى عقول ووجدان الطّلبة والشّيوخ والمؤطّرين سواء في المعاهد والمدارس أو في الأوساط الاجتماعية والمرافق المختلفة، كالمساجد والمكتبات والمراكز الثّقافية والإدارية وغيرها مِنَ الفضاءات لإيصال أفكاره الإصلاحية وتجسيدها.

لقد كان التّوجّه العقلاني للشّيخ محمّد عبدَه نتاج تأثّره ببعض الشّيوخ والأساتذة الذين شجّعوه على دراسة العلوم العقلية أمثال: درويش الخضر ومحمّد البسيوني وحسن الطّويل وجمال الدّين الأفغاني، فتضلّع على أيديهم في علوم المنطق والفلسفة والكلام، ثمّ اتّخذها وسيلة لتعميق فهمه للعلوم النّقلية، وليُدَرِّس العلوم العقلية للنّاشئة ويربّيهم على إعمال عقولهم بالتّدبّر في القرآن الكريم والنّظر في الكون ليقوّي العقيدة الصّحيحة في نفوسهم ويحقّقوا بذلك العبودية لله وحده.

إنّ اعتبار الشّيخ محمّد عبدَه العقلَ مِنَ المصادر المعتمَدة لفهم القرآن الكريم وتطبيق إصلاحاته التّربوية، كان انطلاقا مِنْ إشادة الإسلام بالعقل والدّعوة إلى تحكيمه والاسترشاد به، وتعريضه بأهل الكتاب الذين فرضوا على العامّة قراءة كتبهم دون إعمال عقولهم، فلم يفهموا شرائعهم، ووقفوا عند الألفاظ دون المعاني، بدليل قوله تعالى:﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة البقرة]، فرفع القرآن الحَجْرَ عن عقول المتديّنين وحضّهم على التّدبّر وإعمال عقولهم لفهم كتاب ربّهم، وأشار إلى المسلمين الذين اتّبعوا نهجهم وعطّلوا عقولهم كما في قوله تعالى:﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ ﴿٢١﴾﴾[سورة لقمان]، وذكر بأنّ الله تعبّدنا بتدبّر القرآن الكريم للاهتداء به.[3]

---

[1] ينظر: محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، مصدر سابق: ص50و51.

[2] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص114.

[3] ينظر: محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، المصدر السّابق: ص143و144.

لقد قامت مدرسة الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية على مصدرَيْن أساسيَيْن هما المصادر النّقلية التي لا غنى عن إعمال العقل بالتدبّر فيها لفقهها والعمل بها، وعلى مصادر عقلية خادمة لها لتجسيد إصلاحاته التّربوية التي جعلها مقدّمة لإصلاح الميادين الأخرى وتحقيق الإصلاح الشّامل، لذلك جعل العلوم العقلية مِنْ مصادره في الإصلاح التي وظّفها لفهم كتاب الله تعالى والتّأمّل في الكون والاستفادة مِنَ العلوم الإنسانية لتنمية العقل البشري الذي أصابه الرّكود، فلم يكن الشّيخ محمّد عبدَه بِدْعًا مِنَ العلماء الذين بادروا إلى تعلّمها وتعليمها، وتَرَكَ آثارا علمية شاهدة على إبداعاته كابن سينا وابن رشد والفارابي وابن تيمية وغيرهم مِنَ الذين أثّروا في النّاس وأقنعوهم وأصلحوا شأنهم، فكان موقفه واضحا مِنْ تلك العلوم تعلّما وتعليما في وسط كان يسيطر عليه بعض شيوخ الأزهر المتنفّذين المعروفين بالجمود والتّقليد الذين اتّهموه وكلّ مَنْ تعلّمها ودعا إليها بالزّندقة والكفر.

إنّ الآثار التي خلّفها الشّيخ محمّد عبدَه، تدلّ على تضلّعه في الفلسفة وعلى انتهاجه مسلك الفلاسفة في توظيف المنطق وبعث الاهتمام به، وهو ما ظهر جليّا في شرحه لرسالة الواردات ورسالة التّوحيد ومحاضراته التي شرح فيها مقدمة ابن خلدون ومقالاته التي نشرها في الصّحف المصرية.[1]

ففي مقال له بعنوان: العلوم الكلامية والدّعوة إلى العلوم العصرية، الذي كتبه الشّيخ محمّد عبدَه وهو طالب في جامع الأزهر في جريدة الأهرام في العدد 36 سنة 1877م، دعا إلى تعلّم العلوم الكلامية والعلوم العصرية، ودافع عن دراسة المنطق والفلسفة التي تهجّم عليها المحافظون، فأشاد فيه بهذَيْن العَلَمَيْن اللّذَيْن صنّف فيهما بعض أفاضل العلماء المسلمين، وأرشد إلى أنّ علم المنطق حقيق بأنْ يُتّخذ وسيلة لجميع العلوم، وأنّه لا يَعْدِل عن طلبه إلّا جاهل[2]، وذكر فيه أنّ العلوم المنطقية تؤيّد العلوم الكلامية التي تأرجح حكم تعلّمها عند العلماء المسلمين بين فروض العين وفروض الكفاية، فدحض بذلك مزاعم القائلين ببدعية دارسيها وزندقتهم، وبرهن على أنّها علوم دُرِّست في جامعات الشّرق الإسلامي وغربه، وقال بأنّها علوم غُذِّيَت بالإسلام ما يزيد عن ألف سنة.[3]

لقد أشاد الشّيخ محمّد عبدَه بعلم المنطق ودوره في بلوغ الحقائق اليقينية وغربلة الأفكار، ودوره في تحصيل العلوم النّافعة والإحاطة بها فقال: "إنّ المنطق هو الوسيلة الأساسية لبلوغ الحقّ واليقين، وأنّ العلوم المنطقية إنّما وُضعت لتقويم البراهين، وتمييز الأفكار غثّها مِنَ السّمين، وتبيين كيف تتركّب المقدّمات لإنتاج المطلوب بعد البيان، وأيُّ مقدّمة يصحّ أنْ تُؤخذ في البيان وأيُّها يجب أنْ يُقذف ويُطرح، فهذا علمٌ حقيقٌ بأنْ يُتّخذ سلّما لجميع العلوم، ولا يَعدل عن طلبه إلّا جهول ظلوم، والعلوم الكلامية إنّما هي أحكام لتأييد القواعد الدّينية بالأدلّة العقلية القطعية، حتّى يحقّ لممارس تلك العلوم أنْ يَقتبس نور تلك المطالب مِنْ تلك البراهين ويُقنع بذلك الطّالِبِين ويَردع المنكرين".[4]

---

[1] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص114.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الأستاذ، مصدر سابق: ج3، ص15.

[3] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، المرجع السّابق: ص36و37.

[4] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج2، ص38.

لقد تعلّم الشّيخ محمّد عبدَه علم المنطق ونبغ فيه وعلّمه وأشاد بمعلّميه ومتعلّميه، نظير ما عاينه مِنْ مخرجاتِ هذا العلم على طالِبِيه مِنْ كمالاتٍ عقلية وسدادٍ في الرّأي ونجاعةٍ في الإصلاح، بعدما دعا المعلّمين إلى دراسته والإلمام به لتربية طلبة العلم وتنمية التّفكير السّليم لديهم.

إنّ دعوته إلى دراسة المنطق وجَعْلِهِ وسيلة للدّفاع عن الإسلام وتحرير الفكر العربيّ والإسلاميّ وإيقاظه؛ لأنّ به وبالرّوح العلمية يمكن البحث عن الحقّ والوصول إليه والاستدلال عليه، كما أنّ حَثَّه الأزهريّين وغيرهم إلى دراسة المنطق، ودفاعه عن تعلّمه لبلوغ الحقّ واليقين، لكونه آلة قانونية تضبط الفكر وتعصمه مِنَ الضّلال، لهذا سمّاه العلماء المسلمون بعلم الميزان[1]، كما أنّ تدريس المنطق يساعد في حلّ المشاكل التّربوية ويَستدعي مِنَ المعلّمين المربّين وضع خطّة منظّمة والتّعرّف على الخطوات المنطقية التي يجب السّير وفقها للحصول على النّتيجة الصّحيحة.[2]

وبعدما ذكر حُكم تعلّم المنطق عند أبي حامد الغزالي، ساق ما كتبه الغزالي لأحد الرّجال الجرمان الذين أشهروا إسلامهم قائلا له: "نحن لا نتجنّب وزن عقائدنا بالميزان المسمّى بالمنطق، ولا نقبل اعتقادا يناقض العلوم المتعارفة كالمبرهنة في فَنَّيْ الحساب والهندسة، مِنْ أنّ الكلّ أعظم مِنَ الجزء، وأنّ الشّيء لا يكون غير نفسه، وأنّ الشّيء الواحد لا يكون واقعا وغير واقع في آن واحد".[3]

فكلام أبي حامد الغزالي يدعو إلى ضرورة الاحتكام إلى علم المنطق للوصول إلى نتائج صحيحة انطلاقا مِنْ مُسلّمات ومُقدّمات صحيحة وفق روح الشّريعة الإسلامية.

وحول علم الكلام الذي مَلَكَ ناصيته ودعا إلى توظيفه لتأكيد مبادئ الإسلام، قال الشّيخ محمّد عبدَه: "والعلوم الكلامية إنّما هي أحكام لتأييد القواعد الدّينية بالأدلّة العقلية القطعية، حتّى يحقّ لممارس تلك العلوم أنْ يقتبس نور تلك المطالب مِنْ تلك البراهين، ويُقنع بذلك الطّالبين ويَردع المنكرين على وجه لا يكون فيه إثبات الشّيء بنفسه، ولا تنزيل العقل عن درجته في إدراكه وحسّه"، وبالنّسبة إلى إعمال الفكر وتوظيفه في نطاقه، دعا إلى ذلك قائلا: "ويا عجبا إذا لم نصرف الفكر في تقويم البراهين وتسديدها، وكيفية الوقوف على الحقائق وتحديدها، ففي أيّ شيء نصرفه! فإنّه إنْ ضلّ عنّا رشادنا، وغاب سدادنا، فهل بشيء سوى الدّليل نعرفه؟".[4]

لقد أشار الشّيخ محمّد عبدَه إلى أنّه ينبغي على المشتغلين بالعلوم الكلامية توظيف العقل في فهم الأدلّة القطعية لأجل تثبيت قواعد وكلّيات الدّين الإسلامي أمام المشكّكين والطّاعنين فيها دون الحطّ مِنْ مكانة العقل السّامقة التي كرّم الله بها الإنسان، وأكّد على جدوى دراسة العلوم الكلامية والاستعانة بها في تغذية الإصلاح التّربوي وتجسيده بصورة صحيحة تحقّق مقاصده السّامية.

---

[1] ينظر: أنور الجندي، اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار، مرجع سابق: ص131و132.

[2] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص111.

[3] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج2، ص40.

[4] المصدر نفسه: ج2، ص38و39.

الفرع الثّالث: العلوم الإنسانيــة

لم يعتمد الشّيخ محمّد عبدَه في إصلاحاته التّربوية على العلوم الفلسفية والمنطقية والكلامية فقط للاستفادة منها واتّخاذها مصادر لإصلاحاته، وإنّما اعتمد أيضا على علوم إنسانية أخرى لصيقة بالنّفس البشرية على غرار علم النّفس وعلم الاجتماع وعلم التّربية والتّاريخ وغيرها، لأهمّيتها البالغة عند المصلحين التّربويّين، وقد كان له فيها رصيد علميّ ومعرفيّ كبير جسّده فيها.

وجعل العلوم الإنسانية أحد مراجعه الهامّة في الإصلاح لإحداث نهضة واعدة في المجتمع المصريّ وفي العالم العربيّ والإسلاميّ، فهذه العلوم تعدّ مِنَ الضّروريات في المجالات الاجتماعية التي تزداد تعقيدا يوما بعد يوم، بل إنّها تدخل في جميع ميادين الإصلاح لعلاقتها المباشرة بالإنسان، كما أنّها تكتسي طابع الأولوية والاهتمام عند ذوي الاختصاص، بل يوجد في القرآن الكريم والسنّة النّبوية ما يؤصّلها في شتّى جوانب الحياة الإنسانية، وكشاهد على اهتمام الشّيخ محمّد عبدَه بها؛ دعوته طلبة العلم عموما وطلبة الأزهر خصوصا إلى دراسة علم الاجتماع.[1]

إنّ حثَّ الشّيخ محمّد عبدَه الأزهريّين على تلقّي العلوم الإنسانية والتّضلّع فيها كان لغرض سبر أغوار النّفس البشرية ومعرفة خفاياها وتوجيهها لتحقيق الإصلاح المنشود، ومدافعة بعض شيوخ الأزهر الذين ركنوا للجمود وأَوْغَلوا في التّقليد وقاوموا التّجديد والتّطوّر وناهضوا الإصلاح.

لقد كان لملازمته لأستاذه جمال الدّين الأفغاني تأثير كبير على تفكيره وعلى تغيّر اهتماماته العلمية والمعرفية، حيث زاوج بين العلوم الدّينية والإسلامية التي أخذها مِنَ الأزهر بطريقة التّلقين والسّرد والحشو التي لم يكن يحبّذها، وبين علوم الحكمة والفلسفة والكلام، وكذا العلوم العصرية المتناغمة مع الإصلاح التّربوي الذي شقّ طريقه فيه، فكانت جهوده حثيثة في طلب العلوم والمعارف الأخرى التي تمكّن مِنْ تحصيلها، كعلوم الأخلاق وعلم النّفس وعلم الاجتماع الإنسانيّ والتّاريخ والتّربية.[2]

وقد دعا الشّيخ محمّد عبدَه المسلمين خلال مسيرته الإصلاحية إلى دراسة العلوم العصرية واعتبرها واجب شرعي، وأنّ دراستها امتداد لحديث القرآن عن الكون، وأنّ نتائج الجهود العقلية هي دعم للإيمان الصّحيح ودمغ للإلحاد، والعلماء الذين يبتعدون عن هذه الدّراسات هم أنصاف أمّيّين.[3]

لذلك أَوْلَى الشّيخ محمّد عبدَه العلوم الإنسانية عناية بالغة بدراستها والإحاطة بها وتوظيفها في إصلاحاته التّربوية التي آتت أُكُلَها، وقد تجلّت نجاعتها في فهمه لمدعوّيه، وتأثيره فيهم وإقناعهم، وتمكّنه مِنْ إصلاحهم وتغييرهم، حتّى برز عدد غير يسير منهم بعد وفاته؛ أفرادا وجماعات إيجابيّين وفاعلين في بناء مجتمعاتهم، فالشّيخ محمّد عبدَه حاول قدر الإمكان أنْ يكون واقعيا بتنويع مصادر إصلاحاته التّربوية مِنْ خلال مزاوجته بين المصادر النّقلية المقدّسة المتمثّلة في القرآن الكريم والسنّة النّبوية الشّريفة، وبين فتوحات العقل البشري؛ مِنْ علوم عقلية وإنسانية، وتوفيقه بينهما بحسن توظيفها لخدمة شؤون الإنسان الدّنيوية والأخرويّة بما يوافق الوحي ولا يناقضه.

---

[1] ينظر: أنور الجندي، اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار، مرجع سابق: ص132.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص104.

[3] ينظر: محمّد الغزالي، علل وأدوية، مرجع سابق: ص84.

المطلب الثّالث: التّجارب الإنسانية

لمّا كانت أقوال الإنسان وأفعاله نسبية يعتريها النّقص والخطأ، فإنّه يسعى إلى تحقيق الكمال فيها بالبحث عن مصادر لتحسينها وتطويرها، وفي هذا السّياق سعى الشّيخ محمّد عبدَه بكلّ ما آتاه الله مِنْ حكمة وعلم إلى تقويم جهوده الإصلاحية في المجتمع المصريّ وفي محيطه العربيّ والإسلاميّ مِنْ خلال الاعتماد على الوحي، ثمّ بما جاد به العقل البشريّ مِنْ علوم وتجارب بالاستفادة منها وتوظيفها بحكمة لإنجاح إصلاحاته التّربوية وتحقيق أهدافه القريبة وغاياته البعيدة، وعليه كان الحديث في هذا المطلب عن ثالث المصادر التي اعتمدها الشّيخ محمّد عبدَه لمباشرة إصلاحاته المتمثّلة في الاستئناس بالتّجارب الإنسانية والأخذ منها، لخدمة مجتمعه وأمّته العربيّة والإسلامية للنّهوض بها وقيادتها إلى برّ الأمان، وذلك بالحديث عنها في فرعين اثنين هما: التّجارب العربية والإسلامية، والتّجارب الغربية الأوروبّية التي فرضتْ نفسها وغَلَبَتَها إقليميّا وعالميّا.

الفرع الأوّل: التّجارب العربية والإسلاميــة

لم يكن الشّيخ محمّد عبدَه منغلقا على نفسه، فقد بلغتْ شهرته الآفاق وصار أشهر مِنْ نار على عَلَمٍ في العلم والمشيخة والإفتاء والسّياسة والفكر، كما أنّه لم يكن منغلقا على دينه رغم كمال الإسلام واشتماله على كلّ ما يتعلق بشؤون الدّنيا والآخرة، وما يخصّ الإنسان والحيوان والجماد لقول الله تعالى:﴿مَّافَرَّطۡنَافِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ٣٨﴾[سورة الأنعام]، فجعل كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ﷺ على رأس مصادره في الإصلاح التّربوي، لإصلاح أمّته في جميع المجالات والارتقاء بها إلى مصافّ الأمم المتطوّرة، وإخراجها مِنَ التّخلف والضّعف والذلّ الذي رتعتْ فيه قرونا، كما استثمر تراث أمّته بالاستفادة منه وبما حقّقته مِنْ نجاحات باهرة في سالف عصورها، وما صنعته مِنْ أمجاد وما خَلَّفته مِنْ مآثر وما قدّمتْه مِنْ انجازات شهدتْ بها نخب الغرب المنصفة.

لقد ساهم علماء العرب والمسلمين على مرّ العصور في تقدّم عجلة الاكتشافات وازدهار المعارف المختلفة، فقدّموا العديد مِنَ الاختراعات التي يُضرب بها المثل في وقتنا الحالي، سواء في الرّياضيات أو الفلك أو الفيزياء أو في غيرها مِنَ العلوم، ومِنْ أبرز العلماء الذين احتلّوا مكانة عالية في عالم الاختراعات والاكتشافات؛ ابن الهيثم الذي اخترع الكاميرا، وجابر بن حيّان الذي اخترع أجهزة التّبخير والتّقطير والأكسدة، وابن النّفيس الذي اكتشف الدّورة الدّموية، وابن حزم الذي اكتشف بأنّ الأرض تدور، والإدريسي الذي صمّم كرة أرضية وضع عليها جميع بلدان العالم، كما اخترع الجزري[1] أوّل إنسان آلي(روبوت) عندما طلب منه الخليفة صنع آلة بديلا عن الخدم[2]، وغيرها مِنَ الاكتشافات الأخرى الكثيرة التي طوّرها إنسان اليوم، وساهم بها في تيسير حياته وتحقيق رفاهيته ورقيّه وازدهاره.

---

[1] **أبو بكر الجزريّ(1116م/1206م):** هو أبو بكر عبد العزيز بن إسماعيل بن الرزاز الجزري، مهندس مِنْ علماء القرن الثّاني عشر الميلادي، أصله مِنْ أرض الجزيرة بين دجلة والفرات، مِنْ كبار المخترعين في الميكانيك، مِنْ أشهر كتبه: الجامع بين العلم والعمل النّافع في صناعة الحيل، وصف الكثير مِنَ الآلات الميكانيكية المختلفة مثل: الرّافعة والنّاقلة كما وصف تركيب السّاعات، اخترع ساعات تعمل بفتائل القناديل وساعات مائية وغيرهما، ينظر: سطور:https://sotor.com ، تاريخ الزيارة: الجمعة: 2021/02/19م، في الساعة: 11:30.

[2] ينظر: موقع موضوع: https://mawdoo3.com، تاريخ الزيارة: الجمعة: 2021/02/19م، في الساعة: 11:00 صباحا.

وفي مجال التّربية والتّعليم سبق المسلمون غيرَهم في تأسيس نظام تعليميّ حديث، فقد ظهرتْ أُولى الجامعات منذ أكثر مِنْ ألف عام مضتْ عبر المساجد، وكان العِلم الدّيني والعِلم الدّنيوي يُدرَّسان جنبا إلى جنب، إذ تُعَدُّ فاطمة بنت محمّد الفِهري[1] مؤسِّسَةُ أوّل جامعة في تاريخ العالم وهي جامعة القرويّين بمدينة فاس بالمغرب، كما كانت المؤسّسات الخيرية الإسلامية أو الأوقاف أوّل مَنْ أرسى نظام المنح الدّراسية لدعم الطّلبة ومساعدتهم على تحمّل أعباء الدّراسة.[2]

ومِنْ مبتكرات العرب والمسلمين التي توصّلوا إليها وأرشد الشّيخ محمّد عبدَه إلى الاستفادة منها وتوظيفها في الحياة العلمية والعملية قبل التّطلّع إلى ما في أيدي الغرب -خصوصا مع ما شاع في أوساط العرب والمسلمين وفي أوساط الغرب-؛ بأنّ التّجربة في البحث العلمي منهج غربيٌّ، وأنّ الغرب هو أوّل مَنْ بنى معارفه عليها في ميدان البحث التّجريبيّ في حضارته المادّية.

والحقيقة أنّ فلاسفة العرب اعتمدوا في بناء معارفهم على المشاهدات والتّجارب ولم يكتفوا بالمقدِّمات العقلية في العلوم ما لم تؤيّدها التّجربة، حتّى نقل غوستاف لوبون[3] عن أحد الفلاسفة الأوروبّيّين أنّ القاعدة عند العرب هي: جرّب وشاهد ولاحظ تكن عارفا، وعند الأوروبّيّين إلى ما بعد القرن العاشر الميلادي هي: اقرأ في الكتب وكرّر ما يقول الأساتذة تكن عالما، لذا صار مِنَ الواجب على المصريّين وغيرهم مِنَ الشّرقيّين أنْ ينظروا كيف انقلبتْ الأحوال وما أعقبها مِنْ سوء المآل[4]، وقد ذكر الشّيخ محمّد عبدَه بأنّ فلاسفة العرب تميّزوا عن فلاسفة الأمم الأخرى ببناء معارفهم على المشاهدات والتّجارب وعدم الاكتفاء بالمقدّمات العقلية في العلوم ما لم تؤيّدها التّجربة.[5]

لم يُغفِل الشّيخ محمّد عبدَه تاريخ أمّته المشرق الثّري وما يزخر به مِنْ ذخائر تاريخية وحقائق علمية نفيسة، فرجع إليه يأخذ منه لإصلاح واقع أمّته البئيس، فاستثمره ونوّه به وأرشد إليه، وإذا لم يجد مبتغاه فيه عرّج على الفكر الغربيّ وأخذ منه ما يتوافق مع الفكر العربيّ والإسلاميّ.

إنّ التّجربة التي اعتبرها الكثير مِنَ المسلمين بأنّها منهج غربيّ، هي حقيقة قرآنية جسّدها الله في قوله:﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا

---

[1] **فاطمة الفهرية(ت265هـ/878م):** هي فاطمة بنت محمّد الفهرية القرشية، امرأة مسلمة عربية مِنْ ذرّية عقبة بن نافع الفهري القرشي مؤسّس مدينة القيروان، عُرفتْ بأمّ البنين، وهي مُؤَسِّسَة جامعة القرويّين أوّل وأقدم جامعة بالعالم بقيتْ لقرون طويلة منارة للسّالكين، شيّدتها في عهد الأمير يحيى بن محمّد بن إدريس الحسني سنة 245هـ/859م، ينظر: موقع الباحثون المسلمون: https://muslims-res.com، تاريخ الزيارة: الجمعة: 2021/02/19م، في الساعة: 12:00 زوالا.

[2] ينظر: إسلام أون لاين: https://archive.islamonline.ne، تاريخ الزيارة: الجمعة: 2021/02/19م، في الساعة: 11:30 صباحا.

[3] **غوستاف لوبون:(Gustave Le Bon)(1841م/1931م):** طبيب ومؤرّخ وفيلسوف فرنسي، أنصف الأمّة العربية والحضارة الإسلامية وامتدحها، وكان يرى فضلها على العالم الغربي، وأقرَّ بأنّ المسلمين هم الذين مدّنوا أوروبّا، مِنْ مؤلّفاته: حضارة العرب، الحضارة المصرية، حضارة العرب في الأندلس، روح الاجتماع، ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة: https://ar.wikipedia.org، تاريخ الزيارة: الاثنين: 2021/02/15م، في الساعة: 22:30 ليلا.

[4] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص323، وينظر: الإمام الشّيخ محمّد عبدَه، الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية، مصدر سابق: ص110، وينظر: محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، مصدر سابق: ص105.

[5] ينظر: عاطف العراقي، كتاب الإسلام دين العلم والمدنية للشّيخ محمّد عبدَه من خلال منظور نقدي، ضمن كتاب: الشّيخ محمّد عبدَه مفكرا عربيا ورائدا للإصلاح الدّيني والاجتماعي، بحوث ودراسات عن حياته وأفكاره، لعاطف العراقي، مرجع سابق: ص35.

رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[سورة الأنعام].

في هذه الآيات القرآنية استوفى نبيّ الله إبراهيم عليه السّلام خطوات المنهج التّجريبي الخمس، فكانت الخطوة الأولى هي: المشاهدات ووضع الملاحظات ماثلة في قوله تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، والثّانية هي: فرض الفرضيات في قوله تعالى:﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾، والثّالثة هي: الإجابة التّقريبية على الفروض والملاحظات في قوله تعالى:﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ﴾، والرّابعة هي: الاستقراء في قوله تعالى:﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ﴾، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ﴾، ثمّ الخطوة الخامسة والأخيرة؛ وهي النّتيجة في قوله تعالى:﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وهذا دليل على أنّ المنهج التّجريبي منهج قرآني، وأنّه غير صحيح ما يدّعيه الغرب بأنّ التّجربة مِنْ مبتكراته.[1]

لقد بلغ مِنِ احتقار العرب والمسلمين لأنفسهم وانبهارهم بالحضارة الغربية، استساغتهم لفكرة التّفوّق المطلق للغرب علميّا وحضاريّا، وتلقّفهم لما يروّجه مِنْ أكاذيب ولما يخفيه مِنْ حقائق علمية ثابتة، جعلتِ العرب يحملونها وينوبون عنه في نشر فكرة أنّ المنهج التّجريبي مِنْ إبداعاته، وأنّ المسلمين لم يعودوا يعوّلون على المشاهدة والتّجربة، وحُرِّفت مُسَلَّمَات التّاريخ، وقُلبتْ تلك الإشاعات إلى حقائق، لذا ينبغي على المصلح ألّا يحقر تاريخ وتراث أمّته العلميّ والفكريّ والثّقافيّ والحضاريّ، وألّا يتوانى عن إحيائه وإصلاحه وتطويره تحت أيّ مبرّر، فالنّهوض بالأمّة لا يكون إلّا بالأخذ بأسباب التّقدم والازدهار انطلاقا مِنْ مرجعيّتها الدّينية وموروثها الحضاري، وأمّا تخلُّفها فيكون بتخلّيها عن مرجعيّتها المقدّسة وتنكّبها لسنن الله الغلاّبة التي لا تحابي أحدا.

وبرغم الضّعف والتّخلف والاستبداد والاستعمار وكلّ عوامل الانحطاط والسّقوط التي ألمّت بالأمّة العربية والإسلامية، وما يقوم به الأوروبيّون مِنْ تكالب عليها باستغلالها ومحاولة إذلالها أكثر، إلّا أنّ تلك العوامل لم تمنع الشّيخ محمّد عبدَه مِنَ الاعتراف بأنّ مصر والأمّة العربية والإسلامية تعيش غفلة وسباتا، وأنّها تحتاج إلى مَنْ يوقظها ويرشدها إلى مكامن عزّتها وسؤددها، ويأخذ بيدها إلى حيث خَلَاصُها وخَلَاصُ الإنسانية معها وانتشالها مِنَ البؤس والشّقاء، واسترجاع عزّتها وكرامتها بالرّجوع إلى دينها وكتاب ربّها، والرّجوع إلى تجارب وإنجازات علمائها المسلمين الذين استفاد الغرب مِنْ فتوحاتهم العلمية في مجالات الفلك والطّبّ والكيمياء والجبر والهندسة والحساب والجغرافيا وغيرها مِنَ العلوم التي صارتْ تأخذها منه لمّا دارت الدّائرة عليها وركنت للكسل والإمّعية والتّبعية للأوروبيّين.

إنّ تاريخ العرب والمسلمين المشرق أكبر شاهد على حضارتهم الرّاقية وعلمهم النّافع وتفوّقهم في العلوم الطّبيعية والتّجريبية ومختلف الاكتشافات التي بفضلها خرجت الأمم الأوروبيّة مِنْ عصور الظّلام وحقّقت التّحضّر والتّمدّن باستثمار حضارة المسلمين والاستفادة منها، والحقيقة التّاريخية

[1] ينظر: أحمد محمود عيساوي، دور مناهج البحث العلمي في تجديد درس السنّة النّبوية المطهّرة، مجلة الوعي الإسلامي الكويتية، العدد: 631، ربيع الأوّل 1439هـ الموافق لـ: نوفمبر ديسمبر 2017م، ص53و54.

التي لا مرية فيها والتي شهد بها علماؤهم ومفكّروهم المنصفون، تؤكّد أنّ العلوم التي أخذها المسلمون مِنَ اليونانيّين كانت ميّتة في دفاترهم مقبورة في خزائن مكتباتهم لا حَظَّ للإنسانية منها، ولمّا صارتْ بين أيدي العرب والمسلمين بثّوا فيها الحياة وغَذَّوْا بها الأرواح فأسهمتْ في الإعمار والإصلاح[1]، وقد شهدت المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه[2] بموضوعية منقطعة النّظير بعد دراستها لحضارة العرب والمسلمين، بأنّ الغرب لم يعرفوا إلّا القليل عن جهود العرب الحضارية الخالدة ودورها في نموّ حضارة الغرب، ثمّ شكرت العرب على فضلهم على الغرب، وأوعزتْ جحود الغرب لفضل العرب عليه إلى تعصّبه الدّينيّ الأعمى وجهله الأحمق.[3]

الفرع الثّاني: التّجارب الغربية الأوروبّيــة

استند الشّيخ محمّد عبدَه أيضا إلى تجارب الأمم الغربية والأوروبّية تحديدا، وأَخَذَ منها ما رآه مفيدا مِنْ علوم وإنجازات وتجارب، واستلهم منها ما هو جدير بخدمة مجتمعه المصريّ وأمّته العربية والإسلامية لتربيتها وتعليمها وتنويرها وتثقيفها وتطويرها وإصلاح الاختلالات التي كرّستها السِّنون المتعاقبة وما اكتنفها مِنْ جمود وتقليد وتخلّف، فعمل على تجسيد إصلاحاته مركّزا جهوده في تحقيق الإصلاحات التّربوية التي علّق عليها آمالا كبيرة، فاتّجه إلى الغرب الأوروبّيّ للاستفادة منه فيما يلي:

أوّلا: الاستفادة مِنْ انجازات الدّول الغربية الأوروبّيــة

لم يقتصر الشّيخ محمّد عبدَه على كتاب الله تعالى وسنّة نبيه ﷺ في الدّعوة إلى الإسلام والتّمكين له والتّأصيل لجهوده الإصلاحية لبلوغ الرّشاد والنّجاح، وتحقيق الصّلاح والإصلاح للحياة البشرية التي استمرأت لوثات الشّرائع المحرّفة والتّشريعات الوضعية المليئة بالانحراف، ليتطلّع أيضا إلى ما في أيدي الأمم الأوروبّية مِنْ فكر وحضارة، وينتقي منها ما يحقّق لأمّته الإحياء والصّلاح والنّهضة، حتّى تلحق بركب الأمم المتّحضرة وتتفوّق عليها وتقودها إلى الفلاح.

لقد استلهم الشّيخ محمّد عبدَه مِنَ التّجارب الإنسانية الأوروبّية، بعد اطّلاعه عليها ومعرفته الواسعة بإنجازاتها ووقوفه على مكامن قوّتها، وإلمامه بالتّطوّرات العلمية الحديثة في زمانه، فتأثّر بالحياة الغربية وأخذ يجتهد في تعلّم اللّغة الفرنسية والسّفر إلى أوروبّا عدّة مرّات ومجاورة الأوروبّيّين هناك، والاستفادة مِنْ مخالطاته لهم وسياحاته في بلادهم ومِنْ مطالعاته لكتبهم في مختلف العلوم والفنون، وهو ما ظهر جليا في أفكاره وكتاباته ودعوته الإصلاحية.[4]

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص325.

[2] **زيغريد هونكه(Sigrid Hunke)(1913م/1999م):** مستشرقة ألمانية، درستْ علم مقارنة الأديان والفلسفة وعلم النّفس والصّحافة، حصلت على الدّكتوراه عام 1941م، عُرفتْ بكتاباتها في الدّراسات الدّينية وتاريخ الأديان، تعلّمت اللّغة العربية ودرست الإسلام وأُعجبتْ به حتّى صارت لها نظرة معتدلة تجاهه، فشنّ عليها الكُتّاب الغربيّون حمْلات شرسة، أسلمتْ قُبيل وفاتها، نالت العديد مِنَ الجوائز الأكاديمية والتّقديرية، وكرّمها بعض الرّؤساء والأمراء العرب، مِنْ أشهر كتبها: شمس العرب تسطع على الغرب، الله ليس كذلك، ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة: https://ar.wikipedia.org، تاريخ الزيارة: الخميس: 02/18/ 2021م، في الساعة: 12:30 زوالا.

[3] ينظر: زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب -أثر الحضارة العربية في أوروبّة-، نقله عن الألمانية: فاروق بيضون وكمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه: مارون عيسى الخوري، دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط8، 1993م، ص9.

[4] - ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص160.

دعا الشّيخ محمّد عبدَه المسلمين للاستفادة مِنْ تجارب الغرب، وحثّهم على طلب العلم وأرشدهم إلى أنّ الله عرض عليهم جميع ما في الكون وجعله بين أيديهم للتّدبّر فيه والانتفاع به، دون أنْ يُخْفِي انبهاره بمنجزات الحضارة الغربية ومدنيّتها وما حقّقته مِنْ قوّة وما حصّلته مِنْ علوم ومعارف، فرأى ضرورة سعي المسلمين إلى نشر العلوم والمعارف الغربية المفيدة في أوطانهم، كما حثّهم على التّحكّم في الصّناعات المتطوّرة حتّى يستطيعوا الدّفاع عن أنفسهم لقوله تعالى:﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [سورة الأنفال]، وحَثَّهم على دراسة العلوم الطّبيعية التي برع فيها الأوروبّيّون، لأنّهم إذا أرادوا التّغلّب على أعدائهم الذين أخذوا بأسباب القوّة، عليهم محاربتهم بسلاحهم، لذلك أوجب عليهم مباراتهم بصناعة المدافع والبنادق والسّفن البحرية والبرّية والهوائية وغيرها مِنَ الفنون والعُدَدِ العسكرية، وذلك لا يكون إلّا بإتقان العلوم الرّياضية والطّبيعية التي يجب على المسلمين تعلّمها.[1]

وقد كان سبّاقا في الأخذ بتجارب الأوروبّيّين والاستفادة ممّا برعوا فيه خصوصا في مجال التّربية، لذلك عمد إلى قراءة كتاب التّربية للفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر[2] وأخذ منه ما يناسب ويخدم التّربية والتّعليم في بلاده عن طريق تعلّم اللّغة الفرنسية التي اطّلع بها على كتاباتهم، ووجّه بذلك أمّته إلى عدم الاقتصار على تراثها التّربوي ودعاها إلى ضرورة الاطّلاع على العلوم العصرية الغربية والانتفاع بها وإضافتها لرصيد المسلمين دون احتقار تراثهم وتركه كما يفعل التّغريبيّون والحداثيّون.

ومع ذلك نبّه المسلمين إلى ضرورة الانطلاق مِنْ دينهم وتراثهم الكفيلان بتحقيق التّطوّر والتّقدّم لبناء حضارة قوية، وحذّرهم مِنَ الانبهار بالحضارة الغربية، وأمّا النّكسة التي لحقتِ المسلمين اليوم أمام تطوّر العالم الغربيّ فلا تمنع مِنِ استقدام منتجاته المادّية شريطة الالتزام بقيم الإسلام التي تهذّب أخلاقهم حتّى يسابقوا الأوروبّيّين ويَلْحقوا بهم في تحصيل العلوم المعارف وتحقيق التّمدّن.[3]

لقد عايش الشّيخ محمّد عبدَه واقعه بكل تفاصيله وتعرّف على محيطه الإقليميّ والعالميّ، واطّلع على انجازات الأوروبّيّين الذين قطعوا أشواطا كبيرة في التّحضر، فانتقى ما رآه صالحا وخادما لدينه وأمّته دون أنْ يتماهى في الغير أو يتنصّل مِنْ ثوابت أمّته متمثّلا قول رسول الله ﷺ: «**الكَلِمَةُ الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا**»[رواه التّرمذي][4]، فأخذ مِنَ الغرب بقدرٍ في إطار

---

[1] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص126- 128.

[2] **هربرت سبنسر:(Herbert Spencer)(1820م-1903م):** فيلسوف وعالم اجتماع وعالم تربية بريطاني، انشق عن الكنيسة الإنجليزية، وتمرّد على الأوضاع الاجتماعية، سمّاه الشّيخ محمّد عبدَه بشيخ الفلاسفة الاجتماعيّين، مِنْ مؤلّفاته: التّربية العقلية والأخلاقية والبدنية، أسس علم الحياة، وعلم النّفس، وعلم الاجتماع، والأخلاق، ينظر: مجلة المنار، مج12، ص805، وينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، ص160، وينظر: صحيفة المثقّف، العدد: 3927، بتاريخ: 2017/06/06م، قراءة في كتاب التربية العقلية والأخلاقية والبدنية، للأستاذ: حمزة الشافعي، المغرب، وينظر: المثقّف: http://ns1.almothaqaf.com، تاريخ الاطلاع: الثلاثاء: 2020/06/16م، في الساعة: 16:30، وينظر: https://ar.wikipedia.org، تاريخ الاطّلاع: الثلاثاء: 2020/06/16م، في الساعة: 16:30.

[3] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، المرجع السّابق: ص127.

[4] أخرجه التّرمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ج5، ص51، حديث رقم: 2687، وقال: "هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا مِنْ هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المخزومي يُضَعَّفُ في الحديث مِنْ قِبَلِ حِفْظِهِ"، وقال الألباني: ضعيف جدّا.

الانفتاح على الأمم والشّعوب الأخرى وتبادل الخبرات والمنافع لتحقيق التّواصل الإيجابيّ والاستخلاف في الأرض وعمارتها وخدمة الإنسانية وتحقيق الشّهود الحضاري لقوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ١٣﴾[سورة الحجرات]، لهذا أخذ مِنَ الأوروبّيّين ما رآه حسنا وأثنى عليه، وترك ما رآه قبيحا وشنّعه، وجعل الإسلام وتراث المسلمين مِنْ مصادره الأوّلية في الإصلاح، ثمّ تطلّع إلى ما في أيدي الغرب في إطار ما تسمح به أصول دينه، دون انتهاج سبيل التّغريبيّين المولعين بالغرب الذين فضَّلوا لوثات حضارته وقلّدوه في عاداته وأخلاقه، وأمّا ما تعلّق بالمجال العلميّ، أخذه منهم وحاكاهم في نشر التّعليم والاشتغال بالدّراسات العلمية، لأنّ الحكمة تقضي بضرورة الاقتباس منهم ما يوافق الفهم الصّحيح للإسلام[1]، لأنّ الأوروبّيّين لمّا كانوا ضعافا ومتخلّفين أخذوا عن المسلمين المتطوّرين ما يناسبهم، واستطاعوا الخروج مِنَ التّخلّف الذي رتعوا فيه قرونا طويلة.

وكمثال على اجتهاد الشّيخ محمّد عبدَه في الأخذ مِنَ الغرب في حدود ما تسمح به الشّريعة الإسلامية، حُكْمُ التّصويرِ وما فيه مِنْ خلاف بين الفقهاء بناء على الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ المُصَوِّرُونَ**»[رواه مسلم][2]، فهو يرى بأنّ الحديث قيل في أيّام الوثنية، وأنّ التّصوير كان يُتَّخذ إمّا للَّهو أو للتّبرّك وكلاهما محرّم، فرأى بأنّ العارضان قد زالا، لهذا عقَّب مبيّنا مقصد الشّريعة مِنْ تحريم التّصوير، وأنّ هذا الحُكْمَ ليس هذا مجاله باعتباره وسيلة لا أكثر فقال: "وبالجملة إنّه يغلب على ظنّي أنّ الشّريعة أبعد مِنْ أنْ تحرّم وسيلةً مِنْ أفضل وسائل العلم بعد تحقيق أنّه لا خطر فيها على الدّين لا مِنْ جهة العقيدة ولا مِنْ وجهة العمل"[3]، وهكذا أباح الشّيخ فنّ التّصوير الذي ظلّ الاعتقاد بتحريمه شائعا عند بعض الطّوائف حتّى اليوم.[4]

لقد أباح التّصوير بناء على أهليته للإفتاء وفقهه بمقاصد الشّريعة ومواكبته لتطوّرات الحياة، فرأى بأنّ تحريم التّصوير لا يستقيم بعدما صار مِنَ الوسائل الضّرورية في زمانه التي يسّرتِ الكثير مِنْ شؤون الإنسان الحياتية، وأنّه لا يشكّل خطرا على عقيدة المسلم ودينه، وأنّ ما قد يحصل مِنِ انعكاسات سلبية غير مرغوب فيها بسببه فهو استثناء لا يقاس عليه، قد يحصل حتّى في الواجبات والمباحات، فالعلم الذي أمر به الإسلام في قوله ﷺ: «**طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[رواه ابن ماجه][5] إذا وُظّف في غير محلّه صار سلاحا ذو حدّين فيه النّافع وفيه ضارّ.

لهذا كان الشّيخ محمّد عبدَه يأنس إلى المدنيّة الغربيّة ويأخذ منها ما يتّفق وأحكام الإسلام، كما كان يحثّ المعلّمين للسّير بسيرته وسلوك منهجه في التّعليم، فممّا قام به خلال مباشرته للإصلاحات التّربوية، دعوته المعلّمين إلى التّوفيق بين الإسلام والعلوم الحديثة ونظريّات المدنيّة الغربيّة.[6]

---

[1] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص160و161.

[2] أخرجه مسلم في كتاب: اللّباس والزّينة، باب: لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب، ج3، ص1670، حديث رقم: 2109.

[3] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج2، ص501.

[4] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، المرجع السّابق: ص161و162.

[5] أخرجه ابن ماجة في باب: فضل العلماء والحثّ على طلب العلم، ج1، ص151، حديث رقم: 224، وأخرجه محمّد ناصر الدين الألباني في: صحيح التّرغيب والتّرهيب، ج1، ص140، حديث رقم: 72، وقال حديث صحيح.

[6] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، مرجع سابق: ج2، ص698.

لقد كان القرآن الكريم مرجعه ومصدر اجتهاده حتّى ملأ تفسيره بالمعاني السّامية والمضامين العلمية المفيدة بلغة بسيطة وكلمات معبّرة وعبارات بليغة، جعلت أمراء البيان العربيّ أمثال شكيب أرسلان والبشير الإبراهيمي يُثنون عليه، وفي هذا قال أحمد أمين: "ولكنه يتقبَّل ما صلح مِنْ مبادئ المدنية الحديثة، ويدعو إلى الأخذ بها ما اتّفقتْ والإسلام...وهو في تفسيره يحاول التّوفيق بين الإسلام ونظريات المدنية الحديثة، ويتّبع طرقا مِنَ التّأمّل للتّوفيق بين الدّين ونظريات العلم، أكبر قيمة له في تفسيره أنّه كان يحيي العواطف، ويحرّك المشاعر، أكثر ممّا يستقصي بحث المسائل العلمية، فهو يتّجه إلى القلب أكثر ممّا يتّجه إلى العلم والعقل، متأثّرا في ذلك بطبيعة الدّين نفسه، أفادته سعة اطّلاعه على الفلسفة الإسلامية ثمّ اتّصاله بالثّقافة الغربية، وقراءته بعض أصولها، ورحلاته إلى أوروبّة، وملابسته لحياتها، ومقابلته لبعض فلاسفتها، وسماعه بعض محاضراتهم، أنْ ينظر إلى حال المسلمين نظرة إشفاق في عقيدتهم وأعمالهم، فيبثُّ كلّ ما يرى مِنْ إصلاحٍ حول تفسير آيات القرآن".[1]

ثانيا: الاستفادة مِنْ مؤلّفات وعلوم الأوروبّيّيــن

توجّه الشّيخ محمّد عبدَه إلى الإصلاح وجعل مِنَ التّربية الإسلامية أساسه فيه لتحقيق الشّهود الحضاريّ أمام الحضارة الغربية المتطوّرة لتحقيق التّميّز عنها بالاستخلاف والعمران في الأرض، والتّربيةُ بالنّسبة إليه تمثّل أنجع الوسائل لتحقيق غايات الإصلاح التي استوحاها مِنْ تديّنه بالإسلام ومعرفته به، وإلمامه بالثّقافة العربية والإسلامية، وانفتاحه على الفكر الغربيّ واطّلاعه عليه، فانتقى منه واجتهد في الجمع بين القواسم المشتركة الموجودة في الإسلام والموجودة في شرائع وثقافات الأمم الأخرى.

واقتبس الأفكار التّربوية مِنْ مفكّري الغرب ومتخصّصيهم ليطبّقها في مصر، وترجم كتاب التّربية لهربرت سبنسر للإحاطة بالمناهج التّربوية الحديثة في زمانه وتعميق إصلاحاته التّربوية[2]، وأثرى مكتبته ورصيده الفكري بمطالعة مؤلّفات رينان وتولستوي، وجون جاك روسو، وشتراوس وغيرهم[3]، فقرأ كتبهم وحرص أنْ يأخذ منها المضامين التّربوية ذات الرّوح الإسلامية[4]، مِنْ ذلك تبنّيه للمضامين المتوافقة مع الإسلام التي أوردها سبنسر في كتابه، كقوله: "وإذا كان الدّين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال فلِمَ العدول عنه إلى غيره"[5]، فالإسلام جاء ليغرس العقيدة الصّحيحة في النّاس، ويهذّب أخلاقهم حتّى يقوموا بالأعمال الصّالحة، لذلك قَرَنَ الله بين الإيمان والعمل الصالح في الكثير مِنَ النّصوص القرآنية كما في قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾ [سورة الكهف]، وفي الآية دعوة إلى الإيمان الصّادق والعمل الصّالح، فقرأ الشّيخ محمّد عبدَه كتب سبنسر عميد علم التّربية في القرن التّاسع عشر الذي بلغت شهرته الآفاق، وعرف مكانته العلمية

---

(1) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص330.

(2) ينظر: أنور الجندي، اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار، مرجع سابق: ص134.

(3) ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص27.

(4) ينظر: زينب محمود الخضيري، التّطور والإصلاح عند محمّد عبدَه، ضمن كتاب: الشّيخ محمّد عبده-بحوث ودراسات عن حياته وأفكاره، لعاطف العراقي، مرجع سابق: ص81و82.

(5) محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، مصدر سابق: ص70.

ونظرته السّوية للتّربية مِنْ خلال أفكاره وملاحظاته وانتقاداته والبدائل التي قدّمها، وتقسيماته للتّربية، وكيفية تجسيدها في الواقع، فوجدها متناغمة مع مبادئ الإسلام وميزان العقل البشريّ.

ولمّا أُعجب بأفكار سبنسر التّربوية زاره في إنجلترا[1]، وعند وصوله إليها أرسل إليه عربته لاستقباله في المحطّة[2]، ثمّ اجتمع به في بيته وناقشه في أمور التّربية، وترجم كتابه إلى العربية وأخذ به في إصلاحاته التّربوية تقديرا وعرفانا منه لسبنسر وكتابه، كما شهد له مفكّرون ونقّاد غربيّون بأنّه فيلسوف وعالم في التّربية والنّفس والاجتماع، قال فيه الاقتصاديّ الشّهير جون ستوارت مل: "إنّه دَائِرَة المعارف ومحيط العلوم"، وقال فيه داروين: "فيلسوفنا الكبير"، وسمّاه الأمريكي ورد بيتشر: "مَلِكُ الفلاسفة في هذا العصر"، ووصف مكوش الأمريكي عقله بقوله: "إنّ عقله لجبّار العقول".[3]

وعلى قدر جلالة الشّيخ محمّد عبدَه الدّينية والعلمية والمعرفية وإحاطته بالوضع التّربويّ المصريّ، ورغم يقينه بكمال الإسلام واستغنائه عن الملل والنّحل والتّشريعات الأخرى، وقناعته بتميّز الأمّة العربية الإسلامية عن الأمم الغربيّة، إلّا أنّ ذلك لم يمنعه مِنَ الانفتاح على مفكّري الغرب والاستفادة منهم، وهي دعوة للمصلحين بعدم العزلة عن العالم الخارجي، ورسالة إلى الغرب بمرونة الإسلام، وأنّ المسلمين لا يخافون مِنْ أفكار الغير وحضارته، وأنّ لديهم مناعة قوية مِنَ الذّوبان فيهم.

لذا دعا إلى الأخذ مِنْ علوم الغرب ومبتكراته التي صنّف بموجبها ضمن الدّول القوية فقال: "وليت شعري إذا كان هذا حالنا بالنّسبة إلى علوم -يقصد المنطق- قد أُرْضِعَتْ ثدي الإسلام وغُذِّيَت بلبابه، وتربَّت في حِجره، وتقلّدت في إيوانه مِنْ زمنٍ يزيدُ عن ألف سنة، وتناقلتها عنهم الألسنة، فما حالنا بالنّسبة إلى علوم جديدة مفيدة هي مِنْ لوازم حياتنا في هذه الأزمان وكافّةً عنّا أيدي العدوان والهوان، وأساس لسعادتنا ومعيار لثروتنا وقوتنا، لابدّ لنا مِنِ اكتسابها وبذل المجهود في طلبها".[4]

لقد تفوَّق الغرب على المسلمين بالعلوم التي طوّرها والاكتشافات التي حقّقها والتّخصّصات الدّقيقة التي أحدثها التي تخدم الدّين والإنسان، فإذا ما أحسن المسلمون استغلالها وتوظيفها أمكنهم تحقيق الإصلاح وتعمير الأرض، لهذا عليهم عند الانفتاح على الغرب الاحتراز مِنَ الاتّباع الأعمى له، وعليهم أنْ يأخذوا عنه بانتقائية، فما وافق دينهم وخدم وطنهم وأمّتهم أخذوه وما تنافى معهما تركوه.

لكن ما حصل في حاضرة المسلمين كان على خلاف ما رغب فيه الشّيخ محمّد عبدَه، فقد سأله سبنسر في الحوار الذي دار بينهما: هل صحيح إنّ الفكر في الشّرق يتطوّر على نفس الأسس التي يتطوّر

---

[1] زار الشّيخ محمّد عبدَه هربرت سبنسر في بيته بإنجلترا سنة 1903م، رغم أنّ الأطبّاء منعوه مِنْ مقابلة النّاس والحديث إليهم أكثر مِنْ عشر دقائق بسبب مرضه وكبر سنّه، لكنّ المستشرق ولفرد بلنت أقنعه بمقابلة الشّيخ محمّد عبدَه الذي سُرّ بالحديث الطّويل معه حول فلسفة الدّين والأخلاق والأفكار المادّية وسياسة أوروبّا، ثمّ دعاه إلى تناول الغداء، ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص868، وينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص90.

[2] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص124.

[3] هربرت سبنسر، التّربية، مرجع سابق: ص7.

[4] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السابق: ج2، ص40.

فيها الفكر في أوروبّا؟ فأجابه الشّيخ محمّد عبدَه بأنّ ما تعلّمه الشّرق مِنَ الغرب شرُّهُ أكثر مِنْ خيره[1]، فواجَهَهُ بالحقيقة المرّة وهي انبهار المسلمين بالغرب وافتتانهم بحضارته وأخذهم منه الغثّ والسّمين.

ونبّه المسلمين إلى أنّه لا يمكنهم التّصدّي لمكائد الغرب المتقدّم الذي يمتلك وسائل الحروب المدمّرة والأسلحة المتطوّرة إلّا بامتلاك مثل أسلحته فقال: "وحَضَرَنا زمانٌ نضطرّ فيه إلى المراكب المدرّعة ومدافع المترليوز والكروب، وبنادق الإبرة، وغير ذلك مِنَ الأسلحة التي تجدَّدَت وستُجَدَّد فيما بعد، فإنّ الشرّ الذي هو محطّ عناصر الإنسان لا يزال يرشده ويقوده نحو اختراع أمثال هذه الآلات المهلكة لهذا النّوع، فإنّهم حتّى الآن قد جعلوا العالم بيت نار وهم قائمون على عبادتها وخدمتها بكل جدّ وإخلاص، وكيف نتمكّن مِنْ حفظ ملّتنا ودولتنا ودِيننا مِنْ شرر هذه النّيران بدون أنْ يكون عندنا ما يماثلها إنْ لم نقل ما يزيد عنها؟ وهل يمكن استحصالها بالخرز والخزف أو بداني الحِرَفِ؟ كلّا لا بدّ مِنْ أنْ تُؤتَى البيوتُ مِنْ أبوابها، وتُطْلَب المسبّباتُ مِنْ أسبابها، فلا بدّ مِنَ البحث عن وجوه الاكتساب مِنْ وجه الصّواب والاستضاءة بنور المعرفة".[2]

إنّ تحصيل علوم المادّة وما ينتج عنها مِنْ صناعة للأسلحة، بات ضرورة ملحّة لحماية بيضة الإسلام وتقوية شوكته، واسترداد كرامة المسلم المدنّسة، ولمّا كان للعلوم الطّبيعية والرّياضية أثرها في تقدّم وتطوّر الحضارة الأوروبّية، سعى الشّيخ محمّد عبدَه لإدخالها إلى الأزهر وتدريسها لطلبته للأخذ بأسباب القوّة التي أمر الله بها في قوله تعالى:﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾[سورة الأنفال]، فأزاح حاجز الانغلاق على الذّات، ودعا شيوخ الأزهر عمليّا للتّعامل مع الأمم الأخرى وأخذ ما ينفع الأمّة منها بحكمة وتوازن.

ثالثا: تعلّم اللّغات الأجنبيّة

إنّ تعلّم لغات الغير أمر مشروع في الإسلام وهو مِنْ ضرورات الحياة التي دعا إليها رسول الله ﷺ لاتّقاء شرور الأعداء مكائدهم، فمَنْ تعلّم لغة قوم أَمِنَ شرّهم، وقد طلب رسول الله ﷺ مِنْ زيد بن ثابت ﷺ تعلّم العبرية حتّى يقرأ له الرّسائل التي تأتيه مِنَ اليهود لعدم ثقته فيهم، كما ترجم له الصّحابةُ الرّسائل التي كانت تَرِدُ إليه مِنَ اليهود وقياصرة الفرس وأباطرة الرّوم، فعندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وكان بها اليهود الذين كانت تدور بينه وبينهم كَتَبَ بالخطّ العبرانيّ، وأمر النّبي ﷺ كاتبه زيد بن ثابت ﷺ أنْ يتعلّم الخطّ العبريّ ليكتب له إليهم، ويقرأ له ما يَرِدُ عليه منهم حتّى يكون على يقين مِنْ كلامهم إليه، وبلوغ كلامه إليهم، وما كان ليحصل له هذا اليقين -وهم ليسوا بمحلّ الثّقة- لو تولّى ذلك واحد منهم، فقد لا يكتب عنه كل ما يقوله لهم وقد لا يقول له كل ما كتبوا إليه، فعن زيد بن ثابت ﷺ أنّه قال: أمرني رسول الله ﷺ أنْ أتعلّم له كلمات مِنْ كتاب يهود فقال ﷺ: «**إِنِّي وَاللهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابٍ**» قال: "فما مَرَّ بي نصف شهر حتى تعلَّمتُه له"، قال: "فلمّا تعلَّمتُه

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص124.

[2] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج2، ص43و44.

كان إذا كتب إلى يهودٍ كتبتُ إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأتُ له كتابهم"[رواه التّرمذي][1]، فكان تعلّم لغة الآخرين لضرورة المصلحة التي جعلت الشّيخ محمّد عبدَه يتعلّمها ويدعو لتعلُّمها وهو ما أكّده الشّيخ عبد الحميد بن باديس في قوله: "فنحن اليوم وقد ربطتْ بيننا وبين أمم أخرى مصالح، علينا أنْ نَعْرِفَ لغتهم وخَطَّهم".[2]

ويمكن اعتماد لغات الأمم المتقدّمة كمصدر لإثراء التّجربة الإنسانية في التّربية عن طريق التّواصل بها والاطّلاع على التّطوّر الذي حقّقته تلك الأمم، وعلى النّظريات التي أقامها الغرب والمنظومات التّربويّة والتّعليميّة الرّائدة التي كوّنها، بالاستفادة منها وتعلّمها وجلبها لديار المسلمين وخدمة دينهم وأمّتهم وتكوين أجيال تُسهم في تحقيق التّطوّر والإصلاح والنّهضة.

لم يدرس الشّيخ محمّد عبدَه في فترة الطّلب اللّغات الأجنبية، لكنّه خلال مزاولته للإصلاح دعا إلى تعلّم وتعليم اللّغات الأجنبية للتّعارف مع الأمم والشّعوب الأخرى والتّواصل الإيجابيّ معها، بتعريفها بالإسلام ودعوتها إليه، ودحض الشّبهات والأباطيل التي أثارها أعداء الإسلام حوله، وللاستعانة بها على الاطّلاع على الثّقافات والحضارات الأخرى، وقد نقل محمّد رشيد رضا عنه أنّه قال: "مَنْ لم يعرف لغة مِنْ لغات العِلم الأوروبّية لا يعدّ عالما في هذا العصر"[3]، وقوله: "ثمّ إنّ الذي زادني تعلّقا بتعلّم لغة أوروبّية هو أنّي وجدتُ أنّه لا يمكن لأحد أنْ يدّعي أنّه على شيء مِنَ العلم يتمكّن به مِنْ خدمة أمّته ويقتدر به على الدّفاع عن مصالحها كما ينبغي، إلّا إذا كان يعرف لغة أوروبّية، كيف لا وقد أصبحتْ مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوروبّيّين في جميع أقطار الأرض، وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أنْ يشتغل للاستفادة مِنْ خِبَرِهم أو للخلاص مِنْ شرّ الشّرار منهم"[4]، والعالِم المسلم لا يمكنه أنْ يخدم الإسلام إلّا إذا كان متقنا للغات العلم الأوروبّية التي تُمكّنُه مِنَ الاطّلاع على ما كتب أهلها عن الإسلام وأهله مِنْ مدحٍ وذمٍّ ومِنْ علوم[5]، فهو يرى بأنّ تعلّم لغات الأوروبّيّين تسهم في خدمة الإسلام، وتعرّف بكتابات الغربيّين عنه، وتمكّن مِنْ تحديد واتّخاذ المواقف المناسبة منهم.

وقد سافر الشّيخ محمّد عبدَه إلى أوروبّا وتعلّم اللّغة الفرنسية وتعرّف بها على علوم الأوروبّيّين، وذهب إلى مدارسهم ومعاهدهم وكلّياتهم التي تخرّج فيها كبار العلماء ليتعرّف عليها عن كثب، وحضر دروس الآداب واللّغة في مدرسة جنيف بعدما زار المدارس الفرنسية العالية التي سمح له ناظر معارفها بزيارة معاهدها وقتما شاء، ولمّا كان نظام التّربية والتّعليم في الإنجليز مُفَضَّلَيْن عند علماء التّربية على نظام الفرنسيّين، سافر إلى كُلِّيَتَيْ أكسفورد وكمبردج اللّتَيْن كانتا أعظم مدارس الإنجليز حينها.[6]

---

[1] أخرجه الترمذي في كتاب الاستئذان، باب: ما جاء في تعليم السُّريانية، ج5، ص67، حديث رقم: 2715، وقال: "هذا حديث حسن صحيح، وقد روي مِنْ غير هذا الوجه عن زيد بن ثابت"، وقال الألباني: حسن صحيح.

[2] عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مرجع سابق: ص71و72.

[3] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص104.

[4] المصدر نفسه: ج1، ص105.

[5] ينظر: المصدر نفسه: ج1، ص927.

[6] ينظر: المصدر نفسه: ج1، ص865و866.

إنّ تَعَلُّمُ اللّغات الأجنبية بالنّسبة للشّيخ محمّد عبدَه يمثّل أحد مصادره في الإصلاح، لذلك تعلّم اللّغة الفرنسية وهو في سنّ الرّابعة والأربعين[1]، وسافر إلى فرنسا ومكث بها عشرة أشهر حتّى تعلّمها وصار يتكلّم ويكتب بها ويترجم منها، وقد مكّنته مِنَ الاطّلاع على ما كتبه علماء التّربية الفرنسيّون في علم التّربية فأُعجب بكتاب سبنسر في التّربية[2] الذي ترجمه إلى اللّغة العربية لأهمّيته في هذا العلم.[3]

وكان غرض الشّيخ مِنْ تعلّم اللّغات الأوروبّية التّعرّف على العلوم العصرية لديهم، لذلك طالع مؤلّفاتهم باهتمام ليتعرّف على كتاباتهم حول الإسلام والمسلمين، حتّى أنّه شرع في تعلّم اللّغة الألمانية خصوصا وأنّ الألمان سبقوا غيرهم إلى الإحصاء في جميع العلوم، لكنّه ركّز على تعلّم الفرنسية حتّى حذقها وصار مِنْ أفصح النّاس بها، فقد صرّح بعض العارفين الذين ترجموا له بأنّه كان كأفصح أهلها، فكان يقرأ الكتاب الفرنسيّ في فلسفة الإدارة كأنّه يقرأ كتابا بالعربية، ثمّ ترجم كتاب التّربية لسبنسر وعرضه على صديقه قاسم بك أمين فشهد له بالإمامة فيها، فكان في ذروة المصريّين الحاذقين لها فهمًا ونطقًا وإنشاءً، كما أملى في مرضه الذي توفّي فيه مقالا بالفرنسية نُشر في بعض المجلّات الفرنسية[4]، نشره المسيو دي جرفيل في كتابه مصر الحديثة بعنوان: وصية سياسية للمرحوم المفتي محمّد عبدَه، كما شهد له بالتّمكّن منها أحمد لطفي السّيّد الذي ذكر بأنّ الشّيخ محمّد عبدَه كان يجلو لإخوانه المصريّين ما غمض مِنْ عبارات الفيلسوف الفرنسي تين في كتابه الشّهير عن الذّهن.[5]

ويرى الشّيخ محمّد عبدَه أنّ مِنْ دواعي تعلّمه للّغة الفرنسية هو ما حقّقته أوروبّا مِنْ تطوّر مادّيّ ونهضة علمية للاستعانة بها في الاطّلاع على مدنية الأوروبّيّين والاقتباس منهم ومحاكاتهم فيها بحسب ما يتوافق والدّين الإسلاميّ، وأكثر شيء دفعه لتعلّمها وإتقانها والكتابة بها والتّرجمة منها هو تولّيه للقضاء، إذْ لم يكن مطّلعا على القوانين الفرنسية التي يعتمد عليها القضاء المصريّ، والتي كان يجهل أبسط أبجدياتها بين زملائه القضاة الذين يحسنونها بعدما أحسّ بأنّه أقلّ شأنا منهم، وفي هذا قال عنه أحمد أمين: "ورأى نفسه -وهو قاضٍ- في بيئة مِنَ القضاة يُدلون بمعرفتهم للقوانين الفرنسية وشروحها، فأبتْ نفسه الطَّموح أنْ يكون أقلّ شأنا منهم، فبدأ يتعلّم اللّغة الفرنسية وهو قاضٍ في عَابْدِينْ وسِنُّهُ إذْ ذاك نحو الأربعين، وجدّ فيها حتّى بلغ شأوا لا بأس به".[6]

وتجدر الإشارة إلى إسهام الشّيخ محمّد عبدَه بواسطة الجمعية الخيرية الإسلامية في تعليم اللّغات الأجنبية تلبية لمطلب بعض فئات المجتمع وتحقيقا للمصلحة العامّة، حيث عمل على تربية

---

(1) ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص262، وينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، مرجع سابق: ج2، ص692.

(2) ألّف هربرت سبنسر كتاب التّربية عندما وجد نظام التّربية والتّعليم الإنجليزي يفتقر إلى أهمّ مسائل إصلاح المجتمع وكذا افتقاره إلى العملية التّعليمية السّليمة، فبيّن فيه رؤيته للعملية التّربوية، وشدّد على ضرورة العناية بالعلوم الطّبيعية والبيولوجية وطرق تدريسها، كما دعا إلى تربية الفرد عقليا وأخلاقيا وبدنيا لإضفاء البُعد الإنساني على التّربية والتّعليم، والكتاب يتكوّن مِنْ أربعة فصول وهي: أَنْفَسُ المعارف، والتّربية العقلية، والتّربية الأخلاقية، والتّربية البدنية، ينظر: فهرس كتاب: هربرت سبنسر، التّربية، مرجع سابق.

(3) ينظر: عبد المتعال الصعيدي، المجدّدون في الإسلام، مرجع سابق: ص404.

(4) ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص1033و 1034.

(5) ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص26.

(6) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص315.

جيل متعلّم متفتّح على العالم الخارجيّ المتطوّر الذي يزخر بالأفكار والثّقافات والعلوم والمعارف العصرية في مختلف المجالات، رغم اشتمال التّراث العربيّ والإسلاميّ على نفائس فكرية وثقافية وقيم حضارية راقية، إلّا أنّ ذلك لم يمنعه مِنَ الانفتاح على الأوروبّيّين وأخذ النّافع منهم وتوظيف الوسائل المتاحة لتجسيد إصلاحاته التّربوية وتكوين النّاشئة على ثوابت الأمّة الإسلامية وتوثيق الصّلة بها، والتّعارف بهم دون التّماهي فيهم، لذلك أدرج تعليم اللّغات الأجنبية لرواد الجمعية الخيرية الإسلامية.

إنّ تعليم اللّغات الأجنبية لتلاميذ مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية لم يكن ضمن إصلاحاته التّربوية غداة احتلال بريطانيا لمصر، ولمّا راجَعَتْهُ النّخب المصرية في ذلك، أبان لهم بأنّ الجمعية تُعلِّم أولاد الفقراء أمور دينهم وتهيّئهم للتّكيّف مع الظّروف الاجتماعية والاقتصادية القاسية، فلم يبرمج تعليم لغة الاحتلال للمصريّين بسبب بُغْضهم له ولكلّ ما يتّصل به، ومع ذلك لبَّى رغبة الرّاغبين في توظيف أولادهم في الدّوائر الحكومية وبرمج تعليمها لهم، بدليل ما قاله في خطبة احتفالية لمّا فتح إحدى مدارس الجمعية الابتدائية سنة 1904م: "وتُعَلِّم المدرسةُ أيضا مبادئ العلوم ولغةً أجنبيةً لإعداد مَنْ يريد خدمة الحكومة لها، وهذا ما لا ترغب فيه الجمعية نفسها، لكنّه مِنْ حاجة النّاس".[1]

والخلاصة أنّ الشّيخ محمّد عبدَه اعتمد عدّة مصادر في إصلاحاته، فانطلق فيها مِنْ مصادر شرعية تمثّلت في القرآن الكريم والسنّة النّبوية الشّريفة بالإضافة إلى رجوعه إلى فهوم سلف الأمّة واجتهاداتهم، كما استعان بالعلوم العقلية والعلوم الإنسانية التي يتوفّر عليها التّراث العلميّ الإسلاميّ بمختلف تخصّصاته حتّى يجسّد إصلاحاته التّربوية بالشّكل الذي يحقّق مقاصد التّربية في تكوين إنسان سويّ يعوّل عليه في بناء الفرد المنتج مادّيا ومعنويّا، كما لم يغفل مختلف التّجارب الإنسانية بدءا بالتّجارب العربية والإسلامية، ثمّ التّجارب الأوروبّيّة الغربية، آخذا منها ما يتوافق مع أصول أمّته ولا يتصادم ومرجعيّتها المقدّسة وثوابتها الأصيلة، إذ لم يكن له إشكال مع اللّغات الأجنبية، فقد تعلّم اللّغة الفرنسية وأدرج تعليم اللّغات الأجنبية ضمن مقرّرات مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية تلبية لمطلب الرّاغبين في تعلّمها للعمل في الدّوائر الحكومية، ووظّف ما تفتّق عليه العقل البشري مِنْ انجازات مادّية ومعنوية لا تتعارض مع المرجعية الدّينية للمجتمع المصريّ، وحاول أنْ يستفيد في تجربته الإصلاحية مِنْ غير المسلمين في زمن انقلبت فيه الموازين؛ حيث صار المسلمون يتعلّمون لغات الأوروبّيّين ويأخذون منهم العلوم ويقتبسون مِنْ حضارتهم، بعدما انتكستْ راية المسلمين وغربتْ شمس حضارتهم التي دانت لها الأمم طواعية في ماضيها الزّاهر، فقد كانت الأمم الأوروبّية ترسل أبناءها إلى بلاد المسلمين لطلب العلم وتعلُّمِ اللّغة العربية ومختلف علومهم، بل وترجموا تراث المسلمين إلى لغاتها، حتّى خرجوا مِنْ عصور الظّلام وحقّقوا التّقدّم والتّطوّر والسّيادة على العالم.

[1] سعيد إسماعيل علي، الإصلاح التّربوي عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص669.

المبحث الثّاني:
وسائل الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه

المطلب الأوّل: المؤسّسات التّربوية والدّينية

المطلب الثّاني: التّأليف والصّحافة

المطلب الثّالث: الحوارات والمناظرات والمراسلات

المبحث الثّاني: وسائل الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه

تمهيد:

وظّف الشّيخ محمّد عبدَه جميع المؤسّسات التّربوية والدّينية الفاعلة في المجتمع المصريّ لتحقيق الإصلاح التّربوي، فعمل فيها وزاول الإصلاح مِنْ خلالها، ولم يغفل عن إصلاح ما كان يشوبها مِنِ اختلالات، مركّزا جهوده فيها على بناء الإنسان وتشكيل عقله ووجدانه وتنويره بالعلم لمحاربة الجهل والتّخلف والاستبداد والاستعمار، لتحقيق الإقلاع الحضاري وقيادة الأمّة نحو التّطوّر والنّجاح، فاستهدف إصلاحَ الأزهر والقضاء والمحاكم الشّرعية والمدارس والأوقاف والمساجد.[1]

كما برزت جهوده التّربوية وأعماله الفكرية في كتابة اللّوائح لإصلاح التّعليم العثماني والسّوري والمصريّ، وكذا بكتاباته الصّحفية التي كان لها تأثير كبير على قطاع عريض مِنَ القرّاء المصريّين، بالإضافة إلى استقدامه للعمل الخيري الجمعويّ الذي كان مقتصرا على الأفراد ولم يكن معهودا حينها في مصر، فأحسن توظيفه وتأطيره في هيئة جمعيات خيرية لتعليم أبناء الفقراء والمعوزين وتكوينهم على مختلف الحِرَف لإعانة أوليائهم والتّغلّب على قساوة الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

ولأنّه كان متيقّنا بأنّ الأفراد مهما أُوتُوا مِنْ قوّة فإنّهم لا يستطيعون الوفاء بمتطلّبات الإصلاح ومقتضيات تنزيله على الواقع التي ستظلّ آثاره محدودة في التّبليغ والتّنفيذ، اعتمد على المؤسّسات التّربوية والدّينية ووظّفها في نشر الوعي بين النّاس لإصلاح الأمّة تربويّا.[2]

كما شكّلت دروسه التي ألقاها على طلبته قبسا هاديا وأملا مشجّعا لهم في الحياة، فالتفّوا حوله وآمنوا بأفكاره واتّبعوا منهجه، واستطاع أنْ يكوّن منهم نخبا فكرية تواصل مسيرته الإصلاحية بعد وفاته، أمثال: سعد زغلول وقاسم أمين وحفني ناصف وأحمد تيمور ومصطفى لطفي المنفلوطي ومصطفى عبد الرّازق، وإسماعيل حافظ، وأحمد المحمصاني، والشّيخ التّرماميني وغيرهم كثير.[3]

وحتّى يحقّق الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاح التّربوي الشّامل؛ فَعَّلَ بحكمة الحوار والمناظرة والمراسلات مع مختلف القامات الفكرية والعلمية والدّينية والسّياسية المسلمة وغير المسلمة، التي أخذت بأسباب القوّة والحضارة والتي حقّقت الغلبة في كلّ الصّعد وفقا لسنن الله الكونية في التّدافع، فكانت رؤيته الإصلاحية واضحة المعالم، ترجمها إلى جهود فكرية وعملية مِنْ خلال برامج ومشروعات مثالية الأهداف والمقاصد، واقعية التّطبيق، عملية التّجسيد، لإصلاح الواقع التّربويّ المصريّ وتطوير مؤسّساته شكلا ومضمونا نظريّا وتطبيقيّا.

---

(1) ينظر: محمّد عمارة، الشيخ المراغي والإصلاح الديني في القرن العشرين، ص29، وينظر: محمّد عمارة، شخصيات لها تاريخ، ص192.

(2) ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص148.

(3) ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص177.

المطلب الأوّل: المؤسّسات التّربوية والدّينية

استهدف الشّيخ محمّد عبدَه بإصلاحاته التّربوية عددا مِنَ المؤسّسات التّربوية والدّينية الهامّة في مصر وفي منفاه خارج مصر لإحياء أمّته والنّهوض بها، وكان مِنْ أولوياته في ذلك توظيفه للإصلاح؛ الجامع الأزهر الشّريف والقضاء والمحاكم الشّرعية، والأوقاف والمساجد، وكذا مدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن بمصر والمدرسة السّلطانية ببيروت، بالإضافة إلى مساهمته في تأسيس مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية وإشراكها في تجسيد مشروعاته الإصلاحية.

الفرع الأوّل: جامع الأزهر والقضاء والمحاكم الشّرعيـة

توجّه الشّيخ محمّد عبدَه إلى إصلاح جامع الأزهر الشّريف باعتباره أحد المؤسّسات العلمية الدّينية العريقة ذات التّأثير الكبير على الصّعد المحلية المصرية والعربية والإسلامية، ومِنْ خلاله قصد القضاء والمحاكم الشّرعية فجعل منها وسيلة مهمّة في تجسيد إصلاحاته التّربوية، بتفقّدها وتلمّس مواضع الخلل فيها لإصلاحها، ليتمّ بعد ذلك توظيفها في الإصلاح عموما والإصلاح التّربوي خصوصا.

أوّلا: جامع الأزهر الشّريف

1- التّعريف بجامع الأزهـر

يعتبر الجامع الأزهر الشّريف مِنْ أعتق القلاع الدّينية وأعرق المؤسّسات العلمية والمعرفية الإسلامية في العالم، له تاريخ يرجع تأسيسه إلى النّصف الثّاني مِنَ القرن الرّابع الهجري.

وضع القائد الفاطمي جوهر الصّقليّ أساسه بالقاهرة في 14 رمضان عام 359هـ/971م، واستغرق بناؤه نحو عامَيْن، وأقيمت فيه الصّلاة لأوّل مرّة في 07 رمضان عام360هـ، عُرِفَ بالجامع الأزهر الشّريف نسبة إلى فاطمة الزّهراء ﵂ بنت النّبي ﷺ، وبتوطّد الحكم الفاطميّ بمصر فتح الخلفاء الفاطميّون أبوابه لتدريس العلوم الدّينية والعقلية في عهد الخليفة العزيز بالله (ت386هـ/996م) لتخريج الدّعاة المسلمين ونشر الإسلام والتّمكين له في الحياة، كما أنشأوا به ملجأ للفقراء، ومِنْ أشهر علمائه سلطان العلماء العزّ بن عبد السّلام(ت660هـ/1261م)، وكمال الدّين الدّميري(ت808هـ/1405م) صاحب موسوعة حياة الحيوان وغيرهما، وللجامع الأزهر مجلّة نور الإسلام الشّهرية التي بدأت في الصّدور عام 1930م، ثم غُيِّر اسمها إلى مجلّة الأزهر، وقد مُنِحَ الجامع الأزهر جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام والمسلمين سنة 2000م تقديرا لدوره الكبير في ذلك.[1]

وقد شبّه الشّيخ محمّد رشيد رضا جامع الأزهر في بداية إنشائه بمسجد ضرار الذي لم يُؤَسَّس على التّقوى، لأنّ الباطنية أسّسوه لبثّ دعوتهم الإلحادية[2]، كما قصدوا مِنْ تأسيسه ممارسة ونشر التّقليد الدّيني الإسماعيلي، وقد أمّ فيه المعزّ لدين الله الفاطميّ المصلّين وألقى خطب الجمع والأعياد، وأوقف عليه الخلفاء الفاطميون وكبار رجال الدّولة والتّجّار أوقافا عظيمة شكّلت أهمّ روافده المالية.[3]

---

[1] ينظر: مجلة البحوث الإسلامية، مجلة دورية تصدر عن الرّئاسة العامّة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدّعوة والإرشاد، بالمملكة العربية السّعودية، ص91و92، نقلا عن الموسوعة العربية العالمية، (د ط)، (د ت).

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، المنار والأزهر، مصدر سابق: ص6.

[3] ينظر: مصطفى الفقي، الأوقاف والأزهر، www.aljumhuriya.net، تاريخ الزيارة: الثلاثاء:2021/03/30م، في السّاعة: 12:00 زوالا.

بعد قضاء صلاح الدّين الأيّوبي على دعوة الفاطميّين سنة 567هـ، دخل الأزهر في حوزة أهل السنّة، وجدّده عز الدّين أيدمر الحلي أحد أمراء دولة المماليك البحرية[1] بعدما خُرِّب بزلزال ضربه سنة 702هـ، ثمّ أنشأ بجواره عدّة مدارس وَوُقفت فيه كثير مِنَ الأوقاف على طلّاب العلم، وتخرّج منه علماء كُثُر تولَّوْا مناصب مهمّة كالقضاء والحِسبة والإفتاء والتّدريس، وازدهر العلم فيه مِنْ أوائل القرن الثّامن إلى أواخر القرن العاشر الهجريّ، ثمّ أخذ يتراجع بسبب تفضيل مصنَّفات المتأخِّرين على المتقدِّمين، والاهتمام بالعبارات ومناقشتها على حساب المضمون، ثمّ دخلتْ مصر طورا جديدا بسيطرة الاحتلال البريطاني على المدارس الحكومية، وكادت تُلغَى المحاكم الشّرعية، وصار يُنظر إلى المتخرّجين مِنَ الأزهر على أنّهم عالة على المجتمع لا يصلحون لشيء، وسرى التّفرنج وبدأ يشيع الإلحاد والفِسق والسَّرف والبذخ في عهد الخديوي إسماعيل الذي لم ينكر عليه أحد مِنْ علماء الأزهر، حتّى دعا الشّيخ محمّد عبدَه إلى إصلاح الأزهر بعد عودته مِنَ المنفى، وكان غرضه مِنْ إصلاحه هو تخريج نشء جديد، يجمع بين التّقوى والأخلاق والعلم، للقيام بواجب الدّعوة إلى الإسلام ونشره والدّفاع عنه.[2]

2- مكانة الأزهر عند المسلمين

للأزهر مكانة كبيرة في نفوس المسلمين، وهو أحد المؤسّسات الدّينية الهامّة في العالم عبر العصور، فقد كان ولا يزال محطّ أنظار النّخب والعامّة، قصده المسلمون وغيرهم مِنْ جميع بقاع الدّنيا للنّهل منه، وقد مرّ بظروف عصيبة، وحِيكتْ ضدّه المكائد للحيلولة دون أداء رسالته.

وقد قال في هذا السّياق الشّيخ علي الطّنطاوي[3] في ذكرياته: "أمّا الأزهر فشيخ طال به العمر، ومرّت به الأحداث والغِيَر، أقيم أوّلا لغير الحقّ، أبى الله إلّا أنْ يجعله للحقّ، وأنْ يكون مثابة العلم، حين مرّتْ بالمسلمين عصور أقفرتْ فيها مِنْ أهلها منازل العلم، منها ما أُغلقتْ أبوابه، وأُطفئتْ مصابيحه، وبقي الأزهر مُفَتَّح الأبواب، ساطع الأنوار، يقصده الشّباب والطلّاب، مِنْ كل بلد مِنْ بلاد المسلمين، ثمّ أدركه الكبر، ووَنَتْ منه الخُطى، فقصر عن مسايرة الجامعات والمعاهد فجاءوا بالأطبّاء ليعالجوه، فسمعوا شكواه، وعرفوا أوجاعه، ولكنّهم -إمّا لنقصٍ في علومهم، أو لغرضٍ في نفوسهم، أو لرغبةٍ أبداها لهم مَنْ كان إليه أمر انتخابهم واختيارهم- لواحد مِنْ هذه الأسباب، رَأَوْا أنْ يريحوه بالسُّمِّ يدسُّونه له في الدّواء، فإذا بالأزهر الذي بقي أكثر مِنْ ألف سنة يحمل مشعل العلم فيُضْوِي للسّالكين السّبيل، والذي أقيم بأموال الأوقاف التي وقفها نفر مِنَ المسلمين لتعليم أولاد المسلمين، والذي كان فحل الجامعات، لأنّه الجامع وهي جامعات، أمّا الأزهر الذي يجرُّ وراءه أمجاد عشرة قرون، تكسَّرتْ أمواجها على جدرانه، كما يتكسّر عاتي الموج على صخور الشّاطئ، فيقعد الموج ويبقى الجدار قائما، إذا الجامع الأزهر المتفرّد وحده بتلك المزايا قد مات، وهو كامل الأعضاء واقف على قدميه، وإذا

---

[1] ينظر: مصطفى الفقي، الأوقاف والأزهر، موقع الجمهورية: www.aljumhuriya.net.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، المنار والأزهر، مصدر سابق: ص7- 9.

[3] **علي الطّنطاوي:(1909م- 1999م):** ولد بسوريا وتوفّي بجدّة ودفن بمكّة المكرّمة، وهو فقيه وأديب وقاضٍ سوريّ، مِنْ كبار أعلام الدّعوة الإسلامية والأدب العربيّ في القرن العشرين، حصل على جائزة الملك فيصل العالمية في خدمة الإسلام سنة 1990م، مِنْ مؤلّفاته: في سبيل الإصلاح، فتاوى علي الطّنطاوي، ذكريات علي الطّنطاوي وغيرها، ينظر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة: https://ar.wikipedia.org، تاريخ الزيارة: السبت: 2021/03/13م في الساعة: 11:00 صباحا.

هم قد أقاموا مكانه جامعة لا تمتاز عن أيّ جامعة في الدّنيا، بل تكاد تقصر عن كثير منها، كان الأزهر للدّين والدّنيا، فجعلوه للدّنيا، وكان لأبناء المسلمين يتعلّمون فيه دينهم أوّلا، لأنه بُني بأموال المسلمين بدافع مِنَ الدّين لرضا ربّ العالمين، فصار وأنتم أدرى بما إليه صار".[1]

لقد بذل الشّيخ محمّد عبدَه جهودا كبيرة لإصلاح الأزهر نظرا لمكانته العظيمة والخطيرة، وتحمّل في سبيل ذلك أذى كبيرا مِنَ الخديوي عبّاس الثّاني ومِنْ وشيوخ الأزهر المعروفين بالجمود والتّقليد، ومِنْ ورائهم الاستعمار البريطاني الذي سخّر كلّ إمكاناته المادّية والمعنوية لإفشال إصلاحاته التّربوية.

3- إصلاح الأزهـــر

قام الشّيخ محمّد عبدَه بحركة إصلاحية هامّة في جامع الأزهر الشّريف بهدف عرض الدّين بصورة صحيحة بعيدا عن الجمود والتّقليد، وبعيدا عن الانحلال والتّميّع، فوضع لائحة لإصلاحه تتناسب ومكانته العظيمة عند المسلمين، لكنّها لم تلق القبول مِنَ القائمين عليه ومِنْ أهل الجمود مِنْ شيوخ الأزهر المدعومين مِنَ الحكومة، ومع ذلك أصرّ على المضيّ لتحقيق أهدافه، ممّا أثار في نفسه شعورا متناقضا بين التّفاؤل والتّشاؤم فقال: "أنّني أرى في هذه الشّجرة الجرداء ورقات خضر، فلا أدري أهي بقايا الحياة الأولى أم هي بدء حياة جديدة!؟".[2]

لم يكن الشّيخ محمّد عبدَه أوّل داعية لإصلاح الأزهر وتجديده، فقد تولّى قبله ذلك عدد مِنْ شيوخ الأزهر وعلمائه؛ أمثال الشّيخ مصطفى العروسي الذي وُلِّيَ مشيخته سنة 1864م والشّيخ محمّد العبّاسي المهدي سنة 1870م وغيرهما[3]، ولمّا سنحت له الفرصة بذل قصارى جهده لإصلاحه وتجديده وتطويره مِنْ خلال المناصب التي تولاّها، وقد صرّح بالغرض مِنْ إصلاحه وما قد يعيقه عنه فقال: "إنّني بذرتُ في الأزهر بذرا إمّا أنْ ينبتَ ويثمرَ فيصلح به الأزهر ويقوم بما يجب عليه للإسلام وإمّا يسقط الأزهر ويزول"[4]، وقد نبتتْ بذور الأزهر وأثمرتْ ببروز مصلحين كانت لهم بصمات عبر السّنين.

لقد بلغ تذمّر الشّيخ محمّد عبدَه مِنَ الأزهر والأسف عليه إلى تسميته ووصْفِه بالمخروب والإصطبل والمارستان[5]، حتّى أنّه ردّ على الشّيخ محمّد البحيري الذي حدّثه عن فضل الأزهر عليه، فذكر له بأنّه لم يُحَصِّل العلم الصّحيح إلّا بعدما قضى عِقدا مِنَ الزّمن يزيل لَوْثَاته مِنْ فكره، فقال له فيه: "إنْ كان لي حظٌّ مِنَ العلم الصّحيح الذي تَذْكُر فإنّي لم أحصّله إلّا بعد أنْ مكثتُ عشر سنين أكنس مِنْ دماغي ما علق فيه مِنْ وساخة الأزهر، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له مِنَ النّظافة".[6]

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات علي الطنطاوي، دار المنار للنشر والتوزيع، جدّة، السعودية، ط5، 2006م، ج8، ص91و92.

[2] عبد الرّحمان بدوي، الإمام محمّد عبدَه والقضايا الإسلامية، مرجع سابق: ص8و9.

[3] ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق: ج3، ص73.

[4] محمّد رشيد رضا، المنار والأزهر، مصدر سابق: ص9.

[5] **المارستان**: أو البيمارستان كلمة فارسية الأصل تعني مستشفى ومعناها محلّ المريض، كانت في العصور الوسطى دورا للعلاج ومعاهد لتدريس الطبّ، حتّى تدهورتْ أحوالها وأُهملتْ وهجرها المرضى، فما عادتْ تستخدم إلّا لعزل المجانين، وصارتْ كلمة مارستان تعني مأوى المجانين، ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة، تاريخ الزيارة: الجمعة: 2020/03/27م، في الساعة: 13:00.

[6] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص194.

لم تكن تلك التّسميات والأوصاف غير اللّائقة التي أطلقها الشّيخ محمّد عبدَه على الأزهر بغضا له وحقدا عليه، وإنّما كانت إشفاقا عليه ورغبة منه في إصلاح ما ساده مِنْ تراكمات سلبية كثيرة ناتجة عن السّياسة المتّبعة فيه مِنْ طرف العائلة الخديوية، ومِنْ وراءها السّلطة الفعلية للاحتلال البريطاني، فوصفه بذلك ليبيّن عدم رضاه عمّا يجري فيه، وليبديَ رغبته الملحّة في إصلاحه، حتّى يرفع مِنْ قدر الأزهر ويُعلي مِنْ شأن شيوخه وطلبته ويجعل مناهجه وعلومه مرجعا في التّربية والتّعليم.

ومِنْ دواعي تعجيل الشّيخ محمّد عبدَه بإصلاح الأزهر؛ سطوة شيوخ الأزهر عليه واستئثارهم بتوزيع الأوقاف على مَنْ يوالِيهم أو كان على مذهبهم، وأمّا المدرّسون والطّلبة فلا يعرفون الانضباط بغيابهم عن حلقات الدّروس، كما لم يكن للعمل والإجازة والامتحان مواعيد مقرّرة، فإذا قيّد الطّالب اسمه بين مستحقّي الجِراية أو السّكن، يُحسب مِنْ الطّلبة إلى أنْ يتجاوز الستّين ولا تنقطع جِرايته ما داموا راضين عنه، وفيه اقتُصِر على تدريس العلوم التّقليدية، أمّا الفلسفة والمنطق والحكمة والعلوم الحديثة فهي محرّمة ولا تُدرّس، ودارسها متّهم بالكفر والزّندقة، ومَنْ اشتغل بها يتخفّى عن الجماعة، وأمام هذا الوضع السّائد مِنَ الجمود على العلوم التّقليدية ورفض أيّ جديد ورفض علوم المنطق والفلسفة الإسلامية؛ قام الشّيخ محمّد عبدَه بمحاولات عملية لتقرير تلك العلوم والرّقي بفكر طلبة الأزهر ومعلّميهم، واستطاع فعلا أنْ يُقِرَّ تدريس العلوم الحديثة ويرغِّب فيها بمكافأة دارسيها، ويرشِّح المتفوّقين فيها للوظائف العليا في القضاء والتّعليم حتّى تستفيد الأمّة مِنْ خدماتهم.[1]

سعى الشّيخ محمّد عبدَه إلى توسيع دائرة إصلاح علوم الأزهر ومعارفه، وإلى تكوين متخصّصين يتقنون علما واحدا يكونون مرجعا فيه، كما سعى لإيجاد طائفة للقضاء الشّرعي وطائفة مِنَ الدّعاة إلى الإسلام، وأخرى للخطابة ووعظ العوامّ، ولكنّه لم يجد تجاوبا مِنْ علماء الأزهر الذين قاوموا إصلاحاته، فحاول الاستعانة بالسّلطة لتنفيذ ذلك لكن دون جدوى، وبحث عن مُنَاخٍ آخر علّه يجسّد فيه مبتغاه، فاستقال مِنْ مجلس إدارة الأزهر، وأخذ يفكّر في إنشاء مدرسة كلّية في القاهرة تُغْنِي عنه لتخريج رجال يخدمون الإسلام والأمّة، فاستمال أحمد باشا المنشاوي للقيام بالمهمّة، وعزم على وَقْفِ أرضٍ له ليبني عليها مدرسة مِنْ ماله الخاصّ لكنّ الأجل أدركه بالوفاة[2]، فلم يسعفه القدر لتنفيذ إصلاحاته، وبقيتْ الفكرة تراود تلامذته مِنْ بعدِه لإنشاء جامعة مصرية تجسّد مشروع أستاذهم.

عندما تولّى الخديوي عباس الثّاني الحكم سنة 1892م، كان الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ أبرز المنادين لإصلاح الأزهر، فتقرّب منه وقدّم له خطّة لإصلاحه وإصلاح الأوقاف والمحاكم الشّرعية، وَوُفِّقَ في استصدار قانون تمهيدي في 15 يناير1895م، وشكَّل مجلسا لإدارة الأزهر مِنْ كبار شيوخه مِنَ المذاهب الأربعة[3]، وشرع في إصلاحه بالزّيادة في رواتب المدرّسين ونَظَّم الجِراية ومساكن الطّلبة والإشراف الصحّي عليهم وعلى الامتحانات، ووضع لائحة الكِسَاوَى التّشريفية[4]، لكنّه لمّا أراد الشّروع

---

[1] ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص121و122.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج8، ص881.

[3] ينظر: مجلة البحوث الإسلامية، مرجع سابق: ص91.

[4] **الكساوى التّشريفية:** هي أردية -جمع رداء-: وهي كسوة خاصّة بشيوخ الأزهر تُلبس في مناسبات معيّنة تشريفا لأصحابها.

في الإصلاحات الجوهرية بإعادة النّظر في مواد الدّراسة وبرامجها وطرق التّدريس، ثار عليه أهل الجمود والتّقليد، وناصبوه العداء ووضعوا له العراقيل ومنعوه مِنْ تنفيذها.[1]

ومع ذلك قام بِعِدَّة إصلاحات إدارية وتربوية؛ فأنشأ مجلس إدارة الأزهر[2]، واستحدث مكاتب إدارية لتسييره، واستصدر قانون الكساوى التّشريفية التي كانت تُمنح لغير مستحقّيها، ووضع مشروع نظام التّدريس والامتحانات، وكوّن لجنة مِنَ العلماء للتّحقيق في الكتب والعلوم التي تدرّس في الأزهر، كما أدخل العلوم النّافعة كالحساب والجبر والهندسة والجغرافيا، لكن مشروعه أُوقف بمجرّد تولّي سليم البِشري مشيخة الأزهر، كما ألزم الطّلبة بالامتحان في العلوم العصرية للحصول على شهادة العالمية، ومَنَعَ طريقة قراءة الحواشي والتّقارير المطوّلة في دراسة علوم الشّريعة[3]، ووضع قرارات تحدّد طرائق التّعليم، وتلزم الطّلبة بحضور الدّروس والامتحانات، وتضبط الإجازات الدّراسية وتحدّد أوقاتها، بالإضافة إلى تدريسه شخصيّا لعلوم التّوحيد والتّفسير واللّغة العربية والبلاغة والمنطق.

ومِنَ الإصلاحات الاجتماعية والصّحّية التي قام بها، تحديدُه لرواتب شيوخ الأزهر والزّيادةُ فيها بحسب درجاتهم ووضعُه قانونا لها، وتحسّينُه للأوضاع الصّحّية المزرية للطّلبة، بعدما كانت النّظافة مهملة فيه، وأنشأ لهم صيدلية، وعَيّن لهم طبيبا متخصّصا يعاينهم ويرعاهم ويعالجهم بالمجّان، كما أنشأ لهم ميضأة صحّية فيه، وجدّد بعض أروقته وأنارها بالغاز البخاري، وزاد مِنْ مساكن الطّلبة وجدّد أثاثها وزوّدها بالمياه، وأضاءها بمصابيح الفاز بدلا مِنْ إنارةِ الزّيت.[4]

إنّ الإصلاحات الصّحّية التي قام بها الشّيخ محمّد عبدَه تندرج ضمن طهارة البدن والثّياب والمكان التي حثّ عليها الإسلام، لقوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾[سورة البقرة]، وقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾[سورة المدّثّر]، وقوله ﷺ: «**حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا يَغْسِلُ فِيهِ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ**»[رواه البخاري][5]، وحديث جابر ﷺ: "أتانا رسول الله ﷺ زائرا في منزلنا، فرأى رجلا شعثا فقال: «**أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ**»، ورأى رجلا عليه ثياب وسخة، فقال: «**أَمَا كَان هَذَا يَجِدُ مَا يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ**»[رواه ابن حبّان][6]، وحديث أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ**»[رواه البخاري][7]، وعنه أنّ رسول الله ﷺ: «**كَانَ يُقَلِّمُ أَظْفَارَهُ وَيَقُصُّ شَارِبَهُ يَوْمَ الجُمُعَةِ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الصَّلَاةِ**»[البزار

---

[1] ينظر: سعيد زايد، الإمام المصلح والمجدّد، مرجع سابق: ص250.

[2] ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص317 و329.

[3] ينظر: محمّد رشيد رضا، المنار والأزهر، مصدر سابق: ص19و20.

[4] ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص122.

[5] أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم، ج2، ص5، حديث رقم:897، وأخرجه مسلم في كتاب: الجمعة، باب: الطّيب والسّواك يوم الجمعة، ج2، ص 582، حديث رقم: 849.

[6] أخرجه ابن حبان في كتاب: الزينة والتّطيّب، باب: ذكر الأمر بالإحسان إلى الشَّعر لمربّيه وتنظيف الثّياب إذ النّظافة مِنَ الدّين، ج12، ص294، حديث رقم: 5483، وقال: الحديث على شرط الشّيخين ولم يخْرجاه.

[7] أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: السّواك يوم الجمعة، ج2، ص4، حديث رقم: 887.

والطبراني][1]، وغيرها مِنَ النّصوص التي تحثُّ على النّظافة للوقاية مِنَ القذارة والأمراض والأوبئة، لأنّ النّظافة كانت مهملة في الأزهر، وكادت تكون ممنوعة لقلّة اطمئنان أهل الجمود إلى مواد التّعقيم والتّطعيم، وعدم إيمانهم بأقوال الأطبّاء في الوقاية مِنْ عدوى الجراثيم[2]، كما وضع نظاما لتوزيع الجِرايات -الطّعام والرّغيف- على الطّلبة المجاورين للأزهر[3]، وأوجد الحلول لعدد مِنَ القضايا؛ كاستحداثه زاويةً للعميان ومرتّباتٍ لأولاد العلماء الذين صار الأزهر ينفق عليهم، بالإضافة إلى طموحه للقيام بإصلاحات أخرى فيه، لكن عراقيل الخديوي عبّاس له جعلته يستقيل مِنْ مجلس إدارته.[4]

4- ثمرات إصلاح الأزهـــر

لقد كان للإصلاحات التي قام بها الشّيخ محمّد عبدَه في جامع الأزهر جملة مِنَ الثّمرات أهمّها: تنظيمه للأزهر وهيكلته بوضع نظام لإدارته وللمعاهد التّابعة له، وإصلاحه للّغة بتكوينه لكُتَّاب وخطباء متمكّنين بتدريسهم لأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز للجرجاني، ترقيته لفكر طلبة الأزهر وتقوية استقلال الفهم لديهم بتدريسهم البصائر النّصيرية في المنطق، وتصحيحه لعقيدة النّاس بتدريسه لهم لكتابه رسالة التّوحيد، وتفسيره للقرآن الكريم وإرشادهم إلى ما فيه مِنْ فضائل وآداب وأخلاق ودعوتهم للعمل بما فيه، تصدّيه للبدع والخرافات والعادات والتّقاليد المنحرفة المفسدة لعقيدة المسلمين، بعدما كان بعض خريجي الأزهر ينشرونها بين النّاس ويلقّنونها لهم باسم الدّين، تدريسه فيه لبعض العلوم العصرية كالرّياضيات والعلوم الاجتماعية والصّحّية والتّاريخ السّياسيّ والجغرافيا بعدما لقيت مقاومة شديدة مِنْ أهل الجمود الذين حَرَّمُوا تدريسها، إدراجه للتّكوين المتخصّص في العلوم لإتقانها، ووضعه الأساس للتّعليم القضائي ونظام خاص بمدرسته التي تَولَّى التّدريس فيها، فتخرّج مِنْ مدرسة القضاء الشّرعي أنجب التّلاميذ[5]، إدخاله إلى الأزهر علمَيْ المنطق والكلام التي لم تكن كتبهما تدرّس فيه.[6]

5- الأوضاع التّعليمية السّائدة في الأزهـر وإصلاحاته فيه

قضى الشّيخ محمّد عبدَه اثنا عشر سنة في الأزهر متعلّما مِنْ 1864م إلى1876م، ووجده يقوم على فلسفة لفظية عَلَّمت الطّلبة الجدال في الألفاظ وأغرقتهم في الاحتمالات وتأويل الحواشي

---

[1] أخرجه البزار في مسند أبي حمزة أنس بن مالك، تحقيق: محفوظ الرّحمان زين الله وآخرون، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط1، (بدأت: 1988م، وانتهت 2009م)، ج15، ص65، حديث رقم: 8291 واللفظ له، والطّبراني في معْجمه الأوْسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، الجزء1، (د ط)، (د ت)، باب من اسمه أحمد، ج1، ص257، حديث رقم: 842.

[2] ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص121.

[3] **الطّلبة المجاورون:** اسم يطلق على طلبة الأزهر الذين يقيم بعضهم في المسجد والبعض الآخر خارجه، والذين يقيمون داخل المسجد ينقسمون إلى طوائف بحسب بلدانهم أو بحسب مذهبهم الفقهي، ولكلّ طائفة رواق خاصّ بها ملاصق للجامع، والأروقة عبارة عن حجرات يضع فيها الطّلبة المجاورون كتبهم ومتاعهم، وينامون فيها، ينظر: مجلّة البحوث الإسلامية، مرجع سابق: ص92.

[4] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر ، مرجع سابق: ج1، ص250و251، وينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص69 - 73.

[5] ينظر: محمّد رشيد رضا، المنار والأزهر، مصدر سابق: ص9-11.

[6] ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص72و73.

والشّروح، فتخرّجَ منه طلبةً يجهلون شؤون الدّنيا، ويعتقدون بأنّ كلّ شيء غير مألوف كفرٌ أو حرام أو مكروه حتّى رَأَوْا بأنّ: "تحويل الميضأة القذرة إلى حنفياتٍ حرامٌ وذهابٌ للبركة! وقراءةُ كتبٍ في الجغرافية أو الطّبيعة أو الفلسفة حرامٌ، ولبس الجزمة بدعةٌ".[1]

وأدرك الشّيخ محمّد عبدَه عقم طريقة التّعليم السّائدة في الأزهر وخاصّة في النّحو والصّرف والمعاني، حيث كان المعلّم يحقّق في معاني الألفاظ والرّوابط بين الكلمات عند تدريسه لكتاب شرح التّلخيص في المعاني والبيان للتّفتزاني، فيمكث الطّلبة طويلا في الأزهر دون طائل، وغاب عن المدرّسين هدف تحقيق النّطق السّليم والكتابة الصّحيحة مِنْ تدريس النّحو، وغاب عنهم أنّ المقصد مِنْ أصول الفقه التّمرين على الاجتهاد والتّحرر مِنَ التّقليد، وغاب عنهم أنّ المقصد مِنَ البلاغة هو التّمرّن على كتابة القول البليغ، فكانت هذه بعض أهمّ الدّواعي التي جعلته يكرّس جهوده لإصلاح الأزهر، بالإضافة إلى اتّسام طريقة الأزهر بالتّلقين والغموض، واعتماد الطّلبة على الحفظ دون الفهم، وعدم إعمالهم للنّظر والنّقد، وتميّزهم بالاستسلام والسّلبية، حتّى تأثّرت حياتهم بذلك فأَرْسَوْا الاستبداد وكرّسوه.[2]

لقد فَوَّتَ هذا الواقع التّعليمي المتردّي على الطّلبة فهم واستيعاب العلوم، ونفّرهم منها وزاد مِنْ جهلهم بها، وأنتج طلّابا سلبيّين لديهم القابلية للاستبداد والاستعمار، وفتح الباب أمام الاحتلال البريطاني الذي استعان به حكّام مصر على الشّيخ محمّد عبدَه والمناهضين للاستعمار مِنْ أمثاله.

أمّا نظام الدّراسة في الأزهر فمتروك للطّالب، فهو الذي يختار مُدَرِّسَه وعلومه ويَحْضُر بإرادته، فالطّالب المجدّ يُصلّي الصّبح ويذهب إلى الأزهر ليحضر درس الفقه الذي يستمرّ إلى الضّحى، وكان الشّيخ يقرّر الجملة ويشرحها ويقتلها بحثا فتضيع فيها السّاعتان والثّلاث، وبعده يجلس الطّلبة الْمُجِدّون يطالعون درس النَّحو القادم، وبعد أداء صلاة الظّهر يبدأ درس النّحو الذي قد يمتدّ إلى العصر، ويقرأ الطّالب كلّ سنة كتابا في الفقه وكتابا في النَّحو، وإذا طال الكتاب فيُقرأ في أكثر مِنْ سنة، ولكلّ كتابٍ مَتْنٌ، وشَرْحٌ يشرح المتنَ، وحاشية تشرح الشّرح، وتقرير يشرح الحاشية.[3]

قدّم الشّيخ محمّد عبدَه للخديوي عبّاس مشروعا للإصلاح الشّامل سنة 1895م، وبدأ يصلح الجوانب الإدارية والمالية والصّحّية، ففي الإدارة كان التّسيّب في الرّقابة على التّدريس، ممّا انجرّ عنه غياب الطّلبة والأساتذة، ورزنامة العمل والامتحانات والإجازات غير محدّدة، والعلوم العصرية والفلسفية يحرم تدريسها وأصحابها متّهمون بالكفر والزّندقة، لهذا كان الطّلبة يتعلّمونها خُفية، أمّا التّدابير الصّحّية فهي مهملة وممنوعة لعدم اطمئنان علماء الأزهر لأقوال الأطبّاء الدّاعين للتّعقيم والتّطعيم، فكانت أُولى إصلاحاته: تحديد مدّة الدّراسة والعطل وبداية السّنة ونهايتها، وثانيها: ضبط نظام التّدريس والامتحانات واقترح إجبارية الامتحانات السّنوية لكلّ الطّلبة، كما اقترح مكافآت للطّلبة المتفوّقين تشجيعا لهم على التّحصيل العلميّ، وثالثها إلغاء دراسة كتب الشّروح والحواشي والتّقارير العقيمة التي كانتْ تُلقّن للطّلبة بلا فهم، واستعيض عنها بكتب أقرب إلى مداركهم، ورابعها: تقسيم

---

[1] أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص289.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ص288، وينظر: سعيد إسماعيل علي، الإصلاح التّربوي عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص664.

[3] ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، المصدر السابق: ص285- 288.

علوم الأزهر إلى علوم مقاصد وعلوم وسائل، وأطيلتْ مدّةُ دراسةِ علوم المقاصد كالمنطق والنّحو والبلاغة ومصطلح الحديث وضُمّ إليها الحساب والجبر، وأُلزم طلّاب شهادة العالمية بالامتحان فيها، وخامسها: تدريس علوم جديدة كانت مهملة كالتّاريخ والجغرافيا والفلسفة والاجتماع والرّياضيات.[1]

كما حرص على إنجاح التّعليم الأزهري بتحسين حالة المدرّسين فيه، وحفظ كرامتهم بتخصيص رصيد ماليّ كافٍ مِنْ ميزانية الدّولة لإنفاقه على الدّراسة الأزهرية، وجعل لهم رواتب محترمة مِنْ خزينة الحكومة لكي لا يخضعوا لإحسان غيرهم، وقد حاجّ الشّيخ محمّد عبدَه المستشار المالي الإنجليزي الرّقيب على ميزانية الحكومة، بأنّ الأزهر يُخَرّج موظّفين لدواوين الحكومة مِنَ القضاة الشّرعيين، فوجب على الحكومة أنْ تنفق عليهم بتخصيص حصّة شهرية لهم مقابل ما يقومون به مِنْ تربية وتكوين لرجالات الأمّة الذين يتوزّعون على الدّوائر الحكومية.[2]

لمّا قام الشّيخ محمّد عبدَه بتلك الإصلاحات في مجلس إدارة الأزهر، والزّيادة في رواتب المدرّسين، ووضع لائحة الكساوى التّشريفية، وتنظيم الجِرَاية ومساكن الطّلبة والإشراف الصحّي عليهم، وبرمجة الامتحانات، وشرع في إصلاح المضامين المتعلّقة باختيار الكتب وبرامج الدّراسة وطرق التّدريس؛ زادوا مِنْ عرقلته واضطرّوه إلى التّريث وأحيانا إلى التّراجع، فهذه الفئة التي أَلِفتِ القديم ورفضتِ التّجديد، عملتْ على الحيلولة دون تطبيق إصلاحاته التّربوية في الأزهر، وحرّضتِ الحكومة على منعها، والتّوجه إلى إنشاء معاهد اللّغة العربية والقضاء الشّرعي، فاضطرّ إلى مداراتهم والتّريّث في تنفيذ بعضها[3]، فقوبلتْ إصلاحاته بمعارضة شديدة مِنْ أهل الجمود، واتّهموه بمحاولة إفساد عقيدتهم وأخلاقهم، لاعتقادهم بأنّ كلّ جديد بدعة، وأنّ تلك الإصلاحات ستذهب بروحانية الأزهر.[4]

ثمّ إنّ شيوخ الأزهر الجامدين المدعومين مِنَ الخديوي منعوا تنفيذ إصلاحاته الجوهرية المتعلّقة بالمقرّرات والمناهج وطرق التّدريس، بمحاربته بالإشاعات، ورميه بالزّندقة والكفر، وكتابة التّقارير السّرية ضدّه للأستانة، لذلك لمّا زارها أساءوا استقباله، ولفّقوا له التّهم والصّور المسيئة في جرائدهم، وكادوا يقتلونه لولا حماية الإنجليز له.[5]

ومِنْ علماء الأزهر الذين عارضوا إصلاحاته التّربوية بشدّة؛ الشّيخ البَجِيري والشّيخ عبد الرّحمان الشّربيني الذي اتّهمه في مقال نشره في جريدة الجوائب المصرية سنة 1904م، بأنّ مقترحاته حوّلتِ الأزهر إلى مدرسة لتعليم الفلسفة والآداب لمحاربة الدّين، فردّ عليه في جريدة المقطّم بمقال بيّن له فيه حاجة الدّراسات الدّينية للدّراسات الفلسفية والآداب والحساب.[6]

إنّ هدف الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ إصلاح الأزهر هو إحداث نهضة علمية ودينية في الأمّة والرّفع مِنْ منزلتها في العالم، بإصلاح عقولها وقلوبها بالدّين والعلم، لكون الأزهر أخصب مكان لذلك، ومنه

---

(1) ينظر: سعيد إسماعيل علي، الإصلاح التّربوي عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص666.

(2) ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص122.

(3) ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص318.

(4) ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص279.

(5) ينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح المجدّد، مرجع سابق: ص252.

(6) ينظر: محمّد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مرجع السابق: ص60.

تنبعث الحياة في الأمّة الإسلامية، لذلك قدّم مشروع إصلاحاته التّربوية للخديوي عبّاس، محاولا التّكيّف مع الواقع المعيش مع الثّبات على مقوّمات الإسلام دون الذّوبان في الحضارة الغربية، رغم ما لَقِيَهُ مِنْ عراقيل مِنْ بعض شيوخ الأزهر الجامدين الذين دافعهم باستماتة لأجل تجسيد إصلاحاته.

وعزم الخديوي للعمل بنصيحة الشّيخ محمّد عبدَه لإصلاح الأزهر، وأمر سنة 1895م بتشكيل مجلس إدارة الأزهر وعيّن الشّيخين محمّد عبدَه وعبد الكريم سلمان، وبدأ المجلس في وضع نظم تقرُّ العدلَ وتمحُو الفوضى وتبعث على العلم النّافع وترشد إلى أساليب التّدريس القويمة التي تثمر محاسن الأخلاق والأعمال، وبدتْ بعض معالم الإصلاح، وبدأتْ تحدث نهضة في الدّراسات الأدبية والعلوم العقلية والدّينية والعلوم الحديثة، وأخذ الشّيخ محمّد عبدَه يبثُّ في العقول مذاهبه وآراءه في كتبه ورسائله ودروسه ومحاضراته التي أثّرت في الأزهريّين وفي غيرهم مِنَ الطّبقات المثقّفة.[1]

ورغم تلك الظّروف والأوضاع التّعليمية المتردّية إلّا أنّ الشّيخ محمّد عبدَه لم ييأس ولم يفشل في تقديم مقترحاته في الإصلاح التّربوي للأزهر، ولم يملّ مِنْ تجسيدها رغم العراقيل والمؤامرات الكثيرة مِنْ بعض شيوخ الأزهر التّقليديّين وأحيانا مِنَ الخديوي نفسه، فأصلح ما أمكنه إصلاحه، وأمّا التي لم تسعفه الظّروف للقيام بها، تكفّل بها تلامذته ومريدوه الذين جاءوا مِنْ بعده.

6- مقاومة الأزهر للاستعمار الأوروبـي

كان للأزهر دور متميّز وإيجابي في تاريخ مصر، فكما كان قلعة مِنْ قلاع العلم والمعرفة يشعّ بنوره على العالم، كان حصنا قويّا لحماية الدّين والعقيدة الإسلامية، وسدّا منيعا في وجه الحملات الصّليبية والغزو الاستعماري الذي استهدف مصر عبر التّاريخ.

فمِنْ داخل الأزهر ومِنْ على منابره وفي أروقته عَلَتْ صيحة الجهاد ضدّ الصّليبيين والتّتار، وضدّ الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون سنة 1798، وضدّ الحملة البريطانية عليها سنة 1807م، وضدّ الإنجليز لاحتلالها سنة 1880م.[2]

وفي أواخر القرن الثّامن عشر الميلادي، وابتداء مِنَ الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م، بدأ يدبّ الضُّعف في أوصال الدّولة العثمانية التي كانت تحكم مصر، وقد كان الأزهر بعلمائه وطلبته أوّل المقاومين للغزو الفرنسي، واستطاع أنْ يمنعهم مِنْ إقامة مستعمرة في مصر، وأجْلاهم عنها سنة 1801م، وتصدّى للحملة البريطانية على مصر ودَحَرها وألحق بها أفدح الخسائر سنة 1807م.[3]

7- محاولات تحييد الأزهر عن رسالتــه

لقد كان للأزهر أثره الطيّب على طلبة العلم في مصر والعالم الإسلامي في الجانب التّعليمي، لما قام به مِنْ إشاعة للعلم والوعي، ولمساهمته في نشر الثّقافة الإسلامية ومواجهة الثّقافات الأجنبية الوافدة والأفكار والنّظم الهدّامة والمفاهيم الخاطئة والشّعارات المغرية المزيّفة الرّائجة في الأمّة

---

[1] ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، ج3، مرجع سابق: ص75.

[2] ينظر: مجلّة البحوث الإسلامية، مرجع سابق: ص91.

[3] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج1، ص112.

الإسلامية، ورغم ما فيه مِنِ اختلالات إلا أنّه استطاع كبح جماحها والحدّ مِنِ انتشارها بأدواره التّربوية والتّعليمية، لذلك قال عنه أحمد أمين: "الأزهر هو المثل الأعلى للتّعليم في المعاهد الدّينيّة".[1]

لكنّ ذلك لم يدم طويلا، واضطربتْ أحواله بتدخّل الحكومة فيه وسيطرتها عليه، وصار محلّ تجاذب بين البلاط والوزارة، وَوُضِعَ قانون جديد له خلافا لخطّة الشّيخ محمّد عبدَه الذي عمل على إبعادِهِ عن الحكومة وجعلِهِ مستقلّا في إدارة التّربية والتّعليم، بأنْ تكون نفقته مِنَ الأوقاف والخزينة، وأنْ يكون رئيسه وأعضاء إدارته منتخَبِين مِنَ الأزهر، ورُتَبُ العِلم فيه منه لا مِنَ الحكومة ولا مِنَ المَلِك، ولمّا تولّى الشّيخ مصطفى المراغي مشيخته[2]، وَضَع قانونا جديدا لإصلاحه فعارضه البلاط وأهل الجمود فاستقال منه، ليتولّاها مِنْ بعده الشّيخ محمّد الظّواهري الذي لَقِيَ القبول عند أهل الجمود الرّافضين للإصلاح، وعَزَلَ المدرّسين المخالفين له، وأرضى المتفرنجين والخرافيّين الدّاعين إلى البدع، فتسبّب بذلك في تدهور الأزهر وتحييده عن أداء رسالته في الإصلاح.[3]

ثانيا: القضـــــاء

اهتمّ الشّيخ محمّد عبدَه بإصلاح المؤسّسات والتّنظيمات ذات الطّابع الاجتماعي كالقضاء وتوظيفها في الإصلاح، وبذل في سبيل ذلك جهودا كبيرة، ووضع برنامجا متكاملا حتّى تكون مؤسّسات القضاء أقرب إلى تحقيق العدل بين النّاس وإحلال الأمن في نفوسهم الذي هو شرط العمل والسّعي.[4]

فالعدالة في نظره لازمة لتحقيق السّعادة، وبفقدها تنحطّ الدّولة إلى أسفل الدّركات وتغشاها الظّلمات والجهالة، لذلك بيّن قيمتها ومكانتها ودورها في تحقيق السّعادة والعمران وترقية الفكر الإنساني وتعميم التّربية بقوله: "المساواة والعدالة هما العلّة الأولى لدوام السّعادة فيطلبونهما بالنّفس والنّفيس، وأنّ الجور والظّلم قرينان للخراب والشّقاوة، وإذا رسختِ العدالة في أمّة تمهّدت لها طرق الرّاحة، وعرف كلّ ما له وما عليه، فتلهّبتْ فيهم الأفكار، وتلطّف الإحساس، وقويتْ قلوبهم على جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرّهم، فيدركون لأوّل وهلة أنْ لا دوام لما وصلوا إليه، ولا ثبات لما تحصّلوا عليه، إلاّ إذا تأيّد بينهم شأن المعارف الحقيقية، وعمّت التّربية سائر أفرادهم".[5]

لذلك عمل الشّيخ محمّد عبدَه على جعل القضاء والمحاكم الشّرعية ومدرسة القضاء الشّرعي مِنْ وسائله في الإصلاح، كما لم يسعَ إلى منصب القضاء، ولكنّ الله ساقه إليه لمّا أُبعد عن التّربية والتّعليم الذي كان يرغب العمل فيه بشدّه ليقينه بدوره المؤثّر في تربية النّشء وتكوينهم حتّى يكونوا ساسة مسيّرين، لكنّ الخديوي توفيق أبعده عن التّدريس لتوجّسه منه، وخوفه مِنْ تأثير أفكاره السّياسية على النّاشئة المصرية رغم تخلّيه عن العمل السّياسي غداة عودته إلى مصر.

---

(1) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص285.

(2) الأزهر لم يكن له شيخ منذ إنشائه، وكان يرعى شؤونه الأمراء، وفي القرن الحادي عشر جُعل له شيخ، وصارت له مكانة روحية وسياسية، ويقوم بشعائر الدّين، ويفصل في قضايا النّاس، ويضبط مرتّباتِهم ويمثّلهم لدى الحكومة، وأوّل مَنْ تَولَّى مشيخته هو الإمام محمّد بن عبد الله الخرشي المالكي(ت1689م)، ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، ج1، ص124.

(3) ينظر: محمّد رشيد رضا، المنار والأزهر، مصدر سابق: ص11و12.

(4) ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص150.

(5) محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الأستاذ الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص25.

كان الخديوي توفيق يخشى أنْ ينشر الشّيخ محمّد عبدَه أفكاره الاستقلالية في الأمّة بالتّعليم، فأراد أنْ يشغله عنه بتعيينه قاضيا في المحاكم الأهلية بعيدا عن القاهرة، فامتعض الشّيخ مِنْ ذلك وقال بأنّه لم يخلق قاضيا وإنّما خلق ليكون معلّما، لذلك طلب مِنْ ناظر الدّاخلية التّوسّط له عند الخديوي ليسمح له بالتّدريس في دار العلوم بدل القضاء، فرفض الخديوي وقال له: "إنّني لا أحبّ أنْ يربّي لي التّلاميذ على أفكاره السّياسية"، فعمل الشّيخ في القضاء وظلّ يرتقي فيه حتّى بلغ أعلى درجاته وصار مستشارا في محكمة الاستئناف، وسار في القضاء بالعدل لا بالقانون والرّسوم، وكان مجتهدا لا مقلّدا، وكان يتحرّى الحقّ والعدل ويجتهد في الإصلاح بين الخصوم ما استطاع إلى ذلك سبيلا.[1]

وفكرة إبعاد الشّيخ محمّد عبدَه عن التّعليم وتوجيهه إلى القضاء كانت بمؤامرة عليه تحايلَ فيها الخديوي توفيق مع اللّورد كرومر، ولم يقتنع الشّيخ بهذه الوظيفة لأنّه أُبعِدَ قسرا عن مهنة التّدريس المحبَّبة إليه، ومع ذلك اشتغل في القضاء حتى أصبح سنة 1891م مستشارا بمحكمة الاستئناف.[2]

بعد انقضاء فترة نفي الشّيخ محمّد عبدَه في بيروت، دخل إلى مصر بوساطة أصحابه وتلامذته بعد تعهّده لهم بعدم ممارسة السّياسة، لكنّ انكسار الودّ الذي كان بينه وبين الخديوي توفيق بسبب الثّورة العُرابية، لم يلبِّ له الخديوي رغبته ولم يسمح له بالتّعليم والتّدريس حتّى لا يربّي الأجيال على أفكاره وآرائه، فوجّهه إلى ميدان القضاء، ولمّا أدرك الشّيخ محمّد عبدَه أنّ السلطة الفعلية بيد الاحتلال البريطاني توجّه لإصلاح القضاء وتطويره، لكنّ الخديوي والإنجليز تحايلوا عليه وعرقلوا مساعيه الإصلاحية، وأرادوا أنْ يستغلّوه لتنفيذ رغباتهم وتوظيفه في مناهضة التّيار الشّعبي الثّوري الذي كان يقوده مصطفى كامل، وحاولوا صرفه عن الإصلاح الذي أسندوا مهمّته إلى أهل الجمود، حتّى يعرقلوا مشروعه الإصلاحي ويمنعوه مِنْ تجسيد آرائه التّجديدية.[3]

ثالثا: المحاكم الشّرعيـة

لمّا عمّ الفساد والظّلم والرّشوة في المحاكم الشّرعية، أمر الخديوي سعيد باشا بوضع لائحة لتسييرها وإصلاحها، فوُضِعت اللّائحة الأولى التي أقرّتها لجنة أزهرية مِنْ علماء المذاهب الأربعة، ثمّ وُضِعت لائحة ثانية بإشراف مفتي مصر الشّيخ العبّاسي، ثمّ وُضِعت لائحة أخيرة أقرّها شيخ الأزهر بمعية قاضي مصر، فرأى الشّيخ محمّد عبدَه بأنّ تلك اللّوائح لم تفِ بالمطلوب، وأنّ المحاكم الشّرعية بحاجة ماسّة إلى إصلاحها، فقدّم تقريرا إلى مجلس شورى القوانين ذكر فيه ما ينبغي إصلاحه فيها.[4]

وأراد الشّيخ محمّد عبدَه أنْ يصلح المحاكم الشّرعية بإصلاح مناهج التّعليم بالأزهر، وتحديث طرائقه التّعليمية لتحسين مستوى المتخرّجين منه، والذي سينعكس حتما على عمل تلك المحاكم.[5]

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص420.

[2] ينظر: محمّد عمارة، شخصيات لها تاريخ، مرجع سابق: ص191.

[3] ينظر: محمّد عمارة، مسلمون ثوار، مرجع سابق: ص443و444.

[4] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الأستاذ الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج2، ص290و291.

[5] ينظر: أثر مدرسة القضاء الشرعي في الفكر الإسلامي،-مقال-: https://islamonline.net، تاريخ النشر: 10سبتمبر2018م، تاريخ الزيارة: الثلاثاء: 2020/02/18، في السّاعة: 14:30.

ولمَّا عُيِّن الشّيخ محمّد عبدَه مفتيا للدّيار المصرية سنة 1899م عَهِدَتْ إليه الحكومة تفتيش المحاكم الشّرعية وطلبتْ منه بيان رأيه في إصلاحها بعد أنْ فشا خللها بين العامّة، بعدما رأى بعض الباحثين ضرورة إلغائها وتحويل اختصاصها إلى المحاكم الأهلية، فطاف على المحاكم يفتِّشها بدقّة ووقف على الاختلالات الموجودة فيها، فوضع تقريرا مفصَّلا بيَّن فيه نقائصها وأسلوب معالجتها، ثمّ اقترح جملة مِنَ الإصلاحات ودعا إلى تنفيذها، وجرى نقاش حول إصلاحها في مجلس شورى القوانين، وكان قد مَنَعَ القاضي التّركي في مصر تنفيذَها لعدم صلاحيتها، لكنّ الشّيخ محمّد عبدَه استطاع أنْ ينتزع مِنَ المجلس تأييد إصلاح خمسة أمور بالمحاكم الشّرعية وهي: الأوّل: تقويم طريقة التّعليم لعمّال المحاكم الشّرعية مِنْ قُضاة وكَتَبَة وتعليمهم ما يحتاجونه في وظيفتهم، والثّاني: تعديل لوائح المحاكم الشّرعية لتنظيم سيرها وسرعة الفصل في قضاياها بالشّريعة الإسلامية، والثّالث: الاتّفاق مع شيوخ الأحناف على إيجاد طريقة لفهم الأحكام الشّرعية التي يتقاضى النّاس بها، الرّابع: وضع قاعدة لتنفيذ الأحكام الشّرعية لانتفاع المحكوم له بالحكم وفق الشّريعة الإسلامية، الخامس: ترقية مرتّبات عمّال المحاكم الشّرعية وإلحاقهم بباقي موظّفي الحكومة.[1]

لقد كان الشّيخ محمّد عبدَه حريصا على الالتزام بالمرجعية الشّرعية الفقهية في تنفيذ إصلاح المحاكم الشّرعية وعدم تجاهل التّراث الفقهي للمسلمين خصوصا اجتهادات الأئمّة الأربعة المشهورين، لإرساء العدالة والاستقرار وإشاعة الطّمأنينة وتحقيق السّعادة في المجتمع المصريّ، وذلك لا يكون إلّا بتعيين قضاة مصريّين مِنْ أهل المذاهب الأربعة لأنّ أصولها متقاربة وعبارات كتبها ميسورة الفهم سهلة التّناول، فكلّها ممّا يوافق الدّين وكلّها مستوحاة مِنْ معين الشّريعة الإسلامية.[2]

وعهدت الحكومة بإصلاح المحاكم الشّرعية إلى الشّيخ محمّد عبدَه وطالبته بوضع تقرير حولها لكونه مِنْ علماء الشّريعة، ولما يتميّز به مِنْ حسن الإدارة والتّسيير، فطاف على المحاكم وفتّشها بدقّة حتّى عَرَفَ شؤونها وخَبَرَها، فجاء تقريره كافيا وافيا، ضمّنه مقدّمة ذكر فيها وظيفة المحاكم الشّرعية واختصاصها، وما لأعمالها مِنَ التّأثير في الهيئة الاجتماعية، والتّربية القومية، ثمّ فصَّل الكلام عن الكَتَبة والقُضاة والحُجَّاب والدّفاتر وسائر الأعمال، مبيّنا الاختلالات الموجودة فيها والمخارج منها، كما أوضح أنّ كمال الإصلاح يتوقّف على عدم التّقيّد بمذهب الإمام أبي حنيفة في سائر الجزئيات، لأنّ اختلاف الفقهاء لا يكون رحمة إلّا إذا أخذتِ الأمّة مِنْ مجموع أقوالهم بما يوافق مصلحتها العامّة.[3]

وقد استحسن العلماء والفضلاء بإجماع تقرير الشّيخ محمّد عبدَه في إصلاح المحاكم الشّرعية، وجزموا بأنّه لم يُحَابِ الحكومة في إظهار خطئها، وأنّه شخَّص الدّاء، ووصف الدّواء للعلاج.[4]

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الأستاذ الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج2، ص290و291، وينظر: غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص44- 46.

[2] ينظر: محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، مصدر سابق: ص123.

[3] ينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج2، ص578.

[4] ينظر: المصدر نفسه: مج4، ص509.

في حين عرقل بعض شيوخ الأزهر الجامدين إصلاحاته، بحجّة حماية الشّريعة والمحافظة على الدّين، فقَوَّى العامّة موقفهم وصدّقوا دعاويهم، بالإضافة إلى مسايرة الحكومة لهم حتّى لا تُهيِّجهم عليها، لذلك قد يفضي إصلاح حال العامّة بالتّربية والتّعليم النّافع إلى إصلاح حال الحكومة.[1]

رابعا: مدرسة القضاء الشّرعـي

تعدّ مدرسة القضاء الشّرعي مِنَ المؤسّسات التّعليمية التي ترجع فكرة إنشائها إلى عهد علي مبارك باشا سنة 1888م، لكنّها لم تجسّد على أرض الواقع حتّى برزت الفكرة إلى عالم الوجود وتمّ تنفيذها في عهد وزير المعارف سعد زغلول، حيث شملها المشروع الإصلاحي الذي دعا إليه الشّيخ محمّد عبدَه، وفي سنة 1907م صدر الأمر العالي بإنشاء مدرسة القضاء الشّرعي التي تَولَّى نظارتها واحد مِنْ خيرة خريجي دار العلوم وهو الباشا محمّد عاطف بركات، ولإقامة دعائم المدرسة وإرساء معالمها كانت تُختار هيئة تدريسها بعناية مِنْ خيرة أبناء مصر المعروفين بالأخلاق الحسنة والفضل والصّلاح والعلم، أمثال محمّد الخضري بك، والشّيخ عبد العزيز الجاويش وغيرهما مِمَّنْ تولَّوا تدريس اللّغة العربية وآدابها والفقه والتّوحيد والتّفسير والأصول والرّياضيات والتّاريخ والجغرافيا، وقد كان الغرض مِنْ إنشائها تخريج قضاة شرعيّين ومفتّشين ومحامين وكتّاب محاكم، كما كانت تمثّل أحد أقسام الأزهر الذي يشرف عليه شيخ الأزهر، لكنّها تابعة إداريا لوزارة المعارف، وبعدما قضت المدرسة فترة مِنَ الزّمن في خدمة المصريّين ضعفت عن أداء مهامها وصارت غير فاعلة، فألغيت سنة 1928م وحُوِّلَ طلبتها إلى دار العلوم، بعدما خرَّجت نخبة مِنَ القضاة والمفكّرين البارزين.[2]

لقد كان الشّيخ محمّد عبدَه يسعى لإيجاد قسم للقضاء الشّرعي بالأزهر حتّى ينفتح به على المجتمع، ويُخرِّج قضاة شرعيّين ينافسون القضاة المدنيّين في القضاء الأهلي الذي كان لديه قانونا جاهزا، وقضاته ثقافتهم فرنسية، فاستطاع تلميذه سعد زغلول أنْ يُوجد مدرسة للقضاء الشّرعي.[3]

ومِنْ أبرز مدرِّسي وخرّيجي مدرسة القضاء الشّرعي: محمّد الخضري بك، مصطفى عبد الرّازق، وأحمد أمين، والشّيخ محمد أبو زهرة، وعبد الوهّاب خلّاف وأمين الخولي وغيرهم، وقد سعى الشّيخ محمّد عبدَه لإصلاح المحاكم الشّرعية بطرحه على الخديوي عبّاس حلمي الثّاني فكرة إنشاء مدرسة القضاء الشّرعي التي تحمّس لها كثيرا، فقدم في نوفمبر سنة 1899م تقريرا إلى وزير العدل طالب فيه بإنشاء مدرسة القضاء الشّرعي، وفي أفريل 1905م شُكّلت لجنة برئاسته لإعداد لائحة المدرسة المقترحة، فوضع نظامها الدّراسي ومدّة الدّراسة فيها، وحدّد كتبها المقرّرة، وميزانيتها، لكنّ المشروع تأخَّر تنفيذه بسبب وفاته، حتّى أحياه تلامذته على صفحات مجلّة المنار، ثمّ قام وزير المعارف سعد زغلول بإنشائها، ورصد لها ميزانية مِنْ وزارة المعارف عام 1907م، إلّا أنّ الخديوي عباس غيَّر رأيه وعارض إنشاءها بقوّة بدعوى أنّها تسلب الأزهر جزءا مِنِ اختصاصه، وأنّ المراد مِنْ إنشائها هدم

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج7، ص212.

[2] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، مرجع سابق: ج1، ص140- 142.

[3] يرجع إلى: محاضرة محمّد عمارة على اليوتيوب بعنوان: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، من تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بمركز الدّراسات المعرفية في مصر، ألقاها في: 15 فيفري 2017م.

الأزهر، وبعد ضغوط كبيرة تمّتِ الموافقة على إنشائها في 25 فيفري 1907م، فكان الطّالب يدرس فيها العلوم الشّرعية إلى جانب العلوم اللّغوية والقانونية وعلوم الإدارة والطّبيعة والجغرافيا والتّاريخ والحساب والرّياضيات، وَوَضَعت شروطا لاختيار الطّلبة؛ منها أنْ يكون قد درس في الأزهر عدَّة سنوات، وأنْ يكون حَسَنَ السّيرة، صحيحَ الجسم، حافظا لنصف القرآن على الأقل.[1]

وتجدر الإشارة إلى أنّ الشّيخ محمّد عبدَه تولّى إصلاح مدرسة القضاء الشّرعي بنفسه في أوائل مرض موته، فكان ذلك آخر عمل قام به ضمن مشروعاته الإصلاحية.[2]

الفرع الثّاني: المدارس النّظاميــة

درّس الشّيخ محمّد عبدَه في بعض المدارس النّظامية كمدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن في مصر، والمدرسة السّلطانية في بيروت وقام بإصلاحها واتّخاذها وسيلة لتجسيد إصلاحاته، وسعى لأنْ تكون مدرسة دار العلوم مشروعا بديلا للأزهر، وطمح لترقيتها إلى مصافّ الجامعات الأوروبّية، ولمّا لم يتمكّن مِنْ ذلك اجتهد في تطوير التّعليم بدار العلوم حتّى يتماشى مع متطلّبات عصره، وقد تحقّقت بعض مساعيه بعد وفاته بتأسيس جامعات متنوّعة التّخصصات لتخريج النّخب والكفاءات.

كما أنشئت مدرسة الألسن للانفتاح على الأوروبّيّين والاستفادة منهم بتعلّم لغاتهم، وتلبية احتياجات مجتمعه العلمية، ومِنْ خلالها اطّلع المصريّون على التّطوّر العلمي والعسكري للفرنسيّين، وأخذ السّاسة المصريّون والعلماء والمفكّرون يسعون للّحاق بركبهم والبحث عن سرّ تطوّرهم لتجسيده في واقعهم المعيش، أمّا خارج مصر فعمل على مواصلة نشاطه التّربوي والتّعليمي في منفاه ببيروت، حيث لبّى دعوة والي بيروت الذي طلب منه التّدريس بالمدرسة السّلطانية، التي ترك فيها بصمات إيجابية مِنْ خلال إصلاح الاختلالات التّربوية والتّعليمية والإدارية المستشرية فيها.

فالتّربية الصّحيحة بالنّسبة إليه تُعنى ببناء الإنسان وتطوير كفاءاته، وإطلاق قدراته للوصول به إلى مرحلة الرَّفَاهِ والكمال، لذلك جعل التّعليم أحد الأدوات المهمّة في تربية العقول والنّفوس.[3]

أوّلا: مدرسة دار العلــوم

1- التّعريف بدار العلــوم

أنشأ الوزير علي مبارك باشا[4] مدرسة دار العلوم سنة 1871م[5] بعدما سعى مع الخديوي إسماعيل في استصدار قرار بفتحها، وكانت بدايتها بتدريس اثنين وثلاثين طالبا، فقد أنشأها بعدما

---

[1] ينظر: أثر مدرسة القضاء الشّرعي في الفكر الإسلامي -مقال على شبكة : https://islamonline.net، تاريخ النشر: 10سبتمبر 2018م، تاريخ الزيارة: الثلاثاء: 2020/02/18، في السّاعة: 14:30 زولا.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج10، ص48.

[3] ينظر: منتهى عبد جاسم، جدلية العلاقة بين التّربية والسّياسة عند محمّد عبدَه، رسالة ماجستير تحت إشراف الدّكتورة: فضيلة عباس مطلك، قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة بغداد، (د د)، (د ط)، سنة: 2002- 2003م، ص54.

[4] **علي باشا مبارك(1824- 1893م):** عالم ومؤرّخ ووزير مصري، سافر إلى باريس مع بعثة مصرية للتّكوين الحربيّ، ثمّ عاد إلى مصر وتقلّب في الوظائف العسكرية وبلغ رتبة أميرالاي، ثم نُصّب ناظرا للأوقاف، فأنشأ مدارس كثيرة، ودارا للكتب المصرية في القاهرة، كما وَلِيَ نظارة المعارف المصرية، مِنْ مؤلّفاته: خلاصة تاريخ العرب، جغرافية مصر، حقائق الأخبار في أوصاف البحار، خواصّ الأعداد، تقريب الهندسة، الميزان في الأقيسة والمكاييل والأوزان، الخطط التّوفيقية، علم الدّين(قصة) وغيرها، ينظر: الزّركلي، الأعلام، ج4، ص322.

[5] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص122.

يئس مِنْ قيام الأزهر بتخريج مَنْ يصلح لتدريس الفنون والعلوم العربية، وقد كان الشّيخ محمّد عبدَه مِنَ الأساتذة الأوائل الذين درّسوا فيها[1]، وعُهد إليه بتدريس علم التّاريخ فيها أواخر سنة 1878م.[2]

واشترط أنْ يكون تلامذتها مِنْ طلبة الأزهر الذين حصّلوا منه العلوم التي تؤهّلهم للتّدريس فيها، ثمّ جعل دروسها ممّا كانوا يقرؤونه في الأزهر مِنَ العلوم الدّينية، وأضاف إليها علوم الطّبيعة والكيمياء والحساب والهندسة والجغرافيا والتّاريخ، حتّى يكونوا أهلا لتدريس العلوم العربية والدّينية في المدارس الرّسمية، ولمّا لم يَضَعْ لها -علي باشا مبارك- أساسا للتّربية؛ كان غالبية التّلاميذ الذين تخرّجوا منها غير متميّزين عن غيرهم في الأخلاق والأفكار إلّا قليلا.[3]

2- مراحل مدرسة دار العلــوم: مرّت مدرسة دار العلوم منذ إنشائها بعدّة مراحل تمثّلت فيما يلي:

أ- مرحلة النّشأة(1871إلى 1887م): لم يكن لها مقرّر دراسيّ مطبوع، والدّراسة فيها غير محدّدة المدّة، يدرس فيها الطلاب التّفسير والفقه والعلوم الأدبية والتّاريخ والجغرافيا والحساب والهندسة والكيمياء والطّبيعة والخطوط العربية، وفي عام 1880م أضافت لها نظارة المعارف اللّغة الفرنسية[4]، وفي عام 1885م ضُمّت إليها مدرسة الألسن ليتعلّم الطلّاب فيها إحدى اللّغتين الفرنسية أو الإنجليزية.[5]

ب- مرحلة الحركة والتّغيير(1887 إلى 1895م): في عام 1887م حدّد مجلس النّظّار العلوم التي تدرّس بها وهي: النّحو والصّرف والإملاء والبيان والبديع والمعاني والعروض والقوافي والإنشاء والمنطق والفقه الحنفي والتّفسير والحساب والهندسة والجبر والتّاريخ والجغرافيا والطّبيعة والكيمياء والخطوط العربية، وطرق تعليم الأطفال، وعام 1888م أضيف إليها تدريس علوم؛ الأصول والهيئة والجيولوجيا، وأصبح خريجو دار العلوم يدرّسون ويعملون في وظائف القضاء والإفتاء والنّيابة بالمحاكم الشّرعية.[6]

ت- مرحلة الطّور التّربوي(1895 إلى 1913م): وفيها زيدت دروس التّربية والرّياضة، وصارت اللّغة الأجنبية إلزامية، وفي عام 1897م جُعلتْ بها الدّراسة أربع سنوات تسبقها سنة تحضيرية، وفي سنة 1913م تقرّر تدريس قانون الصحّة، وعلم النّفس.

ث- مرحلة النّهوض والاتّساع(1913 إلى 1920م): وفيها اتّسعت دار العلوم كثيرا وزاد عدد طلّابها زيادة عظيمة، لكن في المقابل ضعف مستوى المتخرّجين فيها.[7]

ج- مرحلة التّقلبات والتّحولات(1920 إلى 1930م): وفيها ظهرت عدّة نظم وعدّة أقسام نتيجة لوجود نوعيات مختلفة مِنَ الطلّاب، وإتمام بعضهم الدّراسة الثّانوية بالمعاهد الدّينية، وحصول بعضهم على شهادة العالمية مِنْ مدرسة القضاء الشّرعي، ودراسة بعضهم في تجهيزية دار العلوم.

---

(1) ينظر: مجلة البحوث الإسلامية، مرجع سابق: ص770، وينظر: موقع المعرفة/m.marefa.org، تاريخ الزيارة: الاثنين: 2020/11/02م، في الساعة: 09:00 صباحا، وينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج29، ص539.

(2) ينظر: المصدر نفسه: مج23، ص520.

(3) ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص122.

(4) ينظر: مجلة البحوث الإسلامية، المرجع السابق: ص771.

(5) ينظر: موقع المعرفة/ m.marefa.org، تاريخ الزيارة: الاثنين: 2020/11/02م، في الساعة: 09:00 صباحا.

(6) ينظر: مجلة البحوث الإسلامية، المرجع السابق: ص771و772.

(7) ينظر: المرجع نفسه: ص772.

ح- مرحلة الاستقرار(1930 إلى 1938م): وفيها انتهتْ الدّراسة المتشعّبة لطوائف الطلّاب المختلفة بانتهاء سنة 1930م، ومع بداية سنة 1931م استقرّ الحال في دار العلوم على نظام واحد وهو النّظام الخاص بخريجي تجهيزية دار العلوم ومَنْ في مستواهم.

خ- مرحلة تشكيل المجلس الأعلى لدار العلوم(1938 إلى 1945م): وقد امتازت بإنشاء قسم داخليّ للطلّاب، وصارتْ مدّة الدّراسة بها ستّ سنوات، وتمّ تشكيل المجلس الأعلى لدار العلوم مِنْ وكيل وزارة المعارف رئيسا، ويختصّ بترشيح أعضاء هيئة التّدريس واقتراح ترقيتهم والقوانين واللّوائح وخطط الدّراسة والمناهج الخاصّة بها، وتوقيع عقوبتَيْ فصل الطلّاب نهائيا أو حرمانهم مِنَ الامتحانات.[1]

د- مرحلة دار العلوم كلّية جامعية: وفي سنة 1945م أقرّ المجلس الأعلى لدار العلوم فكرة جعلها كلّية جامعية للتّخصص في الدّراسات العربية مع احتفاظها بكيانها وطابعها الإسلامي الخاصّ، والدّراسة بها أربع سنوات، ثمّ ضُمَّتْ الكلّية إلى جامعة فؤاد الأوّل بالقاهرة فيما بعد، وقد تخرّج فيها عبر مسيرتها العلمية الطّويلة عدد كبير مِنَ العلماء والمشاهير الذين نشروا رسالتها في المحافظة على اللّغة العربية[2]، ليتمّ تطويرها فيما بعد إلى اسم دار المعلّمين العليا، ويتخرّج فيها رجال متميّزون في الإصلاح في القرن العشرين امتدّ تأثيرهم ونفعهم إلى اليوم، أشهرهم الإمام حسن البنّا -يرحمه الله-.[3]

3- إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه في دار العلـوم

يرى الشّيخ محمّد عبدَه أنّ أيّ باحث إذا أراد أنْ يعرف أين تموت اللّغة العربية؟ وأين تحيى؟ لوجدها تموت في كلّ مكان، ووجدها تحيى في دار العلوم، فقد أنشأ الوزير علي مبارك هذه المدرسة لمّا أحس أنّ هناك هوة كبيرة بين فئتَيْن مِنَ المعلّمين الذين تولّوا تربية النَّشء وتعليمه في عصره وهما: فئة الأزهريّين الذين كانوا يرون بأنّ كل علم خرج عن العلوم التي تلقّوها في الأزهر إنّما هو كفر وضلال وأنّ الاشتغال بها عبث لا طائل منه، وأنّ مُدرّسي الجغرافيا والكيمياء والطّبيعة وغيرها كفرة وملحدون، والفئة الثّانية: فئة معلّمي العلوم الكونية الذين كانوا ينظرون إلى معلّمي اللّغة العربية والدّين نظرة دونية، ويرمونهم بالجهل والضّلال، فأراد رتق ذلك الخلل بتقريب الهوة بين الفئتَيْن، فأسّس دار العلوم ليتلقّى فيها الطلّاب العلوم الكونية التي لا تدرّس في الأزهر إضافة إلى علوم الشّريعة وعلوم اللّغة العربية.[4]

ورغم الشّروط التي وضعها الوزير علي مبارك للالتحاق بمدرسة دار العلوم، إلّا أنّ الشّيخ محمّد عبدَه وقف على عدّة اختلالات منها؛ أنّ النظّار القائمين عليها يجهلون اللّغة العربية ولا يعتقدون بالإسلام، فلم يُعَيَّن فيها إلّا مَنْ كان همّه الرّاتب والارتزاق بالتّدريس فحسب، ويفتقدون للأخلاق والكفاءة، وكثيرهم لا أهلية له للعمل فيها لكونهم لا يحسنون أداء مهامّهم، بالإضافة إلى عدم عنايتهم بالتّربية، ولا يهمُّهم فساد أخلاق التّلاميذ، ولا اعوجاج أفهامهم، كما أنّ سائر المدرّسين فيها يَنْقُلُون

---

[1] ينظر: مجلة البحوث الإسلامية، مرجع سابق: ص773و774.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص774.

[3] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج1، ص130.

[4] ينظر: مجلة البحوث الإسلامية، المرجع السابق: ص769.

العلوم مِنَ الكتب دون بيان الغاية مِنْ تعلّمها، لذلك اجتهد أنْ تقوم الدّار بالتّربية والإصلاح وتهيئة طلبة العلم حتّى يكونوا أكفاء لذلك، فقال عنها آملا منها الكثير: "هذه المدرسة تصلح أنْ تكون ينبوعا للتّهذيب النّفسي والفكري والدّيني والخلقي، ويمكن أنْ ينتهي أمرها إلى أنْ تحلّ محلّ الأزهر".[1]

لذلك كتب الشّيخ محمّد عبدَه لائحة إصلاح التّعليم في مصر، ووضع جملة مِنَ الشّروط للتّدريس بمدرسة دار العلوم، بأنْ يكون المعلمون مؤهّلين للقيام بالأعمال الموكلة إليهم، وأنْ يكونوا متقنين لموادّ الدّراسة وعارفين بالغاية مِنْ تعليمها وطرق توصيلها للتّلاميذ مع متابعة أخلاقهم، فقد وجد معظم المعلّمين بها لا يحسنون أداء وظيفتهم، ولا هدف لهم إلا التعيّش بمرتّباتهم، ولا عناية لهم بأمر التّربية، لهذا أوصى أنْ تَجمع التّربية في المدرسة بين العلم والعمل، وأن يُلزَم تلامذتها بنظام شديد في التّهذيب، وأنْ يكون للموظّف سلطة تهذيب التّلاميذ وتربية نفوسهم وتقويم أخلاقهم، وأنْ يبقوا بلباسهم الدّيني مهما ترقّوا في الوظائف، كما طالب بتوسيع طاقة استيعاب المدرسة إلى مائة تلميذ، ونادى بزيادة التّدريس فيها عاما ليتمرّن الطّالب عليه، فزيدت على إثر ذلك حصّة التّربية إلى اثنتَيْ عشرة حصّة، وصارت تُدَرَّس في السّنوات الأربع بعدما كانت تدرّس في السَّنَة الرّابعة فقط.[2]

ولأجل النّهوض بدار العلوم وإحلالها محلّ الأزهر، اقترح الشّيخ محمّد عبدَه على اللّورد كرومر في لائحته لإصلاح التّعليم؛ تدريس العلوم المهمّة الْمُغْفَلة بسبب الجمود، كعلوم الطّبيعة والحساب والهندسة والجغرافيا والتّاريخ، وبيَّن له أنّه لمّا كان الغرض مِنْ دار العلوم تخريج طلبة مدرّسين لعلوم اللّغة العربية والعلوم الدّينية في مؤسّسات الدّولة المختلفة، وجب تعليمهم تلك العلوم وتكوينهم فيها تكوينا جيّدا حتّى تكون لهم الكفاءة المطلوبة في ممارسة التّربية والتّعليم بعد تخرّجهم منها.[3]

كما استهدف مِنْ لوائحه التي كتبها إلى كرومر مِنْ إصلاح التّربية؛ تغيير طريقة تفسير القرآن الكريم التّقليدية واستبدالها بطريقة حديثة تتماشى والتطوّر العلمي والاجتماعي، واختيار نُظَّار ومعلّمين صالحين أكْفَاء، وتمديد الدّراسة فيها لتدريب المعلّمين على التّدريس، بالإضافة إلى إلزامهم بتأليف كتب جديدة لها، لكنّ كرومر لم يُلقِ بالا للّائحة التي وجّهها إليه الشّيخ محمّد عبدَه.[4]

لقد كانت للشّيخ محمّد عبدَه نظرة دقيقة وعميقة لإصلاح التّربية والتّعليم في مصر، فأعطى المعلّمين والمتعلّمين حقّهم، وقدّم مقترحاته بحسب ما يناسب كلّ فئة سنّا ومستوى وما ستوجّه إليه وظيفيّا مستقبلا، وحاول أنْ يجعل المتخرّجين منها ملمّين بالعلوم الحديثة والعلوم التّقليدية معا.

وقد تكلّلت مساعي علي مبارك باشا في إنشاء مدرسة دار العلوم، وجهود الشّيخ محمّد عبدَه في تنفيذ إصلاحاته التّربوية لإزالة الاختلالات الحاصلة فيها، بأنْ صار لدار العلوم دورا رائدا في ترقية الفكر العربي والإسلامي، وفي تكوين نخب متنوّرة ومتفتّحة على العالم الخارجي، بتدريسها للعلوم الحديثة التي تحتاجها الأمّة الإسلامية، حتّى تواكب العصر ومتغيّراته وتواجه مؤامرات الغرب وتحدّياته، فأثْرَتْ

---

[1] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، ج3، ص123، وينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مج10، ص20.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، المصدر السابق: ج3، ص123و124، وينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص210و211.

[3] ينظر: غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص39.

[4] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، مرجع سابق: ج1، ص248.

دار العلوم التّربية والتّعليم في مصر بمعية الأزهر الذي يدرّس علوم الشّريعة، فتخرّج فيها أعلام كبار مِنَ القضاة والمحامين والكتّاب والمدرّسين، وسدّوا مكامن الخلل والنّقص في الدّوائر الحكومية المصرية.

إنّ دار العلوم أنشئت بهدف تدريس العلوم العصرية، وتخريج معلّمين يدرّسون اللّغة العربية بصورة متطوّرة عن الكيفية التي تُقَدَّم بها في الأزهر المتّسمة بالتّعقيد والتّلقين والحشو، وتجدر الإشارة إلى أنّ تدريس علوم اللّغة العربية لم يكن يختلف في بداية تدريسها في دار العلوم عن الطّريقة والمقرّرات السّائدة في الأزهر، وفي سنة 1886م صارت تدرّس فيها التّربية، وابتداء مِنْ سنة 1887م خرّجتْ دار العلوم إضافة إلى المعلّمين؛ موظّفين يعملون في مختلف الوظائف الحكومية السّامية كالقضاء والنّيابة والمحاكم الشّرعية والإفتاء والمقاولات والأعمال الحرّة.[1]

وقد أُختِير الشّيخ محمّد عبدَه لتدريس مادّة التّاريخ في مدرسة دار العلوم بعد نيله لشهادة العالمية سنة 1877م، فدرّسها بطريقة لم يقتصر فيها على التّلقين وسرد الحوادث كما جرتْ عادة تدريس التّاريخ، واستطاع أنْ يجدّد فيها مِنْ خلال طريقة تدريسه لمقدّمة ابن خلدون.[2]

لقد فعّل الشّيخ محمّد عبدَه في دار العلوم تدريسه لمادة التّاريخ وبقراءته لمقدّمة ابن خلدون على طلبتها وطرحه لآرائه الاجتماعية مِنْ خلالها، وما تكشِفُ عنه مِنْ أسباب وعوامل رقيّ وانهيار الأمم، مركّزا على أصول العمران البشري والاجتماعي، ومعقّبا عليها بآرائه السّياسية والاجتماعية، محاولا الإسقاط على المجتمع المصري، ومستخلصا للدّروس منها لتجنّب تَكرار الأخطاء الماضية للأمّة الإسلامية التي جعلتها ترزح في التّخلف والضّعف والجهل، الأمر الذي صيَّرها نهبا للدّول الأوروبّية المستعمرة.[3]

فأقام الشّيخ محمّد عبدَه تربية ناجحة في دار العلوم، بتوظيفه لأمّهات الكتب بإقرائها على طلبتها وشرحها لهم وبثّ أفكاره التّربوية والاجتماعية والسّياسية باعتماده على مقدّمة ابن خلدون، لإيجاد جيل مصريّ غيور على اللّغة العربية التي بدأت تزاحمها العامّية واللّغات الأجنبية.[4]

وبذلك صارتْ دار العلوم تمثّل ناديا فكريا ومدرسة عُليا استطاعتْ أنْ تجدّد الفكر الإسلامي وتؤثّر على الأزهر الذي تخرّج فيه شيوخ أجلاّء كالشّيخ مصطفى المراغي، ومصطفى عبد الرّازق، والشّيخ محمّد الغزالي وغيرهم، فكان جيل المجدّدين للفكر الإسلامي اليوم هم ثمرة لمدرسة دار العلوم.[5]

كما دعا الشّيخ محمّد عبدَه إلى أنْ يكون للدّين دورا أساسيا في إصلاحه التّربوي، بدعوته إلى تعليمٍ مُؤَسَّسٍ على مبادئ الدّين دون الاقتصار على التّعليم الدّيني، وسعى إلى جعل التّعليم مدنيّا في المستقبل بدليل تحبيذه لنموذج مدرسة دار العلوم العليا، وذلك بأنْ يكون تعليما يستجيب لظروف

---

(1) ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، مرجع سابق: ج1، ص127- 129.

(2) ينظر: عبد المتعال الصعيدي، المجدّدون في الإسلام، مرجع سابق: ص400.

(3) ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص171.

(4) ينظر: أحمد الشرباصي، رشيد رضا صاحب المنار، مرجع سابق: ص260.

(5) يرجع إلى: محاضرة محمّد عمارة على اليوتيوب بعنوان: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، من تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بمركز الدّراسات المعرفية في مصر، ألقاها في: 15 فيفري 2017م.

عصره ويقيم صلاتٍ مع المبادئ الدّينية الضّرورية، وفي المقابل حذّر المصريّين مِنْ إرسال أبنائهم إلى مدارس الإرساليات الأجنبية وبعثات التّبشير حفاظا على عقيدتهم مِنْ تأثيراتها السّلبية.[1]

ورغم تدريس دار العلوم للعلوم العصرية وانفتاحها على العالم الأوروبّيّ المتطوّر، واجتهاد الشّيخ محمّد عبدَه في تجسيد مقرّراتها وتكوين نخب واعية تحمل فكرا نيّرا لخدمة الأمّة، ومساهمته في إصلاحها وتطويرها وجعلها فاعلة في تربية وتعليم طلّابها، وتخريج إطاراتٍ كُفأة شغلتْ مناصب عالية في الحكومة المصرية، ومدافعة النّفوذ الأجنبي لينحسر عنها تدريجيا؛ طعن فيها بعض المفكّرين التّغريبيّين المصريّين أمثال لويس عوض[2]، وسَخِطَ على عقولها المدبّرة بنشر أكاذيبه والتّرويج لطعونه، فقال محمّد عِمارة في هذا السّياق: "أمّا موضع سخطه -لويس عوض- فهو دار العلوم تلك التي علّق عليها محمّد عبدَه آمالا في لحظات يأسه مِنْ تجديد الأزهر، فهي -بما استهدَفَ مُنشِؤها مِنْ ورائها- الجامعةُ بين الأصالة الإسلامية وبين المعاصرة، والمؤسّسَةُ للمُعَاصَرَة على قواعد الإسلام، أو هكذا كان الهدف مِنْ وراء إنشائها، وفي ذهن كوكبةٍ مِنَ الأعلام الذين خرجوا منها يقودون حركة تجديد دنيا المسلمين بتجديد دينهم! وعن دار العلوم هذه يُعِدُّ الدّكتور لويس دراسة يوجّه فيها إليها السِّهام".[3]

لقد استهدف التّغريبيّون بمخطّطاتهم دار العلوم التي عملتْ على إحياء الأمّة والنّهوض بها، وكان هدفهم مِنْ ذلك تكريس التّخلّف والجهل والرّكود الذي ساد المجتمع المصري لعقود طويلة، فلم يبق الشّيخ محمّد عبدَه مكتوف اليدين، فأسهم مِنْ جانبه في استثمار هذه المؤسّسة التّربوية وإكمال مسيرة إصلاح التّربية والتّعليم التي أسّس لها الوزير علي مبارك باشا.

4- لائحة مقترحات الشّيخ محمّد عبدَه إلى اللّورد كرومر لإصلاح دار العلـوم

كتب الشّيخ محمّد عبدَه وهو في المنفى في بيروت سنة 1886م لائحة لإصلاح التّعليم المصريّ وقدّمها إلى اللّورد كرومر، وفيها ذكر شروط الانتساب إلى دار العلوم، وأنّ الغاية مِنْ إنشائها هو تكوين مؤهّلين لتدريس علوم اللّغة العربية والعلوم الدّينية، مستغربا جهل نُظّارها بها، ثمّ اقترح أن تَحُلَّ دار العلوم محلّ الأزهر بإصلاح برامجها وحذف العلوم غير المفيدة منها، واستبدال طريقة تفسير القرآن الكريم التّقليدية بطريقة حديثة تتماشى والتطوّر العلميّ والاجتماعيّ، واختيار نُظّار ومعلّمين صالحين أكْفَاء، وتمديد الدّراسة لتدريب المعلّمين على التّدريس الجيّد، كما ألزم المعلّمين بتأليف الكتب، ودعا إلى وضع لوائح جديدة تنظّم العمل فيها، لكنّ كرومر لم يلقِ بالا للائحته، ورفض ومعه الخديوي توفيق تعيينه معلّما في دار العلوم، وأبعداه عن التّعليم وعيّناه قاضيا في الرّيف خلافا لرغبته.[4]

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص 226و227.

[2] **لويس عوض(1990/1915):** مفكر وكاتب وناقد وأديب وشاعر مصري، نال الإجازة في الآداب بقسم الإنجليزية سنة 1937م، وحصل على الماجستير في الأدب الإنجليزي مِنْ جامعة كمبردج سنة 1943م، وعلى الدّكتوراه في الأدب مِنْ جامعة بريستن سنة 1953م، دَرَّس الأدب الإنجليزي في قسم اللّغة الإنجليزية كلية الآداب بجامعة القاهرة، ثمّ رئيسا لقسم اللّغة الإنجليزية سنة 1954م، أشرف على القسم الأدبي بجريدة الجمهورية سنة 1953م، ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة، تاريخ الزيارة: 2020/04/11م، في الساعة: 18:45 مساء.

[3] محمّد عمارة، جمال الدين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض، مرجع سابق: ص35.

[4] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، مرجع سابق: ج1، ص248.

وخصّ طلبة دار العلوم بدراسة العلوم العصرية التي لم تكن موجودة فيها مِنْ قبل، وناهض نظرة شيوخ الأزهر الجامدين على العلوم التّقليدية، فاقترح تدريسهم العلوم المفيدة لتوسيع مداركهم وجعلهم ملمّين بها، ودعاهم للانفتاح على العالم الأوروبّيّ المتطوّر، وأمّا اقتراحه إحلال دار العلوم محلّ الأزهر كان بسبب أعمالها المركّزة والممنهجة، ولعجز الأزهر عن أداء مهامّه المنوطة به، فأدرج فيه مقرّرات جديدة ليواكب التّطورات الخارجيّة، ودعا إلى المزاوجة بين التّعليم النّظريّ والتّطبيقيّ لتفيعل العمل التّربوي، ولمّا لم يستطع تطبيق إصلاحاته التّربوية بسبب اعتماد شيوخ الأزهر طرقا تقليدية ومقرّرات عتيقة؛ اقترح إضافة علوم عصرية إلى دار العلوم كالحساب والهندسة والتّاريخ والجغرافيا والمنطق والفلسفة واللّغات الأجنبية لتحقيق تقدّم الأمّة ونهضتها.

وللاستعاضة عن جامع الأزهر بدار العلوم عمل على تكوين أساتذة أكْفاء يدرّسون أنواع العلوم والمعارف العصرية اللّازمة للأمّة، وإقرارها في المؤسّسات التّربوية بشكل متناغم مع التّطوّرات العالمية، ونشر ثقافة دينية ومدنيّة تحقّق الإصلاح النّفسيّ والخلقيّ والفكريّ والدّينيّ، وهكذا استطاع أنْ يجعل مِنْ دار العلوم مؤسّسة علمية تربوية موحِّدة للتّربية الدّينية والفكرية في مصر.[1]

لكنّ السّلطة عرقلتْ إصلاحاته التّربوية، وأبعدته عن التّعليم خوفا مِنْ تأثيره على طلبة العلم وحتّى لا يناهضوا الاستعمار، فمنع الخديوي توفيق وكرومر الشّيخَ محمّد عبدَه مِنَ التّعليم، لأنّهم رأوْا فيه يشكّل خطرا على سياستهم التّجهيلية المكرِّسة للجمود والتّقليد والتّخلف والاستبداد والاستعمار، وعاملوه بنقيض قصده بإبعاده عن التّعليم وإسناد القضاء له في أرياف القاهرة، ومع ذلك أصرّ على ولوج مؤسّسات التّربية والتّعليم وحَرِصَ على إصلاح مناهجها ونظام التّدريس فيها للارتقاء بمستوى التّربية والتّعليم، وتخريج نخبٍ مصلحة قادرة على النّهوض بالأمّة، وحاول أنْ يأخذ ويعطي مع الاستعمار البريطاني لوضع أرضية لمقترحات إصلاحاته التّربوية بعرضها عليه رغم يقينه بمعاداته له ولدينه، فسلك هذا المنهج عساه ينتشل أبناء مجتمعه مِنَ الأوضاع التّربوية المزرية التي يعيشونها، فهو يرى بأنّ هذا الأسلوب هو أخفّ الأضرار في التّعامل مع الخديوي والاستعمار البريطاني، لذا عارضهم برفق وقدّم مقترحاته بالكتابة والمراسلات والتّحاور لإقناعهم بها، وألحّ عليهم حتّى يسمحوا له بالتّدريس لتجسيد إصلاحاته التّربوية وإحداث التّغيير المطلوب والنّهوض بالأمّة مِنْ كبوتها.

ثانيا: مدرسة الألســن

تعتبر مدرسة الألسن مِنَ المدارس التي أنشئت في مصر للانفتاح على الأوروبّيّين وثقافاتهم، والتّواصل معهم والأخذ عنهم والاستفادة مِنْ تطوّرهم العلمي والفكريّ والعسكريّ الذي قطعوا فيه أشواطا كبيرة عن طريق تعلّم اللّغات الأجنبية وعلى رأسها اللّغتين الفرنسية والإنجليزية، فجاءت هذه المدرسة لتفي باحتياجات الأمّة المصرية في هذا المجال، خصوصا بعد حملة نابليون بونابرت على مصر سنة 1798م، حيث اطّلع المصريّون بها على تطوّر الفرنسيّين العلميّ والعسكريّ وانبهروا بهم، وأخذ السّاسة المصريّون والعلماء والمفكّرون أمثال محمّد علي، ورفاعة رافع الطّهطاوي، يعملون على اللّحاق بركب الأوروبّيّين ويبحثون عن سرّ تطوّرهم وتقدّمهم للنّهوض بالأمّة المصرية.

[1] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، مرجع سابق: ج1، ص129.

وقد أدرج الكلام عن مدرسة الألسن بعد مدرسة دار العلوم، لكون هذه المدرسة ضُمّت عام 1885م إلى دار العلوم وأصبح متاحا لطلّابها تعلُّم إحدى اللّغتين الفرنسية أو الإنجليزية.[1]

1- التّعريف بمدرسة الألسن

أنشئت مدرسة الألسن باسم مدرسة التّرجمة ثمّ غُيِّر اسمها إلى مدرسة الألسن[2]، ويرجع الفضل في إنشائها إلى رفاعة رافع الطّهطاوي[3]، الذي اقترح إنشاءها على والي مصر محمّد علي باشا سنة 1836م، وكان يطمح الطّهطاوي مِنْ وراء ذلك إلى ترجمة اللّغات الأجنبية وعلومها[4] وإلى تكوين جيل مِنَ المثقّفين ليكونوا همزة وصل بين الثّقافة العربية والثّقافة الغربية، ويتضلّعوا في الآداب العربية وفي آداب اللّغات الأجنبية، وحتّى يكونوا قادرين على تعريب الكتب الأجنبية، وعلى النّهوض بالإدارة الحكومية، ثمّ غُيِّر اسمها سنة 1957م إلى مدرسة الألسن العليا.[5]

2- تدريس الشّيخ محمّد عبدَه في دار الألسن وإصلاحاته فيها

عُيّن الشّيخ محمّد عبدَه في أواخر سنة 1878م مدرّسا للعلوم العربية في مدرسة الألسن[6]، وفيها اجتهد ما استطاع على تفادي الطّرق العقيمة التي لم تنمحِ مِنْ ذاكرته في تدريس علوم اللّغة، فعمل على تكوين نشء جديد ليحيي به اللّغة العربية ويعيد لها مجدها الضّائع، كما عمل على إبراز أفكار وآراء ومنهج أستاذه جمال الدّين الأفغاني السّياسي الثّائر على الطّغيان والاستبداد الدّاخلي والاستغلال والاستعمار الخارجي[7] الذي تصدّرته يومها إنجلترا وفرنسا الصّليبيتَيْن الاستعماريتَيْن.

وحاول الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ خلال مدرسة الألسن إصلاح التّربية والتّعليم وإصلاح أمّته، بتطعيم الدّروس اللّغوية بنكات سياسية كانت مِنْ مخرجات احتكاكه وتأثّره بمنهج أستاذه جمال الدّين الأفغاني، فقارع استبداد الحكام المصريّين، وعبّأ المصريّين لمناهضة النّفوذ الأجنبي ومقاومة الاحتلال البريطاني بعدما استمرأوا الذلّ والخنوع الذي كرّسه شيوخ الأزهر الجامدون، والمتصوّفة المنحرفون البعيدون عن العقل المتنوّر والفاقدون للعلم النّافع، لكنّ جهوده العملية في ممارسة التّربية والتّعليم بالتّدريس في هذه المؤسّسة التّعليمية التّربوية لم تدم طويلا، فبمجرّد تولّي الخديوي توفيق الحكم سنة 1879م نفاه إلى قريته محلّة نصر بعيدا عن القاهرة وبعيدا عن التّعليم الذي كان محور

---

(1) ينظر: موقع المعرفة/ m.marefa.org، تاريخ الزيارة: الاثنين: 2020/11/02م، في الساعة: 09:00 صباحا.

(2) ينظر: موقع: هنداوي: hindawi.prg، تاريخ الزيارة: الاثنين: 2020/11/02م، في الساعة: 09:30 صباحا.

(3) **رفاعة رافع الطّهطاوي(1801- 1873م):** أحد رواد النّهضة المصرية العلمية الحديثة، ومؤسّس مدرسة الألسن وناظرها، تعلّم بالأزهر، أوفدته الحكومة المصرية إلى أوروبّا لتلقّي العلوم الحديثة فدرس الفرنسية والجغرافيا والتّاريخ، وعاد إلى مصر وتولّى رئاسة التّرجمة في المدرسة الطّبّية، وأنشأ جريدة الوقائع المصرية، مِنْ مؤلّفاته: تخليص الإبريز في تلخيص باريز، أنوار توفيق الجليل في تاريخ مصر، التّعريفات الشّافية لمريد الجغرافية، التّحفة المكتبية لتقريب اللّغة العربية، تعريب القانون المدني الفرنساوي، ينظر: الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج3، ص29، وينظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مرجع سابق: ج4، ص168.

(4) ينظر: بلقاسم الغالي، من أعلام الزيتونة- شيخ الجامع الأعظم-محمّد الطّاهر بن عاشور- حياته وآثاره، مرجع سابق: ص187، ويرجع إلى محاضرة محمّد عمارة على اليوتيوب: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مركز الدّراسات المعرفية في مصر، في: 15 2017/02م.

(5) ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة: ar.m.wikipedia.org ، تاريخ الزيارة: الاثنين: 2020/11/02م، في الساعة: 09:30 صباحا.

(6) ينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج23، ص520.

(7) ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص177.

رسالته التّربوية، فقد كان مفطورا على التّربية والتّعليم ومقدّما إياها على باقي المجالات، فهو وإنْ عاش بين مدٍّ وجزرِ السّياسة إلّا أنّه ما لبث أنْ رجع إلى توجّهه التّربويّ الذي كان يأمل منه تحقيق طموحاته الإصلاحية، فقد كانت بدايته علمية وبمجرّد مشاركة أستاذه الأفغاني في السّياسة لفحته بأذاها.

ثالثا: المدرسة السّلطانيـة

إنّ إيمان الشّيخ محمّد عبدَه برسالة الإصلاح التّربوي، جعله يجتهد في أدائها بإخلاص وتفان مِنْ جميع المواقع وفي كلّ الأماكن، غير آبه بالمواقف المثبّطة التي يلقاها مِنْ حين لآخر، ولم يقتصر في إصلاحاته التّربوية على المؤسّسات المصرية فحسب، وإنّما امتدّت إلى خارج بلاده وهو في المنفى، فركّز على التّربية والتّعليم على أنّها المخرج مِنْ كلّ الأزمات التي تعيشها مصر، وفاء لمقولته: إنّما خُلقت معلّما، ومارس التّدريس وأبدع فيه، حتّى شدّ إليه أنظار أهل الملل والنِّحل والطّوائف، ولقي القبول عند الجميع بالتفافهم حوله والنّهل مِنْ علمه والاقتباس مِنْ حكمته والعمل بتوجيهاته.

1- تأثير دروسه فيها على مختلف الطّوائف في بيروت

مارس الشّيخ محمّد عبدَه التّعليم في مصر وفي بيروت، فأبدع حتّى لفت إليه أنظار مختلف أهل الملل والنِّحل والطّوائف، فأحبّوه واقتربوا منه، ولقي الحظوة والتّرحاب مِنْ علمائها ووجهائها وأهلها.

وبعودته مِنْ باريس إلى بيروت سنة 1885م في فترة منفاه، أخذ النّاس يقصدون بيته ويستمعون إلى دروسه، وجعل مِنْ بيته ندوة للحديث العلميّ والأدبيّ، وسرعان ما أصبح بيته كعبة للعلماء والطّلاّب وعشّاق المعارف مِنْ جميع الملل والطّوائف، وممّا كان يقرأ عليهم فيه السّيرة النّبوية.[1]

وقد كان يُدرّس أكثر أيّامه في الجامع الكبير أو في جامع الباشورة مرتجلا مِنْ فيض عقله وقلبه دون أنْ يلتزم كتابا بعينه، وتوافد على دروسه النّصرانيون الذين كان يجلسون إلى جانب المسلمين، وقد بلغ سحر تأثير كلامه على مريديه مبلغه حتّى قال فيه الشّيخ سعيد الشّرتوني: "هذا الرّجل إذا تكلّم يخرج النّور مِنْ فيه"، وقال شكيب أرسلان: "إنّ مجلس الشّيخ كان يضمّ علماء السنّة ومجتهدي الشّيعة وعقّال الدّروز وإلى جانبهم أساقفة النّصارى وأحبارهم مِنْ كلّ فريق، كما كان يضمّ بعض الملحدين أحيانا، إِذْ وَجَدَ فيه الجميع مرجعا عامّا لسعة عقله وعلوّ إدراكه وإحاطة نظره"[2]، بل وجلس إليه حتّى اليهود، وقال فيه تشارلز آدمس: "كان يجلس إليه السّنّي والشّيعيّ والدّرزيّ والنّصرانيّ واليهوديّ، فانتهز الفرصة لنشر آرائه الدّينية، وكان لطيفا يوسّع صدره مع النّاس كلّهم مِنْ غير تمييز ولا تفرقة، ولكنّه لم يكن يقول غير ما يعتقد، سواء أكان القول في الدّين، أم في العلم، أو العادات والأمور الاجتماعية، فاكتسب تقدير الجميع وأدهش أهل الفضل بعلمه وأدبه وبلاغته".[3]

2- جهوده الإصلاحية في المدرسة وآثارها والمواقف منـه

لمّا عاد الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ فرنسا إلى بيروت في فترة منفاه، دُعي للتّدريس في المدرسة السّلطانية التي أنشأها والي بيروت مدحت باشا، وفيها اشتغل بالتّدريس، وشرح أمّهات الكتب كنهج

---

(1) ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص62.

(2) قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص236.

(3) تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، المرجع السابق: ص62.

البلاغة وديوان الحماسة وإشارات ابن سينا وكتاب التّهذيب ومجلّة الأحكام العدلية العثمانية، كما ألقى فيها دروسا في التّوحيد جمعها في كتابه رسالة التّوحيد[1]، وفيها شرح البصائر النّصيرية أيضا.[2]

وقال مؤكّدا على ثمار تدريسه بالمدرسة السّلطانية لرسالة التّوحيد التي كانتْ حربا على أهل الجمود والتّقليد في مصر ما نصّه: "فلمّا كنتُ في بيروت مِنْ أعمال سوريا أيّام بُعْدي عن مصر عقب حوادث سنة 1882م، ودُعيتُ سنة 1886م لتدريس بعض العلوم في المدرسة السّلطانية ومنها علم التّوحيد"[3]، فكانت رسالته فتحا جديدا في علم التّوحيد، التي فتّح بها باب الاجتهاد، وحمل على جمود وتقليد شيوخ الأزهر، بالإضافة إلى دعوته إلى دراسة العلوم الجديدة التي برزتْ في العصر الحديث.[4]

وبعدما وقف على إدارة المدرسة ومناهجها المتّبعة ومقرّراتها المعتمدة، رأى بأنّ المدرسة لا يمكنها أنْ تؤدّي رسالتها التّربوية والتّعليمية، وأنّها لا تحقّق نهضة البلاد إلّا بإدخال بعض الإصلاحات التّربوية.

لذلك قام بتجديد برامجها ومناهجها وتحديث نظام الإدارة فيها، وأدخل إليها كثيرا مِنَ العلوم الحديثة الهامّة التي لم تكن تدرّس فيها مِنْ قبل، كما درّس بعض العلوم كالتّوحيد والمنطق والمعاني والإنشاء والتّاريخ الإسلامي، ودرّس فيها فقه المعاملات على المذهب الحنفي للصّفوف العليا، فقد بلغ به جِدُّه وإخلاصه وتفانيه في تعليم أمّته وتربيتها وتوعيتها لإحيائها وتحقيق نهضتها، أنهّ كان يقضي بياض النّهار بطوله في التّدريس أيّاما متتالية، ونشاطه في آخر درس له لم يكن يقلّ عن نشاطه في درسه الأوّل، بل كان يُرى في تزايد ما تناقص النّهار، وكان يلقي دروسه وأماليه على تلاميذه كلّ بحسب حاله واستعداده بأسلوب سهل ميسور، فطوّر المدرسة السّلطانية وصارتْ لا تقتصر على طريقة التّلقين لقواعد العلم الجافّة التي كانت معهودة، فحسّنها باستخلاص العبر منها، وبتقديم التّوجيهات الرّشيدة لتلامذته لينمّي فيهم الرّغبة الصّادقة في خدمة وطنهم وإصلاح أمّتهم والكفاح في سبيل الحرّية، فكان مِنْ تأثير دروسه في المدرسة أنْ ربَّى ناشئتها على الرّوح الوطنية والنّزعة الاستقلالية التي أوغرتْ عليه صدور الحكّام الأتراك في بيروت، فبدّلوا مديرها الذي غيّر نظامها، الأمر الذي جعل الشّيخ محمّد عبدَه يستقيل منها ويعود إلى مصر.[5]

لقد كرّس الشّيخ محمّد عبدَه أوقاته في تدريس طلبة المدرسة وتعليمهم أمور دينهم والعلوم النّافعة لهم، وأروى عطّشهم العلميّ، حتّى تكلّلت جهوده بآثار طيّبة على المدرسة وروّادها.

ولم تمض بضعة أشهر على تدريسه بالمدرسة السّلطانية، حتّى حقّق تطوّرا ملحوظا، وأخرجها مِنَ الرّكود وأحدث حيوية ونشاطا وانتعاشا علميا كبيرا، واستبدل طريقة تلقين وحشو أذهان الطّلبة بالمعلومات بمنهج استخلاص العبر مِنَ الدّروس المقدّمة، وتجنّب التّلقين الجافّ للعلوم الذي ينفّر مِنَ العلم وأهله ولا يجعلهم يستفيدون منه، كما كان يطعّم دروسه بتقديم التّوجيهات اللّازمة للتّلاميذ حتّى يثير فيهم الرّغبة الصّادقة لخدمة وطنهم وإصلاح أمّتهم، ويربّيهم على حمل هموم الأمّة والسّعي

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص56.

[2] ينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدد، مرجع سابق: ص248.

[3] محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، مصدر سابق: ص13.

[4] ينظر: عبد المتعال الصعيدي، المجدّدون في الإسلام، مرجع سابق: ص401.

[5] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص236- 238.

لإصلاح أحوالها واستعادة مجدها الضّائع، وعندما توفّيت زوجته انقطع عن التّدريس أيّاما، ولمّا خفّتْ وطأة المصيبة عليه، تزوّج ثانية ورجع إلى مواصلة التّدريس بنَفَسٍ جديد، حتّى ازدهرتْ المدرسة علميّا وعلا شأنها بما حقّقته مِنْ تميّز في تربية النّاشئة على حبّ ثوابت الأمّة الدّينية والوطنية وتربيتها على النّزعة الاستقلالية، فأوغر ذلك صدور الحكّام الأتراك الذين بدّلوا مديرها الذي غيّر نظامها ومنهاجها الدّراسي، الأمر الذي اضطرّ الشّيخ محمّد عبدَه إلى الاستقالة والرّجوع إلى بلده.[1]

3- الكتابة والتّأليف والدّعوة إلى وحدة الأمّــة

درَّس الشّيخ محمّد عبدَه تلاميذ المدرسة السّلطانية في بيروت العلوم التّقليدية والعلوم الحديثة على اختلافها بمنهج حيوي فعّال ميزته التّرغيب والخلوُّ مِنَ السّرد والتّلقين الجافّ.

ثمّ أشفعها بالكتابة والتّأليف في أوقات الفراغ، فترجم رسالة الردّ على الدّهريين لأستاذه جمال الدّين الأفغاني مِنَ الفارسية إلى العربية، وشَرَحَ كتاب نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب ﷺ، وشَرَحَ مقامات بديع الزّمان الهمداني، ووجّه إلى شيخ الإسلام بالأستانة لائحةً لإصلاح التّعليم في القطر السّوري، بعدما أقام ببيروت ورحل إلى بيت المقدس ودمشق وبعلبك وطرابلس وتجوّل في أنحاء لبنان وعرف البلاد جيّدا، ووقف على عيوب قطاع التّربية والتّعليم واكتشف مكامن الضّعف فيه.

لمّا كان الشّيخ محمّد عبدَه في بيروت كانتْ عينه وعقله وقلبه وقلمه على مصر، فكتب عن قضاياها التّعليمية والاجتماعية والسّياسية في جريدة ثمرات الفنون، وحارب الفُرقة والخِلاف وحثّ على حبّ الوطن ودعا إلى الوحدة والتّعاون، وكشف المؤامرات والدّسائس التي يحيكها أعداء الأمّة ضدّها بإثارتهم للخلافات الطّائفية بين أبناء البلد الواحد خصوصا بين المسلمين والأقباط.[2]

لقد حرص الشّيخ محمّد عبدَه على تحقيق الوحدة بين أطياف الأمّة الإسلامية ليفوّت الفرصة على الاستعمار الذي عمل بكل الوسائل والأساليب على إطالة مكثه فيها، فوظّف الشّيخ الكتابة الصّحفية في التّقريب بين المسلمين والأقباط الذين أوصى الرّسول ﷺ بهم خيرا، حتّى يقطع بمقالاته الطّريق أمام مخطّطات الاستعمار البريطاني الذي أراد أنْ يبقى مسيطرا على المصريّين وعلى الأمّة العربية والإسلامية بتطبيقه لسياسة فرّق تسد، فاجتهد في معالجة قضايا مصر والأمّة العربية والإسلامية عن كثب بالكلمة الطّيّبة في دروسه وكتاباته الحكيمة، لا يثنيه عن ذلك لا النّفي ولا الغربة ولا العراقيل ولا المكر، فأدّى واجبه التّربوي بإخلاص وتفان لخدمة مجتمعه وأمّته.

الفرع الثّالث: مدارس الجمعية الخيرية الإسلاميـة

قبل بروز الشّيخ محمّد عبدَه وتصدّره لرسالة الإصلاح؛ كانت مصر تعيش نفوذا أجنبيا أوروبّيّا كبيرا قبل تعرّضها للاحتلال البريطانيّ، وفي هذا الوضع كانت المدارس التّعليمية والجمعيات الخيرية الأجنبية في تزايد ملحوظ بتأثيراتها الخطيرة الدّينية والفكرية والثّقافية على الشّعب المصري.

كان النّفوذ الأجنبي المتزايد يهدّد هوية ومصالح المصريّين، وينخر مختلف مجالات حياتهم التي أعجزتهم عن تلبية حاجاتهم الأساسية، ممّا جعلتهم فريسة الخضوع له، بالإضافة إلى انبهار حكّامهم

---

[1] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص239.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص239.

بالحضارة الأوروبّية كما حصل مع محمّد علي باشا الذي اعتلى سدّة الحكم سنة 1805م، وارتمى في أحضانهم وأخذ يستعين بهم فجرّأهم على التّدخّل في شؤون بلاده الدّاخلية والتّمهيد لاحتلالها.

وفي جوّ هذا الوضع البئيس الذي تراءى للشّيخ محمّد عبدَه أمام ناظريْهِ المهدّد للحياة التّربوية والتّعليمية والدّينية والأخلاقية للمصريّين، أخذ على عاتقه مسؤولية تدارك الأمر بخوض معترك الإصلاح التّربوي مِنْ جنس الواقع المعيش، فأنشأ مدارس التّربية والتّعليم ضمن تأسيس جمعيات خيرية تتولَّى هذه العملية لمدافعة الجمعيات الخيرية الأجنبية المتزايدة.

أوّلا: النّفوذ الأجنبي والجمعيات الخيرية الأجنبيـة

كانت بداية النّفوذ الأجنبي في مصر مِنْ 3000 أجنبي سنة 1836م ليصل إلى 260294 أجنبي سنة 1918م[1]، فأدّى تكاثرهم إلى تزايد نشاطهم العلميّ والدّينيّ والثّقافيّ والاجتماعيّ بقيامهم بفتح مدارس لهم في عهد محمّد علي باشا ليستمرّ إلى ما بعد وفاته، فأنشئت مدارس مِنْ جنسيات كثيرة؛ أرمنية وإسرائيلية ويونانية وإيطالية وألمانية ونمساوية وأمريكية وإنجليزية وفرنسية، ثمّ تطوّر الأمر إلى قيامهم ببعثات دينية بإنشاء مدارس نصرانية كاثوليكية وبروتستانتية في أنحاء متفرّقة مِنْ مصر، وظلّت هذه المدارس تتزايد ويتزايد تلاميذها، وبعد الاحتلال البريطاني لمصر سنة 1882م تزايد نشاط المدارس الأجنبية فيها، فقد أصدرتْ الحكومة المصرية سنة 1913م إحصاء رسميّا بتزايد المدارس الأجنبية التي بلغتْ 228 مدرسة أجنبية أقلها سِتُّ مدارس ألمانية وأكثرها 145 مدرسة فرنسية.[2]

والجمعيات الأهلية لا تقلّ شأنا عن المدارس التّعليمية والدّينية، فقد كان لها هي الأخرى وجود ونشاط متزايد، ففي سنة 1913م أُحصيتْ عدّة أنواع مِنَ الجمعيات الخيرية وهي: جمعية الإسعاف، وجمعية المستشفيات، وجمعية ملاجئ الرّجال والنّساء، وجمعية رعاية الأطفال والفتيات، وجمعية الأيتام واللّقطاء، وجمعية التّعليم والإحسان، وجمعية التّعاون، وجمعيات أخرى، حيث بلغ عددها إجمالا 158 جمعية؛ منها 79 جمعية مصرية، و66 جمعية أجنبية، و13 جمعية مشتركة.[3]

وقد كانت التّربية والتّعليم في هذا المناخ الصّعب في تدهور مستمر، وازدادت انتكاسته عقب الاحتلال البريطاني لمصر سنة 1882م، لهذا علتْ أصوات تدعو لإصلاحه نظرا للسّياسة الممنهجة للاحتلال البريطاني في أنجلزة إدارة التّعليم ومناهجه، والتّقتير على تعليم المصريّين وإلغاء مجّانيته، وإغلاق مدارسهم، والتّقتير في إعداد معلّميهم وتدريبهم، وقصر الغرض مِنَ التّعليم على الوظائف وإفراغه مِنْ محتواه الرّسالي، بالإضافة إلى حشو مضامينه بتدريس تاريخ أوروبّا وحضارتها وثقافتها والإشادة بها للتّرويج لها على حساب دين وثقافة وحضارة المصريّين المسلمين.[4]

وبازدياد العمران في المدن، وتزايد أعداد السكّان منذ أواخر القرن التّاسع عشر، شرع الأجانب في تأسيس الجمعيات الخيرية وقصر خدماتها وفوائدها على الأجانب دون المصريّين.[5]

---

[1] ينظر: مجدي سعيد، الإمام الشّيخ محمّد عبدَه والجمعيات الأهلية، ص677.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص682- 685.

[3] ينظر: المرجع نفسه: ص686.

[4] ينظر: المرجع نفسه: ص690- 693.

[5] ينظر: المرجع نفسه: ص699.

ثانيا: تأسيسه للجمعية الخيرية الإسلامية وإصلاحاته التّربوية فيها

برز العمل الخيري في مصر بشكل فرديّ، ولم يكن مهيكلا في شكل عمل جمعويّ، ولمّا رأى الشّيخ محمّد عبدَه هذا الشّكل مِنَ العمل الخيريّ عند الأوروبّيّين استحسنه وعمل على تجسيده بإنشاء الجمعيات الخيرية لخدمة الفقراء والمعوزين، وكان قد طالب بإنشاء جمعيةٍ خيريةٍ إسلاميةٍ في أوّل مقال له كتبه في جريدة الوقائع المصرية سنة 1880م.[1]

تعتبر الجمعية الخيرية الإسلامية مِنْ أهمّ الجمعيات التي شارك الشّيخ محمّد عبدَه في تأسيسها سنة 1892م بعد عودته مِنَ المنفى إلى مصر، فكان عضوا في مجلس إدارتها، ثمّ تولّى رئاستها سنة 1900م إلى غاية وفاته[2]، ومِنْ خلالها ركّز على إنشاء المدارس لتعليم أبناء الفقراء المسلمين أمور دينهم وتمكينهم مِنَ التّعليم مثل أبناء الأغنياء تماما تفعيلا لمبدأ تكافؤ الفرص، وكذا تحمّل نفقاتهم وإعانتهم على الكسب، وعدم تركهم فريسة للجمعيات التّبشيرية التي قد تؤثّر على عقيدتهم.[3]

ففي سنة 1892م دعا الخديوي عبّاس حلمي الثّاني إلى إقامة حفل خيري وتخصيص عائداته لفقراء المسلمين، فاغتنم أعيان المدينة الحفل ودَعَوْا إلى مواجهة الحالة الاجتماعية المتدهورة للمجتمع المصريّ وضرورة توسيع نطاق العمل وضمان استمراره وعدم قصر عوائده على الفقراء والمحتاجين، فأسّسوا لجنة فرعية متكوّنة مِنْ شخصيات ذات مناصب رسمية عالية ومكانة اجتماعية مرموقة انبثقت عنها لجنة عامّة تشرف على الأعمال الخيرية، وفي أواخر شهر أكتوبر 1892م اجتمعتْ اللّجنة المكوّنة مِنْ ثلاثة عشر عضوا، وناقشتْ مشروعها ثمّ تأسّست الجمعية برعاية الخديوي برئاسة إبراهيم باشا رشدي، بغرض مساعدة فقراء المصريّين المسلمين وتربيتهم وتعليمهم مجّانا.[4]

وبدأت الجمعية الخيرية تعمل على زيادة مواردها بالحَثِّ على التّبرعات والتّرويج لأهدافها والدّعوة للانخراط فيها، ثمّ انبثقتْ عنها لجنة -كان الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ أبرز أعضائها-، تولّت جمع التّبرعات مِنَ المديريّات والهيئات والوزارات والمدن والقرى والأعيان والأغنياء والعُمَد والمحامين والأطبّاء، لتقديمها كإعانات لأبناء الفقراء المسلمين، فزادتْ مداخيلها وكثر عدد المشتركين فيها.[5]

وقد سخّر الشّيخ محمّد عبدَه الجمعية في بناء المدارس لخدمة التّربية والتّعليم، فكانت علامة مضيئة في حياته وبصمة واضحة في عمله الخيريّ والتّربويّ على أبناء الفقراء المسلمين، فأبلى بها بلاء حسنا في تربيتهم وتعليمهم ورعايتهم وتحصينهم مِنَ العقائد الفاسدة والأفكار الدّخيلة، وقام بوضع برامجها بدقّة كاملة وحدّد أهدافها في تربية أولاد الفقراء على العقيدة والآداب الإسلامية وترقية عقولهم وتهذيب أخلاقهم، وتهيئتهم لكسب عيشهم بتعليمهم الحِرف والمهن والأعمال الحرّة والزّراعة والصّناعة والتّجارة، للرّفع مِنْ مستواهم المعيشيّ، وتعويدهم على مساعدة أوليائهم في كسب قوتهم،

---

[1] ينظر: زكريا سليمان بيومي، التيارات السياسية والاجتماعية بين المجدّدين والمحافظين، مرجع سابق: ص114.

[2] ينظر: مجدي سعيد، الإمام الشّيخ محمّد عبدَه والجمعيات الأهلية، مرجع سابق: ص704.

[3] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص80.

[4] ينظر: مجدي سعيد، الإمام الشّيخ محمّد عبدَه والجمعيات الأهلية، المرجع السابق: ص704- 706.

[5] ينظر: المرجع نفسه: ص708و709.

وللوقوف في وجه سياسة بريطانيا الاستعمارية المنحازة للأغنياء التي رفعت مِنْ مصروفات تعليم أبناء الفقراء للتّضييق عليهم، وحرمانهم مِنْ فرصة حق التّعلّم مثل أولاد الأغنياء.

وفي بداية تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية قامت ببناء أربع مدارس ابتدائية في القاهرة والإسكندرية وطنطا وأسيوط، وكان نظام الدّراسة والتّعليم فيها على قسمَيْن، ومدّة التّعليم بكلّ قسم سنتان، وقد سار التّعليم بحسب الوتيرة الطّبقية السّائدة حينها، إذ لم يكن الشّيخ محمّد عبدَه هو مَنِ ابتدع تقسيمه إلى طبقات، فكانت بعض المدارس شاملة لطبقة الفقراء وتسمّى مدارس الدّرجة الأولى، حيث لا يزيد عدد تلاميذها عن ثمانين تلميذا موزّعين على فصلَيْن، وبعضها شامل لطبقتَيْ الفقراء والقادرين وتسمّى مدارس الدّرجة الثّانية ولا يزيد عدد تلاميذها عن مائة وستّين تلميذا موزّعين على أربعة فصول، وكان التّعليم فيها مجّانيّا لأولاد الفقراء.[1]

كما عزم على مقاومة الفساد المستشري في التّعليم بإصلاح التّعليم الدّيني في الأزهر وملحقاته، وجَعْلِ التّعليم في مدارس الجمعية الخيرية إسلاميَّ الصّبغة لإصلاح الطّبقات الدّنيا مِنَ الزّرّاع والصنّاع وأصحاب المهن الحرّة وترقية الصّناعات الوطنية، ومنع تعليم اللّغات الأجنبية فيها حتّى لا تكون سببا في تسخير التّعليم لخدمة منهاج الحكومة المادّيّ، وسببا لتعظيم الأجانب في القلوب، والاندفاع لتقليدهم وترويج مصنوعاتهم حتّى لا يحول دون إيجاد ما يغني عن مصنوعات البلاد.[2]

لقد عمل الشّيخ محمّد عبدَه على تسخير الجمعية الخيرية الإسلامية لتجسيد إصلاحاته التّربوية والارتقاء بالتّعليم لتحقيق الإحياء والنّهضة، والاستثمار في الإنسان المصريّ لرفع الاستبداد والاستعمار عنه، فسخّرها في التّربية والتّعليم وأعمال البر والتّضامن مع مختلف فئات المجتمع الضّعيفة مِنَ الفقراء والنّساء وذوي العاهات، كما جنّدها لإغاثة المنكوبين ومواساتهم مادّيّا ومعنويّا.

ثالثا: أهداف الجمعية الخيرية الإسلامية ووسائل تحقيقها

1- أهداف الجمعية الخيرية الإسلامية

بيّن الشّيخ محمّد عبدَه غرضه الأوّل مِنْ تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية وهو تربية أولاد الفقراء مِنْ يتامى وغيرهم تربية يحافظون بها على عقائدهم وآداب دينهم، ويستعينون بها على معايشهم وتحصيل أرزاقهم[3]، وقد أفصح في إحدى خطبه عند الاحتفال بامتحان تلاميذ مدرسة الجمعية سنة 1901م عن أهداف الجمعية قائلا: "إنّ غرض الجمعية مِنْ تربية هؤلاء الأطفال الفقراء هو تهذيب نفوسهم ومساعدة كلّ واحد منهم على إحياء صناعة والده وترقيتها إلى أنْ يرى نفسه مستعدّا لصناعة أعلى منها وأرقى، إنّ الجمعية تساعد بالمال مَنْ يتخرّج مِنْ مدارسها ويشتغل بصناعة والده مدّةَ سنة"[4]، كما كان يرمي مِنْ وراء تأسيسها إلى تحقيق أهداف أخرى مثل إعانة المنكوبين،

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص177.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص751.

[3] ينظر: المصدر نفسه: ج1، ص731.

[4] المصدر نفسه: ج1، ص737، وينظر: مجدي سعيد، الإمام الشّيخ محمّد عبدَه والجمعيات الأهلية، مرجع سابق: ص669.

والمساعدة في نشر التّعليم، والعناية باللّغة العربية وبالتّربية الدّينية، ومقاومة مدارس التّبشير، ومقاومة سياسة الاحتلال التّعليمية المهمّشَة للفقراء والمعوزين.

لقد كرّس الشّيخ محمّد عبدَه حياته لخدمة أمّته بالتّربية والتّعليم بمحاربة الجهل والفاقة الصّارفَيْن عن التّعليم وعن الدّين، فقد استعاذ رسول الله ﷺ مِنَ الفقر في دعائه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ والفَاقَةِ**»[رواه ابن حبّان][1]، وأثبتَ الشّيخ نجاعة الجمعية الخيرية الإسلامية التي أنشأها بأنّها قادرة على محاربة الجهل والفقر[2]، فحقّق إنشاؤه لها التّربية ونشر التّعليم، وأسّس للتّضامن الاجتماعيّ الذي أَوْلَى عناية كبيرة بالفئات الهشّة في المجتمع المصريّ.

فكان تأسيسه للجمعية الخيرية الإسلامية إحدى الوسائل الهامّة التي اعتمدها في خدماته الاجتماعية عبر مسيرته الإصلاحية لإرساء تربية قويمة وتعليم صحيح قائم على مبادئ الدّين الإسلاميّ لبناء إنسان اجتماعيّ يخدم والديْهِ ووطنه وأمّته، ويحقّق تعليما وظيفيّا ناجحا يهتمّ بفئة الفقراء والمساكين وبجميع الفئات الهشّة لانتشالها مِنَ الفقر، وتمكينها مِنَ التّربية والتّعليم مثل أبناء الأغنياء تماما، وحشد كلّ الإمكانات الكفيلة لجعل الجمعية وظيفية فعّالة تُخَرِّج النّخب المتعلّمة التي يعوّل عليها مستقبلا لإكمال مسيرة الإصلاح وتحقيق مستقبل أفضل للمصريّين.

لقد كانت انطلاقة مدارس الجمعية الخيرية بسيطة في عدد روّادها وأقسامها ومساحتها ومواردها المالية، واستطاع أنْ يحقّق في خمس سنوات نتائج باهرة مِنْ حيث زيادة عدد المتعلّمين فيها ممّا دعاه إلى الزّيادة في عدد وحدات التّدريس، فوسّع مساحتها بما جمعه مِنْ موارد مالية حصّلها بمساعيه الحثيثة لإنجاح مشروعه الخيريّ الاجتماعيّ التّربويّ التّعليميّ، فكان له ما أراد مِنْ أهداف، الأمر الذي حفّزه وجعله يطمح إلى تحقيق نجاحات أكثر بالتّخطيط لتوسيع مشروعاته لكنّ المنيّة عاجلته قبل إكمالها، فقال عباس محمود العقاد في هذا السّياق: "وقد أسهم في تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية ثمّ تَولَّى رئاستها، فزادت مواردها وأعمالها ضعفَيْن في سنوات رئاسته الخمس 1900-1905م، إذْ كانت مدارسها أربعا فأصبحتْ سبعا، وكان عدد تلاميذها 311 تلميذا فأصبح 766، وكانت تملك 280 فدّانا فأصبح لها مِنَ الأرض 533 فدّانا، غير المواد الأخرى التي ارتفعتْ في جملتها مِنْ 4430 جنيها إلى 10395 جنيها وازدادتْ تبعا لذلك قدرتها على التّعليم بالمجّان وترتيب المعونة للمعوزين".[3]

2- وسائل الشّيخ محمّد عبدَه لتحقيق أهداف الجمعية

أ)- مراسلته سلطة الاحتلال البريطاني لرفع التّضييق عن تعليم المصريّين: راسل الشّيخ محمّد عبدَه الكونت دي جريفل ودعاه إلى رفع التّضييق عن فقراء المسلمين الرّاغبين في التّعليم، وصوّر له المعاناة

---

[1] أخرجه محمد بن حبان التميمي، أبو حاتم الدارمي البستي، في الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق وتخريج أحاديثه وتعليق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1988م، كتاب: الرقائق، باب: ذكر ما يستحبّ للمرء التعوّذ بالله جل وعلا، ج3، ص305، حديث رقم: 1030.

[2] ينظر: مجدي سعيد، الإمام الشّيخ محمّد عبدَه والجمعيات الأهلية، مرجع سابق: ص702.

[3] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص726، وينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام الشيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص150و151.

التي يلاقونها وهم يسعون إلى نظارة المعارف يسألونها مجّانية تعليم صغارهم الفقراء، وذكر له فيها عدم تلبية طلبهم وردّهم خائبين إلى قراهم النّائية.[1]

ب)- استثماره احتفالات الجمعية لتبليغ رسائلها وأهدافها: كان الشّيخ محمّد عبدَه يغتنم فرصة إقامة الجمعية للاحتفالات ليبيّن رسالتها وأهدافها حتّى تسمح له سلطة الاستعمار البريطاني بتعليم أبناء الفقراء واليتامى وتربيتهم، والمحافظة على عقيدتهم وتهذيب أخلاقهم ومساعدتهم على تحصيل أرزاقهم، فهي لا تهدّد أمن واستقرار البلد، وهو ما ذكره في إحدى خطبه بأنّ غرض الجمعية إضافة إلى ما سبق تعليمهم الحِرف والصّنائع لمساعدة أوليائهم.[2]

لقد حصر الاحتلال البريطاني التّعليم في أبناء الأغنياء، وكرّس الطّبقية وجذّر الفوارق الاجتماعية لإحداث الاختلال وعدم التّوازن في المجتمع، فاجتهد الشّيخ محمّد عبدَه في التّمكين لأبناء الفقراء مِنَ التّعليم لتحقيق تكافؤ الفرص بين أفراد المجتمع المصري مِنْ خلال مدارس الجمعية.

ولكون أبناء الفقراء يشكّلون الغالبية العظمى التي يعوّل عليها في مصر؛ انصبّ اهتمامه على تعليمهم وتربيتهم على الآداب والأخلاق الحسنة، فقال في إحدى خطبه: "إنّ الأمّة في حاجة إلى تربية الطّبقات الدّنيا، وهي لا ترقى ولا تسعد إلاّ بذلك، لأنّهم الذين يقومون بمعظم الشّؤون وأكثر الحِرف التي لا يَستغني عنها الخوّاص، ولا يهنأ لهم عيش ما دام أصحابها فاسدي التّربية فاقدي الآداب".[3]

ت)- امتحانه لتلاميذ مدارس الجمعية وإلقاؤه الخطب عليهم: منذ تأسيس الشّيخ محمّد عبدَه للجمعية الخيرية الإسلامية وهو يسعى لبناء المدارس والزّيادة في أعدادها وأعداد الدّارسين فيها خصوصا مِنْ أبناء الفقراء والمعوزين لتمكينهم مِنَ التّعليم مثل أبناء الأغنياء، فكان يسهر على حسن سيرها وعلى تطبيق برامجها التّربوية والتّعليمية، كما كان يقوم بزيارات دورية ميدانية لها، ويقف على المستوى العلميّ والتّربويّ الحقيقيّ لتلامذتها، وفي كلّ زيارة لمدارسها كان يرافقه جمع غفير مِنَ الفضلاء والوجهاء والمسؤولين، فيُلقي فيها خُطَبا توجيهية وتقييمية محفّزا على طلب العلم وعلى تعلّم الصّنائع والحِرف والمهن للقضاء على التّخلف والجهل، وللرّقي والنّهوض بمصر للّحاق بالأمم الأوروبّية المتطوّرة، كما كان يشرف شخصيّا على امتحان تلامذتها بتوجيه أسئلة مباشرة لهم في الدّين واللّغة والحساب والجغرافيا والتّاريخ ويناقشهم في إجاباتهم، ثمّ يعقبها بتكريم النّجباء بإعطائهم كتبا قيّمة وجوائز تشجيعية ومكافآت مالية محترمة.[4]

رابعا: جهود الشّيخ محمّد عبدَه في الجمعيـة

1- تربية وتعليم وإعانة أبناء فقراء المسلميـن

أثناء عضوية الشّيخ محمّد عبدَه في مجلس إدارة الجمعية، ورئاسته للجنة التّعليم بمدارسها لتعليم أبناء فقراء المسلمين مجّانا للحفاظ على هويتهم الدّينية واللّغوية والتّاريخية، ولإكسابهم

---

[1] ينظر: مجدي سعيد، الإمام الشّيخ محمّد عبدَه والجمعيات الأهلية، مرجع سابق: ص668.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص668 و669و737.

[3] المرجع نفسه: ص669.

[4] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص731- 741.

المهارات والصّنائع والحِرف؛ ضمّن برنامج الجمعية الذي صاغه للمرحلة الابتدائية تعليم المواد الآتية: تحفيظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره، وتعليم قواعد الإسلام والأخلاق، وقصص القرآن الكريم، وسيرة النّبي ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين، وتعليم اللّغة العربية وعلومها، وتعليم الأطفال المسائل المتّصلة بالحياة كالحساب والهندسة وتاريخ وجغرافية مصر والعرب وتركيا، وتعليم الأطفال قواعد الخطّ العربي وأنواعه، وفنّ الرّسم، والأعمال اليدوية وتدبير المعيشة، ومبادئ الصّحة.

كما كان يقوم بزيارات لمدارس الجمعية ويفتّشها ويمتحن تلامذتها ويناقشهم ويكافئ النّجباء منهم، وعند المناسبات يقيم الاحتفالات ويلقي الخطب عليهم وعلى معلّميهم، ففي سنة 1902م ألقى في مدارسها خطبة حول التّعليم جاء فيها: "إنّ مدارس الجمعية وُضعت لتعليم أولاد الفقراء ما لا بدّ منه لكلّ إنسان، وهو أنْ يُحسن القراءة بلغة أمّته ويعرف ما يجب عليه مِنْ أحكام دينه ويتربّى عليه عملا، والحساب والتّاريخ وتقويم البلدان وطرفا مِنْ مبادئ التّاريخ الطّبيعي وحفظ الصحّة وأدب المعاشرة، ولا بدّ عندنا مِنْ تعليم هذه الأشياء على وجه مفهوم في مدّة أربع سنين وسنّ التّلاميذ لا يتجاوز الخمس عشرة سنة، وليس عندنا لغة أجنبية لأنّنا لا نُعِدُّ التّلاميذ للوظائف والشّهادات، وإنّما نعدّهم للعمل بالحِرف والصّنائع، وأهمّ ما تقصده الجمعية مِنَ التّربية في مدارسها تنشئة المتعلّمين على الفضائل كالصّدق والأمانة اللّذين عليهما مدار السّعادة، ما نجحت أمّة إلّا بهما، ولا هلكتْ إلا بفقدهما، وقد حثّ الإسلام على هذَيْن الخُلُقَيْن، ونهى عن الكذب والخيانة أشدّ النّهي".[1]

وقد أقرّت الجمعيةُ لجنةَ الشّيخ محمّد عبدَه على نظام التّعليم وكيفيته ومدّته وعدد الفصول وتعداد التّلاميذ في مدارسها، كما وسّعت التّعليم بمدّ يد العون للمدارس التي تقبل العمل بنظامها ومناهجها، كما تقرّر فتح مدارس أخرى في الأماكن التي ليس فيها مدارس أو فيها مدارس أجنبية فقط، وفي سنة 1897م قامتْ لجنة مدارس الجمعية ببعض الخطوات الإصلاحية للنّهوض بمستوى التّعليم في مدارسها أهمّها: زيادة مواردها المالية، وتوزيع خرّيجيها على المعامل الصّناعية لتدريبهم على اكتساب الحِرف والصّنائع مقابل راتب رمزي، كما أصدرتْ منشورا لتحسين طرق التّدريس بأنْ يكون التّعليم بالتّرغيب والتّشجيع بدلا مِنَ الضّرب والإهانة، وإلزامهم بالمواظبة على الحضور، وعدم إجهادهم، ورعايتهم صحّيّا وتعليمهم الآداب الصّحّية، ومراقبة مستواهم العلميّ بإجراء امتحانات فصلية لهم، الأمر الذي أدّى إلى تحقّق أمور كثيرة في فترة رئاسته للجمعية؛ منها فتح مدارس جديدة، وتطوير برامج التّعليم ونظام وطرائق التّدريس، واشتراط الكفاءة في المدرّسين واستبعاد غير الأكْفاء لتحسين مستوى التّعليم فيها، وإدخال تعليم اللّغات الأجنبية بمدارسها بسبب توجُّه المتعلّمين إلى الدّراسة في وزارة المعارف بدل الدّراسة في مدارس الجمعية التي لم تكن تدرِّس اللّغات الأجنبية، كما خصّص إعانات مالية شهرية للفقراء ولأصحاب العاهات واليتامى، وللّذين ليس لهم دخل ولا كسب مِنَ النّساء وغيرهنّ، وإغاثة المتضرّرين في النّكبات كالذي حصل لبلدة مَيْتْ غَمْرْ في صيف 1902م التي احترقتْ

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص741و743.

ونُكَبَ فيها أكثر مِنْ خمسة آلاف شخص، فعمَّرها وأغاث أهلها، وطاف بنفسه على بيوت الأمراء والأثرياء لنجدة أهلها وإغاثتهم مادّيّا، كما حثّ الشّعراء على نظم الشّعر لمواساة المنكوبين معنويّا.[1]

2- الزّيادة في موارد الجمعية

لمّا انتقلت رئاسة الجمعية سنة 1900م إلى الشّيخ محمّد عبدَه، حسَّن مواردها المالية ووسّع مِنَ الاشتراك فيها ورغّب في عضويتها، فازدادتْ مواردها والمشتركون فيها، كما اقترح أنْ يتنازل المودعون في صندوقها على نسبة 2,5% كتبرّع للجمعية فوافقتْ عليه وأقرّته، وأجَّر محلّاتها فحقَّقت إيرادات طيّبة، الأمر الذي مكّنها مِنْ شراء وبيع السّندات والأراضي الزّراعية الأميرية بشكل واسع، ففي عامي 1903و1904م ازدادتْ التبّرعات العينية والنّقدية مِنَ الهيئات والأفراد، وتبرّع الأعيان بأراضيهم وشُيِّدتْ عليها المدارس، وازدادتْ إيراداتها على مصروفاتها، واستقرّ حالها إلى غاية وفاته عام 1905م.[2]

لقد كانت أعمال الشّيخ محمّد عبدَه مباركة خلال عضويته في الجمعية، وازدادتْ نجاحا أثناء رئاسته لها بفضل أرائه السّديدة وكفاءته وحنكته في التّسيير، حيث كثّر مواردها واستطاع أنْ يُوجد موارد متنوّعة لها، وأنْ يوسّع خدماتها التّربوية والتّعليمية بإنشاء المدارس لأبناء الفقراء المسلمين، وتكوين أجيال يمكنها تحقيق الإصلاح والنّهضة وتنوير العقول بالعلم والمعرفة والفهم الصّحيح للدّين، والتّحرّر مِنَ التّقوقع والتّقليد والجمود، والتّحرّر مِنْ ربقة الاستبداد الدّاخليّ والاستعمار الخارجيّ.

خامسا: معوّقات عمل الجمعية

لقي الشّيخ محمّد عبدَه العراقيل والتّشويه مِنَ الاستعمار البريطاني خلال سعيه لتربية وتعليم أبناء مصر على اختلاف مللهم ونحلهم، فوضع أمامه العراقيل وحبك ضدّه وضدّ مشروعاته الخيرية المكائد، ولفّق له التّهم الباطلة لتشويهه وعرقلة جهوده الإصلاحية وإجهاض أعماله الخيرية الرّامية إلى تعليم أبناء الفقراء ودمجهم في المجتمع وإخراجهم مِنَ الفاقة وجعلهم فاعلين في الحياة.

ورغم توجّه الجمعية الخيريّ والاجتماعيّ إلى خدمة أبناء الفقراء المسلمين، إلّا أنّها اتُّهمتْ بممارسة السّياسة، وسَعَوْا بها إلى ذوي النّفوذ والسّلطة لعرقلة عملها، ولولا دفاعه عنها وإقناعه للمسؤولين بأنّها جمعية خيرية محضة لا دخل لها في السّياسة والأعمال السّرّية لقضي عليها.[3]

ومِنْ مكائد الاحتلال البريطاني البعيدة عن التّصديق ضدّ الجمعية التي تصدّى لها الشّيخ محمّد عبدَه وأفشلها وكشف دخائل التّزوير فيها؛ تلك الوثائق المزيّفة التي اختلقها لحلّها والقضاء عليها وعلى حسناتها وصدقاتها؛ والوشاية بها عند الوكالة البريطانية واتهامها بأنّها تجمع الأموال لإعانة مهدي السّودان وتزويده بالذّخيرة والسّلاح، وجراءتهم في ذلك على تلفيق الأختام المزوّرة والبصمات المزيّفة التي أقنعتْ دار الوكالة وأثارت شبهاتها، حتّى أمرتْ بتفتيش مكاتب الجمعية ومراقبة مراكزها.[4]

---

[1] ينظر: مجدي سعيد، الإمام الشّيخ محمّد عبدَه والجمعيات الأهلية، مرجع سابق: ص711- 722.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص709و710.

[3] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص726.

[4] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السابق: ج1، ص729، وينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتّعليم الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ص152و153.

وقد عملت الجمعية على مقاومة سياسة الاستعمار البريطاني المقتِّرة على أبناء مصر الفقراء الرّاغبين في التّعليم والمضيِّقة عليهم في الإنفاق بفرض مصروفات دراسية زائدة عليهم لإثقال كاهلهم، وإلغاء مجّانيته، الأمر الذي جعل الفقراء يعزفون عن تعليم أبنائهم، فاختلقها الاستعمار ليمنع تنوير العقول ونشر التّعليم وإرساء معالم التّربية الرّامية إلى تكوين رجال يسهمون في بناء مستقبل مصر الحضاريّ، لذا حرص الشّيخ محمّد عبدَه على تعليم جميع المصريّين وخدمتهم وتقديم الخير لهم أفرادا وجماعات وهيئات، ممّا حدا بأقباط مصر إلى اتّباع نهجه بتأسيس جمعية التّوفيق القبطية لتعليم أبنائهم الفقراء وتجاوز العقبات المالية التي تعترضهم[1]، فكان له فضل السّبق في كونه دليلا على الخير في تأسيس جمعيات أهلية خيرية خاصّة بهم تشترك مع مقاصد الجمعية الخيرية الإسلامية.

سادسا: الجمعيات التي أسهم الشّيخ في تأسيسها

لقد اهتمّ الشّيخ محمّد عبدَه بالعمل الخيري لأجل إرساء التّربية ونشر التّعليم وترقيته ومحاربة الجهل ومدافعة الفقر الصّارف عن العلم، وتقديم الخدمات الاجتماعية للشّعب المصريّ، لذلك توجّه إلى تأسيس وتوظيف جمعيات خيرية أخرى لتحقيق غايات الإصلاح الشّريفة، فلم يقتصر على الجمعية الخيرية الإسلامية وإنّما سعى إلى تأسيس جمعيات خيرية أخرى لبلوغ المقاصد ذاتها، فساهم في تأسيس جمعية المقاصد الخيرية، وجمعية المساعي الخيرية، وجمعية التّقريب بين الإسلام والنّصرانية وغيرها.

1- جمعية المقاصد الخيريـة

تعدّ جمعية المقاصد الخيرية مِنْ أقدم الجمعيات الخيرية التّعليمية التي كان الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ أبرز أعضائها، حيث شارك في تأسيسها سنة 1878م في عهد الخديوي إسماعيل برئاسة سلطان باشا، وانضم إليها الكثير مِنَ الأعيان، وقد ساهمتْ في إنشاء مدارس كثيرة، وقدّمت العون للعديد مِنَ الأسر الفقيرة، وفيها كانت تُلقى الخُطب، ومِنْ أشهر خطبائها الشّيخ محمّد عبدَه الذي ألقى خطبة في فبراير 1882م عند اجتماع الجمعية للتّصديق على مشروع القانون الأساسي لمجلس النّواب، وقد حُلَّت أيام الثّورة العُرابية بسبب نشاطها السّياسي ومناهضتها للاستبداد الدّاخلي والنّفوذ الأجنبي.[2]

2- جمعية المساعي الخيريـة

تعدّ أكبر جمعية خيرية قبطية، تأسّستْ سنة 1881م بناء على الاجتماع الذي عقد بمنزل يوسف مفتاح، حضره الشّيخ محمّد عبدَه والشّيخ محمّد النّجار وعبد الله النّديم وأديب إسحاق رفقة ثلاثين مِنْ كبار الأقباط، وفيه أُسندتْ رئاسة الجمعية إلى بطرس غالي بك، ومِنْ أبرز نشاطاتها: التّدبير المنزلي، الفنون الطّرزية، تعليم عدد كبير مِنْ أبناء الفقراء في المستوى الابتدائي والثّانوي والعالي.[3]

3- جمعية التّقريب بين الإسلام والمسيحيـة

الجمعية سياسية دينية عملتْ على إزالة الشّقاق بين أهل الدّيانتين، وعلى إخراج الاستعمار مِنَ الشّرق، وتعريف الغرب بحقيقة الإسلام، ساهم الشّيخ محمّد عبدَه في تأسيسها سنة 1884م في منفاه

---

[1] ينظر: سعيد إسماعيل علي، الإصلاح التربوي عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص668.

[2] ينظر: مجدي سعيد، الإمام الشّيخ محمّد عبدَه والجمعيات الأهلية، مرجع سابق: ص702و703.

[3] ينظر: المرجع نفسه: ص703.

ببيروت مع بير زاده، وعارف أبي تراب تابع جمال الدّين الأفغانيّ، وجمال بك نجل رامز بك قاضي بيروت، وميرزا باقر وعدد مِنْ أصدقائه النّصارى، وكان الشّيخ محمّد عبدَه رئيسها وصاحب الرّأي الأوّل في مهامّها ونظامها، وميرزا باقر أمينها العام، ثمّ انضمّ إليها مؤيّد الملك أحد وزراء إيران، وحسن خان مستشار السّفارة الإيرانية في الأستانة، والقسّ إسحاق تيلر أحد رجال الدّين الإنجليز في لندن، والمستر جي دبليو لينتز مفتّش المدارس بالهند، وقد أثرى الشّيخ محمّد عبدَه نشاطاتها بمقالاته حول الدّيانتَيْن وأحوال أهلهما، داعيا إلى ضرورة الاتّحاد والاتّفاق وتقديم الخير للنّاس.[1]

4- جمعية العروة الوثقى

أسّسها بالإسكندرية سنة 1892م، وركّز جهوده فيها على مقاومة الاحتلال ومقاومة النّفوذ الأجنبي بتوظيف التّعليم في نشر العلوم والمعارف والآداب والصّنائع، ولتقوم بالأعمال الخيرية وتربية وتعليم أبناء الفقراء مِنَ الجنسَيْن مجّانا، وهي غير جمعية العروة الوثقى التي أسّسها الأفغاني.[2]

5- جمعية إحياء الكتب العربيـة

عمل الشّيخ محمّد عبدَه جاهدا للنّهوض باللّغة العربية وإحيائها، باعتبارها أساس الدّين الإسلاميّ، لأنّه بإصلاحها يصلح دينهم وتعليمهم، وأنّه يستحيل إحياء اللّغة العربية وعلومها بالكتب المعتمدة في التّدريس بالأزهر، فرأى بأنّ إصلاح أمّته دينيّا وتربويّا يكون بإحياء كتب المسلمين النّافعة، لذلك تأسّست الجمعية برئاسته سنة 1900م وقام بطبع كتابَيْ أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز في البلاغة للجرجانيّ بعدما أحضر نسخا مِنَ الأقطار النّائية وصحّحها، كما طبع كتاب المخصّص لابن سيّده الأندلسيّ في اللّغة، واستحضر نسخا مِنْ مدونة الإمام مالك مِنْ تونس وفاس وطبعها[3]، كما طبع كتاب الموجز في فقه الإمام الشّافعي، وسيرة السّلطان صلاح الدّين، وفتوح البلدان للبلاذري، والإحاطة في أخبار غرناطة، وتاريخ دولة آل سلجوق وغيرها مِنَ الكتب.[4]

وقد كان غرضه مِنِ استقدام الكتب وطبعها واعتمادها في المدارس المصرية هو خدمة اللّسان العربيّ والدّين الإسلاميّ الذي به حياة الأمّة وسؤددها، فقد قال في ملإٍ مِنَ العلماء في تونس: "إنّ إصلاح لساننا هو الوسيلة المفردة لإصلاح عقائدنا، وجهل المسلمين بلسانهم هو الذي صدّهم عن فهم ما جاء في كتب دينهم وأقوال أسلافهم"[5]، فجعل مِنَ الجمعيات ومدارسها وسيلة لمقاومة نفوذ المدارس الأجنبية الخادمة لأغراض الاحتلال، ولمعالجة آثار الفقر الذي حرم أبناء المسلمين مِنَ التّعليم، ووسيلة لتطوير التّعليم حتّى يتماشى مع العصر، فأدخل موادًّا جديدة نافعة، كتعليم الفنون والصّنائع واللّغات الأجنبية، والانفتاح على الأوروبّيّين ومعرفتهم جيّدا وعدم الانطواء على الذّات.

---

(1) ينظر: مجدي سعيد، الإمام الشّيخ محمّد عبدَه والجمعيات الأهلية، مرجع سابق: ص703و704.

(2) ينظر: المرجع نفسه: ص722- 725.

(3) ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص753.

(4) ينظر: مجدي سعيد، الإمام الشّيخ محمّد عبدَه والجمعيات الأهلية، المرجع السابق: ص728و729، وينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص81.

(5) المرجع نفسه: ص81.

الفرع الرّابع: الأوقاف والمساجـد

اهتمّ الشّيخ محمّد عبدَه بقطاع الأوقاف والمساجد لأدوارهما الكبيرة في تجسيد الإصلاح الدّيني والتّربوي في المجتمع، وعمل جاهدا على تفعيل الأوقاف لتحسين الظّروف الاجتماعية لشيوخ الأزهر المدرّسين، ولمؤطّري المساجد مِنَ الأئمّة والخطباء والمؤذّنين وجميع الأسلاك التّابعة لها؛ مِنْ خلال رصد المرتّبات لهم والرّفع مِنْ قيمتها، ورعاية طلبة العلم الأزهريّين، وتمويل المساجد ومرافق الأزهر والمعاهد التّابعة له، بالإضافة إلى تمويل مختلف المؤسّسات العلمية والمدارس التّعليمية المصرية، والجمعيات الخيرية التي ساهمتْ في تعليم أبناء الفقراء وتحصين هويّتهم مِنْ مخطّطات الاستعمار المسخية.

أوّلا: الأوقـــاف

1- رصده رواتب شيوخ الأزهر مِنَ الأوقـاف

كان قطاع الأوقاف يعيش عشوائية في التّسيير وفي التّصرّف في موارده مِنْ طرف شيوخ الأزهر الذين كانت لهم السّلطة في توزيعها على مَنْ شايعهم ووالاهم أو كان على مذهبهم فيمكّنونهم مِنْ مداخيلها، فقد كانوا يوزّعون المرتّبات والجِرايات على أتباعهم أو على أبناء أقاليمهم بحسب رغبتهم وعلى غير قاعدة مرعية، وحسبما يتجمّع عندهم مِنْ مداخيل الأوقاف المحبوسة، والأمر نفسه بالنّسبة للكِساوى التّشريفية التي كان يَخصّ بها الشّيخ الأكبر مَنْ يشاء مِنْ أبناء مذهبه أو إقليمه أو أشياعه ومريديه، حتّى أنّه لا يُراجَع فيما يقوم به ولا يُحتج عليه عند ولاّة الأمور إذا قام بذلك.[1]

لذلك عمل الشّيخ محمّد عبدَه على إصلاح الأوقاف بوضع برنامج متكامل لخدمة المؤسّسات التّربوية والدّينية وتحقيق التّكافل في المجتمع المصريّ والتّيسير عليه، فخصّص جزءً مِنَ الأوقاف لصرف رواتب شيوخ الأزهر الذين لم تجعل لهم الحكومة مصرفا مِنْ ميزانيتها، فصارتْ تخلّصهم منها، وجعلتْ لهم الحقّ في الأوقاف، فخدم بذلك الأزهر ومؤطّريه بالزّيادة في رواتبهم، نظير جهودهم المبذولة في تبليغ رسالة الإسلام والتّمكين له، والارتقاء بالمستوى العلمي والمعيشي للأمّة المصرية.

وسعى الشّيخ محمّد عبدَه عند ديوان الأوقاف حتّى يرصد للأزهر مبالغ سنوية في ميزانيته، وأفتى أنّ هذا المصرف مفروض على الدّيوان في مقدّمة مصارفه، وأوّلُها الصّرف على تعليم أحكام الإسلام وإعداد الوعّاظ والأئمّة للمساجد التي تقام فيها الصّلوات الجامعة، لأنّ صرف ميزانية الحكومة وميزانية الأوقاف على الأزهر ستسهم في تنظيم التّدريس ورفع المرتّبات إلى المستوى اللّائق بالعلماء.[2]

وقد تكلّلتْ جهود الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية بتحسين الظّروف المادّية لشيوخ الأزهر، ورصد رواتب لهم مِنْ خزينة الدّولة مقابل تربية وتعليم طلبته، وحفظ كرامتهم، وحمايتهم مِنَ الاستغلال.

2- إنشاؤه المدارس وتمويلها مِنَ الأوقاف والتّصدّي لسياسة الاستعمار التّجهيليـة

في أواخر القرن التّاسع عشر الميلاديّ زاد النّفوذ الأجنبي، وبسط الاحتلال البريطاني نفوذه على المصريّين اجتماعيّا وسياسيّا واقتصاديّا وتربويّا وتعليميّا وثقافيّا حتّى تدهورتْ أكثر، وبرزتْ بعض النّخب المصرية كالشّيخ محمّد عبدَه لمعالجة الوضع المتأزّم وإصلاحه ومقاومة الاحتلال البريطاني الذي

---

[1] ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص121.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ص122.

عمل على تفقير المصريّين وتجهيلهم، فأنشأ الجمعية الخيرية الإسلامية لتمكين أبناء المسلمين الفقراء مِنَ التّعليم المجّاني، وأسّس المدارس الأهلية للتّصدّي للسّياسة الاستعمارية التي استهدفتْ هوية المصريّين الدّينية واللّغوية والثّقافية، وأمعنتْ في إذلالهم وتفقيرهم وجعلهم في الحضيض اجتماعيّا واقتصاديّا، ورَصَدَ أموال الأوقاف والتّبرعات والهبات لإنشاء المدارس وتمويلها لنشر التّعليم وتعميمه على مختلف فئات المجتمع، وتمكين أبناء الفقراء منه ونشر المدارس في الأقاليم المصرية، وقد استمرّت العملية إلى غاية سنة 1923م[1]، وبقي صنيع الشّيخ محمّد عبدَه سُنَّة حميدة إلى ما بعد وفاته، له أجرها وأجر مَنْ عمل بها مِنْ بعده إلى يوم القيامة، مصداقا لقوله ﷺ في حديث جرير بن عبد الله ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**» [رواه مسلم].[2]

ومنذ تأسيس الشّيخ محمّد عبدَه للجمعية الخيرية الإسلامية سنة 1892م إلى غاية ترأّسه لها سنة 1900م، وهو يعمل على توسيع مواردها وتسخيرها لإعانة الفقراء وتعليمهم وتربيتهم وتكوينهم وإتاحة الفرص لهم كغيرهم مِنْ أبناء الأغنياء، ومقاومة خطط الاحتلال البريطاني الذي أمعن في محاربة هوية المصريّين بالتّقتير عليهم في التّعليم وحرمانهم منه وإلغاء مجّانيته، فسخّر الشّيخ الأوقاف لخدمة التّربية والتّعليم والمشروعات التّعليمية بالإنفاق عليها ومساعدة الجمعية في القيام بمهامّها الخيرية؛ بتوفير الدّعم المالي لها بصورة منتظمة، كما أوقف الأراضي الزّراعية والعقارات لأغراض الجمعية وذلك بالمدّ في إنشاء الأوقاف وتكثيرها لتحصين ثروة البلاد مِنْ التّسرّب إلى الأجانب أفرادا كانوا أم شركات اقتصادية، وكذا حمايته للأراضي مِنْ سطو الخديوي واستغلاله الشّخصي لها، واستطاع أنْ يجعل مِنَ الأوقاف وسيلة لمنع الاستعمار البريطاني مِنْ محاربة التّعليم وتهميشه.[3]

وقد كانت مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية برعاية الأوقاف تجمع بين التّعليم الموروث والمستجدّ معا، فكانت وسطا بين معاهد الأزهر والمدارس الحديثة، كما تأسّست للتصدّي للزّيادة الملفتة للمدارس الأجنبية ومدارس الإرساليات التّبشيرية التّنصيرية التي فاق عددها المدارس الأميرية بعد الاحتلال البريطاني لمصر الذي عمل على إلغاء مجّانية التّعليم لحرمان المصريّين منه، وإهمال تدريس علوم الشّريعة واللّغة العربية والتّاريخ الوطني إمعانا منه في محاربة هويّة المجتمع المصري.[4]

لقد اتّبع الاحتلال البريطاني سياسة ممنهجة في التّربية والتّعليم؛ لإيجاد نشء ممسوخ الهوية، ولتخريج كائنات مهيّئة لخدمته بتوظيفها في دواليب الحكم، ولإحداث شرخ بين أغنياء المجتمع وفقرائه وترسيخ الطّبقية فيه، فجاءت الجمعية الخيرية الإسلامية لتمكين أبناء الفقراء المسلمين مِنَ التّعليم

---

[1] ينظر: مجدي سعيد، الإمام الشّيخ محمّد عبدَه والجمعيات الأهلية، مرجع سابق: ص700و713و714.

[2] أخرجه مسلم في كتاب: العلم، باب: مَنْ سَنَّ سُنَّةً حسنة أو سيئة، ومَنْ دعا إلى هدى أو ضلالة، ج4، ص2059، حديث رقم: 15.

[3] ينظر: مجدي سعيد، الإمام الشّيخ محمّد عبدَه والجمعيات الأهلية، المرجع السابق: ص710.

[4] ينظر: المرجع نفسه: ص728.

وتدريسهم ما يخدم هويتهم ويقوّي شخصيتهم، وللصّمود أمام مخطّطات الاحتلال البريطاني التّغريبية، ولإحياء الأمّة المصرية ونهضتها بتجسيد الإصلاح التّربوي فيها.

ثانيا: المساجـــد

المساجد هي أوّل ما بني على وجه الأرض لقوله تعالى:﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾[سورة آل عمران]، ومسجد قباء هو أوّل مسجد بُني بعد هجرة النّبي ﷺ إلى المدينة، ثمّ المسجد النّبوي الذي يعدّ أحد المساجد الثّلاثة التي لا تشدّ الرّحال إلّا إليها، وفيها تؤدّى الصّلوات وتلقى الخطب والدّروس وتعقد مجالس الوعظ والإرشاد وحلقات التّربية والتّعليم، ومنذ بعثته ﷺ والمساجد تقوم بتلك الأعمال الجليلة التي تُربّي الفرد وتبني الجماعة لتحقيق السموّ الأخلاقي والازدهار الفكري والرّقيّ الحضاريّ للأمّة، وتقوّي أواصر المجتمع بإرساء قيم التّكافل الاجتماعيّ، فهي تكمّل عمل باقي مؤسّسات المجتمع لبناء الإنسان الصّالح المصلح، وهي مؤسّسة تربوية دينية مهمّة في تربية الأفراد روحيّا وتكوين شخصيتهم السّوية، وغرس فضائل حبّ الخير وكراهية الشرّ فيهم، وإكسابهم العادات الحسنة، لكونها مقصد كلّ أطياف المجتمع على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم ووظائفهم.

وقد كانت المساجد تقوم بأدوار دينية وتربوية وتعليمية منذ بعثته ﷺ وإلى اليوم، فيتمّ تعميرها بأداء الصّلوات جماعة، وعَقدِ مجالس العلم، وتربية الأمّة على الأخلاق الفاضلة، وتعليمها أمور دينها ودنياها، وحثّها على أداء واجباتها، وهو ما قامتْ به عبر تاريخها الطّويل، لكن مع توالي العصور قُزِّمتْ أدوارها وحُوّرتْ مهامّها، لذلك تصدّى الشّيخ محمّد عبدَه لإصلاحها لاستعادة أدوارها الرّيادية.

1- أساليبه في إصلاح المساجـد

تشبّع الشّيخ محمّد عبدَه بالعقيدة الإسلامية في المساجد التي فيها تعلّم مبادئه وأحكامه، وفيها جالس العلماء وأخذ عنهم العلم وصبر عليه وصحّح فكره ونمّى عقله، وفيها باشر التّربية والتّعليم لأجل الإصلاح، فزاوله في مصر وفي بيروت وفي تونس والجزائر وغيرها، فخطب فيها ووعظ وفسّر كتاب الله تعالى، فكانت المساجد مِنْ وسائله النّاجعة في الإصلاح التّربويّ والدّينيّ والاجتماعيّ والسّياسيّ.

إنّ أشهر المساجد وأبسطها تجمع بين الصّلاة والتّعليم منذ القدم، وهو ما قام به الجامع الأزهر في مصر، وجامع الزّيتونة في تونس وجامع القرويّين في المغرب الأقصى، وجامع الأمويّين في الشّام، وجوامع الكوفة والبصرة في العراق وجامع الأمير عبد القادر بقسنطينة في الجزائر في الوقت الرّاهن، وغيرها مِنَ المساجد في العالم العربي والإسلامي، قال ابن باديس في هذا السّياق: "مضى المسلمون على هذه السُّنَّة -الصّلاة والتّعليم- في أمصار الإسلام يقفون الأوقاف على المساجد للصّلاة والتّعليم، ومِنْ أظهر ذلك وأشهره اليوم: الجامع الأزهر، وجامع الزّيتونة، وجامع القرويّين، ولن يرجى لهم -للمسلمين- شيء مِنَ السّعادة الإسلامية إلّا إذا أقبلوا على التّعليم الدّيني فأقاموه في مساجدهم كما يقيمون الصّلاة وكما كان النّبيّ ﷺ يفعل مِنْ إقامتهما بمسجده".[1]

[1] عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق: ج3، ص225و226.

وكما قام الشّيخ محمّد عبدَه بالتّربية والتّعليم في مؤسّسات التّربية النّظامية قام بها كذلك في المساجد، بل ذهب إلى أبعد مِنْ ذلك لمّا حُصرت مهامها في الدّروس والخطب والعبادات والتّزكية والتّصوّف وأُبعدت عن معالجة قضايا المجتمع الحسّاسة التي تلامس اهتمامات الفرد والمجتمع، فتوجّه إلى إصلاحها والعودة بها إلى سابق عهدها ممّا كانت عليه زمن النّبيّ ﷺ، لمّا كانت المساجد مؤسّسة محورية فاعلة في الإصلاح والتّغيير، فوظّفها في التّعريف بالإسلام والدّعوة إليه.

خلال تواجد الشّيخ محمّد عبدَه في منفاه ببيروت، قدّم دروسا في المسجد العمري في حلقات منتظمة في ثلاث ليال في الأسبوع، يفسّر كتاب الله تعالى مدّة سنتين بمنهج عقلي موافق لمنهج أستاذه جمال الدّين الأفغاني، فأحدثت دروسه حركة فكرية وثقافية وصل تأثيرها في المستمعين إلى درجة أنّه اجتذب إليه النّصارى الذين كانوا يجتمعون عند باب المسجد للاستماع إليه، وبسبب ضوضاء الشّارع طلبوا منه السّماح لهم بدخول المسجد لمتابعة حديثه، فسمح لهم بذلك تفاديا للضّوضاء.[1]

فألزم نفسه بإصلاح المساجد ووضع خطّة إصلاحية تُعْنَى بها رغم العراقيل التي لقيها في سبيل ذلك، ورغم المواقف التي اتّخذتها الحكومة ضدّه مِنْ جهة، وشيوخ الأزهر الجامدين مِنْ جهة أخرى.

ووظّف المساجد في الإصلاح الدّينيّ والتّربويّ والاجتماعيّ، وعمد إلى إصلاح عقيدة النّاس بتفسير القرآن الكريم فيها، ففسّره في مساجد بيروت لمّا كان منفيّا فيها، وفي مساجد مصر بعد رجوعه إليها.[2]

وقد باشر الشّيخ محمّد عبدَه إصلاح المساجد لمّا كان مفتيا وعضوا في المجلس الأعلى لديوان الأوقاف الذي يشرف على المساجد، فقدّم مشروعا لإصلاحها بإنشاء إدارة مستقلّة بها تابعة للدّيوان تتولّى مهمّة تعيين الأئمّة والمدرّسين لإلقاء الدّروس، ورصد النّفقات لتدبير الوسائل الصّحّية فيها وما يلحق بها مِنْ أماكن الوضوء، واختيار الأئمّة مِنَ العلماء الأزهريّين الذين يصلحون للخطابة والتّعليم ونشر التّربية عن طريق الوعظ والإرشاد، ورفع المكافآت الشّهرية للأئمّة والوعّاظ حتّى تناسب طبقة العلماء والمدرّسين، وقد كان هدفه مِنْ إصلاح المساجد هو تزويد البلاد بمؤسّسة تربوية اجتماعية تحدث يقظة وطنية لا تقلّ تأثيرا عن المدارس والمعاهد والجامعات، لكن بمجرّد أنْ علم الخديوي عبّاس بمشروعه الإصلاحي وعلم به أهل الجمود حبكوا الدّسائس لإحباطه ومعهم القاضي الأكبر في القاهرة الخاضع للإدارة السّلطانية العثمانية الذي كان ينقم على الشّيخ محمّد عبدَه لرغبته في استقلال مصر عن تركيا، فكان يحسده على مكانته المحترمة في البلاد الإسلامية، فخالفه في مشروعه الإصلاحيّ واحتجّ عليه بعدم استئذانه فيه، واتّفقوا جميعهم على عدم تنفيذه.[3]

لكن الشّيخ محمّد عبدَه سعى بجدٍّ إلى تجسيد مشروعاته الإصلاحية، ولم يستسلم للعراقيل والدّسائس التي حيكتْ ضدّه وضدّ إصلاحاته مِنَ الحكومة ومِنْ رجال الأزهر وطلبتهم، ومع ذلك أثّرت

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص26، وينظر: محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص39.

[2] ينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدد، مرجع سابق: ص254.

[3] ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتّعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص126و127.

عليه وجعلته يبتعد عن الأزهر في أخريات حياته، ويستقيل مِنْ منصب الإفتاء دون أنْ يتخلّى عن رسالة الإصلاح التّربوي، فغادر الأزهر ليكمل مسيرة الإصلاح مِنْ مواقع أخرى أقلّ عراقيل وأكثر هدوء.

وغادر الأزهر وواصل عملية الإصلاح بجوار بيته بعين شمس، وأخذ يُعِدُّ العدّة لافتتاح مدرسة خاصة لتخريج الدّعاة ورسل الإصلاح ممّن يرضَوْن بمنهجه الإصلاحيّ ويتقبّلون دعوته ويؤمنون بمقاصده، لكنّ المنية وافته قبل أنْ يجسّد مشروعه بعد ثلاثة أشهر مِنِ اعتزاله إدارة الأزهر.[1]

وعمد الشّيخ محمّد عبدَه إلى تجسيد إصلاحاته في المساجد بتوظيف أهمّ ما تيسّر لديه مِنَ الوسائل المشروعة لإنجاحها فيها، كالخطابة والوعظ والإرشاد وتدريس تفسير كتاب الله تعالى كالآتي:

أ)- الخطابـــة

وظّف الشّيخ محمّد عبدَه منبر الخطابة خلال مسيرته الإصلاحية، حيث كان كلّما أتيحتْ له فرصة مناسِبة إلّا وأدلى بدلوه فيها، يخطب واعظا ومرشدا لتربية أمّته، مستعملا لغة بسيطة بليغة مؤثّرة، يصف الدّاء ويشخّص الدّواء ويعطي الحلول للقضايا والمشاكل النّازلة.

فقد ذكر في إحدى خطبه التي ألقاها في الجمعية الخيرية الإسلامية وهو يدعو المصريّين إلى التّربية الصّحيحة وتغذية العقول بالفكر السّليم الذي يفتقر إليه كما تفتقر إليه شعوب الأمّة العربية والإسلامية فقال في إحدى خطبه: "إنّ بلادنا ليست بلاد الجوع القتّال، ولا بلاد البرد القارس المميت، ولا بلاد الشّقاء التي لا ينال فيها قوت يومه إلّا بالعذاب الأليم، بل نحن في بلاد رزقها الله سِعة مِنَ العيش، ومنحها خصوبة وغنى يُسهّلان على كلّ عائش فيها قطع أيام الحياة بالرّاحة والسّعة، ولكنّها وللأسف مُنِيَتْ مع ذلك بأشدّ ضروب الفقر، فقر العقول والتّربية"، وقال في شأن تربية البنات اللّاتي أُهملتْ تربيتهنّ والاهتمام بهنّ جهلا بوظائفهنّ في الحياة واحتقارا لدورهنّ فيها: "نحن نتمنّى تربية بناتنا، فإنّ الله تعالى يقول:﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[سورة البقرة]".[2]

ب)- الوعظ والإرشـــاد

إنّ استخدام الشّيخ محمّد عبدَه للوعظ والإرشاد كان ليقينه بجدواه وفاعليته الأكيدة في الإصلاح والتّغيير والإحياء لأمّته التي اكتسحها الجهل والخمول الذي جعلها تغطّ في سبات طويل، الأمر الذي جعل الدّول الأوروبّية تتكالب عليها وتستعمرها وتستولي على خيراتها وتستذلّها وتستعبدها.

فرأى بتجربته الثّرية ونظره الثّاقب للآثار الإيجابية التي قد تنجم عن حسن توظيف وسيلة الوعظ والإرشاد في الإصلاح، حتّى وإنْ تحقّقتْ مقاصدها على المدى البعيد، فطريق الإصلاح بهذه الوسيلة بطيء وطويل، لكنّه آمن ويوصل حتما إلى أهدافه القريبة وغاياته البعيدة، وهي الفكرة التي أكّدها جرجي زيدان بقوله: "أمّا المصلحون بالموعظة الحسنة والتّعليم، فعلمهم بطيء، ولكنه أرسخ في الأذهان، وأصبر على كوارث الحدثان، والشّيخ محمّد عبدَه واحد منهم".[3]

---

[1] ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتّعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص128.

[2] المصدر نفسه: ص169.

[3] جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، مرجع سابق: ج1، ص326.

ت)- تدريس التّفسيـر

سلك الشّيخ محمّد عبدَه كلّ السّبل الموصلة إلى تجسيد الإصلاح، واستعمل جميع الوسائل المتاحة المشروعة، فزاول التّدريس الذي فُطِر عليه وأحبّه، ووظّفه بعلم وكفاءة واقتدار.

فقَدَّمَ دروسا ومحاضرات في جامع الزّيتونة في فترة منفاه، حضرها عدد مِنَ العلماء المبرّزين التّونسيّين أمثال شيخ الإسلام الحنفي أحمد بن خوجة وقاضي باردو، وذلك لمّا قَدِمَ في زيارته الأولى إلى تونس أواخر سنة 1884م، عندما زارها لجمع الأموال لدعم جريدة العروة الوثقى التي كانت تعاني التّضييق مِنَ السّلطات الفرنسية، وكذا لأجل تشكيل فرع لجمعية العروة الوثقى بها.[1]

ولمّا شرع يدرّس التّفسير في جامع الأزهر في أواخر حياته، اقترح عليه تلميذه محمّد رشيد رضا أنْ يكتب تفسيرا للقرآن الكريم لتستفيد منه أمّته، لِمَا يتميّز به تفسيره منْ منهج فريد وطريقة متميّزة وسِحْرٍ في التّأثير، وثراء في الشّواهد، وربطٍ بواقع الأمّة الذي يزخر بفتوحات علمية جديدة، واستحضار للماضي وما يضمُّه مِنْ حقائق ونفائس وعِبَرٍ وعظات، فأجابه بأنّ الكلام المسموع أفضل مِنَ المكتوب وقال له: "إنّ الكتب لا تفيد القلوب العُمْي، لا تفيد الكتب إلّا إذا صادفتْ قلوبا عالمة بوجه الحاجة إليها تسعى في نشرها، إنّ الكلام المسموع يُؤَثّر في النّفس أكثر مما يُؤَثّر الكلام المقروء؛ لأنّ نظر المتكلّم وحركاته وإشارته ولهجته في الكلام كلّ ذلك يساعد على فهم مراده مِنْ كلامه ويمكن للسّامع أنْ يسأله عمّا يخفى عليه منه فإذا كان مكتوبا فمَنْ يسأل؟ إنّ السّامع يفهم مِنْ كلام المتكلم 80 في المائة والقارئ لكلامه يفهم 20 في المائة على ما أراد الكاتب"، ثمّ ذكّره بأنّه لمّا كان يفسّر القرآن كان يحضر مجلسه المسلمون والأقباط، وكان هناك قِبْطِيَيْن يراجعانه ويكتبان تفسيره بين يديه، وأمّا المسلمون فلا يكتبون، كان ذلك بعدما شرع يقرأ تفسيره في أواخر حياته سنة 1905م بالجامع الأزهر، بعدما أعلن تلميذه محمّد رشيد رضا الخبر في جريدة المؤيّد في مقاله: القرآن؛ مبيّنا فيه حاجة المسلمين إلى فهمه والاهتداء به، فكان الحضور غفيرا مِنَ المسلمين وغيرهم لم يعهد له نظير مِنْ قبل.[2]

لقد كانت دروسه في تفسير كتاب الله تعالى ناجعة، إذ لا يمكن احتقارها مهما تطوّرت الوسائل وتغيرت الظّروف، والدّروس السّمعية في حلق العلم بين الشّيخ وطلبته تعتبر مِنَ الوسائل القديمة الحديثة التي لا يمكن الاستغناء عنها في التّربية والتّعليم والإصلاح، ووجودها دليل على استعداد الأمّة للإصلاح والتّغيير، وهذا ما جعله يطمئنّ على جهوده الإصلاحية، فكانتْ دروسه السّمعية التي قدّمها في التّفسير، مِنَ الخِدْمَات الجليلة لكتاب الله تعالى وللعلم وللأزهر وللأمّة الإسلامية جمعاء.

وسعى إلى تربية أمّته وإصلاحها مِنْ خلال تفسيره لكتاب الله تعالى ليبعث فيها روح القرآن وآدابه، ودعاها إلى استخدام العقل ، فقد اشتمل تفسيره على النّظر وإعمال الفكر، وكان غرضه مِنْ ذلك فهم القرآن الكريم والتّعرّف على عظمة الله عزّوجل للإنشداد إليه، ودَفْعِ النّفس إلى الخير وصرفها عن الشّر وإرشاد النّاس إلى ما فيه سعادتهم في الدّنيا والآخرة[3]، وعند تفسيره للقرآن الكريم

---

(1) ينظر: الموسوعة التونسية المفتوحة: http://www.mawsouaa.tn، تاريخ الزيارة: الأحد: 2020/04/12م، في الساعة: 15:00 زوالا.

(2) ينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج8، ص881.

(3) فارس علي العامر، دروس في القرآن وعلومه ومناهج المفسرين، ص180-190، ينظر: موقع: المرجع الإلكتروني للمعلوماتية: =

استعان بالعلوم الحديثة، ودعا المسلمين إلى عدم اختلاق معارك وهمية حول التّضارب بين القرآن وما أثبته العلم والطبّ، إذ لا تعارض بينهما، ودعا العقل إلى أنْ لا يتجاوز حدود الإيمان.[1]

2- إصلاح اختلالات المساجد المادّية والمعنويــة

إنّ فكر الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحي، جعله كلّما تقلّد منصبا معيّنا، إلّا واستغلّه في التّعرّف على كلّ ما يدخل تحت إشرافه عن قرب، فيبحث عن كمالاته ليُبقيَ عليها ويُثريها، ويَتقصّى مواضع الخلل فيه ليقوم برتقها وإصلاحها وإصلاح موظّفيها وأحوالهم.

وقبيل وفاته أعدّ تقريرا شاملا لإصلاح المساجد وتنظيمها وتطوير مهامّها، وتحديد مواصفات اختيار أئمّتها وخطبائها وغيرهم مِنَ الأسلاك التّابعة لهم.[2]

وكان إصلاحه للمساجد يتمّ بالانشغال بهموم واهتمامات أئمّتها وخطبائها الذين كانوا أحقر الموظّفين في مصر، لأنّ أكثرهم كانوا مِنَ العوامّ الفقراء ضعيفي الدّخل، وحاول إيجاد الحلول لمشاكلهم[3]، لذلك قدّم للخديوي عبّاس لوائح مكتوبة لإصلاح الاختلالات المادّية والمعنوية للمساجد.

أ)- إصلاح الاختلالات المادّيــة

لمّا عُيّن الشّيخ محمّد عبدَه مفتيا للدّيار المصرية سنة 1899م مِنْ طرف الخديوي عبّاس الثّاني صار بموجب هذا المنصب عضوا في مجلس الأوقاف الأعلى، وقدّم للمجلس لائحة لإصلاح المساجد لإقرارها والعمل بها، ضمّنها ثلاثة وعشرين مادّة وزّعها على أربعة أبواب[4]، وخلاصة مقترحاته أنّه أورد في الباب الأوّل: توحيد الإمامة في جميع المساجد ومنع اجتماع إمامَيْن في مسجد واحد، كما كلّف الإمام القيام بالخطبة، وكلّف أوفر الأئمّة راتبا بالخطبة في حال تعدّد الأئمّة، وحدّد وظيفة المؤذّنين في المساجد، وعيَّن ملاحظا رئيسا للخدمة فيها، وحدّد الوظائف المتعلّقة بالفرّاشين والسّقّائين والبوّابين والمبخّر، وفي الباب الثّاني حدّد مرتّبات موظّفي المساجد مِنَ الأئمّة والملاحظين والمؤذّنين وقرّاء القرآن والخَدَمَة، وقسّم درجاتهم بحسب أقاليمهم، وفي الباب الثّالث وضع شروط التّوظيف، واشترط على الإمام أنْ يكون حائزا على شهادة العالمية، فإنْ لم تكن فالأهلية، فإنْ لم توجد يُنتخَب اللّائق بالامتحان، وأمّا الملاحظين والمؤذّنين والخَدَمَة اشترط فيهم قوّة البِنية، وأمّا الخازن فاشترط فيه معرفة القراءة والكتابة، وفي الباب الرّابع حدّد العلاوات وشروطها وكيفية توزيعها، ولمّا عُرِضَتْ اللّائحة على مجلس الأوقاف الأعلى ناقشها وأقرَّ معظم موادّها، ولمّا عُرِضَتْ على الخديوي عبّاس أصدر أمرا بإيقاف تنفيذها، لكن مدير الأوقاف قدّم مذكرة مِنْ وحي اللّائحة إلى مجلس الأوقاف فأُقِرت وأُنفذَت.[5]

فعمل الشّيخ محمّد عبدَه في لائحته على تنظيم شؤون المساجد وتأطيرها وتحديد مهامّ موظّفيها ومرتّباتهم ودرجاتهم حتّى لا تُسَيَّر بعشوائية، كما حرص على توحيد صفوف المسلمين وجمعهم على إمام

=www. almerja.com، تاريخ الزيارة: الجمعة: 2019/01/11، في الساعة: 22:30 ليلا.

[1] ينظر: علي المحافظة، الاتّجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، مرجع سابق: ص84.

[2] ينظر: زكريا سليمان بيومي، التيارات السياسية والاجتماعية بين المجدّدين والمحافظين، مرجع سابق: ص112.

[3] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص630.

[4] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج2، ص297- 301.

[5] ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص47و48.

واحد للقضاء على الفُرقة والاختلاف السّائدَيْن في المجتمع المصريّ، وحتّى يعطي الصّورة الحقيقة للإسلام الذي يدعو إلى الوحدة ولمّ الشّمل، فاهتمّ بموظّفيها وضبط مهامّهم وبيّن لهم حقوقهم وواجباتهم، حتّى تؤدّي المساجد رسالتها، وتزول البدع التي نشأت وشاعت بسبب الجهل بأحكام الدّين وضعف العقيدة وقلّة الوعي، ورأى بأنّ عدم الإسراع في إصلاح الاختلالات المادّية في المساجد سيعطّلها عن أداء مهامّها، وسيوقع النّاس في الحرج، وستضيع الحقوق ولا تُؤدّى الواجبات، وستنفلت فيها الأوضاع، وستعمّ الفوضى وتسود الفتنة وتذهب قداستها وهيبة الإمام معها.

ب)- إصلاح الاختلالات المعنويــة

لم يغفل الشّيخ محمّد عبدَه عن الإصلاحات الجوهرية التي تكتسي طابع الأولوية حتّى تُؤدّي المساجد رسالتها المنوطة بها في العبادة والتّربية والتّعليم والتّوعية والتّوجيه والتّثقيف، وحتّى تُؤدّي رسالتها في التّكافل والتّضامن الاجتماعيّ، والانفتاح على المجتمع والتّفاعل مع قضاياه الشّائكة بالمساهمة في حلّها لرفع المشقّة عن الإنسان وخدمته في الحياة وتحقيق سعادته في الآخرة.

لقد دعا في أدبيّاته وسعى عمليّا لإصلاح المساجد وتفعيل رسالتها في تربية المجتمع، وانتقد الحالة السّيئة التي تعاني منها المساجد روحيّا ومعنويّا؛ إمّا في مؤطّريها الأئمّة أم في روّادها المصلّين، فقال عن المستوى المنحطّ لأئمّتها: "ولا يجهل أحد أنّ أكثر الأئمّة في هذا العهد مِنَ الجُهّال حتّى بأحكام الطّهارة والصّلاة، وأكثر الخطباء يغلطون على المنبر حتّى بآيات القرآن، ويأتون في وعظهم بما يتبرّأ الدّين منه مِنَ الغشّ والكذب على الله ورسوله ودينه بسرد الأحاديث الموضوعة والخرافات المصنوعة".[1]

ثمّ ذكر الأوصاف والشّروط التي يجب توفّرها في الوعّاظ والخطباء والأئمّة حتّى يؤدّوا واجب التّعريف بالدّين والنّصح للأمّة لإصلاحها وهدايتها إلى خَيْرَيْ الدّنيا والآخرة فقال: "ثمّ يكون مِنْ وظائف الدّعاة إلقاء الوعظ العامّ في المساجد والمجامع ليُذكّروا النّاس ما نسوا مِنْ دينهم ويعرّفوهم ما جهلوا منه، ويُشربوا قلوبهم حُبّ الدّولة، وبالجملة لا بدّ أنْ يكونوا مِنْ أطول النّاس باعا في الفنون الأدبية والشّرعية، وأوسعهم علما بعلل الأخلاق وأمراض النّفوس، وأقدرهم على التماس منافذ القلوب للدّخول إليها بما يصلحها، ثمّ يكونوا أقوم النّاس سيرة، لا يخالف عملُهم قولَهم فيكونون مثالا للنّاس يحتذونه، وقدوة لهم يتّبعونها، ثمّ لا بدّ أنْ يكون في كلّ قوم بلغتهم، بل يجب أنْ يكونوا ممتازين بفصاحة اللّسان وجودة المنطق بين القوم الذين يرشدونهم ليُقبلوا عليهم بالاستماع".[2]

---

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص633.

[2] المصدر نفسه: ج2، ص520.

ونظرا لأهمّية خطب الجمعة ومكانتها في الإسلام ومدى تأثيرها في النّفوس؛ رأى الشّيخ محمّد عبدَه ضرورة المبادرة لإصلاح المساجد بإصلاح خطبها الجمعية بإسنادها للّذين يحسنونها فيتناولون فيها القضايا التي تمسّ أحوال النّاس، ويبيّنون لهم مضارّ الفساد وعواقبه في الدّنيا والآخرة، ويجتهدوا ليكونوا سببا في هدايتهم إلى الرّشاد لتحقيق مقصود الله منها لما فيها مِنْ نفع كثير وخير عميم.[1]

وقد تحدّث عن تحييد المساجد عن مهامها خصوصا في صلاة الجمعة التي يجتمع فيها المسلمون أسبوعيا بمختلف شرائحهم ومستوياتهم، فينبغي أنْ يذكّرهم أئمّتهم بأمور دينهم وبقضاياهم المصيرية المحلّية والإقليمية والعالمية ليتدارسوها ويخرجوا منها بقرارات عملية تخدم دينهم ووطنهم وأمّتهم، ويجدّدوا إيمانهم ويُصلحوا أمور دينهم ليرفعوا الغبن عن أنفسهم وعن إخوانهم، فيعالجون واقعهم بشجاعة ولا يهربون منه خوفا مِنِ استبداد الحكّام وظلمهم وسطوة الاستعمار الخارجي بنوعيه المادّي والنّاعم، وكان يأمل أنْ تكون رسالة المساجد ذات مضامين دينية وتربوية واجتماعية تمسّ واقع النّاس وتصلحه بالقرآن والسنّة، فقال عن خطبة الجمعة التي تمّ تحييدها عن مقاصدها: "وخطبة الجمعة التي شُرِعَتْ لتكون درسا عامّا في كل أسبوع لجميع المسلمين بما فرض عليهم مِنْ صلاة الجمعة وسماع خُطْبَتَيْهَا -إذا لم تزدهم جهلا وفسادا- فإنّها لا تُصْلح مِنْ فسادهم شيئا، فإنّ أكثرها في فضائل الشّهور والمواسم والإغراء بالكسل والتّواكل والاعتماد على مكفّرات الذّنوب المجرّبة على المعاصي، وأكثر ما يذكر فيها مِنَ الأحاديث النّبوية مِنَ الموضوعات أو الواهيات التي يحرم إسنادها إلى النّبي ﷺ".[2]

لذلك وضع الشّيخ محمّد عبدَه لائحة لإصلاح المساجد ورفعها إلى ديوان الأوقاف لتنفيذها، مركّزا على رسالة المسجد المعنوية في التّربية والتّهذيب والإرشاد، بتفعيل الدّروس والمواعظ وإرشاد العوّامّ، وربط خطب الجمعة بالواقع ومعالجة مشكلات المجتمع حتّى يتفاعل النّاس معها، ووضع آلية عملية لتوظيف أئمّة مؤهّلين أكْفاء لديهم إلمام بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، ولديهم إحاطة بالمذاهب الفكرية، وبعلوم الحياة والكون، كما دعا إلى تحسين مرتّباتهم حتّى يمكنهم الاضطلاع بمهامّهم الرّسالية، وتؤدّي المساجد وظيفتها كاملة، كما دعا إلى تخصيص جزء مِنَ أوقاف المسلمين وصرفها على المساجد بصيانتها والمواظبة على تنظيفها وتطهيرها للحفاظ على قداستها ومكانتها العالية.

وفي الفترة التي كان الشّيخ محمّد عبدَه منفيّا فيها ببيروت وبعد عودته سنة 1885م إليها مِنْ باريس؛ لقي اهتماما كبيرا وترحابا عظيما مِنْ جميع أطيافها وشرائحها وعامّتها وخاصّتها وعلمائها ووجهائها، وصار بيته محجّا للعلماء وطلبة العلم الذين كان يدرّسهم فيه السّيرة النّبوية، كما كان يرتجل دروسا في الجامع الكبير أو في جامع الباشورة مِنْ فيض عقله وقلبه، وقد كان لدروسه ومواعظه تأثير ساحر على كلّ مَنْ جلس بين يديه واستمع إليه، والملفت للانتباه أنّ مجالسه العلمية ودروسه ومواعظه المسجديّة كان يحضرها المسلمون والنّصارى على السّواء، ومختلف الطّوائف اللّبنانية، فقد قال فيه شكيب أرسلان: "إنّ مجلس الشّيخ كان يضمّ علماء السنّة ومجتهدي الشّيعة

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج2، ص520، وينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص89.

[2] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السابق: ج1، ص630و631.

وعقّال الدّروز وإلى جانبهم أساقفة النّصارى وأحبارهم مِنْ كلّ فريق، كما كان يضمّ بعض الملحدين أحيانا، إِذْ وَجَدَ فيه الجميع مرجعا عامّا لِسِعَة عقله وعلوّ إدراكه وإحاطة نظره".[1]

فمجالسه العلمية التي كان يعقدها في مساجد بيروت للمسلمين كان يحضرها أيضا النّصارى والسنّة والشّيعة والدّروز وحتّى اليهود، فاغتنم هذه الفرصة لينشر آراءه الدّينية، وَوَسّع صدره لكلّ النّاس دون تمييز، ويقول بصدق ما يعتقده في الدّين والعلم والعادات والأمور الاجتماعية، واستطاع بذلك أنْ يكتسب تقدير الجميع ويُدهش أهل الفضل بعلمه وأدبه وبلاغته.[2]

لقد تمكّن الشّيخ محمّد عبدَه بطرحه ذلك مِنْ إيجاد جوٍّ علميٍّ متميّز في مساجد بيروت ومصر وفي مساجد العالم العربيّ والإسلاميّ التي زارها حتّى تؤدّي رسالتها الإصلاحية والتّربوية، وقد استطاع أنْ يحدث إصلاحات محترمة وتأثير إيجابيّ في مدعوّيه بفكره الإصلاحي الذي مازال يسري إلى اليوم.

المطلب الثّاني: التّأليف والصّحافة

عُرف الشّيخ محمّد عبدَه بتفكيره العميق وبحثه الدّقيق، وبقراءاته الكثيرة وكتاباته الرّصينة، حيث كان يقرأ كلّ ما يُكتب في مختلف العلوم والمعارف، ويهتمّ بشؤون أمّته العربية والإسلامية، وبما يحدث عند الأمم الأخرى، فكان كاتبا مِنْ أصحاب الأقلام المشهورة، وبرز شاعرا وأديبا وناقدا وفيلسوفا وخطيبا ومتصوّفا ومحلِّلا ومرشدا وموجّها ومربّيا[3]، كما كان سياسيا محنّكا، ومصلحا غيورا، وعالما فذّا، وفقيها متمكّنا، ومفتيا كبيرا، وصحفيّا متمرّسا[4]، خاض غمار الكتابة الصّحفية مبكّرا، حيث كتب في جريدة الأهرام وهو طالب في الأزهر، وكتب في جريدة الوقائع المصرية التي كان رئيس تحريرها، وفيها نضجتْ كتاباته وتطوّرتْ بابتعاده عن المقدّمات الطّويلة والسّجع المتكلّف.[5]

وعرض أفكاره مكتوبة بدقّة ووضوح حتّى يترجم إصلاحاته التّربوية واقعيّا، ونشر مقالاته في الصّحف والمجلّات، ووضع المؤلّفات التي كانت وثائق ومراجع مهمّة لإنتاجه التّربوي والفكريّ، واعتُبرتْ المعلِّم الأوّل لطلبة العلم ولعامّة النّاس وخاصّتهم، والمذكّر والمرشد للمدرّس، وفي هذا المطلب سيتمّ تناول بعض الوسائل الهامّة التي اعتمدها الشّيخ محمّد عبدَه في الإصلاح التّربوي، وعلى رأسها المؤلّفات التي خطّها، والكتابات الصّحفية التي نشرها، وما اشتملتْ عليه مِنْ أفكار تربوية، وما كان ينشده مِنْ خلالها مِنْ إصلاحات تربوية في مصر وفي بلدان العالم العربي والإسلامي.

---

[1] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص236.

[2] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص62.

[3] ينظر: حافظ محمّد حيدر الجعبري، الشيخ محمّد عبدَه وآراؤه في العقيدة الإسلامية، مرجع سابق: ص124و128.

[4] ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص70 وما بعدها.

[5] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، المرجع السابق: ص184.

الفرع الأوّل: التّأليـــــف

يعتبر الشّيخ محمّد عبدَه قامة علمية كبيرة وشخصية متميّزة في مصر وفي العالم العربي والإسلامي، ترك إرثا علميّا وتربويّا رصينا، ترجمه إلى أعمال ملموسة ونشاطات ميدانية في التّربية والتّعليم والدّعوة والإرشاد، وهي مؤلّفات غنيّة بالأفكار الإصلاحية التّربوية رغم قصر حياته؛ 56 سنة.

وبالنّظر إلى الآثار التي خلّفها في سطور الكتب وفي صدور الرّجال، يظهر اهتمامه البالغ بتكوين الرّجال عن تأليف الكتب، فهو وإنْ ترك المؤلّفات، إلّا أنّه كان مِنَ المفكّرين الذين شغلتهم نشاطاتهم الإصلاحية بتكوين الرّجال عن التّأليف، فَتَمَثَّل نهج أسلافه؛ جمال الدّين الأفغاني والشّيخ سالم بوحاجب التّونسي، والشّيخ محمّد بن العربي العلوي المغربي، والبشير الإبراهيمي الجزائري وغيرهم.[1]

وتعتبر مؤلّفاته خليط بين ما كتبه بيده وهو قليل مقارنة مع ما كتبه عنه غيره وهو كثير، ومع ذلك جعل التّأليف في الإصلاح التّربوي مِنَ الوسائل التّقليدية الأساسية النّاجعة المؤثّرة على القارئ، فسخّر -التّأليف- في الإصلاح بالكتابة في علوم الشّريعة وفي غيرها مِنَ التّخصّصات العلمية الأخرى.

أوّلا: مؤلّفاتــه

خاض الشّيخ محمّد عبدَه غمار الكتابة والتّأليف مبكّرا قبل أنْ يبلغ سنّ العشرين، فكتب مقالات في مختلف المجالات التي أكسبته خبرة كافية، وكانت مؤلّفاته التي نشرها في الصّحف المصرية واللّبنانية غنيّة بالعلوم والمعارف المفيدة، كما كتب في مجلّة العروة الوثقى التي أنشأها مع أستاذه جمال الدّين الأفغاني في باريس، فشكّلت كتاباته تراثا فكريا ثريّا، كان عبارة عن دراسات وبحوث عميقة في الدّين الإسلامي والإصلاح والأدب والنّفس والاجتماع والسّياسة، وفيما يلي سرد لمؤلّفاته[2]:

1- **"رسالة الواردات"**: وهي أوّل مؤلّف له، جعلها رسالة في الكلام على طريقة الصّوفية وأسلوبهم.

2- **"رسالة في وحدة الوجود"**: بيّن فيها مراتب الوجود وتعدّدها، ونظامها العامّ ووحدتها، قال محمّد رشيد رضا عنها: "لم أطّلع عليها وهو الذي أخبرني بها".[3]

3- **"تاريخ إسماعيل باشا"**: وهو مجموعةُ فصولٍ نُشرتْ في جريدة الطّائف، قال عنه محمّد رشيد رضا: "أخبرني بهذا الكتاب أحد تلاميذه الأوّلين، ولم أسمع منه رحمه الله تعالى ذكرا لهذا الكتاب".[4]

4- **"فلسفة الاجتماع والتّاريخ"**: كتاب مفقود، ألّفه لمّا دَرَّس مقدّمة ابن خلدون في مدرسة دار العلوم.

5- **"حاشية عقائد الجلال الدّواني"**: وهي رسالة في علم الكلام، حرّر فيها الخلاف بين المتكلّمين.

6- **"شرح نهج البلاغة"**: شَرَحَ الكتاب لطلبة العلم، وحملهم على مطالعته لتحصيل مَلَكَة البلاغة.

7- **"شرح مقامات بديع الزّمان الهمذاني"**: ويعدّ الشّيخ محمّد عبدَه الوحيد الذي شرحها إلى وقته.

---

(1) ينظر: محمّد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق: ج1، ص6.

(2) ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص777- 789، وينظر: حافظ محمّد حيدر الجعبري، الشّيخ محمّد عبدَه وآراؤه في العقيدة الإسلامية، مرجع سابق: ص129- 134.

(3) محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السابق: ج1، ص777.

(4) المصدر نفسه: ج1، ص777.

8- "شرح البصائر النُّصيرية": وهو شرح وجيز في المنطق، سمّاه "التّعليقات"، ألقاه دروسا في الأزهر، قال عنها محمّد رشيد رضا: "الكتاب عالي الأسلوب وهو مِنْ أحسن ما كتب المسلمون في المنطق، وهو مِنَ الكتب التي قرّر مجلس إدارة الأزهر تدريسها فيه رسميّا".[1]

9- "نظام التّربية والتّعليم في مصر": وهو رسالة قصيرة في الطّريقة المثلى لتربية المصريّين وتعليمهم.

10- "رسالة التّوحيد": وهي مِنْ أشهر كتبه، ألقاها دروسا في بيروت ثمّ في الجامع الأزهر الشّريف، قال عنها محمّد رشيد رضا: "هي التي يصحّ أن تعدّ معجزة مِنْ معجزات النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام ظهرتْ على يد الأستاذ الإمام، وآية مِنْ آيات الإسلام، وهي التي ينبغي أنْ تُجعل مادّة الدّعوة إلى هذا الدّين".[2]

11- "تقرير المحاكم الشّرعية": وهو كتاب ضمّنه الكثير مِنَ الفوائد الإدارية والاجتماعية والأدبية.

12- "الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية": وهو مقالات كتبها لمجلّة المنار، ثمّ جمعها تلميذه محمّد رشيد رضا في كتاب مستقل سمّاه بهذا الاسم بإذنه، وقد ألّفه لترجيح الإسلام على النّصرانية في حرّية العلم ونشأة المدنية وإرشاد المسلمين إلى ذلك، وللدّفاع عن الإسلام المسلمين، وتنبيههم إلى أسباب تأخّرهم، وضياع مجدهم وزوال مُلكهم، وإرشادهم إلى طريق الخلاص، ووسائل العلاج[3]، وذكر الباحث مسعود فلوسي[4] أنّ هذا الكتاب جاء ردّا مُفحِما على أحد الكتّاب النّصارى الذين قالوا أنّ النّصرانية كانت أكثر تسامحا مع العلم مِنَ الإسلام، وأنّ الإسلام أكثر اضطهادا للعلم والفلسفة مِنَ النّصرانية، فأثبتَ الشّيخ أنّ هذا الكلام مَحْضُ افتراء يكذِّبُه التّاريخ والواقع، والحقيقة أنّ النّصرانية المحرّفة اضطهدتِ العلماء ومنعتهم مِنَ التّعبير، وأنّ رجالها اضطهدوا كلّ منْ يشتغل بالعلم والفلسفة، وأنّ الإسلام أعلَى مِنْ شَأْنِ العلم، وشجّع على العلم والمعرفة، ودعا النّاس إلى إعمال العقل، حتّى قامتْ في ظلّه حضارة عظيمة ازدهرتْ فيها العلوم والمعارف الدّينية والدّنيوية ثمَّ أشاعتها على العالم.[5]

13- "تفسير سورة العصر": ألقاها دروسا على علماء ووجهاء الجزائر، ثمّ دوّنها في كتاب مستقل.

14- "تفسير جزء عمّ": كتبه في بعض أسفاره الصّيفية إلى أوروبّا ليُقرأ في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية، ولينتفع به أساتذتها وطلّابها، أتمّه بجنيف السويسرية سنة 1903م.

---

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص778.

[2] المصدر نفسه: ج1، ص779.

[3] ينظر: المصدر نفسه: ج1، ص787.

[4] **مسعود فلوسي:** باحث أكاديمي جزائري، ولد سنة 1968م بولاية باتنة، تحصل على شهادة الدكتوراه سنة 2002م في أصول الفقه، عمل مدرّسا بكلّية العلوم الإسلامية بجامعة باتنة منذ سنة 1991م، وتحصّل على الأستاذية سنة 2007م، وانتُخب عضوا في المجلس العلميّ للكلّية سنة 1995م ثمّ رئيسا له سنة 2003م، شغل منصب عميد لكلّية العلوم الإسلامية بجامعة باتنة مِنْ 2017 إلى 2022م، كان مِنْ مؤسّسي مجلّة الإحياء التي تصدرها الكلّية، مِنْ مؤلّفاته: القواعد الأصولية تحديد وتأصيل، الجدل عند الأصوليين بين النّظرية والتّطبيق، مدرسة المتكلّمين ومنهجها في دراسة أصول الفقه، الشّيخ محمّد الغزالي رائد منهج التّفسير الموضوعي في العصر الحديث، الإمام عبد الحميد بن باديس لمحات مِنْ حياته وأعماله وجوانب مِنْ فكره وجهاده، مذكّرات الرّائد مصطفى مراردة "ابن النّوي"، وله الكثير مِنَ المقالات والدّراسات العلمية والبحوث الأكاديمية المنشورة في المجلّات العلمية المحكّمة في الجزائر وخارجها، ينظر: موقع المكتبة الجزائرية الشاملة/ https://shamela-dz.net ، تاريخ الزيارة: الخميس: 2020/09/10م.

[5] ينظر: مسعود فلوسي، مؤلّفون وكتّاب قرأت لهم واستفدت منهم، مقال نشره على صفحته في الفايسبوك في شهر رمضان لعام 1441هـ، بتاريخ: 17 أفريل 2020م، تاريخ الزّيارة: 2020/04/17م.

15- "تفسير القرآن الحكيم الشّهير بتفسير المنار[1]**"**: وهو عبارة عن دروس ألقاها الشّيخ محمّد عبدَه على تلامذته في جامع الأزهر تحقيقا لرغبة تلميذه محمّد رشيد رضا الذي جمعها وكتبها بخطّ يده ونشرها في مجلّة المنار، حيث بدأ دروسه في تفسير القرآن الكريم مِنْ سورة الفاتحة في غرّة محرّم 1317هـ/1899م، ليتوقّف في منتصف المحرّم سنة 1323هـ/1905م وهي سنة وفاته عند قول الله تعالى:﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا ١٢٦﴾ [سورة النّساء].

16- "رسالة الردّ على الدّهريين": وهي لأستاذه جمال الدّين الأفغاني ترجمها إلى العربية لمّا كان منفيا ببيروت، كما كتب لائحة لإصلاح التّعليم وجّهها إلى شيخ الإسلام بالأستانة، وكتب الكثير مِنَ المقالات الدّينية والتّربوية والأدبية والاجتماعية والسّياسية، وفي قضايا أخرى شجب فيها الخلافات الطّائفية حفاظا على وحدة مصر ندّد فيها باحتلال بريطانيا لمصر، نشرها في جريدة ثمرات الفنون البيروتية.[2]

وفيما يلي تفصيل لبعض مؤلّفات الشّيخ محمّد عبدَه في بعض العلوم التي حاول مِنْ خلالها تجسيد إصلاحاته التّربوية لتحقيق نهضة شاملة وتغيير جذري في مختلف مجالات الحياة، ولتكوين أفراد صالحين حتّى يكونوا لَبِنَاتٍ قوية ومتماسكة في صرح أمّة محصّنة مِنَ كلّ المؤثّرات السّلبية.

ثانيا: مؤلّفاته في التّفسير

لقد أسهم الشّيخ محمّد عبدَه كغيره مِنْ علماء الأمّة الإسلامية في بيان مراد الله تعالى في كتابه العزيز، وحاول مِنْ خلال دروسه في تفسير القرآن الكريم تصحيح العقيدة وإصلاح الأوضاع المتردّية في مختلف المجالات، ففسّره في مساجد بيروت، وفسّر سورة العصر لمّا زار الجزائر، وفسّره في جامع الأزهر لمّا كان مفتيا للدّيار المصرية، وفسّر جزء عمّ لتلاميذ مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية، كما نشر تفسيره في أعمدة قارّة في مجلّة المنار ليتمكّن المسلمون مِنْ قراءته في العالم أجمع.[3]

وجعل مِنْ تفسير القرآن الكريم وسيلة لتربية أمّته وتعليمها أمور دينها ودنياها، ودرّسه في المؤسّسات التّعليمية، وفي مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية لأبناء الفقراء، وفي المساجد لعامّة النّاس، وألقى جزء عمّ وسورة العصر دروسا ثمّ كتبها، كما قدّم في الأزهر تفسير المنار دروسا صوتية، ثمّ كتبه في حياته محمّد رشيد رضا ونشره في مجلّة المنار ليكمله بعد وفاة شيخه بنفس منهجه.

1- تفسير القرآن الحكيم الشّهير بتفسير المنــار

بدأ الشّيخ محمّد عبدَه يفسّر القرآن الكريم مِنْ سورة الفاتحة في غُرَّة شهر محرَّم سنة 1317هـ/1899م وانتهى عند قوله تعالى:﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا ١٢٦﴾ [سورة النّساء] في منتصف شهر محرَّم سنة 1323هـ1905م، وفي الثّامن جمادى الأولى سنة 1323هـ وافته المنيّة فأكمله تلميذه محمّد رشيد رضا وسمّاه تفسير المنار مِنْ باب إضافة الشّيء إلى مكانه، لأنّه

---

[1] قال الشّيخ محمّد الغزالي عن التّفسير: "هو في نظري موسوعة ثقافية موّارة بالأبحاث التي تشملُ الدّينَ كلَّه"، ينظر: محمّد الغزالي، علل وأدوية، مرجع سابق: ص86.

[2] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص239.

[3] ينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدّد، مرجع سابق: ص254.

أنشأ مجلّة المنار وأخذ ينشر فيها تفسير شيخه في مفتتح أعدادها في باب التّفسير، وتفسيره عبارة عن دروس صوتية ألقاها الشّيخ محمّد عبدَه في جامع الأزهر مدّة ستّ سنوات.[1]

لقد اقترح محمّد رشيد رضا على شيخه أنْ يكتب تفسيرا ينتفع به المسلمون لِمَا انطوى عليه تفسيره مِنْ ثراء معرفيّ وتنوّع فكريّ وشواهد حيّة تربط الطّالب بواقعه وتصله بتاريخه وتحيي فيه الضّمير الجمعي الإيجابي الذي يجعل القرآن وظيفيّا، لا مجرّد خطرات عابرة وكلام منمّق، ورغم قناعة الشّيخ محمّد عبدَه بأنّ منافع التّفسير المسموع أفضل مِنَ المكتوب، ورغم عزوف الطّلبة المسلمين عن كتابة ما يسمعونه منه في مجلس درسه عكس الطّلبة الأقباط الذين كانوا يكتبون ما يسمعون منه ويراجعونه فيما يكتبون؛ فَسَّرَ القرآن الكريم وأقبل النّاس على حضور دروسه بعدما أعلن محمّد رشيد رضا الخبر في مقاله: القرآن، في جريدة المؤيّد، بأنّ شيخه سيشرع في تفسير القرآن الكريم.[2]

وفي هذا السّياق قال محمّد رشيد رضا: "ولم أزل به حتى أقنعته بقراءة التّفسير في الأزهر فاقتنَع وبدأ بالدّرس بعد ثلاثة أشهر ونصف أي في غرّة المحرّم سنة 1317هـ/1899م وانتهى منه في منتصف المحرّم سنة 1323هـ/1905م عند تفسير قوله تعالى:﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا ١٢٦﴾[سورة النّساء]، فقرأ زهاء خمسة أجزاء في ستِّ سنين، وكنتُ أكتب في أثناء إلقاء الدّرس مذكّرات أُودِعُها ما أراه أهمّ ما قاله، وأحفظ ما أكتب لأجل أنْ أُبيّضه، وأَمدُّه بكل ما أتذكّره في وقت الفراغ، وكنتُ أوّلا أُطْلِعُ الأستاذ الإمام على ما أُعِدُّه للطّبع كلّما تيسَّر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه، فكان ربّما يُنقّح فيه بزيادة قليلة أو حذف كلمة أو كلمات، ولا أذكر أنّه انتقد شيئا ممّا لم يره قبل الطّبع، بل كان راضيا بالمكتوب بل معجبا به، ولما كان -رحمه الله تعالى- يقرأ كلَّ ما أكتبُه إمّا قبل طبعه وهو الغالب، وإمَّا بعده وهو الأقلّ، لم أكن أرى حرجا فيما أعزوه إليه ممّا فهمته منه، وإنْ لم أكن كتبته عنه في مذكّرات الدّرس، لأنّ إقراره إيّاه يؤكّد صحّة الفهم وصدق العزو، وبعد أنْ توفّاه الله تعالى صرتُ أرى مِنَ الأمانة ألّا أعزو إليه إلّا ما كتبتُه عنه أو حفظته حفظا، وقد بدأتُ في حياته بتجريد تفسير الجزء الثّاني مِنَ المنار وطبعه على حِدَتِهِ، وتوفِّيَ قبل طبع نصفه، فهو قد قرأ ما طُبِع منه مرّتين، وقد اشتدَّ شعوري بعد ذلك بأنَّ عليَّ وحدي تَبِعَةُ تأليف تفسيرٍ مستقلٍّ وتَبِعَةُ إيداعه ما تلقَّيتُه عن هذا العالم الكبير المشرقِ البصيرةِ، وذي النّصيبِ الوافرِ مِنْ إرث نبيِّ الله داود عليه السّلام"[3]، والدّروس التي كتبها محمّد رشيد رضا في تفسير المنار تُعبِّر في شطر كبير منه عن آراء الشّيخ محمّد عبدَه.[4]

قال عمّار طالبي[5] عن دروس تفسير الشّيخ محمّد عبدَه ودور محمّد رشيد رضا في كتابتها: "إنّ تلك الدّروس فيض مِنْ إلهام الله أجراه على قلب ذلك الإمام وعلى لسانه، وأنّها ممّا لم تنطو عليه

---

(1) ينظر: عبد الله مبروك النّجار، فتاوى الإمام محمّد عبدَه دراسة فقهية تأصيلية، مرجع سابق: ص507.

(2) ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص766.

(3) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، ج1، ص14و15، وينظر: محمّد السيد حسين الذّهبي، التّفسير والمفسرون، ج2، ص406.

(4) ينظر: محمد بن رمضان رمضاني، آراء محمّد رشيد رضا في قضايا السنّة النبوية من خلال مجلّة المنار، مرجع سابق: ص11.

(5) **عمار طالبي:** باحث أكاديمي جزائري، ولد سنة 1934م بولاية خنشلة، تحصّل سنة 1971م على الدكتوراه في الفلسفة في جامعة الجزائر في نقد أبي بكر بن العربي للفلسفة اليونانية، عيّن رئيسا لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة سنة 1984م، وعمل أستاذا ورئيس قسم الفلسفة بجامعة قطر سنة 1990م، وكان عضوا مؤسّسا للاتحاد العالمي للعلماء المسلمين سنة 2004م=

حنايا عالم ولا صحائف كتاب، ولو لم يقيّض الله محمّد رشيد رضا لهذا العمل الجليل لضاع كلّه ولكنّ الله وفّقه لحفظ معاني تلك الدّروس وسدّد قلمه في أدائها، ثمّ نهج نهجه بعد موته وسار على شعاع هديه في تفسير كلام الله فأبقى لهذه الأمّة تلك الأسفار القيّمة المعروفة بتفسير المنار".[1]

لقد أسهم تفسير الشّيخ محمّد عبدَه في إصلاح مصر ونهضتها، وهو مستنبَط مِنْ قراءته المتدبّرة للقرآن الكريم، ودروسُه في التّفسير أوضحتِ الكثير مِنَ الحقائق الغائبة عن أذهان النّاس بطريقة غير مسبوقة، قال عنها البشير الإبراهيمي: "جاء إمام النّهضة بلا منازع وفارس الحلبة بلا مدافع الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، فجلا بدروسه في تفسير كتاب الله عن حقائقه التي حام حولها مَنْ سبقه ولم يقع عليها، وكانت تلك الدّروس آية على أنَّ القرآن لا يُفَسَّرُ إلا بلسانَيْن لسان العرب ولسان الزّمان"[2]، وقدّم شهادته عن الشّيخ محمّد عبدَه وتفسيره فقال أيضا: "إمام المفسّرين بلا منازع محمّد عبدَه أبلغُ مَنْ تكلّم في التّفسير بيانا لهديه وفهما لأسراره وتوفيقا بين آيات الله في القرآن وبين آياته في الأكوان، فبوجود هذا الإمام وُجِدَ علم التّفسير وتَمَّ ولم ينقصه إلّا أنه لم يكتبه بقلمه كما بيَّنه بلسانه، ولو فعل لأبقى للمسلمين تفسيرا لا للقرآن بل لمعجزات القرآن، ولكنّه مات دون ذلك، فخلفه ترجمان أفكاره ومستودع أسراره محمّد رشيد رضا فكتب في التّفسير ما كَتَبَ ودَوَّن آراء الإمام فيه".[3]

وبعد وفاة الشّيخ محمّد عبدَه أكمل محمّد رشيد رضا تفسير شيخه مِنْ قوله تعالى:﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴿١٢٧﴾﴾[سورة النّساء] إلى قوله تعالى:﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾[سورة يوسف]، ليتوفاه الله هو الآخر سنة 1935م قبل أنْ يُتمَّ تفسير القرآن الكريم.[4]

لقد توسّع الشّيخ محمّد عبدَه في إلقاء دروس تفسير القرآن الكريم بالجامع الأزهر مدّةَ ستّ سنوات، قرأ فيه ما يقرب مِنْ خمسة أجزاء منه، كما ألقاه في مساجد بيروت والجزائر وتونس أيضا.[5]

2- تفسير جزء عــمَّ

ألقى الشّيخ محمّد عبدَه تفسير جزء عمّ محاضرات على الطّلاب أثناء إقامته ببيروت في فترة منفاه سنة 1885م وفي الجزائر عندما زارها سنة 1905م، وقدّمه دروسا لتلاميذ مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية بمصر، كما كتب هذا التّفسير في بعض أسفاره الصّيفية إلى أوروبا وأتمّه في صيف 1903م في سويسرا، قال عنه محمّد رشيد رضا: "وهو تفسير أشهر مِنْ نار على علم، وقد كان رواجه

=ونائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ سنة 2006م، مِنْ مؤلّفاته: مدخل إلى عالم الفلسفة، اصطلاحات الفلاسفة، ابن باديس حياته وآثاره، حقَّق كتاب: الجواهر الحسان في تفسير القرآن لعبد الرّحمان الثعالبي الجزائري، ومِنْ أبحاثه: النّظرية السّياسية عند ابن رشد، تأثير الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الغربية، مفهوم الثّقافة، أصول الفقه وفلسفة القانون المعاصرة، ينظر: موقع المكتبة الجزائرية الشاملة: https://shamela-dz.net، تاريخ الإضافة: 2017/09/13م، تاريخ الزيارة: 04 2021م، في الساعة: 12:30.

[1] عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق: ج2، ص104.

[2] محمّد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشر الإبراهيمي، مرجع سابق: ج1، ص327.

[3] المرجع نفسه: ج2، ص252.

[4] ينظر: محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، مرجع سابق: ج12، ص334.

[5] ينظر: محمّد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مرجع سابق: ج2، ص 408.

أكثر مِنْ رواج سائر كتبه على شدّة الرّغبة فيها كلّها، حتّى أنّه قد وُزّع منه عدّة ألوف في عدّة شهور، وهذا شيء لم يُعهد له نظير في المطبوعات العربية".[1]

ألّف هذا التفسير ليُدَرَّسَ في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ويكون مرجعا لأساتذتها لتفهيم التّلاميذ معاني ما يحفظون منه، وليكون ما في تلك السّور مِنْ دلائل التّوحيد والعبر والعظات مشرقا للعقائد السّليمة في نفوسهم، وعاملا للإصلاح في أعمالهم وأخلاقهم، وكذلك لإرشاد المسلمين إلى الاهتداء بالقرآن الكريم، لذلك جعل عباراته سهلة وخالية مِنَ الخلاف وكثرة وجوه الإعراب.[2]

وفي هذا قال الشّيخ محمّد عبدَه: "فقد نبَّهني بعض إخواني مِنْ أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية إلى أنْ أكتب تفسيرا لجُزْأَيْ عمّ وتبارك الذي بيده الملك ليكون مرجعا للأساتذة لمدارس الجمعية لتفهيم التلاميذ معاني ما يحفظون مِنَ الجزء...وكنتُ أطلبُ أوقات الفراغ مِنْ حين إلى حين وقلّما كنتُ أجدها حتّى يسّر لي الله السّفر إلى البلاد الغربية...وقد وفقتُ إلى تتميمه في تلك البلاد...وقد بذلت جهدي في أنْ تكون العبارة سهلة التّناول خالية مِنَ الخلاف وكثرة الوجوه في الإعراب"، وفرغ منه يوم الأحد 23 أغسطس أوت 1903م في مدينة جنيف بسويسرا.[3]

3- تفسير سورة العصـــر

فسّر الشّيخ محمّد عبدَه سورة العصر في عدّة دروس بالأزهر، ثمّ فسّرها في الجزائر مختصرة، ونشرت في مجلّة المنار، وكتب في تفسير جزء عمّ عن سورة العصر: "وقد كتبنا تفسيرا لهذه السّورة الشّريفة، وهو ما كنّا ألقيناه درسا في مدينة الجزائر في شهر جمادى الأولى سنة 1321هـ/1903م، وفيه تفصيل لما أجملناه في هذا التّفسير المختصر، فهو فيما أعلم غير مسبوق بنظير".[4]

ولمّا ألقى سورة العصر تفسيرا مطوّلا في شكل محاضرات ودروس على علماء مدينة الجزائر ووجهائها سنة 1903م قال: "قرأتُ تفسير سورة العصر في سبعة أيّام، وكلّ درس لا يقلُّ عن ساعتَيْن أو ساعة ونصف، بيَّنت فيها وجه كون نوع الإنسان في خُسْر إلّا مَنِ استثنى الله تعالى، وما المراد بالتّواصي بالحق والتّواصي بالصّبر، ممّا لو جُمِع لكان رسالة حسنة في تفسير السّورة".[5]

4- منهجه في تفسير القرآن الكريـم

قدّم الشّيخ محمّد عبدَه تفسيره دروسا لطلبته ومريديه في مصر ولبنان والجزائر وتونس، وألقاه مِنْ حافظته شفويا مستعينا بتفسير الجَلَالَيْنِ لإيجازه وسهولة مفرداته وبساطة عباراته، وبعد وفاته كتبها تلميذه محمّد رشيد رضا ونشرها في مجلّة المنار لتفقيه أمّته في دينها وتربيتها على الخير والصّلاح.

---

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ، مصدر سابق: ج1، ص788.

[2] ينظر: محمّد السيد حسين الذّهبي، التفسير والمفسرون، مرجع سابق: ج2، ص405.

[3] ينظر: محمّد عبدَه، تفسير القرآن الكريم جزء عمّ، منتدى العقلانيين العرب، مطبعة مصر، ط3، سنة 1923م، ص1و187.

[4] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السابق: ج1، ص788.

[5] محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، مرجع سابق: ج1، ص13، وينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السابق: ج1، ص766، وينظر: محمّد السيد حسين الذّهبي، التفسير والمفسرون، المرجع السابق: ج2، ص405.

قال الشّيخ عبد الحليم محمود: "فقد كان تفسيره للقرآن طرازا جديدا مِنَ التّفسير تَهافتَ النّاس على قراءته في أنحاء مصر وفي أنحاء العالم الإسلامي"[1]، وقد سار فيه على قاعدتَيْن أساسيتَيْن، الأولى: عدم تقليد التّفاسير السّابقة في طريقة التّفسير، والثّانية: تفسيره بما يلائم المجتمع.[2]

أ)- إبراز شمول القرآن الكريم لشؤون الحيــاة

بيّن الشّيخ محمّد عبدَه في تفسيره بأنّ القرآن الكريم شامل لأزمنة الحياة ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وصالح لكلّ زمان ومكان، ومواكب لأحداثها، وأنّ البشرية بحاجة إليه لتَعْتَبِر وتتّعظ به، لكونه كتابا ربّانيا باق على أصله، منزّها عن التّحريف والتّبديل، فقد تولّى الله حفظه فقال تعالى:﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[سورة الحجر]، وأنّه معصوم مِنَ الباطل لقوله تعالى:﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾[سورة فصّلت]، وأنّه لا يمكن الإتيان بمثله، لقوله تعالى:﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾[سورة الإسراء].

ب)- التّوسّع والاختصار بحسب المقام والحــال

أقام الشّيخ محمّد عبدَه دروسه في التّفسير على التّوسّع فيما قصّر فيه المفسّرون، والاختصار في مباحث الألفاظ والإعراب والمباحث البلاغية وفي الرّوايات التي لا تتوقّف على فهمها الآيات معتمدا على عبارة تفسير الجلَالَيْن لإيجازه، فيقرأ عبارته وينتقد ما يستوجب النّقد، ثمّ يتكلّم في الآية أو الآيات المنزّلة في معنى واحد ممّا فيه عبرة[3]، ويقرأ في المصحف مستخدما عقله، وإذا عرض له وجه غريب مِنَ الإعراب أو كلمة غريبة في اللّغة رجع إلى بعض كتب التّفسير، وفي هذا قال: "إنّني لا أطالع عندما أقرأ، لكنّني ربما أتصفّح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب في الإعراب، أو كلمة غريبة في اللّغة."[4]

كما أخضع حوادث عصره لنصوص القرآن فحمل الشّبيه على الشّبيه على اعتبار أنّ القرآن وحدة متماسكة، وكان ينصرف إلى المعنى المقصود ولم يُوغل في المعاني اللّغوية، ولمّا كانت آيات القرآن عامّة وشاملة لم يحصر معانيها في حدود ضيّقة[5]، ويقف عند النّصوص القطعية، ولا يخوض في الإسرائيليات، ولا يُسهب في الشّروح لاعتقاده أنّ الله تعالى لم يكلفنا بالبحث عن الجزئيات.[6]

ت)- التّجديد والتّحرّر مِنَ التّقليـد

اتّبع في تفسيره منهج التّجديد وعدم التّقليد، ولم يجمد على أقوال العلماء السّابقين، وجاء بأفكار مخالفة لهم، فهو يرى بأنّ مقصد القرآن هو فهم القرآن والاسترشاد به، ولام الذين توسّعوا في المعاني والإعراب والخلافات الفقهية وأغفلوا المعنى الحقيقي المقصود مِنَ القرآن[7]، وانتقدهم قائلا:

---

(1) عبد الحليم محمود، الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ -رؤية من الداخل- دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، ط5، 1994م، ج1، ص245.

(2) ينظر: صلاح زكي أحمد، أعلام النّهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، مرجع سابق: ص67و68.

(3) ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص768.

(4) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، مصدر سابق: ج1، ص14.

(5) ينظر: أنور الجندي، اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار، مرجع سابق: ص133.

(6) ينظر: محمّد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مرجع سابق: ج2، ص411.

(7) ينظر: محمّد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مرجع سابق: ج2، ص407.

"إنّ الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال النّاس وما فهموه، وإنّما يسألنا عن كتابه الذي أنزله لإرشادنا وهدايتنا، وعن سُنَّة نبيّنا الذي بيَّن لنا ما نُزِّل إلينا:﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[سورة النّحل]، يسألنا هل بَلَّغتُكُم الرّسالة؟ هل تدبّرتم ما بُلِّغْتُم؟ هل عَقَلْتُمْ ما عنه نُهيتم وما به أُمِرتم؟ وهل عَمِلْتُم بإرشاد القرآن، واهتديتم بِهَدْيِ النّبيّ، واتّبعتم سُنَّته".[1]

لقد كان منهج الشّيخ جريئا في تفسير القرآن الكريم في مرحلة اتّسمت بالجمود والتّقليد وثورة شيوخ الأزهر الجامدين على كلّ جديد، حتّى ولو كان التّفسير صادرا مِنْ عالم بالشّريعة كالشّيخ محمّد عبدَه، الذي عمل على تطوير الفكر الإسلامي، والتّمكين لأحكام الإسلام بعيدا عن التّميّع و الجمود.

ث)- تحكيم العقل ومعايشة الواقع والانفتاح على النّظريات العلمية والحضارة الغربيـة

فسّر الشّيخ محمّد عبدَه القرآن الكريم بمنهج ملائم لروح عصره، وحاول التّوفيق بينه وبين النّظريات العلمية الحديثة، وابتعد عن السّرد والإيغال في البحث في معاني المفردات والاسترسال في شرح العبارات المسجوعة[2]، كما سلك به طريقةَ تحكيمِ العقلِ في الكثير منْ آياته، بالإضافة إلى عمله على التّوفيق بين الشّريعة الإسلامية وبين الحضارة الغربية[3]، وتوظيفه بحكمة وذكاء في مقاومة الاستعمار البريطاني ومدافعة أفكاره التّغريبية التي روَّج لها المستشرقون والتّغريبيّون العرب، وصحّح الأخطاء الشّائعة وردّ على الشّبهات، وأعلن بتفسيره عن آرائه الجريئة في الكثير مِنَ القضايا المهمّة.[4]

واجتهد في إسقاط تفسيره على الواقع ومواكبة متغيّرات الزّمان ومستجدّاته، واستخلاص العبر والعظات منه، وعالج جميع مجالات الحياة الدّينية والتّربوية والسّياسية والاجتماعية والأدبية والبلاغية، واستطاع أنْ يجذب إلى دروسه علماء الأزهر وأساتذة المدارس ورجال القضاء والوجهاء ورجال الحكومة، حتّى اكتظت أروقة الأزهر بهم حتّى لم يجدوا مكانا للجلوس فاستمعوا إليه وقوفا.[5]

ج)- تربية أبناء الأمّة الإسلامية على القرآن وتوجيههم إلى الخير وإبعادهم عن الضّـلال

سلك الشّيخ محمّد عبدَه في تفسيره تربية أبناء أمّته على روح القرآن وآدابه، ودعا المسلمين إلى استخدام عقولهم فيه، والنّظر في معانيه وأساليبه دون توسّع، حتّى يفهموا أنّ القرآن كتاب دينٍ وهدايةٍ، جاء ليرشدهم إلى ما فيه سعادتهم في الدّارين، ويعرّفهم بعظمة الله عزّوجل ليقرّبهم منه، ويصرف نفوسهم عن الشّر ويدفعهم إلى الخير[6]، وفي تفسيره دعاهم إلى الرّجوع إلى أصول الإسلام ومبادئه، ليُحيي به عواطفهم ويحرّك مشاعرهم، وكان عمليّا في تفسيره يشرح واقعهم ويبيّن أسبابه،

---

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، مصدر سابق: ج1، ص22و23.

(2) ينظر: عبد المتعال الصعيدي، المجدّدون في الإسلام، مرجع سابق: ص404.

(3) ينظر: عبد المجيد عبد السلام المحتسب، اتّجاهات التّفسير في العصر الرّاهن، مرجع سابق: ص267.

(4) ينظر: أنور الجندي، اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار، مرجع سابق: ص131.

(5) ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص769.

(6) ينظر: فارس علي العامر، دروس في القرآن وعلومه ومناهج المفسرين، ص180-190، موقع: المرجع الإلكتروني للمعلوماتية، almerja.com، تاريخ الزيارة: الجمعة: 2019/01/11، في الساعة: 22:30 ليلا.

ويدعوهم للعمل بمبادئ الإسلام حتّى يسعدوا على الدّوام، ويَسْمُوَ بأنفسهم إلى العالم الرّوحانيّ العلويّ، منزّها الله عمّا شاب عقيدتهم مِنَ الشّركيات كالتّشفّع بأهل القبور والأولياء وغيرهم.[1]

ح)- معالجة القضايا الاجتماعية والأخلاقيــة

عالج الشّيخ محمّد عبدَه في تفسيره الأمراض الاجتماعية والأخلاقية، وصوّر أخطارها وعللها، وأرشد النّاس إلى وسائل علاجها والتّخلص منها، فعند تفسيره لقوله تعالى:﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾[سورة العصر]، ذكر بأنّ الصّبر مَلَكَة ييسّر احتمال المشاقّ في سبيل الحقّ، وعليه يتوقّف كمال الأخلاق، وإذا ضعف الصّبر في الأُمّة أو فقدته ضَعُفَ فيها كلّ شيء وذهبتْ قوّتها، ووجد أنّ نقص العلم عند المسلمين سببه ضعف صبرهم، وركونهم للنّوم والكسل والتّقليد، وعدم صبرهم على مشقّة دعوة النّاس إلى التّعلم والتّعليم، فإذا لَاقَوْا معارضة أو مشقّة قبعوا في بيوتهم، وتركوا الدّراسة وتوجّهوا إلى حِرَفٍ أخرى ظنًّا منهم أنّها أربح لهم فَعَمَّهُمْ الجهل، وذكر بأنّ البخيل يبخل بماله، ولا يُنفقه في وجوه البِرّ، فيؤذي بذلك وطنه ومِلّته، ويترك الفقر يأكل قومه وأُمّته؛ وهذا مرجعه إلى ضعف الصّبر، فالعلّة الأولى لجميع الرّذائل مرجعها ضعف الصّبر أو فقده، وجميع الفضائل تستمدّ حياتها منه.[2]

خ)- إنكاره لبعض الأحاديث الصّحيحــة

ردَّ الشيخ محمّد عبدَه الأحاديث التي تَروي أنّ النّبي ﷺ سحره لبيد بن الأعصم، وذكر وجوب الاعتقاد بأنّ القرآن متواتر يجب الاعتقاد بما يُثبته وعدم الاعتقاد بما يُنفيه، فنفى السِّحرَ عن النّبيّ ﷺ، ونسب القول بإثبات سحره إلى أعدائه المشركين، ووبّخهم على زعمهم هذا، فهو ليس مسحور قطعا، وأمّا الحديث فهو آحاد يؤخذ به في العقائد، وعصمة النّبي ﷺ مِنْ تأثير السّحر في عقله عقيدة مِنَ العقائد لا يؤخذ في نفيها عنه إلّا باليقين لا بالظنّ، وحديث الآحاد إنّما يحصل الظنّ عند مَنْ صحَّ عنده، أمّا مَنْ قامت له الأدلّة على أنّه غير صحيح فلا تقوم به عليه حُجَّة، فأخذ بنصِّ الكتاب وبدليل العقل، لكونه يرى بأنّه إذا خولط النّبي ﷺ في عقله جاز عليه أنْ يظن أنّه بَلَّغ شيئا وهو لم يُبَلِّغه، أو نزل عليه شيء وهو لم ينزل عليه، وهذا الحديث الذي ردّه الشّيخ محمّد عبدَه رواه البخاري وغيره لا يُخِلُّ بمقام النّبوّة، فالسّحر الذي أصابه ﷺ كان مِنَ الأمراض التي تصيب البدن ولا تؤثّر على العقل، وما فعله لبيد بالنّبي ﷺ هو نوع مِنَ السّحر يسمونه "رباطاً"، فكان يخيّل إليه أنّ عنده قدرة على إتيان إحدى نسائه، فإذا ما هَمَّ بحاجته عجز عن ذلك، أمّا السّحر الذي نُفِيَ عنه ﷺ فهو الجنون وهو مخلّ بمقام النّبوة.[3]

د)- التّأويل المادّيّ لبعض الحقائق الغيبيــة

أَوَّلَ الشّيخ محمّد عبدَه بعض الحقائق الغيبية متأثّرا بالنّهضة العلمية الأوروبّية، ففسّر معنى الملائكة بالقُوى الطّبيعية ليقرّب معناها للمادّيين المنكرين لوجودها، وحتّى يقنعهم خاطبهم بلغتهم[4]،

---

[1] ينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدّد، مرجع سابق: ص254.

[2] ينظر: محمّد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مرجع سابق: ج2، ص413و414.

[3] ينظر: المرجع نفسه: ج2، ص420-422.

[4] ينظر: غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص77و78.

فذكر في تفسير قوله تعالى:﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾[سورة البقرة] بأنّ كلّ أمر قائم بنظام مخصوص أُوجد بحكمة إلهية فقوامه روح إلهية سَمّاه الله مَلَكاً، ومَنْ لم يبال في التّسمية بالتّوقيف يسمّي هذه المعاني القُوى الطّبيعية، وأنّ ما أُودع في أنفسنا ونسمّيه قوّة وفكرا، هو روح لا ندرك حقيقتها يسمّيه اللهُ ملَكاً أو يُسمّي أسبابه ملائكة، فالتّسمية لا حَجْرَ فيها على النّاس، ومِنْ باب أَوْلَى لا حجر على الله[1]، وَأَوَّل سجود الملائكة لآدم بتسخير قُوى الأرض للإنسان، وامتناع إبليس عن السّجود له بقوّة إغراء الشرّ، ومعنى إبليس هو القوّة التي تعارض اتّباع الحقّ وتصدّ عن عمل[2]، وأَوَّلَ الجنّ بالميكروبات وذكر بأنّ الأجسام الحيّة الخفيّة التي تُرى بواسطة النّظارات المكبرة والتي تسمّى في هذا العصر بالميكروبات هي نوع مِنَ الجنّ، وقد ثبت أنّها عِلَلٌ لأكثر الأمراض[3]، وذكر بأنّ المراد بالنّفَّاثات في قوله تعالى:﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾[سورة الفلق] هم النّمّامون، فشبّههم بالسّحرة الذين إذا أرادوا أنْ يحلُّوا عقدة المحبّة بين المرء وزوجه، عقدوا عُقدة ثمَّ نفثوا فيها وحَلُّوها، ليكون ذلك فسخا لعقد الزّوجية، والنّميمة تشبه السّحر، لأنّها تُحَوّل المحبّة بين الصَّدِيقَيْن إلى عداوة.[4]

وعندما فصَّل الشّيخ محمّد عبدَه في مثل هذه الجزئيات بهذه التّأويلات، لم يقرّه عليها الكثير مِنْ علماء المسلمين، لأنّه أعطى كامل الحرّية لعقله في تفسير القرآن الكريم، وتوسّع فيه إلى درجة التّطرف في أفكاره والغلوّ في آرائه[5]، وبدا تفلّته واضحا مِنْ ضوابط الفهم التي تقتضيها قواعد اللّغة العربية، وكلّيات الشّريعة الإسلامية التي كانت معهودة في هذه العلوم في تفسيره وفتاويه التي نحا فيها منحى الشّطط العقلي، وكذا مساعيه الحثيثة في تفسيره للقرآن حتّى يطابق المبادئ والقيم الغربية.[6]

وخلاصة منهجه في تفسير القرآن الكريم أنّه حاول التّوفيق بين الآيات القرآنية المقروءة والآيات الكونية المنظورة، وحَكَّم العقل، وخاطب العواطف ليستوعب جميع شرائح المجتمع، ويساير قضايا عصره، وينفتح على إنجازات الحضارة الغربية، ففسّر بعض الأمور الغيبية تفسيرا مادّيّا، وأخضعها للعلم الحديث، حتّى يفهم النّاس مراد الله تعالى، فلم يوافقه أكثر العلماء المسلمين، لأنّ تأويلاته لتلك القضايا تجاوزت قواعد اللّغة العربية، ولأنّه حمّل نصوص القرآن الكريم الظنّية ما لم تحتمل لمحاولته التّوفيق بينها وبين اكتشافات الحضارة الغربية والنّظريات العلمية الحديثة.

ثانيا: مؤلّفاته في العقيدة والأديـان

1- رسالة التّوحيـــد

لم يقتصر الشّيخ محمّد عبدَه على تدريس التّفسير والتّأليف فيه، بل تعدّاه إلى الكتابة في العقيدة والتّوحيد الذي كان له فضل السّبق بتدريسه والكتابة فيه في منفاه ببيروت وفي مصر.

---

(1) ينظر: محمّد رشيد رضا، تفسير المنار، ج1، ص223، وينظر: محمّد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج2، ص418.

(2) ينظر: محمّد رشيد رضا، تفسير المنار، ج1، ص224، وينظر: غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص78و79.

(3) ينظر: محمّد رشيد رضا، تفسير المنار، المصدر السابق: ج3، ص81.

(4) ينظر: غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، ص87، وينظر: محمّد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج2، ص420.

(5) ينظر: المرجع نفسه: ج2، ص417.

(6) ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص165وص170.

بعودته مِنْ باريس إلى بيروت سنة 1885م مال إلى الإصلاح التّربوي الهادئ واستقرّ عليه، فألّف رسالة التّوحيد التي رسم فيها منهجا جديدا للفكر العقدي[1]، وذلك بعدما دُعِيّ لتدريس مادّة التّوحيد بالمدرسة السّلطانية، فأملى على طلّابها ما يناسب حالهم بحسب أطوارهم فيها مِنْ مختصرات أو متوسّطات أو مُطوّلات، ولمّا دخل مصر ودرّس التّوحيد في الأزهر، طلب نسخة مِنْ أماليه مِنْ أخيه حمّوده بك عبدَه الذي كان يَدْرُس عنده في المدرسة في بيروت، فذكر بأنّه سلك في تأليفها في العقائد مسلك السّلف ولم يَعِبْ آراء الخَلَف وابتعد عن الخلافات المذهبية، وجعل منها أساسا لدروسه، بعدما أدخل عليها بعض التّعديلات مبيّنا غرضه منها قائلا: "ولكنّنا نلزم ما التزمنا في بيان المعتقد والذّهاب إليه مِنْ أقرب الطّرق مِنْ غير ما مالَ إليه المخالف، أو استقام عليه المرافق"[2]، فألّفها لتكون كتابا مدرسيا مقرّرا على طلبة المدرسة السّلطانية ببيروت، ولطلبة الأزهر عند عودته إلى مصر.[3]

وقد بالغ تلميذه محمّد رشيد رضا في الإشادة برسالة التّوحيد وبيان مكانتها وقيمتها العلمية قائلا: "وما أدراك ما رسالة التّوحيد؟ هي التي يصدق عليها القول المشهور: "لم يَنسج ناسج على منوالها، ولم تَسمح قريحة بمثالها"، وهي التي يصحّ أنْ تُعدّ معجزة مِنْ معجزات النّبي ﷺ ظهرتْ على يد الأستاذ الإمام، وآية مِنْ آيات الإسلام، وهي التي ينبغي أنْ تُجعل مادّة الدّعوة إلى هذا الدّين، ويعمّ تلقينها على المسلمين"[4]، ثمّ دعا إلى الاعتماد عليها في الدّعوة إلى الإسلام بقوله: "هي الكتاب الوحيد الذي يصلح في هذا العصر للاعتماد عليه في الدّعوة إلى الإسلام".[5]

وضع ورسالته لتصحيح عقيدة المسلمين وتحرير عقولهم وتجديد دينهم في الأصول والعقائد، جمع محاورها في خمس نقاط وهي: 1- صفات الله تعالى وأفعاله، 2- النّبي محمّد ﷺ ورسالة الإسلام، 3- القرآن الكريم معجزة الرّسول ﷺ، 4- العقائد والأصول الإسلامية وهي رسالةٌ إلى محمّد ﷺ وإلى أمّته وإلى الإنسانية جمعاء، 5- والإنسان ومكانته وأفعاله، وفيها تناول علم التّوحيد بأسلوب بعيد عن المحسّنات اللّفظية حتّى يستفيد منها القرّاء ويجعلون منها زادا فكريّا عميقا، وربط فيها بين العقائد ووظائفها في حياة الإنسان ليبيّن دور الألوهية في تحرير روح الإنسان وعقله والارتقاء به حتّى يكون ربّانيا يقوم بالاستخلاف في الأرض، كما أبرزَ انتصار الإسلام للعقل الذي يهتدي بالعلم ليقضي على التّقليد الذي يحارب الاجتهاد والتّجديد، وأبرز أنّ العقل أفضل القُوى الإنسانية الحقيقية، وبرّأ الإسلام مِنَ الكهانة التي جعلها بعض المتديّنين حِرفة، وجعلوا أنفسهم وسطاء بين الله والنّاس، ونزع القداسة عن أقوال السّابقين بجواز النّظر فيها وتقليبها والأخذ والردّ منها، ودعا إلى ضرورة استثمار كنوز الأمّة للنّهوض بها واللّحاق بالأمم والمتقدّمة والتّفوّق عليها، وبيّن في رسالته أنّ الإسلام أكرمَ الإنسان باستقلال الإرادة والفكر، فبهما تتحقّق إنسانية الإنسان ويجد السّعادة في الدّارين.[6]

---

[1] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص89.

[2] محمّد عبدَه، رسالة التوحيد، مصدر سابق: ص13و14.

[3] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة الإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج1، ص214.

[4] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص779.

[5] المصدر نفسه: ج1، ص783، وينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة الإمام الشّيخ محمّد عبدَه، المصدر السابق: ج1، ص229.

[6] ينظر: محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، المصدر السابق: ص5- 11.

كما تكلّم فيها عن دور العقل ومكانته المرموقة مبيّنا صلته الوثيقة بالوحي الذي يجب أنْ يتّفق مع العقل، لأنّهما مصدرا هداية مِنْ عند الله تعالى فقال: "والذي علينا اعتقاده أنّ الدّين الإسلامي دين توحيد في العقائد، لا دين تفريق في القواعد، العقل مِنْ أشدّ أنواعه، والنّقل مِنْ أقوى أركانه، وما وراء ذلك فنزعات شياطين، أو شهوات سلاطين، والقرآن شاهد على كلٍّ بعمله، قاضٍ عليه في صوابه وخَلْطِهِ"، ونهى الإنسان عن التّقليد لأنّ له عقلا يفكّر به وهو مناط التّكليف فقال: "ونهانا عن التّقليد بما حكى عن أحوال الأمم في الأخذ بما عليه آباؤهم وتبشيع ما كانوا عليه مِنْ ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وإمحاء وجودهم المِلّي، وحقّ مَنْ قال، فإنّ التّقليد كما يكون في الحقّ يأتي في الباطل، وكما يكون في النّافع يحصل في الضارّ، فهو مِضَلّة يُعْذَرُ فيها الحيوان ولا يَجْمُل بحال الإنسان"[1]، فهو يرى بأنّ العقل والوحي لا تعارض بينهما، فهما مِنْ آثار كمال الله المطلق، وكلاهما مصدر هداية يهدفان إلى تحديد الطّريق المستقيم للإنسان، وإلى تحديد غاية وجوده، لذا وجب الاتّفاق بينهما، وإنْ بدا هناك اختلاف بينهما فمنشؤه إمّا تحريف الوحي أو سوء استخدام الإنسان للعقل، وليس المَلَكُ الموحِي ولا الرّسولُ ﷺ المبلّغُ[2]، فأثمرت رسالة التّوحيد فهما عقديّا كان خطوة صحيحة في التّأصيل، قدّم فيها الشّيخ محمّد عبدّه أنموذجا عمليا لفهمٍ أصوليٍّ في العقيدة.[3]

ونظرا للقيمة العلمية التي حظيتْ بها رسالة التّوحيد، فقد تُرجمتْ إلى عدّة لغات كالفرنسية والأوردية والهندية، وجُعِلَتْ مِنَ الكتب المقرّرة في جامعة عليكرا وفي الجامعات الهندية الأخرى[4]، كما كان لها وقع في نفوس العلماء المسلمين، وفي نفوس علماء النّصارى العرب مِنْ أهل الشّام مثل نسيم بك خلاط وسعيد الخوري الشّرتوني الكاثوليكي، الذين أثنَوْا على رسالته التي بيّن فيها سماحة الإسلام وسعيه في الإصلاح بين الطّوائف[5]، وأشاد بها مفتي المالكية في تونس سالم بوحاجب في رسالة بعث بها إلى الشّيخ محمّد عبدَه قال له فيها: "تلك الرّسالة الغرّاء المهمّة التي هي الملاك الوحيد للحصول بسهولة على ما يلزم استحضاره مِنْ علم التّوحيد"[6]، وكتب أحد أدباء الشّيعة تقريظا لرسالته قال فيها: "أستاذ الكلّ ووحيد هذا العصر، فكم دافع عن الإيمان بلسان أمضى مِنَ السِّنان، وعن الإسلام بأقلام أمضى وقعا في الكفر مِنْ مريشات السِّهام، أوضحَ مع الإيجاز أدلّةَ التّوحيد، وأَلّفَ بين الفريقَيْن الشّيعة والسنّة بما هو حريّ أَنْ يُتّبَع، فجدير بمصر أَنْ تفتخر بمَنْ فيها مِنْ أفاضل العصر".[7]

وعليه يمكن اعتبارها مِنْ أمّهات كتب العقيدة الإسلامية، وأحد المصادر المهمّة في علم الكلام التي برهن فيها على ربانية الإسلام وعالميته وسماحته التي خصّ بها العلماء والباحثين والطّلبة الجادّين.

---

[1] محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، مصدر سابق: ص32.

[2] ينظر: محمّد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مرجع سابق: ص138و139.

[3] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص164.

[4] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص96.

[5] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص780و781.

[6] المصدر نفسه: ج1، ص784.

[7] المصدر نفسه: ج1، ص785.

2- الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنيـة

يعدّ الكتابُ مِنْ أهم الآثار الفكرية المتميّزة للشّيخ محمّد عبدَه، وهو عبارة عن سلسلة مقالات كتبها ونشرها سنة 1902م في مجلّة المنار ردّا على المفكّر الماروني اللّبناني فرح أنطون الذي زعم أنّ النّصرانية كانت أكثر تسامحا مع العلم والفلسفة مِنَ الإسلام لذلك نهضت أوروبّا النّصرانية، بينما ضاق صدر الإسلام بالعلم والفلسفة فأصاب الجمود والتخلّف حضارة الإسلام، فأجرى الشّيخ محمّد عبدَه مقابلة بين الإسلام والنّصرانية وأوضح أثرهما في العلم والمدنية.

والكتاب جاء بعدما استأذن محمّد رشيد رضا مِنَ الشّيخ محمّد عبدَه أنْ يجمع مقالاته في كتاب بعنوان: الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية، فوافقه على ذلك، وطُبع الكتاب مرّتين في حياته، وكان الغرض منه هو الدّفاع عن الإسلام وإيقاظ المسلمين وإرشادهم إلى أسباب تأخّرهم وضياع مجدهم وزوال ملكهم والمخرج مِنْ ذلك، وترجيح الإسلام على النّصرانية في حرّية العلم و نشأة المدنية.[1]

والكتاب يشتمل على مقدمة وأربعة أقسام وخاتمة، ردّ فيه الشّيخ على الشّبهات التي طرحها فرح أنطون على رأسها شبهة أنّ طبيعة الدّين الإسلامي تأبى التّسامح مع العلم، وطبيعة الدّين النّصراني تُيَسِّر لأهله التّسامح مع العلم، وأنّ ثمار المدنية الحديثة تَمتَّع بها الأوروبّيّون ببركة التّسامح الدّيني النّصرانيّ، فتولّى الشّيخ محمّد عبدَه الردّ على تلك الشّبهات بالأدلّة والبراهين ووقائع التّاريخ لتأكيد آرائه، وأهمّ الأفكار الرّئيسة التي تناولها الشّيخ محمّد عبدَه في هذا الكتاب هي:

أ)- فكرة طبيعة العلاقة بين السّلطتين الدّينية والزّمنية

أوضح مِنْ خلال المقارنة بين الإسلام والنّصرانية أنّ الإسلام لم يعرف سلطة الكهنوت -الوساطة بين الفرد وربّه- كما في النّصرانية، وأنّ السّلطان في الإسلام هو فرد يسري عليه ما يسري على الآخرين، فإذا ارتكب خطأ فإنّه يجب أنْ يسأل ويحاسب، وأنّ سلطة الحاكم إدارية وليست دينية وبالتّالي فهو يخضع للرّقابة والمساءلة.

ب)- فكرة الاحتجاج على الدّين بمعتنقيه

رفض الشّيخ محمّد عبدَه الاحتجاج على الدّين بأهله، فالدّين حجة عليهم وليس العكس، وأشار إلى أنّه لا يصحّ أنْ ينسب الجمود إلى الإسلام، لأنّ جمود المسلمين نجم عن مخالطة العقائد الأخرى لعقيدتهم الإسلامية، وأوضح أنّ عدم إتباع المسلمين لأحكام الإسلام وابتعادُهم عنه هو سبب تخلّفهم وليس الإسلام نفسه، وأنّ أسلاف المسلمين تقدموا على غيرهم وسادوا العالم لأنّهم تمثّلوا الإسلام في حياتهم، وأنّ هذه الاتهامات التي ألصقها الغرب بالإسلام مِنْ خلال الاحتجاج عليه بتصرّفات بعض المسلمين المحسوبين على الإسلام لا تعبّر عن حقيقة الإسلام وأصوله.

ت)- فكرة حوار الأديـان

يرى الشّيخ محمّد عبدَه أنّ دين الله واحد لا تختلف إلّا تشريعاته، وأمّا حقيقته التي بلّغها جميع الأنبياء والمرسلين فهي لا تتغيّر، وأنّ الإسلام جاء ليجمع النّاس كلّهم على توحيد الله وإخلاص العبادة

[1] يرجع إلى: محاضرة محمّد عمارة على اليوتيوب بعنوان: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، من تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بمركز الدّراسات المعرفية في مصر، ألقاها في: 15 فيفري 2017م.

له، وأنّ مِنْ أهمّ وظائفه إزالة الخلاف بين أهل الكتاب ودعوتهم إلى المودّة و الائتلاف، وهذا ما عمل عليه المسلمون منذ بعثته ﷺ، كما أكّد أنّ رفض عقائد الدّيانات الأخرى لا يعنى الجور على أهلها، وأنّ الدّعوة إلى الإسلام والدّفاع عنه تكون بالتّقريب بين المسلمين وأهل الكتاب، كما أوضح موقف الإسلام الرّافض للانحرافات والتّحريفات العقائدية التي أصابت تلك الدّيانات، ونظرا لإيمانه بأهمية ودور حوار الأديان في تحقيق السّلام العالمي؛ شارك في تكوين جمعية سرّية تسمّى بجمعية التّأليف والتّقريب وكان هدفها التّقريب بين الشّرائع السّماوية الثّلاث وإزالة الشّقاق بين أهلها والتّعاون على إزالة الحمْلات الصّليبية الأوروبّية على المسلمين وتعريفهم بحقيقة الإسلام.[1]

ذكر محمّد عمارة في إحدى محاضراته، أنّ كتاب الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية تمّ تزوير عنوانه ومضمونه في طبعة دار الهلال وسمّوه: الإسلام مع العلم والمدنية، وحذفوا كلّ ما كتبه عن النّصرانية وأضافوا إلى الكتاب كتابات جمال الدّين الأفغاني وغيره، وطُبع وعليه أسماء أساتذة في الفلسفة في الجامعة لم يذكروهم، فهذا التّزوير جعل أساتذة كبارا يظلمون الشّيخ محمّد عبدَه لمّا كتبوا عنه مِنْ خلال ما كُتِبَ عنه وليس مِنْ خلال كتاباته، فقالوا عنه بأنّه ماسوني وعميل وجاسوس للاستعمار، فظلموه لأنّهم لم يقرأوا أعماله كاملة وإنّما قرأوا ما كتبه عنه المستشرقون وبعض الكتّاب السّطحيّين، لذلك لمّا ساد فكر الغلوّ الدّيني واللّاديني في السّاحة الفكرية، وغابت الوسطية والاعتدال، قام محمّد عمارة بجمع وتحقيق ونشر الأعمال الكاملة للشّيخ محمّد عبدّه لإعادة الاعتبار له وبيان مكانته الحقيقية بين المسلمين وعند غيرهم، ولمّا كتب علي عبد الرّازق كتابه الإسلام وأصول الحكم ذكرتْ جريدة السّياسة التي يرأسها هيكل باشا، بأنّ كلّ الذي قاله علي عبد الرّازق قاله الشّيخ محمّد عبدَه، وأَتَوْا بنصوص ونسبوها إليه، فردّ محمّد عمارة على هذا الكلام بعدما صرف مِنْ عمره خمس سنين يجمع أعماله ويقرأ ما كتبه في الصّحف والمجلّات والدّوريات ليميّز بين كتاباته وكتابات غيره، وأثبتَ بأنّه تزوير على الشّيخ وليستْ آراؤه، وذكر بأنّ الشّيخ محمّد عبدَه كان يكتبُ في جريدة الوقائع المصرية ومعه سعد زغلول وغيره مِنَ الكتّاب مِنْ غير إمضاء، وهناك كتبٌ نُسبتْ للشّيخ محمّد عبدَه وهي للسيّد جمال الدّين الأفغاني مثل كتاب أمالي جمال الدّين الأفغاني على العقائد العضدية، وكتاب التّعليقات على شرح الدوّاني للعقائد العضدية، فالأفغاني كان يملي على تلامذته وهم يكتبون وينشرون كلامه بأسمائهم بإذنه، كما نُسبتْ للشّيخ محمّد عبدَه كتابات أخرى وهي لمحمّد رشيد رضا وسعد زغلول وعبد الكريم سلمان وغيرهم، فقام محمّد عمارة بتحقيقها وأثبت نسبتها إلى أصحابها.[2]

3- الإسلام بين العلم والمدنيـة

كتب وزير الخارجية الفرنسي جابراييل هانوتو في جريدة الجورنال دي باري الباريسية، مقالات عن الإسلام، اتّهم فيها الإسلام بمعاداة العلم والمدنية، وأنّه سبب تخلّف المسلمين وجمودهم وعجزهم

---

[1] ينظر: أحمد عبد التواب، عرض نقدي لكتاب: الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، تاريخ النشر: الأربعاء: 04 أغسطس 2010م، في الساعة: 9:34pm ، على موقع: https://egyptawy.arabepro.com، تاريخ الزيارة: السبت: 2020/07/18م، في الساعة: 16:00 مساء.

[2] يرجع إلى محاضرة محمّد عمارة على اليوتيوب بعنوان: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، من تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بمركز الدّراسات المعرفية في مصر، ألقاها في: 15 فيفري 2017م.

عن مسايرة التّطوّر والمدنية الحديثة، ثمّ نشرتها جريدة المؤيّد مترجمة إلى العربية، فانبرى له الشّيخ محمّد عبدَه بمقالات ضمّنها ردودا علمية قوية أفحمه ونقض بها دعواه وأبطل افتراءاته.

جمع الكتاب مقالات الشّيخ محمّد عبدَه التي ردّ بها على هانوتو، ودحض أفكاره الخاطئة وشبهاته وأغاليطه، وبيّن له حقائق الإسلام وأصوله، والمسائل المتعلّقة بالعقيدة كالجبر والاختيار وغيرهما منَ المسائل العقدية والتّشريعية والأخلاقية، كما تحدّث فيها عن الإسلام والمدنية وعن الجامعة الإسلامية وعن اهتمام المسلمين بالعلوم الأدبية والعقلية، وأوضح له أنّ الجمود الذي يعيشه المسلمون اليوم لا صلة له بالإسلام، كما نبّهه إلى أنّ الأحكام الجانحة التي أطلقها على الإسلام إنّما بناها على بعض السّلوكات المعزولة للمسلمين، فأرشده بأنْ يحكم على الإسلام انطلاقا مِنْ أصوله لا مِنْ ممارسات المسلمين المنحرفة لأنّ الإسلام بريء منها، ولا ينبغي عليه أنْ يتّخذ مِنْ تصرّفات المنتسبين إلى الإسلام مبرّرا للطّعن فيه وتشويهه ومحاربته.

لقد عقد هانوتو في مقالاته مقارنة بين المدنية النّصرانية والمدنية الإسلامية، وركّز الكلام عن ذات الله وعن القضاء والقدر وبرّر عقيدة التّثليث النّصرانية ورَفْعِ الإنسان إلى مرتبة الإله، وأنّ العقيدة الإسلامية التي تدعو إلى التّوحيد وتنزيه الله عن البشرية جعلتِ الإنسان ضعيفا مهينا، وأنّ النّصرانية دفعتِ الإنسان إلى العمل والجدّ، وأنّ عقيدة القضاء والقدر حملتِ المسلمين على الجمود والرّكود، فردّ عليه الشّيخ محمّد عبدَه بمقالات صحّح له فيها المفاهيم الخاطئة وما فيها مِنْ مقارنات منحازة للنّصرانية البعيدة عن العلمية والموضوعية، وبيّن له فضل الإسلام، وسموّ عقيدة التّوحيد، وأنّ الإسلام لم يَدعُ إلى الجبرية، وأنّ في القرآن الكريم أربعا وستين آية تثبت حرّية الإرادة.[1]

ومِنْ ردود الشّيخ محمّد عبدَه على أكاذيب هانوتو قوله: "إنّ العدل ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هي التي تخفّف على المغلوب سلطة الغالب وتدنو به منه وتهوّن عليه الرّضاء عنه، ولكن هانوتو وأترابه مِنْ ساسة الفرنسيّين لا يعرفون شيئا مِنْ هذه الأركان الثّلاثة ولا يزالون يهرفون بما لا يعرفون حتّى يصلوا إلى ما كانوا يحسبون فلينتظروا إنّا معهم مِنَ المنتظرين".[2]

وقد فضح الشّيخ محمّد عبدَه ضحالة هانوتو العلمية والدّينية بقوله: "يرى النّاظر في كلام مسيو هانوتو لأوّل وهلة، أنّه مقلّد في التّاريخ، كما هو مقلّد في العقائد، وأنّه جمع خليطا مِنَ الصّور وحشرها إلى ذهنه، ثمّ هو سلّط عليه قلمه ينثرها كما يشاء القدر، ليدهش بها مَنْ لا يعرف الإسلام مِنَ الفرنساويّين"[3]، ثمّ بيّن بساطة معارفه التي لا تزيد عن معارف صغار المسلمين بالمدارس الإعدادية فقال: "وإنّي أقرّر لهذا الوزير الشّهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب(المدارس)"، وأَوْضَحَ له ضحالة زاده التّاريخي أمام قومه المفتونين به فقال: "الذين يتفانون في إجلال مثل هذا الوزير كما يتفانى المسلم في الله على رأيه، إنّي إنْ صَغَّرتُ شأن هانوتو في معارفه التّاريخية فذلك لأنّه صغير فيها حقيقةً، وكثير مِنْ قومه يعرف ذلك منه ولأنّه لا أمير في العلم إلّا العلم، والسّلام"، وكشف عن جهل

---

[1] ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص332.

[2] محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، مصدر سابق: ص60.

[3] المصدر نفسه: ص46.

هانوتو بدينه، وأعْلمَه أنّ القضاء والقدر قد عظم فيه الخلاف بين النّصرانيّين، وأنّ الإسلام عاب على أهل الجبر رأيهم وأنكر عليهم في قوله تعالى:﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴿١٤٨﴾﴾[سورة الأنعام]، وأثبتَ له أنّ الكسب والاختيار ورد في نحو أربع وستّين آية.[1]

كما كشف له في ردّه عليه الفروق الدّقيقة بين الإسلام والنّصرانية في قضايا العقيدة والعلم والمدنية، عندما ادّعى بأنّ النّصرانية أفضل مِنَ الإسلام، وأنّ تمدّن الجنس الآري أفضل مِنَ الجنس السّامي، وأنّ تمدّن الأوروبّيّين أفضل مِنْ تمدّن المسلمين، فردّ عليه بأسلوب علمي دقيق وقويّ مقرون بسّخرية هادفة حتّى يُعَرِّفَهُ بحجمه الحقيقيّ.[2]

لقد برهن الشّيخ محمّد عبدَه بأنّه إمام في الإصلاح، وأنّه محام ناجح عن دينه وأمّته وحضارته مِنْ خلال مؤلّفاته وكتاباته ومقالاته الصّحفية وردوده العلمية الموضوعية على أعداء الإسلام.

ثالثا: مؤلّفاته في الفقـه(الفتاوى)

عُيِّن الشّيخ محمّد عبدَه مفتيا للدّيار المصرية، فذاع صيته وبلغت شهرته الآفاق، وترك فتاوى كثيرة دارت في مجملها حول الوقف والميراث، والمعاملات المالية والاقتصادية، والقتل والقصاص، ومسائل الأسرة المتعلّقة بالزّواج والطّلاق والنّفقة والرّضاع والحضانة وغيرها مِنَ المسائل المهمّة.

كان الشّيخ مفتيا لمصر وللأمّة الإسلامية، فهو أوّل مفتي استفتته الأمّة في المشرق والمغرب، بل واستفتاه النّصارى وحاخامات اليهود في فلسطين[3]، ومنذ تولّيه منصب الإفتاء سنة 1899م إلى غاية وفاته سجّل أكثر مِنْ أربعة وأربعين وتسعمائة(944) فتوى في مجلّدات دار الإفتاء المصرية.[4]

1- المصادر الجامعة لفتاوى الشّيخ محمّد عبـدَه

برز الشّيخ محمّد عبدَه بفتاويه التي لفتت إليه انتباه الخاصّ والعامّ، والصّديق والعدوّ، فهو مِنَ الأئمّة المجتهدين الذين فعّلوا منصب الإفتاء، حيث اشتملت فتاويه الكثيرة على جميع أبواب الفقه الإسلاميّ التي ربطها بواقع النّاس مستوعبا قضاياهم المعاصرة، ومعتمدا على روح الشّريعة الإسلاميّة وجوهرها، وجامعا بين النّقل والعقل، وقد جُمِعَت فتاويه في **خمسة مصادر**[5] وهي:

أ)- سجِلاّت دار الإفتاء: جَمعتِ الدّارُ فتاويه في دفترَيْن كبيرَيْن اشتمل كل واحد منهما على خمسمائة فتوى يضمّ الدّفتر الأوّل فتاوى الوقف والميراث، ويضمّ الدّفتر الثّاني فتاويه في سائر المسائل المختلفة.

ب)- الفتاوى الإسلامية لوزارة الأوقاف المصرية: جمعتْ فتاويه وفتاوى أعلام المفتِين المصريّين، أمثال: الشّيخ محمد بخيت المطيعي والشّيخ جاد الحقّ والشّيخ محمّد سيد طنطاوي وغيرهم.

---

[1] ينظر: محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، مصدر سابق: ص49 و51.

[2] ينظر: عبد الحليم عويس، التّربية وإصلاح الأمّة في مقالات محمّد عبدَه، مقال على موقع شبكة الألوكة: https://www.alukah.net، تاريخ الإضافة: 2014/03/02م، تاريخ الزيارة: 2020/08/27 في السّاعة: 18:00 مساء.

[3] يرجع إلى: محاضرة محمّد عمارة على اليوتيوب بعنوان: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، من تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بمركز الدّراسات المعرفية في مصر، ألقاها في: 15 فيفري 2017م.

[4] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص73.

[5] ينظر: عبد الله مبروك النجار، فتاوى الإمام محمّد عبدَه -دراسة فقهية تأصيلية-، مرجع سابق: ص503- 508.

ت)- مجلّة المنـار: أنشأها محمّد رشيد رضا بمباركة مِنْ شيخه محمّد عبدَه، صدر عددها الأوّل سنة 1897م، نشرتْ فتاويه في مُجلَّدَيْها السّادس والسّابع حول مسائل عديدة منها؛ حكم ترجمة القرآن الكريم، وتعليم النّساء الكتابة، ودُور الآثار وبساتين النّبات، والصّور والتّماثيل، وشَكْلُ حكومة الإسلام.

ث)- تفسير القرآن الحكيم الشّهير بتفسير المنار: بدأه الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ سورة الفاتحة إلى قوله تعالى:﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا ١٢٦﴾[سورة النّساء]، ليكمله بعد وفاته محمّد رشيد رضا وِفق منهجه وأسلوبه، ثمّ توقّف هو الآخر عند قوله تعالى:﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾[سورة يوسف] بسبب الوفاة، حيث كان الشّيخ محمّد عبدَه يُصدر فتاويه في التّفسير بحسب ما يقتضيه سياق الآيات القرآنية.

ج)- تاريخ الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه: كتاب ألّفه محمّد رشيد رضا، وضمّنه أيضا فتاوي شيخه المشهورة، وهو مِنْ ثلاثة أجزاء كبيرة، طُبع لأول مرّة بمطبعة المنار سنة 1931م.

2- بعض فتاويـــه

أصدر الشّيخ محمّد عبدَه فتاوى كثيرة منها؛ إفتاؤه بجواز التّعاون مع الكفار وأهل البدع جوابا على استفتاء ورد إليه مِنَ الهند، فأصّلها بعدّة حوادث تاريخية منها: استعارة الرّسول ﷺ مائة درع مِنْ صفوان بن أمية، واستخدام الخلفاء للكُتَّاب والحُجَّاب والوزراء مِنَ الكفار لكونها تدخل في باب تعاون الدّولة الإسلامية مع بعض الكفار لخدمة مصالحها وهذا جائز شرعا وعقلا، وهو ما جعل بعض العلماء المسلمين كغازي التّوبة يعلّق على فتاويه قائلا: "فقد حقَّقتْ فتاويه للإنجليز ما لم تحقّقه جيوش كاملة مِنْ حيث فتح النّفوس لدسائسهم وتبرير التّعاون معهم"، وأفتى بجواز لبس البرنيطة واستعمال الصّور والتّماثيل، فعلّق عليه: "ولكنّنا نحبّ أنْ ننبّه إلى أنّ رابطا واحدا يجمعها هو التّرخيص بتناول معطيات الحضارة الغربية"[(1)]، كما أباح للمسلمين ادّخار أموالهم في صندوق التّوفير وأباح استثمارها وأخذ الفوائد منها[(2)]، فأثارت فتاويه هذه ضجّة كبيرة بين العلماء المسلمين.

وأفتى في الفنون الجميلة بإباحة استعمال الصّور والتّماثيل في الشّريعة الإسلامية إذا قصد منها تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النّفسية أو أوضاعهم الجثمانية، فأفتى بأنّ الفائدة محقّقة مِنَ الرّسم لا نزاع فيه، وأنّ معنى العبادة وتعظيم الصّورة قد مُحيتْ مِنَ الأذهان، فقوله ﷺ: «**إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ المُصَوِّرُونَ**»[رواه البخاري][(3)] حديث صحيح ورد في الوثنية لمّا كانت الصّور تُتَّخذ للّهو وهو ما يبغضه الدّين، وللتّبرك بالصّالحين وهو ما جاء الإسلام لمحوه، والمصوّر في الحالَيْن شاغل عن الله أو ممهّد للإشراك به، فإذا زال هذان العارضان وقُصدتِ الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النّبات والشّجر، وقد صُنع ذلك في حواشي المصاحف وأوائل السّور ولم يمنعه العلماء، وعليه لا يمكن الإفتاء بأنّ الصّورة مظنّة العبادة، فالشّريعة الإسلامية أبعد مِنْ أنْ تحرّم وسيلة مِنْ أفضل وسائل العلم بعد التّحقّق أنّه لا خطر فيها على الدّين عقديّا وعمليّا.[(4)]

---

(1) غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص91و92.

(2) ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص28.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: اللّباس، باب: عذاب المصوّرين يوم القيامة، ج7، ص167، حديث رقم: 5950.

(4) ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص172.

وفي مجال التّعامل مع غير المسلمين والاستفادة منهم، أفتى بِحِلّ أخذ الأشياء النّافعة منهم، والاستعانة بالأجانب المخالفين لهم في الدّين والتّعامل معهم، فكتب في فتوى استعانة المسلمين بالكفّار وأهل البدع والأهواء: "أنّه قد قامت الأدلّة مِنَ الكتاب والسنّة وعمل السّلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصّالحين على ما فيه خير ومصلحة المسلمين، وأنّ الذين يعمدون إلى هذه الاستعانة لجمع كلمة المسلمين وتربية أيتامهم وما فيه خير لهم لم يفعلوا إلّا ما اقتضته الأسوة الحسنة بالنّبي ﷺ وأصحابه، وأنّ مَنْ كفّرهم أو فسّقهم فهو بين أمرَيْن: إمّا كافر أو فاسق، فعلى دعاة الخير أنْ يجِدّوا في دعوتهم وأنْ يمضوا في طريقهم، ولا يَحْزُنْهُمْ شتم الشّاتمين، ولا يغيظهم لوم اللّائمين"[1]، فانتقده بعض علماء المسلمين على إباحته موالاة الكفّار لمخالفة فتواه للشّريعة الإسلامية.[2]

3- منهجه في الفتـوى[3]

حظيتْ فتاوى الشّيخ محمّد عبدَه بالبحث والدّراسة مِنْ طرف العلماء والمتخصّصين الذين استخلصوا منها منهجه في الفتوى فذكروا منها ما يأتي:

1- تيسيره على المسلمين لقوله تعالى:﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾[سورة النّساء].

2- بُعْدُ نظره وأخذه بمآلات وعواقب الفتوى في الاعتبار قبل إصدارها، مِنْ ذلك فتواه بعدم فسخ النّكاح لرِدَّةِ الزّوجة إذا تعمّدتها للانفصال عن زوجها والتّخلص منه.

3- معرفته وإحاطته بشرائع وأعراف غير المسلمين، وبالمصطلحات المستخدمة لديهم في الأحوال الشّخصية والمعاملات التّجارية والاقتصادية.

4- حرصه الشّديد على وحدة المجتمع، فكان يحبّ أنْ يظهر المسلمون في كل مكان بمظهر حضاريّ، متمسكين بدينهم، مندمجين في مجتمعهم، محافظين على هويّتهم ومؤَثّرين فيه بالخير والإصلاح، مِنْ ذلك إباحته للمسلمين أكل ذبائح أهل الترنسفال[4] رغم مخالفتهم للشّريعة الإسلامية في طريقة الذّبح، مستندا في ذلك إلى قوله تعالى:﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ ٥﴾[سورة المائدة].[5]

5- محافظته على مكانة المرأة وحرصه على تكريمها وإعطائها حقوقها التي منحها الإسلام، مِنْ ذلك إفتاؤه بحقّها في زيارة والدَيْها كلّ يوم جمعة دون إذن زوجها إذا لم يَقْدِرَا على زيارتها.

---

[1] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج1، ص94.

[2] ينظر: سيد بن حسين العفّاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، دار ماجد عسيري للنّشر والتّوزيع، جدّة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2004م، ج1، ص88.

[3] ينظر: عبد الله مبروك النجار، فتاوى الإمام محمّد عبدَه دراسة فقهية تأصيلية، مرجع سابق: ص526- 534.

[4] **التّرنسفال:** هي مقاطعة تقع شمال شرق جنوب إفريقيا سابقا، يكثر فيها اختلاط المسلمين بالنّصارى، احتلّتها بريطانيا سنة1877م، وفي عام 1910م تأسّست وصارتْ جزء مِنْ جنوب إفريقيا، واعتبرتْ مقاطعة حتّى عام 1914م، لغتها الرّسمية الإنجليزية والأفريقانية، كانت عاصمتها بريتوريا وأكبر مدنها جوهانسبوغ، وأمّا اليوم فالترنسفال تمثّل مقاطعات(غاوتنغ وليمبوبو ومبومالانغا)، ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة: ar.m.wikipedia.org، تاريخ الزيارة: 2020/01/28م في الساعة: 10:00 صباحا، وينظر: بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمّد الطّاهر بن عاشور-حياته وآثاره، مرجع سابق: ص51.

[5] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص73، وينظر: علي جمعة، الإمام محمّد عبدَه مفتيا، مجلة المسلم المعاصر، سنة 2006، العدد 119 و120، ص109- 141، وينظر: موقع: خطوة للتوثيق والدراسات: http://www.khotwacenter.com، تاريخ الإضافة: 2020/12/15م، تاريخ الزيارة: 2021/06/15م، في الساعة: 18:00 مساء.

6- إحاطته بالقوانين والنّظم في بلاده والبلاد الأخرى، حتّى لا يُحرج المستفتين ويمكنهم الأخذ بفتاويه.
7- تمسّكه بالحقوق وعدم ضياعها بالتّقادم، إذ لا يوجد نصّ شّرعي يسقط الحقوق بمرور الزّمن.
8- التّسلسل المنطقي لفتاويه، وتأصيلها بالنّصوص الشّرعية، وتعزيزها بنقول مِنْ كتب الفقهاء.
9- تغليبه العقل على النّقل في بعض المسائل، كإفتائه بحِلّ ربا الفضل لأنّ(ال) العهدية في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ ٢٧٥﴾[سورة البقرة] تختصّ بربا النّسيئة المعهود في الجاهلية، وحرّم تعدّد الزّوجات لاستحالة العدل بينهنّ، فخالف جمهور العلماء الذين انتقدوه لمخالفته لروح الشّريعة الإسلامية.[1]

4- بعض المواقف مِنْ فتاويــه

لمّا تصدّى الشّيخ محمّد عبدَه للفتوى طعن فيه بعض شيوخ الأزهر الجامدين واستهزؤوا به بمبرّر مخالفة فتاويه للإسلام، فكان يردّ عليهم بعلم وحكمة ولا يستجيب لاستفزازاتهم المتكرّرة، مِنْ ذلك أنّه تلقّى سؤالَيْن مِنْ بعض مسلمي التّرنسفال جاء في الأوّل منهما: بقرٌ يُضرب على رأسه بالبلطة حتّى تضعف مقاومته، ثمّ يُذبح قبل أنْ يموت بدون تسمية الله عليه، فهل يجوز أكل لحمه؟ فأفتى بحلّها لكونها ذُبحتْ قبل موتها، فقامتْ عليه قيامة العلماء القائلين بالحرمة لأنّها موقوذة، والشّيخ يرى بأنّ الموقوذة هي التي ضربتْ بشيء غير محدّد كالحجارة والخشب حتّى ماتتْ، وجاء في السّؤال الثّاني: يوجد أفراد في بلاد التّرنسفال يلبسون البرانيط لقضاء مصالحهم وعَوْدُ الفوائد عليهم، فهل يجوز ذلك أم لا؟ فأفتى بالجواز قائلا: "أمّا لُبس البرنيطة[2] إذا لم يقصد فاعله الخروج مِنَ الإسلام والدّخول في دين غيره فلا يعدّ مكفّرا، وإذا كان اللُّبس لحاجةٍ مِنْ حَجْبِ الشّمس أو دفع مضرّة أو دفع مكروه، أو تيسير مصلحة لم يُكره كذلك"، فتحاملتْ عليه جريدتا الظّاهر واللّواء، وتحرّكتْ الغيرة ضدّه مِنْ أقرانه المشايخ، وحتّى مِنْ أعلى هرم السّلطة التي أغرتْ به الصّحافة للحطّ مِنْ قدره والتّنفير منه وتشويهه، فنشرتْ صورا ملفّقة له على صفحات الجرائد واتّهمته بالمجون والميوعة والانحراف، ودعتِ القرّاء إلى الحديث عنه بما لا يليق، وروّجتِ الأكاذيب عنه بغباء وجهل، ولفّقوا له صورة وهو في حلبة الرّقص يخاصر فتاة إفرنجية، فأحيلتْ الصّورة على التّحقيق القضائيّ، الذي أثبتَ أنّ الصورة ملفّقة وأُدين صاحب الصّحيفة[3]، ولم تكتف تلك الصّحف بمحاربة الشّيخ محمّد عبدَه، وإنّما شنّت حملة مسعورة ضدّ مجلّة المنار لتعاونها معه ودفاعها عنه وعن فتاويه ومواقفه.[4]

لقد تصدّتْ مجلّة المنار للدّعايات المغرضة والأكاذيب الملفّقة للشّيخ محمّد عبدَه، وانتقدتْ مسلك الصّحف المعيب ومَنْ وراءها، لعدم مراعاتها لأحكام الشّريعة التي تحرّم إشاعة الأكاذيب، كما قام الخديوي بتحريض شيوخ الأزهر الجامدين لتشويه سمعته وعرقلته عن الإصلاح حتّى دفعوه للاستقالة مِنَ الإفتاء، متناسيا أفضال الشّيخ عليه الذي كان يُسنده ويحميه مِنْ تسلُّط الإنجليز عليه.

---

[1] ينظر: سيد بن حسين العفّاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، مرجع سابق: ج1، ص88.

[2] **البرنيطة:** مفرد برانط، وهي لباس الرّأس عند الغربيّين، وتسمّى القبعة، ينظر: أحمد الزّيّات وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، القاهرة، مصر، ج1، ص53، وينظر: قاموس المعاني في موقع :almaany.com، تاريخ الزيارة: الجمعة: 2019/12/27م في الساعة: 15:20،

[3] ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص139.

[4] ينظر: المصدر نفسه: ص140.

ولمّا شَنَّعَ عليه شيوخ الأزهر والخديوي بسبب فتواه التّرنسفالية محاولين إبطالها وإظهاره بمظهر المتنكّر للإسلام المعادي للوطنية، وقف إلى جانبه الشّيخ محمّد الطاهر بن عاشور مِنْ تونس، وكتب رسالة مستندة إلى الأدلّة الشّرعية على المذهب المالكي أيّده فيها ودافع عن صحّة رأيه ووجاهة فتواه[1]، وفي المقابل وافقه آخرون واعتبروا فتاويه منبعثة مِنْ رؤية تربوية تنويرية تقوم على ركائز العقلانية والتّسامح ونبذ التّقليد، والإيمان بحرية الإنسان واستقلال إرادته، والاهتمام باللّغة كوسيلة للتّفاعل الحضاريّ، والاعتماد على تفسير روح القرآن الكريم دون التّوقّف عند حَرْفِيَتِهِ.[2]

رابعا: كتاباته في الإصلاح التّربـوي

كتب الشّيخ محمّد عبدَه في الإصلاح التّربوي عدّة لوائح وجّهها لبعض أقطار الأمّة الإسلامية للنّهوض بها، كما اهتمّ بإصلاح اللّغة العربية لدخولها في شتّى المطبوعات ولدورها الحيوي فيها وهي:

1- لوائح إصلاح التّربية والتّعليـم

خلال فترة نفي الشّيخ محمّد عبدَه عن مصر، رجع سنة 1885م مِنْ باريس إلى بيروت، وتفرّغ للتّدريس مركّزا في إصلاحه التّربوي على التّعليم، وعكف على كتابة ثلاثة لوائح لإصلاح التّربية والتّعليم[3]، فبرزتْ جهوده التّربوية والفكرية والثّقافية بكتابتِهِ: لائحةً لإصلاح التّعليم العثماني، ولائحةً لإصلاح القطر السّوري، ولائحةً لإصلاح التّربية في مصر[4]، فكتب أُولَى لوائحه لإصلاح التّعليم العثماني إلى شيخ الإسلام بالأستانة بعد أنْ وقّع عليها بعض وجهاء المسلمين ومثقّفيهم بالشّام.[5]

وكتب لائحة ثانية إلى الوالي التّركي على بيروت لإصلاح القطر السّوري[6]، والثّالثة كتبها إلى اللّورد كرومر المندوب السّامي البريطاني في مصر[7]، حيث انتهز فرصة صدور أمر مِنَ السّلطان عبد الحميد لإصلاح البرامج في المدارس الإسلامية وتشكيل لجنة لذلك برئاسة شيخ الإسلام، فوضع لائحة لإصلاح التّعليم الدّيني ورفعها إليه، مبيّنا له فيها بأنّ سبب ضعف المسلمين هو فساد عقيدتهم وجهلهم بأصول دينهم ففسدتْ أخلاقهم وانحلّتْ، وأنّ علاج ذلك لا يكون إلّا بإصلاح التّعليم الدّيني، وأمّا اللّائحة التي رفعها إلى والي بيروت، فقد أرجع فيها سوء الأحوال والاختلافات والنّزاعات السّياسية إلى كثرة المدارس الأجنبية والإقبال عليها، فاقترح إنشاء مدارس وطنية وتعميمها وإصلاح برامج التّعليم الدّيني[8]، وقد كان هذا الاقتراح بناء على ما وقف عليه مِنْ تردٍّ لأحوال التّربية والتّعليم في بلاد الشّام.

---

(1) ينظر: بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمّد الطّاهر بن عاشور-حياته وآثاره، مرجع سابق: ص51.

(2) ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص27.

(3) ينظر: صلاح زكي أحمد، أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، مرجع سابق: ص67.

(4) ينظر: محمّد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص24.

(5) ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص75- 91.

(6) ينظر: المصدر نفسه: ج3، ص95 - 105.

(7) ينظر: المصدر نفسه: ج3، ص108- 124.

(8) ينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدّد، مرجع سابق: ص63.

وعندما لاحظ قلّة المدارس، دعا الأغنياء لبناء المزيد منها، ودعا الدّعاة والمرشدين الملمّين بعلوم الشّريعة والفنون الأدبية والأخلاق والخبيرين بالنّفوس وعللها أنْ يكونوا قدوة للنّاس، وأنْ يتوجّهوا إلى إصلاح الجماهير، وإصلاح الخُطب في المساجد حتّى تؤدّي رسالتها وتؤتي ثمارها في إصلاح الأمّة.[1]

وبعدما سبر أغوار التّعليم في البلاد الإسلامية، ركّز في إصلاحه على غرس العقيدة الصّحيحة وتربية النّفوس عليها وتأصيلها بالأدلّة اليقينية، وعلى تهذيبها وتنمية الأخلاق الحسنة فيها وتنقيتها مِنَ الرّذائل، وعلى تربيتها على العمل بالعلم وتدعيم ذلك بالقرآن الكريم وصحيح السنّة والثّابت مِنْ أقوال أهل القرون الأولى، وعلى التّربية بالقدوة الحسنة بتدريس التّلاميذ سيرة النّبيّ ﷺ وسيرة أصحابه والتّابعين وتابعيهم ﷺ والأئمّة مِنْ بعدهم للاقتداء بهم في مختلف جوانب الحياة المعيشة[2]، وفيما يلي اللّوائح الثّلاثة التي كتبها الشّيخ محمّد عبدَه لإصلاح التّربية في بعض الأقطار الإسلامية وهي:

أ)- لائحته لإصلاح التّعليم العثمانـي

كتب الشّيخ محمّد عبدَه هذه اللّائحة في بيروت سنة 1887م، لمّا أمر السّلطانُ شيخَ الإسلام بتكوين لجنة مِنْ أمين الفتوى ورئيس مجلس المعارف لإصلاح البرامج في المدارس الإسلامية لتعليم أولاد المسلمين ضروريّات الإسلام وتربيتهم على الآداب الإسلامية، وعرض أفكاره للحفاظ على الدّين والبلاد لمّا ضعفتْ عقيدة المسلمين وفسدتْ أخلاقهم وصار همّهم الدّنيا وزخارفها، وأخذ الأجانب يتسلّلون إليهم، ويبثّون دعاتهم في أطراف البلاد الإسلامية لتضليلهم عن دينهم، وأنشأوا المدارس، وأخذ المسلمون يبعثون أولادهم إليها ليعلّموهم العلوم وليحصّلوا منها اللّغات الأوروبّيّة، فحبّبوهم فيهم، وأثّروا على عقيدتهم، وجرّأوهم للتّمرّد على دينهم، ولقّنوهم العقائد الفاسدة والأفكار الباطلة.[3]

وفي هذه اللّائحة صوّر لشيخ الإسلام أنّ ضعف المسلمين سببه ضعفهم الدّينيّ والعقديّ، وبيّن له كيف استغلّ الأجانبُ المسلمينَ في ديارهم ونَفَذُوا إلى قلوبهم عن طريق المداس الأجنبية اليسوعية المتوزّعة في أطراف الدّولة العثمانية، وبيّن له ضررها على النّاشئة المسلمة، ثمّ قَيَّمَ عمل المدارس الإسلامية التي وجد التّعليم الدّيني فيها شكليّ وخال مِنَ العقيدة ومحصور بشكل مختصر في العبادات والطّهارة[4]، وراجع كذلك إلى خُلوّ بلاد المسلمين مِنْ معاهد التّعليم الدّينيّ.[5]

دعا الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ خلال هذه اللّائحة إلى ضرورة تفعيل الدّين في التّربية والتّعليم عقيدة وشريعة وأحكاما وأخلاقا، وأظهر شجاعة أدبية لا ارتباك فيها في تقييم وضع التّعليم وتقويمه، وقدّم النّصح والتّوجيه لشيخ الإسلام ومِنْ ثَمَّ إلى سلطان الدّولة العثمانية في بيروت حتّى يتدارك الوضع السّيّء بسبب إغفال الدّولة للتّعليم الدّيني والتّقليل مِنْ شأنه في المدارس وحصره في الطّهارة والعبادات، وتنبيهه إلى خطورة استغلال الأجانب لضعف المسلمين الدّينيّ والعقديّ، والعمل على

---

(1) ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص30-33.

(2) ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص192.

(3) ينظر: محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج2، ص505- 507، وينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص75 -77.

(4) ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر ، المرجع السابق: ص30.

(5) ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص63.

إضعافهم بالتّأثير على عقيدة ناشئتهم، لذلك اقترح عليه تقسيم المتعلّمين إلى طبقات وبيَّن ما يصلح لكلّ طبقة مِنْ مراجع لتعليمها، ثمّ قسّم المتعلّمين إلى أصناف حسب أعمالهم ومعارفهم، واقترح لكلّ طبقة ما يلائمها مِنْ تعليم، ثمّ قدّم اقتراحاته إلى مجلس المعارف، وهذه الطّبقات الاجتماعية هي[1]:

الطّبقة الأولى: التّعليم الدّيني الابتدائي لطبقة العامّة المبتدئين

وتتكوّن مِنْ أهل الصّناعة والتّجارة والزّراعة ومَنْ يتبعهم مِنْ أولاد المسلمين الذين يتعلّمون مبادئ القراءة والكتابة والحساب للاستفادة بها في معاملاتهم وأعمالهم الصّناعية والتّجارية والزّراعية وما يشبهها، وكُتُبُ التّعليم التي تناسب هذه الطّبقة هي: 1- كتاب مختصر في العقائد الإسلامية الخالية مِنْ خلافات الفرق الإسلامية، 2- كتاب مختصر في الحلال والحرام، 3- كتاب مختصر في التّاريخ ويشتمل على سيرته ﷺ وسير أصحابه وتاريخ الخلفاء الرّاشدين، وتاريخ الخلفاء العثمانيّين، على أنْ تكون هذه الكتب باللّغتين؛ باللّغة العربية للعرب وباللّغة التّركية للأتراك.[2]

الطّبقة الثّانية: التّعليم الدّيني المتوسّط للطّبقة المرشّحة للوظائف السّياسية

وهم الذين يدبّرون أمور الرّعيّة في الدّولة مِنْ أبناء المسلمين الذين ينتظمون في المدارس السّلطانية والملكية والشّرعية والعسكرية والطّبّية، كالضّبّاط العسكريّين وأعضاء المحاكم ورؤسائها ومأموري الإدارة على اختلاف رتبهم، فيدرسون زيادة على كتب الطّبقة الأولى كتبا أعلى مستوى منها وهي: 1- كتاب في مقدّمة العلوم يحتوي على فنّ المنطق وأصول النّظر و آداب الجدل، 2- كتاب في العقائد يوضع على قواعد البرهان العقليّ والدّليل القطعيّ مع التزام التّوسّط، 3- كتاب يُفَصِّلُ في الحلال والحرام وأبواب الفضائل والرّذائل وآثارها، 4- كتاب في التّاريخ الإسلاميّ يتناول سيرة الرّسول ﷺ وسيرة أصحابه وسيرة الخلفاء الرّاشدين، وتاريخ الفتوحات الإسلامية بتفصيل شامل ودراسة معمّقة، واستخلاص العبر والعظات المهمّة منها.[3]

الطّبقة الثّالثة: التّعليم الدّينيّ العالي لطبقة المعلّمين والمرشدين

وهم المرشدون والدّعاة والمربّون الذين درسوا الكتب المقرّرة على الطّبقتَيْن السّابقتَيْن، وكشف الامتحان فهمهم لها وتخلّقهم، ثمّ ترَقَّوْا ليكونوا عرفاء الأمّة، وتمّتْ تزكيتهم لمزاولة التّعليم في المدارس العالية والإعدادية والابتدائية، فقرّر عليهم كتبا في مختلف العلوم الضّرورية وهي: 1- فنّ تفسير القرآن الكريم لفهم أسراره وحِكمه وأحكامه، 2- فنون اللّغة العربية مِنْ نحو وصرف ومعان وبيان وتاريخ جاهلي، لفهم القرآن الكريم والسنّة الصّحيحة، 3- فنّ الحديث لتوظيفه في تفسير القرآن وفهمه، 4- فنّ الأخلاق والآداب الدّينية مفصّلة وفق منهج أبي حامد الغزالي في الإحياء، 5- فنّ أصول الفقه للاستدلال على النّصوص الشّرعية بالاعتماد على كتاب الموافقات للشّاطبيّ، 6- فنّ التّاريخ القديم

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص81- 88، وينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص30-33، وينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص63، وينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص192- 195.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، المصدر السابق: ج3، ص81و82.

[3] ينظر: المصدر نفسه: ج3، ص83و84.

والحديث وسيرة الرّسول ﷺ وسيرة الصّحابة والخلفاء الرّاشدين، وتاريخ الدّولة العثمانية، 7- فنّ الإقناع والخطابة وأصول الجدل لتقرير المعاني في الأذهان وتثبيت العقائد في النّفوس، 8- فنّ الكلام والنّظر في العقائد واختلاف المذاهب والبحث في أدلّة المذاهب لتنمية الفكر، ثمّ اقترحَ أنْ تكون هذه الطّبقة تحت إدارة شيخ الإسلام، ويُنتخب لها أذكى الطّلبة وأحسنهم أخلاقا، ويدرّسهم أساتذة أكْفاء، ثمّ تُمنحُ لهم شهادة نجاح بعد امتحانهم في العلوم السّابقة.[1]

وعليه يتبيّن مِنَ الكتب التي قرّرها الشّيخ محمّد عبدَه على الطّبقات الثّلاث، أنّه جعل تدريس الدّين الإسلاميّ وعلومه الرّكيزة الأساس في تربية وتعليم المسلمين، حتّى يفهمون دينهم فهما صحيحا، ويتمثّلون أحكامه عمليّا، كما يمكن اعتبار اللّائحة دراسة ميدانية جادّة قيَّم فيها التّعليم بموضوعية، وهي تدلّ على كفاءته وإحاطته بواقع التّعليم المتدهور، وعلى قدرته على تقديم البرامج للفئات المتعلّمة وما يناسبها مِنْ موضوعات، كما تدلّ على تقديره لخطورة المدارس الأجنبية في محاربة الإسلام، لذلك كتب اللّائحة لحماية عقيدة النّاشئة المسلمة وتربيتهم عليها، وجعلهم قادرين على مقاومة أشكال الغزو الدّيني والثّقافيّ والعسكريّ، والتّصدّي لمخاطره والثّبات أمامه وعدم التّأثر به، فأقرّ العلوم النّافعة على أبناء المسلمين، وراعى أصناف ومستويات المتعلّمين، ودعا إلى ضرورة التّدرج في تربيتهم وتعليمهم، وحسن اختيار المصادر المناسبة لهم، وإلى إلزام المتخصّصين بدراستها قبل تطبيقها، ثمّ تقييمها بعد تجريبها، للتّأكّد مِنْ مدى نجاعتها في تحقيق الإصلاحات التّربوية التي ينشدها.

ب)- لائحته لإصلاح القطر السّـوري

كتب الشّيخ محمّد عبدَه هذه اللّائحة في منفاه ببيروت ورفعها إلى واليها التّركي، وذكر فيها أنّ للدّولة حقوقا ثابتة على المسلمين لا يجوز إغفالها لتقوية أركانها ودَفْعِ كلّ ما يهدّد مصالحها، وأنّ احترام مقام الخلافة مِنْ فرائض الله بعد الإيمان بالله وشرعه والعمل على أصوله ونصرته بالقول والعمل، والخلافة تحفظ الإسلام وتدعم الإيمان، فهذه المبادئ التي يؤمن بها جعلته يرفع للوالي هذه اللّائحة لحمايتها وتقويتها، ثمّ دعاه إلى الاهتمام بالقطر السّوري لموقعه الهامّ في الدّولة العثمانية، وأنّ أهله ليس لديهم ميل للاستقلال عنها بل هم أطوع لسلطة الحاكم، وسكانه ينقسمون إلى سكان جبل لبنان، وسكّان ولايَتَيْ بيروت وسورية، فأهالي جبل لبنان يتكوّنون مِنْ طوائف مختلفة أكثرها عددا وأقواها طائفة الموارنة النّصارى ثمّ الدّروز، وقليل مِنْ أهل السّنّة، وأقلّ منهم الشّيعة، والموارنة تسندهم الحكومة الفرنسية وتمكّن لعقيدتهم وتساعدهم على إنشاء مدارس لتربية أبنائهم على النّصرانية وعلى حبّ فرنسا والعمل في دوائرها، أمّا الدّروز فيوالون الإنجليز الذين يُنشئون لهم المدارس لتربيتهم على العقيدة البروتستانتية، أمّا السّنّة والشّيعة فهم تَبَعٌ للموارنة والدّروز، لذلك أرشد إلى ضرورة إحباط مخطّطات الإنجليز والفرنسيّين بتربية اللّبنانيين على المشرب العثمانيّ الإسلاميّ، وأمّا أهالي بيروت وسورية فأغلب سكّانهم مسلمون سُنَّة، وفيهم الدّروز والشّيعة والنّصيرية والنّصارى، والطّوائف النّصرانية تبني المدارس بمساعدة فرنسا وتُربّي أبناءها على النّصرانية وعلى

[1] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص84- 86.

اللّغة الفرنسية وعلى تقاليد الفرنسيّين، كما تربّيهم على الطّعن في الدّولة العثمانية ودينها، لذلك دعا الدّولة العثمانية إلى إنشاء مدارس توافق هوية أهل البلاد وتولّي عليها رجالا متبصّرين لتربية أبناء المسلمين على أصول الإسلام وتحارب مفاسد المدارس الأجنبية، ودعا إلى إنشاء معاهد لتربية وتعليم أبنائها وفق توجّهاتها مع اختيار مدرّسين أكْفاء صالحين يتولّون ذلك، أمّا أهل السُّنّة المتّفقين مع المذهب الدّيني للدّولة، فقد كانوا جاهلين بدينهم، لذا قامت بعض الجمعيات الخيرية الإسلامية بتربية أبناء المسلمين على العقيدة الإسلامية وتحصينهم مِنَ الأفكار الأوروبّيّة، ثمّ بيّن بأنّهم أحوج إلى التّربية والتّعليم لمقاومة التّنصير والتّغريب، وللتّصدّي لمخططات الاستعمار اقترح بناء مدارس في كلّ الأطوار ووضع قوانين تنظّمها ومناهج توافق هوية وعقيدة الدّولة، واشترط أنْ يكون التّعليم فيها باللّغة العربية، وأنْ يكون قائما على أصول الإسلام وعلى حبّ الدّولة، وأنْ يكون مديروها عارفين باللّغة العربية ومِنْ عشّاق الإسلام والدّولة، وأنْ لا يكون همُّهم الرّاتب الشّهري فحسب.[1]

لقد صوّر الشّيخ محمّد عبدَه في هذه اللّائحة التّركيبة الاجتماعية والدّينية للقطر السّوري، وعقائد الطّوائف التي تعيش فيه وولاءاتها وعلاقاتها مع الاستعمارَيْن الفرنسي والبريطاني، ومستواها الدّيني والعلمي، مقترِحا البدائل لتصحيح عقيدة أهل السّنّة وتقوية ولائهم وحبّهم لدولتهم باعتبارهم عمودها الأساس، ودعا إلى إنشاء مدارس إسلامية لتربية أهل البلاد على هوية بلادهم الدّينية واللّغوية، ووضع لها مقرّرات هادفة ومشرفين مسلمين أكْفاء، لحماية عقيدة أبناء المسلمين مِنَ المدارس الأجنبية التّنصيرية الموالية للأوروبّيّين المعادين للإسلام والمسلمين.

ت)- لائحته إلى اللّورد كرومر لإصلاح التّربية والتّعليم في القاهـرة[2]

بعد انقضاء مدّة نفي الشّيخ محمّد عبدَه التي دامت ستّ سنوات، سُمح له بالدّخول إلى مصر سنة 1888م بوساطة أصحابه الذين أخذوا منه عهدا بعدم الخوض في السّياسة، وعيّنه الخديوي توفيق قاضيا في الرّيف بعيدا عن القاهرة، وأبعده عن التّعليم حتّى لا يبثّ أفكاره التّحرّرية في التّلاميذ، واقترح في مقدّمة لائحته على كرومر العناية بالتّربية الدّينية وأنّ الإصلاح يشمل الحاكم والمحكوم جميعا فقال: "إذا كان النّاس في حاجة إلى صلاح الحاكم فما حاجة الحاكم إلى صلاحهم بأخفّ مِنْ حاجتهم إلى صلاحه، فإنّ السّلطة سلطتان، جيّدة ورديئة، فالجيّدة ما كانت على المحكومين للمحكومين، والرّديئة ما أُخِذَ بها المحكومون لغاية الحاكم وقضاء غرضه الثّابت"[3]، ونبّهه إلى ضرورة التّكامل بينهما لتحقيق الإصلاح، ثمّ عرّفه بطبائع المصريّين الحسنة وبمكانة الدّين المرموقة عندهم فقال: "أَنْفُسُ المصريين أُشْرِبَتِ الانقياد إلى الدّين حتى صار طبعا فيها، فكلّ مَنْ طلب إصلاحها مِنْ غير طريق الدّين فقد بذر بذرا غير صالح للتّربية التي أودعه فيها فلا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه، وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد مِنْ أثر التّربية التي يسمّونها أدبية في عهد محمّد علي إلى اليوم".[4]

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج2، ص522- 532، وينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص95- 105.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج2، ص533- 549، وينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة، ج3، ص109- 124.

[3] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج2، ص533، وينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة، ج3، ص109.

[4] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج2، ص537، وينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة، ج3، ص113.

ثمّ أكّد له بأنّ الطّريق إلى قلوب المصريّين يكون بأخذهم بالتّربية الإسلامية حتّى تصلح أحوالهم، لأنّ التّربية العقدية كفيلة باحترام حكّامهم وطاعتهم التي فقدوها بسبب الجهل وبسبب الحرمان مِنَ التّربية الدّينية، وكلاهما مرجعه إلى فساد العقيدة وغيابها عن المقرّرات الدّراسية، ثمّ ساق محمّد علي باشا كنموذج مصري حاكم يترجم لهذا التّوجّه التّربويّ المخْفق لتجريده التّربية مِنَ العقيدة، ثمّ أوضح للاستعمار البريطاني حقيقة الإسلام الذي لا يعادي النّصرانيّين والمخالفين له، وأنّه يُربّي معتنقيه على مودّة الجميع، وأنّه يشاركهم في تبادل المنافع والمصالح، ويُربّي الرّعية على الانصياع للسّلطان في غير معصيةٍ لله ولا مخالفة للشّريعة الإسلامية، فقال: "إنّ القرآن وهو منبع الدّين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتّى يظنّ المتأمّل أنّه منهم، لا يختلفون عنهم إلّا في بعض أحكام قليلة".[1]

ثمّ بيّن له أنّ إصلاح المدارس الأميرية والأزهر أمر سهل ميسور عن طريق غرس الدّين الإسلامي في المدارس وحمل طلّاب العلم عليها، فقال: "أمّا مصر فلها مدارس أميرية يمكن أنْ يسلك فيها أيُّ مسلك يختار للتّربية، وليس عليها رقيب سوى أهل السّلطة السّياسية لا غير، فلهم أنْ يأخذوا مِنَ الدّين أصوله ويغرسوها في المدارس، ويحملوا نفوس طلاّب العلم عليها".[2]

تبيّن هذه اللّائحة أنّ للشّيخ عبدَه تصوّرا متكاملا عنْ مجتمعه الذي يحتاج إلى التّربية والتّعليم، وأنّه عارف بنفسيته وطبائعه ومواقفه، لهذا وضع له مقرّرات بموضوعية وواقعية لتطبيق نظريّته في الإصلاح التّربوي، ومِنْ خلال لائحته إلى كرومر وجّه رسالة إلى كلّ متصدّر للتّعليم والتّسيير والتّنظير بأنْ يكون عالم نفس وعالم اجتماع، ويتوجّب عليه أنْ يعرف واقع مجتمعه حتّى يستطيع تشخيص الدّاء ووصف الدّواء، وذلك بتربية المصريّين على العقيدة الإسلامية، وطاعة السّلطة، حتّى يصلح حالهم ويعمّهم الأمن والاستقرار، وذكّره بأنّ المصريّين لا يتخلّون عن دينهم ولا يتنازلون عن أرضهم مهما كانت قوّة الاحتلال، وطلب منه السّماح له بإصلاح المدارس الأميرية والأزهر بتدريس الدّين الإسلامي فيهما رغم معرفة الشّيخ محمّد عبدَه بالاستعمار البريطاني الذي يبغض الإسلام ويحاربه، ومع ذلك لم ييأس مِنْ دعوته للإصلاح والتّأكيد له بأنّ الإسلام ركيزة في العملية التّربوية والتّعليمية، لذلك تقرّب منه وحاوره وتعامل معه بسياسة خذ وطالب، وكتب إليه اللّوائح للتّمكين للإسلام في مصر ولتحريرها وتوعية شعبها وتنويره بالتّربية والتّعليم، فهما المجال الحيويّ لإصلاحه وإحيائه والنّهوض به.

ولكن ما قدّمه الشّيخ محمّد عبدَه إلى كرومر في هذه اللّائحة مِنِ استشارات في السّياسة والقانون والقضاء والمحاكم الشّرعية، وما صدر منه مِنْ مواقف متعاونة مع الاستعمار البريطاني، اعتبرها غازي التّوبة وأمثاله عمالة للإنجليز، واعتبرها في المقابل محمّد رشيد رضا وأمثاله مداراة لهم واتّقاء لشرّهم حتّى لا يخرجوه مِنْ مصر، فهذا الأخير يرى بأنّه لولا تلك المداراة لما أمكنه البقاء في مصر ولما سُمِحَ له القيام بالإصلاح التّربويّ، فإذا لم يخرجه الإنجليز منها فسيخرجه الخديوي حتما.[3]

---

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج2، ص538، وينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص113.

[2] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج2، ص538، وينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص114.

[3] ينظر: غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص57و58.

2- إصلاح اللغة العربيــة

لا يَقِلّ إصلاح اللّغة العربية شأنا عن إصلاح غيرها، فبها تَعرِف الأمّة حقوقها وواجباتها، وبها يتحرّر فكرُها مِنْ ذلّ الجهل ووطْئها مِنْ خزي الخضوع للمستعمر، لذلك أولاه الشّيخ محمّد عبدَه أهمّية بالغة في طرائق توظيف اللّغة وأساليب استعمالها، خصوصا لمّا شاع الابتذال في سوء توظيفها، ولِمَا يُكَادُ لها مِنَ الاستعمار لتهميشها ومحاولة إحلال اللّغات الأجنبية محلّها وإحياء اللّهجات العامّية المحلّية وجعلها ضرّة لها، فسعى لإصلاح التّعليم بإصلاح اللّغة العربية لمّا تولّى إدارة المطبوعات ورئاسته لتحرير جريدة الوقائع المصرية، وكذلك عندما كان يدرّس في دار العلوم وفي الجامع الأزهر، لأنّه يرى بأنّ اللّغة العربية هي عمدة علوم الشّريعة وآلتها وإحدى ركائز هويّة مصر والأمّة الإسلامية.

وكان يرى ضرورة إصلاح فنون اللّغة العربية وآدابها وإتقان الكتابة والخطابة بها التي كان يتقنها جميعا، فدعا إلى ذلك لِمَا عاينه في الأمم الأوروبّيّة التي زارها ووقف على إصلاحاتها فيها، فالفرنسيّون أَلَّفُوا المعاجم اللّغوية وأَلَّفوا في تاريخ تطوّر اللّغة والمعاجم العلمية وفلسفة البيان والانتقاد، وأكّد بأنّ المسلمين لن يبلغوا ما بلغه الفرنسيّون مِنْ إصلاح لغويّ إلّا إذا اشتغلوا فيه لمدّة خمسين سنة.[1]

ولمّا رأى جِناية الجمود على اللّغة العربية وأساليبها وآدابها، وبلغ ضرره حدّا صار فيه القارئ إذا تكلّم بلغة قومه لا يُفهَم قوله، وصار القائل عاجزا عن إيصال معاني كلامه إلى العقول[2]، حمل لواء إصلاح اللّغة العربية وإصلاح أساليبها في الكتابة والتّحرير سواء في المؤسّسات الرّسمية أو مِنْ خلال ما يكتب وينشر في الجرائد، فقال: "وارتفع صوتي بالدّعوة إلى إصلاح أساليب اللّغة العربية في التّحرير".[3]

ثمّ نهض بالإصلاح اللّغوي والأدبيّ مِنْ خلال مقالاته الكثيرة في جريدة الوقائع المصرية، فارتقى بأسلوبها ومضامينها وتخلّص مِنَ الرّكاكة والمحسّنات الشّكلية التي كانت سائدة في الصّحف وفي المؤلّفات المدرسية والتّراجم وفي المخاطبات الرّسمية في دواوين الحكومة، وبيّن عدم جودتها، وتكلّم عن اللّغة فقال: "أمّا ما هو مِنْ ناحية ألفاظها وأساليبها فذلك ممّا يُحمد في قليلٍ منها، ولكنّه يسوء أهل الذّوق ويخيف أهل الغيرة على اللّغة في الكثير الأغلب، فإنّك ترى أولئك العجزة الضّعفاء يخترعون ألفاظا مِنْ عند أنفسهم، يستعملونها فيما يشاؤون مِنَ المعاني، ويهشِّمُون بها اللّغة تهشيما، فلا يبالون بما يقدّمون أو يؤخّرون، لا يرجعون في ذلك إلى معجم ولا يجرون على قاعدة، فيزيدون اللّغة ضُعفا على ضعفها، ويصكُّون وجه الفصاحة، ويصفعون قَفَا البلاغة".[4]

ولمّا اختلطت العامّية باللّغة العربية، وطغت المحسّنات البديعية على أساليب الصّحافة والمؤلّفات والمعاملات الحكومية، وحاول الاحتلال البريطاني القضاء على اللّغة العربية واتّهمها بالتّخلف، وروّج للعامّية وزعم بأنّها مصدر الرّقي، وسعى لجَعْلِ اللّغة الإنجليزية لغة التّعليم الرّسمية، أحسّ الشّيخ محمّد عبدَه بالخطر على اللّغة العربية، وتصدّى لتلك الحملات المغرضة عليها، وأخذ

---

(1) ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص926.

(2) ينظر: محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، مصدر سابق: ص121.

(3) محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السابق: ج1، ص11.

(4) محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج1، ص191و192، و ج3، ص130.

يصحّح الأفكار المغلوطة الرّائجة عنها، وعمل على إصلاح اللّغة العربية وتطويرها لدورها الأساسيّ في فهم الإسلام، ودعا المؤسّسات التّربوية والدّينية لإصلاح اللّغة لتحقيق الإصلاح الدّينيّ، مبيّنا بأنّ إصلاح اللّغة وسيلة لإصلاح العقيدة، وأنّ جهل المسلمين بلغتهم هو الذي يَحُول دون فهم كتبهم الدّينية وأقوال أسلافهم، لذلك نادى بتخليص أساليب اللّغة العربية مِنْ تلك العيوب والعودة إلى أساليبها الأصيلة مع تطويعها لظروف العصر، وقد أسهم في تطوير أسلوب المقالة الصّحفية وجدّد أساليب التّأليف عندما تولّى إدارة المطبوعات وتحرير الصّحف المصرية، ودعا إلى تطوير دار العلوم للنّهوض باللّغة العربية، لهذا اشترك في إنشاء مجمع علمي عرف بمجمع عليكرة سنة 1893م وكان نائبا لرئيسه، واشترك في وضع عدد مِنَ الكلمات العربية الفصحى، كما كوّن سنة 1900م جمعية إحياء العلوم العربية لإحياء اللّغة العربية وإصلاحها وتحقيق كتب التّراث القديمة القيّمة.[1]

ومِنْ أهمّ كُتب التّراث التي قام بتحقيقها وتصحيحها وشرحها؛ كتاب المخصّص لابن سيّده مع محمّد أحمد الشّنقيطي في اللّغة، وكتابَيْ أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز للجرجاني في البلاغة، وكتاب مقامات بديع الزّمان الهمذاني في الأدب، وكتاب البصائر النّصيرية للطوسي في المنطق، وكتاب المدوّنة للإمام مالك في الفقه، وفي الكتب الجامعة شرح نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب ﷺ.[2]

لقد كانت نظرة الشّيخ محمّد عبدَه للّغة العربية نظرة رسالية ووظيفية، فهو يرى بأنّ إصلاح اللّغة وسيلة لإصلاح الدّين الذي به صلاح الفرد والمجتمع والأمّة، لذا عمد إلى إصلاح تراث الأمّة بتحقيق كتبها وشرحها، وإصلاح المطبوعات القديمة والحديثة، ليربط الأمّة بماضيها الزّاهر ويجعلها تعيش واقعها وتواكب مستجدّات عصرها، حتّى تحقّق نهضة شاملة، وتَلْحَقَ بركب الأمم الأوروبّيّة المتقدّمة وتتفوّق عليها، وفيما يلي كلامٌ عن إصلاح كُتُبِ اللّغة العربية ومختلف المطبوعات:

أ)- كتب اللّغة العربيـة

كان الشّيخ محمّد عبدَه كثير التبرّم مِنْ ضعف أساليب ولغة كتب اللّغة العربية التي كانت مقرّرة على طلبة الأزهر والمدارس وجميع مؤسّسات التّربية المصرية، فكان يفضّل كتب المتقدّمين على كتب المتأخّرين، لذلك عمل على بعث كتب المتقدّمين التي رآها مراجع مهمّة في ترقية البيان وتصحيحه وتكوين مَلَكَةٍ لغويةٍ، فقرَّر كتابَيْ أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانيّ بعدما حقّقهما وشرحهما لأنّهما يمثّلان الدّراسات الأدبية النّقدية التي تربّي مَلَكَة الذّوق الفصيح لطلّاب الأزهر وغيره[3]، واستطاع بذلك أنْ يُحدث نهضة لغوية وأدبية أثّرت في طلبة العلم وفي الأدباء والكُتَّاب، كما عهد إلى سيد المرصفي في الأزهر تدريسَ كتاب الكامل للمبرّد ، وكتاب ديوان الحماسة لأبي تمّام.[4]

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص121و122.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج1، 199.

[3] ينظر: عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق: ج1، ص30.

[4] ينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدّد، مرجع سابق: ص255.

ب)- المطبوعات والمكتبـات

اهتم الشّيخ محمّد عبدَه بالمطبوعات والمكتبات لفاعليتها في التّربية والتّعليم والتّثقيف وتنمية فكر الأمّة خصوصا عند النّخبة، فنبّه إلى أنّ المؤلّفات لابدّ أنْ تكون سَلِسَةَ الأسلوب واضحةَ المعاني، بعيدةً عن الزّخارف اللّغوية والسّجع المتكلَّف، حتّى يُمكِن تحقيق إصلاح تربويّ شامل، وإيجاد طبقة مثقّفة بصيرة بخصائص اللّغة والأدب اللَّذَيْن أصبحا مِنْ أمارات قوّة الأمّة وحضارتها، ثمّ إنّ مِنْ دواعي توجّهه لإصلاح المطبوعات والكتب هو تأثيرها على عقول النّاس واهتماماتهم، فقد وجد المصريّين كثيري الإقبال على الكتب المليئة بالأكاذيب والتّنجيم، ولمّا وقف على آثارها المتسبّبة في انتشار الخرافة والجهل دعا إلى تطهير المكتبات منها وتنبيه النّاس إلى خطورتها وإلى اتّخاذ قرارات صارمة بعدم التّرخيص بطباعتها ومعاقبة المخالفين لذلك، وأكّد على ضرورة نشر الحكومة للكتب المفيدة والتّشجيع على تأليف الكتب العلمية حتّى تسهم في التّربية والتّوعية والتّفكير[1]، وقد عبّر عن استجابة الحكومة إلى مطلبه بقوله: "وَجَّهَتِ الحكومة عنايتها إلى تطهير البلاد مِنْ هذه الأمراض المعدية السّريعة الانتقال، فصدرتْ أوامر النّظارة الدّاخلية الجليلة بالحَجْرِ على طبع الكتب المضرّة بالعقول المخلّة بالآداب".[2]

إنّ الاهتمام بتربية الأمّة وإصلاح وساط التّربية والتّحكّم في المطبوعات مِنْ شأنه أنْ يحفظ على النّاس عقولهم، ويوفّر عليهم أموالهم فلا يصرفوها في الخرافات والأوهام، وأمّا إهمالها فيجعل البلد مليئا بالشّعوذة والسّحر والخرافة والبدع، ويهدّد كيانه الدّيني والتّربويّ والعلميّ والفكريّ والثّقافيّ، ويجعله محلّ سخرية واستهزاء بين الأمم، ويجعله متخلّفا عن ركب الأمم المتحضّرة، وسبيل التّصدّي لتلك الظّواهر يكون بنشر العلم والمعرفة ووسائلهما، وإعداد المتعلّمين دينيّا وتربويّا وعلميّا وسياسيّا، وإمدادهم بالمطبوعات والمقرّرات الدّراسية والثّقافية والإعلامية، وتطبيق أحكام الدّين الإسلامي لمحاربة الخرافات والأوهام والمعتقدات البالية، حتّى يستطيعوا تحمّل مسؤولياتهم وخدمة بلدهم.

وقد أبرز الشّيخ محمّد عبدَه قيمة المكتبات في تثقيف الشّعوب وتهذيبها، وأكّد أنّ الاهتمام بها يدلّ على مدى تقدّم الدّول ورقيّها وارتفاع وعيها الثّقافي، لهذا أشار إلى أنّ النّهضة التّعليمية والعلمية في الدّول الإسلامية في عصورها الذّهبية في تاريخها العريق قامت على إنشاء المكتبات، فالقاهرة في أوائل القرن الرّابع الهجري كانت فيها مكتبة تحتوي على مائة ألف مجلّد، فنعى على ضعف الوعي المكتبي للمسلمين بإضاعتهم للكتب وإهمالهم لحفظها، فضاعتْ الكتب النّفيسة منها وانقلبتْ الموازين وصارتْ خزائن أوروبّا ممتلئة بالكتب النّادرة والمؤلّفات المفيدة، أمّا بلاد المسلمين صار لا يوجد فيها إلّا ما تركه الأوروبّيّون مِنْ نفائس الكتب التّاريخية والأدبية والعلمية[3]، لذلك أَعطى أهمية كبرى للكتب والمطبوعات والمكتبات، وبذل جهودا كبيرة للاهتمام بها وتسهيل الانتفاع بها، واختار رواق الإبتغاوية في

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص76.

[2] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج2، ص152.

[3] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، المرجع السابق: ص78.

الأزهر، وكتب لديوان الأوقاف لإصلاحه وإنشاء ما يلزم له مِنْ خزائن لتوضع فيها الكتب، فجُمعت الكتب المبعثرة والممزّقة في الأروقة، وصُنِّفَتْ إلى فنون ورُقِّمتْ وأعدّتْ لها فهارس لتيسير مطالعتها.[1]

لقد كان الشّيخ محمّد عبدَه كثير الاهتمام بالعلم والمعرفة ووسائطهما، وبالمكتبات والكتب والمطبوعات المختلفة مِنْ جرائد ومجلّات، مشيدا بعناية أسلافنا بالتّآليف المفيدة، داعيا إلى التّأسّي بمكتبات التّاريخية للقاهرة وبغداد، وبما شاهده مِنِ اهتمام الأوروبّيّين بالكتب والمطبوعات والمكتبات في حاضرهم الْمُشْرِق، متأسّفا على ما آلتْ إليه دول العالم العربيّ والإسلاميّ مِنِ انتكاسة علمية ومعرفية في هذا المجال في مصر وفي غيرها مِنْ حواضر المسلمين مقارنة بالأمم الأوروبّيّة المتقدّمة.

الفرع الثّاني: الصّحافــة

بدأ الشّيخ محمّد عبدَه الكتابة الصّحفية مبكّرا، وعمل على إبراز دور الصّحافة في الإصلاح، وجعلها منبرا لعرض أفكاره لتربية الأمّة وتوعيتها، بدءً بمعالجة قضايا التّعليم ومحاربة الجهل ومناصرة الأدب والأخلاق، ومناهضة التّقليد والجمود، والدّعوة إلى العمل ودعم الحقّ والعدل ونبذ الأفكار الخرافية المتفشّية في الأمّة، ودراسة مشكلات المجتمع وتشخيص أسبابها ووصف العلاج النّاجع لها.[2]

واستطاع أنْ يُبلِّغ بها أفكاره، ويصل إلى مختلف فئات المجتمع وطوائفه، ويُضمّنها إنتاجه التّربويّ والفكريّ، فهي أوسع مجالا مِنَ الكتب في التّعبير عن الرّأي العامّ وعن قضاياه، كما تُمثّل وثائق وسِجِلاتٍ للأحداث ومرجعا يَعتمد عليها المؤرّخون في سرد الحقائق وتحليلها وعرض نتائجها[3]، كما أحسنَ توظيفها في محاربة الفساد، وتنبيه الوعي القومي المصريّ وإيقاظه مِنْ سباته.[4]

ولمّا ظهرت الصّحافة أدرك الشّيخ محمّد عبدَه دورها الهامّ في إيصال أفكاره الإصلاحية وبثّ الوعي بين النّاس، وشرع يكتب في الجرائد كالأهرام والوقائع المصرية والعروة الوثقى ومجلّة المنار.

وفي هذا الفرع سيتمّ التّركيز على الصّحف التي كتب فيها الشّيخ محمّد عبدَه وعرض مِنْ خلالها أفكاره التّربوية وغيرها، جاعلا مِنَ الصّحافة وسيلة فاعلة لنشرها على أوسع نطاق في مصر وفي العالم العربيّ والإسلاميّ مِنْ خلال الجرائد والمجلّات التي كانت تحظى بمقروئية كبيرة حينها؛ كجريدة الأهرام والوقائع المصرية والعروة الوثقى ومجلّة المنار، ليتمّ التّطرّق في آخر هذا الفرع إلى أهمّ الأفكار التي عرضها في جريدة الوقائع المصرية في مختلف المجالات كنموذج لكتاباته التي جعلها وسيلته في التّربية والإصلاح التّربوي لإحداث التّغيير والنّهوض بالمجتمع المصريّ وبالأمّة العربية والإسلامية جمعاء.

أوّلا: جريدة العروة الوثقـى

صاحب فكرة إنشاء جريدة العروة الوثقى الأسبوعية هو جمال الدّين الأفغانيّ، الذي بعث سنة 1883م برسالة إلى الشّيخ محمّد عبدَه المنفيّ في بيروت يطلب منه القدوم إلى فرنسا، وقد اتّفقا على أنْ يكون الأفغانيّ مدير سياستها، ومحمّد عبدَه رئيس تحريرها، أصدرا عددها الأوّل مِنْ غرفة

---

[1] ينظر: محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج1، مصدر سابق: ص452و453.

[2] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص74.

[3] ينظر: المرجع نفسه: ص10.

[4] ينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدّد، مرجع سابق: ص247.

متواضعة مِنْ على سطح أحد المنازل في شارع مارتل بباريس يوم الخميس 13مارس 1884م، وصدر آخر أعدادها في 18 أكتوبر 1884م، جاء في صفحتها الأولى: "العروة الوثقى لا انفصام لها، جريدة سياسية أدبية تصدر يوم الخميس، المحرّر الأوّل الشّيخ محمّد عبدَه، مدير السّياسة جمال الدّين الحسينيّ الأفغانيّ، تستقبل الجريدة التّحارير أو الرّسائل في أيّ موضوع إلى إدارة الجريدة بهذا العنوان:(6 Rue Hartel, a Paris)، تُطبع في حجم المجلّات الشّهرية مقاس:(25×20سم)"، تعدُّ مِنْ أُولَى وأهمّ منشورات الحركة المتعلّقة بالنّهضة الإصلاحية، كانت منبرا مقاوما للاستعمار، وداعية إلى وحدة الأمّة الإسلامية، حَظَرَتْهَا بريطانية المستعمِرة في مصر والهند، وقد لخَّص الشّيخ محمّد عبدَه أهمّ أهدافها في صون استقلال الشّعوب الشّرقية مِنْ عدوان الدّول الغربية، وإقلاق الحكومة الإنجليزية حتّى تكفَّ عن إزعاج المسلمين، والدّعوة إلى الاتّحاد والتّضامن، والأخذ بأسباب النّهضة، وتحرير مصر والسّودان مِنَ الاستعمار البريطاني، أُوقِفَتْ بعد صدور العدد 18 منها، وهي مِنْ أعظم جرائد الشّرق وأهمّها.[1]

تعتبر الجريدة النّاطق الرّسمي لجمعية العروة الوثقى وهي التي تعبّر عن أهدافها وتنشر آراءها، والكلمة المكتوبة فيها هي محور نضالها وجهادها ضدّ الاستعمار العالمي وعملائه الذين اصطنعهم في ديار العرب والمسلمين وضدّ الأفكار والتوجّهات الخاطئة، فأنشآها واختارا لها لسان اللّغة العربية، كما اختارا لها مدينة باريس المعروفة بالحرّية لتصدر منها، حتّى تتمكّن الجمعية بواسطتها مِنْ بثّ آرائها وتوصيلها إلى الأقطار القاصية، ولتكون وسيلة الدّعوة والتّثقيف والتّنظيم لخاصّة النّاس وعامّتهم[2]، وبالنّسبة لأفكارها وكلماتها المحرّرة، فقد ذكر شكيب أرسلان أنّه سمع محمّد عبدَه يقول: "إنّ الأفكار في العروة الوثقى كلّها للسيّد ليس لي منها فكرة واحدة، والعبارة كلّها لي وليس له منها كلمة واحدة".[3]

وقد كانت الجريدة مثالا بارزا لما تقوم به الصّحافة في مشروع التّحرّر مِنْ تبليغٍ للإصلاح وتعميقه، فعلى الرّغم مِنْ قصر عمرها -ثمانية أشهر مِنْ مارس 1884م إلى أكتوبر 1884م- وقلّة ما صدر منها مِنْ أعداد -ثمانية عشر عددا-، فقد أحدثتْ دويّا هائلا في أرجاء العالم الإسلامي، بهدف إيقاظ الأمّة مِنْ سُباتها الطّويل وتنبيهها مِنْ غفلتها وتحريضها على تجسيد فكرة الجامعة الإسلامية.[4]

لذلك احتلّت الجريدة مكانة عظيمة في نفوس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، بإيقاظهم وتنبيههم والتّأثير فيهم، وإزعاجها للاستعمار[5] الذي كانت له مطامع كبيرة لبسط نفوذه على بلدان العالم العربيّ والإسلاميّ باستعمارها وإخضاعها لسلطانه ونهب خيراتها والتّرويج لأفكاره ومعتقداته.

نشرت الجريدة في عددها الأوّل مقالا بعنوان: الجريدة ومنهجها، ذكرت فيه أنّ مِنْ مهامّها الفكرية والسّياسية الدّفاع عن حقوق الشّرق والشّرقيّين عموما وعن حقوق المسلمين خصوصا، والسّعي لتحرير كلّ أقطار الشّرق بمختلف مذاهبه وشرائعه ودياناته، وخَصَّتِ المسلمين بالذّكر لِتَعَرُّضِ أغلب بلدانهم لهجمة الغزو الاستعماريّ، فقالت: "وقد نخصّ المسلمين بالخطاب لأنّهم العنصر الغالب

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، الوعي بالتّاريخ وصناعة التّاريخ، مرجع سابق: ص270و271.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص268و269.

[3] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص226.

[4] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص152.

[5] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص24.

في الأقطار التي غدر بها الأجنبيّون وأذلّوا أهلها أجمعين واستأثروا بجميع خيراتها"[1]، ووصف محمّد رشيد رضا مقالات شيخه فيها بأنّها آيات بيّنات لا يكاد يوجد في كلام البشر ما يدانيها في البلاغة والتّأثير حتّى تَوَقَّعَ علماء المسلمين وعقلاؤهم أنْ تُحدِث الجريدة انقلابا في المسلمين، ونَقَلَ بواسطة ثقة عن سلمان الكيلاني -أحد زعماء المسلمين في بغداد- أنّه قال: "كلّما قرأ عددا مِنْ جريدة العروة الوثقى يُوشك أنْ يَحْدُثَ انقلاب في بعض بلاد الإسلام قبل أنْ يصدر العدد الذي بعد هذا"[2]، وبلغ مِنْ شهرة مقالاتها، أنْ بلغت القاصي والدّاني حتّى قال عنها محمّد رشيد رضا في مؤَلَّفِه تاريخ الأستاذ الإمام بأنّ الجزء الثّالث منه اشتمل على: "مقالات العروة الوثقى وهي أشهر مِنْ نارٍ على علم".[3]

نقل محمّد رشيد رضا مقالات الجريدة إلى مجلّة المنار وإلى تاريخه لدورها في بثّ الوعي وتنوير الفكر وتعليم النّاس أمور دينهم ودنياهم، ولحثّها على مقاومة الحكّام المستبدّين الذين كرّسوا الجهل والفساد، ولتعبئتها على جهاد أعداء الأمّة الذين يتربّصون بها لاحتلالها واستعباد أبنائها ونهب خيراتها.

كان الشّيخ محمّد عبدَه يهدف مِنْ تأسيس الجريدة إلى الإصلاح، فطرق باب السّياسة حتّى استقرّ رأيه على أنّ إصلاحَ الأمّة وصلاحُها لا يكون إلّا بالدّين، بحكم أنّ الأمّة الإسلامية تكوّنت بالدّين، وبه سادت وعزّت، وعندما أعرضتْ عنه ضعفتْ وذلّتْ، وبه يرجع إليها مجدها، فأنشأها لدعوة المسلمين إلى الوحدة، وجعلِ القرآن الكريم إمامها الأعظم، وأرشدها إلى إماتة البدع وإحياء السّنن، وحضَّ السُنَّة والشِّيعة على الاتّحاد، وألّا يجعلوا الخلاف الفرعيّ في الدّين يُفرّقهم ويقضي عليهم، وذكر محمّد رشيد رضا أنّه سمع حسين أفندي الجسر صاحب جريدة ثمرات الفنون يقول: "لو طال الأمد على جريدة العروة الوثقى لحدث في العالم الإسلامي انقلاب مهمّ، ولهّب المسلمون مِنْ رُقادهم، ونشطوا لاسترجاع مجد آبائهم وأجدادهم"، وقد بلغ اهتمام نبهاء المسلمين بها أنّهم كانوا يحفظونها عن ظهر قلب، وكان محمّد رشيد رضا يعتبرها قبس مِنْ نور القرآن، وأنّها ستحقّق للأمّة الإسلامية وحدتها وقوّتها وحرّيتها، لذلك عرقلها الاستعمار البريطاني والحكومة المصرية وتصدَّوْا لأهدافها ومنعوها مِنْ دخول مصر[4]، وضيّق عليها الاستعمار البريطاني ومنع وصولها إلى القرّاء في الهند ومصر وبقيّة بلدان العالم العربيّ والإسلاميّ، حتّى تمّ توقيفها سنة 1884م بعد صدور ثمانية عشر عددا منها.[5]

لقد صادفت الجريدة عراقيل كثيرة منها، فرض الرّقابة على أجهزة البريد كي لا تحملها إلى القرّاء، وإحاطتها بالجواسيس لملاحقة كلّ الذين يُشتبه في حيازتهم لها وتوصيلها إلى الأقطار فهدّدوهم، كما أصدرتِ الحكومة المصرية قانونا يعاقب كلّ مَنْ يحوز الجريدة بدفع غرامة مالية تصل إلى خمسة وعشرين جنيها، أمّا في الهند فالذي يحوزها يُعاقَب بالسّجن سنتَيْن وغرامة مالية تقدّر بمائة جنيه.[6]

---

[1] محمّد عمارة، الوعي بالتّاريخ وصناعة التّاريخ، مرجع سابق: ص273.

[2] محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج8، ص453.

[3] المصدر نفسه: مج10، ص382،

[4] ينظر: المصدر نفسه: مج2، ص337.

[5] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص233.

[6] ينظر: محمّد عمارة، الوعي بالتّاريخ وصناعة التّاريخ، المرجع السابق: ص279.

ثانيا: مجلّة المنـــار

بعد شهر مِنْ نزول محمّد رشيد رضا بمصر وإقامته بالقاهرة سنة 1898م، قابل الشّيخ محمّد عبدَه وفاتحه بأنّه ينوي إصدار صحيفة تهدف إلى التّربية والتّعليم، ونشرِ الأفكار الصّحيحة، ومحاربة الجهل والتّخلّف والبدع والخرافات، فوافقه على ذلك وعلى تسميتها باسم المنار وسارع إلى إنشائها.[1]

والمنار مجلّة أسبوعية صدر العدد الأوّل منها في 15 مارس 1898م، مِنْ أهدافها إصلاح الأمّة دينيّا واجتماعيّا، وإبطال الشّبهات المثارة حول الإسلام، وتفنيد الخرافات المنسوبة إليه، وتربية النّاشئة مِنَ الجنسين، وإصلاح كتب التّعليم وطريقة تأليفها، ودفع الأمّة إلى مجاراة الأمم المتقدّمة في مختلف المجالات، وقد حرص محمّد رشيد رضا على نشر ما يكتبه الشّيخ محمّد عبدَه فيها، وبعد عام مِنْ صدورها صارت تصدر مرّتين في الشّهر، وبعد سنوات صارت تصدر في كل شهر مرّة، وكانت تُطبع في البداية في مطبعة المؤيّد ثمّ اشترى محمّد رشيد رضا مطبعة خاصّة بها، وكانت موضوعاتها تُستَهلُّ بتفسير الشّيخ محمّد عبدَه للقرآن الكريم، ثمّ فتاوى المنار، ثمّ تأتي بعض المقالات الدّينية أو الاجتماعية أو التّاريخية، وبعض الخطب لمحمّد رشيد رضا وغيره مِنْ كبار الخطباء، ومِنَ الأبواب الثّابتة فيها؛ باب المراسلة والمناظرة، وباب آثار علمية وأدبية، وباب الأخبار والآراء، وباب تراجم الأعيان، بالإضافة إلى نشرها لمقالات في الطّبّ والصّحّة، كما أفرَدَتْ مساحات للأدب والشّعر والقصّة والأبحاث اللّغوية التي كان يَكتب فيها بعض العلماء والأدباء والشّعراء أمثال: مصطفى صادق الرّافعي، ومصطفى لطفي المنفلوطي، وحافظ إبراهيم، وعبد القادر المغربي، وشكيب أرسلان، ومحمّد الخَضِرْ حسين وغيرهم، وقد كانت موضوعات مقالاتها منصبّة على التّربية والتّعليم والإصلاح التي لا يكاد يخلو عدد منها، بالإضافة إلى وقوفها إلى جانب حركة تحرير المرأة في نطاق الشّريعة الإسلامية، ومحاربتها الدّعوة إلى العامّية، ومهاجمتها للعادات الغربيّة، كما نادتْ إلى مسايرة أوروبّا في العلوم الحديثة والصّناعات والاختراعات، لذلك لقيت انتشارا وإقبالا كبيرَيْنِ، وكَثُر المشتركون فيها وامتدَّ تأثيرها إلى الكثير مِنَ الأقطار العربية والإسلامية، حتّى ذكر عنها المستشرق هاملتون جِبْ في كتاب: وِجْهَةُ الإسلام، أنّه لم يُشرِق منار الإسلام على المصريّين وحدهم، ولكنّه أشرق على العرب والمسلمين، وقد صادفتها أزمات مادّية وصعوبات كثيرة، وهجوما مِنْ أعدائها الذين ضاقوا بفكرها الإصلاحيّ ودعوتها التّحرّرية الواعية فعرقلوها لشهرين، وبعد وفاة محمّد رشيد رضا سنة 1935م توقّفت سبعة أشهر، ثمّ أُسندت رئاسة تحريرها إلى بهجت البيطار، ثمّ توقّفت قرابة ثلاث سنوات، ليُسند إصدارها إلى الشّيخ حسن البنّا الذي أصدر عددها الأوّل في جويلية 1939م، لكنّها توقّفتْ سنة 1940م بعد صدور ستّة أعداد منها على مدى أربعة عشر شهرا لانشغاله بالدّعوة التي حالتْ دون استمرارها[2]، ومع ذلك استطاعتْ أنْ تَنقل فكر الشّيخ محمّد عبدَه لأربعين عاما إلى كلّ أنحاء العالم الإسلامي.[3]

---

[1] ينظر: بلقاسم الغالي، من أعلام الزيتونة- شيخ الجامع الأعظم، محمّد الطّاهر بن عاشور، مرجع سابق: ص26.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج1، ص1- 8، وينظر: محمّد بن رمضان رمضاني، آراء محمّد رشيد رضا في قضايا السنّة النّبوية من خلال مجلّة المنار، مرجع سابق: ص57-61.

[3] يرجع إلى محاضرة محمّد عمارة على اليوتيوب بعنوان: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، من تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بمركز الدّراسات المعرفية في مصر، ألقاها في: 15 فيفري 2017م.

ثالثا: جريدة الأهـــرام

جريدة مصرية أنشأها الأَخَوَان اللّبنانيان بشارة وسليم، صدر عددها الأوّل بالإسكندرية في أوت 1876م، بدأتْ بأربع صفحات أسبوعيّا، ثمّ طوّروها بعد شهرَيْن إلى جريدة يومية، كانت توزّع في مصر والشّام، ومازالتْ تصدر إلى اليوم، وتوزّع في الكثير مِنْ دول العالم بالنّسختَيْن الورقية والإلكترونية، تَولَّى رئاسة تحريرها منذ تأسيسها نخبة مِنَ الأدباء والصّحفيّين أمثال: نجيب محفوظ، وطه حسين، وسلامة موسى، ويوسف إدريس، وإحسان عبد القدّوس، ومحمّد حسنين هيكل، وأنيس منصور.[1]

لمّا كان الشّيخ محمّد عبدَه طالبا في الأزهر كتب فيها تقريظا لها في عامها الأوّل، أشاد فيه بمحرّرها وبِخَطِّها العامّ الخادم للمبادئ الأصيلة والقيم النّبيلة الخادمة لمصر، بكلام بليغ غنيّ بالصّنعة اللّفظية، مليء بالمعاني الرّاقية، جاء فيه: "فأنشأ لنا -سليم أفندي- جريدة الأهرام، المؤسَّسَة على أحْكَمِ قواعد الأحكام، الكافلة بإرشاد المسترشدين، وتنبيه الغافلين، بما فيها مِنَ المباني الرّقيقة، والمعاني الدّقيقة، والأفكار العالية المؤيّدة بالبراهين الشّافية، القائمة بنشر العلوم بين العموم، فيا لها مِنْ جريدة أُسِّسَت قواعدها في القلوب، وامتدّت مبانيها لكشف الغيوب، تُنادي بمقالها وحالها حيّ على الفلاح، وهلمّوا إلى موارد النّجاح...فبخٍ بخٍ بمنشيها، وطوبى لقاريها".[2]

كانت الأهرام مِنْ أوّل الجرائد التي نشر فيها الشّيخ محمّد عبدَه مقالاته في السّنة الأولى مِنْ صدورها، حيث كتب فيها فصولا اشتملتْ على أصول الدّعوة الإصلاحية التي صرف حياته في سبيلها، والتي استرعت انتباه النّاس إلى محمّد عبدَه الفتى العاقل الجريء النّاهض نهضة المصلحين الكبار.[3]

لقد نشرتْ الجريدة مقالات متتالية للشّيخ محمّد عبدَه، ففي أوّل مقال له فيها كتب تقريظا للجريدة، أشفعه بمقال: الكتابة والقلم، بيّن فيه حاجة النّاس إلى الصّحافة ومنافعها الاجتماعية بإرشادها الشّعوب إلى عوامل انحطاطها ورقيّها والأخطار التي تهدّد عقيدتها، مبيّنا ما يفسد الإيمان مِنْ خرافة وجهل وفقر وكسل، وحثّ على الاشتغال بالصّنائع والسّعي لتحقيق العيشة الهنيّة، بالإضافة إلى خوضه في شؤون السّياسة ببيان الاختلاف بين أنظمة الدّول وما في أعمالها مِنْ خير أو شرّ، وما يصدر مِنْ حكّامها مِنْ عدل أو جور، وأرشدهم إلى حقوقهم وواجباتهم لتنبيه الغافلين وتقوية المستضعفين، وفي مقال: المدبّر الإنساني والمدبّر العقلي الرّوحاني، حثَّ المصريّين والمسلمين والشّعوب المستعمرة إلى التّآخي والتّعاون والذّود عن أوطانهم والتّضحية في سبيل تحريرها مِنَ الاستعمار، وبذل الغالي والنّفيس لإحياء الإنسان وتحرير الأرض، وفي مقاله: العلوم الكلامية والدّعوة إلى العلوم العصرية، دعا إلى الأخذ بالعلوم العصرية التي برعتْ فيها الأمم الأوروبّية وكانت سببا في تقدّمها وقوّتها، فكتب المقال لمّا شاع جهل المصريّين بالعلوم العصرية لاعتبارهم أنّها غير مفيدة وأنّ دارسيها تغريبيّون، ولِمَا شاع مِنْ أنّ دارسي علوم الكلام مبتدعة وزنادقة وكَفَرَةٌ، فنبَّه إلى أنّ تقدّم أوروبّا وقوّتها حقّقته بدراستها لتلك

---

[1] ينظر: موقع مشاهير: www.mashahir.net ، تاريخ الزيارة الأربعاء: 2018/12/26م في الساعة:11:30 صباحا.

[2] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، ج3، ص8، وينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج2، ص15.

[3] ينظر: أحمد تيمور باشا، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، مرجع سابق: ص151.

العلوم وتطويرها، وفي مقاله الخامس كتب تقريظا لكتاب التّحفة الأدبيّة في تاريخ تمدّن الممالك الأوروبّية للمؤرّخ الفرنسي جيزو الذي ترجمه إلى العربيّة حنين نعمة الله خوري، فبيّن فيه ضعف الآداب العربيّة وحاجتها إلى الاستعانة بما وصل إليه الغرب مِنَ الثّمرات العلمية النّاضجة.[1]

لقد اهتدى الشّيخ محمّد عبدَه إلى معالجة الموضوعات المهمّة، فدرسها بعمق ووضع يده على مكمن الدّاء في القضايا المتعلّقة بالعقيدة والتّربية والاجتماع والأخلاق، كما بيّن الدّور المهمّ للعلوم والمعارف التّقليدية والعصرية للتّحرّر مِنَ التّخلف والجهل للّحاق بركب الأمم الأوروبّية المتقدّمة.

رابعا: جريدة الوقائع المصريـة

تعدّ أوّل صحيفة رسمية أنشأها محمّد علي باشا، صدر عددها الأوّل في ديسمبر 1828م، كانت تصدر ثلاث مرّات في الأسبوع وأحيانا مرّة واحدة، وأحيانا تطول الفترة بين العدد والآخر، حيث صدر عددها الثّاني بعد أربعة عشر يوما مِنْ صدور العدد الأوّل، كانت تتناول الأخبار الرّسمية وقليلا مِنَ المسائل المالية والعلمية، تتكوّن مِنْ أربع صفحات، وتحتوي على موضوعات باللّغة التّركية مترجمة إلى اللّغة العربية، عُيّن أحد مؤسّسي الجريدة سامي أفندي أوّل مدير لتحرير القسم التّركي، وعيّن شهاب الدّين محمّد إسماعيل مسؤولا على القسم العربيّ، تَوَلَّى رئاستها سنة 1842م رافع رفاعة الطّهطاوي، وعُيّنَ الشّيخ محمّد عبدَه سنة 1880م رئيسُ تحريرها، كَتَبَ افتتاحياتها مدّةَ ثمانية عشر شهرا، ونجح في جعلها منبرا للدّعوة للإصلاح والعناية بالتّعليم، ثمّ صارت تصدر يوميّا عدا يوم الجمعة، وفي عهده بلغتْ عصرها الذّهبي بأسلوبها العربيّ الفصيح، كما عَرفتْ في عهده الإعلان، وأصبحتْ مدرسة لها أساتذتها وتلامذتها، أمثال الزّعيم السّياسي سعد زغلول ونقيب المحامين إبراهيم الهلباوي، وفي عهد الرّئيس جمال عبد النّاصر صارتْ تصدر يوميا باللّغة العربية ويوم الخميس باللّغة الفرنسية.[2]

كانت الجريدة في البداية تَنشر الإعلانات الرّسمية مع بعض الأخبار الإدارية والوقائع المحلّية، وعندما رُقِّيَ إلى رئيس تحرير فيها، أصلحها ووسّع مجالاتها، ورفع مستوى تحرير تقاريرها، حتّى اضطرّ الكثير مِنْ كتّابها إلى تلقّي دروسٍ في اللّغة العربيّة، في المدارس اللّيلية التي أُنشئت لتعليمهم.[3]

عندما تَوَلَّى الكتابة فيها قدّم خِدْمات إصلاحية جليلة لمصر في شتّى المجالات، ولمّا شغل فيها مسؤول التّحرير حوّلها إلى منبر لنشر الدّعوة وإعلان الشّكاوى، وإسماع الحكومة كلّ شيء، وبلّغ للرّأي العامّ كلّ ما يريد تبليغه[4]، فأثبت حضوره بقوّة بيانه وبجدّية الموضوعات والقضايا التي يتناولها.[5]

وجعل الجريدة إبّان الثّورة العُرابية منبرا لمناصرة القضايا الوطنية وعمل جاهدا على استقلال البلاد، فعندما رأى الأسطولَيْن الإنجليزي والفرنسي يرسوان قبالة سواحل الإسكندرية، دعا للتّطوّع في

---

(1) ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص181- 183.

(2) ينظر: الوقائع المصرية صفحات مطوية من تاريخ الصّحافة، مقال في جريدة المصري اليوم: www.almasryoum.com ، تاريخ النّشر: الجمعة: 2010/08/27، تاريخ الزّيارة: الأربعاء: 2018/12/26، في السّاعة: 00:00 ليلا.

(3) ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص45.

(4) ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الإمام الأستاذ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص119.

(5) ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص22.

صفوف الجيش المصري للدّفاع عن مصر وإمداده بالإعانات والتّبرّعات[1]، ونهض بالجريدة وجعل مِنْ مقالاته فيها وسيلة لإصلاح التّعليم، وفيها توجّه إلى إصلاح الشّعب والحكومة معا، لكنّه توجّه أكثر إلى إصلاح الشّعب، لأنّه يرى بأنّ تربية الشّعب تُحقّق الإصلاح والنّهضة شريطة تضافر الجهود والتّعاون بينهما، كما قضى بأسلوبه الصّحفيّ الحديث على أسلوب السّجع[2]، وخلال رئاسته لها كوّن نخبة مِنَ الصّحفيّين الذين اختارهم لمساعدته في التّحرير مثل سعد زغلول وعبد الكريم سلمان وإبراهيم الهلباوي وسيد وفا[3]، وشكّلوا مدرسة صحفيّة تهدف إلى تحرير الشّعب مِنْ قيود الاستبداد والجهل والجمود والتّخلّف، وتحريره مِنْ سلطة الاستعمار الأجنبيّ.[4]

وفيها حرّر المقالات التّربوية والأدبية والاجتماعية والسّياسية وغيرها التي دار بعضها حول الرّبا والرّشوة والقانون والزّواج وتعدّد الزّوجات لإصلاح المجتمع، وقاوم التّدخل الأجنبيّ، ودعا المصريّين إلى الوحدة والتّماسك ومؤازرة الجيش الوطنيّ[5]، كما انتقد الأجهزة الحكومية في كتاباته الصّحفية وخاصّة نظارة المعارف التي اتّفق مع الوزير على إصلاحها، فاستصدر الوزير رياض باشا مِنَ الخديوي توفيق مرسوما يقضي بتشكيل مجلس أعلى للمعارف وتعيين الشّيخ محمّد عبدَه عضوا فيه.[6]

كما وضع لائحة المطبوعات خلال رئاسته للجريدة والتي كان مِنْ أحكامها: أنّ جميع إدارات الحكومة ومصالحها ومجالسها مكلّفة بالكتابة إلى إدارة الجريدة وإخبارها بنسبة إنجاز أعمالها، وألزم المحاكم بإرسال نتائج أحكامها إلى الجريدة، وجعل للجريدة الحقّ في انتقاد أعمال الحكومة غير السّوية، والحقّ في مراقبة الجرائد الوطنيّة والأجنبيّة الصّادرة في مصر، والاستفسار منها عمّا تنشره عن الحكومة مِنْ أخبار، والحقّ في إنذار الصّحف الكاذبة ومَنْعِ صدورها، وأعطى لنفسه الحقّ في إنشاء قسم غير رسميّ يَنشرُ فيه المقالات الأدبيّة النّافعة للأمّة بعيدا عن الخطّ الرّسميّ للجريدة.[7]

فوسّع مِنْ صلاحياته في الجريدة لتطبيق إصلاحاته التي لقيت الاستحسان والدّعم مِنَ الوزير، وتمكّن مِنِ استصدار قرارات مهمّة، وتسخير الصّحافة لخدمة التّربية والتّعليم وتكوين الفرد الإيجابيّ الذي يبني ولا يهدم ويُصلح ولا يُفسد، واستطاع أنْ يبرهن مِنْ خلالها على حكمته وحنكته وقوّة تأثيره على الحكومة في اتّخاذ القرارات الحاسمة، وهو ما يدلّ على كفاءته وعلوّ همّته وحسن استغلاله للمناصب التي يتولّاها، وتَمكُّنه مِنْ تسخيرها في خدمة المصلحة العامّة للمجتمع المصريّ.

1- أهمّ مقالات الشّيخ محمّد عبدَه في جريدة الوقائع المصريــة

عندما تولّى الشّيخ محمّد عبدَه إدارة المطبوعات في وزارة الدّاخلية ورئاسة تحرير جريدة الوقائع المصرية، أنشأ فيها قسما أدبيّا لإرشاد الأمّة وإصلاح أخلاقها ولغتها، وكتب عن إصلاح الحياة الدّينية

---

(1) ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص197و198.

(2) ينظر: عبد المتعال الصعيدي، المجدّدون في الإسلام، مرجع سابق: ص400و401.

(3) ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص22.

(4) ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق: ج3، ص77.

(5) ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص23.

(6) ينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدّد، مرجع سابق: ص23.

(7) ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، المرجع السابق: ص23.

والتّربوية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسّياسية والفكرية، لتغيير ما يجب تغييره والارتقاء بالمجتمع المصريّ وتطويره، وشرع في نشرها، فكان مِنْ عناوينها: حكومتنا والجمعيات الخيرية، احترام قوانين الحكومة وأوامرها مِنْ سعادة الأمّة، حبّ الفقر أو سَفَهُ الفلّاح، المعارف، التّربية في المدارس والمكاتب الأميرية، وَخَامَةُ الرّشوة، العفّة ولوازمها[1]، المعرفة في المجتمع، الأدب الوهميّ، العدالة والعلم، تأثير التّعليم في الدّين والعقيدة، الكتب العلمية وغيرها، أوهام الجرائد، ترجمة البارودي[2]، كما دعا إلى وجوه الإصلاح بالتّعاون على الخير والحرّية ورفع المظالم، ونادى إلى إصلاح التّربية والتّعليم في المدارس، ومحاربة الرّشوة، وبيّن أنّ الحقّ للقانون لا للقوّة وعالج إصلاح المنتديات والبيوت، كما تعرّض للإصلاح الدّينيّ بتطهير الإسلام مِنَ البدع التي شوّهتْ شعائره، وسعى إلى تحقيق وحدة الوطن ومَنْعِ الخلاف والنّزاع فيه وغيرها مِنْ وجوه الإصلاح الكثيرة والمتشعّبة.[3]

لقد انتقد في مقالاته بالجريدة التّعليم في وزارة المعارف، وتكلّم عن إصلاح التّعليم بالأزهر، وعن التّربية في مختلف المدارس المصرية، وحارب الرّشوة وأنحى على البدع التي تصدر مِنْ وزارة الأوقاف، وتحدّث عن العادات المصرية وتعدّد الزّوجات، ودعا إلى الحكم الشّوري، وتكلّم عن اختلاف القوانين باختلاف الأمم، وناصر الثّورة العُرابية واندمج فيها حتّى سُجن وحُوكم ونُفي عن مصر لبضع سنوات.[4]

ومع ذلك أثبت الشّيخ بأنّه مِنَ الكتّاب وقادة الرّأي مِنْ خلال مقالاته المتنوّعة التي انتقد فيها سياسة الحكومة وعمل على نشر الحرّية ومقاومة الظّلم والاستبداد، واستهدف إصلاح أمّته ورفع مستواها العلميّ والمعرفيّ، فكانت الجريدة مِنْ أهمّ أسباب سقوط وزارة الوزير الأجنبيّ الظّالم نوبار.[5]

وفي مقالاته تطرّق الشّيخ إلى القضايا التي تمسّ الحياة اليومية للمواطن المصريّ خصوصا في مجال التّربية والتّعليم وفي المؤسّسات التي تؤطّرها نظارة المعارف، كما كان يُثني على سياسة الحكومة وقراراتها ويحلّلها ويناقشها إذا كانت خادمةً للبلاد والعباد، وينتقدها ويبيّن أخطاءها، ويعطي البدائل بمنهج قويم وأسلوب بليغ ولغة راقية وأدب جمّ، فأرسى بذلك تربية راشدة وتعليما مفيدا لتنوير المواطن المصري وتثبيته على دينه، لتحقيق نهضة علمية رائدة، وبَعْثِ الحضارة الإسلامية، وتطويرِ أمّته وجعلها تتفاعل بإيجابية مع مستجدّات العصر دون الخروج عن مبادئ الإسلام السّمحة.

كما أبرز في الجريدة خصائص المقال الصّحفي؛ حينما تحدّث عن الإصلاح التّربوي والتّعليمي والدّيني، وحينما ردّ على المتحاملين على الإسلام كما فعل مع وزير الخارجية الفرنسي هانوتو الذي رفع مِنْ شأن النّصرانية والمدنيّة الأوروبّية والجنس الآريّ، وطَعَنَ في الإسلام وحضارته واتّهمه بمعادات المدنيّة، فأفحمه بردوده العلمية، وأبطل أكاذيبه ودحض شبهاته وافتراءاته، جامعا له فيها بين الرّدّ

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج2، ص49.

[2] ينظر: محمّد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص20و21.

[3] ينظر: أحمد تيمور باشا، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، مرجع سابق: ص152و153.

[4] ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الإمام الأستاذ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص118و119.

[5] ينظر: طاهر الطناحي، مذكرات الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص13.

العلميّ والسّخرية الهادفة والأسلوب القويّ الذي يعكس تطوّر الكتابة المقالية عنده، فكان مثالا يُحتذى به في الإصلاح والدّفاع عن قضايا أمّته بسلاح العلم والكتابة.[1]

وفتح بمقالاته عقول الأمّة ووجّهها إلى طلب الحرّية والعدالة والكرامة للإنسان لتحقيق الإصلاح بعدما عاشتْ أمّته ردحا مِنَ الزّمن فريسة للجهل والظّلم والاستبداد الدّاخلي والاستعمار الخارجي، وفيما يلي أهمّ الأفكار الإصلاحية التي سعى إلى تجسيدها مِنْ خلال الصّحافة في المجال التّربوي:

2- الأفكار التّربوية التي دعا إليها الشّيخ محمّد عبدَه في كتاباته الصّحفيـة

أ)- الدّعوة إلى تعلّم اللّغة العربية وترجمة العلـوم

جعل الشّيخ محمّد عبدَه مِنَ الكتابة الصّحفية إحدى وسائل إصلاحاته التّربوية، فدعا إلى الاعتناء باللّغة العربية وتعلّم اللّغات الأجنبية لتبليغ الأفكار وترجمة العلوم والمعارف التي أتقنها الأوروبّيّون وبها تطوّروا، فقال في مقاله: التّحفة الأدبيّة، الذي نشره في جريدة الأهرام سنة 1877م: "فنشأ فيهم -في أبناء الأمّة العربيّة- مَنْ بذل الهمّة في استحصال العلوم واللّغات وبرعوا في ذلك، وترجموا إلى لغتهم العربيّة الكتب مِنْ جميع الفنون كالطّبيعة والكيمياء والطّبّ والجيولوجيا وغير ذلك مِنَ الفنون المفيدة، فتجلّت لغتنا في حلّتها وبدتْ ترفل في ثياب زينتها، إلّا أنّه لم يوجد فيهم مَنْ يُعنى بعلم السّياسة وتاريخ التّمدّن، حتّى يَمُنَّ على اللّغة بأنْ يودعها دقائق معانيه ويقلّدها لآلئ مبانيه، حتّى قام بهذا الأمر جناب الفاضل الأديب واللّوذعي الأريب الذي يغنيك رؤية أثره عن عطر ذكره، الخواجا حنين نعمة الله خوري، فتبرّع لأبناء العرب ولغتهم بترجمة كتاب جليل في هذا الموضوع، وهو ما ألّفه الوزير الشهير جيزو، الكتاب المسمّى بالتّحفة الأدبيّة في تاريخ تمدّن الممالك الأوروبّية".[2]

ب)- تثمين فتح المدارس اللّيلية و تعليم العلوم واللّغات الأجنبيـة

أثنى الشّيخ محمّد عبدَه على نظارة المعارف عندما فُتحت المدارس اللّيلية لتعليم الرّجال الذين شغلهم الكسب نهارا، وتدريسهم اللّغة العربية والعلوم النّافعة، وتخصيص دروس لتعليم اللّغة الفرنسية شريطة ألّا تُعَلَّم على حساب اللّغة العربية، وأشار إلى المصريّين الذين يرون بأنّ تعلُّم اللّغات الأجنبيّة ينبغي تعليمها على حساب اللّغة العربيّة كلغة خطاب للحدّ مِنِ استعمالها وتهميشها تدريجيّا في الإدارات وفي المصالح العمومية، فقال في مقاله: المعارف، الذي نشره في جريدة الوقائع المصرية سنة 1880م: "وممّا ينبغي ذكره، إنّه ثبت في أذهان بعض النّاس أنّ مجرد تعلّم اللّغات الأجنبيّة يعدّ فضيلة يسعى إليها ويهتمّ بشأنها، مع أنّ اللّغة في ذاتها لا فضيلة فيها، ولا يصحّ أنْ تُجعل غايةً تُقصد، وإنّما هي وسيلة لما احتوتْ عليه تلك اللّغة مِنَ العلوم والآداب والأفكار التي ربّما لا تكون مبسوطة في اللّغة الوطنية كما هي واضحة في اللّغة الأجنبيّة"، وقال وهو يدعو نظارة المعارف إلى تعليم الرّجال المنشغلين

---

[1] ينظر: عبد الحليم عويس، التّربية وإصلاح الأمّة في مقالات محمّد عبدَه، مقال على شبكة الألوكة: https://www.alukah.net، تاريخ الإضافة: 2014/3/2م، تاريخ الزيارة: 2020/08/27 في الساعة: 18:00 مساء.

[2] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الأستاذ الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص24.

بالكسب ليلا: "فلا يصحُّ أنْ يكون التّعلم والتّعليم اللّيليان قاصِرَيْن على اللّغات فقط، بل يلزم أنْ يكون معها بعض مبادئ العلوم كما عزمتْ عليه نظارة المعارف الجليلة".[1]

ت)- تشجيع افتتاح المدارس وتسخيرها للتّربية الإسلاميــة

أشاد الشّيخ محمّد عبدَه بما قام به الخديوي في الأخذ بأسباب انتشار العلوم وتعميمها لإرساء العدالة في أنحاء البلاد، فقال في مقاله: العدالة والعلم، الذي نشره في جريدة الوقائع المصرية سنة 1880م: "ومِنْ ذلك ما نراه الآن مِنَ الحركة الفكرية في أقطارنا المصريّة، وتَوَجُّهُ الهمم إلى افتتاح المدارس والمكاتب في كلّ جهة، واجتماع القلوب وتألُّف النُّفوس على هذا المقصد الجليل، فإنّ عدالة الحكومة الخديوية ونزاهة رجالها وتعاضدهم على تأييد أمر الإصلاح وتأسيس قواعد العدل، كلّ ذلك أورث في الأفكار حركة وفي النّفوس همّة وفي السّجايا كرما وفي القلوب إقداما، فانبعثوا يتعاونون على الخير، ويبذلون أموالهم لرفع منار العلم، فمنهم مَنْ يدعو النّاس للاجتماع والائتلاف لينقد كل واحد منهم مبلغا لا يصعب أواؤه ليتكوّن مِنَ المجموع ما يكفي لنفقة مدرسة أو مكتب، ومنهم مَنْ قَوِيَتْ فيه الغيرة وارتفعتْ منه الهمّة، فكتب على نفسه القيام بمصاريف المدرسة، وتسارعوا إلى ذلك تسوقهم الرّغبة ويقودهم حسن الأمل في حكومتهم السّنّيّة، ثمّ إنّ الحكومة لا تألو جهدا في مساعدتهم وتثبيت أقدامهم وتمهيد الطّرق لنجاح أعمالهم".[2]

وقال في مقال: التّربية في المدارس والمكاتب الأميرية، الذي نشره في جريدة الوقائع المصرية سنة 1880م: "مِنَ المعلوم أنّ الغرض الحقيقي مِنْ تأسيس المدارس والمكاتب والعناية بشأن التّعليم فيها، إنّما هو تربية العقول والنّفوس وإيصالها إلى حدّ يمكِّن المتربّي مِنْ نيل كمال السّعادة أو معظمها، وإنّ أوّل مبدأ يجب أنْ يكون أساسا لتحلية العقول بالمعلومات اللّطيفة، والنّفوس بالصّفات الكريمة، هو التّعاليم الدّينية الصّحيحة، فإنّ مَنْ تتبّع قوانين التّعليم في الممالك الأوروبّاوية رآها بأسرها موجِبة للابتداء بالتّعاليم الدّينية...والآن رأينا نظارة المعارف العمومية وَجَّهَتْ عنايتها إلى ذلك، وطلبتْ تجويده، والاهتمام بشأنه مِنَ المعلّمين والنُّظّار...حتّى أوجبتْ على الأساتذة أنْ يقوموا برسوم العبادة حقّ القيام أمام التّلامذة، ويدعوهم لذلك إنْ كانوا مسلمين، أمّا المسيحيون وغيرهم مِنْ ذوي الأديان الأخر فلا يُكلَّفون بذلك أصلا، بل هم على حرّيتهم، فلها الشّكر على هذا المقصد الحسن"، ثمّ استدرك على سياسة الحكومة التّعليمية بتوجيهها إلى التّركيز على المقاصد السّامية فقال: "غير أنّه يلزم أنْ لا تكون هذه العبادات والتّعليمات الدّينية صورا يابسة لا روح فيها، كعبادة الجاهليّين، بل يجب أنْ تكون معنوية حقيقية، تخرق حجاب الغفلة، وتتمكَّن في باطن الإدراك، وتبعث في الأشخاص روحا مِنَ الحياة يشهد أثره النّاس أجمعون، وعلى نظارة المعارف أنْ تلاحظ التّعليمات الدّينيّة التي يلقيها المعلّمون، حتّى لا تكون محشوّة بأنواعٍ مِنَ التّخريف المضادّ لحقيقة الدّين، كما جرتْ عادة كثير مِنَ المعلّمين الذين يظهرون بصورة العلماء، وإنْ كانوا في الحقيقة مِنْ أردأ الجهلاء، فإنّ ذلك يُخلُّ بالمقصود مِنَ التّربية، ويضرّ بتقدُّم التّلميذ في كثيرٍ مِنَ الفنون التي يلزمه تحصيلها"، ثمّ أبدى

[1] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الأستاذ الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص43.

[2] المصدر نفسه: ج3، ص26.

ملاحظاته حول منشور المعارف الموجّه إلى نُظَّار المدارس لعدم إيلائهم تعليم قواعد الإسلام والعناية الكافية في تربية وتعليم النّاشئة فقال: "إنّ بعض المكاتب لم يحصل فيها الاعتناء بتعليم قواعد الإسلام بالنّسبة لأطفال المسلمين مِنْ أهمّ ما يلزم الاعتناء به، ولا يجوز إغفاله في حالٍ مِنَ الأحوال مطلقا، فيلزم تدريسها للتّلامذة بمعرفة خُوجَات[1] القرآن، مع حسن تفهيمها وتعليمها لهم، بحيث يحفظونها عن ظهر القلب، ويفهمون معناها فهما جيّدا، ويعرفون كيفية أدائها على أكمل وجه".[2]

ثمّ قدّم طريقةً للمعلّمين في كيفية تقويم المتعلّمين نظريّا وعمليّا، مع تحميل المشرفين عليهم المسؤولية مِنَ النّظّار والقائمين على المدارس لتربية المتعلّمين، فقال: "لا يُرخّص بترقّي التّلامذة مِنْ فرقة إلى أعلى منها مِنِ ابتداء الفِرقة الثّالثة إلى أعلى فِرقةٍ إلّا بعد التّحقّق بالامتحان مِنْ معرفتهم للقواعد المذكورة حفظا وفهما، وعلما وعملا ويكون مَنْ أخلّ بشيء مِنْ ذلك مِنَ الخُوجات المنوطين به تحت المسؤولية الشّديدة، ويشترك معه في هذه المسؤولية ناظر المكتب أو المدرسة...وعلى خُوجات القرآن الشّريف والنّحو حثّ التّلامذة على الصّلاة مِنَ السِنّ الذي يؤمرون بها فيه شرعا مع دوام وعظهم في ذلك، ونهيهم وزجرهم عن تركها والتّكاسل فيها، وعلى ناظر المكتب رعاية ذلك، وترتيب أوقات الدّروس على وجهٍ يوجد فيه وقتٌ لأداء الصّلاة، مع الحثّ منه للتّلامذة عليها، وحملهم على أدائها جماعة مأمومين بأحد خُوجات القرآن الشّريف أو النّحو في المحلّ المعدّ للصّلاة بالمكتب أو المدرسة".[3]

لقد اهتمّ الشّيخ محمّد عبدَه بتكوين النّاشئة بحظّهم على حفظ العلوم وفهمها، وسَنَّ لهم منهجا تربويّا عمليّا، فأمرهم بأداء الصّلاة في وقتها في محلِّ الدّراسة يؤمُّهم مدرّسوهم، ليربَّوهم على المحافظة على الصّلاة جماعة في وقتها، فذلك مِنْ صميم التّربية الإسلامية، كما دعا القائمين على المدارس بإنشاء قاعات للصّلاة، وعدم ترك العبادة أثناء التّلقي بمبرّر الانشغال بطلب العلم.

ث)- الإشادة بتعلُّم المنطق وعلم الكلام والعلوم العصرية والإنكار على رافضيها

أشاد الشّيخ محمّد عبدَه في مقالاته الصّحفية بإقبال طلبة العلم على تعلّم المنطق وعلم الكلام والعلوم التّقليدية النّافعة فقال في مقاله: العلوم الكلامية والدّعوة إلى العلوم العصرية، الذي نشره في جريدة الأهرام سنة 1877م: "فمِنْ أعجب ما رأيناه في هذه الأيّام، إنّ بعض طلبة العلم الكرام الذين قد بذلوا جهدهم في التّحصيل، وخلعوا ثياب أوزار البطالة والتّعطيل، وافتدَوْا براحتهم لتنوير بصيرتهم، قد تحرّكتْ إلى المعالي همّته، ودعته إلى التّفنن غيرته، فأخذ في دراسة بعض الكتب المنطقية والكلامية، التي كان قد صنّفها أفاضل الملّة الإسلامية، لما قد علم أنّ العلوم المنطقية إنّما وضعتْ لتقويم البراهين، وتمييز الأفكار غثّها مِنَ الثّمين، وتبيين أنْ كيف تتركّب المقدّمات لإنتاج المطلوب بعد البيان أنّ أيَّ مقدمة يصحّ أنْ تؤخذ في البيان، وأيّها يجب أنْ يُقذف ويُطرح، فهذا علم حقيق بأنْ

---

[1] **الخُوجات:** ج: خَواجة: وهو المعلِّم، ويقال: إمام خُوجة، ينظر: تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دُوزِي، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمّد سليم النعيمي وجمال الخياط، نشر: وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط1، من 1979 - 2000م، ج4، ص227، والخُوجات أيضا: جمع خُوجة: وهو المعلِّم الصّغير باللّغة التّركية، ينظر: عبد الحليم عويس، التّربية وإصلاح الأمّة في مقالات محمّد عبدَه، مقال على شبكة الألوكة: www.alukah.net ، تاريخ الإضافة: 2014/03/02م، تاريخ الزيارة: 2020/08/27 في السّاعة: 18:00 مساء.

[2] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الأستاذ الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص29- 31.

[3] المصدر نفسه: ج3، ص32.

يُتَّخَذَ سُلَّما لجميع العلوم، ولا يَعدِل عن طلبه إلّا جهول ظلوم، والعلوم الكلامية إنّما هي أحكام لتأييد القواعد الدّينية بالأدلّة العقلية القطعية، حتّى يحقّ لممارس تلك العلوم أنْ يقتبس نور تلك المطالب مِنْ تلك البراهين، ويقنع بذلك الطّالبين، ويردع المنكرين"، ثمّ ذكر مواقف بعض العلماء المشهورين في هذه العلوم الّذين حكموا بضرورة تعلّمها فقال: "مع أنّ هذه العلوم ليست إلّا ما يقرأ في سائر جوامع المسلمين، مشارق الأرض ومغاربها حتّى الآن، في نفس الأستانة يقرأ في مساجدها كثير مِنْ كتبها، وقد قال الأكابر مِنَ المحقّقين كالإمام الغزالي وفخر الدّين الرّازي وغيرهم، إنّ تعلم هذه العلوم مِنْ فروض الأعيان، وأطبق جميع العلماء على أنّها مِنْ فروض الكفاية خصوصا في مثل هذه الأزمان".[1]

كما بيّن فائدة العلوم العصرية في الحياة، ودورها في تحقيق سعادة الأمّة وقوّتها، وردّ الاعتبار لها والحفاظ على سيادتها مِنَ الاختراق، فهذه العلوم بمثابة الدّرع الواقي لكيانها مِنَ الأمم الغربية المتمدّنة التي تسعى لدكّ حصونها والرّتع في حماها وتشويه دينها وتدنيس قيمها ونهب مقدّراتها، فصار لزاما على الأمّة الإسلامية أنْ تكون سبَّاقة إلى تعلّم هذه العلوم وتَخيُّر ما ينفعها منها فقال: "فما حالنا بالنّسبة إلى علوم جديدة مفيدة، هي مِنْ لوازم حياتنا في هذه الأزمان، وكافّةٍ عنّا أيدي العدوان والهوان، وأساس لسعاتنا، ومعيار لثروتنا وقوّتنا، لابدّ لنا مِنِ اكتسابها، وبذل المجهود في طلبها"، وقَارَنَ بين الأمم الأوروبّية المتطوّرة والأمّة الإسلامية البائسة في الأخذ بتلك العلوم فقال: "ورأينا ما هم عليه مِنَ الأحوال الحسنة، وظهر لنا التّوازن بينها وبين أحوالنا الهجنة، كثروتهم وفاقتنا، وعزّهم وذلّتنا، وقوّتهم وضعفنا، وقدرتهم وعجزنا، وصولتهم وانهزامنا"، وأشاد بموقف الخديوي الذي جلب العلوم والمعارف وبنى المؤسّسات التّربوية والتّعليمية واعتنى بالمعلّمين والمتعلّمين بها فقال: "جناب الخديوي الأعظم، لازال قضاؤه في الكائنات يبرم، حيث قد بذل الهمّة في اجتلاب المعارف، وتوسيع دائرة الآداب والعوارف، إذْ فتح المدارس والمكاتب، وعني بالأساتذة مِنَ الأقارب والأجانب، واجتذب التّلامذة مِنْ كلّ جانب، حتّى أضحتْ غايات الارتقاء سهلة الاكتساب، وخزائن الخيرات مفتّحة الأبواب، وترعرع روض المعارف وأزهر زهره، وبدا صلاحه وينع ثمره".[2]

وفي المقابل حَمّل المسؤولية رجالات الأزهر المتقاعسين في طلب تلك العلوم لموقفهم السّلبي منها فقال: "ولم يَرَوْا لهذه العلوم فائدة تعود عليهم أو على أبناء ملّتهم بعائدة ولكن اشتغلوا بما ربما كان أليق بزمان قد أَفَلَتْ كواكبه وطُويتْ صحفه وولَّتْ ركائبه غير ملتفتين إلى أنّنا أصبحنا في خلق جديد، فعلينا أنْ ننظر إلى أحوال جيراننا مِنَ الملل والدّول وما الذي نقلهم مِنْ حالهم الأَوَّل وأدّى بهم إلى أنْ صاروا أغنياء أقوياء، حتّى كادوا أنْ يتسلّطوا علينا بأموالهم ورجالهم الأُوَلِ إنْ لم نقل قد تسلّطوا بالفعل، وها نحن بَعْد النَّظر لا نجد سببا لترقّيهم في الثّروة والقوّة إلّا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم...فإذَنْ أَوَّل واجب علينا هو السَّعي بكل جدّ واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا، وقد ولّتْ أزمنة كان التَّحَارُب فيها بالأخشاب والنِّبال والسِّهام وخزف الجبال، وما أشبه ذلك ممّا كان استحصاله بزهيد القيم، وحضرنا زمان نضطرّ فيه إلى المراكب المدرّعة، ومدافع المتراليوز والكروب وبنادق الإبرة

[1] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الأستاذ الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص15- 17.

[2] المصدر نفسه: ج3، ص18و19.

وغير ذلك مِنَ الأسلحة التي تجدَّدَتْ وستجدّد فيما بعد، وكيف نتمكن مِنْ حفظ ملّتنا ودولتنا وديننا مِنْ شرر هذه النّيران بدون أنْ يكون عندنا ما يماثلها إنْ لم نقل ما يزيد عنها، وهل يمكن استحصالها بالخرز أو بِدَانِي الحِرَفِ؟! كلّا بل لابدّ مِنَ الاستضاءة بنور المعرفة، والتبرّي عن مرافقة السّفه، وليس مَنْ يرشدنا إلى ذلك إلّا أبناء هذه الطّائفة -رجالات الأزهر- فإنّهم أرواحنا وقائدوا أشباحنا، وإنّ مِنْ حقّهم أنْ يقوموا لحثّ الجمهور على اقتناص تلك العلوم، وبيان فوائدها، وما يترتّب عليها مِنَ المنافع، وعلى عدمها مِنَ المضارّ وَوَجْهُ احتياجنا إليها".[1]

ج)- الدّعوة إلى انتقاء المعلّمين وتقييمهم ووضع المقرّرات المناسبة للتّلاميـذ

دعا الشّيخ محمّد عبدَه نظارة المعارف إلى انتقاء النّظّار والأساتذة على أساس الكمال في الأخلاق لتربية التّلاميذ، فقال في مقاله: المعارف، المنشور في الوقائع المصرية سنة 1880: "هل دقَّقت نظارة المعارف في معرفة أخلاق النُّظار والأساتذة الذين وُضِع الأطفال في كفالتهم، يدبّرون أمورهم ويرشدونهم إلى كمالهم، وفصلت بين صاحب الأخلاق الفاضلة، والأفكار المستقيمة، والعفة والنزاهة، والغيرة على نفع مَنْ وُكِّل أمرهم إليه، وأداء ما وجب في ذمته، حتى يكون حاله وكماله درسا آخر يعطى للتّلامذة في كل يوم، فتنطبع هذه الكمالات في نفوسهم بأشد مِنِ انطباع صور المعلومات في عقولهم، وهو المعنى المقصود مِنَ التّربية؟...ويُبْحَثُ عن المستقيمين على قدر الطّاقة في أنحاء البلاد، لتُفَوَّض إليهم تربية الأطفال والشّبّان، ليكونوا رجالا ينفعون أنفسهم وحكومتهم التي تصرف عليهم المصاريف الكثيرة، أملا بحصولها على رجال تقيمهم في وظائفها الكثيرة، يؤدّون واجباتهم بالضّبط والأمانة".[2]

واستدرك على نظارة المعارف المصرية التي أوجبتْ نظّار المدارس ومعلّميها إلى التفات لوظائفهم وقيامهم بواجباتهم، وبوجوب توبيخ الموظّفين الذين كانت نتائج الدّراسة في مدارسهم ضعيفة، وبضرورة شكر الذين كانت نتائج الدّراسة فيها جيّدة، وبإلزامية مكافأة المجتهدين والمتقنين لأعمالهم مادّيّا تحفيزا لهم وتثمينا لجهودهم حتّى يستمرّوا على ذلك، فقال في المقال نفسه: "إلّا أنّهم يتساءلون فيما بينهم بسؤالات كثيرة، منها قولهم: هل حصلت المكافأة الحقيقية لِمَنْ أظهر الامتحان اجتهادهم مِنَ النّظّار والمدرّسين؟ وهي مكافأة بالدّينار والدّرهم، فإنّ مكافأة الشّكر والثّناء وإنْ كانت واجبة، وهي مِنْ أجلّ المكافأة وأجملها ولها تأثير في جلب الرّغبات وتقوية العزائم، لكنّها لا تلتصق بالقلب التصاق النّقود والمساعدة المعاشية، فإنّ مَنْ ضاق عليه العيش وكانت حاجاته أكثر مِنْ إيراده لا تنفكُّ عنه الوساوس ولا يبارح ذهنه الاضطراب، وتغلب منغّصات الحاجة وآلامها على الفرح الذي أنعشه عندما سمع كلمة الثّناء عليه، ثمّ ذلك يُنقص مِنِ اجتهاده ويُحبط هِمَّته، بل ربّما أورث خللا في كيفية تأدية وظائفه، خصوصا إذا رأى غير المجتهد مماثلا له في الرّزق وأوفر راتبا منه".[3]

ودعا إلى ضرورة امتحان المعلّمين والنّظّار بالإبقاء على الأكْفَاء منهم في التّعليم وترقيتهم، وتسريح الضّعفاء غير المؤهّلين للتّعليم والذين لا يؤدّون مهامّهم، وتنزيلهم إلى الوظائف الدّنيا، حتّى لا يهملوا

---

[1] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص20 - 22.

[2] المصدر نفسه: ج3، ص40.

[3] المصدر نفسه: ج3، ص38

التّلاميذ، وحَضَّ نظارة المعارف على اختيار عرفاء يطوفون على المدارس ليتابعوا مدى استيعاب التّلاميذ، وتسجيل النّقائص فقال: "هل اختارت المعارف أشخاصا مِنَ العرفاء في كلّ فنّ مخصوص ليطوفوا على المكاتب الابتدائية والمدارس الخصوصية ولا يكون عملهم سوى هذا، ليقفوا على أحوال تلامذة جميع المدارس في كلّ أسبوع أو خمسة عشر يوما مثلا، ويقدّموا جميع ما يرونه مِنَ الملاحظات على وجه الدّقّة التّامّة، فإنْ رَأَوْا نقصا عرفوا سببه ومِنْ أيّ الجهات منبعه، فإنْ كان اعوجاجا في طريق التّعليم أرشدوا المعلّم بأنفسهم وبيَّنوا له الطّريق مرّة بعد أخرى فإنْ اعتدل وإلّا اعتزل، ويكون أولئك الأشخاص تحت مسؤولية شديدة إذا ظهر فيما بعد نقصٌ ولم يكونوا نبَّهوا عليه، فإنّ ذلك يبعث على الغيرة وينشِّط الاجتهاد في المعلّمين وغيرهم، وتكون حركة المدارس في خطٍّ مستقيمٍ يوصل إلى المقصود بأقرب الطّرق المؤدّية إليه، ويسهِّل تدارك الخلل إذا ظهر، وإزالة النّقص إذا طرأ".[1]

ثمّ تساءل عن مقرّرات التّلاميذ مِنْ حيث صعوبة وسهولة أساليبها، وعن جدوى طرق التّعليم فقال: "فهل حصلت العناية بتصنيف تلك الكتب؟ وإنْ حصلتْ فبمَنْ أنيط تصنيفها؟ وهلّا شُكِّل مجلسٌ للنّظر في مثل تلك التّسهيلات، ودُعي إليها أعضاء مِمَّنْ لهم سعة الفكر والاطّلاع على الطّرق القديمة والجديدة، ويكون لهذا المجلس الحقّ في تعيين الكتب التي ينبغي تدرسيها في أيّ الفنون".[2]

ح)- دعوة الحِرَفِيِّين إلى دعم العلوم والمعارف والإصــلاح

أرشد الشّيخ محمّد عبدَه أمّته إلى السّبيل الصّحيح لبناء مجدها وعزّتها عن طريق إصلاح التّربية والتّعليم ودعم العلوم والمعارف مِنَ الميسورين مِنْ أبنائها، فذكر بأنّه واجبٌ يضطلع به العلماء والمتعلّمون، يشاركهم فيه جميع شرائح المجتمع لتحقيق المصلحة العامّة للبلاد والعباد، فدعا الأغنياء وأرباب المال مِنَ المزارعين والصنّاع والتجّار إلى تخصيص جزء محترم مِنْ إيراداتهم لخدمة العلم والتّعليم ونشر العلوم والمعارف بين النّاس والمساهمة في الإصلاح بأموالهم وأنفسهم، خصوصا وأنّ الحكومة فتحتْ باب المبادرة في هذه المجالات، فقال في مقاله: ما هو الفقر الحقيقي في البلاد، الذي نشره في جريدة الوقائع المصرية سنة 1881م: "وبالجملة فإنّ الحكومة قد أطلقتْ عنان العمل لكلّ طالب حقّ وقاصد صلاح وراغب فلاح، فليس مِنْ جهة الحكومة هذا المانع فبطل ذاك التعلّل"[3]، ودعاهم إلى الاقتداء بالأوروبّيّين الذين خصّصوا بعض مداخيلهم لإنشاء قلاع العلم والمعرفة وخدمة العلوم عوض أنْ ينفقونها في اللّهو والفساد، فقال: "فعلى الأغنياء منّا الذين يخافون مِنْ تغلّب الغير عليهم وتطاول الأيدي الظّالمة إليهم أكثر مِنَ الفقراء أنْ يتألّفوا ويتّحدوا ويبذلوا مِنْ أموالهم في سبيل افتتاح المدارس والمكاتب واتّساع دوائر التّعليم حتّى تعمّ التّربية...أفلم يعتبروا بالجمعيات الأوروبّية التي لم يكن أعضاؤها إلا الزّارعين والصّانعين والتّجّار، كيف يبلغ إيراد الواحدة منها نحو ثلاثين مليونا مِنَ

[1] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: مصدر سابق: ج3، ص39.

[2] المصدر نفسه: ج3، ص40.

[3] المصدر نفسه: ج3، ص481.

الجنيهات، وبعضها أكثر وبعضها أقلّ، وجميع ذلك يصرف في بثّ المعارف والعلوم، واتّساع دائرة الصّنائع والفنون، وتقوية روح التّربية الحقَّة التي لا شأن للبلاد إلّا إذا تحلّى أبناؤها بحُلاها".[1]

خ)- عرض وتقييم الكتب المتداولة الضّارّة وتقديم الكتب البديلـة

نشر الشّيخ محمّد عبدَه مقالَ: الكتب العلمية وغيرها، في جريدة الوقائع المصرية سنة 1881م قام فيه باستبيانٍ للكتب المتداولة بين المصريّين وصنّفها حسب ميولاتهم إليها إلى خمسة أصناف وهي:

1- الكتب النّقلية الدّينية: في علم الكلام والعبادات والمعاملات والتّفسير والحديث، وكتب الأخلاق ككتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي، التي انشغل بها أفاضل النّاس وهي كثيرة الانتشار بالنّسخ والطّبع.

2- والكتب العقلية الحِكْمِية: التي تبحث في الحقائق الوجودية وأحوالها، وهي نادرة الوجود وقليلون جدّا المنشغلون بها، ككتب الطّبيعة والكيمياء والطّب والرّياضة، وهي قليلة الطّبع غالية الثّمن.

3- والكتب الأدبية: المهتمّة بالأفكار وتهذيب الأخلاق، ككتب التّاريخ والأخلاق، والرّومانيات لتعليم الأدب وبيان أحوال الأمم والحثّ على الفضائل ككتاب كليلة ودمنة، وهي كتب كثيرة التّداول بين المصريّين.

4- وكتب الأكاذيب: المشتملة على تاريخ الأقوام على غير الواقع ككتب الظّاهر بيبرس، وهذا الصّنف انشغل به الكثيرون وطبعتْ منه نسخ كثيرة.

5- وكتب الخرافات: التي تبحث في الأرواح الشّرّيرة(العفاريت)، وتتحدّث عن ارتباط الحوادث الجوّيّة بالآثار الكونية، فتُثبتُ ما لا يقبله العقل والشّرع، ككتب الوفق والحَرْف والكواكب السّيّارة وشمس المعارف الكبرى وغيرها ممّا انشغل به عوامّ النّاس والدّجّالين والمحتالين، فطبع منها الكثير، وبعد ما أحصى الشّيخ محمّد عبدَه تلك الكتب وصنّفها، قيَّمها ونقدها، وبيّن ما تنطوي عليه الأكاذيب والخرافات مِنْ آثار سلبية ومقاصد فاسدة، فقال: "قد كانت هذه الكتب بأصنافها تُطبع في مطابع المحروسة بدون استئذان ولا تقييد، ثمَّ مِنْ عهد قريب صدرت الأوامر بأنْ لا يُطبع كتاب في إحدى المطابع إلّا بعد الحصول على رخصةٍ تُجيز الطّبع، وحُجِزَ في أثناء ذلك على طبع ما يُخِلُّ بالدّيانة أو السّياسة ليس إلّا، وكان يُصرَّح بطبع غير ذلك مِنْ أصناف القِسْمَيْن الأخيرَيْن، هما الأكاذيب الصِّرفة وكتب الخرافات، على أنّهما ممّا لا يُخِلُّ بالدّين ولا ممّا يناقض السّياسة، ولذلك كَثُرَ طَبْعُ الكتب في هذَيْن القِسمَيْن حتّى انتشرتْ في سائر جهات القطر، واشتغل بمطالعتها كثير مِنَ الأهْلِين".[2]

كما أثنى على الموقف الإيجابيّ للحكومة مِنْ خلال نظارة الدّاخلية التي أصدرتْ الأوامر بمنع التّرخيص بطبع ونشر الكتب المضرّة بالعقول والمخلّة بالآداب ككتب الأكاذيب والخرافات والرّومانيات الغريبة الأصل وكتب الشّعوذة والتّنجيم، فتوعّدت المخالفين بالعقاب، ثمّ أحال إلى الكتب البديلة المفيدة عن تلك المضرّة بالعقل والدّين والأخلاق، فأحال إلى كتاب تاريخ المسعودي والكامل في التّاريخ لابن الأثير، وبيّن بأنّه لا فائدة مِنَ الكتب التي منعتها الحكومة، ولا يحصّل لقارئها إلّا الإجهاد وغضب الله، ثمّ دعا إلى تركها فقال: "فمِنَ الواجب على كلّ عاقل أنْ يترك كلّ هذه الكتب الخرافية، ويتباعد

---

[1] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص50و51.

[2] المصدر نفسه: ج3، ص53- 55.

عنها على قدر الإمكان، وأنْ يشغل أوقاته بمطالعة الكتب الحقّة، ككتب الدّيانة المطهّرة، وكتب الآداب والفضائل وتهذيب الأخلاق، وكتب التّواريخ الصّحيحة، كتب العلوم الحقيقية، فإنّها أنفع للنّفس".[1]

د)- أولوية الإصلاح التّربوي على الإصلاح السّياسي والثّـوري

استحدث الشّيخ محمّد عبدَه في جريدة الوقائع المصرية قسما لا يعبّر عن رأي الحكومة، ضمّنه آراءه الإصلاحية التي يرى فيها أنّ التّربية والتّعليم هي التي تنير الفكر وتحقّق الثّورة وليس الثّورة لوحدها، وعلّق آماله على المثقّفين المتنوّرين دون الجماهير التي تعيق التّقدّم، فانضمّ إلى توجّهه سعد زغلول والشّيخ عبد الكريم سلمان وسلطان باشا وسليمان أباظة وحسن الشّريعي وغيرهم.[2]

وقد برز اتّجاهه الإصلاحيّ مِنْ خلال دعوته إلى التّدرّج في الإصلاح باتّباع طريق التّربية البطيء بدلا مِنْ طريق الثّورة السّريع، والدّعوة إلى العلم لتنوير الفكر وتكوين الرّأي العامّ قبل المطالبة بالحياة الدّستورية النّيابية، متّهما التّيار الثّوري بتقليد الغرب ونَقلِ تجربته دون مراعاة للفروق بين شعوب المسلمين المتخلّفة وشعوب الغرب الواعية، معتبرا دعاة الحياة النّيابية الدّستورية عقلاء مخطئون، فانتقد التّيّار الثّوريّ الذي تبنّته الحركة الوطنية المصرية، ودعا إلى إحداث التّغيير التّدريجيّ الهادئ للرّقي بالأمّة إلى وضع أحسن، فمصر وما شابهها مِنَ الأمم الإسلامية إذا أرادت أنْ تنتقل مِنَ الحكم الاستبداديّ إلى الحكم الجمهوريّ؛ عليها الاعتماد على التّربية والتّعليم الذي يحتاج إلى وقت طويل لتكوين رأي عامّ مستنير، ومادام المصريّون اعتادوا عدم المشاركة في إدارة أمور الدّولة لا يمكن إشراكهم في الحكم مباشرة حتّى لا تَفْسُد الأمور، وقد لخّص نظريته هذه في عدّة مقالات بعنوان: خطأ العقلاء، نشرها في جريدة الوقائع المصرية سنة 1881م، وممّا جاء فيها قوله: "إنّ مَنْ يريد خير البلاد فلا يسعى إلّا في إتقان التّربية، وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه بدون إتعاب فكر أو إجهاد نفس".[3]

وفي مقال آخر بعنوان: اختلاف القوانين باختلاف أحوال الأمم، نبّه إلى أنّ العقلاء يجتهدون أوّلا في تقديم التّربية الحقيقية على ما سواها بتغيير المَلَكَات وتبديل الأخلاق حتّى يمكن وضع نظام يضبط أخلاق المجتمع ويُحسِّن عاداته ويحقّق استقامة الأمّة، حيث عبَّر فيه عن موقفه الإصلاحيّ التّربويّ المناهض للمنهج الثّوريّ[4]، وفي مقال له في جريدة الوقائع المصرية: السّلطة للصّفوة المستنيرة، قال: "إنّ أوّل ما يُبدأ به التّربية والتّعليم لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النّيابية على بصيرة مؤيَّدة بالعزيمة، وحَمْلِ الحكومة على العدل والإصلاح، ومنه تعويدها الأهالي على البحث في المصالح العامّة واستشارتها إياهم في الأمر بمجالس خاصّة تنشأ في المديريّات والمحافظات وليس مِنَ الحكمة أنْ تُعطَى الرّعيّة ما لم تَستعدّ له، فذلك بمثابة تمكين القاصر مِنَ التّصرّف بماله قبل بلوغه سنّ الرّشد وكمال التّربية المؤهّلة والمعدّة للتّصرّف المفيد...إنّ المعهود في سير الأمم وسنن الاجتماع أنّ القيام على الحكومات الاستبدادية وتقييد سلطتها وإلزامها الشّورى والمساواة بين الرّعية، إنّما يكون مِنَ الطّبقات

---

[1] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص56.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الوعي بالتّاريخ وصناعة التّاريخ، مرجع سابق: ص198و199.

[3] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، المصدر السابق: ج1، ص323- 335.

[4] ينظر: المصدر نفسه: ج1، ص342.

الوسطى والدّنيا إذا فشا فيهم التّعليم الصّحيح والتّربية النّافعة وصار لهم رأي عام"[1]، فرفض الإصلاح بالثّورة لأنّه سرعان ما ينهدم ويزول، بخلاف الإصلاح بالتّربية الذي يفيد ويدوم.[2]

ذ)- الانتقال مِنَ الإصلاح التّربويّ إلى الإصلاح السّياسيّ والثّـوريّ

ظلّ الشّيخ محمّد عبدَه ثابتا على منهج الإصلاح التّربويّ الرّافض للمنهج الثّوريّ إلى غاية قيام الثّورة العُرابية في سبتمبر 1881م وتسليم الخديوي توفيق للأمّة بمجلس نيابيّ واستجابته لأحمد عُرَابي بإقالة مصطفى رياض باشا ومجلس نظّاره واستخلافه بشريف باشا صاحب الآراء الثّورية ونصير الحكم الدّستوريّ، فغيّر موقفه مِنَ الإصلاح بالتّربية إلى طلب الدّستور والحياة النّيابية للبلاد وقبوله بانخراط الجيش المصريّ في العمل السّياسيّ، وهو ما عبّر عنه في آخر حياته بقوله: "لم تكن الثّورة مِنْ رأيي، ولكن لمّا مُنِحَ الدّستور انضممنا جميعا إلى الثّورة لكي نحمي الدّستور".[3]

ومِنْ دواعي انضمامه إلى تيار الثّورة العُرابية، هو رفض الخديوي توفيق الاستجابة لمطالب أحمد عُرابي في إعلان الدّستور والتّسوية بين طوائف الشّعب واحتماؤه بالإنجليز مِنَ الثّوّار، الأمر الذي أقام الثّورة وجعل الإنجليز يَقْضُون عليها ويحتلّون مصر ويُنْفُوا الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ بلاده.[4]

لقد غيّر الشّيخ محمّد عبدَه موقفه مِنَ الإصلاح بالتّربية إلى التّغيير بالثّورة، بوقوفه إلى جانبها ومباركتها للحفاظ على انجازاتها المتمثّلة في تحقيق الحياة الدّستورية والنّيابية، فأيّدها منذ قيامها وسعى للتّموقع فيها ودافع عن مشاركة الجيش في السّياسة، وصاغ المادّة الرّابعة لبرنامج الحزب الوطنيّ الحرّ، وقدَّم الحياة الشّورية النّيابية وحرّية المطبوعات على تعميم التّعليم في الإصلاح.

ولمّا تطوّرت الأحداث السّياسية في جانفي 1882م، اعتبرت الحكومتان الفرنسية والإنجليزية أنّ حصول مصر على الحياة النّيابية والدّستورية سيحرّرها مِنَ التّخلف ويمنع استعمارها، فرأتْ ضرورة التّدخل لحماية عرش الخديوي وأصدرتْ مذكّرة في ذلك، واعتبرتها بمثابة إعلان الحرب على الحركة الوطنية، فانضمّ الشّيخ محمّد عبدَه والأزهريّون وكلّ الأحزاب إلى الثّورة لمقاومة الخطر الأجنبيّ، ومنذ ذلك الحين صار يشكّل بأفكاره وآرائه المناهضة للاحتلال؛ التّيّار الإصلاحيّ في الثّورة العُرابية.[5]

وأخذ الحزب الوطنيّ الحرّ يشارك في مناقشة ميزانية الدّولة ويعارض الدّول الأوروبّية الدّائنة لمصر وأعلنها جمهوريةً، وهو ما كان يعارضه الشّيخ محمّد عبدَه لأنّه يرى بأنّ الشّعب لم ينضج بعد، وبعد دخول الأسطول البريطاني للمياه الإسكندرية في جويلية 1882م، انتدب المصريّون الشّيخ محمّد عبدَه لمفاوضة المسؤولين الإنجليز في لندن لحلّ الأزمة، فعبّر في مقالَيْه: في الشّورى، والحياة السّياسية، اللّذَيْن نشرهما في الجريدة في نوفمبر وديسمبر 1881م عن تغيّر موقفه واعترافه بأنّ العلوم والمعارف لم تَعُدْ هي السّبيل الوحيد لتغيير الإنسان، بل يضاف إليها التّجربة والحوادث التي أتتْ بها الثّورة العُرابية التي بعثتْ في النّاس روحا جديدة، وبأنّ ممارسة حرية الرّأي والانتخاب ليس خاصّا بالطّبقة المثقّفة

---

[1] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج1، ص343و344.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الوعي بالتّاريخ وصناعة التّاريخ، مرجع سابق: ص203.

[3] المرجع نفسه: ص203- 205.

[4] ينظر: عبد المتعال الصعيدي، المجدّدون في الإسلام، مرجع سابق: ص401.

[5] ينظر: محمّد عمارة، الوعي بالتّاريخ وصناعة التّاريخ، المرجع السابق: ص205- 208.

وليس حكرا عليها لما تَحُوزُه مِنْ علوم ومعارف بل قد تُحَصِّله العامّة بدون ثقافة فقال: "على أنّ الأدب السّياسي وإنْ لم يتيسّر عمومه في الأمّة إلّا أنّه قد يحصل لأفراد كثيرة منهم على مقادير مختلفة".[1]

ر)- سَنُّ المبادئ الأساسية لدستور حكومة الثّورة العُرابيــة

يعتبر الشّيخ محمّد عبدَه واحدا مِنْ قادة الثّورة العُرابية، رغم أنّه محسوب على التّيّار الإصلاحيّ الدّاعي إلى التّغيير بالتّربية والتّعليم الذي يركّز على تكوين النّخب المثقّفة المتشبّعة بالعلوم والمعارف، حتّى تستطيع قيادة البلاد ومواكبة الأمم المتقدّمة ومواجهة قوى الطّغيان الأوروبّيّ الذي تتزعّمه بريطانيا وفرنسا الزّاحفَتَيْنِ لاستعمار البلاد العربية والإسلامية، فكانت مشاركته فيها محورية بوضعه للقانون الأساسيّ للبلاد بحضرة زعماء وقادة مصر الأساسيّين للثّورة ضد النّفوذ الأجنبيّ، وبعد إجراء انتخابات مجلس شورى النّواب، اتّخذ خصوم الثّورة مِنْ دخول بعض الجهلة وقليلي الكفاءة إلى المجلس حجّة للطّعن فيها، وأنّ مصر ليست أهلا لمثل هذه المؤسّسات، فردّ عليهم الشّيخ محمّد عبدَه؛ أنّ كلّ البلدان لا تَخْلُ مجالسها مِنْ هذه الأصناف، والعبرة بالغالبيّة المثقّفة التي يتشكّل منها المجلس، وأنّ المصلحة تتحقّق بهم، ولم يقف عند حدّ الدّفاع عن هذه التّجربة الثّورية، بل تعدّاه إلى إلقاء خطاب نصّ فيه على وضع المبادئ الأساسية للدّستور بحضور أحمد عُرابي وعبد الله النّديم ومحمود سامي البارودي وممّا جاء فيه: أنّ حكومة البلاد قانونية يحكمها الدّستور، وأنّ مجلس شورى النّواب يساعد الحكومة في حكم البلاد، ونصّ على تعميم العلوم والمعارف في البلاد لتربية جيل يتولّى مسؤولية النّيابة عن الجماهير، وأوجب تحسين التّربية وتقديم المصلحة العامّة على المصلحة الخاصّة، كما أوجب إطلاق الحرّيّات العامّة؛ حرية الاجتماعات والأفكار والأقوال والأعمال والمطابع يضبطها قانون عادل يرسم حدودها ويرفع اللُّبس عنها، ونصّ على إيجاد الحوافز والمكافآت للمبدعين والمبادرين للتّشجيع على خدمة المصلحة العامّة للبلاد، ودعا إلى ضرورة وضع قوانين تفصل بين الحقّ والباطل والصّحيح والفاسد في مختلف جوانب حياة المجتمع.

وقد ذكر كلّ تلك المبادئ في خطابه الذي ألقاه أثناء احتفال جمعية المقاصد في فبراير 1882م بمناسبة التّصديق على لائحة مجلس النوّاب، وفيه جاهر بفكره السّياسيّ ضمن الحركة الثّورية العُرابية التي أخذ يدافع عنها بعدما كان يهاجمها، وساهم في بناء الحياة الثّورية الجديدة في سبتمبر 1881م بعدما كان ينتقدها لمّا كانت تقودها جماهير عامّة المصريين، وصار مِنْ قادتها الإصلاحيّين المعتدلين، يرى بأنّ الثّورة حقّقت ما كانت تسعى لتحقيقه، وارتبط بالثّورة والثّوار الذين أعطوه جرعة مِنَ الحماس طَعَّمَ به منهجه الإصلاحيّ بجملة مِنَ المبادئ الثّورية، وصار يمثّل تيارا في الحركة الوطنية لها خطّ فكريّ ثوريّ وأسلوب في العمل السّياسيّ لعب دورا إيجابيّا في التّأثير على المصريّين، فجمع فكره بين التّيار الإصلاحيّ والفكر الثّوريّ الذي تجلّى في أقواله وكتاباته ومواقفه المتميّزة بالاعتدال والدّفاع عن الثّورة والمساهمة في صنع أحداثها منذ اندلاعها إلى غاية انهزامها.[2]

---

[1] محمّد عمارة، الوعي بالتّاريخ وصناعة التّاريخ، مرجع سابق: ص208- 216.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص218- 221.

لقد استطاع الشّيخ محمّد عبدَه أنْ يطوّر صحيفة الوقائع المصرية، فعوض أنْ تكتفي الجريدة بنقل الأخبار ومدح الأمير، جعلها تهتمّ بتربية المجتمع وتهذيب أخلاقه وتثقيفه ومعالجة مشكلاته، والتّركيز على إصلاح التّعليم المصريّ، فكتب مقالات كثيرة انتقد فيها المعلّمين وطرائق التّدريس وسياسة التّعليم والبرامج المتّبعة والمقرّرات الموضوعة، فأظهر عجزها وقصورها عن مواكبة الواقع المصريّ المتردّي وأعطى البدائل لتحسين حاله وتطويره، وهو ما كُلِّل بإنشاء المجلس الأعلى للمعارف، كما أسهم في تطوير أسلوب أدب المقالة الصّحفيّة التي خلّصها مِنْ كثرة السّجع ومِنْ الرّطانة التي كانت تميّز الصّحافة آنذاك، فكانت المحصّلة أنْ جعل الجريدة أحد منابر الإصلاح التّربويّ.[1]

والملاحظ على مقالات الشّيخ محمّد عبدَه الصّحفية في جريدتَيْ الأهرام والوقائع المصرية وغيرهما؛ أنّها كانت تستهدف في غالبها الإصلاح الاجتماعيّ في مصر بأسلوب هادئ يغلب عليه العقل والتّحفّظ والتّدرّج، وأمّا مقالاته في العروة الوثقى فهي تنظر إلى العالم الإسلامي كلّه على أنّه وحدة واحدة، فإنْ ذَكرتْ مصر أو الهند فعلى سبيل المثال، وكانت تقصد أوّل ما تقصد إلى مناهضة الاحتلال الأجنبيّ بجميع صوره، وتهدف إلى رفع نيره عن العالم الإسلامي كلّه عن طريق ثورة الشّعوب، وبَثِّ روح العزّة القومية بواسطة العقيدة الدّينية الصّحيحة، وخَلْقِ الأمل في النّجاح مكان اليأس، وتَوثيقِ الصِّلات بين الشّعوب الإسلامية كلّها لتتعاون على دفع أذى الأجنبيّ عنها والتّخلّص مِنَ المستبدّين الظّالمين مِنْ أهلها وتأسيس الحياة الاجتماعية والدّينية والسّياسية على أسس أصول الإسلام الأُولَى.[2]

والخلاصة أنّ الشّيخ محمّد عبدَه سخّر الصّحافة لنشر مقالاته بشكل واسع لتبليغ أفكاره الإصلاحية إلى قطاع عريض في المجتمع المصريّ وفي غيره مِنَ المجتمعات العربية والإسلامية، حيث تركّزت أغلب مضامينها في الجانب التّربويّ والتّعليميّ، فاستغلّ الجرائد المشهورة التي كانت تحظى بمقروئية كبيرة في الأوساط المصرية كجريدتَيْ الأهرام والوقائع المصرية، والجرائد والمجلّات الأخرى الرّائدة الذّائعة الانتشار في العالم العربيّ والإسلاميّ كجريدة العروة الوثقى ومجلّة المنار، فلقيتْ مقالاته القبول وحظيتْ بالاهتمام والقراءة مِنَ المصريّين ومِنْ غيرهم، وأثّرتْ على أفكارهم وتوجّهاتهم، لحثّه إياهم على تعلّم العلوم والمعارف التّقليدية والعصرية المفيدة واللّغات الأجنبية وبعض العلوم التي تحفّظ عليها بعض شيوخ الأزهر، فأنكر عليهم مواقفهم تجاهها، ودعا إلى ترجمة العلوم إلى العربية، مُبْرزا في مقالاته أولوية الإصلاح التّربويّ على الإصلاح السّياسيّ والثّوريّ، كما تكلّم عن الكتب الضّارّة المتداولة في المجتمع المصريّ وطالب بمصادرتها وقدّم الكتب البديلة عنها، ودعا إلى انتقاء المعلّمين وتقييمهم وتشجيع النّاجحين في مهامهم ومكافأتهم، ومعاقبة المقصّرين وتنزيل رتبهم، ووضع المقرّرات التي تناسب مستوى تلامذتهم، وحثّ الميسورين على دعم العلوم والمعارف، وشجّع على إنشاء المدارس وتسخيرها في التّربية الإسلامية، كما ثمّن فتح المدارس اللّيلية لتمكين الموظّفين في النّهار مِنْ تعلّم العلوم واللّغات، فكتب حول هذه الموضوعات وغيرها لتجسيد أفكاره الإصلاحية التّربويّة.

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص74.

[2] ينظر: سعيد إسماعيل علي، الإصلاح التّربوي عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص630.

المطلب الثّالث: الحوارات والمناظرات والمراسلات

لم تكن جهود الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية في التّربية قاصرة على توظيف المؤسّسات التّعليمية والتّربوية والدّينية، وعلى تأليف الكتب وكتابة المقالات الصّحفية، وعلى الوعظ والإرشاد والخطابة، وإنّما تَعَدَّتْها إلى استعمال كلّ الوسائل المتاحة المشروعة لينجح في تحقيق أهدافه ومقاصده الإصلاحية السّامية، ليجعل مِنْ بين وسائله التّواصل والاحتكاك بالنّخب العربية المسلمة وغير المسلمة مِنْ بني جلدته مِنَ الجامدين والمقلّدين، وكذا التّواصل مع النّخب والأقطاب والرّموز الغربية مِنَ المفكّرين والمستشرقين والمؤرّخين المشهورين، فاتّصل بهم ورحل إليهم وناقشهم وحاورهم وناظرهم وراسلهم لإقناعهم بأفكاره وآرائه وطروحاته، قام بذلك قصد تعريفهم بالإسلام وتوضيح حقائقه التّاريخية والدّينية حول الإسلام والمسلمين والرّدّ على شبهاتهم ودحضها وبيان زيفها وبطلانها، وفي هذا المطلب سيتمّ الحديث عن حواراته ومناظراته في الفرع الأوّل، ثمّ الكلام عن مراسلاته في الفرع الثّاني.

الفرع الأوّل: الحوار والمناظـرة

خاض الشّيخ محمّد عبدَه معترك الإصلاح والتّجديد طيلة حياته منذ أنْ وعى وإلى غاية وفاته، سعيا منه لتحقيق أهدافه وغاياته الإصلاحية، للنّهوض بالأمّة وتطويرها وازدهارها وإخراجها مِنْ ربقة الجهل والتّخلّف والرّقي بها إلى مصافّ الأمم التي أخذت بأسباب القوّة، وبادر إلى اقتراح جملة مِنَ الإصلاحات، وحرص على إدراج تدريس العلوم القديمة والعصرية في الأزهر مِنْ منظور إسلاميّ بعدما اقتراحها على الخديوي عباس الثّاني بعدما مُنِعَ تدريسها بمبرّر البدعة والزّندقة والكفر، فثارت حفيظة بعض شيوخ الأزهر المانعين لها كالشّيخ البحيري والشّيخ الشّربيني وغيرهما مِنَ الذين كانت بينهم وبين الشّيخ محمّد عبدَه مساجلات كلامية مباشرة وغير مباشرة على صفحات الجرائد، فجادلهم وحاججهم وجادلهم انتصارا لأفكاره ومحاولا إقناعهم بها بالحجّة والدّليل، كما كانت له أيضا مناظرات وحوارات مع غير المسلمين مِنَ السّاسة والمفكّرين الذين شنّوا حَمْلات مسعورة ضدّ الإسلام وتشريعاته، فحاور وناظر بني ملّته المصريّين، كما حاور وناظر نخب الغرب المترصّدة بالإسلام والمسلمين، الذين استماتوا في النّيل مِنَ الإسلام وتكريس الجهل والتّخلف والاستبداد والاستعمار بغية هيمنة الأوروبّيّين على المصريّين، وفرض هويتهم وعقيدتهم على حساب هوية وعقيدة العرب والمسلمين.

وفتح حوارات موضوعية مع شيوخ مصر وعلمائها ومفكّريها بمختلف اتّجاهاتهم وانتماءاتهم وناظرهم لإقناعهم بأفكاره وإقامة الحجّة عليهم، كما حاور علماء الغرب ومفكّريه وساسته في عقر ديارهم، حتّى أصبحت حواراته ومناظراته وكتاباته ومراسلاته سجلّاتٍ ووثائقَ نفيسةً في مختلف جوانب الحياة، لاشتمالها على الأدلّة العقلية والنّقلية والتّاريخية والواقعية، لما اشتملتْ عليها مِنْ مناقشات وردود على دعاوي المستشرقين ومغالطاتهم وأباطيلهم خصوصا ما تعلّق منها بمقارنة دين الإسلام بالشّرائع الأخرى المحرّفة، فكان بحقٍّ رائدا في الحوار مع غير المسلمين في الدّاخل والخارج.[1]

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص223.

أوّلا: حواره ومناظرته لبعض شيوخ الأزهـر

تَولَّى الشّيخ محمّد عبدَه التّدريس في الجامع الأزهر، وعندما وقف على الكثير مِنَ الاختلالات المستشرية فيه، قام بمحاولات حثيثة لإقناع الخديوي عباس الثّاني ليسمح له بإصلاحها، فبدأ بإصلاح نظام الدّراسة وتحديد بداية انطلاقها ونهايتها، وتحديد مدّتها وإجازاتها وبرمجة امتحاناتها، ووضع مقرّرات مناسبة خالية مِنَ الحواشي والشّروح والتّقارير العقيمة، كما أدرج علوما مُنِعَتْ بحجّة اشتمالها على الزّندقة والكفر، فأدرج موادًّا وعلوما حديثة ليربط طلّاب الأزهر بالحياة المعاصرة، ولمّا قدّم تلك المقترحات، ثار عليه بعض شيوخ الأزهر الجامدين، وتصدَّوْا له وعارضوه، فكان مِنْ بينهم:

1- حواره مع الشّيخ محمّد البحيـري

قال الشّيخ محمّد عبدَه للشّيخ البحيري ماذا تُعلِّمون طلاّب الأزهر؟ فَردَّ البحيري قائلا: إنّنا نُعَلِّمهم كما تَعَلَّمْنَا! فقال له الشّيخ محمّد عبدَه: وهذا الذي أخاف منه! فردّ عليه البحيري: ألم تتعلّم أنت في الأزهر وقد بلغتَ ما بلغتَ مِنْ مراقي العلم، وصِرتَ فيه العَلَمَ الفَرْد؟ فقال الشّيخ محمّد عبدَه: إنْ كان لي حظّ مِنَ العلم الصّحيح الذي تذكر، فإنّني لم أحصّله إلّا بعد أَنْ مكثتُ عشر سنين أكنس مِنْ دماغي ما علق فيه مِنْ وساخة الأزهر، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له مِنْ نظافة![1]

لقد كانت للشّيخ محمّد عبدَه جراءة كبيرة في القيام بإصلاح التّعليم الأزهريّ مع أوّل ترخيص له مِنَ الخديوي، حيث توجّه مباشرة إلى وضع مقرّرات مناسبة وموادّ دراسية شاملة ومتنوّعة لتحقيق التّربية الأخلاقية والتّكوين العلميّ والفكريّ لطلاّب الأزهر، وعَقَدَ جلساتٍ تحاورَ فيها مع شيوخ الأزهر الجامدين، وعرضَ أفكاره عليهم وحاول إقناعهم بطروحاته وانتقاداته لما يُدَرّس فيه، رغم فضل الأزهر عليه في اكتساب تلك المكانة العلمية التي كان يتمتّع بها، ومع ذلك وصف ما حصّله مِنَ الأزهر بأنّها وساخة قضى ردحا مِنَ الزّمن وهو يعمل على إزالتها مِنْ ذهنه دون أنْ يكمل تنظيفه منها، وهذا ليس تحاملا منه على الأزهر فهو يكنّ له كلّ التّقدير والاحترام إذْ لم يقصد بكلامه الأزهر بعينه لكونه جمادا، وإنّما قصد شّيوخه المتنفّذين الذين فرضوا منطقهم وأفكارهم وممارساتهم على طلبة الأزهر الذين لقّنوهم أفكارا بعيدة عن روح الدّين وكماله ومرونته وانفتاحه، فوصف ما علق بفكره بالوساخة التي أخذها منهم، مقتصرا على ذكر المحلّ -الأزهر- لشهرته دون ذكر الحالّ فيه -شيوخ الأزهر-، فكان منه ذلك الموقف القاسي على الأزهر بسبب ما كان يسوده مِنْ جمود وعقم في مقرّراته الدّراسية، ولتنكّبه المضمار الذي وُضِعَ له حتّى يؤدّي رسالته السّامية في نشر الإسلام الذي جاء به محمّد ﷺ.

2- حواره مع الشّيخ عبد الرّحمان الشّربيني

امتدّت مطارحات الشّيخ محمّد عبدَه الفكرية وحِجاجاته العلمية المتعلّقة بإصلاح مقرّرات الأزهر ومواده ووضع ما يناسب طلاّبه حتّى يكونوا عمليّين وإيجابيّين ومُعايشين لواقعهم، لتَخرج إلى العلن ويطّلع عليها الصّديق والعدوّ والدّاني والقاصي عبر صفحات الجرائد.

---

[1] ينظر: سعيد إسماعيل علي، الإصلاح التّربوي عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص667.

لقد راجع شيخُ الأزهر عبد الرّحمان الشّربيني الشّيخ محمّد عبدَه عبر صفحات الجرائد وسَخِطَ عليه وعلى مقترحاته لتجديد الأزهر وتطويره وإصلاح التّعليم فيه، فصرّح الشّيخ الشّربيني بحديث له عبر جريدة الجوائب المصرية في 12مارس 1904م، واتّهم فيه الشّيخ محمّد عبدَه بأنّه يريد تحويل الأزهر إلى مدرسة لتعليم الفلسفة والآداب التي تحارب الإسلام وتطفئ نوره، فردّ عليه الشّيخ محمّد عبدَه عبر جريدة المقطَّم في 18مارس1904م بمقال ضمّنه أدلّة تبيّن حاجة الدّراسات الإسلامية للدّراسات الفلسفية والآداب وما يقيم الدّين مِنْ علم صحيح، عكس ما كان يَدْرُسُهُ الشّربيني مِنْ علوم منفّرة مِنْ علوم الدّين، وبرهن له بأنّ الحسابَ مِنْ أبواب الفقه وأنّ علم الفرائض مِنْ أهمّ أقسامه، وأنّ الآداب والأخلاق تُكتَسَب مِنَ الدّين، وهي تمثّل الفقه الحقيقيّ الذي لا قوام لعلوم الشّريعة بدونه.[1]

3- حواره مع الشّيخ محمّد علِّيش

ولمّا كان الشّيخ محمّد عبدَه طالبا في الأزهر دار بينه وبين الشّيخ محمّد علّيش -المعروف بتشدّده وتشبّثه بالقديم- حوارات ومناقشات تطوّرت إلى مشادّات كلامية وصلتْ إلى حدّ التّشابك بالأيدي والتّلويح بالعصيّ، فمحمّد عبدَه كان رافضا للتّقليد منذ بدايات حياته العلمية، يعترض على شيوخه وينتقد أفكارهم في شجاعة كبيرة وجراءة فريدة، منها تلك الحادثة الشّهيرة التي ترجمت موقفه الأصيل حينما بَلَغَ الشّيخ علِّيش أنّ محمّد عبدَه يشرح العقائد النّسفية لأقرانه في الأزهر ويرجّح مذهب المعتزلة على مذهب الأشعرية، سأله مستفسرا ومتّهما عن ذلك، فردّ عليه محمّد عبدَه بذكاء وجراءة: "إذا كنتُ أترك تقليد الأشعري فلِمَ أقلّدُ المعتزلي؟! إنّني آخذ بالدّليل ولا أقلّد أحدا".[2]

فاعتبر الشّيخ محمّد عبدَه تحرير الفكر مِنْ قيود التّقليد إحدى ركائز ومعالم إصلاحاته، واستمرّ الخلاف بين الشّيخ محمّد عبدَه المحسوب على المدرسة الإصلاحية والشّيخ علّيش المحسوب على المدرسة التّقليدية المحافظة، فالشّيخ محمّد عبدَه كان ينظر في النّصوص ويفعّلها وينزّلها على الواقع، ويجتهد مع النّصوص الظنّية ويُعمل عقله وفكره فيها بمرونة لتحقيق إصلاحاته التّربوية المنشودة.

ذكر يوسف القرضاوي[3] أنّ الاختلاف بين الشّيخين يرجع إلى أنّ الشّيخ علّيش يمثّل المدرسة التّقليدية بما لها مِنْ مزايا وما فيها مِنْ عيوب، ملتزمٌ بمذهبه متعمّقٌ في درسه معتمدٌ على النّقل مِنْ كتب المتأخّرين، غير مهتمٍّ بمشكلات العصر وما يدور في أعماق الحياة الاجتماعية مِنْ تيّارات، غير

---

[1] ينظر: سعيد إسماعيل علي، الإصلاح التربوي عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص666و667.

[2] زينب محمود الخضيري، التطوّر والإصلاح عند محمّد عبدَه، ص85، ضمن كتاب: الشّيخ محمّد عبدَه بحوث ودراسات عن حياته وأفكاره لعاطف العراقي، وينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص19.

[3] **يوسف القرضاوي(1926- 2022م):** عالم وفقيه ومفكّر وداعية مصري، حصل على شهادة العالية والعالمية مِنْ كلّية أصول الدّين مِنْ جامعة الأزهر، وعلى دبلوم الدّراسات العربية العالية في اللّغة والأدب، وحصل على الماجستير في شعبة علوم القرآن والسّنّة مِنْ كلّية أصول الدّين سنة 1960م، وفي سنة 1973م حصل على الدّكتوراه بامتياز مع مرتبة الشّرف الأولى مِنْ نفس الكلّية عن: "الزّكاة وأثرها في حلّ المشاكل الاجتماعية"، مِنْ مؤلّفاته: الحلال والحرام في الإسلام، فقه الزّكاة، وله مقالات وبحوث علمية في المجلّات والصّحف العربيّة والإسلامية والعالمية، شارك في المؤتمرات العلمية المحلية والإقليمية والعالمية، وزار الكثير مِنَ الجامعات العربيّة والإسلامية والعالمية مدرّسا ومحاضرا، ينظر: موقع: https://www.al-qaradawi.net ، تاريخ الزّيارة: 2020/09/19م في السّاعة: 09:00 صباحا.

معترفٍ بما يطرأ على المجتمع مِنْ تغيّرات، فقال فيه: "وكان الشّيخ علّيش معاصرا للشّيخ محمّد عبدَه ومِنْ ألدّ خصومه في اتّجاهه ومنهج تفكيره، وهما يمثّلان الصّراع بين القديم والجديد".[1]

وبرغم الاختلافات التي حصلتْ بينهما أثناء تلك الحوارات، ورغم العداء الذي كان يكنّه الشّيخ علّيش لمحمّد عبدَه الطّالب بسبب مواقفه الرّافضة لطريقة شيوخ الأزهر في التّدريس وموقفهم مِنَ العلوم الفلسفية والكلامية والمنطقية، إلّا أنّ الشّيخ محمّد عبدَه -حاملُ لواء التّربية والإصلاح-، لم تمنعه أخلاقه الفاضلة ومبادئه السّامية مِنْ أنْ يُنْزِلَ النّاس منازلَهم، بأنْ يترحّم على الشّيخ علّيش في ويدعو له بعد موته، رغم العنت الذي لقيه منه والشدّة التي قابله بها أيّام طلبه للعلم بجامع الأزهر.

ثانيا: حواره ومناظرته لبعض المفكّرين والسّاسة العرب والغربيّين

واجه الشّيخ محمّد عبدَه حمْلات مسعورة مِنْ مفكّري العرب والملحدين والعلمانيّين في الشّرق، ومِنْ مفكّري ومستشرقي وساسة الغرب الصّليبي، الذين استهدفوا الشّرق الإسلاميّ، وعملوا على تكريس جهودهم لخدمة الاستعمار وأعوانه، فلم يكتف بالتّنظير والكلام، بل سعى إلى تنفيذ إصلاحاته التّربوية لتحصين أمّته مِنْ أعداء الإسلام المتعدّدي المشارب والاتّجاهات، وتمكينها مِنْ مواجهتهم وردّ شبهاتهم ودحض أباطيلهم التي أثاروها حول عقيدة الإسلام وشريعته وأحكامه، فأخذ بالوسائل المناسبة للتّصدّي لهم، وحاور وناظر أشهر مفكّري وساسة العرب والغرب الذين أذكر منهم ما يأتي:

1- حواره مع بعض المفكّرين العــرب

*** فــرح أنطــون**[2]

كان فرح أنطون مِنَ الشّخصيات الفكرية العربية التي خاض معها الشّيخ محمّد عبدَه معارك فكرية كبرى دفاعا عن الإسلام وحضارته[3]، كتب إليه يناظره برسائل علمية، تَنِمُّ عن معدنه النّقيّ الأصيل وعلمه الغزير وأدبه الرّفيع وخلقه الدّمث وتحضّره الرّاقي، فأفحمه وأقام عليه الحجّة والبرهان.

أثار فرح أنطون جملة مِنَ القضايا المعادية للإسلام المناقضة لمبادئه وأحكامه في مجلّة الجامعة أهمّها: ضرورة الأخذ بالعلمانية للفصل بين الدّين والدّولة، وأنّ الإسلام لم يكن متسامحا مع العلم كالنّصرانية، وبأنّه اضطهد العلوم والفلسفة والنّصرانية، كما دعا إلى ضرورة الفصل بين الدّين والعلم بحجّة أنّ العلم يقوم على العقل، وأنّ قواعده مبنية على التّجربة والمشاهدة، أمّا الدّين فيقوم على القلب الذي تُبنى قواعده على التّسليم بما ورد في الكتب، فردّ عليه الشّيخ محمّد عبدَه بأنّه لا يمكن الأخذ بالعلمانية لضرورة الدّين للحاكم الذي لا يمكنه التّحرّر منه، وأنّ أكبر دليل على تسامح الإسلام والمسلمين مع النّصرانية والعلم، ما نشره أنطون مِنْ كتابات معادية للإسلام في مجلّته في بلاد المسلمين

---

[1] يوسف القرضاوي، الفتوى بين الانضباط والتسيّب، مرجع سابق: ص16و17.

[2] **فرح أنطون(1874-1922م):** باحث وصحفيّ وروائيّ، ولد وتعلّم بطرابلس الشّام، انتقل إلى الإسكندرية سنة 1897م وبها أصدر مجلّة الجامعة العثمانية، رحل إلى أميركا سنة 1907م وأصدر مجلّة الجامعة، وعاد إلى مصر وشارك في تحرير بعض الجرائد، كتب عدّة روايات تمثيلية، وتوفّي بالقاهرة، مِنْ آثاره: مجلّة الجامعة، ابن رشد وفلسفته، تاريخ المسيح ترجمه عن الفرنسية، ونحو خمس وعشرين رواية منها: الدّين والعلم والمال، بولس وفرجيني، أورشليم الجديدة، ينظر: الزركلي، الأعلام، ج5، ص141، ولمّا أنشأ محمّد رشيد رضا المنار كلّفه بمساعدته في ترجمة بعض المسائل مِنَ الجرائد الفرنسية بمقابل، ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج1، ص805.

[3] ينظر: محمّد عمارة، شخصيات لها تاريخ، مرجع سابق: ص191.

دون أنْ يؤذيه أحد، وأمّا ما يتعلّق بتعارض العلم مع الدّين وضرورة الفصل بينهما فهذا مِنْ أبرز أصول النّصرانية التي تدعو إلى التّجرّد مِنَ الدّنيا والانقطاع إلى الآخرة والعلم لا شأن له بأمور الآخرة، أمّا الإسلام فمِنْ أصوله النّظر العقليّ الذي هو وسيلة الإيمان الصّحيح، وكذا جنوحه إلى تقديم العقل على ظاهر الشّرع عند تيقّن التّعارض بينهما.[1]

كتب فرح أنطون حول فلسفة ابن رشد وذكر بأنّ النّصرانية أكثر تسامحا مِنَ الإسلام مع الفلسفة والعلم، فساء ذلك المسلمين وطلبوا مِنَ الشّيخ محمّد عبدَه تَوَلّي مهمّة الردّ عليه، ولمّا رأى امتعاض المسلمين منه واهتمامهم بذلك، اغتنم الفرصة ليبيّن جَهلَهم بدينهم وإعراضَهم عنه، وناظره برسائل متبادلة بينهما سنة 1902م برز فيها الشّيخ محمّد عبدَه قامة علمية وأخلاقية مثالية فريدة، تدلّ على علوّ كعبه في علوم الشّريعة وفي الشّرائع السّماوية المحرّفة، وعلى إحاطته بواقع المسلمين المهزوم، ومعرفته بواقع الدّول الغربيّة المتطوّرة الجادّة في محاربة الإسلام والمسلمين لبسط نفوذها على أراضيهم واستعمارها ونهب خيراتها، فترجم قيم ومبادئ وأخلاق الإسلام وتحضّره مِنْ خلال مناظراته لأصحاب الملل والنِّحل الأخرى كما هو الشّأن مع فرح أنطون الذي كان يخاطبه دائما بقوله: "حضرة الفاضل المحترم فرح أفندي أنطون"، وقد كتب الشّيخ محمّد عبدَه برسائل جوابية يناظره ويردّ فيها عليه بَلَغَتْ العشرين دون أنْ يَحْدُث لقاء بينهما[2]، وقوله له: "ولدُنا العزيز"، "ولدُنا الفاضل السّلام عليكم"[3]، وقد ختم آخر كتاب له بقوله: "إلى صاحب الجامعة: لو احتقرتُكَ ما كتبتُ إليك كلمة، وإنّكَ تسيء الظنّ بنفسكَ أكثر ممّا يسيئه بكَ غيركَ، وكنتُ أودّ لو كنتَ لنفسكَ أفضلَ ممّا أنتَ لها اليوم، ولكن، اللّهم عَرِّفْنا بأقدار أنفسنا فذلك اللّهمّ أنفَسُ ما تُعطِي وأفضلُ ما تهبْ، والسّلام".[4]

لقد سخّر الشّيخ محمّد عبدَه حياته لخدمة الإسلام؛ يُعرّف به ويُوضّح معالمه ويَنشر حقائقه ويُصحّح ما يشاع عنه مِنْ مفاهيم خاطئة، ويَردّ عنه ما يُلصق به مِنْ أفكار جانحة مشوّهة له للصدّ عنه ولمحاربته، مِنْ ذلك موقفه الحازم والمفحِم مع فرح أنطون الذي نشر في مجلّة الجامعة العثمانية مقالا عن ابن رشد ذكر عنه فيه أنّه كان زنديقا، وقرّر فيه أنّ النّصرانية كانت أوسع صدرا وأكثر تسامحا مع العلماء والفلاسفة مِنَ الإسلام وأقلّ اضطهادا لهم، فردّ عليه في سلسلة مقالات أثبتَ له فيها سعة صدر المسلمين مع الفلاسفة والعلماء والدّيانات الأخرى ممّا لم يكن له نظير في أيّ دين آخر، وأثبتَ له بالوقائع والأحداث التّاريخية بأنّ النّصرانية اضطهدتْ علماءها وعلماء سائر الملل الأخرى، وأظهر له كيف خدم الإسلامُ العلمَ والمدنيةَ وكيف كان متسامحا مع المخالفين له.[5]

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص128.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص138.

[3] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص805- 816.

[4] المصدر نفسه: ج1، ص816.

[5] ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص332، وينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، ص85و86.

وبيّن له بالأدلّة العلمية والوقائع التّاريخية الثّابتة، أنّ دين الإسلام لا يتعارض أبدا مع روح المدنية الحديثة ومع ثمرات العلم الحديث، وردّ عليه قائلا: "إنّ الإسلام لن يقف عثرة في سبيل المدنية أبدا لكن سيهديها وينقّيها مِنْ أوضاره، وستكون المدنية مِنْ أقوى أنصاره متى عَرَفَتْهُ وعَرَفَها أهله".[1]

وفي معرض ردّه على فرح أنطون، عقد الشّيخ محمّد عبدَه في كتابه: الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية، مقارنة بين الإسلام والنّصرانية في مجالَيْ المدنية والحرّية[2]، وبرهن له ولأمثاله فيها عن مدى جنايته على الحقّ والحقيقة ومدى تعصّبه للباطل وتحيّزه له في محاربته للإسلام، بعرضه لتلك الشّبهات المتهافتة والأفكار المغلوطة العارية عن الصّحّة البعيدة عن الموضوعية والأمانة العلمية.

2- حواره مع بعض المفكّرين والسّاسة الغربيّين

أ)- جابرابيـــل هانوتـــو[3]

تعدُّ مناظرة الشّيخ محمّد عبدَه له مِنْ أشهر ما كتبه في ردّه على وزير خارجية فرنسا جابراييل هانوتو في كتابه حول الإسلام والعقائد السّامية والآرية، وقد توالت الرّدود بينهما حتّى بلغت ستّة مقالات في ثمانية وستّين صفحة، وكان غرضه مِنْ ردوده عليه، تنبيه المسلمين للنّظر في عيوبهم والبحث عن الأسباب التي أفسدتْ عليهم دينهم ودنياهم وعمّت الحكّام والمحكومين، وبيان المخرج منها بإصلاح التّربية والتّعليم والإدارة والسّياسة[4]، فكان لهانوتو بالمرصاد الذي خاض معه أكبر المعارك الفكرية التي دافع فيها عن الإسلام بصدق وعقلانية وأفحمه بردودٍ علميةٍ منقطعة النّظير.[5]

لقد ألقى هانوتو خطابا في المجمع الجغرافيّ في مارس 1902م حول البحث عن طريقة لحكم المسلمين في إفريقيا، وفيه طعن في عقيدة المسلمين، نشرته جريدة الجورنال دي باري في مقال بعنوان: وجها لوجه مع الإسلام والمسألة الإسلامية، فكتب الشّيخ محمّد عبدَه ردّا عليه بيّن له فيه جهله بالأديان وبالتّاريخ، الأمر الذي جعل هانوتو يتراجع عن أقواله ويعتذر عن طعونه في الإسلام وأحكامه.[6]

وقد أورد الشّيخ محمّد عبدَه قول هانوتو الذي اعترف فيه بحقائق الإسلام وتراجعه عن طروحاته ضدّه قائلا: "إنّ التّمدّن الأوروبّيّ يجد في طريقه في إفريقيا لاسيما في شمالها ذلك الدّين العظيم الذي هو دين الإسلام، والذي هو في هذه الجهات(شمال إفريقيا) أكثر نشاطا منه في غيرها، وهذا الدّين يدعو إلى إله واحد، فمِنَ الواجب أنْ ندرس هذا الدّين ونبذل جهدنا في فهمه، وعلينا أنْ نتّخذ الكلمة الإسلامية:﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ٢٥٦﴾[سورة البقرة]، شعارا لا نخرج عن حدود معناها، وأنْ نحترم

---

[1] زينب محمود الخضيري، التّطوّر والإصلاح عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص84.

[2] ينظر: أنور الجندي، اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار، مرجع سابق: ص234.

[3] **جابراييل هانوتو(Gabriel Hanotaux)(1853- 1944م):** مؤرّخ وسياسيّ فرنسيّ، عُيّن وزيرا للخارجية سنة 1884م، وشغل مندوب فرنسا في عصبة الأمم، وانتُخب عضوا في أكاديمية اللّغة الفرنسية سنة 1897م، مِنْ أعماله: دراسات تاريخية عن القرنَيْن السّادس عشر والسّابع عشر في فرنسا، تاريخ الجمهورية الثّالثة، التّاريخ الرّسمي لفرنسا المعاصرة، معاهدة فرساي، تاريخ الأمّة الفرنسية، ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة، تاريخ الزيارة: 2019/01/22م في السّاعة 09:50، قال عنه صاحب جريدة الأهرام: "هانوتو الكاتب البعيد الصّيت والسّياسيّ الواقف على أحوال أوروبّا والشّرق"، ينظر: محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، مصدر سابق: ص35.

[4] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص798و799.

[5] ينظر: محمّد عمارة، شخصيات لها تاريخ، مرجع سابق: ص191.

[6] ينظر: محمّد عبدَه، الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية، ص194، وينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، ص81- 85.

الدّين الإسلامي ونحميه مِنْ كل طارئ سوء، ولا بأس بذكر كلمةٍ للأمير عبد القادر الجزائري في هذا المقام وهي:(إنّ أصحاب الأديان الثّلاثة يُشْبِهُون ثلاثة إخوة مِنْ ثلاث أمّهات)"[1]، كما ذهب هانوتو إلى إرشاد أهل ملّته إلى اتّباع سياسة جديدة مع المسلمين بانتهاج السِّلم والأمن والتّساهل معهم، وتركهم يدينون بدينهم ويعملون بأحكامه واحترام حقوقهم وعدم تنصيرهم.[2]

وقد أشاد محمّد رشيد رضا بدور شيخه محمّد عبدَه في الردّ على هانوتو حتّى جعله يعتذر عن تصريحاته المستفزّة، ويشيد بالإسلام ويدعو لمسالمته، فقال: "وَبِرَدِّهِ على مسيو هانوتو ذلك الرّدّ الذي اهتزّت له أوروبّة والشّرق وألجأتْ ذلك الكاتب الكبير والوزير الشّهير إلى الاعتذار للإمام المصريّ".[3]

إنّ هانوتو قارن بين المدنية النّصرانية والمدنية الإسلامية، وركّز على مسألتَيْن عَقَدِيَّتَيْنِ هما: ذات الله والقضاء والقدر، وبرّر بأنّ اعتقاد النّصارى بالتّثليث وتَصَوُّرهم للإله الإنسان هو الذي جعلهم يرفعون الإنسان إلى مقام الألوهية، وأنّ العقيدة الإسلامية ودعوتها إلى التّوحيد وتنزيه الله عن البشرية وتقريرها لعقيدة القضاء والقدر، هي التي حملت الإنسان على الضّعف والوهن، وحملت المسلمين على الجمود والرّكود، وأنّ العقيدة النّصرانية القائلة بحرّية وإرادة الإنسان دفعته إلى الجدّ والعمل، كما زعم أنّ التّخلّف الذي يعانيه المسلمون يرجع إلى تمسّكهم بالعقيدة الإسلامية، وأنّ النّصرانية أنتجتْ مدنية حديثة، في حين أنّ الإسلام لم ينتج إلّا التّخلف والتّقهقر والانحطاط.[4]

وبمجرّد نشر المقال في جريدة المؤيّد مترجما إلى العربية جاء الرّدّ حاسما مِنَ الشّيخ محمّد عبدَه، حيث لم يُتمَّ ليلته حتّى كتب في ثان يوم مِنْ نشر المقال ردّا على هانوتو ونشره، لتتوالى مقالاته في الصّدور، وصحّح المغالطات والمفاهيم الخاطئة التي تضمّنها مقاله وما فيه مِنْ مقارنات منحازة للنّصرانية بعيدة عن العلمية والموضوعية، وبيّن له فيها فضل الإسلام وسموّ عقيدة التّوحيد، وأنّ الإسلام لم يَدْعُ إلى الجبرية، وأنّ في القرآن أربعا وستين آية أثبتت الكسب والاختيار وحرّية الإرادة، وكان مِنْ نتائج تلك المطارحات والرّدّود والمقالات تأليفه لكتاب الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية[5]، ولمّا كتب هانوتو في جريدة الأهرام يهاجم الإسلام وثقافته، كشف الشّيخ محمّد عبدَه بسعة علمه وفقهه بالإسلام وبفكره المتنوّر وإلمامه الكبير بالثّقافة العربية والإسلامية عن الفوارق الكبيرة بين تعاليم الإسلام وتعاليم الأمم الأخرى، وبيّن أخطار الغزو الخارجي المتعدّد الذي حاق بالمسلمين.[6]

فردّ الشّيخ محمّد عبدَه على هانوتو ردّا منطقيّا مفحِما بيّن له فيه بأنّه لا علاقة بين النّصرانية والمدنية الحاضرة، فالإنجيل أَمَرَ أتباعه بالانسلاخ مِنَ الدّنيا وعدم الاهتمام بها، وأنّ الإسلام ليس ديانة روحية محضة، وإنّما هو دين ودنيا يحثّ النّاس على جلائل الأعمال الدّنيوية والأخروية على السّواء، لهذا استطاع أنْ يَبْني مدنيّة شاملة، وهذا ما شهد به أبناء الغرب النّصرانيّين الذين أقرّوا أنّ

---

(1) محمّد عبدَه، الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية، مصدر سابق: ص195.

(2) ينظر: المصدر نفسه: ص196.

(3) محمّد رشيد رضا، المنار والأزهر، مصدر سابق: ص22.

(4) ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص127.

(5) ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص332.

(6) ينظر: أنور الجندي، اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار، مرجع سابق: ص234.

النّصرانية أقامت في الأرض ستّة عشر قرنا ولم تأت بِفَلَكِيٍّ واحد، وأنّ المسلمين أخذوا يبحثون في العلوم بعد وفاة نبيّهم ببضع سنين، وهذا مَأْخَذٌ على النّصرانيّين لا على ديانتهم.[1]

كان الشيخ محمّد عبدَه يطالع كلّ ما يُكتب عن الإسلام والمسلمين، ويتابع ما يجري في بلادهم وفي العالم مِنْ أحداث، وما يصدر مِنْ تصريحات وخطابات وكتابات عن النّخب الفكرية والسّياسية الغربية، وما تقوم به مِنْ محاولات يائسة لتشويه صورة الإسلام وتحريفه لطمس حقائقه، فكان لهم بالمرصاد يردّها وينقضها ويبيّن حقائقه النّاصعة ذات المقاصد السّامية لجلب المصالح ودفع المفاسد عن الأفراد والجماعات، فلم يكن مداهنا ولا سلبيّا منطويّا على ذاته، بل كان بالمرصاد لكلّ مَنْ يتجرّأ على دين الله، فيتصدّى له للتّمكين للإسلام ورفع رايته، في ظروف استولتْ الأمم الأوروبّية على خيرات البلاد العربية والإسلامية بالنّهب والسّلب، مستخدمة كلّ الأساليب والوسائل لطمس هويّتها وإثارة النّعرات والفتن بينها لتشتيتها وتمزيق وحدتها وتكريس تخلّفها وضعفها ثمّ استعمارها بعد ذلك.

فكان الشّيخ محمّد عبدَه يردّ على هانوتو، ومِنْ خلاله يردّ على اللّورد كرومر ممثّل الاحتلال البريطاني في مصر، لأنّ ردوده تشملهما معا فهي مشتركة بينهما لمعاداتهما للإسلام والمسلمين.[2]

أراد الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ ردوده على هانوتو وتصدّره للإصلاح عموما والإصلاح التّربوي خصوصا، أنْ يربّي المسلمين على التَّهيُّؤِ والإعداد والاستعداد لمواجهة أعداء الإسلام الذين يخوضون حربا مادّية ومعنويّة ضدّهم، وأراد أنْ يبيّن لهم بأنّ سنّة التّدافع بين الحقّ والباطل ماضية إلى يوم الدّين، وأنّ مَنْ يتولّاها يجب أنْ يكون لديه وازعا دينيّا يحميه ورصيدا علميّا ومعرفيّا يُسنده، حتّى يتمكّن مِنَ التّصدّي للأفكار المغلوطة والشّبهات المتهافتة ويستطيع أنْ يزهقها ويقيم الحقّ بدلها.

ب)- أرنست رينـــان[3]

حاور الشّيخ محمّد عبدَه المفكّر الغربي والمستشرق الفرنسي أرنست رينان للدّفاع عن الإسلام ونصرته، ولتصحيح المفاهيم المغلوطة لدى هذا المستشرق الذي اتّهم الإسلام بالجمود وبأنّه يقتصر على الوجدان ولا يستند إلى العقل والعلم، فبيّن له في ردوده عليه بأنّ الإسلام دين يأخذ بالعلم ويلتقي فيه العقل بالوجدان ويتّحدان بالفطرة ولا يقتصر على أحدهما، ثمّ أوضح له بأنّ ما أصاب المسلمين مِنْ جمود إنّما يرجع إلى أحد سببَيْن، أوّلهما: ما أثاره بعض الشّعوبيّين مِنْ تأثير في عقيدة المسلمين لطمس حقيقة الإسلام الجوهرية، وثانيهما: ممارسات الحكم التّركيّ المعادي للمعرفة الذي كرّس حالة

---

(1) ينظر: محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، مصدر سابق: ص58.

(2) ينظر: أنور الجندي، اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار، مرجع سابق: ص131.

(3) **أرنست رينان(Ernest Renan)(1823م-1892م):** مستشرق ومؤرّخ وفيلسوف علمانيّ فرنسيّ، عرف باحتقاره للإسلام، ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة، تاريخ الزيارة: 2019/01/22م في السّاعة 10:30، عُنِيَ كثيرا بتاريخ النّصرانية وتاريخ شعب إسرائيل، مِنْ أعماله رسالة دكتوراه بعنوان: ابن رشد والرّشدية، أنكر فيها على المسلمين فلسفتهم زاعما أنّها فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية، وله: تاريخ اللّغات السّامية، ومِنْ مقالاته: مقامات الحريري، إسبانيا الإسلامية، ابن بطّوطة، مروج الذّهب، ألقى محاضرة في السّربون سنة 1883م بعنوان: الإسلام والعلم، نشرها في جريدة: Journal Des Debat، فردّ عليه جمال الدّين الأفغاني بمقال في الجريدة نفسها، ينظر: عبد الرّحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط3، 1993م، ص311- 320.

الجمود، ثمّ أوضح له بأنّ الإسلام لا صلة بالجمود وأنّه عارضٌ عليه وأنّ الإسلام سيتخطّاه حتما، وأنّ الشّدائد التي حلّت بالمسلمين ستنبّههم مِنْ غفلتهم عاجلا أم آجلا.[1]

فأثبتَ الشّيخ محمّد عبدَه كفاءته العلمية ومقدرته العالية على محاورة ومناظرة مفكّري الغرب ومستشرقيهم المُبَرَّزين، وأظهر مدى اطّلاعه على الأديان وتمكّنه مِنَ المقارنة العلمية الموضوعية بينها، جامعا في ذلك بين الحجج العقلية والأدلّة النّقلية، وهو يردّ على شبهاتهم ويدحضها بالأدلّة الدّامغة.

وقد أبرز عبّاس محمود العقّاد مكانة الشّيخ محمّد عبدَه العلمية ودوره في الإصلاح والرّفع مِنْ مكانة العقل ورفضه للتّقليد والجمود فقال: "وأكبر ما استفاده العقل السّليم المستنير مِنْ فكر الأستاذ الإمام في الإصلاح والحرّية الإنسانية أنّه أعاد إليه الثّقة بعقيدته في هذا العصر الحديث، ورفع مِنْ طريقه إلى العمل عقبات الجمود والخرافة والتّقليد، لأنّه زوّده على قواعد دينه بفلسفة الحياة التي يقابل بها فلسفات الغرب المتسلِّطة عليه مِنْ جهةِ السّطوة أو مِنْ جهةِ الإيمان بالعقائد والآراء، ولهذا كانت ردوده على فلاسفة الغرب ومفكّريه أهمّ وأجدى على المسلم العصريّ مِنْ ردود المدافعين عن الإسلام على جماعات المبشّرين المحترفين، إذ كانت شبهات المبشّرين المحترفين لا تعدو أنْ تكون حول الشّقائق اللّفظية التي تمسّ الأديان الأخرى أشدّ مِنْ مساسها بالإسلام في العصر الحاضر أو العصور الماضية، ولكن شبهات المفكّرين على غرار الفيلسوف أرنست رينان والوزير جبراييل هانوتو كانت بحاجة إلى الفكر العصريّ المؤمن بالدّين لمواجهة الأفكار العصرية التي لعلّها لا تؤمن بالإسلام ولا بغير الإسلام، ولكنها تخامر فكرة المسلم كما تخامر ضميره بالأسئلة المتعلّقة في انتظار الجواب مِنْ ذي ثقة باعتقاده، وذي ثقة بتفكيره، وذي طوية لا ترتقي إليها الظّنون، وكان الأستاذ الإمام مليئا بكل ما يتطلّبه العقل المسلم المستنير في عصره مِنْ آيات الثّقة وحجج الإقناع، كانت ردوده على رينان وهانوتو ردود مَنْ يعلم ما قد علموه مِنْ تواريخ الحضارات وخصائص الشّعوب وطبائع الأجناس والسّلالات، ويزيد عليهم بالإيمان الثّابت والأريحية الإنسانية والهمّة التي ترفعه إلى مقام الرّسالة الرّوحية، إذ لا رسالة لأمثال رينان وهانوتو في عالم العقيدة ولا في عالم الإصلاح، وقد كان -قدّس الله روحه- أعلى طبقة مِنْ مناظريه في مضمار المناظرة بين المعسكرَيْن المقاتلَيْن، فكان رينان وهانوتو يقابلان بين الإسلام والمسيحية ليقابلا بين المسلمين والمسيحيّين الأوروبّيّين خاصّة، ويقابلا بعد ذلك بين دعوى الغالب ودعوى المغلوب، ولم ينزل الأستاذ الإمام إلى مضمارهم إلا ليدفع عن عقيدة الإسلام دون أنْ يقدح في عقيدة المسيحية، بل كان دفاعه عن الإسلام في وجه الأوروبّيّين المصطبغين بالصّبغة المسيحية وهم أبعد ما يكونون عن المسيحية السّمحة كما يعرفها الأستاذ الإمام، ولم يخرج مِنْ ردوده بتنزيه الإسلام وتشويه المسيحية، بل خرج منها جميعا بتنزيه الدّيانتَيْن وإثبات الحقيقة التي يدين بها مَنْ يدين بكتاب الإسلام، وهي أنّ المسيحية ديانة محبوبة لا عداوة بين مَنْ يدين بها على أصولها ومَنْ يدين بالإسلام على أصوله، ولا يحرّم على المسلم يوما أنْ يصاحب أهل الكتاب على سنّة أهل الكتاب".[2]

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص129.

[2] عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص167و168.

ت)- اللورد هرتنكتــون[1]

في إطار مساعي الشّيخ محمّد عبدَه لحلّ القضية المصرية وتقرير مصير شعبه لافتكاك حرّيته مِنَ الاستعمار البريطاني الذي احتلّ بلده ونفاه منه سنة 1882م، فلم يبق مكتوف اليدين في منفاه، حيث التحق بأستاذه جمال الدّين الأفغاني بباريس لمّا استدعاه إليها، وسعى لإخراج الاستعمار الأوروبّيّ مِنَ البلاد العربية والإسلامية بتوعية شعوبها بحقيقة وجودها في الحياة، وتعريفها بمهامّها الرّسالية المكلّفة بها، فأنشآ جريدة العروة الوثقى لتكون لسان حالهم في العالم العربيّ والإسلاميّ، ولتعبّر عن أفكارهم وتوصلها إلى الآفاق، فكادتْ أنْ تحدث انقلابا جذريّا وثورة عارمة على قُوى الطّغيان الغربيّ الصّليبيّ، كما سعيا في الاتّصال بالاستعمار البريطاني والتّحاور والتّفاوض معه حول القضية المصريّة.

فسافر إلى عقر دار المستعمر البريطاني بلندن، وحاور مسؤوليه مِنْ رجال حربها ووزرائها وأدلى بتصريحات جريئة بشجاعة نادرة على صفحات جرائده بضرورة جلاء القوات البريطانية مِنْ مصر.

وتوجّه إلى البرلمان البريطاني ودخله وخطب فيه أمام أعضائه بلباسه الأزهري وحدّثهم عن قضية بلده العادلة، وأوضح لهم كراهية الشّعب المصريّ للحكم الأجنبيّ، وهدّدهم بعدم دفع المصريّين الضّرائب للمستعمر، ذلك أنّهم يدينون بالإسلام ويؤمنون بالله الذي يحرّم عليهم الخضوع لغيره.[2]

وفي لندن دارتْ بينه وبين اللّورد هرتنكتون وزير الحربية البريطانيّ محادثات طويلة، اطّلع فيها على نظرة الاحتقار التي يكنّها السّاسة الإنجليز إلى الشّرقيّين عموما وإلى المصريّين خصوصا، فأراد هرتنكتون أن يَعْرِفَ منه موقف المصريّين، هل يفضّلون الخضوع للإنجليز أم للأتراك؟ فأجابه الشّيخ: "كلّا، إنّ المصريّين قوم عرب، وكلّهم مسلمون يحبّون وطنهم مثل الشّعب الإنجليزي، فلا يخطر ببال أحد منهم الميل إلى الخضوع لسلطة مَنْ يخالفهم في الدّين والجنس، ولا يصحّ لحضرة اللّورد أنْ يتصوَّر هذا الميل في المصريّين"، ثمّ قال الوزير: "هل تنكر أنّ الجهالة عامّة في أقطار مصر؟ وأنّ الكافّة لا تفرّق بين الحاكم الأجنبيّ والحاكم الوطنيّ؟ وأنّ ما ذكرتَه مِنَ النُّفرة مِنْ سلطة الأجانب إنّما يكون في الأمم المهذّبة؟" فأخذتِ الشّيخ حِدَّة وقال له: "أوّلا: إنّ النُّفرة مِنْ ولاية الأجنبيّ ونبذ الطّبع لسلطته ممّا أُودِع في فطرة البشر وليس يحتاج للدّرس والمطالعة وهو شعور إنسانيّ، وثانيا: إنّ المسلمين مهما كانوا وعلى أيّ درجة وُجدوا لا يصلون مِنَ الجهل إلى الدّرجة التي يتصوّرها الوزير، فإنّ الأمّيّين منهم لا يفوتهم العلم بضروريات الدّين، ومِنْ أظهرها عندهم أنْ لا يُدينوا لمخالفيهم فيه".[3]

إنّ نظرة هرتنكتون للمصريّين وموقفه منهم، تدلّ على الأنانية المستحكمة في نفسيّة الإنجليز ومركّب الاحتقار الذي يملأ قلوبهم تجاه الشّرقيّ والعربيّ خصوصا، وكذا سيطرة شهوة التّسلّط لديهم لاستعباد الغير ومحاولة إخضاعه لرغباته بكلّ الطّرق والوسائل، وهو ما فعلوه مع المصريّين.

---

[1] **اللورد هرتنكتون(llord hertington):** وزير الحربية البريطانيّ لَقِيَه الشّيخ محمّد عبدَه في لندن سنة 1884م وحاوره وطالبه بجلاء دولته عن بلاده مصر.

[2] ينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدّد، مرجع سابق: ص248.

[3] محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج8، ص453، وينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص228.

لذا علّق محمّد رشيد رضا على مواقف هرتنكتون بقوله: "هذا اللّورد هرتنكتون وزير الحربية الإنكليزية يظنّ أنّ الجهل يبلغ مِنَ المسلمين عموما، والمصريّين خصوصا إلى حدٍ سَلَبَ عنهم كلّ إحساس إنسانيّ وأنّهم في حضيضٍ مِنَ الجهل لا يميّزون فيه بين الغريب والقريب، ولا بين العدوّ والحبيب، هذا دليل على أنّ الإنكليز -إلّا مَنْ أنار الله بصيرته ووفّقه لفهم الصّواب- يعتقدون أنّ الأمم الشّرقية والأمّة المصرية في درجة الحيوانات السّائمة والدّوابّ الرّاعية لا تتألّم إلّا مِنَ الجوع، وفواعل الطّبيعة المادّية، وليس لها مِنَ الإحساس إلّا نوعٌ مِنَ الانفعالات البدنية، ولا تعرف مِنْ شؤونها إلّا ما به تقوم حياته الحيوانية، فَتَأْلَفُ راكبَها، والعاملَ عليها، ومُستخدمَها في أيّ عمل مِنَ الأعمال الشاقّة ما دام يقدّم لها طعاما وشرابا، وإنّها تَهَشُّ وتَبَشُّ لرؤية مَنْ يقدّم لها غَدَاءَها وعَشَاءَها وإنْ كان مِنْ أشدِّ البلاء عليها بما يسومها مِنْ مشاقّ الأعمال، فإذا عجزتْ عن العمل ذبحها وتغذّى بلحومها".[1]

فهذه نتوف مِنْ حوارات الشّيخ ومناظراته المباشرة وغير المباشرة مِنْ خلال ردوده الكتابية على مناوئيه، أقامها على أصول الحوار الحضاريّ والمناظرة والجدال بالحُسنى، وفيما يلي بعضُ مراسلاته.

الفرع الثّاني: المراســـــلات

لمّا كان الشّيخ محمّد عبدَه نائبا في جمعية العروة الوثقى ورئيس تحرير جريدتها اللّتَيْن يرأسهما أستاذه جمال الدّين الأفغانيّ، كانت له مراسلات سرّية مع أعضائها في الفروع المتواجدة في الأقطار وفي مصر خصوصا، كما كانت له مراسلات مع أدباء وعلماء ومفكّرين ومستشرقين مِنَ العرب والغربيّين الّذين كانت تربطه بهم علاقات وصداقات متميّزة.

مِنَ المفكّرين الأعاجم الذين راسلهم؛ المؤرّخ الفرنسي غوستاف لوبون، والفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر الذي أُعجِب به كثيرا، الأمر الذي دفعه إلى ترجمة كتابه في التّربية مِنَ الفرنسية إلى العربية، بعدما زاره في بيته في إنجلترا وتحدّث معه عن الله والعالم وطغيان المادّة وحكم القوّة الغاشمة في الغرب، كما راسل المفكّر الرّوسي تولستوي بخطاب جميل لمّا حُرِمَ مِنَ الكنيسة الرّوسية، كما كانت له صداقة مع المستشرق الإنجليزي ولفرد بلنْت، ووصل إعجاب المستشرق الإنجليزي إدوارد براون بالشّيخ محمّد عبدَه أنّه كان يحضر إلى مصر ويستمع إلى دروسه في التّفسير في الأزهر، وكذا مراسلته للقس الإنجليزي إسحاق تيلر في إطار الدّعوة للتّقارب بين الأديان وثنائه على جهوده فيها.[2]

كما كانت له مراسلات إلى سلاطين وعلماء وأدباء مِنَ العرب والمسلمين، مثل رسالته إلى سلطان المغرب العربي مولاي عبد العزيز الذي وجّه همّته للنّهوض ببلاده والقيام بالإصلاح الدّينيّ والتّربويّ بالكتاب والسنَّة واجتهادات السّلف، وفيها طلب منه أنْ يمدّه بنسخة مِنْ مدوّنة الإمام مالك ليحقّقها وينسخ عنها ويردّها إليه، ولمّا كان يبحث عن النّسخة الصّحيحة مِنْ مدوّنة الإمام مالك ليحقّقها ويطبعها ضمن أعمال جمعية إحياء العلوم العربية التي يرأسها، راسل قاضي قضاة فاس العلّامة مولاي إدريس بن مولاي عبد الهادي حتّى يمكّنه مِنَ النّسخة الصّحيحة الموجودة في مسجد القرويّين

---

[1] محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج8، ص453.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج2، ص355- 361، وينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص50و51.

بمدينة فاس، ومراسلته للمناضل السّوري عبد الحميد الزّهراوي الذي أعدمه العثمانيّون بسبب نضاله القوميّ العربيّ والذي كان يخاطبه بقوله: "وَلَدُنا الفاضل"، ورسالته إلى شاعر النّيل حافظ إبراهيم عندما ترجم رواية البؤساء مِنَ الفرنسية إلى العربية وأهداه نسخة منها فأثنى على ترجمتها البديعة ومتانة أسلوبها ورقيّ لغتها وجمال أدبها وحسن صياغتها الخادمة للّغة العربية، ورسالته إلى سليمان أفندي البستاني بمناسبة تكريمه في القاهرة على ترجمة إلياذة الشّاعر اليوناني هوميروس الخادمة للّغة العربية وآدابها، ورسالته إلى تلميذه مصطفى عبد الرّازق على الشّعر الذي كتبه في صباه فوصف أبياته بقوله: "كأنّها الكواكب تسكنها الملائكة" ثمّ ختمها بالثّناء عليه والدّعاء له، وكتب رسالة إلى تلميذه وصديقه حفني ناصف جوابا على إحدى رسائله، ورسالته إلى الأديب والمناضل القومي إبراهيم اليازجي[1]، ورسالتان إلى عبد المجيد الخاني الدّمشقي الذي وصفه بقوله: "وهو الإمام بن الإمام، إنْ سُئل أجابَ أخطأَ أو أصابْ، بديع الزّمانِ في النّظمِ والنّثْرْ"[2] وغيرها مِنَ المراسلات الكثيرة.

أوّلا: مراسلاته بصفته نائبا في جمعية العروة الوثقى

لمّا كان الشّيخ محمّد عبدَه نائبا لرئيس جمعية العروة الوثقى التي كانت لها فروعا في الشّرق وفي بعض دول العالم العربي والإسلامي، ومنها تنظيمها الفرعي في مصر الذي كان يرأسه، كتب مراسلات سرّيّة إلى قيادتها بالخارج يقدّم فيها تقاريره واستشاراته وأهمّ نشاطاته في مصر وما يجري داخلها مِنِ انتخابٍ لرئيس فرعها، وكيفية ممارسة المسؤوليات داخلها، وكيف تتمّ مناقشة المسائل المعروضة والأحداث والمستجدّات الطّارئة مِنْ عضويةٍ للعناصر الجدد وما فيها مِنْ بيانات تفصيلية حولهم؛ أسماؤهم وألقابهم، وبلدان إقامتهم، وإمكاناتهم وقدراتهم الشّخصية، وشروط قبولهم، وأساليب اجتذاب الأعضاء الجدد وكيفية تجنيدهم في صفوفها وغيرها مِنَ المهامّ المحدّدة في نظامها الدّاخلي.[3]

كما راسل أعضاء فرع جمعية العروة الوثقى بمصر، حينما اكتشف الجاسوس الذي دسّه الاستعمار البريطاني على أستاذه جمال الدّين الأفغاني الذي كان يترجم له الأخبار إلى اللّغة العربية، فأبعده عنه بذكاء واستغنى عن خِدْماته شيئا فشيئا، ثمّ أرسل إلى أعضاء الجمعية في مصر يحذّرهم منه قائلا لهم: "﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ ١﴾[سورة الممتحنة]، ذلك الذي وفد إليكم مِنَ القسم الذي سمّاه رسول الله ﷺ المنافق العليم اللّسان، وهو جاسوس للحكومة القائمة في دياركم فاحذروه، ولكن ليكن حَذَرُكم حَذَرَ الحكماء، لا يتبيّن منه عِلمكم بحاله، وتَحَفَّظوا منه كلّ التّحفّظ، وإيّاكم ومكاشفته بشيء ممّا أنتم عليه، فلقد وجدته يدنو مِنَ السّيّد أيام إقامته بباريس...فلمّا كثر اجتماعي به تبيّنت فساده، فأقصيته مِنَ السّيّد وباعدته عنه...فتعوّذوا منه تعوّذكم مِنَ الشّيطان حتّى يفرّق الله بينكم وبينه".[4]

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج2، ص362- 384.

[2] المصدر نفسه: ج2، ص385و388.

[3] ينظر: محمّد عمارة، الوعي بالتّاريخ وصناعة التّاريخ، مرجع سابق: ص261و262.

[4] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج2، ص575و576، وينظر: محمّد عمارة، الوعي بالتّاريخ وصناعة التّاريخ، ص264.

ثانيا: مراسلاته خلال رحلاته وأسفاره السّرّيــة

خلال فترة نفي الشّيخ محمّد عبدَه عن مصر، كانت له مراسلات أثناء رحلاته السّرّية القليلة التي قام بها مِنْ فرنسا إلى مصر وإلى غيرها مِنْ أقطار الوطن العربيّ، حيث قام برحلات سرّية متخفّيّا عن أعين جواسيس الحكومات وعملاء الاستعمار، وزار البلدان التي تتواجد فيها فروع الجمعية ومواقع الأحداث لدراسة الأوضاع عن قرب، وأعطى التّوجيهات والتّعليمات اللّازمة لتنفيذها.

1- رسالته خلال رحلته السّرّية إلى مصــر

سافر الشّيخ محمّد عبدَه خُفية إلى جنوب مصر ودخلها ليدرس عن قرب شؤون الثّورة المهدية بالسّودان التي دعته للسّفر إليها بعبارات فيها كثير مِنَ الكناية والرّموز الإشارية تمويها لجواسيس الإنجليز وعملائه مِنَ الخديوي وأزلامه في مصر، مِنْ ذلك هذه الرّسالة التي كتب فيها يقول: "لقد حوّلتني الحوادث مِنَ الغرب -فرنسا- إلى الشّرق -مصر- لتكون المواجهة أشدّ مِنَ المكاتبة"، وفي رسالة أخرى وهو مختبئ عن أنظار الحكومة الاستعمارية كتب أيضا: "لقد حوّلتني مهمّات الشّرق عن الغرب حتّى أكون على مقربة مِنْ معاقد* العروة ومكامن القوّة".[1]

ثمّ سافر متخفّيا حتّى دخل مصر سرّا بدليل القرائن اللّفظية الضّمنية في الرّسائل التي كتبها إلى بعض أعضاء الجمعية، مستخدما فيها إشارات رمزية غير صريحة، تدل على دخوله مصر متخفّيا عن جواسيس الحكومة الإنجليزية والخديوي توفيق، كقوله: "وإنّي بعد طوافي ببلاد كثيرة أكتب إليك اليوم مِنْ بلاد بها فَضَّ[2] الشّباب تمائمي، وأوّل أرض مسّ جسمي ترابها؟!...وأنا اليوم فيها أتعرّف الوجوهَ وأتنكّر للعيون؟ ولا يراني مِنْ أهلها إلّا المخلصون، ولا يعرفني فيها إلّا العارفون؟!"[3]، فكتب تلك الرّسائل بعبارات غير صريحة مموّها مِنْ داخل مصر المنفيّ عنها، لتدلّ على تحرّكاته ونشاطاته وهو يقوم بواجبه التّنويريّ والإصلاحيّ لتوعية أمّته ومقاومة الاستعمار البريطانيّ لتحرير بلاده وشعبه منه.

2- رسالته خلال رحلته السّرّية إلى تونــس

شكّل خليّة لجمعية العروة الوثقى خلال رحلته السّرّية إلى تونس أواخر سنة 1884م لجمع المال لدعم جريدة العروة الوثقى بسبب الضّائقة المالية التي فرضتها عليها السّلطات الفرنسية، وهو ما أكّده في رسالته إلى رئيس الجمعية جمال الدّين الأفغانيّ بفرنسا في 24 ديسمبر 1884م قال فيها: "لقد التقيتُ هنا أثناء إقامتي بعلماء وأمراء موقّرين علي باشا باي في باردو وليّ العهد بسانتييه في المرسو، استقصيتُ حول نشاطات عدد كبير منهم وأعلمتهم أنّ العروة الوثقى ليست فحسب اسما لصحيفة بل هي أيضا اسم منظمّة أسّسها السّيّد الأفغانيّ عندما كان في الهند، مركزها حيدر آباد ولها فروع في

---

[1]*والمعاقد: جمع عقد وهي الفروع، والعروة: هي الفتحة في ثوب الإنسان التي تدخل فيها الأزرار فيصبح الثّوب مُحكما، والعروة لا تكون صالحة نافعة إلّا إذا عُقِدَتْ حولها الخيوط حتّى لا تتّسع بكثرة الاستعمال فتنفلتَ الأزرار، وكلّ خيط مِنْ هذه الخيوط التي تدور حول العروة يسمّى عقدا، والمقصود بالعروة هنا: هي جمعية العروة الوثقى التي يشغل فيها الشّيخ محمّد عبدَه نائبا لجمال الدّين الأفغانيّ، ينظر: محمّد عمارة، الوعي بالتّاريخ وصناعة التّاريخ، مرجع سابق: ص251،

[2] وورد البيت أيضا بهذه الصّيغة: بلاد بها عقَّ الشّباب تمائمي * * * وأوّل أرض مسَّ جلدي ترابها، ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص234.

[3] المرجع نفسه: ص265و266.

أماكن أخرى ويجهل كلّ فرع وجود الفروع الأخرى، لكنّ رئيس الجمعية يعلمها جميعا، إنّنا نرغب في بعث فرع هنا، وقد قبلوا الدّخول فيه -التّونسيون-، وإنّي اليوم بصدد تنظيم الجمعية في سرعة حتّى أسافر، أغلب الأعضاء مِنَ العلماء ومِنْ بينهم الشّيخ الورتتاني، والشّيخ سالم بوحاجب، وسوف أمدّك بأسماء كلّ الذين أَدَّوْا القَسَم إثر إتمام الأمر إنْ شاء الله، وأرجوك ألّا تكشف عن أسمائهم فقد أكّدت لهم أنّ الأمر سرّيّ وأسماء الأعضاء لا يعرفها إلّا رئيس الجمعية ودعاتها، أمّا موضوع المال فإنّي في يأس مطلق، فقد طرقنا كلّ باب وتجاوزنا التّلميح إلى المصارحة بالأمر أو نكاد، ولكن يبدو لي أنّ جهودي تذهب دون طائل".[1]

ورغم اشتهار وارتباط جريدة وجمعية العروة الوثقى بجمال الدّين الأفغانيّ، إلاّ أنّ الشّيخ محمّد عبدَه كان ناشطا محوريّا وعاملا أساسيّا في قيامهما بالأدوار الفكرية والعلمية والتّجديدية والتّحرّرية والإصلاحية التي يسعى إليها ضمن الأهداف المسطّرة فيهما، وهذا لجدّية الأفكار التي تحملانها، ولإيمانه العميق بالأهداف والمقاصد السّامية الإصلاحية التي يسعى إليها ويعمل جاهدا على تحقيقها في مصر وفي أقطار العالم العربي والإسلامي، سواء كان ذلك مِنْ داخل بلاد المسلمين أم مِنْ عقر بلدان الغرب.

ثالثا: رسائله إلى رجال الدّين والعلم الغربيّين

1- رسالتــه إلى إسحــاق تيلــر

عندما أسّس الشّيخ محمّد عبدَه جمعية التّقارب بين الأديان كان مِنْ أعضائها القسّ الإنجليزي إسحاق تيلر الذي كان يدعو إلى مبادئها في لندن بالقول والكتابة، فكتب إليه الشّيخ يثني على مواقفه وخطبه التي ألقاها في الكنائس الإنجليزية، جاء في إحدى رسائله إليه: "وصل إلينا مِنْ خطاباتكَ ما ألقيتَه في المحفل الدّيني بمدينة لوندرا متعلّقا بالدّين الإسلاميّ فإذا للحقّ نور يلمع مِنْ خلال كلامكَ تعرفه البصائر الباصرة وتُشيمه أعينٌ للعقول النيّرة، رَفَعَتْكَ هداية الله إلى مقام الإنصاف، فرأيتَ الإسلام في طبيعته السّليمة، ووقفتَ عليه في مزاجه الصّحيح فأدركتَ أثره في النّفوس البشرية، وعلمتَ أنّه أفضل ما بعد الرّوح الإنسانية إلى بلوغ ذروة الكمال الأعلى مِنَ الإيمان، ودافعتَ عنه دفاع العارف به، وجلّيتَه للغافلين في أجمل صورة يمكن أنْ يلمحوها بأبصارهم ويتصفّحوا دقائقها بأنظارهم ثمّ دعوتَ أبناء ملّتكَ إلى كلمة السّواء بينهم وبين المسلمين وصَدَقْتَهم النّصيحة أنْ لا يحنقوا المسلمين بتكذيب نبيّهم ولا تكفيرهم بالاعتقاد بدينهم، ووعدتَّهم إنْ قبلوا نصحكَ بإصابة المسيحية في الإسلام ووجود محمّد ﷺ آخذا بعضد المسيح بإعلاء كلمة دينه الصّحيح، فهذه أشعّة نورٍ أفاضه الله على قلبكَ، وآيات حقٍّ ساقه الله إليكَ، وإنّا لنهنّئكَ على هذه البركة العظمى التي اختصّكَ الله بها مِنْ بين قومكَ...أنتَ أوّل رئيسٍ دينيٍّ صدع بالحق في أهل ملّته، وإنّكَ لتجد لكَ مؤيّدين، وإنّ كثيرا مِنْ ذوي الألباب ليجدون في قولكَ مواقع للصّواب، وإنّ هذا الأمر الذي قمتَ به لعظيم الفوائد جمّ العوائد، نحسّ منه تحرّك نفوس أهل الملّتَيْن إلى الملاقاة على صراط الوحدة الحقيقية، وإنّكَ إنْ كنتَ

---

[1] أحمد إبراهيم الشّريف، "الإمام محمّد عبدَه في تونس..هل ذهب لتكوين جماعة سرية؟، عنوان مقال على موقع الجريدة الإلكترونية اليوم السابع/https://www.youm7.com/story، تاريخ النّشر: الجمعة: 2019/12/06م، في السّاعة: 03:30م، وينظر: الموسوعة التّونسية المفتوحة/ http://www.mawsouaa.tn ، تاريخ الزّيارة: الأحد: 2020/04/12م، في السّاعة: 15:00 زوالا.

واحدا فكلّ شيء مبدؤُه الواحد ثمّ يكثر حتّى لا يحصر، وإنْ كان هذا الغرس الطيّب قد أخرج اليوم شطأه، فسيؤازره السّعي حتّى يغلظ ويستوي على سوقه فيُعجبُ الزرّاعَ، وإنّا نرى التّوراة والإنجيل والقرآن ستصبح كتبا متوافقة وصحفا متصادقة يدرسها أبناء الملّتَيْن ويوقّرها أرباب الدّينَيْن، فيَتِمُّ نورُ الله في أرضه ويَظهرُ دينه الحقّ على الدّين كلّه...وإنّني على عجزي مستعد لمساعدتكَ فيما تقصد مِنْ تقريب ما بين الملّتَيْن بكلّ ما يمكنني، والسّلام على مَنِ اتّبع الهدى".[1]

2- رسالته إلى ليون تولستــوي[2]

كانت للشّيخ محمّد عبدَه شبكة علاقات واسعة مع عمالقة الفكر والأدب والدّين والإصلاح، تَوَّجَهَا بالتّواصل معهم بالرّسائل والحوار في إطار جهوده الإصلاحية، مِنْ ذلك تلك الرّسالة التي كتبها إلى الأديب الرّوسي الواقعي والمصلح التّربوي تولستوي في: 1904/04/08م، فردّ عليه في: 1904/05/12م، والرّسالة مترجمة بالإنجليزية والردّ عليها محفوظَيْن بمتحف موسكو، صَدَّرها مخاطبا تولستوي واصفا إياه بالحكمة وهو يقول له: "أيّها الحكيم الجليل مسيو تولستوي"، وفيها أثنى على أفكاره وآرائه النيّرة التي تؤكّد على قيمتَيْ العلم والعمل المستهدِفان للتّربية لبثّهما في نفوس الأفراد، وعلى اهتدائه إلى معرفة سرّ الفطرة، وعلى إشفاقه على النّاس المنحرفين عنها، وعلى نظرته المتدبّرة للدّين التي أوصلته إلى حقيقة التّوحيد، وعلى جهوده في دعوة النّاس إلى الله، كما أشاد بشجاعته في مواجهة رؤساء دينه، ثمّ دعا له بكلّ خير قائلا: "هداك الله إلى معرفة سرّ الفطرة التي فطر النّاس عليها، ووفّقك إلى الغاية التي هدى البشر إليها، فأدركتَ أنّ الإنسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم ويثمر بالعمل، ونظرتَ نظرة في الدّين مزّقتَ حجبَ التّقاليد ووصلتَ بها إلى حقيقة التّوحيد، ورفعتَ صوتكَ تدعو النّاس إلى ما هداكَ الله إليه، وتقدّمتَ أمامهم بالعمل لتحملَ نفوسَهم عليه، فكما كنتَ بقولك هاديا للعقول، كنتَ بعملك حاثّا للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤكَ ضياء يهتدي بها الضّالون، كان مثالكَ في العمل إماما يَقتدِي به المسترشدون، هذا وإنّ نفوسَنا لشيّقة إلى ما يتجدّد مِنْ آثار قلمكَ فيما يُستقبل مِنْ أيّام عمركَ، وإنّا لنسأل الله أنْ يمدّ في حياتكَ ويحفظَ عليكَ قُواكَ، ويفتح أبواب القلوب لفهم قولكَ ويسوق النّفوس إلى التّأسي بكَ في عملكَ والسّلام".[3]

ثمّ جاءه الردّ سريعا مِنْ تولستوي ذكر له فيه بأنّه يتشرّف بالاتّصال برجل مستنير مثله رغم اختلافه معه في العقيدة، وأقرّ له بوجود دينٍ حقٍّ واحدٍ، وأنّ الدّين الذي يؤمن به هو نفسه دين الشّيخ محمّد عبدَه الذي يرتكز على الاعتراف بالله وشريعته في حبّ الغير، وأنّه يتمنّاه للغير[4]، فَضَمَّنَ تولستوي ردّه على الشّيخ محمّد عبدَه إيمانه بدينه لأنّه يقوم على عقيدة الإيمان بالله تعالى وشريعته.

---

(1) محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، ج2، ص582- 584، وينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، ص242.

(2) **ليون تولستوي(Leon Tolstoy)(1828-1910م):** هو أحد أعمدة الأدب الرّوسي ومِنْ عمالقته الرّوائيّين في القرن التّاسع عشر، نصرانيّ الدّيانة، كان روائيّا ومصلحا اجتماعيّا وداعية سلام ومفكّرا أخلاقيّا، مِنْ أشهر أعماله روايات: الحرب والسّلام، وأنا كارنينا، والطّفولة والصّبا والشّباب، ينظر: موقع: https://www.marefa.org، تاريخ الزيارة: الأحد: 2020/09/27م، في السّاعة: 21:00 ليلا.

(3) محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج2، ص623و624، وينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص125.

(4) ينظر: المرجع نفسه: ص126.

لقد كانت ممارسات الشّيخ محمّد عبدَه حضارية تجلّتْ في حواراته ومناظراته ورسائله إلى المخالفين له مِنَ العرب والمسلمين ومِنَ العجم مِنْ أهل الملل والنّحل الأخرى، فأرسى ثقافة الحوار والجدال بالحُسنى، وعمل على تربية أبناء بلده عليها وإشاعتها بينهم في سياق الدّعوة إلى الإسلام وإلى التّدين الصّحيح به عن علم يقينيّ، والدّعوة إلى العلم والعمل لتحقيق الإصلاح والنّهضة، ونشرِ الخير والفضيلة في العالم، والتّرغيب في التّعايش السّلمي مع المخالفين في الفكر والعقيدة، في جوّ يسوده التّقدير والاحترام بدل الجبر والإكراه داخل وخارج المؤسّسات الدّينية والتّربوية بمختلف مستوياتها، فإذا غُرست هذه السّلوكات الحضارية في الأفراد والجماعات ورُبُّوا عليها مِنْ شأنها أنْ تُكَوِّنَ لديهم الإحساس بالانتماء والقدرة على الإبداع والمشاركة بالآراء والأفكار البنّاءة في التّعمير، وعدم الضّيق برأي الغير، والتّعوّد على التّحليل وفرز الآراء بقبول الصّحيحة البنّاءة منها وطرح السّقيمة الهدّامة.[1]

3- رسالته إلى ولفرد بْلنْـت[2]

بعث الشّيخ محمّد عبدَه برسالتَيْن إلى ولفرد بلنت يجيبه فيهما عن رأيه كمفتي، ففي الرّسالة الأولى أجابه عن الحالة السّياسية الجديدة عقب الاتّفاق الودّي المبرم بين إنجلترا وفرنسا، وفي الثّانية أجابه عن رأيه في الدّستور المناسب لمصر.

وملخّص الكتاب الأوّل يتمثّل في شكل الإدارة بمصر تحت الاستعمار البريطاني، حيث اقترح ألّا يكون للخديوي أيّة سلطة تخوّل له التدخّل في أعمال الهيئات التّنفيذية للنّظّارات وإدارة الأوقاف والأزهر والمحاكم الشّرعية، واقترح عليه أيضا أنْ يشكّل مجلس شورى على أنْ يكون أعضاؤه مِنَ الوزراء وكبار الموظّفين، وسمح فيه بعضوية كبار الموظّفين الإنجليز الأعضاء في الحكومة المصرية، على أنْ يكون مِنِ اختصاص المجلس سَنُّ القوانين، كما طالب في كتابه الفصل بين السّلطات، واقترح تشكيل مجلس إدارة في كلّ مِنْ نظارة العدل والدّاخلية للبحث في المسائل المهمّة ووضع المشروعات والقوانين والنّظامات لكلّ المصالح الحكومية، كما اقترح قانونا لنظارة المعارف العمومية والتّعليم داعيا فيه إلى ضرورة تخصيص قسم مِنَ الدّخل العمومي للإنفاق على التّعليم وفتح مدارس التّعليم العامّ والتّعليم الفني لسدّ حاجات البلاد، ثمّ كتب إليه بلنت أنْ يوسّع آراءه فيها حول هذه المقترحات.[3]

والملاحظ على كتاب الشّيخ محمّد عبدَه إقحامه للجانب التّربويّ والتّعليميّ في الشّؤون السّياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، لأنّه يرى ضرورة تعميم التّربية على جميع المجالات، لقناعته بأنّ التّربية عصب كلّ الميادين، فاقترح على بلنت تنظيم نظارة المعارف بوضع قانون إجباري للتّربية والتّعليم يتضمّن الإنفاق عليه وتخصيص دخل له وفتح مدارس أخرى لتعليم كلّ المصريّين.

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص129.

[2] **ولفرد بلنت(wilfrid scawen blunt)1840-1922):** شاعر ومستشرق إنجليزيّ وناشط سياسيّ ورحّالة، كانت له مواقف معادية للإنجليز، حيث وقف مع القضية المصرية ضدّ الاستعمار البريطانيّ، كان محامي أحمد عُرابي وعبد الله النّديم ومحمود سامي البارودي عندما قبض عليهم في الثّورة العُرابية سنة 1882م، فخفّف عليهم مِنَ الإعدام إلى النّفي، كان يسكن بجوار صديقه الشّيخ محمّد عبدَه في المطرية، مِنْ مؤلّفاته: التّاريخ السرّي لاحتلال إنجلترا مصر سنة 1907م، مستقبل الإسلام، خواطر عن الهند، جوردون في الخرطوم، ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة: https://arz.m.wikipedia.orgi، تاريخ الزيارة: 2023/03/30م في الساعة: 10:30 صباحا.

[3] ينظر: غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص56.

كما طلب بلنت مِنَ الشّيخ محمّد عبدَه أنْ يضع نموذجا لدستور مصر، واستشاره حول إمكانية قبول المصريّين تعيين أمير أوروبّيّ واليا على مصر إذا صعب إيجاد أمير مِنَ العائلة الخديوية تكون له ثقافة دستورية وافية، فأجابه الشّيخ محمّد عبدَه بكتابه الثّاني الذي جاء فيه: أنّ أفاضل المصريّين أجمعوا على مطالبة الحكومة الإنجليزية بمنع تدخل الخديوي في الدّستور، وأنّ المصريّين لا يقبلون تعيين والٍ أوروبّيّ عليهم، واقترح في الدّستور أنْ تناط جميع شؤون الحكومة بالسّلطة التّشريعية لسنّ القوانين الإدارية والقضائية، وأنّ الوزراء عليهم التّنفيذ دون التّشريع، ولا يترك شيئا مِنْ أشغال الحكومة للخديوي حتّى لا يتدخّل في عملها، وإذا كان هناك وزراء إنجليز فإنّ لرؤسائهم المصريّين الفصل في المسائل الدّينية التي تَعَوَّدَ الإنجليز الفصل فيها، كما اقترح إلغاء مناصب المستشارين والاكتفاء بالوزراء، وأنْ يكون رئيس الوزراء مسلما، وأنْ يكون جميع الموظّفين الحكوميّين مصريّين وبخاصة المديرين والقضاة مع جواز تعيين مفتّشين في المصالح الهندسية والصّناعية والمعارف الخاصّة بها إذا لم يوجد مصريّون لهم إحاطة بتلك المعارف الفنّية، مع وضع رقابة وزارية عليهم لتوسيع نفوذ المصريّين والحدّ مِنْ نفوذ الإنجليز، كما خوّل لأعضاء مجلس النّواب مساءلة النّظّار ومتابعتهم في تنفيذ القوانين ومحاسبتهم، ثمّ دعا إلى إعادة تنظيم شؤون المعارف والتّعليم، وختم كتابه بأنّ هذا الدّستور قد يفي بحاجة مصر وينيلها استقلالها.[1]

وفي مقترحاته للدّستور المصري قلّص صلاحيات الخديوي إلى درجة تجريده منها، كما اقترح الحدّ مِنْ تدخّل المسؤولين الإنجليز والحدّ مِنْ صلاحياتهم خصوصا فيما تعلّق بالدّين، ودعا مجلس النّوّاب إلى المسارعة بتنظيم نظارة المعارف لدورها الحيويّ في كلّ القطاعات، أمّا فيما يتعلّق بالمصالح الدّنيوية فجوّز لهم ذلك عند عدم وجود مصريّين متخصّصين شريطة الرّقابة عليهم مِنَ المصريّين، كما اقترح التّقليص مِنْ عدد المسؤولين ودمج مهامّهم بالاكتفاء بالوزراء دون المستشارين، وأعطى لمجلس النّوّاب حقّ الرّقابة والمحاسبة للنّظّار حتّى يربّي المسؤولين على أنّ المسؤولية تكليف وليست تشريف.

لقد كانت تلك اللّقاءات والحوارات والمناظرات والمراسلات التي صدرت مِنَ الشّيخ محمّد عبدَه ابتداء، أو التي كانت ردودا على رجال الدّين والمفكّرين والفلاسفة والمستشرقين والسّاسة مِنَ العرب والمسلمين، أو مِنَ الصّليبيين والعلمانيّين والملاحدة، تدلّ على أنّ الشّيخ محمّد عبدَه كان متشبّعا بثقافة إسلامية أصيلة، ولديه اطّلاع واسع على ديانات وشرائع وثقافة الغير ومتفتّحا عليه، ومتربّيّا على مبادئ الحوار والجدال والتّواصل مع المخالفين له، والتي تمثّلها بشكل صحيح وحاول جاهدا أنْ يغرسها في تلامذته وأبناء ملّته وحتّى بين غير المسلمين، ليزوّدهم بالصّورة الحقيقية للإسلام الذي يحترم المخالف، ويتواصل معه ولا يلغيه، وأنّه لا يفرض أفكاره على غيره ولا يُكرِهه عليها، لقوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾[سورة الغاشية]، فحقائق الإسلام ومبادؤه ثابتة واضحة، وأنّ الإسلام وأهله لا يخشون مواجهة غيرهم بالتّحاور معهم وجدالهم بالحسنى لتبيين حقائق الإسلام ودعوتهم إليها.

[1] ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص59-62.

والخلاصة أنّ الشّيخ محمّد عبدَه لم يدّخر جهدا لتجسيد إصلاحاته التّربوية، حيث وظّف كلّ ما أتيح له مِنْ وسائل، فاجتهد في تكثيرها وتنويعها وحسن توظيفها وتفعيلها، بل وحتّى استحداث بعضها كما حصل معه عند تأسيسه للجمعية الخيرية الإسلامية، التي كانت لها بصمات واضحة في المجتمع المصريّ في المجال التّعليميّ والتّربويّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ والسّياسيّ، حيث ركّز ابتداء في إصلاحاته التّربوية على المؤسّسات التّعليمية، وألقى بثقله على الجامع الأزهر الشّريف الذي عَرَفَ أخباره وسبر أغواره عن قرب، فقد درس ودرّس وعمل فيه مربّيًا ومعلّما ومصلحا، كما شملتْ نشاطاته مؤسّسات تربويّة أخرى بمصر وفي غير مصر، وخلال فترة منفاه ببيروت أحدث نقلة نوعية في المدرسة السّلطانية بقيامه فيها بإصلاحات على مستوى البرامج والمقرّرات والطّرائق وحتّى على مستوى الإدارة، كما كانت له نشاطات حثيثة في مساجد بيروت التي استقطب فيها طلبة العلم مِنْ مختلف الملل والنّحل والطّوائف، فأثّر فيهم وأقنعهم بأفكاره التّربويّة والدّينية، بالإضافة إلى قيامه بالإصلاح مِنْ خلال المدارس النّظامية المصرية الأخرى كمدرسة دار العلوم ودار الألسن، هاته المدارس التي ترك فيها أثرا طيّبا في التّربية والإصلاح؛ بإصلاح ما كان له تأثير سلبي على العلم وطلبته وعلى مستوى المناهج والمقرّرات والطّرائق، كما طالت إصلاحاته مؤسّسة القضاء والمحاكم الشّرعية التي عمل بها يصلحها ويوظّفها في الإصلاح التّربويّ والاجتماعيّ والدّينيّ، وقد أبدع بتأسيسه للجمعيات خصوصا الجمعية الخيرية الإسلامية التي بنى بها مدارس خاصّة كانت لها أدوار كبيرة في الإصلاح التّربويّ مِنْ خلال عنايتها بتعليم العلوم والمعارف والحِرَفِ لأبناء الطّبقات الهشّة في المجتمع، وبمنح أبناء الفقراء والمعوزين فرصا في هذا المجال مثل أبناء الأغنياء تماما، وحتّى الأوقاف والمساجد عمل فيها وفعّلها وقام بإصلاحها واستخدمَها في الإصلاح التّربويّ والاجتماعيّ والدّينيّ، وإلى جانب تفعيله للمؤسّسات التّربوية والدّينية، عمد إلى سلاح التّأليف والكتابة الصّحفيّة وجعلهما وسائل ناجعة في الإصلاح، فأصلحهما وحاول الإصلاح مِنْ خلالهما بالكتابة في الشّؤون اللّصيقة بالمجتمع المصريّ واللّصيقة بالشّأن العربيّ والإسلاميّ، واستطاع أنْ يبلّغ فكاره وآراءه الإصلاحية عن طريق الكتابة في أهمّ الجرائد المصريّة كجريدتَيْ الأهرام والوقائع المصرية ومجلّة المنار، وبالكتابة في جريدة العروة الوثقى خارج مصر، ونظرا لمكانته العلمية والفكرية وسمعته المحلّية والإقليمية والعالمية كانت له حوارات ومناظرات ومراسلات مع قامات علمية وفكرية ودينية وسياسية داخليّا وخارجيّا مِنَ المسلمين وغير المسلمين، فطارحهم في مختلف المسائل التّربوية والدّينية والفكرية والسّياسية، فأبلى فيها بلاء حسنا، وتمكّن عن طريقها مِنْ تبليغ أفكاره وآرائه الإصلاحية، وتحقيق قدر محترم مِنَ الإصلاحات، وما لم يتحقّق منها في حياته، تحقّق بعضها بعد مماته، وكان محلّ بحث ودراسة وتحقيق بعد وفاته.

المبحث الثّالث:

مجالات الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه

المطلب الأوّل: مجال السّياسات التّعليمية

المطلب الثّاني: مجال الكفاءات والممارسات التّعليمية

المطلب الثّالث: مجال المقرّرات والطّرائق التّعليمية

المطلب الرّابع: مجال المؤسّسات التّربوية التّعليمية

المبحث الثّالث: مجالات الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه

تمهيد:

برز الشّيخ محمّد عبدَه كمصلح في النّصف الثّاني مِنَ القرن التّاسع عشر الميلادي، أين بدأ الوعي التّربويّ يبلغ ذروته بصدور قرارات لتنظيم المعارف لنشر التّعليم وتعميمه وتوحيده وإذابة الفوارق بين المتعلّمين، والمزج بين المواد النّظرية والتّمارين التّطبيقية وربطها بالاحتياجات الاجتماعية، لكنّها لم تُنفَّذ لظروف مالية وسياسية عصفت بمصر، إلّا أنّه بدأ يحدث وعي قومي بأهمية التّعليم وقيمته، وأخذتِ التّربية تكتسب أهمّية كبيرة كأداة للإصلاح، فرأى الشّيخ محمّد عبدَه بأنّ التّربية يجب أنْ تكون الأساس الأوّل للإصلاح لرفع الاستبداد وإجلاء الاستعمار عن مصر.[1]

لذا رفع الشّيخ محمّد عبدَه لواء الإصلاح التّربوي في الواقع المصريّ المتأزّم وسْط اختلاف القناعات بين مكوّنات المجتمع المصريّ الذي تجاذبته أطراف عديدة، فمنها الدّاعية للتّشبّث بالموروث والرّكون للتّقليد بمبرّر المحافظة عليه خوفا مِنَ الأفكار الوافدة المهدِّدة لهَويّة وثوابت الأمّة المصرية، وفريق آخر رأى وجوب اتّباع مناهج الأمم الأوروبّية المتطوّرة وتبنّي أفكارها واستقدام حضارتها للخروج مِنَ التّخلّف والجهل لتحقيق التّقدّم، بالإضافة إلى اختلاف القناعات حول أَوْلَى المجالات بالإصلاح.

ويرى الشّيخ محمّد عبدَه بأنْ تكون الأولوية للإصلاح التّربويّ على الميادين الأخرى حتّى تتحقّق الأهداف المرجوّة منه، والأمر الذي دعاه إلى التّوجّه إلى ذلك هو خوضه تجربة الإصلاح السّياسيّ ومشاركته في الثّورة العُرابية لإبطال مؤامرات الاستعمار البريطانيّ، فعبّأ الشّعب المصريّ بخطبه وكتاباته وأفكاره التي جهر بها وأعلنها حتّى سُجن وحُوكم ونُفي، وبعد عودته مِنَ المنفى إلى مصر توجّه إلى الإصلاح التّربويّ وأَلقَى بثقله فيه، خصوصا وأنّ لديه استعدادا فطريا وحبّا للتّربية والتّعليم، ويمتلك عنه خبرة عملية كافية، ويحمل قناعة راسخة بأنّ النّجاح في إصلاح المجتمع لا يتمّ إلّا بتربيته، وهو الذي يرى بأنّ طريق الإصلاح التّربوي مهما طال فإنّ أهدافه سوف تتحقّق ويُكتب له النّجاح.

وفي هذا المبحث سيتمّ تفصيل الكلام حول المجالات التي طرقها الشّيخ محمّد عبدَه لتجسيد إصلاحاته التّربوية لتحقيق الإقلاع الحضاريّ، لهذا قصد مجال المؤسّسات التّربوية التّعليمية الفاعلة وعلى رأسها جامع الأزهر الشّريف، وكذا مجال السّياسات التّعليمية المتّبعة وما يكتنفها مِنِ اختلالات، ثمّ مجال الكفاءات التّعليمية الموجودة وما يلزمها مِنْ توظيف ورعاية ومتابعة وحسن توجيه بتجنّب الممارسات غير الصّحيحة في التّربية والتّعليم، بالإضافة إلى ضرورة اتّباع الطّرائق الصّحيحة واعتماد المقرّرات والمناهج النّاجعة لتحقيق الإصلاح التّربويّ المنشود.

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص42.

المطلب الأوّل: مجال السّياسات التّعليمية

منذ وعى الشّيخ محمّد عبدَه بواقع مصر التّربوي والتّعليمي المتردّي، وهو يسعى بكلّ ما أوتي مِنْ جهد لإصلاحه مستخدما كلّ الوسائل المتاحة ومقتحما جميع مجالات التّعليم، فقام بنشر الكثير مِنَ المقالات التي انتقد فيها سياسة التّعليم وطرائق تدريس المعلّمين، ووقف على عجزهم وقصورهم، كما وظّف مناصبه توظيفا إيجابيّا، واستعمل نفوذه لأجل الإصلاح وخدمة الدّين والمجتمع والأمّة، فأنشأ المجلس الأعلى للمعارف الذي انتُخب عضوا فيه، بالإضافة إلى عضويته في لجنة فرعية للمجلس لإصلاح طرق التّعليم والتّربية في جميع المدارس، فكان كاتب جلساتها[1] بعد سنة مِنْ تعيينه رئيسا لتحرير جريدة الوقائع المصرية التي جعل مِنْ مقالاته الدّورية فيها وسيلة للتّرويج لأفكاره الإصلاحية وعَرْض طروحاته التّربوية للوصول إلى أكبر شريحة في المجتمع عموديّا وأفقيّا لتجسيدها واقعيا.

وقد ركّز جهوده في إصلاح الأزهر باعتباره أحد أهمّ القلاع الدّينية البارزة المؤثّرة في مصر وفي العالم العربيّ والإسلاميّ، كما اجتهد في تفعيل الجمعية الخيرية الإسلامية التي عمل مِنْ خلالها على نشر التّعليم بين فئة كبيرة مِنْ أبناء الفقراء وإعانة المعوزين والمنكوبين.

وكان وسيط خير بين مجلس الشّورى والحكومة بسعيه للإصلاح بينهما عندما تتأزّم الأمور بينهما، فقد كان موضع ثقة المجلس والحكومة والإنجليز، الذين كانوا يرجعون إليه جميعهم ويستشيرونه في الأمور الشّائكة، فيشير عليهم بما يعتقده الحقّ، مستغلّا الظّروف المناسبة لنشر أفكاره الإصلاحية.

الفرع الأوّل: إلزامية ومجّانية وتعميم التّعليـم

إنّ إلزامية التّعليم ومجّانيته مِنَ القرارات التي أرستها الاتفاقات والمواثيق العالمية منذ نهاية الحرب العالمية الثّانية، وصارت مِنَ الحقوق التي بموجبها تستفيد منها المجتمعات المعاصرة، كالتي وردتْ في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصّادر عن منظمة الأمم المتّحدة سنة 1948م، حيث تنصّ المادة الثّانية فيه على حقّ التمتّع بكافّة الحقوق والحرّيات، ومِنْ أهمّها حقّ التّعليم دون تمييز بسبب العنصر أو اللّون أو الجنس، كما نصّ على إلزامية التّعليم الابتدائي ومجّانيته للبنين والبنات، لذلك سارعت الدّول الأعضاء في الأمم المتّحدة إلى الأخذ بهذا القرار وتطبيقه في مطلع النّصف الثّاني مِنَ القرن العشرين، ووضعتْ تشريعات تُلزم بمجّانيته وإلزاميته لتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص.[2]

والملفت للانتباه أنّ الشّيخ محمّد عبدَه طالب بتعميم التّعليم وإلزاميته ومجّانيته بأكثر مِنْ نصف قرن قبل صدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، لأنّه كان يؤمن بأنّ ذلك مبدأ أساسيّ في تحقيق تكافؤ الفرص بين أبناء الوطن، وأنّه يسهم بقوّة في تحقيق الإصلاح التّربوي الذي بموجبه يتحقّق الإصلاح الاجتماعي الذي يجب البدء به لإصلاح الأمّة، وهذا لا يتأتّى إلا بنشر التّعليم الصّحيح بين أفراد المجتمع وتوعيتهم بحقوقهم وواجباتهم، لذلك استخدم الصّحافة بقوّة في تنبيه الوعي الوطنيّ والقوميّ، كما طالب بتعميم التّعليم في مقالاته الصّحفية، وتحديد التّخصّصات، وتقسيم الطّلبة وفقا لحاجات المجتمع ودورهم فيه، لذلك قسّم المتّعلّمين إلى ثلاث طبقات؛ الأولى: طبقة العامّة مِنَ الصنّاع

---

[1] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص46.

[2] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص169.

والتّجار والفلّاحين، والثّانية: طبقة السّاسة ورجال الدّولة والعسكريّين وأعضاء المحاكم ورؤسائها ومَنْ في حُكمهم، والثّالثة: طبقة العلماء وأهل الرّشاد والتّربية، وحدّد ما يلزم كلّ طبقة مِنَ التّعليم، كما تَحفَّظ على تقسيمه الطّبقي مؤكّدا على أنّ ارتقاء النّاس مِنَ الطّبقة الدّنيا إلى العليا غير ممنوع.[1]

وهذا التّقسيم الطّبقي لتعميم تعليم فئات المجتمع المصري لم يستحدثه الشّيخ محمّد عبدَه لكونه موجودا مِنْ قبل، فسايره دون أنْ يفرّق بين فئاته في الاستفادة مِنْ حقّ التّعليم، وبهذا التّقسيم جعل الجميع على مسافة واحدة مِنْ هذا الحقّ مِنْ حيث المناهج والمقرّرات.

ففي احتفالٍ لجمعية المقاصد للتّصديق على لائحة النّواب؛ دعا الشّيخ محمّد عبدَه في خطبته إلى توجيه العناية بتضمين قانون الحكومة الأساسي تعميم التّعليم ونشر المعارف والعلوم في عموم الأمّة حتّى تكون غالبيتها مستعدّة للمشاركة في التّدبير لتحقيق التّدرج في مراتب التّقدم والكمال.[2]

كما ذهب الشّيخ محمّد عبدَه في تجسيد تعميم التّعليم إلى جعله يشمل فئة كبار الموظّفين لدى الحكومة ممَّنْ لم تُسعفهم الظّروف للتّعلّم، فدعا إلى إجبارية التّعليم اللّيلي لأولئك العمال والمستخدمين قائلا: "نرى أنّه لابدّ أنْ يكون هذا التّعليم اللّيلي إجباريّا عامّا لكلّ مستخدم وقارئ لم يتعلّم تمام ما يجب عليه في وظائفه...لا بدّ أنْ يكونوا مِنَ الدّراية بحيث يَقْدرون على تحقيق القضايا، وحلّ المشكلات بأنفسهم في موادّ الجنايات، والحقوق والحسابات ونحو ذلك".[3]

وقد بيّن الشّيخ محمّد عبدَه أنّ عجز الحكومة على تعميم التّعليم راجع إلى عاملَيْن اثنَيْن أوّلهما: قلّة الإنفاق على التّعليم وأنّ موضوع نشر التّعليم لم يكن في سياستها وهي تحت سلطة الاحتلال البريطاني، وثانيهما: تزايد المصروفات التي تتقاضاها الحكومة مِنَ النّاس على تعليم أولادهم فصار التّعليم متاحا للأغنياء الذين أخذوا يتباهون به.[4]

وقد ذكر الشّيخ محمّد عبدَه أنّ الأغنياء لديهم أماني وهم قادرون على تحقيقها، فهم يودّون تعميم العلوم والمعارف ونشرها في مصر، لكن دون أنْ يبذلوا شيئا مِنْ أموالهم ودون أنْ يبذلوا جهدا في سبيل تحقيقها، فهم يريدون الإصلاح بلا مقابل، لذلك علّق على هذا الموقف البخيل مِنَ القادرين بقوله: "فطالبُ الإصلاح منّا لا يرضى لنفسه أنْ يخطو خطوة واحدة في سبيل تحصيله"، ثمّ دعاهم بإلحاحٍ للتّبرع بأموالهم لبناء المدارس وتعميم التّعليم قائلا: "فعلى الأغنياء منّا الذين يخافون مِنْ تغلّب الغير عليهم، وتطاول الأيدي الظّالمة إليهم أكثر مِنَ الفقراء أنْ يتألّفوا ويتّحدوا ويبذلوا مِنْ أموالهم في سبيل افتتاح المدارس والمكاتب واتّساع دوائر التّعليم حتّى تعمّ التّربية".[5]

---

[1] ينظر: عمر علي يونس سعيد، الإصلاح التّربوي والتّعليمي والاجتماعي عند الشّيخ محمّد عبدَه، مقال على موقع: المنتدى الإسلامي العالمي للتّربية: http://montdatarbawy.com ، آخر تحديث 09/20/ 2018م، تاريخ الزيارة: 2020/08/27م في السّاعة: 18:00 مساء.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج1، ص416.

[3] المصدر نفسه: ج3، ص35و36.

[4] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص171.

[5] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، المصدر السابق: ج3، ص50، مقال بعنوان: "ما هو الفقر الحقيقي في البلاد"؟، محمّد عبدَه، جريدة الوقائع المصرية، العدد: 1073، 28 مارس سنة 1881م.

وهكذا اجتهد الشّيخ محمّد عبدَه في تعميم التّعليم عمليّا بتوسيع دائرته ليشمل الذين لم تسعفهم الظّروف لنيله، فأوجد الأوقات المناسبة لتلقّي التّعليم مساهمة منه في الإصلاح التّربوي، باستهداف جميع شرائح المجتمع في ظلّ التّقسيم الطّبقي الموجود فعمل على تفعيله بإيجابية فريدة.

الفرع الثّاني: أولوية التّعليم النّوعي على التّعليم الكمّـي

كان قطاع التّربية والتّعليم زمن الشّيخ محمّد عبدَه يتميّز بضحالة في الكمّ ورداءة في النّوع، فمِنْ حيث الكمُّ كانت مؤسّسة التّعليم الدّينيّة المتمثّلة في الأزهر يقصدها طلبة العلم مِنْ كلّ أصقاع العالم لينهلوا منه، فيحفِّظهم العلوم التّقليدية ولا يولي أهمّية للفهم وإعمال الفكر وفسح المجال للمناقشة وإبداء الرّأي، كما كانت الجوامع والكتاتيب تتولّى تحفيظ القرآن الكريم فقط، أمّا مؤسّسات التّربية والتّعليم المتمثّلة في مدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن والمدارس الأميرية والأهلية والابتدائية فكانت تقدّم علوما أغلبها تقليديّ لا يتماشى والعلوم الجديدة العصرية التي طوّرها الأوروبّيّون وساهموا بها في إحداث نهضة علمية، وبناء حضارة مادّية قوية في أوروبّا.

لذلك لمّا نُفي الشّيخ محمّد عبدَه إلى بيروت، صال وجال في أمصار الدّولة العثمانية، واطّلع على أحوالها التّعليمية عن كثب، وكتب لائحتَيْن الأولى سنة 1886م تضمّنتْ مذكّرتَيْن الأولى إلى شيخ الإسلام بالأستانة ليرفعها إلى السّلطان عبد الحميد لإصلاح التّعليم، والثّانية إلى والي بيروت، واللّائحة الثّانية كتبها إلى اللورد كرومر لمّا دخل إلى مصر دعاه فيها إلى إصلاح التّربية والتّعليم وإلى إصلاح البرامج التّعليمية تحديدا، لأنّه يرى بأنّ إصلاح التّعليم هو أساس إيجاد المسلم الصّالح.[1]

لقد كان الاهتمام في مصر منصبّا على الكمّ على حساب النّوع، كما كان التّعليم متاحا للقلّة مِنْ أبناء الطّبقة البرجوازية تحضيرا لهم للتّسيير والإدارة والحكم في مقابل إبعاد أبناء الفقراء[2] لظروفهم الاجتماعية الصّعبة وفقرهم وارتفاع تكاليف التّعليم وقلّة وعيهم بأهميته، وأيضا لتوجيه الأولياء أبناءهم للزّراعة والفلاحة والأعمال الحرّة، وأمّا فئة الكبار والإناث فهؤلاء لا يتعلّمون أصلا لفوات قطار التّعليم عليهم، ولعدم مناسبة التّعليم للإناث لإعدّادهنّ لخدمة الرّجال وتلبية حاجياتهم والقيام بشؤون البيت والإنجاب وغيرها مِنَ الأفكار السّائدة وسْط عامّة المصريّين، لذلك ساد الجهل والأمّية والتّخلّف بسبب إبعاد المرأة عن التّعليم، في حين أنّ تعليم المرأة له دور حضاريّ في تربية أجيال المستقبل وبناء أمّة قويّة متحضّرة ومتقدّمة وراقية، وهو ما قاله تلميذ الشّيخ محمّد عبدَه شاعر النّيل حافظ إبراهيم في قصيدته: الأمّ مدرسة إذا أعْدَدْتَها * * * أعدَدْتَ شعبا طيّبَ الأعراق.

وقد حرص الشّيخ محمّد عبدَه على تعليم الكبار الذين توجّهوا إلى الزّراعة والفلاحة والتّجارة بعيدا عن التّعليم، فأشار على الحكومة ببرمجتهم لتلقّي الدّروس التّعليمية والتّربوية في المساء، كما حَثَّ الأميرة نازلي ناظم المنشغلة بالسّياسة على الاهتمام بالنّساء ودعاها إلى تأسيس الجمعيات وبناء المدارس لتعليم المرأة والرّقي بها للقضاء على الأمّية والجهل المستشريَيْن بين النّساء.

---

[1] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج1، ص245.

[2] ينظر: محمود قمبر، الإصلاح التربوي في مصر، مرجع سابق: ص15.

كما أنشأ أقساما خاصّة بتعليم البنات في الجمعية الخيرية الإسلامية وجعل لها فروعا، تزايدتْ أعدادها لحَثِّه الميسورين للمساهمة في تقديم الدّعم المادّي لها لتمكين كلّ شرائح المجتمع مِنَ التّعليم، وعدم قصره على أبناء الأغنياء والذّكور، فمكّن بذلك جميع المصريّين مِنَ التّعليم، وقام بتفعيل مبدأ تحقيق تكافؤ الفرص بين أطيافه، جاعلا الجميع على مسافة واحدة منه.

ولأجل تمكين الجميع مِنَ التّعليم حضّ الحكومة على منح نظارة المعارف والجمعيات الخيرية الإسلامية قِطَعا أرضية، كما حضّ الأوقاف للمساهمة في بناء المدارس لتلقين العلوم وبثّ الوعي لإحياء ونهضة المجتمع المصريّ الذي كان يعاني مِنَ الجمود والجهل والتّخلّف الذي كرّسه الخديوي، وغذّاها شيوخ الأزهر الجامدين الذين كانوا يَلْقَون دعما كبيرا منه، والذين استعملهم في عرقلة أيّ حركة أو شخصية تسعى لتحرير العقول والأفكار مِنَ الاستبداد الذي عمل الخديوي -المدعوم مِنَ الاستعمار البريطاني- على تكريسه للإبقاء على تسلّط الاستعمار على الشّعب المصريّ المغلوب على أمره.

وقد جمع الشّيخ محمّد عبدَه في إصلاحه التّربوي بين الشّرع والعقل لبثّ الوعي ولإحياء الأمّة والنّهوض بها، كما زاوج بين أصالة المجتمع المصريّ المسلم والانفتاح على مستجّدات الحضارة الأوروبّية المتطوّرة والتّعايش معها دون التّماهي فيها ودون التّنصّل مِنْ دينه أو التّمرّد على عادات مجتمعه.

لكن الشّيخ محمّد عبدَه وهو يسعى للتّحرر مِنَ التّقليد والانفتاح على العلوم العصرية، وتمكين فئات المجتمع المختلفة مِنَ التّعليم تأثّر بالحضارة الغربية التي أخذتْ بلبّه وانبهر بها، فانعكس ذلك على بعض تلامذته الذي حملوا لواء الإصلاح وإكماله مِنْ بعده، ففرّطوا في قيم وعادات المجتمع المصريّ، وانبهروا بالحضارة الغربية المادّية والفكرية وارتمَوْا في أحضانها، فبرز قاسم أمين يدعو إلى التّحرر مِنْ مبادئ وقيم الإسلام وأعراف وتقاليد المجتمع المصريّ مِنْ خلال كتابه: تحرير المرأة، وكذا تلميذه الزّعيم السّياسي سعد زغلول الذي دعا المرأة إلى التّحرر الكامل ونزع الحجاب، وغيرها مِنْ المخرجات التي أنتجتْ مدارس مختلفة خرَجت مِنْ تحت عباءته، فالشّيخ أراد تحرير المؤسّسات الدّينية والتّربوية مِنْ سلطة شيوخ الأزهر الجامدين المقلّدين، لكنّ تلامذته الذين تكوّنوا على يديه ذهبوا إلى أبعد مِنْ ذلك، فذابوا في المدنية الأوروبّية على حساب دينهم وأعراف مجتمعهم، وتحوّلوا مِنَ الإفراط إلى التّفريط، فكان منهجهم نُقْلة سلبية بمبرّر الاجتهاد والتّحرّر والانفتاح على العالم الخارجيّ.

إنّ ما طرحه قاسم أمين مِنْ أفكار لتحرير المرأة، كان اجتهادا منه لإصلاح شؤونها لكونه رآه صوابا وليس إنكارا لفرائض الإسلام كما فعل العلمانيّون والملحدون والتّغريبيّون الذين جاهروا برفضهم لها وأنّ الزّمان قد تجاوزها وعفّ عنها حيث قال: "وأَتَيْتُ في ذلك بما أظنّه صوابا، فإنْ أخطأتُ فلي مِنْ حسن النّية ما أرجو معه غفران سيئةَ أخطائي، وإنْ أصبتُ -كما أظنّ- وجب على أولئك المتعلّمين أنْ يعملوا على نشر ما أودعته في هذه الوريقات وتأييده بالقبول والعمل".[1]

وقصدُ الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ دعوته لتعميم التّعليم؛ هو تمكين جميع أطياف الأمّة منه دونما تمييز بين أفرادها، وهذا استجابة لنصوص الكتاب والسنّة التي تُرَغِّبُ في طلب العلم والإشادة بأهله وبما سيحْضَون به مِنْ ثوابٍ جزيل وقربٍ مِنَ الله تعالى وسيادةٍ في الدّنيا وسعادةٍ في الدّارين، لقوله

[1] قاسم أمين، تحرير المرأة، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، مصر، (د ط)، 2012م، ص8.

تعالى:﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ١١﴾[سورة المجادلة]، وقوله ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ**»[رواه التّرمذي].[1]

الفرع الثّالث: وضع أهداف الإصلاح التّربـوي

قام الشّيخ محمّد عبدَه بالإصلاح التّربوي في المؤسّسات التّربوية انطلاقا مِنْ خبرته الميدانية ورؤيته المتدبّرة ورصيده العلمي والمعرفي الثّريّ الذي حصّله مِنْ قراءاته وممارساته ورحلاته ولقاءاته، فانتقى مِنْ عند الأمم الأوروبّية المتطوّرة ما يناسب خصوصيات مجتمعه، وسطّر جملة مِنَ الأهداف التّربوية والتّعليمية لتطبيقها في المؤسّسات المصرية والمتمثّلة في الآتي:

أوّلا: الجمع بين المصلحة الخاصّة والمصلحة العامّـة

هدف الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ إصلاحه التّربوي إلى تكوين مُواطنٍ صالح يقدّم مصلحة المجتمع العامّة على مصلحته الخاصّة أو على أقلّ تقدير التّوفيق بينهما، وذلك بتهيئة الوسط الملائم لتربيته وتعليمه وتنمية شخصيته وتوجيهها توجيها اجتماعيّا صالحا، وبغرس مبادئ الدّين الإسلامي فيه، وكذا بتنمية عقله وتحريره مِنَ التّقليد الأعمى ومِنَ الأوهام والخرافة والبدع، وتزويده بثقافة سياسية إيجابية التي حُرِم مِنَ الاشتغال بها، وتربيته على الشّجاعة وعدم الخوف مِنَ الضّغوط الخارجيّة، وهو ما كان غائبا عن المناهج الدّراسية السّائدة حينها، فهو يرى بأنّ التّربية السّياسية ضرورية لتكوين المواطن الصّالح، وهو ما دعتْ إليه التّربية الحديثة، فالدّول المتطوّرة تحرص على تنشئة تلامذتها على فكرها السّياسي مِنْ خلال برامجَ تُعِدُّها مؤسّساتها التّربوية لتعميق وعيهم وترقية فكرهم السّياسيّ.[2]

ثانيا: تحقيق الوحدة الثّقافيـة

ناهض الشّيخ محمّد عبدَه بإصلاحه التّربوي سياسة فرّق تسد التي انتهجها الاستعمار البريطاني، وحاول إيجاد سياسة بديلة لها بوضع برامج تربوية تحقّق الوحدة الثّقافية للشّعب المصريّ.

فهو يرى بأنّ تعدّد أنواع التّعليم في مصر يَقُضُّ الوحدة الثّقافية للمصريّين ولا يحقّقها، خصوصا وأنّ التّعليم الدّيني في مصر كان يعاني مِنْ معارضة الجامدين والمقلّدين، ومِنْ تهميش الحكومة له واهتمامها بتكوين الكفاءات لتوظيفهم في دواوينها ولا يهمّها التّعليم أصلا، كما تفطّن للمدارس الأجنبية التي تسعى للتّأثير في العقيدة الدّينية والوطنية للنّاشئة الذين يتعلّمون فيها، فاقترح على مجلس المعارف الأعلى أنْ تتولّى نظارة المعارف الرّقابة عليها لتوجيهها وتقييد حركتها حتّى لا تلقّنهم ما يتعارض ومبادئ دينهم ووطنهم، لذلك دعا القائمين على المؤسّسات التّعليمية إلى تحقيق الوحدة الثّقافية للمصريّين، والاقتداء به في تسيير مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التي يشرف عليها.[3]

---

[1] أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: فضل طلب العلم، ج5، ص28، حديث رقم: 2646، وقال التّرمذي هذا حديث حسن، وقال الألباني: حديث صحيح.

[2] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص146.

[3] ينظر: المرجع نفسه: ص146و147.

ثالثا: تحقيق الإنتاج وتطويـره

جعل الشّيخ محمّد عبدَه مِنَ التّعليم وسيلة لإعداد العمالة المنتجة وتطوير الإنتاج، وذلك بالمساهمة به في تنمية المجتمع بإقحام التّلاميذ في الحياة العملية وتعليمهم الحِرَف وتدريبهم عليها لكسب قُوتهم وخدمة مجتمعهم، وهو ما جسّده في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التي يترأّسها ويشرف على برامجها، فمدارسها تُعلِّم أولاد الفقراء الصّنائع بالمجّان، وتُربّيهم على خُلق الأمانة والاستقامة وإتقان العمل لتخريج مواطنين منتجين نافعين لمجتمعهم، وكذا مسايرة المناهج التّعليمية الأوروبّية بتضمين البرامج علوما جديدة تتماشى والتّطوّرات التكنولوجية الأوروبّية، وبذلك يكون التّعليم أحد أدوات الإنتاج، ولا يكون المتعلِّمون عبئا على الدّولة ومجرّد موظَّفِين غير منتجين.[1]

فاستهدف النّاشئة وكلّ أطياف المجتمع المصريّ بالتّربية والإصلاح ليجمعوا بين العلم والعمل دون الفصل بينهما، مستحضرا ذلك في كتبه ومقالاته ومحاضراته التي حضّ فيها على ضرورة تطبيق أحكام الدّين وتمثّلها، فسطّر برنامجا تعليميّا عمليّا يقوم على أخلاق وسلوكات شرعية، لتخريج رجال في المستقبل يبنون مجتمعا كالذي بناه رسول لله ﷺ بمعاملاته الرّاقية وأخلاقه الدّمثة الرّفيعة.[2]

الفرع الرّابع: حماية هوية الأمّة مِنَ المؤثّرات الأجنبيـة

دعا الشّيخ محمّد عبدّه إلى طلب العلم لذاته ولغيره، ولم يجعله وسيلة للحصول على الوظيفة ونيل المناصب العليا في الحكومة أو المؤسّسات لأجل تحصيل لقمة العيش وتحقيق الحياة الرّغيدة فحسب، فكان يرمي مِنْ ورائه إلى محاربة الجهل والأمّية، وبثّ الوعي وتحقيق الإصلاح والنّهضة، وإيجاد إنسان مثقّف، وتمكينه مِنْ إزالة الرّكود وإضفاء الحيوية على الأمّة لجعلها تنبض بالحياة مثل الأمم الأوروبّية المتقدّمة، لكونه يريد تخريج أجيال متكاملة التّربية عقليّا وفكريّا وثقافيّا وبدنيّا، بإدخاله برامج ومناهج لإكساب النّاشئة العلوم والمعارف أوّلا، ثمّ تهيئتهم لتعلّم الحِرف والصّنائع وتكوينهم على تخصّصات مختلفة لتغطية احتياجات الأمّة في مختلف الميادين، حتّى لا تكون عالة على غيرها كما هو حال أمّتنا اليوم التي لم تحقّق الاكتفاء الذّاتيّ، لذلك اخترُقَت سيادتها وصار يُتَحَكَّم في دينها وتعليمها، ووصل الأمر بها إلى جلب المعلّمين والخبراء والمسيّرين والبرامج والمقرّرات البعيدة عن دينها وعاداتها.

لقد عمل الشّيخ محمّد عبدَه على تمكين أبناء الفقراء مِنَ التّعليم، وإعداد النّخب المصريّة على المرجعيّة الإسلامية لتحصينها مِنَ المعتقدات والأفكار والإيديولوجيات الهدّامة التي سعى معتنقوها إلى التّرويج والتّمكين لها، وهو ما قامتْ به المدارس الأجنبية المدعومة مِنَ الإرساليات التّنصيرية المدعومة مِنَ الاستعمارين الفرنسي والبريطاني، فاستطاعتْ بذلك أنْ تزعزع عقيدة المجتمع المصريّ الإسلامية.

لذا دافعها الشّيخ محمّد عبدَه بمدارس الجمعية الخيرية الإسلامية بفتح أبوابها أمام أبناء الفقراء وتكوينهم فيها حتّى لا يكونوا فريسة للمدارس التّنصيرية المنتشرة في مصر التي أثّرت على ناشئتها

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص147و148.

[2] ينظر: عبد الحليم عويس، التّربية وإصلاح الأمّة في مقالات محمّد عبدَه، مقال على شبكة الألوكة: https://www.alukah.net، تاريخ الإضافة: 2014/03/02م، تاريخ الزيارة: 2020/08/27 في الساعة: 18:00 مساء.

بالسّلب بتنصير بعضها وجعلها ملحدة، فقد وقف على عمل مدارس تلك الإرساليات الدّينية ووجدها تشكّل معاهد إلحاد وتبشير، بل وأحدثتْ تشرذما ثقافيّا متنافرا مزّق نسيجها الاجتماعيّ.[1]

والأمّة الإسلامية كلّما سعت لتحقيق الوحدة والتّطوّر إلّا وقام أعداؤها بإثارة الصّراعات الطّائفية بينها وتغذيتها بسياسة فرّق تسد التي جعلوها قنابل موقوتة لشرذمتها ومِنْ ثمَّ إضعافها.

فعمل الشّيخ محمّد عبدَه على تربية كلّ الذين تلقَّوْا تعليمهم في المؤسّسات التّربوية والدّينية على تحقيق المصالح العليا للأمّة، بتوحيد مناهجها حتّى تكون متوافقة مع مرجعيّتها الإسلامية للتّمكين للإسلام في حياة الأفراد والجماعات وجعل أحكامه ومبادئه وقيمه تسري في المجتمع، وبالتّالي منع الجهات التي تعمل على تشويهه ومحاربته والصدّ عنه والإساءة إليه وإلى أهله ورموزه حفاظا على وحدة الأمّة واستقرارها، خصوصا وأنّ غالبية المصريّين يدينون بالإسلام، ولا يضيقون ذرعا بالنّصرانيّين وغيرهم مِنَ الطّوائف، فقد أوصى الرّسول ﷺ بالأقباط خيرا لما رواه أبو ذر ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ قال: **«إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذْكَرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً ورَحِمًا»**[رواه مسلم][2]، قال حرملة: "يعني بالقيراط: أنّ قبط مصر يُسَمُّون أعيادهم قيراطا.

ودين الإسلام نهى عن الإكراه في الدّين في قوله تعالى:﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ٢٥٦﴾[سورة البقرة]، وهو ما التزم به المسلمون عبر تاريخهم الطّويل، وشهد به الأعداء، فقد عاش في حمى الإسلام أهل الملل متمتّعين بحريّاتهم العقدية وكرامتهم الإنسانية بخلاف ما حصل للمسلمين مِنْ إكراه وتعذيب وتقتيل مِنَ اليهود والنّصارى وغيرهم، وأكبر دليل على ذلك محاكم التّفتيش بالأندلس التي تشكّل وصمة عار في جبين النّصارى، فقد أثبت المسلمون أنّهم أمّة رائدة في التّحضّر واحترام الحرّيات وحقوق الإنسان.

لقد أقرّ الشّيخ محمّد عبدَه تدريس العقيدة الإسلامية وغرسها في قلوب المسلمين، ومقارنتها بالعقائد الأخرى لإبراز نقاوة العقيدة الإسلامية وسموّها، وبأنّها ناسخة لغيرها، مع تركيزه على مبدأ احترام عقيدة الغير التي تدلّ على سماحة الإسلام، وعرضه بمثالية وواقعية تَنِمُّ عنْ مصدره الرّبّانيّ، وأنّه ليس مجرد خواطر وخيالات، ولا يمكن عزله عن الحياة، فدحض العلمانية التي تسعى لحصره في المساجد وإبعاده عن مجالات الحياة الحيوية؛ الاجتماعية والسّياسية والاقتصادية وغيرها.

كما انفتح بإصلاحاته التّربوية على ثقافة الغير، وتعلّم اللّغة الفرنسية في عِقده الرّابع، ووظّفها في المطالعة والتّرجمة، وأقرّها على التّلاميذ في المدارس حتّى يكتشفوا حضارة الأوروبّيين المتطوّرة، ويطّلعوا بها على كتاباتهم حول الإسلام والمسلمين، ويدعونهم إلى الإسلام ومبادئه السّمحة.

إنّ موقف الشّيخ محمّد عبدَه الأُوَلِيّ كان رافضا تعليم لغة الاحتلال البريطاني في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية بسبب قرب عهد بلاده بالاحتلال وكُرْهِ النّفوس المصرية له، ثمّ رخّص بتعليمها تلبية لحاجة الأغنياء الرّاغبين في توظيف أولادهم في دواوين الحكومة، فقد قال في إحدى

---

[1] ينظر: محمود قمبر، الإصلاح التربوي في مصر، مرجع سابق: ص18.

[2] أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السّلام، ج4، ص1970، حديث رقم: 2543، قال محمّد فؤاد عبد الباقي قال العلماء: القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به، (ذمّة): والذمّة هي الحرمة والحقّ وهي هنا بمعنى الذّمام، (ورحما): الرّحم لكون هاجر أمّ إسماعيل منهم، (وصهرا): الصّهر لكون مارية أمّ إبراهيم منهم. اهـ

خطبه الاحتفالية بمدارس الجمعية: "وتُعَلِّمُ المدرسةُ أيضا مبادئَ العلوم ولغة أجنبية لإعداد مَنْ يريد خدمة الحكومة لها، وهذا ما لا ترغب فيه الجمعية نفسها، لكنه مِنْ حاجة النّاس"[1]

وما دعاه أكثر إلى الدّفع بأمّته للانفتاح على العالم الخارجي هو خلوّ الأزهر والمؤسّسات التّربوية الأخرى مِنْ تدريس العلوم العصرية واللّغات، إلّا ما كان موجودا في المدارس الأجنبية التي تدعمها الإرساليات ومِنْ ورائها النّفوذ الأجنبيّ، والتي تعمل على تغريب المصريّين وسلخهم مِنْ دينهم، فأضاف إلى علوم الشّريعة العلوم العصرية واللّغات الأجنبية واستعمالها بإيجابية لخدمة الإسلام بالاطّلاع مِنْ خلالها على ما يكتبه الغير عنه ولتعريفه بالحضارة الإسلامية، مِنْ غير عزلة سلبية ولا انفتاح مفْرِط على ثقافته والانبهار بحضارته والذّوبان فيه والتّخلي عن مرجعية الأمّة الإسلامية الدّينية والوطنية.

لقد حدث هذا في وقت وجد فيه الشّيخ محمّد عبدَه المجتمع المصريَّ يعيش تخلّفا كبيرا في جميع المجالات خصوصا في التّربية والتّعليم، حيث كان يُعتَقَد بأنّ العلم ينحصر في القواعد العلمية كالنّحو والفقه والاستكثار مِنْ فروع المسائل، فكرّس فكرةً؛ أنّ للعلوم روحًا ينبغي أنْ يَنفذَ المربّي إلى عُمقها حتّى يبلغ أهدافه التّربوية مِنْ تثقيفٍ للعقول وتهذيبٍ للنّفوس، فالمسلمون في صدر الإسلام كانوا يتحلَّوْن بأخلاق القرآن وهديِ الرّسول ﷺ والتّعمّق في العلوم بمناهج علمية عميقة، فالمدرسة تقوم بوظائف التّعليم وبثّ الفضيلة وتربية المتعلّمين على العمل وعلوّ الهمّة ومعرفة الحقّ وحبّ النّظام والالتزام بالقوانين والشّجاعة والحزم والبُعد عن الجمود والكسل وغيرها مِنَ الخلال الحميدة التي تُكتسب التّلاميذ شخصية سوية، يكونون بها صالحين في أنفسهم مصلحين لغيرهم وواقعهم.

المطلب الثّاني: مجال الكفاءات والممارسات التّعليمية

حتّى تحقّق التّربية مقاصدها المرجوّة، ويؤدّي القائمون عليها واجباتهم كاملة، عليهم تكوين أنفسهم بالإعداد والاستعداد لها مادّيا ومعنويا، واتّباع منهج قويم وطرق سليمة لإنجاحها، والابتعاد عن الممارسات السّقيمة فيها، حتّى يمكنهم إصلاح الواقع التّربويّ المتردّيّ والارتقاء به مِنَ الحضيض إلى المعالي، وإيجاد الآليات التي تُمكّن المؤسّسات التّربوية والتّعليمية مِنْ أداء وظيفتها الموكلة إليها.

وعلى رأس تلك الآليات بذل الوسع في تكوين وتهيئة الكفاءات التّربوية التي تتولّى تربية النّاشئة وتعليمها، ورصد المكافآت التّحفيزية لها، وتوفير الجوّ الملائم لها لإحداث الإصلاح المنشود وإنجاحه، بالإضافة إلى العمل على التّخلّص مِنَ الممارسات غير التّربوية الموروثة التي تعاني منها التّربية بعدما تولّاها أناس لا كفاءة له ولا أخلاق، فجرّدوها مِنْ عمقها الرّوحي وجعلوها وظيفة للارتزاق وجلب المال وبلوغ المناصب العالية لتحسين مستواهم المعيشيّ والاجتماعيّ وحسبْ.

وفي هذا المطلب سيتمّ التّعرّض للكفاءات التّعليمية التي عمل الشّيخ محمّد عبدَه على توفيرها وإيجاد القائمين بالعملية التّربوية والاستفادة مِنْ تجارب الأمم الأخرى لإنجاحها، وسعيه الحثيث لإزالة

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص743و744.

الممارسات التّعليمية المانعة للعملية التّربوية لتجسيد إصلاحاته التّربوية، بالإضافة إلى بيان الموقف المعرقل لجهوده في القيام بالإصلاح التّربوي مِنْ قِبَلِ السّلطتَيْن؛ المصرية والبريطانية الاستعمارية.

الفرع الأوّل: الكفاءات التّعليميـة

والكفاءة التّعليمية: هي القدرة على تجنيد مجموعة مِنَ المكتسبات القبلية والمهارات والمعارف لحلّ المشاكل المتعلّقة بالتّربية، وهي منظومة تجعل المعلّم قادرا على إيجاد الطّرائق والسّبل التّربوية لتنمية المهارات عند المتعلّم مراعيا فيها جميع الفروق النّفسية والاجتماعية بين المتعلّمين، وتقويم مكتسباتهم ومعالجتها بيداغوجيّا بمختلف الأساليب والوسائل التّعليمية العلمية المناسبة.[1]

وكما يكون المعلّم يكون التّعليم، لأنّ كفاءةَ المعلّمِ وأهليتَه وتربيتَه تجعل مردودَه جيّدا، لأنّ كفاءة المعلّمين هي أساس التّربية والتّعليم، وضعفها أو انعدامها يمنعها مِنْ تحقيق الإصلاح التّربوي.[2]

وقد باشر الشّيخ محمّد عبدَه إصلاحاته التّربوية بعدما وقف على الواقع التّربويّ المزري، وخَلُصَ إلى أنّه لا فائدة منه مع انعدام الكفاءات التّعليمية أو ضعفها مِنْ خلال تولّي بعض شيوخ الأزهر المعروفين بالجمود والتّقليد مهمّة التّربية والتّعليم وافتقارهم للكفاءة التّعليمية، فعمل على تجاوزها بإيجاد البدائل النّاجعة لتحقيق إصلاحاته التّربوية، والارتقاء بالمجتمع المصري نحو الأفضل، وفيما يلي بعض المعوّقات التي لقيها الشّيخ محمّد عبده وجهوده في تجاوزها لتحقيق إصلاحاته المنشودة:

أوّلا: تحدّيه لواقع غياب الكفاءات العلميـة

إنّ القائمين بالعملية التّربوية ليسوا كلّهم أكْفَاء، ومنهم مَنْ هو ليس أهلا لها، فقد تصدّر للتّعليم في الأزهر وفي غيره مِنَ المؤسّسات التّعليمية مَنْ كانت لديه مَلَكَة في الحفظ، فحفظ القرآن الكريم، وجمع المتون دون أنْ يفهمها، وهذا الصّنف قد لا يفيد، بل قد يكون عبئا وبلاء على المتعلّمين ويُنفِّر مِنَ العلم ويصدّ عنه بل ويحرّف مقصوده، وهو ما حصل مع الشّيخ محمّد عبدَه في الجامع الأحمدي الذي بدأ به حياته الدّراسية، وعايشه في الأزهر أثناء مرحلة الطّلب فيه، فقد نفّرته طرائق التّدريس فيهما، بالإضافة إلى المعاملة القاسية مِنْ شيوخه الذين كانوا ينهرونه لمّا يلحّ عليهم بالسّؤال بغرض الفهم، ويمنعونه مِنْ عرض آرائه وأفكاره ومناقشتهم، كما ضيّقوا عليه عندما قصد بيت جمال الدّين الأفغاني للدّراسة على يديه، حيث أخذ عنه علوم المنطق والفلسفة والحكمة والتّاريخ وعلم الكلام التي كانت تعتبر عند بعض شيوخ الأزهر الجامدين وطلبتهم المقلّدين بوّابة إلى البدعة والزّندقة والكفر، فمثل هذه الأفكار السّائدة بينهم وتلك المعاملات والسّلوكات الصّادرة منهم، جعلته يَنْفِر مِنَ الدّراسة في بداية حياته العلمية، ويَفِرُّ مِنَ الجوامع والمدارس ويمقتُ العلم والمعلّمين.

لقد كانت للشّيخ محمّد عبدَه تجربة قاسية في طلب العلم حتّى كاد ينصرف عنه، لكنّ العناية الإلهية تداركته، فسخّر اللهُ له والدَه الذي ألحّ عليه في طلب العلم إلى أنْ التقى بخال والده الشّيخ خضر درويش وبجمال الدّين الأفغاني اللّذان رغّباه في العلم بحسن أخلاقهما وسعة علمهما وجودة طرائقهما، فأخذ عنهما وصار مِنَ الكفاءات العلمية والتّربوية المؤهَّلة للتّعليم، وبلغ درجة العلماء

---

[1] ينظر: موقع بيت: www.specialities.bayt.com ، تاريخ الزيارة: 2022/12/03م، في السّاعة: 18:00 مساء.

[2] ينظر: محمود قمبر، الإصلاح التّربوي في مصر، مرجع سابق: ص31.

الأَكْفَاء الذين خلّد التّاريخ ذكرهم في التّربية وإصلاحها سواء على المستوى الشّخصي خلال مزاولته للتّدريس، أم على مستوى المناصب التي تقلّدها بتقديمه لمبادرات عملية، حيث نفّذ بعضها بنجاح، لكنّ الظّروف لم تسعفه لتنفيذ البعض الآخر منها بسبب العراقيل التي لقيها.

إنّ المعلّم والمربّي الكُفْء هو الذي يعمل بنجاح وَسْطَ رداءة الأوضاع والكتب وضعف التّلاميذ، ويؤدّي واجبه التّربوي ويجتهد في تحقيق أهدافه في ظروف صعبة وغير ملائمة، والمعلّم الضّعيف غير الكُفْء هو الذي يفشل في أداء مهمّته التّربوية حتّى مع تقدّم التّكنولوجية وتوفّر الوسائل المناسبة، ووجود التّلاميذ الأذكياء النّبهاء، ووجود المدارس اللّائقة بمرافقها المتنوّعة وتجهيزاتها الكافية.[1]

ثانيا: سعيه لإيجاد الكفاءات التّربوية المطلوبـة

مِنْ أولويات الشّيخ محمّد عبدَه لإنجاح إصلاحاته التّربوية؛ تركيزه على إعداد المعلّم وتكوينه على أسس تربوية متينة، وعلى التّكوين العلميّ والمعرفيّ الرّصين، وعلى الأخلاق الفاضلة، وعلى ترجمة العلوم والمعارف إلى أعمال صحيحة، بالإضافة إلى انفتاحه على المحيط المحلّيّ والإقليميّ والعالميّ مِنْ أهل الملل والنِّحل والإيديولوجيات الأخرى، قصد التّعرف على تجاربهم والاستفادة مِنْ خبراتهم المتوافقة مع قيم ومبادئ الإسلام، واستثمارها في تجسيد الإصلاحات التّربوية التي يرنو إليها.

وإعداد المعلّم يعدّ ركيزة أساسية في الإصلاح التّربوي الذي يهيّئ المتلقّي لأَنْ يكون عنصرا بنّاءً في جميع ميادين الحياة، وهو ما أكّده أحد القادة العسكريّين حينما قال: "إنّ إعداد المعلّم إعدادا سليما هو مفتاح الإصلاح التّربويّ، فلا بد مِنْ إعارة هذه النّاحية الحيويّة أعظم درجات الاهتمام."[2]

والمعلّم لا يقتصر على قطاع التّعليم فحسب، وإنّما يدخل في كلّ القطاعات، لقوله ﷺ: «**وَإِنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ** »[رواه البخاري][3]، فالتّعلُّم والتّعليم لا بدّ لهما مِنْ معلّم، فليس هناك مَنْ وُلِد متعلّما.

وقد كان الشّيخ محمّد عبدَه مِنَ الكفاءات التّربوية التي عملت في ظروف صعبة، أين كانت الكلمة فيها لشيوخ الأزهر الجامدين تسندهم سلطة ضعيفة مستسلمة لأهوائها خاضعة لقوى أجنبية استعمارية تستهدف ثوابت الشّعب المصري، فدافعها بحكمة، وأصلح ما أمكنه رغم العراقيل التي لقيها، ومع ذلك لم ييأس وواصل مُصِرّا في القيام بها لثقته في نفسه، ولم يترك الوضع على حالته المتردّية، وانبرى يؤدّي واجب الإصلاح التّربوي متحمّلا النّقد والتّجريح والتّشويه مِنْ معارضيه.

ومع ذلك استطاع إصلاح برامج ومقرّرات التّدريس، والقيام ببعض الإصلاحات الإدارية لكونها تعين على التّربية والتّعليم، وهو ما قام به في المدرسة السّلطانية خلال منفاه ببيروت، كما قدّم استشاراته إلى المسؤولين على نظارة المعارف بالكتابة عنها في جريدة الوقائع المصرية التي يرأسها دون

---

(1) ينظر: محمود قمبر، الإصلاح التربوي في مصر، مرجع سابق: ص31.

(2) محمّد شيت خطاب، بين العقيدة والقيادة، دار القلم، دمشق، الدّار الشّامية، بيروت، ط1، 1998م، ص538.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: العلم قبل القول والعمل، ج1، ص24، علّق مصطفى ديب البغا في هامش ج1، ص25 مِنْ صحيح البخاري بقوله: "هو حديث مرفوع أورده ابن أبي عاصم والطّبراني مِنْ حديث معاوية ﷺ بلفظ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَعَلَّمُوا إِنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ وَالفِقْهُ بِالتَّفَقُّهِ وَمَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»، وقال: إسناده حسن.

محاباة أو مداهنة، بل كان ينتقد بموضوعية سياسةَ الحكومة التّعليمية التي لا تخدم التّربية والتّعليم، ويشيد بالمحاسن ويثمّنها، وينتقد المساوئ ويقدّم البدائل النّاجعة لها.

ثالثا: متابعته الميدانية لمدى تنفيذ إصلاحاته التّربويـة

استخلص الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحات التّربوية التي قام بها مِنْ حياته العلمية منذ أنْ كان طالبا إلى أنْ صار مدرّسا ومسؤولا، وحصّل تجربة كافية مكّنته مِنِ اكتساب كفاءة عالية، وصار قدوة حسنة لغيره في التّربية والتّعليم لما حقّقه مِنْ نجاحات في تبليغ أفكاره وإقناع مريديه بإصلاحاته التّربوية التي سعى إلى تجسيدها، وقد عبّر عن صفات المعلّم الكُفْءِ مِنْ خلال خبرته في التّعليم بقوله: "فعلى الأستاذ أنْ يكون بيده ميزانٌ يزن به ذهن الطّالب ودرجة استعداده لقبول ما يقول".[1]

خلال زيارات الشّيخ محمّد عبدَه إلى مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التي كان يتابع فيها مدى تطبيق برامجها ومدى فاعليتها في تعليم وتربية تلامذتها، كان يقوم بامتحانهم شخصيّا وتوجيه الأسئلة إليهم في شتّى العلوم المقرّرة عليهم في الدّين واللّغة العربية والتّاريخ والجغرافيا والعلوم الطّبيعية والحساب، ويناقشهم في إجاباتهم ثمّ يقيم حفلا يقدّم لهم فيه جوائز تكريمية ومبالغ مالية وكتبا قيمة تشجيعا لهم على طلب العلم، ثمّ يلقي خُطبا تقييمية توجيهية للمتعلّمين والمعلّمين على السّواء.

ففي إحدى زياراته الميدانية لمدارس الجمعية الخيرية الإسلامية وبعد امتحانه لتلامذتها وتكريمهم، ألقى خطابا وجّهه إلى المشتغلين بالتّربية ودعاهم فيه إلى ضرورة أنْ يحفظ التّلاميذ مقالات في الدّين والآداب ويفهمونها، ونهاهم عن حشو أذهانهم بالحفظ دون الفهم، مذكّرا إياهم بأنّ المحفوظات مفيدة لهم وهي ذخرهم في المستقبل، وتعتبر بمثابة بذرة وُضعتْ في أرض صالحة يتعهّدها الزّمان بالسّقي والتّغذية حتّى تُثمر الثّمرة الصّالحة، وطَلَبَ مِنَ المعلّمين ألّا يعلّموا التّلاميذ مالا يفهمون، وأعلمهم بأنّه سيقوم بدورات تفتيشية للتّأكّد مِنْ تطبيق تعليماته.[2]

الفرع الثّاني: الممارسات التّعليميـة

تَدْخُل المعاملة الحسنة ضمن الأخلاق الإسلام الفاضلة التي حثّ عليها وأقرّها، لقول رسول الله ﷺ: «**بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ**»[رواه مالك في الموطّأ][3]، ويعتبر المعلّم قدوة للتّلاميذ الذين يجلسون بين يديه لينهلوا مِنْ علمه ويتأدّبوا بأخلاقه، وهو المثال الذي يُقتدى به، لذلك يستحقّ التّقدير والاحترام بالنّظر للمهمّة الرّسالية التي يقوم بها، وقد قال شاعر النّيل حافظ إبراهيم:

قم للمعلّم وفِّه التّبجيلا * * * كاد المعلّم أنْ يكون رسولا،

فإذا ما تأسَّوْا به واجتهدوا في طلب العلوم وَصَلُوا إلى مرتبته العلمية وحقّقوا مبتغاهم مِنْ تحصيل العلوم والمعارف، كما أنّ التّصرّفات والمواقف التي تصدر مِنَ المعلّمين تجاه تلامذتهم أثناء التّلقي مِنْ شأنها أنْ يؤثّر عليهم بالإيجاب أو بالسّلب، فقد يلقّنهم العلوم والمعارف ويصيرون معلّمين

---

[1] تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص108.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص740.

[3] أخرجه مالك في الموطأ، في كتاب: حسن الخلق، باب: ما جاء في حسن الخلق، ج2، ص904، حديث رقم: 08، قال ابن عبد البرّ: "هو حديث مدنيّ صحيح متّصل مِنْ وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره".

ومصلحين، وقد ينفّرهم منها ويكرّس فيهم الجهل والأمّية، وعندما يتّبع معهم منهجا صحيحا في التّربية والتّعليم سيطوّر قدراتهم الذّاتية، ويسهم بذلك في إيجاد معلّمين أكْفاء في مؤسّسات علمية ناجحة.

والشّيخ محمّد عبدَه يمثّل مدرسة في الإصلاح التّربوي على مستويَيْن، على مستواه الفردي بحكم ممارسته للتّربية والتّعليم في إطار أداء وظيفته كمربّي ومعلّم، بتوظيف خبرته ومهاراته أثناء أداء مهامّه في المؤسّسات التّربوية والتّعليمية المصرية، أو على مستوى المؤسّسات الرّسمية في الحكومة المصرية باعتباره منظِّرا ومقرّرا ومشرفا ومتابعا لمدى تنفيذ البرامج والمقرّرات وفق القرارات والتّعليمات والتّوجيهات المسطّرة، وفيما يلي بعض الممارسات السّارية في هذا المجال وموقفه منها:

أوّلا: استحكام أمراض القلوب والتّحجّر الفكـري

كانت تسود أروقة الأزهر ومجالسه بعض الممارسات السّلبية والسّلوكات المستهجنة التي تتنافى مع الأخلاق الإسلامية، ولا تليق بمؤسّسات التّربية والتّعليم وبطلبة العلم وشيوخهم، مثل الحسد والحقد والعداوة، وكذا التّعليم بالتّلقين ومنع الحوار ورفض مناقشة الأفكار وتبادل الآراء، والجدال العقيم والخصام الشّديد، حيث وصل الأمر بين بعض الطّلبة وشيوخهم إلى التّلاسن والشّتائم والتّشابك بالأيدي والتّلويح بالعِصِيّ، مثل ما حصل بين محمّد عبدَه الطّالب وشيخه محمّد علّيش.

وقد ذكر الشّيخ محمّد عبدَه عند اجتيازه امتحان شهادة العالمية ذلك الموقف الصّعب أمام أعضاء اللّجنة المتعاطفة مع الشّيخ عليش قائلا: "وابتُليتُ في الامتحان أشدّ الابتلاء لتعصُّب الأكثر مِنْ أعضائها مع الشّيخ المرحوم علّيش، وكان يعاديني على الغَيب"[1]، ولمّا أُبلغ الشّيخ علّيش بأنّ محمّد عبدَه يَحضُر دروس جمال الدّين الأفغاني ويقرأ عليه كتب المعتزلة والمتكلّمين، ذهب إليه حاملا عكّازه، ودارتْ بينهما مشاجرة بالأيدي، استعمل فيها الشّيخ علّيش عكّازه، وفي المقابل كان محمّد عبدَه يحضر حلقة الشّيخ علّيش ومعه عصاه ليردّ عنه أيّ عدوان قد يطرأ عليه مِنْ طلبة ومريدي الشّيخ علّيش.[2]

لقد حدثتْ معه تلك التّصرّفات أثناء طلبه للعلم بالأزهر مع بعض شيوخه المسيطرين على الأزهر المعروفين بالجمود والتّقليد، والمدعومين مِنَ الخديوي، والذين كانوا يتمتّعون بسلطة روحية كبيرة على المصريّين، وهو الوضع الذي لم يرتضيه الشّيخ محمّد عبدَه، فثار عليه وعمل على إصلاحه، ولمّا صار مدرّسا في الأزهر وفي غيره مِنَ المؤسّسات التّربوية، كان مثالا يُحتذى به في التّربية والتّعليم وفي حسن الخلق، وبالجدّية في القراءة والكتابة، كما اجتهد في غرس الفضائل في النّاشئة وطلبة العلم، وتربيتهم على التّديّن الصّحيح وتنمية عقولهم وتطوير مداركهم وتنوير فكرهم ورفع الوعي لديهم، حتّى يخلّصهم مِنَ الأمراض التي استحكمتْ فيهم، ويحدّ مِنَ الممارسات غير اللّائقة التي استشرتْ بينهم والتي لا يرتضيها الإسلام وتستهجنها العقول، وتمجّها الأذواق السّليمة، بإرساء تربية راشدة قائمة على الأخلاق الحسنة والمعاملة الرّاقية وصفاء السّريرة، وتكريس ثقافة الاستماع إلى الرّأي المخالف ومناقشة أفكاره، كما عمل على تربّية المتعلّمين على إعمال العقل وعلى سعة الصّدر في تلقّي العلوم العصرية

---

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص102.

[2] ينظر: عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص117.

المفيدة التي لا تتعارض مع الشّريعة الإسلامية، وتعليم التّلاميذ العلوم النّافعة كالتّصوّف والمنطق والفلسفة والتّاريخ والحكمة التي أخذها مِنْ شيوخه وأساتذته المتنوّرين.

كما عَلَّم طلبته وربّاهم على السّير وفق منهج علميّ نافع ومفيد على خلاف ما كان سائدا في الأزهر، حتّى يكوّن جيلا مِنَ الطّلبة الذين سيكونون منارات يُهتدَى بهم في المستقبل، لذلك لمّا كان يعلّم في الأزهر اتّبع منهجا خاصّا أقامه على الانفتاح على جميع العلوم وعلى الحوار والنّقد والتّحليل.[1]

واجتهد في إزالة الاختلالات الكثيرة الموجودة على صعيد الممارسات التّعليمية السّائدة في المؤسّسات التّربوية المصرية يومها، بالرّجوع إلى أصول الإسلام وتراث المسلمين الزّاهر، لتحقيق التّربية الحقّة بإصلاح الفرد والمجتمع ومِنْ ثَمَّ إصلاح الوضع التّربوي للمسلمين.

ومِنْ التّجارب المشرقة المعاصرة للغير على الصّعيد الفردي في المؤسّسات التّربوية العمومية التي يمكن اتّباعها لتجاوز الممارسات التّربوية غير اللّائقة الشّبيهة بما كان حاصلا في عهد الشّيخ محمّد عبدَه؛ إحصائية أمريكية ذكرتْ بأنّ جملةَ ما أنفقه المعلّمون مِنْ جيوبهم في سنة واحدة أكثر مِنْ بليون دولار، والمعلّم في كوريا الجنوبية قد يسهر لإنجاز عمله اليوميّ إلى منتصف اللّيل داخل مدرسته، والمعلّم في سويسرا يدرّس أسبوعيا 33 حصة ويومه الدّراسيّ الكامل يمتدّ مِنَ 08:30 صباحا حتّى 15:30 مساء، وعطلته الصّيفية لا تزيد عنْ ثلاثة أسابيع، وأكثر منه عملا بالمدرسة المعلّم الياباني الذي يبدأ يومه الدّراسيّ الرّسميّ مِنَ 08:30 صباحا إلى 17:30 مساء وعادة ما يتأخّر إلى السّاعة 18:00 مساء، كما يُطالَب المعلّم بالعمل يوم السّبت وهو يوم الإجازة مرّتَيْن في الشّهر.[2]

فهذه المبادرات الإيجابية لتلك الأمم ينبغي الإشادة والاقتداء بها وتفعيلها في الواقع التّربوي للمسلمين، وتربية الأمّة على المبادرة بالعمل التّربوي المفيد، لإزالة تراكمات الممارسات التّعليمية السّلبية الموروثة وما صَاحبها مِنْ جمود في المقرّرات التّعليمية، والتي كان لها أثر سلبي على المعلّمين وعلى المتعلّمين وعلى المؤسّسات التي يشتغلون فيها، وعليه فإنّ الشّيخ محمّد عبدّه أدّى واجب التّربية والإصلاح والتّربوي متحدّيا الصّعوبات والعراقيل التي اعترضتْ سبيله في الإصلاح.

ثانيا: اعتماد التّربية الإسلامية في الإصلاح التّربـوي

بنى الشّيخ محمد عبدَه إصلاحاته على التّربية الإسلامية التي تعدّ ثمرة طبيعية للعقيدة الإسلامية الصّحيحة، لتأثيرها الإيجابي في إصلاح النّفوس وتجديدها، لأنّ الإنسان متديّن بالطّبع، والدّين فطرة في النّفس البشرية، لقول النّبيّ ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**»، ثمّ يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾[سورة الرّوم][رواه البخاري].[3]

---

[1] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص89.

[2] ينظر: محمود قمبر، الإصلاح التربوي في مصر، مرجع سابق: ص30.

[3] أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصّبيّ فمات هل يصلّى عليه وهل يُعرضُ على الصّبيّ الإسلام، ج2، ص94، حديث رقم: 1358.

إنّ الدّين الإسلاميّ له مقدرة كبيرة على التّأثير في النّفوس بالتّغيير مِنْ طباعها وأخلاقها ومِنْ تَوجُّهَاتها عند الخاصّة والعامّة على السّواء، وسلطانه أقوى مِنْ سلطان العقل، ورغم منهج الشّيخ محمّد عبدَه العقليّ إلّا أنّه كان يَعلَم يقينا بأنّ سلطان الدّين يَغلِبُ سلطان العقل ويسبقه في النّفوذ إلى النّفوس والتّأثير فيها وإصلاحها وتغييرها.[1]

وعليه فإنّ الممارسات السّلبية والأمراض النّفسية والفكرية المستحكِمة في نفوس بعض المعلّمين والمربّين وما خلّفته مِنْ آثار خطيرة على النّاشئة وطلبة العلم، تصدّى لها الشّيخ محمّد عبدَه بمنهج مشبع بالقيم والآداب الإسلامية المستوحاة مِنْ نصوص الشّريعة الإسلامية وتراث المسلمين الغنيّ بالسّلوكات المثالية في سيرة أسلافنا النّقيّة مِنْ أمراض القلوب، والأفكار المتحجّرة، والممارسات البعيدة عن أصول الإسلام ومبادئه، فبادر إلى علاجها بإقراره للتّربية الإسلامية لتجسيد إصلاحاته التّربوية.

الفرع الثّالث: موقف السّلطة والاستعمار مِنْ إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربويـة

دخل الشّيخ محمّد عبدَه جميع المؤسّسات التّربوية والدّينية ليعمل بها ويصلحها مِنَ المناصب التي تقلّدها لقناعته بدورها المجدي في ذلك، وعَرَضَ اقتراحاته على السّلطة الفعلية في مصر التي يمثّلها المندوب البريطاني اللورد كرومر والخديوي توفيق الخاضع له، وَسْطَ أوضاع سيّئة يسودها الضّعف والذلّ والاستسلام للاستبداد الدّاخلي المتنامي والاستعمار الخارجي المستحكِم، حتّى صار يحسّ نفسه وحيدا في واقع صعب، لهذا لم يجد بُدًّا مِنَ الأخذ والردّ مع الاستعمار البريطانيّ ومع الخديوي توفيق حتّى يستطيع تجسيد إصلاحاته التّربوية باستهدافه إصلاح المؤسّسات التّربوية رغم يقينه بعداوة الاستعمار للإسلام ومعارضته لإصلاحها، لكنّه لم ييأس ولم يفشل، وهو الحافظ لكتاب الله تعالى، والفقيه بدلالات ومقاصد آياته القرآنية التي يقول فيها الله تعالى:﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ ﴿١٢٠﴾﴾[سورة البقرة]، وقوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ ﴿١١٨﴾﴾[سورة آل عمران]، والتي تُظْهِرُ حقد وبُغض الكفّار للإسلام والمسلمين ومكرهم بهم؛ ومع ذلك كان يعارض الإنجليز بذكاء، ويغالبهم سلميّا بتحفّظاته وبتقديم ملاحظاته وانتقاداته، ويعرض عليهم البدائل والاقتراحات المناسبة بالكتابة والمراسلات والحوار حتّى يقنعهم ويسمحون له بتنفيذ إصلاحاته التّربوية.

لقد تفرّغ الشّيخ محمّد عبدَه للعمل التّربوي غداة عودته مِنَ المنفى إلى مصر سنة 1888م، وشرع يطبّق إصلاحاته التّربوية بهدوء وحكمة اتّقاءً لشرّ الإنجليز، وعقد علاقات وطيدة مع اللورد كرومر، وبدأ ينفّذ إصلاحاته في الأزهر والقضاء والأوقاف، وأنشأ الجمعية الخيرية للتّأسيس للعمل التّربويّ والخيريّ الجماعيّ المنظّم الذي لم يكن معهودا حينها في مجتمع المصريّ.[2]

وسلك طريق الإصلاح التّربوي بكتابة اللّوائح التّربوية وتقديم استشاراته السّياسية والقانونية في مجال القضاء إلى اللورد كرومر، الأمر الذي جعل بعض الدّارسين المسلمين مثل محمّد محمّد حسين

---

[1] ينظر: زينب محمود الخضيري، التّطور والإصلاح عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص82.

[2] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص90.

وغازي التّوبة وغيرهما يعتبر ذلك تعاونا منه مع الإنجليز وعمالة لهم، في حين اعتبر تلميذه محمّد رشيد رضا ذلك مداراة لهم واتّقاء لشرّهم، لأنّهم كانوا في موقع قوّة وبيدهم زمام الأمور، فقد ينفيه الإنجليز مرّة أخرى بعدما سمحوا له بدخول مصر وتساهلوا معه في تنفيذ إصلاحاته التّربوية.[1]

لمّا تولّي الخديوي عباس الثّاني الحكم سنة 1895م، قرّب إليه الشّيخ محمّد عبدَه واستشاره في كيفية مناهضة الإنجليز وإنهاء نفوذهم، فأخبره بأنّه لا يمكن ذلك إلّا بإصلاح الأزهر والأوقاف الإسلامية والمحاكم الشّرعية، لأنّ بإصلاحها ستحدث نهضة دينية واجتماعية، ومكّنه الخديوي مِنْ مباشرة إصلاحها، وشرع يزيل آثار الجمود في الأزهر، وهنا عارضه الخديوي عبّاس وطالبه بالتّدرّج في إصلاحه فرضي مُكرَها، ثُمّ توجّه لإصلاح النّواحي الإدارية والصّحّية والخُلُقِية وأدخل العلوم الحديثة، ومنع قراءة الحواشي في الأقسام الأوّلية، وأبقى على تدريس المتون والشّروح ومَنَعَ الاجتهاد والتّجديد، ولمّا رأى الشّيخ محمّد عبدَه أنّ طريقة إصلاح الأزهر هذه غير كافية، استعاض عنها بإلقاء الدّروس في التّفسير وعلوم البلاغة، وأخذ يدعو إلى الإصلاح بأوسع معانيه بفَتْحِ باب الاجتهاد على مصراعيه، وأقرّ على طلبته كتابَيْ دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للجرجانيّ، الأمر الذي أسخط عليه شيوخ الأزهر وأغضب الخديوي الذي وضع له العقبات ليمنعه مِنْ إتمام إصلاحاته، وأغرى به شيوخ الأزهر الذين اتّهموه في عقيدته وطعنوا في دينه، فتعثّر إصلاحه للأزهر ولم يحقّق كلّ غاياته حتّى وافته المنيّة سنة 1905م.[2]

وعندما رفض شيوخ الأزهر الجامدين إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية، صبر وتحمّل وعزم على المضيّ في تنفيذها، فرفضوها وتآمروا عليه حتّى يتراجع عنها بحجّة أنّ وظيفة الأزهر هي تخريجُ علماءَ يعلّمون النّاس فرائض الوضوء والصّلاة وأحكام الحلال والحرام فقط، ذلك أنّهم أَلِفُوا كلّ قديم واعتبروه دِينا وكَرِهوا كلّ جديد وعدّوه كفرا، وأشاعوا أنّ إدخال العلوم الحديثة للأزهر مِنَ الكماليات، وأخذوا يخوّفون الحكومة مِنَ الدّين ويؤلّبون عامّة الشّعب عليه، وسمّموا الأجواء مِنْ حوله لإفشال إصلاحاته، ولمّا رأى الخديوي عبّاس الثّاني أنّه ليس لدى الشّيخ أطماعا دنيوية مِنْ وراء إصلاحاته، وأنّ تهديداته لم تُخِفْه، وإغراؤه بالمناصب والامتيازات لم تخضعه، حرّضَ عليه شيوخ الأزهر المعارضين للإصلاح، ليدفعه إلى الاستقالة مِنْ مجلس إدارة الأزهر بعدما أثار فيه جدلا كبيرا بين أنصار الجمود والتّجديد لمّا فتح المجال واسعا أمام التّجديد، لكنّ جهوده أثمرتْ بعد مدّة طويلة مِنْ وفاته؛ بصدور قوانين مؤيّدة للإصلاح، كصدور القانون رقم: 103 سنة 1961م الذي قضى بتطوير الأزهر وتجديده، وهكذا جعل شيوخَ الأزهر الرّافضين له يعملون في ضمن مشروعه الإصلاحي.[3]

---

[1] ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص56.

[2] ينظر: عبد المتعال الصعيدي، المجدّدون في الإسلام، مرجع سابق: ص402و403.

[3] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص209.

المطلب الثّالث: مجال المقرّرات والطّرائق التّعليمية

اعتمد الشّيخ محمّد عبدَه لتحقيق إصلاحاته التّربوية استراتيجية خاصّة؛ تمثّلتْ في معاينته للواقع التّربوي المتردّي لمصر، الذي كان يتجاذبه الجامدون على المناهج التّربوية والتّعليمية التّقليدية التي تشبّثَ بها شيوخ الأزهر الجامدين، وبين المنبهرين بالتّقدّم الأوروبّيّ في مجال التّربية والتّعليم مِنَ الذين ارتمَوْا في أحضان المدنيَّة الأوروبّية التي حقّقتْ تطوّرا كبيرا، فرأى بعلمه وخبرته وباطّلاعه على إنجازات الغرب المادّية والمعنوية؛ ضرورة اعتماد الأساليب الصّحيحة واستعمال الوسائل اللّازمة والآليات النّاجعة لتجسيد إصلاحاته التّربوية، كتربية المتعلّمين في مختلف الأطوار وخدمة مصالح النّاس والمساهمة في الإنتاج وتطويره وتحقيق الوحدة الثّقافية، وعدم قصر التّعليم على تحصيل الوظيفة والارتزاق فحسب، وهذا كلّه بغية الرّقي بالأمّة المصريّة إلى مصافّ الأمم المتقدّمة.

لهذا اعتمد أهمّ الوسائل التّعليمية لتحقيق الأهداف التّربوية مِنْ خلال تقريره تدريسَ جملة مِنَ موادّ التّعليم الأساسية، ووضعه أُسُسَ التّدريس وطرائقه، كما حدّد ملامح المعلّم النّاجح، بالإضافة إلى تحديده للكتب المدرسيّة المقرّرة على التّلاميذ، وذلك وفق التّفصيل الآتي:[1]

الفرع الأوّل: تقرير مواد التّعليم للتّكوين العلمي والنّفسي

أقرّ الشّيخ محمّد عبدَه جملة مِنَ الموادّ لتدريسها للتّلاميذ عند التحاقهم بالمدرسة؛ كعلوم الشّريعة والعلوم اللّغوية والتّاريخ والجغرافيا واللّغات الأجنبيّة والموادّ العلمية كالرّياضيات، كما أقرّ عليهم بعض الموادّ الفنّية كالموسيقى والرّسم.

وأمّا الدّين فهو يمثّل بالنّسبة للشّيخ محمّد عبدَه القاعدة الصّلبة التي ينبغي أنْ يُربَّى عليها تلامذة المسلمين، لتحصينهم مِنَ الأفكار الدّخيلة وحماية عقيدتهم مِنَ الانحراف، وجعلهم أفرادا صالحين يُعتمد عليهم في بناء البلاد وخدمة العباد، لذلك اتّجه إلى تعميم تدريس علوم الشّريعة الإسلامية لأبناء المسلمين؛ كالعقيدة والفرائض والعبادات والمعاملات وتلقينها لهم منذ دخولهم إلى المدارس إلى غاية المراحل النّهائية مِنَ التّعليم، حتّى يفهموا كتاب الله فهما صحيحا، ويكونوا على بصيرة بدينهم، وتدريسهم علوم اللّغة العربية؛ كالنّحو والبلاغة والأدب لفهم الدّين واكتساب الفصاحة وعصمة اللّسان مِنَ الخطأ، وتربية النّفس على عاطفة الإحساس الصّادق وتعميقه فيها.

لقد كان الشّيخ محمّد عبدَه كثير الانتقاد لطريقة التّأليف التي تسبّبتْ حسبه في ضياع المقصد مِنْ تلك العلوم، لانشغال الدّارسين بالبحث في مراد المؤلِّف مِنْ عباراته دون تقويم اللّسان وإكساب الطّالب الفصاحة في الكتابة والخطابة، ولكي يجسّد هذه الأهداف قدّم البدائل المناسبة بتقريره على التّلاميذ كتاب نهج البلاغة للإمام علي ﷺ لأهمّيته في المجالَيْن اللّغوي والبيانيّ، ودعاهم لحفظه وفهمه فقال: "فأجدر بالطّالِبِينَ لنفائس اللّغة، والطّامعين في التّدرّج لمراقيها، أنْ يجعلوا هذا الكتاب أهمّ محفوظهم، وأفضل مأثورهم، مع تفهّم معانيه في الأغراض التي جاءت لأجلها".[2]

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص148- 154.

[2] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدّه، مصدر سابق: ج2، ص412.

وأوصاهم بدراسة كتابَيْ أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، وكتاب الصّناعتَيْن لأبي الهلال العسكريّ، وأرشد إلى دراسة مقدّمة ابن خلدون لأهمّيتها في أسس العمران وأصول الاجتماع، كما قرّر مادّتَيْ التّاريخ والجغرافيا لأهمّيتهما في دراسة تاريخ الأفراد والشّعوب والبلدان، وقرن بينهما لتكاملهما؛ فالجغرافيا تمثّل المسرح، والتّاريخُ يمثّلُ الأحداث التي تجري عليه، كما بيّن بأنّ الظّروف الجغرافية والطّبيعية تؤثّر على الأحداث التّاريخية، فالمسلمون لم ينتصروا في فتوحاتهم على أعدائهم إلّا بعد أنْ درسوا الظّروف الجغرافية والطّبيعية لبلادهم، ولو جهلوها لانهزموا في قتالهم، كما طالب بتعلُّم اللّغات الأجنبية لتحصيل العلوم والآداب والأفكار الخادمة للأمّة المصرية والإسلامية، ولم يُغفِل تعلّم الرّياضيات لاعتمادها على البرهنة والاستدلال والاستقراء والملاحظة والتّجربة الموصلة إلى نتائج وأحكام يقينية، وأمّا تدريس الموسيقى والرّسم والأشغال اليدوية، فقد برهن على أهمّيتها في تربية الذّوق وتهذيب الوجدان، فهي لغة نفسية قد تفوق الشّعر في التّعبير عن المعاني الرّاقية والمشاعر الصّادقة، ومثل هذه العلوم تقوّي الأمّة وتجعلها تحقّق التّقدّم والسّيادة في العالم، فقد سبقنا إليها الأوروبّيون الذين تفوّقوا فيها وصاروا يتحكّمون في العالم، لذلك أقرّها الشّيخ محمّد عبدَه على تلاميذ المدارس، وبيّن أهمية دراستها منذ القرن التّاسع عشر، وأكّد أنّها مفيدة ومِنْ لوازم الحياة في هذه الأزمان، لذلك دعا إلى ضرورة اكتسابها واستفراغ الجهود في طلبها.[1]

الفرع الثّاني: أسس التّدريس وطرائقــه

حتّى يكون التّعليم ناجحا ويحقّق أهدافه القريبة ومقاصده البعيدة، ويؤدّي وظيفته على الوجه الأكمل لابدّ أنْ يقوم على أسس متينة ويتمّ وفق طرائق مدروسة ومجرّبة وناجعة أهمّها:

أوّلا: حثّ المتعلّمين على إعمال العقل والتّفكير والبُعد عن الحفظ والتّلقيــن

وضع الشّيخ محمّد عبدَه أهمّ الأسس العامّة التي يقوم عليها التّدريس الجيّد في مستهل القرن العشرين، والمتمثّلة في البُعد عن الحفظ والتّلقين وضرورة التّركيز على الفهم والتّفكير، لذلك كان كثير الانتقاد للطّرق القديمة العقيمة القائمة على الاعتماد على أساليب الحفظ والتّلقين وإهمال التّفكير السّليم وعدم استخدام العقل وتفعيله، فهو يرى بأنّ أوّل قاعدة للتّدريس هي الابتعاد عن التّعليم الحَرْفِيّ الفارغ، فهذه القاعدة تحقّق الفهم وتنمّي الإدراك العقليّ، وتهيّئ التّلاميذ للفهم أكثر وترغّبهم في الدّروس والإقبال على طلب العلم، وحتّى يكون التّعليم فعّالا ينبغي تنمية الميزان العقلي، والاستقلال في التّفكير وتحرير الفرد مِنْ القيود والضّغوط.[2]

كما دعا الشّيخ محمّد عبدَه المعلّمين إلى عدم تعويد التّلاميذ على التّقليد الأعمى وعلى الاتّكال على الغير في الفهم، وإنّما عليهم تعويدهم وتربيتهم على الوصول إلى الحقيقة وتحقيقها بأنفسهم، وإرشادهم إلى أخطائهم والرّجوع إلى الصّواب بشجاعة، حتّى يحصّلوا مَلَكَة التّمييز شيئا فشيئا، وتعويدهم على النّقد والتّمحيص والأخذ والردّ والمناقشة، وحثّهم على التّفكير والتّدبر في الخطأ

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص151.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص152.

والصّواب معا، فهذه التّربية تتماشى مع ما تنادي إليه التّربية الحديثة بخلاف ما كان سائدا في عهده مِنْ تقليد وحَجْرٍ على العقول ومنعها مِنَ التّفكير.[1]

إنّ هذا الأسلوب التّربوي مِنْ شأنه أنْ يفجّر الطّاقات العقلية والفكرية الكامنة في النّاشئة وطلبة العلم، ويجعلها تُبدع وتَخرج مِنْ ربقة التّخلّف والجهل وتحقّق التَقدّم والتّطوّر بإصلاح الواقع البئيس.

ثانيا: تربية المتعلّمين على الجمع بين النّظرية والتّطبيـق

كان الشّيخ محمّد عبدَه عمليّا في جعله التّعليم جامعا بين النّظريّة والتّطبيق، فقد انتقد حصره في الجانب النّظريّ وقصْرِه عليه دون الجانب التّطبيقيّ وهو ما تميّز به التّعليم في عصره، لذلك لم يكن للتّعليم تأثير إيجابيّ في توجيه سلوك التّلاميذ، فَخَيْرُ ما يحفظ العلمَ هو العملُ به، لهذا ينبغي ترجمة العقيدة الدّينية للتّلاميذ إلى سلوك، وترجمة قواعد اللّغة في المكاتبات، فكان يدعو إلى ضرورة المزاوجة بين الفكر والعمل، وهو ما دعا إليه الإسلام دائما وهو ما تدعو إليه التّربية الحديثة، فينبغي على التّلميذ أنْ يُترجم كلّ ما يتعلّمه إلى سلوك وعمل ونشاط في حياته.[2]

وبهذا يعتبر الشّيخ محمّد عبدَه مجدّدا ومفعّلا لمبادئ الدّين الإسلامي لإصلاح الواقع التّربويّ السّلبي وتغييره، وترجمة الأفكار النّظرية إلى سلوكات عملية في حياة المتعلّمين.

فكان إصلاحه التّربويّ عمليّا مِنْ خلال ما بثّه في نفوس النّاشئة مِنْ مبادئ إسلامية، أشفعها بتعليمهم الفنون والصّنائع والحِرَف للانتفاع بها في حياتهم وللتّغلب على متطلّباتها، وليربّيَ النّاشئة على الجمع بين العلم والعمل، حتّى يحسنوا إدارة حياتهم ويستطيعون السّيطرة عليها مثل الغرب تماما.[3]

ثالثا: تربية المتعلّمين على استثمار الواقع المعيـش

المعلّم والمربّي النّاجح عليه أنْ يستثمر الواقع وأحداثه ويوظّفها في تربية التّلاميذ على المشاهدة والرّصد والكشف، ودراسة نشاط الإنسان وربطه بالأحداث الجارية، حتّى تكون دراسته قابلة للتّجسيد، لهذا أكّد الشّيخ محمّد عبدَه على ضرورة تدريس مبادئ العلوم للتّلاميذ وربطها بالواقع، وتعويد التّلاميذ وتربيتهم على ممارسة النّشاطات المنتجة كالزّراعة والصّناعة في الميدان، بتخصيص أوقات منتظمة دوريا لممارسة هذه الأعمال، وهو الذي يستجيب لمتطلّبات التّربية الحديثة التي جعلت الأعمال التّطبيقية مِنْ صميم الدّراسة والتّكوين في المؤسّسات التّربوية والجامعية بتخصيص مخابر وورشات للتّطبيق في شتّى التّخصّصات، وهذا الذي أفلح فيه الغرب وتأخّر فيه العرب والمسلمون.[4]

رابعا: المرونة ومراعاة الفروق الفردية بين المتعلّميـن

لإنجاح التّعليم وتحقيق أهدافه في تكوين جيل صالح يُعَوَّلُ عليه في بناء الحضارة وتعمير الأرض؛ ينبغي أنْ تكون طرق التّدريس مرنة، وهذه لا تحصل إلاّ بمراعاة الفروق الفردية بين التّلاميذ، فلكلّ فصل طريقته وأساليبه، والمعلّم النّاجح ينبغي أنْ يلمّ بطرق التّدريس ويحسن توظيفها وتكييفها مع كلّ

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص152.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص153.

[3] ينظر: محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مرجع سابق: ص110.

[4] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، المرجع السابق: ص153.

الفئات وكلّ المستويات، فالطّريقة التي تصلح لمادّة لا تصلح لأخرى، والتي تصلح لموضوع لا تصلح لآخر وهكذا، كما أنّ تنويع الطّرائق أمر مهم؛ لكونه يضفي الحيوية على الفصل ويقضي على الملل والرّوتين، ويجدّد النّشاط لدى التّلاميذ ويربطهم بالدّراسة ويجعلهم يتعلّقون بها ولا يملّون منها، فلا يكرهون العلم وأهله، وهذا ما أكّد عليه الشّيخ محمّد عبدَه حينما ذكر بأنّ المعلّم ينبغي أنْ يستخدم ما يلائم المخاطَبِين، بحيث يجعل بيده ميزانا يزن به أذهان التّلاميذ، ودرجة استعدادهم لتلقِّي وقبول ما يقول، فينزل مع المبتدئين إلى الأدنى، ويرتفع مع المجتهدين إلى الأعلى، ويقدّم البرهان للّذين لا يقتنعون إلّا به، وأمّا الذين يقتنعون بالمسلّمات يكتفي لهم بها وهكذا.[1]

كما كان حريصا على ألّا يكون التّعليم حكرا على فئة دون أخرى، باجتهاده في تمكين جميع فئات المجتمع منه، بجعله لكلّ فئة مقرّراتها وطريقتها حتّى يجسّد أهداف التّعليم التي يصبو إليها، لذلك كَيَّفَ إصلاحاته التّربوية مع التّعليم الموجود، حيث كان النّاس يتعلّمون على طبقات ثلاث؛ "فالطّبقة الأولى: العامّة مِنْ أهل الصّناعة والتّجارة والزّراعة ومَنْ تبعهم، والثّانية: طبقة السّاسة مِمَّنْ تتعاطى العمل للدّولة في تدبير أمر الرّعية وحُماتها مِنْ ضبّاط العسكرية وأعضاء المحاكم ورؤسائها ومَنْ يتعلّق بهم ومأمورو الإدارة على اختلاف مراتبهم، والطّبقة الثّالثة: طبقة العلماء مِنْ أهل الإرشاد والتّربية".[2]

وقد استطاع أنْ يحقّق إصلاحاته التّربوية بما حباه الله به مِنْ خصيصة تعليمية عزيزة؛ وهي مقدرته على مخاطبة أطياف النّاس بما يناسبها مِنْ مقال، وهو ما أكّده محمّد رشيد رضا وهو يصف المجالس العلمية لشيخه محمّد عبدَه بقوله: "ولقد كانت مجالس أستاذنا الفقيد كمجالس أستاذه رحمهما الله تَفيض علما وحكمة وأدبا، ولكنّ الفصل بينهما في هذا هو أنّ السيّد كان يلقي الحكمة لكلّ أحد، وأمّا الشّيخ فكان يخاطب كلّ أحد أو كلّ فريق بما يرى أنّه مستعدّ له ومتوجّه إليه".[3]

الفرع الثّالث: المواصفات الضّرورية للقائمين على العملية التّربويـة

يعتبر المعلّمون القائمون على أداء رسالة التّربية والتّعليم في المدارس والمؤسّسات التّربوية والتّعليمية؛ هم المجسّد الحقيقيّ والمنفّذ الفعلي للأهداف والمقاصد التّربوية المسطّرة للعملية التّعليمية، فهم لا يَقلّون أهمية عن الوسائل والطّرائق التّربوية، فبهم يتمّ تنفيذها وعليهم يتوقف نجاحها أو فشلها، لذلك لم يغفل الشّيخ محمّد عبدَه عن إعداد المعلّمين، ولأجل ذلك قام بتحديد المواصفات اللّازمة الواجب توفّرها فيهم، فحدّد خصائص المعلّم الأخلاقية والمهنية والنّفسية، وكيفية توجيهه فنّيا وتحسين مستواه مادّيا، لهذا أشار إلى جملة مِنَ المواصفات التي ينبغي أنْ يتمثّلها القائم بالعملية التّعليمية؛ حتّى يؤدّي واجبه على الوجه الأكمل وينجح في أداء رسالته التّربوية باقتدار، ويستطيع تحقيق أهداف ومقاصد رسالة التّعليم السّامية، ومِنْ ثَمَّ تحقيق الإصلاح التّربوي الذي ينشده، وتلافي الأخطاء التي وقع فيها أسلافه المصلحون في خضمّ سياسات الحكومات المتعاقبة التي لم تولي أهمية للتّربية والتّعليم ولا للقائمين عليها، بسبب خضوعها للسّياسية الاستعمارية البريطانية التي

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص154.

[2] محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدّد الدنيا بتجديد الدين، مرجع سابق: ص228.

[3] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص26و27.

استهدفت العلم والعلماء والتّعليم ومؤسّساته، فقام الشّيخ محمّد عبدَه بالإصلاح التّربوي لإحياء أمّته المصرية والنّهوض بها ونشر الوعي فيها، لافتكاك استقلالها المادّيّ والمعنويّ مِنَ الاستعمار البريطانيّ.

أوّلا: المواصفات الخُلُقيــة

لقد كانت المواصفات الأخلاقية التي حدّدها الشّيخ محمّد عبدَه للمعلّمين -القائمين بالعملية التّربوية والتّعليمية- بمثابة دستور أخلاقيّ ألزمهم به، والمتمثّلة في ضرورة اتّصافهم بجملة مِنَ الأخلاق الفاضلة؛ كالعفّة والنّزاهة والغِيرة على نفع المتعلّمين، والاجتهاد في أداء الواجبات الموكلة إليهم بتفان وإتقان، حتّى يكونوا قدوة لتلاميذهم في أداء الأمانة بمسؤولية، كما كان يحثّهم على توخّي العدالة في تعاملهم مع تلاميذهم، بحيث لا يفضّلوا بعض التّلاميذ على البعض الآخر في التعّليم، وإنّما عليهم أنْ يعدلوا بينهم ويهتموا بتعليم الجميع ويعتنوا بهم ويعاملوهم بالسّوية.[1]

فعلى القائم بالعملية التّربوية أنْ يكون قدوة للتّلاميذ ساعيا إلى إرساء الأخلاق الفاضلة وإشاعتها بينهم، حتّى يحملوا راية التّربية ويجسّدونها في سلوكات عملية ويتمثّلونها في شخصيّاتهم، ولا يجعلونها مجرّد شعارات جوفاء، فخير معين على التّربية السّوية؛ الاتّصاف بأخلاق المعلّم المربّي المثاليّ.

ثانيا: المواصفات المهنيــة

وحتّى يكون المعلّم ناجحا في عمله التّربوي؛ يجب أنْ يكون متمكّنا مِنَ المواد المسندة إليه، وملمّا بمجال تخصّصه، قادرا على توصيلها إلى تلامذته بإتقان، لذلك دعا إلى ضرورة حسن اختيار المعلّمين وانتقائهم بدقّة، ثُمّ اختبارهم للتّحقّق مِنْ أهليتهم وكفاءتهم، عن طريق سؤالهم عن موادّ تخصّصهم، فإذا أثبتوا كفاءاتهم ومقدرتهم وإحاطتهم بها، طالبهم ببيان كيفية تدريسها، وهذا للتّأكّد مِنْ أهليتهم لممارسة وظيفة التّدريس المهمّة والخطيرة، لأنّ المعلّم قد يكون عارفا بفنّه، لكنه عاجز عن تدريسه وتوصيله للتّلاميذ، وبالتّالي يستحيل تحقيق الأهداف التّربوية والتّعليمية المطلوبة.[2]

كما دعا إلى ضرورة متابعة المعلّمين وتقديم الملاحظات والتّوجيهات لهم وتقييمهم وتكليفهم بالتّربّصات للرّفع مِنْ مستواهم وتحسين مردودهم المهنيّ، فقد دعا العرفاء والموجّهين إلى الطّواف على المدارس كلّ أسبوع أو كلّ خمسة عشر يوما، ليقفوا على أحوال التّلاميذ ويقدّموا للمعلّمين الملاحظات اللّازمة لهم، وإذا لمسوا مِنَ المعلّمين اللّامبالاة وعدم الاهتمام ورفضوا الانضباط والالتزام بالنّظام وجب فرضه عليهم والصّرامة معهم وإلّا عزلهم حتّى لا يفسدوا التّعليم وحتّى تُحقّق التّربية مقاصدها، فقد قال: "فإنْ رَأَوْا -العُرفاء المراقبون- نقصا عرفوا سببه، ومِنْ أيّ الجهات منبعه، فإنْ كان اعوجاجا في طريق التّعليم أرشدوا المعلّم بأنفسهم، وبيّنوا له الطّريق مرّة بعد أخرى، فإنْ اعتدل وإلّا اعتزل".[3]

كما لم يُغفل الشّيخ محمّد عبدَه قيمة تحسين المستوى المادّي والمعيشيّ للمعلّم ودوره في تحفيز المعلّم على تقديم المردود الجيّد في التّعليم والإتقان والتّفانيّ في العمل التّربويّ، لذلك بسعيه في زيادة أجورهم وتحسينها ومكافأتهم للرّفع مِنْ معنوياتهم وتشجيعهم خصوصا الممتازين والجادّين والمبادرين

(1)- ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص158.

(2)- ينظر: المرجع نفسه: ص158.

(3)- محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص39.

والمضحّين منهم، وكذا النّظار الذين حقّقوا نتائج إيجابية جيّدة في أعمالهم، فذكر بأنّه لا ينبغي الاقتصار على مدحهم والثّناء عليهم وشكرهم، بل يجب رفع الأجر المادّيّ للمجتهدين والمبادرين والمتقنين لأعمالهم فقال: "إنّ مكافأة الشّكر والثّناء -وإنْ كانت واجبة، وهي مِنْ أجلّ المكافأة وأجملها، ولها تأثير في جلب الرّغبات وتقوية العزائم- لكنّها لا تلتصق بالقلب التصاق النّقود والمساعدة المعاشية".[1]

فالأجر الزّهيد مِنْ شأنه أنْ يؤثّر على نفسية المعلّم الكفْءِ المقتدر والنّزيه، ويجعله ينشغل بلقمة العيش ويبحث عنْ مصادر أخرى للرّزق حتّى يتغلّب على غلاء المعيشة ومتطلّبات الحياة المتزايدة مثل ما هو حاصل في زماننا هذا، فيلجأ إلى تقديم الدّروس الخصوصية، وربّما يقوم بأعمال أخرى إلى جانب التّعليم، فيقصّر في وظيفته الأمّ، ولا يجتهد في تقديم الأفضل للتّلاميذ ولا يتفانى في عمله، وربّما يفكر في تغيير وظيفته رأسا، فيترك بذلك فراغا كبيرا، ويكون سببا في زيادة تدهور الأوضاع التّعليمية.

ثالثا: المواصفات النّفسيـة

إنّ الاستعداد النّفسيّ ضروريّ جدّا للقائم بالعملية التّعليمية ولا يقلّ أهمّية عن المواصفات السّابقة، إذ لا يمكن إغفاله بحال مِنَ الأحوال، خصوصا وأنّ المعلّم يتعامل مع تلاميذٍ تتباين ظروفهم ونفسيّاتهم ومستوياتهم، لذلك أوصى الشّيخ محمّد عبدَه المعلّمَ بضبط النّفس والهدوء والاتّزان، وعدم استخدام العقوبات البدنية عند خطأِ التّلاميذ، ففي إحدى خطاباته التي ألقاها في حفل افتتاح المدرسة الابتدائية للجمعية الخيرية الإسلامية بالمحلّة الكبرى بمصر سنة 1903م وفي سياق حديثه عن مآثر علي باشا مبارك على التّعليم قال: "فإنّ المعاقبة على الذّنب بالإهانة والقسوة لا تؤدّب النّفس لأنّها تُخفي الأخلاق الذّميمة ولكنّها لا تمحوها، بل تزيدها وتقوّيها، فتكون كامنة، حتّى إذا تسنّى لها الظّهور تظهر في أقبح الصّور، وأمّا الذي يمحو الأخلاق الذّميمة فهو الإقناع بقبحها وضررها، وحسن المعاملة، وتكريم النّفس، حتّى تتكرّم عنِ الشّوائن، وتأنف عن كلّ ما ينافي الشّرف".[2]

لقد كان الشّيخ محمّد عبدَه حريصا على سَنِّ تلك المواصفات النّفسية لحفظ كرامة التّلاميذ وتعليمهم، فهو يرفض معاقبتهم وإهانتهم ويمقتها كأساليب للتّربية ويُؤْثِرُ أسلوب النّصح والتّوجيه الذي كان شبه غائب في زمانه، فطابقتْ وصاياه ما قرّره علم التّربية الحديث في أدبياته.[3]

الفرع الرّابع: تحديد المقرّرات والطّرائق التّربوية المعتمدة في التّعليـم

لا يقلُّ الكتاب المدرسيّ أهمّية عن دور المعلّم في المؤسّسات التّربوية والتّعليمية، فكما يُجِلّ التّلاميذ المعلّم، فإنّهم يعتبرون الكتاب المدرسيّ مصدر المعلومة وأوثقها، فهو مرجعهم العلميّ اليقينيّ الذي لا يتطرّق إليه الشكّ، وله تأثير كبير في حياتهم التّعليمية، وبه يُحاجُّون، لذلك كثيرا ما يقارِن التّلاميذ بين ما يسمعونه مِنْ معلّميهم وبين ما يقرأونه في الكتاب المدرسيّ، بل وعندما يلمسون تعارضا بين الكتاب ومعلومة المدرّس، فإنّهم ينكرون عليه ويناقشونه حتّى ولو كان على حقّ، لذلك وضع الشّيخ محمّد عبدَه مقرّرات وكتبا مدرسية لاعتمادها كمصادر ومراجع موثوقة، حتّى لا يتزوّد المعلّم والمتعلّم

---

[1] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص38.

[2] المصدر نفسه: ج3، ص182.

[3] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص158.

بالمعلومة المغلوطة، وانتقد الكتب المؤلَّفة في اللّغة العربية وفروعها وأعطى البدائل، وكوّن فيها النّخب المعلِّمة، وذلك بعدما وقف على الأساليب العقيمة والصّعبة على التّلاميذ التي لا توافق وطرق التّعليم في المدارس النّظامية الحديثة، كما عاب كثرة المقرّرات والكتب المدرسية في الفنِّ الواحد عليهم، بسبب ما تُحدثه لهم مِنْ إرهاق وتعقيد للمفاهيم المقدّمة إليهم، فأرشد إلى طرق سهلة في التّأليف قائمة على وضوح المعاني وسهولة الأساليب ومناسبتها لمستوى التّلاميذ وسنِّهم، بعيدا عن الحشو والتّكرار، ومتوافقة وواقعهم المعيش، كما أمر بتشكيل مجالس علمية تشرف على تأليف الكتب المدرسية، تتكوّن مِنْ متخصّصين لهم خبرة وكفاءة علمية وفكرية، ولهم إلمام بطرائق التّدريس القديمة والحديثة المتماشية مع مستجدّات علم التّربية الحديث، حتّى يستطيعوا أنْ يضعوا كتبا مدرسية نافعة وناجعة في التّدريس، وتُحقق أهداف التّربية القريبة ومقاصدها البعيدة في العملية التّعليمية للتّلاميذ.[1]

وإلى جانب اعتماده مراجع موثوقة لتعليم التّلاميذ وإفادتهم؛ حاول الشّيخ محمّد عبدَه تجريد التّعليم مِنَ الإملاء والتّلقين وحشو الأذهان بالمحفوظات، فهذه الطّرق سادت الأمّة العربية والإسلامية في فترات مديدة وعلى أيدي علماء أفذاذ لهم سمعة طيّبة وحضور قويّ بين النّاس كابن حجر العسقلاني والإمام السّيوطي وغيرهما، فلم تُجْدِ نفعا لما ترتّب عليها مِنْ سلبيات كثيرة، فطريقة التّعليم مهمّة في تحقيق الإصلاح التّربوي، لهذا كان الشّيخ كثير التبرّم مِنْ طريقة الأزهر التّعليمية لانعكاساتها الوخيمة على الطلّاب، فاجتهد في إصلاحها حتّى يكون التّعليم نافعا وحتّى لا تَضيع الجهود ولا تُهدر الأوقات في اعتماد الطّرق التّعليمية العقيمة، وقد أورد الشّيخ البشير الإبراهيمي موقف الشّيخ محمّد عبدَه الرّافض لطريقة التّعليم السّائدة حينها وجهوده في إصلاحها فقال: "وكان الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه أعلى الحكماء صوتا بلزوم إصلاحها وأبلغهم بيانا لأضرارها وسَوْءَاتِها ومعايبها، وأَسَدُّهُم رأيا في تغييرها بما هو أجدى منها وأنفع، وأكثرهم عملا جدّيّا في ذلك، وكان مِنْ إصلاحاته العملية في هذا الباب درسه لكتاب الله بأسلوب حكيم لم يسبقه إليه سابق"، ومع ذلك جارى الطّريقة الأزهريّة بالتزامه تفسير الجلَالَيْن في دروسه التي كانت على مستمعيه فيضٌ مِنْ إلهام الله أجراه على قلبه وعلى لسانه، حتّى قال الإبراهيمي عن دروسه: "وأنّها ممّا لم تنطوِ عليه حنايا عالِمٍ ولا صحائفُ كتابٍ".[2]

المطلب الرّابع: مجال المؤسّسات التّربوية التّعليمية

عمل الشّيخ محمّد عبدَه في المؤسّسات التّربوية التّعليمية المصرية وغير المصرية داخل وخارج مصر واجتهد في إصلاحها، وكان ذلك في المدارس التي تندرج ضمن التّعليم الأَوَّلِيّ الشّعبيّ(الكتاتيب)، والمدارس الابتدائية، والمدارس الثّانوية، والمدارس العليا القليلة التي يتحكّم فيها الإنجليز، إلى جانب المدارس الخاصّة التّابعة للأعيان، والمدارس التّابعة للأجانب التي تقف وراءها الإرساليات التّبشيرية المدعومة مِنَ القوى الأجنبية الاستعمارية، وفي هذا المطلب سيتمّ التّعرض إلى المؤسّسات التّربوية

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص160.

[2] محمّد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشر الإبراهيمي، مرجع سابق: ج1، ص343.

التّعليمية الكثيرة التي عمل بها وزاول تنفيذ إصلاحاته التّربوية بها، وقد كانت كلّها في مصر وعلى رأسها جامع الأزهر الشّريف إلّا المدرسة السّلطانية التي عمل بها في بيروت، وهذه المؤسّسات والمدارس هي:

الفرع الأوّل: جامع الأزهر الشّريــف

ركّز الشّيخ محمّد عبدَه كثيرا على مؤسّسة جامع الأزهر لأهمّيته وعراقته، وبادر لحلّ أهمّ المشكلات التّربوية والتّعليمية فيه وإزالة العقبات التي واجهته فيه، كما عرض الأهداف والرّكائز التي بنى عليها جهوده الإصلاحية، وقام باقتراح تدريس شتّى العلوم والمعارف التّقليدية والعصرية حتّى يستفيد منها المتعلّمون وينفتحون بها على العالم الخارجيّ الذي شقّ طريقه نحو التّطوّر، وتولّى رسالة التّربية والتّعليم بها محاولا مسايرة متطلّبات واقعه لتحقيق الإصلاحات التي رآها جديرة بالتّنفيذ.

*** إصلاح الأزهـــر**

عمل الشّيخ محمّد عبدَه بالأزهر واهتمّ بإصلاحه حتّى يؤدّي الوظيفة المنوطة به، فهو يرى بأنّ إصلاح التّعليم بالأزهر هو المنطلق لإصلاح باقي المؤسّسات، خصوصا وأنّه يعدّ مِنْ أعرق وأشهر الجامعات الإسلامية في العالم العربيّ والإسلاميّ، ويحتلّ مكانة عظيمة في نفوس المسلمين لمحافظته على الإسلام وصيانته للّسان العربيّ ولمساهمته في الحفاظ على التّراث الثّقافيّ للمسلمين.

وتتجلّى أهمّية الأزهر في كونه مركزا للتّربية وتعليم مختلف العلوم والمعارف، حيث شهد ازدهارا لا نظير له خلال العصر الفاطميّ والعصر المملوكيّ، فكان قبلة لطلّاب الثّقافة والعلم مِنْ جميع أنحاء العالم الإسلاميّ وكانت موادّ الدّراسة فيه تجمع بين العلوم الدّينية واللّغوية والكونية الحديثة، لكنّ التّعليم فيه بدأ يضعف ويتراجع منذ عهد الدّولة العثمانية، وصارت تقتصر الدّراسة فيه على تدريس التّراث القديم وشرح المتون والحواشي والتّقارير، واستمر على ذلك حتّى صار الجمود والتّقليد سمته، وانعكس ذلك على خرّيجيه بالسّلب، رغم صدور عددٍ مِنَ القوانين لإصلاح التّعليم فيه.[1]

وبسبب ضعف التّعليم وتردّي الأوضاع في الأزهر آلَ الشّيخ محمّد عبدَه على نفسه إصلاحه خوفا على خرابه فقال: "فهو إمّا أنْ يُعَمَّر وإمّا أنْ يتمّ خرابه، وإنّني أبذل جهد المستطيع في عمرانه، فإنْ دفعتني الصّوارف إلى اليأس مِنْ إصلاحه فإنّني لا أيأس مِنَ الإصلاح الإسلامي".[2]

وبعد العصر الذّهبيّ للأزهر انتكس وصار يُخَرِّجُ مدرّسين ووعّاظا لا غير، حتّى ظهر جيل مِنَ المصلحين على غرار الشّيخ محمّد عبدَه الذي اهتمّ بالجانب العقليّ والفكريّ وقام بتدريس المنطق والفلسفة سرًّا بسبب انغلاق الأزهر على نفسه وسطوة أهل الجمود والتّقليد عليه.[3]

ولمّا عزم على مباشرة إصلاح التّعليم به، عارضه شيوخ الأزهر الجامدين المدعومين مِنَ الخديوي، فتوجّه إلى اللّورد كرومر صاحب السّلطة الفعلية في مصر لإصلاح الأزهر، وكتب له تقريرا مفصّلا عن كلّ ما يتعلّق بالطّلبة والمدرّسين ونظام التّدريس والمقرّرات المعتمدة وطريقة تدريسها، واقترح إصلاح

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص196.

[2] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص193.

[3] يرجع إلى محاضرة محمّد عمارة على اليوتيوب بعنوان: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، من تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بمركز الدّراسات المعرفية في مصر، ألقاها في: 15 فيفري 2017م.

نظام الدّروس والامتحانات والاهتمام بتربية الطّلبة عقديّا وأخلاقيّا، وإلحاق الأزهر بوزارة المعارف أو الأوقاف وإخراجه مِنْ سلطة مشيخة الأزهر، وذكر له في لائحته دوافع الطّلبة المتباينة مِنَ الدّراسة في الأزهر بين مُريدٍ لتحصيل علوم الشّريعة لنيل الثّواب ومُريدٍ لنيل الامتيازات الدّنيوية، كما ذكر تقصير الأساتذة في تربية الطّلبة وتعليمهم، وانحطاط مستواهم العلميّ والفكريّ والثّقافيّ.

كما عرض في تقريره على اللورد كرومر بأنّه مستعد شخصيّا لمباشرة إصلاحات جذرية ونوعية للأزهر لو أتيحتْ له الفرصة ومُكِّن منها، لثقته الكاملة في نفسه ولامتلاكه الكفاءة اللّازمة لتحقيقها.[1]

واستهدف إصلاح اختلالات الأزهر الكثيرة المتمثّلة في افتقاده لنظام التّدريس، وانعدام الامتحانات الدّورية، وعدم انضباط طلبته في الحضور، وكثرة غياباتهم عن الدّراسة، وعدم حرص الشّيوخ على تكوين الطّلبة عقديّا وخلقيّا وتربويّا، ليقترح في الأخير إلحاقَه بوزارة المعارف أو بالأوقاف.[2]

إنّ توجّه الشّيخ محمّد عبدَه لإصلاح إدارة الأزهر وإصلاح طرائقه التّعليمية وتوسيع مناهجه حتّى تشمل العلوم العصرية لمضاهات الجامعات الأوروبّية في عصره، لاعتقاده بأنّه إذا صلح الأزهر سيصلح حال المسلمين، لكنّه وجد معارضة كبيرة مِنْ شيوخ الأزهر والخديوي توفيق، وبمجيء الخديوي عباس الثّاني استطاع أنْ يجسّد الكثير مِنَ الإصلاحات التّربوية، لكن سرعان ما ثار عليه المحافظون وانقلب عليه الخديوي، الأمر الذي جعله يستقيل مِنْ مجلس إدارة الأزهر في مارس 1905م.[3]

وقد صادف الشّيخ محمّد عبدَه مشاكل عويصة أعاقته عنْ تجسيد كلّ إصلاحاته أهمّها؛ امتداد الدّراسة مِنَ الفجر إلى العشاء، وكثرة الإجازات، وعدم متابعة الأساتذة لتلامذتهم والتّأكّدِ مِنْ فهمهم، وعدم ضبط حضورهم وإحصاء غياباتهم[4] فقال: "ولكن ممّا يؤسف عليه أنّه لا نظام لها -مدرسة الأزهر- في دروسها، ولا يُسأل فيها التّلميذ أيّام الطّلب عن شيء مِنْ أعماله، ولا يبالي أستاذه حضر عنده في الدّرس أم غاب، فَهِمَ أَمْ لم يفهم، صَلحتْ أخلاقه أمْ فسدت، ويمرّ عليه الزّمان الطّويل لا يسمع فيه نصيحة مِنْ أستاذه تَعُود عليه بالإصّلاح في دنياه أو دينه".[5]

ومِنَ الصّعوبات أيضا غموض الكتب الدّراسية وقصور طرق التّدريس، واهتمام التّعليم الأزهريّ بالشّكل على حساب الجوهر، وتدريسه للكتب القديمة والمتون والحواشي والتّقارير الغامضة التي تُعقِّد العلم فقال: "أُريد أنْ أُعَلِّمَ في هذا الجامع شيئا نافعا بدلا مِنْ هذه الشّروح العتيقة البالية الخالية مِنَ المعنى التي هي أضرّ مِنْ كتبكم القديمة المؤلَّفة في القرون الوسطى"[6]، كما انتقد طريقة التّدريس

---

(1) ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص37.

(2) ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص116و117، وينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، مرجع سابق: ج1، ص247.

(3) ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص68و74.

(4) ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص197.

(5) محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، المصدر السابق: ج3، ص116.

(6) المصدر نفسه: ج3، ص201.

العقيمة وسمّاها بأسلوب علم الكرّاس الذي تَلَقَّاه في الأزهر وفي الجامع الأحمدي عندما دَرَسَ تفسير البسملة وباؤها وإعرابها والحكمة منها وأقوال النّحاة فيها، فكان ذلك سببا في هروبه مِنَ التّعليم.[1]

ومنها أيضا معاداة الأزهريّين للعلوم الحديثة والعلوم العقلية والإنسانية، مِنْ فلسفةٍ ومنطقٍ وجدلٍ ورياضياتٍ وجغرافيا وطبٍّ وكيمياء، بحجّة أنّها تؤدّي إلى الإلحاد والكفر، فكفّروا مَنْ يقول بدوران الأرض، واعتبروا معلّم الجغرافيا مسخّر مِنْ أعداء الإسلام، والتّشريحُ حرامٌ، وحرّموا طباعة القرآن الكريم وأحاديث النّبيّ ﷺ بآلات الطّباعة بحجّة أنّ سيورها مصنوعة مِنْ جلد الخنزير[2]، لكنّ الشّيخ محمّد عبدَه طَالَبَ بتدريس هذه العلوم لأنّها تسهم في التّقدّم، ودخل في صراع مع شيوخ الأزهر وقال: "فما حالنا بالنّسبة إلى علوم جديدة مفيدة، هي مِنْ لوازم حياتنا في هذه الأزمان، وكافَّةٍ عنّا أيدي العدوان والهوان، وأساسٌ لسعادتنا، ومعيارٌ لثروتنا وقوّتنا، لا بدّ لنا مِنِ اكتسابها، وبذل المجهود في طلبها، فَإِذَنْ أوّل واجب علينا هو السّعي بكلّ جدّ واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا".[3]

ومِنْ مشاكل الأزهر تقييد حركته وعزله عن المجتمع وتوجُّهِ شيوخه إلى دراسة التّراث وقطع صلتهم بالحاضر والمستقبل، وجهلهم بما يجري في دنيا النّاس، وعدم إبدائهم لآرائهم في النّوازل، لذلك دعا إلى إصلاح مناهج الأزهر وطرقه التّعليمية التي أشرف على تنفيذها شخصيّا[4]، لكنّه لقي معارضة شديدة مِنْ شيوخه الجامدين ومع ذلك لم يستطيعوا أنْ يُثنوه عن قصده، وواصل الإصلاح بإصرار قائلا: "إنّ نفسي تَوجّهتْ إلى إصلاح الأزهر منذ أنْ كنتُ مجاورا فيه، بعد التّلقّي عن السيّد جمال الدّين، وقد شرعتُ في ذلك فحيل بيني وبينه، ثُمَّ كنتُ أترقّب الفرص، فما سَنَحَتْ إلّا واستشرفتُ لها وأقبلتُ عليها، حتّى إذا ما صادفتُ الموانعَ لويتُ وصبرتُ مترقّبا فرصة أخرى، إنّ بقاء الأزهر متداعيا على حاله في هذا العصر محال، فهو إمّا أنْ يُعمَّر وإمّا أنْ يتمّ خرابه، وإنّني أبذل جهد المستطيع في عمرانه، فإنْ دفعتني الصّوارف إلى اليأس مِنْ إصلاحه، فإنّني لا أيأس مِنْ الإصلاح الإسلامي".[5]

وبادر إلى القيام بالإصلاحات التّربوية فيه بإصلاح نظام التّدريس ومقرّراته وطرائقه، والإصلاحات الاجتماعية والصّحّية والإدارية بمطالبته الحكومة بالزّيادة في رواتب شيوخه التي لم تكن تخضع للكفاءات وإنّما للولاءات، وزاد مِنْ عمّال النّظافة التي كانت مهملة، وأنار أروقته، ووفّر الشّروط الصّحّية للطّلبة وأوصل لهم المياه، وزوّدهم بالغاز، وعمّم الإنارة على مرافقه، وعيّن طبيبا يعالجهم ويسهر على صحّتهم، وأنشأ لهم صيدلية توفّر لهم الأدوية مجّانا، وقام بإصلاحات إدارية باستحداثه مكاتب لإدارة الأزهر ووضع معاونين لشيخ الأزهر بعدما كان يديرها مِنْ بيته.[6]

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص197و198.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص200.

[3] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص18و20.

[4] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، المرجع السابق: ص202.

[5] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، المصدر السابق: ج3، ص193.

[6] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص69-71، وينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، المرجع السابق: ص207.

ولإصلاح نظام التّدريس بالأزهر كوَّن لجنةً مِنْ ثلاثين عالما لفحص العلوم التي تُدرَّس به، وأدخل في مناهجه الدّراسية بعض العلوم العصرية كالحساب والجبر والهندسة والجغرافية والعلوم الطّبيعية، وعَيَّن متخصّصين أكْفَاء لتدريسها ورَصَدَ لهم مرتّبات محترمة، وعيَّن مفتّشين مؤهَّلين، واستصدر أمرا عاليا ينصُّ على منع قراءة الحواشي والتّقارير المطوّلة، لكنّ مشروعه لقي معارضة كبيرة مِنْ شيوخ الأزهر رغم أنّ طلبة الأزهر أثبتوا تفوّقهم في تلك العلوم على خرّيجي المدارس الأخرى.[1]

وحثَّ الأساتذة على تبسيط الدّروس ومتابعة الطّلبة في الدّراسة وتفقّد أحوالهم وعدم إيذائهم بالتّقبيح والضّرب والإهانة، وحدّد السَّنة الدّراسية بثمانية شهور، والعطلة الصّيفية بشهرَيْن، كما استصدر قانونا ينصّ على أنّ حامل شهادة العالمية له أنْ يدرّس في الأزهر وفي غيره مِنَ المدارس الدّينية، وللارتقاء بالتّعليم الأزهريِّ وسّع نطاقه باستصدار قانون 31 مارس 1896م الذي يضمّ المعاهد الدّينية الكبرى إليه كالجامع الأحمديّ وجامع دسوق وجامع دمياط ومعهد الإسكندرية.[2]

كما تولّى إصلاح مكتبة الأزهر التي كانت مهملة، وطلب مِنَ الحكومة رصد المال اللّازم للاعتناء بها، وجَمَعَ كتبها وصنّفها بعدما كانت ممزّقة ومبعثرة في أروقة الأزهر، وسَخَّر النَّسّاخين لاستكمال ما فُقد منها، وَوَضَع لها نظاما في الفهرسة والتّبويب، ورصد لها مبلغا سنويّا لتزويدها بكتب جديدة، وحضَّ الموسرين على شراء الكتب لها حتّى امتلأتْ بالكتب في شتَّى العلوم، ثُمَّ أنشأ مكتبات فرعية ملحقة بها بالجامع الأحمديّ والدّسوقيّ ودمياط والإسكندرية وأخضعها لنظامه وقانونه في المطالعة والإعارة والعقوبات، حتّى صارتْ مكتبته مِنْ أكبر المكتبات التي أسهمت في النّهضة العلمية بمصر.[3]

وقد وضع جملة مِنَ الأهداف لإصلاح التّعليم بالأزهر منها، إرجاع مكانة الأزهر وإعادته لموقعه الحضاريّ المؤثّر الذي كان يتمتع به في عصره الذّهبيّ، وكذا جَعْلِهِ جامعة يتلقّى فيه الطّلبة العلم الصّحيح، وحتّى يُخَرِّجَ علماء وأساتذة ومربّين وقضاة ومتخصّصين متحلّين بالأخلاق الفاضلة وملتزمين بالمبادئ الإسلامية، وجَعْلِ خرّيجيه متفاعلين مع المجتمع ومنفتحين على العالم الخارجيّ، وحتّى يحقّق أهدافه لإصلاح التّعليم بالأزهر، أقامه على عدّة ركائز منها، التّدرّج في الإصلاح بالانتقال مِنَ القديم إلى الجديد، والإقناع باعتماد أسلوب الحوار والنّقاش بالحكمة حتّى يتبنَّوْا أفكاره ويعينوه على تنفيذها، وعلى إصلاح علماء الأزهر باعتبارهم عمدة التّعليم بإعادة تكوينهم وإقرار مؤلّفات جديدة عليهم وتقديمها لهم بأساليب جديدة حتّى يستوعبوها ومِنْ ثَمَّ يكون إنتاجهم نافعا وفاعلا.[4]

الفرع الثّاني: المدارس التّعليمية المصريــة

أوّلا: المدارس الأميريــة

المدارس الأميرية أنشأها الأمير محمّد علي باشا بإيعاز مِنَ الفرنسيّين لتعليم عِلْيَةِ القوم وأولاد الأتراك، لكنّها أُهْمِلتْ في عهد عباس وسعيد، وفي عهد الخديوي إسماعيل رَغِبَ النّاس فيها لتحصيل

---

(1) ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص204و205.

(2) ينظر: المرجع نفسه: ص208.

(3) ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص72و73، وينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، المرجع السابق: ص208.

(4) ينظر: المرجع نفسه: ص204و205.

الهندسة والطّبّ والتّرجمة لنيل شهادة علمية تسمح لهم بشغل مناصب مهمّة في الحكومة، وقد قصدها الشّيخ محمّد عبدَه بالإصلاح في لائحته التي وجّهها إلى كرومر لمّا لم يجد بها تربية صحيحة ولا معارف حقيقية، وكذلك لمّا وجد النّاس يبعثون إليها أبناءهم ليستريحوا مِنَ الإنفاق عليهم، وليتعلّموا الأعمال الحكومية فقط، ولعدم تكوينها رجالا صالحين نافعين في الحياة، ولخلوّها مِنَ التّعليم الدّيني، وتركيز المعلّمين فيها على تلقين تلامذتهم مضامين الكتب ثمّ مطالبتهم بحفظها وإعادة كتابتها يوم الامتحان، ولا يصحّحون أفكارهم السّقيمة، ولا هَمَّ لهم سوى تقاضي رواتبهم في نهاية كلّ شهر.[1]

إنّ هذه المدارس لا تقدّم علوما مفيدة للمتعلّمين، ولا تربّي أخلاقهم ولا تهذّب نفوسهم ليكونوا مواطنين صالحين، وإنّما هَمُّها تخريج حاملي شهادات للارتزاق بها وللحصول على وظائف حكومية، كما كان التّعليم فيها محصورا في الطّبقة الأرستقراطية مِنَ الأتراك، لذلك كتب الشّيخ محمّد عبدَه لائحته إلى اللورد كرومر لإصلاح هذه المدارس بوضع برامج ومقرّرات مدروسة وهادفة، حتّى تقوم بدورٍ تربويّ وتكوينيّ رائد للمتعلّمين، ولتعميم التّعليم حتّى يمسّ كلّ شرائح المجتمع المصريّ.

ثانيا: الكتاتيب الأهليــة

وهي كتاتيب منتشرة في القرى، خاصة بالتّلاميذ الصّغار، ينتقلون منها إلى المدارس الأميرية ومدارس وزارة المعارف والأزهر، كانت تفتقد إلى المناهج التّعليمية، ومدرّسوها غير مؤهّلين ومعظمهم أئمّة وخطباء همّهم تحفيظ القرآن الكريم دون تفهيمه، وتُعلِّم أمورا هامشية لا فائدة منها، فاقترح الشّيخ محمّد عبدَه تزويدهم بمقرّرات مناسبة لهم، وإخضاعهم لتكوين تدريجيّ تحت إشراف وزارة المعارف أو وزارة الأوقاف للرّفع مِنْ مستواهم العلميّ والمعرفيّ.[2]

والكتاتيب الأهلية منها قسم يخضع للحكومة تشرف عليه وزارة المعارف وعددها قليل، والقسم الأكبر منها يخضع للأهالي يتلقّى معونته مِنَ الشّعب، ولمّا طالب الشّعب بالتّعليم، حَوَّل الاحتلال الكتاتيب الحكومية إلى مدارس أوّلية لم ترق إلى مستوى المدارس الابتدائية، ومَنَعَتْ سياسته تلاميذ التّعليم الأُوَّلِيّ مِنَ الالتحاق بالتّعليم العامّ لخلق تمييز طبقيّ بين مدارس التّعليم العامّ ومدارس التّعليم الشّعبيّ، كما كانت برامج الكتاتيب بسيطة تُعلِّم القراءة والكتابة والحساب وحفظ بعض الآيات القرآنية فقط، ولا تؤهّل برامجها التّلاميذ إلى ممارسة الزّراعة والصّناعة والتّجارة، ومعلمّوها غير مؤهّلين، فتسبّب ذلك في ازدياد نسبة الأمّية مِنْ: 91% سنة 1882م إلى 98% سنة 1898م.[3]

ووجّه عنايته إلى تحسين الواقع التّربويّ والتّعليميّ للكتاتيب المنتشرة في القرى والمدن، فهي التي تزوّد المدارس التّابعة لنظارة المعارف والمدارس الأميرية والأزهر، ووقف على الخلل الذي أدّى إلى تدنّي المستوى العلميّ والأخلاقيّ للمدرّسين بالكتاتيب، فهم يحفظون القرآن الكريم ولا يفقهونه، ويحملون مفاهيم خاطئة عن الإسلام، لذلك رأى بأنّ إصلاح الكتاتيب يكون بتكوين معلّمها ومراعاة استعدادهم

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص791، وينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص114و115.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ج3، ص118.

[3] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص141.

للفهم وقبولهم للإصلاح، والبحث عن المؤهّلين لتولّي التّعليم في الكتاتيب الأهلية لإنجاحها وترقية تلاميذها إلى الأطوار التّعليمية الأخرى، كما طالب بتعديل برامجها التّعليمية وبرمجة الكتب المناسبة للصّغار في الحساب والصّحّة، وتزويدهم بدروس في التّربية الوطنية لتنمية إحساسهم الوطني.[1]

ثالثا: المدارس الابتدائيــة

أُسِّست المدارس الابتدائية لتعليم القلّة مِنَ التّلاميذ وإعدادهم للالتحاق بالمدارس الثّانوية وبالوظائف الحكومية، وكان التّعليم بها مُكْلِفا يتطلّب مصاريف كبيرة لا يقدر عليها إلّا الأغنياء، ومدّة الدّراسة بها أربع سنوات، تدرّس مواد نظرية بعيدة عن بيئة المتعلّم بطريقة الحفظ والتّلقين، وتدرّس التّرجمة والتّاريخ والرّياضة والرّسم، وتُعلّم اللّغة العربية واللّغتين الفرنسية والإنجليزية إحداهما أصلية والأخرى اختيارية، وقد ضيّق الاحتلال على إنشاء المدارس الابتدائية، حيث لم تُبْنَ خلال فترة الاحتلال البريطاني لمصر بين 1882م و1914م إلّا أربع مدارس، وقد انتقد الشّيخ محمّد عبدَه التّعليم بهذه المدارس لاقتصارها على خدمة الحكومة، ولعدم استطاعة معظم تلامذتها مواصلة التّعلّم، وإذا أكملوه لا يجدون له موضعا للتّطبيق وسرعان ما ينسوه، فيُفنون أعمارهم في البطالة التي لا تخدم بلدهم ولا تنفع أهلهم، فوضع جملة مِنَ المقترحات لإصلاح التّعليم الابتدائيّ وجعله يتماشى مع أساليب التّربية الحديثة، ونادى إلى تدريس العلوم التّطبيقية فيها بحيث تنطبق على المعاملات التّجارية ومبادئ الهندسة، ودعا إلى ضرورة توظيف اللّغة العربية في المكاتبات العادية والمشاركات(العقود والصّكوك) المتداولة بين الأهالي، كما خصّص يوما في الأسبوع يَخْرُج فيه التّلاميذ مِنْ مدارسهم لممارسة الأعمال الزّراعية والصّناعية لتعويدهم عليها، وبرمج عليهم مبادئ العقائد الدّينية وآدابها وتاريخ البلاد وقواعد النّظام العامّة لتحسين أخلاقهم وتنمية أفكارهم، وتربيتهم على احترام النّظام للحفاظ على المصلحة العامّة للبلاد[2]، وهكذا ربّى التّلاميذ على الرّبط بين العلم والعمل، واحترام العمل اليدويّ، وعمل على تقوية عقيدتهم وتنمية شخصيتهم.[3]

رابعا: المدارس الثّانويــة

أنشئت المدارس الثّانوية لإعداد موظّفي الحكومة ولتمكين طلبتها مِنَ الالتحاق بالمدارس العليا، وحُدِّدت مدّة الدّراسة بها بخمس سنوات ثُمَّ خُفِّضَت إلى أربع، وقسّمت الدّراسة بها إلى قسمَيْن: فالأوّل منهما يتحصّل بعد سنتين على شهادة الأهلية للوظائف الحكومية الصّغيرة، والثّاني بعد نهاية السّنة الرّابعة تُمنح له الشّهادة الثّانوية في الآداب والعلوم ويُعْطَى له الحقّ في الوظائف الحكومية الكبيرة أو الالتحاق بالمدارس العالية، وبسبب تضييق الاحتلال البريطانيّ على هذه المدارس بلغ عددها في حياة الشّيخ محمّد عبدَه ستّ مدارس، وفيها أحلّ الاحتلال اللّغة الإنجليزية محلّ اللّغة العربية في تدريس جميع المواد إلى غاية سنة 1907م، وعندما تغلّب الاتّجاه القوميّ استطاع أنْ يَحُدَّ مِنْ نفوذ الإنجليزية وأَحَلَّ اللّغة العربية محلّها، وقد عزلت الحكومة المدارس الثّانوية عن أحداث المجتمع، ومنعت

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص142.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص119و120.

[3] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه المرجع السابق: ص142و143.

الصّحف مِنَ الدّخول إليها، وفرضت الرّقابة على التّلاميذ، وسنّتْ عقوبات رادعة على مَنْ يشترك في الأحداث الوطنية، فانتقد الشّيخ محمّد عبدَه التّعليم الثّانوي لحصره إعداد التّلاميذ للوظائف الحكومية وتجريدهم مِنَ التّربية، وإهمال ولاة الأمور والمعلّمين تربية التّلاميذ حتّى يكونوا رجالا صالحين، وبيّن بأنّه للنّهوض بالأمّة لا بدّ مِنْ ربط برامج التّلاميذ الدّراسية بالحياة العملية، وإعدادهم لمتطلّبات الحياة، لهذا كان ينادي إلى العناية بالتّربية وعدم اختزال التّعليم في الحفظ وحشو عقول التّلاميذ بالمعلومات، وهكذا سبق الشّيخ محمّد عبدَه زمانه ووافق أهداف التّربية الحديثة في إيجاد الإنسان المتكامل، وليس الإنسان الذي يحفظ كَمًّا كبيرا مِنَ المعارف، وإنسان لديه عاطفة ضامرة وإحساس متبلّد وخلق مضطرب وقُدرات مهنية ضئيلة، فحيازة المعلومات وإتقان اللّغات ومعرفة أسرار الحساب وحدها لا تخلق رجالا يوثق بهم لخدمة مجتمعهم ويكونون مصدرا لسعادة أمّتهم.[1]

خامسا: المدارس التّجهيزية والمدارس العاليــة

تابع الشّيخ محمّد عبدَه هذه المدارس وأبدى تحفّظاته على نقائصها، وركّز فيها على تربية فكر المعلّمين بسبب النّمط الفكري السّائد فيها الذي يَعتبِر إعمال العقل بدعة يقود إلى الزّندقة والكفر، فأراد تصحيح هذا الفكر وتصحيح نظرة المعلّمين فيها، ولمّا وجد أنّ المدارس التّجهيزية والمدارس العالية لا تقوم بتكوين المعلّمين، دعا إلى ضرورة تنويرهم بالأفكار الرّاقية النّافعة، والتّركيز على تكوينهم عمليّا وعدم الاقتصار على الجانب النّظريّ، حتّى يترجموا معارفهم إلى أعمال، وهذا لإحداث نهضة حضارية في الحياة، ولا تبقى مجرّد معارف نظرية حبيسة الأفكار لا يمكن تطبيقها على أرض الواقع.[2]

كان التّعليم في هذه المدارس ضيّق النّطاق، مفتقرا إلى البحث والابتكار، ويُعِدُّ للوظائف الحكومية، ويدرّس فيها الطّبّ والبيطرة والصّيدلة والحقوق والهندسة والزّراعة والتّجارة، ومناهجها بعيدة عن مشكلات البلاد، لذا طالب الشّيخ محمّد عبدَه بتأهيل طلبتها مهنيّا، وتطوير التّعليم فيها بوضع مناهج تقوم على البحث العلميّ وإدخال تخصّصات حديثة فيها كالاقتصاد والاجتماع والفنون الجميلة، فالتّعليم بها -حسبه- لا يُؤَهِّل لممارسة حِرَفٍ مستقِلَّة يَكسب بها المتعلِّم عيْشه، ولا يُعِدّ باحثا أو مفكّرا أو فيلسوفا أو عالما، والمصريّون لم ينالوا منها إلّا صورا سطحية، فهم يجهلون علم الاجتماع والتّاريخ والاقتصاد والأخلاق والفلسفة والآداب الغربية والفنون الجميلة لأنهم لا يدرسونها، فنتج عن ذلك وجود قضاة ومحامين وأطبّاء ومهندسين كفاءاتهم متواضعة جدّا في ممارسة مهامهم.[3]

سادسا: مدرسة دار العلــوم

يَعْتَبِرُ الشّيخ محمّد عبدَه مدرسة دار العلوم أحد معاقل اللّغة العربية الهامّة التي ينبغي الاهتمام بها فهي لا تَقِلُّ شأنا عن باقي المؤسّسات التّربوية والتّعليمة الأخرى في مصر.

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص143و144.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص120و121، وينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، مرجع سابق: ج1، ص248.

[3] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، المرجع السابق: ص145.

وهذه المدرسة أنشأها علي باشا مبارك سنة 1871م، واشترط أنْ يكون تلامذتها مِنْ طلبة الأزهر، بعد أنْ يُحَصِّلُوا منه العلوم التي تؤهّلهم للتّدريس بها، وأضاف إلى العلوم الدّينية التي كانت تُدرَّس فيها علوم الطّبيعة والكيمياء والحساب والهندسة والتّاريخ والجغرافيا، حتّى يكون المتخرّج فيها صالحا لأنْ يكون أستاذا في المدارس المصرية في اللّغة العربية والعلوم الدّينية، لكنّه لم يضع للدّارسين فيها أساسا للتّربية، لذلك كان تلامذتها يتخرّجون منها غير متميّزين عن غيرهم في الأخلاق والأفكار.[1]

ولمّا أراد الشّيخ محمّد عبدَه إصلاحها، وضع شروطا للتّدريس بها، مِنْ ذلك أنْ يكون المعلّمون صالحين للقيام بأعمالهم، وأنْ يُتقنوا موادّها ويعرفوا الغاية مِنْ تعليمها وطرق توصيلها للتّلاميذ، فمعظم لا يعتنون بالتّربية ولا يحسنون أداء أعمالهم ولا هدف لهم سوى الرّاتب، فأوصى أنْ تَجمع المدرسة بين العلم والعمل، وأنْ يكون للموظّف السّلطة في تهذيب أخلاق التّلاميذ وتربية نفوسهم وتقويم طباعهم، وأنْ يَبْقَوْا بلباسهم الدّيني مهما تَرقَّوْا في الوظائف، كما طالب بزيادة طاقة استيعابها إلى مائة تلميذ، ونادى بتمديد التّدريس فيها عاما حتّى يتمرّن الطّلبة عليه، كما زاد في حصّة التّربية إلى اثنتَيْ عشرة حصّة وصارتْ تُدَرَّس طيلة السّنوات الأربع بعدما كانت تُدرَّس في السّنة الرّابعة فقط.[2]

ومِنَ المفارقات التي وقف الشّيخ محمّد عبدَه عليها في دار العلوم، أنّه وجد نظّارها يجهلون اللّغة العربية والدّين الإسلاميّ ولا يعتقدون به، ومدرّسوها لا خلاق لهم ولا كفاءة، جعلوا التّدريس للارتزاق فقط، ولا يهمّهم عدم صلاح تلامذتهم وفساد أخلاقهم، فحصروه في نقل العلوم مِنَ الكتب دون بيان الغاية منها، ومع ذلك علّق عليها آمالا كبيرة وقال: "هذه المدرسة تصلح أنْ تكون ينبوعا للتّهذيب النّفسيّ والفكريّ والدّينيّ والخلقيّ، ويمكن أنْ ينتهي أمرها إلى أنْ تَحُلَّ مَحَلَّ الأزهر".[3]

وقد اعتبرها مِنْ حسنات الحكومة التي أشاد بإنشائها وبدورها الرّياديّ في خدمة اللّغة العربية وفي تكوين معلّمين مقتدرين، فذكر بأنّ أيّ باحث إذا أراد أنْ يعرف أين تَحْيَى اللّغة العربية سيجدها تَحْيَى فيها، وأنّ تَقدُّم اللّغة العربية يتمّ بتسهيل طرق تناولها، وبتأليف الكتب المفيدة للمتعلّمين فيها.

لذلك كتب لائحة للنّهوض بدار العلوم وإحلالها محلّ الأزهر وإصلاح التّربية والتّعليم وتوحيده في مصر، ودعا إلى تنظيم العمل بها وذكر شروط انتساب المعلّمين إليها، وذكر بأنّ الغاية مِنْ إنشائها تكوين خرّيجي الأزهر وتأهيلهم لتدريس علوم اللّغة العربية والعلوم الدّينية، ثُمَّ اقترح إصلاح برامجها بإلغاء العلوم غير المفيدة، وتغيير طريقة تفسير القرآن الكريم التّقليدية واستبدالها بطريقة حديثة تتماشى والتطوّر العلميّ والاجتماعيّ، ودعا إلى ضرورة اختيار نُظَّار ومعلّمين صالحين وأكْفَاء، وتمديد الدّراسة فيها لتدريب المعلّمين على التّدريس وإلزامهم بتأليف كتب جديدة.[4]

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص122.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ج3، ص123و124، وينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص210و211.

[3] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، المصدر السابق: ج3، ص123.

[4] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، مرجع سابق: ج1، ص248، وينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص39.

لمّا عجز الأزهر عن أداء مهامّه اقترح الشّيخ محمّد عبدَه إحلال دار العلوم محلّه، وسعى بما أُوتِي مِنْ جهد لسدّ اختلالاتها بناء على نظرته العميقة للتّربية والتّعليم، وقدّم اقتراحاته بحسب ما يناسب فئات المعلّمين والمتعلّمين وما سيتوجّهون إليه وظيفيّا مستقبلا، وحاول أنْ يجعلهم ملمّين بالعلوم التّقليدية والحديثة، وأدخل إليها العلوم العصرية النّافعة غير الموجودة فيها لتوسيع مدارك الدّارسين وتفتيق أذهانهم وجَعْلِهم منفتحين على العالم الأوروبّيّ المتطوّر الذي حقّق تقدّما مذهلا فيها، فحرص على إصلاح دار العلوم للارتقاء بالتّربية والتّعليم بها، بإصلاح إطاراتها ومناهجها ومقرّراتها ونظام التّدريس فيها، لتخريج إطارات كُفأة قادرة على تجسيد إصلاحاته وإحياء الأمّة والنّهوض بها مِنْ كبوتها.

فصارت دار العلوم تمثّل ناديا فكريّا ومدرسة عليا استطاعتْ أنْ تجدّد الفكر الإسلاميّ الحديث، وتؤثّر على الأزهر الذي خرّج شيوخا أجلاّء كالشّيخ مصطفى المراغي ومصطفى عبد الرّازق والشّيخ محمّد الغزالي وغيرهم مِنْ مجدّدي الفكر الإسلاميّ فكانوا مِنْ ثمار مدرسة دار العلوم.[1]

سابعا: مدرسة دار الألســن

أنشأ رفاعة رافع الطّهطاوي مدرسة الألسن سنة 1835م لتكوين مثقّفين يكونون همزة وصل بين الثّقافة العربية والثّقافة الغربية، وليتمكّنوا مِنَ الآداب العربية والآداب واللّغات الأجنبية، ويترجموا الكتب الأجنبية، وينهضوا بالإدارة الحكومية[2]، وقد عُيّن فيها الشّيخ محمّد عبدَه سنة 1878م مدرّسا للعلوم العربية[3]، واجتهد في تفادي الطّرق العقيمة في تدريس النّحو والصّرف، وعمل على تكوين نشء جديد لإحياء اللّغة العربية وإعادة مجدها، وفيها أبرز أفكار أستاذه الأفغاني الثّائر على الاستبداد الدّاخلي والنّفوذ الأجنبيّ والاستعمار الأوروبّيّ الذي تصدّرته يومها إنجلترا وفرنسا الصّليبيتين.[4]

وعمل الشّيخ محمّد عبدَه على تجسيد أفكاره الإصلاحية التّربوية في مدرسة الألسن، بتطعيم دروسه اللّغوية بنُكات سياسية كانت مِنْ مُخرجات تأثّره بمنهج أستاذه جمال الدّين الأفغاني الذي كان يحضّ المصريّين على مناهضة الاستبداد والنّفوذ الأجنبيّ الإنجليزيّ والفرنسيّ على وجه الخصوص، بعدما استمرأ المصريّون الذّلّ والخنوع الذي كرّسه شيوخ الأزهر الجامدين والمتصوّفة المنحرفين.

الفرع الثّالث: المدارس التّعليمية غير المصريــة

أوّلا: المدرسة السّلطانيــة

برجوع الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ باريس إلى بيروت سنة 1885م، زاول فيها التّعليم ولقي التّرحاب مِنْ أهلها وعلمائها ووُجهائها، وسرعان ما أصبح بيتُه قبلة للعلماء والطّلاّب وعشّاق المعارف مِنْ جميع الملل والنِّحل والطّوائف[5]، وجعل بيته ندوة للحديث العلميّ والأدبيّ، حتّى دعاه والي بيروت مدحت

---

[1] يرجع إلى محاضرة محمّد عمارة على اليوتيوب بعنوان: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، من تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بمركز الدّراسات المعرفية في مصر، ألقاها في: 15 فيفري 2017م.

[2] ينظر: موقع: هنداوي:www.hindawi.prg، تاريخ الزيارة: الاثنين: 2020/11/02م في السّاعة: 09:30 صباحا، وينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة: www ar.m.wikipedia.org، تاريخ الزّيارة: الاثنين: 2020/11/02م، في السّاعة: 09:30 صباحا.

[3] ينظر: بلقاسم الغالي، من أعلام الزيتونة- شيخ الجامع الأعظم محمّد الطّاهر بن عاشور، ص187، ويرجع إلى محاضرة محمّد عمارة.

[4] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص177.

[5] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص62.

باشا للتّدريس في المدرسة السّلطانية، وكان مِنْ جهوده فيها تدريسه لكتابه رسالة التّوحيد وشَرَحَ البصائر النّصيرية[1]، وبذلك ترك بصماته التّربوية في المدرسة السّلطانية خصوصا وفي بيروت عموما.

كما قدّم الشّيخ محمّد عبدَه في بيروت دروسا في الجامع الكبير -جامع الباشورة- وكان يحضرها النّصارى أيضا، حتّى قال الشّيخ سعيد الشّرتوني حول تأثير كلامه على مريديه: "هذا الرّجل إذا تكلّم يخرج النّور مِنْ فِيهِ"، وقال عنه شكيب أرسلان: "إنّ مجلس الشّيخ كان يضمّ علماء السنّة ومجتهدي الشّيعة وعُقّال الدّروز وإلى جانبهم أساقفة النّصارى وأحبارهم مِنْ كلّ فريق، كما كان يضمّ بعض الملحدين أحيانا، إِذْ وَجَدَ فيه الجميع مرجعا عامّا لسعة عقله وعلوّ إدراكه وإحاطة نظره"، وأثناء تدريسه بها رأى أنّه لا يمكن لإدارة المدرسة ومناهجها وبرامجها أنْ تؤدّي رسالتها التّربوية وتحقّق نهضة البلاد والأمّة إلّا بإدخال الإصلاحات عليها، فحدّث نظام إدارتها، وجدّد مناهجها، وأدخل العلوم الحديثة إليها، وفيها درّس علوم التّوحيد والمنطق والمعاني والإنشاء والتّاريخ الإسلامي، ودرّس فقه المعاملات الحنفي للصّفوف العليا، وقد بلغ به إخلاصه وتفانيه في تربية أمّته وتعليمها وتوعيتها؛ تدريسُه إلى آخر النّهار، وفي هذا قال عنه تلميذه عبد الباسط فتح الله: "ومِنَ الغريب أنّ نشاطه في آخر درسٍ لم يكن يقلّ عنْ نشاطه في الدّرسِ الأوّلِ بل كان يُرَى في تزايدٍ ما تَنَاقَصَ النّهار".[2]

وبعد بضعة أشهر مِنْ تدريسه بها، استطاع أنْ يُخْرِجها مِنَ الرّكود ويُحدث حيوية وانتعاشا علميا فيها بتغييره لطريقة التّدريس المنفّرة وبتجنُّب التّلقين الجافّ للعلوم وحشو الأذهان بالمعلومات، واستعاض عنها باستخلاص العِبَر مِنَ الدّروس، مع تقديمه للدّروس والتّوجيهات التّربوية التي تثير في التّلاميذ الرّغبة الصّادقة لخدمة وطنهم وحمل هموم أمّتهم والسّعي في إصلاح أحوالها.[3]

وقد كان مِنْ آثاره الطّيّبة في الإصلاحات التي قام بها في المدرسة، أنِ ازدهرتْ وعلا شأنها بما حقّقته مِنْ تميّز في تربية الأمّة على التّمسّك بثوابتها الدّينية والوطنية وتربيتها على النّزعة الاستقلالية، كما انعكستْ على تلامذته المؤمنين بمشروعه التّربويّ أنْ حملوا بعده لواء التّربية والإصلاح، وحققّوا بعضا مِنْ طموحاته، لكنّ تأثير المدرسة في بيروت أوغر صدور حكّامها الذين غيّروا مديرها الذي غيّر نظامها ومنهاجها الدّراسيّ، الأمر الذي جعل الشّيخ محمّد عبدَه يستقيل منها ويعود إلى مصر.

وفي بيروت ترجم رسالة الرّدّ على الدّهريّين إلى العربية لأستاذه الأفغانيّ، وشَرَح كتاب نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب ﷺ وشَرح مقامات بديع الزّمان الهمذانيّ، ووجّه لائحة إصلاح التّعليم إلى شيخ الإسلام بالأستانة ليرفعها للباب العالي بعدما وقف على ضعف قطاع التّربية والتّعليم في جميع أنحاء لبنان وبيت المقدس ودمشق، كما كتب في جريدة ثمرات الفنون في قضايا التّعليم والاجتماع والسّياسة المصرية، وحارب الفُرقة والخلاف وحثّ على حبّ الوطن والوحدة والتّعاون، وكشف عن المؤامرات التي كان يحيكها أعداء الأمّة بإثارتهم للخلافات الطّائفية بين المصريّين؛ خصوصا بين

---

[1] ينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدّد، مرجع سابق: ص248.

[2] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص236.

[3] ينظر: المرجع نفسه: ص238.

المسلمين والأقباط الذين أوصى بهم نبينا محمّد ﷺ خيرا، فكتب فيها مقالات ليقطع بها الطّريق أمام مخطّطات الاستعمار البريطاني الذي أراد إطالة عمره في مصر وفي الأمّة العربية والإسلامية.[1]

ثانيا: المدارس الأجنبيــة

لقد كان للمدارس الأجنبية تأثير سلبيّ على أبناء مصر لعدم توافق مناهجها وأهدافها وخلفيّاتها العقدية والفكرية والثّقافية مع المصريّين، ولعدم تعليمها الخير لهم، فَنَفَّروا منها ومِنْ رؤسائها وأممها، ولم يرغبوا في تعليم أبنائهم فيها لعدم ثقتهم فيها وخوفهم مِنْ تأثيرها السّلبيّ على عقيدتهم وأفكارهم وأخلاقهم، وكذا للمسؤولية الكبيرة التي ستقع على عاتق أوليائهم في فساد دينهم وعقيدتهم.[2]

وقد تفطّن الشّيخ محمّد عبدَه للأدوار الخطيرة التي تقوم بها تلك المدارس التي فرضها الأوروبّيّون في مصر بقوّة نفوذهم، وسخّروها لخدمة أهدافهم الاستعمارية والتّنصيرية المشبوهة، لتقويض ثوابت وهويّة الأمّة المصرية؛ بمحاربة دينها، وتهميش لغتها، وإحياء اللّهجات العامّية، والتّمكين للغاتهم.

وعاب على المصريّين الذين أرسلوا أولادهم للدّراسة فيها، ونهاهم عن ذلك بسبب ما تقوم به مِنْ نشاطات تنصيرية مشبوهة أثّرت على عقيدتهم فأضعفتها، وكرّستْ النّفوذ الأجنبيّ المتنامي بينهم، الذي تحوّل فيما بعد إلى استعمار عسكريّ وسياسيّ.[3]

وذكر الشّيخ محمّد عبدَه بأنّ المدارس الأجنبية لا تعلّم المصريّين الإسلام بل وتعمل على إبعادهم عنه فقال: "هؤلاء التّلامذة إنْ كانوا في مدارس أجنبية لا أثر لتعليم الدّين الإسلامي فيها، بل ربّما يُعَلَّم فيها دين آخر، فقد يسري إلى عقائدهم شيء مِنَ الضّعف، وقد تذهب عقائدهم بالمرّة، وتحتلّ مكانها عقائد أخرى تناقضها، فهذه جناية مِنْ جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلّمون في مدارس أجنبية، يُخرجهم مِنْ دينهم مِنْ حيث لا يشعرون، فالجهل خير ممّا يتعلّم هؤلاء بدون ريبة".[4]

لذلك طلب مِنْ كرومر إعادة النّظر في السّياسة التّربوية والتّعليمية، ودعاه إلى إشراك النّخب المصرية فيها لخدمة هويتهم بإقامة التّعليم على مبادئ الإسلام، لبناء شخصية مصرية تعتزّ بعقيدتها ولغتها ووطنها، وأمّا رفضه تعليم المصريّين بالمدارس الأجنبية للعلوم العصرية واللّغات الأجنبية فقد كان بغرض إفشال نشاطاتها التّنصيرية، وإلّا فهو لا يعادي تعليمها بدليل أنّه تَعلَّمها شخصيّا وهو في عِقْدِهِ الرّابع، وأدرج تَعليمها لأبناء مصر في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية.

والخلاصة أنّ الإصلاحات التّربوية للشّيخ محمّد عبدَه؛ مسّت عدّة مجالات مهمّة في مسيرته الإصلاحية، ففي مجال السّياسة التّعليمية عمل جهده لجعل التّعليم إجباريّا ومجّانيّا وبذل أقصى ما يملك لتعميمه، وسعى لأنْ يكون نوعيّا بالحدّ مِنَ الحشو والتّقليل مِنَ الكمّ الذي كان متفشّيا في وقته، وتوخّى تجسيد أهداف الإصلاح التّربويّ ومقاصده حتّى يجمع التّعليم بين المصلحة الخاصّة والمصلحة

---

[1] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص239.

[2] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتّجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، مرجع سابق: ج1، ص247، وينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص36.

[3] ينظر: عبد الحليم عويس، التّربية وإصلاح الأمّة في مقالات محمّد عبدَه، مقال على شبكة الألوكة: https://www.alukah.net، تاريخ الإضافة: 2014/3/2م، تاريخ الزيارة: 2020/08/27 في الساعة: 18:00 مساء.

[4] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص345و346.

العامّة، ويحقّق الوحدة الثّقافية للأمّة، ويكون مُنتجا، وأنْ يكون درعا واقيا لحماية هوية الأمّة مِنَ المؤثّرات الأجنبية الدّخيلة على قيمها ومبادئها الإسلامية.

أمّا في مجال الكفاءات التّعليمية؛ فقد تحدّى واقع التّعليم المصريّ الذي كان يفتقد للكفاءات التّعليمية المؤهّلة للقيام بواجب التّربية والتّعليم، وسعى بِجِدٍّ لإيجادها وتوظيفها وتفعيلها، وأشرف شخصيّا على متابعة مدى تنفيذ البرامج والمقرّرات والإصلاحات التّربويّة التي استحدثها، كما تصدّى للممارسات التّعليمية السّقيمة للقائمين على العملية التّعليمية، وحرص على معالجة أمراض القلوب والتّحجّر الفكريّ الذي طغى على نفوس المتصدّرين للتّربية باعتماد التّربية الإسلامية.

أمّا ما تعلّق بالمقرّرات والطّرائق التّعليمية؛ فقد وضع أسسا لطرائق التّدريس، وحدّد المقرّرات التي ينبغي اعتمادها في التّعليم، وحضّ المتعلّمين على إعمال العقل والتّفكير والابتعاد عن الحفظ والتّلقين، وعلى الجمع بين النّظرية والتّطبيق، وأنْ يستفيدوا مِنْ واقعهم، وحثّ المعلّمين على ضرورة مراعاة الفروق الفردية بين المتعلّمين، وأنْ يتحلَّوْا بمواصفات المعلّم الأخلاقية والنّفسية والمهنية.

وبالنّسبة للمؤسّسات التّربوية فقد ركّز كثيرا على أعرق المؤسّسات الدّينية في مصر، والمتمثّلة في جامع الأزهر الشّريف الذي توجّه إلى إصلاحه مِنْ جميع الجوانب، دون أنْ يُغفل مختلف المؤسّسات التّربويّة الأخرى، سواء كانت في مصر مثل: المدارس الأميرية والكتاتيب الأهلية والمدارس الابتدائية والمدارس الثّانوية والمدارس التّجهيزية والمدارس العالية، وكذا مدرسة دار العلوم ومدرسة دار الألسن، وحتّى المدارس غير المصريّة الموجودة في مصر على غرار المدارس الأجنبيّة التي حذّر منها ومِنَ الأدوار الخطيرة التي تقوم بها ضدّ هوية الأمّة المصريّة، وفي تمهيدها للاستعمار الأجنبيّ، وكذا المدرسة السّلطانية في بيروت التي زاول بها التّربية والتّعليم لمّا كان منفيا خارج مصر، والتي ترك فيها بصماته الإصلاحية في جوانب التّربية والتّعليم والإدارة.

المبحث الرّابع:
خصائص الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه

المطلب الأوّل: الأصالة والمعاصرة والاجتهاد والتّجديد

المطلب الثّاني: الشّمول والتّكامل

المطلب الثّالث: الواقعيّة والموضوعية

المطلب الرّابع: الوسطيّة والمرونة والبساطة

المطلب الخامس: ترسيخ قيم المواطنة والاتّحاد والتّعاون

المبحث الرّابع: خصائص الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه

تمهيد:

أقام الشّيخ محمّد عبدَه إصلاحاته على التّربية بعيدا عن السّياسة والثّورة، وما خوضه غمار السّياسة زمن الثّورة العُرابية إلّا كردّ فعل على الاستعمار البريطاني الذي تآمر على احتلال مصر سنة 1882م، فقدّم التّربية على السّياسة، والأمّة على الدّولة، فأنتجت تربيته للأمّة حكومة ناضجة عَوَّل عليها في البناء والإصلاح والنّهضة، وسار على هذا المنهج تأسيا بالنّبيّ ﷺ الذي قضى ثلاثة وعشرين سنة في الدّعوة إلى الله تعالى، منها ثلاثة عشر سنة في مكّة لا سياسة فيها، وبعد صناعته للإنسان والهجرة؛ بنى المؤسّسات وأقام دولة إسلامية مثالية.

فبالتّربية والقراءة والعلم يُبنَى الإنسان ويُصنع عقله وتُعاد صياغته مِنْ جديد، لذا ركّز الشّيخ محمّد عبدَه في مسلكه التّربويّ على إصلاح مناهج الفكر وإصلاح المؤسّسات التي تصوغ العقل المسلم وتصنع النّخبة وهي: المدارس والمساجد والأوقاف والقضاء، وعلى رأسها جامع الأزهر الذي كان يعاني جمودا فكريّا بمبرّر الحفاظ على التّراث الإسلاميّ، لكنّ ذلك الجمود أحدث فراغا امتدّ فيه الغزو الفكريّ وصار تحدّيا أمامه، وعرقل حركة الإصلاح والإحياء والتّجديد في مصر.[1]

ومع كلّ تلك التّحدّيات والعراقيل والعقبات التي واجهتْ إصلاحاته التّربوية التي رسمها وسعى لتجسيدها في الواقع المصريّ الذي كان يعاني مِنْ رواسب وتراكمات سياسات الحكومات المتعاقبة واختراقات الاستعمار البريطاني وسطوة ونفوذ شيوخ الأزهر الجامدين المتنفّذين المسنودين مِنَ الحكومة؛ إلّا أنّه استطاع أنْ يُحدث تغييرا ملحوظا مِنْ خلال الإصلاحات التي استمات في تنفيذها بإصرار وعزيمة قويّتَيْن ونيّة وإخلاص صادقَيْن، بترسّمه لجملة مِنَ الخصائص لإنفاذ إصلاحاته التّربويّة التي علّق عليها آمالا كبيرة في التّغيير والتّقدّم والازدهار، فآتتْ بعض ثمارها ولو بعد حين.

وفي هذا المبحث سيتمّ استعراض أهمّ خصائص الإصلاح التّربويّ التي ميّزتْ جهود الشّيخ محمّد عبدَه، والتي أسهمت بقدر كبير في الإحياء والتّغيير والنّهضة، والتي يمكن لأيّ جهة فردية كانت أو جماعية، رسمية أو غير رسمية، أنْ تقتدي به وتعمل بها لتجسيدها ميدانيا؛ محلّيّا أو إقليميّا أو عالميّا.

---

[1] يرجع إلى محاضرة محمّد عمارة على اليوتيوب بعنوان: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، من تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بمركز الدّراسات المعرفية في مصر، ألقاها في: 15 فيفري 2017م.

المطلب الأوّل: الأصالة والمعاصرة والاجتهاد والتّجديد

اعتمد الشّيخ محمّد عبدَه في تجسيد إصلاحاته التّربوية على مرجعية المجتمع المصري الإسلامية، بالانطلاق مِنْ أصول ومبادئ الدّين الإسلاميّ وبالتّفاعل مع مستجدّات عصره، فاجتهد فيما لا نصّ فيه، وكانت مسيرته الإصلاحية متناغمة مع الفطرة المركوزة فيه ومع ثوابت أمّته، وقد ذكر بأنّه إذا سمع داع يدعو إلى العلم بالدّين فهذا مقصده، أو مناديا يحث على التّربية الدّينية فهذا غرضه، أو صائحا ينكر ما عليه المسلمون مِنْ المفاسد فتلك غايته، وهذا سبيل لا مندوحة عنه لكلّ مريد للإصلاح في المسلمين، فإنّ إتيانهم مِنْ طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدّين يُحْوِجُه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده مِنْ موادِّه شيء، ولا يسهل عليه أنْ يجد مِنْ عمّاله أحدا.[1]

لذلك أصّل إصلاحاته التّربوية بأحكام الشّريعة الإسلامية التي لم يحد عنها إلى غيرها إلّا إذا كانت ظنّية، فيجتهد معها ويتكيّف مع مستجدّات عصره ويُعمِل عقله فيها لأجل الإصلاح والتّجديد.

الفرع الأوّل: الأصالة والمعاصـرة

انطلق الشّيخ محمّد عبدَه في إصلاحه التّربوي مِنْ مرجعية الأمّة الإسلامية المتمثّلة في القرآن الكريم والسّنّة النّبوية الشّريفة وتراثها الإسلاميّ الثّريّ، كما انفتح على الفكر البشريّ وواكب مستجدّاته، وحاول أنْ يجمع بين الأصالة والمعاصرة، ولا ينكفئ على الذّات، وينفتح على واقعه المعاصر، ذلك أنّ الأصالة في إصلاحاته التّربوية تعني: الأخذ بأصول الإسلام وفروعه في تسيير شؤون أمّته الدّينية والدّنيوية وعدم الاستغناء عمّا في حوزة الإسلام، والمعاصرة هي: الاطّلاع على ما توصّل إليه الفكر الإنسانيّ المعاصر والأخذ منه بحسب ما يتوافق وخصوصيات مجتمعه الدّينية والأخلاقية.

وقد تميّزتْ إصلاحاته التّربوية بخاصّية الأصالة التي كانت مِنَ المعالم البارزة فيها، فاشتملتْ على العقيدة والنُّظُم والقيم والمذاهب والمدارس الإسلامية المشكّلة لهوية الأمّة المعزّزة للانتماء الإسلاميّ، وبتميّزها بالمعاصرة التي طبعتْ إصلاحاته بمحاولاته الجادّة في الاستفادة مِنْ مُنجزات العلم المعاصر وتطبيقاته التّكنولوجية، ونَقْلِ أفضلَ ما عند الغرب مِنْ إبداعات التّنظيم والإدارة وإتقان العمل.[2]

وفي أواخر القرن التّاسع عشر الميلاديّ وبداية القرن العشرين عايش الشّيخ محمّد عبدَه في مصر حياة ثقافية جمعتْ بين ثلاثة اتّجاهات: اتّجاه محافظ يُمَجِّد الماضي ويقاوم نقل الثّقافة الغربية إلى بلاد المسلمين، مثّله رجال الدّين الذين أغفلوا متطلّبات العصر، واتّجاه علمانيّ انطلق مِنْ حضارة الغرب وثقافته لإنشاء مجتمع مماثل له وأَخْذِ حضارته بشِقَّيها المادّيّ والفكريّ وإحلالها محلّ الثّقافة العربية والإسلامية، وقد مثّل هذا الاتّجاه سلامة موسى[3] وشبلي شميل[1] وفرح أنطون وغيرهم،

---

[1] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص105.

[2] ينظر: حمدان عبد الله شحادة الصوفي، مفهوم الأصالة والمعاصرة وتطبيقاته في التّربية الإسلامية، أطروحة دكتوراه تحت إشراف الدكتور: محمد جميل بن علي خياط، جامعة أم القرى، كلية التربية، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، (د ط)، 1994م، ص18و ص22.

([3])- **سلامة موسى(1887- 1958م):** أديب مصريّ قبطيّ نصرانيّ، تعلّم في مصر وسافر إلى فرنسا لمتابعة دراسته، ثمّ انتقل إلى لندن وفيها تشبَّع بالعقلانية الغربية المادّية ثمّ عاد إلى مصر، كتب في عدّة مجلّات ويوميّات مصريّة كالهلال والمقتطف والأهرام والأخبار، وأصدر جريدة المستقبل وأسّس المجلة الجديدة، مِنْ مؤلّفاته: الدّنيا بعد ثلاثين عاما، أظهر فيه معاداته لدين وتاريخ وتراث المسلمين، ينظر:=

واتّجاه ثالث تزعّمه الشّيخ محمّد عبدَه، وهو الذي يجمع بين الأصالة والمعاصرة وبين مزايا الفريقَيْن متخلّيا عن عيوبهما، فأبرَزَ الجوانب التّقدّمية في تراث المسلمين التي لا تتعارض وحضارة العصر بحكم توافق الإسلام مع العلم والمدنية، وعدم منعه الأخذ بما هو صالح وله قيمة مِنَ الحضارة الغربية إذا كانت لا تتصادم مع الإسلام، فزاوج بين التّراث الإسلاميّ والوافد الأوروبّيّ بعيدا عن الجمود والتّطرّف.

واستطاع أنْ يَعرض رؤيته وَسْطَ الصّراعات الفكرية، وأنْ يقف موقفا وسطا بين الْمُرتَمِين في أحضان الأوروبّيّين وبين الرّافضين لكلّ جديد صادر منهم، ولكلّ ما يأتي مِنَ الاستعمار البريطانيّ الهادف إلى القضاء على الإسلام، فمايز بعلمه وحكمته بين الاستعمار ودوره السّلبيّ في العالم العربيّ والإسلاميّ ودعا إلى محاربته بلا هوادة، وأبرز في المقابل الفكر المستنير والتّقدّم المادّيّ والرّقيّ العلميّ الذي وصلتْ إليه أوروبّا يومها، ودعا إلى الأخذ به والاستفادة منه، خصوصا وأنّ مصر والمجتمعات العربية والإسلامية كانت تعاني الضُّعف والتّخلّف والجهل لابتعادها عن قيم الإسلام ومبادئه السّمحة.[2]

لذلك اجتهد الشّيخ محمّد عبدَه لإنقاذ الأمّة الإسلامية مِنْ ضعفها وجهلها وتخلّفها، وألزم نفسه بتحمّلَ مسؤولياته الشّرعية أمام الله وأمام ضميره وأمام أمّته لتحقيق التّقدّم والتّحضّر والازدهار.

ووجد أنّ ذلك لا يحصل إلّا عن طريق تنقية التّراث الإسلاميّ مِنَ البدع والخرافات، والعودة بالإسلام إلى صورته الأصيلة النّقية التي جاء بها رسول الله ﷺ، كما اجتهد في التّوفيق بين تعاليم الإسلام ومتطلّبات العصر وما صاحبها مِنْ تطوّر في الحياة الإنسانية، لذلك دعا إلى اقتباس كلّ ما هو نافع ومفيد مِنَ الحضارة الغربية، ما دام لا يتعارض مع الإسلام الذي لا يقف حجر عثرة في طريق المدنيّة الحديثة، التي ستكون بعد تهذيبها مِنْ أقوى أنصار الإسلام متى عرفته وعرفها أهله.[3]

فكان لخاصّية الأصالة والمعاصرة التي فَعَّلها الشّيخ محمّد عبدَه في إصلاحاته أثر كبير في المجتمع المصريّ الذي أطْلَعَه بها على إبداعات الحضارة الغربية الإيجابية المادّية والمعنوية، حتّى يوظّفها في التّخلّص تدريجيّا مِنَ الضّعف والتّخلّف والجهل، فكان لمسلكه هذا الذي ورّثه لتلامذته مكانة محترمة في الواقع العربيّ والإسلاميّ الذي جعل الغرب ينظر بعقلانية إلى الإسلام وأحكامه الموافقة للعلم الحديث، وأخذ بعض نخبه وأعلامه يقتربون مِنَ الإسلام ويدرسونه مِنْ مصادره الأصلية بموضوعية وأمانة، حتّى تأكّدتْ لهم حقائقه النّاصعة المطابقة للحقائق العلمية، وصاروا يشيدون به ويقِرُّون بأصوله، ويُشهرون إسلامهم، وهو ما حصل في عهد الشّيخ محمّد عبدَه ويحدث في الوقت الرّاهن.

=أحمد محمود عيساوي، مقاربات وأبحاث في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر- تيارات وقضايا فكرية معاصرة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، ط1، 2012م، ص199- 201م.

[1] **شبلي شميّل(1860أو1850- 1917م):** أديب وسياسيّ وطبيب لبناني نصرانيّ، تخرّج في الجامعة الأمريكية في بيروت، درس الطّبّ في باريس واستقرّ في مصر وأنشأ بها مجلّة الشّفاء، كان مِنَ الذين أدخلوا نظرية داروين إلى العالم العربي بمقالاته في المقتطف وكتابه فلسفة النّشوء والارتقاء، توفّي بمصر، مِنْ مؤلّفاته: رسالة في الهواء الأصفر، حوادث وخواطر، ينظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلّفين، مرجع سابق: ج4، ص 294، وينظر: المعرفة: www.m.marefa.org، تاريخ الزّيارة: الأربعاء: 2020/10/28م في السّاعة: 22:15 ليلا.

[2] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص118و119.

[3] ينظر: المرجع نفسه: ص120.

وحتّى يؤكّد على خاصية المعاصرة في إصلاحاته التّربوية، دعا للانفتاح على الوجه المشرق للحضارة الغربية وأثنى على علومها وفنونها وآدابها المفيدة، وشجّع على ترجمتها والاستفادة منها، فأشاد بترجمة سليم البُستاني لإلياذة هوميروس، وعلى ترجمة حافظ إبراهيم لكتاب البؤساء لفكتور هيجو، وعلى ترجمة حنين نعمة الله خوري لكتاب السّياسة وتاريخ التّمدّن للوزير الفرنسي جيزو الذي سمّاه بالتّحفة الأدبيّة، فالشّيخ محمّد عبدَه يرى بأنّ التّرجمة ضرورية في العلوم والآداب، لأنّ إنتاج المسلمين فيها كان ناقصا، كما ربط بعض الأفكار الإسلامية بالأفكار الحديثة، وأوجد صلة بين مبدأ الشّورى في الفكر الإسلاميّ وبين الأفكار الدّيمقراطية في الفكر السّياسيّ الغربي الذي لا يتعارض مع الإسلام.[1]

فالشّيخ محمّد عبدَه رجل حمل لواء الدّعوة إلى الأصالة والمعاصرة بناء على قبوله بمبدأ التّغيير، الذي كان له مبرّراته الإيديولوجية في مجابهة الاستعمار الغربي، ووقف مدافعا عن الذّات بتبصّر أمام الموجة الغربيّة التي استهدفتْ تذويب الشّخصية العربية الإسلامية، ووقف ضد الجمود بإحداث إصلاحات في الفكر الدّينيّ للتّمكّن مِنَ الصّمود أمام التّحدّي الفكريّ الأجنبيّ.[2]

لقد حاول الشّيخ محمّد عبدَه بإصلاحاته التّربوية، بناء الشّخصية الإسلامية وصيانة تراثها الثّقافيّ بعقلانية وتبصّر، واستبعاد الشّوائب التي علقتْ بها، وتحقيق التّفاعل بين تراث المسلمين وبين النّافع المفيد الوافد مِنَ الحضارة الغربية، وهكذا استطاع أنْ يجمع بين الأصالة والمعاصرة.

الفرع الثّاني: الاجتهاد والتّجديـد

ومعنى التّجديد: "هو تجديد الدّين وإنهاض الدّنيا مع تصحيح المفاهيم المغلوطة حوله وتقويم العوج وإيقاظ العقول النّائمة وتحريك الحياة الرّاكدة، لإعادة المجتمع الإسلاميّ إلى الحياة والحركة والنّمو وقيادة البشرية إلى الطّريق القويم".[3]

وهو كذلك: "أنْ تستصحب الأصول والثّوابت وتجدِّد في فقه الواقع وفي فقه المتغيّرات، كتجديد دولة مدنيّة مرجعيّتها إسلامية، لا هي علمانية ولا هي كهنوتية تيوقراطية، وتحقيق العدالة الاجتماعية وإنصاف المرأة، وغيرها مِنْ معالم التّجديد، وليس هو نفيُ تراث الإسلام وثوابته".[4]

والتّجديد منصوص عليه في الإسلام في قوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[رواه أبو داود][5]، ولا يعني التملّص مِنَ الدّين الإسلامي وتحريف حقائقه وثوابته والذّوبان في الأفكار الوافدة المناقضة لأصوله، وإنّما يكون بالعودة إلى أصوله الحقيقية التي جاء بها رسول الله ﷺ، وترميم ما فسد منه وتصحيح ما شاع عنه مِنْ مغالطات ودَفْعِ ما لحق به مِنْ شُبَهٍ عبر توالي الأزمان والعصور للإبقاء على خصائصه وميزاته الرّبّانية التي أبرزها الرّسول ﷺ.

---

(1) ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص120.

(2) ينظر: منتهى عبد جاسم، جدلية العلاقة بين التّربية والسّياسة عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص2.

(3) حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر، مرجع سابق: ج2، ص529.

(4) يرجع إلى محاضرة محمّد عمارة في اليوتيوب بعنوان: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، الجزء الأوّل، مِنْ تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بمركز الدّراسات المعرفية في مصر، ألقاها في: 15 فيفري 2017م.

(5) أخرجه أبو داود في أوّل كتاب: الملاحم، باب: ما يذكر في قرن المائة، ج6، ص349، حديث رقم: 4291.

ومعنى الاجتهاد: هو بذل الوُسع فيما لا نصّ فيه وفيما هو ظنّيّ الثّبوت والدّلالة لإيجاد الحلول المناسبة للمشكلات الطّارئة على حياة الإنسان الدّينية والدّنيوية، ولرفع الحرج عنه وتعمير الأرض وتحقيق الاستخلاف فيها.

ووسيلة الاجتهاد عند الشّيخ محمّد عبدَه هي التّأويل الذي به يحافظ على حيوية الإسلام المتجدّدة التي ميّزه الله بها، وهذه الخاصّية عمل المسلمون في عصور الظّلام على حجبها ومحاولة القضاء عليها في غفلة ودون وعي منهم بسبب جهلهم وجمودهم وخلودهم إلى التّقليد.[1]

وقد جعل الشّيخ محمّد عبدَه العقل الوسيلة الأساس للاجتهاد في أمور الدّين والدّنيا، تفعيلا منه لقيمة حرية التّفكير والتّحرّر مِنَ التّقليد والجمود الذي كان السّمة السّائدة في مصر، لذلك أشاد بالاجتهاد وحمل بشدّة على المقلّدين، وفتح باب الاجتهاد في جميع مسائل الحياة المتجدّدة، بحيث لا تكون الكلمة للنّصوص البالية، ولا للسّلطات البائدة، وإنّما للحياة النّابضة ولروح التّجديد.[2]

وبرز الاجتهاد في الفكر الإصلاحيّ للشّيخ محمّد عبدَه مِنْ خلال إبداعاته التّربوية والفكرية والعملية المتميّزة في الكثير مِنَ الشّواهد، بحيث لم يكن مفكّرا تقليديّا يركن إلى النّقل الحَرْفيّ والاقتباس المبتذل، وكشاهد على ذلك إبداعه للهدايات الأربع عند تفسيره لنظرية المعرفة.

فعند مواجهته للاستقطابات الحادّة لتيّارات الغلوّ الدّينيّ واللّادينيّ، وقف أهل المادّية الوضعية في سبيل المعرفة عند العقل والحواسّ فقط، ووقف أهل الجمود والتّقليد للموروث عند ظواهر النّصوص وحدها، ووقف غلاة الصّوفية عند خَطَرَات القلوب دون سواها، وتفرّد الشّيخ محمّد عبدَه بوسطية الإسلام الجامعة التي سمّاها الهدايات الأربع وهي: "العقل والنّقل والتّجربة والوجدان التي تكاملتْ في تحصيل المعرفة الإسلامية الشّرعية والمدنيّة فأثمرت الثّقافة والمعرفة الإسلامية المتوازنة، فبالجمع بين هذه الهدايات الأربع تكون الثّقافة والمعرفة الوسطية التي يوقظ فيها العقلُ القلبَ، ويرطّب فيها القلبُ حسابات العقول المجرّدة، وتَكتشِف فيها التّجارب والحواس آيات الله المبثوثة في الأنفس والآفاق - كتاب الله المنظور- ويضيف فيها النّقل -نبأ السّماء العظيم- ما لا تستطيع العقول والحواس -وهي نسبيّة الإدراك- الاستقلال بمعرفته مِنْ نبإ الغيب وعوالم الإلهيات، فقد أفاض الإمام محمّد عبدَه في الحديث عن نظرية الهدايات الأربع، عندما وقف في تفسيره لسورة الفاتحة أمام قول الحقّ سبحانه وتعالى:﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾[سورة الفاتحة]".[3]

لقد كان لخاصّية الأصالة والمعاصرة والاجتهاد والتّجديد دور محوريّ في تجسيد قدرٍ محترم مِنَ الإصلاحات التّربوية التي سعى بكلّ ما أُوتيَ مِنْ علم وحكمة لإسنادها إلى أحكام الشّريعة الإسلامية حتّى تُؤتيَ ثمارها واقعيا، دون أنْ يغفل الواقع الإقليميّ والعالميّ الذي حاول مِنْ خلاله التّفاعل والتّناغم معه دون إفراط أو تفريط، ودون تخطّي أصول ومبادئ دينه وأعراف وعادات أمّته.

---

[1] ينظر: زينب محمود الخضيري، التّطور والإصلاح عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص86.

[2] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص52.

[3] محمّد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص50و51.

المطلب الثّاني: الشّمول والتّكامل

تميّزت إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية بخاصّية الشّمول والتّكامل، التي حاول مِنْ خلالها أنْ يعمّم تجربته الإصلاحية المحلّية على المستوى الإقليميّ والعالميّ بسفره إلى أقطار العالم العربيّ والإسلاميّ والأوروبّيّ، حيث بناها على مرجعيّته الدّينية وعلى اجتهادات القرون الثّلاثة الأولى ومَنْ جاء بعدهم مِنَ الأئمّة، كما تواصل مع الأوروبّيّين الذين تحرّروا مِنْ عصور الظّلام وشقّوا طريقهم نحو آفاق تربوية واعدة، وأخذ يقتبس مِنْ انجازاتهم وينتقي منها ما يخدم المسلمين، كاسرا بذلك حاجز الجمود والتّقليد والتّقوقع على الذّات، فانتشرتْ إصلاحاته التّربوية بين الأوساط العربيّة والإسلاميّة والغربيّة، وأشادوا بأدبيّاته الإصلاحية التي خلّفها، ولما اتّسمتْ به مِنْ شمول وتكامل استوحاهما مِنَ الشّريعة الإسلامية، لذلك شدّت إصلاحاته انتباه الدّارسين الذين أَوْلَوْهَا كلّ الاهتمام.

كما دعا الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ خلال إصلاحاته التّربوية إلى إطلاق الحرّيات الإبداعية وتنمية المواهب الضّرورية، وتربية الأبناء على امتلاك المهارات النّقدية، ورفض الخضوع والطّاعة العمياء والاستسلام، وأكّد على التّكافل الاجتماعيّ، والتّعاون بين أفراد المجتمع، والعدل بين الرّجل والمرأة المتماثلان في الحقوق والواجبات[1]، فجاءت الفروع الآتية متضمّنة معالم هذه الخاصّية وهي:

الفرع الأوّل: الجمع بين التّربية المعنويّة والتّربية المادّيـة

يصف الكثير مِنَ الباحثين آراء الشّيخ محمّد عبدَه في مجال التّربية بأنّها أوّل مخطّط تربويّ في العالم العربيّ الحديث، وأنّ قاعدته هي أنّ الارتقاء المعنويّ هو الأساس لكلّ ارتقاء مادّيّ.[2]

وذكر بعض الدّارسين بأنّ وعي الشّيخ محمّد عبدَه تفتّح باكرا على الجانب الصّوفيّ الفلسفيّ الذي ساعده في بناء نظريته التّربوية والأخلاقية، التي كان لها الأثر الطّيّب في إحداث الإصلاح الاجتماعيّ القائم على الكمال الخلقي الذي يخدم المجتمع الإنسانيّ في أرقى صُورِه.[3]

لقد ركّز الشّيخ محمّد عبدَه في عمله الإصلاحيّ على الجوانب التّربوية ليقينه بنجاعتها في تكوين إنسان كامل صالح يبني ولا يهدم، يصلح ولا يفسد، ولمّا كانت الفطرة تقضي بحاجة الإنسان إلى الجوانب المادّية في الحياة ورغبته فيها، أعطى الأولويةَ للتّربية المعنوية لكونها توصله إلى مطالبه المادّية التي تَرْغب فيها النّفس بالفطرة، فجعل مِنَ التّربية سبيلا للجمع بين الجوانب المادّية والمعنوية معا، وهي مطالبُ فطرية للإنسان لا يمكنه أنْ يستغني عنها، لذلك عمل جاهدا على إحداث توازن بين التّربية الرّوحية والتّربية البدنية، تحقيقا لتربية متكاملة متناغمة مع تركيبة الإنسان السّويّة التي تتجاذبها مطالب الرّوح ومطالب الجسد دون ميل لإحداها على حساب الأخرى.

---

[1] ينظر: منتهى عبد جاسم، جدلية العلاقة بين التّربية والسّياسة عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص4.

[2] ينظر: أنور الجندي، اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار، مرجع سابق: ص134.

[3] ينظر: منتهى عبد جاسم، جدلية العلاقة بين التّربية والسّياسة عند محمّد عبدَه، المرجع السابق: ص47.

إنّ الشّريعة الإسلامية عامّة باقية إلى آخر الزّمان، تنطبق على مصالح الخلق في كل زمان ومكان مهما تغيّرت أساليب العمران، وأحكامها شاملة تتعلّق بجميع أحوال البشر التي أحاط الله بها علما.[1]

الفرع الثّاني: الجمع بين التّربية الفردية والتّربية الجماعيـة

لأجل تحقيق إصلاح تربويّ شامل ومتكامل استهدف الشّيخ محمّد عبدَه جميع شرائح الأمّة أفرادا وجماعات شعبا وحكومة، وانصبّ تركيزه على القاعدة أكثرَ مِنَ القمّة، على اعتبار أنّه بصلاح الشّعب ستصلح السّلطة حتما، وبالتّالي ستتحقّق المقاصد التّربوية التي يرنو إليها.

وهو الذي يؤمن بأنّ الإصلاح النّاجح يتمّ بالتّوجه إلى القاعدة بمخاطبة الشّعب وتربيته التّربية السّليمة التي تساعده على النّهوض والتّقدّم والوعي والبناء والتّغيير، فقد سعى عمليا لتجسيد ذلك قبيل وفاته وهو مريض، حيث أعدّ العدّة لافتتاح مدرسة بجوار بيته لتخريج الدّعاة ورسل الإصلاح.[2]

إنّ المسلك الإصلاحيّ الذي اتّبعه الشّيخ محمّد عبدَه لم يُوَافِقْه عليه الوطنيّون الذين ينشدون الإصلاح السّياسيّ انطلاقا مِنْ هرم السّلطة، بسبب اهتمامه بتربية الأمّة وتعليمها واستهداف قاعدتها العريضة لإصلاحها ومِنْ ثمَّ إصلاح حكّامها، على أمل تأثير القاعدة الصّالحة على الحكّام ولو على المدى الطّويل، لأنّ صلاح القمّة واستعمالها لنفوذ وهيبة السّلطة لإصلاح القاعدة؛ قد يُستجاب لها خوفا ورهبة مِنْ سطوة السّلطان، لكنّ تأثيرها الإصلاحيّ يكون آنيا ومحدودا وظاهريّا ولا يكون عن إيمان وقناعة، وقد يجعلها تتحيّن أوّل فرصة تتاح لها للتّملّص مِنْ قيم الإصلاح التّربوية التي استهدفها بها.

الفرع الثّالث: تمكين المرأة مِنَ التّربية والتّعليـم

عمل الشّيخ محمّد عبدَه على تمكين كلّ شرائح المجتمع مِنَ التّعليم، فقصد الصّغار والكبار الفقراء والأغنياء الرّجال والنّساء في وَسَطٍ كان التّعليم فيه حكرا على الصّغار والأغنياء والذّكور دون الكبار والفقراء والإناث، وقد كانت المرأة في زمنه تعاني التّهميش والإقصاء بسبب العادات والتّقاليد الموروثة، وبسبب الظّروف الاجتماعية التي انحرفتْ عن قيم الإسلام ومبادئه الأصيلة.

ولمّا غلبت العقلية الذّكورية على المجتمعات العربية والإسلامية، سعى الشّيخ محمّد عبدَه إلى تعميم التّعليم على الجنسين بقوله: "نحن نتمنّى تربية بناتنا فإنّ الله تعالى يقول:﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴿٢٢٨﴾﴾[سورة البقرة 228]، ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴿٣٥﴾﴾[سورة الأحزاب]، إلى غير ذلك مِنَ الآيات الكريمة التي تُشرك الرّجل والمرأة في التّكاليف الدّينية والدّنيوية، فكان بذلك تَرْكُ البنات يفترسهنّ الجهل وتستهويهنّ الغباوة مِنَ الجُرْمِ العظيم"[3]، والمجتمع لن يقام له كيان ولا يقرّ له قرار إذا ما حُرِمَ أحد جنسَيْه مِنَ المعرفة العلمية والتّربية الأخلاقية.[4]

---

[1] ينظر: علي المحافظة، الاتّجاهات الفكرية عند العرب في عصر النّهضة(1898- 1914)- الاتجاهات الدّينية والسّياسية والاجتماعية والعلمية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (د ط)، 1987م، ص85.

[2] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، مرجع سابق: ج2، ص691.

[3] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج2، ص471، وينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص169.

[4] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص173.

بالإضافة إلى قيام بعض الجهات داخل مصر وخارجها بمحاربة الإسلام بالشّبهات والأباطيل وكَيْلِ التّهم له، وإشاعة أنّه لا يُعلِّم المرأة، متجاهلين بذلك حديث النّبيّ ﷺ الذي يقول فيه: «**طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[رواه ابن ماجة][1]، وقد علّق الشّيخ محمّد عبدَه على الحديث بقوله: "إنْ صحّ لفظ الحديث أو لم يصح، فالقرآن يؤيّد معناه وعمل الأوّلين مِنَ المسلمين يحقّق صحّة ما حواه، فالرّجل والمرأة سواء في الخطاب التّكليفيّ، وكانا سواء في علم ما يجب عليهما مِنْ فرائض الإسلام وخصال الإيمان، وفي طلب العلم ما يلزم لصلاح معادهما ومعاشهما".[2]

لقد صوّر أعداء الإسلامِ الإسلامَ بأنّه دينٌ يحتقر المرأة ويهضم حقوقها، ويحصر مهامّها في إنجاب الأولاد وتربيتهم وخدمة الزّوج فقط، وأغفلوا أدوارها الحضارية في تربية الأجيال وتعليمهم وتهيئتهم لتحمّل المسؤوليات في الحياة، فأوضح لهم الشّيخ محمّد عبدَه بأنّ الإسلام أعطى المرأة حقّ التّربية والتّعليم مثل الرّجل تماما، وجعلها شريكا له وركنا ركينا في التّربية والإصلاح.

والشّيخ محمّد عبدَه يعدّ مِنَ الأوائل الذين نادَوْا بتعليم المرأة، وردّ فورا على هانوتو الذي افترى على الإسلام بأنّه منع المرأة مِنَ التّعليم[3]، وردّ عليه أيضا في كتابه: الإسلام والنّصرانية[4]، مؤكّدا بأنّ تعليم المرأة يحقّق لها الكمال الخُلقيّ، ويعرّفها بحقوقها وواجباتها، وأنّه بتعليمها ستساهم في التّعريف بالإسلام والدّفاع عن عقيدته ومُثُلِه في المحافل المحلّية والإقليمية والعالمية[5]، وطالب بعدم الاكتفاء بتعليم الفتاة المصرية أمور دينها فقط بل ينبغي تعليمها أمور الدّنيا أيضا فقال: "إنّ ما يجب أنْ تعلمه المرأة مِنْ عقائد دينها وآدابه وعباداته محدود، ولكن ما يطلب منها لنظام بيتها وتربية أولادها ونحو ذلك مِنْ أمور الدّنيا كأحكام المعاملات يختلف باختلاف الزّمان والمكان والأحوال".[6]

ومِنْ شدّة حرصه على تعليم البنات كان يقتنص الفرص المناسبة ويدعو الأميرة نازلي ناظم عندما يحضر مجالسها مِنْ حين لآخر إلى تعليم الأميرات الصّغيرات اللّاتي كنّ يجتمعن في قصرها ويتحدّثن في السّياسة، فيقلب حديثهنّ إلى التّربية وتعليم المرأة، وينوّرهنّ بنصائحه وتوجيهاته المفيدة، حيث دعاهنّ عدّة مرّات في تلك المجالس إلى تكوين جمعيات نسائية تقيم المدارس لتعليم البنات وإلى استقدام مُدرِّسات مِنَ الشّام ليقمن بهذه المهمّة، أفضلُ لهنّ مِنَ الاشتغال بأمور السّياسة واستقبال عِلْيَةِ القوم في الصّالونات والاهتمام بالأبّهة والفخامة على حساب العمل التّربويّ النّافع للمجتمع.[7]

---

[1] أخرجه بن ماجة في باب: فضل العلماء والحثّ على طلب العلم، ج1، ص151، حديث رقم: 224، وأخرجه أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، في شرح السنّة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط2، 1983م، ج1، ص290، وفي الهامش: قال السّيوطي: سئل النّووي عن الحديث فقال: ضعيفٌ سندًا صحيحٌ معنًى.

[2] محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، مصدر سابق: ص66.

[3] ينظر: المصدر نفسه: ص68.

[4] ينظر: حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، مرجع سابق: ج2، ص691.

[5] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص174.

[6] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج4، ص608.

[7] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، ص173و174، وينظر: عبد الحليم عويس، التّربية وإصلاح الأمّة في مقالات محمّد عبدَه، مقال على شبكة الألوكة: https://www.alukah.net، تاريخ الزيارة: 2020/08/27 في: 18:00مساء.

إنّ دعوة الشّيخ محمّد عبدَه إلى تعليم المرأة فيه اقتداء بالرّسول ﷺ الذي جعل لها مكانة مرموقة في عهده، حيث كانت تقوم بواجباتها الأُسْرية، وتشهد الجماعات في المساجد وتحضر حِلَق العلم، وتجاهد في سبيل الله، وتقوم بالأعمال الحرّة وتمارس الوظائف الشّريفة التي ترفع مِنْ قدرها، بخلاف ما كان سائدا في الجاهليّة الأولى ويسود اليوم، فأذلّوها ولم يرحموا ضعفها وأنوثتها وحاجاتها.

الفرع الرّابع: الدّعوة إلى تعلّم العلوم التّقليدية والعصريـة

دعا الشّيخ محمّد عبدَه إلى الجمع بين العلوم التّقليدية والعلوم الحديثة في التّعليم، وعدم الاقتصار على العلوم التّقليدية التي انكب عليّها شيوخ الأزهر وجمدوا عليها وعارضوا تعلّم العلوم الحديثة، كالطّبّ والهندسة وعلم الاجتماع وعلم النّفس والتّرجمة، وتعلّم اللّغات الأجنبية والعلوم العقلية كالمنطق والفلسفة وعلم الكلام لتنمية الفكر وتنويره فقال: "العلوم الجديدة مفيدة وهي مِنْ لوازم حياتنا في هذه الأزمان لابدّ لنا مِنِ اكتسابها وبذل المجهود في طلبها".[1]

أراد الشّيخ محمّد عبدَه بدعوته المسلين إلى تعلّم العلوم العصرية التي برع فيها الغرب إلى مواكبة التّطورات العلمية العالمية، والمساهمة في صنع الأحداث بإيجابية ودعا إلى عدم تهميش أنفسهم، كما سعى إلى عدم الجمود على التّراث وعدم رفض التّطوّر العلميّ الذي حقّقه الغرب الأوروبّيّ الذي لا يتعارض مع الإسلام، وعمل على تجنّب الصّدام مع الغرب وعدم اختلاق معارك وصراعات وهمية قد تستنزف الطّاقات والجهود وتعيق التّنمية والتّعمير والتطوّر الحضاريّ للبشرية.

لذلك سعى للتّوفيق بين الإسلام والغرب الذي برع في العلوم العصرية والتّقنيات الحديثة التي نهض بها، إذ لا سبيل للّحاق بركبه إلّا بالاقتباس منه، كما فعل الغرب المتخلّف مع أسلافنا المسلمين لمّا كانوا متقدّمين، فأخذ عنهم وحقّق التّطوّر الحاليّ، وبأخذنا عنهم ستنهض الأمّة ويتحقّق الإصلاح الشّامل، لذلك انتهج الإصلاح التّربويّ الذي يقوم على قيم الإسلام قبل ظهور الخلاف والانقسام إلى مذاهب، وتمكين المسلمين مِنَ العلم التّقليديّ الأصيل، مع ضرورة تحصيل العلوم العصرية الغربية، لذلك قال: "أوّل واجب علينا هو السّعي بكلّ جدٍّ واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا".[2]

وفي هذا السّياق دعا الشّيخ محمّد عبدَه إلى تعلّم اللّغات الأجنبية كلغة علم لا كلغة خطاب بعد الإلمام باللّغة العربية والتّحكّم فيها، وعدم إحلال اللّغات الأجنبية واللّهجات العامّية محلّها، فقد تعلّم اللّغة الفرنسية بعد سِنّ الأربعين وأتقنها وترجم بها، وجعل الإصلاح التّربويّ مِنْ أُولَى اهتماماته، على أمل تعميم الإصلاح على باقي المجالات الأخرى بمرحليّة وبتطبيق فقه الأولويات في هذا الباب.

الفرع الخامس: الجمع بين الإصلاح التّربويّ والإصلاح السّياسـيّ

نُفي الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ مصر بسبب مشاركته في الثّورة العُرابية التي انهزمتْ أمام الإنجليز سنة 1882م، وبعد ستّ سنوات مِنَ النّفي سَمح له اللورد كرومر والخديوي توفيق الدّخول إلى مصر بوساطة بعض أصدقائه وتلامذته شريطة عدم خوضه في السّياسة، ولمّا دخلها توجّس منه بعض أصدقائه وتجنّبوا التّواصل معه لمواقفه السّابقة الحادّة مِنَ الخديوي وتوتّر العلاقة بينهما.

---

[1] حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، مرجع سابق: ج2، ص692.

[2] زينب محمود الخضيري، التّطور والإصلاح عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص81.

ومع أنّه اعتمد على التّربية في إصلاحاته، إلّا أنّه كان يرمي مِنْ خلالها إلى إصلاح المجالات الأخرى ومنها الإصلاح السّياسيّ، فقد مارس السّياسة سابقا ولمّا أعاقته عن تحقيق الإصلاح التّربويّ تركها وقال: "أمّا أمر الحكومة والمحكوم فتركْتُه للقدر يقدّره، ولِيَدِ الله بعد ذلك تُدَبّره، لأنّني عرفتُ أنّه ثمرة تَجْنيها الأمم مِنْ غراسٍ تغرسه -التّربية- وتقوم على تنميته السّنين الطّوال، فهذا الغِراس هو الذي ينبغي أنْ يُعْنى به الآن"[1]، وقدّم الإصلاح التّربويّ على الإصلاح السّياسيّ، لأنّ إصلاح الدّولة لا يكون إلّا بإصلاح الأمّة، مع ضرورة كلّ منهما وإفضائه إلى الآخر، وأعطى الأولوية للتّربية لأنّها أثبت وأدوم.[2]

والتّجربة الإصلاحية للشّيخ محمّد عبدَه تلخّصتْ مسيرتها التّاريخية مِنَ الإصلاح إلى الثّورة، ثمّ العودة إلى الإصلاح التّربويّ والتّركيز على إصلاح العقل المسلم وتحريره مِنْ قيود التّقليد والجمود بإصلاح أكبر المؤسّسات التّربوية والجامعية العريقة حينها والمتمثّلة في جامع الأزهر الشّريف.[3]

وقد ذكر بعض الدّارسين بأنّ الخديوي كان يَعْلَم بأنّ الشّيخ محمّد عبدَه يريد تربية مجتمعه على الحرّية وتهيئتها لأنْ تكون مصدر الإدارة والحكم في بلادها، وهو ما لا يريده الخديوي، لذلك لمّا لم يستطع منعه مِنْ دخول مصر، حال بينه وبين رغبته في التّدريس وأبعده عنه بتعيينه قاضيا في المحاكم الأهلية بإحدى أرياف مصر بعيدا عن القاهرة، فتألّم لذلك وذكر بأنّه لم يُخلق ليكون قاضيا وإنّما خُلق ليكون معلّما، ثُمَّ سعى إلى ناظر الدّاخلية وطلب منه أنْ يرجو الأمير بأنْ يستبدل القضاء بالتّدريس، فردّ الخديوي على النّاظر بقوله: "إنّني لا أحبّ أنْ يُرَبّيَ التّلاميذ على أفكاره السّياسية".[4]

وعندما عُيّن قاضيا بعد عودته مِنَ المنفى رُقّي إلى رتبة مستشار بمحكمة الاستئناف سنة 1890م مِنْ طرف الخديوي توفيق وأبعده عن التّربية والتّعليم حتّى لا يقحم السّياسة في التّربية، وحتّى لا يلقّن تلاميذه الأفكار التحرّرية مِنَ الاستبداد الدّاخليّ والاستعمار الخارجيّ، لكنّه أسهم عن طريق القضاء في تجسيد الإصلاح التّربويّ، ورَبّى النّاس على قيم الحقّ والعدل والصّلح، والحدّ مِنَ الخصومات والنّزاعات بحكمة ومرونة متناهية تَنِمُّ عن علمه وأفقه الواسع وحسن إبانته عن مهامّ القاضي التي لا تتوقّف عند الفصل بين المتخاصمِين ومعاقبة الجُناة، وإنّما يعمل على تربية النّاس على القيم الإسلامية ونشرها، وحثّ الأمّة على التّآخي والتّعاون على الخير مِنْ جميع المواقع وفي كلّ المجالات، فاعتمد الشّيخ محمّد عبدَه على الإصلاح التّربويّ، وجعله وسيلة إلى بلوغ الإصلاح السّياسيّ للبلاد، وكان يؤسّس له انطلاقا مِنَ التّربية لكونها السّبيل الآمن لتحقيق الإصلاح في باقي المجالات الأخرى.

وحاول أنْ يكون تفكيره شاملا وشغلت طروحاته الفكرية وقته واستمرتْ إلى ما بعد وفاته نظرا لعمقها وامتدادها إلى مختلف ميادين السّياسة والاجتماع والاقتصاد، حيث ربط بين التّربية وبين الميادين الأخرى، ولم يفصل بينها لكونها عبارة عن حلقات متكاملة، فالسّياسة تخدم التّربية، والتّربية جعلها إحدى أدواته في التّغيير السّياسيّ، وهكذا عبر جدليّة العمل السّياسيّ والفعل التّربويّ.[5]

---

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص12.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ج1، ص974.

[3] ينظر: أحمد محمود عيساوي، الحركات التّجديدية والإصلاحية الحديثة والمعاصرة في العالم الإسلامي، مرجع سابق: ص240.

[4] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص258.

[5] ينظر: منتهى عبد جاسم، جدلية العلاقة بين التّربية والسّياسة عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص2.

ومع هذا شدّد على ضرورة إعداد الجماهير بالتّربية والتّعليم وتنويرها فكريّا وإعطائها الحرّية المطلوبة لأهمّيتها في تحقيق الأهداف السّياسية التي ينشدها المجتمع، إذْ كان يرى فيها أفضل وسيلة للوصول بالمصريّين بهدوء وتدرّج إلى الهدف المنشود، لأنّه مَنْ يريد الخير للبلاد فلا يسعى إلّا في إتقان التّربية، وبعد ذلك يتحقّق له جميع ما يطلبه، ودعا صراحة إلى ترك الحكم والسّلطة السّياسية إلى النّخبة المتنوّرة، أو الصّفوة المتعلّمة مِنَ الخواصّ إلى أنْ يتكوَّن رأيٌ عامٌّ داخل المجتمع مِنْ أبناء الطّبقات الأخرى عندما ينتشر بين صفوفهم التّعليم الصّحيح والتّربية النّافعة والرّأي الذي يصعب مواجهته مِنْ قِبَلِ الآخرين مِنَ الذين لا يمتلكون تربية رصينة ولا تعليما متميّزا.[1]

فالشّيخ محمّد عبدَه يرى أولوية الاهتمام بالتّربية لإصلاح المجتمع والارتقاء به في جميع المجالات، وأنّ التّربية وسيلة هادئة ومرنة وسلسة لتحقيق الأهداف السّياسية للمجتمع على المدى البعيد.

الفرع السّادس: تمكين أبناء الفقراء مِنَ التّربية والتّعليـم

عمل الشّيخ محمّد عبدَه على تمكين شريحة عريضة مِنْ أبناء الفقراء مِنَ التّعليم المجّانيّ، وجعلهم على مسافة واحدة مع الأغنياء الذين أرادوا الاستئثار به للعمل في الوظائف الحكومية.

وشارك في تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية، وانتُخب عضوا في مجلس إدارتها، وتولّى رئاستها، وبنى عن طريقها الكثير مِنَ المدارس، ووضع لها برامج لتربية أبناء الفقراء واليتامى للحفاظ على عقيدتهم، وتنوير عقولهم بالعلم، وحمايتهم مِنَ الجهل وتهذيب أخلاقهم، وتعليمهم الحِرَف لمساعدة أوليائهم على كسب العيش، ومعاونتهم على متطلّبات الحياة الشّاقّة وحاجاتها المتزايدة.[2]

وكان يهدف منها أيضا إلى مقاومة سياسة الاحتلال البريطاني الرّامية إلى التّضييق على التّعليم، وفرض المصروفات الباهظة، وحرمان أبناء المصريّين الفقراء منه، بتسخيرها في بناء المدارس لتمكين أبناء الفقراء مِنَ التّعليم المجّانيّ، وإكسابهم الحِرَف التي تعينهم على التّغلّب على صعوبات الحياة.

فبعد حصول التّلاميذ على الشّهادة النّهائية كانت الجمعية تُعِينهم على العمل في أحد المعامل المصرية لممارسة حِرْفَةٍ صناعية يرغبون فيها، وتمنحهم في مقابلها مساعدة نقدية يومية لمدّة سنة، وجعل الدّراسة بمدارسها خمس سنوات تحضيرية لا تقلّ أعمار تلاميذها عن سبع سنين ولا تزيد على عشر سنوات، وكان يرمي إلى تكوين التّجّار والزّرّاع والصّنّاع، وتوجيههم بعد نيلهم للشّهادة النّهائية للعمل بالمعامل المصرية ليتكوّنوا فيها مقابل أجرة يومية لمدّة سنة حتّى يكونوا مهيّئين لشغل أيّ عمل كان في المستقبل، ويستطيعون تحمّل أعباء الحياة ويساعدوا أولياءهم ولا يبقوا عالة على غيرهم.[3]

وهكذا سخّر الشّيخ محمّد عبدَه الجمعية الخيرية الإسلامية لخدمة التّربية، وإصلاح التّعليم الذي عجز عنْ أداء مهامّه الرّسالية وتحقيق الأهداف المرجوّة منه، فسطّر برامج خادمة له، ووضع مقاصد تربوية تجسّد الإصلاح التّربويّ الذي يعين على الإصلاح الاجتماعيّ ويحسّن المستوى الاقتصاديّ

---

[1] ينظر: منتهى عبد جاسم، جدلية العلاقة بين التّربية والسّياسة عند محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص133و134.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص173، وينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص175.

[3] ينظر: المرجع نفسه: ص176و178.

للأمّة، خصوصا وأنّ الحياة المعيشية جعلتْ أصحاب الحِرَف والأعمال الحرّة و التّجّار والصّناعيّين أكبر دخلا وأفضل حالا ماديّا مِنَ المعلّمين والمثقّفين والموظّفين، واجتهد في جعل مناهج مدارس الجمعية تساهم في تربية وتعليم التّلاميذ وتكوينهم تكوينا شاملا كاملا ومتكاملا عقديّا وأخلاقيّا وعلميّا ومهنيّا، حتّى يواجهوا متطلّبات الحياة وتقلّباتها، وحتّى يكونوا مواطنين صالحين يشاركون في بناء بلدهم والرّقيّ به وجعله في مصافّ الدّول المتقدّمة والمتطوّرة المهابة الجانب بين شعوب وأمم العالم.

لذلك برمج الشّيخ محمّد عبدَه تحفيظ القرآن الكريم في مدارس الجمعية، وتدريس التّفسير والتّجويد، وسيرة النّبيّ ﷺ وسير أصحابه ﷺ، وتدريس اللّغة العربية وقواعدها واللّغة الأجنبية، والحساب والتّاريخ والجغرافيا والخطّ والرّسم والنّشاطات اليدوية، والثّقافة الصّحّية، لإعداد تلامذتها لمجابهة الحياة وتقلّباتها لذلك كانت برامجها شاملة متكاملة، أمّا المدارس الابتدائية الحكومية فكانت تُعِدُّهم للوظيفة في دواوين الحكومة، وكانت تدرّسهم الدّين والأخلاق بمعدل حصّة واحدة أسبوعيّا، بالإضافة إلى أنّ محتوى مناهج الموادّ الأخرى وُضعتْ بطريقة تخدم مصالح الاحتلال، فمعظم الموادّ تُدرَّس باللّغة الإنجليزية أمّام حصص اللّغة العربية القليلة جدّا، وموضوعات التّاريخ والجغرافيا كانت تدور معظمها حول أوروبّا والعالم الخارجيّ متجاهلة تدريس تاريخ مصر والعرب والمسلمين، كما حاولتْ مدارس الجمعية إزالة الفجوة بين التّعليم في الأزهر ومعاهده والتّعليم في مدارس نظارة المعارف، حيث جمعتْ مناهجها بين العلوم الدّينية والعلوم العصرية، وعمل على أنْ يشمل التّعليم جميع فئات المجتمع المصريّ، فازدادتْ مدارسها وتوسّعتْ لتدرِّس البنات أيضا، وفاقتْ نسبة النّجاح فيها المدارس الحكومية، وأخذ الأغنياء يسجّلون أبناءهم في مدارسها، الأمر الذي دعا وزارة المعارف إلى مراجعة مناهج التّعليم في مدارسها، وقرّرتْ ترسيم تعميم التّعليم باللّغة العربية في المدارس الحكومية.[1]

الفرع السّابع: السّعي لإنشاء الجامعة الأهلية المصريـة

برزت الدّعوة إلى إنشاء الجامعات في مصر في بداية القرن العشرين الميلاديّ مِنْ خلال المقالات الصّحفيّة في الجرائد، فكان مصطفى كامل أوّل الدّاعين إلى ذلك في ثلاث مقالات بأنْ تكون على شاكلة المدارس الكبرى في الجامعات الأوروبّية، وقد رصد لتنفيذ ذلك مبلغا ماليّا محترما، لكنّ خلافه مع الخديوي عباس الثّاني وسعيه لأنْ يجعل المشروع وطنيّا بعيدا عن يد الحكومة، وانشغاله بجلاء الإنجليز عن مصر ومعارضة اللورد كرومر له حَالَ دون تنفيذه، كما دعا الشّيخ محمّد عبدَه إلى إنشاء جامعة مصرية حديثة إلى جانب الأزهر بعدما يئس مِنْ إصلاحه، وسعى لإنشاء جامعة مصرية مهمّتها التّعليم وفق المناهج الحديثة للمشاركة في تجديد الحضارة العربية القديمة بالاقتباس مِنَ العلوم والفنون والآداب الغربية [2] فقال: "فنرجو أنْ نبلغ مِنْ مجاراة أمثال هؤلاء الأحياء -يقصد الأوروبّيّين- أنْ ترتقي مدرستنا هذه ويكون فيها قسم صناعي، وأنْ يكون لنا في القاهرة مدرسة كلّية، فإنّ القطر المصريّ كلّه لم يبلغ مِنَ التّقدّم في العلم أنْ كانت فيه مدرسة كلّية تُعلَّم فيها العلوم العالية".[3]

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص179-181.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص183.

[3] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص180.

واستطاع أنْ يقنع أحمد باشا المنشاوي -أحد أثرياء مصر- بالتّبرع لإنشاء مشروع الجامعة على قطعة أرض يمتلكها، فقبل بعرضه شريطة أنْ يبنيها خارج مدينة القاهرة، وفي ديسمبر سنة 1905م كتب إلى مجلس النُّظَّار يطلب مِنَ الحكومة أنْ تبيعه عشرة آلاف فدّان ليجعلها وقفا لينشئ عليها مدرسة كلّية، لكن وفاة المنشاوي والشّيخ محمّد عبدَه حالتْ دون تنفيذه، واستبدلتْ الفكرة بإنشاء الكتاتيب التي شجّعها اللورد كرومر ليصرف النّاس عَنْ مشروع إنشاء الجامعة[1]، ورغم عرقلة كرومر إنشاء جامعةٍ للّحاقِ بركب الدّول الأوروبّية المتطوّرة؛ لكنّ الله قَدَّرَ لفكرة الشّيخ محمّد عبدَه في بناء جامعة أهلية مصرية أنْ تتجسّد في مصر بعد وفاته بعدما سعى في حياته مع بعض الأغنياء لإنشائها.[2]

فكان منهج الشّيخ الإصلاحيّ شاملا ومتكاملا بجمعه بين التّربية المعنويّة والتّربية المادّية، وبين تربية الفرد وتربية الجماعة، وتمكين المرأة مِنَ التّربية والتّعليم إلى جانب الرّجل، ودعوته إلى تعلّم العلوم العصرية مع العلوم التّقليدية، ومزاولته للإصلاح السّياسيّ عن طريق الإصلاح التّربويّ، وسعيه إلى الارتقاء بالتّعليم بإنشاء جامعات أهلية بعد المرور بأطوار التّعليم الموجودة، كما سخّر الجمعيات الخيرية في تربية وتعليم أبناء الفقراء والمعوزين، وإتاحة فرص التّعليم لجميع شرائح المجتمع الأخرى.

المطلب الثّالث: الواقعية والموضوعية

لم تكن إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربويّة مجرّد خواطر فكرية عابرة، أو كلام نظريّ، أو سلوك إصلاحيّ مثاليّ لا صلة له بالواقع يتعذّر تجسيده، أو إصلاحات بعيدة عن اهتمامات جميع النّاس بالتّوجّه إلى بفئة دون أخرى، وإنّما كانت إصلاحات واقعية وموضوعية متفاعلة مع أحداث زمانه الدّاخلية والخارجية التي أحسنَ التّعامل معها دون أنْ يستسلم للغرب المتسلّط ويذوب فيه، أو يتنازل عن مبادئ وقيم دينه التي آمن بها وتشبّعها في صغره ونمّاها في رشده وحاول تجسيدها بإصلاحاته، وفي هذا المطلب تمّ رصد جملة مِنَ الأمارات المتعلّقة بهذه الخاصّية ضمن الفروع الآتية:

الفرع الأوّل: توافق إصلاحاته التّربوية مع علم التّربية الحديث

عرض الشّيخ محمّد عبدَه في مجال الإصلاح التّربويّ أفكارا وآراء عملية متناغمة مع مستجدّات عصره بل وسابقة لزمانه، فقد جاءت متوافقة مع الكثير مِنْ جوانب علم التّربية الحديث، مِنْ ذلك أنّ الشّيخ محمّد عبدَه كانت له مواقف واقعية أبداها بشجاعة نادرة مِنْ منطلق المفكِّر والعالِم بحقائق الأمور وخلفياتها وملابساتها وأبعادها ومقاصدها، وآخذا بعين الاعتبار أنّه في قلب معركة الإصلاح التي علّق آمالا كبيرة على نجاحها وتجسيدها في الواقع، حيث لم يغفل عن التّربية الجسمية التي عمل على إرسائها والتي تعدّ اليوم مِنْ لوازم التّربية الحديثة، فسبق بذلك عصره بقرن مِنَ الزّمن بالنّصّ عليها في أدبياته، واعتنائه بها حتّى يمكنه تجسيدها على أكمل وجه في المؤسّسات التّربوية المصرية.

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص946و947.

[2] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص221.

لقد أدرك الشّيخ محمّد عبدَه أهمّية التّربية الجسمية، وأرشد إليها لتحقيق السّلامة الصّحّية للتّلاميذ ووقايتهم مِنَ الأمراض، وبناء أجسامهم وتقويتها، متماشيا بذلك مع التّربية المعاصرة لبناء الأجيال بدنيّا وفكريّا، ولتهيئتهم وتوظيفهم في حالتَيْ السِّلم والحرب، ودعا إليها في وقت كانت التّربية مقصورة على حشو عقول التّلاميذ بالعلوم والمعارف وتكليفهم بحفظها دون إدراج التّربية الجسمية في الدّراسة، هذه التّربية التي كان علماء عصره ينظرون إليها على أنّها لهو وتضييع للوقت، فأكّد بأنّها تُكسِب أجسامهم قوّةً ونفوسهم راحةً وصفاءً وطمأنينةً، وعاب على أقرانه العلماء الذين احتقروها وانتقدهم لانشغالهم بالعلوم الدّينية وابتعادهم عن ممارسة الرّياضة البدنية، واعتبارهم الفروسية والرّماية والسّباحة مِنَ المعايب التي تُزْرِي بهم وتحطّ مِنْ قدرهم، رغم أنّهم يقرؤون في كتبهم ويعلمون أنّ الشّريعة الإسلامية أباحت المراهنة في السّباق والرّماية واعتنت بهما ورغّبت الأمّة فيهما.[1]

وفي تراث المسلمين إشارات إلى ممارسة الرّسول ﷺ وأصحابه ﷺ مِنْ بعده للرّياضة البدنيّة عرضا مِنْ خلال مزاولتهم لشؤون حياتهم المعيشية وأعمالهم اليومية في سِلْمهم وفي حربهم، وتوظيفها لخدمة أنفسهم ودينهم ودنياهم دون أنْ يستهجنها الإسلام أو يمنعهم منها ما دامت لا تعطّل أحكام دينهم، ولا تَضُرُّ بهم، ولا تفسد العلائق بينهم، لتبقى في حكم المباح الذي لم ينه عنه الشّارع الحكيم.

الفرع الثّاني: إشادته بتسامح الإنجليز مع المسلميـن

رغم استعمار الإنجليز لمصر وما خلّفه احتلاله لها مِنْ آثار سلبية وتركات ثقيلة ودمار وخراب كبيرَيْن، إلّا أنّ ذلك لم يمنع الشّيخ محمّد عبدَه -المبغض للاحتلال- أنْ يكون موضوعيّا ويقول كلمة الحق ويجهر بها ويكتبها حتّى ولو لم تُرضِ بني جلدته ممّن ناصبوه العداء، فقد اتّخذ بعض الكُتّاب المسلمين مِنْ بعض مواقفه تجاه الاستعمار البريطاني ذريعة للطّعن فيه واتّهامه بموالاته والعمالة له، فذَكر بأنّ الأمّة الإنجليزية كانت تحترم دين رعاياها المسلمين وعقائدهم وعوائدهم، وأنّها دَرَسَتْها ونقلتها إلى بلدها دون تعصّب، فأشاد بذلك وبالحرّية التي كان المصريّون يتمتّعون بها بينهم، فاحترام الحرّيات والحقوق الموجودة عند البريطانيّين لم تَرْقَ إليها أمّة غربيّة أخرى في العالم، وهذا ما شهد به المسلمون المغتربون في أوروبّا الذين كانوا يمارسون شعائرهم ويؤدّون فرائضهم بحرّية، لذلك أشاد بتسامحهم معهم وأنّهم أخذوه مِنَ الإسلام، وأنّ النّظام الذي يسوسون به رعاياهم قريب جدا مِنْ نظام المسلمين في أداء واجباتهم والخضوع للقوانين وأداء الضّرائب، فَحَضِيُوا في مقابل ذلك بالعدل بين مواطنيهم ورعاياهم دون تفرقة بين أهل ملّة وأخرى، بل وذهب إلى تشبيه تسامح الإنجليز بتسامح المسلمين مع غيرهم مِنْ أصحاب الدّيانات الأخرى في الأزمان الغابرة لمّا كان المسلمون في أوج عزّتهم وقوّتهم، فمنحوا الرّعايا غير المسلمين حقوقهم وعاملوهم بالعدل والحُسنى.

ولعلّ مواقف الشّيخ محمّد عبدَه وكتاباته في الإشادة بالإنجليز، جعلتْ بعض العلماء والمفكّرين المسلمين ينتقدونه ويتّهمونه بأنّه كان مُبالِغا في مدحهم ومفتونا بهم، ويغضّ الطّرف عن فسادهم، لكنّه ذكر تسامحهم واحترامهم للإسلام والمسلمين بالنّظر إلى الإيجابيات التي رآها فيهم، بحيث لم

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص55.

يمنعه استعمارهم لمصر مِنَ الإدلاء بشهادته الموضوعية والواقعية عنهم حتّى ولو كانت لصالحهم، لكونها حقيقة لا يجوز جحودها مستحضرا في ذلك قول الله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ ٨﴾[سورة المائدة].

وفي هذا قال الشّيخ محمّد عبدَه: "نعم نحن لا ننكر أنّ بين الأمم الأوروبّية أمّة تعرف كيف تحكم مَنْ ليس على دينها، وتعرف كيف تحترم عقائد مَنْ تسوسهم وعوائدهم وهي الأمّة الإنجليزية، فهي وحدها الأمّة النّصرانية التي تُقَدِّرُ التّسامح حقّ قدره، ولا يصعب علينا أنْ نقول إنّ منشأ ذلك أنّ أمراءها في الحروب الصّليبية وقُوَّاد جيشها كانوا مِنْ أشدّ الصّليبيّين علاقة بسلطان المسلمين وأمراء جيشه، وقد امتاز الإنجليز في ذلك الزّمن المظلم بدرس عقائد المسلمين وعاداتهم، فحملوا مِنْ ذلك شيئا كثيرا إلى بلادهم، ولم تحجبهم غشاوة التّعصّب عن إبصار ضوء الحقّ، وظَهَرَ أثر ذلك في كثير مِنْ كُتَّابِهم مثل ولتر سكوت وشيل وغيرهما قبل أنْ يظهر في أقلام الكاتبين مِنْ غير الإنجليز بأزمان طويلة، فلنا أنْ نقول ولا نخشى لائما، إنّ هذه الخصلة الشّريفة -خصلة إطلاق الحرّية لأهل الدّين يتمتّعون بأداء فرائضه مع احترام ما يحترمون- هي مِنْ أجَلِّ الخصال التي ورثها غير المسلمين عن المسلمين، وهل أَجِدُ مَنْ يأبى على القول بأنّ الإسلام السّليم مِنَ البدع هو أستاذ الإنجليز وعنه أخذوا هذه الخلّة؟ ألا ترى أنّ نظامهم في ذلك يقرب مِنْ نظام المسلمين يوم كانوا مسلمين يكتفون مِنَ النّاس بالخضوع للقوانين، وأداء ما يفرض عليهم مِنَ الضّرائب، ثمّ يحفظون نظام العدل بينهم بقدر ما تسمح به السّياسة، لا يفرّقون بين دين ودين، وهكذا كان حال المسلمين وإنْ كان ذلك على قاعدة أَبرَّ وأرحمْ".[1]

وفي سياق مقارنته بين الاستعمارَيْنِ البريطاني والفرنسي؛ ذكر بأنّ الإنجليز يراعون عقائد مَنْ يستولون عليهم ويراعون استعدادهم العلميّ والاجتماعيّ ما لا يراعيه الفرنسيون، وأنّه يمكن إقناعهم والاستفادة منهم ما لا يمكن مثله مع الفرنسيّين، لأنّ أخلاقهم أعلى، ومواتاتهم للطّبيعة والعقل أقرب، وخلقهم التّجاريّ يؤثّر في سيرهم السّياسيّ.[2]

لهذا ينبغي أنْ يُقرأ كلام الشّيخ محمّد عبدَه في سياقه عندما تحدّث عن الإنجليز، ولا يُتَسَرَّع في اتّهامه بالعمالة لهم وتعاطفه معهم، فاستعمارهم للمسلمين ونهبهم لخيراتهم ومحاولاتهم لطمس هويّتهم لا يمنع مِنَ الإقرار بمواقفهم التي تَسَامَحوا فيها مع الإسلام والمسلمين الذين كانوا تحت سلطتهم، وهذا لا يمنع مِنْ إيراد شهادة حقٍّ فيهم، وهو الذي يعتبر رفض الاستعمار ومقاومته مِنْ أوكد الواجبات الشّرعية والفروض العينية على المسلمين لقوله تعالى:﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [سورة الحج]، خصوصا وأنّه معروف بفقهه المتين بالإسلام، ووعيه الكامل بالواقع المصريّ، واطّلاعه على ملابسات الأحداث المحيطة به ومستجدّاتها ومواكبته لها، واجتهاده في تكيّفه معها.

لقد نافح الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ أجل تجسيد إصلاحاته التّربوية في غضون ما يقارب مِنْ ثلاثة عقود، وأحسن عمليّا في الجمع بين الفكر والعمل، ومشاركة النّاس في حياتهم، فتناغمت أفكاره مع

---

[1] محمّد عبدَه، الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية، مصدر سابق: ص196- 198.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص921.

واقعه الاجتماعي بعيدا عن المثالية مُعبّرا عن آمال الشّعب وتطلّعاته، ساعيا لرسم مستقبل زاهر له، جاعلا مِنَ الدّين منطلقه ومِنَ العِلم شعاره ومِنَ العمل بهما سلوكه، لأجل أنْ يُبوّئ مصر والأمّة الإسلامية مكانة مرموقة بين الأمم ويعيد لها مجدها الضّائع ويزيل عنها تراكمات الزّمان الواقعة عليها.

الفرع الثّالث: جمعه بين الإصلاح النّظريّ والإصلاح التّطبيقيّ

العلم والعمل حقيقتان متلازمتان، فقد مجَّد الله تعالى العلم وجعله أسبق مِنَ العمل فهو أساسه ومنطلقه، لقوله تعالى:﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ١٩﴾[سورة محمّد]، والتّربية ترمي إلى العلم والعمل والكسب، وهو ما أشار إليه الشّيخ محمّد عبدَه في أدبيّاته وتَرْجَمَهُ عمليّا إلى حركة دؤوبة متواصلة لا تعرف الكلل والملل حتّى يجسّد إصلاحاته التّربوية، وقد عمل جاهدا على إنفاذها في المؤسّسات التّربوية ومِنْ خلال كتاباته ومقالات الصّحفيّة التي نشرها في جريدتَيْ الوقائع المصرية والأهرام وغيرهما مِنَ الصُّحف المصريّة والعربيّة، واستمرّ على ذلك في منفاه وحتّى بعد رجوعه إلى مصر رغم تحايل الخديوي توفيق عليه ومنعه مِنْ ممارسة التّعليم بتعيينه قاضيا في إحدى قرى مصر النّائية كي لا يؤثّر على التّلاميذ ويغرس فيهم معاني التّحرّر ويبثّ بينهم الوعي والإصلاح، ومع ذلك استطاع أنْ ينشر آراءه ويطبّق فكره التّربويّ ويكرّسه وهو قاض ومفتي ورئيس مجلس إدارة الأزهر، ومِنْ خلال تفسيره للقرآن الكريم لطلبة الأزهر وروّاده ومريديه المؤمنين بأفكاره الإصلاحية والمعجبين بتفسيره، واستمرّ يستثمر كراسي دروسه في ذلك رغم المعوّقات التي كان يلقاها في طريقه غير آبه بها حتّى توفّاه الله تعالى.

لقد كان الشّيخ محمّد عبدَه يربّي طلبته على مبادئ الإسلام التي تحضّ على العلم والعمل، ويُعِدُّهم للحياة العملية ويعوّدهم على الأخذ بأسباب الكسب، والالتزام بآداب الشّريعة الإسلامية في جميع شؤونهم، والاستعانة بها على أعباء الحياة ومتطلّباتها للزّيادة في الإنتاج وتحقيق رفاه الأمّة.[1]

وبذلك تميّزت إصلاحاته بتربية المصريّين على التّحصيل العلميّ والمعرفيّ، وعلى تحويل معارفهم النّظرية إلى أعمال تطبيقية، وأنْ يجمعوا بين العلم والعمل والنّظرية والتّطبيق منذ الصّغر وفي الفصول الأولى مِنَ الدّراسة، وهو ما جسّده في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ليعوّد تلامذتها على العمل وعلى تعلّم الحِرَف لمساعدة أهلهم على الكسب دون أنْ يغفل عن تهذيب نفوسهم وتربيتها على الأخلاق الفاضلة، وقد قال في إحدى خطبه أثناء الاحتفال بامتحانات تلامذة مدرسة الجمعية سنة 1901م: "إنّ غرض الجمعية مِنْ تربية الأطفال الفقراء هو تهذيب نفوسهم ومساعدة كلّ واحد منهم على إحياء صناعة والده وترقيتها، إنّ الجمعية تساعد بالمال مَنْ يتخرّج مِنْ مدارسها ويشتغل بصناعة والده مدّة سنة، لا نُعِدُّ التّلامذة للوظائف والشّهادات، وإنّما نعدّهم للعمل بالحِرَفِ والصّنائع".[2]

لقد كان الشّيخ محمّد عبدَه حريصا على أنْ يتمثّل تلامذته وطلبته وكلّ المقتنعين بأفكاره التّربوية الإسلامية، وأنْ يكونوا عمليّين في ترجمة كلّ ما يتلقّونه مِنْ علوم ومعارف إلى أعمال وسلوكات، فيجمعون بذلك بين النّظريّة والتّطبيق ولا يفصلون بينهما، امتثالا لله الذي أنكر ذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢﴾[سورة الصّفّ]، واقتداء بالنّبيّ ﷺ الذي ترجم إيمانه إلى

---

(1) ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص58.

(2) محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص174و177.

عمل فكان خلقه القرآن، فعن أمّ المؤمنين عائشة ﵂ أنّها قالت وهي تصف أخلاقه ﷺ: «**فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ القُرْآنُ**»[رواه مسلم][1]، كما دعت الكثير مِنْ نصوص القرآن القطعية الثّبوت والدّلالة إلى الجمع بين الإيمان والعمل، كقول الله تعالى:﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴿٢٥﴾﴾[سورة البقرة]، وقوله:﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴿٥٥﴾﴾[سورة النّور].

المطلب الرّابع: الوسطية والمرونة والبساطة

ختم الله الشّرائع السّماوية برسالة الإسلام فقال تعالى:﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴿١٩﴾﴾[سورة آل عمران]، وقال أيضا:﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[سورة آل عمران]، وتكفّل بحفظ كتابه في قوله:﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾[سورة الحجر]، والإسلام أكثر الرّسالات أتْباعا وانتشارا في العالم لحديث أبي هريرة ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ قال: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتَ مَا مِثْلُهُ أُومِنَ، أَوْ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ**»[رواه البخاري][2]، فانتشر حتّى بلغ الآفاق وأسلم الكثير مِنَ النّاس واهتدَوْا إليه رغم محاربة الكفّار له ومحاولاتهم الحثيثة لتشويهه والصدّ عنه.

ومِنَ الخصائص التي بثّها الله في الإسلام حتّى حقّق ذلك الانتشار السّريع والتّواجد الواسع في العالم؛ تميّزه بالوسطيّة والمرونة والسّماحة التي انفرد بها عن كلّ الشّرائع السّماوية والوضعية، لذلك عمل الشّيخ محمّد عبدَه على إضفائها على إصلاحاته التّربويّة، واجتهد في تمثّلها في حياته الدّعوية والوظيفية وتجسيدها ميدانيّا، ووضع لها خارطة طريق لتنفيذها بعدما أعطاها الأولوية باعتبارها أَأْمَنُ طريق وأنجعُه لتحقيق الإصلاح فيه ثُمَّ في المجالات الأخرى، وليتمكّن مِنْ تربية إنسان صالح ينشر الوعي ويحقّق النّهضة ويجسّد الإصلاح، ويزيح الاستبداد المستشري والنّفوذ الأجنبي المتنامي والاستعمار البريطاني المستحكِم، وعليه جاء هذا المطلب لإبراز هذه الخصائص في إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه:

الفرع الأوّل: الوسطيــة

تعدّ الوسطية إحدى خصائص الإسلام الهامّة التي تمثّلها رسول الله ﷺ في دعوته منذ بعثته إلى أنِ التحق بالرّفيق الأعلى، والتي اجتهد في استحضارها الصّحابة والتّابعون وتابعوهم ﷺ والأئمّة مِنْ بعدهم والدّعاة والمصلحون والمجدّدون خلال مسيرتهم الدّعوية والإصلاحية.

والوسطية خاصّية جامعة بين عناصر الحقّ والعدل مِنَ الأقطاب المتناقضة التي تُمثّل غلوَّ الإفراط والتّفريط، أكّد عليها الشّيخ محمّد عبدَه في دعوته الإصلاحية بالنّسبة للدّعوات الأخرى التي رفعتْ شعارات النّهضة والتّغيير في التّاريخ لكونها صبغة الله التي أرادها الله أنْ تكون صبغة للأمّة

---

[1] أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، ج1، ص512، حديث رقم: 746.

[2] أخرجه البخاري في كتاب: الاعتصام، باب: قول النّبيّ ﷺ بعثت بجوامع الكلم، ج9، ص92، حديث رقم: 7274.

الإسلامية ومِنْ أخصّ خصوصياتها فقال الله تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ١٤٣﴾[سورة البقرة]، وحقيقتها أنّها: الحقّ بين باطلَيْنِ، والعدل بين ظُلْمَيْنِ، والاعتدال بين طرفَيْن، والموقف العادل الجامع لأطراف الحقّ والعدل، والاعتدال بين إفراط وتفريط.[1]

يرى الشّيخ محمّد عبدَه بأنّ الوسطية هي العدل والخِيار، والزّيادة عن المطلوب إفراط وغلوّ، والنّقص فيه تفريط وتقصير، والإفراط والتّفريط كلاهما شرّ مذموم، فجاءت وسطية الإسلام ثورة على الشّرائع السّابقة، فاليهود والمشركون غلبتْ عليهم المادّية المحضة، والنّصارى والصّابئون غلبتْ عليهم الرّوحانية وترك الدّنيا وملذّاتها الجسمانية، والأمّة الإسلامية جمع الله لها في دينها بين حَقَّيْ الرّوح والجسد، فكانت الوسطية الإسلامية أساس صياغة وتربية الإنسان والسّبيل لإصلاح المجتمعات، لهذا راعى الإسلام العناية بسلامة الرّوح والبدن معا، وأباح للإنسان التّجمّل بأنواع الزّينة والتّمتع بالمباحات شريطة الاعتدال والتزام حدود الشّريعة فقال تعالى:﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾[سورة الأعراف]، وقوله:﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ٧٧﴾[سورة القصص]، ولم يبخس الإسلام الحواسَّ حقّها وهيّأ الرّوح لبلوغ كمالها، ولم يعتبر الإنسان جسمانيّا صِرفا ولا ملكوتيّا بحتا ليجعله مِنْ أهل الدّنيا و الآخرة، ومنه انطلق الشّيخ محمّد عبدَه في إصلاحه التّربويْ مِنْ وسطية الإسلام الجامعة لإصلاح النّفس للتّميّز عن المفْرِطين في طلب علوم الدّين والذين أفرطوا في طلب النّموذج الغربيّ الوافد مع الاستعمار الغربيّ، وسعى إلى التّموقع بين الطّرفَيْن حتّى يكون إصلاحه التّربويّ متوازنا متميّزا عن المناهج التّربويّة الأخرى، فلم يكن منهجا تربويّا مادّيّا دنيويا بحتا، ولا دينيّا أخرويا فقط.[2]

وعليه كانت وسطية الإسلام حاضرة في إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربويّة وفي أفكاره وخطاباته ودروسه التي قدّمها في مجالسه العلمية إلى طلبته ومريديه في مصر وفي بيروت التي كانت تعجّ بمختلف الملل والنِّحل والطّوائف والأفكار والإيديولوجيّات.

ففي مساجد بيروت ارتجل دروسا في التّفسير وأقبل إليه النّاس مِنْ مختلف المذاهب والملل، وذهبوا إليه في بيته، وجلس إليه السّنّيّ والشّيعيّ والدّرزيّ والنّصرانيّ واليهوديّ، فانتهز الفرصة لنشر آرائه الدّينية بلطف وسعة صدر، وقال ما يعتقده في الدّين والعلم والعادات والتّقاليد والأمور الاجتماعية، واكتسب بذلك تقدير الجميع، وأدهش أهل الفضل بعلمه وأدبه وبلاغته.[3]

كما تجلّت وسطيّته في مصر في موقفه بين الأزهريّين الجامدين على القديم المعارضين لأيّ إصلاح أو تجديد، وبين المتحرّرين الذين انبهروا بالحضارة الأوروبّية المادّية ودَعَوْا إليها وساروا في فلكها إلى حدّ الذّوبان فيها، فأخذ الشّيخ محمّد عبدَه موقع الوسط بين الاتّجاهَيْن وكان همزة وصل بينهما، لذلك

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص35و36.

[2] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص116و117.

[3] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص62.

اعتبره المحافظون عَلَما يهتدون بعلمه وعَدُّوه نصيرا للإسلام مدافعا عنه مع تحفّظهم على نزعته التّجديدية، واعتبره المجدّدون زعيمهم في التّجديد.[1]

فالاتّجاه الذي ركن إلى الجمود على القديم وعدم التّجديد مَثَّلَه بعض شيوخ الأزهر الجامدين، والاتّجاه الآخر التّغريبيُّ مَثَّلَه المفتونون بالحضارة الأوروبّية الذين ضربوا بِقِيم الإسلام ومبادئه عرض الحائط وأرجعوا تخلّف المسلمين وضعفهم إلى الإسلام واتّهموه بالرّجعية وعدم الصّلاحية وعجزه عن مواكبة العالم المتّطور، في مُنَاخٍ استمرأ فيه المسلمون التّخلّف والضّعف حتّى كادت تُطمس فيه حقائق الدّين النّقية، فانبرى الشّيخ محمّد عبدَه بين هذَيْن الاتّجاهَيْن مبرزا وسطية الإسلام.

ودعا إلى الثّبات على أصول الإسلام التي لا مجال للاجتهاد فيها كالعقيدة والأخلاق والعبادات لأجل تجسيد الاتّجاه الوسطيّ الإسلاميّ، فالأمور الاعتقادية والتّعبّدية يجب إرجاعها إلى الكتاب والسنّة بلا زيادة ولا نقصان[2]، وأمّا الأمور الإنسانية المتغيّرة فقد دعا فيها إلى الاجتهاد خصوصا ما تعلّق بفقه المعاملات الذي يهدف إلى تنظيم حياة المسلمين في علاقاتهم الاقتصادية والتّجارية وفق الأصول والضّوابط التي وضعها العلماء المسلمون الموثوق في دينهم وعلمهم.

فارتكز إصلاحه التّربوي على ثلاثة جوانب مهمّة متوازنة، واستفاد مِنْ كلّ ما هو صالح مِنَ التّراث الثّقافيّ، ومِنْ كلّ ما هو نافع في الحضارة الغربية، واستلهم منهما أفكارا جديدة، فكانت عيناه على ماضيه وعلى عصره وعلى ما يبدعه مِنْ وحي هذَيْن المصدرَيْن.[3]

الفرع الثّاني: المرونـــــة

واجه الشّيخ محمّد عبدَه تحدّيًا داخليًا متعاظما تمثّل في تفشّي الجمود بين النّخب الأزهريّة، وبرز على النّقيض منه فريقا آخر افتتن بالغرب الأوروبّيّ وأخذ يتملّص مِنْ موروث المسلمين الحضاريّ بمبرّر مرونة الإسلام، وبدأ هذا الأخير يدعو إلى التّبعيّة للغرب الأوروبّيّ والافتيات على أحكام الإسلام والتّفريط في قيم الإسلام ومبادئه، وحمَّل مرونة الإسلام وسماحته ما لم تحتمل، بالإضافة إلى تجرُّد الحكومة المصرية مِنَ الغيرة على دينها، وتواطئها مع الاحتلال البريطاني.

وظهرت مرونة الشّيخ محمّد عبدَه بترخيصه لأبناء المسلمين الأغنياء وتمكينهم مِنَ التّعلُّم في المدارس الأجنبية ليرفع عنهم الجهل والأمّية شريطة المحافظة على عقيدتهم وأخلاقهم، تأسّيا بدول القوقاز والقرم الذين سمحوا لأبنائهم بالتّعلّم في المدارس الأجنبيّة والأخذ عن أساتذة مسلمين وغير مسلمين، فبعثوا بأبنائهم إلى مدارس بُنِيتْ للدّعوة إلى غير الدّين الإسلاميّ، ولم ينكروا عليهم ما دامت عقيدتهم سالمة مِنَ الهدم والضّعضعة، وقد حافظوا على دينهم وعقيدتهم فعلا.[4]

لقد سمح الشّيخ محمّد عبدَه لأبناء الأهالي بتلقِّي العلوم في المدارس التي يدرِّس فيها غير المسلمين الذين يَدْعُون لغير الإسلام مادام أبناؤهم مُحَصَّنين عقديّا ويأمنون على دينهم مِنَ الانحراف

---

[1] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص93.

[2] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، ص160، وينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، ص167.

[3] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص223.

[4] ينظر: محمّد عبدَه، الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية، مصدر سابق: ص153.

والردّة، بغرض تحصيل العلم والمعرفة الذي تفتقده مدارسهم، ثمّ استدرك بأنّ الذين بَقَوْا متمسّكين بدينهم ومحافظين على أخلاقهم ولم يتأثّروا بالأجانب قليلون لا يمكن القياس عليهم، ومع ذلك ينبغي الحذر مِنَ الانفتاح المطلق على التّعليم الأجنبيّ، لأنّ المتعلّمين صغار وعلمهم محدود، ومدرّسوهم أساتذة كبار على غير عقيدتهم لديهم العلم والخبرة والدّهاء ويدعونهم إلى غير عقيدتهم، الأمر الذي نجم عنه تخلّي عدد غير يسير مِنَ المصريّين عن دينهم وأخلاقهم رغم حفظهم للقرآن الكريم وتكوينهم الشّرعيّ في الكتاتيب والمدارس الأهلية المصريّة المسلمة، لكنّهم لمّا تعلّموا في المدارس الأجنبيّة واحتكُّوا بأساتذتها الأغيار تأثّروا بهم، واهتزتْ عقيدتهم وأفكارهم وعاداتهم وانحرفوا عن دينهم.

لذلك بادر بتبيان خطورة تعليم أبناء المسلمين في المدارس الأجنبيّة التي لا تدرّس الدّين الإسلاميّ، فهذا سيُضعف عقيدتهم ويفسح المجال أمام العقائد الأخرى، والأَوْلَى بهم أنْ يُقَوُّوا عقيدتهم المستهدفة داخليّا وخارجيّا، خصوصا وأنّ الأولياء ما زالوا يسلكون طرقا قديمة جامدة لا تقوى على مقاومة مناهج الأوروبّيّين، ولا يستطيعون حماية عقيدتهم مِنَ الزّعزعة والزّوال، لذلك اعتبر السّماح لأبنائهم بالتّعلّم في المدارس الأجنبية جناية عليهم لأنّهم سيخرجون مِنْ دينهم مِنْ حيث لا يشعرون، وخلص إلى أنّ هذا التّعليم ضارٌّ وغير مُرحَّبٍ به[1]، وفيما يلي بعض أمارات مرونته في التّربية والإصلاح:

أوّلا: تعلُّمه للّغات الأجنبيّة وتعليمُهـا

لمّا عُيّن الشّيخ محمّد عبدَه قاضيا سنة 1888م وباشر معالجة قضايا المحاكم، وجد نفسه وسْط قُضاةٍ مُتقِنين للّغة الفرنسية وملمّين بالقوانين الفرنسيّة التي تستند إليها المحاكم المصريّة، فرأى مِنَ الضّروريّ أنْ يتعلّم الفرنسيّة، لذلك سافر إلى فرنسا وأقام بها عشرة أشهر فتعلّمها وأتقنها.[2]

وقد استطاع بعد أنْ جاوز سنَّ الأربعين أنْ يتعلّم اللّغة الفرنسية ويُتقن التكلّم والكتابة بها، بل وأدرجها ضمن الموادّ التي تُدَرَّس في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية لاستثمارها فيما يخدم الأمّة.

كما ترجم كتاب: التّربية للفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر مِنَ الفرنسيّة إلى العربيّة، وأملى وصيّته التّربويّة بالفرنسيّة في مرضه الأخير على الكونت دي جريفل التي نشرها في كتابه: مصر الحديثة[3]، ورغم معاداته لفرنسا الاستعمارية إلّا أنّ مرونته في الإصلاح لم تمنعه مِنْ تعلّم الفرنسيّة ليطّلع بها على القوانين الجنائية المحكَّمة في القضاء المصريّ، وليعلّمها للنّاشئة المصريّة، لأنّ تعلّم اللّغات الأجنبيّة ضروريّ للاطّلاع على ثقافة الغير، وقد ذكر بأنّ مِنْ دوافع تعليمها هو خدمة الأمّة والدّفاع عن مصالحها، خصوصا وأنّ مصالح المسلمين أصبحتْ متشابكة مع مصالح الأوروبّيّين، وأنّه بمعرفة لغاتهم يمكن الاستفادة مِنْ خيرهم والخلاص مِنْ شرورهم.[4]

إنّ تعلّم الشّيخ محمّد عبدَه للفرنسيّة كان لمقاصد إصلاحية تجسيدا للمرونة التي يتميّز بها الإسلام، لكنّ سيطرة الجمود والتّقليد على فكر بعض شيوخ الأزهر جعلهم يعيّرونه بتعلّم الفرنسيّة

---

[1] ينظر: محمّد عبدَه، الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية، مصدر سابق: ص154.

[2] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص261.

[3] ينظر: محمّد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص33.

[4] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، المرجع السابق: ص261.

والسّفر إلى أوروبّا، ويطعنون في عقيدته ويتّهمونه في دينه حتّى قالوا عنه: "ما هذا الشّيخ الذي يتكلّم الفرنساوية ويَسِيح في بلاد الإفرنج ويُترجم مؤلّفاتهم وينقل عن فلاسفتهم ويُباحِث علماءَهم، ويُفتي بما لم يقل به أحد مِنَ المتقدّمين ويشترك في الجمعيات الخيرية ويجمع المال للفقراء والمنكوبين"[1]، فكانت دعوته أبناء المسلمين إلى تعلّم لغات الأوروبّيّين لكونهم يمثّلون قُوّة استعمارية متطوّرة حضاريّا، ولهم نفوذ في مصر وفي العالم العربيّ والإسلاميّ، وأنّه يمكن الاستفادة منهم في بعض الجوانب التي لا تتعارض مع مقوّمات الأمّة الإسلامية، وبجعلها وسيلة لا غاية عند تعليمها في المؤسّسات التّربويّة.

ثانيا: استثماره لعلاقاته الشّخصية في الإصلاح التّربــويّ

لمّا عاد الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ منفاه ببيروت إلى مصر، خفّف مِنْ مواقفه الحادّة تجاه الاستعمار البريطاني والحكومة المصريّة المستبدّة دون أنْ يتخلّى عن قناعته بوجوب تربية الأمّة وتعليمها لإصلاحها والنّهوض بها، لذلك أنفذ إصلاحاته التّربويّة بمرونة، ووطّد علاقته بهما حتّى يمكنه تنفيذها وبلوغ مقاصده التّربوية، فاتُّهم في دينه ووطنيّته ورُمي بالخيانة والعمالة للاستعمار.

وقد كان لمشاركته في الثّورة العُرابية التي نفي بسببها مِنْ مصر واستعمار الإنجليز لها، ورحلاته إلى أوروبّا واكتشاف حضارتها عن كثب، دورٌ كبير في تغيير مواقفه، بمسالمته للاحتلال وللحكومة، وجعله كبير النُّظّار مصطفى فهمي باشا صديقا حميما له، بل وصار صديقا للمندوب البريطاني اللّورد كرومر الذي كان يثق في الشّيخ محمّد عبدَه ويعتمد عليه ويرى فيه رجلا مستنير الرّأي بعيد النّظر.[2]

لذلك كان الشّيخ محمّد عبدَه يرى بأنّه لا بدّ مِنِ التزام المرونة بالتّقرب مِنَ الاستعمار البريطانيّ والحكومة المصريّة وكسب ودّهما ومسالمتهما، حتّى لا يخرجوه مِنْ مصر مرّة أخرى، وحتّى لا يضيّقوا عليه ولا يمنعوه مِنْ ممارسة إصلاحاته، وعاهدهم بعدم الخوض في السّياسة، وباشر إصلاحاته بمرونة وحكمة في المؤسّسات التّربوية وفي الجامع الأزهر وفي القضاء وفي نظارة المعارف وفي الإفتاء.

كما أنّ انهزام الثّورة العُرابية التي شارك فيها استجابة لإكراهات الواقع المصريّ، جعلته يبتعد عن السّياسة ويتخلّى عن الثّورة ويتفرّغ للتّربية والتّعليم والإصلاح، ووفّر على نفسه جهودا كبيرة على مستوى الجبهة الدّاخليّة التي حفظتْ قوّة المسلمين مِنَ الهدر والضّياع، وتوقّف عن المجابهة المباشرة للاستعمار البريطانيّ الذي ركن إليه مؤقّتا حتّى يسمح له بتحقيق إصلاحاته التّربويّة.[3]

فسلك منهج الإصلاح التّربويّ بعيدا عن السّياسية والثّورة، حتّى لا يمنعه الاستعمار البريطانيّ مِنْ بلوغ مقاصده ولا يحول بينه وبين الإصلاحات التي يرنو إليها، وحتّى لا يُطرده مِنْ بلده، وهو منهج حكيم بعيد النّظر، يبني النّفوس بالتّربية بناء متينا يتحقّق به الإصلاح والتّغيير والنّهضة.

ثالثا: مودّته للمخالفين له في العقيدة الإسلاميــة

ذكر الشّيخ محمّد عبدَه بأنّ الإسلام أباح الزّواج مِنَ الكتابية يهودية كانت أم نصرانية، وجعل مِنْ حقوقها على زوجها المسلم أنْ تبقى على عقيدتها وتؤدّي فروضها وتذهب إلى معبدها، فالإسلام لم

---

[1] تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص94.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص61.

[3] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص172و173.

يفرّق في الحقوق الزّوجية بين الزّوجة المسلمة والزّوجة الكتابية، ولم يُخرج الزّوجة الكتابية المخالفة لعقيدة لزوجها مِنْ حُكم قوله تعالى:﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[سورة الروم]، فالزّوجة الكتابية لها حظّها مِنَ المودّة والرّحمة ويسكن إليها كما تسكن إليه وهو لباس لها كما أنّها لباس له، فهذا التّسامح الذي جعله الله مِنْ أصول الإسلام لم يُعهد عند مَنْ سبق ولا فيمن لحق مِنْ أهل ديانتَيْ اليهود والنّصارى، كما لا يخفى مِنْ أنّ التّسامح على هذا الوجه يعوّد القلوب على الشّعور بأنّ الدّين معاملة بين العبد وربّه، والعقيدة طور مِنْ أطوار القلوب يجب أنْ يكون أمرها بيد علاّم الغيوب.[1]

الفرع الثّالث: البساطـــة

انصرف الشّيخ محمّد عبدَه عن الدّراسة ولم يصبر على تلقّي العلوم وعزف عنها في بداية حياته، بسبب الطّرق التّقليدية المعقّدة في تلقين العلوم وحشو العقول بالكمّ المعرفيّ دون تبسيطها بالشّرح والبيان ودون فتح باب النّقاش أمام المتعلّمين، وعدم السّماح لهم بالسّؤال والاستفسار، بالإضافة إلى إيذائهم بالكلام البذيء وبالسبّ والشّتم والمعاملة القاسية، فهذه الطّريقة نفّرت التّلاميذ مِنَ المعلّمين ومِنْ طلب العلم وجعلتهم يزهدون فيه وينصرفون إلى الحِرَفِ والأعمال الحرّة، ويتوجّهون إلى الحياة العمليّة وهم صغار، وهذا ما عايشه في بداية الطّلب واستحضره في كبره لمّا باشر إصلاحاته التّربويّة.

لقد كان لهذا المنهج آثار سلبية على النّاشئة وهم في مرحلة الطّلب، وعلى الكبار وهم في مرحلة العطاء والتّوجيه، وصاروا يضرّون ولا ينفعون، وانعكستْ آثار طرائقهم على أفكارهم وآرائهم وعلى طريقة توجيههم في الحياة، وفي مراكز القرار والتّسيير والفتوى والتّعليم وغيرها مِنْ مجالات إدارة شؤون النّاس في الحياة، وهذا مِنْ شأنه أنْ يُكرّس التّخلّف ويعرقل التطوّر الذي لا يخدم البلاد والعباد، وسيشوّه الحقائق ويحرّفها عن مرادها الحقيقيّ، ويُوقع مَنْ قصدهم في اضطراب وارتباك، ويفرّق صفوفهم ويخلق بينهم معارك وهمية لا يرتضيها الإسلام، وقد استحضر تلك المواقف في أخريات حياته فقال: "فهذا أوّل أثر وجدتُ في نفسي مِنْ طريقة التّعليم في طنطا وهي بعينها طريقته في الأزهر، وهو الأثر الذي يجده خمسة وتسعون في المائة ممَّنْ لا يساعدهم القدر بصحبة مَنْ لا يلتزمون هذه السّبيل في التّعليم -سبيل إلقاء المعلّم ما يعرفه أو ما لا يعرفه بدون أنْ يراعيَ المتعلّمَ ودرجةَ استعدادِه للفهمِ- غير أنّ الأغلب مِنَ الطّلبة الذين لا يفهمون لِغِشّهم أنفسَهم فيظنّون أنّهم فهموا شيئا فيستمرُّون على الطّلب إلى أنْ يبلغوا سنّ الرّجال وهم في أحلام الأطفال، ثمّ يُبتلَى بهم النّاس، وتُصاب بهم العامّة فتَعظُم بهم الرّزية، لأنّهم يزيدون الجاهل جهالة ويُضِلّلُون مَنْ توجد عنده داعيةُ الاسترشاد ويؤذون بدعاواهم مَنْ يكون على شيء مِنَ العلم ويحولون بينه وبين نفع النّاس بعلمه".[2]

إنّ التّعقيد والبُعد عن البساطة في تلقين العلوم في المؤسّسات التّربوية المصريّة التي درس فيها الشّيخ محمّد عبدَه، كانت لها آثار سلبية على التّحصيل، أقلُّها اتّخاذ مواقف مبغضة للعلم وأهله، وهو ما جعله يعتمد البساطة وعدم التّعقيد في التّعليم ومناهجه لترغيب طلبة العلم في تحصيل

---

[1] ينظر: محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، مصدر سابق: ص93و94.

[2] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص20و21.

العلوم والمعارف والاستعداد للتّربية والتّكوين، وعَمِلَ على وضع قوانين وأساليب ناجعة قائمة على الحوار والمناقشة والتّحليل والأخذ والردّ، متجنّبا فيها أساليب التّلقين وحشو العقول بالعلوم والمعارف، تلك الأساليب التي تذهب بالمقصود ولا تحقّق الفهم والاستيعاب ثُمَّ لا يُستفاد منها في الحياة.

المطلب الخامس: ترسيخ قيم المواطنة والاتّحاد والتّعاون

تشبّع الشّيخ محمّد عبدَه مبادئ الإسلام وأُشرب حبّ مصر منذ طفولته، واستمرّ يغذّي هذه المعاني في نفسه وينمّيها في سنّ الرّشد حتّى وفاته، وعلّمها للمصريّين وربّاهم عليها خلال أدائه لرسالة الإصلاح، ووظّف كلّ الأساليب والوسائل المشروعة، وبذل كلّ ما يملك مِنْ جهد ومال ووقت في مُناخ كان يسوده الاستبداد الدّاخليّ والاستعمار البريطانيّ، وتوجّه إلى التّربية ونأى بنفسه عن السّياسة رغم عدم رضاه عن الممارسات المنتهجة مِنْ أمرائها، وأخذ يربّي أمّته على معاني الاتّحاد والتّعاون والإخاء وحبّ الوطن والتّفاني في خدمته وتنميته والدّفاع عنه والحفاظ على مكتسباته، والعمل على الارتقاء به وتطويره في شتّى المجالات، جاعلا مِنَ التّربية وسيلته الأساسية في ذلك، على اعتبار أنّ تربية الأمّة على الوطنية وحبّ الوطن واجب رساليّ ينبغي أنْ يتولّاه كلّ مَنْ تصدّر لرسالة التّربية والإصلاح.

وقد تضمّن هذا المطلب ثلاثة فروع، جاء فيها على التّوالي: تركيز الشّيخ محمّد عبدَه في إصلاحاته على تربية أمّته على الوطنية ليغرس فيها حبّ الوطن، واجتهاده في تأصيل وإشاعة معاني الاتّحاد والتّعاون فيها لتقوية شوكتها وحمايتها مِنَ الاختراق والزّوال، وكذا إبرازه لدور التّربية في تحقيق الوحدة الثّقافية لحماية هويّتها مِنَ التّشويه والانحلال والضّياع.

الفرع الأوّل: تربية الأمّة على الوطنية وحبّ الوطـن

الوطنيّة عند الشّيخ محمّد عبدَه هي: تعاون جميع أهل الوطن الواحد بمختلف أديانهم على كلّ ما فيه عمرانُه وإصلاحُ حكومته، وقد أخذ هذه المعاني مِنْ أستاذه جمال الدّين الأفغانيّ الذي أرشده إلى وجوب الاتّحاد والتّعاون على الأعمال الوطنيّة والسّياسية والعمرانية، ودعاه إلى الإصلاح الإسلامي وإلى فهم الدّين وشدّ أواصر الأخوّة الإسلامية مع جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم، ولمّا شهد تآلف طوائف اللّبنانيّين في بيروت، وما نتج عن اتّحادِ وتعاونِ وتآلفِ أقباط مصر مِنْ ترقية في أمورهم الدّينية والدّنيوية، قام بتعزيز مصالحهم والتّعاون معهم لتحقيق المصالح الوطنية المشتركة بينهم[1]، وذكر بأنّ الوطن هو وحدة تجمع كلمة الأمّة، وهو جامعة وطنيّة حتّى وإنْ اختلفتْ ساكنته في الآراء والتّصوّرات والمشارب والألوان، بحيث يجتمعون ويكونّون عصبة متلاحمة ومتآزرة، لذلك رَبَّى أمّته على المواطنة وغرس في نفوس مكوّناتها الولاء لمصر، بحيث يتصرّفون بحرية ويعرضون آراءهم دون إلحاق الضّرر بهيئتهم المجتمعية، ولا يعيقون حقوقهم وواجباتهم، ويحترمون قوانينها ويلتزمون بها.[2]

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص917و918.

[2] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص56.

كما تتولّى المؤسّسات التّربوية تجسيد معاني حبّ الوطن وترسيخ أصول الوطنيّة والمواطنة في أبناء المجتمع المصريّ التي يجب أنْ تقوم ببثّها وتنميتها في فكر ووجدان وقلوب المصريّين، عن طريق وضع برامج ومقرّرات واتّباع طرائق ومناهج خادمة لأبعاد الوطنيّة ومعينة على تربية النّاشئة عليها.

وصلاح الوطن يكون بصلاح أهله وتلقّيهم التّربية القويمة والتّعليم الصّحيح الذي يُكسب الإنسان الشّرف فيسعد مادّيا ومعنويّا ويؤدّي واجباته ويأخذ حقوقه، وفي هذا قال الشّيخ محمّد عبدَه: "الإنسان لا ينال الشّرف الإنسانيّ والسّعادة الحقيقيّة والثّروة الدّائمة والنّعيم الثّابت إلّا إذا صلح حال وطنه فتقدّمتْ أبناؤه وتحلّتْ نفوسهم بالمعارف وصفات الكمال، فأخذ كلّ واحد حقّه، وأدّى الواجب عليه، وخدم العموم بجدّ ونشاط، وسعى في مصالح الجميع بصدق وأمانة، بخلاف ما إذا فسد حال الوطن واختلّتْ شؤون ذويه، فإنّ كلّ واحد منهم يقف عقبة في طريق أخيه، يسدّ أبواب الخير عليه ولا يتأخّر عن إيقاع المكروه به متى تخيّل في ذلك منفعة خصوصية تعود عليه، بل ربّما خان الوطن عمومه وباع قومه بمصلحته الذّاتية"[1]، ثُمَّ صحّح مفهوم الوطنيّة الذي كان شائعا بين المزايدين بها على النّاس، مبيّنا بأنّها ليست مجرّد ألفاظ محفوظة ذات معاني مبتذلة فقال: "إنّما الوطنيّة أنْ تُخْلص المحبّة للوطن إخلاصا ينبعث عنه السّعي بكامل الجهد في التماس ما يعود عليه بالتّقدّم والنّجاح"[2]، فحُبُّ الوطن يعني تأكيد الرّابطة بين المواطن ووطنه، وتوثيق الصّلة بين الحاكم والمحكوم على أساس مِنَ الحبّ والشّورى والعدل.[3]

ولتعزيز روح الوطنيّة في نفوس المصريّين كتب مقالات عديدة أشاد فيها بحبّ الوطن والدّفاع عنه والدّعوة إلى أداء الحقوق والواجبات لتحقيق المصالح العامّة للأفراد والجماعات، منها مقاله الذي نشره في جريدة الوقائع المصريّة سنة 1881م بعنوان: الحياة السّياسية، وفيه أوضح بأنّ المطالبة بالحقوق لا ينافي الوطنيّة وأنّ السّكوت عنها وإبطالها إذلال وتجهيل للنّاس فقال: "ولقد كان بعض النّاس يحاولون خلع الشّعار الوطنيّ عن ذوي الحقوق والواجبات في مصر، وإلباسهم جميعا لباس الجهالة والذلّ، ولكن أبت الحوادث أنْ تثبتَ لنا وجودا وطنيّا ورأيا عموميّا ولو كره المبطلون".[4]

وعند حديثه عن حبّ الوطن لدى المصريّين ذكر بأنّ مِنْ موجبات حبّه والغيرة عليه هي السّكن الذي فيه الغداء والأهل والولد، والحقوق والواجبات المتبادلة، والنّسبة التي يعلو بها الإنسان ويعزّ أو يسفل ويذلّ، فإذا تقرّر ذلك وجب على المصريّ حبّ وطنه مِنْ كلّ الوجوه.[5]

فاعتبر الوطن بأنّه المكان الذي يجمع بين الأمور الحسّية والمعنوية، ويخدم فيه الإنسان نفسه وذويه وأهل بلده، ويؤدّي فيه ساكنته واجباتهم وينالون حقوقهم، ويمتدّ فيه نسبهم إلى أعماق التّاريخ، لذا كان مصلحا في مصر وفي كلّ رقعة وَطِئَتها قدماه، ودعا إلى حبّها وخدمتها والدّعوة فيها إلى الإسلام

---

[1] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج1، ص314.

[2] المصدر نفسه: ج1، ص318.

[3] ينظر: حافظ محمّد حيدر الجعبري، الشّيخ محمّد عبدَه وآراؤه العقدية، مرجع سابق: ص140.

[4] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص198.

[5] ينظر: محمّد عمارة، الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ، مرجع سابق: ص216.

وإلى اتّباع الرّسول ﷺ الذي بعثه الله رحمة بالأمّة والنّاس جميعا لقوله تعالى:﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[سورة الأنبياء]، فخصّ بدعوته وإصلاحاته جميع أطياف المجتمع لأنّه يضمّهم وطن واحد، كما كان حريصا على حثّ المصريّين على ترسيخ وتقوية أواصر عقيدة الرّابطة الوطنيّة بينهم، ودعوتهم للتّعايش والودّ فيما بينهم وقبول بعضهم البعض رغم الاختلاف التّاريخي الحاصل بينهم.

الفرع الثّاني: الدّعوة إلى الاتّحاد والتّعاون والتّآلـف

دعا الشّيخ محمّد عبدَه إلى تجسيد قيم الاتّحاد والتّعاون التي جاء الإسلام لإرسائها وتعزيزها في أمّته التي أهلكها الخلاف والشّقاق والتّشرذم، حتّى تجرّأ عليها أعداؤها واستغلّوا أوضاعها البئيسة وقاموا بالتّحريش بينها لتحقيق أغراضهم الدّنيئة وإرجاعها إلى عهد ما قبل الإسلام.

وركّز في إصلاحاته على التّربية والتّعليم لتكوين أمّة عزيزة متعاونة متكافلة ومتّحدة على نهج أسلافها، يصدق فيها تمثيل النّبيّ ﷺ للمؤمنين بالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا، وبالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسّهر، لذلك عمل على إرساء قواعد التّربية والتّعليم فيها في ظروف صعبة جعلته يسالم الحكّام المستبدّين المتغلّبين، حتّى يستطيع تحقيق استقلال بلاده ويغرس في مواطنيها قيم الاتّحاد والتّعاون والتّآخي والتّآلف.[1]

في أواخر القرن التّاسع عشر عمد الشّيخ محمّد عبدَه إلى التّربية لتوحيد الاتّجاهات الدّينية والفكرية والثّقافية في المجتمع المصريّ لتقوية تماسكه وتعزيز وحدته وحمايته مِنَ الانقسام والتّشرذم والتّطرّف الوافد الذي بدأ يبرز فيه، فأقلقه ذلك ودفعه لإيجاد المخارج الآمنة له، ولم يجد بديلا عن إصلاحه بالتّربية والتّعليم لتحقيق الاتّحاد والتّماسك والتّعاون المبنيّ على المبادئ والقيم الإسلامية واللّغة العربية والتّاريخ المشترك والعادات والتّقاليد الأصيلة في المجتمع المصريّ.[2]

وذكر بأنّ العلم الحقيقي يعلِّم الإنسان حقيقته ويكوّن لديه الشّعور بالاتّحاد الذي لا يمكن إيجاده مع فساد الأخلاق، فالاتّحاد يعتبر ثمرةٌ للأخلاق الفاضلة، والمسلمون إذا أرادوا الاتّحاد عليهم بالتّربية الإسلامية، لأنّ الأخلاق لا تَكْمُل إلّا بها وما عداها مِنَ العلوم لا يُرجى مِنْ ورائها فائدة.[3]

ونبّه إلى أنّ الإسلام نبذ الفُرقة والشّقاق اللّذَيْن قد يقتلان الأمّة ويزيلانها مادّيا ومعنويّا وذكر بأنّ الإسلام: "عنّف النّازعين إلى الخلاف والشّقاق على ما زعزعوا مِنْ أصول اليقين، ونصّ على أنّ التّفرّق بَغْيٌ وخروجٌ عن سبيل الحقّ المبين، ولم يقف في ذلك عند حدّ الموعظة بالكلام والنّصيحة بالبيان، بل شرّع شريعة الوفاق وقرّرها في العمل".[4]

ثُمَّ إنّ التّكوين الدّيني للشّيخ محمّد عبدَه جعله يُبغض التّعصّب وينهى عنه، لأنّه ينافي العدل ويضرّ بالأمّة ويذهب بوحدتها، وبالعدل بين شرائح المجتمع وطوائفه وأجناسه يمكن إقامة مجتمع قويّ يدوم وجوده ولا يزول سريعا، ودعا المصريّين والأمّة الإسلامية إلى التّعاون فيما بينهم ونصرة بعضهم

---

(1) ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص917.

(2) ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص59.

(3) ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السابق: ج2، 470و471.

(4) محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، مصدر سابق: ص151.

البعض وردّ عدوان الأعداء الذين يتربّصون بهم الدّوائر مِنْ خلال مقالاته في جريدتَيْ الوقائع المصرية والعروة الوثقى، وحثّهم على الاتّحاد والتّآلف فيما بينهم مهما اختلفوا، وحمل همّ الدّفاع عن الوطن وعن المواطنين حتّى وإنْ كانوا على غير ملتّه ما داموا يعيشون معه على أرض واحدة.

عندما كان الشّيخ محمّد عبدَه في بيروت أشاد بمناقب أقباط مصر ودافع عنهم عندما اتُّهموا بالتّقصير في أداء واجباتهم الوطنية، وردّ الحملة المغرضة التي شنّتها الصّحف المصريّة عليهم بإيعاز مِنَ الدّوائر الأوروبّية التي انتقدت المواقف المشبوهة للقبطيّ بطرس باشا غالي، فدافع عنهم الشّيخ للإبقاء على اللّحمة الوطنيّة بين أبناء البلد الواحد ولتعزيز وحدتهم، حيث كان يؤلّف بين الطّوائف ويدعوهم إلى التّعاون فيما بينهم وإنْ اختلفتْ دياناتهم لأنّه يجمعهم وطن واحد، متمثلا قوله تعالى:﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾[سورة الكافرون]، لذلك كان يحظى بالاحترام بين المسلمين وبين النّصارى الذين يعتبرونه مرجعا لهم يستشيرونه ويطلبون رأيه في شؤونهم الخاصّة، حتّى أنّ يعقوب صَرُوف -وهو مِنَ النّخبة النّصرانية المصريّة- عاتب أصدقاء الشّيخ عند دفنه وقال لهم: "إنّي أسمعكم تقولون فقيد الإسلام والمسلمين ولا تزيدون، إنّه فقيد الفكر والعلم حيث كان، إنّه فقيدنا أجمعين".[1]

وسعى بكلّ الوسائل والأساليب المشروعة مِنْ خلال جريدة العروة الوثقى إلى تجسيد مشروع الجامعة الإسلامية الذي دعا إليه أستاذه جمال الدّين الأفغانيّ، ولمّا لم تحقّق له السّياسة مراده تركها وتوجّه إلى الدّين لتوحيد الأمّة وتقويتها، لأنّ الأمّة وُجِدت وتكوّنتْ بالدّين، وبه سادتْ وعزّتْ، وبإعراضها عنه ستضعف وتذلّ، وبه يرجع إليها مجدها، لهذا دعا المسلمين سُنَّة وشّيعة إلى الاتّحاد بالرّجوع إلى القرآن الكريم، وأنْ لا يجعلوا الخلاف الفرعي في الدّين يفرّقهم ويقضي عليهم.[2]

لقد حرص الشّيخ محمّد عبدَه على توحيد أمّته ونبذ كلّ ما يفرّق شملها ويتسبّب في تشرذمها، فقاوم الاستعمار الأجنبيّ والتّغريبيّين المنبهرين بالحضارة الغربية المحتقرين لتراثهم وتاريخهم، وبذل جهودا كبيرة لتوحيدها وتحقيق التّعاون والتآلف بينها وفاء لمرجعيّتها الدّينية والوطنية.

الفرع الثّالث: توحيد نظم التّعليم لتحقيق الوحدة الثّقافيـة

ما أزعج الشّيخ محمّد عبدَه هو تطبيق الاستعمار البريطاني لسياسة فرّق تسد مع المصريّين لتفتيت وحدتهم الثّقافية، حيث أوجد أنواعا مختلفة مِنَ التّعليم لا ارتباط بينها، كالتّعليم الأُوَلِيّ والتّعليم العامّ والتّعليم الدّينيّ والتّعليم الأجنبيّ، فنجم عن سياسته تلك اتّجاهات ثقافية متعدّدة المشارب[3]، ولجأ إلى الإصلاح التّربويّ لمقاومتها، ووضع برامج تربوية وتعليمية جديرة بتحقيق الوحدة الثّقافية للشّعب المصريّ لحماية دينه ولغته وثقافته وعاداته وتراثه مِنَ الدّخيل الوافد.

ويرى الشّيخ محمّد عبدَه بأنّ تعدّد أنواع التّعليم في مصر لا تحقّق الوحدة الثّقافية للمجتمع المصريّ، وواقع التّعليم الدّينيّ في مصر يتغاضى عن محاولات إصلاح المناهج وتبنّي الطّرق الحديثة التي وقف ضدّها وقاومها وتمسّك بالمناهج القديمة وجمد عليها، فالمدارس الحكومية أهملت التّعليم الدّينيّ

---

[1] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص310و311.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج2، ص337.

[3] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص146.

وركّزتْ على تكوين الكفاءات لتوظيفها في الحكومة دون الاهتمام بمضامين التّعليم السّامية في الحياة، وأمّا المدارس الأجنبية فهي تشكّل خطرا على عقيدة النّاشئة المصريّة وولائهم للوطن لصغر سنّهم واستعدادهم لقبول أيّ فكر وافد مخالف لمرجعيّتهم الدّينية والوطنيّة، فخاف مِنْ هذا الوضع الذي قد يؤدّي إلى فوضى في الثّقافة الاجتماعية لمصر، ودعا إلى إرساء تعليم عامّ مشترك للمصريّين في المرحلة الأولى كالذي وضعه في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية، واقترح مراقبتها مِنْ طرف نظارة المعارف للتّحكم في عملها وتوجيه تعليمها حتّى لا تتعارض مع الدّين ومصلحة الوطن، فَقَبل المجلس الأعلى للمعارف اقتراحه، لكنّه لم يُنَفِّذه بسبب أحداث الثّورة العُرابية، فأدرك بأنّه لا يمكن تحقيق الوحدة الثّقافية لمصر إلّا بتوحيد نظم التّعليم، وهو ما أخذتْ به الدّول النّاهضة الحريصة على تجسيد أهداف التّعليم ومقاصده وتخريج مواطنين يشتركون في رؤية موحّدة أو متقاربة.[1]

لذلك سعى إلى توحيد التّعليم الابتدائي باعتباره أساس التّعليم، لأنّ فيه يشترك المتعلّمون في أساسياته التي تَبْنِي في المواطن المصريّ عقيدة دينية ووطنية قوية تكون في المستقبل صمّام أمان له يصعب اختراقه وشراء ذمّته، وجعل الأولويّة لإصلاح التّربية والتّعليم للحفاظ على الهويّة الثّقافية للمجتمع وتحقيق الوحدة القوميّة له، فبالتّربية يتحرّر الإنسان مِنَ الجهل والأمّيّة والفقر الثّقافيّ.[2]

والخلاصة أنّ إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية تميّزت بعدّة خصائص، حقّق بها نجاحات محترمة في المجتمع المصريّ فكان لها صدى خارجيّا، لكونه رجع بها إلى أصول دينه يستمدّ منه ما يُصلح به شؤون مجتمعه وأمّته، وانفتح على واقعه بحكمة واستأنس بما استجدّ فيه لخدمة إصلاحاته، فاتحا باب الاجتهاد ومعملا العقل لتجديد دينه ودنياه، كما تميّزتْ بالشّمول لجمعه فيها بين التّربية المعنويّة والمادّية واعتنائه بالعقل والجسم، وبتربية الفرد والجماعة، وتمكين الإناث مِنَ التّعليم مثل الذّكور، ودعوته إلى تعلّم العلوم التّقليدية والعصرية، كما ركّز على الإصلاح التّربويّ دون أنْ يغفل الإصلاح السّياسيّ، بالإضافة إلى تسخيره الجمعيةَ الخيرية الإسلامية لتربية وتعليم أبناء الفقراء وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص مع أبناء الأغنياء، وأيضا تميّز إصلاحاته بالموضوعية وبالواقعيّة لتوافقها مع علم التّربية الحديث، واجتهاده في الجمع بين العلم والعمل وبين النّظريّ والتّطبيقيّ، كما انتهج الوسطيّة والمرونة والبساطة لتحقيق أهدافه التّربويّة بانفتاحه على اللّغات الأجنبيّة تعلُّما وتعليما، وتّعايشه مع غير المسلمين، ورغم وطأة الاحتلال البريطاني إلّا أنّ عينه كانت على وطنه؛ بحرصه على ترسيخ الرّوح الوطنية في المصريّين وتربيتهم على حبّ وطنهم والالتفاف حوله، وتقوية اللّحمة فيما بينهم بتعزيز روح الاتّحاد والتّعاون والتّآلف، وتقرير ذلك بتوحيد نظم التّعليم لتحقيق الوحدة الثّقافية في المجتمع.

وبعد هذا الفصل يأتي الفصل الثّالث ليتمّ فيه تقييم تجربة الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية التّربوية في شِقَّيْها الإيجابيّ والسّلبيّ، وعرض أهمّ مخرجاتها، ليأخذ متصدّرو الإصلاح بالإيجابيّ منها، ويتفادَوْا سِلْبِيَّهَا، ويكملوا مسيرة الإصلاح التّربويّ ويخدموا المجتمع المصريّ والأمّة العربيّة والإسلاميّة.

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص147.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص224و225.

الفصل الثّالث:
مخرجات إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية

المبحث الأوّل:
المخرجات الإيجابية

المبحث الثّاني:
المخرجات السّلبية

الفصل الثّالث: مُخرجات إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية

تمهيد:

إنّ أعمال الإنسان واجتهاداته كما تُحقّق النّجاح والإصلاح، فإنّها في المقابل قد تُخفق ويعتريها النّقص والخلل، وهذه سُنَّة كونية ربّانية لا تفرّق بين عامّة النّاس وخاصّتهم مِنَ المربّين والمصلحين الذين يسعون لإصلاح شؤون أمّتهم والنّهوض بها وتحقيق الرّيادة والسّيادة في عالم الشّهادة.

وفي هذا الفصل سيتمّ تقييم إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية، حتّى يعمل المصلحون والمربّون على الأخذ بنجاحاته واستثمارها لإصلاح أحوال الأمّة، وليتفادَوْا إخفاقاته فلا يكرّروا أخطاءه ويحقّقوا إصلاحاتهم المنشودة بعده، وما سأذكره مِنْ مُخرجات؛ تمثّل خلاصة المواقف المتّخذة منه، فالذين وافقوه عليها اعتبروها إيجابية أشادوا بها ودَعَوْا إلى العمل بها، والذين خالفوه فيها اعتبروها سلبية ورفضوها وانتقدوها ودَعَوْا إلى التّحذير منه وعدم اتّباع منهجه في العمل بها.

ففي المبحث الأوّل سيتمّ تقييم إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه الإيجابية في خمسة مطالب، باستعراض إصلاحاته الإيجابية على مستوى آليات الإصلاح التّربوي، وعلى مستوى طرائق ومقرّرات التّدريس، وعلى مستوى جهود بعض رواد الإصلاح الذين تمثّلوا فكره الإصلاحيّ في المشرق والمغرب الإسلامِيَيْن، كما سيتمّ تقييم تجربته على مستوى المدارس الإصلاحية المصريّة المنبثقة عنه، ليُختَم المبحث بتقييم مستوى انتشار إصلاحاته التّربوية في العالم.

وفي المبحث الثّاني سيتمّ استعراض بعض أهمّ المآخذ السّلبية التي شابتْ جهود إصلاحاته التّربوية في أربعة مطالب، بإيراد بعض سلبياته الإصلاحية في المطلب الأوّل، وفي المطلب الثّاني سأعرض نموذجا واحدا مِنْ تلامذته الذين تبنَّوْا فكره الإصلاحيّ وخرجوا مِنْ تحت عباءته ثُمَّ أفرطوا في التّحرّر بمبرّر الإصلاح، وفي المطلب الثّالث سأورد جملة مِنَ المواقف التي استعان فيها بالاستعمار وتغاضيه عن قيمه التّغريبية حتّى يَسْمَح له بالإصلاح، وفي المطلب الرّابع سأتناول دخوله إلى الماسونية التي رفعتْ بعض الشّعارات البرّاقة، ودعوته إلى التّقريب بين الأديان وتوحيدها لتحقيق التّعايش والسّلام العالميّ.

وقد قيّم الشّيخ محمّد عبدَه حصيلة نشاطاته الإصلاحيّة بقوله: "أصبتُ نجاحا في كثير ممّا عنيتُ به، وأخفقتُ في كثير ممّا وجّهتُ عزيمتي إليه، ولعلّ ذلك أسباب بعضها ممّا غرز في طبعي، وشيء منها احتفّ حولي، وطائفة منها مِنْ أصالتي في الرّأي أو خطلي، ومَنِ الذي يستطيع أنْ يفصل ذلك غيري، حتّى يكون إنْ شاء الله عِبْرة لمن يأتي مِنْ بعدي، لهذا رأيتُ أنْ أكتبَ ما لقيتُ وأُثبِتَ ما صادفتُ مِنْ لدن ما عقِلتُ، منبّها على ما فِيَ مِنْ معايب، وعلى إحسان الله إليَّ في بعض المزايا، وعلى علل الحوادث التي مررتُ بها أو مرّتْ بي في أطوار حياتي"[1]، وقال أحمد أمين عن مدرسته الإصلاحيّة: "وكانتْ مدرسته هذه مدرسةٌ قويّةُ الأثرِ واضحةُ المعالِم، وحسبنا دليلا على هذا أنّ أكثر مَنْ تَصدَّوْا للإصلاح الدّينيّ أو الاجتماعيّ أو السّياسيّ بعدَه كانوا مِنْ تلاميذه أو مِنْ أصدقائه المتأثّرين به".[2]

---

[1] طاهر الطناحي، مذكّرات الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص20.

[2] أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مصدر سابق: ص337.

المبحث الأوّل: المخرجات الإيجابية

المطلب الأوّل: آليات الإصلاح التّربوي

المطلب الثّاني: طرائق ومقرّرات التّدريس

المطلب الثّالث: بعض روّاد الإصلاح التّربوي

المطلب الرّابع: المدارس الإصلاحية المصرية

المطلب الخامس: تأثير إصلاحاته التّربوية في العالم

المبحث الأوّل: المخرجات الإيجابيّـة

تمهيد:

قضى الشّيخ محمّد عبدَه ما يقارب مِنْ أربعة عقود مِنْ عمره في الإصلاح عموما وفي الإصلاح التّربوي على وجه الخصوص الذي ركّز فيه ثقله، ولمّا عيّنه الوزير رياض باشا على رأس جريدة الوقائع المصرية سنة 1880م، كتب فيها ما يزيد عن خمسين مقالا خلال رئاسته لها حتّى انقطع عنها بالنّفي مِنْ مصر سنة 1882م بعدما دام عمله فيها زهاء ثمانية عشر شهرا[1]، وفي مقالاته تلك اهتمّ كثيرا بتربية أمّته وبما يحقّق لها نهضة حقيقية حتّى يرقى بها إلى مصافّ الدّول المتقدّمة.

وفي مسيرته الإصلاحية قام بأعمال كثيرة مِنْ مواقع عديدة؛ مِنْ منصب رئيس جريدة تحرير الوقائع المصرية، ومِنَ الأزهر بصفته رئيسا لمشيخته، ومِنْ غيرهما مِنَ المناصب الحكومية، فكان ينظر في سياسة الحكومة وفي أعمال الموظّفين وفي واقع النّاس ويتناولها بالنّقد والتّوجيه لإصلاحها.

ورغم أنّ جهوده في الإصلاح التّربويّ لم تَخْلُ مِنْ نقص؛ لكنّ أعمال البشر -مهما كانت مقاماتهم ومستوياتهم وتكوينهم وأساليبهم ووسائلهم- يعتريها الخلل حتما، ونجاحاتهم تبقى نسبيّة، ومِنْ فضل الله تعالى على عباده أنّه يضاعف لهم الأجر أجرَيْن؛ على الاجتهاد وعلى الصّواب في العمل، وإنْ أخطأوا يأجرهم على اجتهادهم فقط، فعن عمرو بن العاص ﷺ أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»[رواه الشيخان].[2]

والشّيخ محمّد عبدَه كان مِنْ روّاد الإصلاح الذين أثّروا في نهضة الشّرق الإسلاميّ بمواءمته بين مرجعيّة أمّته الإسلاميّة وموروثها الأصيل، وبين متغيّرات عصره ومنجزاته الحديثة، فكانت مدرسته وسطا بين تيّارَيْن متناقضَيْن هما تيارا التّحرّر والتّزمّت[3]، ومع ذلك استطاع أنْ يحقّق إصلاحات محترمة في التّربية لا يمكن إغفالها أو التّهوين منها، فمنها ما تحقّق في حياته بمبادراته الفرديّة ومِنَ مناصبه الحكومية، ومنها ما تحقّق بعد مماته، فضاهت نجاحاته أعمال مؤسّسات قائمة بذاتها.

ولتقييم التّجربة الإصلاحية للشّيخ محمّد عبدَه في المجال التّربويّ، وتجلية مخرجاتها الإيجابية أجملتها في خمسة مطالب، تناولتُ في المطلب الأوّل آليات الإصلاح التّربويّ، وتطرّقتُ في المطلب الثّاني إلى طرائق ومقرّرات التّدريس، في حين ضمّنتُ المطلب الثّالث بعض النّماذج البارزة في الإصلاح التّربويّ ممَّنْ تأثّروا بمنهجه الإصلاحيّ، ثم استعرضتُ في المطلب الرّابع المدارس الإصلاحية المصريّة التي تفرّعتْ عنه، ثمّ تناولتُ في المطلب الخامس؛ تأثير وانتشار أفكاره الإصلاحيّة والتّربويّة في العالم.

---

[1] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص49.

[2] أخرجه البخاري في كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب: أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، ج2، ص54، حديث رقم: 1153، وأخرجه مسلم في كتاب: الأقضية، باب: بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، ج3، ص1342، حديث رقم: 1716.

[3] ينظر: أحمد محمود عيساوي، الحركات التّجديدية والإصلاحية الحديثة والمعاصرة في العالم الإسلامي، مرجع سابق: ص240.

المطلب الأوّل: آليات الإصلاح التّربـويّ

اجتهد الشّيخ محمّد عبدَه في وضع آليات عملية لإصلاح الأوضاع التّربوية المتردّية السّائدة، فتتبّع طرائق التّعليم ومناهجه ومقرّراته، وركّز على حيثياته الجليلة دون سفسافها، حتّى يستطيع تشخيص علل التّعليم ويصف الأدوية المناسبة له، ويجسّد الإصلاحات التّربوية التي تستوعب التّعليم شكلا ومضمونا، ويواكب أساليبه العصرية، ويكون ناجعا في تخريج أجيال تُحسن الإصلاح وتحقّق النّهضة.

وخاض في سبيل ذلك تجربة الإصلاح التّربويّ، ووظّف جملة مِنَ الآليات للرّقي بأمّته وتحقيق ازدهارها وتقدّمها، ففَعَّلَ آلية التّعليم، وحَيَّنَ الكتابة تماشيا مع التّطوّرات الحاصلة محلّيّا وإقليميّا باعتماده الكتابة الصّحفيّة حتّى يطّلع عليها أكبر قدر مِنَ الفئات والشّرائح الاجتماعية، مع اقتناصه الفرص السّياسية السّانحة لتوظيفها في خدمة التّربية وإصلاح ما فسد فيها، وانتقاده للممارسات التّعليمية المعيقة عن التّربية بتقديم البدائل الكفيلة لإنجاحها، وممارسته للتّربية والتّعليم بالمؤسّسات التّربوية حتّى تتأسّى به، وكذا مساهمته في بناء المزيد منها، وسعيه لتمويل قضايا التّربية ومكافأة المدرّسين وتشجيعهم للتّفاني وتقديم الأفضل، وقيامه بتكوين متخصّصين تربويّين وإيفاد بعثات إلى البلاد الأوروبّية لتعميق تكوينهم، كما وظّف جميع المجالات الأخرى والمناصب التي تقلّدها، وانخرط في اللّجان ذات الصّلة وشكّل بعضها الآخر، وعقد المؤتمرات، وأنشأ مؤسّسات الطّباعة للارتقاء بالتّربية وتجسيد الإصلاحات التّربوية وسْط التّدافع بين الأطراف المصرية، وقد كان ذلك على التّفصيل الآتي:

الفرع الأوّل: التّركيز على التّعليم واقتناص الفرص السّياسية لتحقيق التّقـدّم

يعدّ الشّيخ محمّد عبدَه المؤسّس الحقيقيّ والأب الرّوحيّ والفكريّ لجيل الإصلاحيّين، لتركيزه في إصلاحه التّربويّ على التّعليم، وبعد عودته مِنَ المنفى صار يعتقد يقينا بأنّ النّهضة الإسلامية لن تكون إلّا بالتّعليم وبإصلاح التّعليم، وأنّ إصلاح النّاس لا يكون إلّا بتعليمهم وتهذيبهم[1]، وفي إصلاحه نقد إدارة التّعليم في المدارس، وكتب في شؤونه باستمرار، فهو يرى بأنّ النّهوض بالأمّة والارتقاء بها ثقافيّا وتربويّا ليس بالأمر الهيّن كما يظنّ بعض المتعلّمين الذين يحسبون أنّ ذلك يتمّ بمجرّد تحصيل شتات العلوم الأوروبّية أو محاكاتهم في أحوال معيشتهم في المباني والأزياء والعادات والكماليات المترفة، فهذا يفضي إلى تنكّب الطّريق المستقيم وإغفال الطّريق السّويّ المؤدّي إلى المجد الحقيقيّ.

إنّ النّهوض بالأمّة حسب الشّيخ محمّد عبدَه لا يكون إلّا بتربيتها وتهذيب أخلاقها والسّموّ بتفكيرها، وهذه الأعمال طريقها طويل لا يتمّ إصلاحها إلّا بالتّعليم، لذلك بذل كلّ ما في وسعه لإصلاح المؤسّسات التّربوية والدّينية، ولمّا قامت الثّورة العُرابية سنة 1881م لم يتوان في الالتحاق بها وخوض غمارها، ودعا بمقالاته الصّحفيّة إلى الدّفاع عن حكومةٍ شوريةٍ، ونبّه على مساوئ التّدخّل الأجنبيّ، حتّى صار ينظر إليه المصريّون على أنّه مدبّر الثّورة العُرابية وزعيمها ومعلّم الثّوّار وملهم أفكارهم.

فخالف بمنهجه التّربويّ المنهج السّياسي والثّوريّ للزّعماء العسكريّين، وانتقد أعمالهم ولم يوافقهم في التجائهم إلى القوّة، حتّى عدّه محمّد رشيد رضا خصما للثّورة، ولمّا انتقد زعماءها جهارا

---

[1] ينظر: محمّد حامد النّاصر، العصرانيون بين مزاعم التّجديد وميادين التّغريب، مرجع سابق: ص37.

توعّدوه وهدّدوه إذا لم يَكُفَّ عن معارضتهم ولم ينضوِ تحت لوائهم، ودار خلاف بينه وبين أحمد عُرابي وشيعته العسكريّين الذين طالبوا بحكومة نيابية دستورية، فعارضهم ودعاهم إلى وجوب البدءِ بالتّربية والتّعليم لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النّيابية، ثمّ طَمْأَنَ عُرابي بأنّه يضمن له أكثر ممّا يطلب في بضع سنين إذا تحلّى بالهدوء والسّكينة، وذكر للثّوار بأنّ الحكومات الاستبدادية لا يمكن تقييد سلطتها وإلزامها بالشّورى والعدل والمساواة بين الرّعية إلّا بالتّربية الصّحيحة والتّعليم النّافع.[1]

ولمّا رأى الشّيخ محمّد عبدَه عدم نجاعة منهجه السّياسيّ في الإصلاح؛ أشار على أستاذه الأفغانيّ ترك السّياسة واعتمد على التّربية وقال له: "أرى أنْ نترك السّياسة ونذهب إلى مجهل مِنْ مجاهل الأرض لا يعرفنا فيه أحد، نختار مِنْ أهله عشرة فتيان أو أكثر مِنَ الأذكياء السّليمي الفطرة، فنربّيهم على منهجنا، ونوجّه وجوههم إلى مقصدنا، فإذا أتيح لكلّ واحد منهم تربية عشرة آخرين، لا تمضي بضع سنين إلّا ولدينا مئة قائد مِنْ قوّاد الجهاد في سبيل الإصلاح، ومِنْ هؤلاء يرجى الفلاح!". فقال له السيّد: "إنّما أنت مثبّط"[2]، ولمّا نفي الأفغاني مِنْ مصر، وفشلت الثّورة العُرابية، توجّه الشّيخ محمّد عبدَه إلى تربية الصّفوة وابتعد عن السّياسة وركّز على الإصلاح التّربويّ إلى آخر لحظة مِنْ حياته[3]، وترك السّياسة وتحفّظ منها لأنّها وُظِّفتْ في اضطهاد الفكر والعلم والدّين، وقال: "فإنْ شئتَ أنْ تقول أنّ السّياسة تضطهد الفكر أو العلم أو الدّين، فأنا معك مِنَ الشّاهدين...ما دخلتِ السّياسة في شيء إلّا أفسدته...أعوذ بالله مِنَ السّياسة ومِنْ ساس ويسوس وسائس ومسوس".[4]

وعندما فشلت تجربته في السّياسة تركها واتّخذ منها موقفا سلبيا، وجعل الأولوية للتّربية لإحداث التّغيير الهادئ المجدي، ودعا إلى تهيئة المصريّين للحكم الشّوريّ بالتّربية والتّعليم، وتوجّه لإصلاح المؤسّسات الدّينيّة والتّربويّة لاختلالها وفساد أخلاق معلّميها، وقدّم للسّلطة لوائح الإصلاح التّربويّ حتّى تعينه على تنفيذها للنّهوض بأمّته وتحريرها مِنَ الاستبداد الدّاخلي والاستعمار الخارجي.

وجعل التّربية أساسا لإصلاح المجالات الأخرى، وأخذ ينشر العلم بين النّاس، وشرع يجدّد مناهج التّدريس حتّى توافق الأساليب الحديثة لتكوين جيل قادر على تحرير وطنه، وكتب عدّة مقالات تربويّة أثّرتْ إيجابا على نظارة المعارف التي أنشأتْ المجلس الأعلى للمعارف، وعيّنتْ الشّيخ محمّد عبدَه عضوا فيه، فاقترح عليها عدّة مقترحات عملية، واستطاع بقوّة حجّته إقناع المجلس بمقترحاته.[5]

ولمّا أمر السّلطان عبد الحميد بإصلاح المدارس والتّعليم، رفع الشّيخ محمّد عبدَه لوائح الإصلاح إلى الجهات الرّسمية[6]، وكتب ثلاث لوائح لإصلاح التّعليم، كانت الأولى لإصلاح الدّولة العثمانية قدّمها

---

[1] ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص51و52.

[2] قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص247.

[3] ينظر: محمّد عمارة، مسلمون ثوار، مرجع سابق: ص442.

[4] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص891.

[5] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، المرجع السابق: ص187.

[6] ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي، مرجع سابق: ص29.

إلى شيخ الإسلام في الأستانة ليرفعها إلى السّلطان عبد الحميد، والثّانية لإصلاح سوريا قدّمها إلى واليها، والثّالثة قدّمها إلى اللّورد كرومر حاكم بريطانيا في مصر لإصلاح التّربية الدّينية والتّعليم المصري.[1]

وهدفه مِنَ اللّائحة التي وجّهها إلى كرومر، هو إنقاذ الشّعب المصريّ مِنَ الجهل والتّخلّف، وإيجاد المواطن الصّالح الذي يخدم مجتمعه وأمّته، وتربية الأمّة على المبادئ الأصيلة والقيم السّامية.

ويرى محمّد رشيد رضا بأنّ شيخه لو اجتنب السّياسة في إصلاحاته لكان أفضل فقال: "فالطّريقة المثلى اجتنابها ومُداراة أهلها وإقناعهم بكلّ وسائل الإقناع الممكنة بأنّ الإصلاح العلميّ أو الدّينيّ المطلوب هو خير لبلادهم ورعاياهم، ونافع لهم وغير ضارٍّ بهم...فإنِ استطاع بهذه المسالمة والمحاسنة أنْ يجد مساعدة مِنَ الحكّام بشرط ترك الحرّية له في العمل فذلك أفضل وأكمل"[2]، لكنّه زاول السّياسة بتقرّبه مِنْ كرومر وكتابة اللّوائح التّربوية إليه، وقدّم له الاستشارات السّياسية والقانونية القضائية والتّربوية، فاعتبرها غازي التّوبة تعاونا مع الاحتلال البريطاني وعمالة له وتسليما لقراراته[3]، في حين اعتبرها محمّد رشيد رضا مُداراة للاحتلال الذي هو في موقع قوّة وبيده زمام الأمور، ولولا مواقف الشّيخ تلك لما أمكنه دخول مصر، فقال عن شيخه: "فإنّه كان يرى أنّ استبداد السّياسة لا علاج له إلّا وحدة الأمّة وجَمْعُ كلمتها، وأنّ الطّريق المستقيم الموصل إلى هذه الغاية هو تربيتها وتعليمها على الوجه الذي يراه هو، ولولا هذه المداراة لما أمكن له أنْ يعيش في مصر، فإذا لم يخرجه الإنجليز منها لسعة حرّية لورد كرومر، فلا شكّ في أنّ الخديوي كان يخرجه ويخرجني منها".[4]

إنّ إقامة الشّيخ محمّد عبدَه لعلاقات طيّبة مع السّلطة ومع الاستعمار ومهادنتهما وتذبذبه في الاشتغال بالسّياسية وتركيزه على الإصلاح التّربويّ والاجتماعيّ والدّينيّ كان مقصودا؛ حتّى يسمحون له بمواصلة الإصلاح والتّغيير[5]، فاتّبع هذا المنهج اتّقاء لشرّهم وطمعا في السّماح له بمزاولة الإصلاح.

الفرع الثّاني: توظيف الكتابة الصّحفيّة في انتقاد الممارسات التّعليمية المعيقة عن الإصلاح

كان الشّيخ محمّد عبدَه حريصا على تربية ناشئة مصريّة لتحصينها مِنَ الاختراق العقديّ الذي قد يؤثّر على تفكيرها وأخلاقها ويغيّر دينها ويمسخ دينها وهويتها، فكتب في الصّحف المصريّة عن مدى تأثير التّعليم على عقيدة الطّفل، فحذّر الآباء مِنْ إرسال أبنائهم إلى المدارس الأجنبيّة التي ترعاها الإرساليات التبشيريّة التي يتولّى التّعليم والإدارة فيها معلّمون على غير دينهم، فهؤلاء سيؤثّرون حتما على دين الأطفال لصغر سنّهم ويغيّرون عقيدتهم ويؤثّرون على أفكارهم وأخلاقهم.[6]

ففي جريدة الوقائع المصرية كتب مقالا عنوانه: ما هو الفقر الحقيقيّ، ذكر فيه بأنّ الفقر الحقيقيّ لا يقتصر على الجانب المادّيّ فحسب، وإنّما هو أيضا نقصٌ في التّربيةِ وسوءٌ في التّدبير الذي ينعكس بالسّلب على الجوانب المادّية، فالفقر المادّيّ فرع وتبع للفقر الحقيقيّ المتمثّل في فقر التّربية،

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، مجلة المنار، مصدر سابق: مج10، ص673.

[2] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص891.

[3] ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص54- 56.

[4] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السابق: ج1، ص892.

[5] ينظر: أحمد محمود عيساوي، الحركات التّجديدية والإصلاحية الحديثة والمعاصرة في العالم الإسلامي، مرجع سابق: ص265.

[6] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص47.

وأكّد بأنّ قوام الأمّة وصلاحها يكون بالتّربية، وبها يزيد وعيُها، وتعرف حقيقةَ الأشياءِ، وتُحسنُ التّمييز بين النّافع والضّار، وتؤدّي رسالتها في الحياة على أكمل وجه.

ولمّا لاحظ الشّيخ محمّد عبدَه في مصر وفي تونس وفي غيرهما مِنَ البلاد العربية شيوع استعجال تحصيل الشّهادة على حساب التّحصيل العلميّ بين المتعلّمين بسبب حرص أولياء الأمور على توجيه أبنائهم لتحصيل الشّهادات العلمية لتولّي الوظائف الحكومية السّامية خصوصا في المدارس الأميرية التي تُعِدّ أبناء الأمراء والميسورين لها ولمّا رأى بأنّ مقاصد التّعليم الموضوعة لم تتحقّق، كان لها بالمرصاد بالنّقد في كتاباته الصّحفية، وبالتأليف والتّدريس ووضع المقرّرات المناسبة لها.[1]

إنّ شيوع مثل ذلك التّفكير وسْط المتعلّمين جعل هِمَمَهم قاصرة وطموحاتهم مادّية بحتة، فتخرّجوا منها ضعاف البصائر ضيّقي الأفكار، وغاب التّجديد في العلوم وانعدم الابتكار في المسائل وتقاعستِ الهمم، وصار الاجتهاد حفظا وترديدا، وتكاثرتْ هذه العلل في المجتمعات الإسلامية، وصارتْ تشكِّل عراقيل في طريق التّربية الصّحيحة والتّعليم القويم والإصلاح السّديد.[2]

لذلك سعى بكلّ ما أُوتي مِنْ علم وجهد مِنْ جميع المواقع وبكلّ الطّرق والوسائل والأساليب المتاحة المشروعة، وانتقد وقَيَّمَ وقوّم الأوضاع التّعليمية السّائدة والأفكار السّقيمة بين المعلّمين والمتعلّمين؛ بالتّأليف والكتابات الصّحفيّة وبالدّروس المسجدية والأزهرية والمدرسية والجمعوية، وبَذَلَ جهودا جبّارة لإيجاد بديل تربويّ ناجع عمّا هو سائد في المؤسّسات التّربويّة المصريّة الرّسمية وغير المصريّة، لكنه اصطدم بواقع معقّد وذهنيات لا ترضى عن الجمود والتّقليد بديلا، ووجد معارضة قويّة أفقيّا وعموديّا، ومع ذلك مضى يصلح أوضاع أمّته حتّى توفّاه الله تعالى.

الفرع الثّالث: الإسهام في زيادة المؤسّسات التّربويـة

لقد كان الشّيخ محمّد عبدَه ميّالا إلى التّربية والتّعليم بالفطرة، ومارسهما برغبة وحبّ، ونمّى قدراته التّربوية مع مرور الوقت حتّى صار مصلحا تربويّا وزعيم مدرسة لا يشقّ له غبار، حيث دَرَّس بالأزهر وبدار العلوم قبل نفيه مِنْ مصر، وفي منفاه ببيروت دَرَّس في المدرسة السّلطانية وفي المسجد العُمَرِيّ، وبعد عودته إلى مصر درَّس في أواخر حياته بالأزهر، وشارك في إعداد البرامج لإصلاح التّعليم به وبغيره مِنَ المؤسّسات، فهو يرى بأنّ التّعليم هو طريق النّهضة إلى درجة أنّه كان يغضّ الطّرف عن مفاسد السّلطة لتنفيذ إصلاحاته التّربوية، فالتّربية عنده تمثّل كلّ شيء، وعليها يُبنى كلّ شيء.[3]

لهذا بادر بالتّعليم وبإصلاح مؤسّسات التّعليم، وشرع يطبّق ما تلقّاه عن شيوخه وأساتذته؛ كشيخه الصّوفي درويش خضر، وأستاذه الفيلسوف جمال الدّين الأفغانيّ، فدرَّس في الأزهر وفي بيته وفي مدرسة دار العلوم والألسن وغيرهما، وبتزايد السكّان والتّلاميذ والطّلبة وإقبال العوامّ على التّعلّم، طلب مِنَ الحكومة أنْ تزيد في بناء المدارس، وطَلَبَ مِنَ الأغنياء التّبرّع للجمعية الخيرية الإسلامية، فوهبوه الأراضي وأغدقوا عليه بالأموال، فبنى المدارس وجهّزها وأنفق على المتعلّمين الفقراء.

---

[1] ينظر: محمّد الطّاهر بن عاشور، أليس الصّبح بقريب، مرجع سابق: ص117.

[2] ينظر: بلقاسم الغالي، من أعلام الزيتونة- شيخ الجامع الأعظم-محمّد الطّاهر بن عاشور، مرجع سابق: ص195.

[3] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص133و134.

فكان له بذلك دور بارز في بناء المدارس وزيادة أعدادها خلال ممارسته للتّعليم ورئاسته للجمعية الخيرية الإسلامية، وتولّيه للمناصب السّامية الحكومية، وعضويته في مجالس الأزهر والأوقاف ونظارة المعارف، حيث استمرّ بناؤها إلى ما بعد وفاته، ومع ذلك بَقيتْ أزمة قلّة المدارس قائمة.[1]

والسّبب في قلّة المدارس هو التّزايد السّكّانيّ وسوء التّخطيط في بناء المؤسّسات التّعليمية، وعدم وضع دراسات دورية لتدارك النّقص واستيعاب الأعداد المتزايدة للمتمدرسين حتّى يدرسون في مؤسّسات تمكّنهم مِنْ تلقّي تعليم نوعيّ ناجح يخرّج نخبا تسهم في تنمية شاملة للمجتمع، فقام بإصلاحات هيكلية، زاد بموجبها مِنْ عدد الفصول للقضاء على الاكتظاظ في المدارس، وبنى الأجنحة الصّحّية والمرشّات في الأزهر، واستحدث صيدلية للطّلبة وسخّر لهم طبيبا يعاينهم، وأنار أروقة الأزهر، فكلّ هذه الإصلاحات ساعدتْ على التّحصيل العلميّ، ومكّنتْ كلّ شرائح المجتمع مِنَ التّربية والتّعليم.

الفرع الرّابع: تسخير مختلف المجالات والمناصب في الإصلاح التّربـويّ

تعتبر التّربية عند الشّيخ محمّد عبدَه مِنَ المجالات الحيوية في حياة الأمّة العربيّة والإسلاميّة، لذلك أَوْلَاها كلّ الرّعاية والاهتمام لإصلاحها، ثمَّ الانتقال منها إلى إصلاح المجالات الأخرى، فكانت إصلاحاته شاملة انطلاقا مِنْ معايشته لواقع التّربية في مصر عن قرب بصفته متعلّما ثمّ معلّما، وقد اعترضته في سبيل تحقيق ذلك صعوبات وعراقيل كثيرة منعته مِنْ تجسيد كلّ طموحاته الإصلاحية.

لقد كان يحمل قناعة راسخة بأنّ الإصلاح الذي يُمكّنه مِنْ بلوغ أهدافه ومقاصده السّامية؛ هو الإصلاح الذي يركّز على التّربية الدّينيّة، لذلك رأى بأنّه مِنَ الواجب إصلاح الاعتقاد الذي طاله الفساد وتنقيته مِنَ البدع والخرافات، وجعل وسيلته إلى ذلك إصلاح برامج التّعليم في المدارس، ووضع مناهج مناسبة له، وبثّ مبادئ الدّين الأصيلة فيه بعيدا عن الاختلافات والتّفسيرات الضيّقة التي تحكمها الأهواء والقناعات المذهبيّة، والتّوسّع في تدريس التّاريخ الإسلامي، بالإضافة إلى الكتابة الصّحفيّة، ومزاولة الإصلاح اللّغويّ والأدبيّ الذي ضمّنه مؤلّفاته وشروحه لأمّهات الكتب المتخصّصة، كما أنّ قناعته بضرورة الإصلاح التّربويّ لم تمنعه مِنْ خوض غمار السّياسة ومساندة الثّورة العُرابية، لكنّ فشلها واحتلال الإنجليز لمصر ونفيه منها، جعله يركّز جهوده بعد عودته مِنَ المنفى إلى مصر على الإصلاح التّربويّ حتّى وفاته، واتّخذه سبيلا ووسيلة لإجلاء الاستعمار البريطاني، بعكس بعض النّخب التي كانت ترى بأنّ إجلاء الاستعمار أَوْلَى مِنَ التّربية، وبإجلائه يتحقّق الإصلاح التّربويّ، وخالف شيوخ الأزهر الذين دعَوْا للإبقاء على المناهج والمقرّرات والطّرائق التّقليدية في التّعليم، وخالف الذين يرون بأنّ الإصلاح السّياسيّ والثّوريّ هو الأَوْلَى والمخلّص مِنْ كلّ التّراكمات الموجودة.[2]

لذلك جعل مِنَ التّربية ومِنْ إصلاح الأزهر والأوقاف وسيلة للإصلاح الاجتماعيّ والدّينيّ، وعَمِلَ على إصلاح التّربية في مصر وما يكتنفها مِنْ جهل وتخلّف وفُرقة واستبداد، وباشر الإصلاح التّربويّ والدّينيّ، واجتهد في تنقية الإسلام مِنَ الشّوائب العالقة به، وتصحيح المفاهيم الخاطئة المُشوّهة له.[3]

---

[1] ينظر: محمود قمبر، الإصلاح التربوي في مصر، مرجع سابق: ص28.

[2] ينظر: سعيد زايد، الإمام محمّد عبدَه المصلح والمجدّد، مرجع سابق: ص255.

[3] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص25و26.

ولتحقيق الإصلاح الشّامل والإصلاح التّربويّ خصوصا؛ سخّر له المناصب التي تقلّدها، والصّحافة التي أشرف عليها، والكتب التي ألّفها، واللّوائح التي أرسلها إلى الجهات المسؤولة عن آلياته العملية فيه، وركّز على إصلاح المؤسّسات التّربوية والدّينية وعلى رأسها الأزهر لمكانته الجليلة في نفوس المسلمين، ولدوره التّاريخي في الحفاظ على هويّة الأمّة الإسلاميّة، دون أنْ يغفل عن إصلاح المؤسّسات التّربوية الأخرى بإصلاح علومها وأخلاقِ معلّميها وأساليبهم وطرائقهم، كما قدّم مقترحاته الإصلاحية إلى الحكومة للنّهوض بالتّربية والتّعليم، موظّفا خبرته وكلّ ما يملكه مِنْ علوم ومعارف، وتوجّه أيضا إلى إصلاح نظام التّعليم في الأزهر وفي مدرسة دار العلوم وفي مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية، كما طالتْ إصلاحاته بعض المؤسّسات التّربوية خارج مصر؛ فأدخل جملة مِنَ الإصلاحات على النّظام التّعليميّ والإداريّ للمدرسة السّلطانية في بيروت، فجدّد مناهجها ومقرّراتها وطرائقها التّدريسيّة، وشجّع تلامذتها على النّقاش والحوار والأخذ والردّ، ودرّبهم على النّقد والتّحليل والاستنتاج.

الفرع الخامس: تكوين اللّجان وعقد المؤتمرات وإنشاء مؤسّسات الطّباعــة

حرص الشّيخ محمّد عبدَه أنْ يكون ضمن اللّجان التي تشكّلها الحكومة لدراسة قضايا التّربية والتّعليم، كما حرص على تكوين مثل هذه اللّجان في المؤسّسات التي شكّلها، وقد كان سبّاقا لاتّخاذ الإجراءات اللّازمة لوضع وتقنين كلّ ما تقتضيه مصلحة قطاع التّربية، كما كان يعقد ما يشبه المؤتمرات الدّولية وينظّم الاجتماعات الدّورية لدراسة القضايا التّربوية والاجتماعية والسّياسية، ويشارك فيها بفاعلية إيجابية بخطابات جوهرية، ويقدّم تقارير تفصيلية عنها، ويدلي فيها بأفكاره وآرائه وتوجيهاته وخططه التي تنهض به دون أنْ يغفل عن تقديمها مكتوبة إلى الجهات الرّسمية لتطبيقها.

وكان ينشئ مؤسّسات الطّباعة ويشرف على المطبوعات التّربوية والصّحفيّة التي أُسنِدت إليه، ويبادر لخدمة التّربية انطلاقا مِنَ الصّلاحيات الممنوحة له مِنَ الحكومة، ويرى بأنّ الحكومة هي المسؤولة عن نشر الكتب المفيدة والتّشجيع على تأليفها وخاصّة الكتب العلميّة، ولمّا ترأّس جريدة الوقائع المصرية تناول شؤون التّربية والتّعليم، واستحدث فيها قسما خاصّا ذكر فيه آراءه وأورد ما لا يعبّر عن رأي الحكومة منتقدا سياستها بجراءة، وقدّم مِنْ خلالها توجيهات مصلحيّة هامّة[1]، وجعل الصّحافة منبرا لعرض قضايا التّعليم وعرض أفكاره لإصلاح التّربية والتّعليم وطرق ومناهج إصلاحها، وكتب فيها كثيرا مِنَ المقالات حول التّربية، وانتقد المدارس والمعلّمين وطرائق التّدريس وسياسة التّعليم، وأظهر ما فيها مِنْ عجز، فنتج عن ذلك إنشاء المجلس الأعلى للمعارف سنة 1881م.[2]

الفرع السّادس: تكوين متخصّصين تربويّين وإيفاد بعثات إلى الخارج للتّكويـن

قام الشّيخ محمّد عبدَه بتكوين خبراء متخصّصين في التّربية حتّى يتولّوا مهمّة التّربية والتّعليم في المؤسّسات التّربوية الحكومية، كما عمل محرّرا وكاتبا في الصّحافة وأشرف على تكوين العاملين فيها على الكتابة الصّحفيّة الهادفة بأسلوب رصين ولغة سليمة بعيدا عن الصّنعة اللّفظية والسّجع

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص76و77.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص74.

المبتذل، وأرشدهم إلى ضرورة التّركيز على الأفكار والمضامين لا على الألفاظ والعبارات الشّكلية، ذلك أنّ الصّحافة بالنّسبة إليه تساعد على تربية الشّعب وتهذيبه، وإنهاض المجتمع وتطويره كذلك.[1]

ولتعميق رصيده العلميّ والمعرفيّ؛ سافر إلى فرنسا بعد سِنّ الأربعين وتعلّم اللّغة الفرنسية وأتقنها وصار يكتب بها ويتكلّمها ويترجم منها إلى اللّغة العربية كما فعل مع كتاب التّربية لصاحبه بْلنْتْ الذي ترجمه إلى العربيّة، قام بذلك حتّى يتعرّف هو وأبناء بلده على حضارة الأوروبّيّين، ولأخذ ما يخدم الأمّة في إطار الانفتاح والتّعايش مع العالم الخارجيّ الذي صار قرية صغيرة، تجسيدا لقوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾[سورة الحجرات].

وقد أكّد محمّد رشيد رضا ذلك وذكر بأنّ شيخه محمّد عبدَه يرى بأنّه لا يمكن لأحد خدمة أمّته والدّفاع عنها إذا لم يكن يعرف واحدة مِنَ اللّغات الأوروبّية نظرا لتشابك مصالح المسلمين مع غيرهم، ثمّ نقل عنه قوله: "سافرتُ إلى فرنسا وإلى سويسرا عدّة مرّات في أيّام العطلة الصّيفيّة وكنتُ أحضر دروس العطلة في كلّية جنيف وبهذه الطّريقة تعلّمتُ اللّغة الفرنساوية في أوقات الفراغ".[2]

وفي الوقت الرّاهن تقوم الدّول والهيئات بإرسال كفاءاتها وخبرائها وأساتذتها وطلبتها إلى الدّول المتطوّرة في بعثات علمية وتكوينية للرّفع مِنْ مستواهم العلميّ والمعرفيّ، وتطوير كفاءاتهم والاستفادة مِنْ خبرات غيرهم، وهو ما قام به الشّيخ محمّد عبدَه، لكن بعض أعضاء تلك البعثات حافظ على قيم ومبادئ دينه وجَلَبَ ما ينفع أمّته، وبعضهم الآخر انبهر بالحضارة الغربيّة التي سلبته دينه وعقله، ورجع متنكّرا لأمّته وأخذ يروّج للأفكار الدّخيلة عليها، بل ومنهم مَنْ صار مِعْوَلَ هدم لثوابتها ومقوّماتها.

الفرع السّابع: تمويل قضايا التّربية ومكافأة المدرّسين لتجسيد الإصلاح

يرى الشّيخ محمّد عبدَه ضرورة زيادة الإنفاق على الإصلاح، فهو السّبيل لحياة السّلطة والرّعيّة، وأنّ بَذْلَ الإنفاق على التّربية أفضل منه في بذلِه على غيرها، لكونها -التّربية- الحصن الحقيقيّ للبلاد مِنْ جيوش الفساد الذي طال الحاكمين والمحكومين على السّواء.[3]

لذلك قام الشّيخ محمّد عبدَه بمعاينة حال التّربية المتردّي في مصر الذي يرجع إلى حملة نابليون على مصر سنة 1798م إلى غاية مزاولته للإصلاح التّربوي، ولمّا وجده يحتاج إلى التّمويل والدّعم المادّيّ؛ بادر ينفق مِنْ ماله حتّى يوفّر متطلّباته والقيام بشؤونه لإصلاحه، وحضّ أرباب المال للجود بأموالهم لبناء المؤسّسات التّربويّة والتّعليمية وتوسعتها، كما أضاف بعض المرافق الضّرورية لتذليل التّعليم للمصريّين وتمكينهم منه، فطلب مِنَ الحكومة ومِنْ سلطة الاحتلال البريطاني تخصيص أرصدة مالية لذلك، ولمّا صار مسؤولا في الأزهر أصدر الأوامر بتخصيص ميزانية مالية لتغطية احتياجات التّربية.

ولإنجاح إصلاحاته التّربوية رغّب المدرّسين في وظائفهم، ودعاهم إلى التّفاني في أداء واجباتهم، ومضاعفة الجهود في تعليم التّلاميذ وتربيتهم على الأخلاق الفاضلة وتهذيب نفوسهم، حتّى يكونوا أفرادا صالحين في المجتمع ورجالا يعوّل عليهم في خدمة العباد والبلاد، ورصد لهم مكافآت مالية تشجيعا لهم

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التّربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص74.

[2] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص105.

[3] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص124.

على تفانيهم في عملهم وترغيبا لهم للبقاء في وظائفهم، كما سعى إلى الزّيادة في رواتبهم، ليقينه بأنّ المكافآت المادّية لها تأثير إيجابيّ عليهم أكثر مِنَ المدح والشّكر والثّناء اللّفظيّ، فقد أُثِرَ عنه أنّه كان يقول: "فإنّ مكافأة الشّكر والثّناء -وإنْ كانت واجبة- وهي مِنْ أجلّ المكافأة وأجملها ولها تأثير في جلب الرّغبات وتقوية العزائم، لكنّها لا تلتصق بالقلب التصاق النّقود والمساعدة المعاشية".[1]

المطلب الثّاني: طرائـق ومقـرّرات التّدريــس

بعد أنْ تلقّى الشّيخ محمّد عبدَه تعليمه الأُوّليّ بقريته محلّة نصر انتقل إلى الجامع الأحمدي، ومنه إلى الجامع الأزهر لتلقّي العلم العميق، وبعد تخرّجه فيه عمل به مدرّسا، فكانت له مآخذ على طريقة التّدريس فيه، حينها اختطّ لنفسه منهجا مخالفا يقوم على التّحليل والنّقد والحوار.[2]

وبرجوعه مِنَ المنفى إلى مصر شرع في إصلاحاته التّربويّة التي تَوَجَّهَ بها مكتوبة إلى اللّورد كرومر الحاكم الفعلي لمصر، عساه يصلح شؤون التّربية والتّعليم في بلده، وذلك بعدما قدّم تعهّدا لأصدقائه الذين توسّطوا له عند الخديوي والإنجليز لدخول مصر؛ بعدم الاشتغال بالسّياسة رأسا.

فوضع لائحة لإصلاح الأزهر، رمى مِنْ خلالها إلى إزالة الحشو في المناهج، وإضافة علوم جديدة يستفيد منها التّلاميذ، وعدم إهانتهم والقسوة عليهم، حتى تُنمَّى فيهم عزّة النّفس، وقد ترجم مضمون لائحته التّربوية عمليّا بمتابعة القائمين على التّدريس ومراقبتهم، وتثبيت حُبِّ وظيفة التّعليم في نفوسهم، ورفع همّتهم تجاهه بجعل هَمِّهم الأكبر هو تأمين المستقبل العلميّ والمعرفيّ والتّربويّ للأجيال التي يعلّمونها، وعدم قصره على تحصيل وظيفة تضمن لهم راتبا شهريّا في الحياة[3]، وذلك بالتّوجّه إلى طرائق ومقرّرات التّدريس والعمل على إصلاحها مِنْ خلال مضامين الفروع الآتية:

الفرع الأوّل: تدوين العلوم والمعـارف

يرى الشّيخ محمّد عبدّه أنّ التّعليم النّاجح هو الذي يُلزِم الطّلّاب الذين يتلقَّوْن العلم في حِلَقِ العلم والمدارس والمعاهد بكتابة ما يسمعونه مِنْ شيوخهم وأستاذتهم حتّى يستفيدوا ويفيدوا غيرهم، لذلك ينبغي على القائم بالعمليّة التّربوية وعلى المزاولين للتّدريس ألّا يسمحوا للتّلاميذ والطّلبة بالاكتفاء بالاستماع للمعلّمين دون الكتابة عنهم، وعليهم أنْ يضيفوا إلى ذلك الكتابة، فالعلم صيد والكتابة قيد، فالعلوم والمعارف التي يحصّلها المتعلّمون معرّضة للضّياع بالنّسيان أو الخلط أو الخرف أو الموت، فإذا قُيِّدَتْ بالكتابة في الدّفاتر يمكن الرّجوع إليها متى دعتِ الحاجة إلى ذلك.

لذلك لمّا طلب محمّد رشيد رضا مِنْ شيخه محمّد عبدَه أنْ يكتب للمسلمين تفسيرا سنة 1896م، أخبره بأنّ التّفسير المسموع أَفْيَدُ وأنفع للمتلقّي مِنَ المكتوب، فالمسموع يستفيد فيه الطّالب مِنْ شيخه بنسبة80%، أمّا المكتوب فلا يستفيد منه سوى 20%، ثمّ ذكر له عدم جدّية طلبة الأزهر

---

[1] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج3، ص38.

[2] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص89.

[3] ينظر: عبد الحليم عويس، التّربية وإصلاح الأمّة في مقالات محمّد عبدَه، مقال على شبكة الألوكة: https://www.alukah.net، تاريخ الإضافة: 2014/3/2م، تاريخ الزيارة: 2020/08/27 في الساعة: 18:00 مساء.

المسلمين وعدم حرصهم على كتابة ما يفيدهم في حِلق العلم، لكونهم لم يكونوا يكتبون دروس التّفسير على ما فيها مِنْ فوائد عظيمة، ولم يكونوا يهتمون بها رغم الحاجة الماسّة إلى كتابتها، باستثناء ما لاحظه على قِبْطِيَيْن مِنْ مدرسة الحقوق كانا يكتبان بين يديه وكانا يراجعانه في بعض ما يكتبان.[1]

فذكر الشّيخ محمّد عبدَه فائدة الاستماع إلى الدّروس والمانع له عن كتابة التّفسير؛ وهو عزوف طلبة العلم عن الكتابة وعدم جدّيتهم في الطّلب، ومع ذلك استطاع تلميذه أنْ يقنعه بكتابة تفسير للأمّة، فكتب تفسير سورة العصر وتفسير جزء عمّ، وشرع في تفسير القرآن الكريم مِنْ سورة الفاتحة إلى الآية 126 مِنْ سورة النّساء الذي استغرق سِتَّ سنين مِنْ سنة 1899م إلى غاية وفاته سنة 1905م، ليكمله مِنْ بعده تلميذه محمّد رشيد رضا على نفس منهج شيخه.

الفرع الثّاني: التّرويح على المتعلّمين

حتّى يحقّق الدّرس الأهداف المسطّرة له والفوائد المرجوة منه؛ ينبغي على الأستاذ النّاجح أنْ يروّح على نفسه وعلى تلامذته بين الحين والآخر ليكسر الملل والسّآمة، وليجدّد النّفس ويحقّق الفائدة أكثر، وأنْ يُطَعِّمَ دروسه بإيراد النّكت العلميّة الهادفة والقصص القصيرة ذات المقاصد السّامية، وهو ما كان حاضرا في دروس الشّيخ محمّد عبدّه التي كان يعقدها في التّفسير وفي غيره مِنَ العلوم.

فقد كانت له فكاهات في الدّرس يقصد بها التّرويح على النّفس إثر الزّواجر المرهبة والمواعظ البالغة، مِنْ ذلك قوله لأحدهم لمّا قال له: "إنّ ما قلتَه لا يوافق عليه الجَمَل -يعني كاتب حاشية تفسير الجَلَالَيْن-، فقال له الشّيخ محمّد عبدَه: "إنّني أقرّر ما يدلّ عليه النّظم الكريم والأسلوب البليغ ولا يعنيني أَوَافَقَ الجَملُ أو الحمارُ عليه أم خالفنا"، وكذلك لمّا كانت الضّجّة في مصر قائمة حول كتاب المرأة الجديدة لقاسم أمين، وكان الشّيخ حينها يُدرّس طلبة الأزهر في حلقة علميّة، دخلتْ ابنةٌ في الثّانية عشر مِنَ العمر وأَسَرَّتْ إلى أبيها كلمةً وخرجتْ، فالتفتَ الشّيوخ إليها، فسكتَ الشّيخ هنيهةً ثُمَّ قال: "إيّاكم تكون دي المرأة الجديدة اللّي بيقولوا عنها!".[2]

المطلب الثّالث: بعض روّاد الإصلاح التّربـويّ

صَاحَبَ الشّيخ محمّد عبدَه أستاذه جمال الدّين الأفغانيّ في مصر وفي المنفى، ورغم تأثّره به إلّا أنّه خالفه وأظهر امتعاضه ونفوره مِنَ انهماكه بالسّياسة، وتأسّف كثيرا على إهمال نبهاء الأمّة لأمر التّربية، لذلك انتقد أستاذه بقوله: "السيّد جمال الدّين رجلٌ عالمٌ، وأعرفُ النّاس بالإسلام وحالة المسلمين، وكان قادرا على النّفع العظيم بالإفادة والتّعليم، ولكنّه وجّه كلّ عنايته إلى السّياسة".[3]

ثُمَّ استقلّ عنه في مجال وطريقة الإصلاح بعد عودته إلى بيروت، وتفرّغ للتّربية والتّعليم وابتعد عن السّياسة وتبعاتها، ولمّا دُعي للتّدريس بالمدرسة السّلطانية وبالجامع العمريّ في بيروت لبّى الدّعوة، كما قدّم دروسا علمية وتربوية في بيته وفي المنتديات العامّة، حضرها أصدقاؤه مِنَ العلماء والوجهاء

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص766.

[2] المصدر نفسه: ج1، ص770.

[3] صلاح زكي أحمد، أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، مرجع سابق: ص67.

مِنْ كلّ الدّيانات والفِرق والإيديولوجيّات إعجابا به وحبّا له وتقديرا لعلمه وحكمته في مناقشة القضايا الشّائكة ومعالجتها بجراءة كبيرة، وفيما يلي ذكر لبعض روّاد الإصلاح الذين نهلوا مِنْ معين الشّيخ محمّد عبدَه، وجسّدوا أفكاره وآراءه الإصلاحية التّربوية في مصر وفي خارج مصر في حياته وبعد ومماته:

الفرع الأوّل: محمّد رشيد رضا الشّامي

مارس الشّيخ محمّد عبدَه التّربية والتّعليم في مصر وفي منفاه ببيروت في العديد مِنَ المؤسّسات التّربوية الخاصّة والعمومية وعلى رأسها جامع الأزهر الشّريف، وكان يتحيّن الفرص لممارسة التّعليم، ولمّا أُبعِد عنه أنشأ له درسا في التّفسير بالأزهر لبضع سنوات حتّى توفّاه الله تعالى سنة 1905م، كما أعدّ برامج تعليمية لإصلاح الأزهر خصوصا والتّعليم الإسلاميّ عموما، وذلك لقناعته الرّاسخة بأنّ التّعليم هو طريق النّهضة الوحيد، إلى درجة أنّه كان يغضّ الطّرف عن الفساد في المجتمع وعن نظام الحكم القائم حتّى لا يصدّوه عن إصلاحاته التّربوية التي يرى فيها بأنّها كلّ شيء وعليها يُبْنَى كلّ شيء.

كان الشّيخ محمّد عبدَه يمتلك نَفَسًا تربويّا تعليميّا طويلا، وَرَّثَهُ لتلميذه وصاحبه محمّد رشيد رضا، الذي كان يُكِنُّ له تقديرا خاصا ويعامله معاملة متميّزة حتّى أشاد به قائلا: "إنّه يفهم أو يستفيد أكثر مِنْ كلّ واحد منكم...كيف أرضى بإبعاد صاحب المنار عنّي وهو ترجمان أفكاري...إنّ هذا الرّجل متّحدٌ معي في العقيدة والرّأي والخُلق والعمل"[1]، وفيه قال هذه الأبيات عندما كان مريضا:

فبارِكْ على الإسلام وارزقْه مرشدا * * * رشيدا يضيءُ النَّهجَ واللّيـلُ قاتـمُ
يماثلنـي نطقـا وعلمـا وحكمـة * * * ويشبه منّي السّيفَ والسّيفُ صارمُ
ويُخـرج وحـيَ الله للنـّاس عاريـا * * * عن الرّأي والتّأويل يَهـدي ويُلهـمُ.[2]

وقد تأثّر محمّد رشيد رضا بمسلك شيخه التّربويّ، وطبّق فكره بإنشاء مدرسة الدّعوة والإرشاد للمصلحين بمصر[3]، واتّخذت التّربية عنده مسلكا آخر بتوجُّهها العلميّ الذي ارتكز على تفسير القرآن الكريم لتحقيق التّثقيف العقليّ والاستنفار الإراديّ المناسب لمستويات النّاس المختلفة دون الانتحاء إلى الشّرح الأكاديميّ الضّيّق الذي لا يفهمه إلّا الخاصّة، وجعل مِنْ مجلّة المنار منبرا للدّعوة التي قامتْ بالتّبشير بالإصلاح الدّينيّ والتّربويّ والاجتماعيّ حتّى ذاع صيتها، وانتشرتْ انتشارا واسعا بين النّاس خصوصا في أوساط المتعلّمين[4]، وقد عزّز جهده هذا بتأسيس معهد الدّعوة والإرشاد بمصر لتخريج مصلحين يبثّون الآراء والأعمال التي كان يدعو إليها في مجلّة المنار مِنْ خلال تفسيره للقرآن الكريم[5]، حتّى قام خرّيجو المعهد بدور رائد بالتّوعية الشّاملة والتّكوين المتكامل المتين لجمهور عريض مِنَ النّاس، وبالتّربية التّعليمية والدّعوية معا، لأجل تربية المسلمين تربية واعية واستنهاضهم وتثقيفهم وتهيئتهم لمدافعة الأخطار الخارجية التي تتربّص بهم.[6]

---

[1] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص1024و1025.
[2] المصدر نفسه: ج1، ص1027.
[3] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص134.
[4] ينظر: المرجع نفسه: ج3، ص152.
[5] ينظر: المرجع نفسه: ج3، ص150.
[6] ينظر: المرجع نفسه: ج3، ص138.

ولأجل استكمال إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية، اتّبع محمّد رشيد رضا مسلك شيخه في الاستنصار بالاستعمار البريطانيّ المتحكِّم في سياسة البلاد، فكان يعرض عليه مشروعاته، سواء ببناء مدرسة الدّعوة والإرشاد، أو بإنشاء مجلّة المنار دون مغالبته عسكريّا أو محاولة إصدار قرارات سياسية لا يمتلكها أويستحيل أنْ يُمَكَّنَ منها، فكان يسايره بالعرض والبيان ومحاولة الإقناع، وبِغَضِّ الطّرْف عن فساد السّلطة السّياسية وحاشيتها، حتّى يُسمح له تنفيذ إصلاحاته التّربويّة.[1]

الفرع الثّاني: محمّد الطّاهر بن عاشور التّونسيّ

التقى محمّد الطّاهر بن عاشور[2] بالشّيخ محمّد عبدَه لأوّل مرّة لمّا زار تونس سنة 1903م، فتأثّر به واتّجه إلى إصلاح التّعليم بجامع الزّيتونة ووضع كتابا سمّاه: أليس الصّبح بقريب، ثمّ سخّر حياته للتّربية والتّعليم التي تُوِّجت بإصلاحه للتّعليم الزّيتوني الذي أثّر في المغرب العربيّ كلّه.[3]

زار الشّيخ محمّد عبدَه بعض دول العالم العربي والإسلامي مثل: تركيا والجزائر والسّودان، وزار تونس مرّتين؛ الأولى سنة 1884م، والثّانية سنة 1903م، وقد سبقت زيارته لها ذيوع صيته واشتهار مذهبه الإصلاحيّ وشيوع أفكاره في مجلّة العروة الوثقى، فلمّا سمع ابن عاشور بزيارته تشوّف للقائه بعد أنْ قرأ أفكاره وتشبّع بها، ولمّا لقيه جلس إليه وحرّر آراءه الإصلاحية والعلمية التي سمعها منه في المحافل والمآدب العامّة والخاصّة، وعندما اقترح عليه إلقاء محاضرة بالجمعية الخلدونية التي كان عضوا بمجلسها الإداريّ وأحد مسيّريها؛ توطّدتِ العلاقة بينهما حتّى سمّاه الشّيخ محمّد عبدَه سفير الدّعوة في الجامعة الزّيتونية، فكانت حركته امتدادا لحركة الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية التي تأثّر بها وعمل على تجسيدها بمحاولة إصلاح التّعليم الزّيتونيّ، كما توطّدتِ العلاقة بينهما أكثر حينما اشتدّتْ محنة الشّيخ محمّد عبدَه بسبب الفتوى التّرنسفالية[4] التي كانت سببا في تحامل خصومه السّياسيّين والدّينيّين والقصر الملكي عليه، وأظهروه بمظهر المتنكّر للإسلام، فوقف إلى جانبه الشّيخ ابن عاشور، وكتب رسالة أيّده فيها ودافع عن صحّة رأيه ووجاهة فتواه مدعّما إياها بالأدلّة الشّرعيّة على المذهب المالكيّ، فناله هو الآخر شرّ كبير مِنَ المتعصّبين التّونسيّين فصبر وثبت على المحنة أيضا.[5]

وفي زيارة الشّيخ محمّد عبدَه الثّانية لتونس حفّز الهمم ونشر أسس دعوته الإصلاحية وبيَّن خلاصة تجربته التّربويّة بين المثقّفين التّونسيّين، فلقي فكره الإصلاحيّ القبول لديهم، وأحدثتْ حركته

([1]) ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص149.

[2] **محمّد الطّاهر بن عاشور(1879- 1973م):** عالم مغاربيّ مشهور، ولد وتوفّي بتونس، درس بجامع الزّيتونة وحصل فيه على شهادة التّطويع سنة 1899م، تأثّر بالشّيخ محمّد عبدَه، ودَرَّس بجامع الزّيتونة ثمّ صار مشرفا عليه سنة 1932م، ولمّا أراد تطبيق إصلاحاته التّعليمية فيه لقي معارضة مِنْ شيوخه فاستقال منه، كما تولّى مشيخة جامع الزّيتونة، أُسنِدت إليه رئاسة جامعة الزّيتونة، كما تولّى القضاء والإفتاء وكتب في الصّحف والمجلّات التّونسيّة والعربيّة، درس على يديه كبار الوزراء والكُتّاب ومشاهير الحكّام ورجال الصّحافة والاقتصاد، مِنْ مؤلّفاته: تفسير التّحرير والتّنوير، مقاصد الشّريعة الإسلامية، أليس الصّبح بقريب، سرقات المتنبّي، أصول الإنشاء والخطابة، ينظر: بلقاسم الغالي، من أعلام الزيتونة -شيخ الجامع الأعظم- محمّد الطّاهر بن عاشور، مرجع سابق: ص35- 71.

[3] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص135.

[4] **التّرنسفال:** بلد بجنوب إفريقيا يختلط فيها المسلمون بالنّصارى، طرح عليه أحد مسلميها سؤالا حول لبس البرنيطة، وهي قبّعة يلبسها غير المسلمين.

[5] ينظر: بلقاسم الغالي، من أعلام الزيتونة، شيخ الجامع الأعظم-محمّد الطّاهر بن عاشور-، المرجع السابق: ص49-51.

تأثيرا عميقا فيهم، وصار الشّيخ محمّد الطاهر بن عاشور مِنْ أبرز المصلحين المتلقّفين للفكر التّربويّ للشّيخ محمّد عبدَه والمتشبّعين به والدّاعين إليه في تونس، فتأثّر بمقالات الشّيخ محمّد عبدَه المنشورة في جريدة العروة الوثقى، وبتفسيره المنشور في مجلّة المنار، كما استفاد مِنْ مراسلاته العلمية ومِنْ لقاءاته به في المجالس التّونسيّة، وما سمعه منه في المحاضرات التي ألقاها بالجمعية الخلدونية، فكان لتلك الموارد الفكرية دور في نضج أفكاره، وعاملٌ مهم لتحمّل أعباء رسالة الإصلاح التّربويّ في تونس.[1]

ومِنَ الأساليب التّربويّة التي أخذها محمّد الطّاهر بن عاشور مِنَ الشّيخ محمّد عبدَه؛ الاستنصار بالسّلطة الحاكمة والتّقرّب منها ومحاولة إقناعها بأفكاره التّربويّة، لذا عقد صلات وثيقة بها حتّى تتبنّاها أو تسمح له بتنفيذها، لذلك أعدّ محمّد الطّاهر بن عاشور مشروعا لإصلاح جامع الزّيتونة تربويّا وعَرَضَه على البايات لإقناعهم به، كما غضّ الطّرْف عن فساد السّلطة السّياسية وممارساتها السّقيمة -تأسّيا بالشّيخ محمّد عبدَه- حتّى تغضّ الطّرْف عنه وتسمح له بتنفيذ إصلاحاته التّربويّة.[2]

لقد جعل الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور المؤسّسات العلمية والتّنظيمات الاجتماعية وسيلة لتنفيذ إصلاحاته التّربويّة لقناعته بقصور الجهود الفردية، فقام عن طريق الجمعية الخلدونية بأعمال جليلة تمثّلت في تلقين الطّلاّب والمهتمّين العلومَ الحديثةَ حتّى صارتْ منارة إصلاحية في هذا الشّأن[3]، فكان ذلك مِنْ مُخْرَجات تأثّره بالشّيخ محمّد عبدَه التي أثبتتْ نجاعتها في تحقيق الإصلاح وتأثيرها الإيجابيّ في روّادها بتربيتهم وتعليمهم وبثّ الوعي فيهم، حتّى صاروا مؤهّلين لإكمال مسيرته الإصلاحية.

لذلك أيّد الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور مساعي الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية في المجال التّربويّ، وصار زعيم مدرسته الإصلاحية بالمغرب العربيّ، ورائد النّهضة في جامع الزّيتونة.[4]

لقد كان الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور يتابع باهتمام بالغ ويطالع كلّ ما ينشره الشّيخ محمّد عبدَه في مجلّة المنار حول التّعليم الأزهريّ الذي سعى لإصلاحه وجعلِه مؤسّسة دينية رائدة تُخَرِّجُ أجيالا تخدم الأمّة العربيّة والإسلاميّة في كلّ المجالات، لذلك اقتفى أثره في إصلاح جامع الزّيتونة.

الفرع الثّالث: عبد الحميد بن باديس الجزائـريّ

لقد كان للإصلاح التّربويّ الذي قام به الشّيخ محمّد عبدَه في مصر تأثير كبير على حركة الإصلاح التي قادها الشّيخ عبد الحميد بن باديس في الجزائر، حيث استنارتْ جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين بإصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربويّة، وذلك بقيام عبد الحميد بن باديس بإلقاء الدّروس مِنَ الجامع الأخضر بقسنطينة الذي كان منطلقا لتأسيس الجمعية التي تَخَرَّجَ فيها دعاة ومعلّمون وسياسيّون وعسكريّون، كان لهم الفضل بعد الله تعالى في تحرير الجزائر مِنَ الاستدمار الفرنسيّ.[5]

والذي أعطى الحركة الإصلاحية دفعا أكثر في الجزائر هو زيارة الشّيخ محمّد عبدَه للجزائر التي كانت لها آثار طيّبة في إصلاح الأوضاع المتردّية التي أوجدها الاحتلال الفرنسيّ بقوة الحديد والنّار، فقد

---

[1] ينظر: بلقاسم الغالي، من أعلام الزيتونة، شيخ الجامع الأعظم -محمّد الطّاهر بن عاشور-، مرجع سابق: ص23- 25.

[2] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص141- 143.

[3] ينظر: المرجع نفسه: ج3، ص135.

[4] ينظر: بلقاسم الغالي، من أعلام الزيتونة، شيخ الجامع الأعظم -محمّد الطّاهر بن عاشور-، المرجع السابق: ص134.

[5] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، المرجع السابق: ج3، ص135.

ذكر الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي بأنّ زيارة الشّيخ محمّد عبدَه للجزائر كانت أحد الأسباب الرّئيسة في نشوء الحركة الإصلاحية فيها فقال: "فإنّ الحركة الإصلاحية لم تنشأ في الجزائر إلّا بعد الحرب العالمية، والتّأثير الأكبر في تكوينها على هذه الصّورة يرجع في الحقيقة إلى سُنَّة الإدالة الكونية التي اقتضاها تدبير الاجتماع، ويرجع في الظّاهر-فيما نرى- إلى العوامل الآتية: الأوّل: نوازع جزئيّة محدودة أحدثتْها في النّفوس المستعدّة الأحاديثُ المتناقلة في الأوساط العلمية عن الإمام محمّد عبدَه، ولو مِنْ خصومه المُمْعِنِين في التّشنيع عليه وسبِّه ولعنه -وما أكثرهم بهذا الوطن-! فكانت تلك الأحاديث تفعل فعلها في النّفوس المتبرّمة مِنَ الحاضر والمستشرفة إلى تبدُّله بما هو خير".[1]

لقد ركّز الشّيخ عبد الحميد بن باديس في حركته الإصلاحية في الجزائر على التّربية، فاعتمد على تفسير القرآن الكريم الذي جعل منه وسيلة لتثقيف العقل وتقوية العزيمة والإرادة معا، وتوجّه إلى أكبر قدر مِنَ النّاس بما يناسب مستوياتهم المتباينة دون الاكتفاء بالشّرح الأكاديميّ الضّيّق حتّى يفهمه العامّة، واتّخذ مِنَ الجامع الأخضر منبرا لتفسير القرآن الكريم، ثمّ عزّز جهوده بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين التي قامتْ بدور مشهود في بثّ الوعي الفكريّ والجهاديّ في الشّعب الجزائريّ، وتكوينه تكوينا متكاملا ومتينا بتربيةٍ تعليميةٍ ودعويةٍ لاستنهاضه وتثقيفه وتهيئته للعمل الإيجابيّ في مدافعة الخطر الخارجيّ المتربّص به.[2]

وتأسّيا بالشّيخ محمّد عبدَه؛ عرض الشّيخ عبد الحميد بن باديس مشروعه الإصلاحيّ على سلطة الاستعمار الفرنسيّ الحاكمة لإقناعها بتنفيذه، حتّى تسمح له بتجسيد برنامج جمعيته الإصلاحية، ببناء المدارس والمساجد وإنشاء الجرائد والنّوادي العلمية التي لا يمكنه تنفيذها إلّا بتراخيص وقرارات سياسية مِنَ سلطة للاستعمار الفرنسيّ[3]، فكان هذا المسلك مِنَ الشّيخ عبد الحميد بن باديس لتطبيق الحدّ الأدنى لإصلاحاته التّربويّة في الجزائر.

ومِنْ مُخرجات تأثّر الحركة الإصلاحية في الجزائر بإصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية؛ تأسيس الشّيخ بن باديس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريّين التي ساهمتْ في تقرير مصير الجزائر، فكانت أنموذجا عمليا للإصلاح الشّامل، ببثّها للوعي الإسلاميّ بين الجزائريّين، والتّعبئة للجهاد في سبيل الله والجمع في صفوفها بين النّخب والعامّة، فنجم عنها تفجير الثّورة التّحريرية، وافتكاك الجزائر لاستقلالها[4]، فكان الشّهيد مصطفى بن بولعيد مِنَ النّخب التي تكوَّنتْ وتخرّجتْ في مدارس الجمعية ومِنْ مفجّري ثورة 1954م وأحد شهدائها الذين أسهموا بقوّة في استقلال الجزائر سنة 1962م.

وبظهور الصّحافة في البلاد العربيّة والإسلاميّة في القرن التّاسع عشر وبروز أهمّيتها في الدّعوة والإصلاح، وبثّ الوعي، والاتّصال بالنّاس داخل وخارج البلاد لتحقيق الإحياء والنّهضة؛ أدرك عبد الشّيخ الحميد بن باديس دور الصّحافة الكبير في تبليغ أفكاره الإصلاحية في المجتمع الجزائريّ بتربيتهم

---

[1] محمّد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمّد البشر الإبراهيمي، مرجع سابق: ج1، ص181.

[2] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص138.

[3] ينظر: المرجع نفسه: ج3، ص141و142.

[4] ينظر: المرجع نفسه: ج3، ص149.

وتعليمهم وتوعيتهم بحقوقهم وواجباتهم تجاه دينهم ووطنهم وأمّتهم، لذلك ركّز جهوده في إنشاء الجرائد والمجلّات؛ كالمنتقد والشّهاب والشّريعة والسنّة المحمّدية، مسخّرا إياها في الإصلاح، غيرُ آبهٍ بدسائس الاستعمار الفرنسيّ الذي كان كلّما صادر له جريدة إلّا وسارع إلى إصدار أخرى، فكانت جرائد الجمعية تسري بسرعة في أوساط المجتمع الجزائريّ بمختلف أطيافه، ليتمكّن بها مِنْ بثّ الوعي الإصلاحيّ والتّأثير فيهم تأثيرا بالغا[1]، حتّى وصلتْ أعدادها إلى النّخب المصريّة ولقيتْ قبولا حسنا عندهم.

لقد كان لأفكار الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية تأثير كبير على أولئك المصلحين المتميّزين أمثال محمّد رشيد رضا في مصر، ومحمّد الطّاهر بن عاشور في تونس، وعبد الحميد بن باديس في الجزائر وغيرهم.

فبلّغوا أفكاره التّربوية إلى المسلمين، واجتهدوا في ترجمتها واقعيا، لتحرير فكرهم مِنْ رواسب الجهل والتّخلف، وربطهم بأصول دينهم، وتوحيد صفوفهم، وتوعيتهم بأسباب تحضّر الغرب وقوّته، لذلك حقّقتْ إصلاحاته التّربوية بفرعَيْها التّعليميّ والدّعويّ خيرا كثيرا على الأمّة العربيّة والإسلاميّة.[2]

الفرع الرّابع: شُهرة الشّيخ محمّد عبدَه العالميــة

لقد كان لإصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية صيتا بعيدا حتّى بلغتِ الآفاق، لتميّزها بالأصالة والتّجديد والوسطيّة والمرونة والشّمول وغيرها مِنَ المميّزات التي حقّقتْ نجاحات محترمة في مصر، كما أنّ تأثيره وشهرته لم يقتصرا على مصر وحدها، بل تعدّتها إلى الصّعيدَيْن الإقليميّ والعالميّ، ووصل اسمه إلى النّخب العربيّة والأعجميّة التي كتبتْ عنه وأشادتْ بجهوده الإصلاحية، فطبعوا كتبه وترجموها وقرأوها واستلهموا مِنْ تجربته ومنهجه في الإصلاح للاستفادة منه والإفادة به.

فكتب إليه المسلمون مِنْ سائر البلاد الإسلامية يستفتونه في شؤون دينهم ودنياهم، وكَاتَبَ هو الآخر العلماءَ والأمراءَ المسلمين وأصحاب المناصب السّامية في البلاد الإسلامية مِنَ الهند إلى المغرب الأقصى، ومِنْ أمارات شهرته في العالم الإسلاميّ؛ أنّ صحف سوريا الخاضعة للدّولة العثمانية كانت ممنوعة مِنْ ذكر اسمه قبل وبعد وفاته لتذكيره إيّاهم بالإصلاح، وكذا رسائل العزاء التي أُرْسِلَتْ إلى أقاربه عند وفاته مِنْ الهند وسوريا والبحرين وسنغافورة وجاوه وإيران وروسيا وتونس والجزائر، كما قامت بعض الجرائد والمجلّات النّاطقة بالعربيّة كجريدتَيْ الأفكار والمناظر لِسُورِيَيْنِ نصرانيَيْن مُقيمَيْن في سان باولو بالبرازيل، وجريدة مرآة الغرب في نيويورك وغيرهما بتأبينه وترجمة سيرته والإشادة بأعماله وجهوده الإصلاحية، كما كتب عنه إدوارد براون رسالة تكريمٍ وحسرةٍ بعد وفاته، أشاد فيها بخصاله وبمكانته العلمية وجهوده الإصلاحية فقال: "في مدّة عمري رأيتُ كثيرا مِنَ البلاد والعباد، وما رأيتُ مثل الفقيد المرحوم قطّ لا في الشّرق ولا في الغرب، ووالله كان وحيدا في العلم، وحيدا في التّقوى والورع، وحيدا في البصيرة والاطّلاع على ظواهر الأمور وبواطنها، وحيدا في جميل الصّبر، وخلوص النّية، وحيدا في البلاغة والفصاحة، عالما عاملا، محسنا ورعا، مجاهدا في سبيل الله، محبّا للعلم، ملجأ للفقراء والمساكين".[3]

---

[1] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص152.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ج3، ص139.

[3] تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص95و96.

ويظهر تأثير فكر الشّيخ محمّد عبدَه وانتشاره في العالم الإسلاميّ؛ قيام جامعة عليكرا في الهند بترجمة رسالة التّوحيد إلى الأوردية وجعلها مِنَ الكتب المقرّرة في الجامعات الهندية، كما نُقلتْ بعض مصنّفاته إلى اللّغة التّركية، ووجد الدّارسون صلات قريبة بين تعاليم الشّيخ محمّد عبدَه ومصلحي التّرك المحدَثين، ويرى العالم الهولندي هـ- كريمر؛ أنّ تعاليم الشّيخ محمّد عبدَه انتشرتْ في مالايو وأنّ تفسيره نُقل إلى لغتهم، وأنّ المحمّدية سعتْ إلى نشر تعاليمه بإندونيسيا دون أنْ تذكر اسمه.[1]

كما حظي الشّيخ محمّد عبدَه بشهرة في العالم الغربيّ خصوصا في أوروبّا، حتّى صارتْ مصر تُعرف به ويقال عنها في الدّوائر الأكاديمية الغربية أنّها بلد الشّيخ محمّد عبدَه، ففي مكتبة السّربون بباريس هناك ركن كامل يضمّ جميع المؤلّفات والكتابات والمساجلات والتّعليقات والأطروحات العلمية والبحثية حوله، فهم ينظرون إليه على أنّه عبقريٌّ استعجله الموت، ولكنّ أفكاره لم تَمُتْ ولذلك حرصوا على رصد ما تبقّى مِنْ فكره ومنهجه، ورأَوْا بأنّ مدرسته العقليّة لا تقلّ أهمّية في العمق والتّأثير عن مدارس الكبار أمثال سقراط وأرسطو، ويرى جاك بيرك[2] بأنّه بقي مِنَ الشّيخ محمّد عبدَه روحه وطريقته في التّفكير ومآثره العقلانية وجرأته في قول الحقّ واهتمامه بأسلوب التّربية كأساس لإصلاح المجتمع، وبأنّه أحد العباقرة الذين تجاوز تأثيرهم حدود الزّمان والمكان.[3]

لذلك وجب على الأمّة الوفاء لأعلامها بإحياء ذكرى علمائها ومفكّريها ومصلحيها، فالشّيخ محمّد عبدَه حاز على كلّ هاته الألقاب بجدارة واستحقاق، وخلّد الله ذكره بين المصريّين، ثمّ ذاع صيته وملأتْ شهرته الآفاق بأفكاره النيّرة الإصلاحية التي أحدثتْ تأثيرا بيّنًا في النّظام التّربويّ والتّعليميّ في مصر وفي خارج مصر، فقد تأثّر بحركته الإصلاحية المغاربة والأسيويّون والأوروبّيّون، فهو زعيم مدرسة تربويّة إصلاحية عريقة، جمعتْ بين الأصالة والمعاصرة والمثالية والواقعية والعلم والعمل، ضمّتْ شرائح المجتمع بمختلف فئاتها وطبقاتها وأجناسها وانتماءاتها وأعراقها لخدمة الإنسانية جميعا.

انطلق الشّيخ محمّد عبدَه في إصلاحه التّربويّ مِنْ داخل مصر أوّلا، حيث قام بخطوات عملية جبّارة في إصلاح التّعليم الأزهريّ باعتباره منارة مصر والعالم العربيّ والإسلاميّ والعالم أجمع، حيث ركّز فيه جهوده الإصلاحية، وعلّق عليه آمالا كبيرة، وبذل كلّ ما لديه إلى آخر لحظة مِنْ حياته، كما أعلى فيه مِنْ شأن العقل والاجتهاد وتجديد اللّغة والدّين معا[4]، فقام بالإصلاح التّربويّ في إطار الأصول الشّرعيّة، لتحرير العقول والنّفوس وطلب العلوم الكونية حتّى تتمّ له بذلك نهضة الأمّة ورقيّها.[5]

وقد كانت لجهوده الإصلاحية التّربويّة ثمارا إيجابية أكيدة في مصر، فقد استطاع إصلاح التّربية والتّعليم وإيقاظ المصريّين وإحداث نهضة علمية فيها وفي بعض الأقطار الإسلامية، كبلاد الشّام وبلاد

---

(1) ينظر: تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، مرجع سابق: ص96و97.

(2) **جاك بيرك(Jacques Augustin Berque)(1910- 1995م):** مستشرق وعالم اجتماع فرنسيّ، درس في جامعة الجزائر والسّربون، مِنْ مؤلّفاته: دراسات في التّاريخ الرّيفيّ المغربيّ، الشّرق الثّاني، الإسلام يتحدّى، ترجمة معاني القرآن الكريم، العرب بين الأمس والغد، ينظر: موسوعة ويكيبيديا الحرة، تاريخ الزيارة: الأحد: 2022/03/06م، في الساعة: 22:00 مساء.

(3) ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص226.

(4) ينظر: المرجع نفسه: ص227.

(5) ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص90.

المغرب، مقارنة مع ما كان سائدا في مصر قبل خوضه معركة الإصلاح التّربويّ، كما انعكس إصلاحه التّربويّ على المجالات السّياسية والدّينية واللّغوية وغيرها، ليتخرّج مِنْ مدرسته علماء وتربويّون وسياسيّون وكُتَّاب وخطباء، عملوا على تطبيق المشاريع الإصلاحية التي وضعها الشّيخ محمّد عبدَه وعمل جاهدا على تحقيقها وسْط كثرة الأعداء المهاجمين، والأجانب الطّامعين، والملاحدة الوطنيّين، والمنهج الفاسد لوزارة المعارف الحكومية المتأثّرة بالتّربية المادّية الأجنبيّة.[1]

وعلى الرّغم مِنْ عدم إكماله للإصلاحات الذي كان يأملها بسبب وفاته، فإنّ الشّيخ محمّد عبدَه ما زال موجودا بعلمه المدوّن ورأيه البَيّن في التّجديد، وتَوَزُّع تلامذته في الأزهر وفي غيره الذي يحملون فكره وآراءه الإصلاحية التي بها يمكن إتمام نهضته الإصلاحية التي لم يكتب لها الله الإنفاذ كلّيّا.

لقد كان الشّيخ محمّد عبدَه يهدف مِنَ التَربية التَعليمية والإصلاح التّربويّ الذي كان يمارسه في مصر وفي بيروت وغيرهما مِنَ البلدان التي زارها؛ إلى تخريج عناصر متميّزة تعمل على تحمّل الإصلاح ونشره، فقد حقّق ما تيسّر منه في مصر، وحقّقه مِنْ بعده تلميذه محمّد رشيد رضا في مدرسة الدّعوة والإرشاد، ومحمّد الطّاهر بن عاشور في مسلكه التربويّ ومشروعه لإصلاح التّعليم في جامع الزّيتونة، وهو الهدف نفسه الذي عمل عبد الحميد بن باديس على تجسيده في الجزائر، فبدتْ آثاره مِنْ خلال المدارس التي أنشأها والعلماء الذين كوّنهم وحملوا مِنْ بعده لواء تحرير البلاد والعباد.[2]

وتوجّه الشّيخ محمّد عبدَه إلى تجسيد إصلاح التّربية والتّعليم تعليميّا ودعويّا عن طريق تخيّر الرّجال والعمل على تثقيفهم عقليّا وتكوينهم فكريّا وتهذيبهم خلقيّا، كما لم يهمل في خطّته الإصلاحية تعليم عامّة المسلمين لإزالة الجهل والأمّيّة عنهم، وبذل جهودا جبّارة على كلّ المستويات وفي كلّ المؤسّسات وفي كلّ الظّروف إلى آخر لحظة مِنْ حياته، هذه العملية التي تحتاج إلى عمل مؤسّساتيّ وجماعيّ منظّم وإطارات كُفْأة متكوّنة لتحقيق تلك الأهداف السّامية والمقاصد الرّاقية.[3]

المطلب الرّابع: المدارس الإصلاحية المصريــّة

كان الشّيخ محمّد عبدَه مِنَ النّاحية العلمية ولودا، فقد كوّن تلامذة ذوي تخصّصات مختلفة وتوجّهات متباينة، فَخَلَّف كفاءات علمية ونخبا متميّزة كان لها شهودا إقليميّا وعالميّا، بعد أنْ كان لها حضور على المستوى المصريّ؛ أمثال محمّد رشيد رضا ومصطفى المراغي وقاسم أمين وسعد زغلول ومصطفى عبد الرّازق والأحمدي الظّواهري وغيرهم كثير، فكان ذلك نتاج كفاءته العالية وثقافته الواسعة وتجاربه الثّريّة وحكمته البالغة، ومقدرته على الجمع بين العلم والدّين، وبين القديم والحديث، وموازنته بين العيش لنفسه ولأسرته ولأمّته، فجمع بذلك بين حيوية الشّباب ووقار الشّيوخ، وتمكّنّ بإصلاحاته أنْ يوفّق بين التّعليم الإسلاميّ التّقليديّ الذي كان سائدا آنذاك في مصر، وبين المناهج الجديدة المقتبسة مِنَ الغرب الذي حقّق تفوّقا علميّا ومادّيّا بثورته الصّناعية الحديثة.

---

[1] ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص982و983.

[2] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص135.

[3] ينظر: المرجع نفسه: ج3، ص135و136.

وقد أقام الشّيخ محمّد عبدَه بين المحافظين والتّغريبيّين مدرسة وسطا تشكّلت مِنْ صفوة تلامذته الذين استطاع بشخصيته العلمية والدّينية، وبكتاباته ونشاطاته ومناصبه أنْ يهيّئهم للقيام بالإصلاح بعدما تشبّعوا بالقيم والمبادئ التي كان يؤمن بها حتّى يلقّنوها للأمّة، كما استطاع أنْ يكون مصدر إلهام لرجال السّياسة والاجتماع والدّين والفلسفة في مصر، فنشأتْ بفضله أربع مدارس مهمّة؛ اجتماعية وسياسية ودينية وفلسفية، سارتْ على نهجه واجتهدتْ في تحقيق إصلاحاته.[1]

يعدّ الشّيخ محمّد عبدَه مدرسة جامعة تفرّعتْ عنها تلك المدارس المختلفة، وأخذتْ على عاتقها تجسيد الإصلاحات التي كان يعمل عليها، متمثّلا في ذلك قول الله تعالى:﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[سورة التّوبة].

الفرع الأوّل: المدرسة الاجتماعيـة

قاسم أمين أحد تلامذة الشّيخ محمّد عبدَه البارزين الذين تخرّجوا على يديه وتشبّعوا بأفكاره وآرائه وواصلوا مسيرته الإصلاحية، حيث اهتمّ بالمرأة ودعا إلى تعليمها وتربيتها وتثقيفها وتوعيتها بحقوقها وواجباتها، وحثّ على إدماجها في المجتمع وجعلها شريكة للرّجل في تحمّل أعباء الحياة معه، تأسّيًا بأستاذه الشّيخ محمّد عبدَه الذي حرص على تثقيف الفتيات المسلمات حتّى يعرفن ما لهنّ وما عليهنّ ويساهمن مثل الرّجل في نهضة البلاد، واجتهد في التّفريق بين الإسلام الذي أحسن إلى المرأة وقدّرها حقّ قدرها وجعلها عنصرا فاعلا في المجتمع، وبين ممارسات المسلمين المسيئة لها، فبيّن بأنّ مواقفهم لا صلة لها بالإسلام، وأنّ تصرّفاتهم كانت بسبب جهلهم بقيم الإسلام ومبادئه الرّبّانية.

عندما عرض الشّيخ محمّد عبدَه مسألة تعدّد الزّوجات أثار بها جدلا كبيرا، وقال بأنّها أُبيحتْ في صدر الإسلام لمقاصد شرعية، وأنّها حُرّمتِ اليوم بسبب المساوئ الكثيرة التي أفرزتها في الواقع بإساءتها للدّين والمرأة والفرد والمجتمع، ولِمَا لها مِن انعكاسات سلبيّة، وبالتّالي لا يمكن أنْ تكون اليوم حلالا لأنّها تعيق المرأة عن أداء واجباتها التّربوية وتنشئة الأولاد وتكوينهم حتّى يكونوا مواطنين صالحين؛[2] ليأتي مِنْ بعده تلميذه قاسم أمين الذي أحدث هو الآخر لغطا كبيرا بفتحه الباب على مصراعيه بدعوته لتحرير المرأة، وهو ما جعل المهتمّين بالدّراسات الاجتماعية يوظّفونها توظيفات متباينة، فمنهم مَنْ قصد بها بناء المجتمع وفق الدّين الإسلامي، ومنهم أوّل نصوصه تأويلات فاسدة لإخراج المرأة مِنَ البيت ولتزاحم الرّجل على حساب مهامها الاجتماعية الأصلية، وحملها على تقليد المرأة الأوروبّية، فصار قاسم أمين عَلَمًا على حركة تحرير المرأة المصريّة، لهذا اتّهم بالإلحاد والمروق مِنَ الإسلام.

إنّ قاسم أمين يرى بأنّ المرأة قُيّدتْ مهامُّها في المجتمع فانتاب الحياة الاجتماعية الشّلل التّام بسبب الجهل والتّأخر اللّذين كبّلا المرأة، لهذا عمل على دفع ما أشيع عن الإسلام بأنّه همّش المرأة واحتقرها وأهانها، وبيّن بأنّ الإسلام رفع قَدْرها وأعلى مِنْ شأنها، وأنّه بريء ممّا تعيشه المرأة مِنْ ظلم وإهانة في المجتمع، وأنّ المسؤولية تقع على عاتق المسلمين الذين قاموا بتلك الممارسات المعزولة عن الإسلام، لذلك دعا إلى ضرورة تربيتها وتهيئتها للقيام بواجباتها التّربويّة والاجتماعيّة، حتّى تحوز مكانة

---

[1] ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص214.

[2] ينظر: محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، مصدر سابق: ج4، ص286و287.

لائقة بها في المجتمع المصري، لأنّه بتربية المرأة تتربّى الأجيال وتتشبّع بمبادئ الدّين وقيمه، وبحبّ الوطن والدّفاع عنه وتحريره، وتستطيع بذلك أنْ تقف سدّا منيعا أمام الاحتلال البريطاني وسياسته التّغريبية، فركّز في دعوته على إعطاء المرأة حقوقها وإقحامها في الحياة الاجتماعية وإشراكها في جميع المجالات التي يتواجد فيها الرّجل، فالأمّة لا يمكنها أنْ تنهض وتتطوّر إلّا بتحرير المرأة وتعليمها وتثقيفها.

وقد استمرّ تأثير حركة الشّيخ محمّد عبدَه وتلامذته النّاشطين في المجال الاجتماعيّ، إلى درجة بروز كُتَّاب دعَوْا إلى تحريرها مِنْ خلال الكتب والجرائد، وهذا ما جاهرتْ به الكاتبةُ؛ باحثةُ الباديةِ، وجريدة السّفور وغيرهما، كما أسفرتْ حركته عن ظهور نساء في طليعة الثّوار الذين تشبّعوا بأفكاره التّحرّرية، وجهروا بها بأصوات عالية سنة 1919م غير آبهين بمبادئ الإسلام البديهية.[1]

الفرع الثّاني: المدرسة الدّينيـة

يمثّل هذه المدرسة الأحمدي الظّواهريّ وهو أحد تلامذة الشّيخ محمّد عبدَه العالم الأزهريّ، وعضو هيئة كبار العلماء التي ترأّسها فيما بعد، حيث اهتمّ بالدّعوة الإسلامية، وألّف كتاب العلم والعلماء ووضع فيه أصول أستاذه الشّيخ محمّد عبدَه، ودعا إلى إصلاح الأزهر، وطالب بتطوير التّعليم به وفقا لحاجات العصر، ودعا إلى الاستفادة مِنَ المصادر الأوروبّيّين واليابانيّين والصّينيّين، ودعا إلى تطهير الإسلام مِنَ البدع والخرافات والأوهام، ووسّع مِنْ دائرة الدّعوة إلى الإصلاح لتشمل العالم الإسلاميّ، كما دعا إلى عقد مؤتمر إسلاميّ يجتمع كلّ سنة في بلد إسلامي يدرس أوضاع المسلمين، ويعمل على توحيد كلمتهم والتّعاون فيما بينهم، فكان عمليّا بإيفاده للبعوث المصريّة إلى بلدان العالم لنشر الإسلام والتّمكين له، كما سعى إلى إحضار البعوث إلى مصر لتلقّي الإسلام في الأزهر ثُمَّ العودة إلى بلادهم للدّعوة والإصلاح، ولأجل ذلك أنشأ مجلّة الأزهر لجمع كلمة المسلمين في العالم، ولمّا عيّن شيخا للأزهر سنة 1929م أعاد تنظيم الأزهر، وأنشأ فيه سنة 1930م ثلاث كلّيات؛ الأولى للّغة العربيّة والثّانية للشّريعة والثّالثة لأصول الدّين، وفي سنة 1933م غيّر مناهج التّعليم حتّى تتماشى مع التّقدّم العلميّ الحديث، فأدخل إلى الأزهر اللّغات الشّرقيّة والغربيّة، والاقتصاد السّياسيّ، والقانون الدّوليّ، وأصول القوانين، ووسائل الدّعوة الدّينية، والخطابة والمناظرة، وعلم النّفس والتّربية.[2]

الفرع الثّالث: المدرسة الفلسفيـة

يُعدُّ مصطفى عبد الرّازق مِنْ خاصّة تلامذة الشّيخ محمّد عبدَه وأقربهم إليه، فقد جمع بين العلم القديم والحديث، وعلوم الشّريعة وغيرها، وظلّ وفيّا حريصا على تطبيق أفكار شيخه الإصلاحية، وكتب في الصّحف عن سيرة وإصلاحات أستاذه، وحاضر عنه في جامعة الشَّعْبِ، وترجم له إلى الفرنسيّة رسالة التّوحيد، وجاهد بلسانه وقلمه لخدمة الدّعوة الإصلاحية ونَشْرِ الحرّية التي نهض بها الشّيخ محمّد عبدَه، وكان يرى بأنّ الأخلاق فوق العلم وفوق الفنّ، وأنّها ينبغي أنْ تكون فنّا للحياة، وأنْ يكون سلوك الإنسان ثابتا مع نفسه ومع الله ومع النّاس، حتّى لا تتجاذبه الأهواء والانفعالات، فيكتسب الحكمة ويثبت على فعل الخير الذي هو جمال الرّوح والحبّ والسّماحة والسّلام، وليس الخير

---

[1] ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص216و217.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ص220-222.

هو ما يطلبه جمهور النّاس مِنْ لذّة ومال وشهرة، حيث كان يرى بأنّ علاج الأمراض الاجتماعية يكون بإصلاح الأخلاق وتوجيه النّاس إلى الخير وتخليص النّفوس مِنَ الحقد والأنانية، لذلك وجّه التّربية إلى تقوية شعور التّعاطف والتّحابّ بين الإنسانية، فاستوحى بذلك فلسفته الأخلاقية مِنْ أستاذه الشّيخ محمّد عبدَه الذي يرى بأنّ الحبّ في عالم الإنسان يجعل المجتمع متماسكا ويصونه مِنَ البوار.[1]

الفرع الرّابع: المدرسة السّياسيـة

مَثَّلَ هذه المدرسة سعد زغلول الذي يُعدُّ مِنْ أقدم تلامذة الشّيخ محمّد عبدَه، وقد كان مقرّبا منه، وأصدقهم نزعة وطنيّة، سار على نهج أستاذه السّياسيّ، فقد تولّى وزارة المعارف سنة 1906م بعد وفاة شيخه، واهتمّ بشؤون التّعليم والثّقافة وحرص على نشر اللّغة العربيّة وتعميمها في المدارس المصرية، كما ناضل في ميدان النّيابة حفاظا على حقوق الأمّة وكرامتها إلى غاية انتهاء الحرب العالمية الأولى، وطالب الاحتلال البريطاني بالجلاء عن مصر ودعا المصريّين إلى الاتّحاد لتحرير البلاد، فقاد ثورة 1919م ووجّهها للإصلاح وتحقيق الوحدة، وبذل جهودا كبيرة لقطع الطّريق أمام الاستعمار الذي عمل على إيجاد الهوّة بين الأقباط والمسلمين وبين الإقطاعيّين والفلّاحين المصريّين، فكلّلت جهوده بالتفاف الشّعب حول أفكاره الوطنية ونضاله القوميّ، فاستحقّ أنْ يلقّب ببطل الاستقلال.[2]

المطلب الخامس: تأثير إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية في العالم

لم تقتصر تأثير الإصلاحات التّربوية للشّيخ محمّد عبدَه على مصر وإنّما تعدّتْ إلى المستوى الإقليميّ والعالميّ، حيث انعكستْ تأثيراتها الإيجابية على بعض بلدان العالم العربيّ والإسلاميّ والأسيويّ، وهذا بسبب نشاط بعض المصلحين، وللأدوار الإيجابية للصّحافة التي شقّتْ طريقها إلى أقاصي العالم، فبلغتِ الأقطار وتلقّفها روّاد الإصلاح وأخذوا بها وحاولوا تجسيدها في مجتمعاتهم، وفي هذا السّياق ضمّنتُ المطلب ثلاثة فروع، حيث تناولتُ في الفرع الأوّل أثر إصلاحاته على سوريا ولبنان مِنْ بلاد الشّام، وفي الفرع الثّاني تأثيرها على بلدان المغرب العربيّ المتمثّلة في الجزائر وتونس والمغرب الأقصى، وفي الفرع الثّالث تناولتُ تأثيرها على بعض الدّول الأسيوية كتركيا وإيران والهند وإندونيسيا.

الفرع الأوّل: بلاد الشّـــام

لقد كان للشّيخ محمّد عبدَه حضور كبير في عملية الإصلاح التي باشرها مبكّرا منذ أنْ وعى بمهمّته الرّسالية تجاه دينه وأمّته، مقتديا في ذلك برسول الله ﷺ الذي لبّى الأمر الإلهيّ الذي قال فيه ربّ العزّة:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ٦٧﴾[سورة المائدة]، فبلّغ أفكاره الإصلاحية بشجاعة واعية في مصر وفي العالم العربيّ والإسلاميّ، لينفُذَ إشعاعَه الإصلاحيّ إلى الأقطار المجاورة لمصر في بلاد الشّام؛ كسورية ولبنان اللّتَيْن سأقتصر عليهما في هذا الفرع باعتبارهما أهمّ منطقتَيْن شملتهما آثاره الإصلاحيّة وأثّرتْ فيهما كثيرا، واستمرتْ تؤتي أكُلها إلى ما بعد وفاته.

---

[1] ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص222- 225.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ص218و219.

أوّلا: سوريـــا

تعتبر سورية مِنْ بلدان العالم العربيّ والإسلاميّ التي تأثّرتْ بالفكر الإصلاحيّ للشّيخ محمّد عبدَه منذ نفيه مِنْ مصر إلى بيروت التّابعة لسوريا عقب الثّورة العُرابية، فاستطاع بدروسه في التّفسير في مساجد بيروت، وبتدريسه في المدرسة السّلطانية، وبمقالاته التي نشرها في الصّحف هناك أنْ يجذب إليه عددا كبيرا مِنَ النّخبة مِنَ الأصدقاء والمريدين السّوريّين مِنْ أهل الفضل والحِجَى ويؤثّر فيهم أمثال: شكيب أرسلان، ومحمّد رشيد رضا، وعبد القادر المغربيّ، ومحمّد كُرْدْ عليّ، وجمال الدّين القاسميّ، ومحمّد زاهد الكوثريّ، وعبد الحميد الزّهراويّ، وعبد القادر التّرمانينيّ.[1]

ويعدّ محمّد رشيد رضا مِنْ أكثر التّلامذة السّوريّين تأثّرا بالشّيخ محمّد عبدَه، فقد سعى على خطى شيخه في إصلاح الأمّة وإيقاظها منذ اطّلاعه على مجلّة العروة الوثقى التي تأثّر بها كثيرا وجعلته يعمل على الإصلاح واستعادة مجد الإسلام وسلطانه واسترداد ما ذهب مِنْ دوله وممالكه، وفي سنة 1897م هاجر إلى مصر واتّصل بالشّيخ محمّد عبدَه وصاحبه وتلقّى عنه وأخذ بآرائه في الإصلاح، وبعد وفاته نشر أفكاره، وأسّس مجلّة المنار سنة 1898م التي لقيتْ قبولا كبيرا وانتشارا واسعا بعدما نشر فيها الشّيخ محمّد عبدَه رسائله في الدّفاع عن الإسلام وتفسيره للقرآن الكريم، فقد أتمّ محمّد رشيد رضا مسار أستاذه الشّيخ محمّد عبدَه التّجديديّ، وأخذ يدعو إلى تقوية جامعة الإسلام لتصبح البلاد الإسلامية جميعا أمّة واحدة لا أثر فيها للقوميّات التي يرى فيها أنّها مبدأ غريب عن الإسلام.[2]

ثانيا: لبنـــان

منذ تواجد الشّيخ محمّد عبدَه بمنفاه ببيروت سنة 1882م وهو يعمل على التّقريب بين مختلف المذاهب والأفكار والطّوائف إلى غاية دخوله مصر سنة 1888م، أين دعا فيها إلى الوحدة الوطنيّة، الأمر الذي جعل الخديوي ومَنْ والاه يهاجمونه، لأنّهم يرون بأنّ رجال الدّين ينبغي أنْ يكونوا بعيدين عن السّياسة ولا يليق بهم الخوض فيها.[3]

فقدّم دروسا تعليمية وتربويّة في مساجد لبنان ومدارسها خصوصا في المدرسة السّلطانية التي كان لها تأثير ملحوظ على ناشئتها، حيث أدخل جملة مِنَ الإصلاحات الإدارية والتّربوية والتّعليمية على مناهجها وبرامجها، وأضفى الرّوح على دروسها بإخراجها مِنْ طريقة التّلقين إلى طريقة الحوار والمناقشة واستخراج العبر والعظات، وبثّ الوعي والنّزعة الاستقلالية والسّعي للتّحرّر مِنَ الاستبداد الدّاخليّ والاستعمار الخارجيّ، وهو ما لم يَرُقِ الحكّام الذين بدّلوا مديرها مدحت باشا وغيّروا مناهجها، فقدّم الشّيخ محمّد عبدَه استقالته منها، ودخل مصر بوساطة أصدقائه وتلامذته أمثال الغازي أحمد مختار باشا والأميرة نازلي وسعد زغلول، بعدما استوثق منه كرومر بعدم ممارسة السّياسة، وقصر نشاطه

---

(1) ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص227.

(2) ينظر: المصدر نفسه: ص227- 231.

(3) ينظر: محمّد عبد المنعم خفاجي وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، مرجع سابق: ج3، ص71.

على التّربية والإصلاح فقط، وقد تأخّرتْ عودته إلى مصر حتّى سنة 1888م بسبب انشغاله بالتّربية والتّعليم في لبنان، وتماطل الخديوي في السّماح له بالدّخول إلى بلده مصر.[1]

الفرع الثّاني: بلدان المغرب العربــيّ

أوّلا: الجزائـــر

زار الشّيخ محمّد عبدَه الجزائر العاصمة سنة 1903م وعُمْرُ ابن باديس حينها أربعة عشر عاما، وفيها عرّج على قسنطينة وزار الجامع الكبير الذي كان يؤمّ فيه ابن باديس الشّاب النّاسَ في صلاة التّراويح[2]، وقد كان لزيارته التي دامتْ عشرة أيام[3] تأثير كبير على جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين التي أخذتْ بمنهجه في الإصلاح التّربويّ والتّعليميّ والدّينيّ.

ومِنْ أهمّ العوامل التي مهّدتْ لهذا التّأثير، دخولُ جريدة العروة الوثقى ومجلّة المنار وكتب ابن تيمية وابن القيّم وغيرهما إلى الجزائر التي كانت تصلها مِنْ مصر، فيطالعها الطّلبة والشّيوخ بِنَهَمٍ ويتداولونها فيما بينهم[4]، ومِنَ الشّخصيّات العلميّة الجزائريّة التي تأثّرتْ بالشّيخ محمّد عبدَه؛ الشّيخ عبد الحليم بن سماية الذي كان يقرأ رسالة التّوحيد على طلبته، ويدرّس لهم كتابَيْ أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانيّ اللّذَيْن حقّقهما الشّيخ محمّد عبدَه.[5]

وعن تأثير الشّيخ محمّد عبدَه على الحركة الإصلاحية في الجزائر قال الشّيخ عبد الحميد بن باديس: "أدخلنا في برنامج دروسنا تعليم اللّغة وأدبها والتّفسير والحديث والأصول ومبادئ التّاريخ ومبادئ الجغرافية ومبادئ الحساب وغير هذا، ورأينا لزوم تقسيم المعلّمين إلى طبقات، واخترنا للطّلبة الصّغرى منهم بعض الكتب الابتدائية التي وضعتها وزارة المعارف المصرية، وأحدثنا تغييرا في أساليب التّعليم وأخذنا نحثُّ على تعلُّم جميع العلوم باللّسان العربيّ والفرنسيّ ونحبّب النّاس في فهم القرآن وندعو الطّلبة إلى الفكر والنّظر في الفروع الفقهية والعمل على ربطها بأدلّتها الشّرعية ونرغِّبهم في مطالعة كتب الأقدمين ومؤلّفات المعاصرين، لمَّا قمنا بهذا وأعلنَّاه قامتْ علينا وعلى مَنْ وافقَنا قيامةُ أهل الجمود والرّكود وصاروا يدعون للتّنفير والحطِّ منّا عَبْدَاوِيّين -نسبة إلى الشّيخ محمّد عبدَه-".[6]

ويظهر تأثُّر الشّيخ عبد الحميد بن باديس بالشّيخ محمّد عبدَه؛ مشاركتُه في إصلاح التّعليم بجامع الزّيتونة باقتراحه على لجنة وضع مناهج الإصلاح خلاصة آرائه في التّربية والتّعليم ومنهجه في التّعليم وطريقته في التّدريس لكلّ المواد، فاقترح عليهم طريقة الشّيخ محمّد عبدَه في تدريس مادّة التّفسير بسرد تفسير الجَلَالَيْن على المتعلّمين.[7]

---

[1] ينظر: قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية، مرجع سابق: ص243.

[2] ينظر: عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق: ج1، ص75.

[3] ينظر: المرجع نفسه: ج1، ص41.

[4] ينظر: المرجع نفسه: ج1، ص25-27.

[5] ينظر: المرجع نفسه: ج1، ص29.

[6] المرجع نفسه: ج3، ص27.

[7] ينظر: المرجع نفسه: ج1، ص111و112.

وترجع عوامل تأثير الأفكار الإصلاحية للشّيخ محمّد عبدَه على الحركة الإصلاحية الجزائرية إلى:

1- الاحتكاك بين الجزائر والمشرق رغم مؤامرات الاستعمار الفرنسيّ لقطع الصّلة الفكرية بين الجزائريّين وإخوانهم في البلدان العربيّة والإسلاميّة، فقد أتاح احتكاكهم التّعرف على الأفكار الإصلاحية في المشرق العربيّ مِنْ خلال جريدة العروة الوثقى ومجلّة المنار والكتب التي أُدخِلتْ إلى الجزائر خُفية.

2- مجلّة المنار التي أسهمت في نشر الفكر الإصلاحيّ للشّيخ محمّد عبدَه التي كان لها قرّاء دائمون في الجزائر، فعند زيارته للجزائر سنة 1903م التقى بعلمائها وأعربوا له عن تأثّرهم بمجلّة المنار وإعجابهم بدروسه المنشورة فيها، ورَجَوْهُ أنْ يوصي محمّد رشيد رضا بألّا يذكر فرنسا بسوء في مجلّته حتّى لا تَمْنَعَ دخولها الجزائر لمساهمتها في الإصلاح في الجزائر وتأثُّر الجزائريّين بالشّيخ محمّد عبدَه وتجاوبهم مع دروسه في التّفسير، وقد علّقتْ جريدة(le temps) الفرنسيّة على حفاوة استقبال الجزائريّين بالشّيخ محمّد عبدَه بقولها: "إنّ محمّد عبدَه وجد له في تونس والجزائر حزبا دينيّا ينتمي إليه مِنْ حيث لم يكن يعلم، وإنّما الصّلة بينهم وبينه مجلّة المنار"، ومِنَ العلماء الجزائريّين الذين تأثّروا بأفكاره الإصلاحية فكانوا نواتها الأولى في التّجديد الإسلاميّ في الجزائر؛ عبد القادر المجاوي[1]، وصالح بن مهنّا القسنطينيّ[2]، ومصطفى بن الخوجة، وعبد الحليم بن سماية، وعمر بن قدور[3]، الذين أخذوا على عاتقهم مهمّة النّهوض بالمجتمع الجزائريّ وتحريره مادّيّا ومعنويّا.[4]

كما تأثّر الشّيخ البشير الإبراهيمي بالأفكار الإصلاحية التي دعا إليها الشّيخ محمّد عبدَه، فهو يمثّل بالنّسبة إليه أحد أركان حركة التّجديد الإسلاميّ، لذا قال فيه: "لا نزاع في أنّ أوّل صيحة ارتفعتْ في العالم الإسلاميّ بلزوم الإصلاح الدّينيّ والعمليّ في الجيل السّابق لجيلنا هي صيحة إمام المصلحين الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه رضي الله عنه، وأنّه أندى الأئمّة المصلحين صوتا، وأبعدهم صيتا في عالم الإصلاح، فلقد جاهر بالحقيقة المرّة، وجهر بدعوة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الرّجوع إلى الدّين الصّحيح والتماس هديه مِنْ كتاب الله ومِنْ سُنَّة نبيّه، وإلى تمزيق الحُجُب التي حجبتْ عنّا نورهما وحالتْ بيننا وبين هديهما مبيّنا بصوت يُسمع الصمَّ، وبلاغة تستنزل العُصم".[5]

---

[1] **عبد القادر بن محمّد المجاوي(1848- 1913م):** مصلح جزائريّ، دَرَّسَ بالمدرسة الكتّانية وبجامع الكتّاني وبمسجد سيدي لخضر بقسنطينة وبالمدرسة العليا الثّعالبية بالجزائر، فأحدث تأثيرا كبيرا في الأوساط الفكرية والشّعبية، تخرّج على يديه القضاة والمترجمون والمدرّسون والأئمّة والوعّاظ، مِنْ تلامذته حمدان الونيسي، ومِنْ مؤلّفاته: إرشاد المتعلّمين، نصيحة المريدين، اللّمع في إنكار البدع، الدّرر النّحوية، الاقتصاد السّياسيّ، منظومة في علم الفلك، ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق: ص286و287.

[2] **صالح بن مهنا القسنطينيّ الأزهريّ(1854- 1910م):** مصلح جزائريّ، ولد بالقلّ ونشأ بقسنطينة وتعلّم بها وبتونس، ثمّ انتقل إلى القاهرة وتعلّم بالأزهر وعاد إلى الجزائر واشتغل بالتّدريس في قسنطينة، مِنْ آثاره: تنبيه المغترّين في الردّ على إخوان الشّياطين، ردّ فيها على رسالة: ضوء الشّمس لأحمد بن دادّا التي وضعها في مدح الأشراف، ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص323.

[3] **عمر بن قدور الجزائريّ(1886- 1932م):** مصلح وصحفيّ وكاتب وشاعر جزائريّ، أنشأ جريدة الفاروق وعُنِيَ بقضايا المسلمين في العالم العربيَ والإسلاميَ، نشر مقالاته في صحف مصر والأستانة، صادرتْ سلطات الاستعمار الفرنسيّ جريدته ونفته إلى الأغواط، وظلّ بها معتقلا حتّى نهاية الحرب العالميه الأولى، ثمّ اعتزل الصّحافة إلى التّصوّف، مِنْ آثاره: الإبداء والإعادة في مسلك سائق السّعادة في التّصوف، ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق: ص 243و 244.

[4] ينظر: محمّد رزمان، فلسفة التجديد الإسلامي، الشّيخ البشير الإبراهيمي أنموذجا، مرجع سابق: ص20و21.

[5] محمّد البشير الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، مرجع سابق: ج1، ص177.

ووصف شارل أندريه جوليان[1] رحلة الشّيخ محمّد عبدَه إلى الجزائر بقوله: "ففي سنة 1904م لم يُثِر مرور الشّيخ محمّد عبدَه انتباها خاصّا، وقد تحدّث مفتي القاهرة أمام جمع صغير مِنَ المستمعين بمسجد متواضع مِنْ حيّ بلكور(Belcourt) ولم يخطر ببال أحد على ما يظهر أنّ ذلك العالم المفسّر كان باعث النّهضة السّياسية والدّينية والثّقافية والإسلامية، ما عدا قسنطينة حيث تفتّحتْ بعض الأفكار النيّرة إلى تأثيرات الشّرق".[2]

وبالنسبة لتأثير الشّيخ محمّد عبدَه على بعض القامات الجزائرية أمثال بن سماية وبن الخوجة قال عبد الحميد بن باديس: "وأمّا محمّد بن مصطفى بن الخوجة فهو أكثر الأساتذة حرصا على مطالعة كل ما يَرِدُ مِنَ المشرق مِنَ الكتب والجرائد والمجلّات وخاصّة كتب محمّد عبدَه ورسائله، أخذ عليه محمّد عبدَه لُبَّه واستولى مذهبه في الإصلاح على نفسه، يطالع العروة الوثقى والمنار وغيرهما".[3]

وقد بلغ تأثير الشّيخ محمّد عبدَه على الجزائريّين؛ أنّه لمّا بلغهم خبر وفاته كاد يقع لبعضهم ما وقع لسيّدنا عمر بن الخطاب ﷺ في موته ﷺ حينما قال للنّاس: "مَنْ قَالَ مِنْكُمْ مَاتَ مُحَمَّدٌ أَضْرِبُ عُنُقَهُ"[4]، ونظرا لتأثّر حركة ابن باديس الإصلاحية بالشّيخ محمّد عبدَه اعتبرها ماسينيون[5] فرعا عن حركة المنار في مصر[6]، ويظهر مدى التّأثير الإيجابيّ للشّيخ محمّد عبدَه على بعض الشّخصيات الجزائريّة؛ أنّ الشّيخ عمر بن قدور أسّس صحيفة الفاروق سنة1913م ونشر فيها بعض مقالات المنار التي تحدّثتْ عن أخبار العالم الإسلاميّ، فأوقفتها سلطة الاحتلال الفرنسيّ وأبعدته إلى الأغواط، كما تأثّر الفنان أحمد عمر راسم[7] بالشّيخ محمّد عبدَه الذي وضع صورته في العدد الثّالث مِنْ جريدته ذو الفقار ونشر فيها مقالا نقله عن المنار يعالج فيه مشكلة المقلّدين للإفرنج وفسادهم الأخلاقيّ.[1]

---

[1] **شارل أندري جوليان(1891-1991م):** مؤرّخ وصحفيّ فرنسيّ، قَدِم إلى الجزائر وعمره خمسة عشر سنة، عمل في التّعليم الثّانويّ والعالي بمدرسة فرنسا لأقطار ما وراء البحار، وبمعهد الدّراسات السّياسية وبالمدرسة القومية للإدارة، وبقسم تاريخ الاستعمار بجامعة السّربون، أسّس كلّية الآداب بالرّباط وكان عميدها، وكان مستشارا للوحدة الفرنسيّة، ينظر: واجهة كتاب: إفريقيا الشّمالية تسير -القوميات الإسلامية والسّيادة الفرنسيّة- لمؤلفه: شارل أندريه جوليان، ترجمة: المنجي سليم وآخرون، مراجعة: فريد السّوداني، الدار التّونسية للنشر، تونس، (د ط)، 1976م، وينظر: مقدمة النّاشر لكتاب: تاريخ إفريقيا الشّمالية -تونس، الجزائر، المغرب الأقصى- مِنَ البدء إلى الفتح الإسلامي647م لمؤلّفه: شارل أندريه جوليان، تعريب: محمّد مزالي والبشير بن سلامة، مؤسّسة تاوالت الثّقافية، (http//www.tawalt.com)، المغرب، (د ط)، 2011، ص3.

[2] شارل أندريه جوليان، إفريقيا الشّمالية تسير، المرجع السابق: ص125.

[3] عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق: ج1، ص34.

[4] ينظر: المرجع نفسه: ج1، ص41.

[5] **لويس ماسينيون(Louis Massignon)(1883- 1962م):** مستشرق فرنسيّ، شغل منصب مستشار وزارة المستعمرات الفرنسيّة في شمال إفريقيا، وكذلك الرّاعي الرّوحيّ للجمعيات التّبشيرية الفرنسيّة في مصر، كان عضوا في مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، تعلّم العربيّة والانجليزية والألمانية والتّركية والفارسية، اتّجه إلى فكرة توحيد الدّيانات الكتابية الثّلاث، واستهواه التّصوّف الإسلاميّ فكتب عن مصطلحات الصّوفية، وأخبار الحلاج، وكتب عن ابن سبعين وعن سلمان الفارسيّ، تولّى تحرير مجلّة العالم الإسلامي الفرنسية، وأصدر بالفرنسيّة حوليات العالم الإسلاميّ، وكتب في دائرة المعارف الإسلامية، ينظر: الزّركلي، الأعلام، مصدر سابق: ج5، ص247، وينظر: الموسوعة الحرة(ويكيبيديا)(www.wikipedia.org): تاريخ الزيارة: الخميس: 2022/04/28م في الساعة: 18:30 مساء.

[6] ينظر: عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق: ج1، ص54.

[7] **أحمد عمر راسم(1884- 1959م):** خطّاط وصحفيّ ومصلح جزائريّ، أسّس مدرسة المنمنمات الجزائرية سنة 1939م، اعتنق الأفكار الإصلاحية للشّيخ محمّد عبدَه ودعا إليها، أنشأ جريدتَيْ الجزائر وذو الفقار وكان اسمه المستعار أبو منصور الصّنهاجيّ، سجنه الفرنسيّون=

ثانيا: تونـــــس

زار الشّيخ محمّد عبدَه تونس مرّتَيْن وكان تأثيره فيها كبيرا، فكانت زيارته الأولى سنة 1884م بغرض البحث عن الدّعم الماليّ لجريدة العروة الوثقى، ولتشكيل فرع لجمعية العروة الوثقى لمقاومة الاحتلال الأوروبّيّ، ولنشر الوعي الفكريّ وإحداث نهضة علمية في بلدان العالم العربيّ والإسلاميّ بإنشاء الصّحافة وتشكيل الجمعيات والأحزاب لتنوير عقول الشّعوب وتحريرها مِنَ الاستعمار.

وفي زيارته الثّانية لها سنة 1903م ألقى محاضرة في التّربية والتّعليم كان لها الأثر البالغ في أعلامها كالشّيخ محمّد النّخلي القيروانيّ، والشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور، الذين تبنّوا آراءه وأفكاره الإصلاحية، فقد كتب الشّيخ ابن عاشور تعزية إلى الشّيخ محمّد رشيد رضا يقول له فيها: "عرفتُ الأستاذ الإمام معرفة شهود بتونس في سنة 1321هـ/ 1903م فعرفتُ مِنْ ملاقاته الأولى رجل العزم والإرادة والفكر وبلاغة القول وشدّة الفراسة...وأذكر كلماته وتفسيره مهما قرأتُ سورةً في صَلَاتِي"، كما أرسل الشّيخ محمّد شاكر مِنْ صفاقس إلى الشّيخ محمّد رشيد رضا رسالة تعزية وصف فيها الشّيخ محمّد عبدَه بالحكيم والمصلح وأنّه قامع البدع والأوهام، كما كتب الشّيخ سالم بوحاجب تقريظا لرسالة التّوحيد وأرسله إلى الشّيخ محمّد عبدَه سنة 1899م، ولمّا توفّي رثته الصّحافة التّونسيّة في جريدتَيْ الحاضرة والصّواب.[2]

وفي هذه الزّيارة التقى بعلمائها أمثال: الطّيب النّيفر، ومحمّد بن مصطفى محسن، وأحمد الشّريف، ومحمود بن الخوجة، وسالم بوحاجب، ومحمّد الطّاهر بن عاشور، وشيخ الإسلام الحنفي أحمد بن خوجة، وقاضي باردو وغيرهم، وحظي باستقبال بهيج منهم، فأكرموا وفادته وأقاموه في قصور العظماء، واجتمع في نواديهم، وزار جامع الزّيتونة وحَضَرَ دروسه وحاضر به، وزار المكتبة الخلدونية وأُعْجِبَ بمكتبة الزّيتونة، وزار محكمة الدّربة والمطبعة الرّسميّة والمستشفى الصّادقيّ.

ولمّا أصدر الشّيخ محمّد عبدَه فتواه التّرنسفالية أحدثتْ ضجّة في مصر، فاستغلّها خصومه السّياسيّون وشيوخ الأزهر والخديوي في التّشنيع عليه وإبطال فتواه وإظهاره بمظهر المتنكّر للإسلام، فوقف إلى جانبه الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور، وكتب رسالة استند فيها إلى الأدلّة الشّرعية على المذهب المالكيّ أيّده فيها ودافع عن صحّة رأيه، فناله هو الآخر شرّ كبير مِنَ المتعالين والمتعصّبين.[3]

ولمّا كانت تونس تحت الاحتلال الفرنسيّ، قام بزيارة مجاملة إلى الكاتب العامّ للحكومة التّونسيّة برنار روا(Bernard Roy)، وفيها ألمح إليه بضرورة النّهوض بالأمّة وإجلاء الاحتلال عنها وتحرير العباد والبلاد مِنَ الاستعمار الأجنبيّ بالتّربية والتّعليم، وإلى ضرورة القيام بالإصلاح الدّينيّ والتّربويّ، كما انتقد في زيارته الكتب الدّراسيّة المقرّرة والمناهج المتّبعة في مؤسّسات التّعليم الإسلاميّ ووصفها بأنّها بالية،

=في الحرب العالمية، مِنْ آثاره: تفسير القرآن الكريم، وتراجم علماء الجزائر، وله مقالات عديدة في السّياسة والاجتماع والفنّ، ينظر: الموسوعة الحرة(www.wikipedia.org): تاريخ الزيارة: الخميس: 2022/04/28م في الساعة: 19:00 مساء.

(1) ينظر: عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق: ج1، ص55و56.

(2) ينظر: المرجع نفسه: ج1، ص 42- 44.

(3) ينظر: بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم -محمّد الطّاهر بن عاشور-، مرجع سابق: ص51.

وفي المقابل أبدى رضاه عن طلبة الزّيتونة الذين أكملوا تعلّمهم بالخلدونية، وبعد عودته إلى القاهرة أوردتْ مجلّة المنار في حديث له قوله: "إنّ الزّيتونة سبقتِ الأزهر في الأخذ بالإصلاحات الضّرورية".[1]

تعتبر تلك النّشاطات المختلفة التي قام بها الشّيخ محمّد عبدَه في تونس، رسائل عملية لأهل تونس حتّى يعرفوا أبعادها التّربويّة والعلميّة والدّعويّة التي تدلّ على اهتمامه بإصلاح جميع مناحي الحياة الإنسانية، فلم تكن زيارته سياحية مجرّدة مِنَ المقاصد الإصلاحية، كما يظهر الفرق واضحا بين زيارتَيْ الشّيخ محمّد عبدَه إلى تونس، ففي الأُولى كان متأثّرا بمنهج أستاذه جمال الدّين الأفغانيّ في الإصلاح السّياسيّ والتّغيير الثّوريّ بحكم تبعيّته له وعدم استقلاله عنه، أمّا في الثّانية فكان قد استقلّ عن أستاذه وتوجّه إلى الإصلاح التّربويّ الذي اقتنع به بعدما جرّب الإصلاح السّياسيّ الذي عرقله عن تحقيق الإصلاحات التي رمى إليها ومنعه مِنْ بلوغها، وفيها رَسَّمَ سُنَّةً حسنةً، تمثّلتْ في تنظيم المحاضرات العلميّة وفتح باب النّقاش بين النّخبة وطلبة العلم والعامّة الذين يحملون همّ إحياء الأمّة والنّهوض بها وتجديد فكرها، وتحقيق تطوّرها العلميّ والثّقافيّ والازدهار الحضاريّ.

ثالثا: المغرب الأقصـــى

تأثّر المغرب الأقصى أيضا بحركة الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية، فكان الشّيخ محمّد بن كنون أوّل المتأثّرين ببذور الإصلاح العَبْدَوِيّ، ومِنْ أمارات تأثير الشّيخ محمّد عبدَه على بلاد المغرب الأقصى في مجال الإحياء الإصلاح والتّوعية والنّهضة؛ ما كانت تقوم به مجلّة المنار مِنْ تأثير على الحياة الثّقافية بالمغرب الأقصى، حيث كتب بعض وزراء السّلطان المغربيّ مولايْ عبد العزيز إلى محمّد رشيد رضا أنْ يرسل إليهم رجلا مصلحا يجمع بين الشّريعة والسّياسة ويعرف شؤون الإدارة ليقنع السّلطان بضرورة الإصلاح السّياسيّ والاجتماعيّ والدّينيّ الذي تدعو إليه المنار، فأخبر الشّيخ محمّد عبدَه بالأمر فأراد السّفر إلى المغرب لكنّ الإنجليز والفرنسيّين وغيرهم منعوه، كما كان لبعض المغاربة صلة بالشّيخ محمّد عبدَه أمثال الشّيخ إدريس بن عبد الهادي، والمهدي الوزّانيّ والشّيخ المجاهد محمّد بن العربيّ العلويّ والشّيخ شعيب الدّكاليّ الذي زار الشّرق ورجع إلى المغرب سنة 1907م لقيادة الدّعوة الإصلاحيّة.[2]

الفرع الثّالث: بعض الدّول الأسيويــة

لقد امتدّ تأثير إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه إلى أقصى آسيا، فها هو العقّاد يشير إلى ذلك بقوله: "وإنّما انتشرتْ دعوته إلى الإصلاح أوسع انتشارها بين قرّاء تفسيره للقرآن، وفتاواه لطلّاب الفُتيا الكثيرين، ومقالاته وفصوله التي كانت تُنشر بتوقيعه أو بغير توقيعه ولا تخفى نسبتها إليه لنشرها في مجلّة المنار، وقد أنشأ مسلمو إندونيسية مجلّة على مثالها سَمَّوْهَا المنير، تُبَلِّغ هذه الدّعوة لمن لا يقرءون بالعربيّة مِنْ أبناء الأمّة الملاوية، وتَتَبَّع مسلمو الهند دروسَه كما توجَّهوا إليه بالاستفتاء في كلّ مشكلة مِنْ مشكلاتهم الاجتماعية التي تصطدم عندهم بالعقيدة الدّينية، ولمّا تسامع المسلمون في الهند بانقطاع الأستاذ الإمام عن إدارة الأزهر وشاع بينهم انّه سيهجر التّدريس، وقع منهم النّبأ موقع الهول الذي لا يحتمل، وكتب النّواب محسن عميد كلّية عليكرة ينعي رسالة الإصلاح في العالم

---

[1] ينظر: الموقع:http://www.mawsouaa.tn، الموسوعة التّونسية المفتوحة، تاريخ الزّيارة: الأحد: 2020/04/12م، في الساعة: 15:00.

[2] ينظر: عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق: ج1، ص 44و45.

الإسلاميّ، ويُنحِي على الخديوي وشيعته مِنَ الجامدين أشدّ الإنحاء، ويقول إنّهم: "لو كانوا يتوقّعون مِنَ المستر دنلوب بعد قنوطهم وإياسهم مِنَ الجامع الأزهر أنْ يؤسّس لهم كلّيات وجوامع في أرض مصر يكون فيها نشر التّعاليم العالية، لكان في ذلك بعض التّعزية عمّا قد فاتهم مِنْ ذلك في الجامع الأزهر، ولكنّ الذي ظهر لنا أنّهم لا يتوقّعون ذلك مِنْ هذه الجهة أيضا، وعسى أنْ ينكشف لديهم أنّ أعضاء الدّولة الذين بأيديهم زمام دولة مصر وملاك أمرها وسلطانها لا يرضَوْنَ بأنْ يتاح لهم مِنَ التّعاليم ما تستنير به قلوبهم، وتستضيء به أدمغتهم، ويطّلعون به على حقوقهم المِلّيَّة والسّياسية".[1]

أوّلا: تركيـــا

كتب محمّد شرف الدّين -مدير المعهد الإسلاميّ بكلّية الآداب بجامعة إسطنبول بتركيا- إلى الدّكتور عثمان أمين بأنّه درّس مذهب الشّيخ محمّد عبدَه كما هو مبيّن في رسالة التّوحيد، وترجم الفصل الذي كتبه عن مسألة زيد وزينب وصلتهما بالنّبيّ ﷺ التي كثر الجدال حولها بين المسلمين والمستشرقين، كما قرّر السيّد أحمد محي الدّين في كتابه عن تطوّر الثّقافة في تركيا الحديثة، أنّ قِسْمًا مِنْ مؤلّفات الشّيخ محمّد عبدَه قد ترجمها الشّاعر الإسلاميّ محمّد عاكف إلى اللّغة التّركيّة، ويعتقد محي الدّين أنّ هناك صلات وثيقة بين تعاليم الشّيخ محمّد عبدَه وأفكار المصلحين في تركيا الحديثة، ويرى محمّد شرف الدّين بأنّ محمّد عاكف قد استوحى في تفسيره للقرآن مذهب الشّيخ محمّد عبدَه، بإيراده لأمثلة كثيرة مِنْ تفسيره لآيات قرآنية عديدة في مجلّة سبيل الرّشاد التّركيّة، كما أرسل محمّد شرف الدّين إلى عثمان أمين قائمة طويلة فيها مقالات محمّد عبدَه ومؤلّفاته التي ترجمها محمّد عاكف إلى اللّغة التّركيّة ونشرها في مجلّة صراط مستقيم بين عامَيْ 1909و1920م.[2]

ثانيا: إيـــران

وصلتْ التّأثيرات الإصلاحية للشّيخ محمّد عبدَه إلى إيران، حيث كان له تلاميذ تشبّعوا بفكره وآرائه الإصلاحية، منهم تلميذُه الكاتب الفارسيّ زكاء الملك واسمه الأصليّ ميرزا محمّد حسين خان(ت1908ه) محرّر مجلّة تربيت الفارسيّة التي تصدر بطهران، التي كان الشّيخ محمّد عبدَه دائم الاطّلاع عليها ويعتبرها إحدى كبرى الصّحف الهامّة في إيران، وكانت بينهما رسائل لا تنقطع وصلات فكريّة وثيقة، كما كان زكاء الملك كثير الثّناء على شيخه وعلى مؤلّفاته التي أهداها إليه، حيث يقول: "مِنْ مرّاكش إلى الصّين، ومِنْ تركستان إلى اليمن والسّودان، كان الأستاذ الإمام محمّد عبدَه هو العالم الصّادق الوحيد في الإسلام كلّه، وهو وحده الذي نفذ إلى روح الإسلام وعرف كيف يطبّق مبادئه مراعيا مطالب عصرنا، إنّ الله قد بعث نبيّنا مِنْ أجل أنْ يكوّن رجالا على غراره، وإذا استطاع العلماء أنْ يجعلوا مِنْ أنفسهم رجالا مثل محمّد عبدَه لَبَلَغَ الإسلام غاية قوته، ولارتقى المسلمون في المدينة وأدركوا السّعادة، وإذا كان المسلمون على عكس هذا بتمسّكهم بتقليد ضيّق الأفق، يظلّون متعلّقين كما هو حالهم اليوم بالمعنى الظّاهر للتّقاليد وبِنَصِّ فتاوى أسلافهم، ففي هذا فناء الإسلام".[3]

---

[1] عباس محمود العقاد، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام الشيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ص164و165.

[2] ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبده، مصدر سابق: ص331و232.

[3] المصدر نفسه: ص233و234.

ثالثا: الهنـــد

امتدّ تأثير الشّيخ محمّد عبدَه بعيدا حتّى وصل إلى بلاد الهند، حيث تلقّى كثيرا مِنَ الرّسائل مِنَ الهنود المسلمين يستفتونه في مسائل دينية شقّ عليهم فهمها على حقيقتها، ممّا يدلّ عل مدى النّفوذ الكبير الذي بلغه في نفوسهم والمكانة العظيمة التي كان يحظى بها عندهم، واللّافت للانتباه أنّ كتابه رسالة التّوحيد قد ترجم إلى اللّغة الأوردية منذ أمد طويل، وصار عندهم مِنَ المصادر الدّينية الرّئيسة، ومِنَ الكتب التي كانت لها مكانة عالية بين الكتب المقرّرة في التّدريس في جامعة عليكرا -أليجار-، وكذا في مدارس أخرى في الهند وباكستان.[1]

رابعا: إندونيسيـــا

لقد تجاوزتْ حركة الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية الهند حتّى وصلت إلى جزر الهند الشّرقية، وهذا بسبب انتشار مجلّة المنار فيها، وكان يرى محمّد رشيد رضا أنّ حركة شيخه قد أثمرتْ في الملايو بحيث صار أهل تلك البلاد يؤسّسون المدارس الإسلامية فيها لتدريس اللّغة العربيّة والعلوم الدّينية والعلوم الأخرى مستوحين ذلك مِنَ المبادئ التي تعلّموها مِنَ الشّيخ محمّد عبدَه التي تضمّنتها مجلّة المنار، وهذا ما نوّه إليه أحد المستشرقين الذين ذكروا بأنّ مجلّة المنار كان لها نفوذ كبير في هذه البلاد، فقال: "أولئك الذين استقبلوا ضوء المنار في مصر قد أصبحوا بعد عودتهم إلى بلادهم منارات صغيرة، فرأوا الإسلام صورة جديدة، لم يعد رمزا للجمود والخمود، بل أضحى كائنا حيّا تتمثَّلُ فيه المعاني الجديدة والمعاني الخالدة جميعا"، وذكر كريمر أنّ ترجمة تفسير محمّد عبدَه نُشِرَتْ في ملايو، وحاولتْ الجمعية المحمّدية في جاوه أنْ تنشر الإسلام مسترشدة بأفكار وآراء الشّيخ محمّد عبدَه.[2]

وخلاصة المخرجات الإيجابية لإصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية؛ اعتماده جملة مِنَ الآليات؛ كتوظيفه التّعليم لتحقيق الرّقي والتّقدّم، وانتقاده للممارسات التّعليمية المعيقة عنها، ومزاولته للتّعليم بالمؤسّسات التّربويّة وإسهامه في زيادة عددها، وإنشائه لمؤسّسات الطّباعة لطباعة الكتب النّافعة والصّحف المهتمّة بالتّربية والتّعليم ونشرها على أوسع نطاق، وإسهامه بالكتابة الصّحفية، واقتناصه للفرص السّياسية لإصلاح التّعليم، وتشجيع المدرّسين ومكافأتهم لتحقيق نتائج مشرّفة، وسعيه لتمويل قضايا التّربية وتكوين متخصّصين فيها لمزاولة التّعليم، وإيفاد بعثات إلى الخارج لرفع مستواهم العلميّ وتعميق تكوينهم، وتشكيله للّجان التّربويّة وعقد ملتقيات دورية لدراسة الشّؤون التّربويّة، واستغلاله للمناصب التي شغلها لإنفاذ إصلاحاته التّربويّة، ووضعه مقرّرات تربويّة واعتمادها في التّدريس، بالإضافة إلى انتهاجه أسلوب التّرويح مع الطّلبة أثناء التّدريس، كما تخرّجتْ على يديه نماذج إصلاحية في مختلف الأقطار الإسلامية مثل؛ محمّد رشيد رضا والطّاهر بن عاشور وابن باديس وغيرهم حتّى بلغتْ شهرته الآفاق، وخاتمةُ مخرجات إصلاحاته الإيجابية؛ تشكّل مختلف المدارس المصريّة التّربويّة والاجتماعيّة والدّينيّة والسّياسيّة، وبلوغ إشعاعاتها أقطار العالم العربيّ والإسلاميّ مشرقا ومغربا؛ مثل الجزائر وتونس والمغرب، وسوريا ولبنان، وتركيا وإيران والهند وإندونيسيا.

---

[1] ينظر: عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمّد عبده، مصدر سابق: ص234و235.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ص235و236.

المبحث الثّاني: المخرجات السّلبية

المطلب الأوّل:
سلبيات إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية

المطلب الثّاني:
إفراط بعض تلامذة الشّيخ محمّد عبدَه في التّحرّر

المطلب الثّالث:
استعانته بالاستعمار ودنوُّه مِنْ قيمه التّغريبية

المطلب الرّابع:
دعوته إلى وحدة الأديان ودخوله في المحافل الماسونية

المبحث الثّاني: المخرجات السّلبيـّة

تمهيد:

لقد كانت للشّيخ محمّد عبدَه تجارب إيجابية ناجحة في مسيرته الإصلاحية التّربوية، واستطاع أنْ يشقّ بها طريقه إلى إحداث قدر محترم مِنَ التّغيير والنّهضة والإصلاح على مستوى الأفراد والجماعات والمؤسّسات والجمعيّات في مصر وفي بعض الدّول العربيّة والإسلاميّة، كما كانت عليه في المقابل سلبيات ومآخذ على تجربته الإصلاحيّة في حياته وبعد مماته؛ أحيانا مِنْ خلال الجهود التي بذلها بغية إصلاح ما أفسدته السّلطة الحاكمة المصرية بمعية شيوخ الأزهر المحافظين أو السّلطة الفعلية الإنجليزية الذين عارضوا إصلاحاته وقاوموها في المجال التّربويّ وفي مختلف المجالات الأخرى، وأحيانا مِنْ خلال بعض تلامذته الذين آمنوا بأفكاره وطروحاته، ولكنّهم خالفوا منهجه في الإصلاح، فجاء هذا المبحث ليميط اللّثام عن بعض تلك الهِنات والمآخذ في تجربة الشّيخ محمّد عبدَه في سياق تقييمها، وبيان بعض مخرجات إصلاحاته التّربويّة السّلبيّة، وكذا بتخريجه لبعض التّلامذة الذي تبنَّوْا أفكاره وآراءه وأفرطوا في التّحرّر مِنْ بعض المبادئ الإسلامية، وكذلك تعامله مع الاستعمار وتعاونه معه في بعض الجوانب حتّى يسمح له بتنفيذ إصلاحاته التّربويّة التي كان ينشد تجسيدها في الواقع المصريّ المتردّي، متجاهلا استغلال الاستعمار له في التّمكين لقيم الغرب التي انفتح عليها، بالإضافة إلى وقوعه في شراك الماسونية التي رفعتْ شعارات برّاقة للنّفوذ إلى أقطار العالم العربيّ والإسلاميّ بالتّرويج لفكرة التّقريب بين الأديان وتوحيدها للقضاء على الإسلام خصوصا وعلى التّديّن عموما.

المطلب الأوّل: سلبيات إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربويّـة

قام الشّيخ محمّد عبدَه في النّصف الثّاني مِنَ القرن التّاسع عشر بإصلاحات تربويّة في ظروف صعبة جدّا، تميّزتْ بحركة استعمارية مسعورة قادها الغرب الصّليبيّ للاستيلاء على بلدان العالم العربيّ والإسلاميّ، فأُخضعتْ مصرَ للاستعمار البريطانيّ عقب فشل الثّورة العُرابية، الأمر الذي زاد مِنْ تعقيد الوضع، ومُنع الشّيخ محمّد عبدَه مِنْ تجسيد الإصلاحات التّربويّة التي ينشدها وسْط ثلاثة أطراف كانت تتجاذبه وهي: شيوخ الأزهر الرّافضين لكلّ تجديد مِنْ جهة، وسلطة الخديوي الذي كان يسندهم حفاظا على مصالحه الضّيّقة مِنْ جهة أخرى، وهيمنة الاستعمار البريطانيّ مِنْ جهة ثالثة، فاجتهد في تنفيذ إصلاحاته التّربويّة عن طريق المؤسّسات التّربوية والدّينية والقضائية والأوقاف والصّحافة والتّأليف والعمل الجمعويّ، وتفعيلها ميدانيّا لتحقيق الأهداف والغايات التّربويّة التي رسمها، متحاشيا الصِّدام مع السّلطة السّياسية الفعلية في البلاد -الإنجليز- والصّورية -الخديوي-.

وقد تحقّقتْ بعض أفكاره الإصلاحية التّربويّة التي سعى لتجسيدها، وما لم يتحقّق له منها قام تلامذته بتجسيدها إمّا وفق منهجه وإمّا وفق فهومهم، فكانت بعض مخرجاتها متطابقة مع أفكاره ومواقفه، وجاءتْ أخرى على غير ما كان يأمله، فأُدْرِجَتْ في خانة الانحراف على المسار الذي رسمه، لعدم نجاحها وعدم مقدرته على تجسيدها في الوسط المصريّ، ومِنْ تلك المخرجات السّلبيّة ما يلي:

الفرع الأوّل: الاستنصار السّلبـيّ

زاوج الشّيخ محمّد عبدَه في إصلاحاته التّربوية بين مسلكَيْن متباينَيْن، بانتهاجه الاستنصار الإيجابيّ مع السّلطة السّياسية الحاكمة والاستعمار البريطانيّ الذي كان يسندها، فعرض مشروعاته الإصلاحية عليها وحاول إقناعها كيْ تتبنّاها وتنفّذها، كما سلك معها في مقابل ذلك مسلك الاستنصار السّلبيّ بالسّكوت على ممارساتها المنحرفة وغضّ الطّرف عن فسادها، وأحيانا بتشجيعها عليه، حتّى تسمح له بتطبيق ما ينشده مِنْ إصلاحات، وحتّى لا تعارضه ولا تمنعه مِنْ ذلك.[1]

ولمّا كانت السّلطة بيد العائلة الخديوية ومِنْ ورائها سلطة الاستعمار البريطانيّ الفعلية؛ اهتدى الشّيخ محمّد عبدَه إلى فكرة التّقرّب مِنَ السّلطة الحاكمة وحاول عرض خططه التّربويّة عليها والاجتهاد في إقناعها، دون مغالبتها ودون انتهاج المسلك السّياسيّ الذي ابتعد عنه لعدم جدواه، ولكي يتّقيَ شرّ الخديوي والاستعمار البريطانيّ، تقرّب منهم ووافقهم على سياستهم وسكت عن مفاسدهم وامتنع عن مناهضتهم حتّى لا يمنعوه مِنَ الإصلاح وحتّى لا يؤذوه ولا يُخرِجوه مِنْ بلده.

بعد رجوعه مِنَ المنفى إلى مصر، سلك مسلك الاستنصار السّلبيّ بتحسينه العلاقة مع الإنجليز، وتحاشيه الصِّدام بهم حتّى لا يوتّر علاقته معهم، وحتّى يتمكّن مِنْ تنفيذ إصلاحاته في ظلّ تلك العلاقة، وحتّى يغضّوا الطّرف عنه ولا يعارضوه، ووصل به الأمر إلى مداراة السّلطة الحاكمة الخديوية وكرومر، وعقد معهم علاقات صداقة لإنجاز إصلاحاته التّربويّة، وجعل ذلك المسلك قناعة وليس مجرّد مناورة ظرفية لمّا رأى بأنّ السّلطة الحاكمة لا تريد أنْ تتراجع عن غيّها، فقد استدرك على

[1] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص143.

أستاذه الأفغانيّ الذي كان ينتقد السَّاسَة وحاشيتهم ولا يغضّ الطّرف عن فسادهم؛ بأنّه لو تقرّب مِنَ السّلطان عبد الحميد ولم يتعرّض لفساد حاشيته ولم يتدخّل في شؤونهم، وبأنّه لو ساعدهم على أغراضهم الخسيسة لتمكّن مِنْ تجسيد إصلاحاته، ولكنّه لمّا تدخّل في شؤونهم منعوه مِنْ تحقيقها وأخفق في مسعاه[1]، فالشّيخ بمسلكه هذا طبّق النّظرية المكيافيلية؛ الغاية تبرّر الوسيلة، وأجاز مساعدة السّلطة وحاشيتها على الأعمال غير المشروعة حتّى تَغُضَّ الطّرف عن تنفيذ إصلاحاته التّربوية.

ولمّا اتّفقتْ السّلطة السّياسية وشيوخ الأزهر المحافظين على تقويض إصلاحاته لم يستطع مجابهتهما، فدعا إلى إبعاد السّياسة عن الدّين وتحمّل ما نتج عنها مِنْ هجوم شيوخ الأزهر عليه واتّهامهم له بالتّرويج للعَلمانية، فقاومهم واشتدّ في تعريتهم وإظهار جهلهم بعلوم العصر وبأحكام الإسلام، فاستعانوا عليه بالسّلطة السّياسية، ليستعين في المقابل بكرومر الذي أيّد إصلاحاته[2]، وقد آخذه على ذلك بعض العلماء والمفكّرين المسلمين الذين درسوا وقيّموا إصلاحاته، فاتّهموه بالعمالة للاستعمار البريطانيّ، لمداراته ومهادنته وعقد صِلات وطيدة معه أثناء قيامه بالإصلاح التّربويّ.[3]

وذكروا بأنّ لجهوده صِلات مشبوهة بالغرب مِنْ خلال استنادهم إلى بعض القرائن؛ منها تعاونه مع كرومر الذي وفّر له الحماية وشجّعه على تطبيق إصلاحاته في التّعليم والقضاء والأزهر، فقد قال كرومر مشيدا بتعاون الشّيخ محمّد عبدَه معه: "إنّ أهمّية الشّيخ محمّد عبدَه السّياسية، ترجع إلى أنّه يقوم بتقريب الهوّة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين، وأنّه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأنْ يُقدَّم لهم كلّ ما يمكن مِنَ العون والتّشجيع، فهم الحلفاء الطّبيعيّون للمصلح الأوروبّيّ"[4]، فالشّيخ محمّد عبدَه في نظر هؤلاء الباحثين عميل مخلص للإنجليز لأنّه كان يخلص النّصح لهم ويرشدهم إلى ما يوطّد احتلالهم، لذلك وعده كرومر بالبقاء في منصبه مفتيا ما دامتْ مصر واقعة تحت الاحتلال البريطانيّ.

الفرع الثّاني: النّزوع إلى التّراتيب الإجرائية على حساب الإصلاح الجوهريّ

إنّ المتصفّح للإصلاحات التّربوية التي اقترحها الشّيخ محمّد عبدَه، يجده ينزع إلى التّراتيب الإجرائية أكثر مِنَ المضامين التّفصيلية التي تُبْنى عليها المادّة التّربويّة، مع أنّ التّراتيب تُفضي إلى تربّية النّاشئة على الفكر الحرّ، وإذا كان المضمون التّربويّ يقلّ فيه المحتوى التّفصيليّ، فإنّ ثمرته تكون معتركا تتنازعه التّيارات يمينا وشِمالا، لأنّها لا تكون مُسْنَدَة بما يثبّت حالها مِنَ البرامج المفصّلة.[5]

لذلك حدث انفلات وشطط في التّعليم بعد وفاة الشّيخ محمّد عبدَه، لكون بعض تلامذته أمثال قاسم أمين، جعلوا التّعليم وسيلة لتجريد المرأة مِنْ حيائها وإخراجها مِنْ خِدرها إلى معترك الحياة العامّة، بمبرّر تعليمها لتحريرها مِنْ استبداد الأسرة المحافِظَة التي حرمتها مِنْ مواصلة التّعليم ومِنْ حقّ التّعلّم، واستدراجِها للتّنصّل مِنْ عصمة زوجها، والدّعوة إلى إطلاق حرّيتها بلا قيد ولا شرط.

---

[1] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص142و143، وينظر: عبد الرّحمان بدوي، الإمام محمّد عبدَه والقضايا الإسلامية، مرجع سابق: ص81.

[2] ينظر: زكريا سليمان بيومي، التيارات السياسية والاجتماعية بين المجدّدين والمحافظين- دراسة في فكر الشّيخ محمّد عبدَه، ص11.

[3] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، المرجع السابق: ج3، ص90.

[4] محمّد حامد الناصر، العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب، مرجع سابق: ص369و370.

[5] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، المرجع السابق: ج3، ص162و163.

الفرع الثّالث: الإنتاج القِيَمِي والعلمي والصّناعي الباهـت

رغم انفتاح الشّيخ محمّد عبدَه على العالم الأوروبّيّ بزياراته المتكرّرة إليه للاستفادة مِنْ تطوّره الحضاريّ، سواء فيما تعلّق بكيفية تجسيد بعض القيم التي تنعم بها الأمم الغربيّة؛ كالحرّية وحقوق الإنسان والوحدة، أو فيما يتعلّق بجلب العلوم العصريّة والصّناعيّة المفيدة التي تقدّم بها وفيها الأوروبّيّون، حيث قام بعض تلامذته مِنْ بعده باتّباع منهجه بالاستفادة منهم في المجال التّربويّ وغيره مِنَ المجالات، لكن في العموم لم تثمر جهوده ما كان يأمله، ولم تتحقّق ماثلة أمامه كما أرادها.

فالعالم الإسلاميّ اليوم أصبح مشتّتا ومنهزما أكثر مِنَ الماضي، وشهد تراجعا رهيبا في المجال الصّناعيّ الذي لم يَبْدُ منه إلّا العرض الظّاهريّ، ولم يفلح في الصّناعات التي صُنِّفَ بموجبها في مصافّ الدّول المتطوّرة كامتلاك السّلاح النّوويّ وصناعة الغوّاصات والبوارج الحربيّة والأقمار الصّناعية وغيرها، التي مُنِعَ منها بقرارات متحيّزة وعقوبات جاهزة، لذلك لم يجرؤ على امتلاكها وتطويرها بصفة مستقلّة -باستثناء بعض الدّول الإسلامية كإيران وتركيا وباكستان-، وفي المقابل فإنّ اليابان مثلا كانت في مستوى بعض البلدان العربيّة والإسلاميّة في القرن التّاسع عشر، لكنّها بعد الحرب العالمية الثّانية استطاعتْ أنْ تشقَّ طريقها نحو تحقيق الرّقي المادّيّ والمعنويّ[1]، وصارتْ مِنْ أرقى دول العالم تربويّا وعلميّا واقتصاديّا وسياسيّا، وأمّا مصر ونظيراتها فقد صُنّفتْ في خانة دول العالم الثّالث.

لذلك باعتبار مخرجات الإصلاحات التّربويّة للشّيخ محمّد عبدَه، حُكِمَ عليها بأنّها لم تحقّق الأهداف والمقاصد التي رسمها، مقارنة لها بالإنجازات المادّية والمعنويّة التي حقّقها نظراء المسلمين في العالم الغربيّ، وهذا لا ينفي تحقُّق بعض النّتائج في التّربية وفي المجالات الأخرى، فمقدار النّجاح الذي تحقّق خرج مِنْ منطقة السّكون وقطع خطوات قصيرة لم يبلغ بها الأهداف التي رمى إليها لإحداث رُقِيٍّ مادّيّ ومعنويّ على غرار ما هو حاصل عند الغرب الأوروبّيّ والأمريكيّ.

إنّ أسباب إخفاقات الشّيخ محمّد عبدَه في بعض إصلاحاته التّربويّة ترجع إلى عدم تشخيصه الدّقيق للتّخلّف السّائد، فقد عالج أسبابها بسطحيّة تجزيئيّة بعيدة عن الشّمول والدّقة والعمق، حيث أرجع أسبابها إلى الانحراف في الدّين والاستبداد والتّشرذم، ولكن هذه الثّلاثية تمثِّل مظاهر التّخلّف وليست أسبابه، وهذا ما جعل الشّيخ محمّد الفاضل بن عاشور يُخَطِّئُ الشّيخَ محمّد عبدَه في تشخيص الدّاء لاعتباره مظاهر التّخلّف هي أسبابه، لذلك لم يُجْدِ الدّواء الذي وصفه للمصريّين وللأمّة العربيّة والإسلاميّة، فالأَوْلَى به البحث في أسبابه لا في مظاهره، فإذا كان مثلا عدم التّمسك بالدّين يبدو في الظّاهر أنّه سبب للتّخلّف، فالتّساؤل المطروح هو: ما سبب عدم تمسّك المسلمين بدينهم؟ وهكذا يتمّ الوقوف على الأسباب الحقيقيّة للتّخلّف، ويتبيّن بأنّه لم يكن هناك تفاعل بين إرادة وفكر الفرد وعقيدة الإسلام، فكانت إشاراته عابرة وغير مقصودة، فأدّى ذلك إلى تخلّف الأمّة الإسلامية، فالعقيدة لها موقع محوريّ في نفس المسلم وتأثير على فكره وإرادته الدّافعة إلى التّقدّم والتخلّص مِنَ التّخلّف والاختلاف والتّفرّق.[2]

---

[1] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص154.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ج3، ص156و157.

الفرع الرّابع: حصر خطاب الإصلاح في النّخبة دون الجماعة وفي العقل دون الوجـدان

لقد أغفل الشّيخ محمّد عبدَه الخطاب الدّعويّ الجماهيريّ في إصلاحاته التّربويّة، حيث قَصَرَهُ على النّخبة بتوجّهه إلى طبقة محدودة مِنَ المتعلّمين، لذلك لم يكن لخطابه حضور كبير في نفوس العامّة، كما لم يقم بالتّعبئة الشّعبيّة الشّاملة لهم، ولم يوظّف في إصلاحاته الوسائل التي قد توصله إلى جمهور عريض مِنَ النّاس وتشحذهم وتقوّي عزائمهم، كما خلتْ إصلاحاته مِنَ المنزع العاطفيّ الذي ينفذ إلى نفوس العامّة، ومال كثيرا إلى العقلانية التي لم يستوعبوها، فكان بذلك محدود التّأثير.

كما كان البُعدُ الحركيّ في إصلاحاته التّربويّة ضامرا، لاعتماده في تنفيذها على جهوده الفرديّة، ولم يسعَ إلى تأسيس تنظيم جماعيّ لتوسيع دائرة إصلاحاته في الأمّة، وهو ما جعل أفكاره الإصلاحية تكون ضعيفة التّأثير في النّاس، لأنّ العمل الفرديّ لا يثمر إلّا في نطاقٍ ضيّق، مقارنة بالشّيخ عبد الحميد بن باديس الذي كان تأثير جمعيته ممتدّا، وبقيتْ تعمل وفق مبادئه حتّى الوقت الرّاهن.[1]

ومِنْ مآخذ إصلاحاته اعتماده على الإصلاح التّربويّ وإغفاله للجانب السّياسيّ والاقتصاديّ والفكريّ والثّقافيّ، فالإصلاح الشّامل يقتضي إيلاء تلك المجالات الأهمّية اللّازمة، وهذا ما جعل إصلاحاته تكون قليلة التّأثير في النّاس، رغم توفّرها على محتوى فكريّ راقٍ وأسلوب تربويّ عميق، كما كانت تنقصه التّعبئة الشّعبيّة لإحداث الانتشار الأفقيّ، وعدم انضوائه تحت تنظيماتٍ سياسيةٍ لتأطير إصلاحاته، والمرافعة عنها في المعترك السّياسيّ، ومع ذلك فإنّ إصلاحاته التّربويّة لا تقلّل مِنْ إسهاماته في إيقاظ الأمّة الإسلاميّة والنّهوض بها، وتعزيز الثّقة في نفوس المصريّين، وحَضِّهم على رفض الاستعمار ومقاومته، ونشر الوعي في النّخبة المثقّفة في أمّته، وإنْ لم يشمل قطاعا عريضا مِنَ النّاس، والذي زاد في عرقل إصلاحاته التّربويّة هو الاستعمار البريطانيّ الذي أجهز على أكثرها، بالإضافة إلى إغراءات الحضارة الغربيّة التي فتنتْ النّخب المسلمة واستحواذها على نفوسها المهزومة، الأمر الذي جعلها تصرف أنظارها عن إصلاحاته المجسّدة، فتسبّبتْ في ضمورها وامتداد الغزو الفكريّ بين المسلمين.[2]

الفرع الخامس: تغليب الإصلاح التّربويّ على إصلاح المجالات الأخـرى

ركّز الشّيخ محمّد عبدَه على الإصلاح التّربويّ أكثر مِنْ تركيزه على إصلاح المجالات الأخرى، لكونه يحمل قناعة بأنّ الإصلاح التّربويّ هو السّبيل الآمن الذي به يتمُّ إصلاح باقي المجالات الأخرى، فنظر إلى التّربية نظرة كمال، واقترح على أستاذه جمال الدّين الأفغانيّ: أنْ يتركا السّياسة كيْ يتجنّبا متابعات الحكومات وملاحقاتها، ويختارون مجموعة مِنْ أنجب وأذكياء التّلاميذ بعناية، وينعزلون عن المجتمع، ويتفرّغون لتعليمهم وتربيتهم، فلا تمضي عشر سنين حتّى يكون لديهم عشرات التّلاميذ الذين يتركون أوطانهم وينتشرون معهم في الأرض ويجسّدون الإصلاح المطلوب، فقال له جمال الدّين الأفغاني: "إنّما أنت مثبّط"، ودعاه أيضا إلى غضِّ الطّرْف عن فساد السّاسة وحاشيتهم حتّى لا يمنعونهم مِنْ السّعي لتحقيق إصلاحاتهم التّربويّة، كما انتقد أستاذه لمّا وجده يُنكر على السّلطان عبد الحميد وحاشيته،

---

[1] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص173- 175.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ج3، ص176و177.

واقترح عليه أنْ يتقرّب منه ولا يتكلّم عنْ فساد حاشيته ولا يتدخّل في شؤونهم، بل ولو ساعدهم على فسادهم لكان أفضل، كلّ ذلك حتّى يسمحون له بالإصلاح التّربويّ، وإلّا أخفقتْ مساعيه الإصلاحية.[1]

إنّ اقتصار الشّيخ محمّد عبدَه على الإصلاح التّربويّ دون غيره مِنَ المجالات؛ يُعدُّ مِنْ نقائص منهجه، لأنّ الأمر يتطلّب توسيع مجالات الإصلاح لإحداث التّغيير ومِنْ ثَمَّ النّهضة، فكان أثر مسلكه التّربويّ في الإصلاح؛ أنّه لم يُنَمِّ عقول النّاس ولم يُقَوِّ عزائمهم، لذلك لم يتحقّق الإصلاح الشّامل.[2]

لكن رؤية الشّيخ محمّد عبدَه بأنّ النّفوذ الأجنبيّ والاستعمار البريطانيّ الزّاحف على الدّولة العثمانية واستعمارها عسكريّا، وتوظيفه للمدارس والجمعيات التّبشيرية، لا يمكن إخراجه منها إلّا بسلاح التّربية، فذكر مثلا بأنّه لا سبيل لمواجهة النّفوذ الأجنبيّ في لبنان إلّا بالتّربية ومدافعة الأجانب بمثل سلاحهم، وما أسهل سدّ تلك المنافذ على أولئك الأجانب بإنشاء معهدٍ للتّربية العثمانية، ويرى بأنّ مقاومة النّفوذ الأجنبيّ والاستعمار الغربيّ وحلّ مشكلة الطّائفية وغيرها لا يكون إلّا بالتّربية الدّينية التي يتمّ بها الإصلاح ويسهل قبوله ويرسخ جيّدا في نفوس النّاس، وهو أفضل مِنَ الوطنيّة والقوميّة التي ترفعها بعض الجهات، فذكر بأنّ أنفُسَ المصريّين أُشربتْ الانقياد إلى الدّين حتّى صار طبعا فيها، فكلّ مَنْ طلب إصلاحها بدونه، فإنّ أتعابه ستضيع ومساعيه ستخفق لا محالة.[3]

وزار الشّيخ محمّد عبدَه الجزائر ونصح علماءها بعدم الانشغال بالسّياسة وعدم التّعرض لسلطة الاحتلال، ودعاهم إلى مسالمة الحكومة والاهتمام بالإصلاح الدّينيّ، وبَعَثَ برسالة إلى الشّيخ عبد الحميد بن سماية سنة 1903م ينصحه فيها بقوله: "فإنّي لا أجد مندوحة عن التّصريح بالتّحذير مِنَ النّظر في سياسة الحكومة أو غيرها مِنَ الحكومات، ومِنَ الكلام في ذلك، فإنّ هذا الموضوع الكبير الخطر، قريب الضّرر، وإنّما النّاس محتاجون إلى نور العلم، والصّدق في العمل، والجدّ في السّعي، حتّى يعيشوا في سلام وراحة مع مَنْ يجاورهم مِنْ أهل الأمم الأخرى"، ورفض العمل السّياسيّ وإشهار الحرب على الاحتلال قائلا: "إنّ العمل لإخراج الإنجليز مِنْ مصر عمل كبير جدّا، ولا بدّ في الوصول إلى الغاية منه مِنَ السّير في الجهاد على منهاج الحِكمة والدّأب على العمل الطّويل ولو لعدّة قرون".[4]

لذلك انتُقِد الشّيخ محمّد عبدَه على نظرته المثالية هذه للتّربية وحَصْرِهِ الإصلاح فيها، وإغفاله للسّياسة، واعتباره أنّ التّربية هي العصا السّحريّة للإصلاح، وأنّه بها يمكن حلّ جميع المشاكل، والتّحرّر مِنْ كلّ القيود، وجعل السّلبيّ إيجابيّا، والنّاقص كاملا، والمقيّد متحرّرا.[5]

كما أنّه يرى بأنّ الإنسان لا يكون إنسانا حقيقيّا إلّا بالتّربية التي تتّبِع الأحكام والتّعاليم التي جاء بها الأنبياء والمرسلون لتعليم الإنسان الأمانة والصّدق والحبّ فقال: "فإذا تربّى أحبّ نفسَه لأجل أنْ يحبّ غيره، وأحبَّ غيره لأجل أنْ يحبَّ نفسَه".[6]

---

(1) ينظر: عبد الرّحمان بدوي، الإمام محمّد عبدَه والقضايا الإسلامية، مرجع سابق: ص80و81.

(2) ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص176.

(3) ينظر: عبد الرّحمان بدوي، الإمام محمّد عبدَه والقضايا الإسلامية، المرجع السابق: ص82و83و85.

(4) محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج1، ص91-93.

(5) ينظر: عبد الرّحمان بدوي، الإمام محمّد عبدَه والقضايا الإسلامية، المرجع السابق: ص77.

(6) محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، المصدر السابق: ج3، ص168.

إنّ التّربية لا يمكن أنْ تكون لها الأولويّة المطلقة في كلّ شيء، ولا يمكن إدراك قيمتها إلّا ضمن إطار التّنمية العامّة، لذلك ينبغي أنْ يكون هناك توازن في الاهتمام بجوانب التّنمية المختلفة في جميع الميادين التّربويّة والاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة لتحقيق تنمية متكاملة وشاملة، وذلك بالانطلاق مِنْ قرارات سياسية تتّخذها السّلطات العليا للبلدان، ويستند إليها المتخصّصون والدّارسون لأوضاع البلدان في التّوصيات التي يقدّمونها لإصلاحها والنّهوض بها.[1]

المطلب الثّاني: إفراط بعض تلامذة الشّيخ محمّد عبدَه في التّحرّر

مِنْ مخرجات مدرسة الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية؛ بروز بعض تلامذته الذين تبنَّوْا إصلاحاته التّربويّة، ثُمّ صاروا ضمن تيّار التّحرّر إلى حدّ الإفراط فيه، بنزوعهم إلى فصل الدّين عن الحياة والتّنصّل مِنْ أحكام الشّريعة الإسلامية، تارة باسم حقوق الإنسان والحرّية، وتارة باسم المرونة ومواكبة التّطوّرات العلميّة والثّقافيّة في ظلّ الفورة التّكنولوجية، وفي هذا المطلب أوردتُ عيّنة واحدة مِنَ الذين تبنَّوْا الفكر الإصلاحيّ للشّيخ محمّد عبدَه لكنّهم بالغوا إلى درجة الغلوّ في الدّعوة إلى التّحرّر.

- **قاسم أمين[2] خرّيج مدرسة الشّيخ محمّد عبدَه يدعو إلى التّحـرّر**

إنّ تيّار التّحرّر الذي ينتمي إليه قاسم أمين ويتبنّى فكر الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحيّ، وينزع إلى التّربية ويرى فيها بأنّها المال الذي لا يفنى،[3] وأنّه بالتّربية تنهض الأمّة مِنْ كبوتها وتتحرّر مِنْ قيود التّخلّف والجهل والجمود والسّلبيّة، لذا جعل مِنَ الحرّية ركيزته الأساسية للإصلاح التّربويّ، لكن هذه القيمة الإسلامية التي عمل على إحيائها وتثبيتها في المجتمع المصريّ المسلم، شابها انفلات كبير، حيث لم تعد تضمن فكرا سليما وإرادة سويّة، فخلتِ الحرّية مِنْ برنامج علميّ مفصّل لمفرداتها ومِنْ ضوابط تحكمها تجمع بين حرّية الفكر والإرادة المحصّنة مِنَ الانفلات، حتّى تتراءى تحقّقاته في التّربية وغيرها.[4]

يمتلك قاسم أمين شخصية فنّان وأديب ومفكّر نحا نحو الإصلاح الاجتماعيّ، ودافع عن رأيه بإصرار، وتصدّى لأعنف الرّدود التي سبّبها له موقفه مِنْ دعوته لتحرير المرأة، وهو مِنَ المصلحين البارزين في مدرسة اليقظة والتّنوير في مصر وفي الشّرق العربيّ والإسلاميّ.[5]

---

[1] ينظر: محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه، مرجع سابق: ص49.

[2] **قاسم أمين(1863- 1908م):** حصل على شهادة الابتدائية بالإسكندرية، وعلى شهادة الثّانوية بالقاهرة، التحق بمدرسة الحقوق والإدارة وفيها حصل على شهادة اللّيسانس سنة 1881م، ثمّ توجّه إلى المحاماة، وسافر إلى فرنسا ودرس القانون وعاد إلى القاهرة سنة 1885م، عيّن قاضيا سنة 1887م، ثُمّ رُقّيَ إلى منصب رئيس نيابة سنة 1889م، ثمّ إلى مستشار سنة 1894م، مِنْ مؤلّفاته: المصريّون؛ أصدره بالفرنسيّة، وتحرير المرأة، والمرأة الجديدة، وله أكثر مِنْ عشرين مقالا حول الإصلاح الاقتصاديّ والاجتماعيّ والتّربويّ كتبها دون توقيع، ينظر: محمّد عمارة، قاسم أمين الأعمال الكاملة، ص20- 26، وينظر: محمّد عمارة، قاسم أمين تحرير المرأة والتّمدّن الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط2، 2008، ص12.

[3] ينظر: محمّد عمارة، قاسم أمين تحرير المرأة والتّمدّن الإسلامي، المرجع نفسه: ص54.

[4] ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص163.

[5] ينظر: محمّد عمارة، قاسم أمين تحرير المرأة والتّمدّن الإسلامي، المرجع السابق: ص27و49.

وهو مِنْ تلامذة الشّيخ محمّد عبدَه الذين دَعَوْا إلى تحرير المرأة، فخرج مِنْ عباءته وتبنّى مبادئ التّحرّر، ووسّع مِنْ حدود الحرّية التي أقرّها شيخه في كتاب تحرير المرأة الذي اختلفتِ الأقوال بشأنه، فمِنْ قائل بأنّه مِنْ تأليفه والأفكار لشيخه، ومِنْ قائل بأنّه مُؤلَّفٌ مشتركٌ بينهما، ومِنْ قائل بأنّ مقدّمة الكتاب مِنْ وضع شيخه، ومِنْ قائل بأنّ الفصول الأولى للكتاب مِنْ تأليف شيخه، ومِنْ قائل بأنّ الشّيخ محمّد عبدَه ألَّف الكتاب وسمح لقاسم أمين بوضع اسمه عليه.

فقيل جوابا على الأسئلة المثارة حول الكتاب؛ بأنّ اللورد كرومر أمر بوضع الكتاب لمّا رأى قاسم أمين يدافع عن حجاب المرأة المصريّة ويدعوها للمحافظة على تقاليد مجتمعها لمّا ردّ على الكاتب الفرنسي دوق داركور في كتابه: مصر والمصريّون، فأوحى كرومر إلى الشّيخ محمّد عبدَه أنْ يصلح قاسم أمين خطأه بتأليف كتاب جديد، وقيل بأنّ الأميرة نازلي هانم هي التي أمرتْ بوضع الكتاب لمّا غضبتْ مِنْ قاسم أمين المدافع عن الحجاب واعتبرتْ نقده للنّساء المصريّات المقلّدات للأوروبّيّات مُوجَّها إليها، فألّف الكتاب ليصلح خطأه في حقّها، ويرى البعض بأنّ الشّيخ محمّد عبدَه ألَّفه ووضع عليه اسم قاسم أمين تجنّبا للحرج وللعاصفة التي ستهبُّ عليه لو وضع اسمه بصفته مفتيا وشيخا أزهريّا.[1]

لقد أحدث الكتاب معركة اجتماعية واسعة لارتباطها بالأسرة، وقد تنبّأ بعض الدّارسين لخطر الكتاب لكونه سيُحدث تغييرات كبيرة في أفكار الأمّة وأخلاقها، مع أنّ الكتاب لم يطالب المرأة بالعمل مثل الرّجل، وإنّما طالب بالمساواة بينهما في التّعليم الابتدائيّ فقط، كما دافع عن الحجاب الشّرعيّ للمرأة وفق الشّريعة الإسلاميّة الذي تكشف فيه المرأة عن وجهها وكفّيها فقط[2]، وأنّ القيود التي سعى قاسم أمين لتحرير المرأة منها لم تكن قيودا إسلامية، فالإسلام ارتاد ميادين تحرير المرأة مِنَ الأغلال التي كُبِّلتْ بها عبر التّاريخ، كما أنّ الآفاق التي سعى قاسم أمين لتبلغها المرأة العربيّة والمسلمة ليست آفاقا غربيّة، فالرّوح الشّرقيّة والآفاق الإسلاميّة كانت ماثلة في فكره بدليل كتاباته، كما أنّ الآفاق التي استشرفها للمرأة العربيّة والمسلمة جاءتْ لترشيد الحياة الفكريّة والاجتماعيّة بدعوته إلى تحرير إرادتها ومواصلة تعليمها بعدما قصر الرّجل تعليمها على المرحلة الابتدائية، أمّا الصّورة الورديّة التي أعطاها لحياة المرأة الغربية في كتابه المرأة الجديدة؛ ينبغي أنْ يُنظر إليها في سياق عصره وطبيعة ثقافته كواحد مِنَ النّخبة التي انطبع عقلها بالفكر الغربيّ، ويجب أنْ يُنظر إلى القضيّة في ضوء موقفه حيال وضع المرأة العربيّة والمسلمة المهين الذي ورثته مِنَ العصور المظلمة للمماليك والعثمانيّين، وهو وضع لا يمتّ بصلة إلى صورة المرأة المشرقة في الإسلام[3]، فبدا فكر قاسم أمين الإصلاحيّ متحرّرا؛ بجراءته على الحديث عن قضايا المرأة الشّرقيّة المسلمة الحسّاسة التي نذر نفسه للانتقال بها مِنْ ظلمات جاهليّة العصور الوسطى إلى أنوار تحضّر العصر الحديث، فكرّس جهوده الفكرية في مناقشة مسائل المرأة قبل غيرها مِنْ قضايا الإصلاح الأخرى.[4]

---

[1] ينظر: محمّد عمارة، قاسم أمين الأعمال الكاملة، مرجع سابق: ص119.

[2] ينظر: محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مصدر سابق: ج1، ص255و256.

[3] ينظر: محمّد عمارة، قاسم أمين الأعمال الكاملة، المرجع السابق: ص11.

[4] ينظر: المرجع نفسه: ص16.

والكتاب يُعدّ مِنْ أكثر كتب قاسم أمين ذيوعا، وأشهر كتاب عربيّ صدر سنة 1899م، فقد كان للشّيخ محمّد عبدَه دور كبير في تأليفه مِنْ خلال تعرّض الكتاب لقضايا الحجاب والزّواج والطّلاق وتعدّد الزّوجات وفق الشّريعة الإسلامية، فأثار أوّل معركة فكريّة كبرى في مطلع القرن العشرين هزّتِ المجتمع العربيّ والإسلاميّ والمصريّ تحديدا، لكونه يمسّ الحياة الأسرية في الصّميم، حتّى عُدَّ الكتاب مِنْ أخطر الكتب المؤثّرة في أفكار الأمّة وأخلاقها، فوصفوه بمحرّر المرأة ولوثر الشّرق، وللإنصاف فإنّ المساواة بين الرّجل والمرأة التي دعا إليها قاسم أمين كانت معقولة، لكنّ منتقديه حمّلوا فكرة المساواة التي دعا إليها ما لم تحتمل، فهو القائل في كتاب تحرير المرأة: "ولستُ مِمَّنْ يطلب المساواة بين الرّجل والمرأة في التّعليم فذلك غير ضروريّ، وإنّما أطلب المساواة في التّعليم الابتدائيّ على الأقلّ".[1]

وأمّا مسألة الحجاب والسّفور فقد دافع عن حجاب المرأة قائلا: "ربّما يتوهّم ناظر أنّني أرى الآن رفع الحجاب بالمرّة، لكن الحقيقة غير ذلك، فإنّني لا أزال أدافع عن الحجاب وأعتبره أصلا مِنْ أصول الآداب التي يلزم التّمسك بها، غير أنّي أطلب أنْ يكون منطبقا على ما جاء في الشّريعة الإسلامية، هو الحجاب الشّرعي وهو الذي أدعو إليه، كشف المرأة وجهها وكفيها، ونحن لا نريد أكثر مِنْ ذلك".[2]

وخلافا لما ورد ذكره؛ ذكر في موضع آخر مِنْ كتابه بأنّ الحجاب غير منصوص عليه في الشّريعة الإسلاميّة، وأنّه عادة مأخوذة مِنْ بعض الأمم، ثمّ دعاها إلى الاختلاط لأنّه يدفع السّوء عنها، فقال: "ليس في الشّريعة نصّ يوجب الحجاب، وإنّما هي عادة أخذناها عن بعض الأمم...إنّ المرأة التي تخالط الرّجال تكون أبعدَ عن الأفكار السيّئة مِنَ المرأة المحجوبة".[3]

فمرّة يدعو المرأة إلى عدم السّفور وإلى ارتداء الحجاب طبقا للشّريعة الإسلامية، ثمّ يناقض نفسه ويذكر في موضع آخر بأنّ الحجاب غير منصوص عليه في الإسلام وأنّه عادة مأخوذ مِنْ بعض الأمم، ويدعوها إلى الاختلاط بالرّجال حتّى تدفع السّوء عن نفسها، وبهذا المنهج يعتبر نفسه داعية إلى تحرير المرأة مِنْ موروثات العصور الوسطى البعيدة عن الإسلام.

والحقيقة أنّ هناك علاقة بين الشّيخ محمّد عبدَه وكتاب تحرير المرأة، فالكتاب يمثّل ثمرة عمل مشترك بينهما، لاشتماله على فصول كتبها الشّيخ محمّد عبدَه، وأخرى كتبها قاسم أمين، كما أنّ في زمنهما كان شائعا نشر الكتب والمقالات والأبحاث بأسماء الغير وبأسماء مستعارة، فقد كتب الشّيخ محمّد عبدَه مقالات كثيرة بعدّة توقيعات؛ أحيانا بتوقيع مؤرّخ، وأحيانا أخرى بتوقيع عالم فاضل، كما أنّ مبدأ اشتراك أكثر مِنْ مفكّر في إنجاز عمل فكريّ واحد كان معروفا مألوفا يومها، بالإضافة إلى أنّ الدّارس للكتاب يرى بأنّ الفصول التي كُتبتْ عن الحجاب والزّواج والطّلاق وتعدّد الزّوجات هي بحوث فقهية لا يمكن أنْ يكتبها ولا يستطيعها إلّا إمام مجتهد في الإسلام كالشّيخ محمّد عبدَه، بينما بقيّة الفصول فهي أقرب إلى ثقافة قاسم أمين الاجتماعيّة وأسلوبه في تناولها.[4]

---

[1] محمّد عمارة، قاسم أمين الأعمال الكاملة، مرجع سابق: ص117و118.

[2] المرجع نفسه: ص123.

[3] محمّد عمارة، قاسم أمين تحرير المرأة والتّمدّن الإسلامي، مرجع سابق: ص62.

[4] ينظر: محمّد عمارة، قاسم أمين الأعمال الكاملة، المرجع السابق: ص124و125.

ثمّ إنّ الأفكار التّحرّرية التي تبنّاها وعرضها قاسم أمين وبدأتْ تشيع في المجتمع المصريّ، كانت مِنْ مخرجات الاحتلال البريطانيّ لمصر ومِنْ آثار الحضارة الأوروبّية التي بدأ أبناء مصر الذين رجعوا إلى بلادهم ينقلون إفرازاتها المختلفة ويعمّمونها على حواضر وبوادي المجتمع المصريّ.

إنّ نقل منجزات الحضارة الغربيّة التي تتصادم مع قيم ومبادئ الدّين الإسلاميّ إلى حاضرة العالم العربيّ والإسلاميّ لبلوغ مستوى التحضّر الغربيّ، كان بسبب الضّعف الذي عاشه المسلمون والانبهار الكبير بمنجزات الحضارة المادّية الغربيّة، فكان هذا الاستنساخ مُنطَلَقا للمنزع العَلمانيّ الذي يرى بأنّه لا دخل للدّين في شؤون الحياة العامّة، فارتمى في أحضان الغرب وأخذ ينقلها كما هي، وهو ما بدا جليّا عند قاسم أمين وغيره مِمّنْ أَصَّلُوا وبنَوْا فكرهم على الفكر الإصلاحيّ للشّيخ محمّد عبدَه.[1]

ويرى بعض الدّارسين بأنّ قاسم أمين محسوب على التّيّار المعتدل الذي ينادي بالتّربية والتّعليم والاستنارة وتكوين الأمّة الرّاقية علميّا وفكريّا، باعتباره الطّريق الوحيد لإجلاء الإنجليز ونيل الاستقلال، وهو التّيّار الذي تمثّله المدرسة الإصلاحيّة التي يتزعّمها الشّيخ محمّد عبدَه.[2]

المطلب الثّالث: استعانته بالاستعمار ودنوُّه مِنْ قيمه التّغريبيـة

يرى بعض الدّارسين لمنهج الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحيّ أنّه كان متعاونا مع الاستعمار البريطانيّ ومداهنا له إلى حدّ العمالة، مِنْ خلال احتكاكه بقادته وتواصله وتنسيقه معهم، وانفتاحه الكبير على قيمه وترويجه لها، فقد زكّاه ساسة المستعمر ودعّموه ووفّروا له الحماية، وتوسّطوا له لتولّي بعض المناصب الهامّة في الحكومة المصريّة وثبّتوه فيها، الأمر الذي شجّعه على ممارسة السّياسة التي كان قد استعاذ منها بعد عودته مِنَ المنفى بسبب ما لحقه منها مِنْ حبس وإهانة ونفي، ولتسبّبها في عرقلة إصلاحاته التّربويّة عندما خاض غمارها، ومع ذلك كان يتحايل ويمارسها مهادنا ومداهنا للاستعمار البريطانيّ لخدمته وخدمة مصالحه، وهو ما تمّ بسط الكلام حوله في الفرعين التّاليَيْن مِنْ هذا المطلب.

الفرع الأوّل: مهادنة الاستعمار والتّعاون معـه

بمناسبة وفاة الشّيخ محمّد عبدَه؛ ذكر اللورد كرومر الحاكم البريطانيّ لمصر في تقريره السّنوي عام 1905م، بأنّ الشّيخ كان عميق المعرفة بالشّريعة الإسلامية، وأنّه كان لآرائه المتحرّرة أثر عظيم في جعل مشورته والتّعاون معه مجدية، وأنّه متفائل بتسرّب أفكاره إلى المجتمع الإسلاميّ التي سوف تلقى نجاحا في اكتساب الأنصار، وأنّ منهجه في الإصلاح الإسلاميّ يبشّر بمستقبل زاهر لمصر، وأنّ جهوده تستحقّ الدّعم والتّشجيع مِنَ الأوروبّيّين[3]، وفي تقرير عام 1906م ذكر بأنّ أَتْبَاع الشّيخ محمّد عبدَه قامتْ فكرتهم على إصلاح النّظم الإسلامية المختلفة دون الإخلال بأصول العقيدة الإسلامية وبقواعدها الأساسية، وبالتّعاون مع الأوروبّيّين وبضرورة التّنازل لهم، وعدم معارضتهم في إدخال

---

(1) ينظر: عبد المجيد عمر النّجار، الشهود الحضاري للأمّة الإسلامية، مرجع سابق: ج3، ص171.

(2) ينظر: محمّد عمارة، قاسم أمين الأعمال الكاملة، مرجع سابق: ص319.

(3) ينظر: محمّد محمّد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، ص74، وينظر: حصوننا مهدّدة مِنْ داخلها، ص103.

الحضارة الغربيّة إلى بلادهم[1]، كما أوصى بالشّيخ محمّد عبدَه خيرًا في تقاريره المرفوعة إلى البرلمان الإنجليزيّ، وعلّق على رجاله آمالا كبيرة في رعاية المصالح الإنجليزية عن طريق إنشاء علاقات مِنَ الودّ والتّفاهم بينهم وبين المسلمين في مصر[2]، بدليل ما قاله اللورد كرومر غداة احتلال بلاده لمصر: "جئتُ إلى مصر لأمحو ثلاثا: القرآن والكعبة والأزهر"[3]، ومع ذلك نسّق معه الشّيخ محمّد عبدَه على أمل أنْ يساعده ويسمح بتطبيق إصلاحاته في التّربية وفي غيرها مِنَ المجالات الحيويّة.

وبعودة الشّيخ محمّد عبدَه مِنَ المنفى إلى مصر ترك السّياسة وجَانَبَ الخصام مع الحكومة البريطانية التي كان لها الفضل في استصدار العفو عنه بالضّغط على الحكومة المصرية[4]، واتّقاء لشرّ الاستعمار ومداراة له وظّف السّياسة للتّقرّب منه، فلقي مِنْ كرومر الدّعم والتّشجيع، وصار يبذل له النّصح ويرشده إلى ما يثبّت استعمار بلاده، مقابل إبقائه مفتيا لمصر رغم رفض شيوخ الأزهر المحافظين له، وتآمرهم عليه لعزله مِنْ هذا المنصب، كما قدّمتْ له السّلطات البريطانية الحماية لمّا سافر إلى الأستانة عندما حيكتْ حوله الدّسائس، وكان يترك السّياسة متى وجدها تزعج الاستعمار أو تعرقل إصلاحاته التّربويّة، فيهادنه مؤقّتا بالتّوجّه إلى التّدريس ومزاولة التّربية والتّعليم.[5]

وفي فترة الاحتلال البريطانيّ لمصر تعاون الشّيخ محمّد عبدَه مع كرومر وقدّم له التّنازلات، وبدأ إصلاحاته بمهاجمة الأزهر ونقد المحاكم والحياة الاجتماعية، مع أنّ كرومر يرى بأنّ أفضل وسيلة لإلغاء الشّريعة الإسلامية هي تفريغ المحاكم الشّرعية مِنْ محتواها وتعيين علماء متحرّرين تتمّ تربيتهم بإشرافه وإشراف الشّيخ محمّد عبدَه في معهد خاصّ لقضاة الشّرع، خصوصا وأنّه لا يرى حرجا في اقتباس القوانين التّشريعية الغربيّة ما دامتْ تستجيب للإصلاحات التي يسعى إليها[6]، بل إنّه تجاوز حدود التّعاون مع الاستعمار البريطانيّ إلى درجة التّعاون مع جواسيسه ومستشرقيه، والذي يؤكّد تعاونه معهم رسالتَيْه اللّتَيْن بعث بهما إلى بلنت، وأخلص له فيهما النّصح والمشورة لخدمة مصالح الاستعمار البريطانيّ على حساب خدمة مصالح المصريّين.[7]

الفرع الثّاني: تمييع الفكر الإسلامي للتّقرّب مِنَ القيم الغربيـة

اجتهد الشّيخ محمّد عبدَه في تطوير الفكر الإسلاميّ في مختلف المجالات الحيويّة وفي المجال التّربوي تحديدا الذي اهتمّ به كثيرا وانصبّتْ جهوده على إصلاحه وتطويره للارتقاء بأمّته والنّهوض بها، وجعله وسيلة لإصلاح المجالات الحيويّة الأخرى، فسافر إلى الدّول الأوروبّية كفرنسا وإنجلترا وسويسرا وغيرها للاطّلاع على حضارتها والاستفادة منها، ونقلِ ما يخدم المصريّين والأمّة العربيّة والإسلاميّة، فنقل علومهم وتعلّم لغتهم وأدرج تعليمها في المؤسّسات التّربويّة والدّينيّة والجمعيّات المصريّة.

---

[1] ينظر: محمّد حامد النّاصر، العصرانيون بين مزاعم التّجديد وميادين التّغريب، مرجع سابق: ص73

[2] ينظر: محمّد محمّد حسين، حصوننا مهددة من داخلها، مرجع سابق: ص83.

[3] أنور الجندي، الخنجر المسموم، دار الاعتصام، القاهرة، (د ط)، (د ت)، ص08.

[4] ينظر: سيد بن حسين العفاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، مرجع سابق: ج1، ص81.

[5] ينظر: محمّد حامد النّاصر، العصرانيون بين مزاعم التّجديد وميادين التّغريب، المرجع السابق: ص38.

[6] ينظر: سيد بن حسين العفاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، المرجع السابق: ج1، ص85و86.

[7] ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص56.

لكنّ الأمر انفلت ونحا منحى آخر، واستُغلّتْ أفكاره لتطويع الإسلام للاقتراب مِنْ قيم الحضارة الغربيّة والافتتان بمنجزاتها المادّية، فانعكستْ في الجانب الدّينيّ بالسّلب على تفكير النّخب المصريّة التي صارتْ ترى بأنّ ما يعيشه المسلمون مِنْ تخلّف وجهل وجمود يرجع إلى الإسلام وأحكامه، وفي الجانب السّياسيّ أخذ يدعو إلى بعض القيم الغربيّة؛ كالوطنية الإقليميّة، والعناية بالتّاريخ الفرعونيّ، والدّعوة إلى الحرّية، وإلى الحياة النّيابية، ووضْعِ دستورٍ يحدّد حقوق وواجبات الحاكم والمحكوم، وفي الجانب الاجتماعيّ دعا إلى إعادة النّظر في وضع المرأة خصوصا فيما يتعلّق بالحدّ مِنْ تعدّد الزّوجات، والحدّ مِنْ حرّية الطّلاق، فواصل تلامذته أمثال لطفي السيّد وسعد زغلول وقاسم أمين وغيرهم تطوير هذه المسائل حتّى بلغتْ منتهاها، بل وتجاوزوها إلى مسألة الحجاب وغيرها، رغم أنّ الشّيخ في عمله الإصلاحيّ وقف في وجه الاتّجاه العَلمانيّ لحماية مجتمعه منه، لكنّ العَلمانيّين وبعض تلامذته استغلّوا أفكاره وجعلوها قنطرة ليعبُروا مِنْ خلالها إلى العالم العربيّ والإسلاميّ، لتقوم الماسونية والاستعمار بالتّرويج لهذه الأفكار، حتّى نجحا في تدعيم زعامته الفكرية والدّينية في المجتمع الإسلاميّ.[1]

واستدلّ الدّارسون المسلمون بكلام المستشرقين أمثال جيب الذي ذكر بأنّ الشّيخ محمّد عبدَه ساهم في التّقريب بين الثّقافة التّقليديّة وثقافة أوروبّا بتعليم تلامذته على الطّريقة الأوروبّية، وأقام لهم جسرا بين التّعليم التّقليديّ والتّعليم المستورد مِنْ أوروبّا، ومهّد للطّلبة المسلمين الدّراسة في الجامعات الأوروبّية دون الاحتياط لعقيدتهم، فكانت آراؤه الإصلاحية دافعا إلى التّحرّر وتطوير الدّين والانفلات مِنْ ثوابته، واستشهدوا كذلك بموقف الشّيخ مصطفى صبري الذي يرى بأنّ نهضة الشّيخ محمّد عبدَه زعزعتْ الأزهر عن جموده على الدّين، وقرّبتْ الكثير مِنَ الأزهريّين إلى اللاّدينيّين، ولم تقرّبهم إلى الإسلام، وأنّه هو الذي أدخل الماسونية إلى الأزهر، وشجّع قاسم أمين على التّرويج للسّفور في المجتمع المصريّ، واقتداؤه بالمجامع النّصرانية في تنقيح الإسلام حسب هواهم لتطويعه للغرب.[2]

ومِنْ أخطر آثار الشّيخ محمّد عبدَه الفكريّة والعقديّة التي عرضها وسعى إلى تجسيدها بإصلاحاته التّربويّة؛ دعوته للعَلمانية في العالم الإسلامي بإضعاف مفهوم الولاء والبراء، إذْ لم يكتف بتعاونه مع الحكومة الإنجليزية فحسب، ولكنّه دعا إلى موالاة الإنجليز بحجّة أنّ التّعاون مع الكفّار ليس محرّما، فأفكاره تمثّل حلقة وصل بين العَلمانية الأوروبّية والعالم الإسلاميّ، لذلك اتّخذها اليهود والصّليبيّون جسرا لعلمنة التّعليم في العالم الإسلاميّ وإبعاد الدّين عن الحياة الاجتماعيّة، وإبطال العمل بالإسلام، والتّحاكم إلى القوانين المستوردة، وتطبيق النّظريّات الغربيّة تحت ستار الإصلاح.[3]

إنّ الطّريق الذي سلكه الشّيخ محمّد عبدَه في الإصلاح أوقعه في انحرافات فكريّة وأخطاء سياسية كثيرة، منها تعاونه مع الاستعمار البريطانيّ وإرشاده لكرومر وتقديمه له لائحة إصلاح التّعليم في مصر والتّسليم المطلق له، كما كان كرومر يتزوّد مِنْ آراء الشّيخ الصّائبة ويستعين به في المسائل

---

[1] ينظر: محمّد محمّد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، مرجع سابق: ص78و79.

[2] ينظر: محمّد حامد النّاصر، العصرانيون بين مزاعم التّجديد وميادين التّغريب، مرجع سابق: ص71.

[3] ينظر: سيد بن حسين العفاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، مرجع سابق: ج1، ص88و89.

الدّينية والقضائية والسّياسية والفكريّة، حتّى أنّه حزن لوفاة الشّيخ واعتبر ذلك خسارة لبريطانيا[1]، وبذل الاستعمار البريطانيّ جهده لتحويل المجتمع المصريّ المسلم نحو الحضارة الغربيّة حتّى يتبنّى قيمها وأفكارها بتغييره مِنَ الدّاخل، ولكي يعطي السّند الفكريّ والدّعم الدّينيّ لذلك، فلم يجد أفضل مِنَ الشّيخ محمّد عبدَه لتحقيق ضالّته وتجسيدها لذلك دعّمه وشجّعه في مساعيه الإصلاحية.[2]

لذلك يرى بعض الدّارسين لفكر الشّيخ محمّد عبدَه ولإصلاحاته؛ أمثال غازي التّوبة ومحمّد محمّد حسين وسيد بن حسين العفاني ومصطفى صبري ومَنْ وافقهم، أنّ الشّيخ أسهم كثيرا في التّرويج للأفكار الغربيّة وإرساء العَلمانية التي انتعشتْ بعد وفاته، وإحياء فكرة التّقريب بين الأديان وتوحيدها، والتّمكين للماسونية التي تزعم أنّها تحارب الاستبداد والاستعمار، وترفع الشّعارات البرّاقة كالإخاء والمساواة والحرّية لمخادعة النّاس حتّى ينضووا تحت لوائها، ثمّ تطبّق مخطّطاتها عليهم بمحاربة التّدين فيهم، وإرساء الاستبداد ليبسط الاستعمار نفوذه على الأقطار العربيّة والإسلاميّة.

المطلب الرّابع: دعوته إلى وحدة الأديان ودخوله في المحافل الماسونيّة

كانت مسيرة الشّيخ محمّد عبدَه حافلة بالكثير مِنَ النّشاطات والتّحرّكات والمواقف التي كانت مدعاة للتّوجّس مِنْ إصلاحاته، فصدرتْ مواقف متباينة بشأنه؛ بين ملتمس الأعذارَ له، ومتأوّل لمواقفه، ومحسن الظّنّ به، على أنّها صدرتْ منه بحسن نيّة، أو أنّها جاءتْ في سياقات معيّنة جعلته يقوم بها للاستكشاف ولمعرفة حقيقة الشّعارات البرّاقة المرفوعة، وللاطّلاع على الأفكار المطروحة عن كثب، مثل ما حصل معه عندما أنشأ جمعية التّقريب بين الأديان السّماوية وتوحيدها لتحقيق التّعايش المشترك بين أهلها وإشاعة الأمن والسّلام بينهم، أو كما حصل معه عندما دخل المحفل الماسونيّ مع أستاذه جمال الدّين الأفغانيّ لمقاومة الاستعمار العالميّ وتجسيد الشّعارات الإنسانيّة.

الفرع الأوّل: الدّعوة إلى التّقريب بين الأديان وتوحيدها

جعل الله الإسلامَ خاتم الشّرائع السّماوية لقوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾[سورة آل عمران]، وقوله تعالى:﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[سورة آل عمران]، لكن ضعف المسلمين وجهلهم بدينهم وشيوع الأفكار الهدّامة بينهم؛ أنبتتْ نابتة غريبة في مجتمعاتهم، تمثّلتْ في الدّعوة إلى التّقريب بين الأديان وتوحيدها بمبرّرات واهية وأغراض مشبوهة تزعم أنّها تريد التّعايش المشترك وإشاعة السّلم والأمن، وإزالة الخلافات والعنصرية، لكنّ هذه الدّعوة تخالف نصوص القرآن والسنّة التي تقرّ سنّة التّدافع بين الحقّ والباطل الثّابتة في الحياة لقوله تعالى:﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾[سورة البقرة]، فعلى المسلمين أنْ يتميّزوا عن غيرهم بالالتزام بدينهم، وعدم الانصهار في غيرهم، وعليهم أنْ يدعوهم إلى الإسلام بالتي هي أحسن لقوله تعالى:﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[سورة النّحل].

---

[1] ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص54و55.

[2] ينظر: المرجع نفسه: ص70.

وقد تأثّر بهذه الدّعوة الشّيخ محمّد عبدَه الذي دعا إلى التّقريب بين الأديان بإيعاز مِنْ أستاذه جمال الدّين الأفغانيّ الذي قال: "فوجدتُ بعد كلّ بحث وتنقيب وإمعان، أنّ الأديان الثّلاثة: الموسويّة والعيسويّة والمحمّديّة، على تمام الاتّفاق في المبدأ والغاية، وإذا نقص في الواحد شيء مِنْ أوامر الخير المطلق استكملته الثّانية...وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير، أنْ يتّحد أهل الأديان الثّلاثة مثل ما اتّحدتْ الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها، وأنّ بهذا الاتّحاد يكون البشر قد خَطَا نحو السّلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة"[1]، وأخذ الشّيخ محمّد عبدَه يتّصل برجال الدّين النّصارى ويفاوضهم في ذلك فلقي إسحاق تيلر الذي كان يمهّد للتّوحيد بين الدّيانتَيْن ويقول: "أمّا الذي أنا مُصِرٌّ على توكيده فهو الاتّحاد بين الإسلام والمسيحية ليس مِنْ جهة الدّين فقط بل مِنْ جهة السّياسة أيضا".[2]

وللتّقريب بين الإسلام والنّصرانية واليهودية، وإزالة الشّقاق بين أهلها، وتخفيف الضّغط على المسلمين في أوروبّا، وتعريفهم بحقيقة الإسلام؛ أنشأ الشّيخ محمّد عبدَه سنة 1883م جمعية سياسية دينية في بيروت مع ثلّة مِنْ أصدقائه مِنْ مختلف الدّيانات والمذاهب بعدما أُوقِفَت جمعية العروة الوثقى التي أسّسها مع أستاذه الأفغانيّ في باريس بفرنسا.[3]

وسرتْ دعوته بعد وفاته بين تلامذته الذين ربّاهم على أفكاره وهو يزاول إصلاحاته التّربويّة، فروّجوا لها ونشروها وحمّلوها أكثر ممّا تحتمل، وصارتْ دعوته تسير في فلك شعارات الاستعمار العالميّ الذي يروّج للأفكار الماسونية الهدّامة التي تُظهِر خلاف ما تُبطن.

وعلّق غازي التّوبة على دعوة الشّيخ محمّد عبدَه إلى التّقريب بين الأديان بوصفه إياها بأنّها لوثة بقيتْ تفعل في ذهنه بعد انتقاله مِنْ بيروت إلى القاهرة، وذلك مِنْ خلال استضافته لـ: خريستوفورس جبارة الأمريكيّ الذي يدعو إلى توحيد الأديان السّماوية، وحقيقة العصر كشفتْ عن كذب الدّعوة إلى توحيد الأديان وزيفها، وأنّ هدفها التّلاعب بمفاهيم الإسلام وإزالة صفاء أفكاره، وهي أُمنية راودتْ أعداء الإسلام الذين يريدون أنْ يساووا بين الإسلام وبين اليهودية والنّصرانية المحرّفتَيْن، فهذه الدّعوة كشفتْ عن مؤامرات اليهود الحاقدة لتمييع القيم الدّينية، والقضاء على الدّين في العالم، فالرّسول ﷺ جاور اليهود في المدينة النّبوية سنين طوالا قبل أنْ يُجْلِيهم عنها، ودعاهم إلى الإيمان والإسلام ولم يدعهم إلى التّوفيق بين الإسلام واليهودية أو إلى التّقريب بينهما، وكان الأحرى بالشّيخ محمّد عبدَه أنْ يقتدي بالرّسول ﷺ ويدعو أهل الكتاب إلى الإسلام، وكان الأَوْلَى بالأوروبّيّين الذين يحملون هذه الفكرة أنْ يقوموا بدعوة قومهم لنبذ التّعصّب والحقد، وعدم استغلال المسلمين وتخريب أوطانهم.[4]

---

[1] محمّد عمارة، الأعمال الكاملة لجمال الدّين الأفغاني، دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة، القاهرة، مصر، ط1، 2016م، ج3، ص1538و1539.

[2] محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص822.

[3] ينظر: المصدر نفسه: ج1، ص819و820.

[4] ينظر: غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق: ص27و28.

الفرع الثّاني: دخوله في المحافل الماسونيـة

كُتِب عن الشّيخ محمّد عبدَه الكثير مِنَ الكلام حول قيامه ببعض الأعمال التي انتُقِد فيها؛ كدخوله مع أستاذه جمال الدّين الأفغانيّ في المحافل الماسونية التي رفعتْ شعارات برّاقة تدعو إلى الحرّية والإخاء والمساواة، ودعوتها إلى مناهضة الاستعمار بمختلف صوره وأشكاله.

وذكرتْ الكثير مِنَ المصادر بأنّ الشّيخ محمّد عبدَه كانت له نشاطات مريبة مع أستاذه جمال الدّين الأفغانيّ الذي عندما رأى تزايد التّدخّل الأجنبيّ في مصر؛ دخل الماسونية وصار مِنْ رؤسائها، ثمّ أنشأ محفلا وطنيّا تابعا للشّرق الفرنسيّ ودعا مريديه للعضوية فيه[1]، وترأس المحفل الماسونيّ -كوكب الشّرق-[2]، وفي سنة 1878م زاد مركزه خطرا في البلاد وسما مقامه وتولّى رئاسة جمعية الماسون العربيّة، وصار له أصدقاء وأولياء مِنْ أصحاب المناصب العالية وكثر سواد الذين يخدمون أفكاره ويُعلون بين النّاس مناره مِنْ أرباب الأقلام مِنْ أمثال الشّيخ محمّد عبدَه، وأخذ يقترب مِنَ العوامّ ويحضّهم على الثّورة على الاستعباد والاستبداد، وقال لهم: "هُبّوا مِنْ غفلتكم، أُصْحوا مِنْ سكرتكم، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول، عيشوا كباقي الأمم أحرارا سعداء، أو موتوا مأجورين شهداء"[3]، فدخله وصار عضوا فيه، وتعاون مع أستاذه في نشر مبادئ الماسونية البرّاقة، وصاغ برنامج الحزب الوطني الحرّ الذي ضمّ رجالا مِنْ مختلف المذاهب والعقائد والدّيانات النّصرانية واليهودية وكلّ مَنْ يسكن مصر ويتكلّم لغتها، كما أوّلَ بعض الأحكام الفقهية تأويلا عصريّا موافقا للحضارة الغربيّة.[4]

ولتجسيد مبادئ الماسونية التي تدعو إلى محبّة البشر كلّهم بلا تمييز؛ دعا إلى وحدة الأديان وسعى للجمع أو التّقريب بين الإسلام واليهودية والنّصرانية، وهو هنا كمَنْ يسعى للجمع بين الحقّ والباطل والكفر والإيمان، فقد كتب محمّد رشاد فيّاض رئيس محفل الشّرق الأكبر العالميّ الماسونيّ في كتابه النّور الأعظم: "الميمات الثّلاث في الموسويّة والعيسويّة والمحمّديّة يجتمعون في ميم واحد هو ميم الماسونية، لأنّ الماسونية عقيدة العقائد، وفلسفة الفلسفات، إنّها تجمع وتوحّد المتفرّقات"[5]، وعلى هذا كانت دعوته إلى التّقارب بين الأديان مِنَ الحبائل الماسونية التي وقع في شراكها.[6]

ولإنفاذ الشّيخ محمّد عبدَه إصلاحاته التّربوية؛ جاء بتلك الأفكار وقام بتلك النّشاطات التي رسّخها بها في مصر غداة رجوعه مِنَ المنفى بعدما ترك السّياسة التي سبّبتْ له المتاعب وعرقلته عن تطبيق أفكاره التّربوية، فسلك هذا المنهج عساه يحقّق ما عجز عن تحقيقه في المجالات الأخرى.

والخلاصة أنّ إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية كانت لها مخرجات سلبيّة تمثّلتْ في جنوحه إلى الاستنصار السّلبيّ بالسّلطتَيْن؛ الفعليّة الإنجليزية والصّورية الخديويّة حتّى يتحاشى الصّدام

---

(1) ينظر: محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مصدر سابق: ج1، ص40.

(2) ينظر: سيد بن حسين العفاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، مرجع سابق: ج1، ص83.

(3) محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، المصدر السابق: ج1، ص46و47.

(4) ينظر: محمّد حامد النّاصر، العصرانيون بين مزاعم التّجديد وميادين التّغريب، مرجع سابق: ص39.

(5) المرجع نفسه: ص310و311.

(6) ينظر: مجلة البيان، مرجع سابق: ج181، ص118.

معهما، وكذا إشادته بفسادهما حتّى يسمحان له بالإصلاح التّربويّ، ونزوعه إلى التّراتيب الإجرائية في الإصلاح على حساب الإصلاح الجوهريّ، فانعكس ذلك بالسّلب على نوعية التّربية، كما أعيب عليه توجّهه العقلانيّ في خطابه وتخصيص النّخبة به على حساب الجماعة وإغفاله للجانب الوجدانيّ فكان تأثيره محدودا، ومغالاته في الإصلاح التّربويّ على حساب المجالات الأخرى التي لا تقلّ أهمّية عنه، ذلك أنّ التّكامل بين مختلف المجالات يساعد على إنجاح الإصلاحات التّربويّة، وكذا الإنتاج الباهتُ للمؤسّسات التّربوية والجمعيّات المختلفة التي كان يمارس الإصلاح التّربويّ مِنْ خلالها؛ حيث لم تُحقِّق إنتاجا قِيَمِيّا وعِلميّا وصناعيّا مهمّا، كما خرج مِنْ تحت عباءته وهو يزاول الإصلاح التّربويّ بعض التّلامذة الذين حادوا عن منهجه وأفرطوا في عرض أفكارهم التّحرّريّة وانحرفوا عن خطّه التّربويّ المعتدل، وهو منهج التّحرّر الذي تبنّاه وسلكه قاسم أمين، ومِنَ القضايا التي آخذ المهتمون بالإصلاح الشّيخ محمّد عبدَه عليها؛ تعاونه مع الاستعمار مقابل تجسيد إصلاحاته، واستساغته لبعض قيم الغرب التي لا تتواءم مع قيم الأمّة الإسلامية بمبرّر اتّقاء شرّه ومهادنته، وكذا تمييعه للفكر الإسلاميّ بحجّة تطويره للتّقرّب مِنَ الأوروبّيّين لتحاشي الصّدام معهم، ومِنْ مخرجاته السّلبية وقوعه في شراك الماسونية التي رفعتْ شعاراتٍ تُظهر الخير وتُبطن الشرّ وتدعو إلى التّعايش السّلميّ العالميّ، فدخل إلى المحافل الماسونية ودعا إلى التّقريب بين الأديان وتوحيدها، فهذه المخرجات أَوَّلَهَا البعض تأويلا حسنا، واعتبرها آخرون انحرافا عن منهج الإصلاح، وأنّ الشّيخ محمّد عبدَه صار وسيلة طيّعة في يد الاستعمار ينفّذ به مخطّطاته ويحقّق به أهدافه المضرّة بمصالح المجتمع المصريّ والأمّة الإسلاميّة، لكنّ الدّارس لسيرة ومسيرة الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحية؛ يجده اجتهد في الإصلاح فأصاب في بعضها وجانبه الصّواب في أخرى، فحاز أجران عند الإصابة، وحاز أجرا واحدا عند الخطأ ومجانبة الصّواب.

الخاتمة

غداة مزاولة الشّيخ محمّد عبدَه للإصلاح التّربويّ عرض أفكارا سبقتْ زمانها منذ أكثر مِنْ قرن وربع القرن مِنَ الزّمن، فكانت حسب علماء التّربية المعاصرين ذات مستوى متقدّم جدا، فقد أثبتتْ نجاعتها في الواقع التّربويّ المصريّ الذي طُبّقتْ فيه نسبيّا، خصوصا فيما تعلّق بالمناهج والمقرّرات والتّنظيم الإداريّ والتّقنيّ للتّربية، وقد جاءتْ الأطروحة لتعرض إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربويّة في ظرف عالميّ سجّلتْ فيه التّربية نجاحا وحضورا متميّزَيْن في الكثير مِنَ الدّول الغربيّة المتقدّمة وبعض الدّول الأسيوية التي قطعتْ أشواطا كبيرة في التّطوّر والتّقدّم كاليابان والصّين وماليزيا وغيرهم.

والمتتبّع للفكر التّربويّ اليوم يجده فرض حضوره بقوّة بين المجالات الحيويّة الأخرى، الأمر الذي يدلّ على أهمّيته وضرورته، في مقابل ضموره في الواقع العربيّ والإسلاميّ، حيث لم يجد الظّروف المناسبة لتجسيده على أرض الواقع رغم الحاجة الماسّة إليه لتحقيق التّطوّر والتّقدّم، وهذا ما حزّ في نفوس المتخصّصين التّربويّين ومريدي الإصلاح، وهو مؤشّر بَيِّنٌ على إفلاس المجتمع المصريّ فيه.

لهذا ينبغي على المتخصّصين التّربويّين تعميق بحوثهم حول رواد الفكر الإسلاميّ الذين تولّوا مَهمَّة الإصلاح التّربويّ في مصر وفي بلدان العالم العربيّ والإسلاميّ، وإعداد دراسات أكاديمية جادّة ومعمّقة حول الإصلاح التّربويّ، واستخلاص عصارة الأفكار المطروحة القابلة للتّجسيد لإحياء الأمّة والنّهوض بها وتحقيق الإصلاح الشّامل وإقامة أمّة متحضّرة كالتي أقامها أسلافنا ابتداء بنبيّنا محمّد ﷺ الذي أدّبه الله فأحسن تأديبه، فأدّى ما عليه في تأديب أصحابه ﷺ فأحسن تأديبهم، فاستحقّوا وصفه لهم بالخيريّة في قوله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[رواه البخاري].[1]

فإذا اعتمد المصلحون منهج البناء التّراكميّ في تفعيل جهود السّابقين، قد يحدث تقدّم جوهريّ ويتحقّق الأفضل، أمّا إذا أغفلوها ولم يُحيوها ولم يطوّروها؛ فهي دعوة للتّراجع والجمود، ودعوة لعرقلة مسيرة الإقلاع والنّهوض، وهذا مِنْ شأنه أنْ يجعل الأمّة تعيش بلا أفكار ولا آفاق نهضوية لأنّها حَكَمَتْ على أفكارها السّالفة بالموت، وستصير كحاطب بليل، بلجوئها إلى أخذ كلّ ما تجده أمامها مِنَ الأفكار التي تعجّ بها السّاحة العربية والغربية، وستصبح مستهلكة لا منتجة لها، فالأفكار التّربوية لا بدّ لها مِنْ أصول ومنطلقات ذاتية للحفاظ على هويّة الأمّة وبناء حضارة راقية تجعلها في الرّيادة.

لهذا بات مِنَ الضّروريّ النّظر في أفكار أبناء الأمّة السّابقين النّابغين أمثال المصلح المجدّد الشّيخ محمّد عبدَه الذي ترك أفكارا حيّة وآراء صائبة وتراثا زاخرا وتجارب مثمرة لم تمتْ بوفاته، فكلّما هَمّشتْ الأمّة الإسلامية أبناءها؛ ضَعفتْ وساءتْ أوضاعها وتعقّدتْ حياتها، وزادتْ الحاجة إلى مراجعة أفكارها التّربويّة وإصلاحها، فالواجب الحضاريّ يدعونا إلى الوفاء لأمّتنا بالوفاء لتراث وأفكار أمجادنا ومفكّرينا ومصلحينا، بالتّنقيب عنهم وإحياء جهودهم ودراستها وتقييمها وتجديدها وتطبيقها.

إنّ الإصلاح التّربوي ضروري لصناعة الإنسان الرّشيد الواعي، وإيجاد الرّفاهية له والتّقدّم الذي افتقده في بلاده، فبالإصلاح يتحقّق النّجاح في المجتمعات التي تؤمن به، أمّا التي تزاوله شكليّا ولا تؤمن به، فستظلّ تعيش الرّكود والتّخلّف وستبقى بعيدة عن ركب التّقدّم والتّحضّر والسّيادة، لذلك لا بدّ

[1] أخرجه البخاري في كتاب: الشّهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أُشهد، ج3، ص171، حديث رقم: 2651.

مِنَ التّأسيس له بتغيير ذهنية الإنسان وإقناعه بضرورة الإصلاح مثل باقي المجالات، والعمل على إيجاد المكان الذي يهيّء لقبوله ويساعد في إنجاحه وتحقيق الأهداف والغايات المرجوة منه، وأساسه أنْ تكون القابلية له موجودة في عقل وقلب ووجدان الإنسان القائمِ والمستهدَف به، الذي ينبغي أنْ يكون فاعلا ومؤثّرا، ومترجما له في سلوكاته وأعماله، وأنْ تظهر آثاره في جميع أحواله وفي كلّ الصّعد مِنْ حوله، ولا يكون ذلك إلاّ بإعداد المربّين والمعلّمين والإداريّين نفسيّا وأخلاقيّا ووظيفيّا للاضطلاع بمهامّهم التّربويّة والإصلاحية برساليةٍ ومهنيّةٍ في المؤسّسات التّربويّة وفي المؤسّسات الاجتماعية الأخرى.

ولابدّ مِنْ امتلاك تصوّر شامل ووضع تخطيط مدروس ودقيق يتوفّر على جميع متطلّبات الإصلاح التّربويّ الضّرورية؛ البشريّة والعلميّة والماليّة والفنّيّة، وإعداد مصلحين تربويّين متمرّسين لديهم علم متين، ومعرفة شاملة، وخبرة كافية، وحِسّ نقدي بنّاء، وتحليل دقيق للواقع، بالإضافة إلى التّوفّر على مقرّرات ومناهج علمية مناسبة للقيام بالتّربية والإصلاح، وعلى فنّيّات حديثة تتماشى مع التطوّر التّكنولوجيّ الوافد، ودعم جهود الإصلاح التّربويّ بمنظومة مِنَ التّشريعات المساعدة على تحقيقه، تقوم على قيم ومبادئ الحرّية والعقلانيّة والمهنيّة والرّسالية، وتوظيف الخبراء والكفاءات القادرة على التّربية والإصلاح التّربويّ، وإعطائهم سلطة موسّعة للتّفكير والتّجريب والإبداع، وتقديرهم، بعيدا عن كلّ أشكال الضّغط والابتزاز، ثمّ تُشفع جهودهم بالتّقييم والتّقويم وقياس مدى نجاح العملية التّربويّة وإصلاحاتها المطبّقة، وبالقيام بالتّعديل أو التّصحيح لتحقيق الإصلاح التّربويّ المنشود.

إنّ الإصلاح التّربويّ الذي رفع لواءه الشّيخ محمّد عبدَه، وأشبعه بروح التّغيير إلى الأحسن ونشدان المثالية والكمال، كان قناعة راسخة في نفسه، قام به بتفان كبير، مستفرغا فيه وسعه، وباذلا فيه كلّ جهوده، متحدّيا العراقيل التي لم تزده إلّا إصرارا ونشاطا حتّى آخر لحظة مِنْ حياته، وتلخيصا لما ورد في ديباجة الخاتمة، خلص الباحث مِنَ الدّراسة إلى **النّتائج** الآتية:

أوّلا: أنّ الإصلاح التّربويّ الذي قام به الشّيخ محمّد عبدَه: يتمثّل في تلك الجهود الفكريّة والبدنيّة، النّظرية والتّطبيقيّة التي وظّف فيها الوسائل الحديثة للتّربية والتّعليم في زمانه، وهدف مِنْ خلالها إلى المحافظة على المرجعيّة الدّينيّة الإسلامية ضمن العمليّة التّربويّة.

ثانيا: أنّ الدّواعي التي دفعتْ بالشّيخ محمّد عبدَه للقيام بالإصلاح التّربويّ تنقسم إلى قسمين وهي:

أ)- الدّواعي الدّاخلية والمتمثّلة في: تفشّي الجهل والاستبداد السّياسيّ والتّبعية للغرب والرّكون للتّقليد والجمود في سير العمليّة التّربويّة، ممّا أفرز عقما في طرائق التّدريس ومناهج التّعليم وأهدافه.

ب)- والدّواعي الخارجيّة المتمثّلة في الاستشراق والتّنصير والغزو الثّقافيّ والفكريّ والاستعمار البريطانيّ.

ثالثا: أنّ فكرة الإصلاح التّربويّ لدى الشّيخ محمّد عبدَه أقامها على المنهج الآتي: المصادر: وفيها جمع بين العلوم النّقليّة والعقليّة، والتّجارب الإنسانيّة العربيّة والإسلاميّة وكذا التّجارب الغربيّة الأوروبّيّة، والوسائل: فعّل فيها المؤسّسات التّربويّة والدّينيّة، والجمعيّات الخيريةّ، والكتابة الصّحفيّة، وإصلاح مناهج ومقرّرات وطرائق التّدريس، وأمّا المجالات: فعمد فيها إلى جعل التّعليم إجباريّا ومجّانيّا وعمّمه على شرائح المجتمع، بالإضافة إلى انتقائه للكفاءات المؤهَّلَة للقيام بالعمليّة التّعليميّة، مع إشرافه الشّخصيّ على متابعة مدى تنفيذ البرامج التّربويّة، وبالنّسبة للخصائص: فإنّ منهجه اختصّ بالأصالة

والمعاصرة، والشّمول والعموم، والواقعيّة والموضوعيّة، والوسطيّة والمرونة، والنّظريّة والتّطبيقيّة، مع محافظته على اللّغة العربيّة وتطويرها وانفتاحه على اللّغات الأجنبيّة التي فرضتْ نفسها ميدانيّا.

رابعا: لقد كان لتجربة الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحيّة في المجال التّربويّ مخرجات إيجابية وسلبيّة؛

أ)- فالمخرجات الإيجابية تمثّلتْ في: توظيفه التّربيةَ والتّعليم للرّقي بالمجتمع المصريّ وتحقيق التّقدّم له، ومنعه للممارسات التّعليميّة المعيقة عنه، وطباعته للكتب النّافعة والصّحف المهتمّة بالتّربية والتّعليم، واستثماره للمناصب السّياسية التي تقلّدها لإصلاح التّعليم، ومكافأته للمدرّسين وتكوينهم في التّربية بإيفادهم في بعثات إلى الخارج لتحقيق نتائج مشرّفة، وإيجاده لمختلف المدارس التّربويّة والاجتماعيّة والدّينيّة والسّياسية التي وصلتْ إشعاعاتها إلى مختلف أقطار العالم العربيّ والإسلاميّ.

ب)- كما تمثّلتْ مخرجات إصلاحاته التّربويّة في شقِّها السّلبيّ؛ في جنوحه إلى الاستنصار السّلبيّ بسلطتَيْ الاستعمار البريطانيّ والخديوي، وسكوته عن فسادهما؛ لتحاشي الصّدام معهما، وحتّى يسمحان له بممارسة إصلاحاته التّربويّة، وكذلك نزوعه إلى الإصلاح الشّكليّ على حساب الإصلاح الجوهريّ، وأيضا توجّهه العقليّ في خطابه الذي كان يخصّ به النّخبة كثيرا دون غيرها، وتركيزه بشكل كبير على الإصلاح التّربويّ على حساب إصلاح المجالات الأخرى، كما تخرّج على يديه بعض التّلامذة الذين تبنَّوْا أفكارا تحرّرية فانحرفوا بذلك عن خطّه التّربويّ، وزيادة على ذلك تعاونه مع الاستعمار في إصلاحاته ووقوعه في شراك الماسونية التي أغرته بشعاراتها البرّاقة، فقام يدعو إلى التّقريب بين الأديان وتوحيدها، وهو ما أعان الاستعمار على تحقيق أهدافه المضرّة بمصالح المجتمع المصريّ والأمّة الإسلامية.

وفيما يلي جملة مِنَ **التّوصيات** الهامّة الخادمة للإصلاح التّربويّ:

أوّلا: على المصلحين تركيز جهودهم على الإصلاح التّربويّ الذي به تتحقّق السّيادة والقيادة للعالم.

ثانيا: ضرورة تكوين متخصّصين في التّربية والإصلاح يشرفون على تربية النّاشئة، ويضعون برامج ومقرّرات خادمة للإسلام والمسلمين والإنسانية، فنجاح الأمّة متوقّف على نجاح برامجها التّربويّة.

ثالثا: تحفيز الباحثين على إعداد دراسات أكاديميّة جادّة لإبراز جهود المصلحين التّربويّين القدامى والمعاصرين، وربطها بمستجدّات الواقع واستثمارها في إصلاح الاختلالات التّربويّة القائمة.

رابعا: على الباحثين الأكاديميّين المبادرة إلى تقديم مشاريع إصلاحيّة رصينة في التّربية للسّاسة في الدّول العربيّة والإسلاميّة لإدراجها وتفعيلها في مخطّطاتها التّنمويّة.

خامسا: العمل على إقناع أصحاب القرار بإعطاء الإصلاح التّربويّ طابع الأولوية، بمراجعة المنظومة التّربويّة وتطويرها، وتفعيل العمل التّربويّ، للارتقاء بالحياة الإنسانية، واللّحاق بركب الدّول المتقدّمة.

قائمة

المصادر والمراجع

• قائمة المصـادر والمراجــع

*** القرآن الكريم:** (رواية الإمام حفص عن الإمام عاصم)، مصحف المدينة النّبوية للنّشر الحاسوبي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشّريف، المملكة العربيّة السّعودية الإصدار (2.1).

أوّلا: كتب السنّة النّبويّة الشّريفة

1- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمّد بن حنبل بن هلال بن أسد الشّيباني، مسند الإمام أحمد ابن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1999م.

2- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمّد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مسند الإمام أحمد ابن حنبل، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى: 1995م.

3- ابن ماجة، أبو عبد الله محمّد بن يزيد القزويني، السّنن، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرّسالة العالمية، الطبعة الأولى: 2009م.

4- أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، سنن أبي داود، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د ط)، (د ت).

5- الألباني، محمّد ناصر الدّين، صحيح التّرغيب والتّرهيب، مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع، الرياض، المملكة العربية السّعودية، الطبعة الأولى: 2000م.

6- البخاري، محمّد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه(صحيح البخاري)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النّجاة، المطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق، مصر، الطبعة الأولى: 1422هـ.

7- البزّار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي، مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله وآخرون، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى: (بدأت 1988م، وانتهت 2009م).

8- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشّافعي، شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثّانية: 1983م.

9- البيهقي، أحمد بن الحسين أبو بكر، شعب الإيمان، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرّشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى: 2003م.

10- التّرمذي، محمّد بن عيسى، أبو عيسى، سنن التّرمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، القاهرة، الطبعة الثّانية: 1975م.

11- الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري المعروف بابن البيع، المستدرك على الصّحيحين تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1990م.

12- الدّارمي، محمّد بن حبان التّميمي أبو حاتم البستي، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق وتخريج أحاديثه وتعليق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرّسالة، بيروت، الطبعة الأولى: 1988م.

13- الدّارمي، محمّد بن حبان التميمي أبو حاتم البستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّانية: 1993م.

14- السّاعاتي، أحمد بن عبد الرّحمن بن محمّد البنا، الفتح الرّباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثّانية: 1975م.

15- الطّبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللّخمي الشّامي، أبو القاسم، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، (د ط)، (د ت).

16- الطّبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللّخمي الشّامي، أبو القاسم، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السّلفي، دار النشر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثّانية، (د ت).

17- مالك، بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، الموطّأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان، (د ط)، 1985م.

18- المتقي الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الهندي البرهانفوري، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حياني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة: 1985م.

19- مسلم، بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ص، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: 1991م.

ثانيا: المعاجـــم

20- إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدّعوة، القاهرة، مصر، (د ط)، (د ت).

21- ابن سيّده، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي، المخصّص، تحقيق: خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1996م.

22- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرّازي، أبو الحسين، مجمل اللغة لابن فارس، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثّانية: 1986م.

23- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرّازي، أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (د ط)، 1979م.

24- ابن منظور، محمّد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدّين الأنصاري الرّويفعى الإفريقى، لسان العرب، دار صادر ، بيروت، لبنان، الطبعة الثّالثة: 1414هـ

25- أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب للنشر والتوزيع والطباعة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: 2008م.

26- الرّاغب الأصفهانى، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى: 1412هـ.

27- رينهارت بيتر آن دوزِي، تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمّد سليم النعيمي وجمال الخياط، نشر: وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، الطبعة الأولى، من: 1979-2000م.

28- الزَّبيدي، محمّد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: الدكتور حسين نصار وآخرون، التراث العربي، مطبعة حكومة الكويت، (د ط)، 1969م.

29- شوقي ضيف، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشّروق الدّولية، القاهرة، مصر، الطّبعة الرّابعة: 2004م.

30- الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثّامنة: 2005م.

31- مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى: 1399هـ.

ثالثا: التّراجـــم

32- الزّركلي، خير الدّين بن محمود بن محمّد بن علي بن فارس الدمشقي، الأعلام-قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين-، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة عشر: 2002م.

33- عمر رضا كحالة، معجم المؤلّفين، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د ط)، (د ت).

34- يوسف محمّد خير بن رمضان بن إسماعيل، تكملة معجم المؤلّفين، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1997م.

رابعا: التّفاسيـر

35- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثمّ الدّمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمّد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1998م.

36- البيضاوي، ناصر الدّين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمّد الشّيرازي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل المعروف بتفسير البيضاوي، تحقيق: محمّد عبد الرّحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، (د ط)، 1418هـ.

37- رشيد رضا، محمّد، تفسير القرآن الحكيم الشّهير بتفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د ط)، 1990م.

38- الصّابوني، محمّد علي، صفوة التّفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: 1997م.

39- القرطبي، أبو عبد الله، محمّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن(تفسير القرطبي)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثّانية: 1964م.

40- محمّد عبدَه، تفسير القرآن الكريم جزء عمّ، منتدى العقلانيين العرب، مطبعة مصر- شركة مساهمة مصرية، حقوق الطبع محفوظة للجمعية، الطبعة الثّالثة: 1923م.

خامسا: الأطروحات والرّسائل الجامعيـة

41- الجعبري، حافظ محمّد حيدر، الشّيخ محمّد عبدَه وآراؤه في العقيدة الإسلامية -عرض ونقد- رسالة دكتوراه، إشراف الأستاذ الدكتور سليمان دنيا، (د د)، (د ط)، 1982م.

42- حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر في النصف الأوّل من القرن الرّابع عشر الهجري، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1994م، الجزء2، الكتاب أصله رسالة دكتوراه في الثقافة الإسلامية من كلّية الشّريعة بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، إشراف الأستاذ الشيخ مناع بن خليل القطان.

43- حملاوي، مهتور، التّجديد عند محمّد عبدَه، -رسالة دكتوراه في الفلسفة، تحت إشراف الأستاذ الدكتور رابح مراجي-، جامعة قسنطينة 02، عبد الحميد مهري، السنة الجامعية: 2019/2018م.

44- رمضاني، محمّد بن رمضان، آراء محمّد رشيد رضا في قضايا السنّة النّبوية من خلال مجلّة المنار -دراسة تحليلية نقدية-، أطروحة دكتوراه، تحت إشراف: حسام موهوبي، مجلة البيان، مركز البحوث والدّراسات، الرياض، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية، ط1: 1434هـ.

45- شحادة الصّوفي، حمدان عبد الله، مفهوم الأصالة والمعاصرة وتطبيقاته في التربية الإسلامية، أطروحة دكتوراه تحت إشراف الدكتور: محمد جميل بن علي خياط، جامعة أم القرى، كلية التربية، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، الفصل الدراسي الثّاني، 1416هـ/1994م.

46- عبد المقصود، محمّد فوزي، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه وآلياته في تطوير التّعليم، (د ط)، (د ت).

47- عبد جاسم، منتهى، جدلية العلاقة بين التّربية والسّياسة عند محمّد عبدَه، رسالة ماجستير تحت إشراف الدّكتورة: فضيلة عباس مطلك، قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة بغداد، (د د)، (د ط)، سنة: 2002- 2003م.

48- متولي، تامر محمّد محمود، منهج الشّيخ محمّد رشيد رضا في العقيدة، أطروحة دكتوراه تحت إشراف الدّكتور عبد الرزاق العباد، دار ماجد عسيري، جدّة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 2004م.

49- النّاصر، محمّد حامد، العصرانيون بين مزاعم التّجديد وميادين التّغريب، مكتبة الكوثر، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثّانية: 2001م.

سادسا: الكتب العامّـة

50- الإبراهيمي، محمّد البشير، آثار الإمام محمّد البشر الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1997م.

51- ابن باديس، عبد الحميد، آثار ابن باديس، تحقيق: عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، الطبعة الأولى: 1968م.

52- ابن باديس، عبد الحميد، تفسير ابن باديس(مجالس التّذكير من كلام الحكيم الخبير)، تحقيق وتعليق وتخريج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1: 1995م.

53- ابن عاشور، محمّد الطّاهر، أليس الصبح بقريب -التّعليم العربي الإسلامي- دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: 2006م.

54- أحمد العلاونة، العلماء العرب المعاصرون ومآل مكتباتهم، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 2011م.

55- أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د ط)، (د ت).

56- أحمد بن عبد العزيز بن عبد الله الحصين، دعوة الإمام محمّد بن عبد الوهاب سلفية لا وهابية، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى: 1999م.

57- أحمد تيمور باشا، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، (د ط)، 2003م.

58- أحمد شرشال الجزائري، أصول التربية والتعليم كما رسمها القرآن الكريم، دار الحرمين للطباعة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: 2003م.

59- أحمد صلاح زكي، أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، مركز الحضارة العربية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: 2001م.

60- أحمد عبد الحميد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق، ، بيرمنجهام: المنتدى الإسلامي، الطبعة الثانية: 1990م.

61- الأفغاني، جمال الدّين ومحمّد عبدَه، العروة الوثقى، مؤسسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، مصر، (د ط)، 2015م.

62- أنور الجندي، التّربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، (د ط)، 1982م.

63- أنور الجندي، الخنجر المسموم، دار الاعتصام، القاهرة، (د ط)، (د ت).

64- أنور الجندي، الصّحوة الإسلامية منطلق الأصالة وإعادة بناء الأمّة على طريق الله، دار الاعتصام، (د ط)، (د ط).

65- أنور الجندي، اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار(منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى)، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: 1978م.

66- أنور الجندي، عقبات في طريق النهضة، مراجعة لتاريخ مصر الإسلامية منذ الحملة الفرنسية إلى النكسة(1897- 1964)، دار الاعتصام، (د ط)، (د ت).

67- أنور الجندي، معالم تاريخ الإسلام المعاصر، دار الاعتصام مطبعة المنصورة، القاهرة، مصر، (د ط)، 1981م.

68- بكار، عبد الكريم، حول التّربية والتعليم، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى: 2001م.

69- بلقاسم الغالي، من أعلام الزيتونة- شيخ الجامع الأعظم-محمّد الطّاهر بن عاشور- حياته وآثاره، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1996م.

70- تشارلز آدمس، الإسلام والتّجديد في مصر، ترجمة عباس محمود، مراجعة وتعليق أحمد زكريّا الشّلق، المركز القومي للتّرجمة، القاهرة، مصر، (د ط)، 2015م.

71- جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، (د ط)، 2012م.

72- الجلنيد، محمّد السيد، الاستشراق والتبشير قراءة تاريخية موجزة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (د ط)، 1999م.

73- الحازمي، خالد بن حامد، أصول التّربية الإسلامية، دار الكتب للطباعة وللنّشر والتّوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 2000م.

74- حَبَنَّكَة الميداني، عبد الرّحمن بن حسن الدّمشقي، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التّبشير- الاستشراق- الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه، (ودراسة منهجية شاملة للغزو الفكري)، دار القلم، دمشق، سورية، الطبعة الثّامنة: 2000م.

75- حمد بن صادق الجمال، اتجاهات الفكر الإسلامي في مصر في النّصف الأوّل من القرن الرابع عشر الهجري، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1994.

76- خفاجي، محمّد عبد المنعم وعلي علي صبح، الأزهر في ألف عام، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، مصر، الطبعة الثّالثة: 2011م.

77- الذّهبي، محمّد السّيد حسين، التّفسير والمفسّرون، مكتبة وهبة، القاهرة، (د ط)، (د ت).

78- رشيد رضا، محمّد، المنار والأزهر، مطبعة المنار، مصر، الطبعة الأولى: 1931م.

79- رشيد رضا، محمّد، تاريخ الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية: 2006م.

80- الرّومي، فهد بن عبد الرّحمن بن سليمان، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، مؤسسة الرسالة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثّانية: 1983م.

81- زكريا سليمان بيومي، التيارات السياسية والاجتماعية بين المجدّدين والمحافظين- دراسة تاريخية في فكر الشّيخ محمّد عبدَه، إشراف الدكتور: يونان لبيب رزق، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، (د ط)، 1983م.

82- زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب -أثر الحضارة العربية في أوروبة-، نقله عن الألمانية: فاروق بيضون وكمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه: مارون عيسى الخوري، دار الجيل والآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة الثّامنة: 1993م.

83- سالم بوحامدي، دليل الطّالبين إلى معرفة القرّاء الجزائريين المجازين، دار الإمام مالك للكتاب، طباعة. نشر. توزيع، الطبعة الأولى: 2013م.

84- سعيد إسماعيل علي وآخرون، التّربية الإسلامية الفهومات والتطبيقات، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 2004م.

85- سعيد إسماعيل علي، الفكر التّربوي العربي الحديث، سلسلة عالم المعرفة الشهرية، الكويت، (د ط)، 1987م.

86- سعيد إسماعيل علي، فلسفات تربوية معاصرة، سلسلة عالم المعرفة الشهرية، الكويت، (د ط)، 1995م.

87- سعيد إسماعيل علي، فلسفات تربوية معاصرة، سلسلة عالم المعرفة الشهرية، الكويت، (د ط)، 1995م.

88- سعيد بن علي ثابت، الجوانب الإعلامية في خطب الرسول ق، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1417هـ.

89- سيد سابق، عناصر القوة في الإسلام، مكتبة وهبة، مصر، (د ط)، (د ت).

90- شارل أندريه جوليان، إفريقيا الشّمالية تسير -القوميات الإسلامية والسّيادة الفرنسية-، ترجمة: المنجي سليم وآخرون، مراجعة: فريد السوداني، الدار التّونسية للنشر، تونس، (د ط)، 1976م.

91- شارل أندريه جوليان، تاريخ إفريقيا الشّمالية -تونس، الجزائر، المغرب الأقصى- من البدء إلى الفتح الإسلامي647م)، تعريب: محمّد مزالي والبشير بن سلامة، مؤسّسة تاوالت الثّقافية، المغرب، (د ط)، 2011م.

92- الشّرباصي، أحمد، رشيد رضا صاحب المنار -عصره وحياته ومصادر ثقافته-، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، إشراف محمد توفيق عويضة، (د ط)، 1970م.

93- شوقي ضيف، أحمد شوقي عبد السلام ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثّالثة عشر، (د ت).

94- الصّعيدي، عبد المتعال، المجدّدون في الإسلام من القرن الأوّل إلى الرّابع عشر(100هـ- 1370هـ)، مكتبة الآداب، القاهر، مصر، (د ط)، 1996م.

95- طاهر الطناحي، مذكّرات الإمام محمّد عبدَه، دار الهلال، (د ط)، (د ت).

96- الطنطاوي، علي بن مصطفى، ذكريات علي الطنطاوي، دار المنار للنشر والتوزيع جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة: 2006.

97- الطنطاوي، علي بن مصطفى، مع النّاس، راجعه وصحّحه وعلق عليه: حفيد المؤلف مجاهد مأمون ديرانية، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدّة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثّامنة: 2011م.

98- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر، مؤسّسة نويهض الثقافية للتأليف والتّرجمة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثّانية: 1980.

99- عاطف السيد، التّربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها، (د د)، (د ط)، (د ت).

100- عاطف العراقي، الشّيخ محمّد عبدَه مفكرا عربيا ورائدا للإصلاح الديني والاجتماعي -بحوث ودراسات عن حياته وأفكاره، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، (د ط)، 1995م.

101- عبد الحليم محمود، الإخوان المسلمون أحداث صنعت التّاريخ -رؤية من الدّاخل- دار الدّعوة للطباعة والنّشر والتّوزيع، الإسكندرية، مصر، الطبعة الخامسة: 1994م.

102- عبد الرّحمن بدوي، الإمام محمّد عبدَه والقضايا الإسلامية، مطابع الهيئة المصرية العامّة للكتاب، مصر، (د ط)، 2005م.

103- عبد الرّحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط3: 1993م.

104- عبد الرّحمن بن عبد الله الصالح، التّنصير، تعريفه أهدافه وسائله حسرات المنصرين، دار الكتاب والسنة الطبعة الأولى: 1999م.

105- عبد المجيد عبد السلام المحتسب، اتّجاهات التّفسير في العصر الرّاهن، منشورات مكتبة النهضة الإسلامية، عمان، الأردن، الطبعة الثّالثة: 1982م.

106- عثمان أمين، رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (د ط)، 2015م.

107- العفّاني، سيد بن حسين، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، دار ماجد عسيري للنّشر والتّوزيع، جدّة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 2004م.

108- العقاد، عباس محمود، عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبدَه، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، (د ط)، 2013م.

109- علي المحافظة، الاتّجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة(1898- 1914) -الاتّجاهات الدّينية والسّياسية والاجتماعية والعلمية-، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (د ط)، 1987م.

110- علي عبد الحليم محمود، وسائل التّربية عند الإخوان المسلمين -دراسة تحليلية تاريخية-، دار الوفاء للطباعة والنشر والتّوزيع، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى: 1989م.

111- عيساوي، أحمد محمود، الحركات التّجديدية والإصلاحية الحديثة والمعاصرة في العالم الإسلامي، دار الكتاب الحديث، الطبعة الأولى: 2019م.

112- عيساوي، أحمد محمود، مدخل إلى مناهج البحث الدّعوي- دراسات وأبحاث نظرية وميدانية تطبيقية-، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: 2018م.

113- عيساوي، أحمد محمود، مقاربات وأبحاث في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر- تيارات وقضايا فكرية معاصرة - ، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: 2012م.

114- عيساوي، أحمد محمود، وآخرون، منهج البحث في العلوم الإسلامية-دراسات وأبحاث منهجية تطبيقية، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: 2016م.
115- غازي التّوبة، الفكر الإسلامي المعاصر دراسة وتقويم، (د دار)، الطبعة الرّابعة: 2004م.
116- الغزالي، محمّد، علل وأدوية، دار الشروق، (د ط)، (د ت).
117- قاسم أمين، تحرير المرأة، مؤسسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، مصر، (د ط)، 2012م.
118- قدري قلعجي، ثلاثة من أعلام الحرية؛ جمال الدين الأفغاني، محمّد عبدَه، سعد زغلول، دار الكاتب العربي للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، (د ط)، (د ت).
119- القرضاوي، يوسف، الفتوى بين الانضباط والتّسيّب، دار الصّحوة للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: 1988م.
120- كمال الدّين عبد الغني المرسي، من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الأولى: 1998م.
121- كمال عجالي، الفكر الإصلاحي في الجزائر- الشيخ الطيب العقبي بين الأصالة والتجديد-، (د د)، الطبعة الأولى: 2005م.
122- الكواكبي، عبد الرّحمن، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، المطبعة العصرية، حلب، طبعة جديدة منقحة ومضافة بقلم المؤلّف، (د د)، (د ط)، (د ت).
123- الكيلاني، ماجد عرسان، الفكر التّربوي عند ابن تيمية، مكتبة دار التّراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثّانية: 1986م.
124- لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، نقله إلى العربية: الأستاذ عجاج نويهض، وفيه فصول وتعليقات وحواش عن أحوال الأمم الإسلامية وتطورها الحديث، بقلم أمير البيان العربي الأمير شكيب أرسلان، (د ط)، 1931م.
125- محمّد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثّالثة: 1961م.
126- محمّد بن محمّد بن عمر بن علي بن سالم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، علق عليه: خيالي، عبد المجيد، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى: 2003م.
127- محمّد زرمان، فلسفة التّجديد الإسلامي الشيخ البشير الإبراهيمي أنموذجا، دار الأعلام، عمان، الأردن، الطبعة الأولى: 2014م.
128- محمّد شيت خطاب، بين العقيدة والقيادة، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى: 1998م.
129- محمّد عبدَه، الإسلام بين العلم والمدنية، كلمات عربية للترجمة والنشر، مدينة نصر، القاهرة، مصر، (د ط)، 2011م.
130- محمّد عبدَه، الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية، دار الحداثة، مصر، ط3: 1988م.

131- محمّد عبدَه، رسالة التّوحيد، تقديم وتعليق: محمّد عمارة، دار الشّروق، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: 1994م.

132- محمّد عمارة، الأعمال الكاملة لجمال الدّين الأفغاني، دار السّلام للطّباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: 2016م.

133- محمّد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشّيخ محمّد عبدَه، دار الشروق، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: 1993م.

134- محمّد عمارة، الإمام محمّد عبدَه مجدد الدنيا بتجديد الدين، دار الشروق، القاهرة، مصر، الطبعة الثّانية: 1988م.

135- محمّد عمارة، السنّة النّبوية والمعرفة الإنسانية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، (د ط)، 2000م.

136- محمّد عمارة، الشّيخ المراغي والإصلاح الديني في القرن العشرين، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى: 2011م.

137- محمّد عمارة، المنهج الإصلاحي للإمام محمّد عبدَه، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، الطبعة الأولى: 2009م.

138- محمّد عمارة، الوعي بالتّاريخ وصناعة التّاريخ، دار السّلام للطباعة والنّشر والتّوزيع والتّرجمة، مصر، الطبعة الأولى: 2009م.

139- محمّد عمارة، جمال الدّين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والتّرجمة، مصر، الطبعة الأولى: 2009م.

140- محمّد عمارة، جمال الدّين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، دار الشروق، الطبعة الثّانية: 1988م.

141- محمّد عمارة، شخصيات لها تاريخ، دار السلام-للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى: 2008م.

142- محمّد عمارة، قاسم أمين الأعمال الكاملة، دار الشروق، القاهرة، مصر، الطبعة الثّانية: 1988م.

143- محمّد عمارة، قاسم أمين تحرير المرأة والتّمدّن الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، مصر، الطبعة الثّانية: 2008.

144- محمّد عمارة، مسلمون ثوار، دار الشروق، مصر، الطبعة الثّالثة: 1988م.

145- محمّد عمارة، معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (د ط)، (د ت).

146- محمّد فوزي عبد المقصود، الفكر التربوي للأستاذ الإمام محمّد عبدَه وآلياته في تطوير التّعليم، (د د)، (د ط)، (د ت).

147- محمّد محمّد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، دار الفرقان، (د ط)، 1985م.

148- محمّد محمّد حسين، حصوننا مهددة من داخلها، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثّامنة: 1983م.

149- مدكور، علي أحمد، مناهج التّربية أسسها وتطبيقاتها، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، (د ط)، 2001م.

150- مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثّانية: 1985م.

151- مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، دار الوراق للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 2000م.

152- ناصر عبد الكريم العقل، الاتجاهات العقلانية الحديثة، دار الفضيلة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 2001م.

153- النّجار، عبد المجيد عمر، الشّهود الحضاري للأمّة الإسلامية- مشاريع الإشهاد الحضاري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: 2006م.

154- النّحلاوي، عبد الرّحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة السّادسة والعشرون: 2008م.

155- النّدوي، أبو الحسن، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة الإيمان، المنصورة، أمام جامع الأزهر، طبعة شرعية جديدة منقحة ومحققة ومزيدة، (د ط)، (د ت).

156- النّدوي، أبو الحسن، نحو التربية الإسلامية الحرّة في الحكومات والبلاد الإسلامية، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1969م.

157- هربرت سبنسر، التّربية، ترجمة محمد السباعي، التربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، (د ط)، 2015م .

سابعا: النّدوات والمؤتمــرات

158- إبراهيم البيومي غانم وصلاح الدّين الجوهري، الإمام محمّد عبدَه مائة عام على رحيله(1905-2005م)، أعمال ومناقشات النّدوة الفكرية من تنظيم مكتبة الإسكندرية في:(4و2005/12/5م)، دار الكتاب المصري القاهرة، ودار الكتاب اللبناني بيروت للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: 2009م.

159- رقية بنت نصر الله نياز، السّنّة النّبوية المصدر الثّاني للتّشريع الإسلامي ومكانتها مِنْ حيث الاحتجاج والمرتبة والبيان والعمل، ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالسّنّة والسّيرة النّبوية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، (د ط)، (د ت).

160- مجدي أبو ريان(دكتور، رئيس المؤتمر)، آفاق الإصلاح التّربوي في مصر، المؤتمر العلمي السنوي لكلية التربية بجامعة المنصورة بالتعاون مع مركز الدّراسات المعرفية بالقاهرة، (د ط)، الفترة الممتدّة بين: 2و3أكتوبر 2004م.

ثامنا: الجرائد والمجـلّات

161- جريدة المثقّف، العدد: 3927.

162- مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامّة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، (د ط)، (د ت)، الأجزاء58و88.

163- مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي، الجزء171.

164- مجلة المسلم المعاصر، مجلة دورية محكمة، العدد 119 و120، سنة: 2006.

165- مجلة المنار، سيد محمّد رشيد رضا، شوال 1315هـ، (د د)، (د ط)، (د ت)، مج1و2و8و10و30.

166- مجلة الوعي الإسلامي الكويتية، العدد: 631، ربيع الأوّل 1439هـ الموافق لـ: نوفمبر ديسمبر 2017م.

تاسعا: المواقع الإلكترونيــة

167- موقع أبجد: https://www.abjjad.com

168- موقع ابن عثيمين: www. binothaimeen.net

169- موقع إسلام أون لاين: https://archive.islamonline.net

170- موقع اكتاب: http://www.ektab.com

171- موقع الباحثون المسلمون: https://muslims-res.com

172- موقع الجزيرة: https://www.aljazeera.net

173- موقع الجمهورية: https://www. aljumhuriya.net

174- موقع القرضاوي: https://www.al-qaradawi.net

175- موقع المثقّف: https://www.almothaqaf.com

176- موقع المرجع الإلكتروني للمعلوماتية: https://www. almerja.com

177- موقع المعاني: https://www.almaany.com

178- موقع المعرفة: https://www.marefa.org

179- موقع المكتبة الجزائرية الشّاملة: https://shamela-dz.net

180- موقع الملتقى الفكري للإبداع: http://almultaka.org

181- موقع المنتدى الإسلامي العالمي للتّربية: http://montdatarbawy.com

182- موقع الموسوعة التونسية المفتوحة: http://www.mawsouaa.tn

183- موقع ألنسيكلوبيديا: https://www .alencyclopedia.com

184- موقع أهل الحديث: http://www.ahlalhdeeth.com

185- موقع إيجيبت وي: https://egyptawy.arabepro.com

186- موقع بيت: www.specialities.bayt.com

187- موقع جريدة المصري اليوم: http://www.almasryoum.com

188- موقع جريدة اليوم السابع الإلكترونية: https://www.youm7.com/story

189- موقع خطوة للتوثيق والدراسات: http://www.khotwacenter.com

190- موقع سطور:https://www.sotor.com

191- موقع شبكة الألوكة: https://www.alukah.net

192- موقع فلاسفة العرب: http:// www.arbphilosophers.com

193- موقع مركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق: https://www.cilecenter.org

194- موقع مشاهير: http:// www.mashahir.net

195- موقع موضوع: https://mawdoo3.com

196-موقع هنداوي: https://www.hindawi.org

197- موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة: https://ar.wikipedia.orgi

عاشرا: اليوتيـوب

198- محمّد عمارة، محاضرة: "المقرأة المعرفية، الكتاب السّابع، الأعمال الكاملة للإمام محمّد عبدَه"، تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، يوم: 15 أفريل سنة 2017م بمركز الدّراسات المعرفية - مصر.

حادي عشر: الفيسبـوك

199- مسعود بن موسى فلوسي، مقال بعنوان: "مُؤلّفون وكُتَّاب قرأت لهم واستفدت منهم"، شهر رمضان لعام 1441هجري، الموافق لـ: 17 أفريل 2020 ميلادي.

الفهارس العامّة

أوّلا: فهرس الآيات القرآنيـــــة

ثانيا: فهرس الأحاديث النّبويــة

ثالثا: فهرس الأعلام المترجم لهم

أوّلا: فهرس الآيات القرآنيـة

الآيـــــــة	الصّفحة
01 سورة الفاتحـة	
﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾	367
02 سورة البقـرة	
﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ ۝١٢٩﴾	9
﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢٦٦﴾	156
﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝١٧١﴾	157
﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ۝٢٧﴾	197
﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ۝٢٩﴾	
﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢٤٢﴾	199
﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾	200
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾	222
﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ ۝٢٢٨﴾	255، 369
﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ ۝٣٤﴾	270
﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ ۝٢٧٥﴾	279
﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ۝٢٥٦﴾	313، 334
﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ ۝١٢٠﴾	341
﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۝٢٥﴾	379
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ۝١٤٣﴾	380
﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ ۝٢٥١﴾	434
03 سورة آل عمـران	
﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٤﴾	4
﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ۝٧٩﴾	7
﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٦٤﴾	93، 95
﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ۝١٩﴾	93، 379، 434
﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ۝١٠٣﴾	163، 193

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴿١٩١﴾﴾	192
﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾	253
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴿١١٨﴾﴾	341
﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾	379، 434
سورة النّســاء	04
﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾	62،193، 263، 264، 277
﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴿١٢٧﴾﴾	265
﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴿٣﴾﴾	139
﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾	142
﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ ﴿١٢٩﴾﴾	
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ ﴿٥٩﴾﴾	191، 195
﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾	278
سورة المائــدة	05
﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُو۟تُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ ﴿٥﴾﴾	278
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴿٨﴾﴾	377
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ ﴿٦٧﴾﴾	412
سورة الأنعــام	06
﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴿٣٨﴾﴾	204
﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾	205، 206
﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴿١٤٨﴾﴾	276

07	**سورة الأعـراف**
﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴿١٨٥﴾ ﴾	197
﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾	380
08	**سورة الأنفـال**
﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴿١﴾ ﴾	2
﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴿٦٠﴾ ﴾	26، 208، 212
09	**سورة التّوبـة**
﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾	17
﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴿٧١﴾ ﴾	164
﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴿١٠٣﴾ ﴾	171
﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾	410
10	**سورة هــود**
﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾	2
﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿١١٩﴾ ﴾	163
11	**سورة يوسف**
﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾	62، 277،
﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾	197
12	**سورة الرّعــد**
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿١١﴾ ﴾	3
13	**سورة الحجـر**
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾	267، 379
14	**سورة النّحـل**
﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾	195، 268
﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿١٢٥﴾ ﴾	434
15	**سورة الإســراء**
﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾	2
﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾	196
﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾	267

سورة الكهف	16
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾	210
سورة الأنبيـاء	17
﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ ٣٥﴾	115
﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾	387
سورة الحـجّ	18
﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾	175، 188
﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾	377
سورة النّـور	19
﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ٥٥﴾	379
سورة الشّعـراء	20
﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا ١٨﴾	7
سورة القصص	21
﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ٧٧﴾	380
سورة الـرّوم	22
﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ ٣٩﴾	6
﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ ٣٠﴾	340
﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾	384
سورة لقمـان	23
﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ ٢١﴾	200
سورة الأحـزاب	24
﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ٣٥﴾	369
سورة الزّمـر	25
﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾	157، 197، 199
سورة فصّلت	26
﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾	267
سورة الحجرات	27
﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ ٩﴾	2

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾	167، 209، 400
سورة الأحقاف	28
﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ ١٥﴾	2
سورة محمّد	29
﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ١٩﴾	8، 16، 199، 378
﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾	192
سورة الذّاريات	30
﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾	141
سورة النّجم	31
﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾	194
سورة المجادلة	32
﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ١١﴾	141، 332
سورة الممتحنة	33
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ ١﴾	319
سورة الصّفّ	34
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢﴾	378
سورة المدّثّر	35
﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾	222
سورة الغاشية	36
﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾	324
سورة العلق	37
﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾	196
سورة العصر	38
﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾	143، 269
سورة الكافرون	39
﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾	388
سورة الفلق	40
﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤﴾	270

ثانيا: فهرس الأحاديث النّبويّة

طرف الحديث	مصدر الحديث	الصّفحة
- أ -		
«أَنْ عَلِّمُوا صِبْيَانَكُمْ العَوْمَ، وَمُقَاتِلَتِكُمُ الرَّمْيَ»	أحمد، ابن حبّان	26
"أنْ عَلِّمُوا أَوْلَادَكُم السِّبَاحَةَ والرَّمْيَ والفُرُوسِيَةَ"	كنز العمّال	27
«أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ»	صحيح مسلم	209
«أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ»، «أَمَا كَان هَذَا يَجِدُ مَا يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ»	صحيح ابن حبّان	222
«إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ...»	سنن أبي داود	31، 47 ، 165، 366
«إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ المصوّرون»	صحيح البخاري	277
«إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذْكَرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ...»	صحيح مسلم	334
«ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ،.»	صحيح البخاري	26
«إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جائر»	سنن التّرمذي	32
«إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ..»	صحيح مسلم	65
«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»	صحيح البخاري	194
«إِنِّي وَاللهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابٍ...»	سنن التّرمذي	212
«إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ...»	البخاري ومسلم	393
«أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ...»	سنن التّرمذي	17
- ب-		
«بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ»	موطأ مالك	338
- ت-		
«تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ...»	صحيح البخاري	165
«تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا..»	موطأ مالك	188
- ث-		
«ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ... »	صحيح البخاري	141، 142
- ح-		
«حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةٍ..»	صحيح البخاري	222
- خ-		
«خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»	صحيح البخاري	188، 190، 195، 439
- د-		
«الدِّينُ النَّصِيحَةُ...»	صحيح مسلم	85
- س-		
«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ ...»	صحيح البخاري	43

- ط-		
«طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»	سنن ابن ماجه	370،209،142
- ف-		
«فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاهُمْ»	سنن التّرمذي	17
«فإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ القُرْآنُ»	صحيح مسلم	379
- ك-		
«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ ...»	صحيح البخاري	38
«الكَلِمَةُ الحِكْمَة ضَالَّةُ المُؤْمِنِ...»	سنن التّرمذي	208
«كَانَ يُقَلِّمُ أَظْفَارَهُ وَيَقُصُّ شَارِبَهُ يَوْمَ الجُمُعَةِ..»	مسند البزّار والطّبراني	222
- ل-		
«لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا...»	صحيح البخاري	34
«لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ...أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»	صحيح مسلم	190 ،156
«لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»	صحيح البخاري	194
«لَا وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِأَرْضِ قَوْمِي فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ»		
«لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ..»	صحيح البخاري	222
«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ والفَاقَةِ»	صحيح ابن حبّان	245
- م-		
«المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا...»	صحيح البخاري	164
«مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ..»	صحيح مسلم	252
«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ...»	سنن التّرمذي	332
«مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ...»	صحيح البخاري	340
«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتَ مَا مِثْلُهُ ...»	صحيح البخاري	379
- هـ -		
«هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا»	صحيح مسلم	6
- و-		
«وَإِنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ »	صحيح البخاري	337
- ي-		
«يَا حَنْظَلَة سَاعَةٌ وَسَاعَة...»	صحيح مسلم	38
«يَا مُحَمَّد؛ عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ...»	مستدرك الحاكم	115

ثالثـا: فهرس الأعــلام المترجــم لهــم

الرقم	الأعــلام المترجــم لهــم	الصّفحة
01	أبو الأعلى المودودي	5
02	أبو الحسن الأشعري	199
03	أبو بكر الجزري	204
04	أحمد الشرباصي	74
05	أحمد أمين	105
06	أحمد شرشال الجزائري	16
07	أحمد عُرابي	126
08	أحمد عمر راسم	416، 417
09	إدوارد غرنفيل براون	104
10	أرنست رينان	315
11	أنور الجندي	10
12	أوتو فون بسمارك	149
13	تشارلز آدمس	103
14	جابراييل هانوتو	313
15	جاك بيرك	408
16	جلال الدّين الدّواني	61
17	جمال الدّين الأفغاني	99
18	جون جاك روسو	8
19	حسن العلمي	8
20	حسّونة عبد الله النّواوي	82
21	خالد الصمدي	9
22	رفاعة رافع الطّهطاوي	238
23	زيغريد هونكه	207
24	سعيد إسماعيل علي	10
25	سلامة موسى	364، 365
26	سليم البِشري	135
27	سليمان دنيا	193
28	شارل أندريه جوليان	416
29	شبلي شميل	365

30	شكيب أرسلان	100
31	الشّيخ محمّد الجنبيهي	109
32	صالح بن مهنا القسنطيني الأزهري	415
33	صمويل زويمر	172
34	طه حسين	174
35	عباس محمود العقاد	105
36	عبد الحليم بن سماية	61
37	عبد الرّحمان الكواكبي	101
38	عبد الرّحمان بدوي	113
39	عبد القادر بن محمّد المجاوي	415
40	عبد الكريم بن حسين سلمان آغا	82
41	عبد المجيد النجار	12
42	عثمان أمين	63
43	عضد الدّين الإيجي	61
44	علي الطنطاوي	219
45	علي باشا مبارك	231
46	علي عبد الرّازق	173
47	عمار طالبي	264، 265
48	عمر بن قدور الجزائري	415
49	غازي التّوبة	112
50	غوستاف لوبون	205
51	فاطمة الفهرية	205
52	فرح أنطون	311
53	قاسم أمين	428
54	قدري قلعجي	107
55	اللورد كرومر	107
56	اللورد هرتنكتون	317
57	لويس عوض	236
58	لويس ماسينيون	416
59	ليون تولستوي	322
60	محمّد البشير الإبراهيمي	102

61	محمّد البهي	3
62	محمّد الطّاهر بن عاشور	404
63	محمّد الغزالي	108
64	محمّد بن مصطفى بن الخوجة	106
65	محمّد عليش	51، 52
66	محمّد عمارة	4
67	محمّد محمود الشّنقيطي	92
68	مسعود فلوسي	262
69	مصطفى صبري	111
70	مصطفى عبد الرّازق	107
71	المهدي العبّاسي	53
72	ميرزا باقر	93
73	هربرت سبنسر	208
74	ولفرد بلنت	323
75	يوسف القرضاوي	310
76	يوسف المنيلاوي	37
77	يوسف النبهاني	110
78	يوهان فيخته	149

فهرس

الموضوعات

- **فهرس الموضوعـات**

الموضـــــــوعات	الصّفحة
مقدّمة	أ - ب
أوّلا: إشكاليّة البحث	ب - ت
ثانيا: أهمية الموضوع	ت
ثالثا: أسباب اختيار الموضوع	ت - ث
رابعا: أهداف البحث	ث
خامسا: منهج البحث	ث
سادسا: منهجية كتابة البحث	ث - ج
سابعا: الدّراسات السّابقة	ج - ذ
ثامنا: مصادر البحث ومراجعه	ذ - ر
تاسعا: الصّعوبات	ر
عاشرا: خطّة الدّراسة	ر - س
الفصل التّمهيدي: تحديد مفاهيم الدّراسـة	
تمهيد	1
المطلب الأوّل: مفهوم الإصلاح لغة واصطلاحا	2
الفرع الأوّل: الإصلاح لغـة	2، 3
الفرع الثّاني: الاصطلاح اصطلاحا	3- 5
المطلب الثّاني: مفهوم التّربية لغة واصطلاحا	6
الفرع الأوّل: التّربية لغة	6، 7
الفرع الثّاني: التّربية اصطلاحا	7
أوّلا: التّربية في القرآن الكريم	7
ثانيا: التّربية عبر العصور	7، 8
ثالثا: مفهوم التّربية عند علماء التّربية	8، 10
- تعريفات أخرى للتّربية	10- 12
رابعا: مفهوم التّربية عند الشّيخ محمّد عبدَه	13
خامسا: فلسفة التّربية عند الشّيخ محمّد عبدَه	13، 15
سادسا: التّعريف الإجرائي للتّربية	15
المطلب الثّالث: مفهوم الإصلاح التّربوي	15، 16
الفرع الأوّل: مصادر إصلاحاته التّربوية وخصائصها وأهدافها	16
أوّلا: مصادر إصلاحاته التّربوية	16، 17

ثانيا: خصائص إصلاحاته التّربوية	18
ثالثا: أهداف إصلاحاته التّربوية	18، 19
الفرع الثّاني: تجاذبات الإصلاح التّربوي	19
الفرع الثّالث: التّعريف الإجرائي للإصلاح التّربوي	19، 20
الفصل الأوّل: حياة الشّيخ محمّد عبدَه والأحوال السّائدة في عصره ودواعي إصلاحه التّربوي	21
تمهيد	22
المبحث الأوّل: حياة الشّيخ محمّد عبدَه	23
تمهيد	24
المطلب الأوّل: نشأتـه شخصيته وأخلاقه	25
الفرع الأوّل: نشأته	25
أوّلا: اسمه ونسبه ومولده	25
ثانيا: أسرته	25، 26
ثالثا: شبابه	26، 27
رابعا: تديّنه وعبادته	27، 28
خامسا: مذهبه الفقهي والعقدي	28، 29
الفرع الثّاني: شخصيته	29
• جوامع شخصية الشّيخ محمّد عبدَه	29- 31
أوّلا: الشّجاعة الأدبية والعزّة والإباء	31- 33
ثانيا: العطف على البائسين والمحرومين	34
ثالثا: الغيرة على الإسلام والمسلمين	34، 35
رابعا: الحدّة والشدّة والحزم	35، 36
خامسا: قوّة العزيمة والثّقة في النّفس	36
سادسا: البساطة وحسن الدّعابة	36، 37
سابعا: أناقته وترويحه على النّفس	37، 38
ثامنا: الذّكاء والفطنة والنّباهة	38، 39
تاسعا: النّزاهة النّفسية والفكرية والتّرفّع عن الحظوظ الشّخصية	39
الفرع الثّالث: أخلاقه وصفاته	40
أوّلا: أخلاقه	40
1- سلامة الصّدر مِنْ أمراض القلوب	40، 41
2- التّواضع والزّهد في الدّنيا	41، 42

3- المروءة والوفاء والتّسامح	42
4- طيبة النّفس والإحسان إلى النّاس وحبّ الخير لهم	43، 44
ثانيا: صفاته الخَلقيّة	44، 45
المطلب الثّاني: حياته العلمية ورحلاته وآثاره	45
الفرع الأوّل: حياته العلمية	45
أوّلا: طلبه للعلم ومنهجه فيه	45
1- طلبه للعلم	45، 46
2- منهجه في طلب العلم	46، 47
ثانيا: مكانته العلمية	47
* ألقابـــه	47، 48
ثالثا: الدّراسة	48- 53
رابعا: التّدريس	53- 56
الفرع الثّاني: رحلاته العلمية وأسفاره	56
أوّلا: رحلاته العلمية والفكرية	56- 58
ثانيا: أسفاره السرّية	58، 59
الفرع الثّالث: آثاره ومؤلّفاته	59- 65
المطلب الثّالث: شيوخه وتلامذته	65
الفرع الأوّل: شيوخه	65، 66
أوّلا: درويش خضر	66، 67
ثانيا: حسن الطّويل	67، 68
ثالثا: محمّد البسيوني البيباني	69
رابعا: جمال الدّين الأفغاني	69- 72
خامسا: أحمد الرّفاعي	72
سادسا: محمّد المغربي	72
الفرع الثّاني: تلامذته	72، 73
أوّلا: محمّد رشيد رضا	73- 75
ثانيا: محمّد مصطفى المراغي	75، 76
ثالثا: مصطفى عبد الرّازق	76
رابعا: قاسم أمين	76، 77
خامسا: أحمد تيمور باشا	77
سادسا: حافظ إبراهيم	78

سابعا: أحمد الهاشمي	78
ثامنا: محمّد المحمصاني	78
تاسعا: حسن المدوّر	78
عاشرا: عبد الباسط فتح الله	78
حادي عشر: عبد المجيد سليم	79
اثنا عشر: عزيز خانكي	79
ثلاثة عشر: محمّد الظّواهري	79
أربعة عشر: محمّد بن مانع	79
خمسة عشر: محمّد الحنيفي	79
ستة عشر: مصطفى الغلاييني	79، 80
المطلب الرّابع: المناصب التي تولاّها ونشاطاته	80
الفرع الأوّل: المناصب التي تولاّها	80
أوّلا: تولّيه منصب القضاء	80- 82
ثانيا: رئاسته مجلس إدارة الأزهر	82، 83
ثالثا: تولّيه منصب الإفتاء	83، 84
رابعا: عضويته في المجلس الأعلى لديوان الأوقاف	85
خامسا: عضويته في مجلس شورى القوانين	85
سادسا: عضويته في المجلس الأعلى للمعارف العمومية	86
سابعا: رئاسته لتحرير جريدة الوقائع المصرية	86
الفرع الثّاني: نشاطاته	86، 87
أوّلا: انخراطه في الحزب الوطني الحرّ ومشاركته في الثّورة العُرابية	87، 88
ثانيا: رئاسته لتحرير جريدة العروة الوثقى	88، 89
ثالثا: تدريسه في الأزهر وفي المؤسّسات التّربوية	89- 91
رابعا: تأسيسه للجمعيات الدّينية والاجتماعية والعلمية	91
1- الجمعية الخيرية الإسلامية	91
2- جمعية إحياء الكتب العربية	92
3- جمعية التّأليف والتّقريب بين المسلمين والكتابيّين	92- 95
4- عضويته في جمعية العروة الوثقى	95، 96
خامسا: انضمامه إلى المحفل الماسوني بمصر	96، 97
سادسا: ممارسته للإصلاح الاجتماعي والتّربوي	97
سابعا: كتابته في الصّحف المصرية والعربية	97، 98

ثامنا: استحداثه مجالس تفسير القرآن الكريم في الأزهر وفي غيره	98
المطلب الخامس: شهادات عنه ومواقف منه ووفاته	98
الفرع الأوّل: الموافقون على فكر الشّيخ محمّد عبدَه الإصلاحي	99
أوّلا: جمال الدّين الأفغاني	99
ثانيا: شكيب أرسلان	100
ثالثا: عبد الرّحمن الكواكبي	101
رابعا: محمّد رشيد رضا	101
خامسا: محمّد مصطفى المراغي	101، 102
سادسا: محمّد البشير الإبراهيمي	102، 103
سابعا: محمّد عمارة	103
ثامنا: تشارلز آدمس	103
تاسعا: عثمان أمين	104
عاشرا: إدوارد براون	104
حادي عشر: عبّاس محمود العقّاد	105
اثنا عشر: أحمد أمين	105
ثلاثة عشر: محمّد بن مصطفى بن الخوجة	106
أربعة عشر: محمّد عبد المنعم خفاجي	106
خمسة عشر: مصطفى عبد الرّازق	107
ستة عشر: اللورد كرومر	107
سبعة عشر: قدري قلعجي	107، 108
ثمانية عشر: محمّد فوزي عبد المقصود	108
تسعة عشر: محمّد الغزالي	108، 109
الفرع الثّاني: المنتقدون لفكر الشّيخ محمّد عبدَه التّربوي	109
أوّلا: عبد الرّحمن الشّربيني	109
ثانيا: محمّد الجنبيهي	109، 110
ثالثا: يوسف النّبهاني	110، 111
رابعا: مصطفى صبري	111، 112
خامسا: غازي التّوبة	112
سادسا: سيد بن حسين العفاني	112، 113
سابعا: عبد الرّحمن محمّد بدوي	113
ثامنا: محمّد محمّد حسين	114

تاسعا: فهد الرّومي	114، 115
الفرع الثّالث: وفاته	115- 118
المبحث الثّاني: الأحوال السّائدة في عصر الشّيخ محمّد عبدَه	119
تمهيد	120
المطلب الأوّل: الحالة السياسية في عصر الشّيخ محمّد عبدَه	121
الفرع الأوّل: استغلال الدّول الأوروبية لأوضاع العالم الإسلامي المتردّية للاستحواذ عليه	121- 124
الفرع الثّاني: حكّام مصر الذين عاصرهم الشّيخ محمّد عبدَه	124، 125
الفرع الثّالث: قيام الثّورة العُرابية ومدافعة التّدخل الأجنبي في مصر	125- 127
الفرع الرّابع: تأسيس جمعية وجريدة العروة الوثقى ومقاصدهما	127، 128
المطلب الثّاني: الحالة الدّينية في عصر الشّيخ محمّد عبدَه	128
الفرع الأوّل: تردّي الحالة الدّينية المصرية ومساعي الشّيخ محمّد عبدَه لإصلاحها	128- 130
الفرع الثّاني: محاربة الاستعمار البريطاني لهُوية المجتمع المصري الإسلامية	130- 132
الفرع الثّالث: دور جامع الأزهر والشّيخ محمّد عبدَه في الإصلاح التّربوي	132- 136
الفرع الرّابع: نشاطات المدارس التّنصيرية والحكومة العثمانية الموازية في مصر	136
المطلب الثّالث: الحالة الاجتماعية والاقتصادية في عصر الشّيخ محمّد عبدَه	137
الفرع الأوّل: إرساء الاستعمار للطبقية وتشجيع الآفات بين المصريين	137، 138
الفرع الثّاني: الظّواهر الاجتماعية السّلبية وموقف الشّيخ محمّد عبدَه منها	138- 141
الفرع الثّالث: تهميش المرأة في المجتمع وسعيه لإدماجها وتأهيلها	141، 142
الفرع الرّابع: علاقة الحياة الاجتماعية بالتّربية والتّعليم	142، 143
الفرع الخامس: دور الحكام المصريين في تردّي الحالة الاقتصادية	143- 145
المطلب الرّابع: الحالة التّربوية والفكرية في عصر الشّيخ محمّد عبدَه	145
الفرع الأوّل: تردّي المستوى التّربوي والفكري للمصريين	145، 146
الفرع الثّاني: تكريس الاستعمار للوضع التّربوي والفكري المتردّي	146، 147
الفرع الثّالث: الانبهار بالنّهضة الأوروبية وانعكاساتها على التّربية والتّعليم	147، 148
الفرع الرّابع: انفتاح الشّيخ محمّد عبدَه في إصلاحه التّربوي على إنجازات الغرب	148، 150
الفرع الخامس: إسهام الصّحافة والجمعيات والمطابع والتّرجمة في التّطوّر الفكري والتّربوي	150، 151
المبحث الثّالث: دواعي الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه	152
تمهيد	153
المطلب الأوّل: الدّواعي الدّاخلية للإصلاح التّربوي	154
الفرع الأوّل: عقم طرائق ومناهج التّعليم	154- 156

الفرع الثّاني: الرّكون إلى التّقليد والجمود	156- 161
الفرع الثّالث: تفشي الجهل والتّخلّف والفُرقة والخلاف	161
أوّلا: تفشي الجهل والتّخلّف	161- 163
ثانيا: شيوع الفُرقة والخلاف	163- 165
الفرع الرّابع: الاستبداد السّياسي والتّبعية للأجنبي	165
أوّلا: الاستبداد السّياسي	165- 167
ثانيا: التّبعية للأجنبيّ	167، 168
المطلب الثّاني: الدّواعي الخارجية للإصلاح التّربوي	169
الفرع الأوّل: الاستشراق والتّنصير	169
أوّلا: الاستشراق	169، 170
1- إضعاف القيم الإسلامية لدى المسلمين	170، 171
2- تمجيد القيم الغربية المسيحية	171
ثانيا: التّنصيـر	171- 173
الفرع الثّاني: الغزو الفكري	173، 174
أوّلا: الإسلام دين تخلّف والمسيحية دين تقدّم	174، 175
ثانيا: محاربة اللغة العربية وتشجيع اللّهجات العامّية واللغات الأجنبية	175- 177
ثالثا: عدم إسهام العرب والمسلمين في التّراث الإنساني العالمي	177، 178
الفرع الثّالث: الاستعمار البريطاني	178- 183
الفصل الثّاني: منهج الشّيخ محمّد عبدَه في الإصلاح التّربوي	184
تمهيد	185
المبحث الأوّل: مصادر الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه	186
تمهيد	187
المطلب الأوّل: الوحـي	188
الفرع الأوّل: القرآن الكريم والسنّة النّبوية	188، 189
الفرع الثّاني: القرآن الكريم	189
أولا: تعريف القرآن الكريم	189، 190
ثانيا: الاعتماد على القرآن الكريم في الإصلاح	190- 192
ثالثا: إعمال العقل في الظّنّيّات عند الإصلاح	192، 193
رابعا: تربية الأمّة وإصلاحها باستحداث طرائق جديدة لتفسير القرآن الكريم	193، 194
الفرع الثّالث: السنّة النّبوية	194- 196
المطلب الثّاني: العلوم العقلية والإنسانية	196

الفرع الأوّل: مكانة العقل في الإسلام والدّعوة إلى إعماله	196- 200
الفرع الثّاني: العلوم العقلية	200- 202
الفرع الثّالث: العلوم الإنسانية	203
المطلب الثّالث: التّجارب الإنسانية	204
الفرع الأوّل: التّجارب العربية والإسلامية	204- 207
الفرع الثّاني: التّجارب الغربية الأوروبية	207
أوّلا: الاستفادة مِنْ انجازات الدّول الغربية الأوروبية	207- 210
ثانيا: الاستفادة مِنْ مؤلّفات وعلوم الأوروبيين	210- 212
ثالثا: تعلّم اللّغات الأجنبية	212- 215
المبحث الثّاني: وسائل الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه	216
تمهيد	217
المطلب الأوّل: المؤسّسات التّربوية والدّينية	218
الفرع الأوّل: جامع الأزهر والقضاء والمحاكم الشّرعية	218
أوّلا: جامع الأزهر الشّريف	218
1- التّعريف بجامع الأزهر	218، 219
2- مكانة الأزهر عند المسلمين	219، 220
3- إصلاح الأزهر	220- 223
4- ثمرات إصلاح الأزهر	223
5- الأوضاع التّعليمية السّائدة في الأزهر وإصلاحاته فيه	223- 226
6- مقاومة الأزهر للاستعمار الأوروبي	226
7- محاولات تحييد الأزهر عن رسالته	226، 227
ثانيا: القضاء	227، 228
ثالثا: المحاكم الشّرعية	228- 230
رابعا: مدرسة القضاء الشّرعي	230، 231
الفرع الثّاني: المدارس النّظامية	231
أوّلا: مدرسة دار العلوم	231
1- التّعريف بدار العلوم	231، 232
2- مراحل مدرسة دار العلوم	232، 233
3- إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه في دار العلوم	233- 236
4- لائحة مقترحات الشّيخ محمّد عبدَه إلى اللورد كرومر لإصلاح دار العلوم	236، 237
ثانيا: مدرسة الألسن	237، 238

1- التّعريف بمدرسة الألسن	238
2- تدريس الشّيخ محمّد عبدَه في دار الألسن وإصلاحاته فيها	238، 239
ثالثا: المدرسة السّلطانية	239
1- تأثير دروسه فيها على مختلف الطّوائف في بيروت	239
2- جهوده الإصلاحية في المدرسة وآثارها والمواقف منه	239- 241
3- الكتابة والتّأليف والدّعوة إلى وحدة الأمّة	241
الفرع الثّالث: مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية	241، 242
أوّلا: النّفوذ الأجنبي والجمعيات الخيرية الأجنبية	242
ثانيا: تأسيسه للجمعية الخيرية الإسلامية وإصلاحاته التّربوية فيها	243، 244
ثالثا: أهداف الجمعية الخيرية الإسلامية ووسائل تحقيقها	244
1- أهداف الجمعية الخيرية الإسلامية	244، 245
2- وسائل الشّيخ محمّد عبدَه لتحقيق أهداف الجمعية	245- 246
رابعا: جهود الشّيخ محمّد عبدَه في الجمعية	246
1- تربية وتعليم وإعانة أبناء فقراء المسلمين	246- 248
2- الزّيادة في موارد الجمعية	248
خامسا: معوّقات عمل الجمعية	248، 249
سادسا: الجمعيات التي أسهم الشّيخ في تأسيسها	249
1- جمعية المقاصد الخيرية	249
2- جمعية المساعي الخيرية	249
3- جمعية التّقريب بين الإسلام والمسيحية	249، 250
4- جمعية العروة الوثقى	250
5- جمعية إحياء الكتب العربية	250
الفرع الرّابع: الأوقاف والمساجد	251
أوّلا: الأوقـــاف	251
1- رصده رواتب شيوخ الأزهر مِنَ الأوقاف	251
2- إنشاؤه المدارس وتمويلها مِنَ الأوقاف والتّصدّي لسياسة الاستعمار التّجهيلية	251- 235
ثانيا: المساجد	253
1- أساليبه في إصلاح المساجد	253- 255
أ)- الخطابة	255
ب)- الوعظ والإرشاد	255
ت)- تدريس التّفسير	256، 257

2- إصلاح اختلالات المساجد المادّية والمعنوية	257
أ)- إصلاح الاختلالات المادية	257، 258
ب)- إصلاح الاختلالات المعنوية	258- 260
المطلب الثّاني: التّأليف والصّحافة	260
الفرع الأوّل: التّأليف	261
أوّلا: مؤلّفاته	261- 263
ثانيا: مؤلّفاته في التّفسير	263
1- تفسير القرآن الحكيم الشّهير بتفسير المنار	263 - 265
2- تفسير جزء عمَّ	265، 266
3- تفسير سورة العصر	266
4- منهجه في تفسير القرآن الكريم	266- 270
ثالثا: مؤلّفاته في العقيدة والأديان	270
1- رسالة التّوحيد	270- 272
2- الإسلام والنّصرانية مع العلم والمدنية	273، 274
3- الإسلام بين العلم والمدنية	274- 276
ثالثا: مؤلّفاته في الفقه(الفتاوى)	276
1- المصادر الجامعة لفتاوى الشّيخ محمّد عبدَه	276، 277
2- بعض فتاويه	277، 278
3- منهجه في الفتوى	278، 279
4- بعض المواقف مِنْ فتاويه	279، 280
رابعا: كتاباته في الإصلاح التّربوي	280
1- لوائح إصلاح التّربية والتّعليم	280، 281
أ)- لائحته لإصلاح التّعليم العثماني	281- 283
ب)- لائحته لإصلاح القطر السّوري	283، 284
ت)- لائحته إلى اللورد كرومر لإصلاح التّربية والتّعليم في القاهرة	284، 285
2- إصلاح اللغة العربية	286، 287
أ)- كتب اللغة العربية	287
ب)- المطبوعات والمكتبات	288، 289
الفرع الثّاني: الصّحافة	289
أوّلا: جريدة العروة الوثقى	289- 291
ثانيا: مجلّة المنار	292

ثالثا: جريدة الأهرام	293، 294
رابعا: جريدة الوقائع المصرية	294، 295
1- أهمّ مقالات الشّيخ محمّد عبدَه في جريدة الوقائع المصرية	295- 297
2- الأفكار التّربوية التي دعا إليها الشّيخ محمّد عبدَه في كتاباته الصّحفية	297- 307
المطلب الثّالث: الحوارات والمناظرات والمراسلات	308
الفرع الأوّل: الحوار والمناظرة	308
أوّلا: حواره ومناظرته لبعض شيوخ الأزهر	309
1- حواره مع الشّيخ محمّد البحيري	309
2- حواره مع الشّيخ عبد الرّحمن الشّربيني	309، 310
3- حواره مع الشّيخ محمّد علِّيش	310، 311
ثانيا: حواره ومناظرته لبعض المفكّرين والسّاسة العرب والغربيين	311
1- حواره مع بعض المفكّرين العرب	311
* فرح أنطون	311- 313
2- حواره مع بعض المفكّرين والسّاسة الغربيين	313
أ)- جابراييل هانوتو	313- 315
ب)- أرنست رينان	315، 316
ت)- اللورد هرتنكتون	317، 318
الفرع الثّاني: المراسلات	318، 319
أوّلا: مراسلاته بصفته نائبا في جمعية العروة الوثقى	319
ثانيا: مراسلاته خلال رحلاته وأسفاره السريّة	320
1- رسالته خلال رحلته السريّة إلى مصر	320
2- رسالته خلال رحلته السريّة إلى تونس	320، 321
ثالثا: رسائله إلى رجال الدّين والعلم الغربيّين	321
1- رسالته إلى إسحاق تيلر	321، 322
2- رسالته إلى ليون تولستوي	322، 323
3- رسالته إلى ولفرد بلنت	323- 325
المبحث الثّالث: مجالات الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه	326
تمهيد	327
المطلب الأوّل: مجال السّياسات التّعليمية	328
الفرع الأوّل: إلزامية ومجانية وتعميم التّعليم	328- 330
الفرع الثّاني: أولوية التّعليم النّوعي على التّعليم الكمّي	330- 332

الفرع الثّالث: وضع أهداف الإصلاح التّربوي	332
أوّلا: الجمع بين المصلحة الخاصّة والمصلحة العامّة	332
ثانيا: تحقيق الوحدة الثّقافية	332
ثالثا: تحقيق الإنتاج وتطويره	333
الفرع الرّابع: حماية هوية الأمّة مِنَ المؤثّرات الأجنبية	333- 335
المطلب الثّاني: مجال الكفاءات والممارسات التّعليمية	335، 336
الفرع الأوّل: الكفاءات التّعليمية	336
أوّلا: تحدّيه لواقع غياب الكفاءات العلمية	336، 337
ثانيا: سعيه لإيجاد الكفاءات التّربوية المطلوبة	337، 338
ثالثا: متابعته الميدانية لمدى تنفيذ إصلاحاته التّربوية	338
الفرع الثّاني: الممارسات التّعليمية	338، 339
أوّلا: استحكام أمراض القلوب والتّحجّر الفكري	339، 340
ثانيا: اعتماد التّربية الإسلامية في الإصلاح التّربوي	340، 341
الفرع الثّالث: موقف السّلطة والاستعمار مِنْ إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية	341، 342
المطلب الثّالث: مجال المقرّرات والطّرائق التّعليمية	343
الفرع الأوّل: تقرير مواد التّعليم للتّكوين العلمي والنّفسي	343، 344
الفرع الثّاني: أسس التّدريس وطرائقه	344
أوّلا: حثّ المتعلّمين على إعمال العقل والتّفكير والبُعد عن الحفظ والتّلقين	344، 345
ثانيا: تربية المتعلّمين على الجمع بين النّظرية والتّطبيق	345
ثالثا: تربية المتعلّمين على استثمار الواقع المعيش	345
رابعا: المرونة ومراعاة الفروق الفردية بين المتعلّمين	345، 346
الفرع الثّالث: المواصفات الضّرورية للقائمين على العملية التّربوية	346، 347
أوّلا: المواصفات الخُلقية	347
ثانيا: المواصفات المهنية	347، 348
ثالثا: المواصفات النّفسية	348
الفرع الرّابع: تحديد المقرّرات والطّرائق التّربوية المعتمدة في التّعليم	348، 349
المطلب الرّابع: مجال المؤسّسات التّربوية التّعليمية	349، 350
الفرع الأوّل: جامع الأزهر الشّريف	350
إصلاح الأزهر	350- 353
الفرع الثّاني: المدارس التّعليمية المصرية	353
أوّلا: المدارس الأميرية	353، 354

ثانيا: الكتاتيب الأهلية	354، 355
ثالثا: المدارس الابتدائية	355
رابعا: المدارس الثّانوية	355، 356
خامسا: المدارس التّجهيزية والمدارس العالية	356
سادسا: مدرسة دار العلوم	356- 358
سابعا: مدرسة دار الألسن	358
الفرع الثّالث: المدارس التّعليمية غير المصرية	358
أوّلا: المدرسة السّلطانية	358- 360
ثانيا: المدارس الأجنبية	360، 361
المبحث الرّابع: خصائص الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه	362
تمهيد	363
المطلب الأوّل: الأصالة والمعاصرة والاجتهاد والتّجديد	364
الفرع الأوّل: الأصالة والمعاصرة	364- 366
الفرع الثّاني: الاجتهاد والتّجديد	366، 367
المطلب الثّاني: الشّمول والتّكامل	368
الفرع الأوّل: الجمع بين التّربية المعنوية والتّربية المادية	368، 369
الفرع الثّاني: الجمع بين التّربية الفردية والتّربية الجماعية	369
الفرع الثّالث: تمكين المرأة مِنَ التّربية والتّعليم	369- 371
الفرع الرّابع: الدّعوة إلى تعلّم العلوم التّقليدية والعصرية	371
الفرع الخامس: الجمع بين الإصلاح التّربوي والإصلاح السّياسي	371- 373
الفرع السّادس: تمكين أبناء الفقراء مِنَ التّربية والتّعليم	373، 374
الفرع السّابع: السّعي لإنشاء الجامعة الأهلية المصرية	374، 375
المطلب الثّالث: الواقعية والموضوعية	375
الفرع الأوّل: توافق إصلاحاته التّربوية مع علم التّربية الحديث	375، 376
الفرع الثّاني: إشادته بتسامح الإنجليز مع المسلمين	376- 378
الفرع الثّالث: جمعه بين الإصلاح النّظري والإصلاح التّطبيقي	378، 379
المطلب الرّابع: الوسطية والمرونة والبساطة	379
الفرع الأوّل: الوسطية	379- 381
الفرع الثّاني: المرونــة	381، 382
أوّلا: تعلُّمه للّغات الأجنبية وتعليمُها	382، 383
ثانيا: استثماره لعلاقاته الشّخصية في الإصلاح التّربوي	383

ثالثا: مودّته للمخالفين له في العقيدة الإسلامية	383، 384
الفرع الثّالث: البساطـة	384، 385
المطلب الخامس: ترسيخ قيم المواطنة والاتّحاد والتّعاون	385
الفرع الأوّل: تربية الأمّة على الوطنية وحبّ الوطن	385- 387
الفرع الثّاني: الدّعوة إلى الاتّحاد والتّعاون والتّآلف	387، 388
الفرع الثّالث: توحيد نظم التّعليم لتحقيق الوحدة الثّقافية	388، 389
الفصل الثّالث: مخرجات إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية	390
تمهيد	391
المبحث الأوّل: المخرجات الإيجابية	392
تمهيد	393
المطلب الأوّل: آليات الإصلاح التّربوي	394
الفرع الأوّل: التّركيز على التّعليم واقتناص الفرص السّياسية لتحقيق التّقدّم	394 - 396
الفرع الثّاني: توظيف الكتابة الصّحفية في انتقاد الممارسات التّعليمية المعيقة عن الإصلاح	396، 397
الفرع الثّالث: الإسهام في زيادة المؤسّسات التّربوية	397، 398
الفرع الرّابع: تسخير مختلف المجالات والمناصب في الإصلاح التّربوي	398، 399
الفرع الخامس: تكوين اللّجان وعقد المؤتمرات وإنشاء مؤسّسات الطّباعة	399
الفرع السّادس: تكوين متخصّصين تربويّين وإيفاد بعثات إلى الخارج للتّكوين	399، 400
الفرع السّابع: تمويل قضايا التّربية ومكافأة المدرّسين لتجسيد الإصلاح	400، 401
المطلب الثّاني: طرائق ومقرّرات التّدريس	401
الفرع الأوّل: تدوين العلوم والمعارف	401، 402
الفرع الثّاني: التّرويح على المتعلّمين	402
المطلب الثّالث: بعض روّاد الإصلاح التّربوي	402، 403
الفرع الأوّل: محمّد رشيد رضا الشّامي	403، 404
الفرع الثّاني: محمّد الطّاهر بن عاشور التّونسي	404، 405
الفرع الثّالث: عبد الحميد بن باديس الجزائري	405- 407
الفرع الرّابع: شُهرة الشّيخ محمّد عبدَه العالمية	407- 409
المطلب الرّابع: المدارس الإصلاحية المصرية	409، 410
الفرع الأوّل: المدرسة الاجتماعية	410، 411
الفرع الثّاني: المدرسة الدّينية	411
الفرع الثّالث: المدرسة الفلسفية	411، 412

الفرع الرّابع: المدرسة السّياسية	412
المطلب الخامس: تأثير إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية في العالم	412
الفرع الأوّل: بلاد الشّام	412
أوّلا: سوريـــا	413
ثانيا: لبنـــان	413، 414
الفرع الثّاني: بلدان المغرب العربي	414
أوّلا: الجزائـــر	414- 416
ثانيا: تونـــس	417، 418
ثالثا: المغرب الأقصى	418
الفرع الثّالث: بعض الدّول الأسيوية	418، 419
أوّلا: تركيـــا	419
ثانيا: إيـــران	419
ثالثا: الهنـــد	420
رابعا: إندونيسيا	420
المبحث الثّاني: المخرجات السّلبية	421
تمهيد	422
المطلب الأوّل: سلبيات إصلاحات الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية	423
الفرع الأوّل: الاستنصار السّلبي	423، 424
الفرع الثّاني: النّزوع إلى التّراتيب الإجرائية على حساب الإصلاح الجوهري	424
الفرع الثّالث: الإنتاج القِيَمِي والعلمي والصّناعي الباهت	425
الفرع الرّابع: حصر خطاب الإصلاح في النّخبة دون الجماعة وفي العقل دون الوجدان	426
الفرع الخامس: تغليب الإصلاح التّربوي على إصلاح المجالات الأخرى	426- 428
المطلب الثّاني: إفراط بعض تلامذة الشّيخ محمّد عبدَه في التّحرّر	428
* قاسم أمين خرّيج مدرسة الشّيخ محمّد عبدَه يدعو إلى التّحرّر	428- 431
المطلب الثّالث: استعانته بالاستعمار ودنوّه مِنْ قيمه التّغريبية	431
الفرع الأوّل: مهادنة الاستعمار والتّعاون معه	431، 432
الفرع الثّاني: تمييع الفكر الإسلامي للتّقرّب مِنَ القيم الغربية	432- 434
المطلب الرّابع: دعوته إلى وحدة الأديان ودخوله في المحافل الماسونية	434
الفرع الأوّل: الدّعوة إلى التّقريب بين الأديان وتوحيدها	434، 435
الفرع الثّاني: دخوله في المحافل الماسونية	436- 437
• **الخاتمة**	439- 441

• **قائمة المصادر والمراجع**	443- 455
• **الفهارس العامّة**	456
أوّلا: فهرس الآيات القرآنية	457 - 461
ثانيا: فهرس الأحاديث النّبوية	462، 463
ثالثا: فهرس الأعلام المترجم لهم	464 - 466
رابعا: فهرس الموضوعات	468 - 483
• **الملخّصـات**	484
أوّلا: الملخّص باللغة العربية	485، 486
ثانيا: الملخّص باللغة الإنجليزية	487، 489
ثالثا: الملخّص باللغة الفرنسية	490، 493

الملخّصات

أوّلا: الملخص باللغة العربية

الكلمات المفتاحية: الإصلاح، التّربية، التعليم، الإصلاح التّربوي.

تعالج الأطروحة بحثا بعنوان: **"الإصلاح التّربوي عند الشّيخ محمّد عبدَه"**؛ وقد قسّمته إلى مقدّمة وفصل تمهيدي وثلاثة فصول وخاتمة، عرّفت بالموضوع في المقدّمة وحدّدت إشكاليته وأسباب اختياره وأهميته وأهدافه والمنهج الذي اتّبعته في دراسته ومنهجية بحثه، والدّراسات السّابقة عنه والخطّة التي اتّبعتها في إعداده، ثمّ بيّنت مفاهيم الدّراسة المحورية في الفصل التّمهيدي؛ كمفهوم الإصلاح الذي جاء بسبب استشراء الفساد، وأوضحت مفهومَيْ التّربية والإصلاح التّربوي الذي أعطاه الشّيخ محمّد عبدَه الأولوية على بقية المجالات الأخرى وجَعَلَه أساس رسالته في الإصلاح.

وتتجلّى أهمّية الموضوع في تحمّل الشّيخ محمّد عبدَه رسالة الإصلاح التّربوي التي دفعته إليه أوضاع الأمّة المتردّية، وجعله مِنَ أولويات النّهوض بأمّته وتحريرها مِنَ الجهل والتّخلّف، وتربيتها وتعليمها وتوعيتها لجعلها في مصاف الأمم المتقدّمة.

تطرّقت في الفصل الأوّل إلى حياة الشّيخ محمّد عبدَه مفصّلة وإلى الأحوال السّياسية والدّينية والاجتماعية والاقتصادية والتّربوية والفكرية السّائدة في عصره، وإلى الدّواعي الدّاخلية والخارجية التي جعلته يحسم أمره في التّوجّه إلى الإصلاح التّربوي والتّركيز عليه دون غيره مِنَ المجالات الأخرى.

ثمّ خصّصت الفصل الثّاني للحديث عن منهج الشّيخ محمّد عبدَه في الإصلاح بعرض المصادر التي اعتمدها في إصلاحاته التّربوية وجعله الأولوية للقرآن الكريم وللسنّة النّبوية دون أنْ يغفل العلوم العقلية والإنسانية والتّجارب الإنسانية العربية والغربية التي استأنس بها في تنفيذها، كما ذكرت وسائله في الإصلاح التّربوي التي ركّز فيها على المؤسّسات التّربوية والدّينية وعلى رأسها جامع الأزهر الشّريف والمدارس النّظامية، وكذا الجمعيات الخيرية ومؤسّسة القضاء، فقام بإصلاح ما فيها مِنِ اختلالات ثمّ اعتمادها في التّربية والإصلاح، كما وظّف في ذلك التّأليف في مختلف التّخصصات الهامّة والكتابة في أشهر الصّحف والمجلاّت المصرية كالوقائع المصرية والأهرام وجريدة العروة الوثقى والمنار، وتواصله مع المفكّرين والسّياسيين العرب والغربيين المخالفين له، ومحاورته لهم ومناظرتهم ومراسلتهم لتجسيد إصلاحاته التّربوية، كما تناولت مجالات الإصلاح المتمثّلة في السّياسات والكفاءات والممارسات والمقرّرات والطّرائق والمؤسّسات التّربوية والتّعليمية التي استخدمها في إصلاحاته التّربوية، ليختم الفصل بالحديث عن أهمّ خصائص إصلاحاته التّربوية التي جعلها تلقى هذا الاهتمام مِنَ الدّراسة والتّقييم والتّقويم؛ كالأصالة والتّجديد والمعاصرة والتّكامل والشّمول والواقعية والموضوعية والوسطية والمرونة والبساطة، في حين تمّ تخصيص الفصل الثّالث والأخير لتقييم تجربة الإصلاح التّربوي للشّيخ محمّد عبدَه في مبحثين، فكان الحديث عن أهمّ المخرجات الإيجابية والتي كانت على مستوى آليات الإصلاح التّربوي والمتمثّلة في التّركيز على التّعليم واقتناص الفرص السّياسية لما لها مِنْ سطوة في التّنفيذ، واستخدامه للكتابة الصّحفية في انتقاد الممارسات المعيقة عن الإصلاح لتحقيق التّقدّم، وقيامه بإنشاء المزيد مِنَ المؤسّسات التّعليمية للإسهام بها في التّعليم والتّوعية والتّثقيف والإصلاح،

واستغلاله الإيجابي للمناصب التي تقلّدها في التّربية والإصلاح، بالإضافة إلى عقده للنّدوات العلمية وتكوينه متخصّصين تربويين وإيفاد البعثات العلمية للتّكوين في الخارج للرّفع مِنْ مستوى المربّين لتحقيق تكوين نوعي للمتعلّمين وتجسيد الإصلاح التّربوي المنشود، بالإضافة إلى إصلاحه لطرائق التّعليم ومقرّرات التّدريس، وإقرار العلوم والمعارف المفيدة، وقيامه بالتّرويح على المتعلّمين لترغيبهم أكثر في طلب العلوم والمعارف وعدم تنفيرهم منها، الأمر الذي نتج عنه تكوين مصلحين يرفعون راية الإصلاح التّربوي ويكملون مسيرة الشّيخ محمّد عبدَه التّربوية أمثال: محمّد رشيد رضا في بلاد الشّام ومحمّد الطّاهر بن عاشور وعبد الحميد بن باديس في بلاد المغرب العربي، ووصول تأثيراته الإيجابية إلى خارج بلاد العرب، وأمّا المخرجات السّلبية لإصلاحاته التّربية؛ فتمثّلت في جنوحه للاستنصار السّلبي بالاستعمار البريطاني ولجوئه إليه واستعانته به واتّقاء شرّه، ودنوّه مِنْ قيمه التّغريبية بنيّة الاستفادة منها، لكنّه بموقفه ذلك أعطاه الشّرعية لاحتلال مصر، كما غلّب الإصلاحات الشّكلية على حساب الإصلاحات الجوهرية التي نجم عنها عدم تجسيده للإصلاحات التّربوية المرجوّة، وأيضا قلّة الإنتاج العلمي والصّناعي الذي برع فيه الغرب وتمكّن به مِنَ التّغلب على المسلمين والسّيطرة عليهم وإخضاعهم لسلطانه، وكذا إفراطه في الإصلاح التّربوي وتفريطه في الميادين الحيوية الأخرى، وعدم سعيه لتحقيق التّوازن بينها، وما زدا الطّين بلّة دخوله إلى المحافل الماسونية وانخداعه بشعاراتها البرّاقة، ودعوته إلى التّقريب بين الأديان حتّى برز بسببه مَنْ يدعو إلى توحيدها.

وخلصت في الخاتمة إلى جملة مِنَ النّتائج كان مِنْ أهمّها؛ ضرورة اعتماد منهج البناء التّراكمي وكلّ ما هو صالح للعمل به في الإصلاح التّربوي، وعدم اتّباع منهج الإلغاء لكلّ ما هو قديم أو تقليدي، وتلقّف كلّ ما هو وافد بالارتماء في أحضان الحضارة الغربية وإفرازاتها المادية والمعنوية المخالفة لهوية الأمّة العربية والإسلامية، وبضرورة تفعيل عمل العقل المتنوّر في القيام برسالة الإصلاح، وأنّ الإصلاح ضرورة دورية ومتجدّدة لصناعة الإنسان الرّاشد الواعي الذي به يمكن النّهوض بالأمّة والارتقاء بها إلى مصافّ الأمم المتقدّمة، والسّعي بجدّ لإعداد مربّين ومعلّمين وإداريين؛ نفسيا وأخلاقيا وعلميا ووظيفيا للاضطلاع بمهامّهم التّربوية والإصلاحية برساليةٍ ومهنيةٍ في المؤسّسات التّربوية وفي مختلف مؤسّسات المجتمع الأخرى، والتّأكيد على أنّ الإصلاح التّربوي سبيل ناجع لإصلاح الاختلالات الموجودة في المجالات والمؤسّسات الأخرى، وأنّ أساس نجاح الإصلاح التّربوي في المجتمعات العربية والإسلامية هو ارتكازه على الدّين الإسلامي، وأنّ نهضة الأمّة وتقدّمها متوقّف على إحداث التّكامل بين التّربية وبقية المجالات والمؤسّسات والهيئات الأخرى، كما ينبغي أنْ يشمل الإصلاح التّربوي جميع أطياف وشرائح المجتمع، الذين يجب تلقينهم مختلف العلوم التّقليدية والعصرية المهمّة النّافعة لهم ولمجتمعهم، وفي التّوصيات دعوت إلى ضرورة الاهتمام بالتّربية وإعطائها الأولوية؛ بتكوين متخصّصين في الإصلاح التّربوي على يد متخصّصين أكْفاء، ثمّ أوصيت الباحثين بضرورة إبراز جهود المصلحين التّربويين الجزائريين؛ بدراستها وتقييمها وتقويمها وتطويرها والاستفادة منها لإيجاد تربية ناجحة، وإعطائها الأولوية على بقية المجالات الأخرى، مع ضرورة التّكامل بينها لإنجاحها ومِنْ ثمَّ النّهوض بالأمّة وتحقيق التّقدّم لها.

ثانيا: الملخص باللغة الإنجليزية

Abstract (English)

Key words : reform, education, the educational reform

This study treats a research titled; "the educational reform for Mohamed Abdou" which is planned as follows; an introduction, a preliminary research, three chapters and a conclusion. The topic was defined in the introduction part, the reasons of chose, its importance and goals, the method followed during the research and the former related studies, as well as the plan approved in the research , and the concepts of pivotal study were shown in the preliminary research, as the concept of reform that is due to corruption spread, as well as explaining both concepts of education and educational reform given by Mohamed Abdou as he gave the later a huge significance more than any other domain in his study.

The significance of this study appears in the message of educational reform carried by Mohammed Abdou as he gives the priority in order to release the Arabic nation from the restrictions of underdevelopment and ignorance, and push it to be more developed, cultivated, and well educated nation, thus making this educational reform a practical answer of the problematic proposed in this study.

In the first chapter, the focus was on the life of Mohammed Abdou in details, taking into account the political, religious, social, economic, educational, and conceptional situations he was surrounded by during his era, and the intrinsic and extrinsic reasons, which directed him to focus on the educational reform rather than other domains.

The second chapter is specified to talk about the method that was followed by Mohamed Abdou, showing the resources adopted in this study, in which "Quran" and "Sunna" are given a top priority with taking into account the pedagogical and humanistic sciences, foreign and Arabic attempts he relied on in this study, as well as mentioning the ways of educational reform in which he focused on the educational and religious institutions such as the mosque of "Al azhar" in Egypt, and the educational schools, in addition to charitable associations and legal institutions, as he fixed some perturbations and applied them in the sense of educational reform, in addition to that he relied on the different published resourses such as newspapers taking for instance "Al wakaia" an Egyptian newspaper, "Al ahram", "Al hora", "Al wothqua", "Al oroa" and "Al manar, moreover he get attached to many Arabic and foreign thinkers and politics and debating and messaging them

to illustrate his educational reforms, furthermore the study treats the different domains of educational reform in terms of policies and competences, practices, methods, programs and the educational institutions he used in his process of research , to end this chapter with the main characteristics of his educational reforms in which he gave a huge importance to the part of evaluation in terms of; renaissance, originality, contemporary, integration, objectivity, mediocrity, flexibility, simplicity. While the third chapter is specified to value the attempt of educational reform for Mohamed Abdou planned in two proposals, first the positive aspects on the level of educational reform, more precisely the focus on education and taking political opportunities as it is powerful in the sense of application, the use of media especially magazines as a way of criticism to many perturbations in the field in order to move forward development, establishing more educational institutions for the sake of raising awareness for cultivation and reform, in addition to making scientific seminars and making formations for educational specialists and sending scientific missions for foreign formations to enhance the level of the targeted educational reform, furthermore the renew of teaching methods and curriculum to motivate them more towards learning, the later resulted in the appearance of many other reformers which were meant to carry on the mission of Mohamed Abdou educational reform taking for instance; "Mohammed Rashid Redha" in Bilad Esham, "Mohamed Taher Ben Achour" ,and "Abd Elhammid Ibn Badis" and his positive effects that reached the Arabic world. in the other hand there were some negative aspects in this educational reform such as; asking for the help of British colony and approaching his alien values to get benefit from, but by doing this he gave it the legality to colonize Egypt, in addition to that he focused on the external reform rather than intrinsic one which make a bridge towards establishing the targeted educational reform, moreover the low scientific and industrial productivity which was in turn the powerful point of western countries which submit the Islamic nation under its authority, as well as focusing on the educational reform despite other vital and important domains which resulted in the misbalance between them, without denying the fact that he entered masonic forums and calling for the approachement between religions which caused the appearance of masonic callers.

In the conclusion, there were some gained results sat as follows; in the first place the need to follow the cumulative construction method without neglecting traditional and old ones, in the second place the necessity to grab what is brought from the western civilizations

and the abstract and concrete ideas that is contrast to the Arabic and Islamic identity , in the third place the need to use the enlightened mind within the process of educational reform, and that the educational reform is a necessary renewable cycle to make a sane and aware human that can guide the nation into innovation and prosperity, in the fourth place working hard to form educators, teachers, administrators psychologically, ethically, scientifically, and practically to do their educational missions in a professional way within educational institution and other institutions, making sure that the educational reform is an effective way to renew many perturbations in many domains and establishments, and that the key for a successful educational reform in the Arabic and Islamic society is based on the Islamic religion, and the renaissance of nations and its development lies on the balance between education and other vital domains, in addition to the necessity to the inclusion of all the community layers, who should be taught different significant traditional, and modern sciences which are beneficial for them and their society. And within recommendation part there was a call to the necessity of giving importance to education and the priority to form specialists in the educational reform under the hands of professionals in the field, moreover the necessity of researchers to show the efforts made by Algerian educational reformers by studying, valuing, evaluating, and promoting to get benefit from thus reach a successful educational method, as well as giving it a priority and make the balance with other important domains in order to realize the targeted success thus realizing nations renaissance and development.

ثالثا: الملخص باللغة الفرنسية

Le resume en Langue francaise

Les mots clés : réforme , l'éducation, La réforme éducative

Cette thèse traite une recherche intitulée « La réforme éducative chez Cheikh Mohammad Abdo », que j'ai divisé en une introduction, un sujet d'introduction, ainsi que quatre chapitres et enfin une conclusion.

Tout d'abord dans l'introduction J'ai définis le thème en identifiant sa problématique et en précisant les raisons de mon choix, son importance, ses objectifs, la méthode d'étude aussi la méthodologie de la recherche suivie, encore j'ai signalé a quelque études antérieures à ce sujets et le plan que j'ai suivi pour le préparer. Ensuite, les principaux concepts de l'introduction ont été expliqués dans le sujet de l'introduction, tels que le concept de la réforme issue de la corruption généralisée, j'ai également expliqué la réforme et l'éducation entant que deux concepts prioritaires qui représentent la base du message de réforme pour Cheikh Mohammad Abdo.

L'importance du sujet est évidente dans la façon dont Mohammad Abdo porte le sujet de la réforme éducative, et que la détérioration des conditions de la nation dans divers domaines étaient la raison principale qui lui a poussé a aborder ce sujet et de le classer comme l'une de ses priorités pour but de faire sortir la nation de l'ignorance et du retard, en tenant en compte son enseignement et éducation, sa culturation et sa sensibilisation afin de la mettre à niveau et la faire placer dans les rangs des pays développés. Et c'est ce qui va rassurer sa réforme éducative et lui permet de répondre à la problématique déjà posée.

La vie détaillée du Cheikh Mohammad Abdo était l'objet du premier chapitre et j'ai parlé encore des conditions politiques, religieuses, sociales, économiques, éducatives ainsi qu'intellectuelles qui prévalaient à son époque, tout en mettant la lumière sur les motifs internes et externes qui l'ont amené à choisir la réforme éducative plutôt que d'autres domaines.

Le deuxième chapitre était consacré à l'approche adoptée par Cheikh Mohammad Abdo dans la réforme en présentant les sources qu'il a employé dans ses réformes éducatives et en donnant la priorité au saint coran et à la sunnah du prophète sans autant négliger les sciences humaines et intellectuelles ainsi que les expériences humaines arabes et occidentales qu'il a utilisé pour les mettre en œuvre. J'ai également mentionné l'accent mis

par ce dernier sur les institutions éducatives et religieuses au sommet desquelles se trouve la mosquée Al Azhar Al-Sharif et les écoles ordinaires comme des moyens employés dans sa réforme éducatives en plus des associations caritatives et de l'institution judiciaire en les a rendu l'équilibre ensuite en les a adoptés dans l'éducation et la réforme. Il a encore exploité la création dans diverses disciplines importantes et en écrivant dans les journaux et magazines égyptiens les plus célèbres tels que Al Waqee 'Al Masriyya, Al-Ahram, Al Urwah-Al-Wuthqa et Al Manar. Puis j'ai signalé à sa communication, ses correspondances et ses débats avec des penseurs et hommes politiques arabes et occidentaux qui s'opposent à lui pour incarner ses réformes éducatives.

J'ai traitais en parallèle les domaines de cette réforme représentés dans les politiques, les compétences, les pratiques, les décisions, les méthodes et les établissements d'enseignement qu'il a utilisé dans ses réformes. Pour conclure ce chapitre j'ai abordé les caractéristiques les plus intéressantes de ses réformes éducatives qui l'on valu toutes ces études, valorisation et évaluation, parmi lesquelles je mentionne l'originalité, l'innovation et la contemporanéité, l'intégration l'exhaustivité, le réalisme, l'objectivité, modération flexibilité et simplicité.

Le troisième et dernier chapitre était consacré a évaluer l'expérience de la réforme éducative du Cheikh Mohammad Abdo en deux sections. L'exposé portait sur les résultats positifs les plus importants au niveau des mécanismes de réforme éducative représentaient par la concentration sur l'éducation et la saisie des opportunités politiques en raison de leur influence dans la mise en œuvre, en ajoutant qu'il a utilisé l'écriture journalistique pour critiquer les pratiques qui entravent le progrès de la réforme, il a également crée d'avantage d'établissements d'enseignement pour contribuer à la sensibilisation, à l'éducation et à la réforme. En parlant aussi sur son usage positif des postes qu'il a occupé pour aboutir au but de la réforme et l'éducation.

En plus d'organiser des séminaires scientifiques, de former des spécialistes de l'éducation et d'envoyer des missions scientifiques en formation à l'étranger pour élever le niveau des éducateurs afin d'obtenir une formation qualitative et de parvenir à la réforme éducative souhaitée, en outre ; sa réforme des méthodes d'enseignement et des décisions pédagogiques, il approuve aussi les sciences et les connaissances utiles et divertis les apprenants pour les encourager à rechercher davantage les sciences et les connaissances, il

en résulta la formation de réformateurs qui brandiraient l'étendard de la réforme éducative et complèteraient le parcours éducatif du Cheikh Mohammad Abdo, on mentionne comme exemple Mohammad Rachid Rida au Levant et Mohammad Al-Taher Bin Ashour et Abdul Hamid Bin Badis aux pays du Maghreb Arabe et l'arrivée de son influence positive en dehors des pays arabes.

Quand aux résultats négatifs de ses réformes éducatives, ils se traduisent par : sa tendance négative à soutenir le colonialisme britannique et son recours à celui-ci en cherchant son aide ainsi que son approche à l'occidentalisation des valeurs avec l'intention d'en bénéficier. Cette position lui a donné une légitimité d'occuper l'Egypte, en plus de donner la priorité aux réformes formelles au détriment des réformes fondamentales, ce qui a entravé la concrétisation des réformes éducatives souhaitées. En outre, le manque de production scientifique et industrielle dans laquelle l'occident excellait et était capable de vaincre, contrôler et subjuguer les musulmans, ainsi que la réforme éducative excessive en négligeant d'autres domaines vitaux et l'incapabilité de créer un certain équilibre entre eux. Et ce qui a aggravé encore la situation c'est son entrée dans les loges maçonniques qui lui a trompé par leurs slogans pétillants. Il a également appelé au rapprochement des religions ce qui a provoqué l'émergence d'un groupe réclamant leur unification.

Quant a la conclusion, je me suis conclu à un certain nombre de résultats dont le plus important était la nécessité d'adopter l'approche de construction cumulative et de tout ce qui se prête au travail de réforme éducative et de négliger en même temps l'approche d'abolition pour tout ce qui est ancien ou traditionnel. Et filtrer tout ce qui vient d'adopter les principes de la civilisation occidental et ses sécrétions matériels et morales qui se contredisent à l'identité de la nation arabe et islamique, et l'obligation d'activer le travail de l'esprit éclairé dans la réalisation du processus de réforme, et que cette dernière soit considérée comme un besoin périodique et renouvelle pour réussir à construire un être adulte et conscient qui constitue un pilier dans la progression de la nation et son élévation au rang des pays développés.

Et s'efforcer à préparer les éducateurs, enseignants et administrateurs psychologiquement, éthiquement, scientifiquement et fonctionnellement afin de mener à bien leurs taches de réforme et d'éducation de manière missionnaire et avec professionnalisme que se soit dans les établissements d'enseignement ou dans diverses

autres institutions de la société. En soulignant que la réforme éducative est un moyen efficace pour résoudre les déséquilibres qui existent dans d'autres domaines et institutions et que la religion islamique représente la base de réussite pour cette réforme dans les sociétés arabes et islamiques, ajoutant que la renaissance et le progrès de la nation dépendent de l'intégration entre l'éducation et d'autres domaines, institutions et organismes. Et cette réforme éducative devrait également inclure tous les spectres et segments de la société, ces derniers doivent acquérir toutes les sciences traditionnelles et modernes bénéfiques pour eux et encore pour leurs communautés.

En ce qui concerne les recommandations, j'ai appelé à prêter une totale attention à l'éducation et à lui accorder la priorité en nommant des spécialistes qualifiés et compétents pour superviser la formation des spécialistes de la réforme, puis j'ai recommandé au chercheurs la nécessité de mettre en valeur les efforts des formateurs éducatifs algériens en l'étudiant, évaluant, évoluant et les développer et en tirer profit pour créer une éducation réussie et lui donner la priorité au détriment des autres domaines avec la nécessité de les faire intégrer pour les faire réussir d'où l'avancement de la nation et la réalisation de son progrès.